فِقهُ السِّيرَة

أ. د. زيد بن عبد الكريم الزَّيد

المُجلَّد الأوَّل



فقه السيرة

فقه السيرة

مختصر

أ.د. زيد بن عبد الكريم الزيد

أستاذ الفقه المقارن

عميد المعهد العالي للقضاء بالرياض سابقًا

المجلد الأول

ح شركة آفاق المعرفة للنشر والتوزيع، ١٤٤٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الزيد، زيد بن عبد الكريم

فقه السيرة./ زيد بن عبد الكريم الزيد - الرياض، ١٤٤٤هـ.

٧٠٠ص؛ ١٧× ٢٤ سم

ردمك: ٢-٧-٩١٨٨٨-٦٠٣-٩٧٨

١ - السيرة النبوية

أ. العنوان

ديوي ٢٣٩ ٨٧٦/ ١٤٤٤

رقم الإيداع: ٨٧٦/ ١٤٤٤

ردمك: ٢-٧-٩١٨٨٨-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الثالثة عشرة للكتاب

الطبعة الأولى لـ (آفاق المعرفة)

(مزيدة ومنقحة)

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م


بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب ليس للمتعة، إنما اجتهدت فيه لأمرين:

الأول: لعل القلب يتقوّىٰ في محبة المصطفىٰ ﷺ، وهذا محور الكتاب كله.

الثاني: لعل السلوك يترقىٰ بالتأسي بالرسول ﷺ.

فإن لم يتحقق شيء من هذين الأمرين فالوقت ضائع، وثمن الكتاب خسارة.

فأرجوك أعنِّي علىٰ تحقيق المزيد من المحبة وترقّي السلوك.

المقدمة

إن الحمد لله؛ نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.. أما بعد:

فيقول ابن سبط رسول الله ﷺ علي بن الحسين رضي الله عنهما: (كنا نُعلِّم مغازي النبي ﷺ كما نُعلِّم السورة من القرآن)(١).

ويقول الإمام الزهري - رحمه الله تعالىٰ- (٢): (في علم المغازي علم الآخرة والدنيا)(٣).

ويقول ابن الجوزي -رحمه الله تعالىٰ-: (رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب؛ إلا أن يُمزَج بالرقائق والنظر في سِيَر السلف الصالح)(٤).

ويقول سفيان بن عيينة -رحمه الله تعالىٰ-: (عند ذِكْر الصالحين تنزل الرحمة)(٥).

---

(١) الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، (٢/ ٢٥٢).

(٢) وقد قال رزق الله التميمي الحنبلي -رحمه الله- (ت ٤٨٨هـ) في سير أعلام النبلاء (١٨/ ٦١٣): «يقبح بكم أن تستفيدوا منا ثم تذكرونا ولا تترحموا علينا»، وقد حرصت على الترضي والترحم على مَن نقلت منه من سلفنا وعلمائنا، ولو تكرر ذِكْره مرارًا.

(٣) الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٢٥٢).

(٤) ابن الجوزي، صيد الخاطر، عناية حسن المساحي سويدان، الطبعة الأولى (دمشق: دار القلم ١٤٢٥)، (ص ٢٩٢).

(٥) أبو نعيم، الحلية (٧/ ٢٨٥).

وفي مقدمة سِيَر السلف الصالحين، وتاجها، وعلىٰ رأسها سيرة رسولنا ﷺ.

ويصف عُبيد الله بن عتبة –رحمه الله تعالىٰ– مجلس ابن عباس –رضي الله تعالىٰ عنهما– للحديث عن السيرة، فيقول: (ولقد كنا نحضر عنده فيُحدّثنا العشية كلها في المغازي)، وكان ابن عباس –رضي الله تعالىٰ عنهما– قد خصَّص جزءًا من يومه لتدريس المغازي[١].

ويقول ابن حزم –رحمه الله تعالىٰ–: (إن سيرة محمد ﷺ لمن تدبَّرها تقتضي تصديقه ضرورة، وتشهد له بأنه رسول الله ﷺ حقًّا، فلو لم تكن له معجزة غير سيرته ﷺ لكفىٰ)[٢].

ويقول ابن القيم –رحمه الله تعالىٰ–: (ومن هنا تعلم اضطرار العبد فوق كلّ ضرورة إلىٰ معرفة الرسول ﷺ وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلىٰ السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ إلا علىٰ أيدي الرسل... وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ؛ فيجب علىٰ كل مَن نصح نفسه وأحبّ نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مُقِلّ ومستكثر ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم)[٣].

ويقول ابن كثير –رحمه الله تعالىٰ– في كتابه «السيرة والشمائل»: (وهذا الفن مما ينبغي الاعتناء به والاعتبار بأمره والتهيؤ له)[٤].

(١) محمد مصطفى الأعظمي، مغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير (ص ٢٣).
(٢) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢ / ٩٠).
(٣) ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد (١ / ٦٩ – ٧٠).
(٤) ابن كثير، السيرة النبوية (من البداية والنهاية)، تحقيق مصطفى عبد الواحد (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ١٣٩٥)، (٢/ ٣٥٥).

وإن مما اختصت بهذه السيرة المباركة من بين سِيَر الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- أنها أصحّ سيرة لحياة نبيّ مُرسَل، ولم يُعرَف علىٰ مدىٰ التّاريخ البشريّ كلّه أمّة من أمم الرّسل، -عليهم الصلاة والسلام-، ولا غيرهم، سعدتْ بمثل ما جاء في القرآن الكريم عن الرّسالة والرّسول، ولا حظيتْ بمثل تلك المجموعة الثّمينة من الأحاديث النّبويّة، ذلك السّجل الخالد لسيرته-ﷺ. و(سيرة الرسول ﷺ مملوءة بالعِبَر، والعظات، والدروس، والمبادئ العظيمة، وإنا نحسب أن سيرة الرسول ﷺ وكمال عقله وخُلقه واستقامة نفسه، وسلامة ما يدعو إليه؛ كلّ ذلك في نفسه دعوة إلىٰ الإسلام في وسط غياهب الجهالة في الماضي، وهو لا يزال القوة الداعية إلىٰ الإسلام في عصرنا الحاضر، وإننا نجد بعض الناس يُسْلِمون إذا علموا السيرة النبوية، وأدركوا عقله، وبُعده عن الأوهام والخرافات التي تسود العامة، وتستهوي تفكير السذج)[١].

هذه السيرة المباركة نعمة من أجلّ وأعظم النِّعم التي أنعم الله بها علىٰ عباده؛ فقد (فتح الله بمحمد ﷺ الأعين العمي، فأبصرت بالله، والآذان الصُّم، فسمعت عن الله، والقلوب الغُلف، فعقلت عن الله، فانقادت لطاعته عقلًا وقولًا وعملًا، وسلكت سبل مرضاته ذللًا)[٢].

يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (ومن استقرأ أحوال العالم تبين له أن الله لم ينعم علىٰ أهل الأرض نعمةً أعظم من إنعامه بإرساله ﷺ)[٣].

(١) محمد الشثري، الدعوة في عهد الملك عبد العزيز -رحمه الله تعالى- (٢/ ٥٨٢)، وبعض النص نقله عن محمد أبو زهرة في كتابه (الدعوة إلى الإسلام)، (ص ٦٥).

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (المدينة النبوية: طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ١٤١٦)، (٤/ ٣٤٤ و٣٥٧)، و(١٠/ ٥٠٢)، و(٢٧/ ٣٨)

(٣) ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تحقيق علي بن حسن وزملاؤه، الطبعة الثانية (الرياض: دار العاصمة ١٤١٩) (٥/ ٨٨).

يكفي لبيان شرف هذه السيرة وصف الله -جل شأنه- لصاحبها بقوله -سبحانه تعالىٰ-: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

قال عبد الله بن سلام -رضي الله تعالىٰ عنه-: (ما خلق الله خلقًا أكرم عليه من محمد ﷺ)[١].

وجعل الله -جل شأنه- جائزة اتباعه ﷺ أن يحب اللهُ -جل شأنه-من اتبعه، قال -تعالىٰ-: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣١].

وثمرة طاعته الهداية والفوز العظيم؛ قال -تعالىٰ-: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ﴾ [النور:٥٤]. وقال -تعالىٰ-: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٧١].

فـ(إنه لا أدب كأدب رسول الله ﷺ، ولا خُلق كأخلاقه؛ فمن وفَّقه الله، أعانه علىٰ أخلاقه والاقتداء به؛ ليتخلق منه بما يقدر عليه ويصل إليه، وما من أحد إلا وقد همَّ ولمَّ، فيا سعادة من اقتدىٰ به!، واستنَّ بسيرته وأخذ بطريقته، وامتلأ قلبه من محبته، في دقّ ذلك كلّه وجلّه وكثره وقله)[٢].

في سيرته وهديه ﷺ الخير كله، فـ(من أراد خير الآخرة وحكمة الدنيا وعدل السيرة، والاحتواء علىٰ محاسن الأخلاق كلها، واستحقاق الفضائل بأسرها؛ فليقتدِ بمحمد رسول الله ﷺ، وليستعمل أخلاقه وسيره ما أمكنه)[٣].

(١) ابن القيم، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، تحقيق محمد أحمد الحاج، الطبعة الأولى (جدة، دار الشامية ١٤١٦) (٢/ ٣٦٤).

(٢) العز بن عبد السلام، قواعد الحكام في مصالح الأنام، راجعه وعلق عليه طه عبد الرؤوف سعد (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية ١٤١٤)، (١/ ١٤٩).

(٣) ابن حزم، الأخلاق والسير في مداواة النفوس (بيروت: دار الآفاق ١٣٩٩)، الطبعة الثانية (ص ٢٤).

بَعْثُه رحمة؛ ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٧]. وطريقته أمان من الزيغ، ودعوته نجاة؛ ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الشورىٰ:٥٢]. وقال -جل شأنه- ﴿ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ﴾ [النمل:٧٩].

«سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول مَن ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع»[(١)].

أَحَبَّه جَبَلٌ[(٢)].

وحنَّ إليه جِذْعٌ[(٣)].

وسجد بين يديه بعيرٌ[(٤)].

(١) صحيح مسلم رقم (٢٢٧٨). قال النووي: (وهذا الحديث دليل لتفضيله ﷺ على الخلق كلهم) شرح النووي على مسلم: (١٥/ ٣٧).

(٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ ، طلع له أُحد فقال: «هذا جبل يحبّنا ونحبه» متفق عليه: صحيح البخاري (٣٣٦٧)، وصحيح مسلم (١٣٩٣).

(٣) عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما-، يقول: «كان المسجد مسقوفًا على جذوع من نخل، فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صُنِعَ له المنبر، وكان عليه، فسمعنا لذلك الجذع صوتًا كصوت العشار، حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليها فسكنت»؛ صحيح البخاري (٣٥٨٥). كان الحسن البصري -رحمه الله تعالى- إذا حدّث بهذا بكى، وقال: (يا عباد الله! الخشبة تحنّ إلى رسول الله ﷺ شوقًا إليه لمكانه؛ فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه) الشفا في التعريف بحقوق المصطفى (١/ ٣٠٥).

(٤) عن أنس بن مالك ﷺ قال: كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يَسْنُون عليه، وإن الجمل استصعب عليهم، فمنعهم ظهره، وإن الأنصار جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إنه كان لنا جمل نسني عليه، وإنه استصعب علينا، ومنعنا ظهره، وقد عطش الزرع والنخل، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا» فقاموا، فدخل الحائط والجمل في ناحيته، فمشى النبي ﷺ نحوه، فقالت الأنصار: يا رسول الله، إنه قد صار مثل الكَلْب الكَلِب، وإنا نخاف عليك صولته، فقال: «ليس علي منه بأس». فلما نظر الجمل إلى رسول الله ﷺ أقبل نحوه، حتى خرَّ ساجدًا بين يديه، فأخذ رسول الله ﷺ بناصيته أذلَّ ما كانت قط، حتى أدخله في العمل. فقال له أصحابه: يا نبي الله، هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك ونحن نعقل، فنحن أحق أن نسجد لك،=

وذرفت عينا جمل شكوى[1].

وسلَّم عليه حجر[2].

وأنذره ذراع شاة بمؤامرة عليه[3].

وانقاد بين يديه شجر[4].

=فقال: «لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، من عظم حقه عليها» رواه أحمد في مسنده (١٢٦١٤)، بإشراف التركي وقال الأرناؤوط: صحيح لغيره.

(١) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ، قَالَ: رَكِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَغْلَتَهُ، وَأَرْدَفَنِي خَلْفَهُ... إلى أن قال: فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا فِيهِ نَاضِحٌ لَهُ. فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ ، حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ وَسَرَاتَهُ، فَسَكَنَ فَقَالَ: «مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ؟»؛ فجاء شاب من الأنصار، فقال: أنا، فقال: «ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملَّكك الله إياها، فإنه شكاك إليَّ، وزعم أنك تُجيعه وتدئبه» أخرجه أحمد في مسنده رقم: (١٧٥٤) قال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير الحسن بن سعد فمن رجال مسلم.

(٢) عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ -رضي الله تعالى عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ؛ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الآنَ» صحيح مسلم (٢٢٧٧).

(٣) متفق عليه. البخاري رقم: (٢٤٧٤)، وَمسلم رقم: (٢١٩٠) عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- في غزوة خيبر في قصة المرأة اليهودية التي سمَّت رسول الله ﷺ في شاة مسمومة قدمتها طعامًا له؛ فأخبره ذراع الشاة بذلك.

(٤) عن جابر بن عبدالله -رضي الله عنهما- أنه قال: سرنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا واديًا أفيح، فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته، فاتبعته بإداوة من ماء، فنظر رسول الله ﷺ فلم ير شيئًا يستتر به، فإذا شجرتان بشاطئ الوادي، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما، فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: «انقادي عليَّ بإذن الله»؛ فانقادت معه كالبعير المخشوش، الذي يُصانع قائده، حتى أتى الشجرة الأخرى، فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: «انقادي عليَّ بإذن الله»؛ فانقادت معه كذلك، حتى إذا كان بالمنصف مما بينهما، لأم بينهما -يعني جمعهما - فقال: «التئما عليَّ بإذن الله»؛ فالتأمتا. قال جابر: فخرجت أحضر مخافة أن يحس رسول الله ﷺ بقربي فيبتعد. وقال محمد بن عباد فيتبعد- فجلست أحدث نفسي، فحانت مني لفتة، فإذا أنا برسول الله ﷺ مقبلًا، وإذا الشجرتان قد افترقتا، فقامت كل واحدة منهما على ساق. صحيح مسلم (٣٠١٢).

أيكون أولئك أولىٰ به منّا، وأكثر محبةً وشوقًا، وتعظيمًا وتوقيرًا؟! والقرآن يخاطبنا، وسُنة المصطفىٰ بين أيدينا نقرأها ليل نهار، تشهد بما نتلو من عظيم سيرته.

هو ﷺ أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم؛ ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الأحزاب:٦]؛ فإذا دعاهم إلىٰ أمر، ودعتهم أنفسهم إلىٰ خلاف ذلك الأمر؛ كانت طاعته أولىٰ بهم من طاعتهم لأنفسهم(١).

فطاعته ومحبته ﷺ أعظم القُرُبات، ومآلها أسمىٰ المنازل وأعلاها، ببشرىٰ المصطفىٰ ﷺ؛ حيث قال: «المرء مع من أحب»، وما فرح الصحابة-كما يقول أنس -رضي الله تعالىٰ عنه- وعنهم- بشيء كفرحهم بهذه البشرىٰ. وإن من أعظم دلائل المحبة: الاتباع والتأسي، والتمسك بالهدي الذي كان عليه المصطفىٰ ﷺ. وما صدق في محبته مَن تجَافىٰ عن سُنته، وابتدع طريقة غير طريقته، ولو استحسنها مستحسِن بعقل، فليس هناك أهدىٰ من هذا السبيل، وأقوم من هذا الطريق، وأكثر بركة من هذا المسير.

إنها السيرة العطرة، التي من قرأها -صادقًا- آمن، ومَن تأسىٰ بها فاز، ومن تنكَّب عنها فقد ضلَّ سواء السبيل.

أصل هذه السيرة مما نوَّه به القرآن الكريم، ومن تلا هذا الكتاب الكريم عرف كيف كانت حياة المصطفىٰ ﷺ، وكلما تدبَّر في الآيات ازداد محبةً وتعظيمًا وتوقيرًا لهذا الرسول ﷺ، لقد كانت حياته كلها لله، جهادًا في تبليغ دين الله وشرعه، ومجادلة في كشف الخطأ وتبيين الصواب، ومجالدة لأعداء الرب ومعاندي الحق، وما مات ﷺ إلا وقد بلَّغ الأمانة، وأدَّىٰ الرسالة، واستشهد علىٰ ذلك أكثر من مائة ألف صحابي حاجّ في صعيد عرفات، فأقروا له، وشهدوا بالبلاغ المبين.

---

(١) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن (٣٥٢).

وقد تسابق الصحب الكرام -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين- علىٰ رواية هذه السيرة، ونقلها لمن بعدهم بتفاصيل دقيقة في مختلف صور حياته، في مسجده وفي بيته، وفي سفره وإقامته، في دعوته، وفي جهاده، ثم تتابع السلف علىٰ توثيق هذه السيرة، ونقلها لمن بعدهم، وتوارثت الأمة هذا الحب وتلك العناية، جيلًا بعد جيل، وتتابعت المُؤلَّفات في هذه السيرة؛ سعيًا إلىٰ الإحاطة بكل الدقائق الممكنة من سيرته ﷺ حبًّا وشوقًا لتلك اللحظات التي مرت وعبرت، وودوا لو بقيت، لكن إن لم تبقَ فقد بقي عبيرُها وعَرفُها وطيبُها وذكرىٰ صاحبها -عليه أفضل الصلاة والتسليم-.

وإن عظمة المبدأ لا تغني عن القدوة الحسنة؛ (وإن أيّ نظرية مهما بلغت من الصحة والدقة، وإن أي تعليم مهما يكن رائعًا، ويقع من الناس موقع الإعجاب، لا يغني ولا يثمر ثمره، ولا يبقىٰ علىٰ الدهر إلا إذا كان له مَن يُمثّله بعمله، ويدعو إليه بأخلاقه وفضائله، ويُعَرِّفه إلىٰ الناس بالقدوة والأسوة؛ فيقتدي الناس بدعاته عن طريق العمل بعد العلم، معجبين بسجايا هؤلاء الدعاة، مُعظّمين لأخلاقهم، مكرمين طهارة قلوبهم، وزكاة نفوسهم... والدين لا ينجح ويعلو وينتشر إلا بسيرة النبي ﷺ الذي بُعث به، وبما عرفه الناس عنه في شؤون حياته وفي أخلاقه وأعماله)[1].

إن السيرة النبوية هي التطبيق الحي الوافي للقرآن الكريم؛ ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَـٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة:١٥- ١٦].

(١) سليمان الندوي، الرسالة المحمدية (ص ٣٨ - ٤٠).

السيرة النبوية العطرة هي الميزان الصادق الذي تُوزَن بها أعمال البشر، وحركات بني آدم؛ ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١].

اجتمع في هذا الدين عظمة المبدأ، وجودة الممتثل[١]، ولم يبقَ لأحد حُجة، أصبح الناس أمامهم القرآن الكريم يُتْلَىٰ، والسيرة المثلىٰ تُرْوَىٰ، تُبيِّن للناس كيف يتحوّل القرآن الكريم إلىٰ السلوك العملي الأمثل في الحياة، المصلح للناس في الحياة وفي الممات.

لعلك -أخي القارئ الكريم- أدركت أن السيرة النبوية جزءٌ من هذا الدين، بل هي من أعظم أجزائه، وركنٌ من أهم أركانه، يقول ابن الجوزي -رحمه الله تعالىٰ-: (وأصل الأصول العلم، وأنفع العلوم النظر في سير الرسول ﷺ وأصحابه: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام:٩٠])[٢].

يقف الخليفة الراشد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطيبًا في أول خطبة له بعد وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وتوليه الخلافة؛ يقول بعد حمد الله والثناء عليه: (إن الله -تعالىٰ- نهج سبيله، وكفانا برسوله ﷺ، فلم يبقَ إلا الدعاء والاقتداء)[٣]. والاقتداء شرطه الأساس: وضوح القدوة وصلاحيتها للاقتداء، ولقد كانت سيرة محمد ﷺ هي السيرة الوحيدة التي جمعت الخصائص الأربع المطلوبة في القدوة المثلىٰ لحياة الناس؛ وهي: كونها تاريخية وجامعة وكاملة وعملية[٤]، فهي سيرة تاريخية، يشهد التاريخ بصحتها، وجامعة لجميع أطوار الحياة، وأصناف المجتمع، وجميع شؤون

(١) الرسول ﷺ وسلفنا الصالح -رضي الله تعالى عنهم أجمعين-.
(٢) ابن الجوزي، صيد الخاطر، عناية حسن المساحي سويدان، الطبعة الأولى (دمشق: دار القلم ١٤٢٥)، (١/ ٨٠).
(٣) ابن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب رضي الله عنه (ص ١٩٤).
(٤) سليمان الندوي، الرسالة المحمدية (ص ٦٨).

الحياة في العاجل والآجل، وكاملة لا نقص فيها، وعملية فلم تكن قولية فقط، بل قول من الداعي ﷺ يصحبه عمل وتطبيق علىٰ نفسه، ولن نجد سيرة لفرد تصلح أن تكون للإنسانية أسوة سوىٰ سيرة هذا النبي العظيم؛ محمد بن عبد الله ﷺ(١).

وقد توالت الكتابة في السيرة النبوية العطرة في القديم والحديث(٢)، وأحصت دقائق لم تُحْصَ عن مخلوق قبله، ولن تحصىٰ -والعلم عند الله جل شأنه- لمخلوق بعده ﷺ؛ تعبيرًا عن مكانته ﷺ في النفوس، وحبًّا في معايشة حياته الكريمة العطرة ﷺ، ورغبة في الإسهام بتقديم هذه السيرة الخيِّرة والنموذج الأمثل للأُمّة.

والقراءة في السيرة مجردةً نورٌ وبرهانٌ، وحياة قلوب، وعِلْم جمّ غزير، لكنَّ الوقوف مع الدروس والعِبَر، وفقه الموقف والحدث، والتأمل في الدلالات والغوص في الأهداف والغايات، عِلْمٌ أعمق غزارةً، وأنفع في السلوك والتطبيق، وأكثر تحقيقًا لمعاني المحبة والاقتداء.

ومن فضل الله عليَّ -وفضائله عليَّ وعلىٰ غيري جل شأنه لا تُحْصَىٰ- أنْ شرَّفني بصحبة هذه السيرة العطرة قراءةً وتدريسًا، منذ مدة طويلة.

ومن خلال ذلك أحببت فقه السيرة، وعُنيت به، لما رأيت أثره عليَّ أولًا، وعلىٰ مَن يتلقّىٰ الدرس ثانيًا؛ فصار لي تعلق به وتدوين لما يمر عليَّ منه، أثناء التدريس في الجامعة وفي المسجد، فجمعتُ ما حصلت في أوراق تحولت إلىٰ

(١) انظر: سليمان الندوي، الرسالة المحمدية (ص ٦٧).

(٢) من أحسن ما اطلعت عليه من كتب السيرة: سيرة ابن هشام -رحمه الله تعالى-، والسيرة النبوية للذهبي، وله من اسمه نصيب -رحمه الله تعالى-، والسيرة النبوية في كتاب الطبقات لابن سعد -رحمه الله تعالى-، والسيرة النبوية لابن كثير -رحمه الله تعالى-، ومن كتب المعاصرين الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري -رحمه الله تعالى-، والسيرة النبوية على ضوء المصادر الصحيحة لمهدي رزق الله، واللؤلؤ المكنون لموسى العازمي، وجزى الله الجميع خير الجزاء، وبارك فيما كتبوا وبذلوا.

كتاب بدأ في عام ١٤١٣، ورأىٰ النور عام ١٤٢٤، فطُبِعَ في دار العاصمة بالرياض الطبعة الأولىٰ، ثم طبعته دار التدمرية بعد ذلك عدة طبعات، آخر ما اطلعت عليه الطبعة الثانية عشرة.

وقد كنت في كل قراءاتي -بعد ذلك- في التفسير والحديث والتوحيد والفقه وغيرها، مستحضرًا السيرة النبوية، وفقهها؛ رجاءَ مزيد إثراء لكتابي (فقه السيرة)، دَائمَ التعليق والإضافة علىٰ نسخة خاصة بذلك، حتىٰ اجتمع لي ما يُشجّع علىٰ إعادة إخراج كتابي مرة أخرىٰ، بطبعة جديدة فيها إضافات تجمّعت خلال سبعة عشر عامًا مضت ما بين ١٤٢٤-١٤٤٢.

وها هو ذا كتاب «فقه السيرة» بجزئيه، في حُلّة جديدة، بعد أن كان بجزء واحد فقط. وكان منهجي فيه وفق ما يلي:

أولًا: استحضرت في عملي هذا أن يكون (فقه سيرة) قبل أن يكون (سيرة)؛ قناعةً منّي بأن هذه السيرة العظيمة قد كُتِبَتْ بكلّ تفاصيلها الممكنة، وليس هناك مجال لمزيد؛ إلا لتصحيح أو تضعيف أو تنقيح أو إعادة صياغة لما هو مُدوّن، وقد كُفيت ذلك بمن هو خير مني، والحمد لله.

ثانيًا: لمَّا كان هدفي استقراء نصوص السيرة، فلا بد من التثبُّت من كون ما أذكره هو من السيرة بقدر الإمكان، وعليه فقد جعلت المصدر الأول للسيرة كتاب الله -جل شأنه-، فما ورد في القرآن الكريم من السيرة النبوية فهو المعتمَد، ثُمّ بعد ذلك ما صح من السنة النبوية الشريفة، مُقَدِّمًا ما قدمته الأمة من تزكية لصحيح البخاري وصحيح مسلم علىٰ غيرهما، ثم بعد ذلك كُتب السُّنة، وعوّلت علىٰ ما صححه أئمة الحديث، أو حسَّنوه، مما ورد في كتب السيرة، ثم كتب السيرة، ذاتها وخاصةً التي قَبِلتها الأُمّة من حيث الجملة؛ كسيرة ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ- والسيرة النبوية للذهبي -رحمه الله تعالىٰ-، والسيرة النبوية لابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-، ودلائل

النبوة للبيهقي، واستفدت كثيرًا مما أعاد المعاصرون تدوينه، واعتنوا بالصحيح والحسن، وابتعدتُ عن الروايات الضعيفة، قَدْر الإمكان.

مع أن العلماء -رحمهم الله تعالىٰ- يفرّقون بين ما يُروَىٰ عن الرسول ﷺ في الحلال والحرام والأحكام، وبين ما يُروَىٰ في فضائل الأعمال والترغيب والترهيب؛ يقول عبد الرحمن بن مهدي -رحمه الله تعالىٰ-: (إذا رُوِّينا عن النبي ﷺ في الحلال والحرام والأحكام؛ شدَّدْنا في الأسانيد، وانتقدنا الرجال، وإذا رُوِّينا في فضائل الأعمال والثواب والعقاب، والمباحات، والدعوات تساهلنا في الأسانيد)[1]. وقال السيوطي -رحمه الله تعالىٰ-: (ويجوز عند أهل الحديث وغيرهم التساهل في الأسانيد الضعيفة ورواية ما سوىٰ الموضوع من الضعيف والعمل به من غير بيان ضعفه في غير صفات الله -تعالىٰ-، وما يجوز ويستحيل عليه، وتفسير كلامه، والأحكام كالحلال والحرام، وغيرهما، وذلك كالقصص وفضائل الأعمال والمواعظ، وغيرها مما لا تعلق له بالعقائد والأحكام. ومن نُقل عنه ذلك: ابن حنبل، وابن مهدي، وابن المبارك -رحمهم الله تعالىٰ- قالوا: إذا روينا في الحلال والحرام شدّدنا، وإذا روينا في الفضائل ونحوها تساهلنا)[2].

ثالثًا: وقفت عند فهم سلفنا الصالح للنصوص، والتزمت، وألزمت نفسي به، لا أَعْدُوه؛ فهم ناقلو هذا العلم لنا، عاشوه وعايشوه، وكانوا مع الرسول ﷺ والوحي يتنزل عليه، ويمتثل ما فيه، ففهموا أتم الفهم لِماَ تلوه ورأوه، وصُحح لهم ما اختلفوا فيه. وهم الحجة الذين أثنىٰ الله عليهم في كتابه؛ قال -تعالىٰ-: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل:٥٩]، وقال -تعالىٰ-:

(١) الحاكم، المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١١)، (١/ ٦٦٦)، رقم (١٨٠١).

(٢) السيوطي، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، حققه نظر محمد الفريابي (الرياض: دار طيبة)، (١/ ٣٥٠-٣٥١).

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠]، ونحن لهم تَبَع في الفهم والعمل، نرجو الإحسان، وندعو كل مسلم إلىٰ ذلك.

فال الفقيه الأصولي علامة المغرب الشاطبي -رحمه الله تعالىٰ- في الموافقات: (فلهذا كله يجب علىٰ كل ناظر في الدليل الشرعي مراعاة ما فهم منه الأولون، وما كانوا عليه في العمل به؛ فهو أحرىٰ بالصواب، وأقوم في العلم والعمل)[١].

رابعًا: سلكتُ منهج الاستقراء لأبرز أحداث السيرة وفق التسلسل التاريخي، مع التوقف عند كل حدث من تلك الأحداث بعد عرض موجز، محاولًا استنباط الدروس والفوائد ذات الصلة بالتربية والدعوة والسلوك وفقه النفس، مرتبًا تلك الفوائد ترتيبًا يتناسب مع التسلسل التاريخي للحدث ذاته، دون نظر أو اعتبار في الترتيب لأهمية الفائدة، وإنما لتسلسلها التاريخي داخل الحدث قدر الإمكان؛ وإن كنتُ خالفتُ هذا في بعض الأحداث لأهمية الفائدة، وذلك كي يتمكن القارئ من استمرار تصوُّر الحدث وربطه بالفائدة المستنبطة.

خامسًا: عزوتُ كثيرًا من الفوائد لأصحابها؛ أخذًا بقول علمائنا -رحمهم الله تعالىٰ-: (من بركة العلم أن يُضاف القول إلىٰ قائله)[٢].

سادسًا: وقفت عند قول الله -جل شأنه- مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وما كتبه ابن عاشور -رحمه الله تعالىٰ- في تفسيره

(١) الشاطبي، الموافقات (٣/ ٢٨٩).

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١/ ٣) (المقدمة)، ونقل أيضًا قول الإمام ابن عبد البر -رحمه الله تعالى-: (من بركة العلم وآدابه الإنصاف فيه، ومن لم يُنصف لم يفهم ولم يتفهم) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢٨٦).

يقول: (فيه إيماء لطيف إلىٰ أن الرسول اتَّحد بالرحمة وانحصر فيها، ومن المعلوم أن عنوان الرسولية ملازم له في سائر أحواله، فصار وجوده رحمة، وسائر أكوانه رحمة، ووقوع الوصف مصدرًا يُفيد المبالغة في هذا الاتحاد؛ بحيث تكون الرحمة صفة متمكنة من إرساله)(١).

وقبل ابن عاشور -رحمه الله تعالىٰ- نقل القاضي عياض -رحمه الله تعالىٰ- قول أبي بكر محمد بن طاهر -رحمه الله تعالىٰ-: (زيَّن الله -تعالىٰ- محمدًا ﷺ بزينة الرحمة؛ فكان كونه رحمة وجميع شمائله وصفاته رحمة علىٰ الخلق)(٢).

لقد كان محمد ﷺ الرحمة المهداة، سيرته وحياته نور وهداية للإنسانية، أخلاقه ربانية، وعباداته إلهية، فيها كمال الحب والخضوع لله رب العالمين، جمعت معالم التوحيد كله، وهو أسمىٰ ما يُقدّم للبشرية.

قضىٰ ﷺ نصف عمره الدعوي في مكة، لم يحمل سلاحًا، ربَّىٰ فيه خلفاءه الأربعة، وبقية العشرة المبشرين بالجنة، وعامة من حاز السبق في هذه الأمة. ثم جاء بعدهم الذين نصروه في المدينة -رضي الله تعالىٰ عن الجميع-؛ قال -تعالىٰ-: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠].

تأملت سيرته ﷺ؛ فوجدت أعظم ما فيها -وكلها عظيمة- قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وهذا جعلني أختار تقسيمًا في هذا الكتاب يتلاءم مع هذا التصور الواسع في سيرته ﷺ، يستند إلىٰ النص القرآني، ويكشف المعنىٰ الشمولي لسيرة نبي الرحمة والرفق والتيسير، والخُلق العظيم، فجعلت تقسيمات الفصول ذات صلة بما تنزل من آيات، ثم داخل كل فصل أبرز الأحداث؛

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٧/ ١٦٦).
(٢) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، وبحاشيته (مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء) للشمني (بيروت: دار الفكر ١٤٠٩)، (١/ ١٦).

فكان تقسيم الكتاب علىٰ النحو التالي:

مقدمة.

مدخل. وفيه:

أ. أهمية دراسة السيرة النبوية.

ب. أسباب اختيار الجزيرة العربية منطلقًا للرسالة والخاتمة.

ت. ميزة ختم الرسالات برسالة محمد ﷺ، والأمم بأمة محمد ﷺ.

الفصل الأول:

فقه السيرة من قول الله –تعالىٰ-: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾.

إلىٰ قول الله –تعالىٰ-: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾.

الفصل الثاني:

فقه السيرة من قول الله –تعالىٰ-: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾.

إلىٰ قول الله –تعالىٰ-: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾.

الفصل الثالث:

فقه السيرة من قول الله –تعالىٰ-: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

إلىٰ قول الله –تعالىٰ-: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾.

الفصل الرابع:

فقه السيرة من قول الله –تعالىٰ-: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾.

إلىٰ قول الله –تعالىٰ-: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾.

الفصل الخامس:

فقه السيرة من قول الله -تعالىٰ-: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾.

إلىٰ قول الله -تعالىٰ-: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾.

الفصل السادس:

فقه السيرة من قول الله -تعالىٰ-: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾.

إلىٰ قول الله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

الفصل السابع:

فقه السيرة من قول الله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

إلىٰ قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

الفصل الثامن:

فقه السيرة من قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

إلىٰ قول الله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾.

الفهارس العامة.

وبعدُ:

فهذا الكتاب -أخي الكريم- أقدمه لك وأنا أستحضرُ فيه قولَ حسان بن ثابت -رضي الله تعالىٰ عنه-:

وما مدحت محمدًا بمقالتي ولكن مدحت مقالتي بمحمد[1].

فهو محاولة من عبد ضعيف يلتمس شرفًا عند ربه الكريم في كتابة شيء عن فقه سيرة نبيه ﷺ، اجتهدَ فيه، وفْق ما فتح الله عليه، فلا فضل له ولا يد ولا شيء، بل مِنَّة من الله وفضل وإحسان، فهو مِنْه -سبحانه-، وهو به، وهو له -سبحانه وتعالىٰ-.

يلتمس عذره فيما وقع من تقصير في ثنايا قول الله -تعالىٰ-: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق:٧].

وعليه فإن ما فيه من صواب فمن خالص فضل الله وتوفيقه، ويستوجب الشكر له -سبحانه-، وما فيه من خطأ فهو مِن كاتبه ومن الشيطان، والله ورسوله منه بريئان[2]، وأسأل الله العفو والمغفرة.

أرجو إن فاتني أجر الإصابة أَلا أُحرم أجر الاجتهاد، مؤملًا من كل ناصح يرىٰ خللًا أن يلتمس العذر، ويحسن الظن، وإن جاد عليَّ بملاحظاته كنت له شاكرًا، وليعلم أنِّي رجَّاع للحق -إن شاء الله تعالىٰ-؛ (والرجوع للحق من جملة الدين)[3].

(١) صبح الأعشى (٢/ ٢٣١)، والمثل السائر لابن الأثير (٢/ ٣٥٧).

(٢) ورد هذا المعنى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه لما سُئِلَ عن الكلالة قال: (أقول فيها برأيي؛ فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه) تفسير ابن كثير (١/ ٤٦٠)، وورد أيضًا عن ابن مسعود رضي الله عنه في مسألة طُرحت عليه كما في مسند الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- (١/ ٤٤٧)، وانظر هذا المعنى تفصيلاً في: منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية لابن تيمية (٥/ ١٨٢- ١٨٦).

(٣) العيني، عمدة القارئ (١/ ٦٦).

أسأل الله -جل شأنه- متوسلًا بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ أن يتقبَّل هذا العمل عنده، وأن يجدد النفع به ما تجددت الأوقات، وأن يطرح فيه واسع البركات، فهو -سبحانه- الجواد الكريم عظيم العطيات.

كما أسأل المولىٰ الكريم أجزل المثوبة لكل مَن أسهم في هذا الكتاب، بأيّ صورة من الصور، ولو بالتعريف به بعد طباعته، أو دلَّ عليه، أو أهداه، وفضل الله واسع، والحمد لله.

والله الهادي إلىٰ سواء السبيل، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين[1].

أ. د. زيد بن عبد الكريم الزيد
dr-zaz@hotmail.com

(١) أسجل هنا شكري لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية التي تعلمت فيها قرابة عشرين عامًا، ثم احتضنتني أحد أعضاء هيئة التدريس أكثر من ثلاثين أخرى، وفرَّغتني لإنجاز أصل هذا البحث، سائلاً المولى -عز وجل- أن يجعلها جامعة مباركة يعمّ نفعها بلاد المسلمين.
كما أشكر إخواني الذين تفضَّلوا عليَّ بمراجعة هذا الكتاب (في طبعته السابقة). وقد شكرتهم في تلك، الطبعة، ولأن فضلهم متجدد فأبقيت شكرهم كما هو متجددًا في الطبعة الجديدة بزياداتها، وإن لم يقرأوها، وهم:
١. فضيلة الأستاذ الدكتور/ فضل إلهي، الأستاذ في قسم الدعوة في جامعة الإمام سابقًا.
٢. فضيلة الأستاذ الدكتور / عبد الرحمن بن سليمان الخليفي، الأستاذ في قسم الدعوة بالجامعة سابقًا.
٣. فضيلة الأستاذ الدكتور / خالد بن عبد الرحمن القريشي، الأستاذ في قسم الدعوة بالجامعة.
سائلاً المولى العلي القدير أن يجزيهم خير الجزاء على ما بذلوه من جُهد، وما أسدوه من نُصْح.

المدخل

١ - تعريف فقه السيرة النبوية.

٢ - أهمية دراسة السيرة النبوية.

٢ - لماذا ندرس فقه السيرة؟

٤ - أسباب اختيار جزيرة العرب منطلقًا للرسالة الخاتمة.

٥ - ميزة ختم الرسالات برسالة محمد ﷺ، والأمم بأمة محمد ﷺ.

أولًا: تعريف فقه السيرة

١- تعريف الفقه:

قال ابن فارس -رحمه الله تعالىٰ-: («فقه» الفاء والقاف والهاء أصل واحد صحيح، يدل علىٰ إدراك الشيء والعلم به. تقول: فقهت الحديث أفقهه. وكل علم بشيء فهو فقه. يقولون: لا يفقه ولا ينقه. ثم اختص بذلك علم الشريعة، فقيل لكل عالم بالحلال والحرام: فقيه. وأفقهتك الشيء، إذا بينته لك)[١].

وفي لسان العرب: (الفقه: العلم بالشيء والفهم له)[٢].

وقال ابن الأثير -رحمه الله تعالىٰ-: (والفقه في الأصل: الفهم، واشتقاقه من الشق والفتح. يقال: فَقِه الرجل بالكسر- يفقه فِقهًا إذا فهم وعلم، وفقُه بالضم يفقه: إذا صار فقيهًا عالمًا)[٣].

وفي الصحاح: الفقه: الفهم.

تقول منه: فقِه الرجل، بالكسر[٤]. فقِه الأمرَ: فهِمه بعد جهل، وأدركه بعد تفكير، أحسن إدراكه.

فقِه عنه: فهِم. والفقه الفهم، وغلب -إذا أطلق - علىٰ العلم بالأحكام الشرعية؛ لشرفها.

---

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة (٤/ ٤٤٢) مادة (فقه)، (بيروت: دار الفكر ١٣٩٩).

(٢) ابن منظور، لسان العرب (١٣/ ٥٢٢)، مادة (فقه).

(٣) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث (٣/ ٤٦٥)، مادة (فقه).

(٤) الجوهري، الصحاح (٦/ ٢٢٤٣)، مادة (فقه).

٢- تعريف السيرة:

قال ابن فارس -رحمه الله تعالىٰ-: (السين والياء والراء، أصل يدل علىٰ مضي وجريان، يقال سار يسير سيرًا، وذلك يكون ليلًا ونهارًا. والسيرة: الطريقة في الشيء والسنة؛ لأنها تسير وتجري)[١].

وقال الجوهري -رحمه الله تعالىٰ-: (والسيرة الطريقة. يقال سار بهم سيرة حسنة)[٢].

أما السيرة النبوية في الاصطلاح: فيُقصَد بها ذِكْر ما كان عليه النبي ﷺ من الأقوال والأفعال والتقريرات والصفات الخُلقية والخَلقية حتىٰ الحركات والسكنات؛ إلا أن مصنّفي السيرة النبوية، أضافوا ما كان قُبيل ولادته؛ لارتباطها بميلاده ﷺ، ولإلقاء الضوء علىٰ حالة الأرض بعامة، وحالة العرب بخاصة؛ مما يفيد في دراستها وفهمها.

وإذا أطلقت كلمة «سيرة» مشفوعة بأل ولام التعريف حصرًا، فإنما يُقصد بها ترجمة حياة النبي ﷺ، وأصبحت عِلمًا قائمًا بذاته[٣].

والسيرة النبوية في نطاقها الزماني هي من ولادته ﷺ عام الفيل، وحتىٰ فاجعة وفاته في شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة من الهجرة النبوية، وجملتها ثلاث وستون سنة قمرية تقريبًا.

وقد حفظ الله -جل شأنه- سيرة المصطفىٰ ﷺ بكثير من دقائقها، ولم تُحفَظ سيرة نبي من الأنبياء -ولا غيرهم- كما حُفظت سيرة نبينا ﷺ.

---

(١) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون (٣/ ١٢٠-١٢١)، مادة «سير».

(٢) إسماعيل الجوهري، الصحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الثالثة (بيروت: دار العلم للملايين ١٤٠٤)، (٢/ ٦٩١) مادة «سير».

(٣) انظر: حاجي خليفة، كشف الظنون (دار الكتب العلمية، مصورة من طبعة مكتبة المثنى ببغداد) (٢/ ١٠١٢).

أما العلوم التي لها صلة بالسيرة:

فأولًا: الشمائل: والمراد بها صفات الرسول ﷺ وأخلاقه.

وعلىٰ هذا فالشمائل أخص من السيرة، أو أن الشمائل جزء من السيرة النبوية.

ثانيًا: السُّنة: وهي ما أُضيف إلىٰ النبي ﷺ من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ أو صفة. ولذلك فهناك تداخل بين السُّنة والسيرة، والغالب في السُّنة أنها ترتبط بالأحكام والعقائد، ولا تهتم بالأحداث والوقائع والتاريخ، إلا في جانب معرفة النسخ ونحوه.

ثالثًا: الدلائل النبوية: جمع دليلة، وهي العلامة علىٰ الشيء، وتسمىٰ أيضًا علامات النبوة. والمقصود بها ما كان علامة علىٰ إثبات وصدق نبوة الرسول ﷺ؛ كانشقاق القمر، ونبع الماء بين يديه. وممن كتب في الدلائل: الإمام البيهقي -رحمه الله تعالىٰ- في كتابه «دلائل النبوة».

رابعًا: الخصائص: جمع خصيصة؛ وهي ما انفرد به النبي ﷺ عن غيره؛ كزواجه بأكثر من أربع نسوة في وقت واحد. وممن كتب في الخصائص: الإمام السيوطي -رحمه الله تعالىٰ- في كتابه «الخصائص الكبرىٰ».

خامسًا: المغازي: والمغازي جمع غزوة، والمراد بها غزواته ﷺ. والفرق بين الغزوة والسرية هي أن الغزوة ما كان الرسول ﷺ قائدًا للجيش فيها، أما السرية فتكون بعثًا بعثَه ﷺ من أصحابه -رضي الله عنهم-. ومن أشهر وأول مَن كتب في هذا الواقدي -رحمه الله تعالىٰ- في كتابه «المغازي».

وعلىٰ هذا؛ فالسيرة أوسع من المغازي، وليست المغازي إلا جزءًا من السيرة النبوية، بل قال الزبيدي -رحمه الله تعالىٰ- وهو يُعرِّف بالسيرة: (والسِّيرَةُ النَّبَوِيَّة، وكُتُبُ السِّير، مأْخوذةٌ من السِّيرَةِ بمعنَىٰ الطَّرِيقَةِ، وأُدْخِلَ فِيهَا الغَزَوَاتُ وَغير ذلك؛ إِلْحَاقًا أَو تَأْوِيلًا)(١).

(١) الزبيدي، تاج العروس، (دار الهداية)، (١٢/ ١٢١)، مادة «سير».

وفي المعجم الوسيط: «(السِّيرَة) السُّنة والطريقة وَالْحَالة الَّتِي يكون عَلَيْهَا الْإِنْسَان وَغَيره. والسيرة النَّبَوِيَّة وَكُتب السّير مَأْخُوذَة من السِّيرَة بِمَعْنىٰ الطَّرِيقَة، وَأَدْخل فِيهَا الْغَزَوَات وَغير ذَلِك، وَيُقَال: قَرَأت سيرة فلَان؛ أي تَارِيخ حَيَاته»[1].

٣- تعريف فقه السيرة:

بعد هذا التعريف اللغوي للفقه.

والتعريف اللغوي والاصطلاحي للسيرة باعتباره مفردة، وأنها ترجمة حياة النبي ﷺ، واعتبار ذلك عِلْمًا قائمًا بذاته.

نأتي إلىٰ تعريف **فقه السيرة:**

فقه السيرة: مركب مثل فقه اللغة، وفقه الدعوة، وفقه التاريخ، وفقه الحج، ويعنون بذلك فهم معاني ومقاصد التاريخ والحج لا أحكامه.

وأعجبني قول ابن الأثير-رحمه الله تعالىٰ- في معنىٰ الفقه: (... واشتقاقه من الشق والفتح)[2]. فهو يحتاج إلىٰ شق وفتح للأحداث، وتأمل واستيعاب، وتأثر وتأثير، فهو علم حي له عروق تسري فيها الحياة وتتجدد.

وفقه السيرة: فهم السيرة النبوية فهمًا ناتجًا عن علم وتفكير وتأمُّل وحُسْن إدراك في أحداثها، يؤدي إلىٰ استخراج دروس وعِبَر مفيدة، ظاهر آثارها في السلوك الصالح العاجل والآجل.

وهذا يشمل الدروس المتعلقة بتقويم العقيدة، والأخلاق مع النفس ومع الغير.

---

(١) المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، (القاهرة: دار الدعوة)، (١/ ٤٦٧) مادة (سير).

(٢) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث (٣/ ٤٦٥)، مادة (فقه).

وإذا لم يصحب هذا الفقه تزكية للنفس، عاد ليكون علمًا مجردًا كسائر العلوم.

ولذلك فالذي يميز فقه السيرة عن غيره أنه عيش مع عبيق السيرة وعطرها وريحانها، وامتلاء الشخص بهذه العطور والرياحين.

ثانيًا: أهمية دراسة السيرة النبوية

أولًا: ندرس سيرة رسول الله ﷺ؛ لأنها سيرة أعظم رجل عرفته البشرية، فهي سيرة سيد ولد آدم -عليه السلام-، كما أخبرنا بنفسه فقال ﷺ: «أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة»[١].

سيرة النبي الذي جمع الله -جل شأنه- فيه الكمالات البشرية كلها، عبادته أتم العبادات وأزكاها[٢] ومثلها معاملاته، شجاعته، كرمه، حلمه، زهده، تواضعه، وحكمته... إلخ، فهو الأسوة[٣] المثلىٰ للبشرية.

ندرس سيرة النبي العظيم الذي خاطبه الله بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]. فأي خُلُقٍ هذا الذي وصفه الله -عز وجل- العظيم العليم، بأنه خُلُق عظيم؟!

ندرس سيرة المصطفىٰ ﷺ الذي أقسم الله به؛ فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:٧٢].

---

(١) صحيح الإمام مسلم (٤ / ١٧٨٢).

(٢) حديث أنس -رضي الله تعالى عنه- أن الرسول ﷺ قال: «أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له» صحيح البخاري (٧/ ٢) رقم (٥٠٦٣).

(٣) وردت كلمة الأسوة والقدوة في النصوص الشرعية، قال -تعالى-: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال -تعالى-: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال -تعالى-: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الممتحنة: ٦]، وقال -تعالى-: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وفي سنن الترمذي (٥/ ٦٧٢ ت شاكر) عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «اقتدوا باللذين من بعدي من أصحابي؛ أبي بكر وعمر»، وصححه الألباني. وقد فرَّق بعض العلماء بين الأسوة والقدوة؛ بأن الأسوة عامة، والقدوة خاصة في مجال أو موضوع معين. والله أعلم.

ندرس سيرة رسول الله ﷺ الماحي الذي محا الله به الكفر(١).

ندرس سيرة الرجل الذي فُتحت له أبواب السماء(٢)، وعُرج به إلىٰ سدرة المنتهي، وسمع صريف الأقلام(٣).

سيرة النبي العظيم الذي أكرمه الله بدخول الجنة(٤).

وكُشف له حتىٰ رأىٰ النار (٥).

وكلمه الله بدون واسطة(٦).

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (٤/ ١٨٥) رقم (٣٥٣٢)، وصحيح مسلم (٤/ ١٨٢٨) رقم (٢٣٥٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه رقم (٣٨٨٧) في حديث الإسراء والمعراج، وجاء فيه: «فَانْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَاسْتَفْتَحَ؛ فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ؛ فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ فَفَتَحَ...).

(٣) «قال ابن شهاب: فأخبرني ابن حزم، أن ابن عباس، وأبا حبة الأنصاري -رضي الله تعالى عنهما- كانا يقولان: قال النبي ﷺ: «ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام» صحيح البخاري (١/ ٧٨) رقم (٣٤٩)، وصحيح مسلم ١/ ١٤٨) رقم (١٦٣). (صريف الأقلام) أي صريرها على اللوح. فتح الباري لابن حجر (١/ ١٤٤).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه رقم: (٣٤٩) في حديث الإسراء والمعراج، وفيه قوله ﷺ: «ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّى انْتَهَى بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لَا أَدْرِي مَا هِيَ، ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ؛ فَإِذَا فِيهَا حَبَايِلُ اللُّؤْلُؤِ وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ». وَمسلم في صحيحه رقم: (٤٣٤). وعن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة، فإذا أنا بقصر من ذهب، فقلت: لمن هذا؟ فقالوا: لرجل من قريش، فما منعني أن أدخله يا ابن الخطاب، إلا ما أعلم من غيرتك»، قال: وعليك أغار يا رسول الله؟ صحيح البخاري (٩/ ٣٩) رقم (٧٠٢٤) وصحيح مسلم (٤/ ١٨٦٢) رقم (٢٣٩٤).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه رقم: (١٢١٢) في حديث صلاة الخسوف، وفيه قوله ﷺ: «وَلَقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ، وَرَأَيْتُ فِيهَا عَمْرَو بْنَ لُحَيٍّ وَهُوَ الَّذِي سَيَّبَ السَّوَائِبَ». ومسلم رقم: (٧٣٧١).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه رقم: (٣٨٨٧) في حديث الإسراء والمعراج، قال الحافظ ابن حجر: (هذا من أقوى ما استدل به على أن الله -سبحانه وتعالى- كلم نبيه محمدًا ﷺ ليلة الإسراء بغير واسطة).فتح الباري (٧/ ٢١٦)، وأخرجه مسلم رقم: (٤٢٩).

أول مَن يُبعث من الخلائق يوم القيامة[1].

صاحب المقام المحمود يوم القيامة، يوم يلجأ الناس إلىٰ الرسل -عليهم السلام-؛ ليشفعوا لهم فيتأخروا عنها، ويتقدم لها نبينا المصطفىٰ ﷺ[2].

صاحب الحوض المورود[3].

وحامل لواء الحمد يوم القيامة، وكل نبي حينئذ تحت هذا اللواء[4].

ندرس سيرة الرجل الذي أمر الله خازن الجنة أن لا يفتحها لأحد قبله[5]؛ فهو أول داخل للجنة، وله فيها أعلىٰ منزلة[6].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه رقم: (٢٤١١) ومسلم رقم: (٦٣٠٢).

(٢) أخرجه البخاري رقم: (٧٥١٠)، ومسلم رقم: (٥٠٠) في حديث الشفاعة الطويل، وجاء فيه: «وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَيَأْتُونِي فَأَقُولُ أَنَا لَهَا فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي....».

(٣) الأحاديث الثابتة في هذا كثيرة؛ منها ما أخرجه البخاري في صحيحه رقم: (٣٧٩٢) عن أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ -رضي الله عنه- أَنَّ رَجُلاً مِنْ الْأَنْصَارِ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي كَمَا اسْتَعْمَلْتَ فُلَانًا؟ قَالَ: «سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً؛ فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ» وَمسلم رقم (٤٨٨٥).

(٤) عن أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي» أخرجه الترمذي في سننه (٥/ ٣٠٨) رقم (٣١٤٨)، وصححه الألباني.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه رقم: (٥٠٧) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رضي الله تعالى عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ مُحَمَّدٌ: فَيَقُولُ بِكَ أُمِرْتُ لاَ أَفْتَحُ لأَحَدٍ قَبْلَكَ».

(٦) عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله تعالى عنهما- أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليَّ، فإنه من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة؛ فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو؛ فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة» أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٢٨٨) رقم (٣٨٤).

(وإذا تأمل المتأمل المنصف جميل أثره، وحميد سيره، وبراعة علمه، ورجاحة عقله، وحلمه، وجملة كماله، وجميع خصاله، وشاهد حاله، وصواب مقاله، لم يَمْتَرِ في صحة نبوته، وصدق دعوته، وقد كان هذا كافيًا لعدد من الأشخاص، ليعلنوا إسلامهم؛ عن عبد الله بن سلام -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جئته لأنظر إليه، فلما استبنت وجهه، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب)[(١)]. جاء بأعظم وأبقىٰ معجزة خالدة تتجدد، ثابتة إلىٰ يوم القيامة، بيِّنة الحُجة لكل أمة تأتي، متضمنًا الإخبار بغيوب ستقع، فلا يمرّ عصر ولا زمن إلا ويظهر في صدقه بظهور مُخْبَرِهِ علىٰ ما أخبر، فيتجدد الإيمان ويتظاهر البرهان، وليس الخبر كالعيان، وللمشاهدة زيادة في اليقين، والنفس أشد طمأنينة إلىٰ عين اليقين منها إلىٰ علم اليقين، وإن كان كل عندها حقًّا، وسائر معجزات الرسل انقرضت بانقراضهم، وعدمت بعدم ذواتها، ومعجزة نبينا ﷺ لا تبيد ولا تنقطع، وآياته تتجدد ولا تضمحل[(٢)].

هذه نقطة من بحر عظمته ﷺ، وعلىٰ قدر هذه العظمة ينبغي أن يكون اهتمامنا بسيرته، وفقه سيرته؛ بل وبكل دقيقة مرت في حياته الشريفة ﷺ.

فهل عرفتَ منزلة مَن تدرس سيرته؟!

ثانيًا: إن من الإيمان، معرفة سيرة الرسول ﷺ والأمر الذي أُرسل به، وما جرىٰ له من قومه، وكلما كان المؤمن بذلك أعرف كان إيمانه أقوىٰ، والعكس كذلك.

ثالثًا: إن من أعظم العبادات والقربات عند الله -جل شأنه- محبة رسوله ﷺ، عن أنس -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»[(٣)]. قال ابن رجب -رحمه الله تعالىٰ-: (ومحبة

(١) انظر: القاضي عياض، الشفا (١/ ٢٤٧-٢٤٨) والحديث في سنن الترمذي (٥/ ٤٨٥) رقم (٢٤٨٥) وصححه الألباني

(٢) انظر: القاضي عياض، الشفا (١/ ٣٧٢).

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري (١/ ١٢) رقم (١٥) واللفظ له. وصحيح مسلم (١/ ٦٧) رقم (٤٤).

الرسول ﷺ علىٰ درجتين: إحداهما: فرض، وهي ما اقتضىٰ طاعته في امتثال ما أمر به من الواجبات، والانتهاء عما نهىٰ عنه من المحرمات والرضىٰ بذلك، وأن لا يجد في نفسه حرجًا مما جاء به ويسلم له تسليمًا، وأن لا يتلقىٰ الهدىٰ من غير مشكاته، ولا يطلب شيئًا من الخير إلا مما جاء به. الدرجة الثانية: فضل مندوب إليه، وهي: ما ارتقىٰ بعد ذلك إلىٰ اتباع سنته وآدابه وأخلاقه والاقتداء به في هديه وسمته وحُسن معاشرته لأهله وإخوانه وفي التخلق بأخلاقه الظاهرة في الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة...)[١].

ومحبة رسوله الله (تكون لأمور:

الأول: أنه رسول الله، وإذا كان الله أحب إليك من كل شيء؛ فرسوله أحب إليك من كل مخلوق.

الثاني: لما قام به من عبادة الله وتبليغ رسالته.

الثالث: لما آتاه الله من مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال.

الرابع: أنه سبب هدايتك، وتعليمك، وتوجيهك.

الخامس: لصبره علىٰ الأذىٰ في تبليغ الرسالة.

السادس: لبذل جهده بالمال والنفس؛ لإعلاء كلمة الله)[٢].

ولا سبيل لمحبته المحبة الصادقة إلا بمعرفة أمور:

الأول: معرفة سيرته، ومعرفة كماله، وأوصافه، وعِظم ما جاء به[٣].

الثاني: عظم النعمة التي نالتك بسببه.

الثالث: ما جرىٰ له من الإيذاء من أجل تبليغ هذا الدين.

(١) ابن رجب، فتح الباري (١/ ٥٣).
(٢) ابن عثيمين، القول المفيد شرح كتاب التوحيد (٤٠٢).
(٣) انظر: ابن رجب، فتح الباري (١/ ٥٣).

والرسول ﷺ هو الذي علَّم هذه الأمة وربَّاهم وزكَّاهم، وصبر من أجل ذلك وصابر وجاهد في سبيل ذلك ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وإذا كان من المستنكَر والمستقبَح علىٰ الشخص أن يجهل سيرة أبيه؛ فكيف به إذا جهل سيرة رسوله ومرّبيه ومعلمه الذي هو أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم، وحقه مقدَّم علىٰ سائر الحقوق بعد حق الله -سبحانه وتعالىٰ-(١).

رابعًا: إن من المهم معرفة الحق في مقام النبي ﷺ، وما يجب له من التوقير، وما يجب تنزيهه عنه، قبل النبوة وبعدها، ومعرفة عصمته ﷺ، سواء أكان (مِنْ رضًا وغضب وجد ومزح؛ فيجب عليك أن تتلقاه باليمين وتشد عليه يد الضنين، وتقدر هذا الأمور حق قدرها وتعلم عظيم فائدتها وخطرها؛ فإن من يجهل ما يجب للنبي ﷺ أو يجوز أو يستحيل عليه ولا يعرف صور أحكامه لا يأمن أن يعتقد في بعضها خلاف ما هي عليه، ولا ينزهه عما لا يجب أن يضاف إليه فيهلك من حيث لا يدري، ويسقط في هوة الدرك الأسفل من النار؛ إذْ ظن الباطل به، واعتقاد ما لا يجوز عليه، يحل بصاحبه دار البوار، ولهذا ما احتاط -عليه السلام- علىٰ الرجلين اللذين رأياه ليلًا وهو معتكف في المسجد مع صفية -رضي الله تعالىٰ عنها- فقال لهما: «إنه صفية»، ثم قال لهما: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرىٰ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئًا فتهلكا»(٢))(٣).

(١) انظر: السعدي، تفسير السعدي (المقدمة)، (ص٢٢).

(٢) الحديث في صحيح البخاري (٣/ ٤٩) برقم ٢٠٣٥ بلفظ "فقال لهما النبي ﷺ: «على رسلكما، إنما هي صفية بنت حيي»، فقالا: سبحان الله يا رسول الله، وكبر عليهما، فقال النبي ﷺ: [إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا] وفي صحيح مسلم ٢١٧٥[وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرا] أو قال [شيئا].

(٣) القاضي عياض، الشفا (٢/ ١٧٣).

خامسًا: في معرفة سيرته ﷺ شكرٌ للمنعم -سبحانه وتعالىٰ- علىٰ ما من به من بعثة هذا الرسول الكريم ﷺ؛ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة:٢].

سادسًا: في معرفة سيرته الرسول ﷺ معرفة للصورة العملية التطبيقية الصحيحة لهذا الدين، ويستحيل أن نعرف دين الإسلام دون معرفة سيرة الرسول ﷺ، وكيف كان هديه وعمله وأمره ونهيه، قال -تعالىٰ-: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[النحل:٤٤].

قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالىٰ-: (وأصل الأصول العلم، وأنفع العلوم النظر في سِيَر الرسول ﷺ وأصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم-: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام:٩٠])[1].

وقال مؤرخ الديار المصرية تقي الدين المقريزي -رحمه الله تعالىٰ-: (فغير جميل بمن تصدّر للتدريس والإفتاء، وجلس للحكم بين الناس وفصل القضاء، أن يجهل من أحوال رسول الله ﷺ ونَسبه وجميل سيرته ورفيع منصبه، وما كان له من الأمور الذاتية والعرضية ما لا غنىٰ لمن صدقه وآمن به عن معرفته، ولا بد لكل من اتسم بالعلم من درايته)[2].

ولما كانت حاجة البشرية إليها كذلك، فقد جاءت سيرته ﷺ متميزة بكونها واضحة مكشوفة، فلا أسرارَ ولا خفايا، فما عاش الرسول ﷺ في قصر مغلق، ولا غاب عن الناس يومًا واحدًا، ولا سافر بمفرده[3]، ولا منع أزواجه أو خدَمه من نقل

---

(١) ابن الجوزي، صيد الخاطر (ص ٨٠).

(٢) المقريزي، إمتاع الأسماع بما للنبي ﷺ من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تحقيق محمد النميسي، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٢٠)، (١/ ٣).

(٣) انظر: يحيى بن إبراهيم اليحيى، لماذا ندرس السيرة (بحث منشور على الشبكة الإلكترونية) (ص ١).

ما يَرَوْنَه منه؛ في داخل بيته؛ بل كان يحث الجميع علىٰ التبليغ؛ فقال: «نضَّر اللهُ امرأ سمع منا شيئًا فبلَّغه كما سمع، فرُبّ مُبلّغ أوعىٰ من سامع»[1].

سابعًا: عن سفيان بن عيينة -رحمه الله تعالىٰ- أنه كان يقول: (إن رسول الله ﷺ هو الميزان الأكبر، فعليه تُعرَض الأشياء، علىٰ خُلُقه وسيرته وهديه، فما وافقها فهو الحقّ، وما خالفها فهو الباطل)[2].

فسيرته ﷺ معيار تُقاس به كلّ السِّير، والمواقف والأحداث، فأيّ قول أو عمل أو سلوك نختلف فيه كالوسطية أو التيسير والتشديد، فالمعيار العملي للبعد والقرب من الصواب، هو سيرة المصطفىٰ ﷺ، فلكل نصيب من الحق، بقدر قربه من هذه السيرة النبوية، ومن لا معيار عنده وقع في أحد الانحرافين.

ثامنًا: سيرة الرسول ﷺ بيان قولي وعملي ممن لا ينطق عن الهوىٰ، فقد قال ربه -جل شأنه-عنه: ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾ [النجم:٣-٤]، وقال -جل شأنه-: ﴿**وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [النحل:٤٤]، وهذا البيان -الذي لا غنىٰ لمسلم عنه- وقع بقوله وفعله وإقراره المضمّن في سيرته ﷺ.

تاسعًا: ندرس السيرة؛ لأجل فهم كتاب الله -سبحانه وتعالىٰ-؛ إذ إنَّ كثيرًا من الآيات نزلت بسبب أحداث وقعت في السيرة، ثم بعد نزولها أيضًا كان امتثال الرسول ﷺ لمضمون تلك الآيات بمثابة شرح عملي للكيفية المثلىٰ للاستجابة لما ورد في تلك الآيات؛ فالسيرة تبين الآية من حيث معرفة سبب نزولها، ومن حيث معرفة كيفية الاستجابة لمضمونها، يقول عبد الحميد بن باديس -رحمه الله تعالىٰ-:

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٦٥٧)، وصححه الألباني.

(٢) الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق محمود الطحان (الرياض: مكتبة المعارف)، (١/ ٧٩) رقم (٨).

«وفِقْه القرآن الكريم يتوقف علىٰ فِقْه حياة النبي ﷺ وسنته، وفقه حياته ﷺ يتوقف علىٰ القرآن، وفقه الإسلام يتوقف علىٰ فقههما»[(١)].

وقال السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: «ولو أراد إنسان أن يصرف همه لمعرفة معاني القرآن الكريم من دون معرفة منه لذلك -أي لسيرة الرسول ﷺ لحصل من الغلط علىٰ الله وعلىٰ رسوله ﷺ وعلىٰ مراد الله من كلامه شيء كثير»[(٢)].

عاشرًا: ندرس سيرة الرسول ﷺ لأننا نعلم أنها السيرة العملية الوحيدة الهادفة إلىٰ إخراج الناس من ظلمات الشرك والخرافة والبدعة، إلىٰ نور التوحيد والحقيقة والسنة، قال -تعالىٰ-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦].

حادي عشر: وندرس السيرة النبوية لأن فيها تثبيتًا للمؤمن في طريقه إلىٰ الله -جل شأنه-، واستثماره لهذه الحياة فيما ينفعه، والله -جل جلاله- حينما قال: ﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود:١٢٠]، بيَّن فيها أن قَصَصَ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، تثبيتٌ للرسول ﷺ، وإذا كان فؤاد سيد الأنبياء ﷺ يزداد ثباتًا بسماع قصة نبي دونه، فلأن تزداد أفئدتنا إيمانًا ويقينًا بسماع قصة سيد الأنبياء ﷺ أولىٰ، وما أحوجنا إلىٰ التثبيت في وقتنا هذا مع مزيد الشبهات والشهوات والفتن، والله المستعان.

والرسول ﷺ ليس أسوة في الرخاء فحسب؛ بل هو أسوة لنا -أيضًا- في الشدة، والشخص بحاجة إلىٰ الأسوة والتثبيت في الشدة أكثر من حاجته في الرخاء، وفي السيرة النبوية بيان ناصع لما جرىٰ للرسول ﷺ من الإيذاء والمقلقات والمزعجات من أقاربه، ومن قومه، وكيف صبَر علىٰ إيذائهم الحسي والمعنوي، ومضىٰ في طريقه حتىٰ أتم الله له النصر والتمكين.

---

(١) ابن باديس، الدرر الغالية في آداب الدعوة والداعية (ص ٥٧).
(٢) السعدي، تفسير السعدي (المقدمة)، (ص٢٣).

ثاني عشر: وندرس سيرة الرسول ﷺ لأنها تجعلنا نعرفه، وإذا عرفناه كنا أكثر محبة وتبجيلًا واحترامًا وتوقيرًا للحبيب المصطفىٰ ﷺ، ويكون حُبّنا له ﷺ عن علم، وليس عن عاطفة موروثة فحسب، والحب عن علم هو الحب المتقرّب به إلىٰ الله الذي يُثاب عليه الشخص، وهو الحب المطلوب. والمرء مع من أحب. يقول الله -تعالىٰ-: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس:٤٣]؛ قال السعدي -رحمه الله تعالىٰ- في تفسيره: «دل قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ الآية، أن النظر إلىٰ حالة النبي ﷺ، وهديه وأخلاقه وأعماله وما يدعو إليه، من أعظم الأدلة علىٰ صدقه وصحة ما جاء به، وأنه يكفي البصير عن غيره من الأدلة»؛ فسيرته آية من آياته، فقد كانت أنقىٰ سيرة وأطهر سيرة وأعظم سيرة، ولقد عاش ﷺ أكثر عمره بين أعدائه في مكة، ثم في مجتمع فيه اليهود والمنافقون في المدينة، فما استطاع أحد منهم أن يَلمز شخصه بشيء يَعيبه؛ بل كانوا يعرفونه بالصادق الأمين، وقالوا حتىٰ بعد البعثة: ما جرّبنا عليك كذبًا.

ثالث عشر: ندرس سيرة المصطفىٰ ﷺ لأننا نعلم أنَّ الأسوةَ الصالحة أولُ أساسيات الفلاح والتوفيق، في هذه الحياة، وإن في حياة كل منا شخصيةً يُعجَب بها، ويتمنىٰ أن يكون هو هذه الشخصية، ويتقمّصها ويستحضرها في تصرفاته، وقل لي أي شخصية تتمنىٰ أن تكونها! أقل لك من أنت!

والله -عز وجل- يبين أن المؤمنين أسوتهم الحقيقية رسول الله ﷺ، قال -تعالىٰ-: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١]؛ فالتأسي بالرسول ﷺ دين، واعتباره الشخصية المُثلىٰ قربة يتقرب به العبد إلىٰ الله -سبحانه-، وهو مأجور علىٰ نيته تلك -ربَّما- أجرًا يفوق عمله، وكيف يكون النبي ﷺ أُسوة لنا، إن لم نعرف سيرته، وحياته؟، كيف لنا أن نتأسىٰ به في عبادته، ونحن لم نعرف عبادته في منزله؟ بل لا نعرف ماذا يفعل

في بيته؟ وكيف عامل زوجته؟ وكيف عامل أصحابه؟ وكيف كان في السِّلم؟ وكيف كان في الحرب؟، ولن نستطيع ذلك ما لم تُحفظ هذه السيرة، وتُدرس سيرته وهديه ومدخله ومخرجه وأقواله وأفعاله وكل أمر أقرّه ﷺ [1]. وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب[2].

ومن الأصول التي يجب علىٰ الإنسان معرفتها: معرفة العبد لنبيه بعد معرفته لربه ودينه؛ ومعرفة النبي ﷺ تتضمن خمسة أمور:

- معرفته ﷺ نسبًا؛ فهو أشرف الناس نسبًا.
- معرفة عام ومكان ولادته، ومهاجره.
- معرفة حياته النبوية، وهي ثلاث وعشرون سنة.
- بماذا كان نبيًّا ورسولًا؟
- بماذا أُرْسِلَ ولماذا؟[3].

فقد أُرْسِلَ بتوحيد الله -تعالىٰ- وشريعته المتضمنة لفعل المأمور وترك المحظور، وأُرْسِلَ رحمةً للعالمين لإخراجهم من ظلمة الشرك والكفر والجهل إلىٰ نور العلم والإيمان والتوحيد، حتىٰ ينالوا بذلك مغفرة الله ورضوانه وينجوا من عقابه وسخطه[4].

---

(١) بكر أبو زيد، التأصيل لأصول التخريج وقواعد الجرح والتعديل، الطبعة الأولى (الرياض: دار العاصمة د، ت)، (١/ ٦٦).

(٢) انظر: ابن اللحام، القواعد والفوائد الأصولية (ص ٩٤).

(٣) انظر: الشيخ محمد بن صالح العثيمين، شرح ثلاثة الأصول للإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- ضمن مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (٦ / ١٢١).

(٤) المرجع السابق (ص ١٢١ – ١٢٢).

رابع عشر: يقول الله -تعالىٰ-: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١١١]، وإذا كان في قصص الأنبياء -عليهم السلام- عبرة لأولي الألباب، فمن باب أولىٰ أن تكون سيرته العطرة ﷺ كذلك.

خامس عشر: أنقل كلامًا طويلًا عن منزلة تعلم السيرة النبوية أورده الكتاني -رحمه الله تعالىٰ- في كتابه التراتيب الإدارية: (قال الإمام أبو الحسين أحمد بن فارس الرازي في مختصره في السير، أوله: («هذا ذِكر ما يحق علىٰ المرء المسلم حفظه، ويجب علىٰ ذي الدين معرفته، من نسب رسول الله ﷺ، ومولده ومنشئه وشيعته، وذكر أحواله في مغازيه ومعرفة أسماء ولده، وعمومته وأزواجه؛ فإن للعارف بذلك رتبة تعلو علىٰ رتبة من جهله، كما أن للعلم به حلاوة في الصدر، ولم تعمر مجالس الخير بعد كتاب الله بأحسن من أخبار رسول الله ﷺ »؛ منها قال الإمام أبو العباس العزفي السبتي في الدر المنظم بعد نقل كلام ابن فارس مشيرًا إلىٰ قوله يجب: «فهذا إمام من أئمة المسلمين قضىٰ بوجوب معرفة مولده علىٰ المؤمنين»، وقال أبو عيسىٰ المهدي بن أحمد بن علي الفاسي في شرحه الوسط علىٰ الدلائل إثر كلام ابن فارس: والوجوب في كلامه يحتمل الوجوب الشرعي أو العرفي، بمعنىٰ ينبغي مرجعه إلىٰ اعتبار الأولىٰ والأخلق، وقد حمله العزفي علىٰ الوجوب الشرعي، والله أعلم. وعليه فيحتمل وجوب معرفة جميع ما ذكر أو بعضه وباقيه استطراد وزيادة خير، للعارف به رتبة، كما قال، تعلو علىٰ رتبة من جهله، والله أعلم. والظاهر حمل الوجوب علىٰ الشرعي، وأنه يتعلق بجميع ما عدد. وللقرافي في الذخيرة وأشار إليه في شرح الأربعين: أن جملة الأحوال المتعلقة بالرسول، كلها فضلًا عمّا به يتعين يرجع إلىٰ العقائد لا إلىٰ العمل، فيجب البحث عن ذلك ليحصل كمال المعتقد)[١].

---

(١) الكتاني، التراتيب الإدارية، تحقيق عبد الله الخالدي، الطبعة الثانية (بيروت: دار الأرقم)، (١/ ١٧).

ويقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (ومن هاهنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلىٰ معرفة الرسول وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلىٰ السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا علىٰ أيدي الرسل، ولا سبيل إلىٰ معرفة الطيب والخبيث علىٰ التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضا الله ألبتة إلا علىٰ أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاءوا به، فهم الميزان الراجح الذي علىٰ أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم تُوزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدىٰ من أهل الضلال؛ فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلىٰ روحه والعين إلىٰ نورها والروح إلىٰ حياتها، فأي ضرورة وحاجة فرضت، فضرورة العبد وحاجته إلىٰ الرسل فوقها بكثير. وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفة عين فسد قلبك، وصار كالحوت إذا فارق الماء ووضع في المقلاة، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال بل أعظم، ولكن لا يحس بهذا إلا قلب حي، وما لجرح بميت إيلام، وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ فيجب علىٰ كل من نصح نفسه وأحب نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقل ومستكثر ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)[1].

ويقول الشيخ محمد العثيمين -رحمه الله تعالىٰ-: (ينبغي لنا بل يتأكد أو يجب علينا أن نعرف سيرة النبي ﷺ منذ وُلد إلىٰ أن تُوفي، ولا سيما سيرته بعد أن أكرمه الله -تعالىٰ- بالرسالة، حتىٰ نعرف أحواله وأخلاقه وعباداته ودعوته وأعماله حتىٰ يتم

(١) ابن القيم، زاد المعاد، تحقيق الأرناؤوط، الطبعة السابعة والعشرون (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤١٥)، (١/ ٦٨-٦٩).

لنا التأسي به، ولا شك أن معرفة سيرة النبي ﷺ مما تزيد الإنسان إيمانًا ومحبة له، وتُقَوِّي التأسي به -عليه الصلاة والسلام-)[1].

وقال الشيخ محمد عطية سالم -رحمه الله تعالىٰ-: (إن دراسة حياة المصطفىٰ -صلوات الله وسلامه عليه- في شخصه، في بيته، في مجلسه، في طعامه وشرابه ولباسه واجب علىٰ كل مسلم: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ ﴾ [الأحزاب:٢١]، وكيف تتأسىٰ بمن تجهل حياته وأحواله؟)[2].

سادس عشر: إذا تعلم الشخص وعمل بما علم، وجب عليه القيام بالدعوة إلىٰ الله، والسيرة النبوية المطهرة منهج دعوي، بل هي المنهج الدعوي الأتم.

نعرف كيف كسب النبي ﷺ قلوب الناس واستمالهم إلىٰ هذا الدين؟ كيف عامل أصحابه؟ كيف علمهم؟ كيف التقىٰ بهم؟ كيف نصحهم؟ كيف حافظ علىٰ من دخل منهم إلىٰ الإسلام؟ كيف أثنىٰ عليهم؟ هل استشارهم؟ وهذا لا غنىٰ للداعية عنه اليوم.

سابع عشر: السيرة علم واسع، بل هي -في نظري من أوسع العلوم وأشملها- يدخل فيها، وينضوي تحت لوائها، كل العلوم الشرعية، فمن خلال السيرة يمكن معرفة ما يلي:

---

(١) ابن عثيمين، تفسير سورة النساء، الطبعة الثانية (الدمام: دار ابن الجوزي ١٤٣٥)، (١/ ٢٩١).

(٢) محمد عطية سالم، شرح بلوغ المرام (الموسوعة الشاملة) (٩ / ٢١٣). وقال -رحمه الله تعالى- في الموضع نفسه: (يذكر ابن فرحون -رحمه الله تعالى في كتاب له مخطوط إلى الآن في المسجد النبوي- في القرن السابع الهجري، قال: كان العلماء في المسجد النبوي إذا دخل شهر رمضان ترك كل إنسان الدروس، صاحب التفسير ترك تفسيره، صاحب الحديث ترك حديثه، صاحب الفقه تركه، صاحب اللغة الأدب، كل معلم في المسجد يترك المادة التي كان عليها ويدرس الجميع الشمائل النبوية. يعني: الصفات الخلقية والخُلقية؛ حتى يتعلموا ويعرفوا من هو رسول الله ﷺ).

أ – العقيدة: وتتجلىٰ أهمية العقيدة والتركيز علىٰ التوحيد لدارس السيرة النبوية الشريفة حينما يرىٰ اهتمام الرسول ﷺ بتوحيد العبادة وإصلاح العقيدة في دعوته، وكيف أن الرسول ﷺ بدأ بالتوحيد وشغل نفسه به أول دعوته، وركز عليه في بقية أكثر حياته النبوية. ويعرف ما هو التوحيد الذي كان يدعو إليه الرسول ﷺ، وأنه توحيد الألوهية أي إفراد الله –جل شأنه– بالعبادة، فلا يتوجه المسلم بشيء من العبادات لغير الله –جل شأنه–، وليس التوحيد هو توحيد الربوبية فقط الذي يعني إفراد الله –جل شأنه– بأفعاله، كالإقرار بأنه هو الخالق والرازق والمدبّر، فإن كفار قريش كانوا مقرّين بهذا، ولم ينفعهم؛ بل كان جوهر ما يدعو إليه الرسول ﷺ إخلاص العبادة لله وحده، فكل عبادة لا يجوز صرف شيء منها لغير الله –جل شأنه– ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥]، ومن قرأ سيرة الرسول ﷺ عرف هذا جليًّا.

ب – الأحكام: من خلال السيرة النبوية يجري الاطلاع علىٰ الأسئلة التي تُعرض علىٰ الرسول ﷺ ومعرفة إجابته عليها؛ فضلًا عن سائر أقواله وأفعاله التي هي فيها تشريع وأحكام، وتُرشد إلىٰ أحكام فقهية كثيرة تهم المسلمين في أمور حياتهم الدنيوية والأخروية.

ت – الأخلاق والسلوك: ونعرف هذا الجانب المهم من خلال الاطلاع علىٰ تعامل الرسول ﷺ مع صحابته وزوجاته وخدمه وغيرهم من أفراد المجتمع.

ث – الدعوة إلىٰ الله –تعالىٰ–: في السيرة النبوية المواقف المهمة في موضوع الدعوة وأسلوبها والصبر عليها، مما لا يمكن للدعاة إلىٰ الله القيام بالدعوة بدونها.

فالعالم بالسيرة وفقهها قد جمع أصول العلوم بأدلتها بين جنبيه.

وأختم بقول الإمام في السيرة، أبي القاسم السهيلي -رحمه الله تعالىٰ-: (فهذه جملة تشرئب إلىٰ معرفتها أنفس الطالبين، وترتاح بالمذاكرة بها قلوب المتأدبين، وكل ما كان من باب المعرفة بنبينا -عليه السلام-، ومتصِلًا بأخبار سيرته مما يونق الأسماع، ويهز بأرواح المحبة الطباع، والحمد لله علىٰ ما علّم من ذلك)[1].

(١) السهيلي، الروض الأنف تحقيق الوكيل، الطبعة الأولى (بيروت: دار الإحياء التراث العربي ١٤١٢)، (٥/ ٢٤٩)

ثالثاً: لماذا ندرس فقه السيرة؟

ليس الغرض من دراسة السيرة النبوية، الوقوف علىٰ الأحداث والوقائع التاريخية، وإتباعها بالتعجب والثناء فحسب.

ولا سرد ما حسُن وجمُل من القصص والأحداث، وإشغال المجالس في عرضها وتفاصيلها كما يلهو البعض في الحديث عن سِيَر وتراجم بعض مَن يعدونهم مِن الأبطال.

إن الغرض من جمع السيرة النبوية وتوثيقها، هو استخلاص الدروس والعبر، والسعي إلىٰ تحويل هذه السيرة إلىٰ كائن حي كأننا نراه، ثم نتأسىٰ به، ونتتبع خطاه، ونقتفي أثره، ونجعله معيارًا توزن به كل أعمالنا صغيرها وكبيرها، وسائر تصرفاتنا في حقوق الله وفي حقوق الناس، في عقائدنا وعباداتنا، ومعاملاتنا، وأخلاقنا.

ما قيمة أن نحفظ السيرة النبوية؛ إذا لم نأخذ منها الدرس؟!

ما قيمة السيرة النبوية في رجل يحفظ السيرة، ويقرأ جهاد الرسول ﷺ في تقرير التوحيد، وإفراد الله بالعبادة، ومحاربة الشرك، وتكسير الأصنام، وبعث الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- لهدم القباب المبنية علىٰ القبور، ومنع الطواف عليها، ثم في أصغر موقف يمر به، يهرع إلىٰ قبر ولي يستغيث به، ويجأر إلىٰ ميت يدعوه، ويطلب المدد منه !! أو يطلب البركة من شجرة أو حجر أو غار، بل أو مِنْ وليٍّ صالح، [والبركة من الله][1] وحده.

(١) هذا نص حديث رسول الله ﷺ كما صحيح البخاري (٣٥٧٩) من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه-.

ما قيمة السيرة فينا إذا لم نفهم معنىٰ لا إله إلا الله، تلك التي تعني لا معبود بحق إلا الله، تلك الحقيقة العظمىٰ التي فهمها أبو جهل وسائر كفار قريش حينما دعاهم للتوحيد قالوا للرسول ﷺ : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص:٥]؛ ذلك المعنىٰ الذي فهمه أبو طالب وأصر علىٰ عدم النطق بـ«لا إله إلا الله»؛ لأنه يعرف معناها، وأكد أنه يموت علىٰ ما مات عليه أبوه عبد المطلب.

لا إله إلا الله التي كانت دعوة الرسول ﷺ في مكة ثلاثة عشر عامًا، ينادي بها عند الكعبة، وفي منتديات قريش، وفي المشاعر، وفي أسواق العرب يقول لهم: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، فيأبون عليه؛ لأنهم يعرفون معناها.

لأن معناها تنقية القلوب من التعلق بغير الله كائنًا من كان، فما عدا الله مخلوق والله هو الخالق، وما عدا الله عبد، والله -جل شأنه- هو المعبود وحده، وكل العبودية بكل صورها لا تُصرَف إلا لله -سبحانه وتعالىٰ-.

وفي عصرنا يقولها الشخص مائة مرة في اليوم، ولأنه لم يعرف معناها فهو يجرحها أو ينقصها أو ينقضها مثل ذلك؛ بأقواله وأفعاله وما احتواه قلبه من التفات إلىٰ غير الله -سبحانه وتعالىٰ-، وكأن الله -جل شأنه- غيرُ مطلع علىٰ في القلوب من قاذورات التعلق والالتفات إلىٰ غيره -سبحانه وتعالىٰ-.

أعظم القاذورات أن يكون في قلوبنا تعلق بغير الله، من رجاء أو خوف أو محبة أو تذلل أو خضوع أو غيرها من سائر العبادات القلبية، وما يتبعها من عبادات الجوارح.

ما لنا عند أول ضيق نهرع إلىٰ غير الله -جل شأنه- نطلب منه العون ونشكو إليه الحال ونلتمس منه الفرج؟!

إن من أعظم فقه السيرة ألَّا يكون في القلب إلا الله، أن نطّهر هذا القلب من الالتفات إلىٰ مخلوق، أو رجاء مخلوق، أو خوف مخلوق، فالذل كل الذل في ذلك، والعزة والعطاء في أن يتعلق القلب بالخالق محبةً ورجًاء وخوفًا وتعبدًا.

إن من أعظم فقه السيرة أن نستجيب إلىٰ ما دعا إليه محمد النبي الكريم ﷺ، وأن نهتم بما اهتم به، وأن نعطي الأولوية للأمر الذي أعطاه الأولوية، وأن نبادر إلىٰ الابتعاد عما حذَّر منه، وأن نخاف ممَّا خوَّفنا منه، كيف لشخص أن يطمئن والله -جل شأنه- يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨]؟، فالشرك غير داخل في المغفرة، والرسول ﷺ يقول: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»[(١)]؛ هذا القول يقول ﷺ لمن؟! يقوله للصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين-. فكيف بنا نحن؟ هل نقول إننا فهمنا سيرة نبينا ﷺ، بل هل يسوغ لنا أن نقول: إننا فقهنا سيرة نبينا ﷺ، ونحن لا نزال لم نعطِ التوحيد حقّه، ونخلص العبادة لله وحده، ونخشىٰ صغائر الشرك قبل كبائره؟ وننقي القلب من كل توجُّه إلىٰ غيره -سبحانه وتعالىٰ-.

ما قيمة السيرة النبوية في رجل يحفظها، ثم لا يَقَرُّ في قلبه محبة رسول الله ﷺ اللائقة به؛ قال -تعالىٰ-: ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ

(١) عن محمود بن لبيد -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء» رواه الإمام أحمد في مسنده (٣٩/ ٣٩) رقم (٢٣٦٣٠). قال المحقق الأرناؤوط: «إسناده جيد، رجاله رجال الصحيح. وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٠٧)، وقال: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح». وعن معقل بن يسار -رضي الله تعالى عنه- قال: انطلقت مع أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- إلى النبي ﷺ. فقال: «يا أبا بكر! للشرك فيكم أخفى من دبيب النمل». فقال أبو بكر: وهل الشرك إلا من جعل مع الله إلهًا آخر؟ فقال النبي ﷺ : «والذي نفسي بيده، للشرك أخفى من دبيب النمل، ألا أدلك على شيء إذا قلته ذهب عنك قليله وكثيره؟». قال: «قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم». أخرجه البخاري في الأدب المفرد وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ص ٢٦٥-٢٦٦)، رقم (٧١٦).

وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤]؛ يقول القاضي عياض -رحمه الله تعالىٰ-: (فكفىٰ بهذا حضًّا وتنبيهًا ودلالةً وحجةً علىٰ إلزام محبته، ووجوب فرضها، وعِظم خطرها، واستحقاقه لها ﷺ؛ إذ قرّع -تعالىٰ- مَن كان ماله وأهله وولده أحبّ إليه من الله ورسوله، وأوعدهم بقوله -تعالىٰ-: ﴿ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾؛ ثم فسّقهم بتمام الآية، وأعلمهم أنهم مِمَّن ضلّ ولم يهده الله)[١].

وعن عبد الله بن هشام -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخِذ بيد عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه-، فقال له عمر -رضي الله تعالىٰ عنه-: يا رسول الله، لأنتَ أحبّ إليَّ من كل شيء إلا من نفسي. فقال النبي ﷺ: «لا، والذي نفسي بيده، حتىٰ أكون أحب إليك من نفسك». فقال له عمر -رضي الله تعالىٰ عنه-: فإنه الآن، والله، لأنت أحب إليَّ من نفسي، فقال النبي ﷺ: «الآن يا عمر»[٢].

---

(١) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى (بيروت: دار الفكر ١٤٠٩) (٢/ ١٨)، قال القاري في شرح الشفا (٢/ ٣٦)، «واعلم أن المراد بالحب هنا ليس الحب الطبيعي التابع لهوى النفس؛ فإن محبة الإنسان لنفسه من حيث الطبع أشد من محبة غيره، وكذا محبة ولده ووالده أشد من محبة غيرهما، وهذا الحب ليس بداخل تحت اختيار الشخص بل خارج عن حد الاستطاعة فلا مؤاخذة به لقوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾، بل المراد الحب العقلي الاختياري الذي هو إيثار ما يَقتضي العقل رجحانه، وإن كان على خلاف الطبع؛ ألا ترى أن المريض يكره الدواء المر بطبعه، ومع ذلك يميل إليه باختياره ويهوى تناوله بمقتضى عقله؛ لما علم أو ظن صلاحه فيه، وكذلك المؤمن إذا علم أن الرسول -عليه الصلاة والسلام- لا يأمر ولا ينهى إلّا بما فيه صلاح دينه ودنياه وآخرته وعقباه وتيقن أنه -عليه الصلاة والسلام- أشفق الناس عليه وألطفهم إليه، وحينئذ يرجّح جانب أمره بمقتضى عقله على أمر غيره، وهذا أول درجات الإيمان، وأما كماله فهو أن يصير طبعه تابعًا لعقله في حبه -عليه الصلاة والسلام-. وقيل ومن محبته: نصر سُنته، والذب عن شريعته، والاقتداء بسيرته».

(٢) صحيح البخاري (٨/ ١٢٩) رقم (٦٦٣٢).

وأنت أيها القارئ الكريم، كيف أنت مع هذه المحبة؟، هذا الحديث يعلمك الحكم، ودراسة السيرة النبوية وفقهها تغرس فيك تلك المحبة غرسًا متجذرًا، تسري فروعه في العروق، لتهيمن محبته ﷺ علىٰ كل محبوب بعد محبة الله -جل شأنه-.

أما جزاء من أحب الرسولَ ﷺ؛ فعن أنس -رضي الله عنه- أن رجلًا سأل النبي ﷺ، فقال: متىٰ الساعة؟ قال ﷺ: «وماذا أعددت لها». قال: لا شيء، إلا أني أحب الله ورسوله ﷺ، فقال: «أنت مع مَن أحببتَ». قال أنس -رضي الله تعالىٰ عنه-: فما فرحنا بشيء، فرحنا بقول النبي ﷺ: «أنت مع مَن أحببتَ». قال أنس -رضي الله تعالىٰ عنه-: (فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر، وعمر -رضي الله تعالىٰ عنهم-، وأرجو أن أكون معهم بحبّي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم) [(١)].

فالسيرة أن تَعْلم، وفقه السيرة أن تُحِب. وشتان بينهما!!

ما قيمة العلم بالسيرة إذا كان الشخص يقرأ وصف الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- لصلاته ﷺ، وأنه كان يقوم حتىٰ تتورم قدماه، ويقول: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»، ثم لا يحافظ علىٰ السنن الرواتب؟!، وهي حريم الفرائض، مَن ضيَّعها أوشك أن يُضيّع بعض الفرائض!! وعلىٰ ذلك فِقِسْ سائر عباداته ﷺ.

ما قيمة السيرة النبوية في رجل يحفظ نصوصها حتىٰ لا يخفىٰ عليه شيء من تعامل الرسول ﷺ في بيته، وأنه يكون في مهنة أهله، ثم هو إذا عاد إلىٰ بيته دخله كأنه أسد هصور، ظلوم غشوم، يرىٰ في نفسه أنه معصوم، يُبْصِرُ الْقَذَاةَ في عَيْنِ زوجه أو أخيه، وَيَنْسَىٰ الْجِذْعَ فِي عَيْنِهِ؟!

ما قيمة السيرة في رجل يحيط بجوانبها، ويحفظ لعن صاحب السيرة ﷺ لآكل الربا، وهو يُصبح ويمسي مرابيًا؟!

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ١٢) رقم (٣٦٨٨)، وصحيح مسلم (٤/ ٢٠٣٢) رقم (٢٦٣٩).

إن الغرض من السيرة هو فقهها، وهو أن يستحضر قارئها هذا النموذج الأمثل، الذي تستهدف الشريعة صناعته واقعًا حيًّا في الناس؛ بحيث يقارن واقعه بواقعه، وتوحيده بتوحيده، وعبادته بعبادته، وتعامله بتعامله، وسلوكه بسلوكه، ويسعىٰ -قدر ما يمكنه- للاقتراب من هذه الشخصية التي كانت يومًا من الأيام تسير علىٰ هذه الأرض، ثم ارتحلت، بعد أن أدّت الواجب، وأبقت الوصف نقيًا لمن يريد أن يتأسىٰ، لا لمن يريد أن يتسلىٰ.

إن فقه السيرة يقتضي أن نقتنع بأن نصوص الشرع أفضل دستور، وأعلىٰ تشريع، وأكمل قانون، وأنفع تنظيم؛ لأنها أنتجت لنا هذه السيرة العظيمة، وخرّجت أفضل جيل، وهم جيل الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين-؛ الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

إن فقه السيرة يقتضي أن نعمل، فلا عذر لقاعد قادر، وبين ناظريه النص جليًّا، والسيرة واضحة.

فقه السيرة هو الفيصل بين الأماني والحقائق؛ فقراءة السيرة، والوقوف عند ذلك أماني وأحلام، لكنَّ الفقه يقظة وجِدٌّ، وعمل والتزام وسباق ومنافسة.

ستظل السيرة النبوية تُخلّد حياة أكرم مخلوق، حافظة لكل دقائق حياته التي رواها أهل الحديث والسير، يُشع ضوئها في كل مكان، وسنبقىٰ عُمْيًا إذا لم نفقهها ونعمل بها، وما يستفيد الأعمىٰ من النور إذا كان فاقدًا لبصره؟!

لأجل ذلك كانت هذه الفكرة، ونشأ هذا الكتاب، ثم ترعرع رجاء أن يُسهم في الاستفادة من سيرة الرسول ﷺ، واستثمارها الاستثمار الأتم الأكمل في حياتنا العاجلة والباقية.

فاللهم استجب، وأَعِنْ، وسدّد، وحقّق الأمل، وأعظم النفع وبارك فيه، وتقبله عندك أحسن القبول.

رابعًا: أسباب اختيار جزيرة العرب منطلقًا للرسالة الخاتمة[١]

١) إن جزيرة العرب أرض حرة، لا سلطان لأحد من البشر عليها، ممن يعادون الدين من تلك الإمبراطوريات المعاصرة كالفرس والروم ونحوهم.

٢) إن جزيرة العرب لم تكن ذات ديانة موحدة غالبة في سائر بقاعها، فقد كانت الوثنية منتشرة، لكنها عبادات شتىٰ، فمنهم مَن يعبد الملائكة، ومنهم مَن يعبد الكواكب، ومنهم من يعبد الأصنام -وهم الأغلبية-، ومع ذلك فهذه الأصنام متعددة، وربما كان لكل بلد صنم، وكان في معتقداتهم خلخلة، وفيهم من كان يرفض ذلك ويتحدث بنقده، ومنهم من كان علىٰ دين اليهودية أو النصرانية، وقلة متمسكة ببقايا من الحنيفية دين إبراهيم -عليه السلام-.

٣) بالإضافة إلىٰ ما سبق فإن الأوضاع الاجتماعية في الجزيرة العربية لها قيمتها ومكانتها في ذلك الوقت، فقد كان النظام القَبَلِيّ هو النظام السائد، وكان للعشيرة وزنُها في هذا النظام، فلما قام محمد ﷺ بدعوته وجد من قوة بني هاشم نصرةً له وحماية، يتقدم هؤلاء عمه أبو طالب، ثم مَن نصره ووقف معه يوم الحصار في الشِّعب، بل إن من الداخلين في الإسلام من استفاد من هذه العصبية القبلية.

٤) إن العرب الذين عاشوا في جزيرة العرب وفي مكة خاصة، كانوا بعيدين عن مظاهر المدنية، فهم -كما يقال- خامات طبيعية، لم تؤثر فيهم الحضارات والأفكار الأخرىٰ.

---

(١) حينما نتحدث عن هذه الأسباب فلا يَعْودُ هذا في الغالب أن يكون اجتهادًا في معرفة سبب الاختيار لا نملك عليه دليلاً من النصوص الشرعية، وإنما هو توقُّع وتلمُّس للأسباب، والعلم بالحكمة الحقيقية عند الله -سبحانه وتعالى-.

٥) وردت آثار، وأيدها بعض الباحثين تشير إلىٰ أن مكة المكرمة تقع وسط العالم[١]، وهذا مما يسهّل اتصال هذه الرسالة بمختلف البقاع وانتشارها بين الناس،

(١) انظر في من ذكر أن مكة وسط العالم ما يلي:

أولًا: من الناحية الشرعية:

أ- آثار مروية عن بعض الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، مثل عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- في الطبري ٥/ ٥٩١ وابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- (٢/ ٥٥٣).

ب- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢ / ١٥٣).

ت- تفسير ابن عطية (٢/ ٣٢٢).

ج- تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٢/ ١٢و٤/ ٥٨٣).

ح- الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (٧٧٢).

خ- البسام، نيل المآرب تهذيب شرح عمدة الطالب (٢ / ٥١١).

ثانيًا: من الناحية العلمية:

عقدت الهيئة العامة للإعجاز العلمي التابعة لرابطة العالم الإسلامي في مدينة الدوحة بتاريخ ١٣/ ٤/ ١٤٢٩هـ الموافق ١٩/ ٤/ ٢٠٠٨م مؤتمرًا بعنوان «مكة مركز الأرض بين النظرية والتطبيق» تتابع فيه المُؤتَمِرون على تأييد هذا الرأي.

بحث نُشِرَ في مجلة البحوث الإسلامية، العدد الثاني (ص ٢٩٢) للدكتور حسين كمال الدين -رحمه الله تعالى- يقول في مقدمة البحث: (ومما يجدر ذِكْره في هذه المقدمة أنّي بعدما وضعت الخطوط الأولى في هذا البحث ورسمت عليها القارات الأرضية، وجدت أن مكة المكرمة هي مركز الدائرة تمر بأطراف جميع القارات أي أن الأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية موزعة حول مكة المكرمة توزيعًا منتظمًا، وأن مدينة مكة المكرمة في هذه الحالة تعتبر مركزًا للأرض اليابسة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِ ﴾ [الشورى: ٧]. والعلم عند الله -جل شأنه-).

بحث نشرته الهيئة العامة للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بعنوان «إثبات توسط مكة المكرمة لليابسة» للمهندس الدكتور/ يحيى وزير، دراسة باستخدام القياسات وصور الأقمار الصناعية، وقد قال في خاتمة بحثه (ص ٤٩): (أثبتت الدراسة العلمية التي قمنا بإجرائها عن طريق القياسات الدقيقة وصور الأقمار الصناعية، باستخدام برامج معروفة يتم الاعتماد على نتائجها في الأبحاث العلمية، أن مكة المكرمة تتوسط اليابسة، ويظهر ذلك من خلال توسطها لأربعة دوائر تمر بحدود اليابسة لقارات العالم السبع وكذلك المراكز الجغرافية لقارات العالم).

والتاريخ الإسلامي بعد ذلك شاهد علىٰ فائدة بزوغ الدعوة الإسلامية من هذه المنطقة الوسطىٰ جغرافيًّا.

٦) تفوق اللغة العربية وسعة انتشارها، ففي الجزيرة العربية كانت لهم لغة واحدة، هي: اللغة العربية في مقابل تعدد اللغات في أماكن أخرىٰ كالهند مثلًا التي فيها (١٥) لغة رسمية[١]. وقابلت مرة في الحرم شخصًا من أهل داغستان؛ فأخبرني أن لديهم في بلده ستين لغة.

٧) إن مكة المكرمة تتميز بكثرة الوافدين عليها مِن زُوّار البيت، وعُمّاره، وحُجّاجه، وأصحاب التجارة، ومنتديات الأدب والشعر، وهذا يسهّل انتشار الرسالة في الجزيرة العربية عبر العائدين من مكة إلىٰ بلادهم كل عام، وهل كان إسلام الأنصار في المدينة إلا عن طريق موسم الحج؟ وهل كانت بيعة العقبة إلا في موسم الحج؟[٢].

٨) يقول ابن خلدون -رحمه الله تعالىٰ- في مقدمته: (وسكانها [٣] من البشر أعدل أجسامًا وألوانًا وأخلاقًا وأديانًا، حتىٰ إن النبوات فإنما توجد في الأكثر فيها، ولم نقف علىٰ خبر بعثة في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية، وذلك أن الأنبياء والرسل -عليهم السلام- إنما يختص بهم أكمل النوع في خَلقهم وأخلاقهم، قال -تعالىٰ-: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وذلك ليتم القبول لما يأتيهم به الأنبياء من عند الله، وأهل هذه الأقاليم أكمل بوجود الاعتدال لهم)[٤].

---

(١) انظر: أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية (ص٢٢).

(٢) انظر: عبد الله الموسى، أسباب نجاح الدعوة الإسلامية (ص ١٣٦).

(٣) قسم ابن خلدون العالم إلى سبعة مناطق أبعدهما في الشمال والجنوب الأول والسابع، ثم الثاني والسادس، ثم الثالث والخامس، ثم الرابع في الوسط، وهذه الثلاثة الأخيرة هي التي يشير إليها بقوله: (وسكانها...).

(٤) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون (ص ١٤١ – ١٤٢).

ومن تأمل في مكة موقعًا جغرافيًّا، وما توافر فيها وفي أهلها من خصائص دينية، واجتماعية وسياسية؛ أدرك شيئًا من الحكمة الإلهية لاختيار هذه البقعة لتكون مهبط الوحي ومنطلق الرسالة الخاتمة وقِبْلة المسلمين.

خامسًا: تخصيص محمد ﷺ بالرسالة العامة، وتكريم أمته بكونها الأمة الخاتمة

المسألة الأولىٰ: من إكرام الله -جل شأنه- لنبيه محمد ﷺ تخصيصه بأعباء الرسالة وحده، قال -تعالىٰ-: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴾ [الفرقان:٥١]؛ فتخصيص الله -جل شأنه- محمدًا ﷺ بهذا المقام العظيم؛ لينهض بأعباء الرسالة العامة، وليكون رسولًا للثقلين؛ تعظيم وتكريم وتخصيص له بالأجر الكثير والثواب الذي ليس له مثيل.

فلو أراد الله -جل شأنه- لأرسل في كل مصر وعصر رسولًا يحمل عن محمد ﷺ بعض عبء ما تحمل، ويَسقط عنه بذلك عناء وتعب كثير، ولكن الله -جل شأنه- لم يُرِد ذلك، وحمَّله وحده ﷺ أثقال النّذارة لجميع القرىٰ؛ ليظهر فضله بعموم رسالته، وتفضيلًا لها علىٰ سائر الأنبياء، ويعظم أجره بعظم جهاده وصبره، ويكثر ثوابه بكثرة من يؤمن به[1].

عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالىٰ عنهما-، أن النبي ﷺ قال: «أعطيت خمسًا لم يُعطهن أحد قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليُصلِّ، وأُحِلَّت لي المغانم ولم تحلّ لأحد قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبي يُبعَث إلىٰ قومه خاصة وبُعِثت إلىٰ الناس عامة»[2].

---

(١) انظر: الرازي، التفسير الكبير (٢٤/ ٤٧٤)، والبيضاوي، تفسير البيضاوي (٤/ ١٢٧)، وعبد الحميد بن باديس، تفسير ابن باديس (ص ١٨٥- ١٨٦).

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري (١/ ٧٤) رقم (٣٣٥)، وصحيح مسلم (١/ ٣٧٠) رقم (٥٢١).

المسألة الثانية: تكريم أمة محمد ﷺ بكونها الأمة الخاتمة، وفيها:

١. كانت بعثة الأنبياء -عليهم السلام- لأقوامهم خاصة -كما سبق-، وبالتالي فهم يحملون معهم تشريعًا يتناسب مع القوم الذين بُعِثُوا إليهم، فهو تشريع ارتبطت صلاحيته بزمانه ومكانه، لا يلبث أن يطرأ عليه التعديل بحذف أو إضافة من النبي اللاحق له، حسب ما استجدَّ في البيئة الجديدة. ولما كانت بعثة محمد ﷺ عامة في الزمان والمكان، وكان النبي هو الخاتم؛ اقتضىٰ الأمر أن يكون التشريع الذي جاء به ﷺ متسقًا مع سعة الزمان والمكان، بمعنىٰ أن يكون كاملًا تامًّا، صالحًا للتطبيق، مُصلِحًا لكل أحوال الأزمنة والأمكنة أمامه، مهما نأىٰ المكان أو امتد الزمان، لا يحتاج إلىٰ إضافة، وليس فيه زيادة، ولذلك جاءت هذه الشريعة مختومة بقول المُنزّل لها الحكيم العليم -جل شأنه-: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة:٣]؛ فالدين كَمُل، والنعمة تمَّت، والرضا مُتحقّق- بفضل الله تعالىٰ- بتطبيق هذا الدين في أيّ زمان ومكان.

وهذا شرف لهذه الأمة، تبعًا لشرف نبيها ﷺ بالتشريع الكامل والنعمة التامة.

٢. إن توقُّف الوحي، ووفاة صاحب الرسالة ﷺ، لا يعني انقطاع الدعوة؛ قال -تعالىٰ-: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٤]، قال -تعالىٰ-: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، بل الدعوة إلىٰ الله ماضية إلىٰ أن يرث الله -جل شأنه- الأرض ومن عليها؛ قال -تعالىٰ-: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨]، وقد تكفَّل الله -جل شأنه- أن يحفظ هذا الدين، بأمرين:

أ. حَفِظَ اللهُ -سبحانه وتعالىٰ- القرآنَ الكريم باقيًا كما أُنْزِلَ، سالمًا من التبديل أو النقص أو الزيادة أو التحريف؛ قال -تعالىٰ-: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [يوسف:٩].

ب. أن الله -سبحانه وتعالىٰ- جعل -جعلًا كونيًّا قدريًّا لا يتبدَّل- طائفةً من أمة محمد ﷺ لا تزال قائمةً علىٰ الحق كما جاء في الأحاديث الصحيحة؛ لكي يكون منهج هذه الطائفة في الحياة وعلمها وعملها أسوة دائمة ونبراسًا وضَّاءً لكل من ينشد الحق ويستضيء بنور الإسلام[١]؛ فعن معاوية -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: سمعت النبي ﷺ، يقول: «لا يزال من أمتي أُمّة قائمة بأمر الله، لا يضرّهم مَن خذلهم، ولا من خالفهم، حتىٰ يأتيهم أمر الله[٢] وهم علىٰ ذلك»[٣]. والغالب أن المخالفة من الخارج، والخذلان من الداخل، فلا يضرّهم هذا ولا ذاك.

ولله الحمد والمنة، فقد نفَىٰ الحديث الضرّر كله، صغيره وكبيره، الداخلي والخارجي.

وقد كان ما أخبر به ﷺ، فإن هذه الأمة -ولله الحمد والمنة- لم يزل فيها طائفة ظاهرة، إن غُلبت طائفة في قُطْر من الأرض، كانت في القُطْر الآخر أُمّة ظاهرة منصورة[٤].

---

(١) انظر: بكر أبو زيد، حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات (ص ٦٨- ٦٩).

(٢) قال النووي -رحمه الله تعالى-: (المراد بقوله ﷺ: «حتى يأتي أمر الله»: من الريح التي تأتي فتأخذ روح كل مؤمن ومؤمنة) شرح صحيح مسلم (١٣/ ٦٦).

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري (٤/ ٢٠٧) رقم (٣٦٤١)، وصحيح مسلم (٣/ ١٥٢٤) رقم (١٠٣٧).

(٤) انظر: ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تحقيق على حسن وزملاؤه، الطبعة الثانية، (الرياض: دار العاصمة ١٤١٩)، (٦/ ١٢١-١٢٢).

قال النووي -رحمه الله تعالىٰ-: (وفي هذا الحديث معجزة ظاهرة؛ فإن هذا الوصف ما زال -بحمد الله تعالىٰ- من زمن النبي ﷺ إلىٰ الآن، ولا يزال حتىٰ يأتي أمر الله المذكور في الحديث، وفيه دليل لكون الإجماع حُجّة، وهو أصح ما استُدل به له من الحديث، وأما حديث «لا تجتمع أمتي علىٰ ضلالة»؛ فضعيف، والله أعلم)[1].

وكان من الأمم قبلنا (إذا بدّلوا دينهم بعث الله نبيًّا يبيّن الحق، وهذه الأمة لا نبي بعد نبيها فكانت عصمتها تقوم مقام النبوة، فلا يمكن لأحد منهم أن يُبدّل شيئًا من الدِّين إلا أقام الله مَن يُبيّن خطأه فيما بدَّله؛ فلا تجتمع الأُمة علىٰ ضلال)[2].

ومن هنا يظهر تميز هذه الأمة عندما خُتمت بها الرسالة، وظهر شرفها علىٰ سائر الأمم من خلال من النقاط الآتية:

١) إنها الأمة التي فضَّلها الله؛ بأن حَفِظ لها القرآن الكريم والسنة النبوية، فهي تقوم بنفسها مهتدية بالوحي المحفوظ لها؛ ليكون منهجًا تسير عليه، مهما امتدّ الزمان وتباعد المكان، لا يضرها مُخالف ولا خاذل، إلىٰ أن يأتي أمر الله -جل شأنه-، فهي كالرجل الذي بلغ حال التكليف والرشد، في مقابل الأمم التي كانت دون سن البلوغ والتكليف، فتحتاج إلىٰ رعاية وولاية عليها.

٢) فيه تكريم لها تعتز به، وهو تشريفها بالقيام بوظيفة الأنبياء، الدعوة إلىٰ الله.

٣) فيه تكريم لها، أنَّها أُمّة معصومة من أن تقع الأمة كلها في الخطأ، بل لا بد من أن يوجد منها وفيها تلك الطائفة المؤيدة بالحق، قائمة به، لا يبدّل أحد شيئًا من الدين إلا أقام الله من هذه الأمة مَن يبيّن خطأه.

وهذا وإن كان فيه تكريم وتشريف فهو -بلا شك - يتضمن مسؤولية عظمىٰ أمام الله -جل شأنه-، تحملته هذه الأمة، فالأجر عظيم، والحساب شديد، إن هي

(١) النووي، شرح صحيح مسلم (١٣/ ٦٧).
(٢) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية (٦/ ٤٦٦ - ٤٦٧).

قصَّرت في رسالتها، وقد قيل: (زيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل)[١]، والذنب يعظم إذا وقع ممن نال مزيد نعمة عليه[٢]. يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ- في تفسير سورة المسد: (ولم يُنْزل الله في القرآن الكريم ذمّ أحد من الكفار بالنبي ﷺ باسمه إلا هذا الرجل وامرأته، وفي هذا من العبرة والبيان أن الأنساب لا عبرة بها؛ بل النسب الشريف يكون ذمه وعقابه علىٰ تخلفه عما يجب عليه من الإيمان والعمل الصالح أشد)[٣]. قال -تعالىٰ- ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٩-٣٠]؛ يقول الجصاص -رحمه الله تعالىٰ-: (قيل في تضعيف عذابهن وجهان؛ أحدهما أنه لما كانت نعم الله عليهن أكثر منها علىٰ غيرهن بكونهن أزواجًا للنبي ﷺ ونزول الوحي في بيوتهن وتشريفهن بذلك، كان كفرانها منهن أعظم وأجدر بعظم العقاب؛

(١) الزمخشري، الكشاف (٣/ ٥٣٦). ومحمد صدقي القنوجي، حسن الأسوة بما ثبت من الله ورسوله في النسوة، تحقيق مصطفى الخن وزميله، الطبعة الثانية، (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠١) (ص١٨٥)، وقد يشكل على هذا أنه حري بهذه الأمة المفضلة أن يتجاوز عنها ما لا يتجاوز عن غيرها، وقد بيّن الجواب عن هذا ابن القيم -رحمه الله تعالى- في مدارج السالكين (١/ ٣٤٢)؛ فقال: (من كملت عليه نعمة الله، واختصه منها بما لم يختص به غيره في إعطائه منها ما حرمه غيره، فحُبِي بالإنعام، وخُصَّ بالإكرام، وخُصَّ بمزيد التقريب، وجُعِلَ في منزلة الولي الحبيب؛ اقتضت حاله من حفظ مرتبة الولاية والقرب والاختصاص بأن يراعي مرتبته من أدنى مشوش وقاطع، فلشدة الاعتناء به، ومزيد تقريبه، واتخاذه لنفسه، واصطفائه على غيره، تكون حقوق وليه وسيده عليه أتم، ونعمه عليه أكمل، والمطلوب منه فوق المطلوب من غيره، فهو إذا غفل وأخلَّ بمقتضى مرتبته نُبِّهَ بما لم يُنبَّه عليه البعيد البراني، مع كونه يُسامَح بما لم يُسامَح به ذلك أيضًا، فيجتمع في حقه الأمران).

(٢) البيضاوي، تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل، وأسرار التأويل)؛ تحقيق محمد بن عبد الرحمن المرعشلي، الطبعة الأولى، (بيروت: دار إحياء التراث العربي ١٤١٨)، (٤/ ٢٣٠).

(٣) ابن تيمية، جامع المسائل (المجموعة التاسعة)، تحقيق عبد الرحمن بن حسن قايد، الطبعة الأولى، (مكة: دار عالم الفوائد ١٤٣٧)، (ص١٩١).

لأن النعمة كلما عظمت كان كفرانها أعظم فيما يستحق به من العقاب؛ إذ كان استحقاق العقاب على حسب كفران النعمة)[١]. و(لأنَّ الذنبَ منهنَّ أقبحُ فإنَّ زيادةَ قُبحه تابعةٌ لزيادةِ فضلِ المذنبِ والنعمة عليه)[٢].

ومن الآيات الدالة على هذا المعنى قول الله -تعالى-: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٧]، وقول الله -تعالى-: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر:١-٢]، والنصوص في هذا المعنى كثيرة، والله المستعان.

(١) الجصاص: أحكام القرآن، تحقيق محمد صادق القمحاوي (بيروت: دار إحياء التراث العربي ١٤٠٥)، (٥/ ٢٢٩).

(٢) تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، أبو السعود العمادي (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، (٧/ ١٠١).

الفصل الأول

فقه السيرة من قول الله -تعالىٰ-:

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾

إلىٰ قول الله -تعالىٰ-:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾

مقدمة

الفصل الأول من هذه السيرة المباركة، لنبينا محمد ﷺ يتحدث عن مولد الرسول ﷺ إلىٰ بعثته ﷺ، وقد ارتبطت عناصر هذا الفصل بأحداث جسام، جاء الأول منها متزامنًا مع مولد المصطفىٰ ﷺ، ولعِظَم هذا الحدث فقد نزل فيه سورة كاملة، تبيّن مصير مَن يحاول الاعتداء علىٰ حرم الله، تلك السورة هي سورة الفيل، قال -تعالىٰ-: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [الفيل: ١-٥]، وهذه الحادثة حادثة أبرهة وجنده، وكانت قبل مولد النبي ﷺ بشهرين تقريبًا، وكأنها تمهيد لهذه الولادة العظيمة، وتنبيه لشأن هذا البيت وهذا الحرم، وأهله ومَن يُبعث منه.

وقد امتدت سلسلة هذه السيرة المباركة في هذا الفصل إلىٰ نزول الوحي علىٰ رسول الله ﷺ وهو في الغار في قوله -تعالىٰ- ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾.

وبالتالي فهذا الفصل هو حديث تمهيدي للبعثة النبوية الشريفة؛ تناولت فيه نسبه الشريف ﷺ، ومولده، وما عاصره من تلك الحادثة العظيمة حادثة الفيل، ثم رضاعته ونشأته في ديار بني سعد، ثم عودته إلىٰ أُمّه، ثم وفاتها، وكفالة جده ثم عمه له، ثم نشأته في شبابه، ثم زواجه، وأزواجه وأولاده، ثم مشاركته في بناء الكعبة، وصورًا من حفظ الله -جل شأنه- لنبيه ﷺ؛ ليكون الفصل التالي يبدأ من بداية نزول الوحي علىٰ الرسول ﷺ، عندما جاءه جبريل عليه السلام بـ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾.

المبحث الأول

النسب الكريم للرسول ﷺ

أولاً: علم الأنساب، وحكم تعلُّم نسب الرسول ﷺ:

علم الأنساب، من أهم العلوم التي لقيت عناية خاصة عند العرب، قال الشهرستاني في الملل والنحل: (اعلم أن العرب في الجاهلية كانت على ثلاثة أنواع من العلوم: أحدها: علم الأنساب والتواريخ والأديان، ويعدونه نوعًا شريفًا، خصوصًا معرفة أنساب أجداد النبي -عليه الصلاة والسلام-)[1]؛ بل إن علم الأنساب مما تميز به العرب عن غيرهم من الأمم، ولما جاء الإسلام أقرّهم على ذلك، وحثّ على النافع منه من صلة الأرحام، وأنكر ما يسوء من التعصب القبلي والمفاخرة[2].

قال -تعالى-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات:١٣]، قال ابن عبد البر -رحمه الله تعالى- فيه (دليل واضح على تعلم الأنساب)[3].

(١) الشهرستاني، الملل والنحل (لبنان: مؤسسة الحلبي)، (٣/ ٨٣).

(٢) ورد النهي عن جعل النسب محل افتخار وتعالٍ على الناس؛ فعن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي ﷺ قال: «لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا إنما هم فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخراء بأنفه، إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي وفاجر شقي، الناس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من تراب» رواه الترمذي في جامعه (٨/ ٤٥٥) رقم (٣٩٥٥)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وحسنه الألباني. فالنهي في هذا الحديث يتجه إلى الافتخار المذموم، لا إلى مجرد الانتساب.

(٣) ابن عبد البر، الإنباه على قبائل الرواة، تحقيق إبراهيم الأبياري، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتاب العربي ١٤٠٥)، (ص ١٥).

وفي الحديث عن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- عن النبي ﷺ قال: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم»[1].

وقال العيني -رحمه الله تعالىٰ-: (وقال أبو محمد الرشاطي[2]: الحض علىٰ معرفة الأنساب ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة)[3].

(وكان عِلْم المعارف والأنساب لهذه الأمة من أهم العلوم التي وضعها الله -سبحانه وتعالىٰ- فيهم) [4].

قال السمعاني -رحمه الله تعالىٰ-: (ومعرفة الأنساب من أعظم النعم التي أكرم الله -تعالىٰ- بها عباده؛ لأن تشعُّب الأنساب علىٰ افتراق القبائل والطوائف أحد الأسباب المُمهّدة لحصول الائتلاف) [5].

وكان أبو بكر الصديق، وعمر، وعثمان، وعليّ، وجبير بن مطعم[6] -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين-، من أعلم الناس بالأنساب.

واهتم به من التابعين ومن بعدهم من أجلة العلماء: سعيد بن المسيّب، وابنه محمد بن سعيد، والزّهريّ، في جماعة من أهل الفضل والفقه والإمامة، كمحمد

(١) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٤٧٩)، رقم (١٩٧٩)، وصححه الألباني.

(٢) هو: عبد الله بن علي بن عبد الله اللخمي الأندلسي، وُلد عام (٤٦٦)، وتوفي عام (٥٤٢) أبو محمد، المعروف بالرشاطي: عالم بالأنساب والحديث، من أهل أوريولة، سكن المرية، وتعلم بها. من كتبه «اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار»، قال ابن كثير: هو من أحسن التصانيف الكبار، وقال حاجي خليفة: هو من الكتب القديمة في الأنساب» الأعلام للزركلي (٤/ ١٠٥).

(٣) العيني، عمدة القاري (١٦/ ٦٩).

(٤) السمعاني، الأنساب، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، الطبعة الأولى: حيدر آباد: مجلس دائرة المعارف العثمانية (١٣٨٢، (ص ٢).

(٥) الأنساب، السمعاني (ص ٣).

(٦) سير أعلام النبلاء (٣/ ٩٧)، وقال: وكان جبير أنسب العرب للعرب، وكان يقول: (إنما أخذت النسب من أبي بكر الصديق، وكان أبو بكر أنسب العرب).

بن إدريس الشافعي، وأبي عبيد القاسم بن سلام، وغيرهم -رحمهم الله تعالىٰ جميعًا-[1]. ثم كثرت فيه التصانيف والمؤلفات.

هذا ما يخص علم الأنساب بعامة، أما النسب الشريف للرسول ﷺ بخاصة، فيقول ابن حزم -رحمه الله تعالىٰ-: (فوجب بذلك أن علم النسب علم جليل رفيع، إذ به يكون التعارف. وقد جعل الله -تعالىٰ- جزءًا منه تعلُّمه لا يسع أحدًا جَهْلُه، وجعل -تعالىٰ- جزءًا يسيرًا منه فضلًا تعلّمه، يكون من جهله ناقص الدرجة في الفضل. وكلّ علم هذه صفته فهو علم فاضل، لا يُنكر حقّه إلا جاهل أو معاند. فأما الفرض من عِلم النسب، فهو أن يعلم المرء أن محمدًا ﷺ الذي بعثَه الله -تعالىٰ- إلىٰ الجنّ والإنس بدين الإسلام، هو محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي، الذي كان بمكة، ورحل منها إلىٰ المدينة. وأما الذي تكون معرفته من النّسب فضلًا في الجميع، وفرضًا علىٰ الكفاية، نعني علىٰ من يقوم به من الناس دون سائرهم، فمعرفة أسماء أمهات المؤمنين، المفترض حقّهن علىٰ جميع المسلمين، ونكاحهنّ علىٰ جميع المؤمنين حرام؛ ومعرفة أسماء أكابر الصحابة من المهاجرين والأنصار -رضي الله تعالىٰ عنهم- الذين حبّهم فرض. فإن لم نعرف أنساب الأنصار، لم نعرف إلىٰ مَن نُحسن ولا عمَّن نتجاوز؛ وهذا حرام)[2].

وقال القلقشندي -رحمه الله تعالىٰ-: (العلم بنسب النبي ﷺ، وأنه النبي القرشي الهاشمي الذي كان بمكة، وهاجر منها إلىٰ المدينة، فإنه لا بد لصحة الإيمان من معرفة ذلك، ولا يُعْذَر مسلم في الجهل به، وناهيك بذلك)[3].

(١) انظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٠٣)، (٢-٣)، وابن عبد البر، الإنباه على قبائل الرواة (١٢-١٣).

(٢) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب (٢-٣).

(٣) القلقشندي، نهاية نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (المتوفى: ٨٢١هـ)، تحقيق إبراهيم الإبياري، الطبعة الثانية: (بيروت: دار الكتاب اللبناني ١٤٠٠)، (١/ ٦).

ثانيًا: نسب الرسول ﷺ:

إذا عرفت مقام علم الأنساب شرعًا، وعُرْفًا عند العرب، بعامة ومقام النسب الشريف بخاصة؛ فإن النسب الشريف لنبينا محمد ﷺ هو:

«محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مُرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان[(١)]» [(٢)]. قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (وعدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم -صلىٰ الله عليهما وعلىٰ نبينا وآله سلم- بإجماع الناس) [(٣)]. وهذا ثابت أيضًا بالحديث النبوي، وفيه «إن الله اصطفىٰ كنانة من ولد إسماعيل، واصطفىٰ قريشًا من كنانة، واصطفىٰ من قريش[(٤)] بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[(٥)]، وسيأتي بعد قليل.

(١) قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- في الفتح (٦/ ٥٢٩): (وروى ابن حبيب في تاريخه عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال مات عدنان وأبوه وابنه معد، على الإسلام على ملة إبراهيم).

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري لابن حجر (٧/ ١٦٢)، كتاب رقم ٦٣، باب ٢٨، ويمكن أن يأتي نسب الرسول من جده قصي إلى عدنان على هذا النحو تسهيلاً لحفظه: قصَّت كلابٌ مرةً كعبَ لؤي فغالبها فهرُ بن مالكٍ الذي نضَّر كنانةَ خزيمة فأدركه يأسٌ مُضِرٌّ بنزار مُعْدٍ لعدنان؛ فكل كلمة تعني اسم رجل حسب تسلسل نسب الرسول عدا الذي) أفادني بذلك فضيلة الدكتور أحمد بن محمد أبابطين -رحمه الله تعالى-، وأظن أنها من بنات أفكاره.

(٣) سير أعلام النبلاء (الجزء الخاص بالسيرة النبوية)، (١/ ٢٩).

(٤) قال ابن هشام: النضر هو قريش، فمن كان من ولده فهو قرشي، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي، وإنما سُمِّيت قريش بهذا الاسم من التقرش، وهو التجارة والاكتساب، وقال ابن إسحاق: ويقال إنما سُمِّيت قريش بهذا الاسم؛ لتجمعها من بعد تفرقها، ويقال للتجمع: تقرش، انظر: سيرة ابن هشام (١/ ١٠٢-١٠٣)، وابن كثير، البداية والنهاية (٢/ ٢٠٠- ٢٠١).

(٥) الإمام مسلم، صحيح مسلم (٤/ ١٧٨٢) رقم (٢٢٧٦). من حديث واثلة بن الأسقع -رضي الله تعالى عنه-.

ونسب الرسول ﷺ بعد ذلك بين عدنان إلىٰ إسماعيل بن إبراهيم -عليهما السلام- مختلف فيه بين أهل السير. قال عروة بن الزبير-رحمه الله تعالىٰ ورضي عن أبيه- : (ما وجدنا من يعرف ما وراء عدنان ولا قحطان إلا تخرصًا)[1].

قال ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ-: (فالأمر عندنا علىٰ الانتهاء إلىٰ معد بن عدنان ثم الإمساك عما وراء ذلك إلىٰ إسماعيل بن إبراهيم)[2] -عليهما السلام-.

أما بعد ذلك، أي من إبراهيم -عليه السلام- إلىٰ آدم -عليه السلام-؛ فمن ذكر فيه شيئًا فلا دليل معه، يمكن أن يعتمد عليه في هذا النسب، بل إن فيه نسبًا غير صحيح[3].

وأما أمه ﷺ فهي: آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، فهي تلتقي مع زوجها في جدهما (كِلَاب بن مرة)، وقصي وزهرة أبناء كلاب، أخوان، الأول: جد للنبي ﷺ من جهة أبيه، وزهرة: جد للنبي ﷺ من جهة أُمّه.

وآمنة أقرب نسبًا من زوجها عبد الله إلىٰ جدهما (كِلَاب) برجل[4].

فهذا هو النسب الشريف الذي نتعبد الله -جل شأنه-، ونتقرب إليه بمعرفته.

أجداد الرسول ﷺ:

١) قُصي[5]: هو الذي جمع قريشًا، واستعاد سلطتها علىٰ الحرم، وكانت له مكانة عظيمة في قريش حتىٰ كانوا يقولون للرسول ﷺ بعد بعثته: ابعث لنا قصيًّا، فإنه

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (الجزء الخاص بالسيرة النبوية)، (١/ ٢٩).

(٢) ابن سعد، الطبقات، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الأولى (بيروت: دار صادر ١٣٨٨)، (١/ ٥٧).

(٣) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ٥١).

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء (الجزء الخاص بالسيرة النبوية)، (١/ ٣٢).

(٥) وقُصي "اسمه: زيد، وهو تصغير قَصي أي: بَعيد، لأنه بَعُد عن عشيرته في بلاد قضاعة حين احتملته أمه فاطمة مع زوجها ربيعة بن حرام» الروض الأنف (١/ ٤٧).

كان شيخ صدق، فإن شهد لك اتبعناك[١].

٢) لما هلك قصي خلفه أولاده الأربعة (عبد مناف وعبد الدار وعبد العزىٰ وعبد قصي)، وكان أشرفهم في قريش عبد مناف الذي كانت له السقاية والرفادة[٢].

٣) بعد عبد مناف خلفه ابنه هاشم، وهو أول من سَنَّ رحلتي الشتاء والصيف، وسُمِّي هاشمًا لكونه يهشم الثريد للحجاج، واسمه الحقيقي (عمرو)[٣].

٤) ثم بعد هاشم جاء ابنه عبد المطلب الذي نشأ في المدينة، وكان شبيهًا بجده الأعلىٰ (قُصي)، وهو الذي حفر بئر زمزم، وهو الذي أقسم إن رزقه الله عشرة من الولد أن يذبح أحدهم[٤].

يقول المصطفىٰ ﷺ عن نسبه الشريف: «إن الله اصطفىٰ كنانة من ولد إسماعيل، واصطفىٰ قريشًا من كنانة، واصطفىٰ من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

وأقف هنا لأقول:

١. لقد اتفقت الكلمة، وشهد حتىٰ الأعداء بطهارة هذا النسب الشريف ورِفعته وتميزه، فقد سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان[٥] قبل إسلامه وعندما كان محاربًا للرسول ﷺ، عن نسب الرسول ﷺ فقال: (هو فينا ذو نسب)[٦].

---

(١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ٥١).

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ١٤٤).

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١ / ١٤٧).

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ١٦٤).

(٥) هذا السؤال وقع بعد صلح الحديبية، أثناء رحلة لأبي سفيان -رضي الله تعالى عنه- للتجارة، فاستدعاه هرقل، وكان أبو سفيان لا يزال في ذلك الوقت على شركه. والحمد لله الذي هداه للإيمان، قال الذهبي -رحمه الله تعالى-: (وشهد قتال الطائف -يعني مع الرسول ﷺ-، فقُلعت عينه حينئذ، ثم قُلعت الأخرى يوم اليرموك، وكان يومئذ قد حسن -إن شاء الله- إيمانه) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٠٦).

(٦) الإمام البخاري، صحيح البخاري (١/ ٥)، كتاب بدء الوحي، حديث رقم ٦.

٢. لمكانة هذا النسب الكريم لم نجد أحدًا من أعداء الرسول ﷺ ذكر طعنًا في نسبه، مع حرصهم الشديد علىٰ اختلاق كل ما يمكن أن يشوِّه سمعته أو ينقص من مقامه الشريف ﷺ.

٣. إن النبي ﷺ أخبرنا بهذه النسب الشريف؛ تحدثًا بنعمة الله عليه وشكرًا له، وقد قال الله -تعالىٰ-: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ [الضحىٰ:١١]، ولأنه من جملة ما خصَّه الله -جل شأنه- به من الفضائل والمكارم، (وهذه الخصائص والفضائل التي حَدَّث بها النبي ﷺ عن نفسه، إنما كان ذلك منه؛ لأنها من جملة ما أُمِرَ بتبليغه؛ لما يترتب عليها من وجوب اعتقاد ذلك، وأنه حقّ في نفسه، وليُرغِّب في الدخول في دينه، وليتمسك به من دخل فيه، وليعلم قدر نعمة الله عليه في أن جعله من أُمَّة من هذا حاله، ولتعظم محبَّته في قلوب مُتَّبعيه، فتكثر أعمالهم، وتطيب أحوالهم، فيحشرون في زمرته، وينالون الحظَّ الأكبر من كرامته. وعلىٰ الجملة فيحصل بذلك شرف الدنيا، وشرف الآخرة؛ لأنَّ شرف المتبوع متعدٍّ لشرف التابع علىٰ كل حال)[(١)].

٤. جاء الإسلام والعرب يتفاخرون بالأنساب، وينزلونه المنزلة الأولىٰ في التفاضل، ثم تأتي بعده عندهم الفضائل الأخرىٰ[(٢)]، والإسلام في شرائعه يهذّب الطبائع والأعراف، ويوجّهها إلىٰ ما فيه الخير، ولا يصادمها، ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلًا، يقول الرسول ﷺ : «ولينصر الرجل أخاه ظالمًا أو مظلومًا، إن كان ظالما فليَنْهه، فإنه له نَصْر، وإن كان مظلومًا فلينصره»[(٣)]. هذا مثال علىٰ توجيهٍ من الرسول

(١) أبو العباس القرطبي، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، تحقيق محيي الدين ديب ميستو وزملائه، الطبعة الأولى، (دمشق: دار ابن كثير، دمشق ١٤١٧، ٦/ ٤٩).

(٢) انظر: موسى لاشين ، فتح المنعم شرح صحيح مسلم، الطبعة الأولى (دار الشروق: ١٤٢٣)، (٩/ ٨٤).

(٣) متفق عليه: صحيح مسلم رقم (٢٠٨٤)، واللفظ له من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما-، وصحيح البخاري (٣/ ١٢٨) رقم (٢٤٤٣)، من حديث أنس -رضي الله تعالى عنه- بمعناه.

ﷺ لما يتعارف عليه العرب في التناصر، دون نظر لأخيهم هل هو ظالم أو مظلوم؛ فأقر الرسول ﷺ المبدأ في جُملته، مع تعديلٍ يتّفق مع أصول الإسلام، ومثل ذلك الاهتمام بالانتساب للقبائل أقرّه الإسلام، لكن جعل منزلته بعد منزلة التقوىٰ، واعتبره وسيلة للتعارف وأداء الحقوق، وصلة الرحم، لا غاية بذاته، قال -تعالىٰ-: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣]. وعن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه-، أن رسول الله ﷺ، قال: «تجدون الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، إذا فقهوا»[(١)].

٥. هذا المبدأ المعلن يُطبّق عمليًّا في الإسلام، فأبو لهب هاشمي قرشي عمّ للرسول ﷺ، ولما لم يؤمن قال الله -جل شأنه- فيه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد:١-٣]، وبلال -رضي الله تعالىٰ عنه- كان عبدًا حبشيًّا يُباع ويُشترىٰ في مكة، ولما آمن أخبرنا جابر بن عبد الله -رضي الله تعالىٰ عنهما- أن عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- كان يقول: (أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا؛ يعني بلالًا)[(٢)]. فالقَبَلِيّ الهاشميّ القرشيّ يقال له (تبت يدا أبي لهب وتب) لما كفر، وبلال يصبح سيدًا بعد أن كان عبدًا، لما آمن.

٦. ولا يعني هذا إلغاء هذا التفاضل القبلي، بل توجيه وتهذيب، ثم لما استقرت النفوس علىٰ المنزلة الفضلىٰ والدرجة العليا للإيمان والتقىٰ، جاز شيء من الفخر الذي هو حمدٌ وشكرٌ علىٰ النعمة، لا تعالٍ للنفس، أو ازدراء لآخر، وعليه يُحمل ما ورد علىٰ ألسنة بعض الشعراء المسلمين.

٧. وعلىٰ هذا فإن الانتماء القَبَلي لا يعدو أن يكون مِثْل سائر ما يَمنحه الله -جل شأنه- للشخص من سائر نِعَمه، كالغنىٰ والفقر، والعلم والجهل، والذكاء

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (٤/ ١٧٨) رقم (٣٤٩٣)، وصحيح مسلم رقم (٢٥٢٦).
(٢) صحيح البخاري (٥/ ٢٧) رقم (٣٧٥٤).

وضده، ونحوه مما هو مُكتَسب أو غير مكتسب[١]، وليس لشخص أن يتباهىٰ بماله أو بذكائه، أو بعلمه، وكذا (الفخر بمجرد النسب لا يجوز)[٢]، (والتفاخر بالأنساب من دعوىٰ الجاهلية، وقد تبرأ النبي ﷺ من هؤلاء)[٣]، وعليه فإن العبرة كيف تَعَامَل الشخصُ مع هذا المال، أو الذكاء، أو العلم، أو النسب، فإن سخّره في طاعة الله -تعالىٰ- كان حجة ونورًا لصاحبه، وإن سخَّره في التعالي علىٰ الناس واحتقارهم، فهو وبالٌ عليه، والمتكبرون المتعالون علىٰ الناس -سواء بسبب مالهم أو مناصبهم أو نسبهم- يحشرون يوم القيامة أمثال الذر يطؤوهم الناس، عن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه-، عن النبي ﷺ قال: «لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنم، أو ليكونن أهون علىٰ الله من الجعل الذي يدهده الخراء بأنفه، إن الله قد أذهب عنكم عبية[٤] الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي، وفاجر شقي، الناس كلهم بنو آدم وآدم خلق من تراب»[٥].

---

(١) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٩): (هؤلاء لا يخصون الكفاءة بالنسب بل يقولون هي من الصفات التي تتفاضل بها النفوس كالصناع واليسار والحرية، وغير ذلك، وهذه مسائل اجتهادية تُرد إلى الله والرسول.... وليس هناك نص صحيح صريح في هذه الأمور، بل قد قال ﷺ: «إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء؛ الناس رجلان مؤمن تقي وفاجر شقي»).

(٢) عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين، الفتاوى الشرعية في المسائل العصرية (ص ١٣٤٦).

(٣) ابن عثيمين، الفتاوى الشرعية في المسائل العصرية (ص١٣٤٨)، وقال في مجموع الفتاوى (٣٢/ ٣٦٩): (الطعن في النسب أو الفخر به من أمور الجاهلية، والذي ينبغي أن يكون مصدرًا للحمد والذم هو الدين والخُلق).

(٤) قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث (٣/ ١٦٩): (عُبِّيَّة الْجَاهِلِيَّةِ: يَعْنِي الكِبْر، وتُضَمّ عينُها وَتُكْسَرُ. وَهِيَ فُعُّولَةٌ أَوْ فُعِّيلَةٌ، فَإِنْ كَانَتْ فُعُّولة فَهِيَ مِنَ التَّعْبِيَة؛ لِأَنَّ المُتكبر ذُو تكلُّف وتَعْبية، خِلَافَ مَنْ يَسْتَرسِل عَلَى سَجِيَّتِه. وَإِنْ كَانَتْ فُعِّيلة فَهِيَ مِنْ عُبَاب المَاء، وَهُوَ أولُه وارتفَاعُه).

(٥) أخرجه الترمذي في سننه (٨/ ٤٥٥) رقم (٣٩٥٥)، وأبو داود في سننه (٥١١٦)، وحسنه الألباني.

٨. دل الحديث علىٰ (جواز التحدث بتشريف النسب، وهو من التحدث بنعمة الله واصطفاء الله لهذه القبائل بأن جعل إليها أمر الناس، وجعلها أهل صفات الخير من الكرم والشجاعة والنجدة وعلو الهمة)[١]؛ فالتحدث بالنعمة شكرًا لله -تعالىٰ-، شيء، والتفاخر والتعالي علىٰ الناس شيء آخر.

٩. وتعلو قيمة النعمة بقدر تسخيرها في طاعة الله -جل شأنه-، فكما أنه - «نِعْم المال الصالح للمرء الصالح»[٢]؛ فكذلك نِعْم القبيلة للرجل الصالح الذي ستُفِيده هذه المكانة، في دعوة الناس وتعليمهم وقبولهم لهذا الدين، والانقياد لشرائعه.

١٠. ولعل بذلك تظهر لنا حكمة التفاضل بين الناس، وأنها ليست خاصة بأمر واحد؛ فهذا أعطاه الله المال، وهذا أعطاه العلم، وهذا أعطاه الله الجاه، وهذا أعطاه الرفعة في النسب، والله -تعالىٰ- يقول: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:٨٣]؛ فالأمر هبة إلهية من الحكيم العليم، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥]؛ فهو ابتلاء فيما آتانا، ثم لننتبه إلىٰ أن الله -جل شأنه-، أتبع هذا الابتلاء بوعيد، ووعد، وختم به السورة.

١١. ولا شك أن الحكمة ظاهرة واضحة للعيان في كون الرسول ﷺ من قبيلة ذات مكانة، لما يعود علىٰ الرسول ﷺ والدعوة بالحماية والنصرة، ولقد وقفت

(١) محمد بن إسماعيل الصنعاني المعروف بالأمير، التنوير بشرح الجامع الصغير، تحقيق محمَّد إسحاق محمَّد إبراهيم، الطبعة الأولى، (الرياض: مكتبة دار السلام، ١٤٣٢، (٣/ ٢٦٨-٢٦٩).

(٢) مسند الإمام أحمد (٢٩/ ٢٩٨)، رقم (١٧٧٦٣)، وقال المحقق: إسناده صحيح على شرط مسلم. والبخاري في الأدب المفرد، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الثالثة (بيروت: دار البشائر الإسلامية (١٤٠٩)، (١/ ١١٢) رقم (٢٩٩)، واللفظ له من حديث عمرو بن العاص -رضي الله تعالى عنه-، وصححه الألباني.

قبيلة الرسول ﷺ مواقف طيبة في حمايته، كما أنهم دخلوا معه الشِّعب، ولما حاول كفار قريش قتله كان من العقبات التي أهمّتهم قبيلته ﷺ، ووقف أبو طالب مواقفه المشهورة، وإسلام حمزة رضي الله عنه كان أصله وبدايته - كما تقول كتب السير - حميةً لابن أخيه.

١٢. ومن الحكمة أيضًا في كون الرسول ﷺ من قبيلة ذات مكانة بارزة مميزة؛ أن العرب كانت تعرف نسبه وأصالته، فلا تجد غضاضة في الانضواء تحت لوائه، ولنا أن نتصور ظهور شخص من الموالي بين هذه القبائل، ماذا سيكون رد فعل القبائل؟ ولقد قال الكفار مع هذا النسب الرفيع: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف:٣١].

١٣. ولعل من الحكمة في ذلك أن تكون دعوته إلىٰ المساواة والعدل قائمة علىٰ أسس ثابتة، وليست رد فعل لحالة نفسية أو مكانة اجتماعية، فلو لم يكن محمد ﷺ في هذا النسب الرفيع لوجدنا من يقول: إن محمدًا إنما يطالب بما افتقده؛ ليرد اعتباره الاجتماعي. ولقد رأينا كثيرًا من الدعوات المنحرفة الباطلة كانت دعوتهم صدىٰ لواقع سيئ لما عاشوه[1]، فمثلاً الماركسية الملحدة دعا إليها رجل عاش منبوذًا في المجتمع، فأراد رد الاعتبار لنفسه بهذه الدعوة التي تواجه الرأسمالية التي افتقدها في حياته.

(١) انظر: صالح الشامي، من معين السيرة، ص ١٧/ ١٨.

المبحث الثاني

حادثة الفيل

في عهد زعامة عبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ وقعت حادثة الفيل التي تزامنت مع العام الذي وُلِدَ فيه الرسول المصطفىٰ ﷺ. وخلاصة القصة: أن أبرهة الحبشي نائب ملك الحبشة في اليمن لما رأىٰ العرب تتوافد علىٰ البيت في مكة، وتحُجّه كل عام بنىٰ كنيسة كبيرة بصنعاء وأسماها (القُليس)[1]، وأراد أن يصرف العرب للحج إليها بدلًا من البيت الحرام بمكة، فسمع بذلك -كما يُروىٰ- رجل من بني كنانة فسار إليها، ودخلها ليلًا ولطخ جدرانها بالعَذِرَة[2]، فلما علم أبرهة بذلك غضب، وقرَّر أن يهدم الكعبة، وسار بنفسه يقود جيشًا عدده ستون ألف جندي، وكان في جيشه عدد من الفِيَلة، ومضىٰ يشقّ طريقه لا تقف له قرية إلا هزمها، حتىٰ وصل إلىٰ المُغَمَّس[3]، وهناك ساق أموالاً لقريش، منها مائتا بعير لعبد المطلب،

(١) قال أبو القاسم السهيلي في الروض الأنف (١/ ٢٠٣): (وسميت هذه الكنيسة بالقُلَّيس لارتفاع بنائها وعلوها، ومنه القلانس؛ لأنها في أعلى الرؤوس، ويقال تقلنس الرجل وتقلس إذا لبس القلنسوة).

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة (١/ ٩٧) وتفسير الطبري، تحقيق عبد الله التركي، الطبعة الأولى، (القاهرة: دار هجر ١٤٢٢)، (٢٤/ ٦٣٥)، وتفسير ابن كثير، تحقيق سامي بن محمد سلامة، الطبعة الثانية، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع ١٤٢٠)، (٨/ ٤٨٤). والمباركفوري، الرحيق المختوم، الطبعة الأولى (ص ٤٢).

(٣) المغمس: مكان لا يزال معروفًا شرقي الحرم المكي، يشرف عليه من جهة الشرق جبل كبكب، وعرفة في نهاية المغمس من الجنوب، فهو على مسافة عشرين كيلو من مكة. محمد حسن شراب، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة (ص ٢٧٧). وقال عاتق بن غيث البلادي -رحمه الله تعالى- في كتابه معالم مكة التاريخية والأثرية (١/ ٢٨٠): (المُغَمّس: بضم الميم وفتح الغين المعجمة وتشديد الميم مع الفتح وآخره سين مهملة، سهل أفيح يمتد من الشمال=

فجاء عبد المطلب -وكان سيد قريش- وقابل أبرهة، فلما رآه أبرهة أَجَلَّه وأكرمه، وقال له: ما حاجتك؟ فقال: حاجتي أن يرد الملك عليَّ مائتي بعير التي أخذها، فقال أبرهة: قد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم زهدت فيك حينما كلمتني! أتكلمني في مائتي بعير، وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه، لا تكلمني فيه! قال عبد المطلب: (أنا رب الإبل، وإن للبيت ربًّا سيمنعه). قال: ما كان ليمتنع مني، قال: أنت وذاك[1]. ولجأت قريش إلىٰ الجبال وجلست تنظر ما يصنع أبرهة.

وأعدَّ أبرهة جيشه، وتهيَّأ لدخول مكة، فلما وجهوا الفيل -وكان اسمه محمودًا- إلىٰ مكة برك[2]، فضربوه؛ ليقوم فأبىٰ، ولما غيّروا وجهته قام يهرول، ثم أرسل الله

=إلى الجنوب، مبدؤه من الصفاح وأسفل حنين ولبن الأسفل، ومنتهاه عرفة -بالفاء- وجبل سعد، والخطم، تشرف عليه من الشرق سلسلة جبلية عالية، عظمها كبكب الذي تطلع شمس وسط المغمس من فوقه، وطرفها الشمالي يشرف على البجيدي وحنين والجنوبي جبل بَرَقة والوصيق، أما من الغرب فتحف بالسهل جبال الطارقي ويسمونها الطُّرَّق بتشديد الراء -كجمع طارق-، ويتصل بها جبل سلع في فيئها العشى، وجبال الشُّعُر جنوبًا حيث تنتهي بالخطم الذي يرى من عَرَفة- شمالاً غربيًّا.. فهو شرق مكة على ٢٠ كيلو... والمغمس كله في الحل)ا.هـ. وعلى هذا فإن أصحاب الفيل أهلكهم الله -جل شأنه- خارج الحرم، ولم يُعذّبوا في الحرم. وابن القيم -رحمه الله تعالى- يرى أن وادي محسر بين مزدلفة ومنى هو مكان العذاب الذي نزل بأصحاب الفيل (زاد المعاد: ٢/ ٢٣٦)، والشيخ ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- يقول: (إن أصحاب الفيل لم يهلكوا هنا -يعني في وادي محسر-، بل في مكان يقال له المغمس حول الأبطح) محمد العثيمين، الشرح الممتع (٧/ ٣١٦)، ولا أدري ماذا يقصد؛ إذ من المعلوم أن الأبطح في مكة قريب جدًّا من المسجد الحرام من جهة المسعى. وانظر: عبد الرحمن المعلمي، آثار المعلمي (١٧/ ٥١٦)، (مجموع رسائل الفقه ج٢)؛ فقد أشار إلى أن وادي محسر نزل به عذاب، لكن ليس عذاب أصحاب الفيل، وانظر أيضًا: عبد الله الجبرين، تسهيل الفقه (٩/ ٤١).

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٤٣) وما بعدها.

(٢) قال السهيلي في الروض الأنف (١/ ٢٢٢): (وقوله «فبرك الفيل» فيه نظر؛ لأن الفيل لا يبرك، فيحتمل أن يكون بروكه سقوطه إلى الأرض، لما جاءه من أمر الله -سبحانه-، ويحتمل أن يكون فَعَل فِعْل البارك الذي يلزم موضعه ولا يبرح؛ فعبر بالبروك عن ذلك).

-جل شأنه- عليهم طيرًا أبابيل تحمل أحجارًا، فلا تصيب أحدًا منهم إلا أهلكته.

وهذه الحادثة لها أهميتها البالغة عند العرب؛ فقد (كانت بنو إسماعيل بن إبراهيم -عليهما السلام - يؤرّخون من بنيان الكعبة؛ فلم يزل كذلك حتىٰ مات كعب بن لؤي، فأرّخوا من موته، فلم يزل كذلك حتىٰ كان عام الفيل فأرّخوا من عام الفيل)[1].

وقد ذكر المؤرخون أنها وقعت تقريبًا في النصف من شهر المحرم الموافق لشهر فبراير سنة ٥٧١م؛ أي قبل ميلاد الرسول ﷺ بحوالي خمسة وخمسين يومًا تقريبًا[2].

وفي هذه الحادثة نزل قول الله -تعالىٰ- لاحقًا علىٰ الرسول ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾ [الفيل: ١-٥].

وقد جرىٰ ذكر الرسول ﷺ لهذه الحادثة مرتين:

الأولىٰ: عن المسور بن مخرمة -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية حتىٰ إذا كانوا ببعض الطريق.. وسار النبي ﷺ حتىٰ إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: حَلْ حَلْ. فَأَلَحَّتْ، فَقالُوا: خَلأَتِ القَصْواءُ، خَلأَتِ القَصْواءُ. فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ما خَلأَتِ القَصْواءُ، وما ذاكَ لَها بِخُلُقٍ، ولَكِنْ حَبَسَها حابِسُ الفِيلِ»[3].

---

(١) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، الطبعة الثانية (دمشق: دار القلم ١٣٩٧)، (١/ ٥٠). وانظر: النجم عمر، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم شلتوت مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، ١/ ٤٥.

(٢) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (الجزء الخاص بالسيرة)، (١/ ٣٦)، والسهيلي، الروض الأنف (١/ ٣٩٨)، والمباركفوري، الرحيق المختوم ص ٥٩).

(٣) صحيح البخاري (٣/ ١٩٣) رقم (٢٧٣١).

الثاني: عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: لما فتح الله علىٰ رسوله ﷺ مكة قام في الناس فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين»[1].

ولعلي أقف مع هذه الحادثة الوقفات التالية:

أولًا: إن الله –جل شأنه– تولَّىٰ بنفسه، وبدون أن يُسند ذلك لأحد من البشر القضاء علىٰ هذا العدوان، ناسبًا الفعل إليه، فقال –جل شأنه–: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ**﴾، وجاء بكلمة ﴿**كَيْفَ**﴾ ولم يقل –جل شأنه– (ما فعل ربك)؛ بل أشار إلىٰ الفعل، وكيفية الفعل!! فلم يكتفِ بنسبة الفعل إليه مباشرة؛ بل هناك كيفية!! فالذي نزل بهؤلاء ليس هزيمة فقط أو شيئًا عاديًّا مما تعوّده الناس في مسألة غالب ومغلوب، ومنتصر ومنهزم، بل سَحْق وتشريد غير معهود في حياة البشر، وبطريقة غير متوقعة، نزلت من السماء مباشرة؛ لأنهم همُّوا بدخول حَرمه للاعتداء علىٰ بيته الحرام –جل شأنه–، واجترأوا علىٰ الشروع في هدمه، ولذلك جعله درسا للبشرية، يُتلىٰ خبره، ما بقي في هذه الدنيا زمان، وسعىٰ علىٰ الأرض إنسان.

ثانيًا: لعل في تخليد الله –جل شأنه– لحادثة الفيل بسورةٍ تُتلىٰ لكونها تحمل مكرمة حماية البيت التي هي تمهيد لمكرمة أعلىٰ حضر وقتها، وهي مكرمة بعثة النبي محمد ﷺ، ومكرمة نزول القرآن الكريم، فقد ذكرت كتب السير أن حادثة الفيل سبقت مولد المصطفىٰ ﷺ بأقل من شهرين، ولكأننا نقرأ أن الله –سبحانه– هيَّأ المنزل بحدث جليل؛ إكرامًا للنازل الضيف الجليل؛ محمد ﷺ. فجلالة الحدث كان إيذانًا بجلالة ما سيحدث.

ثالثًا: إن حادثة الفيل جاءت لتبرز وتُعلي مكانة قريش بين سائر القبائل العربية[2]،

---

(١) صحيح البخاري (٣/ ١٢٥) رقم (٢٤٣٤)، وصحيح مسلم (٢/ ٩٨٨) رقم (١٣٥٥).
(٢) قال الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب (٣٢/ ٢٩٤): (إنما فعل ذلك بهم لإيلاف قريش ولتعظيم منصبهم وإظهار قدرهم).

فهي القبيلة التي حُمِيَتْ، وإن لم تكن هي المقصودة، وإنما جاءتها الحماية تبعًا لا تكرمة لها -كما سيأتي-، وأرضها هي الأرض التي حُرِسَت، وسائر القبائل انتصر عليها أبرهة، واستباح أرضها وهو في طريقه إلىٰ مكة، فإذا ظهرت وبرزت مكانة قريش، وتميزت علىٰ سائر القبائل، ثم بُعِثَ منها وفيها محمد ﷺ، ثم انقادت هذه القبيلة وتابعت، فستنقاد فورًا سائر القبائل العربية.

فهي أشبه برأس صُنع ثم تابع، فانقاد سائر الجسد.

يشهد لهذا المعنىٰ أن قبائل العرب -حينما كانت الحرب سجالًا بين الرسول ﷺ وكفار قريش- كانوا ينتظرون ويقولون: إن هزم محمدٌ قريشًا دخلنا في دين محمد، وإن بقيت الزعامة في قريش لم نكن خسرنا علاقتنا بها، ولمَّا انتهىٰ الأمر، واستبان، ودخل الرسول ﷺ مكة فاتحًا، وانقاد هذا الرأس، انهالت القبائل العربية للدخول في دين الله أفواجًا، فبعد فتح مكة نزل قول الله -تعالىٰ-: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ١-٣].

فقد سقط الرمز الذي صُنع، فتبعه من كان يقلِّده، ولو لم يكن هناك قبيلة قائدة لاستمرت الدعوة تواجه القبائل العربية قبيلةً قبيلةً.

قال ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ- في السيرة: (فلما ردَّ الله الحبشة عن مكة، وأصابهم ما أصابهم من النقمة أعظمت العربُ قريشًا، وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم، وكفاهم مؤنة عدوهم)(١)، قال -تعالىٰ-: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٥٩)، وانظر: الذهبي، السيرة النبوية ص ٦، والشامي: سبل الهدى والرشاد (١/ ٢٥٨). وقال الماوردي في أعلام النبوة، الطبعة الأولى، (بيروت: دار ومكتبة الهلال (١٤٠٩)، (ص ٢٠٨): (ولما انتشر في العرب ما صنع الله -تعالى- بجيش الفيل؛ تهيّبوا الحرم وأعظموه، وزادت حُرمته في النفوس، ودانت لقريش بالطاعة، وقالوا: أهل الله، قاتل عنهم، وكفاهم كيد عدوهم، فزادوهم تشريفًا وتعظيمًا، وقامت قريش لهم بالوفادة=

﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت:٦٧].

يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور -رحمه الله تعالىٰ- في تفسير هذه الآية: (هذا تذكير خاص لأهل مكة، وإنما خُصّوا من بين المشركين من العرب؛ لأن أهل مكة قدوة لجميع القبائل، ألا ترىٰ أن أكثر قبائل العرب كانوا ينتظرون ماذا يكون من أهل مكة؟ فلما أسلم أهل مكة يوم الفتح أقبلت وفود القبائل معلنة إسلامهم)[١].

رابعًا: قال -تعالىٰ-: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ١-٤]؛ قال الشوكاني -رحمه الله تعالىٰ-: (هذه السورة متصلة بالسورة الأولىٰ؛ لأنه ذَكّرَ -سبحانه- أهل مكة بعظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة، ثم قال: لإيلاف قريش أي: فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا علىٰ قريش)[٢].

قال الخازن -رحمه الله تعالىٰ-: (قوله -عز وجل-: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ يعني الكعبة، وذلك أن الإنعام علىٰ قسمين؛ أحدهما: دفع ضر، وهو ما ذكره في سورة الفيل، والثاني جلب نفع، وهو ما ذكره في هذه السورة، ولما دفع الله عنهم الضر، وجلب لهم النفع، وهما نعمتان عظيمتان أمرهم بالعبودية، وأداء الشكر)[٣]. وهذا فهم عظيم لهاتين السورتين مجتمعتين.

=والسدانة والسقاية، والوفادة: مال تُخرجه قريش في كل عام من أموالهم يصنعون به طعامًا للناس أيام منى، فصاروا أئمة ديانين وقادة متبعين، وصار أصحاب الفيل مثلًا في الغابرين).

(١) الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٢١ / ٣٣).

(٢) الشوكاني، فتح القدير، الطبعة الأولى، (دمشق: دار ابن كثير، دمشق١٤١٤،(٥/ ٦٠٨).

(٣) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن)، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتب العلمية (١٤١٥)، (٤/ ٤٧٧).

قال السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (ولهذا أمرهم الله بالشكر، فقال: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴾ أي: ليوحدوه ويخلصوا له العبادة)[1].

إذًا المطلوب ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴾؛ أي ليوحدوه، ويتركوا الشرك بالله -جل شأنه-. وهذا فيه فائدتان:

الأولىٰ: أن النعمة تستوجب الشكر.

الثانية: أن أعظم ما نشكر الله به هو التوحيد الذي نص الله عليه في هذا الآية، وأقبح صور كفر النعمة: إشراك مع الله غيره.

إن هذه الحادثة تخاطب كل مسلم، فهي وإن كان ظاهرها يا كفار قريش من الذي نصركم؟ مَن الذي دفع عنكم الفيل؟ مَن الذي يسَّر لكم سبل رحلة الشتاء والصيف، من الذي دفع عنكم الشر وجلب الخير؟ فمعناها خطاب لكل مسلم، إن الذي يدفع عنكم الشر هو الله، والذي يجلب لكم الخير هو الله، فاعبدوه وأفردوه بالتوحيد، لا تعبدوا ولا تتقربوا بعبادة لأحد غيره، لا إلىٰ نبي مرسل ولا إلىٰ مَلك مقرب ولا إلىٰ وليّ صالح ولا أضرحة ولا قبور؛ فالمنعم هو الله -سبحانه-، وهو المستحق وحده للعبادة. أليس الطواف عبادة؟ فلماذا الطواف حول القبور؟ أليس الدعاء عبادة؟ فلماذا عند الملمات ندعو ميتًا ونترك المحيي المميت؟!

خامسًا: في حادثة الفيل بيان وإظهار لقدرة الله -سبحانه- عيانًا، والتي باستقرارها في النفس، يُفرد العبد ربه بالخوف والوجل منه، والسورة وإن كانت خطابًا للمصطفىٰ ﷺ، فهي -أيضًا- خطاب لأُمته، وقوله -تعالىٰ-: ﴿أَلَمْ تَرَ ﴾ خطاب لشخص كأنه شاهَد الحدث بعينه، وهو سؤال تقريري يلفت النظر إلىٰ أن ما حدث قد يحدث في أيّ مكان، وفي أي زمان.

(١) السعدي، تفسير السعدي (٩٢٥).

سادسًا: في السورة الكريمة التي تخاطب المصطفىٰ ﷺ في بدايتها، وجاء في ثناياها قوله -تعالىٰ- ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾ إشارة إلىٰ أن الذي حمىٰ البيت سيحميك، والذي جعل مَن كادَ البيت في تضليل، سيجعل كيدَ مَن يعاديك في تضليل أشدّ، وقد كان الأمر كما وعد -سبحانه- قال -تعالىٰ- : ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢]، وقال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق ١٥- ١٧]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٨]، والمعنىٰ عام لكل مؤمن، فله من الحماية والحفظ بقدر ما حقّقه من المتابعة لرسوله ﷺ؛ فبقدر متابعتك للرسول ﷺ تُحْفَظ.

سابعًا: حادثة الفيل وما جرىٰ فيها من حماية ربانية للبيت الحرام، وتبعًا لذلك أهلها من قريش، ثم سلط الله عليها الرسول ﷺ في فتح مكة؛ أيقنت معه القبائل العربية صحة دعوة الرسول ﷺ، فقد رُوي أن العرب قالوا: أما إذا ظفر محمد بأهل الحرم، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان، فكانوا يُسْلِمون أفواجًا(١). فقد كانت حادثة الفيل دليلاً عند القبائل العربية علىٰ صدق المصطفىٰ ﷺ، بربطها بنصر الله له علىٰ قريش ودخوله مكة فاتحًا.

ثامنًا: يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (ومن آيات محمد ﷺ ودلائل نبوته التي في القرآن، قصة الفيل، قال -تعالىٰ-: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١ -٥]، وقد تواترت قصة أصحاب الفيل، وأن أهل الحبشة النصارىٰ ساروا بجيش عظيم، معهم فيل، ليهدموا الكعبة لما أهان بعض العرب كنيستهم التي باليمن؛ فقصدوا إهانة الكعبة وتعظيم كنايسهم، فأرسل الله عليهم طيرًا أهلكهم، وكان ذلك عام مولد النبي ﷺ،

---

(١) انظر: ابو بكر الجزائري، أيسر التفاسير ص (١٤٣٢).

وكان جيران البيت مشركين يعبدون الأوثان، ودين النصارىٰ خير من دينهم. فعُلِمَ بذلك أن هذه الآية لم تكن لأجل جيران البيت حينئذ، بل كانت لأجل البيت أو لأجل النبي ﷺ، الذي وُلِدَ به في ذلك العام عند البيت، أو لمجموعهما، وأي ذلك كان فهو من دلائل نبوته. فإنه إذا قيل: إنما كانت آية للبيت وحفظًا له وذبًّا عنه؛ لأنه بيت الله الذي بناه إبراهيم الخليل. فقد علم أنه ليس من أهل الملل مَن يحج إلىٰ هذا البيت ويصلي إليه إلا أمة محمد ﷺ، ومحمد هو الذي فرض حجّه والصلاة إليه)[1].

تاسعًا: هذا الرجل الكناني الذي خرج من بلاده إلىٰ اليمن لماذا خرج وقطع هذه المسافات الطويلة؟

لقد قطع هذا الرجل هذه المسافات الطويلة؛ انتصارًا لمعتقده، وانتقامًا لحُرمة البيت، سار بنفسه وضحَّىٰ وبذل في سبيل مبدأه، وهو موقف يُذكِّرنا حقّ ديننا علينا، أن نسير، ونبذل ونضحِّي من أجل الدعوة إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-.

إن العديد منا ليشعر بالتكاسل للقيام لهذا الدين في أقل الأمور، وهذا الرجل يمضي في رحلة شاقة؛ لأجل مقالة سمعها يريد أن ينتصر لبيت الله؛ إنها همّة وتضحية متىٰ كانت في قلب مسلم، نصر الدين وسعىٰ في رفعته. لكن لهذا الأمر ضوابطه، هو ما أشير إليه في الفائدة التالية.

عاشرًا: الحماس للدين والاهتمام به أمر مطلوب، لكن الطريقة التي سلكها الكناني، وإن كان حسن النية والمقصد، وتدل علىٰ همة عالية وعاطفة دينية، لكن ذلك لا يغني شيئًا إذا اختل المنهج.

وعليه فلم يكن هذا التصرف منه مُوفقًا، فقد استفز العدو بما لم يقدر عليه، ولم يكن للعرب طاقة علىٰ مواجهته، وجاء أبرهة الحبشي بهذه الجيش الجرار الجبار

(١) ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٦/ ٥٦).

ليهدم الكعبة، وقتل واستباح في سبيل ذلك، قبائل ومستضعفين، وكم من الضرر جناه هذا الكناني علىٰ الناس باجتهاد فردي عاطفي متعجّل.

وهذا ما تواجهه الأمة في عصورها الحاضرة من تصرفات فردية، ناتجة عن عاطفة دينية، ولكنها بعيدة عن المنهج الصحيح فتسببت في أضرار بالغة علىٰ الأمة.

ولذلك فإن من أهم الدروس الابتعاد عن التصرفات الفردية في القضايا التي تمسّ الأمة، والحذر من تبعات الاستعجال والعاطفة، والالتزام بالتروي والمشورة، والرجوع إلىٰ أولي الأمر من علماء وولاة، قال الله –تعالىٰ–: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء:٨٣].

حادي عشر: إن أحوال العرب وقت حادثة الفيل تدل علىٰ أنهم كانوا أوزاعًا وأشتاتًا؛ فمنهم من هو خاضع للأكاسرة في العراق، ومنهم من هو خاضع للروم في الشام، ومنهم من هو خاضع للأحباش في اليمن، ومنهم القبائل العربية المتحاربة وسط الجزيرة العربية.

ولما جاءهم هذا الغزو الخارجي ماذا صنع بهم؟ كان يمر بالقبيلة تلو القبيلة فتتساقط بين يديه تساقط الفراش، فلم يكن للعرب بصفتهم عربًا مكانٌ في هذا العالم، فما حدث في قصة الفيل كان مقياسًا لحقيقة العرب وقوتهم المجردة من الإسلام حينما تتعرض لغزو خارجي.

هذه هي حقيقة القومية العربية المجردة، قبائل متصارعة فيما بينها، منها ما هو خاضع ذليل لغيره، ومنها ما هو متقاتل مع جاره، لا قيمة لها ولا حساب، وبعد أن انضوت تحت راية الإسلام، ولأول مرة في تاريخ العرب أصبح لهم دور عالمي يؤدونه، لهم قوة يُحسَب لها ألف حساب، والذي هيَّأ للعرب لهذه المكانة هو إيمانهم بالله –جل شأنه–؛ (وكل من له أدنىٰ معرفة بتاريخ العرب قبل الإسلام

وبعده يعلم أنه لم يكن للعرب قيمة تُذكَر ولا راية تُرهَب إلا بالإسلام، وبه فتحوا البلاد وسادوا العباد)[1].

«والدعوة إلىٰ العروبة كغايةٍ إذا عرضناها علىٰ ضوء الإسلام فبحثنا في القرآن الكريم؛ نجد أنه لم يرد في القرآن المبين لفظة العروبة والعرب بعينها ولا تجد فيه أن الله -تعالىٰ- ناداهم بهذا اللفظ الخاص، فلم يقل: (يا أيها العرب) أو (يا عرب)... وإنما نجد (يا أيها الناس) و(يا بني آدم) و(يا أيها الذين آمنوا)، و(قل يا أيها الكافرون)...)[2].

يقول سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز -رحمه الله تعالىٰ-: (إن الدعوة إلىٰ القومية العربية كما أنها إساءة إلىٰ الإسلام ومحاربة له في بلاده، فهي أيضًا إساءة إلىٰ العرب أنفسهم وجناية عليهم عظيمة؛ لكونها تفصلهم عن الإسلام الذي هو مَجدهم الأكبر وشرفهم الأعظم، ومصدر عزهم وسيادتهم علىٰ العالم، فكيف يرضىٰ عربي عاقل بدعوة هذا شأنها وهذه غايتها؟)[3].

ولهذا فإن في حادثة الفيل درسًا بليغًا لكل منخدع بالقومية العربية؛ فالعرب متىٰ تخلوا عن دينهم وعادوا إلىٰ قوميتهم العربية فقط فلن يعدو شأنهم شأن العرب يوم اجتاحهم أبرهة الحبشي[4].

---

(١) الشيخ عبد العزيز بن باز، نقد القومية العربية ص ٥٨، وانظر: صالح العبود، فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام ص ٢٢٦؛ حيث قال: وما تبوأ العرب مكانهم القيادي في العالم كله ولن يتبوأ ذلك إلا بالقرآن كما شهد بذلك الأعداء فضلاً عن أهل القرآن.

(٢) د. صالح العبود، فكرة القومية على ضوء الإسلام (٢٢٣ / ٢٢٤).

(٣) الشيخ عبد العزيز بن باز، نقد القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع ص ١٤.

(٤) قال خادم الحرمين الشريفين الملك فهد -رحمه الله تعالى- في لقاء له برجال الصحافة عند مستهل ربيع الثاني عام ١٣٩٧هـ: وقد أدرك الجميع أن الأمة العربية لم يكن لها قيمة في يوم من الأيام إلا بالإسلام... وبدونه لم ترتفع؛ لتصبح خير أمة أخرجت للناس. د. صالح العبود، فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام ص ٢٧٥، وعزاه إلى مجلة الدعوة بالرياض، عدد ٥٩٢)، (ص ٧) في ٢ / ٤ / ١٣٩٧هـ.

ثاني عشر: ليس معنىٰ هذا أن الإسلام حارب القوميات؛ بل -كما سبق أن ذكرت -أن الإسلام هذَّب ما وجد لدىٰ العرب من طبائع وأخلاق، ووجّهها الوجهة الحسنة؛ فالقول بأن الإسلام والقومية لا يلتقيان مبالغة غير صحيحة، ولا يوجد صراع بين الإسلام والقومية، وبخاصة القومية العربية، ولما فُتحت البلدان علىٰ أيدي الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-، لم يتعرضوا للقوميات، بل بقيت تلك الأمم حتىٰ بعد إسلامها محتفظةً بقوميتها معتزةً بها، بعد اعتزازها بالإسلام، ومما يدل علىٰ ذلك أن القرآن الكريم كرّر في كثير من آياته دعوة النبي لقومه بقوله: (يا قوم)، وببحث سريع في القرآن الكريم، وجدت كلمة ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ وردت (٣٨) مرة استخدمت من قبل الرسل أو من بعض أتباعهم في نصح أقوامهم. والذي تغيّر هو أن هذا التمايز بين الناس في الشعوب والأعراق، والقوميات والقبائل، أصبح للتعارف والتعاون، لا للمفاخرة والتفاضل، سواء أكان التفاضل قبليًّا أو قوميًّا أو شعوبيًّا أو غيره من الإطارات التي تخرج عن الإطار الجامع ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا﴾ [الآية:٧٨].

ثالث عشر: موقف عبد المطلب وهو مشرك، يقول لأبرهة: (وللبيت رب يحميه)، هذه العبارة لها دلالتها:

أ- إن هذا القول ليس قول عبد المطلب ولا رأيه منفردًا؛ فالعرب يعرفون الله، ويقرون بالرب -سبحانه-، وهذا توحيد الربوبية، ويلجأون إليه في الشدائد كثيرا، ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥]، ومع ذلك كانوا مشركين؛ لأنهم كانوا يعبدون الملائكة والجن والأصنام ويجعلون لله أندادًا، ويصرفون صورًا من العبادة لغير الله، ويقولون عن الذين يدعونهم ويرجونهم، هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وهذا العمل بعينه موجود عند بعض المسلمين الآن، ولا يعلمون أنه هو عين شرك الجاهلية.

ب- إن هؤلاء القوم، بهذه الصفة التي قالها عبد المطلب، هم الذين بُعث فيهم محمد ﷺ، فاستغربوا دعوته، ولما فهموها رفضوها، وعادوه، وتآمروا عليه، وحاولوا قتله، وحاربوه حتىٰ نصره الله عليهم، فكسّر أصنامهم، وهدم كل بناء يُعبَد من دون الله أو يُطاف به، أو يُنحَر عنده، أو يُلْجَأ إليه في الشدائد. وحينئذ فليست القضية معرفة أن للبيت ربًّا يحميه، أو أن يعرف الشخص أن له ربًّا يرزقه وينصره، وإنما القضية أن يعلم أنه ليس له إلا إله واحد يَعبده، ويعمل بهذا العلم.

ج- إن هذه الكلمة (وللبيت رب يحميه)، تقال كذلك، ولهذا الدين رب يحميه، لا تخشَ علىٰ الدين؛ فالله ناصره، وإنما اخشَ علىٰ نفسك في التقصير في حق الدين؛ قم بواجبك، والله ناصر دينه -سبحانه وتعالىٰ-.

رابع عشر: إن عبد المطلب عندما قال عبارته المشهورة: (وللبيت رب يحميه) لم يقلها من باب التخلي عن تحمُّل المسؤولية، وهم العرب المعروفون بأَنَفتهم وعزّتهم وشجاعتهم، ولكنه قالها من باب الإنذار والتهديد لأبرهة، فهذا الكلام في ظاهره كلام فيه السهولة واللين؛ بل ربما الانهزام، يتصور بعض الناس أنه لا يقوله إلا الضعيف، وليس الأمر كذلك، بل هو كلام يُخفي في ثناياه الإنذار الشديد لهذا الرجل النصراني (أبرهة) يُنبّهه فيه إلىٰ أنه لا يحارب أهل مكة، وإنما يحارب الله -جل شأنه-، ويهدم بيتًا بناه خليل الله بأمر من الله -سبحانه وتعالىٰ-، فهو تهديد ووعيد قاله عبد المطلب وهو مشرك، وينبغي دائمًا أن يقوله المسلم القوي المنتصر بالله؛ إنه تهديد بحرب لم يألفها البشر، وأنَّىٰ لشخص أن يحارب الله؟!

خامس عشر: إن في حادثة الفيل درسًا لكلّ مَن تسوِّل له نفسه الاعتداء علىٰ حرم الله؛ فالله -جل شأنه- هو الذي تولَّىٰ حماية بيته، وهو يعجّ بالشرك والمشركين، فكيف لا يحميه اليوم وهو عامر بالطائفين والعاكفين والركع السجود؟

وقد قال -تعالىٰ-: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥]؛ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (وأما الكعبة فإن الله شرّفها وعظّمها وجعلها محرّمة، فلم يُمكّن الله أحدًا من إهانتها لا قبل الإسلام ولا بعده، بل لما قصدها أهل الفيل عاقبهم الله العقوبة المشهورة)(١).

ويقول الماوردي -رحمه الله تعالىٰ-: (وكان شأن الفيل رادعًا لكل باغٍ ودافعًا لكل طاغٍ)(٢).

سادس عشر: وإن كانت السورة تشير إلىٰ حماية الله -جل شأنه- لبيته الحرام؛ فإن هذا لا يُعْفِي المؤمن من واجبه في الإسهام في حماية هذا البيت، وهذا الدين، بصفة ذلك عبادة يتقرب بها إلىٰ الله -جل شأنه-، وهو واثق بنصر الله وتأييده وعظيم أجره.

وقد تكفَّل الله بحماية نبيه ﷺ، ومع ذلك كان ﷺ يأخذ بالأسباب، وكان الصحب الكرام يتسابقون في التشرف بالتحلق حوله حماية لها، ودفاعًا عنه وصونًا له من أيّ مكروه، حتىٰ إنهم يجعلون أنفسهم دروعًا وتروسًا دونه ﷺ مع إيمانهم بحماية الله له -جل شأنه-.

وكما أن الله -جل شأنه- قد تكفَّل بحفظ كتابه، إلا أن الأمة -بالأخيار منها- لم يألوا جهدًا في أسباب جمعه وحفظه والعناية به وطباعته ونشره، وتعليمه وتفسيره وترجمة معانيه، وغيره من وسائل التشرف في حفظ كتاب الله -سبحانه-.

وكذلك الحال في الدفاع عن البيت الحرام، لا يعني تركه لمن يريد أن ينال منه سوءًا، ويحتج المسلم بأن الأمر بيد الله -سبحانه-، وإن للبيت ربًّا سيحميه.

---

(١) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية ٤/ ٥٧٦، وانظر: مزيد إيضاح في الصفحات ٥٧٧ و ٥٨٣ من المرجع نفسه.

(٢) الماوردي، أعلام النبوة (٢٠٩).

فالمؤمن يعمل، والله -جل شأنه- ينصر -تفضلًا وكرمًا-، ومنه -سبحانه- العون والسداد والتوفيق والنصر.

سابع عشر: كما أن في حادثة الفيل درسًا في حماية الله -جل شأنه- لبيته، ونبيه ﷺ، فإن فيها تثبيتًا لكل مؤمن بأن الله يدفع عنه كيد أعدائه، فإذا كان الله -سبحانه وتعالىٰ- دفَع مَن يكيد لبيته، فمن باب أولىٰ أن يدفع كيد من يكيد لعباده المؤمنين؛ فإن حرمة المؤمن أعظم من حرمة البيت، وقد ورد عن ابن عمر -رضي الله تعالىٰ عنهما- أنه نظر يومًا إلىٰ البيت أو إلىٰ الكعبة؛ فقال: «ما أعظمك! وأعظم حرمتك!، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك»(١)، وإذا كانت حرمة المؤمن أعظم فهي لا شك أحرىٰ بالدفع من الله -جل شأنه-، وهو القائل في محكم كتابه ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ [الفيل:٢](٢).

ثامن عشر: إن حماية الله -جل شأنه- لهذا البيت تلفت النظر إلىٰ أن له أهمية خاصة، علاوة علىٰ ما كان له في النفوس من احترام ممّا يعمق احترامهم له، فإذا خرج من هذه البقعة المفضّلة من يدعو إلىٰ الله -سبحانه- لم يكن هذا بالشيء الغريب؛ إذ هي أرض تولّىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ- حمايتها، خاصةً أن حادثة الفيل تزامنت مع مولد الرسول الكريم ﷺ. يقول شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية -رحمه الله تعالىٰ-: (وكان أمر الفيل تقدمة قدّمها الله لنبيه وبيته، وإلا فأصحاب الفيل كانوا نصارىٰ أهل كتاب، وكان دينهم خيرًا من دين أهل مكة إذ ذاك؛ لأنهم كانوا عباد أوثان، فنصرهم الله علىٰ أهل الكتاب نصرًا لا صنع للبشر فيه، إرهاصًا وتقدمةً للنبي ﷺ الذي خرج من مكة، وتعظيمًا للبيت الحرام)(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي وقال عنه الألباني: حسن صحيح، صحيح سنن الترمذي ٢/ ٢٠٠ رقم ١٧٥٥.

(٢) انظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٤٤.

(٣) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد ١/ ٧٦.

وقال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ)(١). وهذا سبب إدراجها ضمن السيرة النبوية.

وقال أيضًا -رحمه الله تعالىٰ-: (ولم يكن ما فعله بأصحاب الفيل نصرة لقريش؛ إذ ذاك علىٰ النصارىٰ الذين هم الحبشة؛ فإن الحبشة إذ ذاك كانوا أقرب لها من مشركي قريش، وإنما كان النصر للبيت الحرام إرهاصًا وتوطئةً لبعثة محمد ﷺ)(٢).

تاسع عشر: أرادوا بالفيل أن يسير متجهًا إلىٰ البيت الحرام، فوقف ولم يَسِر إليه، وحبسه الله -تعالىٰ- عنه، فوجهوه إلىٰ الجهات الأخرىٰ فاتّجه، ثم أرادوا أن يوجهوه إلىٰ البيت فامتنع! فضربوه بكل ما يستطيعونه من أدوات الضرب والإيلام، فلم يتحرك باتجاه الكعبة. ولو أن (أبرهة) أدرك الدرس واعتبر واتعظ، لكان خيرًا له، ولكنه طغىٰ، وكان الفيل خيرًا منه، فمضىٰ في طريق التجبر وقرر تنفيذ جريمته، فلم يبق إلا أن يأخذه الله -تعالىٰ- أخذ عزيز مقتدر.

وقد يهيئ الله للعبد ما يُوقظه إن كان فيه بقية خير؛ إمَّا مِنْ نُصْح ناصح، أو أمر يدبره الله له يُنبّهه من غفلته، لعله يرجع، فإن أبىٰ جعله نكال الآخرة والأولىٰ.

العشرون: وقفت متأملا في مسألة تأخير إرسال العقوبة الإلهية علىٰ أبرهة وجنده إلىٰ أن وصلوا حدود الحرم، واستسلم عبد المطلب وقريش، وخرجوا إلىٰ الجبال يترقبون تساقط جدران الكعبة، وسلموا أمرهم، وأعدَّ أبرهة فيلته وجنده، وظن أنه غالب، وحانت -كما يقولون- ساعة الصفر، ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ [يونس:٢٤]. ولعل من حكمة الله في ذلك -والله أعلم- إبراز صورة من قوة الله عيانًا في أعلىٰ مقاماتها وفي أشد الحاجة إليها.

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٨٣).

(٢) ابن كثير، السيرة النبوية (١/ ٣٩).

فحينما يتجبر المخلوق، ويشتد الخطب، ويُوقن الناس بالهلاك، يخرق الله -جل شأنه- بقدرته، السننَ الكونية خرقًا يبهر العقول. وذلك كما حصل لغلام الأخدود من قبل، وكما حصل لإبراهيم -عليه السلام- مع من أراد إلقاءه في النار، وكما حصل لموسىٰ -عليه السلام- وقومه، حينما ظن فرعون وجنده أنهم قادرون، وقال أصحاب موسىٰ عليه السلام: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء:٦١]؛ وفي كلها جاء النصر في أحوج ما يكون، فكانت النعمة أتم، والأثر أعظم، والعقوبة أشد إيلامًا، والله أعلم.

الواحدة والعشرون: يقول الشيخ محمد العثيمين -رحمه الله تعالىٰ-: (وإنما حمىٰ الله -عز وجل- الكعبة من هذا الفيل مع أنه في آخر الزمان سوف يُسلَّط عليها رجل من الحبشة يهدمها حجرًا، حجرًا، حتىٰ تتساوىٰ بالأرض[١]؛ لأن قصة أصحاب الفيل مقدِّمة لبعثة الرسول محمد ﷺ التي يكون فيها تعظيم البيت، أما في آخر الزمان فإن أهل البيت إذا أهانوه وأرادوا فيه بإلحاد بظلم، ولم يعرفوا قدره، حينئذ يُسلّط الله عليهم من يهدمه، حتىٰ لا يبقىٰ علىٰ وجه الأرض، ولهذا يجب علىٰ أهل مكة خاصة، أن يحترزوا من المعاصي والذنوب والكبائر؛ لئلا يهينوا الكعبة فيذلهم الله -عز وجل)[٢].

الثانية والعشرون: قد يقول شخص: كيف حمىٰ الله البيت من أبرهة، ولم يمنع الحجاج بن يوسف الثقفي عندما رمىٰ البيت بالمنجنيق أيام عبد الله بن الزبير -رضي الله تعالىٰ عنهما-؟ وكذلك عندما اعتدىٰ القرامطة علىٰ الكعبة وأخذوا الحجر الأسود؟

تحدث عدد من العلماء عن هذه المسألة، ومنهم الإمام الماوردي -رحمه الله تعالىٰ-؛ فقال ما مختصره: (وآية الرسول ﷺ من قصة الفيل: أنه كان في زمانه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب هدم الكعبة ١٥٩٥ – ١٥٩٦.
(٢) ابن عثيمين، تفسير جزء عم ص ٣٢٠.

حملًا في بطن أمه بمكة؛ لأنه وُلِدَ بعد خمسين يومًا من الفيل، فكانت آية في ذلك من وجهين؛ أحدهما: أنهم لو ظفِروا لسَبَوْا واستَرَقُّوا، فأهلكهم الله -تعالىٰ- لصيانة رسوله ﷺ أن يجري عليه السبي حملًا ووليدًا.

والثاني: أنه لم يكن لقريشٍ مِن التأله ما يستحقون به رفع أصحاب الفيل عنهم، وما هم أهل كتاب؛ لأنهم كانوا بين عابد صنم أو متدين وثن، أو قائل بالزندقة، أو مانع من الرجعة، ولكن لما أراده الله -تعالىٰ- من ظهور الإسلام تأسيسًا للنبوة وتعظيمًا للكعبة، وأن يجعلها قبلة للصلاة ومنسكًا للحج. فإن قيل: فكيف منع الكعبة قبل مصيرها قبلة ومنسكًا ولم يمنع الحَجّاج من هدمها، وقد صارت قبلةً ومنسكًا حتىٰ أحرقها ونصب المنجنيق عليها؟

قيل: فِعلُ الحَجَّاج كان بعد استقرار الدين، فاستغنىٰ عن آيات تأسيسه، وأصحابُ الفيل كانوا قبل ظهور النبوة، فجعل المنع منها آيةً لتأسيس النبوة ومجيء الرسالة، علىٰ أن الرسول ﷺ قد أنذر بهدمِها، فصار الهدم آيةً بعد أن كان المنع آيةً، فلذلك اختلف حكمُهما في الحالين، والله -تعالىٰ- أعلم) ا.ه[1].

ويمكن أن يقال: إن أبرهة كان قاصدًا هدم الكعبة وإزالتها، أما الحَجّاج فلم يقصد هدم الكعبة، وإنما كان قصده القضاء علىٰ ولاية عبد الله بن الزبير -رضي الله تعالىٰ عنهما- علىٰ مكة، ورميه المنجنيق للكعبة لإرغام ابن الزبير -رضي الله تعالىٰ عنهما- ومن معه علىٰ الاستسلام.

أما ما فعله القرامطة الأشرار مِن سرقة الحجر الأسود، وأخذه إلىٰ بلادهم، ثم أعادوه بعد ٢٢ عامًا، فقد كان هذا بعد استقرارِ الشرائع، والعلم بشرف الكعبة، ووجوب الذَّوْد عنها مِن قِبل المسلمين، فهو ابتلاءٌ لأهل الإيمان، وإمهال لأهل

(١) الماوردي، أعلام النبوة (٢٠٧)، مختصرًا.

الضلال، بخلاف الحال قبل بعثة النبي ﷺ؛ حيث لم يكن هناك مَن يذود عن بيته الحرام.

إذا تبين هذا عُلِمَ أن حفظ الكعبة والذود عنها ليس مِنْ قَدَر الله الكوني، الذي لا يمكن أن يقع خلافه، وإنما هو بعد استقرار شريعة الإسلام مِنْ قَدَر الله الشرعيّ؛ حيث فرض الله علىٰ المسلمين الذود عن البيت الحرام وجميع الحرمات؛ وبهذا يزول الإشكال.

المبحث الثالث

مولد الرسول ﷺ

١. تزوج عبد الله بن عبد المطلب بآمنة بنت وهب من بني زهرة، ثم خرج إلىٰ الشام (مدينة غزَّة) في عير من قريش في تجارة، ثم انصرفوا في طريق عودتهم إلىٰ المدينة، وتوقف عبد الله عند أخواله بني النجار؛ لشعوره بالمرض، وأقام عندهم أيامًا، ثم مات ودُفِنَ بالمدينة، ورسول الله ﷺ جنين في بطن أمه(١)، وعُمر عبد الله حينئذ خمسًا وعشرين سنة(٢)، وهذا اليتم هو الذي أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحىٰ:٦].

٢. قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (لا خلاف أنه وُلِدَ ﷺ بجوف مكة)(٣). أما مكان الولادة في مكة، فقيل: في الدار الكائنة في شِعب بني هاشم، وقيل: بالدار التي عند الصفا(٤)، وكانت القابلة هي الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف -رضي الله

(١) انظر: صحيح مسلم (٣/ ١٣٩١) رقم (١٧٧١)، وفيه قول أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه-: فلما ولدت آمنة رسول الله ﷺ، بعد ما تُوفي أبوه، فكانت أم أيمن تحضنه حتى كبر رسول الله ﷺ فأعتقها). وانظر ابن كثير، السيرة النبوية (١/ ٢٠٦). وقال: (والذي رجّحه الواقدي وكاتبه الحافظ محمد بن سعد أنه -عليه الصلاة والسلام- توفي أبوه وهو جنين في بطن أمه. وهذا أبلغ اليتم وأعلى مراتبه). وصححه الذهبي في السيرة سير أعلام النبلاء السيرة النبوية (١/ ٥٣)، ومادام قد ثبت من قول أنس رضي الله تعالى عنه-، فلا يُلتفت إلى غير ذلك من الأقوال، ممن هو دونه.

(٢) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٢/ ٢٦٣)، وابن قيم الحوزية، زاد المعاد (١/ ٦). والذهبي في السيرة (سير أعلام النبلاء السيرة النبوية) (١/ ٥٣).

(٣) ابن القيم، زاد المعاد (١/ ٧٤).

(٤) انظر: السهيلي، الروض الأنف (١/ ٣٩٩)، والشامي، سبل الهدى (١/ ٤٠٨).

تعالىٰ عنه وعنها-[1]. وعن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «رأت أمي كأنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام»[2].

٣. لا خلاف أن الرسول ﷺ وُلِدَ يوم الاثنين لحديث: أنه سُئِلَ عن صيام يوم الاثنين، فقال: «ذاك يوم وُلِدْتُ فيه، وأُنْزِلَ عليَّ فيه»[3].

واختلفوا في أيّ شهر وُلِدَ؟

فقيل: وُلِدَ في رمضان، واستدلوا علىٰ هذا بأنه ﷺ بُعِثَ علىٰ رأس الأربعين، وقد بُعِثَ في رمضان فتكون ولادته في شهر رمضان[4].

ولكن الصحيح أنه ﷺ وُلِدَ في ربيع الأول[5]، واكتفىٰ به السهيلي -رحمه الله تعالىٰ-، ولم يحدد يومًا من الشهر[6].

ثم اختلفوا في أيّ يوم من ربيع الأول؟ علىٰ الأقوال التالية:

---

(١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٢/ ٢٦٤).

(٢) أخرجه الدارمي في سننه (١/ ١٧)، رقم ١٣، وقال محققه: رواه أيضًا أحمد والطبراني في الكبير وإسناد أحمد حسن، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، حديث رقم ٣٤٥١.

(٣) صحيح الإمام مسلم (٢/ ٨١٩) رقم ١٩٧ من حديث أبي قتادة الأنصاري -رضي الله تعالى عنه-.

(٤) انظر: السهيلي، الروض الأنف (١/ ٣٩٨)، ونقل هذا القول ابن كثير في البداية والنهاية (٢/ ٢٦٠)، وقال عنه: وهو قول غريب جدًّا، وعقّب على الدليل الذي أشرت إليه بقوله: وهذا فيه نظر.

(٥) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (الجزء الخاص بالسيرة)، (١/ ٣٦)، والسهيلي، الروض الأنف (١/ ٣٩٨).

(٦) انظر: السهيلي، الروض الأنف (١/ ٣٩٨)؛ إلا أنه قال: (وأهل الحساب يقولون: وافق مولده من الشهور الشمسية نيسان فكانت لعشرين مضت منه) والعشرون من نيسان يوافق التاسع من ربيع الأول.

٢ ربيع الأول[١].

أو ٨ ربيع الأول[٢].

أو ٩ ربيع الأول[٣].

أو ١٠ ربيع الأول[٤].

(١) قال ابن كثير في السيرة (١/ ١٩٩)، (فقيل لليلتين خلتا منه، قاله ابن عبد البر في الاستيعاب).

(٢) قال ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ١٩٩): (وقيل لثمان خلون منه، حكاه الحميدي عن ابن حزم، ورواه مالك وعقيل ويونس بن يزيد وغيرهم عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم، ونقل ابن عبد البر عن أصحاب التاريخ أنهم صححوه، وقطع به الحافظ الكبير محمد بن موسى الخوارزمي). وانظر: العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم السامرائي، الطبعة الأولى (القاهرة: دار الآفاق ١٤٢١) (ص ٤٤).

(٣) قال محمد الخضري في نور اليقين (ص ٩): (وقد حقّق المرحوم محمود باشا الفلكي أن ذلك كان صبيحة يوم الاثنين تاسع ربيع الأوّل الموافق لليوم العشرين من أبريل سنة ٥٧١ من الميلاد، وهو يوافق السنة الأولى من حادثة الفيل)، ومحمود باشا الفلكي – عالم فلكي مصري، له باع في الفلك والجغرافيا والرياضيات وكتب وأبحاث، توفي عام ١٨٨٥م، وقول هذا العالم الفلكي يوافق ما قاله السهيلي –رحمه الله تعالى-. وقال صفي الرحمن المباركفوري –رحمه الله تعالى– في الرحيق المختوم (ص ٤٥): (ولد سيد المرسلين ﷺ في شعب بني هاشم بمكة في صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول، لأول عام من حادثة الفيل، ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان، ويوافق ذلك العشرين أو الثاني والعشرين من شهر أبريل سنة ٥٧١م حسبما حققه العالم الكبير محمد سليمان المنصور فوري والمحقق الفلكي محمود باشا). واختلافهم في العشرين أو الثاني والعشرين من أبريل فرع عن الاختلاف في التقاويم الميلادية. وقال الفلكي الأستاذ عبد الله بن إبراهيم بن محمد السليم في كتابه تقويم الزمان (ص١٤٣): (فتكون ولادته ﷺ يوم الاثنين الموافق ٩ ربيع الأول سنة ٥٣ قبل الهجرة ويوافق ٢٠ نيسان أبريل سنة ٥٧١؛ نقلًا وحسابًا)؛ نقلًا من كتاب ما شاع ولم يثبت في السيرة محمد العوشن (ص ٨)، وقال ابن عثيمين –رحمه الله تعالى– في القول المفيد (ص٢٤٣): (إن مولد الرسول ﷺ حققه بعض الفلكيين المتأخرين فكان في اليوم التاسع لا في اليوم الثاني عشر). وهكذا نجد أن الفلكيين اتفقت حساباتهم على أنه ﷺ وُلِدَ التاسع من ربيع الأول.

(٤) قال ابن كثير في السيرة (١/ ١٩٩): (وقيل: لعشر خلون منه، نقله ابن دحية في كتابه، ورواه ابن عساكر عن أبي جعفر الباقر، ورواه مجالد عن الشعبي. وانظر أيضًا: الذهبي، سير أعلام النبلاء، الجزء الخاص بالسيرة (١/ ٣٦)، ونقل تصحيح الدمياطي لهذا القول.

أو ١٢ ربيع الأول[١].

أو ٢٢ ربيع الأول[٢].

ولا يستند أي من هذه الأقوال لحديث صحيح[٣]، وعليه فلا بأس بالأخذ بما ذكره أهل الفلك والحساب من أن ميلاده ﷺ كان في التاسع من ربيع الأول، وذلك كمعلومة تاريخية لها أهميتها وقيمتها الغالية، كسائر تفاصيل سيرة نبينا ﷺ وحياته، أما أن يُبنَىٰ عليها حكم شرعي، فهذا ما سيأتي الحديث عنه.

أما عام مولده: فقد روىٰ الذهبي -رحمه الله تعالىٰ- بسنده عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- (أن النبي ﷺ ولد عام الفيل)[٤]، وقال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (وكان مولده ﷺ عام الفيل، وهذا هو المشهور عند الجمهور)، قال إبراهيم بن المنذر[٥] -رحمه الله تعالىٰ-: (وهو الذي لا يشك فيه أحد من علمائنا أنه -عليه

(١) قال ابن كثير في السيرة (١/ ١٩٩): (وقيل: لثنتي عشرة خلت منه، نصَّ عليه ابن إسحاق، ورواه ابن أبي شيبة في «مصنفه «عن عفان عن سعيد بن مينا عن جابر وابن عباس أنهما قالا: (ولد رسول الله ﷺ عام الفيل يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول. وهذا هو المشهور عند الجمهور، والله أعلم)، وقال في البداية والنهاية (٤/ ٢٧٠) تحقيق التركي عن هذا السند: (فيه انقطاع).

(٢) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية (١/ ٢٠٠).

(٣) قال محمد العوشن في كتابه «ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية» (ص ٧): (فهذه ستة أقوال ذكرها ابن كثير -رحمه الله تعالى-، ولا يستند أي قول منها لحديث صحيح، وحديث جابر وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم- في تحديده بالثاني عشر لو صح لكان فيصلًا في النزاع، ولكنه ضعيف. قال ابن كثير: فيه انقطاع ا.هـ.

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء (الجزء الخاص بالسيرة النبوية المجلد الأول (ص ٣٣)، وقال: صحيح.

(٥) إبراهيم بن المنذر بن عبد الله بن المنذر بن المغيرة بن عبد الله بن خالد بن حزام بن خويلد بن أسد الأسدي الحزامي، أبو إسحاق المدني. روى عن مالك وابن عيينة، وروى عنه البخاري وابن ماجه، وروى له الترمذي والنسائي بواسطة والدارمي مات سنة ٢٣٦. ابن حجر، تهذيب التهذيب (١/ ١١٢).

الصلاة وأتم التسليم- وُلِدَ عام الفيل)[1]، وجزم بهذا خليفة بن خياط -رحمه الله تعالىٰ- فقال: (والمجتمع عليه عام الفيل)[2]، ووافقه ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-[3]، وهو ما أيَّدته الدراسات الحديثة التي سبق الإشارة إليها في تحديد يوم مولده ﷺ.

ونقل الذهبي -رحمه الله تعالىٰ- عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- (أن عبد المطلب ختن النبي ﷺ يوم سابعه)[4].

وهنا عدد من الوقفات:

الوقفة الأولىٰ: وقفة مع تاريخ ميلاد الرسول ﷺ:

إذا نظرنا إلىٰ ما كُتب عن تاريخ ميلاد الرسول ﷺ، نلحظ عناية العلماء من أهل

---

(١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (١/ ٢٠١)، والذهبي، سير أعلام النبلاء السيرة النبوية، (١/ ٣٤).

(٢) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط (ص ٥٣).

(٣) ابن القيم، زاد المعاد (١/ ٧٤).

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء (الجزء الخاص بالسيرة)، (١/ ٣٦)، وقال: (وهذا أصح مما رواه ابن سعد... عن ابن عباس عن أبيه -رضي الله تعالى عنهما- قال: (وُلد النبي ﷺ مختونًا مسرورًا)؛ فأعجب ذلك عبد المطلب وحظي عنده، وقال: ليكونن لابني هذا شأن)، قال ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٣٨٧) طبعة دار هجر: (وهذا الحديث في صحته نظر). وممن ضعَّف حديث ولادته مختونًا الألباني في ضعيف الجامع (٥٣١٠)، وسلسلة الأحاديث الضعيفة (٦٢٧٠)، وأحمد بن غانم الأسدي في المدخل إلى علم السيرة، قسم النظائر في السيرة (ص٣١٩) الهامش، وقال: (إنه لا يصح حديث في ولادته مختونًا).

ومسألة ولادة الشخص مختونا ورد أنها وقعت لبعض الأشخاص، طالع ابن القيم، تحفة المودود بأحكام المولود تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، الطبعة الأولى (دمشق: مكتبة دار البيان ١٣٩١) (ص ٢٠٦، وقال في زاد المعاد (١/ ٨١)وليس هذا من خواصه فإن كثيرا من الناس يولد مختونا» قال الشيخ بن باز -رحمه الله تعالى- «وقد بلغنا من ذلك عدة وقائع يولد فيها الرجل مختونًا، وبذلك يكون أهله قد كفوا هذه المئونة والحمد لله.»جواب عن سؤال في موقع الشيخ -رحمه الله تعالى- على الإنترنت. ومثل ذلك ذكره الشيخ محمد العثيمين -رحمه الله تعالى- في شرحه لصحيح مسلم (٢/ ٩٥)

الحديث والسيرة والتاريخ، بتاريخ ميلاده ﷺ ثم اختلافهم فيه اختلافًا كثيرًا، دون أن نجد نصًّا قاطعًا في المسألة، ولعلنا نستفيد من ذلك ما يلي:

أولًا: هذا البحث والجمع والتحري عن تاريخ ميلاد الرسول ﷺ، وبذل الجهد في جمع الأقوال يكشف مدىٰ عمق المحبة لهذا النبي الحبيب ﷺ والعناية بتاريخه وسيرته وحياته.

ومن المؤكد أنّ أيّ وقت تقضيه في البحث والتعرف علىٰ سيرة المصطفىٰ ﷺ -ومن ذلك تاريخ ولادته- هو علم شريف من أشرف العلوم وأعظمها أجرًا، ومما يُتقرب به إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-.

ثانيًا: إن الاختلافات الواردة في تاريخ مولده لم أجد فيها شيئًا ثابتًا عن الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-، سوىٰ ما ذكره ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ- عن جابر وابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهم-، وعزاه لابن شيبة -رحمه الله تعالىٰ- في مصنّفه، ولم أجده في المصنف المطبوع؛ حتىٰ إن ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ- عندما نقله عقّبه بقوله: (فيه انقطاع) -كما سبق أن أشرت إلىٰ ذلك في الهامش-، وهذا يشير إلىٰ علىٰ عدم ثبوت شيء مؤكد عن الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-، ويغلب علىٰ الظن أن بعضًا منهم يعرف تاريخ مولده، خاصةً أقارب الرسول ﷺ كالعباس -رضي الله تعالىٰ عنه-، ولأنهم لا يرون لهذا التاريخ أثرًا تعبديًّا، فقد اكتفوا بمعرفته دون نقله لمن بعدهم، ولو كان له أثر تعبّدي ما تركوا نقله قطعًا.

ويؤكد هذا أن الرسول ﷺ لم يُخبرهم بتاريخ مولده، ولو أنه مما يترتب عليه عبادة مشروعة، ما سكت عنه المصطفىٰ ﷺ؛ بل إن الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- لما سألوه عن سبب صيام يوم الاثنين أخبرهم أنه يوم وُلِدَ فيه، وأُنزل عليه فيه، فالأهمية التعبدية ليوم الاثنين الذي يتكرر أسبوعيًّا، لا للتاريخ، سواء أكان الثامن، أو التاسع، أو العاشر، أو الثاني عشر من ربيع الأول أو غيره.

ثالثًا: إنه ينبغي علينا أن نفرّق بين العناية بسيرته ﷺ، وبين التعبُّد بأحداثها؛ فالبحث ومحاولة التعرف علىٰ سيرة المصطفىٰ وتواريخ أحداثها، من محبة المصطفىٰ ﷺ وهو عِلْمٌ من أشرف العلوم -كما مر-، لكن أن تُربط التواريخ المهمة في أحداث سيرته ﷺ بعبادة معينة، هذا يحتاج إلىٰ دليل، ويفتح بابًا واسعًا من الاحتفالات الكثيرة علىٰ مدار العام التي ما أنزل الله بها من سلطان.

وإذا ساغ لشخص أن يتعبد الله -جل شأنه- بعبادة معينة في مناسبة حدث من أحداث سيرة المصطفىٰ ﷺ؛ فأحداث سيرة المصطفىٰ ﷺ كلها مهمة، فالمولد مهم، والبعثة مهمة، والإسراء مهم، والهجرة مهمة، وبدر، وصلح الحديبية، وفتح مكة، وحجة الوداع كلها أحداث مهمة، وإذا احتفلنا بالأفراح، فللأتراح في السيرة حينئذ نصيبها، بما يلائمها من حزن، فقد أصيب المسلمون في أحد، وفي بئر معونة، وغيرها، وفي فاجعة وفاة النبي الكريم ﷺ المصاب الأعظم الذي لم تعرف ولن تعرف البشرية مصابًا أعظم منه. فهل نخترع نُواحًا في تاريخ وفاته، كما يفعل الرافضة في استشهاد السبط الكريم الحسين -رضي الله تعالىٰ عنه وعن والديه-، هل كل هذه الأحداث نقيم فيها أفراحًا، أو أتراحًا تلائمها؟ أو نفرّق؟، ومَن فرّق بينها فعليه الدليل.

أنا لا أشك أن غالب الذين يحتفلون بمولد النبي الكريم يحبّون النبي ﷺ حبًّا عظيمًا، وأن كثيرًا منهم مأجورون!! نعم مأجورون!![1]، لكنهم مأجورون علىٰ النية

(١) يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالى- في مجموع الفتاوى (٢٤/ ٢٠١-٢٠٢): (وأشد من ذلك ما يذكره بعض المصنفين في «الرقائق والفضائل» في الصلوات الأسبوعية والحولية: كصلاة يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت المذكورة في كتاب أبي طالب وأبي حامد وعبد القادر وغيرهم. وكصلاة «الألفية» التي في أول رجب ونصف شعبان والصلاة «الاثني عشرية» التي في أول ليلة جمعة من رجب والصلاة التي في ليلة سبع وعشرين من رجب وصلوات أخر تذكر في الأشهر الثلاثة وصلاة ليلتي العيدين وصلاة يوم عاشوراء، وأمثال ذلك من الصلوات المروية عن النبي ﷺ مع اتفاق أهل المعرفة بحديثه أن ذلك كذب عليه، ولكن بلغ ذلك أقوامًا من أهل العلم والدين فظنّوه صحيحًا فعملوا به وهم مأجورون على حسن قصدهم واجتهادهم لا على مخالفة السنة).

فقط، أما العمل فشيء آخر، قد يكونوا مأزورين، فالعمل التعبدي الذي ليس عليه دليل صاحبه مأزور، لا بد أن يكون العمل مشروعًا ليكون صاحبه مأجورًا عليه؛ إذ إن العبادة مبنية علىٰ التوقيف، والأصل فيها الحظر والمنع؛ وفيما شرع الله -جل شأنه- كفاية لمن أراد التقرب إليه وعبادته -سبحانه-، وإذا كان العمل يفتقد الدليل فلا يسوغ التقرب به، وقد حذَّرنا الرسول ﷺ من إحداث عبادات قال ﷺ: «إن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»[1].

فمن يحتفل بالمولد النبوي كل عام!! نقول له: هل ثبت تاريخ مولده ﷺ؟

هل سأل الصحابةُ -رضي الله تعالىٰ عنهم- عن تاريخ ولادته؟

هل أخبر الرسول ﷺ، الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- بتاريخ ميلاده؟

ولو كان الاحتفال السنوي بمولده عبادة لله -جل شأنه- ما سكت عنها المصطفىٰ ﷺ، وهو قد دلّنا علىٰ فضل الصلاة عليه والدعاء له، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله تعالىٰ عنهما- أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليَّ؛ فإنه من صلىٰ عليَّ صلاة صلىٰ الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلَّت له الشفاعة»[2]، وأخبرنا بأنه يرد السلام علىٰ مَن سلم عليه، فقد ورد أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد يسلم عليَّ إلا ردَّ الله عليَّ روحي حتىٰ أرد عليه السلام»[3].

ولو كان الاحتفال بتاريخ مولده من هذا السياق ما تركه ﷺ.

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه (٢/ ٥٩٢) رقم (٨٦٧).

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه (١/ ٢٨٤) رقم (٣٨٤).

(٣) رواه أبو داود في سننه (٢٠٤١)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

وأنت لا شك تحب المصطفىٰ ﷺ؛ فأكثِرْ من الصلاة والتسليم عليه في كل حين؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦]، وبخاصة يوم الجمعة؛ فعن أوس بن أبي أوس -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «مِنْ أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خُلق آدم، وفيه قُبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه؛ فإن صلاتكم معروضة عليَّ»؛ فقالوا: يا رسول الله، وكيف تُعرض عليك صلاتنا وقد أرمت؟ يعني وقد بليت، قال: «إن الله -عز وجل- حرَّم علىٰ الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»[1] -صلوات الله وسلامه عليهم-. وتمسّك بسُنته، ففيها كل الخير، ولو كان في غير ذلك خير، لسبقنا إليه من هم خير منا وأحب منا للرسول ﷺ.

ولو كان مطلوبًا من المسلم الاحتفالُ بتاريخ مولده سنويًّا، لكان أول وأولىٰ من يحتفل بمولده خير القرون وهم أصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم-، ثم التابعون، ثم تابعو التابعين، وتلك هي القرون المفضّلة. فهل احتفل أحد منهم بذلك؟ وهل نحن خير منهم؟ ألا يسعنا ما وسعهم؟

والبركة كل البركة في التمسّك بهديه ﷺ، وهدي الخلفاء الراشدين من بعده وأئمة الهدىٰ من صحابته -رضي الله تعالىٰ عنهم- والأئمة الهداة في القرون المفضلة.

رابعًا: ليوم الاثنين ميزة خاصة، فإنه وُلِدَ في هذا اليوم، وفيه بُعِثَ[2]، وفيه لحق بالرفيق الأعلىٰ ﷺ كما سيأتي، وكلها أمور كونية قدرية بأمر الله -سبحانه وتعالىٰ-، جاءت لتتفق بأمر الله علىٰ هذا اليوم لحكمة أرادها الله -سبحانه وتعالىٰ-، ولذلك

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده تحقيق الأرناؤوط، وإشراف عبد الله التركي (طبعة دار الرسالة)، (٢٦/ ٨٤)، وقال المحقق: (إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح، غير صحابيه فمن رجال أصحاب السنن).

(٢) صحيح الإمام مسلم (٢/ ٨١٩)، رقم ١٩٧ من حديث أبي قتادة الأنصاري -رضي الله عنه-.

فالفضيلة لهذا اليوم (الاثنين) بعينه، الذي هو يوم من أيام الأسبوع، يتكرر علينا أسبوعيًّا، وقد سنَّ الرسول ﷺ صيام هذا اليوم مع يوم الخميس. فأضاف الرسول ﷺ لهذا اليوم ميزة شرعية بصيامه، وبإخبارنا أنه تُرفَع فيه الأعمال، وعليه فالفضيلة هنا، في هذا اليوم لمن يبتغي الفضيلة، وتحصيلها وتحقيقها بالصيام، وعليه فيُسنّ لنا صيام هذا اليوم؛ تأسيًا بالمصطفىٰ ﷺ، ولأن هذا اليوم وُلِدَ فيه الرسول ﷺ، ولأنه فيه بُعِثَ، ولأن الأعمال تُرفَع فيه إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-.

ولو قال قائل: إن صيام هذا اليوم احتفال بيوم ولادته، قلنا: إن اليوم الذي صامه الرسول ﷺ وهو في المدينة عندما سأله الصحابة -رضي الله عنهم-، هو يوم الاثنين، وليس (١٢ ربيع الأول)، والذي يحتفلون بالمولد يحتفلون باليوم الذي تاريخه (١٢ ربيع الأول)؛ سواء وافق يوم الاثنين أو أيّ يوم من أيام الأسبوع. وفرق بين الأمرين، فرق بين من يجعل ليوم ١٢ ربيع الأول سنويًّا عبادة خاصة؛ سواء وافقت الاثنين أو الثلاثاء أو غيره من أيام الأسبوع، بمعنىٰ أنه جعل الفضيلة لـ(١٢ربيع الأول) لا ليوم (الاثنين)، والرسول ﷺ جعل الفضيلة ليوم الاثنين وسكت عن التاريخ، (والعبادة الأصل فيها التوقيف ولا تقبل القياس)[1].

فمن يريد سنة المصطفىٰ ﷺ فليكثر من صيام يوم الاثنين تأسيًا بالرسول ﷺ، ولأنه يوم ولد فيه الرسول ﷺ، ولأنه بعث فيه الرسول ﷺ، ولأنه -أيضًا- يوم تُرْفَع فيه الأعمال إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ- [2]، والله أعلم.

---

(١) انظر: محمد صدقي البورنو، موسوعة القواعد الفقهية، الطبعة الأولى (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٢٤) (٨/ ٨٠١).

(٢) عن أبي قتادة الأنصاري -رضي الله عنه-، أن رسول الله ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين؟ قال: «ذاك يوم ولدت فيه، ويوم بعثت - أو أنزل علي فيه -» رواه الإمام مسلم في صحيحه (٢/ ٨١٩) رقم (١١٦٢)، وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: (تُعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس، فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم) رواه الترمذي (٢/ ٢٤٧) رقم (٧٤٧ وصححه الألباني.

خامسًا: لعلك تلاحظ أن الرسول ﷺ يخبرنا عن صيام يوم الاثنين، وهو اليوم الذي وُلِدَ فيه واليوم الذي بعث فيه، ولم يذكر التاريخ، في حين أنه يذكر التاريخ في صيام عاشوراء، ولم يذكر اليوم من أيام الأسبوع[1]، ونحن أمة نتَّبع ولا نبتدع؛ نصوم كما صام المصطفىٰ ﷺ يوم الاثنين، وهو أحد أيام الأسبوع، ولا نبحث عن التاريخ؛ لأن الرسول ﷺ لم يشرع لنا هذا، ونصوم يوم عاشوراء المحدد بالعاشر من المحرم، ولا نبحث عن اليوم من الأسبوع، أهو السبت أو الأحد أو غير ذلك لنصومه. ومن كمال التوقير والتعظيم ملازمة التسليم في الحالين، والله أعلم.

الوقفة الثانية: وقفة مع ولادة الرسول ﷺ يتيمًا:

مسألة يُتْم الرسول ﷺ، وأعني بها أن يموت والده -عبد الله- قبل ولادته ﷺ فيخرج إلىٰ هذه الدنيا ﷺ ولا يجد أمامه أبًا يحتفي به، وهذا -بلا شك- تدبير إلهي للمصطفىٰ ﷺ، وقد قال الله -تعالىٰ-: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ [الطور:٤٨-٤٩]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ [الضحىٰ:٦]؛ أقول:

١) كانت العرب أهل اكتساب باليد؛ إما ضربًا في الأرض للتجارة، أو زراعة، أو صيدًا أو إغارة، ولذلك كان الضعيف فيهم لا كَسْب له، وبالتالي لا وزن له، وعليه (فلا جرم أن يصبح اليتيم بينهم فقيرًا مدحورًا، وزد إلىٰ ذلك أن أهل الجاهلية قد تأصل فيهم الكبر علىٰ الضعيف وتوقير القوي، فلما عَدِم اليتيم ناصره ومن يَذُبّ عنه، كان بحيث يُعرّض للمهانة والإضاعة ويُتخذ كالعبد لوليه، من أجل ذلك كله، صار وصف اليتيم عندهم ملازمًا لمعنىٰ الخصاصة والإهمال والذل، وبه يظهر معنىٰ امتنان الله -تعالىٰ- علىٰ نبيه أن حفظه في حال اليتم مما ينال اليتامىٰ في قوله:

---

(١) في صحيح مسلم (٢/ ٨١٨) رقم (١١٦٢) قال ﷺ «صيام يوم عاشوراء، أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله» من حديث أبي قتادة -رضي الله تعالى عنه-.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ [الضحىٰ: ٦])[1].

٢) إن ما جرىٰ للرسول ﷺ من ولادته يتيمًا، لا يجد أبًا أمامه يستقبله ويحتضنه، هو كما يقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (أبلغ اليتم وأعلىٰ مراتبه)[2]. بل إن من اللافت للنظر أن الرسول ﷺ لم يكن له إخوة أو أخوات أشقاء أو غير أشقاء. وبعض الإخوة والأخوات يكون فيهم نوع من العِوَض عن فقد الأب أو الأم.

ولعل يُتْمَه ﷺ بهذه الصورة كي لا يكون للمبطلين سبيل أن يقولوا: إن محمدًا تلقىٰ دعوته هذه بإرشاد وتوجيه من والده، أو أن دعوته هذه ورثها من أبيه؛ فقد مات أبوه قبل مولده، ولم يلتقيا، فانقطع بذلك توارث الزعامة أو التوجيه والإرشاد الأبوي لها.

٣) لقد كان اليتيم وحده مدعاة إلىٰ المضيعة وفساد الخُلق؛ لقلة مَن يحفل باليتيم ويحرص عليه، وأنت -يا محمد- قد (أنشأك علىٰ كمال الإدراك والاستقامة، وكنت علىٰ تربية كاملة، مع أن شأن الأيتام أن ينشأوا علىٰ نقائص؛ لأنهم لا يجدون مَن يُعْنَىٰ بتهذيبهم، وتعهد أحوالهم الخُلقية)[3].

بل إن الناس يزهدون أو يزدرون اليتيم، حتىٰ المرضعات اللاتي أتين من البادية زهدن في محمد ﷺ لمّا علمن أنه يتيم.

وهذا الأمر إذا أُضيف إليه ما كان فاشيًا في أهل مكة، من عبادة للأصنام، واستحلال للخمور، ومظالم، وعادات جاهلية سيئة، ما فيه الكفاية في إضلال من ينشأ يتيمًا، لا أب له يرعاه.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢/ ٣٥٥).

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية (٢/ ٢٦٣).

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٩٩).

والمصطفىٰ ﷺ كان له من الحصانة الربانية ما تحفظه من انتقال عدوىٰ هذه الأمراض إليه.

ولو تدبَّر المُنصِف هذه النشأة في هذه البيئة، بهذه الكيفية، لظهر ما فيه من جليل رعاية الله له، وحياطته، وحفظه وحُسْن تنشئته، ولوجد من ذلك العجب، الذي لا يجده لو نشأ محمد ﷺ يتقلب في أحضان أبوين يرعيانه ويهتما بتربيته، ومن هذا يتبين شيء من قول الله -تعالىٰ- له: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء:١١٣][1].

٤) إن في نشأته ﷺ يتيمًا يجعله أكثر إحساسًا بالمعاني الإنسانية النبيلة؛ (فكما آواك ربك وحفظك من عوارض النقص المعتاد لليتم؛ فكن أنت مكرمًا للأيتام رفيقًا بهم)[2].

وصاحب التجربة أدرىٰ، وأعمق استيعابًا ممَّن لم يمر بهذه التجربة، وابن الأغنياء لا علم له بمعاناة الفقراء، وهذا النوع من الحياة وفَّر للرسول ﷺ رصيدًا من الخبرات في الدعوة عندما بُعِثَ[3].

٥) إن نشأته ﷺ يتيمًا، ثم ظهور لطف ربه به، وعنايته به منذ صغره، ورؤية ذلك عيانًا أمام كفار قريش، في أخلاقه وسائر أموره، يُساق مساق الوعد المؤكد من الله -جل شأنه-، عندما يُبعث ويدعو إلىٰ الله بأن من سبق منه العناية بهذا اليتيم عناية لا تحتمل الصدف، وإنما هي عناية لا مثيل لها، مقصود منها إيقاع اليقين في قلوب المشركين المناوئين له بأن الله -جل شأنه- سينصره قياسًا علىٰ ما جرىٰ منه

(١) انظر: المراغي، تفسير المراغي (٣٠/ ١٨٥). وانظر: القاضي عياض، الشفا في شمائل المصطفى، تحقيق عبده علي كوشك، الطبعة الأولى (دبي: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم ١٤٣٤)، (ص ٥٣ وما بعدها).

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٠١).

(٣) انظر: الشامي، سبل الهدى والرشاد (١/ ٣٩٩).

-سبحانه- من ملازمة لطفه به فيما مضىٰ، وأولئك الكفار لا يجهلون ذلك، فعسىٰ أن يفهموا الدرس ويقلعوا عن العناد ويسرعوا إلىٰ الإيمان(١).

٦) شاء الله -سبحانه وتعالىٰ- أن يجعل نبيه محمدًا ﷺ يتيمًا حتىٰ لا تتدخل يد أب حانية في توجيهه، بل يتولاه الله -سبحانه وتعالىٰ- كما قال -تعالىٰ- لموسىٰ -عليه السلام-: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ [طه:٤١]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]، فلا يتلقىٰ محمد ﷺ شيئًا من مفاهيم الجاهلية وأعرافها من أبيه، وإنما يتلقىٰ من لدن الحكيم الخبير -سبحانه وتعالىٰ-. نقل أبو حيان -رحمه الله تعالىٰ- في بحره وغيره عن جعفر الصادق -رحمه الله تعالىٰ- قال: (إنما يُتم رسول الله ﷺ؛ لئلا يكون عليه حق لمخلوق). وقال ابن العماد -رحمه الله تعالىٰ- في كشف الأسرار: (إنما ربّاه يتيمًا؛ لأن أساس كل كبير صغير، وعقبىٰ كل حقير خطير، وأيضًا؛ لينظر ﷺ إذا وصل إلىٰ مدارج عزه إلىٰ أوائل أمره؛ ليعلم أن العزيز مَن أعزّه الله، وأن قوته ليست من الآباء والأمهات ولا من المال، بل قوته من الله -تعالىٰ- وأيضًا؛ ليرحم الفقير والأيتام)(٢).

الوقفة الثالثة: وقفة مع نشأة الرسول ﷺ مع أمه:

نشأة الرسول ﷺ في طفولته المبكرة مع أمه لم تكن من باب الصدفة والاتفاق، فقد وجدنا قبل الرسول ﷺ غالب أولي العزم من الرسل -عليهم وعلىٰ نبينا محمد أفضل الصلاة وأتم التسليم-، عُهد بهم إلىٰ أمهاتهم، أليس في هذا إشارة إلىٰ أهمية الأم وعظيم دورها في تكوين وتربية الأجيال؟!

فإسماعيل -عليه السلام- في صباه عاش في بيت أُمّه في مكة بعيدًا عن أبيه

(١) انظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٩٩).
(٢) الشامي، سبل الهدى والرشاد ١/ ٣٣١- ٣٣٢).

إبراهيم -عليه السلام-، وإن كان -عليه السلام- يتعاهده في أزمان متباعدة[1]، وموسىٰ -عليه السلام- عاش في بيت أمه تحنُّ عليه وترعاه، وتتابع أحواله، ولم نجد ذِكرًا لأبيه عند الحديث عنه -عليه السلام- في القرآن الكريم[2].

وعيسىٰ بن مريم -عليه السلام- نشأ في بيت أمه، ثم محمد ﷺ نشأ في طفولته مع أمه آمنة بنت وهب، فهؤلاء ثلاثة من أولي العزم الخمسة من الرسل، بالإضافة علىٰ إسماعيل -عليهم الصلاة والسلام- نشأوا في بيوت أمهاتهم، وكانت وظيفة الأم هي الأوضح في حياتهم، مع غياب واضح للآباء.

إن هذا يذكّرنا بمكانة الأم في التربية وفي المجتمع وعظم رسالتها، فهي التي تولت تربية عدد من الأنبياء في طفولتهم، وهي التي تُحسن تنشئة الأجيال التي تحتلّ المكانة المرموقة في المجتمعات.

وهذا أيضًا يذكرنا حق الأم وقد قال -تعالىٰ-: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣]، وجاء رجل إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك»؛ قال: ثم من؟ قال: «ثم أمك»؛ قال: ثم من؟ قال: «ثم أمك»؛ قال: ثم من؟ قال: «ثم أبوك»[3].

---

(١) صحيح البخاري (٤/ ١٤٤) رقم (٣٣٦٥) وفيه ما ذكره ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- من خروج إبراهيم -عليه السلام- بابنه إسماعيل -عليه السلام- وأمه هاجر -رحمها الله تعالى- حتى قدموا مكة، فتركهما ثم رجع إلى أهله إلى أن قال: فبلغ ابنها- إسماعيل عليه السلام- فنكح فيهم امرأة، قال: ثم إنه بدا لإبراهيم -عليه السلام-، فقال لأهله: إني مطلع تركتي، قال: فجاء فسلم، فقال: أين إسماعيل؟ فقالت امرأته: ذهب يصيد...»؛ فهذا يظهر منه -والله أعلم- تباعد زيارة إبراهيم -عليه السلام- لابنه إسماعيل -عليه السلام-.

(٢) سورة القصص من الآية (٧ -١٣).

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري (٨/ ٢) رقم (٥٩٧١٩). وصحيح مسلم (٤/ ١٩٧٤) رقم (٢٥٤٨). من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-.

فحق الوالدين في القرآن الكريم جاء بعد حق الله -تعالىٰ- بإفراده بالعبادة -سبحانه وتعالىٰ-، ثم في السنة فَصَّل؛ فذكر الأم ثلاث مرات ثم الأب، لعظيم رسالتها التي قامت بها منذ الحمل والوضع والتربية أثناء الصغر إلىٰ أن شبَّ عن الطوق، وتلك لا يمكن مقارنتها لا بالأب ولا بغيره، ولعل -بالإضافة إلىٰ ذلك- هناك أمر آخر -أيضًا- قد يغيب عن بعض الناس، وهو أن ما قدمته الوالدة لولدها غير منظور للولد، بخلاف الأب.

فما قدمته الأم لم يره الطفل، أما ما يقدمه الأب فهو مشاهد، أمام هذا الفتىٰ، أو تلك الفتاة، فهم يرون أن الذي يشتري لهم متطلباتهم اليومية هو الأب، وإن احتاجوا إلىٰ سيارات أو مواصلات الذي يشتريها هو الأب، وإن احتاجوا إلىٰ كسوة فالذي يكسوهم هو الأب، وإن احتاجوا رسوم مدارس فالذي يدفعها هو الأب، وإن احتاجوا علاجًا، أو ترفيهًا، أو سفرًا، أو هدايا، فكله من حساب الأب، أما الأم فمثلهم تطلب من الأب كما يطلبون، فخير الأب مشاهد معاصر، وخير الأم غير مرئي، قد مضىٰ وانتهىٰ، في وقت لم يكونوا يعرفونه، لم يروا عناء الحمل، ولا قسوة الوضع، ولا متاعب الرضاعة، ولا العناية الشاقة في الصغر في الإطعام والتنظيف، التي قامت بها الأم بشأنهم، ولذلك جرىٰ التأكيد مرارًا علىٰ حق الأم، والنفس جُبلت علىٰ حبّ من أحسن إليها، وإحسان الأب مشاهَد، فاستدعاء الإيصاء به أقل حاجة من الأم، مع الفارق الكبير بين ما قامت به، وما يقوم به الأب.

وعِظَم وظيفة الأم وأهمية رسالتها التي رأيناها مع الرسل والأنبياء، يقودنا إلىٰ أهمية اختيار الزوجة الصالحة؛ لأنها هي التي ستربي الأولاد وترعاهم، وتأثيرها سابق لتأثير غيرها، وتوجيههم منذ صغرهم وطفولتهم، له الأثر الكبير علىٰ مستقبلهم، وربما مستقبل المجتمع بكامله[1]، بل لو وسَّعنا الدائرة، وقلنا: إن هذا يدلنا علىٰ مكانة المرأة، وأهميتها في المجتمع المسلم. فالنصوص التي تتحدث

(١) انظر: د. عبد الحميد الهاشمي، الرسول العربي المربي (ص ٨٣ - ٨٤).

عن المرأة في الإسلام ووظيفتها، تدل سياقاتها علىٰ أنَّ المرأة قناة أساسية لاستمرار الدين في المجتمع[١]، وهذا ظاهر في الواقع العملي، من جانبين؛ أولهما: ما نرىٰ من تأثير بالغ للمرأة في المنزل في التربية والتوجيه للأولاد، يفوق أثر الأب بكثير، لطول الملازمة، بخلاف الأب، الذي هو في الغالب كثير الغياب عن المنزل. والجانب الثاني: ما نراه من تركيز أعداء الإسلام علىٰ إفساد المرأة المسلمة؛ لأنهم يعلمون أن فسادَها فسادٌ للمجتمع كله، وصلاحها وصلاح للمجتمع كله، وإن المرأة المسلمة متىٰ تهاونت في أمر دينها انقطع استمرار الدين في الجيل اللاحق انقطاعًا واضحًا.

٧) في هذا اليُتْم درس دعوي، وهو أن الغِنَىٰ والرفعة والعزة لا علاقة لها باليتم، ولا بمن بقي أبواه أحياء، فكم من فرد منا يتعلق بالأولاد ومستقبل الأولاد، ويخشىٰ ضياع الأولاد، تراه إن دُعي إلىٰ الصدقة قال: أولادي أولىٰ، واستدل بحديث الرسول ﷺ: «إنك أن تدع أهلك بخير، خير من أن تدعهم يتكففون الناس»[٢]، وإن جاء الجهاد جاء الأولاد وتذكّرهم والخوف عليهم والتعلق بهم، وإن جاءت رحلة في الدعوة إلىٰ الله عاقه الأهل والأولاد، والرسول ﷺ يقول: «إن الولد مبخلة مجبنة»[٣]، تذكر أنك إن حفظت الله حفظك الله بأولادك، وحفظ الله أولادك من بعدك، فالله -سبحانه وتعالىٰ- يحكي لنا قصة موسىٰ والخضر[٤] -عليهما السلام-،

(١) انظر: فريد الأنصاري، سيماء المرأة في الإسلام، الطبعة السادسة (القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر ١٤٤٠) (ص ١٧).

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (٣/ ١٢٥٣) رقم (١٦٢٨) من حديث سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه-.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢/ ٢٩٥) رقم (٢٩٥٧).

(٤) قال ابن كثير -رحمه الله تعالى- في تفسيره ٥/ ١٨٧): (﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾؛ لكني أمرت به ووقفت عليه، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر -عليه السلام-). ويقول الشيخ عبد العزيز بن باز -رحمه الله تعالى- في مجموع الفتاوى (٩/ ٢٨٧): (والصحيح أن الخضر نبي كما دل عليه ظاهر القرآن الكريم).ا.هـ.

ويذكر فيها تسخير موسىٰ -عليه السلام-، والخضر -عليه السلام- لبناء الجدار لليتيمين، وذكر أن أباهما كان رجلًا صالحًا؛ قال -تعالىٰ-: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢][١]. قال سعيد بن المسيب -رحمه الله تعالىٰ- لابنه: (لأزيدن في صلاتي من أجلك؛ رجاءَ أن أُحفظ فيك)[٢]. وقال عمر بن عبد العزيز -رحمه الله تعالىٰ-: (ما من مؤمن يموت إلا حفظه الله في عقبه وعقب عقبه)[٣].

وقال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ- عند تفسير الآية: (وقوله -تعالىٰ-: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ فيه دليل علىٰ أن الرجل الصالح يُحفَظ في ذريته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة، بشفاعته فيهم ورفع درجتهم إلىٰ أعلىٰ درجة في الجنة لتقر عينه بهم، كما جاء في القرآن ووردت السنة به، قال سعيد بن جبير -رحمه الله تعالىٰ- عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-: (حُفظا بصلاح أبيهما، ولم يُذكر لهما صلاح)[٤].

فيُتْمه ﷺ أسوة في كل زمان ومكان، ليعرفوا أن اليُتْم ليس بلاء يمنع صاحبه من الوصول إلىٰ أعلىٰ المراتب دنيا وآخرة.

---

(١) انظر: ابن رجب، جامع العلوم والحكم (١/ ٤٦٧).

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

(٤) تفسير ابن كثير (٥/ ١٦٨).

المبحث الرابع

أسماء الرسول الكريم ﷺ

بعد ولادته ﷺ أرسلته أُمّه إلىٰ جده عبد المطلب، وأخبرته بما رأت من تسميته بمحمد[١]، فأخذه ودخل به الكعبة، ولما كان يوم سابعه ذبَح عنه، ودعا له قريشًا، فلما أكلوا قالوا: يا عبد المطلب ما سمَّيتَ ابنَك الذي دعوتنا علىٰ وجهه؟ قال: محمدًا، قالوا: كيف سمَّيتَ باسم ليس لأحد من آبائك وقومك؟ فقال: إني لأرجو أن يحمده أهل الأرض، ويحمده أهل السماء[٢].

قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (قال بعض العلماء: ألهمهم الله -عز وجل- أن سموه محمدًا لما فيه من الصفات الحميدة ليلتقي الاسم والفعل، ويتطابق الاسم والمسمىٰ في الصورة والمعنىٰ)[٣].

وهذا الاسم «محمد» غير معهود في الجاهلية إلا من عدة أشخاص سمَّاهم آباؤهم بهذا الاسم لما سمعوا بأن نبيًّا سيُبْعَثُ اسمه محمد رجاءَ أن يكون هو.

---

(١) انظر: ابن إسحاق، السيرة، تحقيق سهيل ركاز، الطبعة الأولى (بيروت: دار الفكر ١٣٩٨)، (ص٤٥)، والبيهقي، شعب الإيمان تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد، الطبعة الأولى (الرياض: مكتبة الرشد للنشر ١٤٢٣)، (٢/ ٥١٤، فقد ذكرت آمنة أنها رأت رؤيا عند ولادته وقيل لها فيها (فإذا وقع فسميه محمدًا)، وأبو نعيم، دلائل النبوة (١/ ٦١٠) رقم (٥٥٥)، والسهيلي، الروض الأنف ١/ ٣٩٥، وابن حجر، الإصابة، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وزميله، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٥)، (٥/ ١٠٢).

(٢) انظر، السهيلي، الروض الأنف (٢/ ٩٥)، وذكر أنه سماه محمدًا بناء على رؤيا رآها، وأن هذا بالإضافة إلى ما رأته أمه من أن تسميه محمدًا، فاتفقت رؤيا آمنة مع رؤيا عبد المطلب. والله أعلم.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله التركي (٣/ ٣٩٠)، طبعة دار هجر.

ثم إن الله -سبحانه وتعالىٰ- حمىٰ كل من سُمِّي بهذا الاسم في ذلك الوقت بأن يَدَّعي النبوة أو يدعيها له أحد، أو يظهر عليه أمر يشكل علىٰ أحد[1].

قال -تعالىٰ-: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٠][2].

وقال -تعالىٰ-: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف:٦].

عن محمد بن جبير -رحمه الله تعالىٰ-، عن أبيه جبير بن مطعم -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس علىٰ قدمي، وأنا العاقب»[3]. (والعاقب الذي ليس بعده نبي)[4].

عن أبي موسىٰ الأشعري -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: كان رسول الله ﷺ يسمي لنا نفسه أسماء، فقال: «أنا محمد، وأحمد، والمقفي، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة»[5].

---

(١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية ٣/ ٣٧٢. والسهيلي، الروض الأنف (١/ ٣٩٥)، والقسطلاني، المواهب اللدنية (القاهرة: المكتبة التوفيقية)، (١/ ٤٤٢).

(٢) ورد ذكر الرسول ﷺ باسمه (مُحَمَّدٌ) ﷺ في أربعة مواضع؛ (سورة آل عمران: ١٤٤) و(سورة الأحزاب:٤٠) و(سورة محمد:٢) و(سورة الفتح:٢٩).

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري (٤/ ١٨٥) رقم (٣٥٣٢). وصحيح مسلم (٤/ ١٨٢٨) رقم (٢٣٥٤).

(٤) صحيح مسلم (٤/ ١٨٢٨) رقم (٢٣٥٤)، من قول الزهري -رحمه الله تعالى-، وانظر سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية)، (١/ ٣٨).

(٥) صحيح مسلم (٤/ ١٨٢٨) رقم (٢٣٥٥)، ومعنى المقفي: أي أنه خاتم الأنبياء، وخاتمهم، وقفاهم، أي: كان بعدهم، واتبع آثارهم. قال ابن الأنباري: المقفي: المتَّبع للنبيين قبله، يقال: قَفَوتُه، أَقفُوه، وقَفَيتُه: إذا تبعته، وقافية كل شيء: آخره. المفهم شرح صحيح مسلم للقرطبي (١/ ١٤٦).

قال القاضي عياض -رحمه الله تعالىٰ-: (وقد سماه الله -تعالىٰ- في كتابه محمدًا وأحمد؛ فمن خصائصه -تعالىٰ- له أن ضَمَّن أسماءه ثناءَه، فطوىٰ أثناء ذِكره عظيم شكره، فأما اسمه أحمد فأفعل مبالغة من صفة الحمد، ومحمد مفعل مبالغة من كثرة الحمد، فهو ﷺ أجل من حُمد، وأفضل من حَمد، وأكثر الناس حمدًا؛ فهو أحمد المحمودين وأحمد الحامدين، ومعه لواء الحمد يوم القيامة)[(١)].

وقد ذكر العلماء للرسول ﷺ أسماء كثيرة، منها ما هو ثابت بالنص، ومنها ما هو محل اجتهاد واستنباط من بعض العلماء، ومنها ما هو غير ثابت، ومنها ما هو باطل؛ لما فيه من الغلو في الرسول ﷺ، ورفعه فوق منزلته، والرسول ﷺ حذّرنا من الغلو فيه، عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- أنه سمع عمر -رضي الله عنه-، يقول علىٰ المنبر: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا تطروني، كما أطرت النصارىٰ ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا عبد الله، ورسوله»[(٢)]، وقال ﷺ: «إياكم والغلو؛ فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين»[(٣)].

أما كنيته ﷺ فهي (أبو القاسم)[(٤)]. عن أنس بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: كان النبي ﷺ في السوق، فقال رجل: يا أبا القاسم، فالتفت إليه النبي ﷺ، فقال: إنما دعوت هذا، فقال النبي ﷺ: «سموا باسمي، ولا تكنوا بكنيتي»[(٥)].

قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- في الفتح: (وقوله -عز وجل-: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الفتح:٢٩]، وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾

(١) القاضي عياض، الشفا (١/ ٢٢٩).
(٢) صحيح البخاري (٤/ ١٦٧) رقم (٣٤٤٥).
(٣) مسند الإمام أحمد (٥/ ٢٩٨) رقم (٣٢٤٨) من حديث ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وقال محققو المسند: «إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير زياد بن الحصين- وهو الحنظلي اليربوعي البصري- فمن رجال مسلم».
(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية)، (١/ ٤٠)، وقال: «وقد تواتر أن كنيته أبو القاسم».
(٥) متفق عليه: صحيح البخاري (٣/ ٦٦) رقم (٢١٢٠)، وصحيح مسلم (٣/ ١٦٨٢) رقم (٢١٣١).

[الصف:٦]؛ كأنه يشير -يعني البخاري رحمه الله تعالىٰ-، إلىٰ أن هذين الاسمين أشهر أسمائه، وأشهرهما محمد، وقد تكرر في القرآن)[١].

وهذان الاسمان هما:

الأول: (محمد) الوارد في القرآن الكريم، والذي سماه بذلك جده عبد المطلب، وأمه آمنة بنت وهب؛ لعله بإلهام من الله -جل شأنه- كما سبق.

الثاني: (أحمد) الوارد في القرآن الكريم والذي بشَّر به عيسىٰ -عليه السلام-، وأخبرنا القرآن الكريم أن هذا الاسم مذكور في التوراة.

أما (محمد): هذا الاسم الشريف العظيم الذي لم تعرفه العرب من قبل، والذين تسموا به قبل الرسول ﷺ قِلَّةٌ، قيل: إنهم ثلاثة، وقيل سبعة، وذلك أنه سمع بعض العرب بقرب مبعث نبي اسمه محمد، فسمو أبناءهم بهذا الاسم، رجاء أن يكون هو، ثم حمىٰ الله كل من سُمي به أن يدّعي النبوة أو يدعيها أحد له، أو يظهر عليه سبب يشكك أحدًا في أمره[٢]. كما سبق أن أشرت إلىٰ ذلك.

وأما (أحمد): فقد قال أبو الفضل زين الدين العراقي -رحمه الله تعالىٰ-: (ولم يتسمَّ بأحمد قبله ﷺ أحد ولا في زمنه ولا في زمن أصحابه حماية لهذا الاسم الذي بَشَّر به الأنبياء. وأول من سُمي أحمد في الإسلام: أحمد بن عمرو بن تميم والد الخليل بن أحمد العروضي قاله أبو بكر بن أبي خيثمة، وأبو العباس المبرد)[٣].

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٦/ ٥٥٥).

(٢) انظر: السهيلي، الروض الأنف (١/ ٣٩٥)، والقاضي عياض، الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، الطبعة الثانية (عمَّان: دار الفيحاء ١٤٠٧)، (١/ ٤٤٧). و(١/ ٢٣٠) طبعة دار الفكر.

(٣) أبو الفضل زين الدين العراقي، طرح التثريب في شرح التقريب (دار إحياء التراث العربي)، (١/ ٢٤). وقد ذكر الذهبي -رحمه الله تعالى- في سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٣٠) أن الخليل بن أحمد وُلد سنة ١٠٠، وتوفي سنة ١٧٠.ا.ه. وهذا يعني أن والده (أحمد) أدرك عددًا من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-. إن ثبت أنه هو أول من سمي بهذا الاسم بعد الرسول ﷺ.

وأقف بعض الوقفات حول أسماء الرسول ﷺ:

١. إن كثرة الأسماء تدل علىٰ فضل المسمىٰ ورفعته، فكثرة أسماء النبي ﷺ تدل علىٰ سمو منزلته ﷺ[١]. قال الجراعي -رحمه الله تعالىٰ-: (وكثرة الأسماء: تدل علىٰ شرف المسمَّىٰ؛ ولهذا كثرت أسماء الله -تعالىٰ-، ورسوله ﷺ)[٢].

٢. قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وكلها نعوت ليست أعلامًا محضة لمجرد التعريف؛ بل أسماء مشتقة من صفات قائمة به توجب له المدح والكمال)[٣]. فأسماء الرسول ﷺ ليست مثل أسمائنا، أسماء جامدة، فقد يسمىٰ شخص منا بأنه (شجاع) ثم يكون من أجبن الناس، وقد يسمىٰ (صالح)، وليس له من اسمه نصيب. أما الرسول ﷺ فله من أسمائه أوفر الحظ والنصيب. وأسماؤه ﷺ أسماء مشتقة، مطابقة لموصوفها. ويقول ابن القيم أيضًا -رحمه الله تعالىٰ-: (وتأمل كيف اشتق للنبي ﷺ من وصفه اسمان مطابقان لمعناه، وهما أحمد، ومحمد، فهو لكثرة ما فيه من الصفات المحمودة محمد، ولشرفها وفضلها علىٰ صفات غيره أحمد)[٤].

٣. أما دلالة هذين الاسمين الكريمين (أحمد) و(محمد): (أحمد): هُوَ الَّذِي حَمْده لرَبه أفضل حمد الحامدين، فهناك حامد: أي أنه يحمد الله -سبحانه-، وهناك أحمد: أي أكثر حمدًا، فأحمد أعلىٰ من حامد، وأكثر منه حمدًا. والرسول

---

(١) انظر: عبد الله الجبرين، صحيح السيرة النبوية، الطبعة الأولى (الرياض: دار الوطن للنشر ١٤٣٨)، (٣٥).

(٢) الجراعي، تحفة الراكع الساجد بأحكام المساجد، عناية صالح النهام وزملائه، الطبعة الأولى (الكويت: وزار الأوقاف الكويتية ١٤٢٥)، (١٣٩).

(٣) ابن القيم، زاد المعاد (١/ ٨٦). وانظر الذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية)، (١/ ٤٠). فقد قال بعد أن ساق عددًا كبيرًا من أسماء النبي ﷺ: «قلت: وأكثر ما سقنا من أسمائه صفات له، لا أسماء أعلام، وقد تواتر أن كنيته أبو القاسم»، وانظر القول المفيد شرح كتاب التوحيد لابن عثيمين (٢/ ٢٥٧) باب احترام أسماء الله.

(٤) ابن القيم، زاد المعاد (٢/ ٣٣٨).

ﷺ بلغ من حمده لربه غايته، فهو أحمد الخلق لربه -جل شأنه-، ولذلك يُفتَح عليه من المحامد التي لم يُفتح بها علىٰ غيره يوم القيامة في مقام الشفاعة العظمىٰ. وبه يتبين تميز اسم (أحمد) وتفضيله علىٰ اسم (حامد).

و(محمد): هو المحمود حمدًا بعد حمد، فهو دالّ علىٰ كثرة الحامدين له، وهذا يستلزم كثرة موجبات الحمد فيه، فهو مبني علىٰ زِنَة مُفعَّل مثل مُعظَّم ومحبَّب ومسوَّد ومبجَّل ونظائرها؛ لِأَن هَذَا الْبناء مَوْضُوع للتكثير، فمحمد هُوَ من كثرة الحامدين لَهُ، وكثرة حمدهم، مرّة بعد أُخْرَىٰ، وهو الَّذِي يسْتَحق أَن يُحمد مرّة بعد أُخْرَىٰ. فهو أبلغ من محمود.

وعليه فإن (أحمد) وقع منه الحمد لربه كثيرًا، فهو مبالغة من (حامد)، و(محمد) وقع عليه الحمد من غيره كثيرًا، فهو مبالغة من (محمود). فهو ﷺ أكثر الخلق حمدًا لله -سبحانه-، وهو أكثر من حُمد من الخلق، وحينما جمع الله -جل شأنه- هذين الاسمين الشريفين لنبينا ﷺ، نجد أن الله -جل شأنه- قد جمع له أمرين مهمين:

الأول: مقام المجاهدة بكون اسمه ﷺ (أحمد).

الثاني: مقام الاصطفاء بكونه اسمه ﷺ (محمد)(١).

(١) يقول ابن القيم -رحمه الله تعالى- في جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، تحقيق شعيب الأرناؤوط، الطبعة الثانية (الكويت: دار العروبة ١٤٠٧)، (١٨٨-١٨٩): (فَلَمَّا كَانَ رَسُول الله ﷺ مُشْتَمِلاً على مَا يَقْتَضِي أَن يحمد عَلَيْهِ مرّة بعد مرّة سمي مُحَمَّدًا، وَهُوَ اسْم مُوَافق لمسماه وَلَفظ مُطَابق لمعناه، وَالْفرق بَين لفظ أَحْمد وَمُحَمّد من وَجْهَيْن؛ أَحدهمَا أَن مُحَمَّدًا هُوَ الْمَحْمُود حمدًا بعد حمد؛ فَهُوَ دَالّ على كَثْرَة حمد الحامدين لَهُ، وَذَلِكَ يسْتَلْزم كَثْرَة مُوجبَات الْحَمد فِيهِ، وَأحمد أفعل تَفْضِيل من الْحَمد يدل على أَن الْحَمد الَّذِي يسْتَحقّهُ أفضل مِمَّا يسْتَحقّهُ غَيره؛ فمحمد زِيَادَة حمد فِي الكمية، وَأحمد زِيَادَة فِي الْكَيْفِيَّة؛ فيحمد أَكثر حمد وَأفضل حمد حَمده الْبشر، وَالْوَجْه الثَّانِي أَن مُحَمَّدًا هُوَ الْمَحْمُود حمدًا متكررًا كَمَا تقدم، وَأحمد هُوَ الَّذِي حَمْده لرَبه أفضل من حمد الحامدين غَيره فَدلَّ أحد الاسمين وَهُوَ مُحَمَّد على كَونه مَحْمُودًا، وَدلّ الِاسْم الثاني وهو أحمد على كونه أحمد الحامدين لربه). وقال أيضًا -رحمه الله تعالى- (ص ١٧١) في اسم (محمد): (هَذَا إِلَّا سم هُوَ أشهر=

ولعله بتوفيق الله له وبمقام المجاهدة، نال مقام الاصطفاء[١].

يقول المقريزي -رحمه الله تعالىٰ-: (فمن سمّي بهذين الاسمين فقد سُمّي بأجمع الأسماء لمعاني الفضل)[٢].

٤. وهذا يلفت أنظارنا إلىٰ مقام الحمد أو منزلة الحمد، فإن اسمه ﷺ (مُحَمَّد)

=أَسْمَائِهِ ﷺ وَهُوَ اسْم مَنْقُول من الْحَمد وَهُوَ فِي الأَصْل اسْم مفعول من الْحَمد، وَهُوَ يتَضَمَّن الثَّنَاء على الْمَحْمُود ومحبته وإجلاله وتعظيمه، هَذَا هُوَ حَقِيقَة الْحَمد وَبني على زنة مفعل مثل مُعظم ومحبب ومسود ومبجل ونظائرها؛ لِأَن هَذَا الْبناء مَوْضُوع للتكثير فَإِن اشتق مِنْهُ اسْم فَاعل فَمَعْنَاه من كثر صُدُور الْفِعْل مِنْهُ مرّة بعد مرّة كمعلم ومفهم ومبين ومخلص ومفرج وَنَحْوهَا، وَإِن اشتق مِنْهُ اسْم مفعول فَمَعْنَاه من كثر تكَرر وُقُوع الْفِعْل عَلَيْهِ مرّة بعد أُخْرَى إِمَّا استحقاقًا أَو وقوعًا؛ فمحمد هُوَ من كثر حمد الحامدين لَهُ مرّة بعد أُخْرَى أَو الَّذِي يسْتَحق أَن يحمد مرّة بعد أُخْرَى).ا.هـ. قال السيوطي -رحمه الله تعالى- في كتابه قوت المغتذي على جامع الترمذي، تحقيق ناصر بن محمد بن حامد الغريبي (رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ١٤٢٤) (٢/ ٧٨١): (ولمَّا كان نبينا ﷺ أحمد الخلائق في الدنيا والآخرة أعطي لواء الحمد ليأوي إلى لوائه الأولون، والآخرون)، يقول ابن حجر -رحمه الله تعالى- في فتح الباري تحقيق محب الدين الخطيب، وتعليق عبد العزيز بن باز (بيروت: دار المعرفة ١٣٧٩) (٦/ ٥٥٥): (فأما محمد من باب التفعيل للمبالغة، وأما أحمد فمن باب التفضيل... ومعناه أحمد الحامدين.. وأما محمد فهو منقول من صفة الحمد أيضًا، وهو بمعنى محمود وفيه معنى المبالغة)ـ ويقول الصنعاني -رحمه الله تعالى- في سبل السلام، تحقيق محمد صبحي حسن حلاق، الطبعة السادسة، (الرياض: دار ابن الجوزي ١٤٤٠)، (١/ ٧٩): علم مشتق من حُمِّد، مجهول مشدد العين أي: كثير الخصال التي يحمد عليها، فهو يُحمد أكثر مما يُحمد غيره من البشر، فهو أبلغ من محمود؛ لأن هذا مأخوذ من المزيد، وذاك من الثلاثي». وانظر: جمع الوسائل في شرح الشمائل للقاري، الطبعة الأولى (الرياض: دار ابن القيم ١٤٤٠) (٣/ ٣٥٦-٣٥٧). وقال الرازي في تفسيره الكبير (١/ ٢٤١): (أهل السماء في تحميد الله، ورسول الله أحمدهم، والله تعالى في تحميد أهل الأرض كما قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ [الإسراء: ١٩] ورسول الله محمدهم).

(١) قال ابن حجر في الفتح (٦/ ٥٥٥)، قال القاضي عياض -رحمه الله تعالى-: (كان رسول الله ﷺ أحمد قبل أن يكون محمدًا، كما وقع في الوجود)..

(٢) المقريزي، إمتاع الأسماع تحقيق محمد النميسي، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية، (١٤٢٠ ٢/ ١٣٩).

وَ(أحمد) وَأمته الْحَمَّادُونَ يحْمَدُونَ الله علىٰ السَّرَّاء وَالضَّرَّاء، وَصَلَاة أُمته مفتتحة بِالْحَمْد، وخطبته مفتتحة بِالْحَمْد، وَكتابه مفتتح بِالْحَمْد. وَبِيَدِهِ ﷺ لِوَاء الْحَمد يَوْم الْقِيَامَة[1]. وهو لواء حقيقي -أي عَلَم- يسمىٰ لواء الحمد، بيده ﷺ، ولا مقام من مقامات عباد الله الصالحين أرفع وأعلىٰ من مقام الحمد، ولما كان نبينا سيد المرسلين أحمد الخلائق في الدنيا والآخرة، أعطي لواء الحمد[2]، و»أقرب الخلق إلىٰ لوائه أكثرهم حمدًا لله وذكرًا«[3]، عن عمران بن الحصين -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: (خَير عباد الله تبارَكَ وَتَعَالَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَة الحمادون)[4]، و(أَوَّلُ من يُدعىٰ إلىٰ الجنَّة الحمّادون، الذين يحمدون الله في السرّاء والضرّاء)[5].

فالله هو الحميد، وهو أحقّ مَن عُبِدَ، وأحق مَن حُمِدَ، واصطفىٰ لأفضل أنبيائه أسماء مشتقة من الحمد لمحبته للحمد، فنَبِيُّه المصطفىٰ أحمد، كان أكثر حمدًا، فصار أعلىٰ محمود، ثم ارتقىٰ بالحمد ليكون (محمد)، وحمل لواء الحمد. و﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾؛ فاجعله أسوة لك في كثرة الحمد، وأكثر من الحمد لربك، وكن من الحمادين، تنل شرف العبودية، ونصيبًا من الاتصاف بـ(محمود)، وتحظىٰ بالانضمام إلىٰ لواء (أحمد، محمد) ﷺ يوم يَرْفُع لواء الحمد في العرصات، وتدعىٰ مع أول المدعوين إلىٰ ضيافة الرحمن (الجنة)؛ جعلني الله

---

(١) انظر: ابن القيم، جلاء الأفهام (١٧٨).

(٢) انظر: القاري، مرقاة المفاتيح (٩/ ٣٦٨٦). والمباركفوري، تحفة الأحوذي (٨/ ٤٦٥). وقال: «لواء الحمد على معناه الحقيقي هو الظاهر بل هو المتعين؛ لأنه لا يُصار إلى المجاز مع إمكان الحقيقة).

(٣) ابن القيم، عدة الصابرين، الطبعة الثالثة (مكتبة دار التراث: المدينة ١٤٠٩)، (ص١١).

(٤) الإمام أحمد، المسند (٣٣/ ١٢٦) رقم (١٩٨٩٥)، وقال المحقق: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٥) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٢/ ٩٣) رقم (٦٣٢): «رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ١٦٥) من الكواكب (٥٧٥) بسند صحيح عن حبيب عن ابن جبير موقوفًا عليه، ولعله الصواب».

وإياكم منهم)[1].

٥. اختص النبي ﷺ بتعدُّد أسمائه ﷺ دون غيره من البشر؛ وذلك لأن القصد بالاسم من حيث الأصل، التعريف، والتمييز، واسم واحد كافٍ في ذلك، وليس كذلك أسماء المصطفىٰ ﷺ؛ لأن أسماءه ﷺ كلها، كانت نعوتًا دالة علىٰ كمال المدح والثناء، فلم تكن من باب التعريف؛ بل من باب تكثير الأسماء؛ لجلالة المسمىٰ ﷺ[2].

٦. يجوز التسمية باسمه (محمد) في حياته، وبعد مماته ﷺ، فقد أذن بذلك ﷺ، لكنه منع التكني بأبي القاسم في حياته ﷺ، وأجاز الجمهور التكني بكنيته ﷺ بعد وفاته، وقالوا: لأنه لم يكن أحد من الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- يجترئ أن يناديه باسمه؛ إذ الاسم لا توقير في النداء به، بخلاف الكنية، فإن النداء بها احترام وتوقير، وإنما كان يناديه باسمه بعض أجلاف العرب ممن لم يكن آمن، أو لم يرسخ الإيمان في قلبه، فمنعت الذريعة فيما كانوا ينادونه به، وهو الكنية، وأُبيح ما لم يكونوا ينادونه به وهو الاسم[3].

---

(١) ممّا ثبت في فضل الحمد وعِظم ثوابه عند الله في صحيح مسلم (١/ ٢٠٣) رقم (٢٢٣) عن أبي مالك الأشعريِّ -رضي الله عنه- قال: «قال رسول الله ﷺ : «الطَهور شطرُ الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض». وورد في فضل الحمد ما رواه الترمذي في سننه (٣٣٨٣)، وحسنه الألباني عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «أفضل الذِكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله»؛ فجعل ﷺ حمدَ الله أفضلَ الدعاءِ، مع أنَّ الحمد إنّما هو ثناءٌ على المحمود مع حبِّه، ويؤيّد هذا المعنى قولُ الله -تعالى-: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [يونس:١٠]؛ فجعل الحمدَ دعاء. وفي الجنّة بيتٌ يُقال له بيتُ الحمد، خُصَّ للذين يحمدون الله في السرّاء والضراء، ويصبرون على مُرِّ القضاء؛ فإذا عَلم ذلك العبدُ وتيقّنه أقبل على حمد الله في أحواله كلِّها في سرّائه وضرّائه، وفي شدّته ورخائه.

(٢) انظر: ابن القيم، تحفة المودود بأحكام المولود (١٤٤). وبكر أبو زيد، معجم المناهي اللفظية (٣٥١).

(٣) انظر: القرطبي، المفهم (٥/ ٤٥٦).

المبحث الخامس

رضاعته ﷺ

بعد ولادته ﷺ أرضعته أمه آمنة ثلاثة أيام أو سبعة أيام[١]، ثم أرضعته ثويبة مولاة أبي لهب أيامًا، يقول الرسول ﷺ: «أرضعتني وأبا سلمة ثويبة»[٢].

قال عروة بن الزبير -رحمه الله تعالىٰ ورضي عن أبيه-: (وثويبة مولاة لأبي لهب، وكان أبو لهب أعتقها، فأرضعت النبي ﷺ، فلما مات أبو لهب، أريه بعض أهله بشر حيبة[٣]، قال له: ماذا لقيتَ؟ قال أبو لهب: لم ألق بعدكم[٤]، غير أني سُقيت

(١) انظر: النجم عمر بن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى (١/ ٥٧). قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- في تحفة المودود بأحكام المولود (٢٣٠): «ينبغي أن يكون رضاع المولود من غير أمه بعد وضعه يومين أو ثلاثة، وهو الأجود لما في لبنها ذلك الوقت من الغلظ والأخلاط بخلاف لبن من قد استقلت على الرضاع، وكل العرب تعتني بذلك حتى تسترضع أولادها عند نساء البوادي كما استرضع النبي ﷺ في بني سعد».

(٢) البخاري، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري لابن حجر (٩/ ١٤٠)، حديث (رقم ٥١٠١).

(٣) قال ابن حجر -رحمه الله- في الفتح (٩/ ١٤٥): «(بشر حيبة)، بكسر المهملة، وسكون التحتانية، بعدها موحدة. أي: سوء حال».

(٤) قال ابن بطال في شرح صحيح البخاري (٧/ ١٩٥): «وذكر علي بن المديني، عن عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، أن أبا لهب أعتق جارية يقال لها: ثويبة، وكانت أرضعت النبي ﷺ، فرأى أبا لهب بعضُ أهله في النوم فسأله، فقال: ما وجدت بعدكم راحة، غير أني سقيت في هذه، وأشار إلى النقرة التي تحت إبهامه، بعتقي ثويبة، فبان برواية معمر أنه سقط من رواية البخاري في هذا الحديث: راحة، بعد قوله: لم ألق بعدكم؛ لأنه لا يتم الكلام على ما رواه البخاري، وكذلك سقط منه: وأشار إلى النقرة التي تحت إبهامه، ولا يقوم معنى الحديث إلا بذلك، ولا أعلم ممن جاء الوهم فيه».

في هذه[1] بعتاقتي ثويبة)[2].

(١) قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- (٩/ ١٤٥): «كذا في الأصول بالحذف أيضًا، ووقع في رواية عبد الرزاق المذكورة، وأشار إلى النقرة التي تحت إبهامه، وفي رواية الإسماعيلي المذكورة، وأشار إلى النقرة التي بين الإبهام والتي تليها من الأصابع، وللبيهقي في الدلائل من طريق كذا مثله بلفظ يعني النقرة إلخ، وفي ذلك إشارة إلى حقارة ما سقي من الماء».

(٢) البخاري، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري لابن حجر (٩/ ١٤٠)، حديث (رقم ٥١٠١).

وقال ابن بطال في شرحه لصحيح البخاري (٧/ ١٩٥): «وفي هذا الحديث من الفقه: أن الكافر بالله قد يُعطَى عوضًا من أعماله التي يكون مثلها قربة لأهل الإيمان بالله، وذلك أن أبا لهب أخبر أنه سُقي في النار بعتقه ثويبة في النقرة التي تحت إبهامه، وكان ذلك تخفيفًا له من العذاب». وقال ابن حجر في فتح الباري (٩ / ١٤٥): «وفي الحديث دلالة على أن الكافر قد ينفعه العمل الصالح في الآخرة لكنه مخالف لظاهر القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣]، ثم أجاب عن الحديث ثم قال: «وقال البيهقي: ما ورد من بطلان الخير للكفار فمعناه أنهم لا يكون لهم التخلص من النار ولا دخول الجنة، ويجوز أن يخفف عنهم من العذاب الذي يستوجبونه على ما ارتكبوه من الجرائم سوى الكفر بما عملوه من الخيرات»، ثم ختم البحث بقوله: «وتتمة هذا أن يقع التفضل المذكور إكرامًا لمن وقع من الكافر البر له ونحو ذلك»، وانظر أيضًا: السهيلي، الروض الأنف ٣ / ٦٧، وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله تعالى- في شرحه لعمدة الأحكام (طبعة دار النوادر) (٢/ ١٠٣٢): «وقوله (بعتاقتي لثويبة) أي: مكافأة لي على عتقي إياها. ففيه: أن الإنسان لا يُظلم شيئًا، وأن الكافر يجازى بما عمل من الإحسان، إما في الدنيا، وإما في البرزخ، وجزاء أبي لهب هذا كان في البرزخ، ومجازاة الكافر لا تبلغ إخراجه من النار؛ لأن أخف الكفار عذابا أبو طالب بسبب إحسانه إلى رسول الله ﷺ، وهو لا يخرج من النار». وهناك من قال: إن فرح أبي لهب بمولود لأخيه فرح طبيعي لا تعبدي، إذ كل إنسان يفرح بالمولود يولد له أو لأحد إخوته أو أقاربه، والفرح إذا لم يكن لله لا يُثاب عليه فاعله؛ قاله الجزائري في الأنصاب ص٣٠ نقله: حافظ بن موسى الحكمي في بحث الأعياد المشروعة والممنوعة، رسالة ماجستير غير منشورة (١/ ٢٨٩)، كلية أصول الدين بالرياض. ولكن الذي ورد في صحيح البخاري أن الثواب كان على عتق ثويبة، أما الفرح بولادة الرسول ﷺ فقد ذكره السهيلي -رحمه الله تعالى-. ومع ذلك فإن ما ذكره الشيخ عبد الرحمن السعدي يبدو لي هو أقرب الأقوال، وهو أن الجزاء الذي حصل لأبي لهب هو في البرزخ وليس يوم القيامة، فهو يقول: «سُقيت»، وهو لا يزال في البرزخ، ولا شك أنه يُعذّب عذاب القبر، لكن لم يأتِ بعد العذاب الأخروي الموعود به الكفار، الذي لا ينتفع فيه الكافر بعمل صالح في الدنيا. والله أعلم.

وقد ذكر السهيلي -رحمه الله تعالىٰ- أن ثويبة بشَّرت أبا لهب بمولد الرسول ﷺ؛ فقالت له: «أشعرتَ أن آمنة ولدت غلامًا لأخيك عبد الله؟ فقال لها: اذهبي، فأنت حرة، فنفعه ذلك، وهو في النار»(١).

وقد أرضعت ثويبة (٢) حمزة -رضي الله تعالىٰ عنه-، عم الرسول ﷺ فحمزة وأبو سلمة -رضي الله تعالىٰ عنهما- أَخَوان للرسول ﷺ من الرضاعة.

وكان الرسول ﷺ يعرف ذلك لثويبة ويصلها من المدينة(٣).

وكانت حاضنته أم أيمن بركة الحبشية(٤)، -رضي الله تعالىٰ عنها-.

---

(١) السهيلي، الروض الأنف تحقيق الوكيل (٥/ ١٩٢).

(٢) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (١/ ٨٣). وقال: «واختلف في إسلامها والله أعلم»، وفي شأن ثويبة هذه يقول ابن حجر كما في الإصابة (٨/ ٦٠) «ذكرها ابن منده، وقال: اختلف في إسلامها. وقال أبو نعيم: لا أعلم أحدًا أثبت إسلامها انتهى. وفي باب من أرضع النبي ﷺ من طبقات ابن سعد ما يدل على أنها لم تسلم، ولكن لا يدفع قول ابن منده بهذا..... وكان رسول اللَّه ﷺ يبعث إليها بصلة وبكسوة حتى جاء الخبر أنها ماتت سنة سبع مرجعه من خيبر، ومات ابنها مسروح قبلها». وقال ابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ٣٧٠): ولم تدرك الإسلام» رغم أنه قال في الكتاب نفسه (١/ ٢٨) كان ﷺ يبعث إليها من المدينة بكسوة وصلة حتى ماتت بعد فتح خيبر، فبلغت وفاتها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فسأل عن ابنها مسروح وبلبنه أرضعته، فقيل له: قد مات، فسأل عن قرابتها فقيل له: لم يبق منهم أحد».

(٣) انظر: السهيلي، الروض الأنف، تحقيق خالد طرطوسي (١/ ٤٠١). وقال: «فلما افتتح مكة سأل عنها، وعن ابنها مسروح الذي رضع معه، فأُخبر أنهما ماتا»، وهذا يخالف ما ذكره ابن سعد في الطبقات (١/ ١٠٩)، وابن عبد البر -رحمه الله تعالى- في الاستيعاب، وابن حجر -رحمه الله تعالى- في الإصابة؛ كما مر في الهامش السابق، من أن الرسول ﷺ جاءه الخبر بوفاتها عام خيبر، والله أعلم أي ذلك كان.

(٤) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (١/ ٨٣). وقال عنها ابن كثير -رحمه الله تعالى- في السيرة النبوية (٤/ ٦٤٤)، وهي بركة بنت ثعلبة الحبشية. غلبت عليها كنيتها أم أيمن، وهو ابنها من زوجها الأول عبيد بن زيد الحبشي، ثم تزوجها بعده زيد بن حارثة فولدت له أسامة بن زيد. وقد هاجرت الهجرتين -رضي الله عنها-، وهي حاضنة رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب، وقد كانت ممن ورثها رسول الله ﷺ من أبيه. وآمنت قديمًا وهاجرت،=

ولم تطل مدة رضاعة ثويبة، ولا حضانة أم أيمن -رضي الله تعالىٰ عنها-، فقد قدمت مجموعة من النساء من جهة الطائف، يبحثن عن الأطفال -كعادة العرب- منهن حليمة بنت أبي ذؤيب عبد الله بن الحارث السعدية -رضي الله تعالىٰ عنها-[1]، فعُرض عليهن الرسول ﷺ، فكن يمتنعن من أخذه إذا قيل لهن: إنه يتيم، ولمَّا لم تجد حليمة -رضي الله تعالىٰ عنها- طفلًا تأخذه في حين وجدت جميع النساء أطفالًا، عادت حليمة -رضي الله تعالىٰ عنها- وأخذته معها، وورد في صحيح مسلم -رحمه الله تعالىٰ- إشارة إلىٰ هذه الرضاعة[2].

=زارها أبو بكر وعمر -رضي الله تعالى عنهما- بعد وفاة النبي ﷺ، وأنها بكت فقالا لها: أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ؟ فقالت: بلى، ولكن أبكي لأن الوحي قد انقطع من السماء. فجعلا يبكيان معها. وتوفيت بعد النبي ﷺ بخمسة أشهر. وانظر ابن القيم، زاد المعاد (١/ ٨٣).

(١) انظر: ابن سعد، الطبقات (١/ ١١٤)، وأبو داود في سننه (٤ / ٣٣٧)، كتاب الأدب، (رقم ٥١٤٤)، وابن عبد البر، الاستيعاب ٨/ ١٨١٢، والمنذري، مختصر سنن أبي داود وقال: وأمه ﷺ من الرضاعة حليمة السعدية، أسلمت وجاءت إليه وروت عنه ﷺ (٨/ ٣٩)، وعدها ابن حجر -رحمه الله تعالى- في القسم الأول من الصحابة (٨/ ٥٢ – ٥٣)، وقال عن القسم الأول كما في المقدمة (١/ ٣): فالقسم الأول فيمن وردت صحبته بطريق الرواية عنه أو عن غيره سواء كانت الطريقة صحيحة أو حسنة أو ضعيفة أو وقع ذكره بما يدل على الصحبة بأي طريق كان، وانظر: الشامي، سبل الهدى والرشاد (١/ ٤٦٥-٤٦٩)، فقد خصص بابًا في إسلام حليمة وزوجها.

(٢) الإمام مسلم، صحيح مسلم (١/ ١٤٧)، حديث (رقم ٢٦١)، ويقال: إن ديار حليمة السعدية -رضي الله تعالى عنها- في وادٍ جنوب غربي الطائف يبعد عنه مسافة تزيد عن سبعين كيلو في منطقة تسمى حاليًا ديار بني سعد، وهي مجموعة من القرى، ويقال: إن القرية التي نشأ فيها الرسول ﷺ هناك تُسَمَّى (الذويبات، ويقول الشيخ بكر أبو زيد -رحمه الله تعالى-: وفي بني سعد عند قرية الشهبة على نحو مائة كيلو من الطائف جنوب غرب، مسجد يُسَمَّى (مسجد حليمة السعدية، وهو مسجد لا أصل له، وبنو سعد هناك لا يرون صحة هذا، ويقولون: إن مراضع النبي ﷺ في بني سعد قرب وادي نخلة بين ميقات قرن المنازل وحنين، والله أعلم، تصحيح الدعاء (ص ١٠٤– ١٠٥). ولذلك فديار حليمة السعدية غير معروف مكانيًّا، والذين يذهبون إلى بعض الأماكن بحثًا عن ديارها، ليس عندهم دليل على المكان،=

وقد أدركت حليمة وزوجها الحارث بن عبد العزىٰ أنهم أخذوا نسمة مباركة، إذ ظهرت البركة في سير دابتهما، وفي لبن ناقتهما، وفي مواشيهم لما عادوا إلىٰ أماكنهم(١).

وقصة رضاعته ﷺ مشهورة في كتب السيرة روتها حليمة السعدية - رضي الله عنها- تصف فيها قدومها إلىٰ مكة، ثم قبولها في النهاية للرسول ﷺ لمَّا لم تجد غيره، ثم ما حلَّ في ديارهم من البركة (٢).

وبعد مضي سنتين قدمت به حليمة -رضي الله تعالىٰ عنها- إلىٰ أمه وهي حريصة علىٰ بقائه معها؛ لما يرون فيه من البركة، فلم تزل بها حتىٰ وافقت علىٰ رده معها (٣).

وإرسال النبي ﷺ للرضاعة في البادية، وإن كان من عادة أشراف العرب فعل ذلك(٤)، فقد كان لحكمٍ عظيمة؛ نذكر منها:

أولًا: إن في رضاعته ﷺ في البادية تقوية لجسمه، وصفاء لذهنه(٥)، وإبعادًا له عن المدينة وصخبها، وصيانة له من الأوبئة، واستفادة من مناخ البادية الصحي، خاصةً

=ولا على مشروعية الذهاب، ولو أنهم مكثوا في الحرم المكي لكان خيرًا لهم، ولم تكن تلك الأماكن محل اهتمام من الرسول ﷺ ولا من الصحابة -رضي الله تعالى-، ولا من سلف الأمة الذين هم خير القرون.

(١) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية)، (١/ ٥٠-٥٢)، وقال عقب ذكره كامل القصة بما فيها من ذكر للبركات التي شاهدوها، وشق صدره ﷺ: «هذا حديث جيد الإسناد»، وانظر: إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية (٥٠-٥٢)، وقال: «ولكثير من مقاطع هذا الحديث شواهد تقويها، ولذلك فالحديث حسن بشواهده».

(٢) انظر القصة مفصلة في: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ١٧٣ – ١٧٤).

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ١٧٥).

(٤) انظر: السهيلي، الروض الأنف (١/ ٤٠٣).

(٥) انظر: السهيلي، الروض الأنف (١/ ٤٠٣).

وأن مكة في ذاك الوقت يفد إليها الكثير من جميع أجناس الناس للحج والزيارة والتجارة وغيرها، مما يجعلها معرَّضة للأوبئة أكثر من غيرها.

ولذلك ينصح المربون بالاهتمام بصحة الطفل، والخروج به إلىٰ الخلاء والهواء الطلق؛ لما في ذلك من أثر تربوي ونفسي علىٰ هذا الطفل في مستقبل حياته.

وكثير من الأمراض وبخاصة النفسية منها، إنما يعاني منها أبناء المدن الذين تضيق بهم المساكن، ويهملهم الآباء، فلا يخرجون بهم حيث تنشرح النفس ويتجدد الهواء وتنتعش الحياة معهم، والتربية المعاصرة اليوم تنادي (بأهمية قيام الأطفال برحلات إلىٰ الريف والجبال والسهول والوديان، فذاك نافذة لتفتح الذهن والذكاء)[1]، وقد ذُكر أن عبد الملك بن مروان -رحمه الله تعالىٰ- كان يقول: (أضر بنا حُبّ الوليد؛ لأن الوليد كان لحانًا، وكان سليمان فصيحًا؛ لأن الوليد أقام مع أُمّه، وسليمان وغيره من إخوته سكنوا البادية فتعربوا، ثم أدبوا فتأدبوا)[2].

ثانيًا: إن في خروج هؤلاء الأطفال إلىٰ البادية مزيد فصاحة للسانه[3]، وتعويدًا لهم علىٰ النطق السليم للغة العربية، وحماية لهم من اللحن فيها، وهذا يدلنا علىٰ مدىٰ اهتمام هؤلاء القوم بلغتهم اللغة العربية، وهو درس لنا نحن في المحافظة علىٰ اللغة العربية لغة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وكان سلف الأمة يحضّون علىٰ تعلم العربية كما يحضون علىٰ التفقه في السنة، وتعلم الفرائض، فقد كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلىٰ أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه قال: (أما بعد، فتفقهوا في السنة وتفقهوا في العربية، وأعربوا القرآن، فإنه عربي)[4].

(١) د. عبد الحميد الهاشمي، الرسول العربي المربي (ص ٨٧).
(٢) السهيلي، الروض الأنف (١/ ٤٠٥).
(٣) انظر: السهيلي، الروض الأنف (١/ ٤٠٣).
(٤) رواه ابن أبي شيبة (١٠ / ٤٥٧)، (رقم ٩٩٦٣) كتاب فضائل القرآن الكريم، باب ما جاء في فضائل القرآن.

وقال ﷺ أيضًا: (تعلموا اللحن والفرائض، فإنها من دينكم)[1].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (فإن نفس اللغة العربية من الدين ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض واجب، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب)[2].

ويقول الإمام الشاطبي -رحمه الله تعالىٰ- عن القرآن الكريم: (فمن أراد تفهمه فمن جهة لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلىٰ تطلب فهمه من غير هذه الجهة)[3].

وقال أيضًا: (الشريعة عربية، وإذا كانت عربية فلا يفهمها حق الفهم إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم؛ لأنهما سيّان في النمط ما عدا وجوه الإعجاز)[4]، ولهذا حرص الأعداء علىٰ تشجيع نشر اللهجات العامية، وبثِّها في الأمة الإسلامية؛ لإدراكهم أن اللغة العربية هي الجسر الذي يربط فيما بينهم، ويصلهم بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والتراث الإسلامي العظيم؛ (ولا وصول كاملًا إلىٰ الإسلام إلا بمعرفة لغته التي بها نزل القرآن الكريم ودُوِّنَتْ بها السُّنةُ، وسُطّرت بها دواوين الإسلام كافة، ولهذا كان الهجوم علىٰ اللغة العربية هجمة علىٰ الدين، وعُجمة اللسان تُعْقِبُ عُجمة في القلب والفكر، ووأدها، وأدٌ لحملتها وقوامها)[5].

وإذا ما تم هدم هذه اللغة، وجرىٰ التفريط فيها مِن قِبَل أبنائها انقطع هذا الاتصال وأصبحت أمة ممزقة بلهجات متعددة لا رابط لساني بينها، منقطعة عن قرآنها وحديث نبيها وتراثها الإسلامي، ولقد أشار السلف إلىٰ أن من أكبر أسباب الابتداع وظهور الفهومات الزائغة للنصوص: الجهل بلسان العرب، وفي المقابل

(١) المرجع السابق (ص٤٥٩)، رقم (٩٩٧٥).

(٢) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٤٧٠).

(٣) الشاطبي، الموافقات (٢/ ٤٣).

(٤) المرجع السابق (٤ / ٦٠).

(٥) بكر أبو زيد، حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات الإسلامية (ص ٩٠ – ٩١).

فإن من أقوىٰ الناس في حُجّته ورده علىٰ المبتدعة والمنحرفين، هم المتمكنون من اللغة العربية، وكثير من المنحرفين في العقيدة (إنما أهلكتهم العجمة)؛ كما قال ذلك الحسن البصري -رحمه الله تعالىٰ-[(١)].

ولذلك فمن مسؤولية الأب ومن الأمانة التي تحملها أن يحفظ علىٰ أولاده اللغة العربية، وأن يُعلِّمهم اللغةَ العربيةَ كما يعلِّمهم القرآنَ الكريمَ والسُّنةَ المطهرةَ؛ ليهيئ لهم الجسر الواصل لهم بدينهم وأمتهم.

ثالثًا: شاء الله -سبحانه وتعالىٰ- أن لا يتيسر لحليمة -رضي الله تعالىٰ عنها- طفل ترضعه، ولما همّت بالخروج من مكة، عادت لأخذ محمد ﷺ، ولعلها كانت كارهة لذلك في البداية، فلما أخذته وعرفته تمسكت به، ورأت أن مصلحتها ومصلحة عائلتها في التمسك بهذا الطفل المبارك الذي أعرضت عنه جميع النسوة لما عُرض عليهن، ولنا أن نتصور حالها وهي تأخذه علىٰ مضض، وتخاطب نفسها قائلة: ما بال حظي العاثر؟ كل النسوة يجدن غايتهن، إلا أنا، لم أجد إلا يتيمًا!! وهي لا تعلم ما في طيات الغيب من الخير لها، وما أكثر ما نواجهه نحن من مثل هذه المواقف في حياتنا اليومية، نُلِحّ علىٰ طلب أمرٍ، ونحن لا ندري أين الخير؟ وهذا يذكِّرنا بقول الله -تعالىٰ-: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء:١٩]، وقول الله -تعالىٰ-: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة:٢١٦]، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: (إن العبد ليهمّ بالأمر من التجارة والإمارة حتىٰ يُيسّر له، فينظر الله إليه، فيقول للملائكة: اصرفوه عنه، فإني إن يسرته له أدخلته النار، فيصرفه الله عنه، فيظل يتطيّر يقول: سبقني فلان، دهاني فلان، وما هو إلا فضل الله -عز وجل-)[(٢)]، (ومن لطف الله بعباده أنه يقدّر أرزاقهم بحسب علمه بمصلحتهم لا بحسب

(١) انظر: السيوطي، صون المنطق، تحقيق علي سامي النشار (القاهرة: مجمع البحوث الإسلامية) (ص٥٦).

(٢) ابن رجب، جامع العلوم والحكم (١/ ٤٧٠).

مرادهم، فقد يريدون شيئًا، وغيره أصلح فيقدر لهم الأصلح، وإن كرهوه؛ لطفًا بهم وبرًا وإحسانًا)[١]، ففي موقف حليمة هذا درس لنا بأننا لا ندري أين الخير، ولا نعلم عواقب الأمور؟ فكم من أمر نسعىٰ إليه جاهدين، والله -جل شأنه- يصرفه عنا، مريدًا بنا الخير، ومع ذلك نحن نتضايق ونتأفف، في غفلة أن الخير كل الخير، في تسليم الأمر لله -جل شأنه-، والرضا بما اختاره لنا.

وقد نُعرض عن شيء وننصرف عنه، ونأخذه علىٰ كُرْه ومضض، ويأبىٰ الله -جل شأنه- بمنّه وكرمه، إلا أن يحقق لنا الخير فيه؛ لذلك فمقام العبد التفويض إلىٰ من يعلم عواقب الأمور، والرضا بما يختاره له علام الغيوب، ويرجو في ذلك حُسن العاقبة، فلا تقترح علىٰ ربك، ولا تسأل ما ليس لك به علم، بل اسأله -سبحانه وتعالىٰ- أن يحسن لك الاختيار، وأن يرضيك بما اختار[٢].

والمهم في ذلك أن توقن أن قضاء الله كله عطاء، كل قضاء الله -جل شأنه- عطاء لك[٣] والله -جل شأنه- عندما يأخذ منك، إنما يأخذ منك ليعطيك أضعاف أضعاف ما أخذ، فهو في الحقيقة عطاء كريم لا يحد حده.

وكم من الخير تحقق لحليمة السعدية -رضي الله عنها-؛ عندما صرف الله الأطفال عنها وهي راغبة فيهم، وجعلها تَقبل بهذا الطفل اليتيم علىٰ غير اختيارها، ولم تكن تعلم بأن هذا هو الذي فيه خيرها وخير قومها أبد الدهر.

رابعًا: من الأمور التي ذكرتها كتب السير، في مقام الرسول ﷺ عند مرضعته

(١) السعدي، المواهب الربانية من الآيات القرآنية، الطبعة الثانية الرياض، رمادي للنشر ١٤١٧هـ (ص ١٤٨).

(٢) انظر: التفسير القيم لابن القيم جمعه محمد أويس الندوي (ص ١٤٦).

(٣) عن صهيب -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيرًا له» صحيح مسلم (٢٩٩٩).

حليمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، ما حل في ديارهم ومواشيهم من البركة، وليس هذا بغريب، مع وجود النبي الكريم بينهم ﷺ، وقد رغَّب ظهور هذه البركات حليمة -رضي الله تعالىٰ عنها- في بقائه عندها حتىٰ بعد انتهاء مدة الرضاعة.

والبركة هي كثرة الخير ولزومه، وهي خير إضافي غير الخير الموجود في الأصل، وهذه البركة أمر مشاهَد ثابت في حياة الرسول ﷺ بعد بعثته[1]، والتبرك به ﷺ نوعان؛ الأول: تبرك بذاته، وهذا سائغ في حياته وفيما وجد من ملابسه وشعره وأدواته ونحو ذلك، لكنها كلها غير موجودة.

والثاني: التبرك بما جاء به من وحي منزل في القرآن والسنة. وهذا هو التبرك الحقيقي النافع الآن، بأن نتمسك بشرعه ونهتدي بهديه ونتمسك بسنته ﷺ[2].

(١) فعلى سبيل المثال وإلا فأمثلة بركاته ﷺ كثيرة: شَرِب الجيش من مزادة (قِرْبة) المشركة التي مسح عليها النبي ﷺ (صحيح البخاري ٣٥٧١)، وتوضأ ثلاثمائة رجل من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- من ماء كان في إناء وضع يده الشريفة فيه فنبع الماء بين أصابعه (صحيح البخاري ٣٥٧٢)، وعطش الناس يوم الحديبية فوضع النبي ﷺ يده في ركوة، وهي إناء صغير من جلد فيه ماء قليل فشرب الجيش كله وهم زهاء ألف وخمسمائة رجل (صحيح البخاري ٣٥٧٦) وطعام أبي طلحة -رضي الله تعالى عنه- الذي صنعه للرسول ﷺ ، فجاء ومعه سبعون رجلاً فأكلوا كلهم حتى شبعوا (صحيح البخاري ٣٥٧٨). والبركة التي حلت في تمر نخل جابر -رضي الله تعالى عنه- لما أراد قضاء دَيْن والده، وكان قليلًا لا يفي بالدَّين الذي عليه، فلما جاء الرسول ﷺ قضى دينه من هذا التمر، وبقي لجابر -رضي الله تعالى عنه- فضل. (صحيح البخاري ٣٥٨٠).

(٢) ويجب أن نعلم أن البركة كلها من الله -جل شأنه-، كما أخبرنا بذلك المصطفى ﷺ عندما قال ﷺ: «والبركة من الله» صحيح البخاري ٤/ ١٩٤) رقم (٣٥٧٩) من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه-، ونحن نلتمس هذه البركة ونطلبها من الله سبحانه. بمعنى أننا ندعو الله -جل شأنه- أن يجعلنا مباركين، وأن يبارك لنا في أوقاتنا وذرياتنا وعلمنا ومالنا. أما إذا أردنا نيل بركة حاصلة في غيرنا لتنتقل إلينا فهذا هو التبرك، والتبرك الشرعي على ثلاثة أنواع:
الأول: التبرك بالأشخاص وهو قسمان:
التبرك بذاوت الأشخاص، وهذا من خصائص الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فيجوز=

خامسًا: ما ذكره أبو القاسم السهيلي -رحمه الله تعالىٰ- من اهتمام الرسول ﷺ

=التبرك بذات النبي ﷺ وريقه وملبسه وشعره... إلخ، لكن هذه الأشياء الآن غير موجودة، أما من عدا الأنبياء فلا يجوز التبرك بذواتهم، ولو كان المتبرك به أبا بكر أو عمر -رضي الله تعالى عنهما-، إذ لو كان التبرك بهم سائغًا ما فرط فيه الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- ولا التابعون -رحمهم الله تعالى- الذين أدركوهم، أو أدركوا كبار الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه.

التبرك بالعمل وهذا في كل مسلم، فكل مسلم مبارك، عن عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال النبي ﷺ: «إن من الشجر لما بركته كبركة المسلم» (صحيح البخاري) رقم (٥٤٤٤)، وفي مقدمتهم الرسل والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-. وأعلى مقامات التبرك بالرسول ﷺ التمسك بالقرآن الكريم الذي أنزل عليه حفظًا ومدارسة وعملًا، واتباع شرعه ولزوم سنته. والتبرك بالعلماء والصالحين يكون بالحضور في مجالسهم بما فيها من عِلم وذِكْر، والتأسي بهم في عباداتهم وعلمهم وعملهم وزهدهم.

الثاني: التبرك بالأمكنة والأزمنة كالكعبة والمشاعر المقدسة، والمساجد ومجالس العلم، والوقت الذي بين الأذانين وآخر الليل ويوم الجمعة وشهر رمضان مما وردت نصوص فيه أنه مبارك.

الثالث: التبرك بالأطعمة والأشربة والمركوبات: كالعسل والحبة السوداء والتمر واللبن والزيتون وماء زمزم، وكالخيل من المركوبات.

ومن المهم أن نستحضر أن النصوص الشرعية كما أنها حددت لنا الأشياء المباركة، فإنها أيضًا حددت لنا طريقة الحصول على البركة من هذا الشيء المبارك، فبركة القرآن الكريم بالعلم به والعمل بما فيه، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، لا بوضعه في أرفف المجالس، أو في السيارات، أو في تركه مفتوحًا في مكان مرتفع في البيت، وبركة المسجد مثلًا بالصلاة فيه والدعاء والذكر، لا بالتمسح بجدرانه، وبركة العلماء بحضور مجالسهم والتأسي بهم، لا بالتمسح بأيديهم وثيابهم وملابسهم.

وعليه فلا بد من التأكد في التبرك من أمرين:

أن هذا الشيء مبارك بموجب نص دل على ذلك.

أن طريقة التبرك صحيحة، بموجب دليل شرعي أرشدنا إلى كيفية التبرك.

فمن تبرك بثياب عالم أو صالح، أو تمسح بها يطلب البركة، قلنا الرجل الصالح والعالم مبارك، لكن طريقة التبرك هذه خطأ، عليك لتنال بركته أن تحضر مجالسه العلمية ودروسه، وتقتدي به في عبادته، أما الثياب بذاتها فلا يجوز التبرك بها، ومن جاء إلى مسجد يتمسح بجدرانه يرجو البركة قلنا: أنت تتبرك بشيء مبارك لكن الطريقة خطأ، عليك إذا أردت بركة المسجد أن تصلي فيه، وأن تنتظر الصلاة، وأن تعتكف فيه لتنال بركته، والله أعلم. =

بمرضعته ثويبة، وصلته لها وهو بالمدينة، وسؤاله عنها، درس لنا في حفظ المعروف، والمكافأة عليه، وحسن العهد مع من أحسن إلينا من الناس أيًّا كانوا، وهذا من خُلق المسلم في تعامله مع الناس، وقد قال الله -تعالىٰ-: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [البقرة:٨٣]؛ فكيف بمن أحسن إلينا من هؤلاء الناس؟! وسيأتينا حديث عن هذا في غزوة بدر بشأن المطعم بن عدي الذي دخل الرسول ﷺ في جواره عند رجوعه من الطائف، وقد حفظ الرسول ﷺ للمطعم هذا الصنيع مع أنه مات كافرًا، ولأجل هذا

=الخلاصة في ثلاث نقاط:

١-أن البركة لا تطلب إلا من الله -جل شأنه- مثلها مثل الرزق والنصر لا يطلب إلا من الله -جل شأنه-. ولا يتعلق القلب إلا بالله -سبحانه-. والله -جل شأنه- هو واضع البركة في من شاء من خلقه فلا تُطلَب إلا منه.

٢- أنه لثبوت البركة في شيء لا بد من نص شرعي يثبت ذلك. فمن قال هذه الشيء مبارك فعليه الدليل.

٣- أنه كما حدّد الشارع الأشياء المباركة، فقد حدد طريقة الحصول على البركة منه، أي على طريقة التبرك.

وموضوع التبرك من الموضوعات المهمة في العقيدة وهو بوابة للشرك -والعياذ بالله- لمن لم يكن فيه على بصيرة. قال ابن هشام -رحمه الله تعالى- في السيرة (١/ ٧٧)، قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالى- : (ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل، أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم، حين ضاقت عليهم، والتمسوا الفسح في البلاد، إلا حمل معه حجرًا من حجارة الحرم تعظيمًا للحرم، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة، وأعجبهم، حتى خلف الخلوف، ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- غيره، فعبدوا الأوثان). وقال الشاطبي -رحمه الله تعالى- في الاعتصام (١/ ٤٨٣) تحقيق الهلالي: (العامة لا تقتصر في ذلك على حد، بل تتجاوز فيه الحدود، وتبالغ بجهلها في التماس البركة، حتى يداخلها للمتبرك به تعظيم يخرج به عن الحد، فربما اعتقد في المتبرك به ما ليس فيه، وهذا التبرك هو أصل العبادة، ولأجله قطع عمر -رضي الله عنه- الشجرة التي بُويع تحتها رسول الله ﷺ، بل هو كان أصل عبادة الأوثان في الأمم الخالية- حسبما ذكره أهل السير)، ويرجع في معرفة المزيد إلى كتاب التبرك لناصر الجديع، والتبرك لمحمد صفوت نورالدين، وشرح كتاب التوحيد لصالح آل الشيخ، باب التبرك. وشرح كتاب التوحيد لمحمد العثيمين -رحم الله الجميع-.

الصنيع، قال الرسول ﷺ في أسرىٰ بدر وعددهم سبعون أسيرًا: «لو كان المطعم بن عدي حيًّا، ثم كلمني في هؤلاء النتنىٰ لتركتهم له»(١).

ومثله حفظ الود والوفاء مع أمه حليمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، وأخته من الرضاعة الشيماء -رضي الله تعالىٰ عنها-، في غزوة حنين، كما سيأتي -إن شاء الله تعالىٰ-.

سادسًا: علىٰ قول من قال: إن سقي أبي لهب بسبب عتاقه لثويبة لما بشَّرته بمولد محمد ﷺ، يمكننا أن نستفيد من ذلك، منزلة محبة النبي ﷺ، فأبو لهب سُقي بسبب عتقه لثويبة، وسبب عتقه لفرحه ومحبته لهذا المولود الجديد لأخيه، مع أن أبا لهب كان مشركًا مات علىٰ الشرك وعداوة الرسول ﷺ(٢)، فكيف بالعبد المسلم الذي يُدرك قيمة هذه المحبة ويتقرب إلىٰ الله بها، ويحرص علىٰ حبّه والتأسي به ﷺ؟! وقد قال الرسول ﷺ في الحديث المتفق عليه: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»(٣).

وفي هذا الحديث جمع الرسول ﷺ أقسام المحبة التي تكون بين الناس وهي ثلاثة:

أ. محبة إجلال وإعظام كمحبة الولد لوالده.

ب. محبة إشفاق كمحبة الوالد لولده.

ت. محبة مشاكلة واستحسان كمحبة سائر الناس.

---

(١) صحيح البخاري (٤/ ٩١) رقم (٣١٣٩)، من حديث جبير بن مطعم -رضي الله تعالى عنه-.

(٢) انظر: أبو بكر الجزائري، هذا الحبيب يا محب (ص ٦٩).

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري لابن حجر (١/ ٥٨)، كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان.

ومحبته ﷺ يجب أن تكون فوق هذا كله، كما يفيد أفعل التفضيل في قوله: «أحبّ إليه»[(١)].

وقد قال ﷺ: «آية الإيمان حبّ الأنصار، وآية النفاق بُغض الأنصار»[(٢)]. فإذا كانت علامة الإيمان محبة التابع، فكيف تكون محبة المتبوع ﷺ؟

اللهم إني أحب رسولك ﷺ، وأسألك أن توفقني لاقتفاء أثره، واتباع سُنته، وأن تجعلني ممن يُحشر تحت لوائه يوم القيامة ووالديَّ وذريتي والمسلمين أجمعين.

سابعًا: قال الشيخ عبد الرحمن الصقلي[(٣)] -رحمه الله تعالىٰ-: (لكل إنسان من اسمه نصيب، هذا في الأشخاص وكذلك في غيرها)[(٤)]، واسم الرسول ﷺ محمد، فهو (ﷺ محمود عند الله، ومحمود عند ملائكته، ومحمود عند إخوانه من المرسلين، ومحمود عند أهل الأرض كلهم)[(٥)].

ووُلِدَ رسول الله ﷺ في شهر ربيع الأول (وفي ذلك إشارة عظيمة إلىٰ الاستبشار بابتداء نعم المولىٰ -سبحانه وتعالىٰ-)[(٦)].

وأمّه آمنة بنت وهب، كما سبق، والقابلة: الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف

(١) انظر: ابن القيم، جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام ص ٢٢٠، وحسن نور حسن، التأدب مع الرسول ﷺ (ص ١٥٤).

(٢) صحيح البخاري ١/ ١٢ رقم ١٧ وصحيح مسلم (١/ ٨٥) رقم (٧٤). من حديث أنس -رضي الله تعالى عنه-.

(٣) عبد الرحمن بن عتيق بن خلف الصقلي القرشي، أبو القاسم، المعروف بابن الفحام: قارئ، كان شيخ الإسكندرية في عصره. ووفاته بها. له كتاب (التجريد لبغية المريد - خ) في القراءات ولد عام٤٢٢ وتوفي عام ٥١٦. انظر. الأعلام للزركلي (٣/ ٣١٦).

(٤) نقله عنه الشامي في سبل الهدى والرشاد (١/ ٤٠٦).

(٥) ابن القيم، جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام ص ٨٨.

(٦) الشامي، سبل الهدى والرشاد (١/ ٤٠٦).

-رضي الله تعالىٰ عنه-، وعن أمه، وحاضنته: بركة -رضي الله تعالىٰ عنها-، ومرضعتاه: ثويبة، وحليمة السعدية -رضي الله تعالىٰ عنها-.

قال الشامي -رحمه الله تعالىٰ-: (وينعقد في سلك هذا النظام ما هيَّأ الله -تعالىٰ- له ﷺ من أسماء مربيه، ففي الوالدة والقابلة: الأمن والشفاء، وفي اسم الحاضنة: البركة والنماء، وفي مرضعتيه ﷺ: الثواب والحلم والسعد)[(١)].

وقد قال ﷺ: «ويعجبني الفأل الصالح: الكلمة الحسنة»[(٢)]. وهذا كان فألاً صالحًا له ﷺ.

(١) الشامي، سبل الهدى والرشاد (١/ ٤٠٣).

(٢) صحيح البخاري (٧/ ١٣٥) رقم (٥٧٥٦). وصحيح مسلم (٤/ ١٧٤٦) رقم (٢٢٢٤) من حديث أنس -رضي الله تعالى عنه-.

المبحث السادس

شق صدره ﷺ في المرة الأولى

قال -تعالىٰ-: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (قيل: المراد بقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ شرح صدره ليلة الإسراء.. وقد أورده الترمذي هاهنا[١]. وهذا وإن كان واقعًا ليلة الإسراء كما رواه مالك بن صعصعة -رضي الله تعالىٰ عنه-، ولكن لا منافاة فإن من جملة شرح صدره الذي فُعل بصدره ليلة الإسراء، وما نشأ عنه من الشرح المعنوي أيضًا، فالله أعلم)[٢]. فكأن الآيات تشير إلىٰ الشرح الحسي للصدر، وقد وقع أول مرة عندما كان الرسول ﷺ عند أمه من الرضاعة حليمة السعدية كما سيأتي في هذا المبحث. يقول ابن عاشور -رحمه الله تعالىٰ-: (وليس في شيء من هذه الأخبار علىٰ اختلاف مراتبها ما يدل علىٰ أنه الشرح المراد في الآية، وإذ قد كان ذاك الشق معجزة خارقة للعادة يجوز أن يكون مرادًا وهو ما نحاه أبو بكر بن العربي في «الأحكام»، وعليه يكون الصدر قد أطلق علىٰ حقيقته وهو الباطن الحاوي للقلب)[٣].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن الرسول ﷺ أتاه جبريل -عليه السلام- وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه عَلَقَةً، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لَأَمَهُ، ثم أعاده إلىٰ مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلىٰ أمه (يعني ظئره)، فقالوا: إن محمدًا قد

(١) الترمذي، جامع الترمذي (٥/ ٢٩٩)، (رقم ٣٣٤٦).
(٢) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٨/ ٤١٥).
(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٠٩).

قُتِلَ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون، قال أنس: وقد كنت أرىٰ أثر المِخْيَط في صدره)[1].

وعن عتبة بن عبد السلمي[2] -رضي الله تعالىٰ عنه-، أنه حدثهم: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: كيف كان أول شأنك يا رسول الله؟ قال: «كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر، فانطلقت أنا وابن لها في بَهْمٍ[3] لنا، ولم نأخذ معنا زادًا، فقلت[4]: يا أخي، اذهب فأتنا بزاد من عند أمنا، فانطلق أخي ومكثت عند البهم، فأقبل طيران أبيضان كأنهما نسران، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم، فأقبلا يبتدراني، فأخذاني فبطحاني إلىٰ القفا، فشقا بطني، ثم استخرجا قلبي، فشقاه فأخرجا منه علقتين سوداوين، فقال أحدهما لصاحبه: -قال يزيد في حديثه، ائتني بماء ثلج- فغسلا به جوفي، ثم قال: ائتني بماء برد فغسلا به قلبي، ثم قال: ائتني بالسكينة فذراها في قلبي، ثم قال أحدهما لصاحبه: حصه، فحاصه، وختم عليه بخاتم النبوة، فقال أحدهما لصاحبه اجعله في كِفَّة، واجعل ألفًا من أُمته في كِفَّة، فإذا أنا أنظر إلىٰ الألف فوقي، أشفق أن يخر عليّ بعضهم، فقال: (لو أن أُمته وزنت به لمال بهم، ثم انطلقا وتركاني، وفرَقت فرقًا شديدًا، ثم انطلقت إلىٰ أمي فأخبرتها بالذي لقيته، فأشفقت عليَّ أن يكون ألبس بي، قالت: أعيذك بالله، فرحَّلت بعيرًا لها فجعلتني علىٰ الرحل، وركبت خلفي حتىٰ بلغنا إلىٰ أمي، فقالت: أَوَ أدَّيتُ أمانتي، وذمتي؟ وحدثتها بالذي لقيت،

(١) الإمام مسلم، صحيح مسلم (١/ ١٤٧)، كتاب الإيمان، حديث (رقم ٢٦١).

(٢) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء (٣/ ٤١٦). توفي سنة ٨٧ وعمره ٩٤ سنة.

(٣) البهم: صغار الغنم، ومن عادة العرب أن صغار الغنم يقوم برعيها الأطفال تدريبًا لهم، ويكون ذلك قريبًا من أماكن إقامتهم، بخلاف الغنم فإنها تبتعد، وربما تسرح في الصباح ولا تعود إلا ليلًا مع الراعي.

(٤) هذا يؤيد أن قصة شق صدره ﷺ بعد السنة الخامسة؛ لأن ما دون ذلك لا يتمكن ولا يؤمن للذهاب بالبهم، ولا يفهم الخطاب ولا يدرك حاجته إلى الزاد أو يرسل أخاه لأجل هذا الغرض.

فلم يرعها ذلك، فقالت: إني رأيت خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام»[١].

والظاهر أن هذه الحادثة وقعت بعد تجاوز النبي ﷺ الخامسة من عمره بقليل، حسب ما نقله السهيلي -رحمه الله تعالىٰ-[٢]، وقد ثبت شق الصدر مرة أخرىٰ عند الإسراء كما سيأتي[٣].

ماذا نستفيد من حادثة شق صدره ﷺ؟

١- في هذه الحادثة التي جرت للرسول ﷺ عيانًا وشهدها بعض الأفراد، وبقي بعض آثارها، إشارة إلىٰ الإعداد والتهيئة للرسول ﷺ بأمر يعرفه الناس، فقد أُجْرِيَ للرسول ﷺ عملية تطهير لقلبه بإزالة تلك العلقة السوداء، ثم غُسل القلب بماء زمزم، فهو تطهير معنوي أخذ الشكل الحسي المادي الذي يطلع عليه الناس ويرونه، وبالإمكان أن يولد الرسول ﷺ مطهرًا من هذه العلقة، أو تزال منه دون فتحٍ للصدر بهذا الشكل، وبقاء أثر المخيط في صدره علامة علىٰ ذلك، لكن هذا لا يُحقّق اطلاع الناس ومعرفتهم بتميزه ﷺ عنهم بهذا التطهير[٤].

٢- في هذه الحادثة إشارة إلىٰ عصمة الرسول ﷺ منذ صغره، فقد أُزيل منه حظ الشيطان وهو لا يزال طفلًا مما يعني أنه ﷺ سينشأ نشأة لا نصيب للشيطان

(١) الإمام أحمد، المسند (٢٩/ ١٩٦) رقم (١٧٦٤٨) وضعفه المحقق، وانظر: الذهبي، السيرة النبوية (ص ٥٢) وصححه، وابن كثير، البداية والنهاية ٢/ ٢٩٩، وانظر: والشامي، سبل الهدي (٢/ ٨٢)، وعبد الله بن عبد العزيز الجبرين، صحيح السيرة النبوية (١٠٩-١١٠)، وقال: (سنده حسن) وإبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية وقال (الحديث صحيح) ومحمد الصوياني، السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة ص ٢٨.

(٢) انظر: السهيلي، الروض الأنف (١/ ٤١٣). وهو ما يؤيده وصف الحادثة.

(٣) متفق عليه: واللفظ للبخاري، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري لابن حجر (٧/ ٢٠١-٢٠٢)، (رقم ٣٨٨٧)، وصحيح مسلم (١/ ١٤٩)، (رقم ٢٦٤).

(٤) انظر: الشامي، سبل الهدي والرشاد (١/ ٤٢١ و٢/ ٩٠)، وأبو شهبة، السيرة النبوية (١/ ١٩٩).

فيها، محفوظًا حفظًا خاصًّا من الله -جل شأنه-، يُميّزه عن غيره من الناس(١). وفي الحديث الذي يرويه عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه- أن الرسول ﷺ قال: «ما منكم من أحد، إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن» قالوا: وإياك؟ يا رسول الله قال: «وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلمَ(٢)، فلا يأمرني إلا بخير»(٣). قال القاضي عياض -رحمه الله تعالىٰ-: (واعلم أن الأمة مجتمعة علىٰ عصمة النبي ﷺ من الشيطان، لا في جسمه بأنواع الأذىٰ، ولا علىٰ خاطره بضروب الوساوس، ولا علىٰ لسانه بما لم يقل)(٤). يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- عن هذه القصة: (وكان هذا في زمن الطفولة فنشأ علىٰ أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان)(٥) أي أنه ﷺ كان محفوظًا منذ صغره، ونشأ علىٰ أكمل الأحوال وأزكاها ﷺ. فلم يبقَ له بعد هذا داع إلىٰ شرّ(٦). وقد قال الله -تعالىٰ- عن نبيه ﷺ: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣]، وقال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٨٧].

٣- وقفت عند قول أنس -رضي الله تعالىٰ عنه- السابق الوارد في صحيح مسلم: (فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك).

---

(١) انظر: مساعد الحميد، هامش دلائل النبوة للأصبهاني (١/ ٢٥٤).

(٢) قال النووي -رحمه الله تعالى- في شرح صحيح مسلم (١٧/ ١٥٧-١٥٨)؛ («فأسلم فلا يأمرني إلا بخير» فأسلم برفع الميم وفتحها وهما روايتان مشهورتان؛ فمن رفع قال معناه: أسلم أنا من شره وفتنته، ومن فتح قال: إن القرين أسلم من الإسلام، وصار مؤمنًا لا يأمرني إلا بخير واختلفوا في الأرجح منهما فقال الخطابي الصحيح المختار الرفع، ورجح القاضي عياض الفتح وهو المختار لقوله ﷺ «فلا يأمرني إلا بخير»، واختلفوا على رواية الفتح، قيل أسلم بمعنى استسلم وانقاد، وقد جاء هكذا في غير صحيح مسلم فاستسلم وقيل معناه صار مسلما مؤمنا وهذا هو الظاهر).

(٣) صحيح مسلم (٤/ ٢١٦٧)، (رقم ٢٨١٤).

(٤) القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم، تحقيق يحْيَى إِسْمَاعِيل، الطبعة الأولى (مصر: دار الوفاء ١٤١٩)، (٨/ ٣٥١).

(٥) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٢٠٥).

(٦) ابن علان، دليل الفالحين شرح رياض الصالحين (٥/ ١٤٣).

فقوله: (هذا حظ الشيطان منك)، يدل علىٰ أن كل إنسان مهما كان في علمه وعمله وتقواه ففيه حظ للشيطان قل أو كثر، ضعف أو قوي، قال ابن هبيرة -رحمه الله تعالىٰ-: (في هذا الحديث من الفقه أن رسول الله ﷺ أعلمنا أن كل شخص وإن بلغ من العبادة والعلم ما بلغ لا ينفك عنه شيطان يوكل به يغويه ويسول له، ويشككه في الدين)[1]. وهذا كما يُذَكِّرنا بخصوصية الرسول ﷺ السابقة، فهو يُرشدنا إلىٰ أمر خطير يخصّنا، وهو أن نتنبه لهذا الحظ الفاسد، الكامن في نفوسنا، الحاضر في حياتنا، المبادر للبروز في حالتين:

أ- عند التفكير في عبادة، فما أن تخطر في بالك عبادة، إلا وتجد التخذيل والتسويف من داخلك يعمل، وإذا انتصرت، سعىٰ أثناء العمل لإفساد النية، وإذا انتصرت، سعىٰ لإفساد العمل بعد أدائه؛ إما بحديث عنه ومراءاة، أو مَنٍ، أو عُجْب. والنفس اليقظة الراقية في ميدان التعبد لله -جل شأنه-، تعي هذا، وتُدرك مصدر هذه الوسوسة، وتستحضر المجاهدة المستمرة، في تنقية أعمال قلوبنا، وأعمال جوارحنا من هذا الحظ الشيطاني الخفي، قال النووي -رحمه الله تعالىٰ- في شرحه لحديث ابن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه- السابق (وفي هذا الحديث إشارة إلىٰ التحذير من فتنة القرين، ووسوسته، وإغوائه، فأعلمنا بأنه معنا لنحترز منه بحسب الإمكان)[2].

ب- في التعامل فيما بيننا، سواء أكنا أقارب أو جيرانًا، أو زملاء، علينا أن نستحضر الحظ الشيطاني الكامن في نفوسنا، وآثاره علىٰ القلوب غلًّا وحسدًا؛

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد (الرياض: دار الوطن ١٤١٧)، (٢/ ١٢١).

(٢) النووي، شرح صحيح مسلم (١٧/ ١٥٨).

إن لم ننتبه له ونكبته، فسيركبه الشيطان للوصول إلىٰ مآربه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (ولهذا يقال: ما خلا جسد من حسد[1]، لكن اللئيم يُبديه والكريم يخفيه)[2]. وهذا يشهد له القرآن الكريم قال -تعالىٰ-: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧]، أي وأخرجنا ما في صدور هؤلاء المتقين من الحقد والضغينة من بعضهم لبعض[3]. فقد كان موجودًا في قلوبهم، قبل الدخول، ومِنْ خصائص الجنة أن الغل والحسد بين أهلها منزوع. ومَنْ عرف الداء سهل عليه الدواء والانتفاع به.

٤- خاتم النبوة المذكور في الحديث عندما قال: «وختم عليه بخاتم النبوة»، هذا النص يشعر بأنه في حادثة شق الصدر الأولىٰ جرىٰ طبع خاتم النبوة علىٰ المصطفىٰ ﷺ.

أما صفة الخاتم فيقول جابر بن سمرة -رضي الله تعالىٰ عنهما-[4]: (كان وجه رسول الله ﷺ مثل الشمس والقمر، وكان مستديرًا ورأيت الخاتم عند كتفه مثل بيضة الحمامة يشبه جسده)[5].

(١) أول من وجدته قال هذه العبارة الواقدي في فتوح الشام، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٧)، (١/ ٢٧٤). ويعضهم يذكره حديثًا وهو ليس كذلك، وقد صرح البعض بأنه من الموضوعات، قال السخاوي في المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، تحقيق محمد عثمان الخشت، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتاب العربي ١٤٠٥)، (ص٥٧٩) رقم (رقم ٩٥٥)، حَدِيث: «مَا خَلا جَسَدٌ مِنْ حَسَدٍ»، لم أقف عليه بلفظه، ولكن معناه عند أبي موسى المديني في نزهة الحفاظ له من طريق خلف بن موسى العمي عن أبيه عن قتادة عن أنس رفعه: كل بني آدم حسود، ..وسنده ضعيف.

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (١٠/ ١٢٥).

(٣) انظر: المراغي، تفسير المراغي (١٤/ ٢٦).

(٤) قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- في الإصابة (١/ ٥٤٢ و٣/ ١٤٩) «له ولأبيه صحبة».

(٥) صحيح مسلم (٤/ ١٨٢٣) رقم (٢٣٤٤).

وأما متىٰ وضع الخاتم، فقد ذهب القاضي عياض -رحمه الله تعالىٰ- إلىٰ أن هذا الخاتم هو أثر شق الملكين لما بين الكتفين، وتعقَّبه أبو العباس القرطبي -رحمه الله تعالىٰ- في المفهم بقوله: (هذه غفلة من هذا الإمام؛ فإنَّ الشق إنما كان في صدر النبي ﷺ وأثره إنما كان خطًّا واضحًا من صدره إلىٰ مراق بطنه)[١]، ووافقه النووي -رحمه الله تعالىٰ- في هذا التعقب[٢].

وقال السهيلي -رحمه الله تعالىٰ- بعد سياقه لحديث شق الصدر ووضع الخاتم: (وفي الحديث فائدة أخرىٰ، وهي من نفيس العلم، وذلك أن خاتم النبوة لم يُدْرَ هل خُلِقَ به، أم وُضِع فيه بعد ما وُلِدَ، أو حين نُبِّئ، فبيَّن في هذا الحديث متىٰ وُضِعَ، وكيف وُضِعَ، ومن وضَعه، زادنا الله علمًا، وأوزعنا شكر ما علَّم)[٣].

أما ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- فبعد أن استعرض قول القاضي عياض -رحمه الله تعالىٰ- وتعقب القرطبي والنووي -رحمهما الله تعالىٰ-، وذكر بعض الأحاديث ومنها حديث عتبة بن عبد السلمي -رضي الله تعالىٰ عنه- الذي سبق أن سقته في بداية هذا المبحث؛ قال: (ومقتضىٰ هذه الأحاديث أن الخاتم لم يكن موجودًا حين ولادته، ففيه تعقيب علىٰ من زعم أنه ولد به وهو قول نقله أبو الفتح اليعمري بلفظ، قيل: وُلِدَ به. وقيل: حين وضع. نقله مغلطاي عن يحيىٰ بن عائذ، والذي تقدم أثبت، ووقع مثله في حديث أبي ذر عند أحمد والبيهقي-رحمهم الله تعالىٰ- في الدلائل وفيه وجعل خاتم النبوة بين كتفي كما هو الآن، وفي حديث شداد بن أوس -رضي الله تعالىٰ عنهما- في المغازي لابن عائد في قصة شق صدره وهو في بلاد بني سعد بن

(١) انظر: القرطبي، المفهم (٦/ ١٣٧).

(٢) النووي، شرح صحيح مسلم (١٧/ ١٥٨). وُلد أبو العباس القرطبي -رحمه الله تعالى- صاحب المفهم عام ٥٧٨ ومات ٦٥٦، أما النووي -رحمه الله تعالى- فقد وُلد عام ٦٣١- ومات عام ٦٧٦، والنووي شافعي من الشام مولدًا ووفاة، وذاك مالكي مشرقي من الأندلس.

(٣) السهيلي، الروض الأنف (١/ ٤٠٨).

بكر، وأقبل وفي يده خاتم له شعاع فوضعه بين كتفيه وثدييه الحديث)[1]. وقد رجّح هذا القول عبد الرزاق البدر في كتابه شرح الشمائل[2]، وهو الأظهر الذي تسنده الأدلة. والله أعلم.

٥- في حادثة شق الصدر درس في حدود العقل، فنحن الآن أمام حدث ثابت شرعًا بأحاديث صحيحة، لكن لو عُرضت هذه القصة علىٰ شخص لا يؤمن بالله ما صدق؛ إذ كيف يمكن أن تُجرَىٰ هذه العملية الجراحية في الصحراء.

لكن المؤمن هنا يتميز بإيمانه بالمبادرة إلىٰ التسليم للنص، ولو خالف العقل[3]، بل العقل هنا هو التسليم للنص، لماذا؟

لأن النص عِلْم الخالق الكامل -جل شأنه-، والعقل عِلْم المخلوق القاصر[4].

فمتىٰ اشتبه عليك أمر، وقد ثبت فيه النص، فلا تتردد في اتباع علم الخالق الكامل -سبحانه وتعالىٰ-، وكن علىٰ يقين أن هذا هو الإيمان، بل هذا هو محك الإيمان بالله -سبحانه وتعالىٰ-، واستكشاف منزلة من آمنت به في قلبك.

(١) ابن حجر، فتح الباري (٦/ ٥٦٢).

(٢) انظر: عبد الرزاق البدر، شرح شمائل النبي ﷺ، الطبعة الأولى (الدمام: دار ابن الجوزي ١٤٣٥) (ص ٤٠).

(٣) في صحيح البخاري (٤/ ١٧٤) رقم (٣٤٧١)، عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، قال: صلى رسول الله ﷺ، صلاة الصبح، ثم أقبل على الناس، فقال: «بينا رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها، فقالت: إنا لم نُخلَق لهذا، إنما خُلِقنا للحرث»؛ فقال الناس: سبحان الله! بقرة تتكلم!، فقال: «فإني أومن بهذا، أنا وأبو بكر، وعمر -وما هما ثَمَّ-، وبينما رجل في غنمه إذ عدا الذئب، فذهب منها بشاة، فطلب حتى كأنه استنقذها منه، فقال له الذئب هذا: استنقذتها مني، فمن لها يوم السبع، يوم لا راعي لها غيري»؛ فقال الناس: سبحان الله! ذئب يتكلم!، قال: «فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر -وما هما ثَمَّ-».

(٤) انظر: عبد العزيز الطريفي، فصول في العقيدة، الطبعة الأولى (الرياض: مكتبة دار المنهاج ١٤٣٤)، (ص٤١).

يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وجميع ما ورد في شق الصدر، واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة؛ مما يجب التسليم له دون التعرُّض لصرفه عن حقيقته؛ لصلاحية القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك)(١). فنقول آمنّا؛ لأن الله علىٰ كل شيء قدير. ومثل ذلك كل شيء لم نعهده بعقولنا، وهو ثابت بنص شرعي.

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٦/ ٥٦٢).

المبحث السابع

وفاة أمه آمنة

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم -رحمه الله تعالىٰ-: أن أُمّ رسول الله ﷺ آمنة تُوفيت بالأبواء[1]، ورسول الله ﷺ ابن ست سنين، بين مكة والمدينة، كانت قد قدمت به علىٰ أخواله من بني عدي بن النجار، تُزيره إياهم، فماتت وهي راجعة به إلىٰ مكة[2].

وقد كان خروج آمنة من مكة إلىٰ المدينة برفقة ابنها محمد ﷺ وحاضنته (بركة) أم أيمن -رضي الله تعالىٰ عنها-، وبقيت في المدينة أيامًا كان لها بعض الذكريات في نفس محمد ﷺ.

وذكر النجم عمر بن فهد -رحمه الله تعالىٰ- أن ابنها محمد ﷺ كان عند رأسها لما احتضرت، وأنها كانت تنظر إليه حتىٰ ماتت وهو عند رأسها[3].

---

(١) الأبواء: بالفتح وسكون الموحدة تحت، وفتح الواو بعده ألف ممدودة، قرية لا تزال معروفة تقع شرق بلدة مستورة، الواقعة على الطريق بين مكة والمدينة، وتبعد مستورة عن مكة ٢٣٥ كيلو، وبالأبواء قبر آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ، انظر: سعد بن عبد الله بن جنيدل، معجم الأمكنة الواردة في صحيح البخاري (ص ١٧و ١٨)، و محمد حسن شراب، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة (ص ١٧، ٢٥٢). والمسافة بين مكة والمدينة أكثر من أربعمائة كيلو على الطريق المسفلت. وهذا يعني أنها ماتت قرب منتصف الطريق بين مكة والمدينة.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية المطبوعة مع الروض الأنف (١/ ٤١٦-٤١٧)، وابن القيم، زاد المعاد ١/ ٧٦، وقال: (لا خلاف أن أمه ماتت بين مكة والمدينة بالأبواء منصرفها من المدينة من زيارة أخواله، ولم يستكمل إذ ذاك سبع سنين). وقال إبراهيم العلي في صحيح السيرة النبوية (ص ٥٥): (ذكره ابن هشام في السيرة عن ابن إسحاق، ورجاله ثقات، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث، فزالت شبهة تدليسه إلا أنه مرسل، ابن كثير، السيرة النبوية (١/ ٢٣٥).

(٣) انظر: النجم عمر بن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى (١/ ٩٠).

ومما يؤكد كونها دُفِنَتْ في الأبواء أن الرسول ﷺ زارها في طريقه معتمرًا عام الحديبية[1].

وفي الحديث: أن الرسول ﷺ زار قبر أمه، فجلس عنده وبكىٰ وأبكىٰ من معه، وقال: «استأذنت ربي في أن أزور قبر أمي؛ فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يؤذن لي»[2].

وأقف مع هذا الحدث الجلل لنبينا محمد ﷺ وأقول:

١. عندما يكون الحديث عن الوفاة، فهذا أمر مؤلم، فالموت مصيبة كما قال -تعالىٰ-: ﴿فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [المائدة:١٠٦]، أما والحديث عن وفاة أم رسولنا ﷺ، فالذي يحزن رسولنا ﷺ لهو -والله- علينا أشد مما لو كان المصاب فينا، ثم إن وفاتها وقع وهو في سن من أشد سنوات العمر تعلقًا بالأم، وهذا مما يزيد

(١) قال ابن حجر في فتح الباري (٨/ ٥٠٨): (وقد ثبت أن النبي ﷺ أتى قبر أمه لما اعتمر)، وانظر: الهروي، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٢٥٦).

(٢) الإمام مسلم، صحيح مسلم (٢/ ٦٧١)، (رقم ٩٧٦) من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-. وقد آثرت هنا ألّا أتحدث عن مسألة إيمان أبوي الرسول الكريم ﷺ ، وذلك يعود إلى أمور منها : الأول: أني لم أجد جوابًا جازمًا في المسألة رغم كثرة من كتب في هذه المسألة؛ بل إن عددًا من العلماء ألّف فيها تأليفًا مستقلًا. الثاني: أنها مسألة في غاية الحساسية، ذات صلة بنبينا محمد ﷺ، ولعل سلامة المنهج فيها هو منهج السلامة. والثالث: أنها ليست من المسائل التي تحتها عمل مما كُلفنا به، ولما سئل الشيخ محمد بن عثيمين -رحمه الله تعالى- عن هذه المسألة قال: (هذا السؤال ليس من الأسئلة التي يُستحسن أن نُسأل عنها؛ لأنه لا فائدة منها إطلاقا)، ثم بعد ذلك أجاب على سؤال السائل، باعتبار أن السؤال وقع. انظر موقع الشيخ على الشبكة العنكبوتية، والجواب موجود بصوبته ومكتوبًا. وممن توقف في المسألة: تاج الدين الفاكهي والسخاوي وشمس الحق العظيم آبادي -رحمهم الله تعالى-. وللمزيد طالع السيوطي، مسالك الحنفا (٢/ ٤٠٢)، والمقاصد الحسنة للسخاوي (ص ٤٥)، وعون المعبود للأبادي ١٢/ ٣٢٤، والأحاديث المشكلة الواردة في تفسير القرآن الكريم لأحمد بن عبد العزيز القصير (٣١٦)، وما بعدها، الطبعة الأولى. (الدمام: دار ابن الجوزي ١٤٣٠).

ألم المصاب أضعافًا، تأمل قول الله -تعالىٰ- عن الخليل إبراهيم -عليه السلام- وابنه إسماعيل -عليه السلام-: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢]؛ (أي: كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه)[١]؛ فهذا السن أشد مراحل الشفقة والحنان وانتعاش الأمل من الوالد، وأتم مراحل تعلق الوالد بالولد، وأشد مراحل تشبث الولد بالوالد، وفيه جاء الابتلاء والطفل في سن السادسة، شديد التعلق بأمه، سريع الحنين إليها لو غابت عنه ساعة، يرىٰ فيها الدنيا كلها، ويلجأ إليها في فرحه وترحه، وفيها -كما يُفهم من الآية- جاء ابتلاء إبراهيم -عليه السلام- بابنه إسماعيل -عليه السلام-، وابتلاء محمد ﷺ بفقد أُمّه.

٢. ثم أمر لا يغيب عن الذهن أنه ﷺ، عاش مع أُمّه سنتين فقط، فقد عاد من مرضعته بعد أن أكمل أربع سنوات وأمضىٰ أشهرًا في الخامسة، ثم عاد إلىٰ أمه، وبقي معها حتىٰ تجاوز السادسة من عمره، وهذه المدة أعني (سنتين) كافية جدًّا لتعلُّق الطفل بأمه، فما أن تم تعلق الطفل بأمه بعد أن كان بعيدًا عنها، وبعيدة عنه، إذا به يُفاجَأ بفقدها. وهذا شبيه بما سيتكرر له مع جده عبد المطلب مرة أخرىٰ، كما سيأتي.

٣. ثم مع ألم زمن الوفاة، جاء مكانها؛ ففي طريق السفر، وفي هذا البعد بين مكة والمدينة، ليس في مكة؛ ليكون بين أعمامه، ولا في المدينة؛ ليكون بين أخواله، هناك تموت آمنة؛ ليصاب الرسول ﷺ بنوع خاص من الألم وهو يرىٰ أُمّه أمامه تُوارىٰ الثرىٰ، وهو ابن ست سنين، ليستقبل صنفًا جديدًا من اليُتْم يُضاف إلىٰ يُتمه السابق بعدم رؤيته لأبيه. وكأن هذا التتابع من التدبير مراد لحكمة، أو لحكم عظيمة لا يعلمها إلَّا مُدبّرها -سبحانه وتعالىٰ-.

(١) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٧/ ٢٧).

ولك أن تستحضر صورة هذا الفتىٰ ﷺ في صورة شخص تعرفه، من معاصريك، كيف ستكون عواطفك تجاهه، وهو في هذه المنطقة النائية، ثم يعود ليدخل مدينته، وبيته ويرىٰ آثار أمه أمامه تُذكِّره بها، فتشتد عليه الوطأة؛ لكنه لا يستطيع من مثله وفي سِنِّه، التعبير عن حجم المصيبة، فتبقىٰ حبيسة الفؤاد الصغير.

٤. لقد كان المصطفىٰ ﷺ يقول للناس: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وقال بأصبعيه السبابة والوسطىٰ»[١]، ويكررها ليس من الوحي فقط، وإنما يقولها من الوحي، وقد وعىٰ معناها بالتجربة التي عاشها، ويأتي رجل إلىٰ رسول الله ﷺ يشكو إليه قسوة قلبه، فيقول له الرسول ﷺ: «امسح رأس اليتيم»[٢]؛ ما قيمة مسح رأس اليتيم؟ قد لا يشعر الماسح بالقيمة!! لكن اليتيم فاقد الأب يجد لها أثرًا عميقًا في نفسه، عندما يرىٰ زملاءه من الأطفال، لهم آباء يحتضنونهم، وهو لا يجد مَن يرحِّب به، أو يفرح به، أو يُولِيه شيئًا من العناية، ويأتي الحديث النبوي موصيًا باليتيم، مُذَكِّرًا بحاجته إلىٰ اهتمام المجتمع به، من خلال وحي وتجربة عاشها الرسول ﷺ.

٥. هذا الأمر يُذَكِّر كل مسلم بيتامىٰ المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها الذين فقدوا آباءهم، ولا يجدون مطعمًا ولا مشربًا، ولا مأوىٰ، ولا كساء، فضلًا عن أن يجدوا يدًا حانية تمسح رؤوسهم وتحتضنهم، أقبل أعداء الإسلام عليهم؛ ليتولوا كفالتهم ومِن ثَم صَرْفهم عن دينهم.

ومن وصية الرسول ﷺ تلك نتذكر هؤلاء؛ بحثًا عن تلك الدرجة الرفيعة التي

(١) الإمام البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: فضل من يعول يتيمًا (٧/ ٧٦).

(٢) رواه الإمام أحمد، انظر: أحمد البنا، الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (١٩/ ١٧٩)، وقال في بلوغ الأماني (١٩/ ١٧٩): أورده المنذري في الترغيب والترهيب وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، قلت: في إسناده عند الإمام أحمد رجل لم يُسمّ، أحمد البنا، بلوغ الأماني (١٩/ ١٧٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم (١٤٢٣).

وعدها الرسول ﷺ لكافل اليتيم، وطلبًا لرقة القلب من قسوة نشكو إلىٰ الله منها صباحًا ومساءً، وأداءً لواجب حماية أبناء المسلمين من المنصّرين وأعداء الأمة الإسلامية.

٦. وأخيرا في زيارة الرسول الكريم ﷺ لقبر أمه دلالة علىٰ تأكيد زيارة الوالدين والأقارب ومن له حق في الحياة، وبعد الوفاة، وأن ذلك من المصاحبة في الدنيا معروفًا[١]، خاصةً إذا علمنا أن بين وفاة آمنة، وزيارة الرسول ﷺ لها أكثر

(١) انظر: المغربي، البدر التمام شرح بلوغ المرام، الطبعة الأولى (القاهرة: دار هجر ١٤١٤) (٤/ ٢٤٩). ولي كتيب بعنوان (هل يسمع الأموات كلام الأحياء؟) جمعت فيه بعض النصوص، ثم كلام عدد من أهل العلم في القديم والحديث الذين يرون أن الأموات يعلمون بمن يزورنهم ويُسَرُّون بذلك، ولعل من أقوى الأدلة على ذلك حديث ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-، قال: وقف النبي ﷺ على قليب بدر فقال: «هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا»، ثم قال: «إنهم الآن يسمعون ما أقول» صحيح البخاري (٣٩٨٠)، وحديث أنس -رضي الله تعالى عنه-، أن النبي ﷺ قال: «العبد إذا وُضِعَ في قبره، وتولَّى وذهب أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان، فأقعداه...» صحيح البخاري (١٣٣٨). وحديث عائشة -رضي الله تعالى عنها- أنها قالت: كان رسول الله ﷺ كلما كان ليلتها من رسول الله ﷺ يخرج من آخر الليل إلى البقيع، فيقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وأتاكم ما توعدون غدًا، مؤجلون، وإنا، إن شاء الله، بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد» صحيح (مسلم ٩٧٤). «وهذا خطاب والخطاب لمن يسمع» كما يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالى- مجموع الفتاوى (٢٤/ ٣٦٣)، وحديث زيارة الرسول لقبر أمه، أعلاه، وقول عمرو بن العاص -رضي الله تعالى عنه- (فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة، ولا نار، فإذا دفنتموني فشنوا عليَّ التراب شنًّا، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تُنحَر جزور ويُقسم لحمها، حتى أستأنس بكم) صحيح مسلم (١٢١)، وقال ابن عبد البر في الاستذكار (١/ ١٨٥): (عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ : «ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا عرفه، ورد عليه السلام» صححه أبو محمد عبد الحق)، وقال ابن تيمية في الفتاوى الكبرى (٣/ ٤٢): (قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ: ثَبَتَ ذَلِكَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ) وقال في مجموع الفتاوى (٢٤/ ١٧٣): (صَحَّ ذَلِكَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ). وانظر اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ١٧٨)، وانظر ابن القيم، بدائع الفوائد (٢/ ١٧٣)، وقال عنه الحافظ أبو محمد عبد الحق الأشبيلي في الأحكام الشرعية الصغرى (٣٤٤-٣٤٥): (إسناده صحيح)،=

من خمسين سنة، فعمره ﷺ عند وفاتها ست سنوات، وعمره ﷺ عند زيارتها ثمان وخمسين سنة، فلا يعني مضي السنين، وبلاء العظام وذهابها، أن الزيارة لا تجدي. والله أعلم.

٧. لم أجد في السيرة أن الرسول ﷺ زار قبر أبيه، مع أنه مات في المدينة ودفن فيها عند أخواله، ولعل ذلك يرجع إلىٰ أنه ﷺ يعرف يقينًا قبر أمه، وعاش معها سنوات، وحضر وفاتها ودفنها، أما قبر أبيه، فليس عنده علم يقيني به، خاصةً أن الرسول ﷺ جاء إلىٰ المدينة وعمره الشريف (٥٣) سنة، مما يغلب علىٰ الظن أن الذين حضروا وفاة أبيه ودفنه ويضبطون مكان قبره قد ماتوا، أو نسوه مع مرور الأيام، والله أعلم.

=وتبعه العراقي في «تخريج الإحياء» (٤/ ٤١٩ – حلبي)، وأقره المناوي»؛ قاله الألباني في السلسلة الضعيفة (٩/ ٤٧٦). وقال ابن رجب –رحمه الله تعالى– في كتابه أهوال القبور (ص ٨٦): (وقال عبد الحق الإشبيلي: إسناده صحيح يشير إلى أن رواته كلهم ثقات وهو كذلك إلا أنه غريب بل منكر): وانظر تخريج أحاديث علوم الدين للعِراقي (٦/ ٢٦١١). وقال الشوكاني في نيل الأوطار (وَقَدْ صَحَّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا)، وقال المناوي في فيض القدير (٥/ ٤٨٧): (وأفاد الحافظ العراقي أن ابن عبد البر خرجه في التمهيد والاستذكار بإسناد صحيح من حديث ابن عباس، وممن صححه عبد الحق بلفظ ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام) وضعفه الألباني –رحمه الله تعالى– وغيره، والله أعلم. المهم أن لا ننسى زيارة موتانا –وبخاصة الأبوين– وندعو لهم إذا زرناهم، ونستغفر لهم، فالظاهر أنهم يأنسون بذلك والعلم عند الله؛ فهو من علم الغيب الذي ليس عندنا منه خبر مستيقن. ولا يعني أُنسهم بالزائر أنهم يملكون شيئًا، فهم رهينو أعمالهم بحاجة إلى داعٍ أو مستغفرٍ لهم، ولا يملكون لأنفسهم شيئًا، فضلًا أن يملكوه لغيره، وللمزيد يرجع إلى كتابي أعلاه.

المبحث الثامن

محمد ﷺ في كفالة جده عبد المطلب ثم عمه أبي طالب

عاد المصطفىٰ ﷺ إلىٰ مكة بعد وفاة أمه في طريق عودته من المدينة، مصحوبًا بمولاته أم أيمن -رضي الله تعالىٰ عنها-، التي أسلمته إلىٰ جده عبد المطلب.

ولا شك أن هذا الجد، سيعامل هذا الحفيد- يتيم الأبوين - معاملة خاصة، فقد كان يَرِقّ له رقة لم يرقها علىٰ أحد من ولده، وكان يُقرّبه منه ويدنيه.

أخرج الحاكم -رحمه الله تعالىٰ- بسنده عن كِنْدير بن سعيد، عن أبيه[1] قال: حججت في الجاهلية فإذا أنا برجل، يطوف بالبيت وهو يرتجز ويقول:

رب رد إلي راكبي محمدًا   رده إليَّ واصطنع عندي يدًا

فقلت: من هذا؟ فقالوا: عبد المطلب بن هاشم بعث بابن ابنه محمد في طلب إبل له -ولم يبعثه في حاجة، إلا أنجح فيها- وقد أبطأ عليه فلم يلبث أن جاء محمد والإبل فاعتنقه، وقال: يا بني لقد جزعت عليك جزعًا لم أجزعه علىٰ شيء قط، والله لا أبعثك في حاجة أبدًا، ولا تفارقني بعد هذا أبدًا»[2].

وتذكر كتب السير أنه كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، ويجلس بنوه حول فراشه ذلك حتىٰ يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالًا له، فكان

(١) قال ابن الأثير -رحمه الله تعالى- في أسد الغابة (٤/ ٤٧٣): «كندير بْن سَعِيد بْن حيدة بْن قشير القشيري وقيل: المزني. كذا نسبه ابن منده، وَأَبُو نعيم، مختلف فِي صحبته، قيل له رؤية، ولأبيه صحبة».

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٥٩) رقم (٤١٨٤). وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ولم يتعقبه الذهبي، وانظر الاستيعاب لابن عبد البر (٢/ ٦١٤).

رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام فيجلس على هذا الفراش، فيأخذه أعمامه، ويمنعونه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني، فإن له لشأنًا، ثم يجلسه معه على فراشه، ويمسح ظهره بيده ويَسُرُّه ما يراه يصنع، ولم تستمر هذه الرعاية طويلًا فقد مات عبد المطلب بعد سنتين من كفالته لمحمد ﷺ، وكان وقتها عُمر الرسول ﷺ ثماني سنوات، وذُكر أنه كان يمشي ﷺ خلف جنازة جده عبد المطلب يبكي حتى دُفن بالحجون(١).

ولما كان أبو طالب هو شقيق عبد الله بن عبد المطلب، أمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ، فقد أوصى عبد المطلب عند وفاته لأبي طالب بكفالة محمد ﷺ(٢).

وقد كان أبو طالب فقيرًا لا مال له مع كثرة عياله، وكان يحب الرسول ﷺ حبًّا شديدًا، فكان لا ينام الرسول ﷺ إلا عنده، وإذا خرج، خرج معه.

وسيأتي حديث وتعليق حول هذه الكفالة التي قام بها أبو طالب باذلًا قصارى جهده في تربيته ﷺ صغيرًا، ونُصرته كبيرًا، مداومًا عليها أكثر من أربعين سنة في مواجهة قومه في مكة حتى وفاته في السنة العاشرة من البعثة، وذلك عند الحديث عن وفاة أبي طالب في المبحث الثامن من الفصل الثالث من هذا الكتاب.

أما فقه سيرة محمد ﷺ بعد وفاة أمه، وكفالة عبد المطلب لحفيده، ففيها من الدروس:

أولًا: عاد محمد ﷺ إلى مكة وبدلًا من أن يذهب إلى بيت أمه، عدلت به مولاته، أم أيمن إلى بيت عبد المطلب، فلم يَعُدْ لمحمد ﷺ بيت خاصّ به مع أُمه،

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ١٨٠)، والبيهقي، دلائل النبوة تحقيق عبد المعطي قلعجي، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٨)، (٢/ ٢٢). والقسطلاني، المواهب اللدنية (١/ ١٨٤)، والذهبي، السيرة النبوية (ص ٥٦). والمقريزي، إمتاع الأسماع (٤/ ٩٦)، والنجم عمر بن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى (١/ ١٠١).

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية(١/ ١٩٣). والبيهقي، دلائل النبوة (٢/ ٢٢).

وإنما انتقل ليكون في كفالة جده عبد المطلب. نعم وجد عند عبد المطلب رعاية فائقة، لكن أين الأم من الجد؟! وأين آمنة من عبد المطلب؟!

مهما بذل عبد المطلب من صور العناية والرعاية التي سيوفرها عبد المطلب لحفيده، فلن يستطيع كل ذلك أن يداوي جرحًا من جروح فقدان الأم!! الأم شيء آخر!! بالله عليك هل هناك من يقوم مقام الأم؟

ثانيًا: لقد كان لمحمد ﷺ مقام خاص عند جده، كيف والعرب تقول في أمثلتها السائرة: (لا أغلىٰ من الابن إلا ابن الابن)، أو نحو ذلك، واسأل من حولك، إن لم تكن جَدًّا!! كيف مقام ابن الابن عند جده؟ هذا إذا كان الأب موجودًا، فكيف إذا كان الجد يرىٰ نفسه أنه هو الأب والجد؟، بل كيف إذا كان يرىٰ نفسه الأب والأم والجد؟!

بل كيف سيكون إذا وجد نفسه الأم والأب والأخ والأخت والجد، فقد كان محمد ﷺ وحيد أبويه؛ بل وحيد أبيه وأمه[1]. فأبوه مات وهو حمل -كما مر-، وأمه لم تتزوج بعد وفاة زوجها.

ثالثًا: لقد كانت مسؤولية عبد المطلب عظيمة تجاه هذا الطفل ﷺ، زادها ما كان يراه عبد المطلب -وهو سيد قريش وزعيمها- من علامات السيادة البارزة في حفيده، فكان عليه أن يرعىٰ هذه النبتة المباركة بما يلائمها من مستقبل واعد عظيم.

رابعًا: وبعد كفالة عبد المطلب لحفيده، فإن مما زاد الجرح بوفاة عبد المطلب، أن المصطفىٰ ﷺ لزم جدَّه، الذي كان يصحبه في الغدو والرواح، ولا يستطيع أن

---

(١) قال ابن سعد في الطبقات (١/ ٩٨): «قال محمد بن عمر الأسلمي: وهذا -يعني حمل آمنة بغير النبي ﷺ- مما لا يُعرف عندنا ولا عند أهل العلم، لم تلد آمنة بنت وهب ولا عبد الله بن عبد المطلب غير رسول الله ﷺ».

يفارقه في مجلس، ويقعده دومًا بجواره مقدِّمًا له علىٰ أعمامه، وكبار قومه، حتىٰ إذا ألفه وتعلق القلب به -في سنتيه التي قضاها معه محاطًا منه بالإكرام والرعاية- تَعَلُّق الابن بأبيه، إذا به، فجأة يُفجَع به.

خامسًا: إن المُلاحَظ أنه بقي ﷺ مع أمه سنتين فقط، ثمّ غادرت وتركته، ثم بقي مع جده سنتين فقط ثم غادر وتركه، لو تأملت في السنتين لوجدت أن سنتين كانت كافية لتجذُّر الأُلفة، ولكي تسمق فروعها، وتبلغ ذروتها، ويتعلق الطفل بأمه، ويتربع الجد في قلب الطفل، وإذا به يُفجَع بالمغادرة، وكأن تلك الألفة لما بلغت غايتها، وأمست المصيبة بلغت أشدها، قيل للأم ثم للجد آن الرحيل فغادر، واترك الفتىٰ لربه.

سادسًا: ما أعظم تلك الصورة، وما أشد إيلامها!! أعني مشهد الطفل محمد ﷺ وعمره ثماني سنوات يجري باكيًا خلف جنازة جده عبد المطلب المحمول علىٰ الأكتاف إلىٰ مقبرة الحجون، وقبل سنتين فقط كان مع أمه ينظر إليها، وهي تُوارَىٰ التراب في منطقة نائية ليس معه من البشر مُوَاسٍ أو أنيسٍ، غير حاضنته ومولاته أم أيمن -رضي الله تعالىٰ عنها-.

سابعًا: إني وأنا أستحضر هذه الصور لحياة المصطفىٰ ﷺ أتذكر قول الله -تعالىٰ- في موسىٰ -عليه السلام- ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه:٣٩]، ومحمد خليل الرحمن، وسيد ولد آدم، وأفضل أولي العزم من الرسل، وله من الخصوصية والصناعة من ربه ما ليس لغيره، وقد قال -تعالىٰ- له: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨]. يقول الرازي -رحمه الله تعالىٰ- وحد العين في قصة موسىٰ -عليه السلام- وجمعه هنا (لأن الحفظ هاهنا أتم؛ لأن الصبر مطية الرحمة بالنبي ﷺ؛ حيث اجتمع له الناس وجمعوا له مكايد وتشاوروا في أمره)[1].

(١) الرازي، تفسير الرازي (مفاتيح الغيب)، (٢٨/ ٢٢٩).

وما دام لموسىٰ -عليه السلام-، تلك الصناعة الربانية، فلمحمد الأعلىٰ منها والأتم. ولذلك فما نراه في هذه السيرة، إنما هو صناعة ربانية في كل لحظة من لحظات حياة هذا النبي الكريم المصطفىٰ ﷺ.

المبحث التاسع

رعيه ﷺ للأغنام

مرَّ معنا أن الرسول ﷺ كان يرعىٰ الغنم مع أخيه من الرضاعة في ديار بني سعد عندما جاءه الملكان وشقا صدره، وكان عمره في ذلك الوقت خمس سنوات تقريبًا.

وفي الأدب المفرد عن عبدة بن حزن -رضي الله تعالىٰ عنه-[1] قال: تَفاخَر أَهلُ الإبلِ وأصحابُ الشَّاءِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بُعِث مُوسىٰ وهُو راعي غَنمٍ، وبُعِث دَاود وهُو راعي غَنَمٍ، وبُعثتُ أنَا، وأنَا أرعَىٰ غَنمًا لأهلِي بأجيَاد»[2].

وعن محمد بن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ- قال: حدثني محمد بن عبد الله بن قيس بن مخرمة -رحمه الله تعالىٰ-، عن الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب، عن أبيه -رحمهم الله تعالىٰ- عن جده علي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما هممت بقبيح مما كان أهل الجاهلية يهمّون بها إلا مرتين، الدهر، كلتاهما يعصمني الله -عز وجل- منها، قلت ليلةً لفتىً من قريش بأعلىٰ مكة في أغنام لأهلنا نرعاها: انظر غنمي حتىٰ أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان. قال: نعم. فخرجت فجئت أدنىٰ دار من دور مكة سمعت غناء وضرب

(١) انظر: ابن حجر، الإصابة (٤/ ٣٢٣)، وفيه «أخرجه البخاريّ في التاريخ، وقال في روايته: عن عبدة بن حزن، وكانت له صحبة،.... قال شعبة: قلت لأبي إسحاق: أدرك نصر بن حزن النبيّ ﷺ ؟ قال: نعم».

(٢) البخاري، الأدب المفرد تحقيق سمير الزهيري، الطبعة الأولى (الرياض: مكتبة المعارف ١٤١٩)، رقم (٥٧٧)، (ص ٢٩٧) والنسائي، السنن الكبرى، تحقيق حسن شلبي، الطبعة الأولى (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٢١)، (١٠/ ١٧١) رقم (١١٢٦٢). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣١٦٧).

دفوف وزمرًا. فقلت: ما هذا؟ قالوا: فلان تزوج فلانة لرجل من قريش تزوج امرأة من قريش، فلهوت بذلك الغناء وبذلك الصوت حتىٰ غلبتني عيني فما أيقظني إلا مسّ الشمس، فرجعت إلىٰ صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فأخبرته ثم قلت له ليلة أخرىٰ مثل ذلك ففعل فخرجت فسمعت مثل ذلك، فقيل لي مثل ما قيل لي، فلهوت بما سمعت حتىٰ غلبتني عيني فما أيقظني إلا مس الشمس، ثم رجعت إلىٰ صاحبي فقال لي: ما فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئا قال رسول الله ﷺ : فو الله ما هممت بعدهما بسوء مما يعمل أهل الجاهلية حتىٰ أكرمني الله -عز وجل- بنبوته»[(١)].

وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نبي إلا وقد رعىٰ الغنم»، قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم، كنت أرعاها علىٰ قراريط[(٢)]

(١) أبو نعيم، دلائل النبوة (المتوفى: ٤٣٠هـ) تحقيق محمد رواس قلعه جي وزميله، الطبعة الثانية (بيروت: دار النفائس، ١٤٠٦)، (١/ ١٨٦) رقم (١٢٨). والبيهقي، دلائل النبوة (المتوفى: ٤٥٨هـ)، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٠٥) (٢/ ٣٤)، والحاكم، المستدرك (٤/ ٢٧٣)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ولم يتعقبه الذهبي في التلخيص. وقال ابن حجر في المطالب العالية، بتحقيق مجموعة من طلاب الدكتوراه، تنسيق سعد الشثري، الطبعة الأولى (الرياض: دار العاصمة ١٤١٩)، (١٧/ ٢٠٨): «قلت: هكذا رواه محمد بن إسحاق في السيرة، وهذه الطريق حسنة جليلة، ولم أره في شيء من المسانيد إلا في مسند إسحاق هذا، وهو حديث حسن متصل، ورجاله ثقات»، وقال البزار في مجمع الزوائد تحقيق حسام الدين القدسي (القاهرة: مكتبة القدسي (١٤١٤) (٨/ ٢٢٦) رقم (١٣٨٧٣): «رواه البزار، ورجاله ثقات». وإبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية (ص ٥٧).

(٢) قراريط: جمع قيراط، والقيراط جزء من أجزاء الدينار، ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث (٤/ ٤٢). وقال ابن الملقن في شرح صحيح البخاري (١٥/ ٣٥): «وهل القراريط في الحديث اسم مكان أو نقد؟ قولان:
أحدهما: اسم مكان بقرب جياد، قاله الحربي، ويدل له أن العرب لم تكن تعرف القيراط، وأخبر أن مصر تُفتح ويُذكر فيها القيراط؛ ولهذا لم يبوّب البخاري على الاستئجار لرعيها؛ لأنه لم يذكر الأجرة، ويجوز أن يكون تركه إعظامًا لجنابه، ولما رواه ابن ماجه قال: «كنت أرعاها لأهل مكة بالقراريط»، ثم قال: قال سويد بن سعيد: يعني كل شاة بقيراط، وهو دليل=

لأهل مكة»[1].

وعن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: (كنا مع النبي ﷺ بمر الظهران ونحن نجني الكباث[2] فقال النبي ﷺ: «عليكم بالأسود منه». قال: فقلنا: يا رسول الله! كأنك رعيت الغنم؟ قال: «نعم، وهل من نبي إلا وقد رعاها»، أو نحو هذا القول)[3].

ومع رعي النبي ﷺ للغنم الوقفات التالية:

أولًا: هذه الروايات تُعطي عِلْمًا أن الرسول ﷺ كان مصاحبًا لرعي الغنم منذ صغره، فقد رعاها وهو لا يزال عند مرضعته في ديار بني سعد في حدود السنة الخامسة من عمره، ثم رعاها لأهله كما ورد في نص كلامه ﷺ «أرعَىٰ غَنَمًا لأهلِي بأجيَاد». ومن هم أهله؟ هل يقصد أمه آمنة التي لم يبق معها سوىٰ ما يقارب العامين بعد عودته من عند حليمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، فقد ماتت أمه وعمره ست سنوات، أم يقصد غنم جده عبد المطلب، وأستبعد أن يكون يرعىٰ غنم جده عبد المطلب لما ذُكر في السيرة من فرط تعلق عبد المطلب بحفيده وحرصه علىٰ قربه منه وخشيته

=القول الثاني. قال ابن الجوزي: والذي قاله الحربي أصح، وصححه ابن ناصر الحافظ أيضًا قال: وأخطأ سويد في تفسيره، وكان ذلك منه وسنُّه نحو العشرين فيما استقرئ من كلام ابن إسحاق والواقدي وغيرهما»، وانظر أيضًا الشفا للقاضي عياض وشرحه للقاري فقد تحدّثا عن هذه المسألة (٢/ ٤٥٧-٤٥٨)، وخلاصته أن القاضي عياض يرى أنه كان يرعى بالأجرة في ابتداء حاله، وقال القاري بأن الصحيح أنه لم يرع بأجرة وإن صح ذلك فلا غضاضة فيه، وقال: وأقول لعله لبعض أهله إن صح الاستيجار في فعله. ا.ه. والله أعلم. وكل هذا حرصًا على تنزيه المقام النبوي؛ فجزاهم الله على ذلك خير الجزاء.

(١) الإمام البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإجارة (٣/ ٤٨).

(٢) الكباث: النضيج من ثمر الأراك، والأراك شجر معروف طيب الريح، يستاك به، انظر: ابن الجوزي، غريب الحديث (٢/ ٢٧٨)، وابن حجر، هدي الساري مقدمة فتح الباري (ص ٧٨).

(٣) الإمام مسلم، صحيح مسلم (٣/ ١٦٢١)، حديث (رقم ٢٠٥٠).

عليه، وقد يكون لعمه أبي طالب، وهو أقرب؛ لأنه في سن تناسب أن ينفرد برعي الغنم، لكن أيًّا ما يكون الأمر، فهو ﷺ قد رعىٰ الغنم لأهله، ثم إن قول الرسول ﷺ «بأجياد»، وأجياد -لمن يعرف مكة - قريبة جدًّا من بيته، فهي علىٰ يسار الخارج من باب الملك عبد العزيز -رحمه الله تعالىٰ- في الحرم.

ثم بعد رعيه لأهله، فقد رعىٰ الغنم لأهل مكة، كما هو نص الحديث السابق الوارد في صحيح البخاري، وكان ذلك علىٰ قراريط أو بقراريط، وهل المقصود مكان يسمىٰ قراريط أو أن المراد بأجرة معلومة، الله أعلم، فإن صح أنه أخذ أجرة في ابتداء أمره، فهذا لا غضاضة فيه، وهو عمل من كسب اليد، بل هو من أشرف أعمال الاكتساب، وموسىٰ الكليم -عليه السلام- رعىٰ الأغنام بأجرة[1].

فإن صح أنه كان يأخذ أجرة من أهل مكة، فالذي يغلب علىٰ الظن أنه كان بعد وفاة جده عبد المطلب، وانتقاله إلىٰ كفالة عمه أبي طالب، فقد كان أبو طالب كثيرَ العيال خفيفَ ذات اليد، فهو بحاجة إلىٰ من يعينه علىٰ النفقة، خاصةً وأن الرسول ﷺ قد شبَّ، وعمره تقريبًا قد تجاوز التاسعة قليلًا، ومثل هذا السن في البيئة العربية الأصيلة يعتبر مؤهلًا للاعتماد علىٰ النفس.

ثانيًا: وقفت متأملا في مسألة رعي الأغنام، التي وقعت لجميع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- في صغرهم: «ما من نبي إلا ورعىٰ الأغنام» هذا كلام المصطفىٰ ﷺ كما مر.

لماذا جرىٰ هذا الأمر من جميع الأنبياء؟، كلهم رعوا الأغنام**!!**

---

(١) قال تعالى في قصة موسى عليه السلام مع صاحب مدين: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾ [القصص:٢٧] قال ابن كثير -رحمه الله تعالى- في تفسيره (٦/ ٢٣٠) «أي: على أن ترعى علي ثماني سنين، فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك».

هل تعتقد أنه من باب الصدف؟ -كما يقولون- أو أنه التدبير الإلهي!!

لا أشك أنه التدبير الإلهي لهذا النبي الكريم علىٰ ربه، محمد ﷺ أن ينشأ في أول شبابه مع رعي الغنم.

كيف لا يكون تدبيرًا إلهيًا، ونحن نقرأ في كتاب الله -جل شأنه- قوله -تعالىٰ-: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨]، وقوله -تعالىٰ- عن موسىٰ -عليه السلام- الذي أيضًا هو كان يرعىٰ الغنم: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]، بل ما من نبي إلا وقد رعىٰ الأغنام.

إن هذا يلفت نظرنا إلىٰ أن وظيفة رعي الأغنام بخاصة، اختارها الله -جل شأنه- لتكون ميدانًا لصفوة خلقه الذين يبعثهم لهداية البشر وقيادتهم. إذًا هذه الوظيفة مختارة بعناية، لصفوة مراد منها أعظم رسالة.

ثالثًا: لتتضح الرؤية أكثر، وأن هناك رابطًا مقصودًا في الأمر، تأمل معي هذا الحديث الذي يرويه أبو هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه-، أن رسول الله ﷺ، قال: «رأس الكفر نحو المشرق، والفخر والخيلاء في أهل الخيل والإبل، والفدَّادِين أهل الوبر، والسكينة والوقار في أهل الغنم»[١].

يقول النووي -رحمه الله تعالىٰ-: (وأما قوله ﷺ: «الفخر والخيلاء»؛ فالفخر هو الافتخار وعد المآثر القديمة تعظيمًا، والخيلاء الكبر واحتقار الناس)[٢].

ويقول أيضا -رحمه الله تعالىٰ-: («الْفَدَّادِينَ»: بِتَشْدِيدِ الدَّالِ جَمْعُ فَدَّادٍ بِدَالَيْنِ أُولَاهُمَا مُشَدَّدَةٌ، وَهَذَا قَوْلُ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالْأَصْمَعِيِّ وَجُمْهُورِ أَهْلِ اللُّغَةِ، وَهُوَ مِنْ

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (٥/ ٤٣٨٨)، وعند مسلم بلفظ «والسكينة والوقار في أصحاب الشاء» (١/ ٩١).

(٢) النووي، شرح صحيح مسلم (٢/ ٣٤).

الْفَدِيدِ وَهُوَ الصَّوْتُ الشَّدِيدُ، فَهُمُ الَّذِينَ تَعْلُو أَصْوَاتُهُمْ فِي إِبِلِهِمْ وَخَيْلِهِمْ وَحُرُوثِهِمْ وَنَحْوِ ذَلِكَ)[١].

ويقول أيضًا -رحمه الله تعالىٰ-: (السكينة التأني في الحركات واجتناب العبث ونحو ذلك. والوقار في الهيئة وغض البصر وخفض الصوت والإقبال علىٰ طريقه بغير التفات)[٢].

وبعد أن عرفنا معاني هذه الكلمات، لاحظ أن الرسول يقول: «والسكينة والوقار في (أهل) الغنم»؛ فالسكينة لصاحب الغنم، من أين؟ من رعيه، أو قل مِن رعايته للغنم؟ أو قل من صحبته للغنم!!

يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (وكذلك الآدمي إذا عاشر نوعًا من الحيوان اكتسب بعض أخلاقه، ولهذا صار الخيلاء والفخر في أهل الإبل، وصارت السكينة في أهل الغنم، وصار الجمالون والبغالون فيهم أخلاق مذمومة، من أخلاق الجمال والبغال، وكذلك الكلابون، وصار الحيوان الإنسي، فيه بعض أخلاق الناس من المعاشرة والمؤالفة وقلة النفرة)[٣].

فكيف إذا كان الفتىٰ قد نشأ علىٰ صحبتها من صغره؟ كيف ستكون سكينته ووقاره.

وهذا جزء من العناية الإلهية للنبي ﷺ التي حظي بها ﷺ.

رابعًا: ثم إني وقفت عند قول المصطفىٰ ﷺ «ما من نبي إلا وقد رعىٰ الغنم»، وكأن رعي الغنم أمر أساسي مشترك وضعه الله -جل شأنه- في تكوين وإعداد جميع الأنبياء -عليهم السلام- لأداء رسالتهم.

---

(١) النووي، شرح صحيح مسلم (٢/ ٣٤).

(٢) النووي، شرح صحيح مسلم (٥/ ١٠٠).

(٣) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (١/ ٥٤٨).

وحينئذ فكون كل الأنبياء رعوا الأغنام، يعني أن مسألة الرعي ليست رغبة في المزيد من الكسب المادي فحسب؛ لأن وسائل الكسب متعددة، ومتفاوتة من زمان أو مكان لآخر. ولو كان هو المقصود، لرأينا نبيًّا يكتسب بالرعي، وآخر بالنجارة، وثالث بالزراعة، ولكن لما كان القصد ذات الرعي للأغنام، التي تُكسب صاحبها السكينة والوقار، رأينا اتفاق حصوله منهم، وهذا ما يناسب هيئات الأنبياء والرسل -عليهم السلام-.

ولا أدري هل يسوغ أن أقول: إن في هذا ترغيبًا للاستفادة من هذا التربية، فيكون جزءًا من حياة الفتىٰ رعي الغنم، كما أنه تنفير من صحبة الإبل والخيل لما تُكسِب صاحبها من الخيلاء والفخر. وخاصةً إذا أكثر من ذلك.

خامسًا: يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها علىٰ ما يُكلّفونه من القيام بأمر أمتهم)[(١)].

فالأنبياء كانوا رعاة أغنام في صغرهم؛ ليكونوا رعاة الإنسانية في كبرهم، فـ(كما قُدِّر لموسىٰ ومحمد وغيرهما من الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- في ابتداء أمرهم رعاية الغنم؛ ليتدرجوا من رعاية الحيوان البهيمي وإصلاحه، إلىٰ رعاية بني آدم ودعوتهم وإصلاحهم)[(٢)].

(١) ابن حجر، فتح الباري(٤/ ٤٤١).

(٢) السعدي، المواهب الربانية من الآيات القرآنية (ص ١٤٩). ومن الفائدة أضيف كلمة قالها ابن القيم -رحمه الله تعالى- في مفتاح دار السعادة (بيروت: دار الكتب العلمية)، (١/ ١١٠): (وحكي أن جماعة من النصارى تحدثوا فيما بينهم؛ فقال قائل منهم ما أقل عقول المسلمين يزعمون أن نبيهم كان راعي الغنم، فكيف يصلح راعي الغنم للنبوة؟ فقال له آخر من بينهم: أما هم فوالله أعقل منا، فإن الله بحكمته يسترعي النبي الحيوان البهيم، فإذا أحسن رعايته والقيام عليه، نقله منه إلى رعاية الحيوان الناطق؛ حكمةً من الله وتدريجًا لعبده، ولكن نحن جئنا إلى مولود خرج من امرأة يأكل ويشرب ويبول ويبكي فقلنا هذا إلهنا الذي خلق السموات والأرض فأمسك القوم عنه).

ألا يلفت هذا الأمر نظرنا إلىٰ أهمية التدريب، في جميع أعمالنا، فالمدير لا بد أن يتدرب علىٰ الإدارة قبل ممارستها، والمعلم لا بد أن يتدرب علىٰ التعليم قبل أن يقف في الفصل معلمًا، والطبيب لا بد أن يتدرب علىٰ الطبّ قبل ممارسة الطب، وكذلك الداعية لله، لا يكفي أن تكون لديه معلومات شرعية ليقوم بالدعوة؛ بل لا بد من التدريب العملي، ومسألة إلقاء المحاضرات والخطب فنّ لا يُتقنُ إلا بالتدريب، وكم من معلومة صحيحة ضاعت في إلقاء فاسد، ومعلومة فاسدة راجت ألقاها خطيب متدرب.

والشركات الرائدة تعطي أهمية كبيرة لتدريب موظفيها، ولو كلَّفها هذا الأمر مبالغ؛ لأنها تعلم أنها بالموظف المتدرّب توفّر لنفسها ساعات من العمل، يضيعها غير المتدرب، في إنجازه عمله، مع ما تناله من كسب رضىٰ العملاء واستمرارهم وزيادتهم بالموظف المتدرب.

سادسًا: قال العلماء: إن في رعي الأغنام -بخاصة- التعود علىٰ الحلم والشفقة؛ لأنهم إذا صبروا علىٰ رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعىٰ؛ ألفوا من ذلك الصبر علىٰ الناس، وعرفوا اختلاف طبائعهم، واختلاف عقولهم، فجبروا كسيرهم، ورفقوا بضعيفهم، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كُلفوا القيام بذلك من أول وهلة، فكان التدرج في ذلك برعيهم للأغنام التي هي مختلفة الطباع، وفيها الضعيفة والعرجاء والتي ترغب تسلق الجبال، وفيها التي لا تتمكن من تجاوز الأودية، فيتعلم مع الأغنام تحقيق الرغبات المتفرقة، تمهيدًا وتدريجًا لمواجهة البشر في رغباتهم وقضاياهم المختلفة [(١)].

سابعًا: قوله ﷺ: «والفخر والخيلاء في أهل الخيل والإبل، والفدَّادِين أهل الوبر، والسكينة والوقار في أهل الغنم»؛ يدل علىٰ أن الصحبة مؤثرة، ولو كانت مع

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٤/ ٤٤١). وسبقه إلى هذا المعنى ابن بطال في شرحه لصحيح البخاري (٦/ ٣٨٦).

غير ناطق، فصحبة الإبل غير صحبة الغنم، هذه سكينة ووقار، وتلك فخر وخيلاء وكِبْر، فكيف إذا كان المصحوب إنسانًا ناطقًا معبرًا عن نفسه، داعيًا إلىٰ سلوكه وأفكاره، مجادلاً عنها؟ كيف سيكون تأثيره؟!

وقد قال -تعالىٰ-: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]، وهي صورة معبّرة مؤثرة في حال النادم علىٰ الصحبة السيئة يوم القيامة، للتنبيه، بل للتحذير من مغبة، وسوء عاقبة صحبة أهل السوء.

ثامنًا: قوله ﷺ: «والفخر والخيلاء في أهل الخيل والإبل، والفدَّادِين أهل الوبر، والسكينة والوقار في أهل الغنم»؛ هذا يدل علىٰ أن مهنة الشخص أو وظيفته التي يمارسها مؤثرة علىٰ سلوكه، فهناك وظيفة قد تجعل صاحبها متكبرًا، وهناك أخرىٰ قد تجعل صاحبها متواضعًا.

وهذا أمر معروف وخاصة عند من لديه فراسة في الأشخاص، فتراه يعرف عمل الشخص بأقواله وحركاته وتصرفاته، وما الأشياء التي يوليها اهتمامه، فالقاضي غير المعلم، والمعلم غير المحامي، والمحامي غير العسكري، وكل ذلك انعكاس لطبيعة وظائفهم التي يمارسونها.

وهذا مهم في أمرين:

الأول: في اختيار المهنة أو الوظيفة الملائمة، فإن لها أثرًا علىٰ سلوكه لاحقًا.

والثاني: أن ينتبه في تعامله في بيته ومع أقاربه ومع زملائه، فيقلل من تأثير تلك الوظيفة علىٰ تعامله خارج نطاق الوظيفة، فليس من الملائم في شيء أن يكون الشخص عسكريًّا في بيته، صارمًا في أوامره، تأثرًا بكون وظيفته عسكريًّا، أو قاضيًا في

بيته متحفظًا متحرزًا في لحظه ونظره، تأثرًا بوظيفته القضائية[1].

تاسعًا: ثم أمر مهم -في نظري- نستفيده هنا، وهو أن السكينة والوقار مُكتسبة؛ بل إن الأخلاق في جملتها مكتسبة، وهذه نعمة من الله -سبحانه وتعالىٰ-، أن أتاح لنا اكتسابها، وبعض الناس إذا نُصح في أمر سلوكي كالحدِّة أو سرعة الغضب، قال: هذا طبعي لا أستطيع أغيره!! وهذا غير صحيح، فهذا الحديث يدلنا علىٰ أن حُسن الخلق مُكتَسب؛ بل وسوء الخلق أيضا مكتسب، إما فخرًا وخيلاء، أو سكينة ووقارًا، وقد قال الرسول ﷺ: «ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغنِ يُغنه الله ومن يتصبر يصبره الله»[2]؛ فهذا يدل علىٰ أن خُلق الصبر مكتسب، والعجلة المذمومة ليست حتمًا في الشخص، بل بالمجاهدة تذهب، بعد الاستعانة بالله -سبحانه وتعالىٰ-، ولا يعني هذا نفي الجِبِلّة التي توجد في الشخص، من الرفق والأناة، أو الحدة وسرعة الغضب[3]؛ فإنها حتىٰ مع وجودها وفيها خُلق فيه سوء، فإن من الممكن تقويمه.

عاشرًا: هذا يسترعي انتباهنا إلىٰ أهمية الأخلاق في ديننا ودعوتنا إلىٰ الله -جل شأنه-، وكان لرسول الله ﷺ من ذلك المقام الأسمىٰ ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا**

---

(١) مر عليَّ -من باب الطرافة- في هذا الشأن من يقول: إن النَّجَّار يرى كل شيء حوله كرؤوس مسامير تحتاج للدق. وآخر يقول: إن الإسكافي -صانع الأحذية- دائمًا نظره عند اللقاءات إلى أحذية الناس.

(٢) صحيح البخاري (٢/ ١٢٢) رقم (١٤٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالى عنه-.

(٣) في سنن أبي داود «عن أم أبان بنت الوازع بن زارع، عن جدها، زارع وكان في وفد عبد القيس قال: لما قدمنا المدينة فجعلنا نتبادر من رواحلنا، فنقبّل يد النبي ﷺ ورِجْله، قال: وانتظر المنذر الأشج حتى أتى عيبته فلبس ثوبيه، ثم أتى النبي ﷺ فقال له: «إن فيك خلتين يحبهما الله، الحلم والأناة»؛ قال: يا رسول الله! أنا أتخلق بهما أم الله جبلني عليهما؟ قال: «بل الله جبلك عليهما»؛ قال: الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله». قال الألباني: حسن، دون ذِكْر الرجلين (٤/ ٣٥٧) رقم (٥٢٢٥). وأصله في صحيح مسلم (١/ ٤٨) رقم (٢٥).

عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران:١٥٩]، و﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١٢٨]؛ فذكر -جل شأنه- خلق الرأفة والرحمة، ثم عمم فقال الله -تعالىٰ- في مقام الثناء علىٰ المصطفىٰ ﷺ: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ [القلم:٣]. ولا شك أن الرسول ﷺ له المنزلة الفضلىٰ في العبادة صلاةً وصيامًا وصدقة وذكرًا وغيرها، لكن جاء سياق الثناء في مجال الأخلاق لسموه، ولمقامه في نفع الآخرين.

ومن أراد التأسي بالنبي ﷺ فليكن في مقدمة ما يتأسىٰ به خُلُقه ﷺ، وإن لمن المحزن أن يغفل كثير من المسلمين في واقعهم عن التأسي بالنبي ﷺ في جانب الأخلاق، ويعتقدوا أن تمام التأسي وأعلاه في جانب الشعائر، ولا شك أن الرسول الكريم ﷺ أسوة لنا في الشعائر وفي الأخلاق، لكن أن ينصرف الناس إلىٰ جانب في غفلة عن جانب آخر لا يقل أهمية، هو مما ينبغي التنبيه إليه، والتذكير بأهميته. حتىٰ صار البعض من المسلمين فتنة للذين كفروا بسبب هذا التجافي، والله أعلم.

حادي عشر: إن التنشئة علىٰ الأخلاق تكون من الصغر، فهاهم الأنبياء -عليهم السلام-، بدأوا -بتسديد إلهي- سُلَّم الأخلاق من أوله فنشأوا علىٰ السكينة والوقار والرحمة واللطف والتواضع ولين الجانب، منذ الصغر، وترقىٰ كلّ منهم في هذا السلم بأمان، وبمنهج قويم؛ آتىٰ أحسن الثمار.

ثاني عشر: وأيضًا أقول: إن تحصيل أي فن، والإبداع فيه، يكون بالبدء فيه من أول درجات السلم، فطالب العلم الشرعي مثلًا يبدأ بالكتب المختصرة ومع أستاذ يراجع معه بعض رؤوس المسائل ثم يرتقي، إلىٰ كتاب أعلىٰ وهكذا، أما من يستعجل، فغالبًا ما يفشل، ومن القواعد أن (مَن استعجل شيئًا قبل أوانه عُوقِب بحرمانه).

ثالث عشر: إن التنشئة علىٰ الأخلاق تكون علىٰ التدريب العملي، لا علىٰ التنظير المجرد فحسب، فمهما ألقىٰ الشخص من محاضرات لن يكون لها الأثر، مثل التربية العملية علىٰ الخلق الفاضل.

وليس هذا قاصرًا علىٰ الأخلاق؛ بل نأخذه علىٰ عمومه، -كما مر- فالتدريب مهم جدًّا، والشركات الناجحة في هذا العصر تهتم بتدريب موظفيها؛ بل إنها تُفضّل الموظف المتدرب علىٰ غير المتدرب، ولو كان الأول أقل شهادة أو أقل معدلًا في درجاته، فعلىٰ الشاب الذي يسعىٰ لتطوير نفسه أن يهتم بالتدريب العملي في مجاله، ويطوّر مهارته بالتركيز علىٰ التدريب.

رابع عشر: فيه تواضع الرسول ﷺ والتَّصريح بمنّة الله عليه؛ حيث ذكر بداية حياته ورعيه للأغنام. وهذا هو الواجب علىٰ المسلم أن يستذكر دائمًا نعمة الله عليه -جل شأنه- الذي هداه بعد الضلالة، وعلّمه بعد الجهل، وقوّاه بعد الضعف، وأغناه بعد الفقر، فهذا مما يدعو إلىٰ شكر نعمة ربه عليه، ويذكر ماضيه وضعفه، فلا يتعالىٰ علىٰ الفقير؛ لأنه كان فقيرًا، ولا يتكبر علىٰ صغير؛ لأنه كان صغيرًا.

جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ؛ ليتحدث إليه، فأصابه هيبة وخوف من الرسول ﷺ، فقال ﷺ: «هوِّن عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد»[(١)].

خامس عشر: في رعي النبي ﷺ للغنم علىٰ قراريط لأهل مكة، توجيه للشباب بالعمل والكسب والاعتماد علىٰ النفس وفق المتاح، وإن أطيب الكسب هو ما كان بعمل اليد، وقد ذكر الإمام محمد الحسن الشيباني -رحمه الله تعالىٰ- (أن نوحًا -عليه السلام- كان نجارًا يأكل من كسبه، وأن إدريس -عليه السلام- كان خياطًا،

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢/ ١١٠١)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢/ ٢٣٢)، رقم (٢٦٧٧)، والقديد هو اللحم المملوح المجفف في الشمس كما في النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٤/ ٢٢).

وأن إبراهيم -عليه السلام- كان بزازًا، وأن زكريا -عليه السلام- كان نجارًا[1]، ويقول ابن الجوزي -رحمه الله تعالىٰ-: (كان آدم -عليه السلام- حراثًا، ونوح وزكريا نجارين، وإدريس خياطًا، وإبراهيم ولوط زراعين، وصالح تاجرًا وكان سُلَيْمَان يعمل الخوص، وداود يصنع الدرع ويأكل من ثمنه، وكان مُوسَىٰ وشعيب ومحمد رعاة -صلوات الله عليهم أجمعين-)[2]، والله أعلم بذلك، ومع ذلك لا ننسىٰ أنهم كلهم رعوا الأغنام.

و(كان أَبُو بَكْر وعثمان وعبد الرَّحْمَن بْن عوف وطلحة -رضوان الله تعالىٰ عليهم- بزَّازين[3]، وكذلك مُحَمَّد بْن سيرين وميمون بْن مهران بزازين -رحمهم الله تعالىٰ-، وكان الزبير بْن العوام وعمرو بْن العاص وعامر بْن كريز -رضي الله تعالىٰ عنهم- خزازين[4]، وكذلك أَبُو حنيفة -رحمه الله تعالىٰ-، وكان سَعْد بْن أبي وقاص -رضي الله تعالىٰ عنه- يبري النبل، وكان عثمان بْن طلحة -رضي الله تعالىٰ عنه- خياطًا)[5].

وعن المقدام -رضي الله تعالىٰ عنه-، عن رسول الله ﷺ، قال: «ما أكل أحد طعامًا قط، خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود -عليه السلام-، كان يأكل من عمل يده»[6]؛ ويتأكد استقلال الشخص بأمور المالية عندما يكون من الدعاة إلىٰ الله فلا تميل نفسه إلىٰ أيدي الناس.

---

(١) انظر: محمد الحسن الشيباني، الكسب، تحقيق سهيل زكار، الطبعة الأولى (دمشق: الناشر عبد الهادي حرصوني ١٤٠٠)، (٣٤-٣٥).
(٢) ابن الجوزي، تلبيس إبليس (ص ٢٥٠).
(٣) البز: الثياب، أو متاع البيت من الثياب ونحوها، وبائعه: البزاز. القاموس المحيط (١/ ٥٠٣).
(٤) أي يعملون أو يبيعون الخز، وهي ثياب تنسج من صوف وإبريسم. تاج العروس (١٥/ ١٣٧).
(٥) ابن الجوزي، تلبيس إبليس (ص ٢٥١).
(٦) صحيح البخاري (٣/ ٥٧) رقم (٢٠٧٢).

والداعية يربأ بنفسه أن يعيش علىٰ صدقات الناس وأعطياتهم، ولن يتقبل الناس ممن يومًا يأخذ صدقاتهم، ويومًا يقف يعظهم ويذكِّرهم الآخرة، ويحذِّرهم من الركون إلىٰ الدنيا. ولأجل ذلك لم يكن في مصدر رزق الرسول ﷺ مِنَّةٌ للكفار يذكرونه بها، فقد كان بينهم يعتمد علىٰ نفسه.

المبحث العاشر

حلف الفضول(١)

(١) ذكر ابن هشام وغيره من أصحاب السير وأورد الترمذي في سننه حديث أبي موسى الأشعري -رضي الله تعالى عنه- قصة بحيرى الراهب، والتي ورد فيها سفر أبي طالب ومعه محمد ﷺ في رحلة تجارية إلى الشام ومرورهم بهذا الراهب، وما ذكره الراهب أن الحَجر والشجر كان يسجد لمحمد ﷺ وكان تظله غمامة، وأن الشجرة مالت بأغصانه نحو لما جلسوا تحتها، يستظلون بها، ثم رجوع أبي بكر وبلال -رضي الله تعالى عنهما- بالرسول ﷺ خوفًا عليه بوصية من بحيرى الراهب وبناء على أمْرٍ من أبي طالب بعد ذلك. لكني أعرضت عن هذه الرواية لأمرين:

الأول أنه حديث ضعيف لغرابته. والثاني: أن متن هذا الحديث منكر جدًّا، فيه نكارة في مواضع كثيرة، وهاك مختصرها:

أنه قال لما أقبل محمد ﷺ لم يبقَ شجرة ولا حجر إلا خر ساجدًا، ولا يعني أنني أنكر السجود. لكن لِمَ لمْ تسجد هذه الجمادات إلا في هذا المكان؟

أنه ذكر فيه أن الغمامة تظله، فلِمَ لم تظله إلا في هذا الموضع؟

أن الشجرة مالت عليه لتظله، وأين الغمامة التي ذكر أنه تظله.

أنه ذكر أن جماعة من الروم قدموا لقتله، وأن الراهب ردهم، وهذا حصل كما يقول أمام تجار قريش، فلماذا لم يشتهر؟

أن ذكر أن أبا بكر وبلال كانوا معهم، وأنهم رجعوا به، وأبو بكر أصغر سنًّا من الرسول ﷺ، وعُمر الرسول ﷺ يتراوح حسب اختلاف الروايات ما بين الثامنة والثانية عشرة من عمره، وبلال لم يشتره أبو بكر ويعتقه إلا بعد البعثة عندما أسلم وأصابه العذاب من كفار قريش.

لو كان هذا الأمر حصل أمام الرسول ﷺ، لصار عنده ترقب للنبوة، ولما استغرب مجيء الوحي بغار حراء وأتى خديجة -رضي الله تعالى عنها- خائفًا.

أن هذا الأمر الذي قاله الراهب أمام أبي طالب، لوكان وقع فعلًا لجرى له ذِكْر من الرسول ﷺ لعمه بعد البعثة.

أن ما جرى من تخويف الراهب لأبي طالب -كما في الرواية- لو كان حصل فعلًا لرأينا أبا طالب يمنع ابن أخيه من السفر للشام في التجارة، لما طلبت منه ذلك أم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالى عنها-. =

قال في السيرة الحلبية: (وهو أشرف حلف في العرب. والحلف في الأصل: اليمين والعهد؟ وسمي العهد حلفًا؛ لأنهم يحلفون عند عقده.. تحالفوا علىٰ أن يردوا الفضول علىٰ أهلها، ولا يقر ظالم علىٰ مظلوم: وحينئذ فالمراد بالفضول ما يؤخذ ظلما)[١].

عن عبد الرحمن بن عوف -رضي الله تعالىٰ عنه- أن النبي ﷺ قال: «شهدت حلف المطَّيبين[٢] مع عمومتي وأنا غلام، فما أحبّ أن لي حُمْر النعم، وأني أنكثه[٣]»[٤].

=ومن أراد المزيد في نقد هذه الرواية فعليه بإمام أهل السيرة، من حيث التصحيح والتضعيف وهو الذهبي -رحمه الله تعالى- (سير أعلام النبلاء - السيرة النبوية (ج١ ص ٥٨-٥٩)، وتلخيصه على المستدرك (٢/ ٦٧٢)؛ فقد قال: «أظنه موضوعًا؛ فبعضه باطل»، ونقد ابن كثير في السيرة النبوية لهذه الرواية (١/ ٢٤٣) وما بعدها، وكذلك ابن سيد الناس، عيون الأثر، الطبعة الأولى (بيروت: دار القلم ١٤١٤)، (١/ ٥٥)، وكذلك تعليق محقق الروض الأنف خالد طرطوسي(هامش١/ ٤٣٩). وقد أجاد الدكتور عبد الله بن عبد العزيز الجبرين -رحمه الله تعالى- في نقد هذه الرواية، ومنه نقلت ما ذكرته بعاليه مختصرًا، طالع صحيح السيرة النبوية (١٣٠-١٣٢)، والله أعلم. وهذا يعفينا من دعاوى بعض المستشرقين الذين حاولوا ربط ما جاء به محمد ﷺ من الوحي أنه تلقاه من بحيرى الراهب، وتعلم أصوله في هذا اللقاء، وهذا -بلا شك- كلام ساقط، لكنه قد يروج عند بعض الناس، ومن له هوى، فسقوط الرواية أصلًا يعفينا من تبعتها، والحمد لله رب العالمين.

(١) علي الحلبي، السيرة الحلبية (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون)، الطبعة الثانية، (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٢٧)، (١/ ١٩٠).

(٢) قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث (٣/ ٤٥٦): (يعني حلف الفضول، سمي به تشبيهًا بحلف كان قديمًا بمكة. أيام جرهم، على التناصف، والأخذ للضعيف من القوي، وللغريب من القاطن).

(٣) النكث: نقض العهد. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٥/ ١١٤).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ١٩٣) رقم (١٦٥٥)، وقال محققه الأرناؤوط: «إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبد الرحمن بن إسحاق- وهو المدني- فقد أخرج=

وسبب هذا الحلف أن رجلًا من قبيلة (زَبِيد) باليمن قدم مكة ومعه بضاعة فباعها علىٰ العاص بن وائل السهمي، فأبىٰ أن يعطيه حقه، فاستعدىٰ عليه الزبيدي الأحلاف: عبد الدار ومخزومًا وجمح وسهمًا وعدي بن كعب، فأبوا أن يعينوه علىٰ العاص بن وائل، وزبروه، أي: انتهروه، فلما رأىٰ الزبيدي الشَّرّ، أوفىٰ علىٰ جبل أبي قُبيس، عند طلوع الشمس، وقريش في أنديتهم حول الكعبة، فصاح بأعلىٰ صوته:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائي الدار والنفر

ومحرم أشعث لم يقض عمرته ... يا للرجال وبين الحِجْر والحَجَر

إن الحرام لمن تمت كرامته ... ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب (عم الرسول ﷺ)، وقال: ما لهذا مترك؟، فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان، فصنع لهم طعامًا، وتحالفوا في ذي القعدة في شهر حرام قيامًا، فتعاقدوا، وتعاهدوا بالله: ليكونن يدًا واحدة، مع المظلوم علىٰ الظالم، حتىٰ يُؤدَّىٰ إليه حقه ما بلَّ بحرٌ صُوفَةً، وما رسىٰ حراء وثبير[1] مكانهما.

أما في سبب تسميته بـ(حلف الفضول) فقد قال السهيلي -رحمه الله تعالىٰ-: (روىٰ الحميدي عن سفيان عن عبد الله عن محمد وعبد الرحمن ابني أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنهم-، قالا: قال رسول الله ﷺ: «لقد شهدت في دار عبد الله

=حديثه مسلم في الشواهد»، ومهدي رزق الله، السيرة النبوية (ص ١٣٠)، وقال: وإسناد هذا الحديث صحيح، وراجح الكردي، شعاع من السيرة (ص ٤٢، ٤٣)، وله شواهد حسنها الألباني في صحيح السيرة النبوية (ص ٣٥ و٣٦).

(١) جبلان معروفان في مكة؛ أما الأول فهو الجبل الذي فيه غار حراء، وكان يتحنث فيه الرسول ﷺ قبيل البعثة، ونزلت فيه الآيات الأول من سورة اقرأ، والثاني جبل مطل على مزدلفة، كان الحجاج في الجاهلية يقولون ليلة مزدلفة: أشرق ثبير كيما نغير.

بن جدعان حلفًا لو دُعيت به في الإسلام لأجبت»[١]، تحالفوا أن تُردّ الفضول علىٰ أهلها، وألا يَعُزَّ ظالمٌ مظلومًا.. فسمت قريش ذلك الحلف (حلف الفضول)، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر)[٢].

ثم مشىٰ الذين تحالفوا إلىٰ العاص بن وائل، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي، ودفعوها لصاحبها.

وقد حضر النبي ﷺ هذا الحلف الذي رفعوا به منار حقٍّ، وهدموا صرح ظلمٍ، وهو يُعَدّ من مفاخر العرب. قال السهيلي -رحمه الله تعالىٰ-: (وكان حلف الفضول في ذي القعدة قبل المبعث بعشرين سنة[٣]، وكان حلف الفضول أكرم حلف سُمِع به، وأشْرَفَه في العرب)[٤].

ونقف هنا مع هذا الحلف الوقفات التالية:

أولًا: إن الظلم مما تأباه الفِطَر السليمة، وتنفر من الطباع السوية، وكان من نتائج ذلك هذا الحلف الذي يُعدّ من مفاخر العرب كما قال السهيلي -رحمه الله تعالىٰ-.

وقد جاء الإسلام بالوعيد الشديد علىٰ الظلم؛ قال -تعالىٰ- في قصة ذي القرنيين ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ [الكهف:٨٧]. وقال -تعالىٰ-: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه:١١١].

---

(١) ابن كثير، السيرة النبوية (١/ ٢٥٨)، وابن الملقن، البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير، تحقيق مصطفى أبو الغيط وزميله، الطبعة الأولى (الرياض: دار الهجرة ١٤٢٥)، (٧/ ٣٢٥)، وقال: «هَذَا الحَدِيث صَحِيح»، وعبد الله الجبرين، صحيح السيرة النبوية (١٦٤).

(٢) السهيلي، الروض الأنف (١/ ٣٥٢-٣٥٣).

(٣) وهذا يعني أن عمر الرسول ﷺ عند حضوره كان عشرين سنة.

(٤) السهيلي، الروض الأنف (١/ ٣٥٢-٣٥٣).

ثانيًا: إن الإسلام عَدَّل مفهوم نصرة المظلوم، فقد كانت العرب تنصر المظلوم، ولكنها أحيانًا تنصر الظالم إذا كان من القبيلة، فكما جاء الإسلام بتأكيد تحريم الظلم، جاء بتعديل المفهوم القَبَلي للنصرة، فعن أنس -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»؛ فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلومًا، أفرأيت إذا كان ظالمًا كيف أنصره؟ قال: «تحجزه، أو تمنعه، من الظلم؛ فإن ذلك نصره»[1].

فالإسلام يحارب الظلم، ويرسي قواعد العدالة، ويجعل الناس سواسية في هذا الشأن، وقد أعلن الرسول ﷺ مبدأه العظيم: «وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[2] وحاشاها -رضي الله تعالىٰ وأرضاها- وهي سيدة نساء المؤمنين[3]، وهو يعلم ذلك، لكن ﷺ ضرب بها المثل، ليقطع ويجتث صور الجاهلية التي تأخذ من الضعيف وتترك القوي.

ثالثًا: إن من شأن النفوس المتكبرة، الظلم والعدوان إذا تركت، وتجردت من الدين والأخلاق[4]، وقد عانىٰ هذا الرجل الزبيدي من شخص من هذا الصنف؛

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (٩/ ٢٢) رقم (٦٩٥٢)، واللفظ له، وصحيح مسلم (٤/ ١٩٩٨ رقم ٢٥٨٤ من حديث جابر -رضي الله تعالى عنه-.

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري (٤/ ١٧٥) رقم (٣٤٧٥)، وصحيح مسلم (٣/ ١٣١٥) رقم (١٦٨٨) من حديث أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها-.

(٣) قال لها ﷺ: «يا فاطمة، ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة» متفق عليه: صحيح البخاري (٨/ ٦٤) رقم (٦٢٨٥)، وصحيح مسلم (٤/ ١٩٠٤) رقم (٢٤٥٠) من حديث أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها-.

(٤) قال تعالى عن الإنسان: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾؛ أي إنه كان مفْرِطًا في الظلم مبالغًا في الجهل، أي بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة أو اعترافهم السابق دون من عداهم من الذين لم يبدلوا فطرة الله) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، (٧/ ١١٨).

ظالم متكبر من متكبري قريش، العاص بن وائل[1]، وترددت بعض القبائل في نصرة هذا المظلوم؛ إما تعظيمًا لمكانة هذا الظالم، أو خوفًا منه، ولكنَّ الله قيَّض له هذا الحلف -الذي أثنىٰ عليه الرسول ﷺ- لينُصر به كل مظلوم، ثم لما جاء الإسلام جعل المؤمنين كلَّهم، يدًا واحدة في وجه الظالم، يقول أبو بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ وأرضاه- سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا علىٰ يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»[2]، ومعنىٰ يأخذوا علىٰ يديه أي: لم يمنعوه من ظلمه.

وإذا لم يجد المظلوم من ينصره فإن الله -عز وجل- ناصره قال ﷺ لمعاذ -رضي الله تعالىٰ عنه- عندما بعثه إلىٰ اليمن «واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب»[3]. حتىٰ ولو كان المظلوم كافرًا[4].

رابعًا: يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (والتحالف عام لبني آدم وهم في جاهليتهم تارة يتحالفون تحالفًا يحبه الله كما قال النبي ﷺ: «لقد شهدت حلفًا مع عمومتي في دار عبد الله بن جدعان ما يسرني بمثله حمر النعم، أو قال: ما يسرني حمر النعم وأن أنقضه، ولو دعيت إلىٰ مثله في الإسلام لأجبت»[5]، وفي مثل هذا ما رواه مسلم -رحمه الله تعالىٰ- عن جبير بن مطعم -رضي الله تعالىٰ عنه- عن النبي ﷺ

(١) وقد تكرر منه هذا الموقف ونزل فيه قول الله -تعالى-: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ (سورة طه: ٧٧ -٨٠). تفسير ابن كثير (٥/ ٢٥٩).

(٢) رواه الترمذي في سننه وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٥/ ١٦٧) رقم (٢١٦٨).

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري (٢/ ١٢٨) رقم (١٤٩٦)، وصحيح مسلم (١/ ٥٠) رقم (١٩) من حديث ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-.

(٤) انظر: ابن القيم طريق الهجرتين، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار السلفية ١٣٩٤)، (٣٥٥).

(٥) سبق تخريج الحديث في بداية هذه المسألة.

أنه قال: «لا حلف في الإسلام، وما كان من حلف في الجاهلية فلم يزده الإسلام إلا شدة»[١]. فأما إذا كان القول على الشريعة التي بعث الله بها رسوله في دينهم ودنياهم، فإن ذلك يغنيهم عن التحالف إلا عليها، فعليها يكون تحالفهم وتعاقدهم وتعاونهم وتناصرهم كما وصف الله به المحبين المحبوبين في قوله -تعالىٰ-: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة:٥٤]»[٢].

خامسًا: إن المسلمَ عادلٌ، حتىٰ مع خصمه، فنبينا محمد ﷺ جاء ليواجه هذه الجاهلية في بلاد العرب، فلم يُعادها جملةً وتفصيلًا، وينكر ما فيها من الخير، بل أقر ما فيها من الخير، واعترف بالفضل لأهله، ولو كانوا خصومًا له، ولو كانوا يعلنون العداوة والحرب عليه، فهو يثني علىٰ هذا الحلف؛ ليعلمنا أن نكون عادلين مع خصومنا، وأن نقبل الحق الذي مع غيرنا، ولا تدفعنا العداوة إلىٰ تجاهل الخير مع الخصم.

والرسول ﷺ يقول: «إنما بُعِثْتُ؛ لأتمِّم مكارمَ الأخلاقِ»[٣]، فهو يقول: إن في الجاهلية أخلاقًا حسنة، وأنه جاء ليكمّلها ويُتمها، ولم ينكر ما عليه الجاهلية من أخلاق حسنة لمجرد أنهم عادوه وحاربوه.

ولذلك من النصيحة لكل مسلم بأن يكون عادلًا حتىٰ مع خصمه، قال -تعالىٰ- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء:١٣٥]. وقال -تعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ

---

(١) صحيح مسلم (٤/ ١٩٦٢) رقم (٢٥٣٠).

(٢) ابن تيمية جامع الرسائل ابن تيمية تحقيق محمد رشاد سالم، الطبعة الأولى (الرياض: دار العطاء ١٤٢٢) (٢/ ٣١٠-٣١٣).

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٩٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢/ ٢٨٥)، حديث (رقم ٢٣٤٥).

﴿لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٨].

وعن قتيلة [١] -رضي الله تعالىٰ عنها-: أن يهوديًّا أتىٰ النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئتَ، وتقولون: والكعبة، «فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت»[٢].

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمهم الله تعالىٰ- في شرحه لهذا الحديث: (وفيه قبول الحق ممن جاء به وإن كان عدوًّا مخالفًا في الدين)[٣].

سادسًا: الأمر الأخير الذي نستفيده هنا، هو أن المسلم داعية خير، يساند كل من يدعو إلىٰ الخير؛ لأنه أولىٰ به، فكل من دعا إلىٰ خير للمجتمع؛ فالمسلم عون له ومناصر له ومعين؛ (قدم الرسول ﷺ المدينة فرأىٰ اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجىٰ الله بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسىٰ، قال: فأنا أحق بموسىٰ منكم، فصامه وأمر بصيامه»[٤].

فإذا رأيت من يدعو إلىٰ خير للمجتمع المسلم أو نفع للأمة الإسلامية فكن أول مناصر له ومؤيد.

(١) هي قتيلة بنت صيفي، من جهينة، كانت من المهاجرات الأول. انظر: الإصابة لابن حجر (٨/ ٢٨٤).

(٢) أخرجه النسائي في سننه المطبوعة مع شرح السيوطي (٧/ ٦)، والإمام أحمد في مسنده (٦/ ٣٧١ / ٣٧٢)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٩٧)، وقال: صحيح الإسناد، ولم يتعقبه الذهبي في التلخيص، وقال ابن حجر في الإصابة (٨/ ٢٤٨): «أخرجه النسائي وسنده صحيح»، وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (ص ٥٤٥)، حديث (رقم ٩٨٦)، وقال محقق الكتاب فاروق حمادة : (حديث صحيح).

(٣) سليمان بن عبد الله بن عبد الوهاب، تيسير العزيز الحميد (ص ٦٠٠).

(٤) البخاري، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٤/ ٢٤٤)، (رقم ٢٠٠٤).

ودعوة الإسلام جاءت؛ لتعلِّم المسلمين أن يكونوا متعاطفين مع كل بادرة خير، ولا يكتفي بما يبدأ به هو، ويهمل ما عند الآخرين من الخير[١].

يقول الرسول ﷺ في صلح الحديبية: «والذي نفسي بيده لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها»[٢]، فما دامت القضية تتوافق مع أهداف الرسول ﷺ فسيقبلها ويناصرها ويؤيدها، ويقسم علىٰ ذلك أيضًا ﷺ، والرسول ﷺ هو القدوة لنا، فمتىٰ رأينا خيرًا أيّدناه ووقفنا معه وناصرناه.

يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- في زاد المعاد: (إن المشركين، وأهل البدع والفجور، والبغاة والظلمة، إذا طلبوا أمرًا يُعظّمون فيه حرمة من حرمات الله -تعالىٰ- أُجيبوا إليه وأُعطوه، وأُعينوا عليه، وإن منعوا غيره، فيعاونون علىٰ ما فيه تعظيم حرمات الله -تعالىٰ- لا علىٰ كفرهم وبَغيهم، ويُمنعون مما سوىٰ ذلك، فكلّ مَن التمس المعاونة علىٰ محبوب لله -تعالىٰ- مُرْضٍ له، أجيب إلىٰ ذلك، كائنًا من كان، ما لم يترتب علىٰ إعانته علىٰ ذلك المحبوب مبغوض لله أعظم منه، وهذا مِن أدق المواضع وأصعبها، وأشقها علىٰ النفوس)[٣].

(١) انظر: راجح الكردي، شعاع من السيرة (ص ٤٣).
(٢) الإمام البخاري، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٥/ ٣٢٩)، حديث (رقم ٢٧٣١).
(٣) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد (٣/ ٣٠٣).

المبحث الحادي عشر

زواجه ﷺ بأم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالى عنها-

هي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزىٰ بن قصي بن كلا ب، فهي تلتقي مع الرسول ﷺ في قصي بن كلاب. وهي أقرب إلىٰ قصي منه ﷺ بأب واحد[(١)].

وكانت خديجة -رضي الله عنها- (أم المؤمنين وسيدة نساء العالمين في زمانها، أم القاسم القرشية الأسدية، أم أولاد رسول الله ﷺ، وأول من آمن به وصدّقه قبل كل أحد، وثبّتت جأشه، ومضت به إلىٰ ابن عمها ورقة، ومناقبها جمّة، وهي ممن كَمُل من النساء، كانت عاقلة جليلة ديِّنة مصونة كريمة من أهل الجنة، وكان النبي ﷺ يُثني عليها ويُفضّلها علىٰ سائر أمهات المؤمنين، ويبالغ في تعظيمها)[(٢)].

وكانت خديجة أولًا تحت أبي هالة بن زرارة التميمي، ولما مات خلف عليها بعده عتيق بن عابد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وبقيت معه حتىٰ مات، وقد أنجبت من كل منهما[(٣)].

---

(١) سيرة ابن هشام المطبوعة مع الروض (١/ ٤٤٧).

(٢) هذا نص كلام الذهبي -رحمه الله تعالى- في سير أعلام النبلاء (٢/ ١٠٩-١١٠).

(٣) هناك خلاف في أيهما تزوج خديجة -رضي الله تعالى عنها- أولاً، وقد أخذت برأي الذهبي هنا، انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١١١)، وأسد الغابة لابن الأثير، تحقيق علي محمد معوض وزميله، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٥)، (٧/ ٨٠)، والسهيلي، الروض الأنف (١/ ٤٥١)، وموسى لاشين، فتح المنعم شرح صحيح مسلم (٩/ ٣٦٩).

فلما بلغها صدق الرسول ﷺ وعِظَم أمانته، وكرم أخلاقه، رغبت في أن يخرج بمالها إلىٰ الشام يتاجر به فقَبِل ذلك، وخرج ﷺ مع غلام لها يقال له: مَيْسَرة[1].

وقد رأىٰ ميسرة في رحلته هذه مع النبي ﷺ عددًا من الآيات، وشاهَد أخلاق الرسول ﷺ وطيب سجاياه، وصدق لهجته، وعظيم أمانته، فنقل ذلك إلىٰ خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- بعد عودته من تلك الرحلة التجارية الرابحة.

ولما سمعت خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- من غلامها ميسرة هذا الثناء، وتأكد لها ما سمعته عن محمد ﷺ من قَبْلُ، رغبت في الزواج منه ﷺ، وكان عمره خمسًا وعشرين سنة.

أما عمرها -رضي الله تعالىٰ عنها-، فقد اشتهر في كتب السير أن الرسول ﷺ تزوج خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- وعمرها أربعون سنة، ولكن ليس هناك قول ثابت عن الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-، يُعَوَّل عليه، فالخلاف دائر بين أهل السِّير وجملته تنحصر في ثلاثة أقوال:

القول الأول: القول المشهور وهو أنه تزوجها -ﷺ ورضي عنها- وعمرها أربعون سنة وممن قال بذلك، ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ- في الطبقات[2]، وابن عبد البر -رحمه الله تعالىٰ- في الاستيعاب[3]، وابن الأثير في أُسْد الغابة[4]، وابن حجر في الإصابة[5]،

(١) قال ابن حجر في الإصابة (٦/ ١٨٩) عن ميسرة: «كان رفيق النبيّ صلى اللّٰه عليه وآله وسلم في تجارة خديجة قبل أن يتزوجها، وحكى بعض أدلة نبوته، وترجم له ابن عساكر، ولم أقف على رواية صريحة بأنه بقي إلى البعثة، فكتبته على الاحتمال».

(٢) انظر: ابن سعد، الطبقات (١/ ١٣٢ و٨/ ١٦).

(٣) انظر: ابن عبد البر، الاستيعاب (١/ ٣٥ و٤/ ١٨١٨).

(٤) انظر: ابن الأثير، أسد الغابة (٧/ ٨٠).

(٥) انظر: ابن حجر، الإصابة (٨/ ١٠٠و١٠١).

والصالحي في سبل الهدىٰ[١]، ومُلاَّ علي القاري في جمع الوسائل[٢].

أما **القول الثاني**: فإنها دون الأربعين: روىٰ الحاكم -رحمه الله تعالىٰ- في المستدرك من طريق إبراهيم بن سعد الزهري عن محمد بن إسحاق أن الرسول ﷺ تزوجها وعمرها يومئذ ثمانٍ وعشرين سنة[٣]. ثم ذكر في الحديث الذي يليه عن هشام بن عروة -رحمه الله تعالىٰ- أنه قال: (توفيت خديجة بنت خويلد -رضي الله عنها- وهي ابنة خمس وستين سنة)، وعقّب علىٰ ذلك الحاكم -رحمه الله تعالىٰ- بقوله: (هذا قول شاذ، فإن الذي عندي أنها لم تبلغ ستين سنة)[٤].

وهذا يعني أنها عمرها -رضي الله تعالىٰ عنها- عند الزواج دون الخامسة والثلاثين سنة.

قال البيهقي -رحمه الله تعالىٰ- في دلائل النبوة: (قال أبو عبد الله (يعني الحاكم) -رحمه الله تعالىٰ-: قرأت بخط أبي بكر بن أبي خيثمة -رحمه الله تعالىٰ- قال: حدثنا مصعب بن عبد الله الزبيري -رحمه الله تعالىٰ- قال: ثم بلغت خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- خمسًا وستين سنة، ويقال خمسين سنة، وهو أصح)[٥]. وهذا يعني أن عمرها عند الزواج خمسًا وعشرين سنة.

وقال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (نقل البيهقي عن الحاكم أنه كان عمر رسول الله ﷺ حين تزوج خديجة خمسًا وعشرين سنة، وكان عمرها إذ ذاك خمسًا وثلاثين، وقيل خمسًا وعشرين سنة)[٦]. وقال: (وعن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ

---

(١) انظر: الصالحي، سبل الهدى (١١/ ١٥٦).
(٢) انظر: ملا علي القاري، جمع الوسائل في شرح الشمائل (١/ ٣٢).
(٣) انظر: الحاكم، المستدرك (٣/ ٢٠٠) رقم (٤٨٣٧).
(٤) انظر: الحاكم، المستدرك (٣/ ٢٠١) رقم (٤٨٣٨).
(٥) البيهقي، دلائل النبوة (٢/ ٧١).
(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله التركي (٢/ ٢٩٥).

عنهما- كان عمرها ثماني وعشرين سنة. رواه ابن عساكر)[1].

وعليه فإن الذين قالوا إنها دون الأربعين لهم ثلاثة آراء:

أ. خمس وثلاثون سنة.

ب. ثمان وعشرون سنة.

ج. خمس وعشرون سنة.

يقول الدكتور أكرم العمري: (ويذهب ابن إسحاق إلىٰ أن خديجة كانت في الثامنة والعشرين من العمر، في حين تذهب رواية الواقدي إلىٰ أنها كانت في الأربعين، وقد أنجبت خديجة من رسول الله ذكرين وأربع إناث؛ مما يرجح رواية ابن إسحاق، فالغالب أن المرأة تبلغ سن اليأس من الإنجاب قبل الخمسين)[2].

ومادام أن المسألة ليس فيها قول مأثور يعتمد عليه، فلا بد من الرجوع إلىٰ القرائن: وعندنا منها ما يلي:

١. إنه يبعد -عُرفًا- أن يتزوج شاب عمره خمسًا وعشرين سنة امرأة عمرها أربعين سنة.

٢. إن خديجة أنجبت ستة أولاد، ويبعد طبيًا أن تنجب المرأة ستة أولاد بعد سن الأربعين، وقد طالعت عددًا من المقالات الطبية في هذا الشأن، وكلها تتفق علىٰ انخفاض نسبة خصوبة المرأة التي قارب عمرها أربعين سنة، ثم تستمر في الانخفاض بعد ذلك كلما تقدم بها السن.

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، (٥/ ٢٩٣).

(٢) أكرم العمري، السِّيرةُ النَّبَويَّةُ الصَّحيْحَةُ مُحَاوَلَةٌ لِتَطبِيْقِ قَوَاعِدِ المُحَدِّثِيْنَ فِيْ نَقْدِ روَايَاتِ السِّيْرَةِ النَّبَويَّةِ، الطبعة السادسة (المدينة: مكتبة العلوم والحكم ١٤١٥) (ص ١١٣).

٣. إن المعهود في العرب تزويج بناتهن وهن صغيرات، فتتزوج وعمرها خمسة عشر عامًا، بل أصغر من ذلك، كما سنراه في تزويج بنات النبي -ﷺ ورضي الله تعالىٰ عنهن-، وفي بعض أمهات المؤمنين -رضي الله تعالىٰ عنهن-. ولذلك فقد تكون تزوجت خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- زواجها الأول وعمرها خمسة عشر عامًا، ثم تزوجت زواجها الثاني، وتكون تزوجها الرسول ﷺ بعد أن تجاوزت خمسًا وعشرين سنة.

٤. إنه اشتهر أن خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، كانت أسن من الرسول ﷺ، وعليه فإن أقرب الأقوال أنها كانت ما بين الثمانية والعشرين إلىٰ الثلاثين، أو نحو ذلك.

أما القول بالأربعين فبعيد، والله أعلم[١].

وقد تعددت الروايات في كيفية الخِطْبة، ومن الذي تولىٰ عقد الزواج، والأكثر علىٰ أن الذي تولىٰ عقد الزواج هو عمها عمرو بن أسد، بل نقل بعضهم الإجماع علىٰ ذلك[٢]؛ لوفاة والدها خويلد بن أسد قبل حرب الفجار[٣].

---

(١) للمزيد انظر: عبد الله بن عبد العزيز الجبرين صحيح السيرة النبوية القسم الأول (ص١٩١)، ومحمد بن عبد الله العوشن ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية (ص ١٨). وصلاح الإدلبي مقال منشور في موقع رابطة العلماء السوريين بتاريخ (٢/ ٢/ ١٤٤٠)، بعنوان (مقدار عمر السيدة خديجة يوم الزواج).

(٢) قال ابن كثير في السيرة النبوية (١/ ٢٦٧): (قال المؤملي: المجتمع عليه أن عمها عمرو بن أسد هو الذي زوجها منه. وهذا هو الذي رجحه السهيلي). الروض الأنف (١/ ٤٤٨)، وحكاه عن ابن عباس وعائشة -رضي الله تعالى عنهما-، قالت: وكان خويلد مات قبل الفجار».

(٣) انظر: الشامي، سبل الهدي والرشاد ٢/ ٢٢٢، وابن سعد، الطبقات (١/ ١٠٦و٨/ ١٣)، والقسطلاني، المواهب اللدنية (١/ ١٩٠، ١٩١)، والحاكم: المستدرك (٣/ ١٨٢)، والسهيلي، الروض الأنف (١/ ٤٥١).

فضائل خديجة بنت خويلد رضي الله عنها:

١. إنها -رضي الله تعالىٰ عنها- أول من آمن بالرسول ﷺ علىٰ الإطلاق[١]. قال ابن الأثير -رحمه الله تعالىٰ-: (أول خلق الله أسلم بإجماع المسلمين، لم يتقدمها رجل ولا امرأة)[٢].

٢. قال رسول الله ﷺ: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة»[٣]، وأشار وكيع -رحمه الله تعالىٰ- إلىٰ السماء والأرض، قال النووي -رحمه الله تعالىٰ-: (أراد وكيع-رحمه الله تعالىٰ- بهذه الإشارة تفسير الضمير في نسائها، وأن المراد به جميع نساء الأرض أي كل من بين السماء والأرض من النساء، والأظهر أن معناه أن كل واحد منهما خير نساء الأرض في عصرها، وأما التفضيل بينهما فمسكوت عنه، قال القاضي: ويحتمل أن المراد أنهما من خير نساء الأرض، والصحيح الأول)[٤]. والسكوت عما سكت عنه النص أولىٰ، ويكفي أن كلا منهما نال شرف هذه الشهادة بالخيرية.

٣. عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-، قال: خطَّ رسول الله ﷺ في

---

(١) قال ابن عبد البر في الدرر في اختصار المغازي والسير تحقيق شوقي ضيف، الطبعة الثانية (القاهرة: دار المعارف ١٤٠٣)، (ص٣٨) «فكان أول من آمن بالله ورسوله فيما أتت به الآثار وذكره أهل السير والأخبار، منهم ابن شهاب وغيره، وهو قول موسى بن عقبة ومحمد بن إسحاق ومحمد بن عمر الواقدي وسعيد بن يحيى بن سعيد الأموي، وغيرهم، خديجة بنت خويلد زوجته ﷺ»، وقال السهيلي الروض الأنف تحقيق عمر السلامي (٢/ ٢٨٩): «ولا يختلف أن خديجة هي أول من آمن بالله وصدق رسوله» انظر: الماوردي (٤٥٠)، أعلام النبوة (٢٣٨)، البيهقي (٤٥٨)، دلائل النبوة (٢/ ١٦٣).

(٢) ابن الأثير، أسد الغابة (٧/ ٨٠).

(٣) متفق عليه، الإمام البخاري، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٦/ ٤٧٠)، حديث (رقم ٢٤٣٢)، والإمام مسلم، صحيح مسلم (٤/ ١٨٨٦)، (حديث ٢٤٣٠). من حديث علي ابن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه-.

(٤) النووي، شرح صحيح مسلم (١٥/ ١٩٨). وابن حجر فتح الباري (٩/ ١٢٥).

الأرض أربعة خطوط، قال: «تدرون ما هذا؟»؛ فقالوا: الله ورسوله أعلم. فقال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران»[١].

٤. عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: ما غرت علىٰ نساء النبي ﷺ إلا علىٰ خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، وإني لم أدركها، قالت: وكان النبي ﷺ إذا ذبح الشاة يقول: «أرسلوا بها إلىٰ أصدقاء خديجة»؛ فأغضبته يومًا فقلت: خديجة؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني قد رُزقت حبّها»[٢]، قال النووي -رحمه الله تعالىٰ-: قوله ﷺ: «رُزقت حبّها» فيه إشارة إلىٰ أن حبها فضيلة حصلت[٣]. فمحبته ﷺ لخديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، يسميه الرسول الكريم رزقًا رزَقه الله له، وأيّ تشريف لها بعد هذا؟!

٥. عن أبي هريرة ﷺ قال: (أتىٰ جبريلُ -عليه السلام- النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! هذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها -عز وجل- ومني، وبَشِّرْها ببيت في الجنة من قصب[٤] لا صخب فيه ولا نصب»[٥].[٦]، قال القسطلاني -رحمه الله تعالىٰ- عند قوله:

(١) أحمد، المسند (٤/ ٤٠٩) رقم (٢٦٦٨). وقال المحقق: «إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح»، وأحمد، فضائل الصحابة تحقيق وصي الله عباس) بيروت، مؤسسة الرسالة (١٤٠٣)، (٢/ ٧٦٠) رقم (١٣٣٩).

(٢) الإمام مسلم، صحيح مسلم (٤/ ١٨٨٨)، حديث (رقم ٢٤٣٥).

(٣) النووي، شرح صحيح مسلم (١٥/ ٢٠١).

(٤) القصب هنا: اللؤلؤ المجوف الواسع كالقصر المنيف.

(٥) ولا نصب أي: لا مشقة ولا تعب. النووي، شرح صحيح مسلم (١٥ / ٥٧١- ٥٧٢).

(٦) الإمام مسلم، صحيح مسلم (٤/ ١٨٨٧)، حديث (رقم ٢٤٣٢).

قال شاعر مكة إبراهيم خفاجي -رحمه الله تعالى- :

أخديجة الكبرى كفاك تحيةٌ ... ذو العرش بلَّغها أمينٌ مُخْبِرُ

والبيت من قصب تفوح عبقه ... على الجنان مطرز ومشجر

انظر: الطاهرة الرشيدة خديجة أم المؤمنين رضي الله تعال عنها محمود بخش (ص ٧٤).

«فاقرأ عليها السلام»: (وهذا لعمر الله خاصة لم تكن لسواها)[1].

٦. وزاد الإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ- في المسند علىٰ حديث أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- السابق قول الرسول ﷺ: «ما أبدلني الله -عز وجل- خيرًا منها؛ قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله -عز وجل- ولدها إذ حرمني أولاد النساء»[2].

٧. إن الله -جل شأنه- أكرمها بأن عاشت زوجة للرسول ﷺ خمسًا وعشرين سنة، أي ربع قرن وهي تقوم بحقوق الزوجية له ﷺ، وهذا لم يقع لأي من زوجات الرسول ﷺ سواها -رضي الله تعالىٰ عنها وأرضاها-.

وبعد هذا أقف لأقول:

١. سَبْقُ خديجة للإسلام -والذي سيأتي له حديث لاحق إن شاء الله -تعالىٰ- فضيلة؛ بل خصيصة عظيمة لأم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (ومما اختصت به سبقها نساء هذه الأمة إلىٰ الإيمان، فسَنَّت ذلك لكل من آمن بعدها فيكون لها مثل أجرهن لما ثبت «أن من سنَّ سنة حسنة»[3]. وقد شاركها في ذلك أبو بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- بالنسبة للرجال، ولا يُعرف قدر ما لكل منهما من الثواب بسبب ذلك إلا الله -عز وجل»[4].

٢. تأمل قول الذهبي السابق -رحمه الله تعالىٰ-: (وثبّتت جأشه)؛ فقد اختصت خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- بتثبيت جأشه يوم كان وحيدًا لا ناصر له

(١) القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، الطبعة السابعة، (مصر: المطبعة الكبرى الأميرية ١٣٢٣)، (١/ ١٦٩).
(٢) الإمام أحمد، المسند (٤١/ ٣٥٦)، (رقم٢٤٨٦٤)، وقال محقق المسند: «حديث صحيح، وهذا سند حسن في المتابعات».
(٣) صحيح مسلم (٤/ ٢٠٥٩) رقم (١٠١٧). من حديث جرير بن عبد الله -رضي الله تعالى عنه-.
(٤) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ١٣٧).

من البشر، فلم تكتفِ بالإيمان، بل ثبتت جأشه وهذه إذا عُدَّت خصائصها -رضي الله تعالىٰ-، عُدَّ منها هذه الخصيصة التي لم تكن لأحد غيرها.

٣. ذكر السهيلي -رحمه الله تعالىٰ- حكمةً لتبشير خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- «ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب»: بأن نفي هاتين الصفتين كان لحكمة لطيفة أنه ﷺ لما دعاها إلىٰ الإيمان أجابت خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- طوعًا فلم تُحوجه إلىٰ منازعة ولا صخب ولا تعب، بل أزالت عنه كل تعب، وآنسته من كل وحشة وهوّنت عليه كل عسير؛ فناسب أن يكون منزلها الذي بشَّرها به ربها، بالصفة المقابلة لفعلها وصورة حالها -رضي الله تعالىٰ عنها-، ومن خواصها -أيضًا رضي الله تعالىٰ عنها- أنها لم تسؤه قط ولم تغاضبه[1]. وهذا الجزاء لها من جنس العمل، وقاعدة الجزاء من جنس العمل كثيرة، مثل: «من بنىٰ مسجدًا لله، بنىٰ الله له في الجنة مثله»[2]، و«من كان في حاجة أخيه فإن الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة فرّج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة»[3].

٤. وفيما يتعلق بطريقة هذا الزواج المبارك فإن خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- لما تواتر عندها من الأخبار عن صدق الرسول ﷺ، وعن أمانته، فبعثت إليه؛ ليتاجر لها، وبعثت معه غلامها ميسرة، فعاد هذا الغلام يُحدّثها بما رأىٰ عيانًا من الصدق والأمانة، وحُسْن الخُلُق، وهذا يكشف لنا رجاحة عقل هذه المرأة التي بادرت إلىٰ التعامل مع الرسول ﷺ لما علمت أمانته، ثم ازدادت قناعتها بفضله وشرفه ونزاهته وصدقه لما أخبرها غلامها ميسرة الذي سافر مع الرسول ﷺ مدة من الزمن، ورأىٰ منه في السفر الصدق والأمانة.

(١) انظر: السهيلي، الروض الأنف تحقيق الوكيل (٢/ ٤٢٩).
(٢) صحيح مسلم (٥٣٣) من حديث عثمان بن عفان -رضي الله تعالى عنه-.
(٣) رواه أبو داود في سننه (٤٨٩٣) من حديث ابن عمر، وصححه الألباني.

٥. وكما نقف عند عظمة هذا المرأة -رضي الله تعالىٰ عنها- وحُسن تدبيرها، فإننا نستفيد درسًا في التأني وترك العجلة، يقول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح للأشج (أشج عبد القيس): «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»[(١)]، يقول الإمام النووي -رحمه الله تعالىٰ- في شرحه لهذا الحديث: (وأما الحلم فهو العقل، وأما الأناة فهي التثبت وترك العجلة)[(٢)].

٦. أما الدرس الثاني فهو كيفية التعرُّف علىٰ الأشخاص، فليس من السهل التعرف علىٰ الشخص من خلال لقاء عابر، أو جلسات عادية لا تكشف الحقيقة، فكم من شخص تعمل معه سنوات، في وظيفة حكومية، أو نحوها، تظن فيه الخير والأمانة والصدق، ولو اختبرته في مال، أو سافرت معه سفرًا فيه مشقة، لزهدت فيه. فالتعرف علىٰ الأشخاص وإعطاء الرأي فيهم ليس بالسهل، وقد شهد رجل عند عمر رضي الله عنه، فقال: من يزكيك؟ قال رجل: أنا، فقال: هل سافرت معه؟ فقال: لا، قال: عاملته بالدرهم والدينار؟ قال: لا، قال: والله الذي لا إله إلا هو ما تعرفه[(٣)]، فالسفر هو الذي يكشف حقيقة الرجل، ويظهر خفاياه، ولذلك فالداعية يأخذ من أناة خديجة -رضي الله عنها- درسًا دعويًّا مفيدًا في التأني وعدم العجلة.

٧. ورد في بعض كتب السير أن زواج الرسول ﷺ بخديجة -رضي الله عنها- كان بدايته عرضًا منها بواسطة بعض معارفها علىٰ الرسول ﷺ الزواج منها، وهذا أمرٌ يذكّرنا بأهمية حرص الأولياء علىٰ تزويج بناتهن ولو عن طريق العرض، فقد كسبت خديجة -رضي الله عنها- بهذا الزواج شرفًا عظيمًا؛ بل الشرف الأعظم، وأصبحت زوجة لسيد ولد آدم -عليه وعلىٰ نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم-، وأُمًّا

---

(١) صحيح مسلم المطبوع مع شرح النووي (١/ ١٨٩).
(٢) النووي، شرح صحيح مسلم (١/ ١٨٩).
(٣) انظر: ابن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب (ص ٢٣٠).

للمؤمنين؛ وأُمًّا لـ «سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة»[1]. ولقد رأينا مثل هذا العرض يرد في القرآن الكريم في قصة موسىٰ -عليه السلام- مع صاحب مدين ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ [القصص:٢٧-٢٨]؛ فإن هذا الأب لهاتين البنتين لما رأىٰ هذا الرجل الصالح موسىٰ -عليه السلام- سعىٰ إليه، واجتهد في تزويجه إحدىٰ ابنتيه رغبة في كسب الرجل الصالح، ولم ينتظر حتىٰ يأتي الخاطب.

كما نجد في السيرة أن عمر بن الخطاب ﵁ يعرض ابنته حفصة -رضي الله تعالىٰ عنها- بعد وفاة زوجها، علىٰ عثمان بن عفان ﵁، ويعرضها علىٰ أبي بكر الصديق ﵁، ثم يتزوجها الرسول ﷺ[2]، ولذلك فإن من حق بناتنا وأخواتنا أن نسعىٰ لهن في الزواج، ومجتمعاتنا الإسلامية يكثر فيها البنات العوانس اللاتي بقين بلا زواج؛ بسبب أن الأب أو الأخ الأكبر لا يسعىٰ لبناته أو لأخواته، ويرىٰ في ذلك عيبًا أو نقصًا. ومع ذلك يجب علىٰ الرجل أن يُحسن طريق عرض ابنته أو أخته علىٰ من يريد، وبطريقة تحمي الفتاة والأسرة من أن يُساء إليها فيما بعد.

٨. إن في هذا الزواج درسًا في أهمية اختيار الرجل للزوجة الصالحة واختيار المرأة للزوج الصالح، فالرسول ﷺ اختار امرأة تزوجت قبله مرتين، ومع ذلك رغب فيها؛ لطهارتها وعفتها. وخديجة -رضي الله عنها- يتقدم لها الكثير من

(١) قال ذلك الرسول ﷺ لابنته فاطمة -رضي الله تعالى عنها-. صحيح البخاري (٣٦٢٤) وصحيح مسلم (٢٤٥٠).

(٢) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٨/ ٣٠). وانظر أيضًا قصة تزويج سعيد بن المسيب -رحمه الله تعالى- لابنته من تلميذه أبي وداعة -رحمه الله تعالى- بعد أن خطبها بعض الكبراء، سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٣٣).

أشراف قريش وسادتها، وهي المرأة الغنية ولكنها تأبىٰ، وعندما عرفت الأخلاق العالية والصفات الحميدة في محمد ﷺ حرصت عليه ورغبت فيه وسعت إليه.

إذًا: هناك نقطة التقاء في اختيار الزوج واختيار الزوجة، وهي التي أكَّدها حديث الرسول ﷺ: «تُنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»[1]. وفي المقابل، قال ﷺ مخاطبًا الأولياء: «إذا أتاكم مَن ترضون خُلقه ودينه فزوّجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»[2]، فالرجل قدوته الرسول ﷺ في اختيار الزوجة، والمرأة قدوتها خديجة -رضي الله عنها- في اختيار الزوج.

٩. لقد كان لهذا الزواج الذي تم وفق الاختيار السليم آثار عظيمة جدًّا، فقد كانت خديجة -رضي الله عنها- البيت الذي يأوي إليه الرسول ﷺ بعد عناء الدعوة، وحسبنا موقفها في أول يوم من أيام البعثة حينما طمأنته، وقالت له: (كلا والله لا يخزيك الله أبدًا)، وكان يُؤذَىٰ وهو يدعو إلىٰ الله، فإذا عاد إلىٰ المنزل وجد المرأة التي تطمئنه، وتثبّت جأشه، وتشد من عضده، ولم تكن المرأة اللوامة العائقة عن الدعوة إلىٰ الله.

١٠. ثم أيضًا كان موقف الرسول ﷺ معها أتم التعامل، وأحسن الوفاء، فلم يتزوج زوجة أخرىٰ في حياتها إكرامًا لها، قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (ومن كرامتها عليه ﷺ أنها لم يتزوج امرأة قبلها، وجاء منها عدة أولاد، ولم يتزوج عليها قط، ولا تسرَّىٰ إلىٰ أن قضت نحبها)[3]، وقال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (لم

(١) صحيح البخاري، تحقيق مصطفى البغا (٥/ ١٩٥٨). من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (١/ ٦٢٢)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١/ ٣٣٣)، رقم (١٦٠١).

(٣) الذهبي، سير أعلام ا لنبلاء (٢/ ١١٠).

يتزوج عليها حتىٰ ماتت إكرامًا لها)[1]، وقال الزرقاني -رحمه الله تعالىٰ-: (وجازاها فلم يتزوج عليها مدة حياتها، وبلغت منه ما لم تبلغه امرأة قط من زوجاته)[2]. وبعد وفاتها كان يكثر ذِكرها والثناء عليها، ويصل أقاربها، حتىٰ كانت عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- تغار من ذلك كما مر في فضائل خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، وهنا نصل إلىٰ الدرس الثاني من هذا الزواج وهو:

١١. الوفاء الذي ينبغي أن يكون بين الزوجين، فالمرأة تحفظ زوجها في حضوره وغيابه، وتسانده، وتعينه في عمله، وتثبّته، ولا تكون امرأة لوّامة كثيرة المشكلات مع زوجها؛ لأنه يواجه المعاناة في الخارج، ويأتي إلىٰ المنزل والمسكن يريد السكون والراحة فيُستقبل بالإزعاج مرة أخرىٰ، وتلك أخطاء يقع فيها البعض من النساء اللاتي يغفلن عن التأسي بخديجة رضي الله عنها.

والزوج أيضًا يكون وفيًا لزوجته، قائمًا بحقوقها، ومن الخطأ الذي يقع فيه البعض أنه يطالب زوجته بحقوقه، وهو لم يقم بحقوقها! يُقصّر في حقوق زوجته، ويطالبها بأن تؤدي له الحقوق كاملة، وهذا واقع في بعض مجتمعات المسلمين، وهو من التطفيف في التعامل، يقول الشيخ محمد العثيمين -رحمه الله تعالىٰ- عند تفسير قوله -تعالىٰ-: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين ١-٦]: (وهذا المثال الذي ذكره الله -عز وجل- في الكيل والوزن هو مثال، فيقاس عليه كل ما أشبهه، كل من طلب حقه كاملًا ممن هو عليه، ومنع الحق الذي عليه، فإنه داخل في الآية الكريمة، فمثلًا الزوج الذي يريد

(١) ابن كثير، السيرة النبوية (٢/ ١٣٦).

(٢) الزرقاني، شرح المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٧)، (١/ ٤٤٤).

من زوجته أن تعطيه حقه كاملًا، ولا يتهاون في شيء من حقه، لكنه عند أداء حقها يتهاون ولا يعطيها الذي لها، وما أكثر ما تشتكي النساء من هذا الطراز من الأزواج، والعياذ بالله.. كذلك أيضًا نجد بعض الناس يريد من أولاده أن يقوموا بحقه علىٰ التمام، لكنه مفرط في حقهم، فيريد من أولاده أن يبروه ويقوموا بحقه.. لكنه هو مضيع لهؤلاء الأولاد، غير قائم بما يجب عليه نحوهم، نقول: هذا مُطفِّف)[1].

١٢. إن مَن ترك التعدد إكرامًا لزوجته، ووفاء لها؛ لحُسْن عشرتها، فهو مأجور -إن شاء الله تعالىٰ- وكثير من الأزواج، كان في بداية حياته شخصًا عاديًّا، ثم فتح الله له باب رزق وخير، وتوفرت لديه القدرة المالية وغيرها، والرغبة في التعدّد، ومع ذلك يُعرض عنه إكرامًا لزوجته التي عاشت معه حياته الأولىٰ وصبرت، وكانت قائمة بحقوقه، فمتىٰ احتسب ذلك خُلُقًا كريمًا عند الله، فهو من أجمل الوفاء لزوجته، ولعله ينال بذلك أجر التأسي بالرسول ﷺ في إكرام أم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-.

(١) محمد العثيمين، تفسير جزء عم (ص ٩٣- ٩٥).

المبحث الثاني عشر

أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين

تحدثت في الفصل السابق عن زواج الرسول ﷺ من أم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، وذلك حسب التسلسل التاريخي للسيرة، ولما كان من المناسب موضوعيًّا استكمال الحديث عن بقية أمهات المؤمنين زوجات رسول الله -ﷺ ورضي الله تعالىٰ عنهن- رأيت أن أجمع الحديث عنهن هنا وإن تفاوت التاريخ الزمني لزواجه ﷺ من كل منهن، لما في ذلك من مصلحة فقه السيرة الذي هو جوهر هذا الكتاب سائلًا المولىٰ العون والتوفيق[1].

«قال الله -تعالىٰ-: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب:٦].

وقال -تعالىٰ-: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٢- ٣٤].

---

(١) وقد سبق لهذه الطريقة عدد ممن كتب في السيرة ومنهم ابن سيد الناس في كتابه عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير فقد قال في بيان منهجه في كتابه (١/ ١١): «سالكًا في ذلك ما اقتضاه التاريخ من إيراد واقعة بعد أخرى، لا ما اقتضاه الترتيب من ضم الشيء إلى شكله ومثله، حاشا ذكر أزواجه وأولاده عليه السلام، فإني لم أسق ذكرهم على ما اقتضاه التاريخ».

قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (لا خلاف أنه -عليه الصلاة والسلام- توفي عن تسع وهن: عائشة بنت أبي بكر الصديق التيمية، وحفصة بنت عمر بن الخطاب العدوية، وأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية الأموية، وزينب بنت جحش الأسدية، وأم سلمة هند بنت أبي أمية المخزومية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وسودة بنت زمعة العامرية، وجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار المصطلقية، وصفية بنت حيي بن أخطب النضرية الإسرائيلية الهارونية، -رضي الله تعالىٰ عنهن وأرضاهن-. وكانت له سُرّيتان: وهما مارية بنت شمعون القبطية المصرية من كورة أنصنا، وهي أم ولده إبراهيم -عليه السلام-، وريحانة بنت شمعون القرظية، أسلمت ثم أعتقها، فلحقت بأهلها، ومن الناس من يزعم أنها حجبت. والله أعلم)[١].

وعن قتادة -رحمه الله تعالىٰ- قال تزوج رسول الله ﷺ بخمس عشرة امرأة، دخل منهن بثلاث عشرة، واجتمع عنده إحدىٰ عشرة، ومات عن تسع. ثم ذكر هؤلاء التسع اللاتي ذكرناهن، -رضي الله تعالىٰ عنهن-[٢].

أما ترتيب زواجه منهن فهو كما يقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (تزوج رسول الله ﷺ بعد خديجة سودة بنت زمعة، ثم تزوج بعد سودة عائشة بنت أبي بكر، لم يتزوج بِكرًا غيرها، ولم يصب منها ولدًا حتىٰ مات، ثم تزوج بعد عائشة حفصة بنت عمر، ثم تزوج بعد حفصة زينب بنت خزيمة الهلالية أم المساكين، ثم تزوج بعدها أم حبيبة بنت أبي سفيان، ثم تزوج بعدها أم سلمة هند بنت أبي أمية، ثم تزوج بعدها زينب بنت جحش، ثم تزوج بعدها جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار. قال: ثم تزوج بعد جويرية صفية بنت حيي بن أخطب، ثم تزوج بعدها ميمونة بنت

(١) ابن كثير، البداية والنهاية (٨/ ٢٠١).
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية (٨/ ٢٠٢).

الحارث الهلالية. فهذا الترتيب أحسن وأقرب مما رتبه الزهري. والله أعلم)[1].

وعن أنس بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رسول الله ﷺ كان يطوف علىٰ نسائه في ليلة واحدة، وله تسع نسوة[2].

وقبل أن أتحدث عن زوجات الرسول ﷺ أشير إلماحة إلىٰ ما ذكره ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ- في وصف بيوتهن -رضي الله تعالىٰ عنهن-: (أخبرنا محمد بن عمر، أخبرنا عبد الله بن زيد الهذلي قال: رأيت بيوت أزواج النبي ﷺ حين هدمها عمر بن عبد العزيز -رحمه الله تعالىٰ-، كانت بيوتًا باللَّبِن ولها حُجر من جريد مطرورة بالطين عددت تسعة أبيات بحجرها، وهي ما بين بيت عائشة -رضي الله عنها- إلىٰ الباب الذي يلي باب النبي ﷺ إلىٰ منزل أسماء بنت حسن بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس، ورأيت بيت أم سلمة وحجرتها من لبن؛ فسألت ابن ابنها، فقال: لما غزا رسول الله ﷺ غزوة دومة، بَنَت أم سلمة حجرتها بلبن، فلما قدم رسول الله ﷺ نظر إلىٰ اللبن فدخل عليها أول نسائه، فقال: «ما هذا البناء؟» فقالت: أردت يا رسول الله أن أكف أبصار الناس فقال: «يا أم سلمة إنّ شر ما ذهب فيه مال المسلمين البنيان»؛ قال محمد بن عمر: فحدثت هذا الحديث، معاذ بن محمد الأنصاري فقال: سمعت عطاء الخراساني، في مجلس فيه عمر بن أبي أنس يقول وهو فيما بين القبر والمنبر: أدركت حُجَر أزواج رسول الله ﷺ من جريد النخل علىٰ أبوابها المسوح من شعر أسود فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يُقرأ يأمر بإدخال حجر أزواج النبي ﷺ في مسجد رسول الله ﷺ، فما رأيت أكثر باكيًا من ذلك اليوم. قال عطاء:

(١) ابن كثير، البداية والنهاية (٨/ ٢٢٠). وأما ابن حجر -رحمه الله تعالى- فقال في فتح الباري (٩/ ١١٣): «فإنه كان عند النبي ﷺ تسع نسوة أي عند موته وهن سودة وعائشة وحفصة وأم سلمة وزينب بنت جحش وأم حبيبة وجويرية وصفية وميمونة هذا ترتيب تزويجه إياهن رضي الله عنهن، ومات وهن في عصمته»، والخلاف بينهما ينحصر في تاريخ زواج أم حبيبة -رضي الله تعالى عنها-.

(٢) صحيح البخاري (٧/ ٤) رقم (٥٠٦٨).

فسمعت سعيد بن المسيب يقول يومئذ: والله لوددت أنهم تركوها علىٰ حالها ينشأ ناشئ من أهل المدينة ويقدم القادم من الأفق فيرىٰ ما اكتفىٰ به رسول الله ﷺ في حياته؛ فيكون ذلك ممّا يُزهّد الناس في التكاثر والتفاخر. قال معاذ: فلما فرغ عطاء الخراساني من حديثه قال عمر بن أبي أنس: كان منها أربعة أبيات بلبن لها حجر من جريد، وكانت خمسة أبيات من جريد مطينة لا حجر لها علىٰ أبوابها مسوح الشعر ذرعت الستر فوجدته ثلاث أذرع في ذراع والعظم أو أدنىٰ من العظم، فأما ما ذكرت من البكاء يومئذ فلقد رأيتني في مجلس فيه نفر من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ منهم أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، وأبو أمامة بن سهل بن حنيف، وخارجة بن زيد بن ثابت، وإنهم ليبكون حتىٰ أخضل لحاهم الدمع، وقال يومئذ أبو أمامة: (ليتها تُركت فلم تُهدَم؛ حتىٰ يقصر الناس عن البناء ويروا ما رضي الله لنبيه ﷺ ومفاتيح خزائن الدنيا بيده)[1].

أولًا: أم المؤمنين خديجة بنت خويلد -رضي الله تعالىٰ عنها-: أول زوجات النبي ﷺ، وتوفيت في حياته، وسبق أن تحدثت عنها في المبحث السابق مما يغني عن إعادته هنا.

ثانيًا: أم المؤمنين سودة بنت زمعة -رضي الله تعالىٰ عنها-: هي: سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس القرشية العامرية، وأمها الشموس بنت قيس بن عمرو بن زيد بن لبيد بن خداش بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار من الأنصار[2].

أسلمت قديمًا وبايعت، وكانت عند ابن عم لها اسمه السكران بن عمرو -رضي الله تعالىٰ عنه- قديم الإسلام بمكة[3]. وهو أخو سهيل بن عمرو -رضي الله

(١) ابن سعد، الطبقات (١/ ٤٩٩).
(٢) انظر: ابن سعد، الطبقات (٨/ ٥٢).
(٣) انظر: ابن سعد، الطبقات (٤/ ٢٠٤).

تعالىٰ عنه-، وقد هاجرت مع زوجها إلىٰ الحبشة في الهجرة الثانية، فلما قدما مكة مات زوجها. وقيل: مات بالحبشة.

عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: (كانت سودة بنت زمعة -رضي الله تعالىٰ عنها- عند السكران بن عمرو أخي سهيل بن عمرو، فرأت في المنام كأن النبي ﷺ أقبل يمشي حتىٰ وطئ علىٰ عنقها، فأخبرت زوجها بذلك، فقال: وأبيك لئن صدقت رؤياك لأموتن، وليتزوجنّك رسول الله ﷺ، فقالت: حِجرًا وسترًا، وقال: هشام: الحجر: تنفي عن نفسها ذاك، ثم رأت في المنام ليلة أخرىٰ أن قمرًا انقض عليها من السماء وهي مضطجعة، فأخبرت زوجها، فقال: وأبيك لئن صدقت رؤياك لم ألبث إلا يسيرًا حتىٰ أموت وتزوجين من بعدي، فاشتكىٰ السكران من يومه ذلك، فلم يلبث إلا قليلًا حتىٰ مات، وتزوجها رسول الله ﷺ)[1]. ودخل بها بمكة، في رمضان، سنة عشر من النبوة[2].

وفي قصة خطبتها وزواجه منها، تخبرنا أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- تقول: لما ماتت خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- جاءت خولة بنت حكيم -رضي الله تعالىٰ عنها- إلىٰ رسول الله ﷺ فقالت: ألا تزوج؟ قال: «ومن»؟ قالت: إن شئت بكرًا وإن شئت ثيبًا. قال: «من البكر ومن الثيب»؟ فقالت: أما البكر فعائشة ابنة أحب خلق الله إليك. وأما الثيب فسودة بنت زمعة، قد آمنت بك واتبعتك. قال: «اذكريهما عليَّ». وبقية قصة زواجه من عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- ستأتي -إن شاء الله تعالىٰ- عند الحديث عنها.

قالت: ثم انطلقت إلىٰ سودة بنت زمعة، وأبوها شيخ كبير قد جلس عن الموسم فحيَّته بتحية أهل الجاهلية وقلت: أنعم صباحًا. قال: مَن أنتِ؟ قلت: خولة بنت

(١) ابن سعد، الطبقات (٨/ ٥٦).
(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٧).

حكيم. فرحَّب بي، وقال ما شاء الله أن يقول، قلت: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب يذكر سودة بنت زمعة. قال: كفء كريم، ماذا تقول صاحبتك؟ قلت: تحب ذلك. قال: قولي له فليأتِ. قالت فجاء رسول الله ﷺ فملكها. قالت: وقدم عبد بن زمعة فجعل يحثو علىٰ رأسه التراب، فقال بعد أن أسلم: إني لسفيه يوم أحثو علىٰ رأسي التراب أن تزوَّج رسول الله ﷺ سودة)[1].

وذكر ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ- أن الرسول ﷺ لما خطبها قالت أمري إليك، يا رسول الله فقال: رسول الله ﷺ: «مري رجلًا من قومك يزوّجك». فأمرت حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود فزوّجها[2]؛ وذلك لوفاة والدها. والله أعلم بالصواب.

وهي أول من تزوج بها النبي ﷺ بعد خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-. وانفردت به نحوًا من ثلاث سنين أو أكثر، وكانت سيدة جليلة، نبيلة[3].

ولما هاجر الرسول ﷺ إلىٰ المدينة لحقت مع بقية أهله ﷺ. عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-، قالت: لما قدم النبي ﷺ المدينة بعث زيدًا، وبعث معه أبا رافع مولاه، وأعطاهما بعيرين، وخمس مائة درهم، فخرجنا جميعًا، وخرج زيد، وأبو رافع بفاطمة، وبأم كلثوم، وبسودة بنت زمعة، وبأم أيمن، وأسامة ابنه[4].

كانت سودة -رضي الله تعالىٰ عنها- عابدة تقية صالحة، عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-، قالت: (ما رأيت امرأة أحب إليَّ أن أكون في مسلاخها من سودة)[5].

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة، ج ١/ ٢٣٠) وقال: إسناده حسن.

(٢) انظر: ابن سعد الطبقات (٨/ ٥٣).

(٣) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٥).

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٩).

(٥) صحيح مسلم (١٤٦٣) وقولها: «في مسلاخها»؛ قال النووي في شرح صحيح مسلم (١٠/ ٤٨): «المسلاخ بكسر الميم وبالخاء المعجمة وهو الجلد ومعناه أن أكون أنا هي».

وعن النعمان بن ثابت التيمي قال: قال رسول الله ﷺ لسودة بنت زمعة: «اعتدّي». فقعدت له علىٰ طريقه ليلة فقالت: يا رسول الله ما بي حبّ الرجال، ولكني أحب أن أبعث في أزواجك فأرجعني، قال: فرجعها رسول الله ﷺ[1]. ووهبت يومها وليلتها لعائشة تبتغي بذلك رضا رسول الله[2]، ورعاية لقلبه ﷺ[3].

قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (وكبرت عنده -يعني سودة، رضي الله تعالىٰ عنها-، وأراد طلاقها فوهبت يومها لعائشة، فأمسكها. وهذا من خواصها: أنها آثرت بيومها حب النبي ﷺ تقربًا إلىٰ رسول الله ﷺ، وحبًّا له، وإيثارًا لمقامها معه، فكان يقسم لعائشة يومها ويوم سودة، ويقسم لنسائه، ولا يقسم لها، وهي راضية بذلك مؤثرة، لترضي رسول الله ﷺ)[4].

ومع تقواها وصلاحها وتعبُّدها؛ فقد كانت زاهدة -رضي الله تعالىٰ عنها-، عن ابن سيرين: (أن أمير المؤمنين عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- في خلافته، بعث إلىٰ سودة بغرارة دراهم.

فقالت: ما هذه؟

قالوا: دراهم.

قالت: في الغرارة مثل التمر، يا جارية بلغيني القنع، ففرقتها)[5].

وحرصت أن تلزم بيتها رعايةً لقول الرسول الله ﷺ حين رجع من حجة الوداع:

---

(١) انظر: ابن سعد، الطبقات، (٨/ ٥٣).
(٢) انظر: ابن سعد، الطبقات، (٨/ ٥٢).
(٣) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٦).
(٤) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٦/ ٤٠٤).
(٥) ابن سعد، الطبقات (ص (٨/ ٥٦)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٩)، وقال المحقق: ورجاله ثقات. والقنع: الطبق، انظر: لسان العرب (٨/ ٣٠١).

«هذه ثم ظهور الحُصر»[1]. قال صالح: وكانت سودة تقول: لا أحج بعدها أبدًا[2]. وتقول «حججت واعتمرت فأنا أقر في بيتي كما أمرني الله -عز وجل-»[3].

وتوفيت بالمدينة في شوال سنة أربع وخمسين[4]؛ رضي الله تعالىٰ عنها وأرضاها.

ثالثًا: أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنهما- (الصِّدِّيقة بنت الصديق[5]): قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (بنت الإمام الصِّدِّيق الأكبر، خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي القرشية، التيمية، المكية، النبوية، أم المؤمنين، زوجة النبي ﷺ أفقه نساء الأمة علىٰ الإطلاق.

وأمها: هي أم رومان بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتاب بن أذينة الكنانية)[6].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (١٧٢٢) من حديث أبي واقد الليثي. وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود. قال في عون المعبود: «(ظُهُورَ) جَمْعُ ظَهْرٍ (الْحُصُرِ) بِضَمَّتَيْنِ وتسكن الصاد تخفيفًا جمع الحصر الَّذِي يُبْسَطُ فِي الْبُيُوتِ»، وفهم منه بعض أمهات المؤمنين -رضي الله تعالى عنهن- عدم جواز الحج بعد حجة الوداع، واستدل بعض أمهات المؤمنين -رضي الله تعالى عنهن- بجوازه بحديث عائشة -رضي الله تعالى عنها-: «قلت يا رسول الله، ألا نغزو ونجاهد معكم؟ فقال: «لكن أحسن الجهاد وأجمله الحج، حج مبرور»، وهو في صحيح البخاري برقم (١٨٦١).

(٢) ابن سعد، الطبقات (ص ٨/ ٥٥).

(٣) ابن سعد، الطبقات (ص ٨/ ٥٥).

(٤) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ١٦٥)، والذهبي سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٧).

(٥) قال الذهبي في السير (٢/ ١٨١): (كان مسروق إذا حدث عن عائشة، قال: حدثتني الصديقة بنت الصديق، حبيبة حبيب الله، المبرأة من فوق سبع سماوات).

(٦) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٣٥).

وُلِدَت بعد المبعث بأربع سنين أو خمس، فقد ثبت في الصّحيح أنّ النبي ﷺ تزوجها وهي بنت ست، وقيل سبع، ويجمع بأنها كانت أكملت السّادسة ودخلت في السّابعة، ودخل بها وهي بنت تسع، وكان دخوله بها في شوال في السنة الأولىٰ، وقيل في السّنة الثّانية من الهجرة(١).

أما قصة خطبتها فتقول عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- عن ذلك: لما ماتت خديجة جاءت خولة بنت حكيم -رضي الله تعالىٰ عنها-، فقالت: يا رسول الله! ألا تزوج؟ قال: «ومن؟».

قالت: إن شئتَ بكرًا، وإن شئت ثيبًا.

قال: «من البكر، ومن الثيب؟».

قالت: أمَّا البكر؛ فعائشة ابنة أحب خلق الله إليك، وأما الثيب؛ فسودة بنت زمعة، قد آمنت بك، واتبعتك.

قال: «اذكريهما عليَّ».

قالت: فأتيت أم رومان، فقلت:

يا أم رومان! ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة؟

قالت: ماذا؟

قالت: رسول الله ﷺ يذكر عائشة.

قالت: انتظري، فإن أبا بكر آتٍ.

فجاء أبو بكر، فذكرت ذلك له، فقال: أو تصلح له وهي ابنة أخيه؟

فقال رسول الله ﷺ: «أنا أخوه وهو أخي، وابنته تصلح لي».

(١) ابن حجر، الإصابة (٨/ ٢٣١).

فقام أبو بكر، فقالت لي أم رومان:

إن المطعم بن عدي كان قد ذكرها علىٰ ابنه، ووالله ما أخلف وعدًا قط.

قالت: فأتىٰ أبو بكر المطعم، فقال: ما تقول في أمر هذه الجارية؟

قال: فأقبل علىٰ امرأته، فقال: ما تقولين؟

فأقبلت علىٰ أبي بكر، فقالت: لعلنا إن أنكحنا هذا الفتىٰ إليك تُدخله في دينك.

فأقبل عليه أبو بكر، فقال: ما تقول أنت؟

قال: إنها لتقول ما تسمع.

فقام أبو بكر، وليس في نفسه من الموعد شيء، فقال لها:

قولي لرسول الله ﷺ فليأتِ. فجاء، فملكها(١).

وكون عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- مخطوبة لجبير بن المطعم بموافقة والديها -رضي الله تعالىٰ عنهما- قبل الرسول ﷺ، يدل علىٰ قرب تأهيلها للزواج؛ بل إن مما يؤكد ذلك أن خولة بنت حكيم -رضي الله تعالىٰ عنها- عَرضتها علىٰ الرسول ﷺ، وما كانت لتعرض عليه ذلك لو لم تكن مناسبة للزواج(٢).

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٥٠)، وأورده ابن حجر في الفتح مختصرًا وحسَّن إسناده (٧/ ٢٢٥)، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٩ / ٢٢٥) رقم (١٥٢٨٥)، وقال: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن عمرو بن علقمة، وهو حسن الحديث.

(٢) ابن حجر، الإصابة (٨/ ٢٣١)، وزواجها وعمرها تسع سنوات أمر معهود عند العرب في ذلك الوقت، ومن أمثلة ذلك من الرجال والنساء: أما الرجال: ما ذكره الذهبي -رحمه الله تعالى- (سير أعلام النبلاء٣/ ١٩) في ترجمة عامر بن كريز -رضي الله تعالى عنه- أنه وُلد له ولد وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فكم كان عمره عند الزواج؟، وكم كان عمر زوجته؟ وجاء أيضًا في ترجمة عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله تعالى عنهما- (سير أعلام النبلاء (٣/ ٨٠): «وأمه: هي رائطة بنت الحجاج بن منبه السهمية، وليس أبوه أكبر منه إلا بإحدى عشرة سنة، أو نحوها؛ فهذا عمرو بن العاص وُلد له وعمره إحدى عشرة سنة، فكم كان عمره عند الزواج؟ وكم كان عمر زوجته؟ =

وعن عائشة -رضي الله عنها- أن النبي ﷺ، قال لها: «أريتك في المنام مرتين، أرىٰ أنك في سَرَقَةٍ من حرير[1]، ويقول: هذه امرأتك، فاكشف عنها، فإذا هي أنت، فأقول: إن يك هذا من عند الله يُمضه»[2].

وعنها -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: «تزوجني رسول الله ﷺ في شوال، وبنىٰ بي في شوال، فأي نساء رسول الله ﷺ كان أحظىٰ عنده مني؟»[3].

وكانت العرب تستحب لنسائها أن يدخلن علىٰ أزواجهن في شوال[4].

=وأما النساء: فإن رقية رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ هاجرت إلى الحبشة مع زوجها عثمان -رضي الله تعالى عنه-، وعمرها اثنتا عشرة سنة، وفي سنن الدار قطني (٤/ ٥٠٢) رقم (٣٨٨١)، وسنن البيهقي (٧/ ٦٩٠) رقم (١٥٤١٧): حدثني عباد بن عباد المهلبي ، قال: «أدركت فينا يعني المهالبة امرأة صارت جدة وهي بنت ثمان عشرة سنة، ولدت لتسع سنين ابنة، فولدت ابنتها لتسع سنين، فصارت هي جدة وهي بنت ثمان عشرة سنة»، وفي السنن الكبرى للبيهقي (١/ ٤٧٦) رقم (١٥٣١): «ثنا أحمد بن طاهر بن حرملة ثنا جدي ثنا الشافعي، قال: «رأيت بصنعاء جدة بنت إحدى وعشرين سنة حاضت ابنة تسع وولدت ابنة عشر، وحاضت البنت ابنة تسع وولدت ابنة عشر ويذكر عن الحسن بن صالح، أنه قال: أدركت جارة لنا صارت جدة بنت إحدى وعشرين سنة»، ونقل ابن العربي في أحكام القرآن (١/ ٤٢٠) أن الإمام الشافعي -رحمه الله تعالى- قال :»رأيت جدة لها إحدى وعشرون سنة». وقال الإمام السرخسي في المبسوط (٣/ ١٤٩): وكان لأبي مطيع البلخي ابنة صارت جدة، وهي بنت تسعة عشرة سنة»، وأنا تزوج لي أختان كل منهما كان عمرها عند الزواج أربعة عشر عامًا، واليوم أصبحت الفتاة في الغالب لا تتزوج إلا قريبًا من خمس وعشرين سنة. وليس هذا دفاعًا بل بيان لواقع معروف عند العرب، وموجود في بعض القبائل الآن، من تزوج بناتها قريبًا من هذا السن، لكن تغير أحوال الناس جعل مَن لا يعرف أحوال العرب يستغرب مثل هذا.

(١) رواه البخاري في صحيحه ٥/ ٥٦) رقم (٣٨٩٥).

(٢) قال ابن حجر في فتح الباري (٩/ ١٨١): «قوله في سرقة من حرير السرقة بفتح المهملة والراء والقاف هي القطعة ووقع في رواية ابن حبان: في خرقة حرير. وقال الداودي: السرقة الثوب فإن أراد تفسيره هنا فصحيح».

(٣) صحيح مسلم (٢/ ١٠٣٩) رقم (١٤٢٣).

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٦٤).

ولم يتزوج النبي ﷺ بكرًا غيرها، ولا أحب امرأة حبّها، وأحبها حبًّا شديدًا كان يتظاهر به، بحيث إن عمرو بن العاص -رضي الله تعالىٰ عنه- وهو ممن أسلم سنة ثمان من الهجرة - عندما بعثه ﷺ علىٰ جيش ذات السلاسل، يقول: فأتيته فقلت: (أيّ الناس أحبّ إليك؟ قال: «عائشة»، فقلت: من الرجال؟ فقال: «أبوها»، قلت: ثم من؟ قال: «ثم عمر بن الخطاب»؛ فعدَّ رجالًا)(١).

وقد قال ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلًا من هذه الأمة، لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن أخوة الإسلام أفضل»(٢).

يقول الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (فأَحِبَّ أفضلَ رجل من أُمته، وأفضلَ امرأة من أُمته، فمن أبغض حبيبي رسول الله ﷺ فهو حريّ أن يكون بغيضًا إلىٰ الله ورسوله)(٣).

علمها وفضلها: عن مسروق -رحمه الله تعالىٰ-: (رأيت مشيخة أصحاب رسول الله ﷺ الأكابر-رضي الله تعالىٰ عنهم- يسألونها عن الفرائض). وقال عطاء بن أبي رباح -رحمه الله تعالىٰ-: (كانت عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- أفقه الناس، وأعلم الناس، وأحسن الناس رأيا في العامة)(٤).

وقال عروة -رحمه الله تعالىٰ-: ما رأيت أحدًا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-. وعن أبي موسىٰ الأشعري -رضي الله تعالىٰ عنه-: (ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- إلا وجدنا عندها فيه علمًا). وقال الزهري -رحمه الله تعالىٰ-: (لو جُمع علم عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- إلىٰ علم جميع أمهات المؤمنين وعلم جميع النساء لكان علم

(١) صحيح البخاري ٥/ ٥) رقم (٣٦٦٢).
(٢) صحيح البخاري (١/ ١٠٠) رقم (٤٦٦).
(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٤٢).
(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٨٥).

عائشة أفضل)[1].

قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (ولا أعلم في أمة محمد ﷺ بل ولا في النساء مطلقًا امرأة أعلم منها)[2].

وكان الشعبي يذكرها، فيتعجب من فقهها وعلمها، ثم يقول: ما ظنكم بأدب النبوة؟!![3].

حمل لها الرسول ﷺ السلام من جبريل -عليه السلام-، عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- أن النبي ﷺ، قال لها: «يا عائشة! هذا جبريل يقرأ عليك السلام»، فقالت: «وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترىٰ ما لا أرىٰ»؛ تريد النبي ﷺ[4].

وعن أبي موسىٰ الأشعري -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: قال رسول الله ﷺ: «كَمُل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء: إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة علىٰ النساء كفضل الثريد علىٰ سائر الطعام»[5].

وعن عبد الرحمن بن كعب بن مالك -رحمه الله تعالىٰ ورضي عن أبيه-، عن عائشة، -رضي الله تعالىٰ عنها-، قالت: قلت: يا رسول الله مَن مِن أزواجك في الجنة؟ قال: «أما إنك منهن»[6].

قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (نشهد أنها زوجة نبينا ﷺ في الدنيا والآخرة، فهل فوق ذلك مفخر؟)[7]. لا والله.

---

(١) ابن حجر، الإصابة (٨/ ٢٣٣).
(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٣٥).
(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٩٧).
(٤) رواه البخاري (٤/ ١١٢) رقم (٣٢١٧)، ومسلم (٤/ ١٨٩٦) رقم (٢٤٤٧).
(٥) رواه البخاري (٤/ ١٥٨) رقم (٣٤١١)، ومسلم (٤/ ١٨٨٦) رقم (٢٤٣١).
(٦) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٤) رقم (٦٧٤) وصححه، ووافقه الذهبي في التلخيص.
(٧) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٣٥).

جاء ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- يستأذن علىٰ عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- وهي في الموت، وعند رأسها عبد الله ابن أخيها عبد الرحمن، فأذنت له، فجاء ابن عباس، فلما قعد، قال: أبشري، فوالله ما بينك وبين أن تفارقي كل نصب، وتلقي محمدًا ﷺ والأحبة إلا أن تفارق روحك جسدك.

قالت: إيهٍ يا ابن عباس.

قال: كنتِ أحب نساء رسول الله ﷺ يعني: إليه، ولم يكن يحب إلا طيبًا، سقطت قلادتك ليلة الأبواء، وأصبح رسول الله ﷺ ليلقطها، فأصبح الناس ليس معهم ماء، فأنزل الله: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء:٤٢]، فكان ذلك من سببك، وما أنزل الله بهذه الأمة من الرخصة، ثم أنزل الله -تعالىٰ- براءتك من فوق سبع سماوات، فأصبح ليس مسجد من مساجد يذكر فيها الله، إلا براءتك تتلىٰ فيه آناء الليل والنهار. قالت: دعني عنك يا ابن عباس، فوالله لوددت أني كنت نسيًا منسيًا)[(١)].

توفيت ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت من رمضان سنة ثمان وخمسين عند الأكثر، وصلىٰ عليها أبو هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه-، وكان خليفة مروان علىٰ المدينة، فاجتمع الأنصار، وحضروا، فلم يُر ليلة أكثر ناسًا منها، نزل أهل العوالي، فدُفِنَتْ بالبقيع، ومدة عمرها: ثلاث وستون سنة، وأشهر[(٢)].

وعن عروة -رحمه الله تعالىٰ- أن معاوية بن أبي سفيان -رضي الله تعالىٰ عنهما- بعث إلىٰ عائشة، -رضي الله تعالىٰ عنها- بمائة ألف، فقسمتها حتىٰ لم تترك منها شيئًا، فقالت بريرة: أنت صائمة، فهلا ابتعت لنا بدرهم لحمًا؟ فقالت عائشة: «لو أني ذكرت لفعلت»[(٣)].

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٧٩).

(٢) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٩٢-١٩٣)، وابن حجر، الإصابة (٨/ ٢٣٥).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٥) رقم (٦٧٤٥)، ولم يتعقبه الذهبي.

وعن القاسم أن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- كانت تصوم الدهر. يعني أنها كانت تصوم الأيام التي لم يرد في حقها النهي عن صومها كالعيدين وأيام التشريق، وأيام الحيض[١].

قال عنها الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: كانت أم المؤمنين من أكرم أهل زمانها؛ ولها في السخاء أخبار، باعت -رضي الله تعالىٰ عنها- دارًا لها بمائة ألف، ثم قسمت الثمن[٢].

قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ- ذُكرت عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- عند عليّ -رضي الله تعالىٰ عنه- فقال: خليلة رسول الله ﷺ[٣].

وعن عمرو بن غالب أن رجلًا نال من عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- عند عمار بن ياسر -رضي الله تعالىٰ عنهما-، فقال: اغرب مقبوحًا منبوحًا أتؤذي حبيبة رسول الله ﷺ[٤].

رابعًا: أم المؤمنين حفصة بنت عمر -رضي الله تعالىٰ عنها-: قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (حفصة بنت عمر بن الخطاب العدوية أم المؤمنين، الستر الرفيع، بنت أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب[٥]، رضي الله تعالىٰ عنه وعنها وأرضاهما.

وأمها زينب بنت مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة الجمحية -رضي الله تعالىٰ عنها-[٦].

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٨٧). وقال رجاله ثقات.
(٢) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٩٨).
(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٧٧).
(٤) الترمذي، سنن الترمذي (٣٨٨٨)، وقال عنه حديث حسن صحيح.
(٥) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٨).
(٦) ابن حجر، الإصابة (٨/ ٨٥)، و(٨/ ١٦٣)، أسلمت وهاجرت مع زوجها عمر، وهي أخت عثمان وقدامة بني مظعون -رضي الله تعالى عنهما-.

أخرج ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ- بسنده عن عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- أنه قال: (ولدت حفصة وقريش تبني البيت قبل مبعث النبي ﷺ بخمس سنين)، فعلىٰ هذا يكون دخول النبي ﷺ بها ولها نحو من عشرين سنة[١].

تزوجها النبي ﷺ في سنة ثلاث من الهجرة[٢] بعد انقضاء عدتها من خُنيس بن حذافة السهمي -رضي الله تعالىٰ عنه-[٣]، أحد المهاجرين، فتكون هي الزوجة الرابعة بعد خديجة وسودة وعائشة -رضي الله تعالىٰ عنهن-.

قالت عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-: هي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ[٤].

وعن عبد الله بن عمر -رضي الله تعالىٰ عنهما-، يحدث: أن عمر بن الخطاب، حين تأيمت حفصة بنت عمر من خنيس بن حذافة السهمي، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ، فتوفي بالمدينة، فقال عمر بن الخطاب: أتيت عثمان بن عفان، فعرضت عليه حفصة، فقال: سأنظر في أمري، فلبثت ليالي ثم لقيني، فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا، قال عمر: فلقيت أبا بكر الصديق، فقلت: إن شئت زوّجتك حفصة بنت عمر، فصمت أبو بكر فلم يرجع إليَّ شيئًا، وكنت أوجد عليه مني علىٰ عثمان، فلبثت ليالي ثم خطبها رسول الله ﷺ، فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر، فقال:

---

(١) ابن سعد، الطبقات (٨/ ٨١)، والذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٨)، وابن حجر، الإصابة (٨/ ٨٦).

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٨)، وابن حجر، الإصابة (٨/ ٨٦).

(٣) هو: خُنيس (بالتّصغير) بن حذافة بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم القرشي السهمي، أخو عبد اللَّه. كان من السابقين، وهاجر إلى الحبشة، ثم رجع فهاجر إلى المدينة، وشهد بدرًا. وأصابته جراحة يوم أحد، فمات منها -رضي الله عنه- وكفاه منزلة شهوده هذه المشاهد الثلاثة الهجرتين ثم بدر وأحد. انظر في ترجمته: ابن حجر، الإصابة (٢/ ٢٩٠-٢٩١).

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٨)، والمشهور أن التي تسامي عائشة -رضي الله تعالى عنها- هي زينب بنت جحش -رضي الله تعالى عنها-. وقد يكون كل منهما كذلك.

لعلك وجدت علي حين عرضتَ عليَّ حفصة فلم أرجع إليك شيئًا؟ قال عمر: قلت: نعم، قال أبو بكر: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليَّ، إلا أني كنت علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ، ولو تركها رسول الله ﷺ قبلتها»[1].

عن أنس -رضي الله تعالىٰ عنه-: أن النبي ﷺ طلق حفصة، فأتاه جبريل -عليه الصلاة والسلام-، فقال: «يا محمد، طلقت حفصة، وهي صوامة قوامة، وهي زوجتك في الجنة، فراجعها»[2]. وجاء في حديث عمر -رضي الله تعالىٰ عنه-»أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها»[3].

وقد ذكر الجمهور أنها توفيت في شعبان من سنة خمسة وأربعين بالمدينة عن ستين سنة، وصلىٰ عليها والي المدينة في ذلك الوقت مروان[4] بن الحكم[5].

وقيل إنها تُوفيت سنة إحدىٰ وأربعين، عام الجماعة[6].

قال الواقدي: حدثني علي بن مسلم، عن أبيه: رأيت مروان فيمن حمل سرير حفصة -رضي الله تعالىٰ عنها-؛ وحملها أبو هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- من دار

---

(١) صحيح البخاري (٧/ ١٣) رقم (٥١٢٢)، وأورده بزيادات الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٨)، وابن حجر، الإصابة (٨/ ٨٥).

(٢) الحاكم، المستدرك (٤/ ١٧) رقم (٦٧٥٤).

(٣) أخرجه أبو داود برقم (٢٢٨٣)، وابن ماجه برقم (٢٠١٦) وصححه الألباني.

(٤) قال ابن حجر في الإصابة (٦/ ٢٠٣)، بشأن مروان بن الحكم: «لم أرَ مَن جزم بصحبته فكأنه لم يكن حينئذ مميزًا».

(٥) ابن سعد الطبقات (٨/ ٨٦)، وابن كثير، البداية والنهاية (١١/ ١٧٢)، الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٨). وإذا كانت توفيت -رضي الله تعالى عنها- سنة خمسة وأربعين فيكون عمرها تجاوز الستين سنة قليلًا.

(٦) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٨)، وابن حجر الإصابة (٨/ ٨٧).

المغيرة إلىٰ قبرها[1].

ونزل في قبرها أخواها عبد الله وعاصم، وبنو أخيها سالم وعبد الله وحمزة بنو عبد الله بن عمر، ورُوي لها عن رسول الله ﷺ ستون حديثًا، والله أعلم[2].

قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وأخرج ابن سعد بسند صحيح عن نافع، قال: ما ماتت حفصة -رضي الله تعالىٰ عنها- حتىٰ ما تفطر)[3].

خامسًا: أم المؤمنين زينب بنت خزيمة الهلالية أم المساكين -رضي الله تعالىٰ عنها-: هي أم المؤمنين زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة، -رضي الله تعالىٰ عنها وأرضاها-[4].

وكانت تسمىٰ أم المساكين؛ لرحمتها إياهم، ورقّتها عليهم، وإحسانها إليهم؛ فكانت تُكثر من إطعامهم والصدقة عليهم[5].

كانت زينب -رضي الله تعالىٰ عنها- عند الطفيل بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف -رضي الله تعالىٰ عنه-[6]. ثم طلقها، فتزوجها أخوه عبيدة بن الحارث -رضي الله تعالىٰ عنه-؛ فقتل عنها يوم بدر شهيدًا[7].

وقيل كانت قبل عبيدة -رضي الله تعالىٰ عنه- عند جهم بن عمرو بن الحارث[8]؛ فتزوجها رسول الله ﷺ، زوَّجه إياها قبيصة بن عمرو الهلالي، وأصدقها

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٨).
(٢) النووي، تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٣٩).
(٣) ابن حجر، الإصابة (٨/ ٨٦). يعني أنها تديم الصيام وفق المشروع منه.
(٤) انظر: ابن سعد، الطبقات (٨/ ١١٥).
(٥) انظر: ابن هشام، السيرة (٢/ ٦٧٤). الذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية: ١/ ٤٦٥) ابن حجر، الإصابة (٨/ ١٥٧).
(٦) انظر ترجمته في الإصابة لابن حجر (٣/ ٤٢١).
(٧) انظر: ابن سعد، الطبقات (٨/ ١١٥).
(٨) انظر: ابن هشام، السيرة (٢/ ٦٧٤).

رسول الله ﷺ أربع مائة درهم[1]. قال ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ- في الطبقات: خطب رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة الهلالية أم المساكين -رضي الله تعالىٰ عنها-؛ فجعلت أمرها إليه فتزوجها رسول الله ﷺ وأشهد وأصدقها اثنتي عشرة أوقية ونشّا، وكان تزويجه إياها في شهر رمضان علىٰ رأس أحد وثلاثين شهرًا من الهجرة -أي في السنة الثالثة-؛ فمكثت عنده ثمانية أشهر وتوفيت في آخر شهر ربيع الآخر علىٰ رأس تسعة وثلاثين شهرًا -أي في السنة الرابعة- وصلىٰ عليها رسول الله ﷺ ودفنها بالبقيع، ونزل في حفرتها إخوة لها ثلاثة، وكان سنّها يوم ماتت ثلاثين سنة أو نحوها، ولم يمت من أزواجه في حياته إلا هي وخديجة -رضي الله تعالىٰ عنهن-[2].

سادسًا: أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان -رضي الله تعالىٰ عنها-: السيدة المحجبة: رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي. تُكْنَىٰ أم حبيبة، وهي بها أشهر من اسمها، وقيل: بل اسمها هند، ورملة أصحّ، أمها صفية بنت أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، عمة عثمان بن عفان.

وُلدت قبل البعثة بسبعة عشر عامًا، تزوّجها عبيد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر الأسدي، من بني أسد بن خزيمة، فأسلما، ثم هاجرا إلىٰ الحبشة، فولدت له حبيبة، فبها كانت تُكَنَّىٰ[3]. ومات زوجها عبيد الله بن جحش بالحبشة[4].

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة (٢/ ٦٧٤).

(٢) انظر: ابن سعد، الطبقات (٨/ ١١٥)، والذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية: ١/ ٤٦٥)، وابن حجر في الإصابة (٨/ ١٥٧)، وابن سيد الناس، عيون الأثر (٢/ ٣٧٠).

(٣) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٨)، وابن حجر في الإصابة (٨/ ١٤٠).

(٤) ورد في بعض كتب السيرة أن عبيد الله بن جحش ارتد في الحبشة عن الإسلام ومات نصرانيًّا هناك، ولم يثبت ذلك، والأصل بقاء ما كان على ما كان، خاصة والمسألة تتعلق بإسلام وكفر وفي شأن صحابي مهاجر، من صحابة رسول الله ﷺ، بل قد أخرج ابن حبان في صحيحه (١٣/ ٣٨٦) رقم (٦٠٢٧) بسنده عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة=

قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: وهي من بنات عم الرسول ﷺ ليس في أزواجه من هي أقرب نسبًا إليه منها، ولا في نسائه من هي أكثر صداقًا منها، ولا من تزوج بها وهي نائية الدار أبعد منها[1].

كان الذي زوّجها، وخطب إليه النجاشي -رحمه الله تعالىٰ-، خالد بن سعيد بن العاص بن أمية، فكان لها يوم قدم بها المدينة بضع وثلاثون سنة[2].

قال ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ-: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري[3] إلىٰ النجاشي فخطب عليه أم حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت تحت عبيد الله بن جحش قبل وفاته، فزوّجها إياه وأصدقها النجاشي من عنده عن رسول الله ﷺ أربع مائة دينار.. وعن الزهري -رحمه الله تعالىٰ- قال: وجهزها إليه ﷺ النجاشي وبعث

=-رضي الله تعالى عنها- قالت: هاجر عبيد الله بن جحش بأم حبيبة بنت أبي سفيان وهي امرأته إلى أرض الحبشة، فلما قدم أرض الحبشة، مرض، فلما حضرته الوفاة، أوصى إلى رسول الله ﷺ، فتزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة، وبعث معها النجاشي شرحبيل بن حسنة»؛ قال محققه شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح على شرط البخاري، رجاله رجال الشيخين غير محمد بن يحيى الذهلي، فمن رجال البخاري. وابن مسافر: هو عبد الرحمن بن خالد بن مسافر»، وانظر: محمد العوشن، ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية، (ص٣٧-٤٣) فقد ساق -جزاه الله خيرًا- عدة أدلة على عدم ثبوت هذه الردة. وقد شاع في كتب السيرة كثيرًا أن ارتد ومات نصرانيًّا، ولم يذكروا على ذلك دليلًا، وعلى المسلم أن يتقي الله -جل شأنه- فلا ينقل إلا ما ثبت، وبخاصة ما يتعلق بإسلام وكفر، ويزيد الأمر خطورة أنه يتعلق بصحابي من صحابة رسول الله ﷺ.

(١) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٨).

(٢) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٠).

(٣) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٩٦): «عمرو بن أمية بن خويلد الضمريّ، أبو أمية. صحابيّ مشهور، قال ابن سعد: أسلم حين انصرف المشركون من أحد، وكان شجاعًا، وكان أول مشاهده بئر معونة، فأسره عامر بن الطفيل، وجزّ ناصيته، وأطلقه، وبعثه النبيّ ﷺ إلى النجاشي في زواج أم حبيبة، وإلى مكة، فحمل خبيبًا من خشبته، وله ذكر في عدة مواطن، وكان من رجال العرب جرأة ونجدة، وعاش إلى خلافة معاوية، فمات بالمدينة. وقال أبو نعيم: مات قبل الستين».

بها مع شرحبيل ابن حسنة(١). والرواية مختلفة في من قدم بها إلىٰ المدينة.

قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وروىٰ ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ- أن ذلك كان سنة سبع، وقيل كان سنة ست، والأول أشهر)(٢).

ولما بلغ أبا سفيان نكاح النبي ﷺ ابنته، قال: ذاك الفحل لا يُقرع أنفه(٣).

وعن الزهري -رحمه الله تعالىٰ- قال: لما قدم أبو سفيان بن حرب المدينة جاء إلىٰ رسول الله ﷺ وهو يريد غزو مكة، فكلمه أن يزيد في هدنة الحديبية فلم يقبل عليه رسول الله، فقام فدخل علىٰ ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس علىٰ فراش النبي ﷺ طوته دونه؛ فقال: يا بنية أرغبتِ بهذا الفراش عني أم بي عنه؟ فقالت: «بل هو فراش رسول الله، وأنت امرؤ نجس مشرك. فقال: يا بنية! لقد أصابك بعدي شر»(٤).

قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (كانت أم حبيبة -رضي الله تعالىٰ عنها- من سيّدات أمهات المؤمنين، ومن العابدات الورعات)(٥).

قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: وقد كان لأم حبيبة حُرمة وجلالة، ولا سيما في دولة أخيها؛ ولمكانه منها(٦).

توفيت أم المؤمنين أم حبيبة -رضي الله تعالىٰ عنه- سنة أربع وأربعين. وقيل

(١) انظر: ابن سعد، الطبقات (٨/ ٩٨).
(٢) انظر: ابن حجر في الإصابة: (٨/ ١٤١).
(٣) أخرجه ابن سعد (٨ / ٩٩)، والحاكم (٤/ ٢٤)، وقوله: ذاك الفحل لا يقرع أنفه، أي أنه كفء كريم لا يُرَدّ.
(٤) انظر: ابن سعد، الطبقات (٨/ ٩٩)، والذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٣)، وسير أعلام النبلاء (السيرة ٢ / ١٥٥).
(٥) البداية والنهاية (١١/ ١٦٦).
(٦) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٢).

سنة اثنتين وأربعين[1].

وعن أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: (دعتني أم حبيبة عند موتها، فقالت: قد كان يكون بيننا ما يكون بين الضرائر، فتحللينني من ذلك فحللتها، واستغفرت لها، فقالت لي: سررتني سرّك الله، وأرسلت إلىٰ أم سلمة بمثل ذلك، فقالت لها مثل ذلك[2]. رضي الله تعالىٰ عنهن وأرضاهن.

سابعًا: أم المؤمنين أم سلمة هند بنت أبي أمية -رضي الله تعالىٰ عنها-: قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (السيدة، المحجبة، الطاهرة، هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة المخزومية، بنت عم خالد بن الوليد سيف الله. من المهاجرات الأول. كانت قبل النبي ﷺ عند أخيه من الرضاعة؛ أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي، الرجل الصالح)[3].

وأبوها: أبو أمية، قيل: اسمه حذيفة، وقيل سهيل، ويلقب زاد الراكب؛ لأنه كان أحد الأجواد، فكان إذا سافر لا يترك أحدًا يرافقه ومعه زاد، بل يكفي رُفقته من الزّاد، وهو الذي اقترح علىٰ قريش تحكيم أول داخل عليهم عندما اختلفوا في وضع الحجر الأسود مكانه، وكادوا يقتتلون، فكان أول داخل هو الرسول ﷺ. وأمها عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك الكنانيّة، من بني فراس[4].

وأخوها زهير كان ممن قام في شأن نقض الصحيفة التي كتبتها قريش لمقاطعة بني هاشم.

---

(١) انظر: ابن سعد، الطبقات (٨/ ١٠٠)، والذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٢).

(٢) انظر: ابن سعد، الطبقات (٨/ ١٠٠)، والذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٣)، وابن حجر، الإصابة (٨/ ١٤٢).

(٣) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٠١).

(٤) انظر: ابن حجر، الإصابة (٨/ ٤٠٤).

كانت ممن أسلم قديمًا هي وزوجها، وهاجرَا إلىٰ الحبشة، فولدت له سلمة، ثم قدما مكّة وهاجرَا إلىٰ المدينة، فولدت له عمر، ودرة، وزينب[1].

وفي قصة هجرتها من مكة إلىٰ المدينة، كما يرويها ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ- عن أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، زوج النبي ﷺ، قالت: لما أجمع أبو سلمة -رضي الله تعالىٰ عنه- الخروج إلىٰ المدينة رحَّل لي بعيره ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بي بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة بن مخزوم قاموا إليه، فقالوا هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتك هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه. قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد، رهط أبي سلمة، فقالوا: لا والله، لا نترك ابننا عندها؛ إذ نزعتموها من صاحبنا. قالت: فتجاذبوا بُنَيَّ سلمة بينهم حتىٰ خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلىٰ المدينة. قالت: ففُرِّق بيني وبين زوجي وبين ابني. قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي، حتىٰ أُمْسِي سنة أو قريبًا منها، حتىٰ مرَّ بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة، فرأىٰ ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألَا تُخرجون هذه المسكينة، فرَّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها! قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت. قالت: ورد بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني. قالت: فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة. قالت: وما معي أحد من خلق الله. قالت: فقلت: أتبلغ بمن لقيت حتىٰ أقدم علىٰ زوجي، حتىٰ إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة[2]، أخا بني عبد الدار فقال لي: إلىٰ أين يا بنت أبي أمية؟ قالت: فقلت:

---

(١) انظر: ابن حجر، الإصابة (٨/ ٤٠٤).

(٢) كان عثمان في ذلك الوقت مشركًا، ثم أسلم -رضي الله تعالى عنه- في هدنة الحديبيّة، وهاجر مع خالد بن الوليد، وشهد الفتح مع النبيّ ﷺ، وأعطاه مفتاح الكعبة. ثم سكن المدينة إلى أن مات بها سنة اثنتين وأربعين، انظر: الإصابة لابن حجر (٤/ ٣٧٣).

أريد زوجي بالمدينة. قال: أوما معك أحد؟ قالت: فقلت: لا والله، إلا الله وبني هذا. قال: والله ما لك من مترك، فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوي بي، فو الله ما صحبت رجلًا من العرب قط، أرىٰ أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتىٰ إذا نزلت استأخر ببعيري، فحط عنه، ثم قيده في الشجرة، ثم تنحىٰ عني إلىٰ شجرة، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح، قام إلىٰ بعيري فقدمه فرحله، ثم استأخر عني، وقال: اركبي. فإذا ركبت واستويت علىٰ بعيري، أتىٰ فأخذ بخطامه، فقاده، حتىٰ ينزل بي. فلم يزل يصنع ذلك بي حتىٰ أقدمني المدينة، فلما نظر إلىٰ قرية بني عمرو بن عوف بقباء، قال: زوجك في هذه القرية -وكان أبو سلمة بها نازلًا- فادخليها علىٰ بركة الله، ثم انصرف راجعًا إلىٰ مكة. قال: فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحبًا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة»[1].

وقيل: إنها أوّل امرأة خرجت مهاجرة إلىٰ الحبشة، وأول ظعينة دخلت المدينة»[2].

وأصيب زوجها أبو سلمة -رضي الله تعالىٰ عنه- بجرح في غزوة أُحد، ثم انتقض جرحه بعد أشهر فمات منه.

وفي صحيح مسلم -رحمه الله تعالىٰ- عن أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦]، اللهم أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيرًا منها، إلا أخلف الله له خيرًا منها»، قالت: فلما مات أبو سلمة، قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلىٰ رسول الله ﷺ، ثم إني قلتها، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ»[3].

---

(١) ابن هشام، السيرة (١/ ٤٧٠).

(٢) انظر: ابن حجر، الإصابة (٨/ ٤٠٤).

(٣) صحيح مسلم (٢/ ٦٣١) رقم (٩١٨).

وفي سنن أبي داود -رحمه الله تعالىٰ- عن أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها-: قالت قال رسول الله ﷺ إذا حضرتم الميت فقولوا خيرا فإن الملائكة يُؤمّنون علىٰ ما تقولون؛ فلما مات أبو سلمة-رضي الله تعالىٰ عنه- قلت: يا رسول الله ما أقول؟ قال: قولي اللهم اغفر له وأعقبنا عقبىٰ صالحة، قالت: فأعقبني الله -تعالىٰ- به محمدًا ﷺ(١).

قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: أخرج النّسائيّ بسند صحيح عن أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها- أنها لما انقضت عدتها خطبها أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- فلم تتزوّجه، فبعث النبيّ صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم يخطبها عليه، فقالت: أخبر رسول الله ﷺ أني امرأة غَيْرَىٰ، وأني امرأة مُصْبِية، وليس أحد من أوليائي شاهدًا. فقال: «قل لها: أما قولك غَيْري فسأدعو الله فتذهب غيرتك. وأمّا قولك: إنّي امرأة مصبية فستكفين صبيانك. وأمّا قولك: ليس أحد من أوليائي شاهدًا؛ فليس أحد من أوليائك شاهد أو غائب يكره ذلك». فقالت لابنها عمر: قم فزوِّج رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم، فزوّجه»(٢).

دخل بها النبي ﷺ في شوال سنة أربع من الهجرة.

وكانت من أجمل النساء وأشرفهن نسبًا(٣). قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: وكانت أم سلمة موصوفة بالجمال البارع، والعقل البالغ، والرأي الصّائب، وإشارتها علىٰ النّبيّ ﷺ يوم الحديبيّة تدلّ علىٰ وفور عقلها وصواب رأيها. روت عن النّبيّ ﷺ وعن أبي سلمة -رضي الله تعالىٰ عنه-، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ورضي الله

(١) رواه أبو داود في سننه (٣١١٥) وصححه الألباني.
(٢) ابن حجر، الإصابة (٨/ ٤٠٥). وهو في سنن النسائي (٧/ ٣٢٦ برقم ٣٢٥٤)، وضعفه الألباني في ضعيف، الإرواء (٦ / ٢١٩ - ٢٢٠).
(٣) انظر: ابن حجر، الإصابة (٨/ ٤٠٥).

تعالىٰ عنها- [1]. وكانت تعد من فُقهاء الصحابيات.

ولها أولاد صحابيون: عمر، وسلمة، وزينب -رضي الله تعالىٰ عنهم-، روىٰ عنها: سعيد بن المسيب، وشقيق بن سلمة، والأسود بن يزيد، والشعبي، وأبو صالح السمان، ومجاهد، ونافع بن جبير بن مطعم، ونافع مولاها، ونافع مولىٰ ابن عمر، وعطاء بن أبي رباح، وشهر بن حوشب، وابن أبي مليكة، وخلق كثير -رحمهم الله تعالىٰ-.

عاشت نحوًا من تسعين سنة.

عُمرت حتىٰ بلغها مقتل الحسين الشهيد -رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه-، فوجمت لذلك، وغشي عليها، وحزنت عليه كثيرًا، ولم تلبث بعده إلا يسيرًا، وتوفيت؛ رحمها الله تعالىٰ ورضي عنها وأرضاها.

قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: والظاهر وفاتها في سنة إحدىٰ وستين رضي الله عنها[2].

ودُفنت بالبقيع. ونقل ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- عن أبي نعيم أنه قال: ماتت سنة اثنتين وستين، وهي من آخر أمهات المؤمنين موتا. قلت (ابن حجر): (بل هي آخرهنّ موتًا)[3].

وهذا يعني أن عمرها عند زواج الرسول ﷺ منها قد تجاوز الثلاثين سنة.

ويبلغ مسندها: ثلاث مائة وثمانية وسبعين حديثًا.

واتفق البخاري، ومسلم -رحمهما الله تعالىٰ- لها علىٰ ثلاثة عشر حديثًا.

---

(١) انظر: ابن حجر، الإصابة (٨/ ٤٠٦).

(٢) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٠).

(٣) انظر: ابن حجر، الإصابة (٨/ ٤٠٧).

وانفرد البخاري بثلاثة، ومسلم بثلاثة عشر.

ثامنًا: أم المؤمنين زينب بنت جحش -رضي الله تعالىٰ عنها-: زينب بنت جحش بن رياب أم المؤمنين وابنة عمة رسول الله ﷺ. أمها: أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم من المهاجرات الأُوَل[١].

كانت عند زيد بن حارثة مولىٰ النبي ﷺ. وهي التي يقول الله -جل شأنه- فيها: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب:٣٧]؛ فزوَّجها الله -تعالىٰ- لنبيه بنص كتابه، بلا ولي ولا شاهد.

قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (قيل: إن النبي ﷺ تزوج بزينب في ذي القعدة، سنة خمس، وهي يومئذ بنت خمس وعشرين سنة)[٢].

وفي صحيح البخاري -رحمه الله تعالىٰ- عن أنس -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: كانت زينب -رضي الله تعالىٰ عنها- تفخر علىٰ أزواج النبي ﷺ تقول: (زوّجكن أهاليكن، وزوّجني الله -تعالىٰ- من فوق سبع سموات)[٣].

كانت من سادة النساء دينًا، وورعًا، وجودًا، ومعروفًا -رضي الله تعالىٰ عنها-. وحديثها في الكتب الستة. روىٰ عنها: ابن أخيها محمد بن عبد الله بن جحش، وأم المؤمنين أم حبيبة، وزينب بنت أبي سلمة -رضي الله تعالىٰ عنهم-[٤].

تقول عنها أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-: (وهي التي كانت تساميني منهن في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أرَ امرأة قط خيرًا في الدين من

(١) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٠).
(٢) الذهبي في سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٧).
(٣) صحيح البخاري (٩/ ١٢٤) رقم (٧٤٢٠).
(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٢).

زينب. وأتقىٰ لله وأصدق حديثًا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالًا لنفسها في العمل الذي تصدّق به، وتقرب به إلىٰ الله -تعالىٰ-)[1].

وقالت أيضًا في سياقها لحديث الإفك: (وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع)[2].

وعن برزة بنت رافع، قالت: أرسل أمير المؤمنين عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- إلىٰ زينب -رضي الله تعالىٰ عنها- بعطائها، فقالت: غفر الله لعمر، غيري كان أقوىٰ علىٰ قسم هذا.

قالوا: كله لك.

قالت: سبحان الله!

واستترت منه بثوب، وقالت: صبوه، واطرحوا عليه ثوبًا.

وأخذت تُفرّقه في رحمها، وأيتامها؛ وأعطتني ما بقي؛ فوجدناه خمسة وثمانين درهمًا.

ثم رفعت يدها إلىٰ السماء، فقالت: اللهم لا يدركني عطاء عمر بعد عامي هذا[3].

ويروىٰ عن: عمرة، عن عائشة أم المؤمنين -رضي الله تعالىٰ عنها-، قالت: (يرحم الله زينب، لقد نالت في الدنيا الشرف الذي لا يبلغه شرف، إن الله زوّجها، ونطق به القرآن، وإن رسول الله قال لنا: «أسرعكن بي لحوقًا: أطولكن باعًا». فبشّرها بسرعة لحوقها به، وهي زوجته في الجنة)[4].

(١) صحيح مسلم (٤/ ١٨٩١) رقم (٢٤٤٢).
(٢) متفق عليه: صحيح البخاري (٤١٤١)، وصحيح مسلم (٤/ ٢١٢٩) رقم (٢٧٧٠).
(٣) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٢).
(٤) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٥).

وفي صحيح مسلم عن عائشة أم المؤمنين -رضي الله تعالىٰ عنها-، قالت: قال رسول الله ﷺ: «أسرعكن لحاقًا بي أطولكن يدًا» قالت: فكن يتطاولن أيتهن أطول يدًا، قالت: فكانت أطولنا يدًا زينب؛ لأنها كانت تعمل بيدها وتصدق)[١].

قال عنها الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (كانت صالحة، صوامة، قوامة، بارّة، ويقال لها: أم المساكين)[٢].

توفيت -رضي الله تعالىٰ عنها- في سنة عشرين، وصلىٰ عليها الخليفة الراشد أمير المؤمنين عمر -رضي الله تعالىٰ عنه-. ويقول القرطبي -رحمه الله تعالىٰ-: إن عمرها عند وفاتها ثلاث وخمسون سنة -رضي الله تعالىٰ عنها-[٣]. وهذا لا يتفق مع قول الذهبي -رحمه الله تعالىٰ- السابق الذي ذكر أن الرسول ﷺ تزوجها وعمرها خمس وعشرون سنة.

تاسعًا: أم المؤمنين جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار المصطلقية -رضي الله تعالىٰ عنها-: في مسند الإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ- عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-: (كان اسم جويرية بنت الحارث زوج النبي ﷺ برّة، فحوّل رسول الله ﷺ اسمها، فسماها جويرية)[٤].

سُبيت يوم غزوة المريسيع، في السنة الخامسة[٥].

وكان زوجها قبل ذلك ابن عمها مسافع بن صفوان بن أبي الشفر[٦].

---

(١) صحيح مسلم (٤/ ١٩٠٧) رقم (٢٤٥٢).
(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٧).
(٣) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ١٦٦).
(٤) مسند الإمام أحمد (٥/ ٧٧) رقم (٢٩٠٠). وقال محقق المسند: «صحيح، وهذا إسناد حسن، عامة رواته غير المسعودي ثقات من رجال الصحيح»، وانظر الإصابة (٨/ ٧٣).
(٥) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦١).
(٦) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦١).

عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-، قالت: لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق وقعت جويرية في السهم لثابت بن قيس بن شماس، أو لابن عم له فكاتبته علىٰ نفسها، وكانت امرأة حلوة ملاحة، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فكرهتها، وقلت: سيري منها مثل ما رأيت. فلما دخلت علىٰ رسول الله ﷺ قالت: أنا جويرية[1] بنت الحارث سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخفَ عليك، وقد كاتبت فأعني. فقال: (أو خير من ذلك؟ أُؤدِّي عنك كتابتك، وأتزوجك). فقالت: نعم. ففعل رسول الله ﷺ، فبلغ الناس أنه قد تزوجها، فقالوا: أصهار رسول الله ﷺ. فأرسلوا ما كان في أيديهم من بني المصطلق؛ فلقد أعتق بها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة علىٰ قومها منها[2].

قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (ومن مرسل أبي قلابة قال: سبىٰ النبيّ ﷺ جويرية- يعني وتزوّجها، فجاءها أبوها، فقال: إن بنتي لا يُسبَىٰ مثلها، فخلِّ سبيلها. فقال: «أرأيت إن خيّرتها أليس قد أحسنت؟» قال: بلىٰ، فأتاها أبوها فذكر لها ذلك، فقالت: اخترت الله ورسوله. وسنده صحيح)[3].

قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ- عن جويرية -رضي الله تعالىٰ عنها-، أن رسول الله ﷺ تزوجها وعمرها عشرون سنة[4].

حدث عنها: ابن عباس، وعبيد بن السباق، وكريب، ومجاهد، وأبو أيوب يحيىٰ بن مالك الأزدي، وآخرون -رحمهم الله تعالىٰ-.

(١) قولها: «أنا جويرية»، كأنه يدل على أن اسمها الذي سماها به أبوها هو (جويرية)، وليس كما ورد في الأثر أن (برة) هو اسمها، وأن الرسول ﷺ غيرَّه إلى (جويرية). والله أعلم. أو لعلها قالت: أنا بنت الحارث سيد قومه، ثم الراوي بعد ذلك ذكر اسمها (جويرية) بالاسم الجديد.

(٢) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية (١/ ٤٧٠).

(٣) ابن حجر، الإصابة (٨/ ٧٤).

(٤) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٣).

جاء لها سبعة أحاديث، منها عند البخاري حديث، وعند مسلم حديثان.

عن أبي أيوب[١] عن أم المؤمنين جويرية بنت الحارث -رضي الله تعالىٰ عنها- أن النبي ﷺ، دخل عليها يوم الجمعة وهي صائمة، فقال: «أصمتِ أمس؟»، قالت: لا، قال: «تريدين أن تصومي غدا؟» قالت: لا، قال: «فأفطري»[٢].

عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-، عن أم المؤمنين جويرية -رضي الله تعالىٰ عنها-، أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلىٰ الصبح، وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحىٰ، وهي جالسة، فقال: «ما زلتِ علىٰ الحال التي فارقتك عليها؟» قالت: نعم، قال النبي ﷺ: «لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وُزنت بما قلتِ منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته[٣]»[٤].

---

(١) قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- في الفتح (٤/ ٢٣٤): هو أبو أيوب العتكي وهو بفتح المهملة والمثناة نسبة إلى بطن من الأزد ويقال له أيضًا المراغي بفتح الميم والراء ثم بالغين المعجمة.

(٢) صحيح البخاري (٣/ ٤٢) رقم (١٩٨٦).

(٣) قال الشيخ عبد المحسن العباد: في شرحه لسنن أبي داود قوله: «(مداد كلماته) قيل: المقصود بذلك أنه المدد، وأنه لو قدر أن ذلك يكال أو يوزن لكان أعظم من ذلك، لكن يمكن أن يقال: المقصود بالمداد هو الحبر الذي يكتب به، وكلمات الله ليس لها حد وليس لها إحصاء؛ لأن كلام الله لا يتناهى؛ لأن الله تعالى متكلم بلا ابتداء، ويتكلم بلا انتهاء، فلا حصر لكلامه ولا نهاية لكلامه. وقد جاء في القرآن آيتان تدلان على أن كلام الله لا ينحصر، الآية الأولى قوله عز وجل: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف:١٠٩]، فهذه الأبحر والمحيطات لو كانت حبرًا يكتب به كلام الله لنفدت الأبحر والمحيطات ولم تنفد كلمات الله -عز وجل-، ولو أضيف إليها أضعافها. والآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:٢٧]؛ لأن كلام الله لا ينحصر ولا ينتهي؛ فالله متكلم بلا ابتداء ويتكلم بلا انتهاء، فلا حصر لكلامه» مختصرًا. المكتبة الشاملة.

(٤) صحيح مسلم (٤/ ٢٠٩٠) رقم (٢٧٢٦).

اختلف في سنة وفاتها -رضي الله تعالىٰ عنها-: فقيل: ماتت سنة خمسين من الهجرة، وقيل: بقيت إلىٰ ربيع الأول سنة ست وخمسين، قاله الواقدي -رحمه الله تعالىٰ-، قال: وصلىٰ عليها مروان. وقيل: عاشت خمسًا وستين سنة[1].

عاشرا: أم المؤمنين صفية بنت حي بن أخطب -رضي الله تعالىٰ عنها-:

أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب بن سعية من سبط اللاوي بن نبي الله إسرائيل بن إسحاق بن إبراهيم -عليهم السلام-، وهي من ذرية رسول الله هارون -عليه السلام-.

تزوجها قبل إسلامها: سلام بن أبي الحقيق، ثم خلف عليها: كنانة بن أبي الحقيق، وكانا من شعراء اليهود، فقُتل كنانة يوم خيبر عنها، وسُبيت، وصارت في سهم دحية الكلبي -رضي الله تعالىٰ عنه-[2].

عن أنس -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رسول الله ﷺ غزا خيبر،.. وجمع السبي، فجاءه دحية، فقال: يا رسول الله، أعطني جارية من السبي. فقال: «اذهب فخذ جارية»، فأخذ صفية بنت حيي، فجاء رجل إلىٰ نبي الله ﷺ، فقال: يا نبي الله، أعطيت دحية صفية بنت حيي سيد قريظة والنضير؟ ما تصلح إلا لك، قال: «ادعوه بها»؛ قال: فجاء بها، فلما نظر إليها النبي ﷺ، قال: «خذ جارية من السبي غيرها»، قال: وأعتقها وتزوجها، فقال له ثابت: يا أبا حمزة، ما أصدقها؟ قال: نفسها أعتقها وتزوجها، حتىٰ إذا كان بالطريق جهزتها له أم سليم، فأهدتها له من الليل، فأصبح النبي ﷺ عروسًا، فقال: «من كان عنده شيء فليجئ به»، قال: وبسط نطعًا، قال: فجعل الرجل يجيء بالأقط، وجعل الرجل يجيء بالتمر، وجعل الرجل يجيء بالسمن، فحاسوا حيسًا، فكانت وليمة رسول الله ﷺ[3].

(١) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٣). وابن حجر، الإصابة (٨/ ٧٤).
(٢) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٢).
(٣) صحيح مسلم (٢/ ١٠٤٣) رقم (١٣٦٥).

أخرج الحاكم -رحمه الله تعالىٰ- عن آمنة بنت أبي قيس الغفارية -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: أنا إحدىٰ النساء اللاتي زففن صفية -رضي الله تعالىٰ عنها- إلىٰ رسول الله ﷺ، فسمعتها تقول: (ما بلغت سبع عشرة، وجهدي أن بلغت سبع عشرة سنة ليلة إذ دخلت علىٰ رسول الله ﷺ)[(١)].

قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (وكانت شريفة، عاقلة، ذات حسب، وجمال، ودين -رضي الله تعالىٰ عنها-، وكانت ذات حلم، ووقار)[(٢)].

وعن أنس -رضي الله تعالىٰ عنه- قال بلغ صفية -رضي الله تعالىٰ عنها- أن حفصة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: بنت يهودي. فبكت فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي فقال: «ما يُبكيك؟» فقالت: قالت لي حفصة إني بنت يهودي. فقال النبي ﷺ: «إنك لابنة نبي، وإن عمك لنبيّ، وإنك لتحت نبي؛ ففِيمَ تفخر عليك؟» ثم قال: «اتقي الله يا حفصة»[(٣)].

قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (كانت من سيدات النساء عبادة، وورعًا، وزهادة، وبرًّا، وصدقة)[(٤)].

روىٰ الذهبي -رحمه الله تعالىٰ- عن الحسن بن موسىٰ الأشيب: حدثنا زهير، حدثنا كنانة، قال: كنت أقود بصفية -رضي الله تعالىٰ عنها- لترد عن عثمان -رضي الله تعالىٰ عنه-، فلقيها الأشتر، فضرب وجه بغلتها حتىٰ مالت.

فقالت: ذروني، لا يفضحني هذا!

---

(١) الحاكم، المستدرك (٤/ ٣١) رقم (٦٧٨٩)، ولم يتعقبه الذهبي في التلخيص.
(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٢ و٢/ ٢٢٥).
(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٨/ ٣٩٤) رقم (٣٨٩٤)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، وصححه الألباني في صحيح المشكاة (٦١٨٣).
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية (١١/ ٢٢٥).

ثم وضعت خشبًا من منزلها إلىٰ منزل عثمان، تنقل عليه الماء والطعام(١).

ذكر الذهبي -رحمه الله تعالىٰ- أنها تُوفيت سنة خمسين. وقال الحاكم -رحمه الله تعالىٰ-: إنها توفيت -رضي الله تعالىٰ عنها- سنة اثنتين وخمسين في زمن معاوية. واتفقوا علىٰ أنها قُبرت بالبقيع(٢).

ورد لها من الحديث عشرة أحاديث، منها واحد متفق عليه.

حادي عشر: أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية -رضي الله تعالىٰ عنها-: ميمونة بنت الحارث بن حزن بن بجير بن الهرم بن رويبة بن عبد الله بن هلال بن عامر بن صعصعة. وأمها هند بنت عوف بن زهير بن الحارث بن حماطة بن حارث من حمير(٣).

عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-، قال: كان اسم خالتي ميمونة برة فسماها رسول الله ﷺ ميمونة(٤). وفي المستدرك: حدثنا محمد بن عمر، قال: ميمونة بنت الحارث -رضي الله تعالىٰ عنها- أخت أم الفضل، فهي خالة عبد الله بن عباس، وهي أيضًا خالة خالد بن الوليد -رضي الله تعالىٰ عنه-(٥).

كانت تزوجت في الجاهلية مسعود بن عمرو بن عمير الثقفي، ثم فارقها فخلف عليها أبو رهم بن عبد العزىٰ بن أبي قيس من بني مالك بن حسل بن عامر بن لؤي، فتوفي عنها فتزوجها رسول الله ﷺ، زوجها إياه العباس بن عبد المطلب -رضي الله

(١) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٧)، وقال المحقق: رجاله ثقات، وأخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ١٢٩).
(٢) الحاكم، المستدرك (٤/ ٣١) رقم (٦٧٨٩)، والذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٩).
(٣) الحاكم، المستدرك (٤/ ٣١) رقم (٦٧٩١).
(٤) الحاكم، المستدرك (٤/ ٢٢) رقم (٦٧٩٣). وصححه ووافقه الذهبي.
(٥) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٣٨).

تعالىٰ عنه-، وكان يلي أمرها فبنىٰ بها رسول الله ﷺ بسرف علىٰ عشرة أميال من مكة، وكانت آخر امرأة تزوجها رسول الله ﷺ وذلك سنة سبع في عمرة القضية(١).

عن يزيد بن الأصم، ابن أخت ميمونة قال: قالت عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- تخبر عن ميمونة -رضي الله تعالىٰ عنها-: (..ذهبت والله ميمونة. أما أنها كانت من أتقانا لله -عز وجل- وأوصلنا للرحم)(٢).

قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: وكانت من سادات النساء. روت عدة أحاديث(٣).

ونقل ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- عن ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ- بسنده عن ميمون بن مهران -رحمه الله تعالىٰ-: سألت صفية بنت شيبة، فقالت: تزوّج رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم ميمونة بسرف وبنىٰ بها في قبّة لها، وماتت بسرف، ودُفنت في موضع قبّتنا، وكانت وفاة ميمونة سنة إحدىٰ وخمسين(٤).

ونقل الذهبي -أيضًا -رحمه الله تعالىٰ- قول خليفة: توفيت سنة إحدىٰ وخمسين رضي الله عنها.

روي لها: سبعة أحاديث في (الصحيحين)، وانفرد لها البخاري بحديث، ومسلم بخمسة، وجميع ما روت: ثلاثة عشر حديثًا(٥).

(١) الحاكم، المستدرك (٤/ ٢١) رقم (٦٧٩١). ولم يتعقبه الذهبي، وابن حجر، الإصابة (٨/ ٣٢٢).
(٢) الحاكم، المستدرك (٤/ ٣٤ رقم ٦٧٩٩). وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»؛ قال الذهبي في التلخيص: على شرط مسلم، وأخرجه ابن حجر في الإصابة (٨/ ٣٢٤)، وقال: وهذا سند صحيح.
(٣) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٣٩).
(٤) انظر: ابن حجر الإصابة (٨/ ٣٢٤).
(٥) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٤٥).

هذا عرض مختصر وتعريف موجز بأمهات المؤمنين -رضي الله تعالىٰ عنهن جميعًا-، ولي بعد ذلك هذه الوقفات:

أولًا: إن الله -تعالىٰ- شرّف هؤلاء النسوة الكريمات ليكنَّ زوجات لنبيه ﷺ، ووصفهن بهذا الوصف العظيم في كتابه العزيز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ [الأحزاب:٥٠]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ [الأحزاب: ٢٨]، وناداهن الله جل جلاله، بنساء النبي؛ فقال -سبحانه وتعالىٰ-: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:٣٠]، وهذا شرف عظيم لهن حين نوَّه الله -تعالىٰ- بذِكْرهن في كتاب يُتْلَىٰ إلىٰ آخر الزمان، ونسبهن فيه لأفضل الأنبياء والمرسلين. قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: نشهد أنها- يعني عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- زوجة نبينا ﷺ في الدنيا والآخرة، فهل فوق ذلك مفخر»[1]. وهذا ثابت لكل زوجات النبي ﷺ كما سيأتي.

ثانيًا: إن الله -تعالىٰ- لما اختارهن لنبيه ﷺ، وأدركن قيمة ذلك الشرف العظيم؛ ثم خيرهن النبي ﷺ بين العيش معه علىٰ القلة والحرمان، وبين متاع الدنيا؛ فاخترن الله ورسوله؛ كما في حديث عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- زوج النبي ﷺ، قالت: لما أُمِر رسول الله ﷺ بتخيير أزواجه بدأ بي، فقال: «إني ذاكر لك أمرًا؛ فلا عليك أن لا تعجلي حتىٰ تستأمري أبويك». قالت: وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه، قالت: ثم قال: «إن الله -جل ثناؤه- قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ إلىٰ ﴿أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨]؛ «قالت: فقلت: ففي أيِّ هذا أستأمر أبوي، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، قالت: ثم فعل أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلت»[2]. فقد اخترن الله ورسوله مع شظف العيش، علىٰ متاع

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٣٥).

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري (٦/ ١١٧) رقم (٤٧٨٦)، وصحيح مسلم (٢/ ١١٠٣) رقم (١٤٧٥)

الدنيا؛ إذ كان يمر الشهر والشهران لا يوقد في بيوتهن نار للطبخ، ويرضين بما رضي به رسول الله ﷺ، وهو التمر والماء، وهذا يدل علىٰ فضلهن وقوة إيمانهن ورغبتهن في الله ورسوله والدار الآخرة، قال ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (وقد ثبت أيضًا بالنقل الصحيح: أن هذه الآيات لما نزلت قرأها النبي ﷺ علىٰ أزواجه، وخيَّرهن كما أمره الله، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة، ولذلك أقرهن، ولم يطلقهن، حتىٰ مات عنهن)[1]. وقال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (فاخترن -رضي الله عنهن وأرضاهن- الله ورسوله والدار الآخرة، فجمع الله لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة)[2].

ثالثًا: إن الله -تعالىٰ- فضَّلهن علىٰ عموم النساء، وخاطبهن الله -جل شأنه- بخطاب موجه إليهن مباشرة في قرآن يتلىٰ إلىٰ يوم القيامة فقال -سبحانه وتعالىٰ-: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٢]. قال ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-: (يريد ليس قدركن عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات، أنتن أكرم علي، وثوابكن أعظم لدي)[3]. وقال الطاهر بن عاشور -رحمه الله تعالىٰ-: (ونداؤهن للاهتمام بما سيلقىٰ إليهن. وناداهن بوصف نساء النبي ليعلمن أن ما سيلقىٰ إليهن خبر يناسب علو أقدارهن)[4].

رابعًا: إن الله -جل شأنه- وعدهن بوعد كريم منه وهو مضاعفة الأجر لهن مضاعفة خاصة بهن، قال الطبري في تفسيره: ﴿نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾ [الأحزاب: ٣١]، يقول: يعطها الله ثواب عملها، مثلي ثواب عمل غيرهن من سائر نساء الناس[5].

---

(١) ابن تيمية، حقوق آل البيت تحقيق عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية) (ص ٢٨).
(٢) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٦/ ٤٠١).
(٣) البغوي، تفسير البغوي (٦/ ٣٤٨).
(٤) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٢١/ ٣١٩).
(٥) الطبري، تفسير الطبري، تحقيق التركي (١٩/ ٩٢).

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس أنه قال في حاصل معنىٰ الآيتين: أنه من عصىٰ منكن؛ فإنه يكون للعذاب عليها الضعف منه علىٰ سائر نساء المؤمنين، ومن عمل صالحًا فإن الأجر لها الضعف علىٰ سائر نساء المسلمين[1]. ويستدعي هذا أنه إذا أُثيب نساء المسلمين علىٰ الحسنة بعشر أمثالها أُثبن هنَّ علىٰ الحسنة بعشرين مثلًا لها، وإن زيد للنساء علىٰ العشر شيء زيد لهن ضعفه[2].

خامسًا: قال ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ- في العقيدة الواسطية مبينا معتقد أهل السنة والجماعة في أمهات المؤمنين: (ويتولون أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين. ويقرون: بأنهن أزواجه في الآخرة)[3]. وكونهن أزواجه ﷺ في الجنة جاء به حديث عن عبد الله بن أبي أوفىٰ -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «سألت ربي ألا أتزوج إلىٰ أحد، ولا أزوج إليه إلا كان معي في الجنة، فأعطاني ذلك»[4]. وفي صحيح البخاري -رحمه الله تعالىٰ- قول عمار بن ياسر -رضي الله تعالىٰ عنهما-، في شأن أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-: (إني لأعلم أنها زوجته في الدنيا والآخرة)[5].

وقد أخذ بعض العلماء هذه البشارة بالجنة أيضًا من قوله -تعالىٰ-: ﴿**وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا**﴾ [الأحزاب: ٣١]، قال القرطبي -رحمه الله تعالىٰ-: (وأهل

(١) ابن أبي حاتم، تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق أسعد محمد الطيب، الطبعة الثالثة (مكة: مكتبة نزار مصطفى الباز ١٤١٩)، (٩/ ٣١٢٩) رقم (١٧٦٦١). وقال المحقق: إن هذا الأثر من الدر المنثور للسيوطي (٦/ ٥٩٧- ٥٩٨). ونقله الألوسي وعلق عليه.

(٢) الألوسي، تفسير الألوسي (١١/ ١٨٤).

(٣) ابن تيمية، العقيدة الواسطية (١١٨).

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦/ ٥٠) رقم (٥٧٦٢)، والحاكم في المستدرك (٣/ ١٤٨) رقم (٤٦٦٧)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي في التلخيص. والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٧) رقم (١٦٢٨٨) وقال: «رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عمار بن سيف، وقد ضعفه جماعة، ووثقه ابن معين، وبقية رجاله ثقات».

(٥) صحيح البخاري ٥/ ٢٩) رقم (٣٧٧٢).

التفسير علىٰ أن الرزق الكريم الجنة، ذكره النحاس)[1]. يقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (﴿ نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣١]؛ أي: في الجنة، فإنهن في منازل رسول الله ﷺ، في أعلىٰ عليين، فوق منازل جميع الخلائق، في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلىٰ العرش)[2].

وقال الطاهر بن عاشور -رحمه الله تعالىٰ-: (والعدول عن المضارع إلىٰ فعل الماضي في قوله -تعالىٰ-: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ لإفادة تحقيق وقوعه. والرزق الكريم: هو رزق الجنة)[3].

سادسًا: قد اجتهد العلماء في السبب الذي فُضِّلت به أمهات المؤمنين علىٰ بقية النساء فقال الرازي -رحمه الله تعالىٰ- : (أمر لا يوجد في غيركن وهو كونكن أمهات جميع المؤمنين وزوجات خير المرسلين، وكما أن محمدًا -عليه السلام- ليس كأحد من الرجال، كما قال -عليه السلام-: «لست كأحدكم»؛ كذلك قرائبه اللاتي يشرفن به، وبين الزوجين نوع من الكفاءة)[4]. أما الطاهر بن عاشور -رحمه الله تعالىٰ- فيرىٰ أن السبب (أنهن اتصلن بالنبي -عليه الصلاة والسلام- اتصالًا أقرب من كل اتصال وصرن أنيساته ملازمات شؤونه فيختصصن باطلاع ما لم يطلع عليه غيرهن من أحواله وخلقه، في المنشط والمكره، ويتخلقن بخلقه أكثر مما يقتبس منه غيرهن، ولأن إقباله عليهن إقبال خاص)[5]. ويمكن أن يضاف إليها ما تميزن به -رضي الله تعالىٰ عنهن- من صفات التقوىٰ والإيمان الرفيعة، وما اختصصن به من تلقي تربية النبي ﷺ المباشرة، في بيوت النبوة.

(١) القرطبي، تفسير القرطبي ١٤/ ١٧٦).
(٢) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٦/ ٤٠٨).
(٣) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٢٢/ ٦).
(٤) الرازي، تفسير الرازي (٢٥/ ١٦٧).
(٥) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٢٢/ ٧).

سابعًا: الاصطفاء الإلهي: قال -تعالىٰ-: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٤]. لقد وقف المفسرون عند ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين، ومن المعلوم أن ختم الآيات باسم من أسماء الله أو اسمين له علاقة وثقىٰ بما ورد في الآية نفسها، وكون الآية تختم بذكر ﴿ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ لها دلالتها الواضحة علىٰ أن الله -تعالىٰ- اختار لنبيه أزواجًا هن خير الأزواج؛ حيث اصطفىٰ له -سبحانه- خير نساء العالمين. وكفىٰ بذلك شرفًا ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [القصص:٦٨]، يقول شيخ المفسرين الإمام الطبري -رحمه الله تعالىٰ-: (إن الله كان ذا لطف بكن؛ إذ جعلكن في البيوت التي تُتلىٰ فيها آياته والحكمة، خبيرًا بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجًا)[1]. وقال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أي: بلطفه بكن بلغتن هذه المنزلة، وبخبرته بكن وأنكن أهل لذلك، أعطاكن ذلك وخصكن بذلك)[2]. وقال الزمخشري -رحمه الله تعالىٰ- عند قوله -تعالىٰ- ﴿خَبِيرًا﴾: علم من يصلح لنبوّته ومن يصلح لأن يكونوا أهل بيته)[3].

فالأمر اختيار واصطفاء وتكريم، ولا ريب أن هذه تزكية إلهية ما بعدها تزكية، تدل علىٰ كمال صلاح أمهات المؤمنين، وعلو درجة إيمانهن، وتؤكد حقيقة اصطفاء أمهات المؤمنين علىٰ سائر النساء.

ومن أجمل ما مر عليّ قول عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه- في قضية الإفك وله صلة بهذه المسألة، ما نقله العيني -رحمه الله تعالىٰ- في عمدة القاري بقوله: (ومنها في شأن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- لما قال أهل الإفك ما قالوا،

(١) الطبري، تفسير الطبري، تحقيق التركي (١٩/ ١٠٨).
(٢) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٦/ ٤١٦).
(٣) الزمخشري، الكشاف (٣/ ٥٣٨).

فقال عمر: يا رسول الله من زوَّجكها؟[1]. فقال: الله -تعالىٰ-!! قال: أفتنظر أن ربك دلّس عليك فيها (سبحانك هذا بهتان عظيم)؛ فأنزل الله ذلك)؛ ذكره المحب الطبري في أحكامه[2].

فهن -رضي الله تعالىٰ عنهن- فوق كل شبهة، وأحرىٰ بكل مقام شريف، وأولىٰ بكل منزلة كريمة، ذلك أن الله -جل شأنه- هو الذي اختار له تلك الزوجات الكريمات.

ثامنًا: قال القرطبي -رحمه الله تعالىٰ-: (قوله -تعالىٰ-: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ شرف الله -تعالىٰ- أزواج نبيه ﷺ بأن جعلهن أمهات المؤمنين، أي في وجوب التعظيم والمبرة والإجلال وحرمة النكاح علىٰ الرجال.... والذي يظهر لي أنهن أمهات الرجال والنساء، تعظيمًا لحقهن علىٰ الرجال والنساء. يدل عليه صدر الآية: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، وهذا يشمل الرجال والنساء ضرورة)[3].

تاسعًا: إن الله -جل شأنه- حرَّم علىٰ الأُمَّة نكاح أزواجه ﷺ من بعده، وجعل لهن حكم الأمهات. وهذا من خصائصه تمييزًا لشرفه وتنبيهًا علىٰ مرتبته ﷺ[4].

عاشرًا: أمهات المؤمنين من أهل بيت النبي ﷺ قال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب:٣٣]، قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ

(١) ما أعظم فقه عمر -رضي الله تعالى-، الذي استحضر هذا المعنى العظيم في هذه المناسبة، وأن زواج الرسول ﷺ من عائشة -رضي الله تعالى- كانت برؤيا رآها الرسول ﷺ في منامه مرات، ويخبره بذلك ملك. ويقول الرسول ﷺ «إن يك هذا من عند الله، يمضه» (صحيح البخاري ٣٨٩٥ وصحيح مسلم ٢٤٣٨).

(٢) عمدة القاري (٤/ ١٤٤).

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ١٢٣). وفي المسألة أقوال أخرى.

(٤) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٢٢٩).

﴿تَطْهِيرًا﴾: وهذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت هاهنا؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولًا واحدًا، إما وحده علىٰ قول، أو مع غيره علىٰ الصحيح[1].

حادي عشر: إن في كونهن أمهات للمؤمنين تشريفًا للمؤمنين، فكل مؤمن يحق له أن يفخر بأن خديجة أم له، وسودة أم له وعائشة أم له.. -رضي الله تعالىٰ عنهن كلهن وأرضاهن-. فمن نِعَم الله علىٰ هذه الأمة كثرة أمهات المؤمنين فبودّنا لو كُنَّ مائة أو ألف؛ فهذا خير كثير للمؤمنين أن تكثر أمهاتهم اللاتي لهن تلك المنزلة عند الله -جل شأنه- وعند رسوله ﷺ، يتقرب المسلم إلىٰ الله -تعالىٰ- بمحبتهن وتعظيمهن.

ثاني عشر: في تعدّد أمهات المؤمنين مصلحة شرعية، فكلهن تعلمن في بيت النبوة وتأدبن بهذا الأدب تأدبًا عمليًّا، ثم خرجن إلىٰ الناس يعلمونهن هذا الأدب، فأصبح لدينا هذا العدد من الأمهات المتأدبات بالأدب النبوي تأدبًا مباشرًا من الرسول ﷺ ينقلن هذا الأدب للأمة، قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (وكان الشعبي-رحمه الله تعالىٰ- يذكرها -أي عائشة رضي الله تعالىٰ عنها-، فيتعجب من فقهها وعلمها، ثم يقول: ما ظنكم بأدب النبوة)[2].

ومثل هذا الأدب لا يتلقىٰ بالقول فقط حتىٰ نقول: إنه يكفي أن نسمعه من الرسول ﷺ؛ بل مشاهدة أمهات المؤمنين للرسول ﷺ شيء آخر. ثم بثهن ذلك عمليًّا وقوليًّا للناس.

ثالث عشر: إن الرسول ﷺ أُسوتنا، كما قال الله -جل شأنه-: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وهو ﷺ أسوة لنا في حياته الخارجية

(١) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٦/ ٤١٠)، وانظر: ابن الجوزي، زاد المسير (٣/ ٤٦٣).
(٢) الذهبي، سير أعلام (٢/ ١٩٧).

خارج بيته، وحياته الداخلية في بيته، وقد تكفل جمع من الصحابة الكرام -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين- في نقل سيرته ودقائق أموره في حياته الخارجية، ونحن في ضرورة لمعرفة سيرته ودقائق أموره في حياته الداخلية لنتأسىٰ بها، ولا بد من تبليغها، وكلما أوكل هذا التبليغ لهذه السيرة الداخلية والحياة الزوجية لعدد أكبر من الزوجات، كان أدعىٰ لحفظ هذه السيرة ونقلها للناس للعمل بها في بيوتهم مع زوجاتهم. فكان من نعمة الله -جل شأنه- علىٰ هذه الأمة تعدد زوجاته ﷺ. وقد أشار إلىٰ هذا المعنىٰ ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- فقال: (نقل الأحكام الشرعية التي لا يطلع عليها الرجال؛ لأن أكثر ما يقع مع الزوجة مما شأنه أن يختفي مثله)[1].

رابع عشر: كما أن في الرجال رجالًا أفاضل، سبقوا إلىٰ الإسلام، وأفنوا أعمارهم في العلم والدعوة والجهاد؛ فكذلك في نساء الأمة فُضْلَيات كن علامات بارزة مضيئة في هذه الأمة المباركة، وكنّ عونًا لرجالهن علىٰ مهامهم في خدمة دين الله -تعالىٰ-. وفي مقدمتهن أمهات المؤمنين -رضي الله تعالىٰ عنهن وأرضاهن-؛ إذ عشن في بيت النبوة، وخدمن النبي ﷺ، ونقلن عنه أقواله وأفعاله وأحواله في خاصة بيته وأهله، وهو عِلْم لم يصل إلينا إلا عن طريقهن.

خامس عشر: مما يحسن الإشارة إليه هنا أن تعدّد الزوجات عند العرب كثير مشهور، وخاصة بين كبارهم، ولم يكن له حدّ محدود لا يجوز تجاوزه، ولذلك لم يتحدث أحد من أعداء الرسول ﷺ في عصره عن هذا الأمر مع حرصهم البالغ علىٰ تتبع؛ بل واختلاق ما لعلهم يجدون فيه مغمزًا في سيرته الشريفة المطهرة ﷺ.

وجاء التحديد بأربع زوجات تشريعًا للأمة الإسلامية، علىٰ خلاف الأصل القائم في العرب.

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٩/ ١١٥).

سادس عشر: من هو الذي يستطيع أن يعيش مع هذه العدد من الزوجات، ويأذن؛ بل ربما يأمرهن، بالحديث عن سيرته معهن بما فيها من أسرار؟ من منا يأذن لزوجته أن تحدث الناس عن حياته معها وتعامله معها وخصوصياته التي لا يرغب في معرفة الناس بها؟ لا أظن بل أكاد أجزم أنه لا يوجد شخص يأذن بأن تكون أخبار بيته متاحة للناس؛ لما يعلم من بعض أحواله التي لا يرغب في اطلاع الناس عليها؛ لكونها مما لا يليق بمثله عند الناس، والرسول ﷺ اجتمع عنده تسع زوجات -أي تسعة أبيات- يأوي إليهن، وكلهن يروين أخباره وحياته للناس.

سابع عشر: إن طبائع النساء تختلف، وقد تأملت فيمن حولي، ومن أعرف فلاحظت أمرًا عجيبًا، وهو أن جزءًا من توفيق الله للعبد أن يرزقه زوجة تتفق مع طبيعته؛ فبعض الأشخاص عنده عجلة في الأمور، ويحمل هَمَّ كل أمر سيعمله ويستعد له مبكرًا استعدادًا غير مألوف عند غيره؛ فإذا وُفِّق لزوجة مثله في الطبائع سارا في حياتهما سويًّا منسجمين، وإن كانت زوجة باردة الطبع، لا تستعد لأمورها إلا في آخر لحظة ولا تحمل هَمًّا، ولا تفكر في مستقبل، كان بينهما من الخصام اليومي المتكرر ما يشق علىٰ كلّ من الزوجين.

فكيف ستكون حال الزوج إذا كان لديه أكثر من زوجة، وهن مختلفات الطباع، سيجد الزوج مشقة بالغة للتعامل مع هذه وتلك، كل بما يناسبها، ولو خالف طبعه الشخصي.

تأمل هذا، ثم هل يمكن أن تجد زوجًا يستطيع أن يجعل كل زوجاته راضيات مثنيات عليه مستمسكات به؟!

الرسول الكريم ﷺ عاش مع إحدىٰ عشرة زوجة، وجمع في وقت واحد تسع زوجات وكلهن يجدن منه ﷺ الخُلق الأمثل، والتعامل الأكمل، وقد خيّرهن فاخترنه علىٰ متاع الدنيا كلها، فكانت سيرته هنا آية من آيات نبوته ﷺ.

ثامن عشر: وإلحاقًا للفائدة السابقة أقول: إن القارئ لسيرته يضيف -أيضًا- معنىٰ آخر؛ وهو أنه ﷺ قدوة لكل الأزواج سواء انسجمت طبائعهم مع زوجاتهم أو اختلفت، أو تعددت زوجاتهم واختلف طبائعهن أو ظهر ما لا بد منه من غيرة بينهن، فكل تلك الأحوال سيجد لها جواب عمليًّا في هذه السيرة الشريفة.

تاسع عشر: إن الله -جل شأنه- قد يُجري أمرًا لم نعتد عليه في مجتمعنا، ابتلاءً وامتحانًا للقلوب؛ وفي تعدد زوجات الرسول ﷺ بهذا العدد أمر لم نألفه في عصرنا، فكيف نتعامل مع هذه القضية التي تخالف ما عهدناه من قصر الزواج علىٰ أربع نسوة. هل نؤمن؟ هل نسلم؟، بل هل نوقّر نبينا؟ ونعرف خصوصيته ونسلّم بحكمته وحكمة التشريع الذي جاء به ﷺ ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [العنكبوت:١١]، وجريان الأمور علىٰ المعتاد لا يكشف ما في النفوس.

العشرون: إن هذا التعدد يكشف عن خصوصية للرسول ﷺ، عن أنس بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رسول الله ﷺ كان يطوف علىٰ نسائه في ليلة واحدة، وله تسع نسوة[(١)]. وهذا أمر غير معهود أن يستطيع الرجل أن يجامع تسع زوجات في ليلة واحدة. يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- في تعليقه علىٰ هذا الحديث: (..لإظهار المعجزة البالغة في خرق العادة لكونه كان لا يجد ما يشبع به من القوت غالبًا، وإن وجد كان يؤثر بأكثره، ويصوم كثيرًا ويواصل، ومع ذلك فكان يطوف علىٰ نسائه في الليلة الواحدة ولا يُطاق ذلك إلا مع قوة البدن)[(٢)]. خاصة إذا استحضرنا عمر الرسول ﷺ في ذلك الوقت، فقد تجاوز ﷺ الستين عامًا.

الحادية والعشرون: من طالع سيرة أمهات المؤمنين -رضي الله تعالىٰ عنهن- يلحظ أنه مع وجود الغَيْرة بينهن، وهو أمر فطري، -ومن يلومهن علىٰ الغيرة علىٰ محبته ﷺ؟!- إلا أنه يجد التقىٰ ظاهرًا غالبًا علىٰ تصرفاتهن، فقد كن حريصات

---

(١) صحيح البخاري (٧/ ٤) رقم (٥٠٦٨).

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٩/ ١١٤).

علىٰ حفظ ألسنتهن من الزلل في شأن الغَيْرة عليه ﷺ، كما ورد في أم المؤمنين زينب بنت جحش -رضي الله تعالىٰ عنها- عندما قال لها الرسول ﷺ في مسألة الإفك: «يا زينب، ما علمت ما رأيت؟» فقالت: «يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيرًا»، قالت عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-: «وهي التي كانت تساميني، فعصمها الله بالورع»[1].

وإذا سبق منهن شيء في ذلك فإنهن يحرصن علىٰ الاعتذار وكن يسامح بعضهن بعضًا في ذلك، عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: (دعتني أم حبيبة عند موتها، فقالت: قد كان يكون بيننا ما يكون بين الضرائر، فتحللينني من ذلك فحللتها، واستغفرت لها، فقالت لي: سررتني سرّك الله، وأرسلت إلىٰ أم سلمة بمثل ذلك، فقالت لها مثل ذلك)[2].

وكثير من عبارات الثناء علىٰ أمهات المؤمنين التي نقلتها فيما سبق كانت مروية عن عائشة -رضي الله عنهن جميعًا-، فكانت تثني عليهن وتذكر ما فيهن من فضائل، وما تميزن به من أعمال صالحات.

وهو درس للنساء بعامة، وللضرائر بخاصة بالتقوىٰ وحفظ اللسان والفيئة إلىٰ الله -تعالىٰ-، والعفو والتسامح وقبول العذر، والله المستعان.

الثانية والعشرون: لا تخلو الحياة الزوجية في أي بيت من وجود خلافات، حتىٰ بين أفضل النساء، أمهات المؤمنين، -رضي الله تعالىٰ عنهن وأرضاهن-، يقع منهن ما يقع للبشر من الغيرة والمخاصمة وطلب الزيادة في النفقة، ونحو ذلك.

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (٣/ ١٧٣) رقم (٢٦٦١)، وصحيح مسلم (٤/ ٢١٢٩) رقم (٢٧٧٠). من حديث أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها-.

(٢) انظر: ابن سعد، الطبقات (٨/ ١٠٠)، والذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٣)، وابن حجر، الإصابة (٨/ ١٤٢).

وقد نُقل شيء من هذا؛ لعدة أمور:

- أن البيوت لا تخلو من مثل هذا، فلا تطلب الكمال في بيتك.
- لبيان التشريع للأمة في هذه المواقف، وتوجيهًا لهم للتأسي بأفضل الهدي منه ﷺ.
- وللحث على التسامح بعد الوقوع كما حصل من أمهات المؤمنين فيما بينهن -رضي الله تعالىٰ عنهن-.

الثالثة والعشرون: سُئل ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ- عن أم المؤمنين خديجة، وأم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالىٰ عنهن وأرضاهن-، أيهما أفضل؟» فأجاب:

(بأن سبق خديجة -رضي الله -تعالىٰ- وتأثيرها في أول الإسلام؛ ونصرها وقيامها في الدين لم تشركها فيه عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- ولا غيرها من أمهات المؤمنين. وتأثير عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- في آخر الإسلام وحمل الدين وتبليغه إلىٰ الأمة؛ وإدراكها من العلم ما لم تشركها فيه خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- ولا غيرها مما تميزت به عن غيرها)[1]. وهو جواب دقيق أعطىٰ كل واحدة حقها من التعظيم والتوقير والاعتراف بفضلها الذي وفَّقها الله إليه، وشرّفها به.

وأيضًا فضل خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- فيما يتعلق بشرف خدمة شخص الرسول ﷺ لا يقارن بعائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-، وخدمة عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- للأمة بنقلها العلم لهم لا يقارن بما نقلته خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، وكل منهما له الفضل الأسمىٰ والمقام الأعلىٰ. رضي الله تعالىٰ عنهن وأرضاهن وجميع أمهات المؤمنين.

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٤/ ٣٩٣). وانظر: ابن القيم، جلاء الأفهام في الصلاة على محمد خير الأنام، تحقيق شعيب الأرناؤوط وزميله، الطبعة الثانية (الكويت: دار العروبة ١٤٠)، (ص٢٣٥).

الرابعة والعشرون: في ختام هذا المبحث: يتضح لكل مسلم ومسلمة رفعة درجة أمهات المؤمنين -رضي الله تعالىٰ عنهن- باختيار الله لهن ليكن زوجات الرسول ﷺ، وأن الله -عز وجل- اختارهن لكمالهن زوجات لنبيه فلا يناسبه وهو الأكمل ﷺ من عباد الله، إلا أكمل النساء. كما يتبين فضلهن، وصحة مقصدهن، وعلو همتهن، باختيارهن الله ورسوله ﷺ، ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور: ٢٦].

وهذا يستوجب علىٰ كل مسلم ومسلمة: تولي زوجات النبي ﷺ، ومحبتهن والتقرب إلىٰ الله بذلك، وتعظيمهن، ومعرفة فضلهن وإحسان القول فيهن، والذّبّ عنهن، والرد علىٰ منتقصهن، أو من لا يعرف مكانتهن؛ بل وإظهار فضائلهن، ودراسة سيرتهن، ونشر أخبارهن وآدابهن وعبادتهن؛ وتعليمها للناس وبخاصة النساء، فإنهن أعظم النساء تعلمًا وتأدبًا وتخلقًا في مدرسة النبوة، وهن أولىٰ من يكن قدوة لنساء الأمة الإسلامية في كل أمور دينهن ودنياهن.

المبحث الثالث عشر

أولاد النبي ﷺ

ذكر القرآن الكريم أن للنبي ﷺ ثلاث بنات أو أكثر. قال -تعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب:٥٩].

وأجمع أهل النقل -كما يقول القرطبي رحمه الله تعالىٰ- أن خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- ولدت للرسول ﷺ أربع بنات كلهن أدركن الإسلام، وأسلمن، وهاجرن -والحمد لله رب العالمين-: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة -رضي الله تعالىٰ عنهن وأرضاهن-، وأجمعوا أنها وَلَدت له ابنًا يُسمَّىٰ: القاسم، وبه ﷺ كان يُكْنىٰ.

واختلفوا هل ولدت له ذكرًا غير القاسم؟ فقيل: لم تلد له ذكرًا غيره. وقيل: ولدت له ثلاثة ذكور: عبد الله، والطيب، والطاهر. وقيل: بل ولدت له أيضًا: عبد الله، أما الطيب والطاهر فأسماء له[١].

وقال ابن عبد البر -رحمه الله تعالىٰ-: (وولده ﷺ من خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- أربع بنات -رضي الله تعالىٰ عنهن- لا خلاف في ذلك، أكبرهن زينب -رضي الله تعالىٰ عنها- بلا خلاف، وبعدها أم كلثوم، -رضي الله تعالىٰ عنها-، وقيل بل رقية -رضي الله تعالىٰ عنها- وهو الأولىٰ والأصح؛ لأن رقية -رضي الله تعالىٰ عنها- تزوجها عثمان -رضي الله تعالىٰ عنه- قبلُ، ومعها هاجر إلىٰ أرض الحبشة، ثم تزوج بعدها، وبعد وقعة بدر أم كلثوم -رضي الله تعالىٰ عنها-.. والأكثر والصحيح أن أصغرهن فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها- وعن جميعهن)[٢].

(١) انظر: القرطبي، المفهم (٦/ ٣١٣).
(٢) ابن عبد البر، الاستيعاب (١/ ٥٠).

وقال: (وقد اضطرب مصعب والزبير في بنات النبي ﷺ، أيتهن أكبر وأصغر اضطرابًا يوجب ألا يلتفت إليه في ذلك. والذي تسكن إليه النفس علىٰ ما تواترت به الأخبار في ترتيب بنات رسول الله ﷺ أن زينب الأولىٰ، ثم الثانية رقية، ثم الثالثة أم كلثوم، ثم الرابعة فاطمة الزهراء[١])[٢]. رضي الله تعالىٰ عنهن أجمعين.

وبالإضافة إلىٰ هؤلاء؛ فإن للرسول ﷺ ولدًا سماه إبراهيم -رضي الله تعالىٰ عنه- من سُرّيته مارية القبطية -رضي الله تعالىٰ عنها-، وسأتناول الحديث عن كل منهم علىٰ النحو التالي:

أولًا: القاسم ابن سيد ولد آدم ﷺ: وبه يُكْنَىٰ الرسول ﷺ، وهو أول مولود له، ومات صغيرًا، وعمره نحو سنتين، وهو أول من مات من أولاده. وقد بلغ المشي، ولمَّا يستكمل رضاعته[٣].

ثانيًا: زينب -رضي الله تعالىٰ عنها-: قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (بنت رسول الله ﷺ وأكبر أخواتها، من المهاجرات السيدات)[٤]، وُلدت وعمره ﷺ

---

(١) من أقدم من لقب فاطمة بنت رسول الله -ﷺ ورضي الله تعالى عنها- بـ(الزهراء) ابن حبان في السيرة النبوية وأخبار الخلفاء تحقيق الحافظ السيد عزيز بك وزملائه، الطبعة الثالثة (بيروت: الكتب الثقافية ١٤١٧) (٢/ ٥٥٩). ومعنى الزهراء: أي المرأة المشرقة الوجه، والبيضاء المستنيرة المشربة بحمرة، وجاء في وصف النبي ﷺ أنه أزهر اللون، ليس بالأبيض الأمهق ولا بالآدم، وابنته ﷺ فاطمة من أقرب الناس شبهًا به ﷺ، وبناء عليه فمعنى الزهراء في لقب فاطمة -رضي الله تعالى عنها-: أي المشرقة الوجه البيضاء المستنيرة المشربة بحمرة. وأحسن من هذا اللقب أن تلقب بـ(السيدة) فهي سيدة نساء هذه الأمة، وسيدة نساء أهل الجنة بحديث المصطفى ﷺ. انظر المختصر من أخبار فاطمة بنت سيد البشر ﷺ ، إبراهيم المديهش، الطبعة الأولى، (الرياض: دار الآل والصحب الوقفية ١٤٤٢) (ص ٢٤-٢٥).

(٢) ابن عبد البر، الاستيعاب (٤/ ١٨٩٣).

(٣) انظر: ابن عبد البر، الاستيعاب (١/ ١٨١٨)، والسهيلي، الروض الأنف (١/ ٤٤٩).

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٤٦).

ثلاثون سنة، وهي أول من تزوج من أخواتها، زوَّجها من ابن خالتها أبي العاص بن الربيع -رضي الله تعالىٰ عنه-، في حياة أمها خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-.

أسلمت -رضي الله تعالىٰ عنها-، قبل إسلام زوجها، وبقيت في مكة مع زوجها، بعد هجرة الرسول ﷺ.

أخرج الحاكم بسنده عن محمد بن إسحاق، حدثني يحيىٰ بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن عائشة -زوج النبي ﷺ ورضي الله تعالىٰ عنها- قالت: لما بَعث أهل مكة في فداء أساراهم بعد غزوة بدر بعثت زينب ابنة رسول الله -ﷺ ورضي الله تعالىٰ عنها- في فداء أبي العاص بمال وبعثت فيه بقلادة كانت خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- أدخلتها بها علىٰ أبي العاص حين بنىٰ عليها، فلما رأىٰ رسول الله ﷺ تلك القلادة رقَّ لها رقة شديدة، وقال: «إن رأيتم أن تُطلقوا أسيرها وتردّوا عليها الذي لها فافعلوا»، فقالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوه وردوا عليه الذي لها، ولم يزل أبو العاص مقيمًا علىٰ شركه حتىٰ إذا كان قُبيل فتح مكة خرج بتجارة إلىٰ الشام بأموال من أموال قريش أبضعوها معه، فلما فرغ من تجارته، وأقبل قافلًا لقيته سَرية لرسول الله ﷺ، وقيل: إن رسول الله ﷺ كان هو الذي وجَّه السرية للعير التي فيها أبو العاص قافلة من الشام، وكانوا سبعين ومائة راكب، أميرهم زيد بن حارثة وذلك في جمادىٰ الأولىٰ في سنة ست من الهجرة، فأخذوا ما في تلك العير من الأثقال، وأسروا أناسًا من العير فأعجزهم أبو العاص هربًا، فلما قدمت السرية بما أصابوا، أقبل أبو العاص من الليل في طلب ماله حتىٰ دخل علىٰ زينب ابنة رسول الله ﷺ فاستجار بها فأجارته، فلما خرج رسول الله ﷺ إلىٰ صلاة الصبح فكبّر وكبّر الناس معه، قال ابن إسحاق: فحدثني يزيد بن رومان، عن عروة، عن عائشة -رضي الله عنها- قال: صرخت زينب -رضي الله تعالىٰ عنها-: أيها الناس، إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع، قال: فلما سلَّم رسول الله ﷺ من صلاته أقبل علىٰ الناس، فقال:

«أيها الناس هل سمعتم ما سمعت؟» قالوا: نعم، قال: «أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء كان حتىٰ سمعت منه ما سمعتم، إنه يجير علىٰ المسلمين أدناهم». ثم انصرف رسول الله ﷺ فدخل علىٰ ابنته زينب، فقال: «أي بنية، أكرمي مثواه، ولا يخلص إليك فإنك لا تحلين له».

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن عمرة، عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-، أن رسول الله ﷺ بعث إلىٰ السرية الذين أصابوا مال أبي العاص وقال لهم: «إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم وقد أصبتم له مالًا، فإن تحسنوا تردوا عليه الذي له، فإنا نحبّ ذلك، وإن أبيتم ذلك فهو فيء الله الذي أفاءه عليكم، فأنتم أحق به». قالوا: يا رسول الله، بل نرده عليه، قال: «فردّوا عليه ماله» حتىٰ إن الرجل ليأتي بالحبل، ويأتي الرجل بالشنة والإداوة[1] حتىٰ أن أحدهم ليأتي بالشظاظ[2] حتىٰ ردوا عليه ماله بأَسْره لا يفقد منه شيئًا، ثم احتمل إلىٰ مكة، فأدىٰ إلىٰ كل ذي مال من قريش ماله ممن كان أبضع منه، ثم قال: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيرًا، فقد وجدناك وفيًّا كريمًا، قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وما منعني من الإسلام عنده إلا تخوفًا أن تظنوا أني إنما أردت أخذ أموالكم، فلما أداها الله -عز وجل- إليكم وفرغت منها أسلمت، ثم خرج حتىٰ قدم علىٰ رسول الله ﷺ. قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: فحدثني داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: «ردَّ رسول الله ﷺ زينب بالنكاح الأول لم يُحدث شيئًا بعد ست سنين»[3].

---

(١) الشنة: السقاء البالي، والإداوة: الإناء الصغير من الجلد.

(٢) الشظاظ: خشبة عقفاء تدخل في عروتي الكيس، والجمع: أشظة.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٦٢ -٢٦٤) رقم (٥٠٣٨). وسيرة ابن هشام (٢/ ٢١٥ و٢١٨).

وكان رجوع أبي العاص -رضي الله تعالىٰ عنه- إلىٰ زوجته زينب -رضي الله تعالىٰ عنها- في المحرم من سنة سبع للهجرة[1].

وقال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (اتفق أهل العلم بالنسب أن زينب -رضي الله تعالىٰ عنها- لم تلد لأبي العاص -رضي الله تعالىٰ عنه- إلا عليًّا وأُمامة فقط)[2]:

١. أمامة -رضي الله تعالىٰ عنها-، وهي التي حملها الرسول ﷺ وهو يصلي بالناس ففي المسند: قال أبو قتادة -رضي الله تعالىٰ عنه-: (بينا نحن في المسجد جلوس خرج علينا رسول الله ﷺ يحمل أمامة بنت أبي العاص بن الربيع، وأمها زينب بنت رسول الله ﷺ، وهي صبية فحملها علىٰ عاتقه، فصلىٰ رسول الله ﷺ وهي علىٰ عاتقه يضعها إذا ركع، ويعيدها علىٰ عاتقه إذا قام فصلىٰ رسول الله ﷺ، وهي علىٰ عاتقه، ثم قام حتىٰ قضىٰ صلاته يفعل ذلك بها)[3]، وقد تزوجها علي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- بعد وفاة فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها-. ثم تزوجها بعد استشهاده المغيرة بن الحارث بن نوفل، وماتت عنده، وقد عاشت -رضي الله تعالىٰ عنها- إلىٰ عهد معاوية -رضي الله تعالىٰ عنه-[4].

٢. أما الولد الثاني لزينب -رضي الله تعالىٰ عنها- فهو علي بن أبي العاص بن الربيع -رضي الله تعالىٰ عنهما-، قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (ذكر الزبير بن بكار وغيره من أهل العلم بالأخبار أن عليًّا المذكور عاش حتىٰ ناهز الحلم، وأن

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٤٩).

(٢) ابن حجر، الفتح (٣/ ١٥٦).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣٧/ ٢٧٦) رقم (٢٢٥٨٤)، وقال المحقق: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه أبو داود في سننه (٩١٨) وصححه الألباني، وهو في الصحيحين عن أبي قتادة الأنصاري، -رضي الله تعالى عنه- بلفظ: (أن رسول الله ﷺ كان يصلي وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ، ولأبي العاص، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها) صحيح البخاري (٥١٦) وصحيح مسلم (٥٤٣). وابن حجر، فتح الباري (١/ ٥٩٢).

(٤) انظر: ابن جماعة، المختصر الكبير في سيرة الرسول ﷺ تحقيق سامي العاني، الطبعة الأولى (عمَّان: دار البشير ١٤٢٣)، (ص٨٠).

النبي ﷺ أردفه على راحلته يوم فتح مكة)[1]، وقال أيضًا في الإصابة: (وقال الزبير حدثني عمر بن أبي بكر الموصلي قال توفي علي بن أبي العاص وقد ناهز الحلم.. قال ابن منده: توفي وهو غلام في حياة النبي ﷺ)[2].

عن أسامة بن زيد -رضي الله تعالى عنهما-، قال: أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه إن ابنًا[3] لي قبض، فأتنا، فأرسل يقرئ السلام، ويقول: «إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل عنده بأجل مسمى، فلتصبر، ولتحتسب»، فأرسلت إليه تُقسم عليه ليأتينها، فقام ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت ورجال -رضي الله تعالى عنهم-؛ فرُفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتقعقع -قال: حسبته أنه قال كأنها شن- ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله، ما هذا؟ فقال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[4]. قال ابن حجر: (الصواب في حديث الباب أن المرسلة زينب)[5].

(١) ابن حجر، الفتح (٣/ ١٥٦).

(٢) ابن حجر، الإصابة (٤/ ٥٧٠)، وانظر: ابن سعد الطبقات (٨/ ٢٥)، والذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٤٦). والمنصور فوري، رحمة للعالمين (٣٥٧).

(٣) ورد في مسند الإمام أحمد (٣٦/ ١١٣رقم ٢١٧٧٩) بإسناد صحيح عن أسامة بن زيد -رضي الله تعالى عنهما-، قال: أُتي رسول الله ﷺ بأميمة ابنة زينب ونفسها تقعقع كأنها في شن،...»وهذا يدل على أنها بنت وأنها أمامة -رضي الله تعالى عنها-، أما قوله: «ابنًا لي قبض فقد قال ابن حجر في الفتح (٣/ ١٥٦) «ويجاب بأن المراد بقوله في حديث الباب إن ابنًا لي قبض أي قارب أن يقبض ويدل على ذلك أن في رواية حماد أرسلت تدعوه إلى ابنها في الموت، وفي رواية شعبة إن ابنتي قد حُضِرَتْ، وهو عند أبي داود من طريقه أن ابني أو ابنتي وقد قدمنا أن الصواب قول من قال ابنتي لا ابني». وانظر صحيح مسلم حديث رقم (٩٢٣)، «أرسلت تدعوه وتخبره أن صبيًّا لها، أو ابنًا لها في الموت».

(٤) متفق عليه: صحيح البخاري (٢/ ٧٩) رقم (وصحيح مسلم ١٢٨٤).

(٥) ذكر ابن حجر في الفتح (٣/ ١٥٦) بحثًا مهمًّا في الولد المقصود: هل هو عليّ ولد زينب، مع ما قد ذكر أنه عاش حتى أنه أردفه معه يوم فتح مكة، أو أنها أمامة بنت زينب وأن الله -جل شأنه- مد في عمرها، ولم تمت لما جاء الرسول ﷺ، بعد أن رجَّح أن المرسلة هي ابنته زينب -رضي الله تعالى عنها-.

ولم تلبث زينب -رضي الله تعالىٰ عنها- بعد عودة زوجها إليها طويلًا؛ فقد ماتت -رضي الله تعالىٰ عنها- في أول سنة ثمان من الهجرة[١]. وهذا يعني أنها بقيت مع زوجها بعد إسلامه عامًا واحدًا فقط، وأن عمرها عند وفاتها يقارب الثلاثين عامًا.

عن أم عطية -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: لما ماتت زينب بنت رسول الله -ﷺ ورضي الله تعالىٰ عنها-، قال لنا رسول الله ﷺ: «اغسلنها وترًا ثلاثًا، أو خمسًا، واجعلن في الخامسة كافورًا، أو شيئًا من كافور، فإذا غسلتنها، فأعلمنني»؛ قالت: فأعلمناه، فأعطانا حقوه، وقال: «أشعرنها إياه»[٢].

ثالثًا: رقية -رضي الله تعالىٰ عنها-: قال ابن عبد البر -رحمه الله تعالىٰ-: (لا أعرف خلافًا أنّ زينب أكبر بنات النبي ﷺ، والأكثر أن التي تليها هي رقية -رضي الله تعالىٰ عنها-)[٣].

وقد وُلدت رقية بنت رسول الله -ﷺ ورضي الله تعالىٰ عنها-، ورسول الله ﷺ ابن ثلاث وثلاثين سنة[٤]. وتزوجها عتبة بن أبي لهب قبل النبوة، وهذا يعني أنها تزوجت وهي صغيرة في حدود ست أو سبع سنوات فقط[٥]، فلما بُعث رسول الله ﷺ، وأسلمت هي وأخواتها، ونزلت سورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾؛ فقال أبو لهب: رأسي من رأسك حرام إن لم تُطلق ابنته، ففارقها ولم يكن دخل بها، فتزوجها

(١) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٥٠).
(٢) متفق عليه: واللفظ لمسلم : صحيح البخاري (٢/ ٧٣ رقم١٢٥٣). وصحيح مسلم (٢/ ٦٤٨) رقم (٩٣٩). ومعنى: (حقوه) إزاره، والحقو في الأصل معقد الإزار، فأطلق على ما يشد عليه. (أشعرنها) من الإشعار وهو إلباس الثوب الذي يلي بشرة الإنسان، ويسمى شعارًا؛ لأنه يلامس شعر الجسد. والدثار فوق الشعار ومنه قوله ﷺ في الحديث المتفق عليه للأنصار: «أنتم شعار، والناس دثار».
(٣) انظر: ابن عبد البر، الاستيعاب (٤/ ١٨٣٩).
(٤) ابن عبد البر، الاستيعاب (٤/ ١٨٣٩).
(٥) إن ثبتت صحة هذا الخبر.

عثمان -رضي الله تعالىٰ عنه-، وهاجرت معه الهجرتين إلىٰ الحبشة. ثم هاجرت معه -رضي الله تعالىٰ عنهما- إلىٰ المدينة.

وقد ولدت بالحبشة ولدًا سماه عبد الله، وبه كان يُكْنَىٰ، وبلغ ست سنين فنقره ديك في وجهه فتورم الوجه فمات، وكانت وفاته في جمادىٰ الأولىٰ سنة أربع من الهجرة، وصلىٰ عليه رسول الله ﷺ، ونزل في حفرته أبوه عثمان -رضي الله تعالىٰ عنهما-. ولم تلد له غيره[1].

ولم يمتد بها العمر، فقد مرضت -رضي الله تعالىٰ عنها- بمرض الحصبة، قُبيل بدر فخلَّف عليها النبي ﷺ عثمان -رضي الله تعالىٰ عنه- يُمَرِّضها[2]. فتوفيت والمسلمون في بدر في شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة، ودفنت يوم جاء زيد بن حارثة -رضي الله تعالىٰ عنه- بشيرًا بما فتح الله عليهم ببدر[3].

وهذا يعني أن عمرها -رضي الله عنها- عند وفاتها إحدىٰ وعشرين سنة تقريبًا[4].

---

(١) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٥١)، وابن عبد البر، الاستيعاب (٤/ ١٨٤٠)، وابن حجر، الإصابة (٨/ ١٣٨). وفتح الباري (٧/ ٥٤)، وقال في (٣/ ١٥٦): «ووجدت في الأنساب للبلاذري أن عبد الله بن عثمان بن عفان من رقية بنت النبي ﷺ لما مات وضعه النبي ﷺ في حجره، وقال: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء».

(٢) وحفظًا لحق عثمان -رضي الله تعالى عنه-، فقد ضرب له سهمًا في غنائم بدر، ففاز بالفضيلتين؛ تمريض بنت رسول الله ﷺ وفضل غزوة بدر، روى البخاري في صحيحه رقم (٣٦٩٨) عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: إنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ، وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ: «إن لك أجر رجل ممن شهد بدرًا، وسهمه». قال ابن كثير -رحمه الله تعالى- في السيرة النبوية (٤/ ٥٨٣): (وكان زوجها عثمان بن عفان رضي الله عنه قد احتبس عندها يمرضها بأمر رسول الله ﷺ، وقد ضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره في بدر).

(٣) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٥١)، وابن عبد البر، الاستيعاب (٤/ ١٨٤١)، وابن حجر، الإصابة (٨/ ١٣٩).

(٤) انظر: المنصورفوري، رحمة للعالمين. (٣٥٧).

رابعًا: أم كلثوم -رضي الله تعالىٰ عنها-: أم كلثوم -رضي الله تعالىٰ عنها- هي الثالثة من بنات النبي ﷺ، وكانت ولادة رقية وعمر النبي ﷺ ثلاث وثلاثون سنة تقريبًا، وولادة فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها- وقت بناء الكعبة وعمر الرسول ﷺ تقريبًا خمس وثلاثون سنة، فتكون ولادتها وعمر النبي ﷺ أربع وثلاثون سنة.

وقد زوّجها الرسول ﷺ من عُتيبة بن أبي لهب[1]، فلم يَبْن بها حتىٰ بُعث النبي ﷺ، فلما بُعث ونزلت سورة ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾؛ ففارقها بأمر أبيه إياه بذلك.

وهاجرت مع عيال رسول الله ﷺ، بعد هجرة أبيها ﷺ، وتزوجها عثمان -رضي الله عنه- بعد موت أختها رقية -رضي الله تعالىٰ عنهما-، وكان نكاحه إياها في ربيع الأول، وبنىٰ عليها في جمادىٰ الآخرة من السنة الثالثة من الهجرة، ولم يُكتب لها ذرية، وتُوفيت عنده في شعبان سنة تسع من الهجرة[2].

وغسلها نساء من الأنصار؛ فيهن أم عطية -رضي الله تعالىٰ عنها-، وصلىٰ عليها أبوها رسول الله ﷺ. ونزل في حفرتها أبو طلحة -رضي الله تعالىٰ عنه-. عن أنس بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: شهدنا بنتًا لرسول الله ﷺ، قال: ورسول الله ﷺ جالس علىٰ القبر، قال: فرأيت عينيه تدمعان، قال: فقال: «هل منكم رجل لم يقارف الليلة؟»؛ فقال أبو طلحة: أنا، قال: «فانزل»، قال: فنزل في قبرها»[3]. وعليه فإن عمرها -رضي الله تعالىٰ عنها- عند وفاتها سبع وعشرون سنة فقط.

خامسًا: فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها-: سيدة نساء المؤمنين في زمانها (أم أبيها)، وقد كانت تكنىٰ بذلك[4]، -رضي الله تعالىٰ عنها وأرضاها-، ومن ألقابها

(١) هذا يدل على أنه عقد عليها وهي لا تزال صغيرة، إن ثبتت صحة هذا الخبر.

(٢) انظر: ابن سعد، الطبقات (٣٨)، وابن عبد البر، الاستيعاب (٤/ ١٩٥٢).

(٣) صحيح البخاري (٢/ ٧٩) رقم (١٢٨٥) قال ابن حجر في فتح الباري (٣/ ١٥٨): هي أم كلثوم -رضي الله تعالى عنها-.

(٤) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١١٩)، وابن حجر، الإصابة (٨/ ٢٦٢).

السيدة وهو مأخوذ من حديث المصطفىٰ ﷺ بأنها سيدة نساء هذه الأمة، سيدة نساء الجنة، كما سيأتي، كما أن من ألقابها (الزهراء)[(١)]. ذكر ابن سعد في الطبقات وغيره، أنها وُلِدَت، وقريش تبني البيت، وذلك قبل النبوة بخمس سنين[(٢)].

ويظهر أن تسميتها بهذا الاسم إنما هو علىٰ امرأتين مهمتين في طفولة الرسول ﷺ:

الأولىٰ منهن: هي فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم والدة عبد الله بن عبد المطلب[(٣)]؛ أي جدّته ﷺ من جهة أبيه، ومعلوم أن الرسول ﷺ لما ماتت أمه كفله جده عبد المطلب فكان في بيته، والظاهر أنه في هذا البيت ترعاه جدته فاطمة؛ إذ هي أقرب النساء إليه، وهو ابن ابنها المتوفىٰ.

والثانية: فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف الهاشمية -رضي الله تعالىٰ عنها- زوجة أبي طالب؛ فقد انتقل الرسول ﷺ بعد وفاة جده عبد المطلب إلىٰ كفالة عمه أبي طالب، وكانت هذه المرأة ترعاه، قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- في ترجمتها: (والصحيح أنها هاجرت وماتت بالمدينة، وبه جزم الشعبي، قال: أسلمت وهاجرت وتوفيت بالمدينة. وأخرج ابن أبي عاصم، من طريق عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، عن أبيه أن النبيّ ﷺ كفّن فاطمة بنت أسد في قميصه، وقال: «لم نلقَ بعد أبي طالب أبرّ بي منها»[(٤)].

فلعله ﷺ أراد أن يستذكر بابنته فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها- هاتين المرأتين اللتين كانت لهما مكانة خاصة عنده ﷺ. والله أعلم.

---

(١) من أول من لقبها بهذا اللقب ابن حبان في صحيحه، انظر الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان، ترتيب علي بن بلبان، تحقيق شعيب الأرناؤوط، الطبعة الأولى، (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٨)، (١٥/ ٤٠١). وقد سبق الإشارة إلى ذلك قريبًا.

(٢) ابن سعد الطبقات (٨/ ١٦).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ١٠٩).

(٤) ابن حجر، الإصابة (٨/ ٢٦٩).

وقد كان النبي ﷺ يحب ابنته فاطمه ويكرمها ويُسِرُّ إليها. ومناقبها غزيرة. وكانت صابرة، ديِّنة، خيرة، صينة، قانعة، شاكرة لله[١].

وفي صحيح البخاري -رحمه الله تعالىٰ-: (عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: بينما رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة وجمع قريش في مجالسهم؛ إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلىٰ هذا المرائي أيكم يقوم إلىٰ جزور آل فلان، فيعمد إلىٰ فرثها ودمها وسلاها، فيجيء به، ثم يمهله حتىٰ إذا سجد وضعه بين كتفيه، فانبعث أشقاهم، فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه. وثبت النبي ﷺ ساجدًا، فضحكوا حتىٰ مال بعضهم إلىٰ بعض من الضحك، فانطلق منطلِق إلىٰ فاطمة عليها السلام -وهي جويرية-، فأقبلت تسعىٰ وثبت النبي ﷺ ساجدًا حتىٰ ألقته عنه، وأقبلت عليهم تسبّهم)[٢].

يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وفيه قوة نفس فاطمة الزهراء من صِغَرها؛ لشرفها في قومها ونفسها؛ لكونها صرخت بشتمهم وهم رؤوس قريش فلم يردوا عليها)[٣].

قال عبد الرّازق، عن ابن جريج: قال لي غير واحد: (كانت فاطمة أصغر بنات النبيّ ﷺ وأحبهنّ إليه)[٤]. أسلمت مع أخواتها وهاجرن مع عياله ﷺ بعد هجرته.

جاء علي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- خاطبًا فقال له النبي ﷺ: ما تصدقها؟ قال: ما عندي ما أصدقها. قال: فأين درعك الحطمية التي كنت منحتك؟ قال: عندي. قال: أصدقها إياها. قال: فأصدقها وتزوجها[٥].

---

(١) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١١٩).

(٢) صحيح البخاري (١/ ١١٠) رقم (٥٢٠).

(٣) ابن حجر، فتح الباري (١/ ٣٥٢).

(٤) ابن حجر، الإصابة (٨/ ٢٦٣).

(٥) رواه أبو داود في سننه (٢١٢٥)، وصححه الألباني، وانظر: ابن سعد الطبقات (٨/ ١٦)، ومعنى الحطمية: دروع منسوبة إلى بطن من عبد القيس يقال لهم حطمة بن محارب كانوا يعملون الدروع.

قال ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ-: أخبرنا محمد بن عمر حدثني عبد الله بن محمد بن عمر بن علي عن أبيه قال: تزوج علي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- فاطمة بنت رسول الله -ﷺ ورضي الله تعالىٰ عنها- في رجب بعد مقدم النبي ﷺ المدينة بخمسة أشهر وبنىٰ بها مرجعه من بدر. وفاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها- يوم بنىٰ بها علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- بنت ثماني عشرة سنة[١].

قال ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ-: أخبرنا أبو أسامة عن مجالد عن عامر قال: قال علي -رضي الله تعالىٰ عنه-: (لقد تزوجت فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها- وما لي ولها فراش غير جلد كبش ننام عليه بالليل، ونعلف عليه الناضح بالنهار. وما لي ولها خادم غيرها)[٢].

عن عائشة أم المؤمنين -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: (ما رأيت أحدًا أشبه سمتًا ودلًّا وهديًا برسول الله ﷺ في قيامها وقعودها من فاطمة بنت رسول الله -ﷺ ورضي الله تعالىٰ عنها- قالت وكانت إذا دخلت علىٰ النبي ﷺ قام إليها فقبَّلها وأجلسها في مجلسه، وكان النبي ﷺ إذا دخل عليها قامت من مجلسها فقبَّلته وأجلسته في مجلسها)[٣].

وقد غضب لها النبي ﷺ لما بلغه أن أبا الحسن -رضي الله تعالىٰ عنهما- هَمَّ بما رآه سائغًا من خطبة بنت أبي جهل -رضي الله تعالىٰ عنها- فقال: «والله لا تجتمع بنت نبي الله وبنت عدو الله، وإنما فاطمة بضعة مني، يريبني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها»؛ فترك عليٌّ -رضي الله تعالىٰ عنه- الخِطبة؛ سمعًا وطاعةً لرسول الله ﷺ، ورعايةً لها، فما تزوج عليها، ولا تسرَّىٰ حتىٰ ماتت[٤].

(١) ابن سعد الطبقات (٨/ ١٨).
(٢) ابن سعد الطبقات (٨/ ١٨).
(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٥٢١٧)، والترمذي في جامعه (٣٨٧٢) واللفظ له وصححه الألباني.
(٤) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١١٩).

قال ابن عبد البر -رحمه الله-: ولدت له الحسن، والحسين، ومُحَسِّن وأم كلثوم، وزينب[١] -رضي الله تعالىٰ عنهم-. وانقطع نسل رسول الله ﷺ إلا من فاطمة[٢].

أما الحسن والحسين -رضي الله تعالىٰ عنهما- فعن أبي بكرة -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: رأيت رسول الله ﷺ علىٰ المنبر والحسن بن علي -رضي الله تعالىٰ عنه- إلىٰ جنبه، وهو يُقْبِل علىٰ الناس مرة، وعليه أخرىٰ ويقول: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[٣].

وفي مسند أحمد -رحمه الله تعالىٰ- عن أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: قال رسول الله ﷺ: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»[٤].

وأما محسِّن -رضي الله تعالىٰ عنه- فقد مات صغيرًا[٥]؛ يقول عنه ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- في الفتح: (اتفق أهل العلم بالأخبار أنه مات صغيرًا في حياة النبي ﷺ)[٦].

---

(١) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١١٩).

(٢) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٢٢)، وقال: «قد انقطع نسب النبي ﷺ إلا من قبل فاطمة؛ لأن أمامة بنت زينب تزوجت بعلي بن أبي طالب، ثم من بعده بالمغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب الهاشمي، وله رؤية، فجاءها منه أولاد. قال الزبير بن بكار: انقرض عقب زينب» ابن حجر، الإصابة (٨/ ٢٦٣).

(٣) صحيح البخاري (٣/ ١٨٦) رقم (٢٧٠٤).

(٤) مسند أحمد (١٧/ ٣١) رقم (١٠٩٩٩)، وقال: محقق المسند إسناده صحيح.

(٥) قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- في الفتح (١/ ٢٦٩): (وفي مسند البزار من حديث أبي هريرة قال: ثقل ابن لفاطمة فبعثت إلى النبي ﷺ تدعوه، فقال: ارجع؛ فإن لله ما أخذ، وله ما أبقى، وكل أجل بمقدار. فلما احتضر بعثت إليه فقال لنا: قوموا فلما جلس جعل يقرأ: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴾ [الواقعة:٨٣] الآيات حتى قُبض فدمعت عيناه. فقال سعد: يا رسول الله تبكي وتنهى عن البكاء؟ فقال: «إنما هي رحمة، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»؛ فتعين أن يكون الابن محسنًا، فإن فاطمة لم تلد من عليّ من الذكور غير ثلاثة، ولم يمت في عهد النبي ﷺ غيره).

(٦) ابن حجر، الفتح (٣/ ١٥٦).

وقال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ- وكان لها من البنات: (أم كلثوم -رضي الله تعالىٰ عنها-؛ تزوجها عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه-، ورُزِقَ منها بزيد بن عمر بن الخطاب)[1]. وزينب -رضي الله تعالىٰ عنها- تزوجها عبد الله بن جعفر بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنهما-[2].

وعن أم سلمة أم المؤمنين -رضي الله تعالىٰ عنها- أن النبي ﷺ جلّل علىٰ الحسن والحسين وعلي وفاطمة كساء ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا»[3].

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: (أقبلت فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها- تمشي كأن مشيتها مشي النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «مرحبًا بابنتي». ثم أجلسها عن يمينه، أو عن شماله، ثم أسرَّ إليها حديثًا فبكت، فقلت لها: لِمَ تبكين؟ ثم أسرَّ إليها حديثًا فضحكت، فقلتُ: ما رأيت كاليوم فرحًا أقرب من حزن، فسألتها عما قال: فقالت: ما كنت لأُفشي سرّ رسول الله ﷺ. حتىٰ قُبض النبي ﷺ، فسألتها، فقالت: أسرَّ إليَّ: «إن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي، وإنك أول أهل بيتي لحاقًا بي». فبكيتُ، فقال: «أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة، أو نساء المؤمنين»؛ فضحكتُ لذلك)[4].

قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (روىٰ إسماعيل بن خالد -رحمه الله تعالىٰ- عن الشعبي -رحمه الله تعالىٰ- قال: لما مرضت فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، أتىٰ أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، فاستأذن. فقال علي: يا فاطمة، هذا أبو بكر

(١) انظر: ابن عبد البر، الاستيعاب (١/ ١٢٥).

(٢) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٢٥).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه (٣٨٧١)، وأحمد في المسند (٢٦٥٩٧)، وقال محقق المسند: حديث صحيح.

(٤) متفق عليه: صحيح البخاري (٣٦٢٣) واللفظ له، وصحيح مسلم (٢٤٥٠).

يستأذن عليك. فقالت: أتحب أن آذن له؟ قال: نعم. -قلت: (القائل هو الذهبي) عملتَ السنة رضي الله عنها؛ فلم تأذن في بيت زوجها إلا بأمره-. قال: فأذنت له. فدخل عليها يترضّاها، وقال: والله ما تركت الدار والمال والأهل والعشيرة إلا ابتغاء مرضاة الله ورسوله، ومرضاتكم أهل البيت. قال: ثم ترضاها حتىٰ رضيت)[1].

قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ- توفيت بعد النبي ﷺ بخمسة أشهر أو نحوها ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من شهر رمضان سنة إحدىٰ عشرة[2].

وقال ابن عبد البر -رحمه الله تعالىٰ-: (هي أول من غُطِّي نعشها في الإسلام علىٰ تلك الصفة)[3]؛ يعني تلك الصفة التي يغطّىٰ فيه نعش المرأة بأعواد تنصب، بحيث لا يُعرَف حجم جسد المرأة المتوفاة.

وعن حذيفة -رضي الله تعالىٰ عنه- أن الرسول ﷺ قال: «الحسن، والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وإن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة»[4].

وعن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، إلا ما كان من مريم بنت عمران»[5].

عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-، قال: خطَّ رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط، قال: «تدرون ما هذا؟»؛ فقالوا: الله ورسوله أعلم. فقال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية بنت

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٢٧)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٢/ ١٢١)، والبيهقي، السنن الكبرى (٦/ ٤٩١) رقم (١٢٧٣٥)، وقال: «هذا مرسل حسن بإسناد صحيح». وأورده الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٦/ ٢٠٢).

(٢) انظر: الذهبي في سير أعلام النبلاء (٢/ ١٢١).

(٣) نقل قول ابن عبد البر، الذهبي في سير أعلام النبلاء (٢/ ١٢٩).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٣٨/ ٣٥٣) رقم (٢٣٣٢٩)، وقال محقق المسند: إسناده صحيح.

(٥) أخرجه الحاكم (٣/ ١٦٨) رقم (٤٧٣٣)، وصححه، ولم يتعقبه الذهبي.

مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران»[١].

وكل أولاد النبي ﷺ ماتوا قبله إلا فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، فإنها تأخرت بعده، فكان لها بصبرها واحتسابها بوفاة أبيها ما فُضّلت به علىٰ غيرها.

ولذلك فإن من خصائصها -رضي الله تعالىٰ عنها- أنها أطول آل البيت ملازمة للنبي ﷺ، منذ ولادتها إلىٰ وفاتها، لم تفارقه ثمان وعشرين سنة[٢] تقريبًا.

ومن خصائصها أيضًا أن عقب النبي ﷺ انحصر في ولدها، فمنها امتداد ذريته ﷺ، والمهدي المنتظر عند أهل السنة والجماعة هو من ولد الحسن بن علي -رضي الله تعالىٰ عنهما-[٣].

سادسًا: عبد الله: وهو الطاهر وهو الطيب: قال السهيلي -رحمه الله تعالىٰ-: (وقال الزبير -وهو أعلم بهذا الشأن- ولدت له القاسم وعبد الله وهو الطاهر وهو الطيب، سُمِّي بالطاهر والطيب؛ لأنه وُلِدَ بعد النبوة، واسمه الذي سمي به أول هو: عبد الله)[٤].

قال ابن عبد البر -رحمه الله تعالىٰ-: (قول مصعب- وهو قول الزبير وأكثر أهل النسب- أن عبد الله بن رسول الله ﷺ هو الطيب وهو الطاهر، له ثلاثة أسماء؛ لأنه وُلِدَ بعد الوحي، وقد مات صغيرًا في طفولته في مكة وهو أصغر أولاده من خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-)[٥].

(١) أحمد، المسند ٤/ ٤٠٩) رقم (٢٦٦٨. وقال المحقق: «إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح»، وأحمد، فضائل الصحابة تحقيق وصي الله عباس) بيروت، مؤسسة الرسالة ١٤٠٣)، (٢/ ٧٦٠ رقم١٣٣٩).
(٢) انظر: إبراهيم المديهش، المختصر من أخبار فاطمة بنت سيد البشر ﷺ، (ص١٣٠).
(٣) انظر: إبراهيم المديهش، المرجع السابق، (ص١٣١).
(٤) السهيلي، الروض الأنف (١/ ٤٤٩).
(٥) ابن عبد البر، الاستيعاب (٤/ ١٨١٨- ١٨١٩). وابن سعد الطبقات (١/ ١٠٦).

وعن يزيد بن رومان قال: (كان العاص بن وائل السهمي إذا ذكَر رسول الله ﷺ قال: دعوه فإنما هو رجل أبتر لا عقب له، لو هلك انقطع ذِكْره واسترحتم منه، فأنزل الله -تعالىٰ- في ذلك: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ إلىٰ آخر السورة)[(١)].

لقد ظن كفار قريش نهاية النبي ﷺ بموته، حين مات ولده عبد الله، ولم يبق له ولد ذكر، فخلّد الله ذِكره ورفع منزلته، وأعلىٰ شأنه، وصار يُذكر معه -سبحانه-، ويُصلّىٰ عليه، وأَمَاتَ المشركين الكفرة بذرياتهم التي كانوا يفاخرون بها، وجعل شانئه ومبغضه أبد الدهر هو الأبتر المنقطع من كل خير.

سابعًا: إبراهيم ابن الرسول ﷺ: هو ولد الرسول ﷺ من مارية بنت شمعون القبطية -رضي الله تعالىٰ عنها-[(٢)]. وكان مولده بالعالية من أحياء المدينة في ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة؛ وسُرّ النبي ﷺ بولادته كثيرًا.

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول، تحقيق عصام الحميدان، الطبعة الثانية (الدمام: در الإصلاح ١٤١٢)، (ص٤٦٦)، بسنده قال: «أخبرنا محمد بن موسى بن الفضل، أخبرنا محمد بن يعقوب، أخبرنا أحمد بن عبد الجبار، أخبرنا يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق قال: حدثني يزيد بن رومان»، وقال المحقق: «مرسل، ويشهد له: ما أخرجه ابن جرير (٣٠/ ٢١٢) عن سعيد بن جبير وقتادة مرسلًا مثله، وإسناده صحيح إليهما»، وقال في الاستيعاب في بيان الأسباب لسليم الهلالي ومحمد موسى آل نصر (٣/ ٥٦٩): «وهذا مرسل حسن الإسناد».

(٢) قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- في الإصابة (٨/ ٣١٠-٣١١): «مارية القبطية أمّ ولد رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم ذكر ابن سعد قال: بعث المقوقس صاحب الإسكندريّة إلى رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم في سنة سبع من الهجرة بمارية وأختها سيرين، وألف مثقال ذهبًا، وعشرين ثوبًا لينًا، وبغلته الدّلدل، وبعث بذلك كلّه مع حاطب بن أبي بلتعة، فعرض حاطب بن أبي بلتعة على مارية الإسلام ورغّبها فيه فأسلمت، وأسلمت أختها، وكانت مارية بيضاء جميلة، فأنزلها رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم في العالية في المال الّذي صار يقال له سريّة أمّ إبراهيم، وكان يختلف إليها هناك، وكان يطؤها بملك اليمين، وضرب عليها مع ذلك الحجاب، فحملت منه، ووضعت هناك في ذي الحجة سنة ثمان. قال الواقديّ: ماتت في المحرم سنة ست عشرة، فكان عمر يحشر الناس لشهودها، وصلّى عليها بالبقيع. وقال ابن منده: ماتت مارية بعد النّبيّ صلى الله عليه وسلم بخمس سنين».

وكانت قابلته سلمىٰ امرأة أبي رافع، وهي مولاة رسول الله ﷺ. وأرضعت إبراهيم -رضي الله تعالىٰ عنه- أم بردة بنت المنذر النجارية زوجة البراء بن أوس -رضي الله تعالىٰ عنهم-[١].

ثم دفعه إلىٰ أم سيف امرأة قين بالمدينة يقال له أبو سيف، تُرضعه.

وقد عاش إبراهيم -رضي الله تعالىٰ عنه- ثمانية عشر شهرًا، ومات يوم كسفت الشمس في السنة العاشرة من الهجرة.

قال النووي -رحمه الله تعالىٰ-: (ثبت في الصحيحين[٢] أن الشمس كسفت يوم توفي إبراهيم بن رسول الله ﷺ، ورُوينا في كتاب الزبير بن بكار وسنن البيهقي وغيرهما أنه توفي يوم الثلاثاء عاشر شهر ربيع الأول سنة عشر من الهجرة، وإسناده وإن كان ضعيفًا؛ فيجوز التمسك به في مثل هذا؛ لأنه لا يرتب عليه حكم)[٣].

عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: دخلْنا مع رسول الله ﷺ علىٰ أبي سيف القين، وكان ظئرًا لإبراهيم -رضي الله تعالىٰ عنه-، فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم، فقبَّله، وشمّه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف -رضي الله تعالىٰ عنه-: وأنت

---

(١) انظر: السهيلي، الروض الأنف (١/ ٤٥٢).

(٢) صحيح البخاري (٢/ ٣٨) رقم (١٠٥٨)، وصحيح مسلم (٢/ ٦١٨) رقم (٩٠١).

(٣) النووي، المجموع شرح المهذب (٥/ ٥٩). وقال ابن تيمية -رحمه الله تعالى- في مجموع الفتاوى (٢٤/ ٢٥٧): (ومن قال من الفقهاء: إن الشمس تكسف في غير وقت الاستسرار فقد غلط، وقال ما ليس له به علم. وما يروى عن الواقدي من ذكره: أن إبراهيم بن النبي ﷺ مات يوم العاشر من الشهر وهو اليوم الذي صلى فيه النبي ﷺ صلاة الكسوف: غلط. والواقدي لا يُحتج بمسانيده، فكيف بما أرسله من غير أن يسنده إلى أحد، وهذا فيما لم يعلم أنه خطأ، فأما هذا فيعلم أنه خطأ. ومن جوّز هذا، فقد قفا ما ليس له به علم، ومن حاجّ في ذلك فقد حاج في ما ليس له به علم).

يا رسول الله؟ فقال: «يا ابن عوف إنها رحمة»، ثم أتبعها بأخرىٰ، فقال ﷺ: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضىٰ ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»(١).

ورُوي أيضًا عنه (أي عن أنس) -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: (ما رأيت أحدًا أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ)(٢).

وصلىٰ عليه رسول الله ﷺ، وقال ندفنه عند فرطنا عثمان بن مظعون -رضي الله تعالىٰ عنه-، فدفنه بالبقيع.

ونقل الحلبي -رحمه الله تعالىٰ- في السيرة أن (الفضل بن العباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- غسل إبراهيم -رضي الله تعالىٰ عنه-، ونزل في قبره هو وأسامة بن زيد -رضي الله تعالىٰ عنهم-، وجلس رسول الله ﷺ علىٰ شفير القبر. قال الزبير، ورُشَّ علىٰ قبره ماء، وعلّم قبره بعلامة)(٣).

عن البراء رضي الله عنه، قال: لما توفي إبراهيم -عليه السلام-، قال رسول الله ﷺ: «إن له مرضعًا في الجنة»(٤).

وبعد فقد غلبتني العاطفة وأنا أتحدث عن أولاد المصطفىٰ ﷺ، فما استطعت أن أختصر في عرض السيرة كما هو منهج هذا الكتاب، وإني علىٰ ثقة أن القارئ الكريم ستكون عاطفته أشد مع قراءته سيرة أولاد المصطفىٰ ﷺ فتكون لي عذرًا عنده في ذلك.

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (١٣٠٣)، وصحيح مسلم (٢٣١٥).
(٢) انظر: الصالحي، سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٢).
(٣) الحلبي، السيرة الحلبية (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون)، الطبعة الثانية (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٢٧)، (٣/ ٤٣٥)، وابن الأثير، أسد الغابة (ص ١١).
(٤) صحيح البخاري (١٣٨٢).

أما الوقفات في هذه الجزء المبارك من هذه السيرة فأقول فيها:

أولًا: لقد كان هذا الزواج زواجًا مباركًا، أنجبت فيه الزوجة أم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- ستة أولاد؛ ابنين وأربع بنات، علىٰ مدىٰ ستة عشر عامًا تقريبًا أو تزيد قليلًا؛ إذ كان آخر أولادها عبد الله الذي وُلد بعد المبعث. بالإضافة إلىٰ الابن الثالث وهو إبراهيم -رضي الله تعالىٰ عنه- من مارية القبطية -رضي الله تعالىٰ عنها- الذي وُلد بعد الهجرة بسنوات كما مر.

ثانيًا: أقف عند كثرة البنات فهن أربع، والأبناء اثنان، والرسول ﷺ عاش في هذه البيئة الجاهلية التي تتسخط البنات؛ بل يصل في بعضه إلىٰ أن يئد ابنته خشية العار، وهذا من أخلاق الجاهلية الذين ذمهم الله -تعالىٰ- في قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل:٥٨-٥٩].

في حين أن الإسلام جاء بفضل رعاية وتربية البنات والأخوات ففي حديث أنس بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «من عال جاريتين حتىٰ تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو» وضم إصبعيه[1]، ومعناه جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين[2].

وقال صالح بن أحمد -رحمهما الله تعالىٰ-: (كان أبي -رحمه الله تعالىٰ- إذا وُلد له ابنة، يقول: الأنبياء كانوا آباء بنات. ويقول: قد جاء في البنات ما قد علمت). وقال يعقوب بن بختان: (وُلد لي سبع بنات فكنت كلما وُلد لي ابنة، دخلت علىٰ

(١) صحيح مسلم (٢٦٣١).

(٢) النووي، شرح صحيح مسلم (١٩/ ١٨٠). وفي سنن الترمذي رقم (١٩١٤)، وصححه الألباني بلفظ: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من عال جاريتين دخلت أنا وهو الجنة كهاتين وأشار بأصبعيه».

أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالىٰ- فيقول لي: يا أبا يوسف! الأنبياء آباء بنات، فكان يُذهب قوله همي)[1].

فهذا درس عملي لمن لديه بنات، سواء أكان أبًا، أو أُمًّا، لا أقول لهم: لا تتضايقوا من البنات؛ بل اشكروا الله أن اختار لكم ما اختاره لأنبيائه، واحتسبوا ما وعدكم الله من عظيم الأجر، من مشابهة الرسول ﷺ في الدنيا، وكونكم معه «كهاتين» يوم القيامة.

ثالثًا: إن الله -جل شأنه- عندما اختار لأفضل أنبيائه تربية البنات، فلا شك أنه -جل شأنه- اختار له العمل الأفضل، وعليه فإن تربية البنات أفضل من تربية الأبناء، وإن كان الناس يرغبون في الأبناء، طمعًا في زينة الدنيا، وقد قال -تعالىٰ-: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ﴾ [آل عمران:١٤]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف:٤٦].

رابعًا: إنني توقفت مع اختيار الله -جل شأنه- لنبيه ﷺ أن يُرزَق بأبناء ثم يموتون صغارًا. يقول الدكتور محمد أبو شهبة -رحمه الله تعالىٰ-: (وقد شاء الله- وله الحكمة البالغة- ألا يعيش له ﷺ أحد من الذكور حتىٰ لا يكون ذلك مدعاة لافتتان بعض الناس بهم، وادّعائهم لهم النبوة، فأعطاه الذكور تكميلًا لفطرته البشرية، وقضاء لحاجات النفس الإنسانية.. ثم أخذهم في الصغر، وأيضًا ليكون في ذلك عزاء وسلوىٰ للذين لا يُرزقون البنين، أو يرزقونهم ثم يموتون، كما أنه لون من ألوان الابتلاء، وأشد الناس بلاء الأنبياء، فالأمثل فالأمثل)[2].

(١) صالح ابن الإمام أحمد، سيرة الإمام أحمد تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، الطبعة الثانية، (الإسكندرية: دار الدعوة ١٤٠٤)، (ص٤١)، وابن القيم، تحفة المودود بأحكام المولود (ص ٢٦).

(٢) محمد أبو شهبة، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، الطبعة الثامنة (دمشق: دار القلم ١٤٢٧)، (١/ ٢٢٤).

وهذا يعني عدة حِكَم:

أ. صيانة للناس من الافتتان بأبناء النبي ﷺ، ونحن نرىٰ ما صنعه البعض من الغلو بأبناء إحدىٰ بنات النبي صلىٰ الله عليه وسلم؛ فكيف لو كان ابنًا للنبي ﷺ؟!

ب. إن في ذلك عزاء لمن يُصاب بأحد أبنائه.

ج. إن في هذا ابتلاء لرفعة الدرجات وأشد الناس بلاء الأنبياء. والله أعلم.

خامسًا: في هذا الموقف من السيرة وعند الحديث عند أولاد الرسول ﷺ يبرز الجانب الأبوي العاطفي فيما نقرأه، فنجد أن الرسول ﷺ يرقّ رقة شديدة عندما رأىٰ ابنته زينب وهي في مكة، وهو في المدينة، تَبْعث في فكاك زوجها الأسير أبي العاص قلادة كانت أمها خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، أهدتها لها يوم زواجها، وعندما رأىٰ الرسول ﷺ هذه القلادة، تذكّر خديجة، واستعاد في ذاكرته أيام زواج بُنيته (زينب)، وتلك الهدية التي قدّمتها الأم لابنتها، ثم اليوم لا تجد البنت شيئًا تستطيع أن تفتدي به زوجها سوىٰ هذه القلادة، ولا شك أنها لم تُفرّط ببعث القلادة إلا وإنها لم يكن عندها شيء تقدّمه فداءً لزوجها، فقدمت أثمن ما تملك، هدية أمها لها، في يوم زواجها، والتي احتفظت بها لسنوات لم تفرّط بها، واليوم وجدت نفسها مضطرة لبعثها، فرقَّ الرسول ﷺ للزوجة وللبنت ولحال البنت في فَقْرها، وفقدها لزوجها غريبة وحيدة بين الأعداء في مكة، فما كان منه ﷺ إلا أن يعرض عرضًا علىٰ أصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم-: «إن رأيتم أن تُطلقوا أسيرها، وتردوا عليها الذي لها؛ فافعلوا»، فقالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوا أبا العاص، وردوا عليها الذي لها.

هذا هو الرسول ﷺ بعاطفته الأبوية، هو قدوتنا، أما جفاف المشاعر فمن شأن الأعراب الجفاة، وليس من شأن من يتربىٰ في هذا الدين، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: أبصر الأقرعُ بن حابس النبيَّ ﷺ وهو يُقبِّل الحسن -رضي الله تعالىٰ

عنه– فقال: إن لي من الولد عشرة ما قبلت أحدًا منهم. فقال رسول الله ﷺ «إنه مَن لا يرحم لا يرحم»[١].

سادسًا: الرسول ﷺ يخرج من بيته حاملًا علىٰ كتفه الشريف أُمامة بنت بنته زينب –رضي الله تعالىٰ عنهما–، ثم يُصلي أمام الناس، وهي علىٰ كتفه، يحملها قائمًا، ويضعها إذا جلس حتىٰ انتهت الصلاة، والصحابة –رضي الله تعالىٰ عنهم– ينظرون.

أريد أن تتخيل هذا المشهد لو جرىٰ في مسجدكم مِنْ إمام المسجد، أو غيره، كيف سيكون موقف جماعة المسجد؟!

يغلب علىٰ الظن أن هذا المشهد من هيئته –والله أعلم – أنه متعمدٌ؛ فالرسول ﷺ يخرج من بيته وهو يحملها، فلم تأتِ هي إليه، وتلحق به إلىٰ المسجد، ليضطر إلىٰ حملها وإسكاتها.

إذًا، هناك شيء مقصود!! ويبدو لي –والله أعلم– أنه هو المهم، فمن المعلوم أن العرب لا يحبّون البنات، وربما ينالهن شيء من الازدراء؛ بل ما هو أسوأ من الازدراء، وإذا كانت البنت عند العرب مزدراة، فما بالك ببنت البنت؟! وهنا الرسول الكريم ﷺ لا يأتي أمام الناس حاملًا بنتًا له، بل بنت ابنته، وهذا عند العرب أسوأ. فهم يحبّون الأبناء، ويفاخرون بهم، ويتبعهم أبناء الأبناء، أما البنات وأبناؤهن فيقول شاعرهم:

بنونا بنو أبنائنا، وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد[٢]

إذا كان أبناء البنات، أبناء الرجال الأباعد، فكيف ببنت البنت؟!

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (١٩١١)، وصححه الألباني.

(٢) البيت من الطويل، وهو للفرزدق، كما في خزانة الأدب (١/ ٤٤٤).

وعندما يخرج الرسول ﷺ يحملها أمام أُناسٍ وجدوا آباءهم علىٰ هذا الميراث، فقد حقق ﷺ عمليًّا، معاني كثيرة عامة وخاصة:

- أما العامة فهو يبين عمليًّا مكانة المرأة بعامة في الإسلام، ومكانة البنت، وبنت البنت بخاصة؛ ليجتث من القلوب كراهية البنات، ويربّي أصحابه علىٰ الرحمة واللطف والعناية بالبنات.

وإن هناك أمورًا أمثل طريقة لاجتثاثها من القلوب، التطبيق العملي، فأفضل طريقة لنزع هذا الاحتقار، أن يروا الرسول ﷺ عمليًّا، يحتفي ببنت ابنته أمامهم في الصلاة، ومثل ذلك نزول الوحي بأن يتزوج الرسول ﷺ زوجة ابنه من التبني زيد بن حارثة -رضي الله تعالىٰ عنه- بعد منْع التبنّي، وبعد أن طلَّقها، قال -تعالىٰ-: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب:٣٧]؛ في قصة معروفة.

- أما الخاصة -فبالله عليك- ما هو موقف زينب -رضي الله تعالىٰ عنها- وهي ترىٰ أباها رسول رب العالمين، وسيد ولد آدم، وقائد الأمة يخرج إلىٰ الناس حاملًا ابنتها، ويصلّي وهو يحملها، كيف ستكون مشاعرها وفرحتها وغبطتها وسرورها؟!

والغالب أنها كانت موجودة في بيت أبيها؛ لأن الطفلة أُمامة، صغيرة تُحمَل علىٰ الأكتاف لا يمكن أن تأتي بمفردها، خاصةً إذا علمنا أن زوجها أبا العاص لم يسلم ويرجع إلىٰ زوجته في المدينة إلا في شهر المحرم من السنة السابعة، مما يغلب علىٰ الظن أن زينب وقتها كانت عند والدها.

وقد تحدث الفقهاء عند شرح هذا الحديث شرحًا فقهيًّا، ومنهم من رأىٰ أنه خاص بالرسول ﷺ، ومنهم من قال: إنه منسوخ، ولكن النووي -رحمه الله تعالىٰ- أجاب علىٰ ذلك كله فقال: (ادّعىٰ بعض المالكية أن هذا الحديث منسوخ، وبعضهم

أنه من الخصائص، وبعضهم أنه كان لضرورة، وكل ذلك دعاوىٰ باطلة مردودة، لا دليل عليها، وليس في الحديث ما يخالف قواعد الشرع؛ لأن الآدمي طاهر، وما في جوفه معفوّ عنه، وثياب الأطفال وأجسادهم محمولة علىٰ الطهارة حتىٰ تتبين النجاسة، والأعمال في الصلاة لا تبطلها إذا قلَّت أو تفرقت، ودلائل الشرع متظاهرة علىٰ ذلك، وإنما فعل النبي ﷺ ذلك لبيان الجواز)[1]. وكلٌّ ينظر إلىٰ المشهد من زاويته؛ فالفقيه يتقصَّىٰ الأحكام الفقهية، والمربّي ينظر إلىٰ الجوانب التربوية، والداعية إلىٰ الله ينظر إلىٰ الجوانب الدعوية، وهكذا.

ويتكرر هذا المشهد مرة أخرىٰ -كما تذكر بعض كتب السير-، وبصورة أوسع، وعلىٰ مشهد من آلاف الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-، عندما دخل الرسول ﷺ مكة يوم الفتح، وقد أردف معه علىٰ ناقته ابن بنته زينب -رضي الله تعالىٰ عنها- (علي بن أبي العاص -رضي الله تعالىٰ عنهما-)؛ ليقول للعالم أجمع هذا ابن البنت الذي تتبرأون منه، وتزدرون أمه!!

سابعًا: في سيرة رقية بنت رسول الله ﷺ أمر عجب، فقد وُلدت قبل البعثة بسبع سنوات تقريبًا، وآمنت بالرسول ﷺ، ثم تزوجها عثمان -رضي الله تعالىٰ عنه-، وهو من السابقين إلىٰ الإسلام، فلما اشتد إيذاء قريش لمن أسلم، هاجر عثمان ورقية -رضي الله تعالىٰ عنهما- إلىٰ الحبشة. أتدري كم عمر رقية -رضي الله تعالىٰ عنها- عندما هاجرت هجرتها الأولىٰ للحبشة؟!

قد تصدق، وقد لا تصدق!!، كانت الهجرة إلىٰ الحبشة في السنة الخامسة من البعثة!! وهذا يعني أن عمرها الشريف -رضي الله تعالىٰ عنها- وأرضاها ١٣ سنة علىٰ الأكثر، وهاجرت مع زوجها إلىٰ الحبشة فرارًا بدينها، قطعت الصحاري، وركبت البحر، ثم نزلت عند قوم لا قرابة بهم، ولا معرفة سابقة، وإنما أخبارٌ ذكرت

---

(١) النووي، شرح مسلم (٥/ ٣٢).

لهم أن القوم منطقتهم آمنة دينيًّا، فهاجروا إليها. ثم عادت إلىٰ مكة بعد عدة أشهر، ثم خرجت ثانية مهاجرة إلىٰ الحبشة، ثم رجعت إلىٰ مكة، ثم هاجرت أيضًا إلىٰ المدينة.

هذه هي التي يجب أن تكون قدوة لبنات المسلمين، في تمسكها بدينها، وأن يقرأن سيرتها. وإذا أردنا أن نُصلح بناتنا فعلينا أن نبرز لهن القدوات الصالحات من رقية -رضي الله تعالىٰ عنها- وأمثالها.

ثامنًا: وما زلت مع رقية -رضي الله تعالىٰ عنها وأرضاها-، التي ما أن استقرت في المدينة وآمنت واطمأنت، إلا وتُصاب بمرض الحَصْبة -وهو مرض معروف ينتقل بالعدوىٰ-، ويخرج الرسول ﷺ إلىٰ بدر لملاقاة عير قريش القادم من الشام، ولفرط تعلق الرسول الكريم ﷺ ببُنَيَّتِه وحبّه لها يأمر زوجها عثمان -رضي الله تعالىٰ عنه- بأن يبقىٰ معها يُمرّضها، وله أجر الغزوة ونصيبه فيها، وبعد انتهاء الغزوة يعود الرسول ﷺ من بدر منتصرًا علىٰ كفار قريش، ويرسل البشير إلىٰ المؤمنين في المدينة ببشائر النصر، ولكنه ﷺ يحمل في قلبه همًّا آخر؛ رقية المريضة، ما خبرها؟ وقلبه معها، كيف لا؟ وهو الأب الحنون، الذي من محبته لها وحرصه عليها، أمر زوجها عثمان أن يبقىٰ معها، مقدِّمًا رعايتها وتمريضها علىٰ المشاركة في بدر، لعل الله أن يكتب لها السلامة، وكأن تمريضها أحبُّ إلىٰ الرسول ﷺ من مشاركة عثمان -رضي الله تعالىٰ عنه- في بدر.

دخل الرسول ﷺ المدينة، وقلب الأب مع ابنته، وهو يؤمل أن يسمع بشيرًا بما يسرّه عن بُنيّته المريضة التي عمرها ٢١ سنة، فإذا بها تُنعَىٰ إليه؛ أن بنتك تحت الثرىٰ.

تاسعًا: زواج علي -رضي الله تعالىٰ عنه- بفاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها- لم يكن مَهرها سوىٰ درعًا حطميًّا!! هذا مهر سيدة نساء العالمين، وأحب بنات الرسول ﷺ إليه، وفي ذلك أسوة حسنة للآباء والأمهات والبنات والشباب. فما

كانت المغالاة في المهور يومًا من الأيام كرامة، ولو كانت كرامة لكانت أولىٰ بها بنت رسول ﷺ؛ بل الكرامة في التخفيف والتيسير كما فعل الرسول ﷺ، وفِعْلُه ﷺ هو الأتم الأمثل.

عاشرًا: وقفت مع التعامل بين الرسول ﷺ وابنته فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، كما تروي ذلك عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- تقول عنهما: «كانت إذا دخلت علىٰ النبي ﷺ قام إليها فقبَّلها وأجْلسها في مجلسه، وكان النبي ﷺ إذا دخل عليها قامت من مجلسها فقبَّلته وأجْلسته في مجلسها».

تعجز الأحرف أن تصف روعة هذا المشهد، لو رأيتَه لمرة واحدة، فكيف وهو يتكرر مع كل لقاء، كيف تستطيع أن تصف هذا الأب في تعامله مع أصغر بناته، يقوم إليها ويقبّلها ويُجلسها مكانه، وكأن الداخل عليه هي والدته!! أي أب هذا؟! الذي يتعامل مع بنته هذا التعامل؟! وكأن ليس عنده همٌّ إلا هي، كأنه ليس رسول يحمل رسالة إلىٰ الأمة، ولا قائد جيش، ولا حاكم يأمر وينهي، ولا قاضٍ يقضي بين نزاعات الناس.

أين الذين شغلتهم الدنيا عن بناتهم؟!

أين من يتضايقون منهن؟!

أين من يستحي من ذكر المرأة في المجلس؟!

أين من يئدون البنات؟!

أما أنا فلا أعتقد أن قَلَمًا مهما أُوتي صاحبه من بيان، أن ينقل صورة تُقَرِّب وصف حقيقة هذا التعامل والود. وإنما أقول: غفرانك ربنا! والله المستعان والراحم للحال، ونعتذر إلىٰ ربنا ثم إلىٰ بناتنا من سوء تعاملنا معهن، ونحن نَدَّعي أن الرسول ﷺ هو أُسوتنا. والعاقل من سعىٰ في إصلاح الحال.

الحادية عشرة: علي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- رغب في أن يتزوج زوجة ثانية، مع فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، فغضبت فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، ولها ذلك، وذهبت إلىٰ والدها تشتكي، فقام ﷺ خطيبًا علىٰ المنبر؛ فعن المسور بن مخرمة -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو علىٰ المنبر: «إن بني هشام بن المغيرة استأذنوا في أن يُنكِحُوا ابنتهم عليّ بن أبي طالب، فلا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن، إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم، فإنما هي بَضعة مني، يريبني ما أرابها، ويؤذيني ما آذاها»[١].

وقد سمعت وقرأت أكثر من تساؤل، كيف أن الرسول ﷺ يُعدِّد ويشرع التعدُّد، ولما أراد زوج ابنته من التعدد منعه؟

حقًّا، لم يفهموا الحكمة من وراء ذلك!!

والجواب هو كالتالي: يقول الله -سبحانه وتعالىٰ- في كتابه الكريم ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [التوبة:٦١]، ويقول الله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٥٧ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب:٥٧-٥٨]. تأمل هاتين الآيتين ففيهما الجواب علىٰ هذا السؤال. فقد فرّق الله -جل شأنه- بين إيذاء الرسول ﷺ، وإيذاء المؤمنين، فإيذاء الرسول ﷺ محرم بحق وبغير حق، أما إيذاء المؤمنين فإن كان بحق فلا بأس، وإن كان بغير حق فلا.

والرجل إذا تزوج علىٰ زوجته، زوجة أخرىٰ فقد آذاها، ولكن هذا الإيذاء بحق؛ لأنه يحق له أن يعدد، فلا بأس بذلك.

(١) صحيح البخاري (٧/ ٣٧) رقم (٥٢٣٠) وصحيح مسلم (٢٤٤٩).

أما إيذاء فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، فقد قال ﷺ: «والذي يؤذيها يؤذيني»، وإيذاء الرسول ﷺ لا يجوز، ولو بحق. وبالتالي فالتزوج علىٰ فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها- محرم لما يترتب عليه من إيذاء الرسول ﷺ.

وهذا من خصائص المصطفىٰ ﷺ، وسياق الآيتين واضح في هذه الخصيصة له ﷺ، ويؤكد هذا الأمر، الآية التي قبلها عندما قال -تعالىٰ-: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٣]. فإيذاء الرسول ﷺ كله ممنوع[(١)].

الثانية عشرة: قضية مشتركة واجهها الرسول ﷺ، أردت أن أجمع فيها المواقف مرة واحدة مسرودة تِلْو بعض مُذَكِّرًا بقول أنس -رضي الله تعالىٰ عنه-: «ما رأيت أرحم بالعيال من الرسول ﷺ»، وحبه ﷺ لبناته وأبنائه، وحزنه لفقدهم، وبكائه عليهم بكاء الرحمة والشفقة، وتعهُّده لابنه إبراهيم، وذهابه إليه في العالية من أطراف المدينة، فيحمله ويشمّه ويقبّله. وكذلك كان يقبّل ولدي ابنته فاطمة ويشمهما ويقول: «هما ريحانتاي من الدنيا»[(٢)]، إذا استحضرت هذا المعاني فتأمل ما يلي:

١. القاسم بن محمد ﷺ، هو الولد البِكْر للرسول ﷺ وبه يُكْنَىٰ، ثم لما صار في سنّ الخطو والمشي، وتعلق القلب به، مات وعمره سنتان. وعمر الرسول ﷺ تقريبًا ثلاثون سنة.

---

(١) يقول القاضي عياض -رحمه الله تعالى- في الشفا (٢/ ٢٣٠) في (فصل في عفوه عمن آذاه): (وقد قال بعض علمائنا: إن أذى النبي ﷺ حرام لا يجوز بفعل مباح ولا غيره، وأما غيره فيجوز بفعل مباح مما يجوز للإنسان فعله، وإن تأذى به غيره، واحتج بعموم قوله تعالى: (إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة)، وبقوله ﷺ في حديث فاطمة: «إنما بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها، ألا وإني لا أحرم ما أحل الله، ولكن لا تجتمع ابنة رسول الله وابنة عدو الله عند رجل أبدًا». وقال النووي في شرح صحيح مسلم (١٦/ ٣) عند شرح هذا الحديث: «تحريم إيذاء النبي ﷺ بكل حال وعلى كل وجه وإن تولد ذلك الإيذاء مما كان أصله مباحًا وهو حي وهذا بخلاف غيره».

(٢) صحيح البخاري رقم (٥٩٩٤) من حديث ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-.

٢. ثم رُزق ﷺ بزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة علىٰ التوالي، ثم عبد الله بعد البعثة، ولك أن تتصوّر مقدار فرحة الأبوين بهذا المولود الذكر بعد موت الابن الأول، وسلسلة بنات وطول انتظار. لكنه لم يلبث أن لحق بأخيه، وترك لوعة في قلبي أبويه، ولسانًا متهكمًا ساخرًا، من مشركي قريش قالوا: محمد أبتر.

٣. ثم تلحق الزوجة الكريمة خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- بالابن، ويبقىٰ الرسول الكريم ﷺ ليس في البيت إلا هو وبُنَيَّات صغار -رضي الله تعالىٰ عنهن وأرضاهن-.

٤. ولما عاد من غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة، وجد ابنته رقية -رضي الله تعالىٰ عنها- قد ماتت، وعمرها واحد وعشرون عامًا فقط.

٥. وفي السنة الرابعة نقر ديكٌ ولد بنته رقية -رضي الله تعالىٰ عنها- (عبد الله بن عثمان -رضي الله تعالىٰ عنهما-) فتورم وجهه، ومات وكان هو وحيدها ليس لها ولد غيره، وهي قد سبقته بسنتين باللحوق بربها.

٦. في شهر محرم من السنة الثامنة من الهجرة ماتت ابنته زينب -رضي الله تعالىٰ عنها-، وعمرها ثلاثون عامًا فقط، وهي التي أعطىٰ غاسلتها حقوه ﷺ. ليكون شعارًا لها ضمن كفنها.

٧. ثم إن -كما يظهر- ابنها (علي بن أبي العاص -رضي الله تعالىٰ عنهما-) لحق بها بعد مدة قصيرة من وفاتها.

٨. وفي السنة التاسعة ماتت ابنته أم كلثوم -رضي الله تعالىٰ- دون أن تخلّف ذرية، وهو الذي صلىٰ عليها وجلس علىٰ قبرها وهم يدفنونها، وعيناه تدمعان، ونزل أبو طلحة -رضي الله تعالىٰ عنه- في قبرها بأمره ﷺ، وعمرها -رضي الله تعالىٰ عنها- سبع وعشرون سنة فقط.

٩. وفي السنة العاشرة مات ابنه ووحيده إبراهيم ﷺ ورضي الله عنه، وعمره سنة ونصف تقريبا، بعد أن فرح به فرحًا شديدًا وسُرَّ به، مات بين يديه، وعيناه ﷺ تذرفان ويقول: «إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

من بقي من أبنائه وبناته؟ رزق ﷺ بثلاثة أبناء (القاسم وعبد الله وإبراهيم) -رضي الله تعالىٰ عنهم-، كلهم ماتوا في حياته، ورُزق بأربع بنات مات ثلاث منهن في حياته، ومات ابن بنته رقية، وابن بنته زينب أيضًا في حياته، فلم تبق إلا فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، لقد اختار الله -جل شأنه- لنبيه ﷺ أن يكون أُسوة للمحزونين كما هو أسوة لسائر المؤمنين.

فيا من أُصيب في حبيبٍ، فلتتذكر كيف تتابعت المصائب علىٰ الحبيب المصطفىٰ المختار ﷺ في بيته، فقد أُصيب في ستة من أولاده السبعة واحدًا تلو الآخر.

وإذا أردت الزيادة فتذكر أنه وُلد يتيمًا، وليس له أخ ولا أخت، ثم أُصيب بأُمه آمنة، وجده عبد المطلب، عندما كان صغيرًا، كما أُصيب بعمه أبي طالب ثم عمه حمزة -رضي الله تعالىٰ عنه-.

هذا كله بصفته الشخصية، عدا ما أصابه مما له علاقة بالنبوة والرسالة، وهذا أمر آخر له حديثه.

لو شاء الله -جل شأنه- لعصم نبيه من كل هذا، ولأعفاه مما ذاق من ألم اليُتم في صغره، وحرّ الثكل في بنيه وبناته في كِبَره، وفداحة المصاب في خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- وأبي طالب، ومحنة الإفك في عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-، ولجعل حياته نصرًا متصلًا لا يعرف الهزيمة، ولأراحه من اضطهاد أعدائه وكيد المنافقين ممن دخل في عِداد أتباعه، لكن الله -جل شأنه- اختار له الأفضل الأعلىٰ عنده -سبحانه-.

المبحث الرابع عشر

بناء الكعبة[١]

قال الله -تعالىٰ-: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج:٢٦].

قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (ذكر -تعالىٰ- أنه بوّأ إبراهيم -عليه السلام- مكان البيت، أي: أرشده إليه، وسلّمه له، وأذن له في بنائه. واستدل به كثير ممن قال: إن إبراهيم -عليه السلام-، هو أول من بنىٰ البيت العتيق، وأنه لم يُبن قبله»، كما ثبت في الصحيح عن أبي ذر -رضي الله تعالىٰ عنه- قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام». قلت: ثم أي؟ قال: «بيت المقدس». قلت كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة»[٢])[٣].

وقال -تعالىٰ-: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧]؛ (أمر الله -تعالىٰ- إبراهيم وإسماعيل -عليهما

---

(١) الكعبة لغة: البيت المرتفع، قال الطبري -رحمه الله تعالى- في تفسيره (٩/ ٦): عن مجاهد، قال: «إنما سميت الكعبة لأنها مربعة»..... وعن عكرمة، قال: «إنما سميت الكعبة لتربيعها»، وقال الرازي في تفسيره الكبير (١٢/ ٤٣٥): «سميت الكعبة كعبة لارتفاعها وتربعها، والعرب تسمي كل بيت مربع كعبة»، وقال: (١٢/ ٤٣٩): سميت الكعبة كعبة لارتفاعها.. فالكعبة لما ارتفع ذكرها في الدنيا واشتهر أمرها في العالم سميت بهذا الاسم، ولذلك فإنهم يقولون لمن عظم أمره: فلان علا كعبه»، ولا يمنع أن تكون سميت بهذا للأمرين جميعًا لتحققهما فيها، والله أعلم.

(٢) صحيح البخاري برقم (٣٣٦٦) وصحيح مسلم برقم (٥٢٠).

(٣) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٥/ ٤١٣).

السلام-، أن يبنيا الكعبة علىٰ اسمه وحده لا شريك له للطائفين به والعاكفين عنده، والمصلين إليه من الركع السجود)[1].

وروىٰ الأزرقي -رحمه الله تعالىٰ- بسنده عن علي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه-، بعد أن ذكر بناء إبراهيم -عليه السلام-: (.. ثم انهدم، فبنته العمالقة[2]، ثم انهدم، فبنته قبيلة من جرهم، ثم انهدم، فبنته قريش)[3].

وهذا هو الصحيح في سلسلة بناء الكعبة إلىٰ عهد قريش، زاد الله بيته تشريفًا وحفظًا[4].

قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (أخرج عبد الرزاق والحاكم والطبراني أن الكعبة كانت في الجاهلية مبنية بالرضم ليس فيها مدر[5]، وكانت قدر ما تقتحمها العناق، وكانت ثيابها توضع عليها تُسدل سدلًا، وكانت ذات ركنين[6] -كهيئة هذه الحلقةD-)[7].

---

(١) ابن كثير، تفسير ابن كثير (١/ ٣٢٠).

(٢) العمالقة: نسبة إلى جد لهم اسمه عمليق بن لاوي بن سام بن نوح، وكانوا من سكان اليمن. انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير تحقيق عمر عبد السلام تدمري، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتاب العربي ١٤١٧)، (١/ ٧٢).

(٣) الآزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي ملحس (بيروت: دار الأندلس للنشر)، (١/ ٦١)، والحاكم في المستدرك تحقيق مصطفى عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية)، (١/ ٦٢٩) رقم (١٦٨٤). وقال الذهبي في التلخيص على شرط مسلم، والبيهقي، دلائل النبوة (٢/ ٥٦).

(٤) انظر: محمد شبالة، بيت الله الحرام الكعبة، الطبعة الأولى، (الإسكندرية، دار الإيمان للنشر ١٤٢٨)، (ص ٩٥).

(٥) الرضْم: بتسكين الضاد: الحجارة بعضها على بعض، والمدر هو الطين أو الملاط الذي يوضع بين الحجارة؛ ليتماسك البناء، ومعنى هذا أنها كانت مبنية بالحجارة بعضها على بعض، وليس بين الحجارة طين يمسك الحجارة، انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث (٢/ ٢٣١ و ٤/ ٣٠٩).

(٦) ابن حجر، فتح الباري (٣/ ٤٤١).

(٧) أقرب الأشكال هو حرف D باللغة الإنجليزية. ورسم هكذا في فتح الباري.

وكانت الكعبة محاطة ببيوت أهل مكة، وليس حولها حائط[1]، فكانت معرَّضة للسيول التي تنحدر عليها من جبال مكة بسبب عدم وجود الأسوار التي تحميها.

ولما بلغ الرسول ﷺ خمسًا وثلاثين سنة[2] جاء سيل عارم فصدّع جدران الكعبة، وأوهن أساسها، فأرادت قريش هدمها، ولكن تهيبوا من ذلك؛ لمكانتها في قلوبهم، وخوفهم أن يصيبهم أذىٰ، خاصةً بعد ما حصل لأبرهة عندما غزا الكعبة وأراد هدمها، وهم شاهدوا ما جرىٰ له من العقوبة، فقال الوليد بن المغيرة: أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة؟ قالوا: بل الإصلاح، فقال: إن الله لا يهلك الصالحين، وأخذ المعول، وشرع يهدم، وتربص الناس تلك الليلة، وقالوا: ننتظر، فإن أُصيب لم نهدم منها شيئًا، ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء هدمناها، فقد رضي الله ما صنعنا.

فأصبح الوليد من ليلته عائدًا إلىٰ عمله، فهدم وهدم الناس حتىٰ إذا انتهوا إلىٰ أساس إبراهيم -عليه السلام-، أفضوا إلىٰ حجارة خضر آخذ بعضها ببعض، فتركوا الأساس كما هو وشرعوا في البناء، واتفقوا فيما بينهم أن لا يُدخلوا في بنائها من كسبهم إلا طيبًا، لا يدخل فيه مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس.

وقد تجزأت قريش بناء الكعبة، وأخذت كل مجموعة من القبائل جانبًا، وشارك الرسول ﷺ في بناء الكعبة، فعن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: لما بُنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس -رضي الله تعالىٰ عنه- ينقلان الحجارة، فقال عباس للنبي ﷺ: اجعل إزارك علىٰ رقبتك يقك من الحجارة، فخر إلىٰ الأرض،

---

(١) في صحيح البخاري عن عمرو بن دينار وعبيد الله بن أبي يزيد قال: (لم يكن على عهد النبي ﷺ حول البيت حائط، كانوا يصلون حول البيت حتى كان عمر ﷺ فبنى حوله حائطًا، قال عبيد الله: جدره قصير، فبناه ابن الزبير) البخاري، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٧/ ١٤٦، حديث رقم ٣٨٣٠.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية ١/ ٢٠٩، وابن حجر، فتح الباري ٣ / ٤٤١.

وطمحت عيناه إلىٰ السماء، ثم أفاق، فقال: «إزاري، إزاري فشد عليه إزاره»[1].

ولما وصلوا إلىٰ موضع الحجر الأسود اختلفوا في من يضعه؟ فكل قبيلة تريد أن تحظىٰ بهذا الشرف، حتىٰ كادت الحرب تقع بينهم، وقرَّب بنو عبد الدار جفنة مملوءة دمًا، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي علىٰ الموت، واستمروا علىٰ هذه الحالة عدة أيام.

ثم ألهم الله –سبحانه وتعالىٰ– أكبرهم سنًا وهو أبو أمية بن المغيرة المخزومي[2]، فقال: يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل عليكم. وفي المسند: «اجعلوا بينكم حكما، قالوا: أول رجل يطلع من الفج»[3].

فرضوا وأقبلوا يترقبون أول قادم، فإذا به محمد ﷺ؛ فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضيناه، هذا محمد.

فلما وصل إليهم أخبروه، فبسط رداءً، ثم أخذ الحجر فوضعه فيه، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بطرف، ثم أمرهم برفعه، فرفعوه جميعًا، حتىٰ إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده المباركة. وبهذا كان سببًا في وقاية قريش من حرب كادت تقع بينهم.

وفي رواية أخرىٰ ذكرها الأزرقي والحاكم في المستدرك بسنده عن علي بن أبي طالب –رضي الله تعالىٰ عنه–: (فلما أرادوا أن يضعوا الحجر تشاجروا في وضعه، فقال: أول من يخرج من هذا الباب فهو يضعه. فخرج رسول الله ﷺ مِن قِبَل باب بني

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح، كتاب مناقب الأنصار، باب بنيان الكعبة ٧/ ١٤٥.

(٢) وهو والد أم المؤمنين أم سلمة –رضي الله تعالى عنها–.

(٣) الإمام أحمد، المسند (٢٤/ ٢٦٢) رقم (١٥٥٠٤)، وقال محقق المسند: (إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير هلال بن خباب، فمن رجال أصحاب السنن، وهو ثقة)، وأخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٦٢٨) رقم (١٦٨٣)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، وله شاهد صحيح على شرطه»، ولم يتعقبه الذهبي. وقال أحمد بن غانم الأسدي في المدخل إلى علم السيرة (٣٨١): «إسناده صحيح».

شيبة، فأمر بثوب فبُسِطَ فوضع الحجر في وسطه، ثم أمر رجلًا من كل فخذ من أفخاذ قريش أن يأخذ بناحية الثياب، فأخذه رسول الله ﷺ بيده فوضعه)[١].

وكانت النفقة قد ضاقت بقريش عن إتمام البيت علىٰ قواعد إبراهيم -عليه السلام-، فاضطروا إلىٰ النقص منه، فبنوا علىٰ الجزء الشمالي الذي تركوه جدارًا قصيرًا؛ للإعلام أنه من البيت، وهو ما يُعرَف حاليًا (بالحِجْر)، ورفعوا باب الكعبة عن الأرض[٢].

عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-، قالت: سَأَلْتُ النبيَّ ﷺ عَنِ الجَدْرِ أَمِنَ البَيْتِ هُوَ؟ قالَ: «نَعَمْ». قُلتُ: فَما لهمْ لَمْ يُدْخِلُوهُ في البَيْتِ؟ قالَ: «إنَّ قَوْمَكِ قَصرَتْ بهِمُ النَّفَقَةُ». قُلتُ: فَما شَأْنُ بابِهِ مُرْتَفِعًا؟ قالَ: «فَعَلَ ذلكَ قَوْمُكِ؛ لِيُدْخِلُوا مَن شاؤُوا ويَمْنَعُوا مَن شاؤُوا، ولَوْلا أنَّ قَوْمَكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بالجاهِلِيَّةِ، فأخافُ أَنْ تُنْكِرَ قُلُوبُهُمْ، أَنْ أُدْخِلَ الجَدْرَ في البَيْتِ، وأَنْ أُلْصِقَ بابَهُ بالأرْضِ»[٣].

وصارت الكعبة بعد انتهائها ذات شكل مربع تقريبًا يبلغ ارتفاعه ١٥ مترًا، وطول ضلعه الذي في الحجر الأسود والمقابل له ١٠، ١٠م، والحجر موضوع علىٰ

(١) الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي ملحس (بيروت: دار الأندلس للنشر) (١/ ٦١)، والحاكم في المستدرك تحقيق مصطفى عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية)، (١/ ٦٢٩) رقم (١٦٨٤). وقال الذهبي في التلخيص على شرط مسلم. والبيهقي، دلائل النبوة (٢/ ٥٦. والذهبي في تاريخ الإسلام، تحقيق بشار عواد معروف، الطبعة الأولى (دار الغرب الإسلامي١٤٢٣)، (١/ ٥١٠). وانظر: بيت الله الحرام الكعبة، لمحمد شبالة (ص ٩٥)؛ فقد صحّح هذه الرواية.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٢٠٩-٢١٤)، وابن حجر، فتح الباري (٣ / ٤٤١) و(٧/ ١٤٦)، والسهيلي، الروض الأنف (١/ ٢٢١-٢٢٩)، ومحمد أبو شهبة، السيرة النبوية (ص ٢٢٧ - ٢٢٩)، ومحمد الصوياني، السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة من (ص ٤١ - ٤٤).

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري (١٥٨٤) واللفظ له، وصحيح مسلم (١٣٣٣).

ارتفاع ١،٥٠م من أرضية المطاف. والضلع الذي في الباب والمقابل له ١٢م وبابها علىٰ ارتفاع مترين علىٰ الأرض، ويحيط بها من الخارج قصبة من البناء أسفلها، متوسط ارتفاعها ٢٥، ٠م ومتوسط عرضها ٠،٣٠م، وتسمىٰ بالشاذروان[١].

وقد اختلف العلماء هل الشاذروان من البيت أو ليس منه؟ فذهب الجمهور[٢] إلىٰ أنه منه، وقال الحنفية[٣] ووافقهم شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: إنه ليس من البيت، وإنما هو عماد للبيت[٤].

---

(١) انظر: صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم (٥٢-٥٣). وقد أعاد بناء الكعبة عبدالله بن الزبير -رضي الله تعالى عنهما- وقت إمارته عام ٦٤ على قواعد إبراهيم -عليه السلام-، ثم أعادها مرة أخرى الخليفة عبد الملك بن مروان -رحمه الله تعالى- عام ٧٣ إلى ما كانت عليه في عهد قريش، وذلك بهدم الجدار الشامي وإعادته إلى ما كان عليه بإخراج الحِجْر، وإغلاق الباب الغربي للكعبة، ثم ندم بعد ذلك، وتمنى لو أنه تركها على بناء ابن الزبير -رضي الله تعالى عنهما-، ثم أعاد بناءها السلطان العثماني مراد خان عام ١٠٣٩ نتيجة سيل عظيم سقطت بسببه جدرانها، وفي عهد الملك سعود بن عبد العزيز -رحمهما الله تعالى- عام ١٣٧٧ تم تجديد سقف الكعبة وترميمها، وفي بداية عام ١٤١٧ في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد -رحمه الله تعالى- أجري بعض الترميمات، وتجديد الجدر الداخلية للكعبة والخارجية. ملخصًا من كتاب تاريخ الكعبة المعظمة، لحسين عبد الله باسلامة، من منشورات الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة (حرسها الله تعالى). وقد يسر الله -جل شأنه- للعبد الضعيف وشرّفه بدخول الكعبة في ذلك الوقت، والمشاركة في بناء بعض الجدار الداخلي الغربي، وذلك ببناء حجرين، ووضعهما في مكانهما، ومشاركة الابن خالد بن زيد الزيد بوضع ثلاثة أحجار في مكانها، وذلك بعد صلاة العشاء، ليلة السبت ١٨/ ١٩ ربيع الأول ١٤١٧؛ فلله الحمد والمنة.

(٢) قال بذلك المالكية و الشافعية والحنابلة، انظر: الحطاب، مواهب الجليل (٣/ ٧٠)، المجموع للنووي (٨/ ٢٤)، والإنصاف (٩/ ١١١).

(٣) انظر: ابن عابدين، رد المحتار (٢/ ٤٩٦).

(٤) انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٢٦/ ١٢١). وقال: (وليس الشاذروان من البيت، بل جُعل عمادًا للبيت)، وينبني على الخلاف لو أنه شخصًا طاف وهو يمشي على الشاذروان، أو جعل يده وهو يطوف على الشاذروان، هل يصح طوافه أو لا؟ الذين يقولون هو جزء من الكعبة لا يصححون طوافه، والذي يقولون ليس جزءًا منها صححوا طوافه، والله أعلم.

ماذا نستفيد من حادثة بناء الكعبة وتحكيم الرسول ﷺ في هذا النزاع الذي وقع بين قريش؟

١. هذا البيت، هو بيت الله، إذا أطلقت هذه العبارة فأول ما يتبادر إلىٰ الذهن هذا البيت، بناه خليل الرحمن بأمر من الله -جل شأنه-، فبناؤه ومكانه وزمانه وبانيه وكيفيته بأمر إلهي، ثم أمره أن يؤذن في الناس بالحج إليه، وشرع لهم التوجه إليه في صلاتهم. فأصبحت تهفو إليه القلوب أينما كانت.

يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ- إن الكعبة منذ بناها إبراهيم -عليه السلام- وهي قبلة الصلاة ولم يُصلّ الخليل -عليه السلام- ولا غيره من الأنبياء إلا إلىٰ الكعبة -والذي بدّل القبلة إلىٰ بيت المقدس هم أتباعهم من اليهود والنصارىٰ[١].

٢. عمارة البيت عبادة من أشرف العبادات اصطفىٰ الله خليله إبراهيم ونبيه إسماعيل -عليهما الصلاة والسلام- لأداء هذه العبادة. وكان توفيقًا لقريش -وهم أهل شرك وجاهلية- أن ينالوا هذا الشرف، وهو يلفت أنظارنا إلىٰ منزلة عمارة بيوت الله؛ العمارة الحسية؛ ببناء المساجد، والعمارة المعنوية بالطاعات فيها. قال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة:١٨]؛ فقد أثبت الإيمان في الآية لهؤلاء وهؤلاء، لمن عمر المساجد بالصلاة

---

(١) يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالى- في كتابه الرد على المنطقيين (بيروت: دار المعرفة) (ص٢٨٩): (فلم يُصَلِّ قط أحد من أنبيائهم وأتباعهم إلى الشرق، ولم يشرع الله مكانًا يصلى إليه إلا الكعبة. والأنبياء -الخليل ومن قبله- إنما كانوا يصلون إلى الكعبة). ويقول الشيخ محمد العثيمين -رحمه الله تعالى- في تفسير سورة البقرة (٢/ ١٣٧): «والظاهر -والله أعلم- أن الكعبة قبلة كل الأنبياء لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ (سورة آل عمران: ٩٦)، وهكذا قال شيخ الإسلام: إن المسجد الحرام قبلة كل الأنبياء، لكن أتباعهم من اليهود والنصارى هم الذين بدّلوا القبلة».

فيها، ولمن اعتنىٰ بتنظيفها وإصلاح ما وهىٰ منها(١).

٣. لا بيت أفضل من هذا البيت، ومع ذلك يسأل الخليلُ وابنه -عليهما السلام- ربهما القبول. فمع العمل الصالح لا بد من سؤال القبول. ورد عن وهيب بن الورد (٢) -رحمه الله تعالىٰ-: (أنه كان يقرأ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾؛ ثم يبكي ويقول: يا خليل الرحمن، ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفق أن لا يتقبل منك)(٣).

٤. وقفتُ عند مسألة تحكيم محمد ﷺ في وضع الحجر، وفرح القرشيين بذلك، ثم الطريقة التي أنهىٰ بها النزاع بأن وضع الحجر بنفسه بعد أن رفعه إلىٰ مكانه ممثلو قبائل قريش، لماذا لم يتحدث عنها النبي ﷺ، مع أنه أخبر أصحابه بعدد من الأحداث التي وقعت له في مكة قبل البعثة كرعي الغنم، وشق الصدر، وهذا حدث مهم جدًّا في حياته، يكشف عن مكانته بين قريش في شبابه. فهل تركه تواضعًا، وإعراضًا عن مدح النفس والثناء عليها؟ هذا الذي يبدو لي، والله أعلم. ولو حصل شيء قريب من هذا التميز لأحد الأشخاص، لملأ الدنيا ضجيجًا، وأخبر كل مَن يلاقي بذلك، وشغل به كل مجلس يحضره.

ولعل في ذلك درسًا لنا في التواضع، والإعراض عن الثناء علىٰ النفس، وترك التحدث بما قد يُوجِدُ في النفس كبرًا وتعاليًا علىٰ الآخرين بسبب أَنْعم ومكاسب يسّرها الله لنا، لا يدَ لنا فيها.

---

(١) انظر: القرطبي، تفسير القرطبي (٨/ ٩٠).

(٢) هو: «وهيب بن الورد المكي، العابد، الرباني، أبو أمية، مولى بني مخزوم، قال ابن إدريس: ما رأيت أعبد منه. وقال ابن المبارك: قيل لوهيب: يجد طعم العبادة من يعصي؟ قال: ولا من يهم بالمعصية. قال ابن معين: ثقة. وقال النسائي: ليس به بأس. قيل: مات سنة ثلاث وخمسين ومائة) سير أعلام النبلاء (٧/ ١٩٨-١٩٩).

(٣) ابن كثير، تفسير ابن كثير (١/ ٤٢٧).

وهنا خيطٌ رفيعٌ، يُمَيِّز بين التحدث بنعم الله؛ شكرًا، والتحدث بها زهوًا وتعاليًا. فالتحدُّث بنعم الله -جل شأنه- بقصد الشكر والاعتراف بفضل الله -تعالىٰ- مطلوب قال -تعالىٰ-: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحىٰ:١١].

٥. عندما قال زعماء قريش -وهم وثنيون عباد أصنام-: «لا تُدْخِلوا في بناء هذا البيت مكسبًا حرامًا من كسب بغي أو مظلمة أو ربًا»، يدلنا هذا علىٰ أن العرب كانوا يدركون دناءة كسب الربا وقبحه وعاقبته؛ بل وحُرمته؛ ولذلك فهم يَحْذَرُونه في بناء الكعبة، ماذا نقول عندما نرىٰ العرب قبل أن يكرمهم الله بنعمة الإسلام يعرفون دناءة الكسب الربوي، ويحرصون علىٰ تطهير أمورهم المهمة منه، إلىٰ درجة أنهم يتركون جزءًا من الكعبة بدون بناء، ولا ينتفعون بهذا المال الربوي، ويرون أن هذا أهون من أخذ الربا، واليوم بعد أن مَنَّ الله علىٰ الأمة بالإسلام، وفتح الله لهم أبواب الخيرات، ورزقهم الأموال، إذا بالربا ينتشر بين المسلمين، ويصبح أمرًا غير منكر أن يكون لبعض المسلمين مساهمة في بنك أو شركة تعتمد الربا أساسًا لكسبها، أو يأخذ قرضًا ربويًّا!!

كفار مكة يجمعون علىٰ دناءة الربا، ويتحرزون من إدخال كسبه في عمارة الكعبة، وفي الأمة الإسلامية من يتعاطىٰ الربا في مطعمه ومشربه، ومطعم أولاده ومسكنهم، ما الجديد الذي أضافه لنا الدين إذا كنا لم نسمع لتوجيهاته في أمر كان محترزًا حتىٰ في الجاهلية؟

٦. تأملت في الروايات التي نقلت لنا خلاف قبائل قريش بناة الكعبة، علىٰ وضع الحجر في مكانه، كل قبيلة تريد نيل هذا الشرف، ووجدت أنهم اتفقوا علىٰ أول داخل عليهم.

لكن هل يكون حكمًا بينهم؟

أو يكون له هو حق وضع الحجر، وينتهي النزاع؟!

الوارد روايتان، هذه، وهذه، لكني أميل -والله أعلم -إلىٰ أن قريشًا اتفقوا علىٰ أن أول داخل له حق وضع الحجر في مكانه، والذي يجعلني أُغَلِّب هذا الرأي، أن كلتا الروايتين مقبولة حديثيًّا، لكن الذي وقع عمليًّا -كما يظهر- مِن فِعل الرسول ﷺ يرجّح الثانية، فالذي يظهر من الروايات أن الرسول ﷺ هو الذي رفَع الحجر من الأرض ووضعه علىٰ الرداء، ثم هو الذي تناوله من الرداء بعد أن رفعته القبائل، ووضعه في مكانه.

أما لو كان المطلوب منه أن يحكم بينهم فقط، فالظاهر أنه ليس للمحكَّم أن يباشر العمل محل النزاع شخصيًّا، بأن يضع الحجر بنفسه؛ بل المطلوب منه بصفته محكَّمًا، أن يفصل في النزاع، ويحكم بينهم بطريقة عادلة منصفة، مَرْضِيَّة تُمكّنهم هم من تنفيذ العمل.

ثم إن تفويض وضع الحجر لأول داخل، ويكون هو محمد ﷺ، ويتمكن من أن يخص نفسه بشيء عظيم، يبقىٰ له ذِكْره، ومع ذلك، يتصرّف بهذه التصرف الحكيم الذي أَكْرَم به كل القبائل وأرضاهم وأدخلهم في شرف المشاركة في وضع الحجر. أظن أن هذا أعلىٰ مقامًا، وأقرب للحقيقة والواقع من الرأي الآخر القائل بأنهم فوّضوه في التحكيم فقط.

٧. لم يكن دخوله ﷺ في هذا الوقت مصادفة؛ بل ظاهر فيه- والله أعلم- التدبير الإلهي، صنعه الله -جل شأنه- لنبيه محمد ﷺ وهو القائل جل شأنه: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾ [الطور:٤٨]. فالله -جل شأنه- يحوطه ويدبّر أمره لما يهيؤه له من القيام بالرسالة العظمىٰ للبشرية.

٨. إن الرأي الجماعي الذي صدر بديهة من القرشيين وهم حول الكعبة حينما أقبل محمد ﷺ، وقالوا جميعًا: (رضينا جاء الأمين، رضينا جاء محمد)؛ هذا الرأي في محمد ﷺ لا بد أن نقف عنده، ونقول: إن اقتناع الناس بك مهم جدًّا

للسماع منك، فالاختلاط بالناس، والتعرف عليهم والتعامل معهم، أساس للداعية إلىٰ الله، ولو أن محمدًا ﷺ دخل عليهم في هذه السن (٣٥ سنة) وهم لا يعلمون عنه شيئًا لما رحبوا به، ولما فرحوا لمقدمه عليهم، ولكنه ﷺ كان شخصًا معروفًا مشتهرًا بالذكر الحسن، والمخالطة المحمودة والثناء الجميل، ولم يكن بالشخص المنعزل عن مجتمعه، المنطوي علىٰ نفسه الذي لا يَعْرِفُ ولا يُعْرَفُ، ثم يريد بعد ذلك الإصلاح، ويريد القبول، ويريد التأثير، فالخطوة الأولىٰ للداعية أن يكون في الميدان حاضرًا عارفًا معروفًا مدركًا لأهمية الاختلاط بالمجتمع، محتسبًا الأجر في ذلك، ناويًا أن يكون هدفه من هذا الاختلاط الإصلاح، ولو كان هذا المجتمع يخالفه، فالرسول ﷺ كان رافضًا لما عليه الجاهلية قبل البعثة، كان رافضًا للأصنام، والطواف حولها، والذبح لها، مُعْرِضًا عن شرب الخمر، والزنا، وسائر أقذار الجاهلية، ولكنه لم يكن معتزلًا القوم، بل كان يشاركهم فيما يحل، ويعرفهم، ويعرفونه بالصادق الأمين، وهذا يبين لنا حدود الخلطة والعزلة، فلا العزلة الكاملة مطلوبة، والتي تجعل الشخص نكرة لا يعرفونه، ولا يقبلون منه، ولا الخلطة التامة أيضًا مقبولة التي تجعل الشخص فردًا منهم، يذوب فيهم، يفعل كل ما يفعلون؛ بل خلطة تقيم الصلة بهم، وتؤسس العلاقة النافعة البانية للاحترام والتقدير والقبول، وعزلة في سائر القضايا التي تخالف المعتقد والدين[1]. نَفْقه ذلك من خلال مشاركة النبي ﷺ لقومه مشاركة تجعله معروفًا لديهم من كثرة تعامله، وكثرة احتكاكه بهم، حتىٰ وصفوه نتيجة لذلك بالصدق والأمانة، ولو كان في هذه الخلطة المتزنة خطأ أو خلل لنَزَّه الله -سبحانه وتعالىٰ- عنها نبيّه محمدًا ﷺ كما نزَّهه عن أدران الجاهلية التي كان معصومًا منها قبل البعثة.

---

(١) ولكن إذا فسد الزمان، وتغير الأحوال، وخشي الإنسان على نفسه، وأدرك أنه غير قادر على المحافظة على دينه بسبب الخلطة، فالعزلة مشروعة حينئذ. طالع القرطبي عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ﴾ [الحديد:٢٧]. وعند تفسيره لقول الله تعالى : ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف:١٠] (١٠/ ٣٦٠).

٩. ثم كيف يكون الشخص ذا تأثير في المجتمع؟! أذلك من خلال ثنائه علىٰ نفسه، أم ماذا؟ إن هذا التساؤل يقودنا إلىٰ الفائدة الثانية من هذا الموقف وهي:

إن من أهم الأسباب الدعوية المؤثرة: الأخلاق، فخُلق محمد ﷺ جعلهم يُرحّبون بمقدمه عليهم، ويفرحون برؤيته، ويُسَرّون؛ لكونه هو الحَكَم بينهم، ويرضون بحكمه قبل أن يحكم، وبعد أن حكم، وهذه شبيهة جدًّا باللَّذَيْنِ سُجِنَا مع يوسف -عليه السلام-، فإنهما رأيا رؤيا، فجاءَا إلىٰ يوسف -عليه السلام- يقصّان عليه ما رأياه، ويسوّغان اختياره لعرض الرؤيا عليه دون غيره بقولهما: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦]، قال -تعالىٰ-: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦]؛ فجاءا إليه رغم أنه مسجون، والسجن محل تهمة، ورغبا في استفتائه، وذكرا السبب وهو أنهما رأيا عليه سيما وعلامات الإحسان في سلوكه وأخلاقه، وهذا هو واجب الداعية: التميز في الأخلاق الحسنة والمعاملة الفاضلة؛ ليعرفه الناس، وليأتوا إليه، وليسمعوا منه ويقبلوا رأيه ويتأثروا بدعوته.

١٠. هذا الحدث يبين مكانة محمد ﷺ في قومه، فقد تلقاه الجميع في موقف وضع الحجر مكانه بالرضا وقالوا: رضينا، جاء الأمين، ولما بُعِثَ قالوا: ساحر، كاهن، كذاب، إلىٰ آخر الألقاب السيئة التي كانوا يصفون بها محمدًا ﷺ، فهو عندما يتحدث عن أمور دنياهم صادق، مرضي، وعندما يتحدث عن أمور دينهم، يصبح الصادق الأمين كذابًا ساحرًا كاهنًا، فقولهم هذا حجة عليهم أولًا، وهو أيضًا يعطينا درسًا أن المؤمن إذا واجه الناس في أمور دينهم فلن يسكتوا، فإذا كان كفار قريش قد قالوا للصادق الأمين لديهم، أنه ساحر كذاب، فماذا سيقول أمثالهم وأحفادهم لمن هو دون ذلك؟ فلا ينزعج الشخص، ولا يتأثر عندما يسمع كلمات وأوصاف الناس عنه؛ وليعلم أن السبب أنه تكلم في أمر من أمور دينهم، وليس لعيب فيه.

١١. قلنا من قبل: إن حادثة الفيل أبرزت قريشًا علىٰ سائر القبائل وميزتها، وأصبحت قريش رمزًا وعلمًا من بين قبائل العرب؛ واليوم في حادثة بناء الكعبة تتم الخطوة الثانية بتتويج محمد ﷺ علىٰ هذا الرمز، فحادثة الفيل ميزت قريشًا ورفعتها، وحادثة بناء الكعبة ميزت محمدًا ﷺ علىٰ قريش، ورفعته عليهم، وذلك كله تمهيدًا للبعثة التي دنت، وأزف موعدها، يقول محمد أبو شهبة -رحمه الله تعالىٰ- في السيرة: (وقد ازداد النبي ﷺ منزلة فوق منزلته، وقدرًا فوق قدره، وأصبح أحدوثة العرب في كل نادٍ ومجلس)(١).

١٢. في حادثة الكعبة مقدمة من مقدمات النبوة؛ فالذي حال بين قريش وبين إراقة دماء بعضهم لبعض اليوم، هو الذي سيجمع القوم بعد نزاعهم، وفُرقتهم، وهو الذي سيجمع الأمة العربية، وسيُوحّدها مع سائر الأمم تحت لواء الإسلام.

١٣. وقع اختلاف بين الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- في إعادة بناء الكعبة علىٰ قواعد إبراهيم -عليه السلام-، يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (فلما ولي ابن الزبير -رضي الله تعالىٰ عنهما- شاور الناس في ذلك فمنهم من رأىٰ ذلك مصلحة، ومنهم من أشار عليه بأن لا يفعل، وقال: هذه الكعبة هي التي كانت علىٰ عهد النبي ﷺ وعليها أسلم الناس، وهذا كان رأي ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- وطائفة، والفقهاء متنازعون في هذه المسألة؛ فمنهم من يرىٰ إقرارها كقول ابن عباس وهو قول مالك وغيره، ويقال: إن الرشيد شاوره أن يفعل كما فعل ابن الزبير، فأشار عليه أن لا يفعل، ورأىٰ أن هذا يُفْضِي إلىٰ انتقاص حرمة الكعبة باختلاف الملوك في ذلك، هذا يهدمها ليبنيها كما فعل ابن الزبير، وهذا يرىٰ أن يُعيدها كما كانت، ومنهم من يرىٰ تصويب ما فعله ابن الزبير، ويقال: إن الشافعي يميل إلىٰ هذا)(٢).

(١) محمد أبو شهبة، السيرة النبوية ص ٢٢٩.

(٢) ابن تيمية، الرد على المنطقيين (بيروت: دار المعرفة) (ص٥٠٣).

لكن هذا الخلاف لم يستمر، فقد استقر أمر الأمة علىٰ المنع من التعرض للكعبة بالهدم وإعادة البناء، يقول أبو العباس القرطبي -رحمه الله تعالىٰ- وهو من فقهاء المالكية-: (واستحسن الناس هذا من مالك، وعملوا عليه، فصار هذا كالإجماع. علىٰ أنه لا يجوز التعرض له بهد أو تغيير)[1]. وأيد ذلك ابن حجر الهيتمي -رحمه الله تعالىٰ- وهو من فقهاء الشافعية بقوله: (واستحسن الناس هذا من مالك وأثنوا عليه به؛ فصار كالإجماع علىٰ منع تغيير بنائها؛ بل نقل عن الزهري أن عبد الملك أراد هدم بناء الحجاج - لما بلغه وصح عنده أن ما فعله ابن الزبير هو الحق الموافق لما صح عن النبي ﷺ أنه قال: «لولا حدثان قريش بكفر لنقضت الكعبة وجعلتها علىٰ قواعد إبراهيم»؛ فمنعه الزهري من ذلك؛ نظير منع مالك الرشيد)[2].

١٤. فيما جرىٰ للرسول ﷺ أثناء نقله للحجارة مع عمه العباس -رضي الله تعالىٰ عنه-، من وضعه لإزاره علىٰ رقبته، ثم ما جرىٰ له بعد ذلك، يدلنا علىٰ ما كان للرسول ﷺ من حفظ وعناية منذ صغره، قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وذكر ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ- في المبعث، وكان رسول الله ﷺ فيما ذُكر لي يحدث عما كان الله يحفظه في صغره أنه قال..)[3]، ثم ذكر القصة، وسيأتي مزيد تفصيل لهذا الموضوع في المبحث التالي.

(١) القرطبي، المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم (٣/ ٤٣٩). وهو من فقهاء المالكية.
(٢) ابن حجر الهيتمي، الفتاوى الفقهية الكبرى، جمعها: تلميذه عبد القادر الفاكهي (المكتبة الإسلامية)، (١/ ١٣٧). وهو من فقهاء الشافعية.
(٣) ابن حجر، فتح الباري ٧/ ١٤٦.

المبحث الخامس عشر

صور من حفظ الله -سبحانه وتعالى- لنبيه محمد ﷺ قبل البعثة

نشأ ﷺ في مجتمع جاهلي وصفه جعفر بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه-، وهو يتحدّث أمام النجاشي فقال -وقد أوجز وأبلغ-: (كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام. ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف)[1].

ومع هذه البيئة البالغة في السوء يقول ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ- عن الرسول ﷺ (فشبَّ رسول الله ﷺ والله -تعالىٰ- يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية، لما يريد به من كرامته ورسالته، حتىٰ بلغ أن كان رجلًا أفضل قومه مروءةً، وأحسنهم خُلقًا، وأكرمهم حسبًا، وأحسنهم جوارًا، وأعظمهم حِلمًا، وأصدقهم حديثًا، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تُدنّس الرجال تنزهًا وتكرمًا، حتىٰ ما اسمه في قومه إلا الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة)[2].

(كان يخرج إلىٰ الصبيان وهم يلعبون فيتجنبهم)[3]. وكانت سيرته ﷺ قبل البعثة مثالًا للحياة الفاضلة الشريفة، محفوظًا بحفظ الله -جل شأنه- في عقيدته وفي خُلقه، وفي تعامله. ناشئًا علىٰ أسمىٰ الأمور، قولًا وعملًا:

أولًا: حِفْظ الله نبيه ﷺ من الشرك وعبادة الأصنام: فقد حفظ الله -جل شأنه- فطرته التي وُلد عليها، فكان علىٰ التوحيد نقي القلب، يوقن بأنه لا معبود

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٢٩٠).

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ١٦٧).

(٣) الحلبي، إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون (١/ ٣٣٩).

بحق إلا الله -سبحانه وتعالىٰ-، مزدريًا لتلك الأصنام التي يعبدها قومه، وما شابهها من اعتقادات جاهلية، كالاستقسام بالأزلام، يدرك أنها لا تنفع ولا تضر، ولا تملك شيئًا، قال القاضي عياض -رحمه الله تعالىٰ-: (وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ وُلدوا، ونشأتهم علىٰ التوحيد والإيمان)[١].

عن العرباض بن سارية -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إني عبد الله لخاتم النبيين، وإن آدم -عليه السلام- لمُنْجَدِل[٢] في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسىٰ بي، ورؤيا أمي التي رأت»[٣]. قال ابن رجب -رحمه الله تعالىٰ-: (وقد استدل الإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ- بحديث العرباض بن سارية -رضي الله تعالىٰ عنه- هذا علىٰ أن النبي ﷺ لم يزل علىٰ التوحيد منذ نشأ، وردَّ بذلك علىٰ من زعم غير ذلك)[٤].

يَذْكرُ مولاه زيد بن حارثة -رضي الله تعالىٰ عنه- أنه كان مع الرسول ﷺ يومًا قبل البعثة، وكان هناك صنم من نحاس يقال له: إساف ونائلة[٥]، يتمسح به

(١) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى (بيروت: دار الفكر الطباعة والنشر ١٤٠٩)، (٢/ ١٠٩).

(٢) (وإن آدم لمُنْجَدلٌ؛ أي: لملقى على وجه الأرض. «في طِيْنَتِهِ»؛ أي: في خلقته). شرح المصابيح للكرماني (٦/ ١٩٧).

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند (٢٨/ ٣٨٠) رقم (١٧١٥٠)، وقال المحقق: «حديث صحيح لغيره».

(٤) ابن رجب، لطائف المعارف (١/ ٨١).

(٥) قال ابن هشام في السيرة ١/ ١٣٥): (قال ابن إسحاق: وكان إساف ونائلة رجلاً وامرأة من جرهم، هو: إساف بن بَغْي ونائلة بنت ديك، فوقع إساف على نائلة في الكعبة: فمسخهما الله حجرين. وقال: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم. عن عمرة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زرارة أنها قالت: سمعت عائشة -رضي الله عنها- تقول: ما زلنا نسمع أن إسافا ونائلة كانا رجلًا وامرأة من جرهم، أحدثا في الكعبة: فمسخهما الله تعالى حجرين -والله أعلم). ومعنى أحدثا فجرًا.

المشركون إذا طافوا، فطاف رسول الله ﷺ بالكعبة، يقول زيد: (وطفت معه، فلما مررت مسحت به أي (بالصنم)؛ فقال رسول الله ﷺ: «لا تمسه»؛ فقلت في نفسي: لأمسنه حتىٰ أنظر ما يكون، فمسحته، فقال رسول الله ﷺ: «ألم تُنْهَ؟» فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنمًا حتىٰ أكرمه الله بالذي أكرمه وأنزل عليه)[1].

عن عروة بن الزبير -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: حدثني جارٌ لخديجة بنت خويلد -رضي الله تعالىٰ عنها- أنه سمع النبي ﷺ وهو يقول لخديجة: «أي خديجة، والله لا أعبد اللات، والله لا أعبد العزىٰ أبدًا» قال: فتقول خديجة: خلّ اللات، خل العزىٰ[2].

ثانيًا: حِفْظ الله -جل شأنه- لنبيه ﷺ من مساوئ الأخلاق: ١- لم يشرب خمرًا قط، ولا اقترف فاحشة، ولا شارك في ميسر أو لهو عابثٍ باطلٍ[3]. مع أنه كان ﷺ يخالط قومه، ويعيش معهم، ويشاركهم في سائر أمورهم العادية المباحة. فقد كان هناك عصمة من ربه تحميه ﷺ من المساوئ الخُلقية، ففي صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال: (لما بُنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس -رضي الله تعالىٰ عنه- ينقلان الحجارة، فقال عباس -رضي الله تعالىٰ عنه- للنبي

---

(١) البيهقي، دلائل النبوة ٢/ ٣٤، والحاكم في «المستدرك (٣/ ٢٣٨) رقم (٤٩٥٦)، وقال: (صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ومن تأمل هذا الحديث عرف فضل زيد وتقدمه في الإسلام قبل الدعوة). ولم يتعقبه الذهبي في التلخيص. والذهبي، سير أعلام النبلاء – السيرة النبوية)، (١/ ٧٣)، وقال: (هذا حديث حسن) وابن كثير، البداية والنهاية (٢/ ٢٨٨). وقال الألباني: إسناده حسن. انظر «صحيح السيرة النبوية» (ص ٣٢). وانظر: السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة للصوياني ص ٤٦، حيث قال: حديث حسن.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢٩ / ٤٧٦) رقم (١٧٩٤٧)، وقال محققه: (إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير جار خديجة فلم يرو له غير المصنف هذا الحديث الواحد، وهو صحابي، وجهالته لا تضر)، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٢٥) رقم (١٣٨٦١): (رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح). وقولها له: خل اللات: تقريرًا له على ما قال.

(٣) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (١/ ١٣٠-١٣١).

ﷺ: اجعل إزارك علىٰ رقبتك يقك من الحجارة، فخرَّ علىٰ الأرض، وطمحت عيناه إلىٰ السماء، ثم أفاق: «إزاري، إزاري»، فشد عليه إزاره)[(١)].

٢- عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمّون به من الغناء إلا ليلتين؛ كلتاهما عصمني الله -سبحانه وتعالىٰ- فيهما، قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن في رعاية غنم أهلنا، فقلت لصاحبي: أبْصِر لي غنمي حتىٰ أدخل مكة فأسمر فيها كما يسمر الفتيان، فقال: بلىٰ، قال: فدخلت حتىٰ إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفًا فقلت: ما هذا؟ فقيل: تزوج فلان فلانة فجلست وضرب الله -تعالىٰ- علىٰ أذني، فو الله ما أيقظني إلا مسّ الشمس، فرجعت إلىٰ صاحبي، فقال: ما فعلت؟ قلت: ما فعلت شيئًا، ثم أخبرته بالذي رأيت، ثم قلت له ليلة أخرىٰ: أبصر لي غنمي حتىٰ أسمر بمكة، ففعل، فدخلت فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة فسألت، فقيل: فلان نكح فلانة، فجلست أنظر وضرب الله علىٰ أذني، فو الله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلىٰ صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فقلت: لا شيء، ثم أخبرته الخبر، فو الله ما هممت ولا عدت بعدها لشيء من ذلك حتىٰ أكرمني الله -عز وجل- بنبوته»[(٢)].

---

(١) صحيح البخاري المطبوع فتح الباري ٧/ ١٤٥، كتاب مناقب الأنصار.

(٢) البيهقي، دلائل النبوة ٢/ ٣٤، وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق التركي ٣/ ٤٤٧، وقال ابن كثير بعدها: هذا حديث غريب وقد يكون عن عليّ نفسه، ويكون قولـه في آخره، حتى أكرمني الله -عز وجل- بنبوته مُقحَمًا، والله أعلم، والشامي، سبل الهدي ٢/ ١٤٨، وقال: (رواه ابن إسحاق وإسحاق بن راهويه والبزار وابن حبان، قال الحافظ: وإسناده حسن متصل، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٢٤٥ وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يتعقبه الذهبي، وقال الهيثمي في المجمع ٨ / ٢٢٦: رواه البزار ورجاله ثقات. وضعفه الألباني في كتابه (دفاع عن الحديث النبوي والسيرة في الرد على جهالات البوطي في فقه السيرة (ص١٣و١٤، انظر: محمد الصوياني، السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة ص٣٨و٣٩؛ حيث حسَّن هذا الحديث. وقد سبق إيراد هذا الحديث مع التخريج في رعيه ﷺ للغنم.

ثالثًا: حفظ الله -جل شأنه- لنبيه من الخطأ في عباداته وعدم مجاراة الجاهلية في التحريف في العبادات: يقول جبير بن مطعم -رضي الله تعالىٰ عنه-: أضللت بعيرًا لي يوم عرفة، فخرجت أطلبه، فرأيت النبي ﷺ واقفًا مع الناس بعرفة فقلت: (هذا من الحمس[1]، فما شأنه هاهنا)[2].

وذلك أن قريشًا كانوا يقفون بمزدلفة يوم عرفة، ولا يخرجون خارج الحرم إلىٰ عرفات يتميزون بذلك عن سائر الناس، فهدىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ- نبيه محمدًا ﷺ للصواب في المناسك، قبل البعثة النبوية.

رابعًا: توفيق الله -جل شأنه- لنبيه للتمسك بمحاسن الأخلاق: كان الرسول ﷺ معروفًا بالصدق، مشتهرًا بذلك بين أهل مكة، يؤكد هذا أن الرسول ﷺ بعد البعثة، صعد الصفا فهتف يا صباحاه، فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: «أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلًا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جرّبنا عليك كذبًا، قال: فإني نذير لكم بين عذاب شديد»[3]؛ فقريش في موقف عام، يقولون بصوت واحد: (ما جرّبنا عليك كذبًا)، فأنت معروف بالصدق من صِغَرك.

والخلاصة من ذلك كله أن الرسول ﷺ لم يكن فقط بعيدًا عن مساوئ الأخلاق؛ بل كان الرسول ﷺ حائزًا علىٰ المعالي من أحاسن الأخلاق، نشأ منذ صغره موحدًا لربه، متسنمًا ذروة الأخلاق، مشتهرًا بذلك معروفًا به بين قومه.

---

(١) الحمس بضم المهملة وسكون الميم بعدها مهملة: الأحمس الشديد في دينه، وكانت قريش تسمى الحمس، وكانت لا تجاوز الحرم ويقولون: نحن أهل الله لا نخرج من الحرم، وكان سائر الناس يقفون بعرفة، وهم يقفون في مزدلفة، ابن حجر، فتح الباري ٣/ ٥١٦.

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٣/ ٥١٥، حديث رقم ١٦٦٤، كتاب الحج، باب: الوقوف بعرفة، وصحيح مسلم، كتاب الحج ٢/ ٨٩٤، حديث رقم ١٢٢٠.

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ٨/ ٣٣٧، حديث رقم ٤٤٧١، كتاب التفسير، باب سورة تبت يدا أبي لهب.

محفوظًا مسددًا من ربه -جل شأنه-، وقد قال -تعالىٰ- عنه: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور:٤٨].

نأخذ مما سبق:

١) أن النبي ﷺ كان متمتعًا بخصائص البشر كلها، فهو شابٌ كسائر الشباب، يخالط القوم ويتعامل معهم، ويشعر بما يشعر به الشباب، وتُحدّثه نفسه بما تحدث به نفوس الشباب في الأمور العادية الفطرية. وقد قال الله -تعالىٰ- عنه: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ [الكهف:١١٠]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ **قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ** ﴾ [إبراهيم:١١].

٢) أن الله -سبحانه وتعالىٰ- قد حفظ له توحيده، وعصمه من جميع مظاهر الانحراف، فهو قبل أن تأتيه العصمة مِن قِبَل الوحي أيضًا لديه عاصم آخر من الله -سبحانه وتعالىٰ- يحول بينه وبين ما قد تتطلع إليه النفس، أو قد يميل إليه بسبب ضغوط مجتمعه، فيُعصَم منه، ويُحَال بينه وبينه قبل الوقوع فيه.

٣) أنه عاش ﷺ في شبابه متميزًا بالأخلاق الحسنة الفاضلة وسلامة الفطرة التي تنفر، وتمقت كل صور الوثنيات والشركيات والخرافات، فنشأ نقيًّا نزيهًا نظيفًا معروفًا بالصدق والأمانة، وكلها تُمهّد للرسالة التي سيحملها ﷺ. يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (إنه ﷺ كان مصونًا عما يُستقبح قبل البعثة وبعدها)[1].

٤) وجود هذه الصفات في الرسول ﷺ بعناية إلهيةٍ، وارتباطها ببعثته ﷺ تدلنا علىٰ أهمية هذه الأخلاق للداعية؛ ولذلك فاستقامة الداعية، وحرصه علىٰ الصدق والأخلاق الفاضلة عوامل مهمة جدًّا في إصغاء الناس له، فلا يجد الحاقد ولا الناقد مغمزًا يغمز به الداعية بشيء سابق في حياته.

(١) ابن حجر، فتح الباري (١/ ٤٧٥).

٥) كان من اليسير أن يولد الرسول ﷺ وقد نُزعت منه محبّة ما يحبه الشباب من الرغبة في اللهو، والتهاون في التعري، وينشأ بعيدًا عن ذلك، ولكن قد يُفهَم هذا علىٰ أنه انطواء وانعزال عن المجتمع، ومركب نقص في الشخص، لكن أن توجد هذه الميول فيه، ثم يُعصَم عن السوء، ويُحال بينه وبين الخطأ، فهنا يتبين التمايز والكمال الخاص به ﷺ.

٦) أنكر العلماء الرواية التي تشير إلىٰ أن الرسول ﷺ كان يشهد مع المشركين مشاهدهم وبينوا عدم ثبوت شيء منها، ومع ذلك استدل القاضي عياض -رحمه الله تعالىٰ- بدليل نظري علىٰ عدم مشاركة الرسول ﷺ قومه قبل البعثة في جاهليتهم؛ فقال: (وأنا أقول: إن قريشًا قد رمت نبينا بكل ما افترته، وعيَّر كفارُ الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها واختلقته مما نص الله -تعالىٰ- عليه، أو نقلته إلينا الرواة، ولم نجد في شيء من ذلك تعييرًا لواحدٍ منهم برفضه آلهته وتقريعه بذمِّه بترك ما كان قد جامعهم عليه. ولو كان هذا، لكانوا بذلك مبادرين، وبتلونه في معبوده محتجين، ولكان توبيخهم له بنهيهم عما كان يعبد قبل أفظع وأقطع في الحجة من توبيخه بنهيهم عن تركهم آلهتهم وما كان يعبد آباؤهم من قبل، ففي إطباقهم علىٰ الإعراض عنه، دليل علىٰ أنهم لم يجدوا سبيلًا إليه؛ إذ لو كان لنُقِلَ وما سكتوا عنه، كما لم يسكتوا عند تحويل القبلة وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة:١٤٢] كما حكاه الله عنهم)[١].

(١) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ١١٠).

الفصل الثاني

فقه السيرة من قول الله -تعالىٰ-:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾

إلىٰ قول الله -تعالىٰ-:

﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾

مقدمة

في هذا الفصل سأتحدث -بإذن الله تعالىٰ- عن جزء مهم من سيرة المصطفىٰ الكريم ﷺ -وكلها مهمة-. يبدأ مع بداية البعثة النبوية منذ ظهور مقدماتها عند الرسول ﷺ حتىٰ تمت هذه المقدمات، واستبان الأمر، بنزول ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِی خَلَقَ﴾، ثم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ① قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ والتي بها أصبح محمد ﷺ نبيًّا رسولًا مبعوثًا للثقلين الجن والإنس.

وقد تضمّنت هذه المباحث الحديث عن مقدمات البعثة النبوية، ثم بدء الوحي، وأمر الرسول ﷺ بالبلاغ وتحمل الرسالة، وحال الأميين الذين خاطبهم الرسول ﷺ أولًا بهذه الرسالة، وعرض لجوهر هذه الرسالة المباركة.

ثم بيان للخطوات الأولىٰ في الدعوة، والتي كان الرسول ﷺ مستخفيًا فيها، حتىٰ لا يهيج القوم عليه، وبدأ باتخاذ دار الأرقم مقرًّا لتعليم الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- أمور الدين الجديد.

ولما تكوَّن مع الرسول ﷺ عدد من الصحابة السابقين للإسلام -رضي الله تعالىٰ عنهم-، اقتضت مصلحة الدعوة توسيع الدائرة، والانتقال بها إلىٰ خطوة أوسع، فنزل قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾. ولما تمثله هذه الآية من توجيه جديد يقتضي خطابًا آخر، فإنها ستكون بداية الحديث في الفصل الثالث الذي يلي هذا الفصل -إن شاء الله تعالىٰ-، والله الموفق.

المبحث الأول

مقدمات[1] البعثة النبوية

يمكن تقسيم مقدمات البعثة النبوية الشريفة إلىٰ مسألتين:

المسألة الأولىٰ: في المقدمات الخاصة.

المسألة الثانية: في المقدمات العامة.

■ **المسألة الأولى: المقدمات الخاصة والمقصود به المتعلقة بشخص الرسول ﷺ، ويمكن أن نشير إلى ثلاث منها:**

أولًا: محبته ﷺ للخلاء للتعبُّد.

الثانية: تسليم الحجر عليه ﷺ.

الثالثة: الرؤيا الصادقة.

ونتحدث عنها علىٰ ذات الترتيب.

---

(١) رأيت عددًا ممن كتب في السيرة يُعَنون هذا المبحث بعبارة (الإرهاصات) أو (إرهاصات البعثة) والإرهاص شرعًا: الأمرُ الخارِقُ للعادة يظهر للنبي قبل بعثته» انظر في هذا التعريف: الهرري في الكوكب الوهاج (٢٣/ ١٢)، والمعجم الوسيط (١/ ٣٧٧) والتعريفات للجرجاني (ص ١٦). والتوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (الطبعة الأولى ١٤١٠) (ص ٤٦)، والكليات للكفوي، تحقيق عدنان درويش (بيروت: مؤسسة الرسالة) (ص ٧٨). وكثير مما يذكره بعض أهل السير تحت عنوان الإرهاصات، ليس خارقًا للعادة، أو أنه غير متعلق بذات النبي، كالخلوة، وحديث اليهود والنصارى، والرؤيا الصادقة وغيرها، ولذلك فربما تسميتها بمقدمات أصوب، والله أعلم.

أولًا: محبته ﷺ للخلاء للتعبد:

قال -تعالىٰ-: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص:٨٦]؛ قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (أي: ما كنت تظن قبل إنزال الوحي إليك أن الوحي ينزل عليك)[(١)]. وقال ابن جزي -رحمه الله تعالىٰ-: (أي ما كنت تطمع أن تنال النبوّة، ولا أن ينزل عليك الكتاب)[(٢)].

وقال الشيخ السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (أي: لم تكن متحريًا لنزول هذا الكتاب عليك، ولا مستعدًّا له، ولا متصديًا)[(٣)]. فلم يكن الرسول ﷺ يتوقع أن ينزل عليه كتاب، ولا أن يكون نبي هذه الأمة.

وإنما كان الرسول ﷺ علىٰ دين إبراهيم -عليه السلام-، من التوحيد وبُغْض الشرك والإيمان بالله -سبحانه وتعالىٰ-.

قال -تعالىٰ-: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورىٰ:٥٢].

قال ابن جزي -رحمه الله تعالىٰ-: (المقصد بهذا شيئان: أحدهما تعداد النعمة عليه ﷺ بأن علَّمه الله ما لم يكن يعلم. والآخر احتجاج علىٰ نبوته لكونه أتىٰ بما لم يكن يعلمه ولا تعلَّمه من أحد، فإن قيل: أما كونه لم يكن يدري الكتاب فلا إشكال فيه، وأما الإيمان ففيه إشكال لأن الأنبياء مؤمنون بالله قبل مبعثهم؟ فالجواب أن الإيمان يحتوي علىٰ معارف كثيرة، وإنما كمل له معرفتها بعد بعثه، وقد كان مؤمنًا

(١) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٦/ ٢٦١).
(٢) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، تحقيق عبد الله الخالدي، الطبعة الأولى، (بيروت: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم١٤١٦) (٢/ ١٢١).
(٣) السعدي، تفسير السعدي (٦٢٥).

بالله قبل ذلك، فالإيمان هنا يعني به كمال المعرفة وهي التي حصلت له بالنبوة)[1].

فالرسول ﷺ قبل البعثة كان مؤمنًا بالله -جل شأنه-، لكن ليس علىٰ سبيل التفصيل الذي نزل به الوحي لاحقًا، قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ- عن الآية السابقة: (أي: علىٰ التفصيل الذي شرع لك في القرآن)[2]. قال الطاهر بن عاشور -رحمه الله تعالىٰ-: (ومعنىٰ عدم دراية الكتاب: عدم تعلق علمه بقراءة كتاب أو فهمه. ومعنىٰ انتفاء دراية الإيمان: عدم تعلق علمه بما تحتوي عليه حقيقة الإيمان الشرعي من صفات الله وأصول الدين.. فانتفاء درايته بالإيمان مثل انتفاء درايته بالكتاب، أي انتفاء العلم بحقائقه، ولذلك قال: ما كنت تدري ولم يقل: ما كنت مؤمنًا. الأنبياء والرسل معصومون من الشرك قبل النبوءة فهم موحدون لله ونابذون لعبادة الأصنام، ولكنهم لا يعلمون تفاصيل الإيمان، وكان نبينا ﷺ في عهد جاهلية قومه، يعلم بطلان عبادة الأصنام، وإذ قد كان قومه يشركون مع الله غيره في الإلهية فبطلان إلهية الأصنام عنده تمحضه لإفراد الله بالإلهية لا محالة.. وعلىٰ شدة منازعة قريش إياه في أمر التوحيد فإنهم لم يحاجّوه بأنه كان يعبد الأصنام معهم. وفي هذه الآية حجة للقائلين بأن رسول الله ﷺ لم يكن متعبدًا قبل نبوءته بشرع)[3].

هذه حال الرسول ﷺ قبل البعثة، كان مؤمنًا بالله، لكنه لم يتشوف، ولم يستشرف للنبوة، وهذا يؤيد أن قصة بحيرىٰ وغيرها من القصص التي كان يُذكَر فيها أنه يقال للنبي ﷺ مباشرة، إنه نبي هذه الأمة، وأنها تكررت علىٰ الرسول ﷺ عدة مرات، فهذا الظاهر أنه لا يثبت -كما سبق أن أشرت- إذ لم يظهر أثر ذلك علىٰ النبي ﷺ، خاصةً عند فزعه مع نزول ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ أول مرة ومجيئه إلىٰ أم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- يرتجف فؤاده.

(١) ابن جزي، التسهيل (٢/ ٢٥٣).
(٢) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٧/ ٢١٧).
(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٥/ ١٥٢-١٥٣).

وقُبَيْل بلوغ النبي ﷺ أربعين سنة حُبِّب إليه الخلوة؛ وذلك لما في الخلوة من صفاء النفس وهدوء البال، والتفكر في ملكوت الله وعظيم خَلقه، وجليل قدرته، فكان يخلو بغار حراء[1].

تقول عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرىٰ رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح[2]، ثم حُبِّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء[3]؛ فيتحنث فيه -وهو التعبد- الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلىٰ أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلىٰ خديجة فيتزود لمثلها)[4].

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٢٥٤)، ومحمد أبو شهبة، السيرة النبوية (١/ ٢٥٥).

(٢) قال النووي -رحمه الله- في شرح صحيح مسلم (٢/ ١٩٨): (قال أهل اللغة فلق الصبح وفرق الصبح بفتح الفاء واللام والراء هو ضياؤه، وإنما يقال هذا في الشيء الواضح البين).

(٣) قال الصالحي في سبل الهدى «المقدمة» (ص ١٣): «وحراء يُقصر ويُمدّ ويُصرف ويُمنع، وهو جبل بأعلى مكة على ثلاثة أميال منها عن يسار المارّ إلى منى، له قلة مشرفة على الكعبة منحنية والغار في تلك الحنية وما أحسن ما قال رؤبة بن العجاج:

فلا وربّ الآمنات القطن ... وربّ ركن من حراء منحني»

قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- في الفتح (١٢/ ٣٥٥): (قال بن أبي جمرة الحكمة في تخصيصه بالتخلي فيه أن المقيم فيه كان يمكنه رؤية الكعبة فيجتمع لمن يخلو فيه ثلاث عبادات الخلوة والتعبد والنظر إلى البيت). أما رؤية المسجد الحرام فهذا صحيح، فإن من بصعد إلى غار حراء الآن فإنه يمكنه مشاهدة المسجد الحرام واضحًا، وقد أخبرني بذلك بعض من صعد إلى هذا الغار، وللأسف يعتقد البعض أن في هذا الصعود فضيلة، ولو كان فيها فضل وأجر لفعله الرسول ﷺ ولأرشد أمته -وهو الناصح الأمين- إلى ذلك، ولرأينا الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- يصعدونه، ولكن نتيجة الجهل، بعض الناس يسرعون في أعمال لا أصل لها ويتركون الكعبة والطواف بها، والصلاة في المسجد الحرام، مع أن أوقاتهم محدودة في أيام قلائل، لكونهم وفدوا من بلاد بعيدة للحج أو العمرة.

(٤) متفق عليه: صحيح البخاري (٦/ ١٧٣) رقم (٤٩٥٣) وصحيح مسلم رقم (١٦٠). قال القسطلاني -رحمه الله تعالى-: «ويحتمل أن يكون المراد أنه يتزوّد لمثلها إذا حال الحول، وجاء ذلك الشهر الذي جرت عادته أن يخلو فيه، قال في الفتح: وهذا عندي أظهر» إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، الطبعة السابعة (مصر: المطبعة الكبرى الأميرية، ١٣٢٣) (٧/ ٤٢٦). وورد في صحيح البخاري (١/ ٧) رقم (٣) بلفظ (الرؤيا الصالحة)، ولذلك فكل منهما تعبير شرعي سائغ.

وقال ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ- في السيرة: (قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: وحدثني، وهب بن كيسان، مولىٰ آل الزبير. قال: سمعت عبد الله بن الزبير -رضي الله تعالىٰ عنهما- وهو يقول لعبيد بن عمير بن قتادة الليثي[1] -رحمه الله تعالىٰ-: حدثنا يا عبيد، كيف كان بدء ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من النبوة، حين جاءه جبريل -عليه السلام-؟ قال: فقال عبيد -وأنا حاضر يحدث عبد الله بن الزبير، ومن عنده من الناس: كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهرًا، وكان ذلك مما تحنّث به قريش في الجاهلية. والتحنث: التبرر)[2].

فقول أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- يُشْعِر بأن تحبيب الخلاء للرسول ﷺ كان بعد الرؤيا الصادقة، ورواية ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ- تدل علىٰ أن الرسول ﷺ استمر عدة سنوات في الذهاب إلىٰ غار حراء للخلاء والتحنث.

يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (قوله ثم حُبِّب إليه الخلاء هذا ظاهر في أن الرؤيا الصادقة كانت قبل أن يحبب إليه الخلاء، ويحتمل أن تكون لترتيب الإخبار فيكون تحبيب الخلوة سابقًا علىٰ الرؤيا الصادقة، والأول أظهر)[3].

والذي يظهر أن قول أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-: «حبب إليه الخلاء» هي عبارة دقيقة، فذهاب الرسول ﷺ للخلاء والتفكر استمر عدة سنوات، كما قال ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ-، أما المحبة والتعلق بالخلاء والحرص عليه والرغبة فيه، فهذا كان بعد الرؤيا الصادقة، وعليه يكون الرسول ﷺ يذهب إلىٰ

(١) عبيد بن عمير بن قتادة الليثي الجندعي المكي، الواعظ، المفسر. وُلد في حياة رسول الله ﷺ. وحدث عن: أبيه. وعن: عمر بن الخطاب، وعلي، وأبي ذر، وعائشة، وأبي موسى الأشعري، وابن عباس، -رضي الله تعالى عنهم وطائفة، وكان من ثقات التابعين وأئمتهم بمكة. وكان يُذَكِّر الناس، فيحضر ابن عمر -رضي الله عنهما- مجلسه. توفي: قبل ابن عمر بأيام يسيرة. وقيل: توفي في سنة أربع وسبعين. الذهبي، سير أعلام النبلاء (٤/ ١٥٦-١٥٧).

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية ١/ ٢١٨).

(٣) ابن حجر، فتح الباري (٨/ ٧١٧).

الخلاء للتفكر شهرًا أو قريبًا منها لعدة سنوات -الله أعلم بعددها- ثم بعد ذلك أصبح يحب ذلك ويشتاق إليه، بعد أن ألفه، فهما مرحلتان، وعائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- تتحدث عن المرحلة الثانية، وهي المحبة، لا مجرد الخروج للخلاء، ويكون وقت الرؤيا الصادقة بين هاتين المرحلتين، وبذلك يتفق قول عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- ورواية ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ-.

والتحنث لم يكن أمرًا جديدًا، بل كان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية[1]. وهذا كان من عادة المتعبدين في قريش أنهم يجاورون في حراء وغيره للعبادة، وقد كان عبد المطلب جد الرسول ﷺ ممن يتحنث في هذا الغار؛ بل ذكر ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- أن قريشًا لم ينازعوا النبي ﷺ في غار حراء مع رغبتهم في التحنث فيه؛ لأن جده عبد المطلب أول من كان يخلو فيه من قريش، وكانوا يعظّمونه لجلالته وكبر سنه؛ فتبعه علىٰ ذلك من كان يتأله، فكان ﷺ يخلو بمكان جده، وسلَّم له ذلك أعمامه لكرامته عليهم[2].

وقد قال أبو طالب في قصيدته المشهورة:

وثور ومن أرسىٰ ثبيرا مكانه ... وراق ليرقىٰ في حراء ونازل[3]

ولكن كان تحنُّث الرسول الله ﷺ ومحبته للخلاء والانفراد عن قومه، لما يراهم عليه من الضلال المبين من عبادة الأوثان والسجود للأصنام[4].

وخلوته ﷺ كانت في الغالب في شهر رمضان من كل عام؛ قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (فأصل الخلوة قد عُرفت مدتها وهي شهرٌ، وذلك الشهر كان رمضان؛

(١) انظر: ابن حجر، فتح الباري (١٠/ ٤٢٥).
(٢) انظر: ابن حجر، فتح الباري (١٢/ ٣٥٥). والسيرة النبوية للحلبي (١/ ٣٣٩).
(٣) انظر: الصالحي، سبل الهدى والرشاد، المقدمة (ص ١٣).
(٤) انظر: الصالحي، سبل الهدى والرشاد المقدمة (ص ١٣).

رواه ابن إسحاق)[١] -رحمه الله تعالىٰ-.

وقد ذكر غير ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- عن بعض أهل السير، أن خلوته ﷺ قد تكون ثلاث ليال، وتارة سبع ليال، وتارة شهرًا[٢]. وإذا عاد من مجاورته بدأ بالطواف بالبيت، ثم انصرف إلىٰ منزله[٣].

وقد تعددت الأقوال في كيفية تعبُّده ﷺ هذه المدة؛ قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (وقد اختلف العلماء في تعبُّده -عليه الصلاة والسلام- قبل البعثة؛ هل كان علىٰ شرع أم لا؟ وما ذلك الشرع؟ فقيل: شرع نوح -عليه السلام-، وقيل: شرع إبراهيم -عليه السلام- وهو الأشبه الأقوىٰ، وقيل: موسىٰ -عليه السلام-، وقيل: عيسىٰ -عليه السلام-، وقيل: كل ما ثبت أنه شرع عنده اتبعه وعمل به)[٤]. والقول في هذا الشأن بدون دليل لا اعتبار له.

وقال الغزالي -رحمه الله تعالىٰ-: (إنه ﷺ قبل مبعثه هل كان متعبدًا بشرع أحد من الأنبياء؟ فمنهم من قال: لم يكن متعبدًا، ومنهم من قال: كان متعبدًا، ثم منهم من نسبه إلىٰ نوح -عليه السلام-، وقوم نسبوه إلىٰ إبراهيم -عليه السلام-، وقوم نسبوه إلىٰ موسىٰ، وقوم إلىٰ عيسىٰ -عليهما السلام-، والمختار أن جميع هذه الأقسام جائز عقلًا، لكنَّ الواقع منه غير معلوم بطريق قاطع، ورجم الظن فيما لا يتعلق به الآن تعبد عملي، لا معنىٰ له)[٥].

وقال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (ولم يأتِ التصريح بصفة تعبده، لكن في رواية عبيد بن عمير -رحمه الله تعالىٰ- عند ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (فيُطعم

---

(١) انظر: ابن حجر، فتح الباري (١/ ٢٣).
(٢) انظر، الحلبي، السيرة الحلبية (١/ ٣٣٨).
(٣) انظر: ابن كثير ، البداية والنهاية (٣/ ٥).
(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية (٣/ ٦).
(٥) الغزالي، المستصفى، الطبعة الأولى (مصر: المكتبة التجارية ١٣٥٦هـ)، (١/ ١٣٢).

من يرد عليه من المساكين)، وجاء عن المشايخ أنه كان يتعبد بالتفكير، ويحتمل أن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- أطلقت علىٰ الخلوة بمجردها تعبدًا؛ فإن الانعزال عن الناس، ولا سيما من كان علىٰ الباطل من جملة العبادة كما وقع للخليل -عليه السلام- حيث قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:٩٩])[١].

وقال الزرقاني -رحمه الله تعالىٰ- في شرح المواهب: (لم يأتِ تصريح بصفة تعبده ﷺ بحراء، فيحتمل أنه أطلق علىٰ الخلوة بمجردها تعبدًا، فإن الانعزال عن الناس، ولا سيما من كان علىٰ باطل، عبادة، وعن ابن المرابط وغيره، كان يتعبد بالفكر، وهذا علىٰ قول الجمهور)[٢].

وقال الشيخ محمد العثيمين -رحمه الله تعالىٰ-: (وكان يصعد إلىٰ الغار -عليه الصلاة والسلام-، ويتحنث ويتعبد لله -عز وجل- بما فتح الله عليه)[٣].

وقال الأستاذ محمد صادق عرجون -رحمه الله تعالىٰ-: (وقيل: كان يتعبد بالفكر، وهذا هو قول الجمهور، والذي نميل إليه أن تعبده ﷺ في خلواته قبل البعثة كان أساسه التفكر في آيات الله، ومنها ما كان من ملة إبراهيم، وإسماعيل -عليهما السلام-، ودليل ذلك التزامه ﷺ بتعظيم الكعبة المشرفة، والطواف بها)[٤].

ومع هذه الإطالة في النقل من نصوص كلام أهل العلم، إلا أنني أرىٰ أنه يكفي أن نعلم أن الرسول ﷺ كان يخلو ليتعبد الله -جل شأنه-، أما الكيفية، فالله أعلم بها، وهو ما أشار إليه الشيخ محمد بن عثيمين -رحمه الله تعالىٰ-: إنه كان يتعبد بما فتح الله عليه.

ويكفينا هذا، إذ الكيفية ليس لها أثر شرعي الآن. والله أعلم.

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري (٨ / ٧١٧).

(٢) الزرقاني، شرح المواهب اللدنية للقسطلاني، الطبعة الأولى (د.ت. د. ن)، (١ / ٢٥٤).

(٣) ابن عثيمين ، تفسير جزء عم (ص ٢٥٦).

(٤) محمد صادق عرجون، السيرة النبوية (١/ ٢١٦ - ٢١٧).

ماذا نستفيد من خلوة الرسول ﷺ؟

١. إن الرسول ﷺ لم يكن يتوقع أو ينتظر، أو يستشرف أن يكون نبي هذه الأمة، وذلك حسب ما يُفهم من دلالة الآيات التي سبق سياقها، وهذا يُضعف قول من يقول: إن الرسول ﷺ أُخبر في أكثر من مناسبة أنه نبي هذه الأمة، ولو أن هذا المعنىٰ تكرر عليه من أشخاص لهم مكانتهم العلمية، لوجدنا الرسول ﷺ يتوقع ذلك وينتظره، ويفسر به ما كان يجده من مقدمات.

٢. إن الرسول ﷺ كما تقول عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- حُبِّب إليه الخلاء، والناظر في أحوال الناس في ذلك الوقت، وخاصة المتحنثين الذين رفضوا الشرك وعبادة الأصنام وتحدثوا عن التوحيد وخالفوا أقوامهم كأمثال ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل -رحمهما الله تعالىٰ-، نجد أنهم اتجهوا إلىٰ بعض أهل العلم يطلبون الحقيقة عندهم فورقة اتجه إلىٰ اليهود والنصارىٰ وقرأ في التوراة والإنجيل بحثًا عن الحقيقة، وزيد بن عمرو بن نفيل سافر إلىٰ الشام يبحث عن الحقيقة أيضًا. أما محمد ﷺ فقد حفظه الله؛ بل عصمه الله -جل شأنه- من أن يسلك مسلك هؤلاء، وحبب الله إليه الخلاء، يتعبد في غار حراء الليالي ذوات العدد. وعليه فإن هذا التدبير هو تدبير إلهي، وعصمة من رب العالمين لمحمد ﷺ، من أن يتصل بأحد بحثًا عن الحقيقة، وماذا سيقول أعداء الإسلام لو أن الرسول ﷺ اتجه اتجاه ورقة أو زيدٍ في البحث عن الحقيقة؟ سيقولون إنما تعلم من اليهود والنصارىٰ. وقد قالوا ذلك وهو ﷺ، لم يلتقِ بأحد؛ قال -تعالىٰ- مخبرًا عن مقالتهم: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل:١٠٣]. فهداه الله -سبحانه- إلىٰ الخلوة، التي لا يد لبشر فيها، بل صُنْعٌ وتدبيرٌ وتربيةٌ ربانية له ﷺ، يخلو فيها بنفسه متأملًا، ومتعبدًا وفق ما يفتح الله عليه به.

٣. إن الرسول ﷺ كانت خلوته ﷺ في الغار قبل البعثة، أما بعد البعثة فقد تغيرت وأصبحت خلوة من نوع آخر لها صفتان:

الأولىٰ: الخلوة الليلية المتكررة هي التهجد، وقيام الليل حين ينام الناس، وكان هذا التهجد فرضًا علىٰ محمد ﷺ وأمته، ثم أصبح مستحبًا بعد ذلك علىٰ الأمة[1].

فالخلوة المقصودة هنا ليست خلوة الصوفية وطرقهم المنحرفة، التي فيها قصد الغيران والأودية والدور الخربة.

بل هي قيام الليل عندما ينام الناس وينزل الرب -سبحانه وتعالىٰ- كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا -تبارك وتعالىٰ- كل ليلة إلىٰ السماء الدنيا حين يبقىٰ ثلث الليل الآخر؛ فيقول: من يدعوني فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه، ومن يستغفرني فأغفر له»[2].

وقد قال -تعالىٰ- للرسول ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ١-٦]؛ فقيام الليل وترتيل القرآن هو خلوة الرسول ﷺ.

أما الخلوة الثانية: فهي التي حافظ عليها الرسول ﷺ لعدة سنوات في المدينة في رمضان فهي سنة الاعتكاف.

والاعتكاف: هو لزوم مسجد لطاعة الله، وقد قال لله -تعالىٰ-: ﴿وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، ومن هذه الآية نعرف أن الاعتكاف مشروع حتىٰ في الأمم السابقة.

وقد اعتكف الرسول ﷺ واعتكف أصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم-[3].

(١) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٩ / ٣٤.
(٢) صحيح مسلم ١/ ٥٢١، حديث رقم ٧٥٨.
(٣) متفق عليه: صحيح البخاري (٨١٣، وصحيح مسلم ١١٦٧.

واعتكف أزواجه من بعده[١]. والسنة العملية المتكررة من الرسول ﷺ هي اعتكافه في شهر رمضان طلبًا لليلة القدر[٢].

وفي الاعتكاف التفرُّغ للطاعات الخاصة، كالصلاة، والذكر، وقراءة القرآن، وما أشبه ذلك[٣].

٤. أهمية الخلوة في حياة المسلم، يخلو فيها إلىٰ نفسه، ويراجع عمله، وينظر في تقصيره، في حق ربه -سبحانه-، وكيف السبيل لتزكية نفسه، وترقية إيمانه، وتقويم سلوكه، ويفكر في مصيره ومآله، وما يجب عليه للاستعداد لما أمامه، ويستفاد من هذه الخلوة ما يلي:

أ. الاطلاع علىٰ آفات النفس، من عُجْب، وكِبْر، وحَسَد، ورياء ونحوه، والمبادرة إلىٰ الاستغفار، والتوبة، والإصلاح، والرجوع إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-.

ب. ذِكْرُ الله -سبحانه وتعالىٰ- والأنس به، وتَذَكُّر الجنة والنار والآخرة ومصير الإنسان، وما في ذلك من آثار علىٰ الطاعة، والبعد عن المعصية.

ووسيلة ذلك -كما أشرت في خلوة الرسول ﷺ قيام الليل، فهذه هي خلوة المسلم الليلية، أما السنوية فهي الاعتكاف في المسجد. والمقصود بها التفرُّغ لعبادة الله -سبحانه- والاستعانة بهذه العبادة لمزيد من الطاعة ومواجهة أمور الدنيا.

وهذا مهم جدًّا للمسلم، بعامة، وللداعية إلىٰ الله بخاصة، وقيام الليل دأب الصالحين، يقول إبراهيم بن أدهم -رحمه الله تعالىٰ- عن قيام الليل: (نحن في لذة

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (٢٠٢٦) وصحيح مسلم (١١٧٢)، من حديث أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها-.

(٢) صحيح البخاري (٨١٣)، وصحيح مسلم (١١٦٧).

(٣) انظر: ابن عثيمين، الشرح الممتع (٦/ ٥٠٢-٥٠٤).

لو عرفها الملوك وأبناء الملوك لجالدونا عليها بالسيوف)[1]، وهو زاد يتزود به في طريق دعوته إلىٰ الله -جل شأنه-، وما سيواجهه في طريقه من متاعب، ومشاق، وخصوم، وأعداء.

٥. وقبل أن أترك الحديث عن الخلوة التي كانت في غار حراء أشير إلىٰ ما يفعله بعض إخواننا المسلمين -وبخاصة الحجاج أو المعتمرين الذين يأتون من خارج المملكة- من تكليف أنفسهم بصعود بجبل النور بمكة للوصول إلىٰ غار حراء؛ ظنًّا منهم أنَّ ذلك قُرْبة من الله -تعالىٰ-. والذي تدلُّ عليه سُنَّة رسول الله ﷺ وهديه أنَّ ذلك ليس بمشروع، بل إنَّ من صعد هذا الجبل ليصلي في الغار ركعتين، ظانًّا أن ذلك قُربة وعبادة ومكان فاضل للعبادة؛ فقد أخطأ وأتعب نفسه بما لا طائل فيه؛ لأنه بدعة في الدين منكرة، وتقرُّب إلىٰ الله -جل شأنه- بما لم يَشرع، ولو أنه صلىٰ في المسجد الحرام ركعتين لكان خيرًا له، ولكسب أجر مائة ألف صلاة، وهذا أفضل له من أن يُجْهِد نفسه في عمل غير مشروع، بل صاحبه مأزور لتقرُّبه إلىٰ الله بما لم يأذن به، ولو كان هذا العمل مشروعًا، لفعله الرسول ﷺ، وقد دخل الرسول ﷺ مكة، بعد الهجرة أربع مرات، ولم يذهب إلىٰ الغار، ولم يرشد الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- إلىٰ ذلك، ولم يفعله أحد منهم. ولو كان خيرًا لسبقونا إليه.

٦. أخيرًا أقف عند مسألة مهمة؛ وهي قول عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- في وصف تلك الأيام: (فيتحنث فيه -وهو التعبد- الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلىٰ أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلىٰ خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- فيتزود لمثلها).

موقف أم المؤمنين خديجة بنت خويلد -رضي الله تعالىٰ عنها- من خلوة الرسول ﷺ؛ فهي كانت تُساعده فيها؛ مع أنها -رضي الله تعالىٰ عنها- كانت في بيتها

(١) انظر: ابن الجوزي، صفة الصفوة (٤/ ١٥٤).

مع أولادها الصغار، لمدة؛ بل ربما لمدد متتابعة حسب طبيعة خلوته، فهو ما أن ينتهي ما معه من الزاد إلا ويأتي إلىٰ خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، ويتزود من عندها ثم يعود إلىٰ خلوته، إما فورًا، أو علىٰ الحول إذا جاء الشهر المعتاد، ولا يجد منها إلا العون والمساندة، وهذه صفة من أهم صفات الزوجة الصالحة، التي تقف مع زوجها وتسانده وتكون عضدًا له، وهي بذلك قدوة لنساء المؤمنين في القيام بحقوق الزوج.

أما الزوجة التي تُثَبِّط زوجها، وتعوقه عن المضي في عمل الخير؛ بل قد تكون أسوأ من ذلك، حينما تحمل زوجها علىٰ الكسب الحرام، وتحمله علىٰ التهاون بالمعصية، فتكون ممن قال الله -جل شأنه- فيهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ ﴾ [التغابن:١٤]، وهذه عداوة مآل وليست عداوة حال؛ لأنها ستكون سببًا لدخوله النار، والعياذ بالله.

وسيأتينا من مواقف خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- العظيمة، ما هو أعظم من ذلك، ولذا كانت العلاقة بينهما وثيقة جدًّا، وقد افتقدها ﷺ لما ماتت، وحزن عليها، واستمر في ذكرها والثناء عليها وصلة أقاربها وصديقاتها وهو في المدينة.

ثانيًا: تسليم الحجر عليه ﷺ:

عن جابر بن سمرة -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجرًا بمكة كان يُسلّم عليَّ قبل أن أُبعث إني لأعرفه الآن»[١].

قال بعض العلماء: إن الحجر كان يقول: السلام عليك[٢]، وقال آخرون: إن

(١) صحيح مسلم (٢٢٧٧).
(٢) انظر: الصنعاني، التنوير شرح الجامع الصغير (٤/ ٢٢٣).

التسليم هنا التسليم بالنبوة والرسالة، قبل أن يشافهه الملك بالرسالة[1]، وهذا أخص من الأول ولم يذكر قائِلُه عليه دليلًا.

أما الحجر فقد قال بعض العلماء: إنه الحجر الأسود، ولم يذكروا دليلًا علىٰ هذا التحديد، مع وجود خلاف في كونه غيره[2].

وفي تسليم الحجر علىٰ الرسول ﷺ مقدمة لما سيحصل له مستقبلًا، يقول أبو العباس القرطبي -رحمه الله تعالىٰ- في المفهم: (ذكر العلماء بسيرة النبي ﷺ وأحواله: أنه كان من لطف الله بنبيه ﷺ أن قدَّم له مقدِّمات، وخصَّه ببشائر وكرامات، درَّجَهُ بذلك إلىٰ أطوارٍ، لينقطع بذلك عن مألوفات الأغمار[3]، ويتأهل علىٰ تدريج لقبول ما يُلقَىٰ إليه، ولتسهيل مشافهة الملك عليه)[4].

وفي كل من تسليم الحجر عليه، وغيره مما ورد من رؤية الضوء وسماع الصوت[5]. وأيضًا تسليم بعض الأشجار[6] -إن صحت- كلها تمهيد وتهيئة لمجيء الملك إليه؛ إذ إن مجيء الملك إليه بالوحي لم يكن بالأمر الميسور، وهذه مقدمات تُهيّئ وتُرقّي في شخصيته لتحَمُّل ما سيأتيه. والله أعلم.

ثالثًا: الرؤيا الصادقة:

عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: (أول ما بدئ به رسول الله ﷺ

(١) انظر: القرطبي، المفهم، (٦/ ٥٢). الهرري، الكوكب الوهاج (٢٣/ ١٢)، العزيزي، السراج المنير (٢/ ١٧٤).
(٢) انظر: القرطبي، المفهم، (٦/ ٥٢). الهرري، الكوكب الوهاج (٢٣/ ١٢)، الصنعاني، التنوير شرح الجامع الصغير (٤/ ٢٢٣)، العزيزي، السراج المنير (٢/ ١٧٤).
(٣) الأغمار: جمع غمر، وهو مَن لم يُجرِّب الأمور.
(٤) القرطبي، المفهم، (٦/ ٥٢).
(٥) صحيح مسلم (٢٣٥٣) من قول ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-.
(٦) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٢١٧).

من الوحي: الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرىٰ رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح)[١].

قال ابن بطال -رحمه الله تعالىٰ-: (قال المهلب -رحمه الله تعالىٰ-: الرؤيا الصالحة الصادقة قد يراها الرجل المسلم والكافر والناس كلهم، إلا أن ذلك يقع لهم في النادر، والوقت دون الأوقات، وخص النبي -عليه السلام- بعموم صدق رؤياه كلها)[٢].

قال النووي -رحمه الله تعالىٰ-: («فكان لا يرىٰ رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»؛ قال أهل اللغة فلق الصبح وفرق الصبح بفتح الفاء واللام والراء هو ضياؤه، وإنما يقال هذا في الشيء الواضح البين، قال القاضي -رحمه الله- وغيره من العلماء: إنما ابتدئ ﷺ بالرؤيا لئلا يفجأه الملك ويأتيه صريح النبوة بغتة فلا يحتملها قوىٰ البشرية، فبُدئ بأول خصال النبوة وتباشير الكرامة من صدق الرؤيا، وما جاء في الحديث الآخر من رؤية الضوء وسماع الصوت، وسلام الحجر، والشجر عليه بالنبوة)[٣].

قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وأول ما بدئ به رسول الله ﷺ من أمر النبوة الرؤيا، فكان لا يرىٰ رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. قيل: وكان ذلك ستة أشهر، ومدة النبوة ثلاث وعشرون سنة، فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، والله أعلم)[٤].

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (٦٩٨٢)، وصحيح مسلم (١٦٠).
(٢) ابن بطال، شرح صحيح البخاري (٩/ ٥١١).
(٣) النووي، شرح صحيح مسلم(٢/ ١٩٧). وانظر: القرطبي، المفهم (١/ ٣٧٤).
(٤) ابن القيم، زاد المعاد (١/ ٨٤)، وانظر ابن عثيمين، القول المفيد (٢/ ٢٣٧)، شرح باب قول ما شاء الله وشئت من كتاب التوحيد.

قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (إن عادة الله جرت بأن الأمر الجليل إذا قضي بإيصاله إلىٰ الخلق أن يقدمه ترشيح وتأسيس، فكان ما يراه النبي ﷺ من الرؤيا الصادقة ومحبة الخلوة والتعبد من ذلك)(١).

وقال -رحمه الله تعالىٰ-: (قال ابن أبي جمرة -رحمه الله تعالىٰ- إنما شبّهها بفلق الصبح دون غيره؛ لأن شمس النبوة كانت الرؤيا مبادي أنوارها، فما زال ذلك النور يتسع حتىٰ أشرقت الشمس)(٢).

والرؤيا الحسنة وردت في حديث أنس بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رسول الله ﷺ، قال: «الرؤيا الحسنة، من الرجل الصالح، جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة»(٣).

وفي كون كل ما يراه الرسول ﷺ في المنام، يشاهده مثل فلق الصبح واضحًا بينًا، هو تهيئة وتثبيت له، لما سيأتيه بعدُ، مما هو أوضح وأشد، من نور النبوة، فهذه الرؤىٰ بالنسبة له ﷺ جزء من النبوة وتمهيد لها وللرسالة التي تنتظره.

■ المسألة الثانية: المقدمات العامة للبعثة النبوية

المراد بالمقدمات العامة: الأخبار التي تحدثت عن قرب مبعث نبي، سواء كانت روايات عن بشارات الأنبياء بمحمد ﷺ، أو منقولة من التوراة أو الإنجيل، أو ذكرها بعض أحبارهم، ثم جاءت آيات من القرآن الكريم تُثْبِتُها، أو أخبار نقلها بعض الجن بسبب استراق السمع السابق إلىٰ الكهان، أو حدوث حجب الشياطين عن استراق السمع بإرسال الشهب عليهم، ونحو ذلك.

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (١٢/ ٣٦٠).

(٢) ابن حجر، فتح الباري (١٢/ ٣٥٥).

(٣) متفق عليه، صحيح البخاري (٦٩٨٣). وصحيح مسلم (١٧٧٤) من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-.

يأتي في مقدمة ذلك ما أخبرنا بها القرآن عن دعاء أبينا إبراهيم -عليه السلام-: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وبشرىٰ عيسىٰ -عليه السلام- بأخيه النبي ﷺ. قال الله -تعالىٰ-: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف: ٦].

قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (قال محمد بن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: حدثني ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك. قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرىٰ عيسىٰ، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرىٰ من أرض الشام»[1].

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله تعالىٰ-: (وقد بشّرت به ﷺ جميع الأنبياء، ومنهم موسىٰ -عليه السلام-، ومما يشير إلىٰ أن موسىٰ بشر به قول عيسىٰ -عليه السلام- في هذه الآية: ﴿ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ [الصف:٦]، والذي بين يديه هي التوراة أنزلت علىٰ موسىٰ. وقد جاء صريحًا التعريف به ﷺ وبالذين معه في التوراة في قوله -تعالىٰ-: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾؛ إلىٰ قوله -تعالىٰ-: ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ [الفتح:٢٩]. كما جاء وصفهم في الإنجيل في نفس السياق، في قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ [الفتح: ٢٩].

(١) ابن كثير، السيرة النبوية (١/ ٣٢٢)، قال: «إسناد جيد»، ورواه الإمام أحمد في المسند ٢٨/ ٣٧٩) رقم (١٧١٥٠)، وقال محققه: حديث صحيح لغيره، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٨/ ٢٥٣) رقم (٦٣١). والبغوي في شرح السنة (١٣/ ٢٠٧)، والهيثمي في موارد الضمآن إلى زوائد ابن حبان (٦/ ٤٣٤) رقم (٢٠٩٣)، وقال محققه (إسناده جيد). والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٥٣) رقم (٣٥٦٦) وصححه، ولم يتعقبه الذهبي في التلخيص.

وجاء النص في حق جميع الأنبياء في قوله -تعالىٰ-: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١]. قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: قال ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-: (ما بعث الله نبيًّا إلا أخذ عليه العهد لئن بُعث وهو حي ليتبعنه، وأخذ عليه أن يأخذ علىٰ أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه)[١].

وقال الله -تعالىٰ-: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]؛ قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (هذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء بشّروا أممهم ببَعْثه وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم)[٢].

عن عطاء بن يسار -رحمه الله تعالىٰ- قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله تعالىٰ عنهما-، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة؟ قال: (أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥)، وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتىٰ يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا)[٣].

---

(١) الشنقيطي، أضواء البيان (٨/ ١١١).

(٢) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٣/ ٤٨٣).

(٣) صحيح البخاري رقم (٢١٢٥). (حرزًا للأميين): حصنًا للعرب. (فظ): سيئ الخُلق. (غليظ) شديد في القول. (سخاب) يرفع صوته على الناس. (يقيم الملة العوجاء) ينفي الشرك ويثبت التوحيد. (عُميًا) لا تبصر الحق. (صمًّا) لا تسمع دعوة الخير. (غلفًا) غطتها ظلمة الشرك.

فهذه الآيات والأخبار تؤكد لنا أن البشارة بمحمد ﷺ موجودة باسمه في التوراة والإنجيل، وأن الأنبياء السابقين -عليهم السلام- أَخْبَروا، بل بشّروا أممهم به، وبالتالي فالعلم ببعثته ﷺ من العلم الموروث فيهم.

ولذلك لم يكن غريبًا أن نجد من الأحبار مَن يتكلم عن قرب بعثة النبي ﷺ، ويصف الرسول ﷺ، ويصف مكان بعثته وزمانها.

ونتيجة لذلك فإنه لما دنت بعثة الرسول ﷺ انتشر في الأمم أن الله -سبحانه وتعالىٰ- سيبعث نبيًّا في هذا الزمان، وأن ظهوره قد قرب.

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (وكانت الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارىٰ، والكهان من العرب، قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه لما تقارب زمانه، أما الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارىٰ فمما وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه، وأما الكهان من العرب فأتتهم به الشياطين من الجن فيما تسترق من السمع، وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما ذكر بعض أموره، لا تلقي العرب لذلك فيه بالًا، حتىٰ بعثه الله -تعالىٰ-، ووقعت تلك الأمور التي كانوا يذكرونها فعرفوها)(١).

وعن حسان بن ثابت -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: (إني لغلام يفعة ابن سبع سنين أو ثمان، أعقل كلما رأيت وسمعت، إذا يهودي بيثرب يصرخ ذات غداة: يا معشر يهود! فاجتمعوا إليه، وأنا أسمع. قالوا: ويلك! ما لك؟ قال: طلع نجم أحمد الذي وُلِدَ به في هذه الليلة)(٢).

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٢٢١).

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ١٤٧)، والبيهقي، دلائل النبوة (١/ ١١٠)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٥٥٤). وقال عنه عبد الله الجبرين في صحيح السيرة النبوية: (وبالجملة فحديث حسان يتقوى بشواهده المذكورة، فهو صحيح بشواهده والله أعلم). هامش (ص٨٦). وهذا يستفاد منه أن حسان -رضي الله عنه- أسنّ من الرسول ﷺ بسبع أو ثمان سنين فقط.

ومن الأمور التي تحدَّث بها اليهود والنصارىٰ إخبارًا عن الرسول ﷺ أن يهوديًّا من جيران بني عبد الأشهل في المدينة حدَّثهم عن البعث والحساب والميزان والجنة والنار؛ فاستنكروا ذلك، وطالبوه بآية ذلك، فقال: نبي مبعوث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده إلىٰ مكة واليمن[1]. وهذا فيه تحديد لمكان البعثة، وإشارة لقرب زمانها.

وقصة ابن الهيبان الذي قدم من الشام إلىٰ المدينة قبيل البعثة بسنين، وقال لليهود في المدينة: إن سبب قدومه توقُّع خروج نبي فيتبعه ودعا اليهود إلىٰ اتباعه[2].

وقصة سلمان الفارسي -رضي الله تعالىٰ عنه- الذي جاء من بلاد فارس يبحث عن الدين حتىٰ دلَّه الأحبار علىٰ مكان بعثة محمد ﷺ وقرب زمانها[3].

بل تذكر بعض كتب التاريخ أن أصل مجيء اليهود واستقرارهم بالمدينة هو ترقُّب بعثة النبي ﷺ، ورجاء أن يكون منهم. قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (قال -تعالىٰ-: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم ﴾؛ أي: عاونوا الأحزاب وساعدوهم علىٰ حرب رسول الله ﷺ ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ يعني: بني قريظة من اليهود، من بعض أسباط بني إسرائيل، كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديمًا؛ طمعًا في اتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]، فعليهم لعنة الله)[4].

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٢٣٢)، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث، وانظر: الحاكم، المستدرك (٣/ ٤١٧-٤١٨)، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يتعقبه الذهبي في التلخيص.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٢٣٢ - ٢٣٣)، وابن كثير، البداية والنهاية (٢/ ٣١٠).

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٢٣٤).

(٤) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٦/ ٣٩٨).

ومن المقدمات العامة أيضًا: حجب السماء عن مسترقي السمع، قال -تعالىٰ- مخبرًا عن قول الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ٨-١٠]؛ قال الشيخ السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾؛ فنتلقف من أخبار السماء ما شاء الله. ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾؛ أي: مرصدًا له، مُعدًّا لإتلافه وإحراقه، أي: وهذا له شأن عظيم، ونبأ جسيم، وجزموا أن الله -تعالىٰ- أراد أن يحدث في الأرض حادثًا كبيرًا، من خير أو شر)[1].

قال ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ-: (فلما تقارب أمر رسول الله ﷺ وحضر مبعثه، حُجبت الشياطين عن السمع، وحيل بينها وبين المقاعد التي كانت تقعد لاستراق السمع فيها فرُموا بالنجوم، فعرفت الجن أن ذلك لأمر حدث من أمر الله في العباد)[2].

وأقف هنا مع مقدمات البعثة النبوية وفيها:

١. إن هذه المقدمات العامة، تخص المجتمع، وتهيؤه لاستقبال الرسالة، وتصديق الرسول ﷺ. فالمقدمات الخاصة تعود فائدتها علىٰ شخص الرسول ﷺ وتهيؤه شخصيًّا لذلك، بخلاف العامة فتعود فائدتها علىٰ المجتمع في ذلك الوقت. وهذه لمن كان باحثًا عن الحق سالمًا من الحسد.

٢. إن حديث أولئك الأقوام عن بعثة النبي ﷺ، ليس أمرًا عجيبًا، ولا خبرًا مفاجئًا، ولا رجمًا بالغيب؛ بل إن بعثة النبي ﷺ كان هناك من يتوقعها ويتحدث عنها، وذلك من خلال:

---

(١) السعدي، تفسير السعدي ٨٩٠.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ١٨٩).

أ. الكتب المنزلة؛ أي التوراة التي كانت أنزلت علىٰ موسىٰ -عليه السلام-، والإنجيل الذي أنزل علىٰ عيسىٰ -عليه السلام-، فكان يُذكر فيهما أوصاف النبي الذي سيُبْعَث، وأوصاف زمانه ومكانه، وحديث الأنبياء أنفسهم لأممهم عن ذلك حتىٰ توارثوه فيهم.

ب. الكهان الذين كانوا يتحدثون عن ذلك، بما يصل إليهم من معلومات من خلال استراق السمع من الجن ونقله إليهم. ومن خلال متابعة الأحداث التي تجري، ومقارنتها بما تحدثت عنه النصوص أو بما يسترق من السمع، ومن الجمع بين هذا النص أو بما جاء من استراق السمع مع شواهد الواقع تظهر العلامة التي تدل علىٰ قرب بعثة النبي ﷺ، وأن ما ورد أو استرق من سمع ظهرت دلائله في أرض الواقع.

٣. إن سماع الأوس والخزرج لكلام اليهود نفعهم، فكان هذا العلم مما دعاهم إلىٰ سرعة الاستجابة للرسول ﷺ لمَّا قابلوه في العقبة -كما سيأتي-. قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن رجال من قومه، قالوا: إن مما دعانا إلىٰ الإسلام، -مع رحمة الله تعالىٰ وهداه-، لمَا كنا نسمع من رجال يهود، كنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب، عندهم عِلْم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون، قالوا لنا: إنه تقارب زمان نبي يُبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيرًا ما نسمع ذلك منهم. فلما بُعِثَ الله رسوله ﷺ أجبناه، حين دعانا إلىٰ الله -تعالىٰ-، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه، فآمنا به، وكفروا به)[١]. قال الطبري -رحمه الله تعالىٰ-: (كانت يهود يستفتحون علىٰ كفار العرب، يقولون: أما والله لو قد جاء النبي الذي بشّر به موسىٰ وعيسىٰ-عليهما السلام-، أحمد ﷺ، لكان لنا عليكم!

(١) ابن هشام، السيرة (١/ ١٩٥).

وكانوا يظنون أنه منهم، والعرب حولهم، وكانوا يستفتحون عليهم به، ويستنصرون به. فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وحسدوه، وقرأ قول الله جل ثناؤه: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة:١٠٩]؛ قال: قد تبين لهم أنه رسول، فمن هنالك نفع الله الأوس والخزرج بما كانوا يسمعون منهم أن نبيا خارج)[١].

٤. بل إن هذا العلم ومتابعة الأحداث نفعت بعض اليهود والنصارىٰ أنفسهم، فأسلموا وبادروا بالاستجابة[٢]. وفي مقدمتهم: ورقة بن نوفل -رضي الله تعالىٰ عنه-، الذي بادر بالتصديق والتأييد فور لقائه بالرسول ﷺ كما سيأتي.

٥. وربما ساغ أن يقال: إن قريشا ومن شابههم في أميتهم، كان لأميتهم ومفاجأتهم بأمر هم في غفلة عنه، أثر في إنكار البعثة، وعدم تصديق الرسول ﷺ. قال -تعالىٰ- مخبرًا عما قاله الجن: ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴾ [الجن:٧]؛ قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولًا. قاله الكلبي، وابن جرير -رحمهما الله تعالىٰ-)[٣]. وقال -تعالىٰ-: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ [يس:٦]؛ قال السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (وهم العرب الأميون، الذين لم يزالوا خالين من الكتب، عادمين الرسل، قد عمتهم الجهالة، وغمرتهم الضلالة، وأضحكوا عليهم وعلىٰ سفههم عقول العالمين)[٤]. ولذلك استبعدوا أن يُوحَىٰ إلىٰ بشر، وأن يكون النبي يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وقالوا: ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾.. إلىٰ آخر ما ذكروه مما يدل علىٰ جهلهم بحال النبوات، وشتان بين

(١) الطبري، تفسير الطبري، تحقيق أحمد شاكر (٢/ ٣٣٦).
(٢) ابن هشام، السيرة المطبوعة مع الروض الأنف (١/ ٥٠٠).
(٣) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٨/ ٢٤٠).
(٤) السعدي، تفسير السعدي (ص ٦٩٢).

هؤلاء في العلم وبين من وصفهم الله -جل شأنه- بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، [الأنعام: ٢٠]، وهذه من عواقب الأمية والجهل، والإعراض عن العلم.

٦. إن بعثة النبي ﷺ كان عليها دلالات فلكية محسوسة، وهو ظهور النجم الذي أشار إليه حسان -رضي الله تعالىٰ عنه- فيما ذكره من الرواية عن اليهودي. وهو من مقدمات البعثة النبوية العامة، التي استشهد بها هذا اليهودي المتعلم علىٰ قرب بعثة النبي ﷺ.

٧. أهمية متابعة الأحداث التي تجري وربطها بالنصوص، والاستفادة من ذلك في توقُّع بعض أمور المستقبل، فالذين كان لديهم عِلم ومتابعة للأحداث كانوا يدركون قرب البعثة النبوية، والذين لم يهتموا بالأحداث ولم يتابعوها كانت البعثة النبوية لهم حدثًا مفاجئًا غريبًا[١].

٨. وليس هذا خاصًّا ببعثة النبي ﷺ، بل إن متابعة الأحداث وربطها بالنصوص وقراءة التاريخ، تعطي عِلْمًا لما يتوقع حدوثه مستقبلًا. ودراسة المستقبل علم معروف، له مكانته، وهو جهد علمي منظّم يدرس الماضي والحاضر ليتوقع المستقبل من خلال سنن الله في خلقه، وغاية الدراسات المستقبلية هو توفير إطار زمني بعيد المدىٰ لما قد نتَّخذه من قرارات اليوم؛ ومن أهم عناصر دراسة المستقبل، الاطلاع علىٰ التاريخ، ففيه معرفة العدو من الصديق، ومعرفة تجارب الأمم، وأخطائها، وصوابها. وسنن الله في الكون لا تتبدل ولا تجامل، فمن درسها،

(١) ولعل مما يشبه هذا أيضًا قصة كعب الأحبار عندما جاء إلى عمر بن الخطاب ﷺ وأخبره بقرب وفاته شهيدًا مما يجده في كتاب الله أي التوراة انظر: ابن سعد، الطبقات (٣ / ٣٣٢)، وابن حجر ، فتح الباري (٧/ ٦٥)، والمبرد، التعازي والمراثي (ص٢٢١)، فكيف كان كعب يتوقع الوفاة إلا من خلال معرفته للأمرين اللذين ذكرتهما؛ إن صح ما ذكر عنه.

وأحسن الاستفادة، وإلا كرر أخطاءه أو أخطاء غيره، أو فاته خير كثير، وهذا العلم تعطيه الدول المتقدمة أهميةً خاصةً تبني عليها خططها ومشاريعها. ويستفيد منه حتىٰ الأفراد في مشاريعهم؛ كل في مجاله، والله أعلم.

المبحث الثاني

بدء الوحي

عن عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- أنها قالت: (أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرىٰ رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاءُ، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه، وهو التعبد الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع علىٰ أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلىٰ خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- فيتزود لمثلها، حتىٰ جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني[1]، حتىٰ بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتىٰ بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ [العلق:١-٣]؛ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل علىٰ خديجة بنت خويلد رضي الله عنها؛ فقال: زملوني، زملوني، فزملوه حتىٰ ذهب عنه الروع، فقال ﷺ لخديجة، وأخبرها الخبر: لقد خشيت علىٰ نفسي، فقالت خديجة: كلا، والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ[2]، وتُكسب المعدوم[3]، وتَقْري الضيف، وتعين علىٰ نوائب

(١) قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث (٣/ ٣٤٢): «الغت والغط سواء، كأنه أراد عصرني عصرًا شديدًا حتى وجدت منه المشقة، كما يجد من يغمس في الماء، قهرا».

(٢) قال النووي في شرح صحيح مسلم (٢/ ٢٠١): «الكَلّ فهو بفتح الكاف وأصله الثقل، ومنه قوله تعالى ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ﴾ ويدخل في حمل الكل الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال، وغير ذلك».

(٣) قال النووي في شرح صحيح مسلم (٢/ ٢٠١): «من رواه بالضم فمعناه تكسب غيرك المال المعدوم أي تعطيه إياه تبرعًا فحذف أحد المفعولين وقيل معناه تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك من نفائس الفوائد ومكارم الأخلاق».

الحق[1]. فانطلقت به خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- حتىٰ أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزىٰ (ابن عم خديجة)، وكان امرأً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، قالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي! ماذا ترىٰ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأىٰ، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل علىٰ موسىٰ، يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًّا إذ يُخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودِيَ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي)[2].

وعن علقمة بن قيس[3] -رحمه الله تعالىٰ- قال: (إن أول ما يُؤْتَىٰ الأنبياءُ في المنام، حتىٰ تهدأ قلوبهم ثم ينزل الوحي)[4]. قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (وهذا من قِبل علقمة -رحمه الله تعالىٰ- نفسه، وهو كلام حسن يؤيده ما قبله وما بعده)[5].

تاريخ البعثة النبوية:

قبل الحديث عن فوائد الحديث نشير إلىٰ تحديد وقت البعثة النبوية، وأول ما نزل:

---

(١) قال النووي في شرح صحيح مسلم (٢/ ٢٠٢): «النوائب جمع نائبة، وهي الحادثة، وإنما قالت: نوائب الحق؛ لأن النائبة قد تكون في الخير، وقد تكون في الشر».

(٢) صحيح البخاري ، المطبوع مع فتح الباري ١/ ٢٣.

(٣) قال الذهبي: فقيه الكوفة، وعالمها، ومقرئها، الإمام، الحافظ، المجود، المجتهد الكبير، أبو شبل علقمة بن قيس بن عبد الله بن مالك، ولد في أيام الرسالة المحمدية، وعداده في المخضرمين، من أبرز تلاميذ ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- مات عام ٦٢. سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٣).

(٤) ابن حجر، فتح الباري (١/ ٩)، وقال: «رواه أبو نعيم في الدلائل بإسناد حسن عن علقمة»، والشامي، سبل الهدي والرشاد ٢/ ٣٠٦.

(٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ٣/ ٤.

أ. عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (بُعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يُوحَىٰ إليه، ثم أُمر بالهجرة فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين)(١).

ب. عن أبي قتادة -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رسول الله ﷺ سئل عن صيام يوم الاثنين فقال: «ذلك يومٌ وُلِدْت فيه، ويومٌ أنزل عليَّ فيه»(٢)، وحينئذ فبدء الوحي كان يوم الاثنين.

ج. أما تحديد الشهر فقد اختُلِفَ فيه، يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: واختلف في شهر المبعث فقيل: لثمان مضين من ربيع الأول، سنة إحدىٰ وأربعين من عام الفيل، هذا قول الأكثرين، وقيل: بل كان ذلك في رمضان(٣)، واحتج هؤلاء بقوله -تعالىٰ-: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥]. قالوا: أول ما أكرمه الله -تعالىٰ- بنبوته، أنزل عليه القرآن(٤)، وقال النووي -رحمه الله تعالىٰ-: (بُعث علىٰ رأس أربعين سنة، هو الصواب المشهور الذي أطبق عليه العلماء)(٥)، وحكىٰ البيهقي -رحمه الله تعالىٰ- أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر، وعلىٰ هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع في شهر مولده، وهو شهر ربيع الأول بعد إكماله أربعين سنة، ووحي اليقظة في رمضان والله أعلم)(٦).

د. إن أول ما نزل علىٰ الرسول ﷺ من الوحي هو: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾؛ قال النووي -رحمه الله تعالىٰ-: (قوله: «ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾»

(١) صحيح البخاري ٣٩٠٢.
(٢) صحيح مسلم ١/ ٨١٩.
(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية ١/ ٢١٧.
(٤) انظر: ابن القيم ، زاد المعاد ١/ ٧٨.
(٥) النووي، شرح صحيح مسلم ١٥/ ٩٩.
(٦) انظر: ابن حجر ، فتح الباري ١/ ٢٧، والشامي، سبل الهدى والرشاد ٢/ ٣٤٠.

هذا دليل صريح في أن أول ما نزل من القرآن (اقرأ)، وهذا هو الصواب الذي عليه الجماهير من السلف والخلف، وقيل أوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ وليس بشيء)[1].

فوائد حديث بدء الوحي:

وبعد أن تحدثنا عن تاريخ البعثة النبوية نعود إلىٰ فوائد حديث بدء الوحي؛ لنلحظ فيه ما يلي:

١. بنزول جبريل -عليه السلام- بهذه الآيات الكريمات من كلام الله -سبحانه وتعالىٰ-، وإلقائها علىٰ قلب الرسول الكريم ﷺ، ومجيء الرسول ﷺ يتلوها، اتصل الوحي بأهل الأرض، وفُتح لهم أعظم نعمة عرفتها البشرية، يقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات، وهن أول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم)[2]. لقد كان الوحي الذي نزل علىٰ محمد ﷺ النعمة الكبرىٰ من الله -جل شأنه- علىٰ هذه الأمة، به عرفوا التوحيد وبه عرفوا حق الله -جل شأنه- وبه عرفوا حق نبيه ﷺ، وبه عرفوا طريق الجنة، وبه عرفوا طريق النار، وبه خرجوا من الظلمات إلىٰ النور!! كان هذا الوحي رحمة من الله للعالمين ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. إن الذي عرفوا قيمة الوحي بكوا أشد البكاء لما انقطع، عن أنس -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: قال أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، بعد وفاة رسول الله ﷺ لعمر -رضي الله تعالىٰ عنه-: (انطلق بنا إلىٰ أم أيمن -رضي الله تعالىٰ عنها- نزورها، كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما انتهينا إليها بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله ﷺ. فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيّجتهما علىٰ البكاء.

(١) النووي، شرح صحيح مسلم ٢/ ١٩٩.

(٢) ابن كثير، تفسير ابن كثير ٨/ ٤٣٧.

فجعلا يبكيان معها)[1]. ما أعظم فقه أم أيمن -رضي الله تعالىٰ عنها- وهي تُذَكِّر الصِّدِّيق والفاروق -رضي الله تعالىٰ عنهما- بهذه النعمة الكبرىٰ التي عاشوها.

منذ نزلت ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ والمؤمنون يُسَدَّدُون بتوجيهات ربانية مباشرة من الله -جل شأنه-، ينزل بها جبريل -عليه السلام-، يا أيها المؤمنون افعلوا كذا، ويا أيها المؤمنون اجتنبوا كذا، يا أيها المؤمنون لقد أخطأتم في كذا والصواب كذا، ويأتي الوحي إلىٰ النبي ﷺ فلان، وفلان، وفلان، في الجنة، ولقد رأيت فلانًا في الجنة.. فأيّ نعمة فتحت علىٰ أولئك، بنزول جبريل -عليه السلام- علىٰ محمد ﷺ.

بنزول جبريل -عليه السلام- بالوحي القرآني اتصل أهل الأرض بخبر السماء، بعد انقطاع قارب ستة قرون. وسيأتي مزيد حديث عن هذه النعمة في مبحث فاجعة وفاة النبي ﷺ -إن شاء الله -تعالىٰ-.

٢. لقد كانت عظمة هذا التشريع وهيمنته وقوته وتفرده وعلو منزلته واهتمام المؤمنين به، وتسليمهم له وانقيادهم لما فيه؛ لكونه مُنزلًا من عند الله -جل شأنه-، ومنه جاءت كل الخصائص الأخرىٰ، وذلك كله يعتمد علىٰ ثبوت كونه وحيًا من الله -جل شأنه-، وأن ما جاء به الرسول ﷺ هو هذا الوحي، وأنه لا أثر لهذا الإنسان فيه إلا التبليغ عن الله -سبحانه وتعالىٰ-.

ولأجل هذا حاول المشركون وأهل الكتاب والمنافقون والمرتابون في القديم والحديث التشكيك، والتكذيب وإثارة ما استطاعوا من الشبهات، حول كون هذا التشريع وحيًا من الله[2]، وزعموا أن هذا التشريع من صنع محمد ﷺ، وأن بإمكانهم المجيء بمثله، وذلك لإسقاط هذه الخصيصة لهذا القرآن العظيم، ولكي يصبح

(١) صحيح مسلم ٢٤٥٤.

(٢) انظر: ناصر العقل، الاتجاهات العقلانية الحديثة، الطبعة الأولى (الرياض: دار الفضيلة، ١٤٢٢) (ص ١٥٧).

عملًا بشريًّا كسائر الأعمال الأخرىٰ القابلة للاعتراض والتعديل والتبديل وفق الآراء، بل وفق الأهواء والرغبات، وعلىٰ المسلم أن يعي هذه المحاولات المضللة من الأعداء.

٣. مع الحديث عن عظمة هذا الوحي وأهميته، نستحضر أن الله -جل شأنه- اصطفىٰ قلب محمد ﷺ لهذا الوحي ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام:١٢٤]، وهذا ينبهنا إلىٰ عظمة منزلة الموحَىٰ إليه ﷺ، فعندما اختار الله -جل شأنه- محمدًا ﷺ ليكون نبيًّا رسولًا خاتمًا لهذه الأمة، فيجب علىٰ الأمة أن تعرف منزلة نبيها وعِظم حقه عليها، فهو المختار المصطفىٰ من الله -سبحانه وتعالىٰ- ليكون مُبلّغًا لها لشرعه، وعظمة الرسول من عظمة المرسِل والرسالة، فاعرف منزلته تعرف حقه!!

٤. إن أول كلمة وردت في هذا الوحي، وهي فاتحته وهي عنوانه قوله -تعالىٰ-: ﴿ ٱقْرَأْ ﴾؛ فالعلم هو عنوان هذا الدين، فقد استفتح الوحي بكلمة ﴿ ٱقْرَأْ ﴾؛ فالمسلم إذًا مُطالَب بأن يتعلم، وأبرز وسائله القراءة، إن الله -جل شأنه- اختار لنبيه ﷺ القرآن الكريم ليكون هو الآية العظمىٰ الخالدة علىٰ صحة بعثة محمد ﷺ، فافتتح هذا الوحي بهذه الكلمة العظيمة ﴿ ٱقْرَأْ ﴾، ثم تتابع نزول القرآن الكريم متحديًا الجن والإنس -ولو اجتمعوا- أن يأتوا بمثل هذا القرآن، أو بسورة من مثله قال -تعالىٰ-: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة٢٣-٢٤].

وهو بهذا يتحدىٰ أُمة أُوتيت من العارضة والبيان واتساع المجال في اللغة، ما لم تؤته أمة من الأمم، وبلغت في العصر النبوي أوُجّها.

وهذا من إرادة إقامة الدليل علىٰ نبوة محمد ﷺ بهذا الكتاب العظيم، فجعله عَلَمًا كما جعل عَلَم كل نبي من الأنبياء أشبه الأمور بما في زمان مبعثه، فكان لموسىٰ -عليه السلام- فلق البحر واليد والعصا وتفجر الحجر في التيه بالماء الرواء إلىٰ سائر أعلامه زمن السحر. وكان لعيسىٰ -عليه السلام- إحياء الموتىٰ، وخلق الطير من الطين، وإبراء الأكمه والأبرص وإلىٰ سائر أعلامه زمن الطب. وكان لمحمد ﷺ هذا القرآن الذي هو شرف هذه الأمة الذي لو اجتمعت الإنس والجن علىٰ أن يأتوا بمثله فلن يأتوا به؛ ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا[(١)].

٥. تأمل قوله -تعالىٰ- ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (الباء زائدة لتأكيد النفي أي ما أُحْسِن القراءة. فلما قال ذلك ثلاثًا. قيل له: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ أي: لا تقرؤه بقوتك ولا بمعرفتك؛ لكن بحَوْل ربك وإعانته فهو يُعلّمك كما خلقك، وكما نزع عنك علق الدم، وغمز الشيطان في الصغر)[(٢)].

واسم الله -سبحانه وتعالىٰ- ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ آية نزلت في أول كل سورة عدا سورة التوبة، بـ(بسم الله) رقىٰ جبريل -عليه السلام- بها سيد ولد آدم عندما اشتكىٰ من مرض، عن أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالىٰ عنه- أن جبريل -عليه السلام- أتىٰ النبي ﷺ فقال: «يا محمد اشتكيت؟ فقال: نعم، قال بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد، الله يشفيك، باسم الله أرقيك»[(٣)].

---

(١) انظر: ابن قتيبة، مشكل القرآن (ص ١٠).

(٢) فتح الباري ١/ ٢٤.

(٣) صحيح مسلم (٤/ ١٧١٨رقم٢١٨٦).

ب- (اسم الله) يُذل الشيطان ويصغر، حتىٰ يكون أصغر وأهون من ذباب، عن أبي تميمة الهجيمي -رحمه الله تعالىٰ-، عمن كان رديف النبي ﷺ، قال: كنت رديفه علىٰ حمار، فعثر الحمار، فقلت: تعس الشيطان، فقال لي النبي ﷺ: «لا تقل: تعس الشيطان، فإنك إذا قلت: تعس الشيطان، تعاظم الشيطان في نفسه، وقال: صرعته بقوتي، فإذا قلت: بسم الله، تصاغرت إليه نفسه حتىٰ يكون أصغر من ذباب»[1].

وذكر اسم الله -جل شأنه- معنا في كثير من أمور حياتنا، في دخول المنزل، وفي الخروج منه، في دخول المسجد وفي الخروج منه.. والمطلوب أن نستحضر أهمية هذا المعنىٰ الذي نقوله، ونتعبد الله -جل شأنه- بهذا المعنىٰ ونرجو أثره.

٦. تأمل قوله -تعالىٰ- ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ [العلق: ١-٣]؛ هذه الآيات -كما هو معلوم-، هي أول ما نزل وهي تشير إلىٰ حاجة الإنسان إلىٰ أمرين:

الأول: التعرف علىٰ (ربه) ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾.

الثاني: التعرف علىٰ (نفسه)، ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾.

ويكاد الشخص يجزم بأن كل ما نعانيه اليوم إنما هو من جَرَّاء التقصير في القراءة في هذين الميدانين، والتفريط في العمل بما ينتج عنها.

إن القراءة المتأملة في هذين الميدانين هي أهم قراءة علىٰ الإطلاق، وهي النقطة الأهم في الانطلاق.

فاقرأ القرآن الكريم وأنت تستحضر التعرف علىٰ هذين الأمرين؛ الأول: أن تتعرف علىٰ ربك بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العُلىٰ.

---

(١) مسند الإمام أحمد (٣٤/ ١٩٨) رقم (٢٠٥٩١) وقال محققوه: (حديث صحيح). وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٢١١) رقم (٣١٢٩).

الثانية: أن تتعرف علىٰ نفسك وضعفك وعجزك وبدايتك ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ ونهايتك.

هنا يظهر أثر عظيم للقرآن الكريم علىٰ النفس فترجع إلىٰ فطرتها ذليلة مستكينة خاضعة بين يدي الله الأكرم.

٧. من منا إذا أراد أن يقرأ القرآن الكريم استحضر عظمته، وأنه كلام الله -عز وجل-، نزل به جبريل -عليه السلام- علىٰ محمد ﷺ، فيعطي القرآن حقّه من التعظيم، ويتلوه بخشوع وخضوع مستحضرًا قصة بدء الوحي وتنزل القرآن؛ ذلك الكتاب الذي به عرفنا ربنا -سبحانه وتعالىٰ- بأسمائه وصفاته وأفعاله، وتعلمنا ما يقربنا إليه، وما يباعدنا عنه؛ فحق علينا أن نتعاهده، ونُديم تلاوته، ونستكثر من حفظه وتدبُّره والعمل به، وإن لم نفعل فقد فرطنا في أعظم شيء هدانا الله -جل شأنه- إليه، وضَل عنه غيرنا ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

٨. قول ورقة -رضي الله تعالىٰ عنه-: (وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا) فيه فائدة مهمة جدًّا، وهي منزلة النية، واستحضار عمل الخير، فالموفّق مَن يستحضر دائمًا نية عمل الخير، فإن استطاع، فَعَلَ ما نوىٰ، وإن لم يستطع فله أجر نيته، وورقة -رضي الله تعالىٰ عنه- تمنّىٰ أن يدرك يوم بعثة الرسول ﷺ لينصره علىٰ أعدائه، فهو قد استفاد بعلمه أن هذا هو الرسول ﷺ فصدّقه، وقد أشرنا من قبل في مقدمات الوحي أن بعض اليهود والنصارىٰ أسلموا بسبب علمهم، واستفاد ورقة أيضًا -رضي الله -تعالىٰ- بسبب نيته الصالحة، فيُرْجَىٰ له أجر نية نَصْر الرسول ﷺ بهذه النية الصالحة، وهذا فضل الله -جل شأنه- لمن يوفّقه -سبحانه- للخير، وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن من تمنىٰ الخير ونواه، ثم لم يتمكن منه لعذر خارج عن قدرته؛ فله أجره، فعن عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ رجع من

غزوة تبوك فدنا من المدينة، فقال: «إن بالمدينة أقوامًا، ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم»، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة، حبسهم العذر»[1]. وعن جابر -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: كنا مع النبي ﷺ في غزاة، فقال: «إن بالمدينة لرجالًا ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا، إلا كانوا معكم، حبسهم المرض»[2]. وفي رواية: «إلا شركوكم في الأجر»[3]. وفي الحديث الآخر قوله ﷺ: «إنما الدنيا لأربعة نفر؛ عبد رزقه الله مالًا وعلمًا فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقًّا؛ فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالًا فهو صادق النية، يقول: لو أن لي مالًا لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالًا ولم يرزقه علمًا فهو يخبط في ماله بغير علم؛ لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقًّا؛ فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالًا ولا علمًا فهو يقول: لو أن لي مالًا لعملت فيه بعمل فلان؛ فهو بنيته فوزرهما سواء»[4]. وقد قيل النية تجارة العلماء، فهم يتاجرون بنيّاتهم لتحصيل أعظم الأجور، وينوون عمل الخير، فإن تحقق وإلا فلهم أجر النية.

٩. ويتبع هذه الفائدة فائدة أخرىٰ وهي كما يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وفيه دليل علىٰ جواز تمنّي المستحيل إذا كان في فعل خير؛ لأن ورقة تمنىٰ أن يعود شابًّا وهو مستحيل عادة)[5]. وهذا يفتح للمسلم بابًا من الخير بتمنيه لعمل صالح، ولو كان مستحيلًا بالنسبة له، ويؤجر علىٰ نيته، وفضل الله واسع، ومرة أخرىٰ أقول: النية تجارة العلماء.

(١) صحيح البخاري(٤٤٢٣.
(٢) صحيح مسلم ١٩١١.
(٣) صحيح مسلم ١٩١١.
(٤) رواه الترمذي في سننه، وقال هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٣٢٥).
(٥) فتح الباري ١/ ٢٦.

هذه فوائد رئيسة ومهمة في هذا المبحث، ويُضاف عليها أيضًا الفوائد التالية:

أولًا: عندما بدأ الوحي بالحث على القراءة وإبراز مكانة القلم، ولم يكن الرسول ﷺ قارئًا ولا كاتبًا بالقلم، دلَّ ذلك على أن القرآن ليس من عند محمد ﷺ، وما كان محمد ﷺ ليبرز هذه الحقيقة وهذه الأهمية للقراءة والقلم منذ اللحظة الأولى، لو كان هو الذي يتقول هذا القرآن ويختلقه.

ثانيًا: ربط بعض طلبة العلم، ما حصل للرسول ﷺ من غطّ جبريل -عليه السلام- ثلاث مرات بشدة، وأن في ذلك تهيئة لسماع ابن آدم لكلام الملك، بما يحصل من ضغطة القبر التي فيها تهيئة للإنسان لسماع كلام الملكين، وأن في كلا الحالين تهيئة للإنسان لمقابلة الملك والسماع منه؛ إذ الإنسان العادي لا يتحمل سماع الملك، والله أعلم بالصواب.

ثالثًا: لقد غطّ جبريل -عليه السلام- الرسول ﷺ ثلاث مرات، وانتزع شريح القاضي -رحمه الله تعالى- من هذا أن لا يُضرب الصبي إلا ثلاثًا على القرآن الكريم كما غط جبريل الرسول ﷺ ثلاثًا[١].

رابعًا: قال القاضي عياض -رحمه الله تعالى-: (وجود مثل ذلك من رجل لم يقرأ ولم يكتب ولم يدارس ولا لُقِّن، مقتضى العجب ومنتهى العبر ومعجزة البشر، وليس في ذلك نقيصة؛ إذ المطلوب من الكتابة والقراءة المعرفة، وإنما هي آلة لها، وواسطة موصلة إليها، غير مرادة في نفسها، فإذا حصلت الثمرة والمطلوب استُغْنِي عن الواسطة والسبب، والأمية في غيره نقيصة؛ لأنها سبب الجهالة وعنوان الغباوة، فسبحان مَن باين أمره مِن أمر غيره، وجعل شرفه فيما فيه محطة سواه)[٢].

(١) انظر: السهيلي، الروض الأنف (١/ ٥٣٨)، والعيني، عمدة القارئ ١/ ٦٢.

(٢) الشفا مع حاشية الشمني ٢/ ٢٥٠.

وقد جاء وصف الرسول ﷺ بقوله -تعالىٰ-: ﴿ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ﴾ [الأعراف:١٥٨]، قال الراغب الأصفهاني: (قيل: سمي بذلك لأنه لم يكن يكتب ولا يقرأ من كتاب، وذلك فضيلة له لاستغنائه بحفظه، واعتماده علىٰ ضمان الله منه بقوله -تعالىٰ-: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلىٰ:٦])[١].

وقال ابن خلدون -رحمه الله تعالىٰ-: (الخطّ من جملة الصّنائع المدنيّة المعاشيّة. والكمال في الصّنائع إضافيّ وليس بكمال مطلق؛ إذ لا يعود نقصه علىٰ الذّات في الدّين ولا في الخلال، وإنّما يعود علىٰ أسباب المعاش، وبحسب العمران والتّعاون عليه لأجل دلالته علىٰ ما في النّفوس. وقد كان ﷺ أمّيًّا وكان ذلك كمالًا في حقّه وبالنّسبة إلىٰ مقامه لشرفه وتنزّهه عن الصّنائع العمليّة الّتي هي أسباب المعاش والعمران كلّها. وليست الأمّيّة كمالًا في حقّنا نحن؛ إذ هو منقطع إلىٰ ربّه ونحن متعاونون علىٰ الحياة الدّنيا شأن الصّنائع كلّها حتّىٰ العلوم الاصطلاحيّة فإنّ الكمال في حقّه هو تنزّهه عنها جملة بخلافنا)[٢].

وقد نقلت هذه النقول لعلمائنا لبيان أن الأمية صفة كمال في المصطفىٰ ﷺ، من عدة وجوه، وإن كانت القراءة والكتابة صفة كمال في غيره من البشر.

خامسًا: والعجيب أن هذه السورة التي افتتح بها الوحي وكانت بدايتها الأمر بالقراءة تختم بالأمر بالسجود؛ وذلك لأهمية القراءة وأهمية السجود، وجاءت علىٰ منوال هذه السورة الصلاة، فكل ركعة يركعها المسلم إنما تبدأ بالقراءة، وتنتهي بالسجود، مثل سورة اقرأ، بدأت بالقراءة، وانتهت بالسجود، وذلك لعظم مكانة هذين الأمرين في الإسلام.

يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وأشرف أفعالها (أي الصلاة) السجود، وأشرف أذكارها القراءة، وأول سورة أنزلت علىٰ النبي ﷺ افتُتحت بالقراءة،

(١) المفردات في غريب القرآن (ص٨٧).
(٢) مقدمة ابن خلدون (٥٢٧).

وختمت بالسجود، ووضعت الركعة علىٰ ذلك، أولها قراءة وآخرها سجود)[1].

سادسًا: في هذا الحديث قوة تصديق ورقة -رضي الله تعالىٰ عنه- بما أخبره به الرسول ﷺ[2].

سابعًا: الرسول ﷺ وهو أشجع الناس، وأعظمهم، وأقواهم قلبًا، ينزل من غار حراء، فيتجه نحو زوجته، ويقول لها دثريني، دثريني، كانت معاملته أو تعامله مع زوجته، بصدق المشاعر، وتشارك الهموم وتبادل العواطف، عظيمٌ ﷺ في تعامله مع زوجاته، ومن ذلك نومه علىٰ فخذ عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-[3]، وقراءته القرآن ورأسه علىٰ فخذها[4]، إنه الحب والحنو من هذا الزوج العظيم.

ثامنًا: في هذا بيان لصورة من صور عظمة هذه المرأة أم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- فهي:

١. لم تتأثر بالموقف ولم تستسلم ولم ترتبك؛ بل ثبتت، فموقفها في أول وهلة يدل علىٰ عظمتها؛ رضي الله تعالىٰ عنها وأرضاها.

٢. إن تصرفها دل علىٰ كمال عقلها، وسداد رأيها، وحسن ظنها بالله -جل شأنه-، وأن الله لن يخزي محمدًا ﷺ، وهو صاحب الأخلاق العالية؛ يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (استدلت -يعني خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- بما فيه من الصفات الفاضلة والأخلاق والشِّيَم علىٰ أن من كان كذلك لا يُخزىٰ أبدًا،

---

(١) ابن القيم، الكلام على مسألة السماع ص(٢٠٤)، ونقل أيضًا كلامًا لشيخ الإسلام ابن تيمية حول المعنى ذاته في ص ٢١٩ من المرجع نفسه.

(٢) انظر: ابن حجر، فتح الباري ١/ ٢٦.

(٣) صحيح البخاري (٦/ ١٠) رقم (٤٤٣٧) من حديث عائشة -رضي الله تعالى عنها- في فاجعة وفاته ﷺ.

(٤) صحيح البخاري (١/ ٦٧) رقم (٢٩٧) من حديث عائشة -رضي الله تعالى عنها-.

فعلمت بكمال عقلها وفطرتها أن الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والشِّيَم الشريفة تناسب أشكالها من كرامة الله وتأييده وإحسانه، ولا تناسب الخزي والخذلان، وإنما يناسبه أضدادها، فمن ركَّبه الله علىٰ أحسن الصفات، وأحسن الأخلاق والأعمال إنما يليق به كرامته وإتمام نعمته عليه، ومن ركَّبه علىٰ أقبح الصفات وأسوأ الأخلاق والأعمال إنما يليق به ما يناسبها، وبهذا العقل والصديقية استحقت أن يرسل إليها ربها بالسلام منه مع رسوليه؛ جبريل ومحمد ﷺ)[١]، كما سيأتي عند الحديث عن فضائلها.

٣. موقف خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- عندما جاءها الرسول ﷺ فزعًا، فلم تُبادره بالسؤال، وتُلِحّ عليه بالحديث والتفصيل؛ بل أول ما بدأت هو طمأنته، و«الفازع لا ينبغي أن يُسأل عن شيء حتىٰ يزول عنه فزعه، حتىٰ قال الإمام مالك -رحمه الله تعالىٰ-: (إن المذعور لا يلزمه بيع ولا إقرار ولا غيره)[٢].

٤. إنها بعد أن طمأنته وبشّرته وهدّأت من روعه، أخذته إلىٰ ابن عمها الحبر النصراني ورقه ليسمع منه ما يزيده طمأنينة.

تاسعًا: في هذا الموقف بيان لمكانة المرأة في الإسلام، فنبي الأمة محمد ﷺ لمَّا واجه هذا الأمر الذي شق عليه، استشار المرأة وأخذ برأيها، ولم يكن يَعوزه صديق أو قريب من أفاضل الرجال يستشيره، لكنه اختار المرأة، واستشارها وأخذ برأيها، علىٰ خلاف ما كان الجاهلية يفعلون من احتقار للمرأة، وانتقاص مكانتها.

عاشرًا: إن الشخص إذا واجه مشكلة أو أمرًا أهمّه، ينبغي عليه ألَّا يكتمه، بل يُستحب أن يُطْلِع عليه من يثق بنصيحته وصحة رأيه[٣]؛ وذلك لأجل غرضين:

(١) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ١٧.

(٢) العيني ، عمدة القاري ١/ ٦٣.

(٣) انظر: ابن حجر ، فتح الباري ١/ ٢٥، والعيني، عمدة القارئ ١/ ٦٣.

١. التنفيس عن النفس، فالمشكلة المكتومة تكبر في النفس وتنمو، وتأخذ أكبر من مكانها، وتشغل صاحبها أكثر مما تستحقّ، فإذا نفَّس عن نفسه بالحديث خفّف الضغوط التي عليها؛ لأنه جعل معه مَن يشاركه حمل هذا الهم، وهذا أمر مُشاهَد مُدرَك لمن جرّبه، ومن الخطأ أن يكتم الشخص المشكلة التي تواجهه ويتيح لها النماء في ذاكرته حتىٰ تؤدي إلىٰ عواقب ومواقف ضارة، فالرسول ﷺ هنا بادر في هذا الأمر الذي أهمّه، وأفضىٰ به إلىٰ خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-؛ لتشاركه هذا الهم، وتسعىٰ معه في البحث عن حل مناسب[1]، وهذا كما أنه مدرك في الواقع فالأطباء المختصون يشهدون بذلك؛ ينقل الدكتور محمود مهدي الاستامبولي -رحمه الله تعالىٰ- رأي الطب فيقول: (تقول الدكتورة «روز هلفردنج» المستشارة الطبية لمستشفىٰ بوسطن: إن من الأدوية الشافية للقلق إفضاء الشاكي بمتاعبه إلىٰ شخص يثق به، وحين يتحدث المرضىٰ عن متاعبهم بإسهاب وتفصيل ينتفي القلق من أذهانهم؛ فإن مجرد الشكوىٰ فيه شفاء، أما اختزانها في الذهن واستئثار المرء بها، فإنه كفيل بخلق التوتر العصبي. وقد أنشئت أغرب مؤسسة في العالم تحت اسم: (رابطة إنقاذ الحياة)؛ تهدف إلىٰ إنقاذ حياة الذين أزمعوا التخلص من حياتهم بالانتحار، وقد أصبحت ملجأ لكل من يشعر بالتعاسة والفشل، وتعتمد هذه المؤسسة في علاجها علىٰ إفضاء المريض بما يعانيه، ثم لا تملك المؤسسة إلا النصح والإرشاد بعد ذلك، وعلىٰ ذلك اعتبر الإفضاء من الوسائل العلاجية المعمول بها الآن في كل المستشفيات النفسية والعصبية بل العضوية والجراحية، ومن وسائل الوقاية)[2].

---

(١) ولعل من هذا أيضًا الإذن للمظلوم أن يدعو على ظالمه ويذكره بما فيه؛ لأنه لا بد للمصدور أن ينفّس قال تعالى ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ [النساء:١٤٨].

(٢) محمود مهدي الاستانبولي ، دلائل النبوة المحمدية ص ٢٧٢.

٢. الاستفادة من النصيحة التي سيقدمها له من استشاره، ولذلك لا يسوغ أن يتحدث إلا لمن يثق به وبنصحه، حتىٰ لا يؤدي ذلك إلىٰ نتائج عكسية من إشاعة هذا الأمر وهو يرغب في حصره في دائرة محدودة، يقول الدكتور محمود مهدي الاستانبولي -رحمه الله تعالىٰ- ما يلي: (وينصح أطباء النفس باختيار الشخص الذي تُفضي إليه، فليس كل شخص يمكن الإفضاء إليه، ولا يشترط أن يكون الشخص المُفضَىٰ إليه طبيبًا أو من رجال القانون أو الدين، وإنما المهم الإحساس بأن هذا الشخص يسمع ويحسن ويعين، فكيف إذا لجأ الإنسان إلىٰ الله الذي يسمع ويرىٰ ويملك الأمر، بيده الخير كل الخير، أفليس الإنسان إذا ما أقام الصلاة يكون بمنجاة من كل هذه الأمراض؟!)[1].

حادي عشر: استحباب تأنيس من نزل به أمر أهمّه وأشغله بذكر تيسيره عليه وتهوينه له[2]، وذكر أسباب السلامة له، وقد يخطئ البعض عندما يأتي إليه زميل يخبره عن أمر أهمَّه، فإذا به بدلًا من التخفيف عنه يزيد من همّه وغمّه، إما بلومه والعتب عليه، أو بتكبير الأمر عليه، وغفل هذا الذي عُرض عليه الأمر أن صاحبه جاء يعرض عليه مشكلته بحثًا عن علاج لا بحثًا عن لوم أو عتب، أو استبعاد العلاج وتطوير المشكلة وتكبيرها، وهذه الفائدة نأخذها من قول خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-: (كلا والله لا يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم..)، بعد أن جاءها وأخبرها بما حصل له، ومثل هذا قصة موسىٰ -عليه السلام- مع صاحب مدين حينما جاءه موسىٰ -عليه السلام- خائفًا وقص عليه القصص: (قال له مُسَكِّنًا روعه جابرًا قلبه: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٢٥]؛ أي ليذهب خوفك وروعك، فإن الله نجاك منهم حيث وصلت إلىٰ هذا المحل)[3].

(١) دلائل النبوة المحمدية (ص ٢٧٢).

(٢) انظر: ابن حجر، فتح الباري (١/ ٢٥)، والعيني، عمدة القاري (١/ ٦٣).

(٣) السعدي، تفسير السعدي (٤/ ١٥).

ثاني عشر: إن مكارم الأخلاق، وخصال الخير سبب للسلامة من مصارع الشر والمكاره، فمن كثر خيره حسنت عاقبته، ورُجي له سلامة الدنيا والدين[1]، وهذا أمر مطّرد، لكل فاعل خير، وصاحب خلق جميل، ولذلك تقول خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-: (كلا والله لا يخزيك الله أبدًا) وتقسم علىٰ هذا، وتبين السبب بأنه ﷺ كان يصل الرحم، ويحمل الكل، ويكسب المعدوم، ويقري الضيف، فهي -رضي الله تعالىٰ عنها- تبين قاعدة عامة في حياة الناس.

ثالث عشر: قول خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- عن الرسول ﷺ: (كلا، والله إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكل، وتعين علىٰ نوائب الحق)؛ تكشف ما كان عليه النبي ﷺ من أخلاق سامقة، ونشاطات وإسهامات في مجتمعه فذة، غير معهودة في تلك البيئة.

رابع عشر: جواز مدح الإنسان في وجهه لمصلحة، ولا يعارضه قوله ﷺ: «إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب»[2]؛ لأن هذا فيما يمدح بباطل أو يؤدي إلىٰ باطل[3]. قال الإمام النووي -رحمه الله تعالىٰ- : (ذكر مُسلم في هذا الباب الأحاديث الواردة في النهي عن المدح، وقد جاءت أحاديث كثيرة في الصحيحين بالمدح في الوجه، قال العلماء: وطريق الجمع بينها أن النهي محمول علىٰ المجازفة في المدح، والزيادة في الأوصاف، أو علىٰ من يخاف عليه من إعجاب ونحوه، إذا سمع المدح، وأما من لا يخاف ذلك لكمال تقواه، ورسوخ عقله ومعرفته، فلا نهي في مدحه في وجهه إذا لم يكن فيه مجازفة، بل إن كان يحصل بذلك مصلحة؛ كنَشْطه علىٰ الخير والازدياد منه أو الدوام عليه، أو الاقتداء به كان مستحبًّا)[4]. وهذا

(١) العيني ، عمدة القاري (١/ ٦٣).

(٢) الإمام مسلم ، صحيح مسلم ، كتاب الزهد ، باب: النهي عن الإفراط في المدح (٤/ ٢٢٩٧).

(٣) العيني، عمدة القاري (١/ ٦٣).

(٤) الإمام النووي، شرح صحيح مسلم (١٨ / ٤١٧)، طبعة دار الخير، وانظر: ابن حجر ، فتح الباري (٧/ ٦٩) حيث قال: النهي عن المدح في الوجه مخصوص بما إذا كان غلوًّا مفرطًا أو كذبًا ظاهرًا.

أسلوب تربوي، يحسن من الآباء والمربين، والمعلمين والدعاة الاستفادة منه في تنشيط الهمم، تحقيقًا لمزيد من الخير، وحثًّا للاقتداء.

خامس عشر: من قول ورقة رضي الله عنه: (لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي)، وفي الرواية الأخرىٰ قال ورقة: (لم يأت رجل بما جئت به إلا أوذي)[1]؛ يتبين لنا أمر مهم جدًّا، وهو أن الداعية إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ- لا بد أن يواجه أعداء، عندما يدعو إلىٰ الله -جل شأنه-، لاحظ قوله: (لم يأت رجل قط)؛ فلا بد من أن يواجه الداعية أعداء في طريقه، والعداوة والإيذاء للداعية مَعْلم من معالم طريق الدعوة، قال -تعالىٰ-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام:١١٢]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [الفرقان:٣١]. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (ولا بد أيضًا أن يكون حليمًا صبورًا علىٰ الأذىٰ، فإنه لا بد أن يحصل له أذىٰ)[2]. ويقول إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالىٰ-: (الطريق إلىٰ الله لا بد له من أعداء قاعدين عليه، أهل فصاحة وعلم وحجج، فالواجب عليك أن تعلم من دين الله ما يصير سلاحًا لك تقاتل به هؤلاء الشياطين الذين قال إمامهم ومقدمهم لربك -عز وجل-: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦ – ١٧][3]، ويقول الشيخ عبد الحميد بن باديس -رحمه الله تعالىٰ- عند تفسير قول الله -تعالىٰ-: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان:٦٣]: (وكان التعليق

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير ٦٥، باب تفسير سورة اقرأ ٩٦ (٦/ ٨٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨ / ١٣٦).

(٣) كشف الشبهات (ص ١٣).

بإذا؛ لأن مخاطبة الجاهلين لهم بالسوء أمر محقّق، ومتىٰ سلم أهل العلم والدين من الجاهلين؟!)[1].

والمقصود من تأييد كلمة ورقة -رضي الله تعالىٰ عنه- بهذه النصوص والنقول أمران:

الأول: أن يتزود المسلم بعامة، والداعية إلىٰ الله بخاصة، بالعلم الشرعي؛ ليكون معه سلاح يرد به علىٰ هؤلاء، كما قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالىٰ- أعلاه: (فالواجب عليك أن تعلم من دين الله ما يصير سلاحًا لك تقاتل به هؤلاء الشياطين). فهؤلاء الأعداء أول سلاح لمواجهتهم هو سلاح العلم الشرعي.

الثاني: أن يصبر إذا أُوذي، ويعلم أن طريق الدعوة إلىٰ الله هذه صفته، والشخص إذا علم بمخاطر الطريق من أوله، استعدَّ له وهان عليه ما يواجهه، والله أعلم.

سادس عشر: ليوم الاثنين ميزة، أن نبينا محمد ﷺ وُلِدَ فيه، وبُعِث فيه، ولهذا ورد في السنة أنه يُستحب صيامه في كل أسبوع، ولا يسوغ أن يخص هذا اليوم بعبادة أخرىٰ غير الصيام؛ لعدم ورود الزيادة علىٰ الصيام في الشرع، وقد ورد النهي المغلّظ في النصوص الشرعية علىٰ ابتداع عبادات لم ترد في الشرع[2].

وهنا أشير إلىٰ أمر مهم، وهو أن الأوقات الفاضلة، يرد معها تبيين نوع العبادة، فمثلًا يوم عاشوراء أفضل العبادات هي الصيام، فهو مع فضله فلا يشرع فيه عبادة أخرىٰ زائدة غير الصيام، ورمضان نهاره أفضل عبادة هي الصيام، وليله أفضل عبادة هي القيام؛ لقوله ﷺ «من صام رمضان»[3]، وقوله: «من قام رمضان»[4]، وست شوال

(١) تفسير ابن باديس ص ١٩٤.

(٢) انظر: عبد الله الجبرين، صحيح السيرة النبوية (ص ٨٨).

(٣) متفق عليه: البخاري (٢٠١٤) ومسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-.

(٤) متفق عليه: البخاري (٢٠١٤)، ومسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-.

أفضل عبادة فيها الصيام لحديث: «من صام رمضان ثم أتبعه ستًّا من شوال»[1]، ولما أراد الرسول ﷺ إطلاق العبادة بأنواعها وجدناه ﷺ يقول: «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلىٰ الله من هذه الأيام. يعني العشر»[2]، أي عشر ذي الحجة، فهنا لم يحدد الرسول ﷺ العمل الفاضل بعبادة معينة؛ وعليه فيُشرَع صيامها وقيامها وقراءة القرآن وبر الوالدين وكل عمل صالح فهو فاضل.

وتأسيسًا علىٰ هذا يقال: إن الرسول ﷺ لما أخبرنا عن فضل يوم الاثنين بيَّن لنا معه العبادة الفاضلة فيه، وهي الصوم؛ فلا يصح أن نُضيف عبادة أخرىٰ لم يفعلها الرسول ﷺ، ولم يرغبنا فيها، ومن أراد سنة المصطفىٰ ﷺ فليصم يوم الاثنين، ويكتفي بما اكتفىٰ به الرسول ﷺ.

(١) صحيح مسلم (١١٦٤) من حديث أبي أيوب الأنصاري -رضي الله تعالى عنه-.
(٢) رواه أبو داود في سننه، وصححه الألباني (٢٤٣٨. من حديث ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-.

المبحث الثالث

الرسالة

عن جابر بن عبد الله، -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: حُبس الوحي عن رسول الله ﷺ في أول أمره، وحُبِّب إليه الخلاء، فجعل يخلو في حراء[١].

ثم بعد ذلك نزل جبريل -عليه السلام- علىٰ رسول الله ﷺ، قال ابن شهاب -رحمه الله تعالىٰ-: وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن -رحمه الله تعالىٰ- أن جابر بن عبد الله الأنصاري -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال وهو يُحدِّث عن فترة الوحي[٢]، فقال في حديثه عن الرسول ﷺ: «بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء فرفعت بصري، فإذا المَلَك الذي جاءني بحراء جالس علىٰ كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني»، فأنزل الله -تعالىٰ-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ إلىٰ قوله -تعالىٰ- : ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾[٣]، فحمي الوحي وتتابع[٤].

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٢٣/ ٢٨٠) رقم (١٥٠٣٣)، وقال المحقق: «حديث صحيح، وهذا إسناد حسن من أجل محمد بن أبي حفصة، وهو متابع. روح: هو ابن عبادة القيسي. وأخرجه ابن أبي شيبة (١٤/ ٢٩٤) عن محمد بن أبي حفصة، بهذا الإسناد».

(٢) قال النووي -رحمه الله تعالى- في شرحه لصحيح مسلم (٢/ ٢٠٦): «يعني احتباسه وعدم تتابعه وتواليه في النزول».

(٣) قال النووي -رحمه الله تعالى- في شرح صحيح مسلم (٢/ ٢٠٨): (أما تفسير قوله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾؛ فقال العلماء المدثر والمزمل والمتلفف والمشتمل بمعنى واحد، ثم الجمهور على أن معناه المدثر بثيابه... وقوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ معناه حذّر العذاب مَن لم يؤمن. ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: عظّمه ونزّهه عما لا يليق به، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ قيل معناه طهرها من النجاسة.. وقيل المراد بالثياب النفس أي طهرها من الذنب وسائر النقائص. ﴿وَٱلرُّجْزَ﴾ بكسر الراء في قراءة الأكثرين وقرأ حفص بضمها وفسره في الكتاب بالأوثان، وكذا قاله جماعات من المفسرين، والرجز في اللغة: العذاب، وسمي الشرك وعبادة الأوثان رجزًا؛ لأنه سبب العذاب، وقيل المراد بالرجز في الآية الشرك، وقيل الذنب وقيل الظلم، والله أعلم).

(٤) صحيح البخاري، المطبوع مع فتح الباري (١/ ٢٧) كتاب بدء الوحي. واللفظ له، وصحيح مسلم (١٦١).

هنا نزل أمر عظيم علىٰ الرسول ﷺ، نقف معه الوقفات التالية:

١) المقصود من فتور الوحي عن الرسول ﷺ إنما هو ليذهب عنه الروع، وليحصل له التشوق إلىٰ العود، فلما ذهب عنه الروع والخوف واطمأن الرسول ﷺ وظهرت الحقيقة له، وبدأ رسول الله ﷺ في الترقب لمجيء الوحي والاستعداد له، جاء جبريل بالوحي[١].

٢) وثمة أمر آخر من حكمة فترة الوحي، وهو التأكيد علىٰ اختصاص الله وحده بالوحي متىٰ شاء أنزله، وأن محمدًا ﷺ لا يملك تقديمه ولا تأخيره.

٣) في الحديث الأول الذي جاء فيه: أن جبريل -عليه السلام- نزل إلىٰ الرسول ﷺ بـ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ أصبح محمد بن عبد الله ﷺ نبيًّا، وفي هذا الحديث أصبح ﷺ رسولًا، وحينئذ يكون ﷺ نبئ بـ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، وأرسل بـ(المدثر)[٢]. ويستفاد من هذا: التدرج في تحقيق المراد، فالرسول ﷺ بدئ بالخلوة، ثم الرؤيا الصادقة، ثم النبوة، ثم الرسالة، وهكذا الفرد وهو يتعلم أو يُعَلِّم أو يدعو إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ- يتدرج، في مراده ليصل إلىٰ مقصوده علمًا وعملًا.

٤) يقول -سبحانه وتعالىٰ- لنبيه ﷺ: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾، ولقد قام ﷺ وظل قائمًا بعدها أكثر من عشرين سنة في الدعوة إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-، وهذا الأمر لم يكن خاصًّا بمحمد ﷺ، فكما أن ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ لمحمد ولأمة محمد ﷺ، وكما أن ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ ليست خاصة بمحمد ﷺ؛ فكذلك ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ ليست له ﷺ خاصة، بل له ولأمته، فكما يحرص الشخص علىٰ طهارة ثيابه انطلاقًا من قوله -تعالىٰ-: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾؛ فلا بد أن يحرص علىٰ الدعوة انطلاقًا من قوله -تعالىٰ- قبل ذلك: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾، ولا بد أن ننتبه إلىٰ أن قوله -تعالىٰ-: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾

(١) انظر: ابن حجر، فتح الباري ١/ ٢٧.
(٢) انظر: الرفاعي، تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير ٤/ ٤٤٧.

جاء متقدمًا في بداية الأوامر كلها، فلماذا يغفل المسلم عنه، ويتجاوزه إلىٰ الأوامر الأخرىٰ؟ فلا بد من القيام بهذه الأعمال جميعها، وتصور شخصًا يقال له: قم فأنذر، والآمر هو الله -جل شأنه-!، ألا يقفز؟ ألا يثب ويهب واقفًا فزعًا كأن هناك خطر قادم؟ وهل هناك أخطر من أن يموت الفرد علىٰ الكفر؟ فهلا استشعرنا هذا المعنىٰ، وهذا الأمر في القرآن؟ اللهم اهدنا وأعنا.

٥) يقف الشخص عند قول الله -تعالىٰ-: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾؛ لماذا اقتصر علىٰ النذارة، وأين البشارة؟ يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- في الجواب عن ذلك: (وأما الإنذار فالحكمة في الاقتصار عليه هنا فإنه أيضًا بُعث مبشرًا؛ لأن ذلك كان أول الإسلام فمتعلق الإنذار محقق فلما أطاع من أطاع نزلت ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥])[١].

٦) نخلص من هذا الموقف إلىٰ أن البعثة النبوية قد بلغت أوجها ومرت خلال ذلك بالمراحل التالية:

١- لما دنت بعثة الرسول ﷺ، ظهرت المقدمات الخاصة والمقدمات العامة:

أما المقدمات الخاصة، فكان منها الخلوة والرؤيا الصادقة، وتسليم الحجر، ونحو ذلك.

أما المقدمات العامة فكثيرة منها ما ورد في التوراة والإنجيل، ونقله علماء اليهود والنصارىٰ وتحدثوا عنه، ومنها ما يتعلق باستراق السمع من السماء ونقله الجن إلىٰ الكهان الذين تحدثوا به. ومنها ما تبع ذلك من حجب السماء عن استراق السمع.

٢- نزول الوحي بـ(اقرأ) علىٰ الرسول ﷺ وهي مرتبة النبوة، وهي الإخبار فقط دون الأمر بالإنذار.

---

(١) فتح الباري ٨/ ٧٢٢.

٣- نزول الوحي على رسول الله ﷺ بالأمر بالإنذار وهي مرتبة الرسالة، فأصبح بذلك مبعوثًا من الله -سبحانه وتعالى- بشيرًا ونذيرًا للعالمين أجمعين[١].

قال الذهبي -رحمه الله تعالى-: (﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ نزلت بعد فترة الوحي الأول، ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ فكان الوحي الأول للنبوة والثاني للرسالة)[٢]، ووافقه على هذا شيخ الإسلام المجدد محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى-[٣].

(١) انظر: محمد جاد المولى بك، محمد المثل الكامل ص ٨٤.
(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية ج١) (ص ١٠١).
(٣) انظر: محمد بن عبد الوهاب، الأصول الثلاثة (ص ١٧).

المبحث الرابع

الاستعداد للقيام بالرسالة

كان أول ما نزل على الرسول ﷺ قول الله -تعالىٰ-: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق:١-٥] ثم نزل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ [المدثر: ١-٧]، ثم كان مما نزل قول الله -تعالىٰ- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ [المزمل ١-٥].

وقد ذكرتُ في المبحث السابق قول العلماء: إن محمدًا ﷺ نُبِّئ باقرأ، وأرسل بالمدثر، فهو بقول الله -جل شأنه- له ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ أصبح رسولًا إلىٰ هذه الأمة.

ثم جاء الوحي بعد ذلك بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾. وظاهر الأحاديث الصحيحة تأخر المزمل؛ لأن فيها ذكر قيام الليل وغير ذلك مما تراخىٰ عن ابتداء نزول الوحي بخلاف المدثر فإن فيها ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾[١].

عن سعد بن هشام بن عامر -رحمه الله تعالىٰ، ورضي عن أبيه-، قال: قلت لأم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-: يا أم المؤمنين أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ، فقالت: (ألست تقرأ يا أيها المزمل؟» قلت: بلىٰ، قالت: (فإن الله -عز وجل- افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام نبي الله ﷺ وأصحابه حولًا، وأمسك

(١) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٨/ ٦٧٨).

الله خاتمتها اثني عشر شهرًا في السماء، حتىٰ أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعًا بعد فريضة)[1].

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: ثم تتام الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ، وهو مؤمن بالله مصدق بما جاءه منه، قد قبله بقبوله، وتحمّل منه ما حمله علىٰ رضا العباد وسخطهم، والنبوة أثقال ومؤنة، لا يحملها، ولا يستطيع بها، إلا أهل القوة والعزم من الرسل، بعون الله -تعالىٰ- وتوفيقه، لما يلقون من الناس، وما يُرَدّ عليهم مما جاءوا به عن الله -سبحانه وتعالىٰ-)[2].

لقد تتام الوحي علىٰ الرسول ﷺ وتمت التوجيهات الرئيسة الأولىٰ، وعزم وشمر للقيام بالأمانة الكبرىٰ التي تحملها ﷺ، وهنا أقف هذه الوقفات:

الأولىٰ: ما المراد بالمزمل؟ قال الإمام الطبري -رحمه الله تعالىٰ-: (أولىٰ القولين بتأويل ذلك ما قاله قتاده -رحمه الله تعالىٰ- لأنه قد عقبه بقوله ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾؛ فكان ذلك بيانًا عن أنه وصفه بالتزمل بالثياب للصلاة، وأن ذلك هو أظهر معانيه)[3].

ووافقه علىٰ ذلك ابن عطية -رحمه الله تعالىٰ- فقال: (وقال قتادة -رحمه الله تعالىٰ-: كان تزمل في ثيابه للصلاة، واستعد فنودي علىٰ معنىٰ يا أيها المستعد للعبادة المتزمل لها، وهذا القول مدح له ﷺ)[4].

وقد بيّن الشوكاني -رحمه الله تعالىٰ- أنه ﷺ خُوطب بهذا في أول ما نزل في الوحي، ثم بعد ذلك خُوطب بالنبوة والرسالة[5].

(١) صحيح مسلم ٧٤٦).
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٢٢٤).
(٣) الطبري، تفسير الطبري (٢٣/ ٣٥٨). وانظر ابن جزي في التسهيل (٢/ ٤٢٢) فقد أورد عدة أقوال أخرى.
(٤) ابن عطية، المحرر (٥/ ٣٨٦).
(٥) انظر: الشوكاني، فتح القدير (٥/ ٣٧٨).

الثانية: لماذا قال﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ ولم يقل (يا محمد)؟ لم تأتِ الآية بلفظ (يا محمد)؛ بل جاءت باسم مشتق من فعل، لكي لا تكون خاصة بالنبي ﷺ[1]؛ فيا أيها المؤمن قم، قم فصَلِّ، ولا تغفل عن ذِكْر الله، واستعدّ وتزوّد من الصلاة لعملك الدعوي، ولذلك قام الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- مع الرسول ﷺ؛ استجابةً لما ورد في هذه الآيات.

الثالثة: قوله -تعالىٰ- ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾: (هذا أمر من الله -جل شأنه- لنبيه ﷺ بأن يقوم الليل مصليًا كله إلا قليلًا منه ﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾: يقول قم نصف الليل، أو انقص من نصفه قليلًا. ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ خيرَّه الله -تعالىٰ ذِكْرُه-، حين فرض عليه قيام الليل بين هذه المنازل، أي ذلك شاء فعل)[2].

فأول عمل أمره الله به في خاصة نفسه، ومن آمن معه من الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-، وشهدوا شهادة التوحيد؛ أن يتزودوا بالصلاة، وصلاة طويلة.

وأمره بأشرف العبادات، وهي الصلاة، وبآكد الأوقات وأفضلها وهو قيام الليل[3].

وهذا يدل علىٰ فضل صلاة الليل وعبادة الخلوات، فهي من أعظم المثبّتات للعبد، وما مِنْ نبي من الأنبياء إلا أمره الله بالعبادة قبل الرسالة.

الرابعة: أنّ عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: «فقام نبي الله ﷺ وأصحابه حولًا»؛ هذا يعني أن عددًا من الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- الذي كان قد دخلوا في الإسلام في ذلك الوقت قد قاموا مع الرسول ﷺ هذا القيام الطويل ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ [المزمل:٢-٤]، واستمروا علىٰ ذلك

(١) انظر: النابلسي، تفسير النابلسي (١٠/ ١٣٣).
(٢) انظر: الطبري، تفسير الطبري (٢٣/ ٣٥٨).
(٣) انظر: السعدي، تفسير السعدي (١٠٥٣).

حولًا، وهذا لبناء القاعدة الصلبة التي ستتحمل المشاق والمتاعب في سبيل هذه الدعوة، ولا شك أن السابقين إلىٰ الإسلام أصابهم من الإيذاء والتعذيب ما لم يُصِب من جاء بعدهم، ولا قريبًا من ذلك، بعد أن كثر الداخلون فيه، هؤلاء الذين يمثلون القاعدة الأساسية، يحتاجون إلىٰ بناء قويّ راسخ كي يثبتوا، ويتحملوا الأذىٰ الشديد، ويؤثِّروا في الآخرين، فقد كان لهؤلاء السابقين إلىٰ الإسلام إسهام كبير جلي في الدعوة إلىٰ الله، ودخول عدد من الصحابة في الدين، والذي نخلص منه أن الصلاة لها أثر كبير في التثبيت علىٰ دين الله مهما كانت المشاقّ، أليس الله -جل شأنه- يقول: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥]، وفي سيرة الرسول ﷺ نراه إذا حزبه أمرٌ صلىٰ)[1]؛ فالصلاة الصلاة هي خير زاد في هذا الطريق إلىٰ الله -جل شأنه-.

الخامسة: أن الرسول ﷺ ومعه الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- كانوا يقومون ليلًا طويلًا، ويتلون القرآن كما ورد في الآيات ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾، وهذا يدل علىٰ أن سورة المزمل نزلت بعد المدثر، وأنه نزل بينهما قرآن كثير يتلونه في صلاتهم؛ قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- إن (نزولها تأخر عن نزول يا أيها المدثر بالاتفاق؛ لأن أول يا أيها المدثر الأمر بالإنذار، وذلك أول ما بُعِث، وأول المزمل الأمر بقيام الليل وترتيل القرآن؛ فيقتضي تقدم نزول كثير من القرآن قبل ذلك)[2]. ومع التلاوة الأذكار في الركوع والسجود، وهذا يدلنا علىٰ أهمية الأذكار سواء في الصلاة أو خارجها في تثبيت المسلم وتقويته علىٰ المضي في الطاعة.

السادسة: الظاهر أن هذه الصلاة بهذه الكيفية -ركوع وسجود- غير معروفة عند قريش، وإن كانوا يعرفون الصلاة عمومًا، ويدل لهذا قول الله -تعالىٰ-: ﴿أَرَءَيْتَ

(١) رواه أبو داود في سننه، وحسنه الألباني، صحيح سنن أبي داود للألباني (١٣١٩).
(٢) فتح الباري (٨/ ٧٢٢).

﴿ٱلَّذِي يَنْهَىٰ ٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق:٩-١٠]، وقوله -تعالىٰ-: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق:١٩]؛ فالآيات تدل علىٰ صلاة فيها سجود، وصلاة يستنكرها أبو جهل وأضرابه، عن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: (قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزىٰ لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن علىٰ رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب، قال: فأتىٰ رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ علىٰ رقبته، قال: فما فجئهم منه إلا وهو ينكص علىٰ عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهولًا وأجنحة)[(١)].
فكأن الأمر المستغرب عند أبي جهل هذه الكيفية «يعفر محمد وجهه».

وعلىٰ هذا كما يقول ابن عاشور -رحمه الله تعالىٰ-: (الصلاة التي كان يصليها النبي ﷺ صلاة غير الصلوات الخمس، وفيها سجود لقول الله -تعالىٰ-: واسجد واقترب)[(٢)].

السابعة: هذه الآيات تدل علىٰ أن العبادة والعلم متلازمان، لا ينفك واحد عن الآخر، وأن من اجتمع علمه بالقرآن بعبادته، اكتملت فيه أركان الثبات علىٰ الحق؛ وذلك لأن العلم والعبادة كالقدمين، لا يقام إلا عليهما، فالعلم يزيل الشبهات، والعبادة تزيل الشهوات قال -تعالىٰ-: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [العنكبوت:٤٥][(٣)].

الثامنة: إن الله -جل شأنه- أمر بالصلاة في الليل، ثم بيَّن له سبب ذلك بأن سيلقي عليه قولًا ثقيلًا. ولا شك أن إبلاغ الناس هذا القرآن الكريم بأوامره ونواهيه ودعوتهم إليه ليس بالأمر الميسور، كما أن القيام بالإصلاح شاقّ، والإصلاح يتبعه

(١) صحيح مسلم (٤/ ٢١٥٤) رقم (٢٧٩٧).
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٤٣).
(٣) الطريفي، التفسير والبيان لأحكام القرآن الكريم (٤/ ١٩٣١).

شدة، والشدة تحتاج إلىٰ ثبات، ولا يُثَبِّتُ المصلح شيء كتقوية صلته بالله بالعبادة، ولهذا قال الله -جل شأنه- لنبيه: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، ثم بيَّن سبب ذلك ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾[1].

وهذا معنىٰ قول ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- في رواية عطاء -رحمه الله تعالىٰ-: قولًا ثقيلًا يعني كلامًا عظيمًا، ووجه النظم أنه -تعالىٰ- لما أمره بصلاة الليل فكأنه قال: إنما أمرتك بصلاة الليل لأنا سنلقي عليك قولًا عظيمًا، فلا بد أن تسعىٰ في صيرورة نفسك مستعدة لذلك القول العظيم، ولا يحصل ذلك الاستعداد إلا بصلاة الليل، فإن الإنسان في الليلة الظلماء إذا اشتغل بعبادة الله -تعالىٰ- وأقبل علىٰ ذِكْره والثناء عليه، والتضرع بين يديه، ولم يكن هناك شيء من الشواغل الحسية والعوائق الجسمانية استعدت النفس لما هُيئت له، فلما كان لصلاة الليل أثر في صيرورة النفس مستعدة لهذا المعنىٰ لا جرم قال: إني إنما أمرتك بصلاة الليل لأنا سنُلقي عليك قولًا ثقيلًا، فصيَّر نفسك مستعدّة لقبول ذلك المعنىٰ[2].

وهذا يدل علىٰ أن هناك أمرًا عظيمًا ينتظر الرسول ﷺ ليقوم به، وأن عليه الاستعداد لهذه المهمة العظمىٰ بالوقوف طويلًا في الليل مصليًا؛ لكي يستطيع أن يؤدي المهمة المكلَّف بها.

ولا بد لأي نفس تريد أن تصلح وتؤثر في غيرها وفي واقع المجتمع، لا بد لها من الخلوة بالله -جل شأنه- وإدامة الوقوف بين يديه في الليل، ففي الليل مجاهدة النفس بالتزود بالصلاة، وفي النهار مجاهدة الناس بالدعوة والصبر علىٰ عَنَتهم، والأولىٰ أساس للثانية.

---

(١) انظر: الطريفي، التفسير والبيان لأحكام القرآن (٤/ ٢١٨٥).

(٢) انظر: الرازي، التفسير الكبير (٣٠/ ٦٨٣).

ولا تصدق أن شخصًا يمكن أن يتحمل هذه المصاعب؛ دون أن يكون له خلوة مع الله -جل شأنه- ووقوف بين يديه، فالعطاء يحتاج إلىٰ كسب، وفاقد الشيء لا يعطيه.

الذي أخلُص إليه من خلال الآيات التي كانت هي بداية الوحي:

- ﴿ٱقْرَأْ﴾ أمر بالعلم.
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ الأمر بالدعوة إلىٰ الله.
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الأمر بالصلاة في الليل من أجل القيام بالدعوة.

فهذه ثلاثة أمور لا بد منها للمسلم: العلم، والدعوة، والعبادة.

فلا بد أولًا من العلم، ولا تصلح دعوة بلا علم، ولا قيمة لعلم بلا دعوة، ودعوة بلا زاد ليلي من الصلاة، يتزود بها في مكابدة الناس، ينقطع صاحبها سريعًا، وينفذ صبره وتنهار قواه ضحىٰ[1].

بقي الأمر المهم، بل الأهم، وهو ما هي هذه الرسالة التي حُمِّلها الرسول ﷺ، وبدأ بالاستعداد لها بقيام الليل، ومن هم الأشخاص الذي سيتوجه إليهم بهذه الرسالة أوَّل الأمر؟

هذا هو موضوع المبحث التالي:

---

(١) انظر: كتابي الداعي إلى الله: (تكوينه ومسؤوليته) تحدثت فيه عن نزول هذه السور الثلاث ودلالتها في العلم والدعوة والعبادة. نشرته دار العاصمة بالرياض عام ١٤١٥هـ.

المبحث الخامس

حال الأميين المخاطبين بالدعوة وجوهر الرسالة

قال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]؛ ما هذا القول الثقيل؟ والقائل هو الله -جل شأنه-، والمقول له محمد المصطفىٰ ﷺ.

تعال وانظر، لنتعرف علىٰ القول الثقيل الذي حمله الرسول ﷺ بناء علىٰ هذا الوحي الرباني. لنعرف مدىٰ ثقله، ويتضح لنا عظم العمل الذي قام به الرسول ﷺ، ولندرك حقيقة هذه الرسالة وجوهرها.

ما هو القول الثقيل؟ قال ابن عطية -رحمه الله تعالىٰ- في تفسيره: (وقال حُذاق العلماء: معناه ثقيل المعاني من الأمر بالطاعات والتكاليف الشرعية من الجهاد ومزاولة الأعمال الصالحة دائمة، قال الحسن -رحمه الله تعالىٰ-: إن الهَذَّ خفيفٌ، ولكن العملَ ثقيلٌ)[١].

وقال الشوكاني -رحمه الله تعالىٰ-: (﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أي: سنوحي إليك القرآن، وهو قول ثقيل. قال قتادة -رحمه الله تعالىٰ-: ثقيل والله فرائضه وحدوده. قال مجاهد -رحمه الله تعالىٰ-: حلاله وحرامه. قال الحسن -رحمه الله تعالىٰ-: العمل به. قال أبو العالية -رحمه الله تعالىٰ-: ثقيلا بالوعد والوعيد، والحلال والحرام)[٢].

(١) ابن عطية، المحرر (٥/ ٣٨٧).

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٥/ ٣٧٩).

هذا بعض معاني القول الثقيل، لكن ما أحوال الذين سيخاطبون أول مرة بهذا القول؟ **سأتحدث في هذا المبحث عن مسألتين:**

المسألة الأولىٰ: الحالة الدينية للأميين الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ.

المسألة الثانية: الحالة الاجتماعية للأميين الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ. ومن خلال هاتين المسألتين يتبين جوهر الرسالة التي بعث بها محمد ﷺ إلىٰ هذه الأمة.

■ المسألة الأولى: الحالة الدينية للأميين الذين بعث فيهم الرسول ﷺ

قال -تعالىٰ-: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

ما هذا الضلال المبين؟ يقول الدهلوي -رحمه الله تعالىٰ- في حجة الله البالغة: (إن كنت تريد النظر في معاني شريعة رسول الله ﷺ، فتَحَقق أولًا حال الأميين الذين بُعث فيهم، التي هي مادة تشريعه)[١]. لقد صدق في هذه الإشارة، ولذلك أبدأ بالحديث عن حال الأميين الذين بُعث فيهم الرسول ﷺ.

كان العرب في أبواب العبادات والطهارة يرون الغسل من الجنابة سُنَّة ماضية فيهم، وإذا أجنب المرء منهم بمعنىٰ أنزل الماء، أبعد عن مواقع العبادة، ولهذا سموه جنبًا، أي بعيدًا، مثل قوله -تعالىٰ-: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ [النساء: ٣٦]، يعني البعيد؛ لأنهم كانوا يأمرونه بالابتعاد عن الكعبة، وبالابتعاد عن مواطن العبادة حتىٰ يتطهر، وكان تطهرهم من الجنابة شائع معروف، وأبو سفيان بعد هزيمة قريش في بدر أقسم أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتىٰ ينال من محمد، كما أن النساء كن يغتسلن من الحيض، ومعروف ذلك حتىٰ في أشعارهم.

(١) انظر: الدهلوي، حجة الله البالغة (١/ ٢١٧).

أما التطهر من الحدث الأصغر فكان معروفًا عند طائفة قليلة منهم، وإن كان بغير الصفة الشرعية، وكذلك الختان وسائر خصال الفطرة.

وكانت فيهم صلاة، وكان أبو ذر -رضي الله تعالىٰ عنه- يصلي قبل أن يقدم علىٰ النبي ﷺ بثلاث سنين[1]. وذُكر أن قس بن ساعدة الأيادي كان يصلي، والمحفوظ من الصلاة في بقية العرب أفعال تعظيمية وأقوال من الدعاء والذكر، ويسمونها صلاة، لكن هل هذه الصلاة فيها سجود؟

ورد في فتح الباري قوله عن زيد بن عمرو بن نفيل -رضي الله تعالىٰ عنه-: (وكان يقول اللهم لو أعلم أحب الوجوه إليك لعبدتك به، ولكني لا أعلمه، ثم يسجد علىٰ الأرض براحته)[2]. ولكن الذي ورد في سيرة ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ-: (ثم يسجد علىٰ راحته)[3]. وابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- عزا العبارة لابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-؛ فلعله نقلها بالمعنىٰ، وورد في بعض كتب السير أنها صلاتهم كانت بدون سجود[4].

وذكر القرآن الكريم بعض صلواتهم الجاهلية فقال -تعالىٰ-: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنفال:٣٥]. قال القرطبي -رحمه الله تعالىٰ-: (قال ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-: كانت قريش تطوف بالبيت عراة، يصفّقون ويصفّرون، فكان ذلك عبادة في ظنهم والمكاء: الصفير. والتصدية: التصفيق، قاله مجاهد والسدي وابن عمر

(١) ولفظه كما في صحيح مسلم (٤/ ١٩١٩) رقم (٢٤٧٣)، قال: «وقد صليت، يا ابن أخي قبل أن ألقى رسول الله ﷺ بثلاث سنين، قلت: لمن؟ قال: لله، قلت: فأين توجه؟ قال: أتوجه حيث يوجهني ربي، أصلي عشاء حتى إذا كان من آخر الليل ألقيت كأني خفاء، حتى تعلوني الشمس».

(٢) ابن حجر، الفتح (٧/ ١٤٥).

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٢٠٨).

(٤) انظر: الصالحي، سبل الهدى (٢/ ٣٠٢).

-رضي الله تعالىٰ عنهم-»[1]. فتأمل هذه الآية كأنها تشير إلىٰ أن هذه صفة صلاتهم.

وكانوا يتوجهون إلىٰ الله أحيانًا ببعض الأدعية عند الشدائد، ومعلوم قصة لجوء عبد المطلب بالدعاء عند الكعبة، لما حاصرهم أبرهة الحبشي لهدمها، وقوله: (أنا رب الإبل، وللبيت رب يحميه)[2]، وكانوا يجتمعون للاستسقاء إذا تأخر نزول المطر[3].

ومما كان فيهم: تغسيل الموتىٰ، وقصة أبي لهب لما مات واستنكاف أبنائه عن تغسيله ودفنه؛ بسبب خوفهم من المرض المعدي الذي أصابه، مما يعني أن المعروف عندهم تغسيل الميت[4].

وكان فيهم الصوم لكنه صيام مختلف، فمنهم من يصوم من الفجر إلىٰ غروب الشمس، أو من طلوع الشمس إلىٰ غروبها، وكانت قريش تصوم عاشوراء في الجاهلية[5]، وكان الجوار في المسجد، وكان عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- نذر اعتكاف ليلة في الجاهلية، فاستفتىٰ في ذلك رسول -ﷺ-، فأفتاه بأن يعتكف وفاءً بنذره في الجاهلية[6].

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٤٠٠).

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٤٥).

(٣) انظر، محمد الجارم، أديان العرب في الجاهلية (٧٥).

(٤) قال ابن كثير في السيرة (٢/ ٤٧٩) في شأن تغسيل أبناء أبي لهب لأبيهم ودفنه، بعد موته بالمرض المعدي (العدسة): «فو الله ما غسلوه إلا قذفًا بالماء عليه من بعيد ما يدنون منه، ثم احتملوه إلى أعلى مكة فأسندوه إلى جدار ثم رضموا عليه بالحجارة».

(٥) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت: (كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومه، فلما قدم المدينة صامه، وأمر بصيامه، فلما فرض رمضان ترك يوم عاشوراء، فمن شاء صامه، ومن شاء تركه) متفق عليه: صحيح البخاري (٢٠٠٢) وصحيح مسلم (١١٢٥).

(٦) عن عمر -رضي الله تعالى عنه- أنه سأل النبي ﷺ، قال: كنت نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام، قال: «أوف بنذرك» متفق عليه: صحيح البخاري (٢٠٣٢)، وصحيح مسلم (١٦٥٦).

وكانت فيهم الزكاة، وكان المعمول عندهم منها قرىٰ الضيف وابن السبيل وحمل الكَلّ، والصدقة علىٰ المساكين وصلة الأرحام، والإعانة في نوائب الحق، وكانوا يُمدَحون بها، ويعرفون أنها كمال الإنسان وسعادته، قالت خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- للرسول ﷺ عندما جاء إليها من غار حراء خائفًا: (فو الله: لا يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكل، وتعين علىٰ نوائب الحق)[1]. وقال ابن الدغنة لأبي بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- مثل ذلك، وكان العاص بن وائل من زعماء الجاهلية -والد عمرو بن العاص الصحابي الجليل رضي الله تعالىٰ عنه- أوصىٰ أن يعتق عنه كذا وكذا من العبيد.

وأما حج بيت الله وتعظيم الشعائر والأشهر الحرم، فأمره أظهر من أن يُذكَر، ولم تزل سُنتهم الذبح في الحلق، والنحر في اللُّبة. وكانوا لا يُنَفِّرون صيد الحرم، بل كان الشخص يجد قاتل أبيه في الحرم فلا يهيجه ولا يتعرّض له[2]. وفي غزوة الحديبية لما بعثت قريش بالحليس بن علقمة وافدًا منهم لمقابلة الرسول ﷺ، ولما رآه الرسول ﷺ مقبلًا، قال: هذا من قوم يتألهون فابعثوا في وجهه الهدي، فلما رأىٰ الهدي رجع إلىٰ قريش، ولم يصل إلىٰ الرسول ﷺ؛ إعظامًا لما رأىٰ[3].

وكان طائفة منهم يتحنثون ويتخلون في غار حراء وفي غيره من الخلاء؛ للتفكر والذكر، يتأملون ويذكرون الله -جل وعلا-، وكانت قريش تفعله وهو من بقايا سنن الاعتكاف عندهم، وعبد المطلب يقال: إنه أول من كان يتحنث في غار حراء[4]، والنبي ﷺ كان يتحنث الليالي ذوات العدد في ذات المكان الذي كان يتحنث فيه جَدُّه. والتحنث يعني العزلة عن الناس والتعبد بذلك، والخلوة للتفكر والعبادة،

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: الدهلوي، حجة الله البالغة (١/ ٢٢٢).

(٣) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية (٣/ ٣١٦).

(٤) انظر: ابن حجر، فتح الباري (١٣/ ٣٥٥). والقسطلاني، إرشاد الساري (١٠/ ١١٩).

كانت معروفة عندهم.

(ومن العرب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، وينتظر النبوة. وكانت لهم سنن وشرائع)[١]. بل منهم فئة رفضت بعض عقائد المجتمع، وحاولوا وسعوا للتوحيد بشكل من أشكال العبادة، ولكن دون أن يتعدّىٰ ذلك نفوسهم وحياتهم الخاصة؛ كأمثال زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل -رضي الله تعالىٰ عنهما-.

سمع زيدٌ بن عمرو بن نفيل، أميةَ بن أبي الصلت يومًا ينشد:

كل دين يوم القيامة عند الله   إلا ديـــن الحنيفـــة زور

فقال له: صدقت.

وقال زيد أيضًا:

فلن تكون لنفس منك واقية   يوم الحساب إذا ما يجمع البشر[٢].

(وزهير بن أبي سلمىٰ المزني، كان يمر بالعضاه[٣]، وقد أورقت بعد يبس فيقول: لولا أن تسبني العرب لآمنت أن الذي أحياك بعد يبس سيحيي العظام وهي رميم)[٤].

نعم كان أهل الجاهلية يتعبدون، كان فيهم من يعتني بالطهارة من الأحداث بنوع من الاعتناء، وكان منهم أهل الصلاة، ومنهم أهل الصيام، ومنهم أهل الدعاء، ومنهم أهل الحج، ومنهم أهل الزكاة، ومنهم أهل الصدقة، ومنهم أهل الصلة، ومنهم أهل الذبح، ومنهم أهل التقرب إلىٰ الله بالطواف والتحنث والاعتكاف، لكنها عبادات محرفة، وفيها كيفيات نالها الكثير من الانحرافات حسب أهوائهم، وآراء شيوخ القبائل المطاعين فيهم.

---

(١) الشهرستاني، الملل والنحل (٣/ ٨٦).
(٢) الشهرستاني، الملل والنحل (٣/ ٨٦).
(٣) العضاه: بكسر العين وفتح الضاد، نوع من الشجر له شوك. مختار الصحاح.
(٤) الشهرستاني، الملل والنحل (٣/ ٨٨).

وكانت عندهم أخلاق سيئة، وأخرىٰ حسنة، فقد كان منهم من يأكل الميتة، ومنهم من يقطع الرحم، ومنهم من يسيء الجوار، وفيهم تسلط من القوي علىٰ الضعيف.

وعندهم أخلاق حسنة وقد جاء الرسول ﷺ ليتممها قال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[1].

كانوا يُجلِّون ويُعظِّمون الحرم، ويمنعون الظلم فيه، ويخشون العقوبة، وقد مرّ علينا حلف الفضول، ومسارعة عدد من زعمائهم إلىٰ مساندة المظلوم في الحرم، وأخذ حقه من الظالم.

ولما أرادوا بناء الكعبة قالوا: لا يدخل فيها مال من ربًا ولا مظلمة ولا مَهر بغي، وهذا دليل علىٰ معرفتهم بحرمته، وكانوا يعرفون حرمة الزنا، وقصة عبد الله بن عبد المطلب (والد الرسول الكريم ﷺ) لما دعته امرأة للزنا؛ رفض لما يعتقده من حرمة الزنا مع أنه كان شابًّا عزبًا. وقال:

أما الحرام فالممات دونه ... والحل لا حل فأستبينه

فكيف بالأمر الذي تبغينه ... يحمي الكريم عرضه ودينه

وكانوا يرجمون في الزنا، وذكر القلقشندي أن أول من رجم في الزنا في الجاهلية ربيع بن حدان، ثم جاء الإسلام بتقريره في المحصن[2].

وحرّموا الخمر، وعدد كبير من سادات قريش لم يشربوا الخمر، وقطعوا يد

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (١/ ١١٨) رقم (٢٧٣)، وصححه الألباني من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-.
(٢) انظر: محمد الجارم، أديان العرب في الجاهلية (ص ١١٧).

السارق[١].

وكان النساء يتحجبن، وكانوا يغارون علىٰ أعراض نسائهم أشد الغيرة، يقول الأزرقي -رحمه الله تعالىٰ- عن تحجب نسائهم: (وكانت الجارية إذا حاضت أُدْخلت دار الندوة، ثم شَقَّ عليها بعض ولد عبد مناف بن عبد الدار درعها، ثم درَّعها إياه، وانقلب بها أهلها فحجبوها)[٢].

ومن أشعارهم قول عنترة بن شداد:

وأغضّ طرفي إن بدت لي جارتي حتىٰ يواري جارتي مأواها[٣].

وقول حاتِم الطائي:

أعشـــو إِذا مَا جـــارتي بـرزت حَتَّىٰ يواري جارتي الخدر[٤].

والمقصود من هذا أن العرب الذي بُعث فيهم محمد -ﷺ- لم يكونوا بعيدين عن العبادة- كما يتصور البعض-؛ بل كانوا يتعبدون بأمور ورثوها من دين إبراهيم -عليه السلام-، مع تحريفات وزيادات وتعديلات يُدخلها عليها زعماؤهم.

وهم مقرون بالربوبية لله -عز وجل-، وأن الله -جل شأنه- هو الخالق الرازق وحده، وهو الذي يحي ويميت وحده، ويقولون ما شاء الله، ويؤمنون بالله. وإذا

(١) انظر: الأصنام للكلبي، والسيرة النبوية لابن هشام، والروض الأنف للسهيلي، وأخبار مكة للأزرقي، والملل والنحل للشهرستاني (٣/ ٩٤)، وحجة الله البالغة للدهلوي، وأديان العرب في الجاهلية لمحمد الجارم (ص ١١٧). وتاريخ الفكر الديني الجاهلي لمحمد الفيومي، ورفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله، لعبد الرحمن المعلمي (١/ ١٠٨)، وشرح كشف الشبهات للشيخ صالح آل الشيخ (مقدمة الشرح)، لمزيد من التفاصيل.

(٢) الأزرقي، أخبار مكة، تحقيق عبد الملك بن دهيش (ص ١٧٨).

(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٠٤) (٦/ ٣).

(٤) عبد القادر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الطبعة الرابعة (القاهرة: مكتبة الخانجي (١٤١٨)، (٣/ ٧٤).

تحدثوا مع شخص، وشكروه علىٰ فعله، قالوا له (جزاك الله خيرًا)، قال –تعالىٰ– عن إقرارهم بالربوبية ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦١]، وقال –تعالىٰ– : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٣]. وقال –تعالىٰ–: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف:٨٧].

لكنهم كانوا في جهالة جهلاء في مسألة التوحيد؛ عن عياض بن حمار المجاشعي –رضي الله تعالىٰ عنه– أن رسول الله ﷺ، قال ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلّمكم ما جهلتم، مما علمني يومي هذا؛ كل مال نحلته عبدًا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرَتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا، وإن الله نظر إلىٰ أهل الأرض، فمَقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب»[١].

قال النووي في شرح صحيح مسلم: (قوله ﷺ: «وإن الله –تعالىٰ– نظر إلىٰ أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»؛ المقت أشد البغض، والمراد بهذا المقت والنظر ما قبل بعثة رسول الله ﷺ، والمراد ببقايا أهل الكتاب الباقون علىٰ التمسك بدينهم الحق من غير تبديل)[٢].

وأخرج الطبري –رحمه الله تعالىٰ– في تفسيره بسنده عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه، قال: جلسنا إلىٰ المقداد بن الأسود –رضي الله تعالىٰ عنه– فقال:

(١) صحيح مسلم (٤/ ٢١٩٧) رقم (٢٨٦٥).

(٢) شرح صحيح مسلم (١٧/ ١٩٨). وقال الشيخ صالح الفوزان في إعانة المستفيد شرح كتاب التوحيد (ص ٤٧٧): (فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب انقرضوا قبل البعثة)، ويقول الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله تعالى–: (المراد بالجاهلية هنا ما قبل البعثة؛ لأنهم كانوا على جهل وضلال عظيم، حتى إن العرب كانوا أجهل خلق الله، ولهذا يسمون بالأميين، والأمي هو الذي لا يقرأ ولا يكتب نسبة إلى الأم، كأن أمه ولدته الآن).

(لقد بُعث رسول الله ﷺ علىٰ أشد حالة بُعِثَ عليها نبي من الأنبياء في فترة وجاهلية، ما يرون دينًا أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرَّق به بين الحق والباطل)[1].

ويؤيد هذا ما رواه البخاري في صحيحه عن أسماء بنت أبي بكر -رضي الله عنهما-، قالت: (رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائمًا مسندًا ظهره إلىٰ الكعبة يقول: يا معاشر قريش، والله ما منكم علىٰ دين إبراهيم غيري)[2]؛ فهو يقسم أمام الملأ، ولا يرد عليه أحد، لقد أصبح دين إبراهيم -عليه السلام- في مكة غريبًا.

ويقول ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ-: (قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: واجتمعت قريش يومًا في عيد لهم عند صنم من أصنامهم، كانوا يعظّمونه وينحرون له، ويعكفون عنده، ويديرون به، وكان ذلك عيدًا لهم في كل سنة يومًا، فخلص منهم أربعة نفر نجيًّا، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا، وليكتم بعضكم علىٰ بعض، قالوا: أجل. وهم: ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل، فقال بعضهم لبعض: تعلموا والله ما قومكم علىٰ شيء! لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم! ما حجر نطيف به، لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، يا قوم التمسوا لأنفسكم (دينًا)، فإنكم والله ما أنتم علىٰ شيء، فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية، دين إبراهيم)[3].

هكذا عامة قريش يطوفون بالأصنام، وينحرون لها ويعكفون عندها ويعظمونها، والاستثناء هو انتقاد ذلك، والبحث عن دين إبراهيم -عليه السلام- من هؤلاء الأربعة الذين يتحدثون علىٰ استخفاء بينهم.

وأبو سفيان زعيم قريش وقائدهم يوم أُحُد يقول بعد انتهاء الغزوة (اعلُ هبل)، وهو صنم عظيم من أصنامهم، كما سيأتي الحديث عن ذلك في غزوة أُحد.

(١) الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن تحقيق عبد الله التركي (طبعة دار هجر)، (١٧/ ٥٣١).
(٢) صحيح البخاري (٥/ ٤١)، (الطبعة السلطانية).
(٣) سيرة ابن هشام (١/ ٢٢) تحقيق السقا، باختصار.

في هؤلاء القوم بُعث محمد ﷺ، فعاداه غالب زعمائهم، وكذّبوه وآذوه واتّهموه بكل ما استطاعوا من التُّهَم، وحاربوه حتىٰ نصَره الله عليهم، ودخل الناس في دين الله أفواجًا.

وهنا يأتي السؤال: أين المشكلة؟! ما الذي جعل كفار قريش ينفرون من هذه الدعوة النفرة الشديدة، ويعادون الرسول ﷺ، ويكذّبونه ويتّهمونه بكل ما استطاعوا، ويؤذونه ويحاربونه مستميتين في ذلك؟

قال الله -تعالىٰ-: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ [يونس:١٩]، كان الناس كلهم علىٰ التوحيد، قال -تعالىٰ-: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:٣٠].

قال ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-: (كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم علىٰ الإسلام. لكن لما تركوا اتباع شريعة الأنبياء وقعوا في الشرك، فإن آدم أمرهم بما أمره الله به؛ حيث قال له: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨])[١].

ومنذ أن بعث الله -جل شأنه- نبيه إبراهيم -عليه السلام-، وأمره ببناء البيت علىٰ التوحيد، واستوطنت ذريته مكة، ومعظم العرب يدينون بدينه، ويتبعون ملته، فكانوا يعبدون الله ويوحدونه، ويلتزمون شعائر دينه الحنيف، حتىٰ بدأ الانحراف يدبّ إليهم مع طول العهد وتقادم الزمن وانتشار الجهل.

وكانت خزاعة تلي البيت، يتوارثون ذلك كابرًا عن كابر. واستمرت علىٰ ذلك نحوًا من ثلاثمائة سنة، وقيل: خمسمائة سنة. والله أعلم. وفي زمانهم كان رئيس لهم

(١) انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٠٦).

يدعىٰ عمرو بن لحي الخزاعي، بلغ مكانة عظيمة في نفوسهم، بسبب أنه كان ذا مال جزيل جدًّا، وربما نحر أيام الحجيج عشرة آلاف بدنة، وكسا عشرة آلاف حلة في كل سنة، وكان يطعم العرب ويحيس لهم الحيس بالسمن والعسل، ويلت لهم السويق.

وكان -لعظم مكانته عندهم- يرون قوله وفعله فيهم كالشرع المتّبع؛ لشرفه فيهم ومنزلته عندهم، وكرمه عليهم، وكونه زعيمًا في هذا البلد الحرام.

قال ابن هشام: (حدثني بعض أهل العلم أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلىٰ الشام في بعض أموره، فلما قدم مآب من أرض البلقاء، وجدهم يعبدون الأصنام؛ فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: ألا تعطوني منها صنمًا فأسير به إلىٰ أرض العرب فيعبدوه؟ فأعطوه صنمًا يقال له: هُبَل. فقدم به مكة فنصبه، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه. فاستجابوا له.

وكان مما صنع عمرو بن لحي هذا أن له رئيًّا من الجن -أي صاحب من شياطين الجن-، وكان عمرو يكنىٰ أبا ثمامة، فأتاه رئيّه فقال: أجب أبا ثمامة، فقال: لبيك من تهامة، فقال له: ارحل بلا ملالة، قال له، جير ولا إقامة، قال: ائت صف جُدة، فيها أصنامًا مُعدَّة، فأورد بها تهامة، ولا تهب، ثم ادع العرب إلىٰ عبادتها تُجَب.

فأتىٰ عمرو ساحل جدة فوجد بها ودًّا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا، وهي الأصنام التي عُبِدَت علىٰ عهد نوح -عليه السلام-، ثم إن الطوفان طرحها هناك فسفىٰ عليها الرمل فواراها، واستثارها عمرو، وحملها إلىٰ تهامة وحضر الموسم، فدعا العرب إلىٰ عبادتها، ولمكانته وزعامته في العرب وكونه زعيم مكة زعيمًا دينيًّا، ويعتبرون كلامه تشريعًا فيهم، فقد أجابوه، فأخذ عوف بن كنانة بن عوف بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن كلب، (ودًّا) فنصبه بدومة الجندل، وكان لقضاعة، وأخذ الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة (سواعًا)، فكان برهاط تعبده مضر،

وأخذ أنعم بن عمرو المرادي (يغوث) فكان بأكمة من اليمن يقال لها مذحج، تعبده مذحج ومن والاها، وأخذ مالك بن مرثد بن جشم بن حاشد بن جشم بن خيران بن نوف بن همدان (يعوق) فكان بقرية يقال لها خيوان تعبده همدان ومن والاها، وأخذ معد يكرب أحد حمير وأحد ذي رعين (نسرًا) فكان بموضع من أرض سبأ يقال له بلخع تعبده حمير ومن والاها)[1].

وكان العرب يقبلون كل ما يقوله لهم عمرو بن لحي، ويتدينون به، يذكر السهيلي -رحمه الله تعالىٰ- أن عمرو بن لحي قد أخبر أهل مكة أن الرب يُشَتِّي بالطائف عند اللات، ويُصَيِّف بالعزىٰ، فعظّموها وبنوا لها بيتًا، وكانوا يهدون إليها كما يهدون إلىٰ الكعبة[2]. وهو الذي أمر بعبادة إساف ونائلة والتمسح بهما، ونصبهما علىٰ الصفا والمروة.

وكانت خزاعة تلي البيت، وقريش متفرقون في قومهم من بني كنانة، حتىٰ كان آخرهم حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو بن ربيعة الخزاعي.

وقد تزوج قصي بن كلاب[3] -الجد الرابع للرسول ﷺ- حبي ابنة حليل

(١) انظر: محمد بن حبيب البغدادي (ت: ٢٤٥)، المنمق في أخبار قريش، تحقيق خورشيد أحمد فاروق، الطبعة الأولى (بيروت: عالم الكتب ١٤٠٥)، (٣٢٧-٣٢٨). وانظر: صحيح البخاري رقم (٤٩٢٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بَعْدُ....».

(٢) انظر: الأزرقي، أخبار مكة، تحقيق رشدي الصالح ملحس (بيروت: دار الأندلس للنشر)، (١/ ١٢٦)، والسهيلي، الروض الأنف (٢/ ٢٣٥).

(٣) قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤيّ: سيد قريش في عصره، ورئيسهم. قيل: هو أول من كان له ملك من بني كنانة. وهو الأب الخامس في سلسلة النسب النبوي. مات أبوه وهو طفل فتزوجت أمه برجل من بني عذرة فانتقل بها إلى أطراف الشام، فشبَّ في حجره، وسمي «قصيًّا» لبعده عن دار قومه. وأكثر المؤرخين على أن اسمه «زيد» أو «يزيد»، ولما كبر عاد إلى الحجاز. وكان موصوفًا بالدهاء. وولي البيت الحرام. فهدم الكعبة وجدّد بنيانها (كما في تاريخ الكعبة) وحاربته القبائل فجمع قومه من الشعاب والأودية وأسكنهم مكة، لتقوى بهم عصبته، فلقبوه «مجمّعا»، وكانت له الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء.=

الخزاعي هذا رئيس خزاعة في زمانه، فولدت له بنيه الأربعة; عبد الدار وعبد مناف وعبد العزىٰ وعبدًا، ثم صار أمر البيت إلىٰ قصي إما بوصية من حليل بن حبشية الخزاعي، أو أنه انتزعها من خزاعة بالقوة، وأجلاهم عن البيت، واستقل هو بولاية البيت[1].

وقد سار قصي علىٰ نهج من سبقه، فقد نقل صنمي إساف ونائلة من الصفا إلىٰ جوار الكعبة[2]، وكثرت الأصنام في بيوت مكة وما من رجل -بعد ذلك- من قريش إلا وفي بيته صنم، إذا دخل يمسحه، وإذا خرج يمسحه؛ تبركًا به[3]. وُلِد علىٰ ذلك الصغير، وشاب عليه الكبير، وأصبح أمرًا مألوفًا عند الجميع.

عن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «عُرضت عليَّ النار فرأيت فيها عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قُصبه في النار، وكان أول من غيّر عهد إبراهيم وسيّب السوائب، وكان أشبه شيء بأكثم بن أبي الجون الخزاعي»، فقال الأكثم: يا رسول الله! هل يضرني شبهه؟ فقال: «إنك مسلم وهو كافر»[4].

=وكانت قريش تتيمن برأيه، فلا تُبرم أمرًا إلا في داره. وهو الّذي أحدث وقود النار في «المزدلفة» ليراها من دفع من «عرفة»، قال ابن هشام: غلب على مكة وجميع أمر قريش، وساعدته قضاعة. وقال ابن حبيب: كان الشرف والرياسة من قريش في الجاهلية في بني «قصيّ» لا ينازعونه ولا يفخر عليهم فاخر إلى أن تفرقت الرياسة في بني عبد مناف. وفي درر الفوائد: اتخذ لنفسه «دار الندوة»، وجعل بابها إلى مسجد الكعبة، وفيها كانت تقضي قريش أمورها، وكان أمره في قومه كالدين المتبوع «لا يعمل بغيره، في حياته ومن بعده، مات بمكة ودفن بالحجون» الأعلام للزركلي (٥/ ١٩٩).

(١) انظر: الأزرقي أخبار مكة (١/ ١٢٠).

(٢) انظر: الأزرقي أخبار مكة (١/ ١٢٠).

(٣) انظر: الأزرقي أخبار مكة (١/ ١٢٢).

(٤) صحيح ابن حبان، لابن حبان، الطبعة الأولى (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٨)، (١٦/ ٥٣٥)، وقال محققه ومخرج أحاديثه شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن. وقال الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (١٠/ ٤٥٥): (حسن صحيح، الصحيحة ١٦٧٧).

وعن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- قال رسول الله ﷺ: «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قُصبه في النار، كان أول من سيّب السوائب»[١].

وكان أول مبدأ الانحراف الوثني وتسهيل قبول فكرة عبادة الأصنام والأحجار في العرب كما يقول الكلبي[٢] -رحمه الله تعالىٰ-: (كان الذي سلخ بهم إلىٰ عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجرًا من حجارة الحرم؛ تعظيمًا للحرم وصبابة بمكة، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة، تيمنًا منهم بها، وصبابة بالحرم وحبًّا بها، وهم بعدُ يعظّمون الكعبة ومكة، ويحجون ويعتمرون علىٰ إرث إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام-، ثم سلخ ذلك بهم إلىٰ أن عبدوا ما استحبوا، ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- غيره، فعبدوا الأوثان، وصاروا إلىٰ ما كانت عليه الأمم من قبلهم)[٣]. ففكرة وجود الأحجار المقدسة نشأت من حبهم لمكة، وعاطفتهم الدينية مع الجهل بحقيقة الدين.

وعن أبي رجاء العطاردي[٤] -رحمه الله تعالىٰ-، يقول: (كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرًا هو أخْير منه ألقيناه، وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا جثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه، ثم طفنا به)[٥].

---

(١) صحيح البخاري (٤٦٢٣)، وصحيح مسلم (٢٨٥٦).

(٢) انظر ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، (٦/ ٨٢-٨٤).

(٣) الكلبي، الأصنام ن تحقيق أحمد زكي باشا، الطبعة الرابعة (القاهرة: دار الكتب المصرية ١٤٢٠)، (١/ ٦).

(٤) قال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٥٣): (الإمام الكبير، شيخ الإسلام، عمران بن ملحان التميمي، البصري. من كبار المخضرمين، أدرك الجاهلية، وأسلم بعد فتح مكة، ولم ير النبي ﷺ. أورده: أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستيعاب، وقيل: إنه رأى أبا بكر الصديق. قال ابن عبد البر، وغيره: مات أبو رجاء سنة خمس ومائة، وله أزيد من مائة وعشرين سنة).

(٥) صحيح البخاري (٤٣٧٦).

وروىٰ الذهبي -رحمه الله تعالىٰ- عن أبي رجاء العطاردي -رحمه الله تعالىٰ- أيضًا قوله: (أدركت النبي ﷺ وأنا شابّ أمرد، ولم أرَ ناسًا كانوا أضلّ من العرب، كانوا يجيئون بالشاة البيضاء، فيعبدونها، فيختلسها الذئب، فيأخذون أخرىٰ مكانها يعبدونها، وإذا رأوا صخرة حسنة، جاؤوا بها، وصَلَّوا إليها، فإذا رأوا أحسن منها رموها)[1].

وذكر القرطبي -رحمه الله تعالىٰ- (أن أهل الجاهلية كانوا يعملون الأصنام من كل شيء حتىٰ إن بعضهم عمل صنمه من عجوة ثم جاع فأكله)[2].

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (واستبدلوا بدين ابراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- غيره؛ فعبدوا الأوثان، وصاروا إلىٰ ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات)[3].

ومع هذه المعتقدات، إلا أنهم لم يكونوا علىٰ رأي واحد في البعث والنشور، فمنهم منكرو البعث والنشور قال -تعالىٰ-: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]. ومنهم من ينكر البعث ويقرّ بالخلق؛ قال -تعالىٰ-: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس٧٨-٧٩]، ولو أنه غير مقرّ بالخلق الأول لما احتُجّ عليه به، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ:٧]، ومنهم من هو مقر بالخلق والبعث منكر لأن يكون الرسول بشرًا قال -تعالىٰ-: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]. وهؤلاء هم غالب مَن يعبد الأصنام، ويزعمون أنها تشفع لهم عند

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٥٤-٢٥٥).

(٢) ابن حجر، فتح الباري (١٠/ ٣٨٤).

(٣) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ١-٨٦-١٨٨).

الله -تعالىٰ- في الدار الآخرة، وقرّبوا لهم القرابين وطافوا بهم ونذروا لها وعبدوها من دون الله[1]، وكان هؤلاء يستدلون بامتناع الحشر والنشر علىٰ الطعن في رسالته. وقد ذكر الله -تعالىٰ- ذلك، وأجاب عنه بالوجوه الكثيرة في القرآن[2].

ولم يكن هذا خاصًّا بأهل مكة؛ بل كان في أهل المدينة كذلك من لا يرىٰ بعثًا ولا نشورًا، عن سلمة بن سلامة بن وقش -رضي الله تعالىٰ عنه- وكان من أصحاب بدر- قال: (كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل، قال: فخرج علينا يومًا من بيته قبل مبعث النبي ﷺ بيسير، فوقف علىٰ مجلس بني عبد الأشهل، فذكر البعث والقيامة والحساب، والميزان، والجنة، والنار؛ فقال ذلك لقوم أهل شرك، أصحاب أوثان، لا يرون أن بعثًا كائنٌ بعد الموت، فقالوا له: ويحك يا فلان ترىٰ هذا كائنًا؟ إن الناس يبعثون بعد موتهم إلىٰ دار فيها جنة، ونار يجزون فيها بأعمالهم، قال: نعم، والذي يحلف به لَوَدَّ أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدنيا، يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطبق به عليه، وأن ينجو من تلك النار غدًا)[3].

ومع ذلك ففيهم من يؤمن باليوم الآخر والحساب، والبعث والنشور، ومما يروىٰ أن عبد المطلب جدّ النبي ﷺ كان يقول: لن يخرج من هذا الدنيا ظالم حتىٰ ينتقم الله منه، وهذا يدل علىٰ إنكاره للبعث والحساب، إلىٰ أن هلك رجل ظلوم حتف أنفه، لم تُصِبه عقوبة؛ فقيل له في ذلك، ففكر، ثم قال: والله إن وراء هذه الدار دار يُجزىٰ فيها المحسن بإحسانه، والمسيء يعاقب بإساءته[4].

---

(١) انظر: الشهرستاني، الملل والنحل (٢/ ٢٣٥-٢٣٦).

(٢) انظر: الرازي، التفسير الكبير (١٢/ ٥١٧).

(٣) مسند الإمام أحمد (٢٥/ ١٦٤) رقم (١٥٨٤١)، (طبعة الرسالة) وقال المحقق: «إسناده حسن، من أجل محمد بن إسحاق، وقد صرح بالتحديث هنا، فانتفت شبهة تدليسه، وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين».

(٤) انظر: الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني (بيروت: دار المعرفة) (٣/ ٨٤)، ومحمد الجارم، أديان العرب في الجاهلية (ص ١١٣).

وقال لبيد في الجاهلية[1]:

وكل امرئ يومًا سيعلم سعيه ... إذا كُشفت عند الإله المحَاصلُ

وقال زهير بن أبي سلمىٰ في معلقته[2]:

فلا تكتُمُنَّ الله ما في نفوسكم ... ليخفىٰ، ومهما يُكتَم الله يعلـم

يؤخر فيوضع في كتابٍ فيُدَّخر ... ليوم الحساب أو يُعَجَّل فيُنْقَم

والخلاصة من ذلك أن قريشًا والعرب الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ كانوا يقرون بالربوبية، وفيهم جمع كبير ممن ينكر البعث والحساب، وفيهم من يقر به، ولهم عبادات في طهارتهم وصلاتهم ودعائهم، واستسقائهم، وصيامهم، وصدقاتهم، وحجّهم، ونذورهم، واعتكافهم، وسائر تعبداتهم، وإن كانت قد اختلطت بغيرها كثيرًا.

ومع هذه العبادات فقد كان لهم معبودات يتقربون إليها:

١. منهم من يعبد الأنبياء قال -تعالىٰ-: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٢-٧٦].

(١) شرح ديوان لبيد (ص ٢٥٧).

(٢) شرح شعر زهير بن أبي سُلمى (ص ٢٦).

٢. ومنهم من يعبد الملائكة، قال -تعالىٰ-: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الزخرف:١٩-٢٠].

ما نوع عبادة الملائكة؟ كان العرب يزعمون أن لله -تعالىٰ الله عن قولهم- بنات، وأنهن الملائكة، ويجعلون لها تماثيل تذكرهم بهن من الجمادات، ويعبدونها ويتمسحون ويتبركون بها، ويعتقدون فيها، ولم يكونوا يسجدوا لها؛ كما سيأتي.

٣. ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين قال -تعالىٰ-: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ﴾ [الشورىٰ:٩]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء:٥٦-٥٧]، قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (قال العوفي، عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- في قوله: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ قال: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيرًا، وهم الذين يدعون، يعني الملائكة والمسيح وعزيرًا. وقوله: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾. روىٰ البخاري، من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي معمر، عن عبد الله في قوله: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ قال: ناس من الجن، كانوا يُعْبَدون، فأسلموا. وفي رواية قال: كان ناس من الإنس، يَعْبُدون ناسًا من الجن، فأسلم الجن، وتمسك هؤلاء بدينهم)(١). وقال -تعالىٰ-: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَـٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء:٩٨-١٠١].

(١) تفسير ابن كثير تحقيق سامي السلامة (٥/ ٨٨). والحديث في صحيح البخاري رقم (٤٧١٤ و٤٧١٥).

وقد ورد أن سبب نزولها احتجاج كفار قريش على الرسول ﷺ؛ فبيّن لهم -جل شأنه- أن الذي سبقت لهم من الله الحسنىٰ، من الذين كان يعبدهم الكفارُ واليهودُ والنصارىٰ، كالمسيح وعزير والملائكة، مبعدون عن النار ولا يسمعون حسيسها، وهذا يدل علىٰ أن الشرك لم يكن مقصورًا علىٰ الأصنام والحجارة، بل كان من ضمن معبوداتهم الأولياء والصالحين(١).

٤. ومنهم من كان يعبد الجن؛ قال -تعالىٰ-: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١]. وقال -تعالىٰ-: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقٗا﴾ [الجن: ٦].

وعبادة العرب للجن هو الاستعاذة بهم، والنذر لهم، والذبح لهم وصناعة الأطعمة وتركها في البراري، ويزعمون أن الجن يأكلونها وينفعون مُقَرّبها لهم، أو يكُفُّون عن الإضرار به، أو يدفعون عنه ضرر بعضهم، أو يبينون لهم بواسطة الكاهن شيئًا مغيبًا، كسرقة مال، أو حال رجل غائب، أو حقيقة مرض وعلاجه، ونحو ذلك(٢).

٥. ومنهم من كان يعبد الأصنام قال الله -تعالىٰ- ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠]، وفي الخطبة التي ألقاها جعفر -رضي الله تعالىٰ عنه- أمام النجاشي تبيين لواقعهم قبل دعوة الرسول ﷺ قال: (أيها الملك! كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء

(١) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٨٠)، والطحاوي، شرح مشكل الآثار (٣/ ١٥) رقم (٩٨٦). وسليم الهلالي ومحمد آل نصر، الاستيعاب في بيان أسباب النزول (٢/ ٤٩٣- ٤٩٤)، وقالا في الهامش: «فالحديث بمجموعه صحيح لا ريب».

(٢) انظر: عبد الرحمن المعلمي، رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله (مطبوع ضمن آثار عبد الرحمن المعلمي المجلد الثالث) (٢/ ٦٦٢).

الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف)[1]. فهذا وصف للحالة السائدة في قريش التي بُعِثَ فيها محمد ﷺ.

لكن ما كيفية عبادة الأصنام؟ يقول الشيخ عبد الرحمن المعلمي -رحمه الله تعالىٰ-: (كانوا يتمسحون بها، ويعكفون عليها، ويضمخونها بالطيب، ويتقاسمون بالأزلام عندها، ولم أر نقلًا صريحًا في أن المشركين كانوا يسجدون للأصنام؛ بل جاء ما ينفي ذلك)[2]. ويدل لهذا عدة أمور:

أولًا: عن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: (قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزىٰ لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن علىٰ رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب، قال: فأتىٰ رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ علىٰ رقبته، قال: فما فجئهم منه إلا وهو ينكص علىٰ عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهولًا وأجنحة)[3]. فكأن الأمر المستغرب عند أبي جهل هذه الكيفية (يعفر محمد وجهه)، ولو كان أبو جهل يفعل ذلك ما استنكره علىٰ الرسول ﷺ؛ لأنه سيقال له أنت تفعل ذلك.

ثانيًا: ورد في مسند الإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ- عن علي ابن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- أن أبا طالب لما رأىٰ الرسول ﷺ يصلي ويسجد، سأله عن ذلك، ثم إن الرسول ﷺ دعاه إلىٰ الإسلام فقال: (ولكن والله لا تعلوني استي أبدًا)[4].

---

(١) سيأتي تمام الحديث، وتخريجه في مبحث الهجرة إلى الحبشة.

(٢) عبد الرحمن المعلمي، رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله (ج١ ص٥١١-٥١٢) المطبوع ضمن آثار الشيخ عبد الرحمن المعلمي المجلد الثاني.

(٣) صحيح مسلم (٤/ ٢١٥٤) رقم (٢٧٩٧).

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند (٢/ ١٦٦) رقم (٧٧٥)، وقال المحقق شعيب الأرناؤوط وزملاؤه: «إسناده ضعيف جدًّا»، وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٩/ ١٤٧) رقم (٤١٣٩): «ضعيف جدًّا».

ثالثًا: عن زيد بن حارثة -رضي الله تعالىٰ عنه- يقول: (.. وكان هناك صنم من نحاس يُقال له: إساف ونائلة يتمسح به المشركون إذا طافوا، فطاف رسول الله ﷺ وطفت معه، فلما مررت مسحت به، فقال رسول الله ﷺ: «لا تمسه»، قال زيد: فطفنا، فقلت في نفسي: لأمسنه حتىٰ أنظر ما يقول، فمسحته، فقال رسول الله ﷺ: «ألم تُنْهَ؟»؛ قال زيد: فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلمت صنمًا حتىٰ أكرمه الله بالذي أكرمه، وأنزل عليه الكتاب)[1].

رابعًا: عن أبي رجاء العطاردي -رحمه الله تعالىٰ-، يقول: (كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرًا هو أخْير منه ألقيناه، وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا جثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه، ثم طفنا به)[2]. فلاحظ: أنهم يتمسحون ويطوفون بها، ولم يقل إنهم يسجدون لها.

خامسًا: مر معنا قول الأزرقي -رحمه الله تعالىٰ-: (وكثرت الأصنام في بيوت مكة، وما من رجل -بعد ذلك- من قريش إلا وفي بيته صنم، إذا دخل يمسحه، وإذا خرج يمسحه؛ تبركًا به)[3].

وورد في صحيح البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-: «أن النبي ﷺ سجد بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس»[4]؛ أي: عندما تلا الرسول ﷺ سورة النجم حتىٰ وصل إلىٰ قول الله -جل شأنه-: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ [النجم: ٦٢]؛ فسجد، وسجد معه مَن ذكرهم ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-. ولكن هذا في السجود لله، والحديث في سجود المشركين لأصنامهم.

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٢٨) رقم (٤٩٥٦)، وقال: صحيح على شرط مسلم. ولم يتعقبه الذهبي.

(٢) صحيح البخاري (٤٣٧٦).

(٣) انظر: الأزرقي أخبار مكة (١/ ١٢٢).

(٤) صحيح البخاري (٢/ ٤١) رقم (١٠٧١).

وقد دلت النصوص علىٰ أن شرك العرب الذين بُعِثَ فيهم رسول الله ﷺ إنما ينحصر في جملته في قول الله -تعالىٰ- عنهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وقول الله -تعالىٰ- عنهم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨](١). فهم لا يعتقدون أنهم أرباب من دون الله يملكون الضر والنفع؛ وإنما جعلوهم شفعاء ووسطاء لهم عند الله -جل شأنه-.

وإنما فصلت هنا في معبودات مشركي العرب من قريش وغيرهم الذين بُعث فيهم الرسول ﷺ؛ لأن هناك من يقول: إن الآيات التي نزلت تحذّر من الشرك، كانت فيمن يعبد الأصنام، وليست فيمن يتوسل بالأنبياء والأولياء والصالحين، ويقولون فيمن يدعوهم إلىٰ التوحيد، كيف تجعلون الصالحين مثل الأصنام؟ أم كيف تجعلون الأنبياء أصنامًا؟، وما بيّنته بعاليه جواب جلي علىٰ ذلك، وأن مشركي قريش ونحوهم لم يكونوا يعبدون الأصنام فقط، بل عبدوا الملائكة والأولياء والصالحين والجن، وكانت عبادتهم هي طلب الشفاعة من هذه المعبودات، والقربىٰ من الله، كما قال -تعالىٰ-: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ [الزمر: ٣]. وقال -تعالىٰ-: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨](٢).

والمتأمل في القرآن الكريم يجد أنه يركّز علىٰ ثلاث قضايا رئيسة:

الأولىٰ: قضية التوحيد، وإفراد الله -جل وعلا- بالعبادة.

---

(١) عبد الرحمن المعلمي، رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله (ج٢ ص٧٢٤) المطبوع ضمن آثار الشيخ عبد الرحمن المعلمي المجلد الثالث.

(٢) ومن أراد التفصيل وتوضيح هذا المسألة فعليه بكتاب كشف الشبهات للشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى-، وشروحاته، خاصةً شرح الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ؛ فقد بيَّن بيانًا شافيًا لكل من يطلب الحق.

الثانية: قضية إثبات أن محمدًا ﷺ رسول من رب العالمين.

الثالثة: قضية البعث والنشور والحساب.

وكان العرب يستبعدون أن يبعث الله بشرًا رسولًا، ويقولون: لماذا لم يبعث الله ملكًا رسولًا؟

قال -تعالىٰ-: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٤-٩٦].

أما البعث والنشور فهي قضية غالبة فيهم، ووردت آيات كثيرة ترد علىٰ حجج المشركين في إنكارهم للبعث، وهذا ظاهر بين في نصوص القرآن الكريم، فلا تكاد تخلو سورة من الحديث عن البعث والنشور عدا قصار السور، ومع ذلك فيهم -كما سبق أن ذكرت- من يؤمن بالبعث والنشور.

وتبقىٰ قضية التوحيد وإفراد الله -جل شأنه- بالعبادة محور كل القضايا، وحق الله الأعظم.

وهذا يعطي صورة عن واقع العرب الشركي؛ فهؤلاء العرب الذين بُعث فيهم محمد ﷺ يقرّون بالربوبية وانفراد الله بالتدبير، ولم يكونوا يسجدون للأصنام، وإنما يصرفون لأصنامهم ومعبوداتهم من الجن والملائكة والأولياء، أنواعًا من العبادات التي لا تُصرَف إلا لله -سبحانه-، ولا تُطلَب إلا منه -سبحانه-، كالتعظيم والتبرك والعكوف عندها والطواف حولها، وكذلك طلب الشفاعة منها، والتمسح بها، والاستقسام بها.

وعندما بدأ الرسول ﷺ دعوته لم ينكروه، وظنوا أنه مثل زيد بن عمرو بن نفيل وأمثاله الحنفاء من العرب، ولو أنه اقتصر علىٰ تقرير البعث والحساب لما قامت قائمتهم، لوجود كثير من أسياد العرب ممن يؤمن بذلك، فلما أعلن **الكلمة العظمىٰ (لا إله إلا الله)**، التي هي توحيد العبودية لله -سبحانه وتعالىٰ-، وأن لا يُصرَف شيء من أنواع العبادة مهما كانت لغير الله، فهموها، وعلموا أن هذا عيب وانتقاص لما هم عليه من الشركيات، والاعتقادات في آلهتهم، وطعن في أصنامهم التي يتمسحون بها ويتبركون بها ويعبدونها من دون الله، وينسبون لها أشياء من النفع والضر، فأنكروه أشد الإنكار، وعادوه أشد المعاداة، وتألبوا عليه، وثارت ثائرتهم، وبارزوه بكلّ ما يستطيعون من الخصومة والعداوة والمحاربة.

عندما قام محمد ﷺ وقال لهم: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [البقرة: ٢١]، ﴿ **فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة٢٢]، ﴿ **ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ** ﴾ [النحل ٣٦]، ﴿ **وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ** ﴾ [البقرة:١٦٣]، ﴿ **قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ** ﴾ [الأنعام:١٩]، ﴿ **وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا** ﴾ [النساء:٣٦]، ﴿ **قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا** ﴾ [الأنعام:١٥١]. ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف:٣٣]. ﴿ **وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ** ﴾ [النحل:٥١]، ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف:١١٠]، ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠٩]، ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ [فصلت:٦]، ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ

مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر:٦٦]، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥].

أدركوا أنهم أمام دعوة جديدة تؤسس مبادئها علىٰ هدم معتقداتهم التي ورثوها من آبائهم وأجدادهم، دعوة جديدة غير معهودة تقوم علىٰ نسف تعظيم الأصنام، والتبرك والتمسح بها، واعتقاد أن لها صلة بروحانيات الملائكة التي تمثلها هذه الصور.

تلك الأصنام التي ملأت أرجاء الحرم، وبلغ منها ما حول الكعبة فقط ثلاثمائة وستون صنمًا[1]. مع ما امتلأت به بيوت مكة من الأصنام الخاصة التي يلجأ إليه رب المنزل ويتمسح بها ويطلب منها البركة، كلما دخل أو خرج -كما سبق- ويستقسم بها في تصرفاته. عقيدة راسخة في قلوبهم ورثوها أبًا عن جد.

وقد وصف القرآن الكريم موقفهم من هذه الدعوة الجديدة: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [ص:٤-٨].

ودافعوا عن آلهتهم فقالوا: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ

(١) انظر: الأزرقي، أخبار مكة (١/ ١٢٠)، والأصبهاني، دلائل النبوة، تحقيق محمد رواس قلعه جي، وزميله، الطبعة الثانية (بيروت: دار النفائس ١٤٠٦)، (١/ ٥٨٨).

مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان:٣-٤].

لم يتصوروا أن أفعالهم تلك التي منها اتخاذ الشفعاء عند الله، والوسائط، والتبرك بالصور التي يصورونها، والطواف حولها والتمسح بها، واعتقاد أن عبادتها تقربهم إلىٰ الله زلفىٰ، هي عين الشرك بالله، ولم تقبل عقولهم مسألة التوحيد؛ لعظم ما تراكم في الأذهان عن الآباء والأجداد من ذلك الموروث الشركي.

كانوا في شك من صحة هذه الرسالة التي صادمت موروثاتهم قال -تعالىٰ-: ﴿بَل هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [ص:٨]، قال ابن جزي -رحمه الله تعالىٰ-: (هذا ردّ عليهم، والمعنىٰ أنهم ليست لهم حجة ولا برهان، بل هم في شك من معرفة الله وتوحيده، فلذلك كفروا)[1].

وقال الشيخ السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (ليس عندهم علم ولا بينة. فلما وقعوا في الشك وارتضوا به، وجاءهم الحق الواضح، وكانوا جازمين بإقامتهم علىٰ شكهم، قالوا ما قالوا من تلك الأقوال لدفع الحق، لا عن بينة من أمرهم، وإنما ذلك من باب الائتفاك منهم)[2].

كانوا يرون أن اتخاذ الشفعاء عند الله والوسائط، أمر سائغ مشروع، كانوا يعتقدون أن الملائكة كالأعوان بالنسبة للملوك، يقيسون الخالق علىٰ المخلوق، ويرون أن هؤلاء الصالحين الذي ماتوا أرواحهم باقية، تشفع عند الله لمن طلب منها الشفاعة، وأنها تحل فيما يصورونه من صور، يجعلونها أصنامًا يعبدونها؛ لأنها حلت فيها أرواح تلك الرجال الصالحين الذي يطلبون الشفاعة منهم.

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٢٠٢).
(٢) تفسير السعدي (٧٠٩).

ولما بارزهم محمد ﷺ بتسفيه ذلك كله، وسبّ آلهتهم، وسفّه أحلامهم، وأحلام آبائهم الذين كانوا يعبدون الأصنام، ويتخذونها شفعاء لهم عند الله، هنا قالوا ساحر وكاهن وكذاب ومفترٍ، وقالوا عن القرآن الكريم، سحر مفترَىٰ، وأساطير الأولين اكتتبها.

قال المراغي -رحمه الله تعالىٰ- في تفسيره: (﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ﴾ [الشورىٰ:١٣]؛ أي شق علىٰ المشركين دعوتهم إلىٰ التوحيد، وترك عبادة الأصنام والأوثان، وتقريعهم علىٰ ذلك؛ لأنّهم توارثوا ذلك كابرًا عن كابر ونقلوه عن الآباء والأجداد)[1].

هذا هو ميدان الصراع، هذا هو جوهر الدعوة التي جاء بها محمد ﷺ، وواجه بها -أول ما واجه- أهل مكة، فتصدوا لهم في جملتهم، وبخاصة الزعماء، إلا مَنْ مَنَّ الله عليه بالهداية من السابقين الأولين من الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-.

هذا الذي قضىٰ الرسول ﷺ عمره بعد البعثة مجاهدًا فيه، يدعوهم إلىٰ (لا إله إلا الله)، ولم ينفعهم عنده صلاتهم ولا صيامهم ولا صدقاتهم ولا حجّهم ولا سائر عباداتهم التي كانوا يتقربون بها، مادام أنهم يجعلون مع الله شريكًا يستحق شيئًا من العبادة، مادام أنهم يُؤلّهون غير الله، ويعبدون غير الله، ويُعظّمون غير الله -سبحانه وتعالىٰ-، ويطلبون البركة من غير الله -سبحانه-، ويتخذون عنده شفعاء ووسطاء، ويتقربون بعبادتهم إلىٰ غير الله -سبحانه وتعالىٰ-.

ولم ينفعهم إيمانهم بتوحيد الربوبية وحده؛ إذ الإنسان مفطور عليه بخِلْقته وجِبلّته، قال -تعالىٰ-: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠]، ولم يرسل الله -جل شأنه- الرسل ليثبتوا للناس وجود الله أو توحيد الربوبية فقط، وإنما أرسلهم ليثبتوا لهم مع توحيد الربوبية استحقاقه -سبحانه وتعالىٰ- وحده

(١) المراغي، تفسير المراغي (٢٥/ ٢٥).

للعبادة بجميع أشكالها ومعانيها. قال -تعالىٰ-: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [ابراهيم:١٠]، وقال -تعالىٰ- مبينًا لما أرسل به جميع رسله -عليهم الصلاة والسلام-: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [**النحل:٣٦**]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

ولقد أدركت قريش مضمون هذه الدعوة، وفهموا المراد من (لا إله إلا الله)، التي حرص أبو جهل ألَّا ينطق بها أبو طالب في آخر لحظات حياته، ومات وهو لم يقلها فكان من أهل النار.

تذكر بعض كتب السيرة والتفاسير أن الرسول ﷺ قال لهم: أتُعطوني كلمة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم، فقالوا: نعطيك عشر كلمات، فلما قال لهم قولوا: (لا إله إلا الله). ولَّوا مدبرين، وهم يقولون: أجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟! قال قتادة -رحمه الله تعالىٰ-: (عجب المشركون أن دُعي اللهُ وَحْدَه، وقالوا: أَيَسْمَعُ لِحاجاتنا جميعًا إلهٌ واحد!)[1].

لقد صاحوا علىٰ محمد ﷺ صيحة واحدة تَزَعَّمَها كبراؤهم، مستنكرين دعوة التوحيد هذه، مدركين لمعناها ومقتضاها.

ولو أن الرسول ﷺ اكتفىٰ بتقويم صلاتهم وصيامهم، وزكاتهم، وحجّهم، وترَكَهم علىٰ تبرُّكهم وطوافهم وتمسُّحهم بالأصنام، ولم يتعرَّض لآلهتم ومعبوداتهم من دون الله لما بارزوه بالعداوة[2].

---

(١) انظر: ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق عبد الرزاق المهدي، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتاب العربي ١٤٢٢)، (٣/ ٥٦٠).

(٢) يقول ابن كثير -رحمه الله تعالى- في السيرة النبوية (١/ ٤٧٤): (ثم إنهم مشوا -أي زعماء قريش - إلى أبي طالب مرة أخرى، فقالوا: يا أبا طالب إن لك سنًّا وشرفًا ومنزلةً فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه=

ولو نظرنا إلىٰ العهد المكي من السيرة لوجدنا أن الشرع بعد التوحيد يشتمل علىٰ قسمين: عبادات وأحكام، فأما العبادات فلم يُشرع منها مدة مقامه ﷺ بمكة إلّا الطهارة والصلاة حين علّمه جبريل -عليه السلام- الوضوء والصلاة؛ قال الله -تعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ [المزمل:١-٤]، ولم تفرض الصلاة الخمس إلا عند الإسراء في السنة التاسعة من البعثة، ولم يُفرَض ما سواها من العبادات، حتىٰ هاجر إلىٰ المدينة؛ حيث فُرض الصيام والزكاة، ثم الحج والعمرة، وأما الأحكام فما أوجبته قضايا العقول من تحريم القتل والزنا فكان محرمًا، وما كان مترددًا في قضايا العقول بين الفعل والترك، فكان مسكوتًا عنه[1].

فإلىٰ أيّ شيء كان الرسول ﷺ يدعو طيلة العهد المكي؟ وهي التي تعتبر أشق مراحل البعثة، واجه فيها الرسول ﷺ صنوف العداء والإيذاء، مما يعني أن القضية ليس الصلاة والصيام والزكاة!! فالقضية كانت قضية التوحيد؛ قضية هذه القلوب

=أحلامنا، وعيب آلهتنا حتى تكفّه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين). فالمشكلة حينئذ هي في عيب آلهتهم وتسفيه مَن يعبدها سواء منهم أو من آبائهم. وفي مسند أحمد (٢٥/ ٤٠٣ ط الرسالة برقم ١٦٠٢١): عن ربيعة بن عباد الديلي، قال: (رأيت النبي ﷺ بذي المجاز يدعو الناس، وخلفه رجل أحول، يقول: لا يصدنكم هذا عن دين آلهتكم. قلت: من هذا؟ قالوا: هذا عمه أبو لهب). وحسّن المحقق إسناده. وفي المسند أيضًا (٢٥/ ٤٠٧ ط الرسالة، برقم ١٦٠٢٥): مزيد توضيح، يقول: (يقف رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول: يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، آمركم أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئًا، وأن تصدقوني وتمنعوني، حتى أنفذ عن الله ما بعثني به» فإذا فرغ رسول الله ﷺ من مقالته، قال الآخر: من خلفه يا بني فلان، إن هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى... فلا تسمعوا له، ولا تتبعوه. فقلت لأبي: من هذا؟ قال: عمه أبو لهب). فالرسول ﷺ يدعو إلى التوحيد، وأبو لهب يدعو إلى التمسك بعبادة الأصنام من اللات والعزى ونحوها من كل ما يُعبَد من دون الله -سبحانه وتعالى-، هذه هي المشكلة الكبرى في دعوة المصطفى ﷺ.

(١) انظر: الماوردي، أعلام النبوة، الطبعة الأولى (بيروت: دار ومكتبة الهلال ١٤٠٩) (ص ٢٤٢).

لا تتجه ولا تتعلق إلا بالله وحده، هذه القلوب لله؛ يجب ألَّا تخضع ولا تحب ولا تخشىٰ ولا ترجو إلا الله، لا تتعلق بأحد من الخلق كائنًا من كان، لا تفزع في حاجاتها وملمّاتها إلا إلىٰ الله، لا تدعو غير الله، لا يملك النفع والضر إلا الله، هذا هو معنىٰ (لا إله إلا الله).

ولم تكن قضية التوحيد هي قضية محمد ﷺ بمفرده؛ بل من درس منهج الأنبياء في الدعوة إلىٰ الله الذين ذكرهم الله -جل شأنه- في القرآن الكريم يجد أنهم يتفقون جميعًا علىٰ أن القضية الأولىٰ التي يتحدثون فيها مع مجتمعاتهم هي قضية التوحيد، تأمل هذه الآيات: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:٥٩]، ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:٦٥]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف:٧٣]، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥]، ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:١٦]، ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢]، ومحمد ﷺ قال لقومه بأمر الله -جل شأنه- له: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأنعام:١٥١].

والآيات الجامعة في ذلك كله التي تبين أن هذا هو منهج جميع الأنبياء -عليهم السلام-، مثل قوله -تعالىٰ-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥]. يقول الطبري -رحمه الله تعالىٰ-: (يقول -تعالىٰ ذِكْره-: وما أرسلنا يا محمد من قبلك من رسول إلىٰ أمة من الأمم إلا نوحي إليه أنه لا معبود في السماوات والأرض تصلح العبادة له سواي ﴿ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]؛ يقول: فأخلصوا لي العبادة، وأفردوا لي الألوهة)[1].

وقوله -تعالىٰ-: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل:٣٦]؛ يقول الطبري -رحمه الله تعالىٰ-: (يقول -تعالىٰ ذِكْره-: ولقد بعثنا أيها الناس في كل أمة سلفت قبلكم رسولًا، كما بعثنا فيكم؛ بأن اعبدوا الله وحده لا شريك له، وأفردوا له الطاعة، وأخلصوا له العبادة)[2].

فجميع الأنبياء بدأوا بالدعوة إلىٰ التوحيد وتحقيق معنىٰ لا إله إلا الله، والتحذير من الشرك أيًّا كانت صوره، ثم كلّ نبي بعد قضية التوحيد انشغل في دعوة قومه بالمشكلة الكبرىٰ في مجتمعه الخاص، فاختلفت القضية الثانية لدىٰ الأنبياء، أما القضية الأولىٰ فقد كانت محل إجماع منهم.

فشعيب -عليه السلام- كثر التطفيف في مجتمعه؛ فكانت قضيته الثانية ﴿ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ ﴾، وتكرر هذا المعنىٰ في دعوة شعيب -عليه السلام- لقومه.

وموسىٰ -عليه السلام- عاش في زمن تسلُّط فرعون علىٰ بني إسرائيل وإذلالهم فكانت قضيته الثانية رفع الذل عنهم وتوجيههم للعزة؛ قال -تعالىٰ-: ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة:٢٠]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ

(١) الطبري، تفسير الطبري تحقيق التركي (١٦/ ٢٤٩).
(٢) الطبري، تفسير الطبري (١٤/ ٢١٦).

﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه:٤٧].

ولوط -عليه السلام- لما كثرت الفاحشة في مجتمعه، وبخاصة إتيان الرجال؛ قال لقومه كما في قوله -تعالىٰ-: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٨٠]، وتكرر هذا المعنىٰ في عدة آيات في دعوة لوط -عليه السلام-.

أما إبراهيم -عليه السلام- فقد كانت قضيته الأولىٰ والثانية هي التوحيد؛ لكثرة الشركيات وانتشار الأصنام في مجتمعه، ومن يقرأ الآيات التي تتحدث عن دعوة إبراهيم -عليه السلام- يجد ذلك واضحًا في دعوته -عليه السلام-.

وهذا يبين لنا أن التوحيد كان قضية كل الأنبياء الأولىٰ، وقضية كل المجتمعات، وهو القضية الأولىٰ التي يجب علىٰ الدعاة إلىٰ الله السعي لإصلاحها قبل كل قضية، ثم يلتفت الداعية بعد ذلك إلىٰ قضية مجتمعه.

وعلىٰ هذا المنهج سار الرسول ﷺ، وكان صريحًا واضحًا في دعوته: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»، وقال لهم: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة:٧٢]، وقال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨]، فالمشرك لن يغفر له ذنبه، ولن يقبل منه أي عمل آخر مهما كان، مادام يصرف شيئًا من العبادة لغير الله -سبحانه وتعالىٰ-.

وتأمل هذا السياق القرآني لتعرف أهمية التوحيد وخطورة الشرك بالله ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ

دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:٨٣-٨٨]؛ فبعد أن ذكر ثمانية عشر نبيًّا، وآباءهم وذرياتهم وإخوانهم قال -جل شأنه-: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾. فلا مجاملة مع المشرك كائنًا من كان، ولا عمل صالح مقبول مع الشرك، فتأمل هذا النص ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ ﴾ يعود إلىٰ جميع الرسل الذي سبق ذكرهم كيف أوضح بجلاء أن هذا الشرك لو وقع منهم -وحاشاهم من ذلك وهم دعاة التوحيد-، لحبط عملهم، فاحذر من الشرك فلا أقذر منه، ولا أشد ضررًا منه علىٰ سائر الأعمال الأخرىٰ.

هذه هي قضية محمد ﷺ وقضية الأنبياء -عليهم السلام- من قبله مع أقوامهم[1].

وأختم بهذا الحوار القرآني: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون:٨٤-٩٢].

(١) لمزيد تفصيل في هذه المسألة يمكن الرجوع إلى كتابي أولويات الدعوة في منهج الأنبياء عليهم السلام، طبعته دار العاصمة بالرياض ومتاح منه نسخة إلكترونية..

هذه مقدمة ضرورية، قصدت منها توضيح أمرين:

الأول: طبيعة الرسالة التي تحمَّلها المصطفىٰ ﷺ في جانبها الديني العقدي.

الثاني: قسوة المواجهة التي واجهها الرسول ﷺ بمفرده -في البداية- في ذلك المجتمع الجاهلي الوثني.

ويضاف إلىٰ هذه المواجهة الدينية العقدية، مواجهة أخرىٰ في الجانب الاجتماعي، وهي التي سأتحدث عنه في المسألة التالية.

■ المسألة الثانية: الحالة الاجتماعية للأميين الذي بُعث فيهم رسول الله ﷺ

قبل أن أتحدث عن الحالة الاجتماعية أود أن أقدم بمقدمة موجزة بين يدي هذه المسألة:

الإنسان فيه شهوات، يسعىٰ لتحقيقها، فهناك شهوة الجاه وشهوة المال، وشهوة الرجل للمرأة، وشهوة المرأة للرجل، وشهوة الطعام والشراب.. إلخ، وكل هذه الشهوات تؤثر في سلوك الشخص، لكن بدرجات متفاوتة، وبقدر سلطة العقل علىٰ النفس تنضبط شهواته، فإن كانت سلطة العقل أقوىٰ، حقّق شهواته باتزان، وإن كانت سطوة النفس علىٰ العقل قوية، فإن العقل يَغيب وتستبد النفس في تحقيق شهواتها بغير عدل ولا رَوِيَّة.

وأُمُّ الشهوات كلها شهوة الجاه؛ لأن مقتضياته التفرُّد، ولأن الجاه إذا تحقق، حقق بقية الشهوات الأخرىٰ، ولا يلزم من تحقق الشهوات الأخرىٰ تحقق شهوة الجاه.

وكما أنها أمّ الشهوات، فهي أقواها سطوة وسيطرة علىٰ العقل، ولشهوة الجاه فروع كثيرة، وقد تتحمل النفس ما تكره، لكي يمدحها الناس ويصبح لها جاه

عندهم، حتىٰ ربما تقتحم ما يؤدي إلىٰ الموت لتُمدَح بالشجاعة، فتُحب أن تُمدح ولو ذهبت النفس وهي لم تسمع أصوات المادحين من تقدير وتعظيم وإجلال.

وما أفسد كثير من الناس؛ بل من أتقيائهم، مثل حبّ الجاه؛ فعن كعب بن مالك الأنصاري -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء علىٰ المال، والشرف لدينه»[١].

وجاء في الحديث أن أول من تسعر بهم النار ثلاثة، وهم كلهم طلاب جاه؛ فعن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يُقضَىٰ يوم القيامة عليه رجل استُشهد، فأُتي به فعرّفه نِعمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتىٰ استشهدتُ، قال: كذبت، ولكنك قاتلتَ لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أُمر به فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار، ورجل تعلم العلم، وعلّمه وقرأ القرآن، فأُتي به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلمتُ العلم، وعلمتُه وقرأتُ فيك القرآن، قال: كذبتَ، ولكنك تعلمتَ العلم ليقال: عالم، وقرأتَ القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيل تحب أن يُنفَق فيها إلا أنفقتُ فيها لك، قال: كذبتَ، ولكنك فعلتَ ليُقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أُمر به فسحب علىٰ وجهه، ثم ألقي في النار»[٢].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢٥/ ٨٥) رقم (١٥٤٩٧) وقال محققه: (إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير علي بن إسحاق: وهو السلمي المروزي، فمن رجال الترمذي، وهو ثقة. عبد الله: هو ابن المبارك. وابن كعب بن مالك لم يُسم، فيحتمل أن يكون عبد الله أو عبد الرحمن، وكلاهما ثقة من رجال الشيخين)، وأخرجه الترمذي في سننه (٢٣٧٦) وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٠٥).

تأمل أن الأول بذل حياته، والثاني بذل وقته فتعلّم وعلّم، والثالث بذل ماله، وكلهم طلاب جاه. وأنهم اتفقوا -وإن تعددت الطرق- علىٰ غاية واحدة هي الجاه.

وليس المراد هنا بيان الحكم الشرعي، وإنما تبيين عظم شهوة الجاه في النفوس، إلىٰ درجة أنه يُقَدِّم حياته ليقال شجاع، ومن يقدم حياته لأجل أن يقال شجاع، فهو سيضحي بكل ما يملك للمحافظة علىٰ هذا الجاه، ويبذل وقته ليقال عالم، أو ماله ليقال كريم.

إنها استماتة الناس في سبيل تحصيل الشرف، والحرص عليه والاستعداد للتضحيات الكبيرة في سبيله

وفي هذا المسار نجد أنه من المتعارف المشتهر أن (كلام الأقران يُطوَىٰ ولا يُرْوَىٰ)[1]، ولو كانوا من الاتقياء!! والسبب!! طغيان شهوة الجاه علىٰ النفوس، كلٌّ يريد لنفسه الصدارة، وهي -في نظره- لا تتحقق له إلا بالحطّ من قرينه المنافِس له.

قال ابن عباس رضي الله عنه: (استمعوا علم العلماء، ولا تُصدِّقوا بعضهم علىٰ بعض، فوالذي نفسي بيده لهم أشد تغايُرًا من التيوس في زربها)[2].

وتكلَّم الإمام الذهبي -رحمه الله تعالىٰ- عن أسباب رفض الجرح وعدم الاعتداد به؛ فقال: (ويلتحق بذلك ما يكون سببه المنافسة في المراتب، فكثيرًا ما يقع بين العصريين: الاختلاف والتباين)[3].

والتنافس في الجاه أدىٰ إلىٰ الاقتتال بين الإخوة؛ بل بين الأب وابنه.. والتاريخ شاهد علىٰ صُورٍ من ذلك.

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٧٥).

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (ص ٤٣٥ رقم ١١٨٣).

(٣) لسان الميزان (١/ ١٠٩).

فسطوة الجاه والحرص عليه متأصّلة في النفس، ولكنها في العرب أشد، فهم يتنافسون في الكرم، والشجاعة حتىٰ إن الشخص ليستدين وهو معدم لا يجد قوت يومه، ليكرم ضيفه، ليقال عنه أنه كريم، ويُقدِم في أمور يعلم أن فيها نهايته، كل ذلك حرصًا منه علىٰ السمعة والجاه والصيت، ويتفاخرون في ذلك.

وكانوا في المقابل يحتقرون ويزدرون من ليس له شرف في قبيلته، وأدىٰ بهم ذلك إلىٰ احتقار الموالي والفقراء والنساء.

وكانت قريش قبيلة تتزعم القبائل العربية، وفيها عدد كبير من أصحاب الشرف والجاه، ولهم منزلتهم في قريش وفي العرب، من هؤلاء الوليد بن المغيرة (عم أبي جهل)، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث بن كلدة، أخو بني عبد الدار، وأبو البختري بن هشام، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، والعاص بن وائل السهمي، وكان من حكام قريش، ونبيه ومنبّه ابنا الحجاج السهميان، وأمية بن خلف، وأبو لهب وأبو طالب، وأبي بن خلف، والمطعم بن عدي، وعقبة بن أبي معيط وزمعة بن الأسود، ونوفل بن خويلد بن أسد، والعاص بن هشام بن المغيرة المخزومي (أخو أبو جهل). وغيرهم من أشراف قريش.

وكان النظام السائد بينهم هو النظام القبلي، والرابط بينهم وحدة الدم (النسب) ووحدة الجماعة، وفي ظل هذه الرابطة نشأت قوانين عُرفية تُنظم العلاقات بينهم علىٰ أساس من التضامن، وزعيم القبيلة ترشحه للقيادة منزلته القبلية وصفاته، وخصائصه من شجاعة ومروءة، وكرم ونحوها. ولرئيس القبيلة حقوق أدبية ومادية؛ فالأدبية أهمها: احترامه وتبجيله، والاستجابة لأمره، مهما كان، والنزول علىٰ حكمه وقضائه، بلا منازعة. وأما المادية فقد كان له في كل غنيمة تغنمها (المرباع) وهو ربع الغنيمة، (والصفايا) وهو ما يصطفيه لنفسه من الغنيمة قبل القسمة، (والنشيطة)

وهي ما أُصيب من مال العدو قبل اللقاء، (والفضول) وهو ما لا يقبل القسمة من مال الغنيمة، وقد أجمل الشاعر العربي ذلك بقوله:

لك المرباع فينا والصفايا وحكمك والنشيطة والفضـول

ومقابل هذه الحقوق، واجبات ومسؤوليات، فهو في السلم جواد كريم، وفي الحرب يتقدم الصفوف، ويعقد الصلح، والمعاهدات.

وذكر ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ- أن عثمان بن الحويرث وفد علىٰ قيصر، فأراد قيصر أن يُتَوِّجَه ملكًا علىٰ قريش (وولاه أمر مكة، فلما جاءهم بذلك أنفوا من أن يدينوا لملك، وصاح الأسود بن أسد بن عبد العزىٰ: ألا إن مكة حي لقاح لا تدين[١] لملك، فلم يتم له مراده)[٢].

في هؤلاء وفي هذه البيئة الاجتماعية، بُعث الرسول ﷺ.

في قوم جمعوا الشرك بالله، وعبادة الأصنام الموروث عن آبائهم وأجدادهم، جمعوا مع ذلك، أنهم قوم أشراف وسادة، لهم مكانتهم في العرب، ولكل منهم مكانته في قبيلته وعشيرته، سيد مطاع، يأمر فيجب علىٰ الجميع أن يطيع، بأعراف جاهلية ما أنزل الله بها من سلطان، وشيخ القبيلة أمره تشريع، لا يجوز مخالفته مهما كان، ويجب علىٰ كل فرد في القبيلة أن تذوب شخصيته في شخصية القبيلة.

يقول دريد بن الصمة مصورًا هذا المعنىٰ:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

وقد لخص جعفر بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- في خطبته أمام النجاشي وصف حال الجاهلية التي بُعث فيها الرسول ﷺ فقال: (أيها الملك كنا قومًا أهل

(١) أي لا تخضع للملوك.

(٢) انظر: السهيلي، الروض الأنف (٢/ ٢٣١).

جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف)[1]. والشاهد قوله: (ويأكل القوي منا الضعيف).

في هؤلاء القوم بأعرافهم وتقاليدهم وقوانينهم الاجتماعية الفاسدة، بُعِثَ الرسول ﷺ بتوحيد الألوهية ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

ومن أبرز المعاني الاجتماعية التي تقتضيها دعوة التوحيد: المساواة التامة بين الناس من حيث كونهم من أصل إنساني واحد «الناس بنو آدم، وخَلَقَ الله آدم من تراب»[2]. ومن ناحية المنزلة الاجتماعية فإن التفاضل بين الناس بالتقوىٰ، قال الله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات:١٣]، وقوله ﷺ: «لا فضل لعربي علىٰ عجمي، ولا لعجمي علىٰ عربي، ولا أحمر علىٰ أسود، ولا أسود علىٰ أحمر، إلا بالتقوىٰ»[3].

---

(١) حديث أم سلمة -رضي الله عنها- أخرجه بطوله الإمام أحمد في مسنده (١/ ٢٠٢)، و ٥/ ٢٩٠-٢٩٢، وقال الحافظ الهيثمي في المجمع ٦/ ٢٤-٢٧: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع. وقال عنه أحمد محمد شاكر: إسناده صحيح انظر: مسند الإمام أحمد، تحقيق أحمد شاكر (٣/ ١٨٠)، رقم (١٧٤٠). وأخرجه ابن هشام في السيرة (١/ ٣٤٥)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١١٥)، وانظر صحيح السيرة النبوية لإبراهيم العلي (ص ١٠٦)، وقال: «وسنده صحيح». وهناك رواية أخرى من حديث أبي موسى الأشعري -رضي الله تعالى عنه- رواها أبو داود في سننه رقم (٣٢٠٥)، وضعفها الألباني، وأخرجها الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٣٨) رقم (٣٢٠٨)، وصحح سند هذه الرواية عبد الله الجبرين في كتابه صحيح السيرة النبوية (ص ٣٦٠)، وضعف رواية أم سلمة -رضي الله تعالى عنها-.

(٢) رواه الإمام الترمذي في سننه (٣٢٧٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، من حديث عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنهما-.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده (٣٨/ ٤٧٤) رقم (٢٣٤٨٩)، (تحقيق التركي وزملائه) من حديث أبي نضرة قال: «حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق..». وقال المحقق: «إسناده صحيح».

هل من السهل مواجهة هؤلاء الأقوام الذين نشأوا تلك النشأة، بمثل هذا المعاني التي تلغي الفوارق كلها، إلا التقوىٰ؟! هل يقبل مثل أمية بن خلف أن يقال له: لا فرق بينك وبين بلال إلا بالتقوىٰ؟!

ليس الأمر بالسهل، لقد كان استنكاف زعماء قريش عن الدخول في الطاعة لمحمد ﷺ من أعظم أسباب امتناعهم عن قبول الإسلام، واسمع قول الله -تعالىٰ-: ﴿صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ۝٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ۝٨﴾ [ص:١-٨]. قال الرازي -رحمه الله تعالىٰ- في تفسيره الكبير: (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم، ومعناه أن محمدًا ﷺ كان من رهطهم وعشيرتهم، وكان مساويًا لهم في الأسباب الدنيوية، فاستنكفوا من الدخول تحت طاعته ومن الانقياد لتكاليفه)[1]. لقد كان أصعب الأمور وأشقها عند العربي الطاعة وقبول التبعية لغير شيخ القبيلة التي دان لها أفرادها.

ثم لاحظ أن الذي انطلق هم الملأ؛ أي كبار القوم الذين يخشون علىٰ مناصبهم وجاههم وشرفهم. ويخشون علىٰ أصنامهم، ويحتجون بأن هذا أمر مستحدَث لم يسمعوا به في آبائهم وأجدادهم.

قال ابن إسحاق: (وحدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حدث: أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي، خرجوا يستمعون القرآن دون أن يعلم كُلٌّ منهم بالآخر ثلاث مرات، ثم جاء الأخنس بعد الثلاث إلىٰ أبي جهل؛ فسأله عما سمعه من القرآن فقال: «تنازعنا نحن

(١) الرازي، التفسير الكبير (٢٦/ ٣٦٧).

وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتىٰ إذا تحاذينا علىٰ الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبيّ يأتيه الوحىٰ من السماء؛ فمتىٰ ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه)[1].

كيف يقبل أبو جهل أن يكون تابعًا بعد أن كان زعيمًا متبوعًا؟

ومثله سائر زعماء قريش كيف لهم أن يتخلوا عن زعاماتهم ويصبحوا تبعًا لمحمد ﷺ.

يؤيد ما ذكرت ما رواه الطبري -رحمه الله تعالىٰ- في تفسيره قال: (حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد في قول الله: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ﴾ [المسد:١]؛ قال: (التب: الخسران، قال: قال أبو لهب للنبي ﷺ: ماذا أُعْطىٰ يا محمد إن آمنت بك؟ قال: «كما يعطىٰ المسلمون»؛ فقال: ما لي عليهم فضل؟ قال: «وأي شيء تبتغي؟». قال: تبًّا لهذا من دين تبًّا، أن أكون أنا وهؤلاء سواء)[2].

وقال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (روىٰ الطبراني من حديث معاوية بن أبي سفيان عن أبيه أن أمية بن أبي الصلت قال له: إني أجد في الكتب صفة نبي يُبعَث من بلادنا، وكنت أظن أني هو، ثم ظهر لي أنه من بني عبد مناف. قال: فنظرت فلم أجد فيهم من هو متصف بأخلاقه إلا عتبة بن ربيعة؛ إلا أنه جاوز الأربعين ولم يُوحَ إليه؛ فعرفت أنه غيره. قال أبو سفيان: فلما بُعث محمد قلت لأمية عنه، فقال: أما إنه حقّ فاتبعه. فقلت له: فأنت ما يمنعك؟ قال: الحياء من نساء ثقيف!، أنّي كنت أخبرهن

(١) ابن هشام، السيرة (١/ ٢٧٦). وانظر: الصوياني، الصَّحيح من أحاديث السّيرة النبوية، الطبعة الأولى: (الرياض: مدار الوطن ١٤٣٢) (ص ٥٦).

(٢) تفسير الطبري (٢٤/ ٧١٤). والماوردي، النكت والعيون (تفسير الماوردي) تحقيق السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم (بيروت: دار الكتب العلمية) (٦/ ٣٦٣)، والقرطبي، تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٥٣).

أنّي هو، ثم أصير تبعًا لفتًىٰ من بني عبد مناف)[1].

ومثل هؤلاء أيضًا عبد الله بن أُبي ابن سلول زعيم المنافقين في المدينة، وأبو عامر الفاسق في المدينة أيضًا، قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (وقدم رسول الله ﷺ المدينة وسيد أهلها عبد الله بن أبي ابن سلول ومعه في الأوس رجل هو في قومه من الأوس شريف مطاع أبو عامر عبد عمرو وهو والد حنظلة، الغسيل يوم أُحد، وكان يقال له الراهب. فشقيا بشرفهما وضرهما)[2].

قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (السبب الرابع: مانع الرياسة والملك وإن لم يقم بصاحبه حسد ولا تكبّر عن الانقياد للحق، لكن لا يمكنه أن يجتمع له الانقياد وملكه ورياسته، فيضن بملكه ورياسته كحال هرقل وأضرابه من ملوك الكفار الذين علموا نبوّته وصدقه، وأقروا بها باطنًا وأحبّوا الدخول في دينه، لكن خافوا علىٰ مُلكهم، وهذا داء أرباب الملك والولاية والرياسة، وقلّ من نجا منه إلا مَن عصم الله، وهو داء فرعون وقومه، ولهذا قالوا ﴿ **فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ** ﴾ [المؤمنون:٤٧]؛ أنفوا أن يؤمنوا ويَتّبعوا موسىٰ وهارون -عليهما السلام- وينقادوا لهما، وبنو إسرائيل عبيد لهم)[3].

وقال النووي -رحمه الله تعالىٰ- عن هرقل الذي دعاه الرسول ﷺ ليسلم فلم يستجب: (لا عذر له في هذا؛ لأنه قد عرف صدق النبي ﷺ، وإنما شحّ في الملك ورغب في الرياسة فآثرها علىٰ الإسلام، وقد جاء ذلك مصرحًا به في صحيح البخاري)[4].

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٦/ ٥٨٣).

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية المطبوعة مع الروض الأنف تحقيق السلامي (٥/ ٢٣). باختصار.

(٣) ابن القيم، مفتاح دار السعادة (بيروت: دار الكتب العلمية)، (١/ ٩٧).

(٤) النووي، شرح صحيح مسلم (١٢/ ١٠٧).

إن هذا الأمر ليس بالهين علىٰ النفوس، وخاصة تلك القبائل العربية التي نشأت علىٰ الزعامة، وتبجيل شيخ القبيلة، وتعظيمه، وما يجده هذا الكبير من التوقير، وأي فتنة أعظم من هذه الفتنة؟!

وقد كان الرسول ﷺ يدرك هذا المانع النفسي العظيم، الكامن في النفوس، فكان إذا كاتب الملوك وهو في المدينة يدعوهم للإسلام، يعدهم أنهم إذا قبلوا الإسلام بأن يبقوا في ملكهم[1]. وبعض الزعماء الذين كاتبهم الرسول ﷺ كان يرد ردًّا دون رد، ويشترط أن يكون له نصيب من الوجاهة إذا أسلم[2].

إن الغرض من عرض هذا هو تبيين عِظَم المهمة التي تحملها الرسول ﷺ في مواجهة هؤلاء القوم في مكة في جانبها الاجتماعي، وأن نستوعب معنىٰ قول الله -جل شأنه- لنبيه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ [المدثر:٢]، وقوله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:٥]؛ وأنه سيدعو هؤلاء القوم في مكة إلىٰ توحيد الألوهية، وهم يغرقون في الوثنية.

وسيدعو تلك الزعامات القرشية إلىٰ أن تتخلىٰ عن زعاماتهم وتشريعاتهم الجاهلية، فلا أمر لهم، ولا تشريع، ولا مرباع ولا صفي، كلهم تحت شرع الله سواء،

---

(١) انظر: قصة إرساله عمرو بن العاص إلى جيفر وعبد ابني الجلندي الأزديين، ملكي عمان، فقد ورد في كتابه لهما: «وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما..» إلخ. سليمان الكلاعي الحميري، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، الطبعة الأولى (بيروت، دار الكتب العلمية ١٤٢٠)، (٢/ ١٧).

(٢) انظر: بعث رسول الله ﷺ سليط بن عمرو العامري. وهو أحد الستة. إلى هوذة بن علي الحنفي يدعوه إلى الإسلام وكتب معه كتابًا. فقدم عليه وأنزله وحباه. وقرأ كتاب النبي ﷺ ورد ردًّا دون رد. وكتب إلى النبي ﷺ: «ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله. وأنا شاعر قومي وخطيبهم. والعرب تهاب مكاني. فاجعل لي بعض الأمر أتبعك». انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى (١/ ٢٥٨).

ولا سلطان لهم بعد اليوم، وإنما السلطان هو للوحي المنزَّل من السماء، فيا تُرىٰ، هل سيقبلون؟

هل سيقبلون أن يتركوا أصنامهم؟

هل سيتخلون عن زعاماتهم؟

هل تعتقد أن المهمة سهلة؟

وهل من المتوقع أن يرحبوا بدعوة الرسول ﷺ ويتسابقوا إلىٰ بيعته وهم يعلمون ماذا عليهم أن يفعلوا؟

المبحث السادس

الاستخفاء

بعد نزول آيات المدثر قام رسول الله ﷺ، -كما أُمِرَ - بالدعوة إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-.

ولما لم تنزل بعدُ نصوص تأمر بالجهر بالدعوة، ولما كان قومه ذا عقيدة أساسها عبادة الأصنام والأوثان، وحجتهم إنا وجدنا آباءنا، وأخلاقهم يغلب عليها التسلط، وطباعهم العزة والأنفة، وتشريعاتهم ما أملاه عليهم شيخ القبيلة، ولا سبيل لهم في حل المشكلات بينهم -في الجملة- إذا استعصت إلا السيف، وكانوا مع ذلك متصدرين للزعامة الدينية في جزيرة العرب.

وكانت مكة مركز دين العرب، وكان بها سدنة الكعبة، والقُوَّام علىٰ الأوثان والأصنام المقدسة عند سائر العرب، والوصول إلىٰ المقصود من الإصلاح يحتاج إلىٰ حكمة بالغة في العمل، وعزيمة لا تزلزلها الصعاب والشدائد.

كل ذلك جعل الرسول ﷺ يبدأ دعوته بالاصطفاء، فلا يتحدث إلا إلىٰ من يثق به، لئلا يُفاجأ أهل مكة بما يضر بالدعوة، ويهيجهم عليه.

وكان من الطبيعي أيضًا أن يبدأ الرسول ﷺ بالحديث مع أقرب الناس إليه من أهله وأصدقائه، ومن يتوسم فيه الخير، فأجاب الرسولَ ﷺ أفرادٌ يأتي في مقدمتهم:

١. خديجة بنت خويلد -رضي الله عنها- أم المؤمنين زوج الرسول ﷺ. وقد صدَّقت الرسول ﷺ وآمنت به بعد نزول ﴿ٱقْرَأْ﴾ وقبل نزول ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾.

٢. ورقة بن نوفل الذي يقول عنه رسول الله ﷺ: «لا تسبوا ورقة بن نوفل؛ فإني قد رأيت له جنة أو جنتين»[١]. وقد كانت استجابة ورقة -رضي الله تعالىٰ عنه- وتصديقه للرسول ﷺ بعد نزول ﴿ٱقْرَأْ﴾ وقبل نزول ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، وهذا سبقٌ من خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، ومن ورقة -رضي الله تعالىٰ عنه-، لم أجد أحدًا من أهل السِّير ذكر بهذا السبق سواهما، وهو يدل علىٰ أن عامة السابقين للإسلام كانوا بعد المدثر. والله أعلم.

يقول النووي -رحمه الله تعالىٰ- بعد أن ذكر حديث خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-: (وقول ورقة -رضي الله تعالىٰ عنه-: «ليتني أكون حيًّا..»، وهذا الحديث الذي ذكرته ظاهر في إسلامه واتباعه وتصديقه)[٢].

يقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ- في شأن ورقة -رضي الله تعالىٰ عنه-: (وتوفي بعد هذه القصة بقليل ورقة بن نوفل -رحمه الله تعالىٰ ورضي عنه-؛ فإن مثل هذا الذي صدر عنه تصديقٌ بما وجد، وإيمان بما حصل من الوحي، ونية صالحة للمستقبل، وقد قال الإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ-: حدثنا حسن، عن ابن لهيعة، حدثني أبو الأسود، عن عروة، -رحمهم الله تعالىٰ-، عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-، أن خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- سألت رسول الله ﷺ عن ورقة بن نوفل فقال: «قد رأيته فرأيت عليه ثياب بياض، فأحسبه لو كان من أهل النار لم يكن عليه

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٠٩)، وصححه، ولم يتعقبه الذهبي، وابن حجر في الفتح (٨/ ٧٢٠) وانظر: الألباني، صحيح الجامع، رقم (٧١٩٧)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ٤٠٥، وقال: حديث صحيح. وإبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية (٧١).
وقد سئل الشيخ ابن باز -رحمه الله تعالى-: هل يدعى لورقة بن نوفل ويترحم عليه؟ قال: نعم رضي الله عنه ورحمه»، عبد الله الروقي، الحلل الإبريزية من التعليقات البازية على صحيح البخاري (١/ ١١) الهامش.
(٢) النووي، تهذيب الأسماء واللغات (بيروت: دار الكتب العلمية) (٢/ ١٤٣).

ثياب بياض»، وهذا إسناد حسن، لكن رواه الزهري وهشام عن عروة مرسلًا. فالله أعلم)[١].

ويقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وأسلم القس ورقة بن نوفل، وتمنىٰ أن يكون جذعًا إذ يُخرج رسولَ الله ﷺ قومُه)[٢]. وقال الشيخ محمد بن عثيمين -رحمه الله تعالىٰ-: (ولهذا نقول: أول من آمن به من النساء: خديجة، ومن الرجال: ورقة بن نوفل)[٣]، ولكنه مات مبكرًا جدًّا، مما أوجد خلافًا حول إسلامه، والله أعلم)[٤].

٣. أبو بكر الصديق رضي الله عنه. عن أبي الدرداء رضي الله عنه، في قصة ما حصل بين أبي بكر وعمر -رضي الله تعالىٰ عنهما- من الخلاف، فقال النبي ﷺ: «إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت، وقال أبو بكر صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي» مرتين[٥]. قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (وهذا كالنص علىٰ أنه أول من أسلم رضي الله عنه)[٦].

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ٩)، ومسند الإمام أحمد (٤٠/ ٤٣٠) رقم (٢٤٣٦٧)، وقال محقق المسند: «إسناده ضعيف لضعف ابن لهيعة، وهو عبد الله، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين. وقد روي من بلاغات الزهري، وهو الصواب» وانظر: القسطلاني، المواهب اللدنية (١/ ٢١٧)، وإبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية (٧١)، والصوياني، السيرة النبوية الصحيحة (ص ٥٦).

(٢) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٢١)، وانظر: ابن تيمية، منهاج السنة (٧/ ٢٦)، و (٨/ ٣٨٩)، وابن حجر، فتح الباري (٧/ ١٣٧).

(٣) الشيخ محمد بن عثيمين، شرح العقيدة الواسطية (٢/ ٢٨٠).

(٤) ممن أطال في نقل الخلاف وذكر الأقوال ودراستها بشأن إسلام ورقة بن نوفل، سليمان العودة في كتابه (السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحاق دراسة مقارنة في العهد المكي) (ص ٢٦٩- ٢٧٢).

(٥) صحيح البخاري (٥/ ٥) رقم (٣٦٦١).

(٦) ابن كثير، السيرة النبوية (١/ ٤٣٤).

وعن عمار بن ياسر -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: «رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد وامرأتان، وأبو بكر»[1]. قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وفي هذا الحديث أن أبا بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- أول من أسلم من الأحرار مطلقًا، ولكن مراد عمار بذلك ممن أظهر إسلامه، وإلا فقد كان حينئذ جماعة ممن أسلم، لكنهم كانوا يخفونه من أقاربهم)[2]. وقال: (وقد اتفق الجمهور علىٰ أن أبا بكر أول من أسلم من الرجال)[3].

٤. علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو أول من أسلم من الصبيان. عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-، قال: (كان علي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- أول من آمن من الناس بعد خديجة رضىٰ الله -تعالىٰ- عنها)[4].

وعن عفيف الكندي -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: كنت امرأً تاجرًا، فقدمت الحج، فأتيت العباس بن عبد المطلب -رضي الله تعالىٰ عنه- لأبتاع منه بعض التجارة، وكان امرأً تاجرًا، فوالله إني لعنده بمِنىٰ، إذ خرج رجل من خباء قريب منه، فنظر إلىٰ الشمس، فلما رآها مالت -يعني قام يصلي- قال: ثم خرجت امرأة من ذلك الخباء الذي خرج منه ذلك الرجل، فقامت خلفه تصلي، ثم خرج غلام حين راهق الحلم من ذلك الخباء، فقام معه يصلي. قال: فقلت للعباس: من هذا يا عباس؟ قال: هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخي، قال: فقلت: من هذه المرأة؟ قال: هذه امرأته خديجة ابنة خويلد. قال: قلت: من هذا الفتىٰ؟ قال: هذا

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ٤٦) رقم (٣٨٥٧). قال ابن حجر في الفتح (١/ ٣٠٠) «الأعبد المذكورون هم بلال وزيد بن حارثة وعامر بن فهيرة وأبو فكيهة وياسر والد عمار والمرأتان خديجة وسمية والدة عمار أو أم أيمن».

(٢) ابن حجر، الفتح (٧/ ٢٤).

(٣) ابن حجر، الفتح (٧/ ١٧٠).

(٤) ابن عبد البر، الاستيعاب (٣/ ١٠٩١)، وقال الذهبي في تاريخ الإسلام (٢/ ٣٥٠): «وثبت عن ابن عَبَّاس، قَالَ: أول من أسلم عليّ»، وابن سيد الناس، عيون الأثر (١/ ١٧٩).

علي بن أبي طالب ابن عمه. قال: فقلت: فما هذا الذي يصنع؟ قال: «يصلي، وهو يزعم أنه نبي»، ولم يتبعه علىٰ أمره إلا امرأته، وابن عمه هذا الفتىٰ، وهو يزعم أنه سيفتح عليه كنوز كسرىٰ، وقيصر». قال: فكان عفيف وهو ابن عم الأشعث بن قيس يقول -وأسلم بعد ذلك، فحسن إسلامه-: (لو كان الله رزقني الإسلام يومئذ، فأكون ثالثًا مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه)[1].

٥. زيد بن حارثة مولىٰ رسول الله ﷺ.

٦. قال الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية -رضي الله تعالىٰ عنها-، وكانت ثاني امرأة أسلمت، أسلمت بعد خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، قاله: الكلبي)[2]. وهي زوجة العباس وأم قثم بن العباس -رضي الله تعالىٰ عنهم-.

أما أول من آمن به ﷺ مطلقًا فأكثر الأقوال بل يكاد يكون إجماعًا علىٰ أنه خديجة -رضي الله عنها- وأرضاها-[3].

---

(١) مسند الإمام أحمد (٣/ ٣٠٦) رقم (١٧٨٧) وقال محقق المسند «إسناده ضعيف جدًّا، يحيى بن الأشعث ويقال: ابن أبي الأشعث لم يرو عنه غير محمد بن إسحاق ولم يوثقه غير ابن حبان (٩/ ٢٥١)، فهو في عداد المجهولين، وإسماعيل بن إياس، قال البخاري (١/ ٣٤٥): في حديثه نظر، وأبوه إياس بن عفيف ما روى عنه غير ابنه إسماعيل، وقال البخاري (١/ ٤٤١): «فيه نظر». وأخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٠١) رقم (٤٨٤٢)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه وله شاهد معتبر من أولاد عفيف بن عمرو»، وقال الذهبي في التلخيص: «صحيح»، ورواه ابن عبد البر في الاستيعاب (٣/ ١٢٤١) وقال: «حديث حسن جدًّا»، وانظر: إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية (٧٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٤٠).

(٣) انظر: ابن القيم، جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام ص ١٢٣، والشامي، سبل الهدى والرشاد (٢/ ٤٠٢)، وقال: (قال أبو عمر: اتفقوا على أن خديجة أول من آمن، وقال أبو الحسن بن الأثير: خديجة أول خلق الله أسلم بإجماع المسلمين... وأقره الذهبي، وقال محمد بن كعب القرظي: أول من أسلم من هذه الأمة برسول الله ﷺ خديجة -رضي الله عنها- ... وقال النووي: إنه الصواب عند جماعة من المحققين).

وأحسن ما يقال في ترتيب أوائل من أسلم ما نقله ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ- بقوله: (وقد أجاب أبو حنيفة -رضي الله عنه- بالجمع بين هذه الأقوال بأن أول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر، ومن النساء خديجة، ومن الموالي زيد بن حارثة، ومن الغلمان علي بن أبي طالب -رضي الله عنهم أجمعين-)[١]. أما سابقهم جميعًا فعلمه عند الله -جل شأنه-؛ لأن من كان يُسلم في ذلك الوقت كان يُخفي إسلامه، فقد يعتقد الشخص أنه هو أول من أسلم، وقد سبقه غيره، وهو لا يعلم، ولم أجد نصًّا صحيحًا صريحًا في ذلك فيما تيسر لي الاطلاع عليه، والله أعلم.

وقد يُسلم الشخص، ويسلم آخر بعده، ويكون الثاني أفضل من الأول يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (فقد يتأخر إسلام الرجل ويكون أفضل من بعض من تقدمه بالإسلام كما تأخر إسلام عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- فإنه يقال: إنه أسلم تمام الأربعين، وكان ممن فضله الله علىٰ كثير ممن أسلم قبله)[٢].

وقد نشط هؤلاء السابقون في الدعوة إلىٰ الله في حدود توجيه الرسول ﷺ، فقد أسلم علىٰ يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه جمع من الصحابة منهم: عثمان بن عفان رضي الله عنه، والزبير بن العوام رضي الله عنه، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، وهؤلاء الخمسة الذين أسلموا علىٰ يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه هم من العشرة المبشرين بالجنة.

وفي قصة إسلام طلحة -رضي الله تعالىٰ عنه- يذكر ابن أبي حاتم -رحمه الله تعالىٰ- في تفسيره: (عن محمد بن عثمان المخرمي أن قريشا قالت: قيضوا لكل رجل رجلًا من أصحاب محمد يأخذه، فقيّضوا لأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- طلحة بن عبيد الله، فأتاه وهو في القوم، فقال أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، إلام تدعوني؟

---

(١) ابن كثير، السيرة النبوية (١/ ٤٣٧).
(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٤/ ٤٦٢).

قال: أدعوك إلىٰ عبادة اللات والعزىٰ! قال أبو بكر رضي الله عنه: وما اللات؟ قال: ربنا، قال: وما العزىٰ؟ قال: بنات الله. قال أبو بكر رضي الله عنه: فمن أمهم؟ فسكت طلحة، فلم يجبه. فقال طلحة لأصحابه: أجيبوا الرجل، فسكت القوم، فقال طلحة: قم يا أبا بكر، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله)[(١)].

وكان من أوائل المسلمين: أبو عبيدة عامر بن الجراح ﷺ، وأبو سلمة ﷺ، والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون، وأخواه قدامة وعبد الله، وسعيد بن زيد وغيرهم –رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين–[(٢)].

وجميع هؤلاء أسلموا استخفاء عن أهلهم ومجتمعهم، وكان يجتمع بهم الرسول ﷺ متخفيًا يتلو عليهم ما ينزل عليه من الوحي، ويرشدهم إلىٰ الدين.

أما بيت النبي الكريم ﷺ فقد كان فيه بناته الأربع ونشأن نشأة إسلامية؛ فإن بناته –ﷺ ورضي الله تعالىٰ عنهن– أسلمن مع أمهن خديجة –رضي الله تعالىٰ عنها وعنهن جميعًا–[(٣)]، وكُنَّ صغيرات السن عند البعثة النبوية، فكانت زينب –رضي الله تعالىٰ عنها– كبرىٰ بناته ﷺ في العاشرة من عمرها تقريبًا، وكانت رقية –رضي الله تعالىٰ عنها– في السابعة، أما أم كلثوم –رضي الله تعالىٰ عنها– فكانت في الخامسة،

(١) ابن أبي حاتم، تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٢٨٣).

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٢٦٨-٢٦٩).

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية المطبوعة مع الروض الأنف (٥/ ١٢٧- ١٢٨). وقال الزرقاني –رحمه الله تعالى– في شرحه للمواهب اللدنية بالمنح المحمدية (١/ ٤٦٠): «ولم يذكر بناته ﷺ؛ لأنه لا شك في تمسكهن قبل البعثة بهديه وسيرته، وقد روى ابن إسحاق عن عائشة: لما أكرم الله نبيه بالنبوة أسلمت خديجة وبناته، وكان أبو العاص زوج زينب عظيمًا في قريش فكلمته قريش في فراقها على أن يتزوج مَن أحب مِن نسائهم، فأبى. وفي الشامية أسلمت رقية حين أسلمت أمها خديجة، وبايعت حين بايع النساء، وأم كلثوم حين أسلمت أخواتها وبايعت معهن ا.هـ. وفاطمة لا يُسأل عنها لولادتها بعد النبوة أو قبلها بخمس سنين. والحاصل أنه لا يحتاج للنص على سبقهن للإسلام؛ لأنه معلوم هذا».

وأصغرهن كانت فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، وتبلغ من العمر عامًا واحدًا تقريبًا.

وأما الأبناء فقد مات القاسم صغيرًا قبل البعثة، وعبد الله الطيب وُلِد بعد البعثة ومات كذلك صغيرًا، كما سبق تفصيل ذلك.

وهكذا كان بيته ﷺ بيتًا مؤمنًا خالصًا، ولا شكَّ أن هذا أسهم في تسكين نفسه ﷺ، وأعانه علىٰ طريق الدعوة الشاق.

وقد استمر الرسول ﷺ علىٰ ذلك ما بين ثلاث إلىٰ أربع سنوات، روىٰ ابن سعد عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه قال: (أُمِرَ رسول الله ﷺ أن يصدع بما جاء به من عند الله وأن يبادي الناس بأمره وأن يدعو إلىٰ الله -تعالىٰ-، فدعا في أول ما نزلت عليه النبوة ثلاث سنين مستخفيًا إلىٰ أن أمر بظهور الدعاء. وروىٰ البلاذري عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: دعا رسول الله ﷺ سرًّا أربع سنين)[1].

وفي دلائل النبوة عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُسْتَخْفِيًا سِنِينَ لَا يُظْهِرُ شَيْئًا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ -عز وجل- حَتَّىٰ نَزَلَتْ: ﴿ **فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ** ﴾ [الحجر:٩٤]؛ يَعْنِي أَظْهِرْ أَمْرَكَ بِمَكَّة)[2].

ولي هنا الوقفات التالية:

أولًا: الاستخفاء يقصد بها معنيان: الأول الاستخفاء بالمبادئ، والثاني الاستخفاء بالأتباع. أما الاستخفاء بالمبادئ، فما كان الرسول ﷺ يستخفي بمبادئه، فقد كان من أول يوم بعثته، يعرض دعوة التوحيد القائمة علىٰ إفراد الله -جل شأنه- بالعبادة ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة:٥]، ولا يُخفي منها شيئًا حتىٰ عن أعدائه، فمن جاءه وسأله عن هذه الدعوة أخبره بكل وضوح، فدعوته

(١) الصالحي، سبل الهدى (٢/ ٣٢٢).

(٢) الأصبهاني دلائل النبوة (١/ ٢٧٠ رقم٢٠٣).

واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، ولكن لم يكن يتحدث في البداية عن هذه المبادئ علانيةً أمام الجمهور؛ لأنه لم يُؤمَر بذلك في السنوات الأولىٰ.

أما الاستخفاء بالأتباع، فقد كان الرسول ﷺ لا يُعلن عن مَن تبعه وآمن به، بل قد يأمره بأن لا يُظهر ذلك، خوفًا عليه من الفتنة أو الأذىٰ الذي لا يستطيعه، ولا مصلحة في إعلان الأسماء.

والعديد من الدعوات قامت علىٰ الاستخفاء بالمبادئ فلا يعلنون عن حقيقة مبادئهم وغاية مقاصدهم إلا لخاصة أتباعهم فقط، والظاهر غير الباطن. ولذلك لا يصلح أن يُقاس هذا علىٰ هذا وشتان بينهما.

ثانيًا: كان الاصطفاء فيمن يتحدث إليهم، وتأجيل الخطاب العام أمرًا جوهريًّا مقصودًا في هذه المرحلة، فقد كان الرسول ﷺ لا يتحدث ابتداءً إلا مع مَن يثق به ويوصي بذلك أصحابه، يدل علىٰ ذلك:

١. قصة إسلام أبي ذر -رضي الله تعالىٰ عنه- عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: (لما بلغ أبا ذر مبعث النبي ﷺ، قال لأخيه: اركب إلىٰ هذا الوادي فاعلم لي عِلْم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبيّ، يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله ثم ائتني، فانطلق الأخ حتىٰ قدمه، وسمع من قوله، ثم رجع إلىٰ أبي ذر -رضي الله تعالىٰ عنه- فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلامًا ما هو بالشعر. فقال: ما شفيتني مما أردت، فتزود وحمل شنَّةً -أي قربة ماء- له فيها ماء، حتىٰ قدم مكة، فأتىٰ المسجد فالتمس النبي ﷺ ولا يعرفه، وكره أن يسأل عنه حتىٰ أدركه بعض الليل، فاضطجع، فرآه علي -رضي الله تعالىٰ عنه- فعرف أنه غريب، فلما رآه تبعه فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتىٰ أصبح، ثم احتمل قِربته وزاده إلىٰ المسجد، وظل ذلك اليوم ولا يراه النبي ﷺ حتىٰ أمسىٰ، فعاد إلىٰ مضجعه، فمر به علي -رضي الله تعالىٰ عنه- فقال: أما آن للرجل أن يعلم منزله؟ فأقامه فذهب به معه،

لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء، حتىٰ إذا كان اليوم الثالث، فعاد علي -رضي الله تعالىٰ عنه- علىٰ مثل ذلك، فأقام معه، ثم قال: ألا تحدثني ما الذي أقدمك؟ قال: إن أعطيتني عهدًا وميثاقًا لترشدني فعلتُ، ففعل فأخبره، قال: فإنه حق، وهو رسول الله ﷺ، فإذا أصبحت فاتبعني، فإني إن رأيت شيئًا أخاف عليك قمت كأني أريق الماء، فإن مضيت فاتبعني حتىٰ تدخل مدخلي ففعل، فانطلق يقفوه حتىٰ دخل علىٰ النبي ﷺ، ودخل معه، فسمع من قوله وأسلم مكانه، فقال له النبي ﷺ: «ارجع إلىٰ قومك فأخبرهم حتىٰ يأتيك أمري». قال: والذي نفسي بيده، لأصرخن بها بين ظهرانيهم، فخرج حتىٰ أتىٰ المسجد، فنادىٰ بأعلىٰ صوته: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ثم قام القوم فضربوه حتىٰ أضجعوه، وأتىٰ العباس-رضي الله تعالىٰ عنه- فأكبَّ عليه، قال: ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار، وأن طريق تجاركم إلىٰ الشأم، فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد لمثلها، فضربوه وثاروا إليه، فأكبَّ العباس-رضي الله تعالىٰ عنه- عليه)[1]. فَفِعْلُ علي -رضي الله تعالىٰ عنه- مع أبي ذر -رضي الله تعالىٰ عنه- يدل علىٰ الاستخفاء بهذا الأمر. ولما دخل أبو ذر -رضي الله تعالىٰ عنه- علىٰ رسول الله ﷺ أخبره الرسول ﷺ بمبادئ دعوته بوضوح.

٢. وقصة إسلام عمرو بن عبسة -رضي الله تعالىٰ عنه-: عن أبي أمامة -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: قال عمرو بن عبسة السلمي: كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس علىٰ ضلالة، وأنهم ليسوا علىٰ شيء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارًا، فقعدت علىٰ راحلتي، فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفيًا جُرَءاءُ عليه قومه، فتلطفت حتىٰ دخلت عليه بمكة، فقلت له: ما أنت؟ قال: «أنا نبي»، فقلت: وما نبي؟ قال: «أرسلني الله»، فقلت: وبأي شيء أرسلك، قال: «أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يُشرك به شيء»، قلت له:

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (٥/ ٤٧) رقم (٣٨٦١) واللفظ له. وصحيح مسلم (٤/ ١٩٢٣) رقم (٢٤٧٤).

فمن معك على هذا؟ قال: «حر، وعبد»، قال: ومعه يومئذ أبو بكر، وبلال ممن آمن به، فقلت: إني متبعك، قال: «إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترىٰ حالي وحال الناس، ولكن ارجع إلىٰ أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني»(١).

فقد كان الرسول ﷺ يعبد الله ويدعو إليه مستخفيًا، وإذا سُئل عن مضمون الدعوة أوضحها، وإذا سُئل عن الأتباع لم يخبر.

ثالثًا: إن اختيار الرسول ﷺ الاستخفاء بالدعوة في البداية، لا شك أنه بوحي إلهي، فهو ﷺ يسير في دعوته مضمونًا ومنهجًا وفق ما يُوحَىٰ إليه، والدليل علىٰ ذلك نزول قول الله -تعالىٰ- ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ [الحجر:٩٤]؛ فالذي أمره بالصدع في وقته هو الذي أمره بالاستخفاء في وقته.

رابعًا: مع استحضار أن هذا الاستخفاء كان بتوجيه رباني، فلا يمنع من محاولة معرفة الحكمة في ذلك؛ وقد قال بعض العلماء: إن بدء الرسول ﷺ بالاستخفاء والاصطفاء من أجل:

١. ألَّا يفاجأ أهل مكة بما يهيجهم، ويثيرهم عليه، فيئدوا الدعوة في مهدها.

٢. أن يتكون للدعوة أنصار وأعوان يقفون معها ويحمونها إذا جهر بها الرسول ﷺ وظهر لها أعداء يحاولون القضاء عليها(٢).

(١) صحيح مسلم (١/ ٥٦٩).

(٢) يقول الشيخ محمد العثيمين -رحمه الله تعالى- في فتاوى نور على الدرب: (لا ريب أن من الحكمة أن تكون دعوة الرسول -عليه الصلاة والسلام- في ذلك الوقت سرًّا؛ يأتي إلى الرجل يتوسم فيه الخير ويدعوه إلى الله -سبحانه وتعالى-، وتقع هذه الدعوة من قلبه كل موقع، فيدخل في الإسلام، ويأتي إلى الثاني، وإلى الثالث. والذين دعوا إلى الإسلام وأسلموا كذلك يتصلون بما يتوسمون فيهم الخير والقبول، ويدعونهم إلى الله -سبحانه وتعالى-، وهكذا حتى يكون حوله المجتمع حينئذ يكون من المناسب أن يجهر بالدعوة ويعلنها؛ بأن لديه أعوانًا، فهذا هو السر في أن الرسول -عليه الصلاة والسلام- لم يؤمر بإعلان الدعوة من أول وهلة، وإنما يرجئ الأمر حتى يكون حوله أناس، فهذه هي الحكمة في=

خامسًا: إن هذا الاستخفاء كان استخفاء فرديًّا، في شخص الرسول ﷺ؛ فالرسول ﷺ يرىٰ الواقع، ويأتيه الأمر بالدعوة، وأن يبدأ بالحديث مع أفراد معينين يثق بهم، يتولىٰ هو انتقاءهم ومخاطبتهم، فيما أوحي إليه من أمر التوحيد، وتطبيقًا لذلك تحدث مع خديجة وأبي بكر وعلي وأبي عبيدة وجملة من السابقين الأولين -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين-.

وهنا نلاحظ أنها دعوة فردية انطلقت من الرسول ﷺ، وكان عندما يدعو بهذه الطريقة يوصي أصحابه الذين استجابوا ألَّا يجهروا بشيء؛ لأن الجهر لم يؤمر به حتىٰ الآن.

ولكن هل نقيس علىٰ هذه الحالة ونستشهد بفعل الرسول ﷺ في تطبيق ذلك في عمل الدعاة الآن؟

هذا الكلام في غاية الأهمية فلا يستشهد بفعل من أفعال الرسول ﷺ والظروف مختلفة، وما أكثر ما يقع الشخص في الخطأ نتيجة سوء التطبيق واستخدام الدليل في غير محله.

إن الحكمة في الدعوة إلىٰ الله هي القدرة علىٰ التأسي بالنبي ﷺ في أقواله وأفعاله عند تشابه الظروف. أما إذا اختلفت الظروف فلا يجوز أن نستدل بفعل الرسول ﷺ علىٰ حالة معاصرة تختلف الظروف فيها عن تلك الظروف. فنقع في خطأ منهجي ونحن نحسب أننا علىٰ صواب.

=أن أول الدعوة كان سرًّا، وهكذا ينبغي للداعية إلى الله -سبحانه وتعالى- أن تكون دعوته في مجتمع عامر بالجهل والضلال على هذا النحو، يدعو فلانًا وفلانًا وفلانًا حتى يتكون حوله أناس وتقوى جبهته، وحينئذٍ يعلن ما دعا إليه؛ لأنه لو أعلن ما دعا إليه أول الأمر لحصلت فتنة ومشادات ومنازعات، ولم يتمكن من الوصول إلى مقصوده). موقع الشيخ محمد العثيمين على الشبكة.

والرسول ﷺ كان يعمل بوحي من الله -جل شأنه-، فهو استخفىٰ ثلاث سنوات، ثم نزل عليه الوحي بأن يصدع بالدعوة، ثم خرج للقبائل، ثم خرج للطائف، ثم هاجر للمدينة لما نزل الإذن له بالهجرة، ثم بدأ بالجهاد وفق خطوات يتنزل عليه الوحي بشأنها خطوة، خطوة، وما كان هذا شأنه فلا يصلح أن يسلك الداعية إلىٰ الله هذه الخطوات ذاتها دون فقه، ويطبقها علىٰ مجتمعه الذي يعيش فيه، وما أكثر ما يقع الخطأ بسبب سوء الفهم للسيرة، أو للدليل عمومًا.

سادسًا: يقول -تعالىٰ- عن نوح -عليه السلام-: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح:٥-١٠].

فأنت ترىٰ وصف نوح -عليه السلام- لدعوته بأنه دعاهم ليلًا ونهارًا، لبيان استغلاله لكل الأوقات الممكنة في الدعوة، ثم بيّن طريقته بأنه دعا قومه جهارًا، وأكدها بقوله -عليه السلام-: ثم إني أعلنت لهم، ثم يأتي موضع الشاهد وهو قوله ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، فالإسرار هنا الذي جاء بعد الإعلان لا يمكن أن يكون إسرار مبادئ؛ لأنها سبق أن أُعلنت وجُهر بها، كما هو نص الآية، وإنما المراد إسراره -عليه الصلاة والسلام- لبعض الأشخاص بمزيد تكرار النصح والدعوة سرًّا، كما ينصح العالم أحد الكبراء سرًّا توقيرًا له، فبعض الأشخاص لمنزلته تكون دعوته ونصحه سرًّا أولىٰ من كونها جهرًا، وبالتالي يتضح المراد من قول نوح -عليه الصلاة والسلام- ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾.

سابعًا: يقول الشيخ أبو بكر الجزائري: (لا دليل لمن يرىٰ سرية الدعوة في بلاد المسلمين اليوم من سرية الرسول ﷺ لها ثلاث سنوات؛ لأن الرسول ﷺ وأصحابه كان لا يسمح لهم أن يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولا أن يؤذنوا أو

يصلوا، ولما قويت شوكتهم أمروا بالجهر بالدعوة، فجهروا ولاقوا من الأذىٰ ما هو معروف بين المسلمين)[١].

ثامنًا: عدم تعجل النتائج؛ فالرسول ﷺ وهو المكلف بهذه الدعوة كان المقتضي لحب للدعوة، والحماس لها، والرغبة في استجابة الناس والخوف عليهم أن يجهر بالدعوة من أول يوم، ويدعو كل من يلاقيه في الطريق أو عند الكعبة أو في الاجتماعات. ولكنه كان لا يتحدث إلا لأفراد معدودين مصبِّرًا نفسه، مؤجلًا الحديث العلني الجماعي الذي يحقق نتائج أكثر وأسرع إلىٰ وقت آخر يكون أكثر ملاءمة.

ولا بد أن يدرك الداعية أن الخير والفطرة السليمة موجودة في جميع الناس استنادًا لحديث الرسول ﷺ: «كل مولود يولد علىٰ الفطرة»[٢]، ولكن هذه الفطرة تُحجب بالذنوب والمعاصي، وللوصول إلىٰ هذه الفطرة لا بد من الانتظار والصبر[٣].

وقصة الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالىٰ- في عدم تعجُّله حينما كان يرىٰ الناس يطوفون علىٰ قبر زيد بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه-

---

(١) أبو بكر الجزائري، هذا الحبيب يا محب ص ٩٩.

(٢) صحيح البخاري، المطبوع مع فتح الباري (٣/ ٢٤٥)، حديث رقم ١٣٨٥.

(٣) وقد ضرب لذلك بعض المشايخ مثالًا لهؤلاء فقال: إن من أوقد نارًا ثم تركها حتى خمدت وتجمع أكوام الرماد على أثرها، فإن هناك من يستطيع أن يستخرج من داخل هذا الرماد البارد جمرة صغيرة يستوقدها مرة ثانية؛ لتصبح نارًا، وذلك بأن ينفخ في هذا الرماد قليلاً؛ ليزيل شيئًا من الركام ثم ينتظر، ثم يواصل النفخ مرة أخرى وهكذا حتى تظهر له شرارة صغيرة أسفل الرماد، يضع عليها ورقة صغيرة تشتعل ثم تتحول إلى نار. ولكن من الناس من يتعجل استخراج هذه الجمرة، فينفخ بسرعة وبقوة في الرماد، فيتطاير على وجهه بقايا الرماد، ويتناثر الجمر الذي يمكن الاستفادة منه، وهكذا شأن الدعوة إلى الله، من يتعجل يضر أكثر مما ينفع، ومن يتأنى ويصبر ويعمل على إزالة الرين عن القلوب الذي هو كالرماد حتى يصل إلى جذوة القلب الذي فيه الفطرة السليمة؛ ليحركه نحو هذا النور ويستضيء به، ويقبل عليه فيتحقق للداعي مراده بسبب أنه لم يتعجل النتائج. هذا المثال سمعته من فضيلة الشيخ علي الطنطاوي -رحمه الله تعالى-.

قُرب مدينة الرياض يكتفي بالقول: (الله خير من زيد)، وذلك في بداية دعوته -رحمه الله تعالىٰ-، وهذا من فقهه في الدعوة -رحمه الله رحمةً واسعة-[1].

تاسعًا: فيه هشاشة دين القوم، فما أن قال أبو بكر لطلحة -رضي الله تعالىٰ عنهما-: إلام تدعوني؟ قال طلحة: أدعوك لعبادة اللات والعزىٰ، قال أبو بكر: وما اللات؟ قال: ربنا. قال وما العزىٰ؟ قال: بنات الله.

قال: أبو بكر: فمن أمهم؟ هنا أُسقط في يد طلحة! ولم يجد هو ولا من منعه من قومه جوابًا علىٰ هذا السؤال!! وسبق أن بينت أن العرب يعتقدون في أرواح الملائكة، ويرونهم بنات الله، ويصورون الأصنام علىٰ صورهم ويسمونهم بأسمائهم.

وكان طرح سؤال واحد كافيًا في هدم معتقدهم وبيان فساده، فما كان من طلحة إلا وعرف الحق وبادر بإسلامه، وشهد شهادة التوحيد.

عاشرًا: سبق أن أشرت إلىٰ حال قريش دينيًّا واجتماعيًّا، وما في ذلك من صعوبات بالغة واجهها الرسول ﷺ في دعوة هؤلاء إلىٰ التوحيد، وإصلاح أوضاعهم، وما قابله به زعماء قريش من تكذيب ومعاداة وإيذاء، ولا شك أن هؤلاء السابقين الأولين إلىٰ الإسلام، لم تكن استجابتهم بالأمر الميسور، والمقبول في ذاك المجتمع، ولا المسكوت عنه، ولذلك نالهم نصيب وافر من العداوة والإيذاء، وتحملوا في سبيل ذلك مشقة عظيمة، مما لم يُبتلَىٰ به، ولا قريبًا منه، من أسلم بعد ذلك. وهذا تذكير بفضيلة أولئك السابقين الأولين في الإسلام.

---

(١) انظر: الشيخ عبدالرحمن بن حسن، خمس رسائل في التوحيد والإيمان الرسالة الأولى أصل دين الإسلام وقاعدته، (ص٣٣٩)، مطبوعة ضمن مجموعة التوحيد وقال: (كما جرى لشيخنا محمد بن عبدالوهاب -رحمه الله تعالى- في ابتداء دعوته، فإنه إذا سمعهم يدعون زيد بن الخطاب رضي الله عنه قال: الله خير من زيد تمرينًا لهم على نفي الشرك بلين الكلام؛ نظرًا للمصلحة وعدم المضرة، والله -سبحانه وتعالى- أعلم).

حادي عشر: إن استجابة الشباب للإسلام أكثر من استجابة الشيوخ. فإذا تجاوزنا ورقة بن نوفل[1] -رضي الله تعالىٰ عنه- نجد أن علي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- أسلم وعمره (١٠) سنوات تقريبًا، وأن أبا بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- أسلم وعمره (٣٨ سنة)، وقد أسلم علىٰ يديه خمسة من المبشرين بالجنة، وهم: عثمان بن عفان -رضي الله تعالىٰ عنه- أسلم وعمره (٣٤) سنة. وعبد الرحمن بن عوف -رضي الله تعالىٰ عنه- أسلم وعمره (٣٠ سنة). وسعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالىٰ عنه- أسلم وعمره (١٧) سنة. والزبير بن العوام -رضي الله تعالىٰ عنه- أسلم وعمره (١٦) سنة[2]، وطلحة بن عبيد الله -رضي الله تعالىٰ عنه- أسلم وعمره (١٨) سنة.

وأسلم الأرقم بن أبي الأرقم -رضي الله تعالىٰ عنه- وهو دون العشرين سنة. وأبو عبيدة عامر بن الجراح -رضي الله تعالىٰ عنه- (٣٠) سنة، وعبد الله بن مظعون -رضي الله تعالىٰ عنه- (٢٠) سنة. وسعيد بن زيد -رضي الله تعالىٰ عنه-، أسلم وعمره تقريبًا (١٠و١١) سنة.

واستجابة الفتيان أسرع من استجابة كبار السن للحق، مع أنهم أكمل عقولًا، ولكنهم أكثر عنادًا، وأشد أنفة. وهذا واقع مع عدد من الأنبياء -عليهم السلام-، قال -تعالىٰ-: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ ﴾ [يونس:٨٣] قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (من الذرية وهم الشباب)[3]، وقال

(١) ورقة بن نوفل رجل نصراني قرأ الكتب النصرانية في وقته، فكانت من أسباب هدايته، ولم يكن من أمثال أشياخ قريش الذين أهلكهم قولهم: إنا وجدنا آباءنا، فهو من الأساس رافض لهذا المبدأ الفاسد.

(٢) أخرج إسلام الزبير -رضي الله تعالى عنه- وعمره ١٦ سنة، الهيثمي، مجمع الزوائد (٩/ ١٥١) رقم (١٤٨٣٤)، وقال: رواه الطبراني وهو مرسل صحيح.

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٨٧)، وانظر: ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٣٦١)، والتفسير والبيان لأحكام القرآن للطريفي (٤/ ١٧٠٢).

-تعالىٰ-: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف:١٣]؛ والسبب في ذلك أن الشباب لم يَطُل عليهم الأمد في تقاليد معينة، لم يتشربوا بَعدُ عبادة الأصنام، ولم ينشأوا سنوات عديدة وهم يترددون عليها في صغائر أمورهم وكبائرها، تخيل نفسك تدعو إنسانًا ظل أربعين أو خمسين سنة يدافع عن قضية باطلة ويجاهد من أجلها، ثم تأتي وتقول: إن دفاعك وجهادك السنوات الطوال التي مضت كان كله في باطل، هذا ولا شك صعب، بينما دعوة الشباب أيسر بكثير، فهم لم تتلوث عقولهم بأفكار خاطئة، ومن ثَمَّ كان قبولهم للإسلام أيسر من غيرهم ممن عششت وفرخت في أذهانهم عقيدة الوثنية. يُضاف إلىٰ ذلك، أن الشباب عمومًا مُحبُّون للجديد والتفكير فيه، وقبول الحوار، والاستدلال، والتغيير، فإذا وَجد الشَّباب شيئًا صالحًا جديدًا، فهم -غالبًا- يكونون أقرب إليه من الشيوخ.

وهذا يؤيد ما سبق أن أشرت إليه من توقُّع المشاق العظيمة والمواجهة الشرسة من هؤلاء الأشياخ لهذه الدعوة الجديدة عليهم، التي تنسف أُسُس ما ورثوه من وثنية أبًا عن جد.

وهذا مفيد جدًّا في عصرنا الحاضر، من أن الإصلاح بين الشباب أيسر من الإصلاح بين كبار السن، فكبار السن -غالبًا- استقرت عقولهم علىٰ مُسلَّمات لا يتزحزحون عنها، ولو كانت أعرافًا باطلة أو عادات سيئة، ما داموا نشأوا عليها في مجتمعاتهم سنين طويلة، ولا يحبُّون التغيير، ولا التفكير فيه.

ثاني عشر: كان السبب وراء إسلام هذا العدد علىٰ يد أبي بكر الصديق -بعد توفيق الله-تعالىٰ- هو منزلة أبي بكر في قريش، فهو رجل محبَّب لأهلها، حلو العشرة، كان كريمًا جوادًا تاجرًا موسرًا له علاقاته الواسعة والكثيرة، ذا أخلاق عالية، وأيضًا كان أنسب أهل قريش وأكثرهم علمًا بالوقائع والأيام. وعلم الأنساب من العلوم الرائجة عند العرب قديمًا؛ لشدة حرصهم عليها، وهذه الخصال والمعارف

ساعدت أبا بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- في دعوته، ومثلها كثير مما يستطيع المسلم الاستفادة منه في دعوته إلىٰ الله -تعالىٰ-.

ثالث عشر: ماذا نستفيد من سبق خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- بالإسلام؟ نلحظ أن أول من وُجِّهت له الدعوة الإسلامية هو امرأة، وهي خديجة -رضي الله عنها-، ثم كانت خديجة -رضي الله عنها- أول من استجاب لهذا الدين ودخل في الإسلام، وهذا يعني أن أول من دخل في الإسلام امرأة.

هذا الشرف العظيم شرف البدء بتوجيه الدعوة، وشرف السبق في الاستجابة أراد الله -سبحانه وتعالىٰ- أن يكون من نصيب المرأة، ثم يتبع هذا الشرفَ العظيم، شرفَ السبق، شرفٌ آخرٌ، وهو شرف نُصرة رسول الله ﷺ، فأول من نصر الرسول ﷺ، هو خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- عندما بشّرته وطمأنته وهوّنت عليه ما جرىٰ له في الغار، وأخذته إلىٰ ابن عمها ورقة بن نوفل -رضي الله تعالىٰ عنه-، هذه النصرة كانت في أول أيام البعثة النبوية، واستمرت إلىٰ أن توفيت أم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، فقد كان الرسول ﷺ -في تلك المدة- وحيدًا في مواجهة مجتمع جاهلي، أطبقوا علىٰ التصدي له وإيذائه، ولم يستجبْ له ويدخل معه ﷺ إلا أفرادٌ حاول العديد منهم الاستخفاء من ملئهم، وكانت -رضي الله تعالىٰ عنها- صامدة تُثبّته وتُسخِّر نفسها ومالها لنصرته ﷺ.

وبالإضافة إلىٰ هذا الشرف أيضًا شرف رابع، لا يقل عنه أهمية، وهو شرف الموت في سبيل الله، فأول من مات في سبيل هذا الدين هي سُمية بنت خياط أم عمار -رضي الله تعالىٰ عنها وعن عمار - التي آمنت فعُذِّبت؛ لأجل إيمانها، حتىٰ قتلها عدو الله أبو جهل، فكانت أول شهيدة في الإسلام[1].

(١) انظر: ابن حجر، الإصابة (٨/ ١١٤).

ماذا بقي للرجال بعد ذلك؟ أيقال: إن هذا الدين لا يقيم للمرأة اعتبارًا، وهي أول من دعيت إليه؟ أليس البدء بالمرأة تشريفًا لها؟ أليس سبقها في الاستجابة أيضًا تأكيدًا لهذا التشريف، وإثباتًا أنها جديرة به، وأن المرأة كما أنها كانت مستحقة للسبق في الخطاب، فهي أيضًا تُثبت جدارتها بكونها أول مستجيب، ثم كونها أول نصير للرسول ﷺ، ثم بعد ذلك شرفت بكونها أول من يلقىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ- لأجل هذا الدين، يكفي هذا البرهان برهانًا قاطعًا علىٰ أن للمرأة المكان الرفيع الكريم في هذا الدين الإسلامي، ويكفي ردًّا علىٰ قال خلاف ذلك[1].

فالنساء شقائق الرجال، والميدان في الإسلام متاح لهن للمنافسة والمسابقة والمسارعة للخيرات، وفي النساء من وصلت درجة عالية سامقة في خدمة هذا الدين العظيم.

رابع عشر: جهود أبي بكر الصديق رضي الله عنه في الدعوة: أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي أسلم علىٰ يديه خمسة من العشرة المبشرين بالجنة -كما سبق- وهو فرد واحد، لكنَّه كان نشيطًا في الدعوة إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-.

فقد كان أول من دعا إلىٰ الله من أمة محمد ﷺ[2]؛ مما يدل علىٰ أن الفرد الواحد يمكن أن يعمل ويدعو ويحقق الكثير من النفع، وهذه هي الدعوة الفردية التي يغفل عنها كثير من الناس.

فأساس الدعوة وبدايتها هو الدعوة الفردية التي لا تكلف شيئًا، وإنما تقوم علىٰ الاستفادة من اللقاءات والزيارات والمقابلات، يتحدث فيها فرد مع فرد، ويعرض عليه الدِّين بهدوء وانفراد يتيح مجالًا للحوار، والأخذ والعطاء بعيدًا عن المؤثرات أو العوائق الأخرىٰ.

(١) انظر: مزيد تفصيل: زيد بن عبدالكريم الزيد، كيف أنصف الإسلام المرأة ص ١٤ وما بعدها.
(٢) انظر: ابن تيمية، منهاج السنة (٥/ ٢١).

هذه الدعوة الفردية التي يمكن أن يقوم بها الكبير والصغير، الرجل والمرأة، ويمكن أن تتم في المنزل، وفي الطريق وأمام صاحب المحل التجاري، أو المخبز، أو في وسائل المواصلات أو في المطار أو من خلال الهاتف أو الرسائل، قليلة الجهد عظيمة النفع[1].

(١) استدعى المندوب السامي الفرنسي في الجزائر وقت الاستعمار الشيخ عبد الحميد الجزائري -رحمه الله تعالى-، وقال له: «إما أن تقلع عن تلقين تلاميذك هذه الأفكار، وإلا أرسلت جنودًا لإغلاق المسجد الذي تنفث فيه هذه السموم ضدنا. فأجاب الشيخ عبد الحميد -رحمه الله تعالى-: «أيها المسيو الحاكم إنك لا تستطيع ذلك..»، فاستشاط غضبًا ، وقال: كيف لا أستطيع؟ فقال له: «إذا كنتُ في عرس علّمت المحتفلين، وإذا كنت في مأتم وعظت المعزين، وإذا جلست في قطار علّمت المسافرين، وإن دخلت السجن أرشدت المسجونين، وإن قتلتموني التهبت مشاعر المواطنين، وخير لكم أيها المسيو أن لا تتعرضوا للأمة في دينها ولغتها» انظر : محمود محمد عمارة ، نحو أسلوب أمثل للدعوة الإسلامية ص ٩٢.

المبحث السابع

دار الأرقم(١)

كانت ظروف الدعوة -كما سبق أن أشرت- في بدايتها تقتضي عدم إعلان الدعوة أمام الملأ؛ خوفًا من مشركي قريش أن يسعوا لوأد الدعوة، وهي لا تزال في مهدها، ولذلك كان الرسول ﷺ يوصي أصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم- بعدم المجاهرة أو مواجهة الكفار، فكانوا -رضي الله تعالىٰ عنهم- يُخفون إيمانهم، ولا يجاهرون بشعائرهم، ومن أراد منهم الصلاة ذهب إلىٰ شعاب مكة بعيدًا عن أنظار قريش، إلا أن هذا لم يدم طويلًا، فبينما سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالىٰ عنه- في نفر من أصحاب رسول الله -ﷺ ورضي الله تعالىٰ عنهم- في شِعْب من شعاب مكة؛ إذ ظهر عليهم نفرٌ من المشركين وهم يُصلّون، فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون

(١) الأرقم بن أبي الأرقم، واسم والد الأرقم عبد مناف بن أسد بن عبد اللَّه بن عمر بن مخزوم، يكنى أبا عبد اللَّه. كان من السابقين الأولين، أسلم وهو دون العشرين من عمره، وقيل: أسلم بعد عشرة. وروى الحاكم في ترجمته في المستدرك (٣/ ٥٧٤) رقم (٦١٢٩) أنه أسلم سابع سبعة، وكانت داره على الصّفا، وهي الدار التي كان النبي ﷺ يجلس فيها في الإسلام، وذكر قصة طويلة لهذه الدار، وأن الأرقم حبَّسها، وأن أحفاده بعد ذلك باعوها لأبي جعفر المنصور. وكان رسول اللَّه ﷺ في داره حتى تكاملوا أربعين رجلًا مسلمين، وكان آخرهم إسلامًا عمر -رضي الله تعالى عنه-، فلما تكاملوا أربعين رجلًا خرجوا. ومات الأرقم بالمدينة وهو ابن بضع وثمانين سنة، وذلك عام خمس وخمسين، وصلى عليه سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه- بوصية منه. انظر: ابن حجر، الإصابة في معرفة الصحابة (١/ ١٩٦-١٩٧). والحاكم، المستدرك (٣/ ٥٧٤) رقم (٦١٢٩)، وقال ابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ١٣١): «مخزومي مشهور كبير أسلم في داره كبار الصحابة في ابتداء الإسلام».

حتىٰ قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالىٰ عنه- يومئذ رجلًا من المشركين بلحي بعير فشجه، فكان أول دم هريق في الإسلام[1].

وكان الرسول ﷺ حريصًا علىٰ إيجاد مكان آمن يُعلِّم فيه أصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم-، فاختار الرسول ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي -رضي الله تعالىٰ عنه- للاجتماع فيها، وكانت علىٰ جبل الصفا، وبابها خلفي يدخله الداخل فلا يُرَىٰ، وقد اتخذها الرسول ﷺ مقرًّا للدعوة في وقت مبكر[2] يجتمع فيها الصحابة إلىٰ الرسول ﷺ؛ فيتعلمون منه القرآن الكريم والسنة ويقتدون به.

نقف هنا؛ لنلحظ مدىٰ اهتمام الرسول ﷺ بجمع الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- في مكان واحد؛ لنستفيد ما يلي:

أولًا: يعتبر دخول الرسول ﷺ دار الأرقم حدثًا مهمًّا فاصلًا في السيرة، يقول المقريزي -رحمه الله تعالىٰ-: (المهاجرون أقسام: الذين أسلموا قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، وفي دار الأرقم، والذين أسلموا بعد ذلك..)[3]. فأصبح هذا الحدث أمرًا يؤرَّخ به لأهميته، وهناك فارق بين من أسلم قبل دخول دار الأرقم -رضي الله تعالىٰ عنه-، وبين من أسلم بعد ذلك، فالمُبادِر للإسلام يختلف عمن تأخر، وهذا ظاهر في كتب السيرة، فتجدهم يقولون: فلان أسلم قبل دخول الرسول ﷺ دار الأرقم، أو يقولون أسلم في دار الأرقم، أو يقولون أسلم بعد دار الأرقم -رضي الله تعالىٰ عنه-.

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٢٣٨).

(٢) هناك خلاف في السنة التي دخل فيها الرسول ﷺ دار الأرقم فبعض كتب السير تذكر أنه في السنة الخامسة للبعثة، وبعضها تذكر أنه أثناء استخفاء الرسول صلى الله عليه وسلم بالدعوة أي قبل السنة الثالثة للبعثة. والظاهر أن هذا أقوى والله أعلم. انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣٦٥). والحلبي، السيرة الحلبية (١/ ٤٠٣).

(٣) انظر: إمتاع الأسماع (٩/ ٨٢).

ثانيًا: قال محمد أبو شبهة -رحمه الله تعالىٰ-: (وكان الأرقم -رضي الله تعالىٰ عنه- من السابقين الأولين، وكانت داره منتدًىٰ يجتمع فيه المسلمون، ويعبدون الله سرًّا، ويلقّنهم النبي ﷺ الإسلام وأصوله، ويتعهّدهم بالتربية؛ حتىٰ كوّن منهم رجالًا استطاعوا -بفضل الله تعالىٰ- الصبر علىٰ البلاء العظيم في سبيل دينهم وعقيدتهم، وكان من يريد الإسلام يأتي إليها مستخفيًا خشية أن يناله أذىٰ قريش، وكانت هذه الدار عند الصفا. ومكث رسول الله ﷺ وأصحابه في هذه الدار حتىٰ أسلم الفاروق عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه-؛ فاستعلنوا بعبادتهم، وراغموا أهل مكة، وأذلوهم.

وقد أعطىٰ رسول الله ﷺ الأرقم -رضي الله تعالىٰ عنه- دارًا بالمدينة[1]؛ ولعل هذا مكافأة له علىٰ ما أدّته داره بمكة من خدمة جليلة للإسلام في أول عهده؛ فلله هذه الدار التي فاقت أعظم مدارس العالم وجامعات الدنيا، وخرّجت أعظم رجال عرفهم التاريخ! ولا تزال هذه الدار مفخرة خالدة للأرقم -رضي الله تعالىٰ عنه-، وشذًىٰ يتضوّع إلىٰ يوم القيامة[2].

ثالثًا: مِن جَمْع الرسول ﷺ الصحابة في دار الأرقم، نأخذ أهمية التربية، فلا يكفي في التعليم الاعتماد علىٰ قراءة النصوص، بل لا بد من أن يصاحبها تربية بالعمل والقدوة الحسنة، وهذا مهم في تربية الأولاد، والطلاب في المدارس، وحِلق العلم، لا بد أن يكون الأب قدوة حسنة لأولاده، والداعية قدوة حسنة للمدعوين، والمعلم قدوة حسنة لطلابه ومعلمًا بالأعمال، لا بالأقوال فقط.

رابعًا: الاجتماع علىٰ الخير اجتماع مبارك، فيه التعاضد والتعاون لتحقيق مصالح عامة وخاصة، ولا بد للمسلم من مجالس خير يزكّي نفسه، ويقوّي إيمانه،

---

(١) انظر: الحاكم، المستدرك (٣/ ٥٧٤) رقم (٦١٢٩).

(٢) انظر: أبو شهبة، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة (١/ ٢٨٩) بتصرف يسير.

وتأثير هذه المجالس الخيِّرة علىٰ القلوب صلاحًا أقوىٰ من تأثير النصوص المجردة بكثير، ولذلك ينبغي للمسلم أن يحرص علىٰ حضورها لينال منها السلوك والعلم والبركة.

خامسًا: أهمية صلاة الجماعة في المسجد، فشتان بين صلاة الفرد في منزله وحيدًا وصلاته مع إخوانه المسلمين، يتعلم منهم الكيفية العملية للصلاة، وينمو بينهم السلوك الحسن والخُلق الجميل، فبالإمكان أن يدع الرسول ﷺ أصحابه كلًّا منهم يؤدي عباداته بمفرده، ولكن هذا لا يحقّق قيام المجتمع المسلم المترابط، ومبادرة الرسول ﷺ إلىٰ هذا الأمر تدل علىٰ وجوب صلاة الجماعة في المسجد مع المسلمين[1]. ولستُ هنا في مجال تقرير الحكم الشرعي، فمكان هذا كُتُب الفقه، ولكنَّ الهدف تبيين مغزىٰ عظيم وفائدة لا تتحقق إلا من خلال الصلاة جماعة في المسجد، ولا يشعر بذلك إلا من حافظ علىٰ الصلاة جماعة في المسجد، ثم طرأ عليه عذر عاقه عن جماعة المسجد لمدة محددة، أو سافر سفرًا قصيرًا إلىٰ بلد لم يتمكن فيه من صلاة الجماعة، فسيجد الفارق واضحًا بين صلاته في المنزل وصلاته جماعة في المسجد، والله هو الهادي إلىٰ سواء السبيل.

سادسًا: أهمية الصحبة الصالحة في حياة المسلم؛ إذ هو بحاجة إلىٰ صحبة صالحة تُذكّره إذا نسي، وتُعلّمه إذا جهل، وتنبّهه إذا غفل، وقد قال رسول الله ﷺ: «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يُحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة»[2]، ولذلك حَرِيٌّ بالآباء والمربين أن

---

(١) انظر كتابًا مهمًّا قيّمًا للأستاذ الدكتور/ فضل إلهي، أهمية صلاة الجماعة في ضوء النصوص وسير الصالحين، أوضح فيه أن إقامة الصلوات الخمس مع الجماعات في المساجد من أوكد العبادات.

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٢٦)، رقم (٢٦٢٨).

ينتبهوا جدًّا لجلساء أبنائهم وتلاميذهم.

سابعًا: أهمية الترابط والتواصل بين المسلمين، ويتأكد هذا بخاصة إذا كانوا في بلاد الغربة بين مجتمع لا يدين بالإسلام، فعلىٰ هؤلاء مسؤولية الاهتمام بالاجتماع فيما بينهم تعاونًا علىٰ الخير، وتثبيتًا علىٰ طريق الهدىٰ، وتقوية لأواصر الأخوة، ومحافظة علىٰ الإيمان في القلوب من أن يخبو أو يضعف، عندما تكون الغالبية المحيطة بالمسلم فئة كافرة، والخبث إذا كثر له تأثيره البالغ.

ثامنًا: أهمية الشورىٰ في الإسلام؛ فقد كانت دار الأرقم بالإضافة إلىٰ كونها مكان تعليم وعبادة، فهي أيضًا دار شورىٰ، يستشير فيها الرسول ﷺ أصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم- فيما يستجدّ من أحداث تتصل بالدعوة، ويرغب الرسول ﷺ في معرفة آرائهم في ذلك.

تاسعًا: تبرع الأرقم -رضي الله تعالىٰ عنه- بداره يُذكّرنا بأهمية الأوقاف والتبرعات الخيرية سواء ما كان فيها لنصرة الدعوة الإسلامية، ونشر الدين الإسلامي، أو تبرعات لفقراء المسلمين من مدارس ودور أيتام ومستشفيات ونحوها، وكلها أعمال خيرية تبقىٰ لصاحبها، ويكفي أن دار الأرقم لا تزال تحمل ذِكْرًا حسنًا له رغم مرور أكثر من ١٤٠٠ سنة علىٰ هذا العمل المبارك، ولا تزال الألسن تَشكره وتُثني عليه به.

الفصل الثالث

فقه السيرة من قول الله -تعالىٰ-:

﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾

إلىٰ قول الله -تعالىٰ-:

﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ ﴾

المبحث الأول

الصدع بالدعوة

مرت ثلاث سنوات علىٰ الدعوة، وهي لا تزال فردية لا يعلنها الرسول ﷺ علىٰ الملأ، ثم نزل علىٰ الرسول ﷺ الأمر بالصدع بالدعوة، أُمِر أن يُعلن دعوته، وأنه نبيّ مرسل، ولم يجهر بأسماء الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-، ولا بمن اتبعه واستجاب له، ولا كيف اتبعوه، بل بقي هذا سرًّا لا يُعلَن؛ خوفًا علىٰ مَن استجاب مِن إيذاء الكفار واعتداءاتهم.

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (ثم دخل الناس في الإسلام أرسالًا من الرجال والنساء، حتىٰ فشا ذِكْر الإسلام بمكة، وتُحُدِّث به. ثم إن الله -عز وجل- أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه، وأن يبادي الناس بأمره، وأن يدعو إليه، وكان بين ما أخفىٰ رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلىٰ أن أمره الله -تعالىٰ- بإظهار دينه ثلاث سنين -فيما بلغني- من مبعثه؛ ثم قال الله -تعالىٰ- له: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر:٩٤]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤][(١)].

وكان أول ما نزل بشأن إعلان الدعوة هو قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤]؛ عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ قام رسول الله ﷺ فقال: «يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئًا، سلوني من مالي ما شئتم»[(٢)].

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٢٣٧).

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (١/ ١٩٢)، رقم (٣٥٠).

وعن أبي موسىٰ الأشعري -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: لما نزل ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ وضع رسول الله ﷺ أصبعيه في أذنيه فرفع من صوته فقال: «يا بني عبد مناف! يا صباحاه!»[1].

وعن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، صعد النبي ﷺ علىٰ الصفا، فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي» -لبطون قريش- حتىٰ اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟» قالوا: نعم، ما جرّبنا عليك إلا صدقًا، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»؛ فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: ١-٢][2].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: لما أنزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشًا فاجتمعوا، فعَمَّ وخَصَّ، فقال: «يا بني كعب بن لؤي أنقِذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب، أنقِذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس، أنقِذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف، أنقِذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقِذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب، أنقِذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة، أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئًا، غير أن لكم رحمًا سأبلّها

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٧/ ١٨٦) رقم (٣١٨٦). وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه من حديث أبي موسى، وقد رواه بعضهم عن عوف عن قسامة بن زهير عن النبي ﷺ مرسلًا، ولم يذكر فيه عن أبي موسى، وهو أصح؛ ذاكرتُ به محمد بن إسماعيل، فلم يعرفه من حديث أبي موسى -رضي الله تعالى عنه-». وقال عنه الألباني: حسن صحيح.

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري (٦/ ١١١) رقم (٤٧٧٠)، وصحيح مسلم (١/ ١٩٣) رقم (٢٠٨).

ببلالها[(١)]»[(٢)].

وعن علي بن أبي طالب ﵁ قال: (جمع رسول الله ﷺ بني عبد المطلب، فيهم رهط كلهم يأكل الجذعة[(٣)] ويشرب الفرق[(٤)]؛ قال: فصنع لهم مُدًّا من طعام فأكلوا حتىٰ شبعوا، قال: وبقي الطعام كما هو لم يُمَسّ، ثم دعا بغمر[(٥)] فشربوا حتىٰ رووا، وبقي الشراب كأنه لم يُمَسّ، أو لم يُشْرَب، فقال: «يا بني عبد المطلب إني بُعِثْتُ لكم خاصة وإلىٰ الناس عامة، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم، فأيكم يبايعني علىٰ أن يكون أخي وصاحبي؟». قال: فلم يقم إليه أحد! قال: فقمت إليه، وكنت أصغر القوم، قال: فقال: اجلس، ثلاث مرات، كل ذلك أقوم إليه فيقول لي: اجلس، حتىٰ كان الثالثة ضرب بيده علىٰ يدي)[(٦)].

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (١٠/ ٤٢٢): «قال النووي ضبطنا قوله ببلالها بفتح الموحدة وبكسرها وهما وجهان مشهوران... قلت بالكسر أوجه فإنه من البلال جمع بلل.. والبلال بمعنى البلل وهو النداوة، وأطلق ذلك على الصلة كما أطلق اليبس على القطيعة؛ لأن النداوة من شأنها تجميع ما يحصل فيها وتأليفه بخلاف اليبس فمن شأنه التفريق».

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٨/ ٥٥١)، رقم (٤٧٧١)، وصحيح مسلم (١/ ١٩٢)، رقم (٣٤٨) واللفظ له.

(٣) الجذعة لغة: من الضأن أو الماعز ما تم له سنة أو أكثر السنة، أما في الاصطلاح الشرعي ففيه تفصيل، انظر: سعدي أبو جيب، القاموس الفقهي لغة واصطلاحًا (ص ٥٩).

(٤) الفرق بفتح الفاء والراء: مكيال يسع ستة عشر رطلًا وهو اثنا عشر مُدًّا، أو ثلاثة آصع عند أهل الحجاز، انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث (٣ / ٤٣٧)، وهذا يعني أنه إناء كبير يكفي لإرواء الجمع من الناس.

(٥) الغمر بضم الغين المعجمة، وفتح الميم: القدح الصغير، انظر: البناء، بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني (٢٠/ ٢٢٤).

(٦) رواه الإمام أحمد في المسند، انظر: البناء، الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد (٢٠ / ٢٢٣)، وقال البناء: (أورده الهيثمي مطولًا، وقال رواه البزار واللفظ له، وأحمد باختصار، والطبراني في الأوسط باختصار أيضًا، ورجال أحمد وأحد إسنادي البزار رجال الصحيح غير شريك وهو ثقة) بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني (٢٠/ ٢٢٤)، وانظر: السيرة النبوية الصحيحة للصوياني ص ٧٢، وقال فيها: إسناده قوي.

وتذكر كتب السير (أن الرسول ﷺ دعا عشيرته من بني هاشم وبني عبد المطلب لوليمة، حضرها أبو لهب، وتكلم قبل أن يتكلم الرسول ﷺ قائلًا: هؤلاء عمومتك، بنو عمك، فتكلم ودع الصباة، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة، وأنا أحقّ من أخذك فحسبك بنو أبيك، وإن أقمت علىٰ ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وتمدهم العرب، فما رأيت أحدًا جاء علىٰ بني أبيه بِشَرّ مما جئتَ به، فسكت رسول الله ﷺ ولم يتكلم في ذلك المجلس، ثم دعاهم ثانية، وقال: «الحمد لله أحمده وأستعينه، وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ثم قال: إن الرائد لا يكذب أهله، والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله ﷺ إليكم خاصة وإلىٰ الناس عامة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، وإنها الجنة أبدًا، أو النار أبدًا»، فقال أبو طالب: ما أحب إلينا معاونتك وأقبلنا لنصيحتك، وأشد تصديقنا لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم غير أني أسرعهم إلىٰ ما تحب، فامضِ لما أُمرت به، فو الله لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أن نفسي لا تطاوعني علىٰ فراق دين عبد المطلب، فقال أبو لهب: هذه والله السوأة، خذوا علىٰ يديه قبل أن يأخذ غيركم، فقال أبو طالب: والله لنمنعه ما بقينا)[١].

قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وأقام ﷺ بعد ذلك ثلاث سنين يدعو إلىٰ الله -تعالىٰ- مستخفيًا، ثم نزل عليه: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الحجر:٩٤]، فأعلن ﷺ بالدعوة وجاهَر قومه بالعداوة، واشتد الأذىٰ عليه وعلىٰ المسلمين)[٢]. وما زال الرسول ﷺ مستخفيًا حتىٰ نزلت عليه هذه الآية[٣].

---

(١) انظر: الشامي، سبل الهدى والرشاد (٢/ ٤٣١ - ٤٣٣) باختصار وتصرف.

(٢) ابن القيم ، زاد المعاد (١/ ٨٦).

(٣) انظر: الرازي، التفسير الكبير (١٠/ ٢١٥).

نقف مع هذا الدرس من السيرة؛ لنأخذ منه ما يلي:

أولًا: الرسول ﷺ أمضىٰ ثلاث سنوات مستخفيًا يدعو إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-، ثم بعد ذلك أعلن دعوته، وجهر بها لعشيرته أولًا، ثم لأهل مكة من قريش الذين دعاهم وهو علىٰ جبل الصفا، فهو قد انتقل من مرحلة الاستخفاء بالدعوة أو الاصطفاء والاختصاص بالدعوة، إلىٰ خطوة أخرىٰ، وهي الإعلان للأقارب، ثم الإعلان لقبائل قريش، وستأتي خطوات نشير إليها في محلها.

ثانيًا: بقاء الرسول ﷺ يدعو إلىٰ الله مستخفيًا ثلاث سنوات، ثم جهر بالدعوة، هذه المدة وقع تحديدها بأمر من الله -جل شأنه- وفقًا لتلك الحال المعينة، وليست تشريعًا، وبالتالي فهي ليست شرطًا، ولا مقصودة، ولا يصح التعبُّد بقصد تلك المدة، ومثلها مثل الكثير من المدد التي وقعت في السيرة كخروجه إلىٰ الطائف، أو كهجرته ﷺ إلىٰ المدينة.

ثالثًا: نلاحظ أن الرسول ﷺ يُقرّر أمرًا مهمًّا، وهو أن العشيرة والقرابة لا تنفع في الآخرة، وهذا علىٰ خلاف ما تعوّده العرب من الاعتزاز والانتصار بالعشيرة علىٰ الحق والباطل، فهو من الآن يبدأ بهدم أحد المعتقدات الجاهلية الراسخة لديهم.

رابعًا: أنه بدأ بنفسه فأخبرهم علنًا أن لا عمّه ولا عمّته ولا بنته ستستفيد منه شيئًا يوم القيامة؛ بسبب القرابة، رغم محبته لهم، وحرصهم عليهم، ثم أرشدهم إلىٰ ما ينفعهم، وهو الاستجابة لله -سبحانه وتعالىٰ-.

خامسًا: إن الآية تقول ﴿وَأَنذِرْ﴾ ولم تقل (وبَشِّر)، فالشخص مُتَّهم بتبشير أقاربه، وعندما يقول: ﴿وَأَنذِرْ﴾ فهو يُعْلِمُهم من الآن، ويُخوّفهم بأن لا يتكلوا علىٰ قرابة ولا علىٰ غيرها، وأن من اتكل علىٰ القرابة فسيهلك فلا بد من العمل حتىٰ ينجو الشخص من النار. ونجد أن الرسول ﷺ يكرر «أنقذوا أنفسكم من النار»، وهو ينادي أقاربه، تأكيدًا للترهيب والتخويف.

سادسًا: إن لكل مقام مقالًا، فهنا نجد أن الرسول ﷺ سلك أسلوب التخويف والترهيب، ذاكرًا العذاب الشديد، وإنقاذ الشخص نفسه من النار. وهذا الأسلوب ورد في قوله ﷺ لعشيرته وأهل مكة عندما اجتمعوا حيث قال: «إني لكم نذير بين يدي عذاب شديد».

فلا بد أن يُذَكَّر الناس بهذه الحقيقة، وهي الإنذار بالعذاب والإنذار بشدة الحساب، في مقامه المناسب، فمن استجاب يُبَشَّر بموعود الله -سبحانه وتعالىٰ- للمستجيبين.

سابعًا: إن (السر في الأمر بإنذار الأقربين أولًا، أنَّ الحُجّة إذا قامت عليهم تعدَّت إلىٰ غيرهم وإلا فكانوا عِلَّة للأبعدين في الامتناع، وألَّا يأخذه ما يأخذ القريب للقريب من العطف والرأفة فيحابيهم في الدعوة والتخويف؛ فلذلك نص له علىٰ إنذارهم)[1].

ثامنًا: في قوله -تعالىٰ-: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ تنبيه لحقوق الأقارب، وقد جاءت نصوص قرآنية كثيرة تؤكد علىٰ أولوية حقوق الأقارب؛ قال -تعالىٰ-: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [البقرة:٨٣]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة:١٧٧]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء:٢٦]، وقال -تعالىٰ-: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم:٣٨]، فنلاحظ أن هذه النصوص تؤكد علىٰ حقوق الأقارب المالية؛ بل

---

(١) ابن حجر، الفتح (٨/ ٥٠٣). وقال ابن هبيرة -رحمه الله تعالى- في الإفصاح (٦/ ١٢٥): «وفيه من الفقه أن النذارة قائمة في طرف التخويف؛ إزاء البشارة في طرف الإيمان بقوله سبحانه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، يعني جل جلاله أن أنذر عشيرتك الأقربين أن تكونوا أول جاحد بحقك. قال: وأول كافر بما أنزل عليك؛ فإنه لا عذر لمن كفر بما جئت من أباعد الناس عنك، فكيف بأقربهم إليك».

وتقدمها علىٰ اليتامىٰ والمساكين وابن السبيل، فمجرد القرابة يوجد هذا الحق المالي، وبه يتقدم علىٰ حق المسكين واليتيم، وهذا يغفل عنه كثير من الناس. فيُقَدِّمون المسكين أو اليتيم وينسون القريب ويظنون أن القريب ليس له حق إلا إذا كان فقيرًا، والقريب إذا كان فقيرًا فقد اجتمع فيه حقان؛ حق القرابة، وحق الفقر. وإذا لم يكن فقيرًا، ففيه حق القرابة، وحق القرابة أولىٰ من حق الفقير البعيد.

وكذلك لا نغفل عن حق القريب في تذكيره ودعوته، فليس الحق فقط حقًّا ماليًّا؛ فقد بدأ الرسول ﷺ مع أقاربه في الدعوة، وفي ذلك توضيح لدرجات مسؤوليات الشخص التي تبدأ من الأهل والأقارب، فالشخص مسؤول عن أهله؛ زوجته، وأولاده، ووالديه، وأقاربه، أخذًا من قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤]، ومع ذلك تجد بعض الأفراد يُقَصِّر في حق أهله وينشط مع غيرهم، وهذا قَفْزٌ وتجاوزٌ لدرجات المسؤولية.

ثم خُتمت آيات إنذار الأقارب بقول الله -تعالىٰ-: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [الشعراء: ٢١٧]؛ لا يهمك عداوة أقاربك لك بسبب دعوتك، بل توكل علىٰ الله، واعتمد عليه، ولا تجامل أقاربك رجاء نصرة أو عون.

تاسعًا: في نداء الرسول ﷺ لعدد من القبائل في قريش تفسير لمعنىٰ القرابة الواردة في قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]؛ فقد قال الرسول ﷺ: «يا بني فهر، يا بني عدي، يا بني كعب بن لؤي». يقول العيني -رحمه الله تعالىٰ-: (ففي هذا الحديث أنه دعا معهم بني أبيه السابع لأب محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي) [١]. والنداء لبني كعب ورد في حديث أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه-، لكن

(١) العيني، نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار، تحقيق ياسر بن إبراهيم، الطبعة الأولى (قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ١٤٢٩)، (١٦/ ٢٠٨).

ورد في حديث ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- أنه نادىٰ «يا بني فهر»، وفهر جدٌّ لـ(لؤي)، فيكون وصل إلىٰ الجد العاشر[1].

عاشرًا: وقفت عند مسألة مناداة الرسول ﷺ لابنته فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، الثابت في حديث أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه-، ولما كان هذا النداء -كما يظهر- في نهاية السنة الثالثة من البعثة، وهذا يعني أن فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها- كان عمرها قرابة خمس سنوات، فكيف ناداها الرسول ﷺ؟

يقول الدكتور موسىٰ شاهين لاشين -رحمه الله تعالىٰ-: (ويشكل علىٰ الحديث نداء فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، وهي لم تكن بالغة بحيث تُخاطَب بالأحكام؟ ويمكن أن يُجَاب علىٰ هذا الإشكال بأن نداءها لم يكن لتكليفها بالأحكام، وإنما ليُعْلِن لقريش أنه لا يملك لها شيئًا عند الله إن لم تعمل لنفسها بعد بلوغها، وإن كان يملك أن يعطيها من ماله ما تسأل)[2].

أما المباركفوري -رحمه الله تعالىٰ- فيرىٰ تأخر القصة ويقول: (وفي نداء فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها- يومئذ أيضًا ما يقتضي تأخر القصة؛ لأنها كانت حينئذ صغيرة أو مراهقة)[3].

ولكن حديث أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- الثابت في الصحيحين جاء فيه لما أنزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾؛ دعا رسول الله ﷺ قريشًا فاجتمعوا، فعَمَّ وخصَّ، وفيه قال «يا فاطمة أنقذي نفسك من النار»؛ وهذا يُشْعِر بأن

---

(١) لمزيد من التفصيل عن معنى الأقارب والمراد بهم وحقوقهم يمكن الرجوع إلى كتابي (الأقارب: من هم، منزلتهم، حقوقهم)، وهو من منشورات دار التدمرية بالرياض، وموجود نسخة إلكترونية له.

(٢) موسى لاشين، فتح المنعم شرح صحيح مسلم، الطبعة الأولى (القاهرة: دار الشروق ١٤٢٣)، (٢ / ٤٥).

(٣) المباركفوري، تحفة الأحوذي (٦/ ٤٩٣).

القصة كانت مُقارِنةً لنزول الآية، مما يُرجّح قول الأستاذ موسىٰ لاشين -رحمه الله تعالىٰ-، والله أعلم).

حادي عشر: مما يلفت النظر أن الرسول ﷺ نادىٰ فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، ولم يرد فيما اطلعت عليه، أنها نادىٰ بقية بناته الأخريات؛ وهن زينب ورقية وأم كلثوم -رضي الله تعالىٰ عنهن- مع أن من المعلوم أن فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها- أصغرهن!

وفيها هذا يقول الدكتور موسىٰ لاشين -رحمه الله تعالىٰ-: (وفاطمة-رضي الله تعالىٰ عنها- كانت أصغر أولاده، وللصغير زيادة محبَّة، فإذا انتفىٰ نفعه لمن يُحب من أقاربه، ومن يحرص علىٰ نفعه، انتفىٰ عن غيره من باب أولىٰ)[1]. ويقول رشيد الكنكوهي -رحمه الله تعالىٰ-: (قوله «يا فاطمة بنت محمد إلخ» لعله ﷺ ذكر بناته الأُخَر، لكن الراوي لم يَذكر، ويمكن أن يكون تركها في أصل نداء النبي ﷺ؛ لأنه لما أنذر ابنته فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها- وكانت صغرىٰ بناته -ﷺ ورضي الله تعالىٰ عنهن-، وكانت لم تبلغ بعد؛ عُلِم حالهن وأنهن مُنْذَرات أيضًا، وإن لم يصرح بهن في النداء). ورجح الجواب الثاني محقّق الكتاب محمد زكريا الكاندهلوي - كما يظهر- في الهامش[2].

ثاني عشر: يقول -تعالىٰ-: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤]، ما هو الصدع؟ تقول: انصدع الجبل، أو الجدار: إذا انشق، فالصدع فيه معنىٰ القوة والصلابة والوضوح، وهكذا يكون المسلم حينما يدعو إلىٰ ربه دعوة الواثق من قوله

(١) موسى لاشين، فتح المنعم شرح صحيح مسلم، الطبعة الأولى (القاهرة: دار الشروق ١٤٢٣)، (٢ / ٤٥).

(٢) رشيد أحمد الكنكوهي، الكوكب الدري على جامع الترمذي. جمعها ورتبها: محمد يحيى بن محمد إسماعيل الكاندهلوي (المتوفى: ١٣٣٤ هـ). تحقيق محمد زكريا بن محمد يحيى الكاندهلوي (الهند: مطبعة ندوة العلماء ١٣٩٥)، (٣/ ٢٣٣-٢٣٤).

الذي يعلو بها ويرفع بها صوته، لا يخجل ولا يستحيي من عرض دينه أو الحديث عنه.

إن بعض الشباب المسلم تجده ضعيف الثقة بدينه، يستحيي من الدعوة إلىٰ الله، يخشىٰ مخالفة الناس فيما هم عليه. يشعر بالخطأ والتقصير، لكنه لا يستطيع المواجهة.

يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- بعد أن صنَّف الناس إلىٰ أربعة أصناف: (من وجد أُنْسه بالله في الخلوة وفي الناس فهو المُحِبّ الصادق، ومن وجد أُنسه بين الناس وفقده في الخلوة فهو معلول، ومَن فقده في الناس وفي الخلوة فهو ميت مطرود، ومن فقد أُنسه بالله بين الناس ووجده في الوحدة فهو صادق ضعيف)[1].

إن الحديث هنا عن هذا الصادق الضعيف الذي نريد أن نذكره بقوله -تعالىٰ-: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]؛ هل معنىٰ الصدع أن يستحيي من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يستحيي من الدعوة إلىٰ الله؟

وإني لأعجب من تلك العزة الإيمانية التي بدت جلية لسحرة فرعون، جاؤوا في البداية يُناصِرون فرعون ويعادون موسىٰ -عليه السلام-، لكن لما ألقوا حبالهم وعِصيهم، وتبين لهم الحق، ماذا جرىٰ بعد ذلك؟ آمنوا به!! لكن ليس إيمان الضعفاء؛ قال -تعالىٰ-: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذًا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطۡمَعُ

(١) ابن القيم، الفوائد (ص ٤٣).

﴿أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٤١-٥١]. هكذا آمنوا إيمان القوي الواثق من دينه، فما كانوا مؤمنين ضعفاء يستحيون من دينهم، وكأنهم على باطل وغيرهم على الحق.

ثالث عشر: في قوله -تعالىٰ-: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر:٩٤]؛ توجيه للمسلم وهو يدعو إلىٰ الله -جل شأنه- ألَّا يهتم ولا يلقي بالًا، بما يقوله الخصوم والأعداء؛ اعتراضًا علىٰ دعوته إلىٰ الله؛ لأن الالتفات إلىٰ هؤلاء تضييع لوقت ثمين، وانشغال بما لا يفيد، وفي مضمون ذلك، التوجيه بالاستمرار في العمل لهذا الدين دون توقُّف أو التفات لتلك العقبات التي يصنعها خصم أو عدو.

يقول الرازي -رحمه الله تعالىٰ-: (لا تُبَالِ بهم، ولا تلتفت إلىٰ لومهم إيّاك، علىٰ إظهار الدعوة، قال بعضهم: هذا منسوخ بآية القتال، وهو ضعيف؛ لأن معنىٰ هذا الإعراض ترك المبالاة بهم فلا يكون منسوخًا)(١).

رابع عشر: عندما صعد الرسول ﷺ علىٰ جبل الصفا؛ ليجمع عشيرته حوله؛ كي يسمعوا كلامه قال: «وا صباحاه»؛ وهذه كلمة اعتاد عليها العرب في الجاهلية، ولكنهم كانوا أيضًا مع قول هذه العبارة يخلع الرجل منهم ثيابه، ويحثو التراب علىٰ نفسه، فإذا اجتمع الناس أخبرهم بالخطر الداهم الذي ينتظرهم.

وهنا نلحظ أن الرسول ﷺ لم يتخلَّ عن هذه الطريقة بكاملها؛ فلم يصعد علىٰ الصفا وينادِ بطريقة جديدة، ويترك طريقتهم، ثم لما أراد الاستفادة لم يكن تقليدًا كاملًا، فلم يتعرَّ ولم يَحْثُ علىٰ نفسه التراب، وبالتالي فقد استفاد مما لدىٰ الغير استفادة منضبطة بما لا يتعارض مع دينه، فكلمة (واصباحاه) ليست ممنوعة، وإنما الممنوع أن يتعرَّىٰ الإنسان في مثل هذا الموقف أو أن يحثو علىٰ نفسه التراب؛ فأخذ

(١) الرازي، التفسير الكبير (١٠/ ٢١٥).

الذي لا يعارض الدين واستفاد منه وترك ما يعارضه، وهكذا أيضًا المسلم يأخذ مما لدىٰ الغير ما يكون حسنًا لا يخالف الدين ويترك ما يخالف الدين، فالاستفادة من الغير تكون وفق هذا المعيار، فلا يكون الشخص منغلقًا رافضًا لكل ما لدىٰ غيره، أو منفتحًا مقلدًا لكل ما يجري لدىٰ الآخرين، وإنما الاعتدال بأخذ الحسن وترك السيئ.

خامس عشر: لماذا هذه المواجهة القوية من أبي لهب وهذا العداء المُعلَن في أول لحظة؟

هنا أجد عدة أسباب تجمعت جعلت أبا لهب يُشمّر عن ساعد العداوة ويقف في صف المحاربة لابن أخيه؛ لعل منها:

أ. ما نشأ عليه أهل الجاهلية من التمسك بما عليه الآباء والأجداد، فقد كَبُر عليه مخالفة أبيه عبد المطلب وتضليل معتقده، وما كان عليه من عبادة للأصنام.

ب. استنكف أن يكون تابعًا لابن أخيه.

ج. ويضاف إلىٰ ذلك: لعل الله -جل شأنه- أراد أن يبين للناس أن هذه الدعوة، ليست دعوة عشائرية أو عصبية قبلية، بل هو دين ورسالة من الله -تعالىٰ- إلىٰ خَلْقه من الإنس والجن؛ الأولىٰ بها من سبق عليها عربيًّا كان أو أعجميًّا، مولًىٰ كان أو سيدًا من السادات[1].

سادس عشر: في قول أبي لهب: تبًّا لك، ألهذا جمعتنا؟ فائدة كبيرة لكل مَن يدعو إلىٰ الله، ويأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر؛ ذلك أنه سيجد من يقول له مثل هذا الكلام، فيتذكر قول أبي لهب لرسول الله ﷺ أمام الناس، ومع ذلك لم يؤثر ذلك علىٰ الرسول ﷺ؛ فقد مضىٰ في دعوته، غير مُبالٍ بأبي لهب وأمثاله، وهم كثيرون،

(١) انظر: أبو زهرة، خاتم النبيين (١/ ٤٠٦).

فإذا أمرت بمعروف، أو نهيت عن منكر، أو نصحت، أو تكلمت عن الدين فوجدت من يعارضك فلا تتضايق، بل تذكَّر أن مثل هذا القول؛ بل أشد منه، قيل لرسول الله ﷺ، فالعيب والنقص ليس فيك أيها الداعية، وإنما الخطأ من القائل الذي قال ذلك.

سابع عشر: الجزاء من جنس العمل، قال أبو لهب للرسول ﷺ: «تبًّا لك! ألهذا جمعتنا؟»؛ فحكم الله عليه بحكمه القدري الذي لا يستطيع أن ينفك منه، بمثل عبارته: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد:١]، وهذه قاعدة في الخير والشر أن الجزاء من جنس العمل، قال -تعالىٰ-: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد:١٧]، وقال -تعالىٰ- ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

ثامن عشر: الإعجاز العظيم في هذه السورة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ١-٣]؛ إن أبا لهب لا يزال حيًّا وقت نزول هذه الآيات، ومع ذلك حكم عليه القرآن الكريم بأنه لن يأتي إلىٰ محمد ﷺ، ويقول له: إني آمنت، إن مثل هذا الحكم علىٰ رجل لا يزال حيًّا لا يمكن أن يصدر من بشر؛ لأن بإمكان أبي لهب أن يأتي ويقول: إن محمدًا حكم عليَّ أني لن أؤمن، وها أنذا أؤمن.

فهذا خبرٌ لا يصدر إلا ممن يعلم الغيب -سبحانه-، ويعلم ما تؤول إليه الأمور ويعلم أن أبا لهب سيموت علىٰ الكفر!! إن بعض أهل مكة كانوا يؤذون الرسول ﷺ، ومع ذلك لم يحكم عليهم الرسول ﷺ بالنار، ومنهم من جاء إلىٰ الرسول ﷺ وأسلم.

من أخبر الرسول ﷺ أن أبا لهب لن يكون من هؤلاء؟ إن هذا الحكم: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ٣] لا يمكن أن يصدر من محمد ﷺ إلا بخبرٍ ممن يعلم الغيب -سبحانه وتعالىٰ-، فكان في هذه الآية إعجاز عظيم في أمر مستقبليٍّ لا يعلمه إلا الله -جل شأنه-.

تاسع عشر: إن ما حكاه الله -جل شأنه- لنا من مآل ونهاية أبي لهب، هو درس لكل من يعادي هذا الدين، فإن له نصيبًا من الوعيد علىٰ قدر معاداته، وإنه في النهاية لن يضر إلا نفسه، وقد كانت نهاية أبي لهب أن مات حزينًا ذليلًا بعد علمه بخبر انتصار الرسول ﷺ في بدر ومقتل عامة زعماء كفار قريش.

العشرون: في قوله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر:٩٥]؛ أمر عجيب، ذلك أن من لديه سلطان قد يقول لك: أنا أحميك، لا يستطيع أحد أن يمدّ يده إليك، أحميك من اعتداء الناس عليك، لكنه مهما كانت قوته لا يستطيع أن يقول: أنا أكفيك المستهزئين؛ لأن الاستهزاء يأتي بإشارة بالعين أو بحركة باليد، أو بكلمة أو بغمز أو لمز، أو بضحكة أو بتعليق يفهمه البعض ولا يفهمه البعض الآخر، ومن يستطيع أن يحصي هذا؟!

لكن الله -سبحانه وتعالىٰ- يقول بصيغة الفعل الماضي الذي وقع وتحقق، والآية تقول: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ﴾، ولم تقل: إنا نمنع؛ لأن الاستهزاء وقع، لكن الله -سبحانه وتعالىٰ- كافٍ رسوله ﷺ، ثم في هذه الآية إشارة لطيفة؛ وهي: أن الذي كفاك المستهزئين أقدر من باب أولىٰ[1] علىٰ كفايتك من أولئك الذين يؤذونك أذًىٰ حسيًّا مشهودًا.

الواحدة والعشرون: في قوله -تعالىٰ-: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر ٩٧-٩٩]؛ تشير إلىٰ أن الرسول ﷺ يضيق صدره بسبب أقوالهم المعاندة للدين، وقد بيَّن الله -سبحانه وتعالىٰ- له الحل في ذلك؛ وأنه إذا ضاق صدرك فسَبِّح، وهذا هو أيضًا الحل لكل مَن يضيق صدره في كلّ أمور حياته، وكثيرًا ما نجد الشخص يشتكي ضيقة الصدر من قولٍ قيل له، أو من قول قاله، أو عمل عمله، أو من خطأ

(١) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٤/ ٨٩).

ارتكبه، فما الحل لضيق الصدر هذا؟ الحل هو في قوله -تعالىٰ-: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٨-٩٩]؛ العلاج الذي نزل به الوحي لإزالة ضيق صدر الرسول ﷺ، وهو أيضًا العلاج لكل من يواجه ضيقًا في صدره في وقتنا الحالي.

الثانية والعشرون: في هذه الآيات ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٩٧- ٩٨]؛ دليل علىٰ مشروعية الصلاة عند الشدة، وحَزْبِ الأمر، والهمِّ، وأن من وجد شيئًا من ذلك؛ شُرعت له الصلاة، لوجود سببها، فتُصَلَّىٰ ركعتين ومضاعفاتها، حتىٰ يزول ذلك السبب. وقد كان النبي ﷺ يفزع إلىٰ الصلاة إذا حزبه أمر، فكان ﷺ يُصلّي قُبَيْل لقاء العدو، وعند اجتماع الأحزاب -كما سيأتي-، قال حذيفة -رضي الله تعالىٰ عنه-: «رجعت إلىٰ النبي ﷺ ليلة الأحزاب وهو مشتمل في شملة يصلي، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلىٰ»(١). وقال علي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه-: «لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم، غير رسول الله ﷺ يصلي ويدعو إلىٰ الصباح»(٢). وقد قال -تعالىٰ-: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة:٤٥](٣).

---

(١) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة، تحقيق عبد الرحمن الفريوائي، الطبعة الأولى (المدينة: مكتبة الدار ١٤٠٦)، (١/ ٢٣١) رقم ٢١٢. وروى أبو داود اللفظة الأخيرة في سننه وحسنه الألباني (٢/ ٣٢) رقم (١٣١٩).

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٣٦٣) رقم (١١٦٢)، وقال محققه الأرناؤوط وزملاؤه): «إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير حارثة بن مضرب، فمن رجال أصحاب السنن، وهو ثقة»، وأخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٢٣١) رقم (٢١٣). والنسائي في السنن الكبرى (١/ ٤٠٦) رقم (٨٢٥).

(٣) انظر: الطريفي، التفسير والبيان لأحكام القرآن، (٤/ ١٦٥٩-١٦٦٠).

المبحث الثاني

موقف قريش من الدعوة بعد الصدع بها

كانت قريش تظن في البداية أن دعوة محمد ﷺ كسائر الدعوات التي ظهرت في مكة، ثم لم تلبث أن انتهت وخبت، مثل كلام زيد بن عمرو بن نفيل، وأمية بن أبي الصلت، وقس بن ساعدة، وغيرهم، ولكن لما جهر رسول الله ﷺ بدعوته، وصارحهم بمضمونها، وأعلن الدعوة إلىٰ التوحيد، ومنابذة الشرك وأهله، وبيَّن حقيقة آلهتهم، ومعتقدات آبائهم الوثنية، وتعلقهم بالأصنام، وأنها لا تتجاوز أن تكون حجارة لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا؛ فضلًا عن أن تنفع أو تضر غيرها، وأن التوجه إليها هو أعظم الظلم، وأشد المحرمات... لما وقف ﷺ هذا الموقف أدركتْ قريش أن هذه الدعوة ليست كسابقاتها من تلك الدعوات، وأنهم أمام دعوة تختلف كليا عن أقوال أولئك، دعوة تأتي علىٰ الكثير من معتقداتهم الموروثة فتنسفها من القواعد، وأنها -مع ذلك- دعوة بدأت تدخل كل منزل، يسري أثرها كما يسري الماء في أغصان الشجر.

وأصبحت قريش مع كل يوم جديد يتناهىٰ إلىٰ أسماعها انضمام ضيف إلىٰ ركاب هذه الدعوة، يُضاف إلىٰ ذلك شدة وصلابة مَن أسلم، فلا ينفع معه تعذيب أو تنكيل ليرجع عن هذا الدين.

قال ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ-: (قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: فلما بادىٰ رسول الله ﷺ قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله، لم يبعد منه قومه، ولم يردوا عليه -فيما بلغني- حتىٰ ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه،

وأجمعوا خلافه وعداوته، إلا من عصم الله -تعالىٰ- منهم بالإسلام، وهم قليل مستخفون)[1].

وقال -رحمه الله تعالىٰ-: (قال ابن إسحاق: فحدثني يحيىٰ بن عروة بن الزبير، عن أبيه عروة بن الزبير -رحمه الله تعالىٰ-، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: قلت له: ما أكثر ما رأيت قريشًا أصابوا من رسول الله ﷺ فيما كانوا يُظهرون من عداوته؟ قال: حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يومًا في الحِجْر، فذكروا رسول الله ﷺ؛ فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط، سفَّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرَّق جماعتنا، وسبَّ آلهتنا، لقد صبرنا منه علىٰ أمر عظيم، أو كما قالوا. فبينا هم في ذلك؛ إذ طلع رسول الله ﷺ فأقبل يمشي حتىٰ استلم الركن، ثم مرَّ بهم طائفًا بالبيت، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول. قال: فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ قال: ثم مضىٰ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ، ثم مر الثالثة فغمزوه بمثلها، فوقف ثم قال: أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح، قال: فأخذت القومَ كلمتُه حتىٰ ما منهم رجل إلا كأنما علىٰ رأسه طائر واقع، حتىٰ إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول، حتىٰ إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، فوالله ما كنت جهولًا. قال: فانصرف رسول الله ﷺ.

حتىٰ إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه، حتىٰ إذا باداكم بما تكرهون تركتموه. فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به، يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا؛ لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول رسول الله ﷺ:

---

(١) ابن هشام السيرة النبوية (١/ ٢٣٨).

«نعم، أنا الذي أقول ذلك». قال: فلقد رأيت رجلًا منهم أخذ بمجمع ردائه. قال: فقام أبو بكر -رضي الله عنه- دونه، وهو يبكي، ويقول: أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله؟ ثم انصرفوا عنه، فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشًا نالوا منه قط)[1].

نلاحظ من هذا أن قريش أصابها الهيجان، ووقف جلّة أشياخها وزعمائها وقفة واحدة صلبة تجاه هذه الدعوة؛ قال -تعالىٰ-: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورىٰ:١٣]؛ لقد صعب علىٰ قريش هذه الدعوة -كما يقول الرازي -رحمه الله تعالىٰ- من ثلاث جهات:

الجهة الأولىٰ: جهة الداعي، وهو محمد ﷺ؛ لأنه بشر مثلهم؛ ﴿قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٤]، وأنه لم يكن قَبْل الدعوة من عظماء القريتين؛ قال -تعالىٰ-: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١].

الجهة الثانية: ما به الدعوة؛ فإنهم حسبوا أن الله لا يخاطب الرسل إلا بكتاب يُنَزِّله إليه دفعة من السماء؛ فقد قالوا: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء:٩٣]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان:٢١]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١١٨]؛ والقائلون هم المشركون.

والجهة الثالثة: من جهة ما تضمنته الدعوة مما لم تساعد أهواءهم علىٰ قبوله والتسليم به قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]، وقال

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (١١/ ٦٠٩) رقم (٧٠٣٦)، وقال محققه الأرناؤوط وزملاؤه: إسناده حسن. ابن إسحاق -وهو محمد- صرح بالتحديث، فانتفت شبهة تدليسه، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين»، ابن هشام السيرة النبوية (١/ ٢٥٩). والبيهقي، دلائل النبوة (٢/ ٢٧٥). والصوياني، الصَّحيحُ من أحاديث السّيرة النبوية (ص ٦٢). والعلي، صحيح السيرة النبوية (ص ٥٩)، وقال: «وأخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب لو (كنت متخذًا خليلاً) رقم: (٣٦٧٨) فتح الباري: (٧/ ٢٢) مختصرًا».

-تعالىٰ-: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ:٧])[1].

فهم استكثروا علىٰ محمد ﷺ أن يُرْسَل، واستغربوا أن يُنزَّل عليه كتاب، ولم يُنزَّل مَلَك معه، واستنكروا دعوة التوحيد، وتقرير البعث بعد الموت.

وكانت أول خطوة هي المواجهة الجماعية منهم لشخص محمد ﷺ، وعيدًا وتهديدًا، واستهزاءً، وإيذاءً بدنيًّا ما استطاعوا إلىٰ ذلك سبيلًا. وكان يتزعم هذا الموقف الملأ من القوم، يوضح ذلك قول الله -تعالىٰ-: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ [ص:١-٨]، فهذه الآيات تُصوّر جملة الموقف، وقادته ودعواهم وحجتهم تصويرًا دقيقًا.

ولما لم يؤثر ذلك علىٰ الرسول ﷺ ولم يثنه عن شيء من عزيمته؛ إذ قد مضىٰ في أداء رسالته، غير ملتفت إليهم، ورأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يستجيب لهم في شيء أنكروه عليه، من فراقهم وعيب آلهتهم، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدب عليه، وقام دونه، مشىٰ رجال من أشراف قريش إلىٰ أبي طالب، فقالوا: (يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفَّه أحلامنا، وضلّل آباءنا، فإما أن تكفّه عنا، وإما أن تُخلّي بيننا وبينه، فإنك علىٰ مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه). فقال لهم أبو طالب قولًا رفيقًا، وردهم ردًّا جميلًا، فانصرفوا عنه[2].

---

(١) انظر: الرازي، التفسير الكبير (٢٥/ ٥٤-٥٥).

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٢٦٥)، والشامي، سبل الهدى والرشاد (٢/ ٤٣٦).

ومضىٰ رسول الله ﷺ علىٰ ما هو عليه، يظهر دين الله، ويدعو إليه، ثم اشتد الأمر بينه وبينهم حتىٰ تباعد الرجال وأعلنوا العداوة وأكثرت قريش ذِكْر رسول الله ﷺ بينها، وحضّ بعضهم بعضًا عليه، ثم إنهم مشوا إلىٰ أبي طالب مرة أخرىٰ، وكرروا طلبهم أن يَكُفّ محمد ﷺ عنهم، أو ننازله وإياك في ذلك، حتىٰ يهلك أحد الفريقين. فعظم ذلك علىٰ أبي طالب لكنه، مع ذلك، وعد الرسول ﷺ بالنصرة، فزاد الأمر شدة و(حميت الحرب، وتنابذ القوم، وبادىٰ بعضهم بعضا)؛ كما يقول ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ-[(١)].

هذا موقفهم إجمالًا، وإن كانوا يتفاوتون في ذلك حسب ما تُمليه بعض المصالح الشخصية لكل منهم، ولنوع القرابة مع بني هاشم؛ كما سيأتي مزيد توضيح له -إن شاء الله تعالىٰ- في الفقرة التي تلي فقرة أساليب قريش في المواجهة.

أقف عند هذا الجزء من السيرة النبوية الذي يُمثل بداية المواجهة بين الرسول ﷺ وكفار قريش، ونلحظ ما يلي:

أولًا: إن قريشًا في البداية سالمت الرسول ﷺ ولم تتعرَّض له؛ ظنًّا منها أنها واعظ كسائر الوعاظ، الذين يهتمون بتزكية النفس، والزهد في الدنيا، والإيمان بما ما هو متاح من الكتب السماوية السابقة، مع أداء بعض الشعائر الدينية، وانتقاد بعض الأوضاع الاجتماعية، ثم لا يجد قبولًا، وتنتهي دعوته بوفاته. وهذا بالنسبة لقريش لا مشكلة لهم معه، ولو كانوا بعدد الحصىٰ، إذا كانت عبادتهم لأصنامهم قائمة، والشرك الأكبر علىٰ أشده، ومعتقدات الآباء الشركية علىٰ قداستها، لم تُمَسّ.

ثانيًا: موقف قريش من الرسول ﷺ بعد إعلان دعوته، يدل علىٰ أن الناس يحبُّون الرجل الصالح، لكنهم لا يحبون الرجل المُصلِح، بل يعادون الرجل المُصلِح؛ فقريش أحبَّت الرسول ﷺ قبل البعثة، وكانت تُسمِّيه الأمين الصادق،

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٢٦٧).

وترضىٰ بحُكْمه في تحكيم وضع الحجر الأسود، وتضع عنده ودائعها، كل ذلك لما رأته فيه من صلاح. لكن بعد البعثة أصبح مُصلِحًا، وعندها عادوه وأصبح في نظرهم ساحرًا كاهنًا كذابًا مفتريًا.

والسبب أن المصلح يصطدم بشهوات الناس وأهوائهم، وهم لا يريدون مَن يتعرض لهم في شهواتهم وأهوائهم ورغباتهم. والمصلح أنفع للأمة من الصالح، علىٰ معنىٰ كونه مقتصرًا علىٰ إصلاح نفسه، وترك الناس. وإلا فإن من الصلاح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا واقع بين الناس اليوم، فإنهم لا إشكال عندهم في الرجل الذي يصلح في نفسه ويتركهم لا يأمرهم ولا ينهاهم، أما إذا أمر ونهىٰ وذكر ووعظ، فسيتغير الرأي فيه ويظهر له معارضون وخصوم وأعداء.

ثالثًا: إن نهوض قريش بهذا الهيجان الفردي، ثم الجماعي؛ يدل علىٰ أنهم فهموا المراد واستوعبوه، وأنه هذا الهيجان لم يكن ضد محمد ﷺ بشخصه، وإنما كان للقضية التي دعاهم إليها، فمحمد ﷺ محل تقديرهم واعتزازهم، لكنَّ الخلاف كان حول هذا المضمون الذي جاءهم به، والذي صرحوا به، قائلين في شكواهم لأبي طالب: إن ابن أخيك (سبَّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفَّه أحلامنا، وضلَّل آباءنا)، وعند تأملها، تجد أن أساسها الأول: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص:٥][1]. ثم من القائل لذلك منهم؟ إنه الملأ منهم، أي كبارهم وعقلاؤهم، وأصحاب الرأي والتأثير فيهم، فهم عرفوا أن هذه الدعوة تعني التوحيد، وإنهاء الأصنام الموجودة حول الكعبة وفي كل بيت، والتوجه بكل صور العبودية لله -تعالىٰ- وحده لا شريك له، وهذا أمر غريب جدًّا عليهم مما تلقوه من آبائهم وأجدادهم.

رابعًا: إنهم فهموا دعوة محمد ﷺ، وعرفوا أنها تقوم في جوهرها وأساسها علىٰ التوحيد، توحيد الله -جل شأنه- في العبادة، فلا يتوجه القلب إلا إلىٰ الله، وأن التوجه

(١) عجاب: «أي: بليغ في التعجب» التفسير الكبير للرازي (٢٦/ ٣٨٦).

إلىٰ أيّ معبود غير الله هو شرك بالله -سبحانه-، سواء أكان هذا المعبود الذي تتجه إليه القلوب، وليًّا أو حجرًا أو قبرًا أو شجرة أو غارًا أو صنمًا، أو غير ذلك.

خامسًا: قارئ السيرة وبخاصة في مرحلة الصراع مع كفار قريش في السنوات الأولىٰ من البعثة، يتضح له جدًّا منزلة التوحيد في دعوة الرسول ﷺ قال -تعالىٰ-: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، فهؤلاء الرسل -عليهم السلام- كلهم كانت دعوتهم جوهرها وأساسها التوحيد، يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وكلما كان توحيد العبد أعظم، كانت مغفرة الله له أتمّ، فمن لقيه لا يشرك به شيئًا ألبتة غفر له ذنوبه كلها، كائنة ما كانت، ولم يُعذّب بها)[1]. ويقول أيضًا -رحمه الله تعالىٰ-: (ولما كان المشرك خبيث العنصر خبيث الذات لم تطهر النار خبثه، بل لو خرج منها لعاد خبيثًا كما كان، كالكلب إذا دخل البحر ثم خرج منه، فلذلك حرم الله علىٰ المشرك الجنة)[2].

فلذلك نقول لكل داعية إلىٰ الله -تعالىٰ-: عليك بالتوحيد، ابدأ به وأصلح عقائد الناس، فهي القضية الأساسية لكل مهتدٍ بهدي الرسول ﷺ. رُدَّ قلوب الناس إلىٰ ربهم، اجعلهم لا يخافون إلا من ربهم، لا يرجون إلا الله، لا يدعون إلا الله، لا يفزعون في شدائدهم إلا إلىٰ الله، بَيِّنْ لهم أن ما يفزعون إليه ويرجونه ويخافونه -سوىٰ الله- ليس إلا مخلوقًا مثلهم؛ لا يملك لنفسه شيئًا فضلًا أن يملك خيرًا أو شرًّا لغيره.

سادسًا: إن كفار أدركوا أن هذه الدعوة الجديدة ستقوّض جاههم الجاهلي وتكبّرهم وتعاليهم علىٰ الناس فقابلوها بالاستعلاء، قال -تعالىٰ-: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾؛ قال ابن جُزي -رحمه الله تعالىٰ-: (﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني قريشًا،

(١) ابن ا لقيم، مدارج السالكين (١/ ٣٣٨).
(٢) ابن القيم ، زاد المعاد (١/ ٦٨).

و﴿ بَلِ ﴾ للإضراب عن كلام محذوف، وهو جواب القسم أي: إن كفرهم ليس ببرهان، بل هو بسبب العزة والشقاق، والعزة التكبر. والشقاق: العداوة وقصد المخالفة، وتنكيرهما للدلالة علىٰ شدتهما، وتفاخم الكفار فيهما)[1].

سابعًا: إن هذا كله يُحدّد لنا بدقة موقف كفار قريش، علىٰ نحو ما وصفهم القرآن الكريم: (﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ ﴾ المقبول قولهم، مُحرّضين قومهم علىٰ التمسّك بما هم عليه من الشرك. ﴿أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ ﴾؛ أي: استمروا عليها، وجاهدوا نفوسكم في الصبر عليها وعلىٰ عبادتها، ولا يردّكم عنها رادّ، ولا يصدنّكم عن عبادتها صادّ)[2].

إذن: هناك أمران مهمّان خشي عليهما كفار قريش، فاتحدوا ضد محمد ﷺ؛ هذان الأمران هما:

الأول: وضعهم الديني.

والثاني: وضعهم الاجتماعيّ.

أما الديني فهم يعلنون أنهم متمسكون بشركهم رافضون تمامًا لقضية توحيد الألوهية.

وأما الاجتماعي فهم علىٰ التمسك بشهوة الجاه التي نشأوا عليها، وخافوا من زوالها بتبعيتهم لمحمد ﷺ.

ثامنًا: من أسباب ضلال قريش ومعاداتهم للرسول ﷺ ووقوفهم هذا الموقف: ما صرح به القرآن الكريم ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٢٠١).
(٢) السعدي، تفسير السعدي (ص ٧٠٩).

عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴾ [الزخرف:٢٢-٢٣]، وقالوا: ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ﴾ [ص: ٧]؛ إنه تقليد الآباء، وهذه بلاء لا يزال قائمًا يحول بين بعض الناس وقبول الحق. والعاقل يعلم أنه لا يلزم من كون الآباء يفعلون شيئًا أن يكون حقًّا، فالدين شرع الله، لا ما ورثه الشخص عن آبائه.

والعاقل -أيضًا- مَن يستفيد من هذا الدرس، ويبحث عن الحق، الذي يسانده الدليل، ويترك ما عدا ذلك من عادات وأعراف وتقاليد، سواء أكانت في العقيدة أو العبادة أو في السلوك، يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وما علىٰ العبد أضرّ من ملك العادات له، وما عارض الكفار الرسل إلا بالعادات المستقرة الموروثة لهم عن الأسلاف الماضية، فمن لم يُوطّن نفسه علىٰ مفارقتها والخروج عنها والاستعداد للمطلوب منه فهو مقطوع، وعن فوزه وفلاحه ممنوع)[1]. يقول الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود -رحمهم الله تعالىٰ- في رسالة له: (العادة ملّاكة، تقلب الشَّين زينًا، ولم تُعَادَىٰ الرُّسل بشيء أعظم من العادة)[2].

تاسعًا: إن من أسباب الضلال الحرص علىٰ الجاه والمنزلة الاجتماعية، فهؤلاء رفضوا الحق الذي جاء بهم محمد ﷺ، لما أدركوا أنه يقوّض سلطتهم وجاههم، ولذلك نجد أن الذي تصدّوا للدعوة هم الكبراء من القوم الذي ستذهب سلطتهم وسطوتهم، ونجدهم اتفقوا علىٰ المواجهة ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ ﴾..

ومن عرف السبب المانع من قبول الحق، استفاد من ذلك، فلا يقع هو أيضًا في ردّ حقّ خوفًا علىٰ جاهه، حتىٰ لا يكون مصيره مصير أولئك الأقوام الذي هلكوا علىٰ شركهم. ولعل ذلك يُسَوِّغُ لي أن أكرر مرة أخرىٰ أن أخطر داء قلبي علىٰ الإنسان هو (التمسك بما عليه الآباء + الحرص علىٰ الزعامة)؛ فهذا أسوأ بلاء يحول دون قبول الحق.

---

(١) ابن القيم، مدارج السالكين (١/ ١٦٥).

(٢) عبدالرحمن بن قاسم ، الدرر السنية (١/ ٢٧٨).

عاشرًا: ينبغي ألَّا نخلط بين الأعراف والتقاليد، وبين الشريعة الإسلامية؛ لأننا كما نخشىٰ من تأثير الأعراف والتقاليد في رد الحق، كذلك نخشىٰ من تبديل الحق إلىٰ باطل باسم أن هذا الأمر الشرعي من الأعراف والتقاليد، فيجوز تبديله.

فإذا قبلنا تسمية شيء من الدين، (تقاليد) اختلط علىٰ الناس الدين بالتقاليد، وإذا غُيرت عليهم لم ينتبهوا، ولهذا ينبغي الحذر من إطلاق كلمة «تقاليدنا الإسلامية» علىٰ شيء من الشرع الإسلامي، وإنما يُقال: شريعتنا الإسلامية، وديننا الإسلامي.

حادي عشر: مع هذا الوضوح من كفار قريش في فَهْم الدعوة التي جاء بها محمد ﷺ، وصراحة المعاداة له؛ إلا أننا نجد في الأمة الإسلامية مَن لم يفهم بعدُ معنىٰ هذا الدين؛ فهو يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله صباحًا ومساءً، ومع ذلك يُشرك بالله في توحيد الألوهية، يرجو غير الله، يخاف غير الله، يدعو غير الله، يطوف علىٰ القبر، وينادي باسم الولي وهو ميت، ولا يرفع يديه يدعو الله -سبحانه-، يُصدّق المشعوذين، ويتردّد عليهم، يتعلق قلبه بغير الله -جل شأنه- محبةً ورجاءً وخوفًا. إذا مسَّه الضرّ تذكّر قبر الولي، وإذا نزل به داء، سارع للمنجمين والسحرة والخرافيين كأنهم يعلمون الغيب أو يملكون شيئًا.. ألَا يعلم أن هؤلاء لا يملكون لأنفسهم مثقال حبة من خردل، فضلًا عن أن يملكوها لغيرهم.

المشركون من كفار قريش لم يكن لديهم أي مشكلة في توحيد الربوبية، وهو أن الله هو الخالق الرازق المدير المحيي المميت، ويقرّون بذلك، ولكنهم في دعائهم، وفي رجائهم وفي خوفهم وفي محبتهم، لا يتجهون إلىٰ الله، وإنما يتجهون إلىٰ مخلوقات قدَّسوها ورجوها وخافوها وأحبّوها. واستماتوا في الدفاع عن هذا المعتقد!!

وفي العالم الإسلامي اليوم مَن لا يبعد عن هؤلاء، يؤمن بالله ربًّا خالقًا رازقًا محييًا مميتًا، لكنَّ خوفه ورجاءه ومحبته ودعاءه لمخلوق مقدَّس في نظره، أيًّا كان

هذا المخلوق، والفارق بين الفريقين أن أولئك رفضوا أن يقولوا (لا إله إلا الله)، وهؤلاء قالوها وهم لم يفهموا معناها أو فهموه فهمًا محرَّفًا لم يفرق بين الربوبية والألوهية، لم يفرقوا بين لا رب إلا الله، ولا إله إلا الله، مع أنهم يقرأون يوميًّا سورة الفاتحة سبع عشرة مرة على الأقل، وأولها ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الذي فيه التفريق بين ﴿لِلَّهِ﴾ و﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ فالألوهية غير الربوبية، وإلا كان تكرارًا.

ثاني عشر: قال إمام المفسرين الطبري -رحمه الله تعالىٰ- في تفسيره، عند قوله -تعالىٰ- ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]؛ قال أبو جعفر: (يقول -تعالىٰ ذِكْره- لنبيه محمد ﷺ وللمؤمنين به: ولا تسبُّوا الذين يدعو المشركون من دون الله من الآلهة والأنداد، فيسبَّ المشركون اللهَ جهلًا منهم بربهم، واعتداءً بغير علم)[١]. وهذا من سد الذرائع، ودَفْع المفسدة الكبرىٰ في مقابل تحمُّل مفسدة أقل منها. وهي قاعدة عظيمة المعنىٰ يحتاجها المسلم في حياته الخاصة والعامة.

وهذه القاعدة يؤكدها ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ- في تفسيره فيقول: (يقول -تعالىٰ- ناهيًا لرسوله ﷺ والمؤمنين عن سبّ آلهة المشركين، وإن كان فيه مصلحة، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسبّ إله المؤمنين، وهو الله لا إله إلا هو)[٢].

وقال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (فذُكِرَ لي أن رسول الله ﷺ كفَّ عن سبّ آلهتهم، وجعل يدعوهم إلىٰ الله)[٣].

---

(١) الطبري، تفسير الطبري، (٩/ ٤٧٩).

(٢) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٣/ ٣١٤).

(٣) ابن هشام، السيرة (١/ ٣٥٧).

المبحث الثالث

أساليب المشركين في مواجهة الرسول ﷺ

لما أدركت قريش حقيقة ما يدعو إليه الرسول ﷺ، واتخذت قرار المواجهة الفردية والجماعية لهذه الدعوة؛ سلكت عدة أساليب يمكن استنباطها من واقع ما جرىٰ منهم من تصرفات في المواجهة بعد إدراكهم لحقيقة الدعوة، ولعل أبرز هذه الأساليب ما يلي:

■ الأسلوب الأول: الحوار

وقد سارت قريش في هذا وفق مسلكين، أولهما الحوار المباشر مع الرسول ﷺ، ثم الحوار مع عمه ومناصره أبي طالب:

أ- الحوار المباشر مع الرسول ﷺ: وقد كان هذا الحوار المباشر إما فرديًّا أو جماعيًّا:

الأول: الحوار الفردي: «قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (حدثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي، قال: حُدِّثت أن عتبة بن ربيعة، وكان سيدًا، قال يومًا وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلىٰ محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورًا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء، ويكفّ عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة-رضي الله تعالىٰ عنه-، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون؛ فقالوا: بلىٰ يا أبا الوليد، قم إليه فكَلِّمْه. فقام إليه عتبة حتىٰ جلس إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد

علمت من السطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك أتيت قومك بأمر عظيم؛ فرَّقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضىٰ من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. قال: فقال له رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد، أسمع»، قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئتَ به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتىٰ تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا سوَّدناك علينا، حتىٰ لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به مُلكًا ملكّناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًّا تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك، طلبنا لك الطبّ، وبذلنا فيه أموالنا حتىٰ نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع علىٰ الرجل حتىٰ يُداوَىٰ منه، أو كما قال له، حتىٰ إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم. قال: «فاسمع مني»؛ قال: أفعل. فقال: (بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [فصلت: ١-٣]، ثم مضىٰ رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه فلما سمعها منه عتبة أنصتَ لها، وألقىٰ يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما يسمع منه؛ ثم انتهىٰ رسول الله ﷺ إلىٰ السجدة منها، فسجد، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك.

فقام عتبة إلىٰ أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشِّعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فو الله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تُصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر علىٰ العرب فمُلْكه مُلككم، وعزّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه؛ قال: هذا رأيي

فيه، فاصنعوا ما بدا لكم)[1].

الثاني: الحوار الجماعي: قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (ثم إن أشراف قريش من كل قبيلة، كما حدثني بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير -رحمه الله تعالىٰ-، وعن عكرمة -رحمه الله تعالىٰ- مولىٰ ابن عباس، عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- قال: اجتمع عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث، أخو بني عبد الدار، وأبو البختري بن هشام، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، والعاص بن وائل، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان، وأمية بن خلف، أو من اجتمع منهم. قال: اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلىٰ محمد فكلِّموه وخاصموه حتىٰ تُعذروا فيه، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فَأْتِهِمْ. فجاءهم رسول الله ﷺ سريعًا، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء، وكان عليهم حريصًا يحبّ رشدهم، ويعز عليه عَنَتهم، حتىٰ جلس إليهم؛ فقالوا له: يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلًا من العرب أدخل علىٰ قومه مثل ما أدخلتَ علىٰ قومك، لقد شتمت الآباء، وعبتَ الدين، وشتمت الآلهة، وسفهّت الأحلام، وفرّقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح إلا جئته فيما بيننا وبينك -أو كما قالوا له- فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالًا جمعنا لك من أموالنا حتىٰ تكون أكثرنا مالًا، وإن

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٢٦١-٢٦٢)، والبيهقي، دلائل النبوة (٢/ ٢٠٤-٢٠٥). وابن كثير، السيرة النبوية (١/ ٥٠٤-٥٠٥). وابن كثير، تفسير ابن كثير (٧/ ١٦٢-١٦٣)، الذهبي سير أعلام النبلاء، السيرة النبوية، (١/ ١٢٨)، وقال الألباني في تخريجه لفقه السيرة للغزالي (ص١١٦): «هذه القصة أخرجها ابن إسحاق في المغازي: (١/ ١٨٥)، من سيرة ابن هشام، بسند حسن عن محمد بن كعب القرظي مرسلًا، ووصله عبد بن حميد، وأبو يعلي، والبغوي من طريق أخرى من حديث جابر رضي الله عنه، كما في تفسير ابن كثير: (٤/ ٩٠- ٩١)، وسنده حسن إن شاء الله».

كنت إنما تطلب به الشرف فينا، فنحن نسوّدك علينا، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًّا تراه قد غلب عليك -وكانوا يسمون التابع من الجن رئيًّا- فربما كان ذلك، بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتىٰ نبرئك منه، أو نعذر فيك.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولًا، وأنزل عليَّ كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلّغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليَّ أصبر لأمر الله حتىٰ يحكم الله بيني وبينكم»، أو كما قال ﷺ.

قالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا شيئًا مما عرضناه عليك، فإنك قد علمتَ أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدًا، ولا أقل ماء، ولا أشد عيشًا منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليُسَيِّر عنا هذه الجبال التي قد ضيَّقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضىٰ من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم: قصي بن كلاب، فإنه كان شيخ صدق، فنسألهم عما تقول: أحق هو أم باطل، فإن صدقوك وصنعت ما سألناك، صدقناك، وعرفنا به منزلتك من الله، وأنه بعثك رسولًا كما تقول.

فقال لهم -صلوات الله وسلامه عليه-: «ما بهذا بُعِثْتُ إليكم من الله، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله -تعالىٰ-، حتىٰ يحكم الله بيني وبينكم».

قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا، فخذ لنفسك، سل ربك بأن يبعث معك ملكًا يصدّقك بما تقول، ويراجعنا عنك وسله فليجعل لك جنانًا وقصورًا وكنوزًا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس

المعاش كما نلتمسه، حتىٰ نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولًا كما تزعم.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بُعِثْت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرًا ونذيرًا -أو كما قال-؛ فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتىٰ يحكم الله بيني وبينكم».

قالوا: فأسقط السماء علينا كسفًا كما زعمت أنَّ ربك إن شاء فعل، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل. قال: فقال رسول الله ﷺ : «ذلك إلىٰ الله، إن شاء أن يفعله بكم فعل».

قالوا: يا محمد، أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم فيعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا؛ إذ لم نقبل منك ما جئتنا به! إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له: الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدًا، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتىٰ نهلكك، أو تهلكنا.

وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة، وهي بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتىٰ تأتينا بالله والملائكة قبيلًا. فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ، قام عنهم، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم -وهو ابن عمته، فهو ابن لعاتكة بنت عبد المطلب- فقال له: يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورًا ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول، ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم، ومنزلتك من الله، فلم تفعل، ثم سألوك أن تُعجّل لهم بعض ما تخوّفهم به من العذاب، فلم تفعل -أو كما قال له-؛ فوالله لا أومن بك أبدًا حتىٰ تتخذ إلىٰ السماء

سُلّمًا، ثم ترقىٰ فيه، وأنا أنظر إليك حتىٰ تأتيها، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وايم الله، لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك، ثم انصرف عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله ﷺ إلىٰ أهله حزينًا آسفًا؛ لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه، ولما رأىٰ من مباعدتهم إياه)[1].

وقال الإمام أبو جعفر الطبري -رحمه الله تعالىٰ- في تفسيره (حدثني يعقوب، قال: ثنا ابن علية، عن محمد بن إسحاق، قال: ثني سعيد بن مينا مولىٰ البختري، قال: لقي الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وأمية بن خلف، رسول الله، فقالوا: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشركك في أمرنا كله، فإن كان الذي جئت به خيرًا مما بأيدينا كنا قد شركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه؛ وإن كان الذي بأيدينا خيرًا مما في يديك، كنت قد شركتنا في أمرنا، وأخذت منه بحظك فأنزل الله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ حتىٰ انقضت السورة)[2]. والذي يهمنا هنا هو الحوار الذي جرىٰ بين كفار قريش والرسول ﷺ، وسعيهم لما يمكن أن يسمىٰ في لغة عصرنا التقارب بين الأديان، أما كونه سببًا لنزول السورة، فلم أجد من صحَّح سبب النزول، كما هو مبين في الهامش، والله أعلم.

ب- الحوار غير المباشر مع الرسول ﷺ: لما رأت قريش مُضِيّ الرسول ﷺ في دعوته غير مُبَالٍ بموقفهم، وأن الإسلام لاقَىٰ قبولًا عند أشخاص لهم مكانتهم

---

(١) ابن هشام، السيرة ١/ ٢٦٢- ٢٦٤. وابن كثير، السيرة (١/ ٢٦٣-٢٦٤).

(٢) الطبري، تفسير الطبري تحقيق عبد الله التركي، الطبعة الأولى: (القاهرة: دار هجر ١٤٢٢)، (٢٤/ ٧٠٣). وسليم الهلالي ومحمد آل نصر، الاستيعاب في بيان أسباب نزول آي القرآن الكريم (٣/ ٥٧٢)، وبعد أن ضعّفا هذا الحديث قالا في الهامش: «وهذا مرسل حسن الإسناد»، وقال ابن حجر في الفتح (٨/ ٧٣٣): (وقد أخرج ابن أبي حاتم من حديث ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قالت قريش للنبي ﷺ: كفَّ عن آلهتنا فلا تذكرها بسوء؛ فإن لم تفعل فاعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة؛ فنزلت. وفي إسناده أبو خلف عبد الله بن عيسى، وهو ضعيف. تنبيه: لم يُورَد في هذه السورة حديثًا مرفوعًا) ا.هـ.

في قريش كحمزة وعمر -رضي الله تعالىٰ عنهما-، ورأوا أنَّ عمه أبا طالب قد ناصره وآزره ووقف معه، مشىٰ رجال من أشراف قريش إلىٰ أبي طالب، منهم؛ عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب وأبو البختري، والأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزي، وأبو جهل -واسمه عمرو، وكان يكنىٰ أبا الحكم- بن هشام، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وعدد من كبراء قريش؛ فقالوا: يا أبا طالب! إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلّل آباءنا؛ فإما أن تكفّه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك علىٰ مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه. فقال لهم أبو طالب قولًا رفيقًا وردّهم ردًّا جميلًا، فانصرفوا عنه[1].

ولما لم يؤثر هذا اللقاء علىٰ رسول الله ﷺ، ومضىٰ علىٰ ما هو عليه، يُظهر دين الله، ويدعو إليه؛ فقد اشتد الأمر بينه وبينهم حتىٰ تباعد الرجال وأكثرت قريش ذِكْر رسول الله ﷺ بينها، وحض بعضهم بعضًا عليه، ثم إنهم مشوا إلىٰ أبي طالب مرة أخرىٰ، فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سنًّا وشرفًا ومنزلةً فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر علىٰ هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتىٰ تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك، حتىٰ يهلك أحد الفريقين -أو كما قالوا له-، ثم انصرفوا عنه، فعظم علىٰ أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفسًا بإسلام رسول الله ﷺ لهم ولا خذلانه.

فبعث أبو طالب إلىٰ رسول الله ﷺ فقال له: (يا ابن أخي، إن قومك قد جاءوني، فقالوا لي كذا وكذا، الذي كانوا قالوا له، فأَبْقِ عليَّ وعلىٰ نفسك، ولا تُحمّلني من الأمر ما لا أُطيق؛ فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه رأيًا، فبيَّن لعمه إصراره علىٰ المضي في هذه الدعوة حتىٰ يُظهر الله هذا الأمر أو يهلك فيه. فقال أبو طالب: اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت، فو الله لا أسلمك لشيء أبدًا)[2].

(١) ابن هشام، السيرة (١/ ٢٣٨- ٢٣٩).
(٢) ابن هشام، السيرة (١/ ٢٣٩-٢٤٠).

نقف مع هذا الأسلوب لنجد فيه ما يلي:

١. إن قريشًا أدركت مضمون الدعوة، وتَبِعَتها علىٰ معتقداتهم، وأعرافهم وتقاليدهم الباطلة، وأن هذه الدعوة ليست مماثلة لما سبق من دعوات من مثل زيد بن عمرو بن نفيل، أو ورقة بن نوفل، أو قس بن ساعدة، ونحوهم، الذين صرحوا بانتقاد المجتمع دينيًّا، ثم لم يلبثوا أن انتهوا دون تأثير.

٢. إن قريشًا -في مجملها وعلىٰ لسان كبرائها- بناء علىٰ ذلك، اتخذت قرار المواجهة، شأنها شأن الأمم السابقة مع أنبيائها؛ ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ** ﴾ [الأنعام:١١٢].

٣. إنها تدرجت في المواجهة، فبدأت بالحوار ومحاولة الإقناع.

٤. يبدو من مجمل ما جرىٰ هنا، إصرار قريش علىٰ موقفهم.

٥. ظنّهم أن المسألة، قد تكون مسألة دنيوية يمكن أن تُحَلّ بمال يُجمَع، أو منصب يُعطَىٰ، أو زوجات تُهدَىٰ لمحمد؛ أو تقارب في منتصف الطريق؛ لكي يرجع محمد عن قضيته.

٦. إن قريشًا لم يكن لديهم حجة ولا برهان في موقفهم سوىٰ الخوف علىٰ التراث الديني والاجتماعي، الذي لو تأملوا فيه، وأعملوا عقولهم لوجدوا أن هذه الدعوة هي مصلحتهم الكبرىٰ.

٧. ويدل لذلك سعيهم للتقارب مع الرسول ﷺ بدعوته إلىٰ أن يعبد الأوثان سنة، ويعبدون الله -جل شأنه- سنة.

يقابل ذلك:

٨. إصرار واضح من النبي محمد ﷺ علىٰ موقفه، وتوكل علىٰ الله وحده، وعزيمة لا يمكن الرجوع عنها.

٩. صعوبة الموقف فهو ﷺ فرد، ومعه قلة من المؤمنين أغلبهم من المستضعفين، في مقابل أشياخ قريش وأسيادها، مع اتفاق رأيهم علىٰ المواجهة مهما كلفهم ذلك.

١٠. موقف أبي طالب في نصرة الرسول ﷺ، الذي سخَّره الله لنصرة هذا الدين، وإن كان بقي محرومًا منه؛ لحكمة يعلمها الله -جل شأنه-. وسأتحدث عن ذلك في مبحث وفاة أبي طالب.

■ الأسلوب الثاني: أسلوب السخرية والاستهزاء ووصف الرسول ﷺ بالسحر والجنون

أولًا: أسلوب السخرية والاستهزاء: لما رأت قريش أن الرسول ﷺ ماضٍ في دعوته مستمرّ عليها لم يُثنه عنها حوارهم معه ولا سعيهم للتقارب، ولا حديثهم مع عمه أبي طالب؛ لجأوا إلىٰ أسلوب السخرية والاستهزاء لمواجهة الدعوة والداخلين فيها.

والمقصود من السخرية والاستهزاء هو تخذيل المسلمين وتحقيرهم ومواجهتهم بحرب نفسية تُوهِن قواهم، وتَحُول دخول آخرين في الإسلام، عن ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-، قال: (حدثني يحيىٰ بن عروة بن الزبير، عن أبيه عروة، -رحمهم الله تعالىٰ- عن عبد الله بن عمرو بن العاص، -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: قلت له: ما أكثر ما رأيت قريشًا أصابت من رسول الله، فيما كانت تُظهر من عداوته؟ قال: حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يومًا في الحِجْر، فذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط، سفّه أحلامنا، وشتم آباءنا،

وعاب ديننا، وفرّق جماعتنا، وسبّ آلهتنا، لقد صبرنا منه علىٰ أمر عظيم، أو كما قالوا: قال: فبينما هم كذلك؛ إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي، حتىٰ استلم الركن، ثم مر بهم طائفًا بالبيت، فلما أن مر بهم غمزوه ببعض ما يقول، قال: فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضىٰ، فلما مر بهم الثانية، غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضىٰ، ثم مر بهم الثالثة، فغمزوه بمثلها، فقال: «تسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفس محمد بيده، لقد جئتكم بالذبح»[1]؛ فأخذت القوم كلمته، حتىٰ ما منهم رجل إلا كأنما علىٰ رأسه طائر واقع، حتىٰ إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه[2] بأحسن ما يجد من القول، حتىٰ إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، انصرف راشدًا، فوالله ما كنتَ جهولًا، قال: فانصرف رسول الله ﷺ.

حتىٰ إذا كان الغد، اجتمعوا في الحِجْر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه، حتىٰ إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه؛ فبينما هم في ذلك، إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، فأحاطوا به، يقولون له: أنت الذي تقول كذا وكذا؟ لما كان يبلغهم عنه من عيب آلهتهم ودينهم، قال: فيقول رسول الله ﷺ: «نعم، أنا الذي أقول ذلك»، قال: فلقد رأيت رجلًا منهم أخذ بمجمع ردائه، قال: وقام أبو بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه-، دونه، يقول وهو يبكي: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر:٢٨]؟ ثم انصرفوا عنه، فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشًا بلغت منه قط)[3]. وقوله: (فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشًا بلغت

---

(١) الذبح هنا مجاز من الهلاك ، فإنه من أسرع أسبابه، البناء، بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني (٢٠ / ٢١٩).

(٢) أي يرفق به ويسكنه.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده (١١/ ٦٠٩-٦١١) رقم (٧٠٣٦. وقال محققوه: «إسناده حسن. ابن إسحاق -وهو محمد- صرح بالتحديث، فانتفت شبهة تدليسه، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين. يعقوب: هو ابن إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف. وأخرجه البزار -فيما ذكره الحافظ في «الفتح» (٧/ ١٦٨) من طريق بكر بن سليمان، والبيهقي=

منه)؛ لا يعني أن النبي ﷺ لم يُؤذَ أشد من ذلك، ولكن ابن عمرو -رضي الله تعالىٰ عنهما- أخبر بما رأىٰ هو شخصيًّا. ولم يخبر بكل ما وقع من الإيذاء للرسول ﷺ.

وكان أبو جهل فرعون هذه الأمة[١] شديدًا علىٰ رسول الله ﷺ وعلىٰ أصحابه، ينال من رسول الله ﷺ ويستهزئ به، ويسخر منه ومن القرآن الكريم، ومن ذلك ما روىٰ الإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ- في مسنده والنسائي -رحمه الله تعالىٰ- في سننه الكبرىٰ بسندهما عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله تعالىٰ عنهما-: (قَالَ أَبُو جَهْلٍ: أَيُخَوِّفُنَا مُحَمَّدٌ بِشَجَرَةِ الزَّقُّومِ، هَاتُوا تَمْرًا وَزُبْدًا فَتَزَقَّمُوا)[٢].

وقال ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ-: (لما ذكر الله -عز وجل- شجرة الزقوم تخويفًا بها لهم، قال أبو جهل متهكمًا ساخرًا: يا معشر قريش تدرون ما شجر الزقوم التي يخوفكم بها محمد؟ قالوا: لا، قال: عجوة يثرب بالزبد! والله لئن استمكنا منها لنتزقمنها تزقمًا، فأنزل الله -تعالىٰ- فيه ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان:٤٣-٤٦]؛ أي: ليس كما

=في «الدلائل» (٢/ ٢٧٥) من طريق يونس بن بكير، كلاهما عن ابن إسحاق، بهذا الإسناد. وأشار البخاري في «صحيحه» إلى رواية ابن إسحاق هذه عقب الحديث (٣٨٥٦). وأورده الهيثمي في «المجمع» (٦/ ١٥، ١٦)، وقال: في الصحيح طرف منه، أحمد، وقد صرح ابن إسحاق بالسماع، وبقية رجاله رجال الصحيح» وانظر صحيح السيرة النبوية لإبراهيم العلي (٨٠-٨١).

(١) انظر: ابن كثير، تفسير ابن كثير (٢/ ٣١٨)، وقد وردت أحاديث في مسند الإمام أحمد وصفت أبا جهل بأنه فرعون هذه الأمة، انظر: مسند الإمام أحمد، تحقيق وتخريج شعيب الأرناؤوط وزملائه (٧/ ٢٧٨ - ٢٨٠)، رقم (٤٢٤٦ و٤٢٤٧)، وقال المحقق عن كل من الحديثين: (إسناده ضعيف لانقطاعه).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٤٧٧) رقم (الحديث ٣٥٤٦)، وقال المحقق: إسناده صحيح، والنسائي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٥٤) رقم الحديث (١١٤٢٠)، وابن كثير، تفسير ابن كثير (٥/ ٢٨)، وقال: إسناده صحيح.

يقول[1]. وقد ضعَّف العلماء سبب النزول، أما استهزاء أبي جهل فثابت كما مر.

وجاءت أم جميل زوجة أبي لهب فقالت للرسول ﷺ ساخرة مستهزئة: إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين، أو ثلاثًا، فأنزل الله -عز وجل-: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحىٰ: ١-٣][2].

وعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال أبو جهل: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم؛ فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝٣٣ وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [الأنفال: ٣٣- ٣٤][3].

وقصة الأراشي الذي اشترىٰ منه أبو جهل الإبل ومطله ثمنها، فجاء الأراشي إلىٰ قريش في أنديتها، فقال: مَن ينصرني علىٰ أبي جهل؛ فقد مطلني مالي؟، فأشار بعض كفار قريش إلىٰ الرسول ﷺ استهزاءً به، فجاء الأراشي إلىٰ الرسول ﷺ فقام معه الرسول ﷺ إلىٰ أبي جهل وطرق عليه الباب، وأمره أن يعطي الأراشي حقه، فدفعه إليه وهو يرتعد من الخوف، وعندما سألت قريش أبا جهل عن سبب ذلك؟ قال: ويحكم ما هو إلا أن ضرب عليَّ بابي، وسمعت صوته مُلِئْتُ رعبًا، ثم خرجت إليه وإن فوق رأسه لفحلًا من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط، والله لو أبيت لأكلني[4].

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣٨٦ - ٣٨٧). وابن كثير السيرة النبوية (٢/ ٥٥)، وانظر: الواحدي، أسباب النزول تحقيق عصام الحميدان، وقال المحقق: «إسناده ضعيف» (ص ٢٨٩). وانظر: سليم الهلالي ومحمد آل نصر، الاستيعاب في أسباب النزول (٣/ ٢٠٢)، وقد ضعّفا سند هذا الحديث لإرساله.

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٨/ ٧١١)، حديث رقم ٤٩٥٠(، وتسمية المرأة في الحديث من فتح الباري في شرحه للحديث.

(٣) صحيح البخاري (٦/ ٦٢) رقم (٤٦٤٩) وصحيح مسلم (٤/ ٢٤٥١) رقم (٢٧٩٦).

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية ١/ ٤١٦- ٤١٧، والبيهقي، دلائل النبوة (٢/ ١٩٣- ١٩٤)، وابن كثير، السيرة النبوية (١/ ٤٧٠) والبلاذري، أنساب الأشراف (١/ ١٢٨ - ١٢٩).=

ونقل الحلبي عن ابن عبد البر -رحمهم الله تعالىٰ- قوله: (وكان من المستهزئين الذين قال الله -تعالىٰ- فيهم: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [الحجر: الآية ٩٥]: أبو جهل وأبو لهب وعقبة بن أبي معيط والحكم بن العاص بن أمية، والعاص بن وائل[١].

ومن المستهزئين: الحارث بن عيطلة، ويقال ابن عيطل ينسب إلىٰ أمه، وكان من استهزائه هو والعاص بن وائل وأبو جهل أنهم كانوا يمشون خلف النبي ﷺ ويستهزؤون به.

و منهم الأسود بن يغوث، وهو ابن خال النبي ﷺ، كان إذا رأىٰ المسلمين قال لأصحابه استهزاء بالصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-: قد جاءكم ملوك الأرض الذين يرثون كسرىٰ وقيصر؛ أي لأن الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- كانوا متقشفين، ثيابهم رثة، وعيشهم خَشِن، ويقول للنبي ﷺ : أما كُلِّمت اليوم من السماء يا محمد، وما أشبه هذا القول.

ومنهم الأسود بن عبد المطلب. ومن استهزائه أنه كان هو وأصحابه يتغامزون بالنبي ﷺ وأصحابه ويصفرون إذا رأوهم)[٢].

وقفة مع الاستهزاء: للاستهزاء أثر أشد وقعًا من غيره من أنواع الإيذاء، يدل لذلك ما رواه البخاري عن عروة بن الزبير -رضي الله عنهما- أن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- حدّثت أنها قالت للنبي ﷺ: (هل أتىٰ عليك يوم كان أشد عليك من

=ومحمد العوشن، ما شاع ولم يثبت في السيرة، وقال (ص ٤٧): «وعبد الملك شيخ ابن إسحاق ترجم له ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل، وسكت عنه. ثم إن الخبر مرسل. وذكرها ابن كثير عن ابن إسحاق، وسكت عنها».

(١) انظر: الحلبي، السيرة الحلبية (١/ ٤٤٨).

(٢) انظر: الحلبي، السيرة الحلبية (١/ ٤٥٠).

يوم أُحُد؟ قال: «لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة[١]؛ إذ عرضت نفسي علىٰ ابن عبد ياليل بن عبد كلال[٢]، فلم يجبني إلىٰ ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم علىٰ وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب[٣]؛ فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال؛ لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلم عليَّ، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئتَ أن أُطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يُخرج الله من

(١) قال أبو العباس القرطبيّ -رحمه الله تعالى- في المفهم (٣/ ٤٥٦): (ويوم العقبة: هو اليوم الذي لقي فيه ابن عبد ياليل بن عبد كلال في آخرين فكذبوه، وسبُّوه، واستهزؤوا به، فرجع عنهم، فلقيه سفهاء قريش، فرموه بالحجارة حتى أدموا رجليه، وآذوه أذًى كثيرًا).

(٢) قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى-: (وَهُوَ عَظِيم الطَّائِف. روى ابْن أبي نجيح عَن مُجَاهِد فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١]. قَالَ: عَظِيم الطَّائِف ابْن عبد ياليل. وَكَانَ رَسُول الله ﷺ لما يئس من أهل مَكَّة أَن يُجِيبُوهُ خرج إِلَى الطَّائِف لِيَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَام، وَذَلِكَ بعد موت أبي طَالب). كشف المشكل من حديث الصحيحين، تحقيق علي حسين البواب (الرياض: دار الوطن) (٤/ ٢٨٣).

(٣) قال ابن حجر: قرن الثعالب هو ميقات أهل نجد قرب الطائف، وأصل القرن كل جبل ينقطع من جبل كبير، فتح الباري (٦/ ٣١٥)، ومثله النووي، شرح صحيح مسلم (٢/ ١٥٥)، وقال الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ: (إن قرن الثعالب جبل مشرف على أسفل منى)، وقال: (إن من قال: إنه جبل قرب المغاسل التي يحرم منها جماهير أهل نجد والطائف فقد وهم؛ إذ لا جبل هناك بهذا الاسم أصلاً). محمد بن قاسم، فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم (٥/ ٢١٠)، وقال سعد بن جنيدل: (وقد اختُلف في المراد بقرن الثعالب، فقال قوم: هو قرن المنازل المعروف حاليًا، وهو ميقات أهل نجد، يبعد عن مكة ثمانين كيلو، وعن الطائف ثلاثة وخمسين كيلو، وقال آخرون: هو جبل مشرف على أسفل منى داخل حدود منى، بينه وبين مسجد الخيف بمنى ألف وخمسمائة ذراع، وقيل له: قرن الثعالب؛ لكثرة ما كان يأوي إليه من الثعالب، وقد أزيل هذا الجبل منذ عدة سنوات توسعة للحجاج أثناء إقامتهم في منى، ثم جزم سعد بن جنيدل بالقول الثاني، وأن قرن المنازل غير قرن الثعالب)، انظر ملخصًا من: سعد بن جنيدل، معجم الأمكنة الوارد ذكرها في صحيح البخاري (ص ٣٦١ - ٣٦٤)، ومحمد شراب، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة (ص ٢٢٦).

أصلابهم مَن يعبد الله وحده، لا يُشرك به شيئًا»[١].

قال العلماء: (جعل ﷺ ما ناله من الاستهزاء أو شماتة الأعداء أشد مما لاقاه يوم أُحد من قتل حمزة -رضي الله تعالىٰ عنه- في سبعين من أصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم- مع ما ناله في نفسه من الجراحة، وما ذاك إلا لأن نفس الكريم تتأذىٰ بالأذىٰ بالقول والسب أشد مما تتأذىٰ به من الطعن والضرب، ولهذا عفا ﷺ عن كل من تعرّض لقتله، وأهدر دم كلّ مَن تعرض لشتمه)[٢].

قال الدكتور موسىٰ شاهين لاشين -رحمه الله تعالىٰ- شرحًا لكلام المصطفىٰ ﷺ في هذا الحديث: (قال لها -أي قال الرسول ﷺ لعائشة رضي الله تعالىٰ عنها-: إن الآلام الجسدية قد تهون، ولكن الصعب الآلام النفسية، ولقد رأيت من قريش من الآلام النفسية الشيء الكثير، وأصعب ما رأيت منها يوم ذهبت إلىٰ الطائف)[٣].

نقل الدكتور أحمد نوفل في كتابه (الحرب النفسية من منظور إسلامي) أن واشنجتون ارفنع قال: (كانت أعظم صعوبة واجهها محمد ﷺ هي استهزاء معارضيه... إلىٰ أن قال: ولم يكن يهتم بمعرفة من هم مصدر هذا الإيذاء، بل اهتم بأمر الذين يأمل في اعتناقهم للإسلام)[٤].

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٦/ ٣١٢) رقم ٣٢٣١. وصحيح مسلم (٣/ ١٤٢٠) رقم (١٧٩٥).

(٢) قيل: إنه مؤلفه ابن الديبع الشيباني (ت: ٩٤٤)، حدائق الأنوار القسم الأول ص ٣٤٥-٣٤٦. بتحقيق عبد الله الأنصاري (قطر: دار إحياء التراث الإسلامي ١٤٠٣)، وطبع الكتاب منسوبًا إلى محمد بن عمر بحرق الحضرمي (ت: ٩٣٠) بتحقيق محمد غسان نصوح عزقول، عن دار المنهاج للنشر بجدة عام ١٤١٩، وهذا أقرب، والكتاب فيه شطح وغلو لا يخفى على طالب العلم.

(٣) فتح المنعم شرح صحيح مسلم (٧/ ٣١٠).

(٤) أحمد نوفل ، الحرب النفسية من منظور إسلامي ص ٢٢.

وإن كان الاستهزاء شديدًا علىٰ النفس، فإنه لا شك أشد وقعًا وأعظم تأثيرًا علىٰ الرجل الشريف الذي له المكانة الرفيعة في الخُلُق والعقل والأمانة والصدق، ليس من السهل عليه أن يجد نفسه في موقف يُسْخَر منه، ويُستهزأ به، ويُوصف بالسحر والجنون والكذب، ولكن رسول الله ﷺ هان عليه ذلك في سبيل الله؛ رغم ما فيه من بالغ القسوة والشدة عليه[1].

وإذا عرفنا ألم الاستهزاء، وتضاعف هذا الألم عندما يكون موجهًا إلىٰ شخص ذي مكانة؛ عرفنا مدىٰ ما عانَاه الرسول ﷺ من قومه وهم يستهزئون ويسخرون، بخلاف الشخص الوضيع، فإنه قد لا يعاني من الاستهزاء، بل قد يُفضله علىٰ الإيذاء البدني، ولا يجد غضاضة أن تقال له كلمة لمز أو غمز، أو سخرية؛ لأن قائلها لم يبعد من الحقيقة، أو علىٰ الأقل فإن المستهزَأ به لم يُجهد نفسه في البعد عن مواطن الضعف والنقص.

وقفة مع المستهزئين: المعروف في قضايا الاختلاف في الرأي هو أن كل فرد يعرض أدلته التي تؤيد وجهة نظره، ولكن عندما يضعف أحد الطرفين ويعوزه الدليل ويشعر برجحان جانب خصمه عليه؛ إما أن يقبل الحق ويرجع إليه إن كان مُنصِفًا، أو يتمادىٰ في النقاش إن كان مكابرًا، وإذا اختار الطريق الثاني فهو: إما أن يَستخدم القوة؛ لفرض رأيه إن كان صاحب قوة، وإن لم يكن صاحب قوة، وقد أعوزه الدليل فليس أمامه إلا الاستهزاء والسخرية من خَصْمه، ليشغل الناس بالضحك عن التفكير في رأي وأقوال خصمه.

وهذا ما نراه حصل من كفّار قريش لما عجزوا أن يجدوا حجة أو برهانًا ينفع في الحوار، لجأوا إلىٰ الاستهزاء والسخرية تارةً، وإلىٰ الوعيد والسيف والقوة تارة أخرىٰ، فكان عدولهم إلىٰ السيف وإراقة الدماء والاستهزاء والسخرية بالمؤمنين

(١) انظر: الشامي، من معين السيرة ص ٤٧.

من أكبر الأدلة علىٰ صدق رسول الله ﷺ[1]. يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وهذا شأن المبطلين إذا غُلِبُوا وقامت عليهم الحجة همّوا بالعقوبة كما قال فرعون لموسىٰ وقد أقام عليه الحجة: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾)[2].

ولقد كان توجيه القرآن الكريم للنبي ﷺ هو المضي مع الحجة؛ يقول -تعالىٰ-: ﴿بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [البقرة:١٠٥]، وقال -تعالىٰ-: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٤]، وإذا كان هذا موقف الأنبياء مع قومهم المعتمد علىٰ الدعوة بالحجة والبرهان، فلننظر ماذا يفعل هؤلاء الأقوام المنكرون لدعوات الأنبياء، وماذا يقولون إذا غلبتهم الحجة؟

فهاهم أُولاء قوم نوح قالوا لنوح -عليه السلام-: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء:١١٦]، وعيد بالرجم بالحجارة أو بالشتم[3]، وليس عندهم حجة ولا برهان.

ويقول والد إبراهيم لإبراهيم -عليه السلام-: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ [مريم:٤٦]. آزر يتوعد إبراهيم -عليه السلام- بالرجم بِالْحِجَارَةِ أَوْ بِالْكَلَامِ الْقَبِيح[4].

وفرعون يقول لموسىٰ -عليه السلام-: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء:٢٩]، وقوم شعيب -عليه السلام- قالوا لنبيهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود:٩١].

---

(١) انظر: الشيخ عبدالرحمن السعدي، القواعد الحسان في تفسير القرآن ص ٢٢.

(٢) ابن القيم، جلاء الأفهام ص ١٤٨.

(٣) تفسير الجلالين (٤٨٧).

(٤) تفسير الجلالين (٤٠٠).

وعلىٰ الجانب الآخر نجد أقوال أولئك الأقوام المُكذّبة للرسل كما ذكره الله -جل شأنه- في كتابه: ﴿ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [الزخرف:٧]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [يس:٣٠]، فأعداء الرسل دائمًا يراوحون بين استخدام القوة واللجوء إلىٰ الاستهزاء والسخرية، في حين أن مسلك الأنبياء هو الحجة والبرهان كما مر.

والشخص عندما يلجأ إلىٰ الاستهزاء يقصد أمرين:

الأول تحطيم معنوية الشخص المستهزَأ به؛ إذ لـمَّا عجز عن مَنْعه بالقوة، سلك سبيل المنع المعنوي.

الثاني: إشغال السامعين أو الحاضرين بما يُضْحِكهم ويفرحهم، حتىٰ لا تفكّر عقولهم وتستوعب حجج الخصم، فتأخذ بها. قال -تعالىٰ-: ﴿ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴾ [المؤمنون:١١٠][١].

الموقف من المستهزئين: نلاحظ أن من منهج القرآن الكريم -حسب ما يظهر لي، والله أعلم- في مواجهة المستهزئين التأكيد علىٰ الأمور التالية:

أولًا: إن السخرية والاستهزاء واجهها كل الأنبياء والدعاة فيما مضىٰ، وكفىٰ بهم أسوة ﴿ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ٦ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [الزخرف: ٦- ٧].

ثانيًا: الإكثار من الحث علىٰ الصبر؛ ﴿ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص:١٧]؛ فهذه الآية جمعت الأمر بالصبر والتذكير بما واجهه داود -عليه السلام-. وقال -تعالىٰ-: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴾ [ق:٣٩].

(١) انظر: الطريفي، الفصل بين النفس والعقل ص ١٤٠.

ثالثًا: الاستعانة على الدعوة والمضي فيها، بالعبادة، قال -تعالى-: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ [طه:١٣٠]، وقال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩].

رابعًا: بيان أن المستهزئ أدرك أنه مُفْلِس، وأنه أقلّ درجة منك، فاحذر النزول إلى مستواه، يقول -تعالى-: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ [الحجر:٩٤- ٩٥]، ويقول -تعالى-: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم:٥٩-٦٠].

خامسًا: إشعار الداعية الذي تلقى الاستهزاء، بأنه ليس وحده في الميدان، وأن الاستهزاء لا يتجه إليه وحده، يقول -سبحانه وتعالى-: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦]؛ لاحظ قوله -تعالى-: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾، مع أن الذي ورد في كتب التفاسير[1] أن سبب نزول الآية هو قول بعض المنافقين: «ما رأينا أرغب بطونًا ولا أكذب ألسنة، ولا أجبن عند اللقاء من هؤلاء»، ومع ذلك يجعل القرآن الكريم هذا القولَ، استهزاءً بالله وآياته

(١) انظر: الطبري، تفسير الطبري (١١/ ٥٤٣ -٥٤٤) عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-، ومحمد نسيب الرفاعي، مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٥١، وسليم الهلالي ومحمد آل نصر، والاستيعاب في أسباب النزول (٢/ ٢٨٧)، وحسَّنا الأثر عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-. وقالا في الهامش: (وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٨٢٩-١٨٣٠) من طريق الليث بن سعد وابن وهب كلاهما عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن ابن عمر، قلنا: وسنده صحيح، وهشام بن سعيد أثبت الناس في زيد بن أسلم)ا.هـ.

ورسوله؛ وذلك لأن الاستهزاء بالأمر استهزاء بالآمر، والاستهزاء بالمؤمن بسبب إيمانه استهزاء بمن أمره بالإيمان.

ولذلك فالمستهزَأ به ليس وحيدًا، بل معه ربه -سبحانه وتعالىٰ-؛ كما قال -تعالىٰ-: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة:٧٩].

ولاحظ كيف أن الاستهزاء كان سببًا في مزيد ربط المستهزَأ به بربّه -سبحانه وتعالىٰ-، وأعْظِمْ به من نفع وخير، يعود علىٰ المسلم يوم يُستهزَأ به، فيتذكر مثل هذه الأمور، والله أعلم بالصواب.

ثانيًا: وصف الرسول ﷺ بالسحر والجنون: من أعظم الأوصاف المُنفِّرة من الشخص: أن يُوصَف بأنه مجنون، وكم صرفت هذه التهمة من أشخاص عن الاستماع للرسول ﷺ! ومثلها وصفه بأنه ساحر. وقد ذكر القرآن الكريم مقالة كفار قريش هذه؛ فقال -تعالىٰ-: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴾ [الحجر:٦]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ﴿٣٦﴾ بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ ﴾ [الصافات:٣٥-٣٨]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ﴾ [الدخان:١٣-١٤]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ﴾ [القلم:١٥].

وفي اتهامه ﷺ بالسحر يقول الله -تعالىٰ- عن مقالتهم هذه: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ﴾ [يونس:٢]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴾ [ص:٤]؛ ثم بيَّن الله -جل شأنه- أن

هذه سُنّة المُكذّبين للرسل في كل زمان قال -تعالىٰ-: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

والكفار هم أول من يعلم أن هذه الوصف غير صحيح، فهم يعرفون محمد ﷺ نشأةً وخُلُقًا منذ صغره، وأنه ابن عبد المطلب سيد قريش، وأنه الأمين الذي رضوه لودائعهم، ورضوه في التحكيم في وضع الحجر الأسود مكانه لما اختصموا في ذلك، وعرفوا صِدْقه وأمانته في تجارته، واشتهر ذلك عنه، ولكنهم كانوا في موقف وجدوا أنفسهم لا بد من شيء يقولونه عن محمد ﷺ؛ لكي ينفّروا العرب منه في مواسم الحج والعمرة والتجارة.

ولا شك أن الرسول ﷺ لما اتهمه المشركون بهذه التُّهم وما شابهها مثل قولهم: إنه كذاب، كان وقعها عليه، من أصعب وأقسىٰ ما يكون علىٰ النفس، وبخاصة إذا كان هذا الوصف السيئ هي أبعد ما تكون منه، فكيف لعاقل أن يصف الرسول ﷺ بأنه مجنون وبأنه ساحر؟! ولذلك كان هذا الوصف مؤلمًا له ﷺ، ويدل علىٰ ذلك التأكيدات الواردة في أول سورة القلم؛ قال -تعالىٰ- ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[القلم:١-٧]؛ كم من تأكيد في هذه الآيات التي تولّىٰ الله -جل شأنه- فيها الدفاع عن رسوله ﷺ عندما ذكر اتهامهم له بالجنون. وقد وعده ربه -جل شأنه- بالأجر العظيم علىٰ صَبْره علىٰ هذا الأذىٰ المؤلم القاسي.

ولما جاءه مَلَك الجبال يستأذنه في أن يُطبق الأخشبين عليهم؛ قال: «بل لعل أن يُخرج من أصلابهم مَن يعبد الله»، ولما تمكن منهم في فتح مكة قال لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، فمن هو الذي يصبر علىٰ مثل هذا الأذىٰ؟، ومَن الذي إذا قدر لم ينتقم منهم؟، ولذلك فإن من دلائل نبوته ﷺ هذا الخُلق العظيم الذي وصفه الله به الذي لا يَقدر عليه أحد في مثل هذه المواقف شديدة الإيلام.

■ الأسلوب الثالث: أسلوب مواجهة الدعوة بالقوة:

تحدثنا في الأسلوب الثاني عن أسلوب السخرية والاستهزاء، وهو أسلوب معنوي، وهنا نتحدث عن الأسلوب المادي المتضمن لإيذاء الرسول ﷺ وإيذاء أصحابه واضطهادهم، وقد سلك المشركون هذا المسلك لإعاقة الدعوة، ولمحاولة إعادة الداخلين فيها إلىٰ حظيرة الكفر.

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (كان النفر الذين يؤذون رسول الله ﷺ في بيته أبو لهب، والحكم بن أبي العاص بن أمية، وعقبة بن أبي معيط، وعَدِيّ بن حمراء الثقفي، وابن الأصداء الهذلي -وكانوا جيرانه-، وكان أحدهم يطرح علىٰ الرسول ﷺ رحم الشاة وهو يصلي، وبعضهم يطرحها في بُرمته إذا نُصِبت له)[1].

عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: بينما رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، وجَمْع قريش في مجالسهم؛ إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلىٰ هذا المرائي! أيكم يقوم إلىٰ جزور آل فلان، فيعمد إلىٰ فرثها ودمها وسلاها، فيجيء به، ثم يمهله حتىٰ إذا سجد وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاهم، -وهو عقبة بن أبي معيط-[2]؛ فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه؟ وثبت النبي ﷺ ساجدًا، فضحكوا حتىٰ مال بعضهم إلىٰ بعض من الضحك، فانطلق مُنطلِق إلىٰ فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها وأرضاها، وهي جويرية-، فأقبلت تسعىٰ وثبت النبي ﷺ ساجدًا حتىٰ ألقته عنه، وأقبلت عليهم تسبّهم، فلما قضىٰ رسول الله ﷺ الصلاة، قال: «اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش»، ثم سمىٰ: «اللهم عليك بعمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمارة بن الوليد». قال عبد الله: فوالله لقد

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٢٥)، والمراد بالبرمة: القدر الذي يُطبَخ فيه الطعام.
(٢) ذكر ذلك ابن حجر في فتح الباري (١/ ٢٦١) و(١/ ٥٩٤).

رأيتهم صرعىٰ يوم بدر، ثم سُحِبوا إلىٰ القليب؛ قليب بدر)[1].

وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال أبو جهل: هل يُعفّر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم، فقال: واللات العزىٰ لئن رأيته يفعل لأطأن علىٰ رقبته أو لأعفرن وجهه، فأتىٰ رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ علىٰ رقبته، فما فجأهم منه إلا وهو ينكص علىٰ عقبيه، ويتقي بيديه، فقالوا: مالك يا أبا الحكم؟ قال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهولًا وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا»[2].

وأخرج البخاري -رحمه الله تعالىٰ- عن عروة بن الزبير -رضي الله عنهما- قال: (سألت عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالىٰ عنهما- عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ؟ قال: رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلىٰ النبي ﷺ وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه فخنقه به خنقًا شديدًا، فجاء أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- حتىٰ دفَعه عنه، فقال: أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم)[3].

وأم جميل امرأة أبي لهب حمالة الحطب، كما وصفها القرآن الكريم؛ كانت تجيء بالشوك فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ، ليدخل في قدمه إذا خرج إلىٰ الصلاة، ونقل الطبري -رحمه الله تعالىٰ-: (عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- في قوله: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ [المسد:٤]، قال: كانت تحمل الشوك،

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (١/ ١١٠) رقم (٥٢٠)، وصحيح مسلم (٣/ ١٤١٨) رقم (١٧٩٤)، واللفظ للبخاري، وقال الإمام مسلم: «قال أبو إسحاق : «الوليد بن عقبة غلط في هذا الحديث».

(٢) صحيح الإمام مسلم (٤/ ٢١٥٤) ، حديث رقم ٢٧٩٧. ورواه البخاري مختصرًا (٦/ ١٧٤) عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-.

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٧/ ٢٢)، كتاب فضائل الصحابة، رقم (٣٦٧٨).

فتطرحه علىٰ طريق النبي ﷺ، ليعقره وأصحابه)[1]. ثم بعد أن ذكر الخلاف في معنىٰ الحطب قال -رحمه الله تعالىٰ-: (وأولىٰ القولين في ذلك بالصواب عندي، قول من قال: كانت تحمل الشوك، فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ؛ لأن ذلك هو أَظْهَرُ معنىٰ ذلك)[2].

وتطاول عتيبة بن أبي لهب علىٰ رسول الله ﷺ، وشق قميص الرسول ﷺ؛ فدعا عليه الرسول ﷺ أن يُسلِّط عليه كلبًا، فخرج عتيبة في نفر من قريش، فنزلوا في مكان يقال له الزرقاء، فأطاف بهم الأسد تلك الليلة، فجعل عتيبة يقول: يا ويل أمي هو والله آكلي كما دعا محمدٌ عليَّ، قتلني ابن أبي كبشة وهو بمكة، وأنا بالشام، فأخذ الأسد برأسه فذبحه[3].

وكما أوذي الرسول ﷺ فقد أوذي أصحابه -رضوان الله تعالىٰ عنهم أجمعين-؛ فقد قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه يخطب في المسجد الحرام، فضربه المشركون، وكان ممن ضربه عتبة بن ربيعة؛ حيث جعل يضربه علىٰ وجهه بنعلين حتىٰ ما يُعرَف وجهه من أنفه[4]، وجهر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بالقرآن بمكة فضربوه ضربًا أثر في وجهه[5].

أما مصعب بن عمير رضي الله عنه فإن أمه لما علمت بإسلامه أخرجته من منزله، وكان فتًىٰ منعمًا في بيت ثراء، فأصبح لا يجد ما يسدّ جوعه حتىٰ كان جلده يتخشف

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٧١٩).

(٢) تفسير الطبري (٢٤/ ٧٢١).

(٣) انظر: البيهقي، دلائل النبوة ٤/ ٣٣٩، والحاكم، المستدرك ٢/ ٥٣٩، وصححه ولم يتعقبه الذهبي، وسمي ابن أبي لهب هنا بأنه (لهب، وانظر: ابن تيمية، منهاج السنة النبوية ٧/ ٣٠٥، وتعليق المحقق في الهامش.

(٤) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ٣٠).

(٥) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣٣٧).

ويتطاير كما يتطاير جلد الحية من الجوع، وكان يحمله الصحابة علىٰ أعواد القوس من شدة الجوع[١].

أما بلال ﷺ فقد ناله من العذاب صنوف شديدة؛ لأنه عندما أسلم كان عبدًا مملوكًا لبعض المشركين، وكان أُمية بن خلف يضع في عنقه حبلًا، ثم يُسلّمه إلىٰ الصبيان يطوفون به طرقات مكة، وكان يُخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع علىٰ صدره، ويقول له: لا تزال كذلك حتىٰ تموت أو تكفر بمحمد، فلا يزيد علىٰ قوله: أَحَد، أَحَد. حتىٰ مر به أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- فاشتراه وأعتقه[٢].

وكان عمار بن ياسر -رضي الله عنهما- مولىٰ لبني مخزوم، أسلم هو وأبوه وأمه -رضي الله تعالىٰ عنهم-. فكان المشركون يُخرجونهم إلىٰ الأبطح إذا حميت الرمضاء فيُعذّبونهم بحَرّها، ومرّ النبي ﷺ وهم يُعذَّبُون فقال: «أبشروا آل عمار وآل ياسر! فإن موعدكم الجنة»[٣]. فمات ياسر -رضي الله تعالىٰ عنه- في العذاب، وطعن أبو جهل سمية -رضي الله تعالىٰ عنها- في قُبُلها بحَرْبة فقتلها، فكانت أول شهيدة في الإسلام[٤].

(١) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (١/ ١٤٨). وقد كتبت كتيبًا عن سيرة مصعب بن عمير -رضي الله تعالى عنه- بعنوان (مصعب بن عمير -رضي الله تعالى عنه- سفير الدعوة الأول)، وطبعته دار العاصمة بالرياض عام ١٤١٢هـ، ومتاح منه نسخة إلكترونية. بينت فيه صورًا من المعاناة التي تحمَّلها هذا الصحابي الجليل من أجل الثبات على الدين، بعد أن كان أنعم فتًى في مكة، استشهد -رضي الله تعالى عنه- في أُحد وهو يحمل اللواء، فلم يجدوا له كفنًا، فغُطِّي بقية جسده -رضي الله تعالى عنه- بأوراق الشجر.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣٤٠)، والحاكم، المستدرك (٣/ ٢٨٤)، وصححه ولم يتعقبه الذهبي في التلخيص، وأخرجه ابن ماجه في سننه بلفظ آخر، الألباني، صحيح سنن ابن ماجه (١/ ٣٠)، رقم (١٢٢) وصححه الألباني.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٣٨٨) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يتعقبه الذهبي في التلخيص. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩ / ٢٩٢) رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٤) انظر: ابن حجر، الإصابة (٦/ ٣٣٣)، و (٨/ ١١٤).

وكان خباب بن الأرت -رضي الله تعالىٰ عنه- يذيقه المشركون أنواعًا من العذاب، وكانوا يضعونه علىٰ الجمر، ويضعون عليه الحجارة، فلا يُطفئ الجمرَ إلا وَدَكُ ظهره يذوب عليها[1].

وجاء خباب ﷺ يومًا إلىٰ مجلس عمر ﷺ، فقال: (ادْنُ، فما أحد أحقّ بهذا المجلس منك إلا عمارًا -رضي الله تعالىٰ عنه-، فجعل خباب -رضي الله تعالىٰ عنه- يُريه آثارًا بظهره مما عذَّبه المشركون)[2].

وكان من المستضعفين الذين أصابهم العذاب الجسدي: حمامة والدة بلال -رضي الله تعالىٰ عنهما-، وعامر بن فهيرة، وغيرهم -رضي الله تعالىٰ عنهم-، وكان أبو بكر ﷺ يشتري هؤلاء العبيد المستضعَفين الذين يُعذَّبون ويعتقهم لوجه الله -سبحانه وتعالىٰ-[3].

عن سعيد بن جبير -رحمه الله تعالىٰ- قال: (قلت لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله من العذاب ما يُعْذَرُون به في ترك دينهم؟ قال: نعم والله! إن كانوا ليضربون أحدهم ويُجوّعونه ويعطشونه حتىٰ ما يقدر أن يستوي جالسًا من شدة الضر الذي به، حتىٰ يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتىٰ يقولوا له: اللات والعزىٰ إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، حتىٰ إن الجعل ليمر بهم فيقولون له: أهذا الجعل إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم. افتداءً منهم مما يبلغون من جهد)[4].

---

(١) انظر: ابن سعد، الطبقات (٣/ ١٦٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١/ ٣١)، رقم (١٢٤).

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣٤٠-٣٤١)، ومهدي رزق الله أحمد، السيرة النبوية ص ١٩٠.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣٤٢).

هذا بعض ما روته كُتُب السِّيَر عن الإيذاء البدني الذي أصاب الرسول ﷺ وأصحابه الأوائل -رضي الله تعالىٰ عنهم-، ولا شك أن غيره كثير مما لم تُدوّنه كُتُب السِّيَر، كما أن الوصف لا يبلغ شيئًا مهما كان لبيان الواقع.

وليس القصد هنا هو الاستقصاء، أو نقل كلّ ما فعلته قريش لمواجهة الدعوة، وإنما الهدف تبيين موقف قريش الذي بلغ الغاية في القسوة لمواجهة الدعوة، بدءًا بالرسول ﷺ ومن يتبعه.

ومع هذا الإيذاء البدني فقد كان الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- ممنوعين من الرد علىٰ من اعتدىٰ عليهم، ومطلوب منهم الصبر والتحمل إلىٰ أن يأتي الله بالفرج، عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابًا له -رضي الله تعالىٰ عنهم-، أتوا النبي ﷺ بمكة؛ فقالوا: يا نبي الله! كنا في عزة ونحن مشركون، فلما آمنَّا صِرْنَا أَذِلَّةً، قال: «إني أُمِرْتُ بالعفو، فلا تقاتلوا القومَ»[1].

نقف مع هذا الإيذاء العظيم الذي أصاب محمدًا ﷺ وأصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم- بسبب إسلامهم؛ لنستفيد ما يلي:

أولًا: أن نعلم جميعًا ما واجهه الرسول ﷺ وصحبه الأوائل الكرام -رضي الله تعالىٰ عنهم- في سبيل وصول هذا الدين إلينا، وندرك كم تحمَّل الرسول ﷺ ومعه الصحب الأوائل الكرام من الإيذاء النفسي والبدني من أجل أن تبلغنا هذه الرسالة ويصل إلينا هذا الدين، وهذا -بلا شك- يُوجب علينا حقوقًا عظيمة للرسول ﷺ وللصحب الكرام -رضي الله تعالىٰ عنهم-، أولها محبتهم وتعظيمهم، ومعرفتهم عظيم فضلهم علينا.

---

(١) أخرجه النسائي في سننه (٦/ ٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩ / ١١)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٠٧)، وقال: على شرط البخاري ولم يخرجاه ولم يتعقبه الذهبي، وصححه الرفاعي في تحقيق مختصر ابن كثير (١/ ٤١٢).

ثانيًا: هذا يُحمّلنا مسؤولية هذا الدين؛ فقد وصلنا تامًّا كاملًا، فيجب علينا أن نحافظ عليه وندعو إليه، ونُعَلِّمه الناس، ونوصِّله إلىٰ مَن بعدنا كما سلَّمه مَن قبلنا إلينا، وهذا من الأمانة التي تحملناها، واستلمناها ممن قبلنا، ووجب علينا تسليمها لمن بعدنا كما استلمناها. إن هذا الدين أمانة في أعناقنا أن نقوم به، ونُسلّمه لمن بعدنا، وإن لم نفعل فقد قصّرنا في أداء الأمانة التي تحمّلناها، قال -تعالىٰ-: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب:٧٢].

وتأمل قول الله -تعالىٰ- في سياق قصة إبراهيم -عليه السلام- مع بنيه: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣١-١٣٣].

إبراهيم -عليه السلام- يتلقىٰ الأمر من ربه بالإسلام فيعلن إسلامه، ثم يوصي بها بنيه -عليهما السلام-، ثم يعقوب -عليه السلام- يُوصي بها مرة أخرىٰ بَنِيه عند موته، ويؤكد عليهم، ويسألهم ليتأكد منهم صحة الجواب، والله -جل شأنه- يخبرنا بذلك لنفعل كما فعلوا.

وهو واجبك اليوم ومسؤوليتك أن تحافظ علىٰ نقل هذه الأمانة إلىٰ من بعدك ليبقىٰ الإسلام حيًّا في الأمة تتوارثه جيلًا بعد جيل.

ثالثًا: أن نعلم مقدار العداوة لهذا الدِّين، والكيد له، وأنها عداوة شرسة لا تُبقِي ولا تذر ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة:١٢٠]؛ فكل مَن يعادي هذا الدين هم أحفاد لأولئك الذي حاربوا الرسول ﷺ وصحبه الكرام.

رابعًا: إن هذه العداوات بعضها صادر عن خوف على مصالح دنيوية، خافوا على تجارتهم، أو خاف أفراد على زعامتهم ومكانتهم الاجتماعية؛ قال -تعالى-: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص:٥٧]. وأبو لهب يسأل الرسول ﷺ هل سيكون له ميزات على غيره إذا أسلم أو سيكون مثله مثل غيره ممن أسلم، ولما أخبره الرسول ﷺ بأنه كما يُعطى المسلمون، قال: «تبًّا لهذا من دين تبًّا، أن أكون أنا وهؤلاء سواء»[1]. وبعضها صادر من حسد وتنافس. وسيأتي مزيد تفصيل في المبحث التالي -إن شاء الله تعالى-.

والهدف من عرض هذا، أن نأخذ العبرة والدرس، فلا نردّ الحق لهوًى أو مصلحة أو حسد، أو تنافس على الدنيا، أو لأيّ سبب، فالعاقبة التي جرت على كفار قريش تجري على مَن سار على دربهم، وسُنَّة الله لا تتبدل في الظالمين ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح:٢٣].

خامسًا: إن هذه العداوة منها ما هو ناتج عن الطغيان؛ قال -تعالى-: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الطور:٣٢]؛ قال السعدي: (أم الذي حملهم على ذلك ظلمُهم وطغيانهم؟ وهو الواقع، فالطغيان ليس له حد يقف عليه، فلا يستغرب من الطاغي المتجاوز الحد كل قول وفعل صدر منه)[2]. نعوذ بالله من الطغيان.

سادسًا: وإن من هذه العداوة ما هو ناتج عن عدم يقين لدى هؤلاء؛ قال -تعالى-: ﴿أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٦]؛ قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- في الفتح: (ثم قال: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾؛ فذكر العلة التي عاقتهم عن

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٧١٤). والماوردي، النكت والعيون (تفسير الماوردي) تحقيق السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم (بيروت: دار الكتب العلمية)، (٦/ ٣٦٣)، والقرطبي، تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٥٣).

(٢) السعدي، تفسير السعدي (٨١٦).

الإيمان، وهو عدم اليقين الذي هو موهبة من الله ولا يحصل إلا بتوفيقه)(١). فاسأل ربك أن يرزقك اليقين.

وقال السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (أي: ليس عندهم علم تام، ويقين يوجب لهم الانتفاع بالأدلة الشرعية والعقلية)(٢). وهذا يدعونا إلىٰ أن ندرك أن الإيمان هبة من الله -جل شأنه- قبل كل شيء؛ قال -تعالىٰ-: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣]؛ أي: ليس في نفوسنا قابلية للهدىٰ، لولا أنه -تعالىٰ- منَّ بهدايته واتباع رسله(٣). وهذا يستوجب أن يدعو المسلم ربه الهداية والثبات، ولذلك جاءت آية الهداية في سورة الفاتحة التي يقرأها المسلم في كل ركعة في كل صلاة، فريضةً كانت أو نافلةً ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٦-٧]؛ اللهم ارزقنا اليقين، واهدنا صراطك المستقيم، وثبّتنا عليه يا رب العالمين.

سابعًا: وقفت متسائلًا لمرات عديدة وفي أوقات مختلفة: ما الذي دفع هؤلاء إلىٰ هذا العداء الشرس؟ لماذا هذه السخرية والاستهزاء من ابن العم؟ لماذا هذا الإيذاء البدني القذر؟ لماذا سلا الجزور يُلقىٰ علىٰ ظهره الشريف وهو الهاشمي سليل قصي وعبد المطلب، علانيةً بجوار الكعبة التي هي آمن مكان، وقد نشأ العرب أن لا يُهاج من دخل الحرم فكيف من جوار الكعبة وفي شأن ابن سيدهم أجمعين؟ ما شأن هذه المرأة؟ لماذا أم جميل العوراء تحمل الشوك بصفة مستمرة وتضعه في طريق الرسول ﷺ، مع أن العرب عُرِفَ عنهم إكرام الجار ومعرفة حقه؟

---

(١) فتح الباري (٨/ ٦٠٣).

(٢) السعدي، تفسير السعدي (٨١٦).

(٣) السعدي، تفسير السعدي (٢٨٩).

العرب أشد الشعوب تمسكًا بالقيم والأخلاق، وفيهم من الصفات الحسنة في هذا الشأن التي لا توجد عند غيرهم. أَمَا وسع هؤلاء القوم أن يأخذوا بنصيحة سيد من ساداتهم، بل هو سيد وقائد قريش في وقته: عتبة بن ربيعة الذي نصحهم بعد سماعه لآيات من القرآن (سورة فصلت) بقوله: «يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فو الله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تُصبْه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر علىٰ العرب فمُلكه ملككم، وعزّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به»، وكان جوابهم له أن «قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم».

إنهم عرفوا -كما قلت سابقًا- مضمون هذه الرسالة التي تضرب في أعماق معتقداتهم الدينية، فتجتثّ الشرك من أصله، لا تُبقي علىٰ شيء منه، وهم قوم ألفوا هذه الأصنام من آبائهم وأجدادهم.

وعرفوا أنها دعوة تُلغي أصولًا مهمة في تقاليدهم الاجتماعية، التي قامت علىٰ المفاخرة بالأنساب والأحساب، واحتقار الموالي والعبيد، والإسلام يقول: لا فضل لعربي علىٰ عجمي، وإن أكرم الناس في هذا الدين وأعلاهم منزلةً أكثرهم تقوىٰ، وأنَّىٰ للأشياخ أن يتنازلوا عن تلك المكانة، ويقبلوا بهذا المعيار الجديد للتفاضل؟!

ثامنًا: إن كثيرًا ممن آذوا الرسول ﷺ كانوا من أقاربه؛ كعمه أبي لهب، والأسود بن يغوث، وهو ابن خال النبي ﷺ، وعتيبة أبن أبي لهب، وعبد الله بن أبي أمية، وغيرهم كثير، وهذا أشد أذًىٰ وإيلامًا، قال الشاعر طرفة بن العبد:

وظُلْمُ ذَوِي القُرْبَىٰ أَشَدُّ مَضَاضَةً ... عَلَىٰ المَرْءِ مِنْ وَقْعِ الحُسَامِ المُهَنَّدِ[1]

(١) ديوان طرفة بن العبد، تحقيق مهدي محمد ناصر الدين، الطبعة الثالثة، (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٢٣)، (ص ٢٧). ذوي القربى: الأهل. المضاضة: الحرقة والحزن. الوقع: الضرب. الحسام المهند: السيف المصنوع في الهند.

تاسعًا: نعمة الله العظيمة عليك أيها المسلم عندما يُتاح لك أداء العبادة بأمن واطمئنان، فأداء شعائر الله بأمن، أمنية عظيمة تمناها الصحابة -رضوان الله تعالىٰ عليهم-، وفرحوا بها لما هاجروا إلىٰ الحبشة، وتمكنوا هناك من عبادة الله، لا يَعترض طريقهم أحد.

ومعرفة النعمة تتجلىٰ بأمرين: الأول: معرفة التاريخ؛ لتعرف ما الذي واجهه المسلمون من قبل في سبيل المحافظة علىٰ دينهم. الثاني: معرفة الواقع؛ لتدرك أنك فريد ومتميز، لم يُضيَّق عليك وتسمع حولك الأخبار التي تنقل عما يواجهه المسلمون في العديد من البلاد من تضييق وتهجير وإيذاء يصل حتىٰ التدخل في الاسم، فلا يُسمح للمسلم أن يسمّي ولده أو بنته باسم إسلامي.

عاشرًا: أن نفهم معنىٰ قول الله -تعالىٰ-: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر:٨] جميع النعم[1]. وأولها نعمة الأمن والإيمان وتيسير العبادة والطاعة، وليس المراد بالنعيم نعيم الأكل والشرب فقط، كما يتصور البعض، وإنما نعيم افتقده الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنه- حتىٰ اضطروا إلىٰ الخروج إلىٰ الحبشة مشيًا علىٰ الأقدام بحثًا عنه، تقول أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها- وقد كانت إحدىٰ المهاجرات إلىٰ الحبشة: «فعبدنا الله هناك آمنين»، بل ما هاجر مهاجر منهم إلىٰ الحبشة أو إلىٰ المدينة إلا بحثًا عن هذه النعمة، وهي التمكن من عبادة الله -سبحانه وتعالىٰ-.

هذه النعمة سنُسأل عنها؟ ما هو عذرنا في التقصير في طاعة الله؟ هل أوذينا؟ هل حال أحدٌ بيننا وبين الطاعة؟ هل كُلِّفنا بأمر شاقّ علينا، لقد كُلِّف الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- بأمر عظيم، أُمِرُوا بالهجرة، ثم أُمِرُوا بالجهاد بالنفس والمال، قيل لهم:

(١) انظر: الرازي، التفسير الكبير (٣٢/ ٢٧٥)، وقال عند تفسير الآية: «الأولى أنه يجب حمله على جميع النعم».

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾؛ ونحن المطلوب منا عبادات ميسورة؛ صلاة الجماعة في مسجد مجاور في مكان نظيف مهيَّأ، ومع ذلك نتثاقل ونستصعب الالتزام بذلك! ثم لتسألن يومئذ عن النعيم!! نعيم التمكن من العبادة والطاعة، ثم لم تفعلوا!!

حادي عشر: إن الحياة الدنيا ليست معيارًا لمكانة الشخص عند الله -سبحانه وتعالىٰ-؛ فقد يُؤذَىٰ الشخص ويُهان ويُضرَب وهو من أصلح الناس وأتقاهم، وقد يُكرَم وتُرفع درجته وهو شقيّ ضالّ هالك.

ثاني عشر: إن هؤلاء الصحب الكرام كانوا ممنوعين من الرد، مأمورين بالصبر، وهذا لا شك يزيد العناء عناء آخر، لكن كان هذا لحِكَم عظيمة، منها أنهم لو ردّوا علىٰ الكفار باليد لقضىٰ عليهم الكفار؛ لأن الغلبة لهم، ولا يزال المؤمنون قلَّة قليلة بالنسبة للكفار، فكان الصبر هو السبيل الأمثل حتىٰ يتكون لهم قوة قادرة علىٰ الانتصار[1].

ثالث عشر: إن الله -سبحانه وتعالىٰ- قادر علىٰ حماية رسوله ﷺ، ومنع المشركين من إصابته بأدنىٰ أذىٰ، وحماية صحابة رسول الله ﷺ، ولكن في إصابتهم بالإيذاء يتحقق عدة أمور؛ منها:

أ. رفعة درجاتهم، وزيادة حسناتهم وحط السيئات.

ب. أن هذا يَسن لمن بعدهم الصبر علىٰ الأذىٰ، وكيفية مواجهة الإيذاء البدني والنفسي، وأن المؤمن يُصَاب ويُؤذَىٰ ويُضرَب، ويُستهزَأ به، ومتىٰ أصابه ذلك وتذكر أن الرسول ﷺ قد أُوذِي وأوذي خيار الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-؛

(١) تجد تفصيلاً لهذه الحكمة في الفصل الخامس في مسألة تشريع الجهاد، والحكمة من تأخير تشريعه إلى بعد الهجرة، وأمر الصحابة بكفّ الأيدي في البداية.

هان عليه تحمُّل مشاقّ الأذىٰ الذي يصيبه، فكما نتأسىٰ بالرسول ﷺ في الرخاء؛ فكذلك نتأسىٰ به في الشدة.

رابع عشر: قد يلتبس لدىٰ البعض، فيقول: أليس الله قد حفظ نبيه؟ ووردت نصوص تدل علىٰ ذلك؛ مثل قوله -تعالىٰ-: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ (١٧) سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق:١٧-١٩]، وقوله -تعالىٰ-: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧]، وقول الله -جل شأنه-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج:٣٨]، وغيرها من النصوص؟ فنقول: إن العلماء اختلفوا في هذه المسألة، وأرجحها أن المراد بعصمته ﷺ من القتل والهلاك[١]. أما ما عدا ذلك فيصيبه ﷺ أذًىٰ كما قال -تعالىٰ-: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾ [آل عمران:١١١]، والأذية لا يلزم منها الضرر[٢]. والأذية كما سبق ترفع الدرجات، وأشد الناس بلاء الأنبياء، وهم يسنون لمن بعدهم في مثل هذه المواقف. والله أعلم.

خامس عشر: إن الابتلاء بهذه الشدائد أنتج عدة أمور:

أ. يتميز الخبيث من الطيب، فضعيف الإيمان لا يتحمَّل فلا يؤمن ابتداءً، أو إذا آمن لم يتحمل الاستمرار، وعندها يتميز المؤمن الصادق في إيمانه، ولذلك لم يظهر

---

(١) انظر: أحمد القصير، الأحاديث التي يوهم ظاهرها التعارض مع القرآن الكريم (ص١٣٧ وما بعدها.

(٢) يقول الشيخ محمد العثيمين -رحمه الله تعالى- قوله تعالى: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾ [آل عمران:١١١]: (المعنى لن يضروكم، ولكن يؤذونكم، والأذية لا يلزم منها الضرر، ولهذا قال الله -تعالى-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [الأحزاب:٥٧]؛ فأثبت أنهم يؤذون الله ورسوله، وقال -تعالى-: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ [آل عمران:١٧٦]؛ فالضرر مُنْتَفٍ عن الله -جل شأنه-، والأذية حاصلة.. ويوضح هذا أنه لو صلى إلى جانبك رجل قد أكل بصلًا أو ثومًا فإنك تتأذى برائحته، ولكن هل يضرك؟ لا يضرك. وهذا القول أصح). انظر تفسير القرآن الكريم (تفسير سورة آل عمران ٢/ ٥٦).

في مكة منافقون أبدًا[1]. أما في المدينة لما ذهب الإيذاء البدني كثر النفاق، وصار يدخل في هذا الدين ظاهرًا من يبحث عن مصلحة دنيوية.

ب. إن إيذاء الكفار للمؤمنين يُحقّق عكس مرادهم؛ فهو يجعل الإيمان ينتشر، ومن أمثلة ذلك:

١) إيذاء الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- جعلهم يهاجرون إلىٰ الحبشة، فوصل الدين إلىٰ تلك البقاع.

٢) كان الطفيل بن عمرو الدوسي -رضي الله تعالىٰ عنه- رجلًا شاعرًا شريفًا، فقدم مكة ورسول الله ﷺ بها، وكان كفار قريش يُحَذِّرون كل قادم من الاستماع إلىٰ الرسول ﷺ، ويقولون: إنه ساحر فرَّق بين الرجل وأبيه، والرجل وأخيه، والرجل وزوجته، فحذّروا الطفيل من الاستماع إلىٰ الرسول ﷺ، قال الطفيل: فوالله ما زالوا بي حتىٰ أجمعت علىٰ ألّا أسمع منه شيئًا ولا أكلّمه، فغدوت إلىٰ المسجد وقد حشوت أذني قطنًا، فغدوت يومًا إلىٰ المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي إلىٰ الكعبة، فقمت قريبًا منه فسمعت كلامًا حسنًا، فقلت في نفسي: إني لرجل لبيب شاعر، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فمكثت حتىٰ انصرف إلىٰ بيته، حتىٰ إذا دخل دخلت معه، فقلت: يا محمد إن قومك قالوا لي كذا وكذا، فاعرض عليَّ أمرك، فعرض عليه الرسول ﷺ الإسلام، وتلا عليه القرآن، فأسلمت وشهدت شهادة الحق[2].

---

(١) انظر: ابن تيمية، منهاج السنة (٨ / ٤٧٦)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٧)، قال: (لأن مكة لم يكن فيها نفاق بل كان خلافه من الناس من كان يظهر الكفر مستترًا وهو في الباطن مؤمن، وانظر وجهة نظر أخرى للدكتور/ عبدالعزيز الحميدي في كتابه (المنافقون في القرآن (ص ١٠٠.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٤٠٧-٤٠٨)، وابن حجر، الإصابة (٣/ ٢٨٧).

فكثرة إلحاح قريش في تشويه هذا الدين كانت سببًا في حرص الطفيل -رضي الله تعالىٰ عنه- علىٰ السماع ثم الإيمان.

ت. إن إيذاء هؤلاء الكفار للمؤمنين ولَّد تعاطفًا مع المؤذَىٰ أدَّىٰ إلىٰ الوقوف معه ومناصرته ومن أمثال ذلك:

١) كان حمزة ﷺ يخرج من الحرم فيصطاد، فأقبل من رَمْيه ذات يوم، فلقيته امرأة، فقالت: يا أبا عمارة! ماذا لقي ابن أخيك من أبي جهل، شتمه وفعل، وفعل. فأقبل حتىٰ انتهىٰ إلىٰ أبي جهل وهو في مجلس في الحرم فضربه بالقوس علىٰ رأسه، ثم قال: أتشتمه؟ فأنا علىٰ دينه، أقول ما يقول. فرُدَّ ذلك عليَّ إن استطعتَ! فثار قوم أبي جهل، فقال أبو جهل: دعوه، فقد سببت ابن أخيه، وتم حمزة ﷺ علىٰ إسلامه وعلىٰ ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله[١].

٢) وعمر بن الخطاب ﷺ خرج يومًا متوشحًا سيفه يريد القضاء علىٰ النبي ﷺ، فعلم أن أخته قد آمنت، فمشىٰ عمر إليها، فلما أقبل علىٰ الدار سمع قراءتها مع زوجها وخباب بن الأرت -رضي الله تعالىٰ عنهم- للقرآن، ولما سمعوا صوت عمر توارىٰ خباب، وأخفوا الصحيفة، فلما دخل عليهم، قال: ما هذه الهينمة التي سمعتها عندكم؟ فقالا: ما عدا حديثًا تحدثناه بيننا، قال: لعلكما صبوتما، فقال له ختنه: يا عمر أرأيت إن كان الحق في غير دينك؟ فوثب عمر علىٰ ختنه، فوطأه وطأ شديدًا، فجاءت أخته؛ لتمنعه فضربها بيده ضربة أدمت وجهها، فلما رأىٰ الدم علىٰ وجه أخته ندم واستحيا، وقال: أعطوني الصحيفة التي كنتم تقرأونها، فقالوا له: إنك نجس ولا يمسه إلا المطهرون، فقم فاغتسل، فقام واغتسل وقرأ الصحيفة فآمن[٢].

سادس عشر: إن هؤلاء الذين آذوا رسول الله ﷺ أشد الأذىٰ، أسلم عدد منهم،

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣١٢-٣١٣).
(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣٦٥- ٣٦٧).

فعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة الذي كان يؤذي رسول الله ﷺ وكان يقسم علىٰ نفسه أنه لن يصدق محمدًا، وهو الذي كان يجادل مع أبي جهل من أجل منع أبي طالب من قول (لا إله إلا الله) عندما كان علىٰ فراش الموت[1]، ومع ذلك لم تمضِ سنوات إلا ويسلم بتوفيق الله -عز وجل-، وهذا يعلمنا ألا نيأس من أيّ شخص مهما كان مستوىٰ كفره أو فسقه أو عداوته للدين، وليست أيضًا بعيدة عنا قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي قال عنه أحد المسلمين: «والله لا يسلم عمر بن الخطاب حتىٰ يسلم حمار الخطاب»[2]، وإذا بعمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه- يسلم ويصبح من خيار ومقدّمي صحابة رسول الله ﷺ، ويكون ثاني الخلفاء الراشدين.

(١) صحيح البخاري (١٣٦٠، وصحيح مسلم ٢٤).

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣٦٥).

المبحث الرابع

أبو جهل والدعوة

لا يمكن لمن يقرأ موقف قريش من الرسول ﷺ، وما جاء به من هذا الدين؛ إلا أن يقف مشدودًا لموقف شخص من قريش تميَّز من بينهم جميعًا بأنه رائد الشر، وموقده، ومتسيّد الموقف، وقائد العداوة للرسول ﷺ، فلا توجد مؤامرة إلا وقد نسج هو خيوطها، وقام خلفها حتىٰ فرضها علىٰ القوم، ولا توجد صور تعذيب للمؤمنين إلا وله منها أسوأ الصور وأشدها تنكيلًا وأرذلها خُلُقًا، كأنما يشعر أن هذا الدين جاء للقضاء عليه بمفرده، متقصدًا إلحاق الضرر به، ساعيًا في إنهاء شخصه وشخصيته.

هذا الشخص هو أبو جهل؛ عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي، والذي كان يُلقَّب في الجاهلية بأبي الحكم، وسماه الإسلام أبو جهل؛ فغلب عليه هذا الاسم، وعُرف في السيرة والتاريخ به.

هذا الشخص -مع صِغَر سنّه بالنسبة لأشياخ قريش- هو الذي قاد موقف المشركين في مكة، وجيَّشهم ضد الرسول ﷺ يوم بدر، ورفض كل محاولات الرجوع عن المصادمة المسلحة بعد نجاة العير، فكان أول من احترق في سعيرها، وصار جثة متعفنة في قليبها.

وهنا عرض لتاريخه ومواقفه، ثم بعد ذلك شيء من التأمل في هذه الشخصية:

أبو جهل وُلِدَ قريبًا من عام الفيل ذكر ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ- أن الرسول ﷺ قال بعد انتهاء غزوة بدر، وهم يبحثون عن أبي جهل في القتلىٰ: «انظروا

-إن خفي عليكم في القتلىٰ- إلىٰ أثر جرح في ركبته، فإني ازدحمت يومًا أنا وهو علىٰ مأدبة لعبد الله بن جدعان، ونحن غلامان، وكنت أشف[1] منه بيسير، فدفعته فوقع علىٰ ركبتيه، فجُحِش[2] في إحداهما جحشًا لم يزل أثره به»[3].

وهذا يعني أنه عند البعثة لما يتجاوز الأربعين عامًا. فهو لم يكن أسنّ القوم، من أمثال أعمامه الوليد بن المغيرة، وأبي أمية بن المغيرة (الملقب بزاد الراكب)، وكذلك المطعم بن عدي، والعاص بن وائل السهمي، وغيرهم من الأشياخ في قريش، ولكنه مع ذلك كان مقدمًا فيهم، يدخل دار الندوة، ويشارك الكبار الرأي، يدلّ لهذا أنه قال للرسول ﷺ في بداية الدعوة: يا محمد بأي شيء تهددني؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي ناديًا! فأنزل الله: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾ [العلق: ١٧- ١٨][4].

ولما بُعث الرسول ﷺ حمل هذا الرجل لواء العداوة والحرب له، فمع بروز عداوات كثير من أشياخ قريش إلا أن أبا جهل احتلَّ مكان الصدارة في ذلك، فلا يوجد موقف عام ضد الرسول ﷺ إلا كان خلفه أبو جهل، وأفنىٰ بقية عمره في مُناصَبَة الرسول ﷺ العداء، سواء أكان إيذاء للرسول ﷺ أو إيذاء لمن أسلم، سالكًا في ذلك كلّ السبل منتهكًا كل ما يقف في طريقه من القِيَم العربية، ويكفي أنه باء بجريمة قتل أول شهيدة في الإسلام، وهي سمية -رضي الله تعالىٰ عنها-، فقد قتلها وهي عجوز ضعيفة، وطعنها في موضع العفة منها حتىٰ ماتت، والعرب تستنكف وتعيب الاعتداء علىٰ النساء، فضلًا أن يكون اعتداء بغير حق علىٰ امرأة عجوز في موضع غير لائق.

---

(١) سنن الترمذي، (٧/ ٣٤٩) رقم (٣٣٤٩) بنحوه عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وقال عنه الألباني: صحيح الإسناد، وانظر: ابن كثير تفسير ابن كثير (٨/ ٤٣٩).

(٢) جحش: أي انخدش جلده. لسان العرب (٦/ ٢٧٠) مادة جحش.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة (١/ ٢٩٩).

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة (١/ ٢٩٩).

ومما يدل علىٰ ما ذكرته:

أولًا: أنه هو الذي تصدىٰ للرسول ﷺ ليمنعه من الصلاة في المسجد الحرام، قال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق:٩-١٩]. قال ابن كثير -رحمه الله-: (نزلت في أبي جهل، لعنه الله، توعد النبي ﷺ علىٰ الصلاة عند البيت)[1].

ثانيًا: أنه هو الذي حاول قتل النبي ﷺ وحمل عليه الحجر ليقتله وهو ساجد، وحماه الله -جل شأنه- بالفحل الذي أرعب أبا جهل، وجعله يعود أدراجه، ويلقي الصخرة فزعًا مرعوبًا[2]. ولا يعرف في السيرة أن أحدًا حاول هذه المحاولة العلنية الآثمة، إلَّا ما يُروىٰ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حمل السيف -عندما كان كافرًا-، واتجه إلىٰ دار الأرقم مدعيًا أنه سيقتل محمدًا ﷺ، وكان نتيجتها إسلامه.

وفي صحيح مسلم -رحمه الله تعالىٰ- عن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزىٰ لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن علىٰ رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب، قال: فأتىٰ رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ علىٰ رقبته، قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص علىٰ عقبيه، ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهولًا وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا». قال: فأنزل الله -عز وجل، لا ندري في حديث أبي هريرة، أو شيء بلغه-: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ٦- ١٣]؛ -يعني أبا جهل- ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦

(١) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٨/ ٤٣٨).

(٢) ابن هشام، السيرة (١/ ٣٧٥).

فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡۤ وَٱقۡتَرِب ﴾ [العلق: ١٤- ١٩][١].

ثالثًا: أنه هو الذي حاك مؤامرة المقاطعة العامة لبني هاشم وبني عبد المطلب، وألجأهم إلىٰ الشِّعب ثلاث سنين، يدل علىٰ هذا، أن هشام بن عمرو بن ربيعة لما أراد السعي في نقض الصحيفة مشىٰ إلىٰ زهير بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب، فقال: «يا زهير، أقد رضيتَ أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمتَ، لا يُباعون ولا يُبتاع منهم، ولا يَنكحون ولا يُنكح إليهم؟ أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام، ثم دَعَوْتَه إلىٰ مثل ما دعاك إليه منهم، ما أجابك إليه أبدا»[٢]؛ فهذا القول يكشف أن الذي كان خلف المقاطعة وألزم القوم بها هو أبو جهل.

ويؤكد هذا أن الخمسة لما اتفقوا علىٰ الاعتراض علىٰ الصحيفة والمطالبة بتمزيقها، وتحدثوا في نادي قريش في المسجد أمام الكعبة، واحدًا تلو الآخر، لم يعترض أحد من القوم سوىٰ أبي جهل؛ فإنه لما سمع أحد المتفقين علىٰ تمزيقها يقول: «والله لا أقعد حتىٰ تُشَق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة». قام أبو جهل فقال -وكان في ناحية المسجد-: «كذبت والله، لا تُشَق»، قال زمعة بن الأسود: «أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حيث كُتبت»، قال أبو البختري: «صدق زمعة، لا نرضىٰ ما كُتِب فيها، ولا نُقِر به»، قال المطعم بن عدي: «صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلىٰ الله منها، ومما كُتِب فيها»، وقال هشام بن عمرو نحوًا من ذلك. فقال أبو جهل: «هذا أمر قُضِيَ بليل، تُشُوور فيه بغير هذا المكان»[٣]. فقد أسكت القوم ولم يعترض أحد، وكأنهم يرون ذلك، ولم يعترض إلا أبو جهل صاحب المؤامرة والمُخطّط لها والمنفّذ لها والقائم عليها

(١) صحيح مسلم (٤/ ٢١٥٤) رقم (٢٧٩٧).
(٢) ابن هشام، السيرة (١/ ٣٧٥).
(٣) ابن هشام، السيرة (١/ ٣٧٦).

رابعًا: كان يتناوب مع أبي لهب في متابعة الرسول ﷺ في أسواق العرب في عكاظ ومجنة، ويسفي على الرسول ﷺ التراب، وهو يقول -كما أورد ذلك الذهبي في سير أعلام النبلاء-: (وقال شعبة، عن الأشعث بن سليم، عن رجل من كنانة، قال: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز، وهو يقول: «قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا». وإذا خلفه رجل يَسفي عليه التراب، فإذا هو أبو جهل ويقول: «لا يغرنكم هذا عن دينكم، فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللات والعزى» وإسناده قوي)[1]. فهو لم يكتفِ بإرسال شخص ينوب عنه في المتابعة والتحذير من الرسول ﷺ؛ بل كان يباشر ذلك بنفسه، معبرًا بذلك عن شدة العداوة والحقد التي في نفسه تجاه الرسول ﷺ.

خامسًا: قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالى-: وحدثني عبد الرحمن بن الحرث، عن بعض آل عمر أو بعض أهله قال: قال عمر -رضي الله تعالى عنه-: «لما أسلمت تلك الليلة تذكرت أي أهل مكة أشد عداوة لرسول الله ﷺ حتى آتيه، فأخبره أني أسلمت؟ قال: فقلت: أبو جهل، فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه، فخرج أبو جهل، فقال: مرحبًا وأهلًا يا ابن أختي[2] ما جاء بك؟ قلت: جئت

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية)، (١/ ١٢٢)، وانظر: ابن كثير، السيرة النبوية (٢/ ١٥٧). وقال: «كذا قال في هذا السياق: أبو جهل، وقد يكون وهمًا، ويحتمل أن يكون تارة يكون ذا وتارة يكون ذا، وأنهما كانا يتناوبان على إيذائه ﷺ» يقصد أبا لهب، مع أبي جهل.

(٢) قال ابن حجر في الإصابة (٤/ ٤٨٤): في ترجمة عمر -رضي الله تعالى عنه-: «وأمّه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة المخزومية، كذا قال ابن الزبير. وروى أبو نعيم، من طريق ابن إسحاق أنها بنت هشام أخت أبي جهل». وقال ابن عبد البر في الاستيعاب (٣/ ١١٤٤) في ترجمة عمر -رضي الله تعالى عنه-: «أمه حنتمة بِنْت هاشم بْن الْمُغِيرَة بْن عَبْد الله بن عمر بن مخزوم. وقالت طائفة فِي أم عُمَر: حنتمة بِنْت هِشَام بْن الْمُغِيرَة. ومن قَالَ ذَلِكَ فقد أخطأ، ولو كانت كذلك لكانت أخت أَبِي جهل بْن هِشَام، والحارث بْن هِشَام بْن الْمُغِيرَة، وليس كذلك، وإنما هي ابنة عمهما، فإن هاشم بْن الْمُغِيرَة وهشام بْن الْمُغِيرَة أخوان، فهاشم والد حنتمة أم عُمَر، وهشام والد الْحَارِث وَأَبِي جهل، وهاشم بْن الْمُغِيرَة هَذَا جد عُمَر لأمه، كَانَ يقال له ذو الرّمحين».

لأخبرك أني قد آمنت بالله ورسوله، وصدقت بما جاء به، فضرب الباب في وجهي، وقال: قبَّحك الله وقبَّح ما جئت به[١]؛ فعُمر -رضي الله تعالىٰ عنه- لم يذهب للوليد بن المغيرة رغم أنه عمّ أبي جهل، ليخبره، ولا لغيره من كبراء قريش، وإنما اختار الذهاب إلىٰ أشدهم عداوةً للرسول ﷺ.

سادسًا: إننا نجد بعض المواقف التي فيها مرونة ورغبة في المصالحة، وترك محمد ﷺ وشأنه وعدم مواجهته، من بعض كفار قريش وهم علىٰ عداوتهم للرسول ﷺ، فهذا عتبة في مكة وهو سيدها في وقته، يدعو قريشًا إلىٰ ترك محمد ﷺ وشأنه، وها هو ذا أيضًا عتبة -مرة أخرىٰ- نرىٰ له موقفًا حسنًا في محاولة السلام والرجوع بالناس يوم بدر، وكذلك أبو سفيان لما نجت العير بعث إلىٰ النفير يطلب منهم العودة وعدم القتال؛ إلا أن أبا جهل كان علىٰ العكس من ذلك، في كل هذا المواقف، كان أبو جهل شخصية أخرىٰ، فقد كان مشمِّرًا عن ساعد الحرب والمعاداة للرسول ﷺ وصحبه -رضي الله تعالىٰ عنهم-، فهو يرفع لواء المحاربة لهذا الدين بكل ما أوتي من جاه أو مال أو جهد بدني. ويرفض دعوة السلام في بدر، ويقول لعتبة: «انتفخ والله سحرك»، أي أصابك الجبن والخوف، ويفسد علىٰ الناس مشروع السلام، فكان هو من أول وقود هذا الحرب، واستفتح المسلمون بقتله فيها.

سابعًا: وما أن يسمع أبو جهل بشخص رقَّ لمحمد ﷺ إلا ويبادر في التَّصدّي له، والسخرية منه، والتشديد عليه، حتىٰ يقول قولًا سيئًا في الرسول ﷺ، روىٰ ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ- عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-، أن الوليد بن المغيرة جاء إلىٰ رسول الله ﷺ؛ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: «يا عم[٢]! إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً. قال: لِمَ؟ قال: ليعطوكه،

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣٧١). وفضائل الصحابة للإمام أحمد (١/ ٢٨٤) رقم (٣٧٥).

(٢) وهو فعلاً عمه، فهو أخو والده، فوالد أبي جهل (هشام بن المغيرة) أخو الوليد بن المغيرة، وهنا تعجب كيف يتجرأ يقول لعمه هذا الكلام مع أن الوليد من سادة قريش وكبرائها.

فإنك أتيت محمدًا لتعرض ما قبله! قال: قد علمت قريش أنىٰ من أكثرها مالًا. قال: فقل فيه قولًا يبلغ قومك أنك مُنكِر له. قال: وماذا أقول؟ فو الله ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقوله حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلىٰ، وإنه ليحطم ما تحته. قال: لا يرضىٰ عنك قومك حتىٰ تقول فيه. قال: قف عني حتىٰ أفكر فيه. فلما فكر قال: إنْ هذا إلا سحر يؤثر يأثره عن غيره. فنزلت ﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴿١١﴾ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودٗا ﴾ الآيات.. [المدثر: ١١-١٣]»[1]. فهذه جرّأته وقوّته علىٰ عمه الذي هو أكبر منه سنًّا، وأعظم قدرًا في قريش؛ إذ هو زعيم من زعمائهم الكبار.

ومثل ذلك موقفه مع أبي لهب بعد وفاة أبي طالب، الذي حرص في بداية الأمر أن يحل محل أخيه، وينصر محمدًا ﷺ دون أن يدخل في دينه، لكن هل سيتركه أبو جهل؛ فقد جاءه وقال له: هل سألت ابن أخيك أين مدخل أبيك عبد المطلب؟ وقصده في ذلك الإفساد. فسأل أبو لهب الرسول ﷺ، فقال ﷺ: «مع قومه». فقال أبو لهب: أيدخل عبد المطلب النار؟ والله لا برحتُ عدوًّا لك أبدًا[2].

ثامنًا: وكان أبو جهل كثيرًا ما يتصدر الموقف المعادي، فعندما علمت قريش بقرب وفاة أبي طالب، وبينما كان الرسول ﷺ يسعىٰ جاهدًا لإنقاذ عمه من النار بأن يقول لا إله إلا الله، كان أبو جهل مستميتًا في بقاء أبي طلب علىٰ ملة الشرك، وموته عليه، ومازال يُذَكِّر أبا طالب بملة أبيه عبد المطلب، حتىٰ مات عليها، ولم يقل لا إله إلا الله، وكان يشاركه في هذا الموقف عبد الله بن أمية بن المغيرة[3]. ويضيف البيهقي -رحمه الله تعالىٰ- في دلائل النبوة معلومة جديدة، وهي ما رواه عن ابن

(١) ابن كثير، السيرة النبوية ١/ ٤٩٩).

(٢) انظر: ابن سعد، الطبقات (١/ ٢١١). وابن كثير، السيرة (٣/ ١٤٨).

(٣) صحيح البخاري (٢/ ٩٥) رقم (١٣٦٠)، وصحيح مسلم (١/ ٥٤) رقم (٢٤).

عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-، قال: مرض أبو طالب، فجاءت قريش، وجاء النبي ﷺ وعند رأس أبي طالب مجلس رجل، فقام أبو جهل وجلس فيه كي يمنعه من ذلك....»[(١)]؛ أي ليحول بين الرسول ﷺ والجلوس عند رأس عمه، فيكون قريبًا منه، وتكون استجابته أقرب.

تاسعًا: وفي موقف الهجرة اجتمعت قريش في دار الندوة للتشاور فيما يفعلون بشأن الرسول ﷺ؛ خوفًا من أن يهاجر إلىٰ المدينة. وكان سيد الموقف هو أبو جهل رغم أنه لم يكن أكبرهم سنًّا، لكن كان مقدَّمًا فيهم يهابونه ويوقّرونه.

وكان هو صاحب رأي أن يُؤخَذ من كل قبيلة فتًىٰ، ويشتركون في قتله فيتفرّق دمه في القبائل، ولم يكتفِ بالرأي بل كان حاضرًا بنفسه عند باب بيت النبي ﷺ مع الشباب المطلوب منه تنفيذ الجريمة الكبرىٰ المقترحة منه بقتل النبي ﷺ، يتابع تنفيذ المؤامرة الآثمة، فأخزاه الله وأبطل كيده وحمىٰ نبيه ﷺ.

ولما علم بخروج الرسول ﷺ طار عقله، وذهب إلىٰ بيت أبي بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- يبحث عنه، قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (فحُدثت عن أسماء بنت أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنهما- أنها قالت: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل ابن هشام، فوقفوا علىٰ باب أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي؟ قالت: فرفع أبو جهل يده، وكان فاحشًا خبيثًا، فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي. ثم انصرفوا»[(٢)]، فهو هنا يتصدّر الموقف، ويعتدي علىٰ فتاة صغيرة ويضربها ضربة تنمُّ عمَّا في نفسه من حقد وعداوة، وعما في خُلُقه من نذالة وخسة؛ تجعله لا يترفع عن الاعتداء البدني علىٰ امرأة لا شأن لها في الأمر.

(١) انظر: البيهقي، دلائل النبوة (٢/ ٣٤٥)، وابن كثير، السيرة النبوية (٢/ ١٢٥).
(٢) ابن هشام، السيرة (١/ ٤٨٧)، وابن كثير، (٢/ ٢٣٦).

بعد هذا العرض لمواقف هذا الطاغوت يأتي هنا سؤال: هل هذا الموقف ناتج عن جهل منه بصدق محمد ﷺ واعتقاده ببطلان هذه الرسالة؟ أم أن الرجل يعلم بالحق ويسعىٰ لإطفاء نور الله، ويخشىٰ أمرًا يراه بالغ الخطورة عليه جعله ينافح ويكافح في كل اتجاه؟

في الجواب عن هذا أقول: روىٰ البيهقي -رحمه الله تعالىٰ- في دلائل النبوة: عن المغيرة بن شعبة -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: إن أول يوم عرفت رسول الله ﷺ أني كنت أمشي أنا وأبو جهل بن هشام في بعض أزقة مكة؛ إذ لقينا رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل: «يا أبا الحكم! هلم إلىٰ الله -عز وجل-، وإلىٰ رسوله أدعوك إلىٰ الله»؛ فقال أبو جهل: يا محمد هل أنت مُنتهٍ عن سبّ آلهتنا، هل تريد إلا أن نشهد أن قد بلَّغت؟ فنحن نشهد أن قد بلغتَ، فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حقًّا ما اتبعتك. فانصرف رسول الله ﷺ، وأقبل عليَّ أبو جهل، فقال: فوالله إني لأعلم أن ما يقول حق، ولكن بني قصي قالوا: فينا الحجابة، فقلنا نعم، فقالوا فينا الندوة، فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا اللواء، فقلنا: نعم، قالوا: فينا السقاية، فقلنا: نعم، ثم أطعموا وأطعمنا، حتىٰ إذا تحاكت الركب، قالوا: منا نبي، والله لا أفعل[1].

وروي أن الأخنس بن شريق قال لأبي جهل: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس عندنا أحد غيرنا. فقال له: والله إن محمدًا لصادق، وما كذب قط. ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش[2]. أعماه الحسد عن قبول الحق.

هذا بشأن أبي جهل بخاصة. أما عامة كفار قريش -وأبو جهل منهم- فهم يعلمون صدق الرسول ﷺ بقلوبهم، ويُكذّبونه بألسنتهم، قال تعالىٰ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى

(١) البيهقي، دلائل النبوة (٢/ ٢٠٧)، وانظر رواية أخرى لموقف مشابه من أبي جهل نفسه في سيرة ابن هشام (١/ ٢٧٦).

(٢) الرازي، التفسير الكبير (١٢/ ٥١٨).

يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾ [الأنعام:٣٣]؛ يقول الرازي -رحمه الله تعالىٰ-: (معنىٰ الآية علىٰ هذا التقدير أن القوم لا يكذبونك بقلوبهم، ولكنهم يجحدون نبوتك بألسنتهم وظاهر قولهم)[(١)].

وبعد هذا العرض لواقع هذا الطاغوت نستنتج ما يلي:

أولًا: إن من يدرس شخصية أبي جهل يدرك أنه رجل أعطاه الله إمكانات الزعامة، وتوافرت فيه صفات سوّدته علىٰ قومه، رغم حداثة سِنِّه، في وقت توافر في قريش سادات وأشياخ، كانوا من أفذاذ الرجال، ومع ذلك ساواهم، أو تقدم علىٰ بعض منهم، ويكفي أن نشير إلىٰ أنه أدرك عمه الوليد بن المغيرة الذي كان يَرىٰ أنه أولىٰ من محمد ﷺ بالرسالة، وكان كفار قريش يوافقونه علىٰ ذلك؛ قال -تعالىٰ-: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف:٣١]، كما أدرك عمه أبا أمية بن المغيرة الملقب (بزاد الراكب)؛ لجوده وكرمه مع المسافرين، وكان هو صاحب اقتراح تحكيم أول داخل للمسجد الحرام في وضع الحجر الأسود عندما تنازعت قريش هذا الأمر، وكادت تقوم بينهم حرب لأجل ذلك. وعمه أبو حذيفة وعمه الفاكه بن المغيرة، ومع ذلك كان مقدمًا في قريش.

وهذه الإمكانات الدنيوية مما يعطيها الله للمؤمن والكافر، قال -تعالىٰ-: ﴿ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴾ [الإسراء:٢٠]، وقد أعطىٰ الله فرعون السلطة، وأعطىٰ قارون المال، ونرىٰ الآن في عصرنا من الذكاء والدهاء في أقوام كفار، ووثنيين يعبدون الأحجار، وملحدين لا يؤمنون بالله -تعالىٰ-. وهذا لا يعني مدحًا لهم ولا ثناء؛ بل إن مَن أُعطي شيئًا من ذلك؛ فهي نعمةٌ إنْ سخَّرها في طاعة الله -تعالىٰ-، ونقمة وبلاء وحساب إن سخرها في غير ذلك؛ علىٰ حسب ما وقع منه.

(١) الرازي، التفسير الكبير (١٢/ ٥١٨).

يدل علىٰ توافر هذه المواصفات في أبي جهل، وأنه أُوتي من قوة الشخصية ما مكَّنه من مشاركة قريش في كثير من قراراتها رغم صِغر سنّه، حديث ابن عمر -رضي الله تعالىٰ عنهما-، أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك؛ بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب». قال: وكان أحبهما إليه عمر[1]. وهذا الحديث يدل علىٰ أمرين:

الأول: أن الرسول ﷺ تفرَّس في هذا الرجل الذكاء وقوة الشخصية، ورأىٰ أن في إسلامه نصرًا كبيرًا للمسلمين في مكة لا يعادل إسلام غيره.

الثاني: الدعاء بأن يُعِزّ هذا الدين بإسلام أبي جهل أو عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه-، يدل علىٰ وجود تشابه في شخصيتهما الفطرية في الجاهلية قبل إسلام عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- من قوة الشخصية والزعامة، ومعلوم ما كان عليه عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه- من القوة والصرامة، سواء قبل إسلامه أو بعده.

ثانيًا: كان أبو جهل ممتلئًا بمشاعر الزعامة، مستوطنًا هذا الأمرُ قلبَه، فصار يسعىٰ لتقوية سلطته، وترسيخ قيادته بكل السبل، لا يبالي في سبيل الوصول إلىٰ تحقيق هذه الزعامة أن يدوس علىٰ القيم والأخلاق -كما مر-، وأن يستميت في محاربة من يتخوف منه الوقوف في طريقه، حربًا لا هوادة فيها ولا سِلْم، ولذلك وقد أدرك مضمون هذه الدعوة، وعرف أنها العائق الأكبر لمشروعه، وأنها ستجعله تابعًا، وليس زعيمًا ينفرد بالأمر بلا قيود؛ جاهَر بالعداوة وتصدَّر كل مواقفها، وقضىٰ أربعة عشر عامًا من عمره بعد البعثة إلىٰ أن قتله الله في بدر ناصبًا جهده، باذلًا كل وقته، وفكره، وماله، في حرب الدعوة بكل السبل التي تمكن منها، وهذا لم يصدر مثله من أحد من كفار قريش؛ فقد وقعت مناصبة كفار قريش العداوة لهذا الدين، ولكنهم كانوا يتفاوتون:

(١) رواه الترمذي في سننه (٨/ ١٨١) رقم (٣٦٨١)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر»، وصححه الألباني.

- فمنهم من ناصب الرسول ﷺ العداء وآذوه، لكنهم كان عنده بقية من خلق العرب، وشيء من القِيَم، ورِقَّة تبدو في بعض الأحيان من أمثال المطعم بن عدي الذي أجار الرسول ﷺ عندما عاد من الطائف ليدخل مكة، وحفظ له الرسول ﷺ هذا الجميل، عن محمد بن جبير، عن أبيه -رضي الله تعالىٰ عنه-: أن النبي ﷺ قال في أسارىٰ بدر: «لو كان المطعم بن عدي حيًّا، ثم كلمني في هؤلاء النتنىٰ لتركتهم له»[1]. ومنهم عتبة بن ربيعة الذي حاور الرسول ﷺ مرة ونصح قريش بأن يتركوا الرسول ﷺ، وأخبرهم بأنه سيكون له شأن؛ فلم يقبلوا نُصحه، وقال عنه الرسول ﷺ يوم بدر لما رأىٰ جيش الكفار ينزل من الوادي، كما يقول ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (قال رسول الله ﷺ وقد رأىٰ عتبة بن ربيعة في القوم علىٰ جمل له أحمر، «إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا»[2].

وكان عتبة هو قائد جيش بدر، لكن كان أبو جهل أقوىٰ شخصية منه؛ فسيطر علىٰ الرأي، وعمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه-، كانت له رقة أحيانًا مع المسلمين أيام شركه، فقد قال قبل إسلامه للمرأة المسلمة التي كانت ستهاجر إلىٰ للحبشة: «صحبكم الله»؛ فأخبرت زوجها، وطمعت في إسلامه، فقال لها: هل تطمعين في إسلام ابن الخطاب؟! والله لا يسلم حتىٰ يسلم حمار الخطاب[3].

- والفئة الأخرىٰ عادَوا الرسول ﷺ وآذوه، ولكن كان مقامهم أقل من أن يكون لهم شأن مؤثر، وهؤلاء هم الأتباع، ومن سار مسارهم في قريش.

- والفئة الثالثة عادَوا الرسول ﷺ وآذوه لكن كانت عداوتهم ضمن عداوات قومهم، يحضرون أحيانًا، ويغيبون أخرىٰ، ولم يتصدروا في كل موقف، وإن كان لهم تصدر أحيانًا، ومن أمثال هؤلاء: الوليد بن المغيرة وأبو لهب، والعاص بن وائل، والنضر

(١) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ٩١) رقم (٣١٣٩).
(٢) ابن هشام، السيرة (١/ ٦٢١).
(٣) ابن هشام، السيرة (١/ ٣٤٣).

بن الحارث، وأمية بن خلف، وأبي بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وأضرابهم.

وانفرد هذا الطاغوت بكونه حاضرًا في كل تآمُر، بل متسيدًا في كل موقف سوء، لخَّص أبو طالب موقف أبي جهل بقوله: (ابْنُ الْحَنْظَلِيَّةِ -يَعْنِي أَبَا جَهْلٍ- إِنَّهُ لَمْ يَغِبْ عَنْ شَرٍّ)[1]. تجده في كل مؤامرة تُحَاك ضد الرسول ﷺ، إما أن يكون مقترحًا، أو مشجِّعًا أو منفِّذًا، ولذلك استحق أن يُطلَق عليه فرعون هذا الأمة، فقد رُوي أن الرسول ﷺ قام مع ابن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه- لمشاهدة أبي جهل بعد مقتله في بدر فقال: «الحمد لله الذي أخزاك يا عدو الله، هذا كان فرعون هذه الأمة»[2]، وهذا -إن صح- فإن من دلالاته أن أبا جهل ناصَب محمد ﷺ العداوة مناصبةً منفردةً، بمثل انفراد فرعون بمناصبة موسىٰ -عليه السلام-، وأنهما اشتركا في السبب وهو خوف كلّ منهما ذهاب زعامته، فكان ذهابه بها.

(١) انظر: ابن سعد، الطبقات ١/ ٢٠٣)، وانظر: محمد إلياس الفالوذة، الموسوعة في صحيح السيرة النبوية الطبعة الأولى: (مطابع الصفا - مكة ١٤٢٣)، (ص ٣٠٢).

(٢) رواه الإمام أحمد، المسند، تحقيق وتخريج شعيب الأرناؤوط وزملائه (٧/ ٢٧٨- ٢٨٠)، رقم (٤٢٤٦ و٤٢٤٧)، وقال المحقق عن كل من الحديثين: (إسناده ضعيف لانقطاعه). ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٧٩) رقم (٩٩٦٥)، وقال: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن وهب بن أبي كريمة وهو ثقة»، وقال محقق تفسير البغوي، عبد الرزاق المهدي في هامش التفسير (٥/ ١٨٧) الأثر رقم (٢٣٠١): «الخلاصة: هو حديث حسن باللفظ الذي أوردته بمجموع طرقه، والله أعلم». وانظر: ابن كثير، تفسير ابن كثير (٤/ ٧٥)؛ فقد قال: «وَلِهَذَا كَانَ أَبُو جَهْلٍ فِرْعَوْنَ هَذِهِ الْأُمَّةِ». وقال أبو محمد مكي بن أبي طالب القرطبي في الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره تحقيق مجموعة من طلاب جامعة الشارقة بإشراف الشاهد البوشيخي، الطبعة الأولى (الشارقة، جامعة الشارقة ١٤٢٩)، (٤/ ٢٧٧٢): «وقال ابن مسعود: فجئت أبا جهل، وهو فرعون هذه الأمة فوجدته مقطوع اليد والرجل، فقلت: أخزاك الله، فقال: رُوَيْع غنم اذْنُهْ فإن الفحل يحمي إبله وهو معقول. قال ابن مسعود: وكان معه سيف جيّد، ومعي سيف ردي، فأدرت به حتى أخذت سيفه، ثم ضربته به حتى مات»، وانظر: ابن حجر، فتح الباري (١/ ٢٦) فقد قال: وقعت النقمة على يد النبي ﷺ بفرعون هذه الأمة وهو أبو جهل بن هشام ومن معه ببدر» وعمومًا هذا الوصف منتشر مشتهر في كتب السيرة.

ثالثًا: إن مَن يقرأ سيرة هذا الطاغوت وشخصيته، ويرىٰ استمراره في معاندة الرسول ﷺ وإيذاءه له، واستمراره علىٰ الكفر والطغيان، مع أنه رأىٰ أكثر من غيره من الآيات التي تدل علىٰ نصر الله -جل شأنه- لنبيه، عندما حاول الاعتداء علىٰ الرسول ﷺ لقتله وهو ساجد(١)، أو امتناعه من دفع حق الأراشي، ثم مجيء الرسول ﷺ مع الأراشي، فأصاب أبا جهل الذعر ودفع للأراشي حقه كما مر(٢). فرغم هذه المواقف ورؤيته من الآيات المؤيدة للرسول ﷺ عيانًا، فقد مضىٰ في هذا الطغيان، وهذا -والعياذ الله- أشد الخذلان.

رابعًا: إن شخصية أبي جهل هي شخصية تكرر في مختلف الأزمنة والأمكنة -كشخصية فرعون وشخصية قارون-، لكن منها مَن تمكَّن فدمَّر العالم، ومنهم من لم يتمكّن فاقتصر تدميره علىٰ نفسه. وهذه الشخصية هي التي تأبىٰ إلا أن تكون كل شيء ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩]، فالأمر أمره والرأي رأيه، وعلىٰ الجميع أن يكون آلة تنفيذ عنده. فإن لم يستطع إخضاع غيره، أهلك نفسه بسوء تصرفاته وتهوره.

بل لا أبالغ إذا قلت: إن شخصية أبي جهل تتكرر في بعض الأسر والعائلات، وفي بعض البيوت تجد من يتسلط ويواجه كل خير، وكل من يأمر بمعروف أو ينهىٰ

(١) صحيح الإمام مسلم (٤/ ٢١٥٤ حديث رقم ٢٧٩٧، ورواه البخاري مختصرًا (٦/ ١٧٤)، عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-. وسبق إيراد القصة كاملة في فقرة أساليب مواجهة الكفار للرسول ﷺ.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية ١/ ٤١٦- ٤١٧، والبيهقي، دلائل النبوة (٢/ ١٩٣- ١٩٤)، وابن كثير، السيرة النبوية (١/ ٤٧٠)، والبلاذري، أنساب الأشراف ١/ ١٢٨ – ١٢٩. ومحمد العوشن، ما شاع ولم يثبت في السيرة، وقال (ص ٤٧): «وعبد الملك شيخ ابن إسحاق ترجم له ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل، وسكت عنه. ثم إن الخبر مرسل. وذكرها ابن كثير عن ابن إسحاق، وسكت عنها»، وسبق إيراد القصة كاملة في فقرة أساليب كفار قريش في مواجهة الرسول ﷺ.

عن منكر، لا يريد فضيلة إلا عن طريقة، ولا يريد لأحد مكانة إلا بإذنه، ويا ويل من يفكر بالخروج عن طاعته، وعباءته وهيمنته!!

خامسًا: لقد تكررت شخصية أبي جهل في المدينة، ولكن بصورة أقل، وهلك في المدينة رجلان من كبار أهل المدينة نتيجة شرفهما الذي خافا عليه بمقدم الرسول ﷺ، وناصَبا الرسول ﷺ العداوة جهارًا، ونفاقًا أحيانًا أخرىٰ، يقول السمهودي -رحمه الله تعالىٰ-: (قدم رسول الله ﷺ المدينة وسيّد أهلها عبد الله بن أبي ابن سلول، كان من الخزرج.. لا يَخْتِلف في شرفه في قومه اثنان، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده علىٰ رجل من أحد الفريقين -حتىٰ جاء الإسلام- غيره، ومعه في الأوس رجل هو في قومه من الأوس شريف مطاع أبو عامر بن صيفي (المنافق)، وهو والد حنظلة الغسيل، وكان قد ترهَّب ولبس المسوح، فشقيا بشرفهما؛ أما عبد الله بن أبي فلما انصرف عنه قومه إلىٰ الإسلام ضغن، ورأىٰ أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكًا، فلما رأىٰ قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهًا مُصِرًّا علىٰ نفاق وضغن، فكان رأس المنافقين، وإليه يجتمعون)[(١)].

سادسًا: لله حكمة في وجود هؤلاء الطغاة في طرق الأنبياء والدعاة، وفي تسليطهم ثم قصمهم، فهم عقبات لا بد منها ليعظم أجر الأنبياء والدعاة، وليميز الله الخبيث من الطيب، والباطل من الحق، أليس الله -جل شأنه- هو الذي سلَّط أبا جهل ليتشبث بإشعال الحرب في بدر، بعد أن كاد الفريقان يعودان، وتبقىٰ قريش علىٰ قوتها، وفريق المؤمنين يعود بلا نصر ولا غنيمة، ويكون خروجه من المدينة بدون أي نتيجة، لكنَّ الله -جل شأنه- سلَّط هذا الرجل فأوقد النار علىٰ نفسه، وعلىٰ قومه، وكُسرت قوة قريش الكافرة، وأعز الله -جل شأنه- المؤمنين، وعادوا إلىٰ المدينة معهم الأسرىٰ والغنائم والعز والتمكين، وجثث كبراء قريش في قليب

---

(١) السمهودي، وفاء الوفاء (١/ ١٧٢-١٧٣).

بدر. فلا يغرنك وجود طاغوت في عصر من العصور، فلن يعدو أن يكون ظاهر الأمر عَقَبَةً، وباطن الأمر تدبير إلهي يُعِزّ الله به المؤمنين الصادقين، ويقصم به ظهور الكافرين والمنافقين.

سابعًا: حينما يتبين لنا سبب العداوة، وأنها كانت تدور علىٰ الخوف من ذهاب الزعامة؛ ندرك خطورة هذه الشهوة علىٰ صاحبها، عن كعب بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه- أن النبي ﷺ قال: «ما ذئبان جائعان أُرسلا في زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء علىٰ المال والشرف لدينه»[1]، وقال شداد بن أوس -رضي الله تعالىٰ عنه-: يا نعايا العرب! يا نعايا العرب! إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية، قيل لأبي داود السجستاني -رحمه الله تعالىٰ-: وما الشهوة الخفية؟ قال: حبّ الرئاسة[2].

أما وإنها لَأُمّ الشهوات كلها، فهي تُحقّق كلّ الشهوات الأخرىٰ، ولا تستطيع الشهوات الأخرىٰ أن تُحقّق شهوة الزعامة، فالزعامة تجلب لصاحبها المال، بالرضا أو بالعصا، وتتحقّق له شهوات الفرج والبدن، وغيرها.

وحينما ننظر للتاريخ العام نجد أن شهوة الزعامة هذه أدَّت إلىٰ حرب بين الأخ وأخيه، بل قد يقتل الابن أباه من أجل الاستيلاء علىٰ السلطة.

لكن ما الدرس الذي نستفيده من هذا، مع وعينا بأن هذه الشهوة موجودة في كل إنسان حتىٰ بين الأطفال، لكنها بدرجة متفاوتة؟

---

(١) سنن الترمذي (٥/ ٣٧٦)، قال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح»، وصححه الألباني.

(٢) ابن تيمية، قاعدة في المحبة تحقيق مشاري الحرفة، الطبعة الأولى (الرياض الناشر المتميز ١٤٤٢)، (ص ١٩٠)، ومعنى «يا نعايا العرب»: من النعي وإعلان خبر الموت، كأنه يقول: قد ذهبت العرب، أي يا هذا انع العرب، ويا أيها الرجل انعهم. انظر: الأزهري، تهذيب اللغة (٣/ ١٣٨).

إن علينا إذا عرفنا هذا، أن نراقب هذه الشهوة الكامنة في نفوسنا، الخطرة علىٰ سلوكنا وديننا وقيمنا، فلا تخرج عن إطارها الشرعي بالظلم والبغي والعدوان، وأن نعيد النفس ونعودها علىٰ التواضع والطاعة لمن أمرنا الله بطاعته من أمير أو عالم أو والد أو غيره ونضع النفس في موضعها الملائم لها حقيقة، قال -تعالىٰ-: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان:١٨]، وأن ندرك تَبِعات الانقياد وراء شهوة السلطة من خسارة للآخرة والدنيا.

ثامنًا: عندما يعي العاقل وجود هذه الشهوة في نفوس الناس وحبّهم لها؛ يُحسن التعامل معهم، ويرعىٰ هذا الأمر، ولا يقع منه تصرّف يمسّ هذه الجانب لأهميته لديهم وحساسيته عندهم، فالنفوس مفطورة علىٰ محبَّة مَن يُوقِّرها، شَغُوفة بسماع الثناء عليها، فإعطاء إخوانك شيئًا من هذا الحق التي تحبه تلك النفوس، بصدق وأمانة دون كذب وتزوير، مطلب شرعي، فتوقير الكبير، وإفساح المجلس له عندما يدخل، والترحيب به وإشعاره بقيمته، كلها تلامس شيئًا محبوبًا فُطِرَت النفوس عليه، تبعث علىٰ السرور، وتُولّد المحبة، وتنشر الألفة، وهو فِقْه تربويّ مهم ينبغي ألَّا يغيب عن المسلم في خُلقه وتعامله مع إخوانه، وكلها تدور حول أن الشخص يُحب أن يَرىٰ أن له مكانةً وجاهًا ومنزلة عند الآخرين.

والرسول ﷺ يوم فتح مكة قال له العباس -رضي الله تعالىٰ عنه-: إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئًا، قال: «نعم، مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن»[١].

وكعب بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه- لما نزلت توبته بعد قصة تخلُّفه في غزوة تبوك، وجاء فرحًا بتوبة الله عليه، يقول: «حتىٰ دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إليَّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتىٰ صافحني وهنّاني، والله

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق السقا (٢/ ٤٠٣)، وابن كثير، السيرة النبوية (٣/ ٥٤٩ و٥٥٤)، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن الرسول ﷺ قال يوم فتح مكة «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» صحيح مسلم (٣/ ١٤٠٥) رقم (١٧٨).

ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة»[1]. فانظر إلىٰ قَسَمِه أنه لن ينساها لعظمه تأثير هذا القيام والتوقير في نفسه.

تاسعًا: يا ويح أبي جهل! ما ضر إلا نفسه. يقول القرطبي -رحمه الله تعالىٰ-: (واعجبًا لأبي جهل مسكين! أسلم ابنه عكرمة، وابنته جويرية، وأسلمت أمه وأسلم أخوه[2]، وكفر هو، قال الشاعر:

ونورًا أضاء الأرض شرقًا ومغربًا   وموضع رجلي منه أسود مظلم)[3].

الله أكبر، اللهم يا مُقلّب القلوب ثبّت قلوبنا علىٰ دينك، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذا هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

عاشرًا: تأمل قول الله -تعالىٰ-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٣].

---

(١) صحيح البخاري (٦/ ٣) رقم (٤٤١٨).

(٢) أسلم أخواه: سلمة بن هشام -رضي الله تعالى عنه-، قال ابن حجر -رحمه الله تعالى-: «كان من السابقين ودعا له الرسول ﷺ» انظر: (الإصابة ٣/ ١٣٠). والحارث بن هشام -رضي الله تعالى عنه-، أسلم يوم فتح مكة وحسن إسلامه. انظر: (الإصابة ١/ ٦٩٨).

(٣) تفسير القرطبي (١٥/ ٢٢٤).

المبحث الخامس

أبو بكر رضي الله عنه والدعوة

في المبحث السابق تحدثت عن أبي جهل والدعوة، ورأيت أن من فقه السيرة أن أكتب لمحة أيضًا، نعم لمحة سريعة، عن الشخصية المتفردة المقابلة لأبي جهل، فكما تسنم أبو جهل العداوة فقد ظهر لي من خلال السيرة، أن شخصية أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- تصلح أن تكون هي الشخصية الفذَّة المقابلة لسيرة أبي جهل.

وليس المقصود هنا هو الحديث عن سيرة أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، وإنما بيان؛ بل ربما إشارة إلىٰ هذا التميز الفريد له -رضي الله تعالىٰ عنه- في متابعته للرسول ﷺ من أول يوم.

فكما كان أبو جهل طاغوتًا وفرعونًا، فقد كان هذا صدِّيقًا وصاحبًا وخليفة.

وليست المسألة مقارنة، ولكنها تذكيرٌ بشيء من الحكمة في وجود هاتين الشخصيتين، وأنَّىٰ لشخص أن يُقارن أبا بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- بأبي جهل، إلا مقارنة تشبه قول الله تعالىٰ: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ [الفرقان: ١٢-١٦]، ولا يُفهم من المقارنة أدنىٰ مشابهة قال -تعالىٰ-: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩].

أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

اسمه: عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب؛ فهو قرشي تيمي يلتقي نسبه مع رسول الله ﷺ في الجد السادس (مرة بن كعب بن لؤي) فتيم، وكلاب أخوان، وكلاهما ابن لـ(مرة بن كعب)، وكلاب هو جد للرسول ﷺ، وتيم جد لأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-.

وكنيته: أبو بكر، والبَكْر هو الفتي من الإبل، وكانت العرب تسمي بهذا الاسم، وتكني به، ولا زالت، تفاؤلًا بالقوة والحيوية والنشاط والنباهة... إلخ عدد من الصفات الكريمة.

وُلِدَ -رضي الله تعالىٰ عنه- بعد عام الفيل بسنتين وأشهر، فهو أصغر من رسول الله ﷺ، في المدة التي بعد عام الفيل. وكان تاجرًا ونسّابًا مشهورًا في العرب بذلك، لم يشرب الخمر، ولم يسجد لصنم قط، وكان صديقًا للرسول ﷺ قبل البعثة.

عن أبي العالية -رحمه الله تعالىٰ-، قال: «سئل أبو بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- في مجمع من أصحاب رسول الله ﷺ: هل شربت خمرًا في الجاهلية؟ قال: أعوذ بالله، قالوا: ولِمَ ذاك؟ فقال: كنت أصون عِرْضي وأحفظ مروءتي؛ لأنه مَن شرب الخمر كان لعِرْضه ومروءته مُضيِّعًا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «صدَق أبو بكر، صدق أبو بكر»[1].

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (ثم أسلم أبو بكر، فلما أسلم رضي الله عنه أظهر إسلامه، ودعا إلىٰ الله وإلىٰ رسوله، وكان رجلًا مألفًا لقومه، محببًا سهلًا، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر، وكان

(١) أبو نعيم الأصبهاني، معرفة الصحابة، تحقيق عادل العزازي، الطبعة الأولى (الرياض: دار الوطن ١٤١٩)، (١/ ٣٣) رقم (١١١).

رجلًا تاجرًا، ذا خُلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر؛ لعلمه وتجارته وحُسْن مجالسته)[1].

وكان -رضي الله تعالىٰ عنه- مِن أوائل مَن أسلم، بل هو أول مَن أسلم مِن الرجال -رضي الله تعالىٰ عنه-، والذي لا شك فيه أنه أول رجل أسلم وأظهر إسلامه منذ الساعة التي أعلن فيها إسلامه، وعاش معلنًا إسلامه مجاهرًا بالحق، زمن الشدة كلها مع الرسول ﷺ، وصَحِبَه في كلّ المواقف، وكان هو ثاني اثنين يوم الهجرة.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت، وقال أبو بكر صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي» مرتين[2]. وهذا كالنص الصريح علىٰ أنه أول مَن أسلم، وعلىٰ مبادرته إلىٰ الإسلام دون تردُّد.

وفي السيرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما دعوتُ أحدًا إلىٰ الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة، ونظر وتردُّد، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة، ما عكم عنه حين ذكرته له، وما تردد فيه»[3].

ولما أسلم كان إسلامه إسلامًا راسخًا؛ قال -تعالىٰ-: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل:١٧- ٢١]؛ فقد نقل عدد من المفسرين الإجماع علىٰ أنها نزلت في أبي بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال البغوي -رحمه الله تعالىٰ-: (يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ الصَّدِيقَ فِي قَوْلِ الْجَمِيعِ)[4]. وقال ابن عطية -رحمه الله تعالىٰ-: (ولم يختلف

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢٥١-٢٥١) ملخصًا.
(٢) صحيح البخاري (٥/ ٥) ط السلطانية.
(٣) ابن هشام، السيرة (١/ ٢٣٢).
(٤) البغوي، تفسير البغوي (٥/ ٢٣٤). طبعة التراث.

أهل التأويل أن المراد بـ ﴿ٱلۡأَتۡقَى﴾ إلىٰ آخر السورة أبو بكر الصديق)[1]. وقال ابن الجوزي -رحمه الله تعالىٰ- في تفسيره: (الْأَتْقَىٰ يعني: أبا بكر الصديق في قول جميع المفسرين)[2]. وقال الشوكاني -رحمه الله تعالىٰ-: (الْأَتْقَىٰ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ فِي قَوْلِ جَمِيعِ الْمُفَسِّرِينَ)[3].

ومعلوم أن المراد بالأتقىٰ الذي بلغ الغاية في التقىٰ فهناك تقيّ، وهناك أتقىٰ، والغاية هي الأتقىٰ! هذا في نفسه، وفي إسلامه! فهل اكتفىٰ بذلك؟

كان -رضي الله تعالىٰ عنه- نشيطًا جادًّا في الدعوة إلىٰ الله، وأسلم علىٰ يديه ﷺ جمع من كبار الصحابة؛ منهم: عثمان بن عفان ﷺ، والزبير بن العوام ﷺ، وعبد الرحمن بن عوف ﷺ، وسعد بن أبي وقاص ﷺ، وطلحة بن عبيد الله ﷺ، وهؤلاء الخمسة الذين أسلموا علىٰ يد أبي بكر الصديق ﷺ هم من العشرة المبشرين بالجنة[4].

ثم جاء بعثمان بن مظعون، وأبي عبيدة بن الجراح، وأبي سلمة بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم فأسلموا كذلك[5]. وقد كان هؤلاء هم السادة وأكبر القادة، ومقدميهم في سيرة المصطفىٰ ﷺ.

هذا ما اشتهر أنهم أسلموا علىٰ يديه، ولم يشغله ذلك عن العناية بالمستضعفين الأرقاء، الذين أسلموا ونالهم من أسيادهم من كفار قريش العذاب، فكان يسعىٰ في شرائهم وإعتاقهم، فقد أعتق سبعة ممن يعذبون في الله -سبحانه وتعالىٰ-.

---

(١) ابن عطية، تفسير ابن عطية (٥/ ٤٩٢).

(٢) ابن الجوزي تفسير ابن الجوزي (٤/ ٤٥٥).

(٣) الشوكاني، فتح القدير (٥/ ٥٥٢١). نقلاً عن الواحدي -رحمه الله تعالى-.

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٢٥١-٢٥١).

(٥) انظر: ابن كثير البداية والنهاية (٤/ ٧٥ -٧٦).

عن هشام عن أبيه عروة -رحمهما الله تعالىٰ- قال: (أعتق أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- سبعة، كلهم يُعذّب في الله؛ أعتق بلالًا وعامر بن فهيرة، وزنيرة والنهدية وابنتها، وجارية بني مؤمل، وأم عبيس -رضي الله تعالىٰ عنهم-)[1].

وعن الأصمعي -رحمه الله تعالىٰ- أن أبا بكر الصديق أعتق سبعة كلهم يُعذَّب في الله؛ بلال وعامر بن فهيرة، وزنيرة، وأم عبيس، وجارية بن عمرو بن المؤمل، والنهدية وبنتها[2].

عن عامر بن عبد الله بن الزبير -رضي الله تعالىٰ عنهم-، عن بعض أهله قال: قال أبو قحافة -رضي الله تعالىٰ عنه- لابنه أبي بكر: يا بني، إني أراك تعتق رقابًا ضعافًا، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالًا جُلدًا يمنعونك ويقومون دونك؟ فقال أبو بكر: يا أبتِ، إني أريد ما أريد. ويُذكر أنه نزلت فيه هذه الآيات ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ٥-٢١][3].

ومنذ أن دخل في الإسلام وماله كله مُسخّر في الدعوة إلىٰ الله، ويكفيه فخرًا قول الرسول ﷺ كما في حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: خطب النبي ﷺ فقال: «إن الله خيَّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله»، فبكىٰ أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقلت في نفسي ما يُبكي هذا الشيخ؟ إن يكن الله خيَّر

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، (طبعة التركي)، (١/ ٢٥٣).

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، (طبعة التركي)، (١/ ٢٥٣).

(٣) أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، تحقيق وصي الله محمد عباس، الطبعة الأولى، (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٣)، (١/ ٩٥) رقم (٦٦)، وابن عساكر، تاريخ دمشق (٣٠/ ٦٧).

عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله، فكان رسول الله ﷺ هو العبد، وكان أبو بكر أعلمنا، قال: «يا أبا بكر لا تَبْكِ، إنَّ أَمَنَّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا من أمتي لاتخذت أبا بكر، ولكن أُخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سُدَّ، إلا باب أبي بكر»[1].

وعن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه، ما خلا أبا بكر؛ فإن له عندنا يدًا يكافئه الله به يوم القيامة، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ألا وإن صاحبكم خليل الله»[2].

وعن هشام عن أبيه عروة -رحمهما الله تعالىٰ- قال: أسلم أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- وله أربعون ألفًا فأنفقها في سبيل الله[3]. وكان الرسول ﷺ يقضي في مال أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- كما يقضي الرجل في مال نفسه[4].

أخرج الإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ- في المسند «عن أسماء بنت أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنهما- قالت: «لما خرج رسول الله ﷺ، وخرج معه أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، احتمل أبو بكر ماله كله معه؛ خمسة آلاف درهم، أو ستة آلاف درهم». قالت: «وانطلق بها معه». قالت: «فدخل علينا جدي أبو قحافة وقد ذهب بصره، فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه، قالت: قلت: كلا يا أبت، إنه قد ترك لنا خيرًا كثيرًا». قالت: «فأخذت أحجارًا، فوضعتها في كوة البيت،

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (١/ ١٠٠) ط السلطانية، وصحيح مسلم (٤/ ١٨٥٤) رقم (٢٣٨٢).

(٢) الترمذي، سنن الترمذي تحقيق أحمد شاكر (٥/ ٦٠٩) رقم (٣٦٦١)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه» وصححه الألباني.

(٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق (٣٠/ ٦٧).

(٤) أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، فضائل أبي بكر -رضي الله تعالى-، تحقيق وصي الله محمد عباس، الطبعة الأولى، (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٣)، (١/ ٧٢) رقم (٣٦).

كان أبي يضع فيها ماله، ثم وضعت عليها ثوبًا، ثم أخذت بيده، فقلت: يا أبت، ضع يدك علىٰ هذا المال». قالت: «فوضع يده عليه، فقال: لا بأس، إن كان قد ترك لكم هذا، فقد أحسن، وفي هذا لكم بلاغ». قالت: «ولا والله ما ترك لنا شيئًا، ولكني قد أردت أن أُسكّن الشيخ بذلك»[1].

وأما دفاعه عن النبي ﷺ بنفسه، فعن عروة بن الزبير -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: سألت ابن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ، قال: «بينا النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة؛ إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقًا شديدًا»؛ فأقبل أبو بكر حتىٰ أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي ﷺ، قال: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر:٢٨]؛ الآية[2].

وفي الفتح لابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: «أخرج أبو يعلىٰ والبزار بإسناد صحيح عن أنس قال: «لقد ضربوا رسول الله ﷺ مرة حتىٰ غُشِيَ عليه؛ فقام أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- فجعل ينادي: ويلكم! أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله؟! فتركوه، وأقبلوا علىٰ أبي بكر»، وهذا من مراسيل الصحابة. وقد أخرجه أبو يعلىٰ بإسناد حسن مطولًا من حديث أسماء بنت أبي بكر-رضي الله تعالىٰ عنهما-... وفيه: «فأتىٰ الصريخ إلىٰ أبي بكر؛ فقال: أَدْرِك صاحبك. قالت: فخرج من عندنا وله غدائر أربع، وهو يقول: ويلكم! أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله؟! فلهوا عنه وأقبلوا إلىٰ أبي بكر، فرجع إلينا أبو بكر فجعل لا يمسّ شيئًا من غدائره إلا رجع معه».

---

(١) المسند (٤٤/ ٥٢٠) رقم (٢٦٩٥٧). وقال محققو المسند: «إسناده حسن»، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦ رقم: ٤٢٦٧) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ولم يتعقبه الذهبي.

(٢) «صحيح البخاري (٥/ ٤٦) ط السلطانية.

ولقصة أبي بكر هذه شاهد من حديث عليّ أخرجه البزار من رواية محمد بن علي عن أبيه -رضي الله تعالىٰ عنه- أنه خطب؛ فقال: «مَن أشجع الناس؟ فقالوا: أنت. قال: أما إني ما بارزني أحد إلا أنصفت منه، ولكنه أبو بكر. لقد رأيت رسول الله ﷺ أخذته قريش فهذا يجؤه، وهذا يتلقاه، ويقولون له: أنت تجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟ فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا، ويدفع هذا، ويقول: ويلكم! أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله؟! ثم بكىٰ عليّ ثم قال: أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون أفضل أم أبو بكر؟ فسكت القوم. فقال عليّ: والله لساعة من أبي بكر خير منه؛ ذاك رجل يكتم إيمانه، وهذا يعلن بإيمانه»[1].

وعن القاسم بن محمد -رحمه الله تعالىٰ- عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: «لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلًا، ألح أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- علىٰ رسول الله ﷺ في الظهور، فقال: "يا أبا بكر إنَّا قليل". فلم يزل أبو بكر يلحّ حتىٰ ظهر رسول الله ﷺ وتفرق المسلمون في نواحي المسجد، كلّ رجل في عشيرته، وقام أبو بكر في الناس خطيبًا، ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلىٰ الله وإلىٰ رسوله ﷺ، وثار المشركون علىٰ أبي بكر وعلىٰ المسلمين، فضُربوا في نواحي المسجد ضربًا شديدًا، ووُطِئَ أبو بكر وضُرب ضربًا شديدًا، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفين ويحرفهما لوجهه، ونزا علىٰ بطن أبي بكر حتىٰ ما يُعْرَف وجهه من أنفه، وجاء بنو تيم يتعادون، فأجلت المشركين عن أبي بكر، وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتىٰ أدخلوه منزله، ولا يشكون في موته، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد، وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة. فرجعوا إلىٰ أبي بكر فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتىٰ أجاب، فتكلم آخر النهار، فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسوا منه

(١) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ١٦٩).

بألسنتهم وعذلوه، ثم قاموا، وقالوا لأُمّه أُمّ الخير: انظري أن تُطعميه شيئًا، أو تسقيه إياه. فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ. فقالت: والله ما لي عِلْم بصاحبك. فقال: اذهبي إلىٰ أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه. فخرجت حتىٰ جاءت أم جميل، فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله. فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلىٰ ابنك؟ قالت: نعم، فمضت معها حتىٰ وجدت أبا بكر صريعًا دنفًا، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح، وقالت: والله إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك. قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: هذه أُمّك تسمع. قال: فلا شيء عليك منها. قالت: سالِم صالح. قال: أين هو؟ قالت: في دار ابن الأرقم. قال: فإن لله عليّ أن لا أذوق طعامًا ولا أشرب شرابًا أو آتي رسول الله ﷺ. فأمهلتا حتىٰ إذا هدأت الرجل وسكن الناس، خرجتا به يتكئ عليهما حتىٰ أدخلتاه علىٰ رسول الله ﷺ قال: فأكبّ عليه رسول الله ﷺ فقبَّله، وأكب عليه المسلمون، ورقَّ له رسول الله ﷺ رقَّة شديدة. فقال أبو بكر: بأبي وأمي يا رسول الله، ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي برّة بولدها، وأنت مبارك، فادعها إلىٰ الله، وادع الله لها عسىٰ الله أن يستنقذها بك من النار. قال: فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلىٰ الله، فأسلمت»[1].

قال ابن إسحاق: وقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه، كما حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنهما، حين ضاقت عليه مكة وأصابه فيها الأذىٰ، ورأىٰ من تظاهر قريش علىٰ رسول الله ﷺ وأصحابه ما رأىٰ، استأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فأذن له، فخرج أبو بكر مهاجرًا، حتىٰ إذا سار من مكة يومًا أو يومين، لقيه ابن الدغنة، أخو بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وهو يومئذ سيد الأحابيش؛ فقال ابن الدغنة: أين يا أبا بكر؟ قال: أخرجني قومي

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله التركي (٤/ ٧٦).

وآذوني، وضيّقوا عليَّ، قال: ولِمَ؟ فو الله إنك لتزين العشيرة، وتُعين علىٰ النوائب، وتفعل المعروف، وتكسب المعدوم، ارجع فأنت في جواري. فرجع معه، حتىٰ إذا دخل مكة، قام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش، إني قد أجرت ابن أبي قحافة، فلا يعرضن له أحد إلا بخير. قالت: فكفُّوا عنه.

قالت: وكان لأبي بكر مسجد عند باب داره في بني جمح، فكان يصلي فيه، وكان رجلًا رقيقًا، إذا قرأ القرآن استبكىٰ. قالت: فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء، يعجبون لما يرون من هيئته. قالت: فمشىٰ رجال من قريش إلىٰ ابن الدغنة، فقالوا له: يا ابن الدغنة، إنك لم تُجْر هذا الرجل ليؤذينا! إنه رجل إذا صلىٰ وقرأ ما جاء به محمد يرقّ ويبكي، وكانت له هيئة ونحو، فنحن نتخوف علىٰ صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم، فأْتِهِ فمُرْه أن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء. قالت: فمشىٰ ابن الدغنة إليه، فقال له: يا أبا بكر إني لم أُجِرك لتؤذي قومك، إنهم قد كرهوا مكانك الذي أنت فيه، وتأذوا بذلك منك، فادخل بيتك، فاصنع فيه ما أحببتَ. قال: أو أرد عليك جوارك وأرضىٰ بجوار الله؟ قال: فاردد عليَّ جواري، قال: قد رددته عليك. قالت: فقام ابن الدغنة، فقال: يا معشر قريش، إن ابن أبي قحافة قد ردَّ عليَّ جواري فشأنكم بصاحبكم[1].

أما العلاقة الشخصية بين الرسول ﷺ وأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- فتكشف صورة منها قول عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- كما في صحيح البخاري: «ولم يمر عليهما يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية؛ فبينما نحن جلوس في بيت أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- في نَحْر الظهيرة. قال قائل: هذا رسول الله ﷺ في ساعة لم يكن يأتينا فيها. قال أبو بكر: ما جاء به في هذه

(١) انظر: ابن هشام، سيرة ابن هشام (١/ ٣٧٢).

الساعة إلا أمر»[١].

وفي حادثة الإسراء كان لأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- الموقف الفذّ؛ فعن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: «لما أُسري بالنبي ﷺ إلىٰ المسجد الأقصىٰ أصبح يتحدث الناس بذلك، فارتد ناس ممن كان آمنوا به وصدقوه، وسعوا بذلك إلىٰ أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فقالوا: هل لك إلىٰ صاحبك! يزعم أنه أُسْرِيَ به الليلة إلىٰ البيت المقدس؟ قال: أَوَ قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أو تُصدّقه أنه ذهب الليلة إلىٰ بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة، فلذلك سُمِّي أبو بكر الصديق»[٢].

وعن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: «كان لأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- غلام يخرج له الخراج، فكان أبو بكر يأكل من خراجه، فجاء يوما بشيء فأكل منه؛ فقال الغلام: تدرون ما هذا؟ فقال أبو بكر: لا. وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية، وما أحسن الكهانة؛ إلا أني خدعته، فلقيني فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلتَ منه، فأدخل يده فقاء كل شيء في بطنه»[٣].

عن ابن عمر -رضي الله تعالىٰ عنهما-، قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ ذات يوم؛ فقال: «رأيت آنفًا، كأني أُعطيت المقاليد والموازين. فأما المقاليد فهي المفاتيح، فوضعت في كفة، ووضعت أمتي في كفة، فرجحت بهم، ثم جيء بأبي بكر فرجح بهم، ثم جيء بعمر فرجح بهم، ثم جيء بعثمان فرجح، ثم رفعت». فقال له رجل:

(١) البخاري، صحيح البخاري (٨/ ٢٦) رقم (٦٠٧٩).
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ولم يتعقبه الذهبي في التلخيص. وانظر: ابن حجر فتح الباري (٧/ ١٩٩).
(٣) معرفة الصحابة لأبي نعيم (١/ ٣٣) رقم (١١٢).

فأين نحن؟ قال: «أنتم حيث جعلتم أنفسكم»[1].

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن -رحمه الله تعالىٰ-، عن أبي أروىٰ الدوسي -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: كنت مع النبي ﷺ جالسًا، فطلع أبو بكر وعمر -رضي الله تعالىٰ عنهما-، فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي أيَّدني بكما»[2].

كانت منزلة أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- معروفة مشتهرة عند الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-؛ ذكر ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ- في الطبقات عن الزهري -رحمه الله تعالىٰ- قال: قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت -رضي الله تعالىٰ عنه-: «هل قلت في أبي بكر شيئًا؟»، فقال: نعم، فقال: «قل وأنا أسمع»، فقال:

وثاني اثنين في الغار المنيف وقد   طاف العدو به إذ صعد الجبلا

وكان حب رسول الله قد علموا   مـــن البرية لم يعدل به رجلا

قال: فضحك رسول الله ﷺ حتىٰ بدت نواجذه، ثم قال: «صدقت يا حسان، هو كما قلت»[3].

(١) «السنة لابن أبي عاصم» (٢/ ٥٣٩)، وصححه الألباني -رحمه الله تعالى-، وضعفه آخرون. وفي شعب الإيمان للبيهقي -رحمه الله تعالى- (الرياض: مكتبة الرشد)، (١/ ١٤٣): «عن هزيل بن شرحبيل قال: قال عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه-: «لو وُزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم». قال الألباني -رحمه الله تعالى- عن هذا الأثر: «هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات رجال البخاري غير ابن شوذب»، «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة» (١٣/ ٧٧٠).

(٢) أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، فضائل أبي بكر -رضي الله تعالى عنه-، تحقيق وصي الله محمد عباس، الطبعة الأولى، (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٣)، (١/ ٧٣) رقم (٣٧)، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٧٧) رقم (٤٤٤٧)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وقال الذهبي في التلخيص: عاصم بن عمر واهٍ».

(٣) ابن سعد، الطبقات، (بيروت: دار صادر)، (٣/ ١٧٤).

أقف مع الفوائد التالية:

الأولىٰ: أقف أولًا عند أخلاقه -رضي الله تعالىٰ عنه- قبل البعثة، فلم يسجد لصنم، ولم يشرب الخمر، كان مثالًا في التواضع، تامّ المروءة بعيدًا عن الشبهات منذ نشأته.

وعن أنس بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر»[١].

وقارن هذا بأبي جهل الذي يقول يوم بدر: «لن نرجع حتىٰ نشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بجمعنا العرب»، أي فسوق وغلظة وغرور وفجور عند هذا الرجل؟!

الثانية: أخرج البغويّ بسند جيّد عن جعفر بن محمد الصادق، عن أبيه، عن عبد الله بن جعفر، قال: ولينا أبو بكر فخير خليفة أرحم بنا وأحناه علينا. وقال إبراهيم النخعي: كان يسمىٰ الأوّاه لرأفته»[٢]. هذا الرجل الرحيم الأوَّاه الرؤوف بالمسلمين، تأمل في المقابل صنيع ذلك الطاغية أبي جهل لما علم بالهجرة، ذهب إلىٰ بيت أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- متجاوزًا كل أخلاق وقِيَم العرب معتديًا علىٰ فتاة صغيرة لا تملك من أمرها شيئًا، هي أسماء بنت الصديق -رضي الله تعالىٰ عنهما- فسألها عن أبيها، ثم لطمها علىٰ وجهها الشريف لطمة طار قُرطها من أذنها، وأدمىٰ وجهها حقدًا وبغضًا وعداوة من الرسول ﷺ وصاحبه -رضي الله تعالىٰ عنه-.

هذا الطاغوت لا يعرف خُلقًا ولا قِيَمًا ولا رحمة في عدوانه وعداوته.

الثالثة: إننا نجد أن السابقين الأوائل في الإسلام هم خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، وكان تميزها في نصرة الرسول ﷺ في بيته؛ فهي -رضي الله تعالىٰ عنها

(١) سنن الترمذي (٥/ ٦٦٤ رقم٣٧٩٠)، (طبعة البابي الحلبي بمصر)، وصححه الألباني.
(٢) ابن حجر، الإصابة في معرفة الصحابة (٤/ ١٤٩).

وأرضاها- امرأة لا تملك من أمر مواجهة الرجال شيئًا؛ فكان نفعها -رضي الله تعالىٰ عنها- في غالبه في بيت الرسول ﷺ؛ تثبيتًا وطمأنةً.

وأما عليّ -رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه-؛ فكان صغير السن، عمره حوالي عشر سنوات عند إسلامه، ومثله لا يُتوقَّع منه نَصْرٌ في هذا العمر، وأما بلال -رضي الله تعالىٰ عنه- فقد كان مولًىٰ يُؤذَىٰ ويُعذَّب، وأما ورقة بن نوفل -رضي الله تعالىٰ عنه- فقد مات مبكرًا، قبل المواجهة مع كفار قريش. ومع عِظَم مقام هؤلاء جميعًا وفضلهم وسابقتهم؛ إلا أن الملاحَظ أنَّ إسلامهم لم يكن يُمثِّل خطرًا علىٰ قريش، ولم يظهر أنها خشيت من إسلامهم، علىٰ زعامتها.

أما أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- فكان له شأن آخر، فقد كان قامةً وحيدةً في صفّ الرسول ﷺ، فله مكانته الشخصية ومكانه في قبيلته، ومكانة ماله، وعمره القريب من سنّ الأشد وهو ثمان وثلاثون سنة عند البعثة، فكان يصول ويجول بكلّ قواه في مواقف الإيمان ونصرة الرسول ﷺ ونصرة الدين ومن دخل فيه من المستضعفين.

يقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (والجمع بين الأقوال كلها أن خديجة أول من أسلم من النساء، وظاهر السياقات، وقبل الرجال أيضًا. وأول مَن أسلم مِن الموالي زيد بن حارثة، وأول من أسلم من الغلمان علي بن أبي طالب؛ فإنه كان صغيرًا دون البلوغ علىٰ المشهور، وهؤلاء كانوا إذ ذاك أهل البيت، وأول مَن أسلم مِن الرجال الأحرار أبو بكر الصديق، وإسلامه كان أنفع من إسلام من تقدم ذِكْرهم؛ إذ كان صدرًا مُعظَّمًا، ورئيسًا في قريش مكرَّمًا، وصاحب مال، وداعية إلىٰ الإسلام، وكان محبَّبًا متألفًا يبذل المال في طاعة الله ورسوله)(١).

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية تحقيق التركي، طبعة دار هجر (٤/ ٦٧).

الرابعة: جاء في تفسير الطبري -رحمه الله تعالىٰ- في قول الله -تعالىٰ-: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ [الزمر:٣٣]: (... وقال آخرون: الذي جاء بالصدق: رسول الله ﷺ، والذي صدق به: أبو بكر رضي الله عنه.. عن عليّ رضي الله عنه، في قوله: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ ﴾ [الزمر:٣٣]؛ قال: «محمد ﷺ، وصدَّق به، قال: أبو بكر رضي الله عنه)[1]؛ فقد سبق في الإيمان، وكان أصدقهم في ذلك، مع صدقهم وفضلهم -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين-.

الخامسة: إن أبا بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- كان مِن أوّل وأبرّ مَن ناصَر الرسول ﷺ ببدنه، فقد كان يدافع عن الرسول ﷺ، ويقيه ببدنه عندما يُعتدَىٰ عليه. وكم من مرة سالت دماء أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- في نصرة الرسول ﷺ يوم لم يكن معه إلا قلة غالبهم من المستضعفين.

وكما كان مدافعًا عن الرسول ﷺ في مكة، فلنستذكر -استطرادًا- موقفه أيضًا في الدفاع عن قرار الرسول ﷺ في الحديبية، تأمل موقفه وهو يدافع عن الرسول ﷺ أمام آراء جمع من الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- وهو يتمنون غير ما صالَح عليه الرسول ﷺ قريشًا، ويرون في هذا الصلح شيئًا من الضَّيْم عليهم، وأبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- هو الجبل الأشم يدافع عن هذا الصلح، وينبّه الجميع إلىٰ أن الذي أجرىٰ الصلح هو رسول الله ﷺ.

السادسة: أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- كما كان قريبًا حاضرًا عند الرسول ﷺ؛ فقد كان قريبًا من الرسول ﷺ من حيث السن، وبالتالي كان محلّ ثقته ومشورته، فكان -رضي الله تعالىٰ عنه- يتقلب في توجيه الرسول ﷺ وتعليمه، وقضىٰ عمره وهو أقرب صديق محبَّب للرسول ﷺ في حين قضىٰ أبو جهل حياته جاهدًا في عداوة

(١) الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، تحقيق عبد الله التركي (القاهرة: دار هجر)، (٢٠/ ٢٠٤).

الرسول ﷺ بالغًا في ذلك مبلغًا لم يبلغه أحد قبله، وربما ولا بعده. فتأمل تباعُد الرجلين! وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

السابعة: ما كان الله -جل شأنه- ليرضي لصاحب نبيه ﷺ، إلا أن يكون في المقام الأعلىٰ من الخُلق الفاضل والدين القويم، خاصةً إذا استحضرنا تلك التزكيات القرآنية الربانية لأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، وللصُّحبة أثرها، فعن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- أن الرسول ﷺ قال: «الرجل علىٰ دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»[١]. قال عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه-: «اعتبروا الناس بأخدانهم»، وقالوا:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه   فكل قـرين بالمقارن يقتدي[٢]

فما ظنّك بمن كان ملازمًا للرسول ﷺ قبل البعثة وبعدها، وقبل الهجرة وبعدها، إلىٰ أن ودَّع رسول الله ﷺ الدنيا، ويكفي أن نتذكر حديث ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- الذي فيه قوله: كنت أكثر أسمع رسول الله ﷺ يقول: «جئت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر»[٣].

الثامنة: كان أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- أنفع الناس للرسول ﷺ في صحبته مطلقًا، (ولا نزاع بين أهل العلم بحال النبي ﷺ وأصحابه أن مصاحبة أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- له كانت أكمل من مصاحبة سائر الصحابة)[٤].

الرسول ﷺ كان يزور أبا بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- كل يوم إما صباحًا أو مساءً؛ وفقًا لقول عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-، وهي تصف حدث الهجرة، وهذا

(١) أخرجه أبو داود في سننه، (٧/ ٢٠٤) رقم (٤٨٣٣ وقال محققه الأرناروط: «إسناده حسن».
(٢) ابن تيمية، الصارم المسلول على شاتم الرسول ص٥٨٠.
(٣) صحيح مسلم (٤/ ١٨٥٨) رقم (٢٣٨٩).
(٤) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية (٨/ ٣٩٠).

يكشف عن صورة الود والمحبة والإجلال بين الرسول الكريم ﷺ وصديقه أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه-، لا يمر يوم إلا ويأتي الرسول ﷺ يزور أبا بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، وإذا كان هذا حال الرسول ﷺ مع أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، فكيف بحال أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- مع الرسول ﷺ؟

التاسعة: وَصْف ابن الدغنة لأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- بذات الصفات التي وَصَفت بها أم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- الرسول ﷺ يوم مجيئه من غار حار بعد نزول أول سورة اقرأ عليه ﷺ. وفي هذا يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (ومن أعظم مناقب أبي بكر أن ابن الدّغنّة سيد القارة لما ردّ إليه جواره بمكة وصفه بنظير ما وصفت به خديجة النبيّ ﷺ لما بعث، فتواردا فيهما علىٰ نَعْت واحد من غير أن يتواطئا علىٰ ذلك، وهذا غاية في مدحه؛ لأن صفات النبيّ ﷺ منذ نشأ كانت أكمل الصفات)[1].

وهو برهان جليّ علىٰ معرفة الناس بأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- بما يعرفونه عن الرسول ﷺ، وأن صفاتهم ورغباتهم وآمالهم وآلامهم واحدة، وأن العرب تنظر إليهم نظرة قريبة من بعض، يؤكد هذا، الفائدة التالية.

العاشرة: إن كفار قريش لما علموا بالهجرة النبوية، أعلنوا عن جائزتهم الكبرىٰ مئة ناقة لمن يأتي بمحمد ﷺ، ومئة أخرىٰ لمن يأتي بأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- ؛ لأنها تعلم مكانة أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- في الأمة، وما قام به وما يقوم به من الدعوة إلىٰ الله -جل شأنه-، فالشخص الأول المطلوب لكفار قريش هو الرسول ﷺ، وبعده يأتي أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، ولم نجد في السيرة أن كفار قريش جعلوا جائزة لمن يأتي بغير أبي بكر من الصحابة المهاجرين -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين-.

(١) ابن حجر، الإصابة (٤/ ١٤٩).

وسيأتينا في غزوة أُحُد أن أبا سفيان قائد جيش الكفار، لما انتهت الغزوة صعد علىٰ الجبل ونادىٰ علىٰ الرسول ﷺ، ثم نادىٰ علىٰ أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، ثم نادىٰ علىٰ عمر -رضي الله تعالىٰ عنه-؛ وهذا تأكيد لما هو معروف شائع لدىٰ العرب في منزلة أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- بعد الرسول ﷺ مباشرة.

الحادية عشرة: وهناك حالة مماثلة لمحاصرة ومطاردة كفار قريش للرسول ﷺ وصاحبه أبي بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- في بعض الجوانب في الأمم السابقة، تكشف عن جانب متميز لأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-.

فقد طارد فرعون وجنوده، موسىٰ -عليه السلام- ومن آمن معه قال -تعالىٰ-:
﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ
وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ
﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ
﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ
﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:٥٢-٦٨].
أقف هنا مقارنًا بين ما جرىٰ لموسىٰ -عليه السلام- وقومه ومحمد ﷺ وصاحبه:

١- أصحاب موسىٰ قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، وصاحب محمد ﷺ مطمئن، لكنه حزين خوفًا علىٰ صاحبه. ولذلك كان جواب موسىٰ لقومه: ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾، وجواب محمد ﷺ ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠].

٢- موسىٰ -عليه السلام- يقول: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾، ومحمد ﷺ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾؛ فالمعية الأولىٰ خاصة بموسىٰ -عليه السلام- دون قومه، والمعية الثانية لمحمد ﷺ وأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، وبالتالي فنجاة قوم موسىٰ -عليه

السلام- لم تكن لمعية الله -جل شأنه- الخاصة، وإنما إكرامًا لموسىٰ -عليه السلام- وتبعًا له. بينما كانت نجاة الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- صاحب محمد ﷺ بالمعية الإلهية لا بالتبع لمعية الرسول ﷺ فقط، فالله -جل شأنه- مع النبي ﷺ ومع أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، بينما ذلك حاصل لموسىٰ -عليه السلام- بمفرده دون أصحابه، وهذا فَرْق شاسع، يكشف المكانة العليا لصاحب رسول الله ﷺ.

٣- تتجلىٰ تلك المكانة أكثر بتأمل الفارق بين ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾؛ فمعية موسىٰ -عليه السلام- معية ربانية، ومعية محمد ﷺ معية إلهية. ومعية الربوبية فيها تعلُّق والتجاء، مع خوف وقلق، في حين أن المعية الإلهية أكمل؛ لأن فيها تفويض العبد أمره إلىٰ الله -جل شأنه- مع طمأنينة وثقة ويقين بتأييد الله -سبحانه وتعالىٰ-.

٤- إن معية موسىٰ -عليه السلام- تقدم فيها ذِكْر النفس علىٰ ذِكْر الرب -جل شأنه- ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾، ومعية محمد ﷺ وصاحبه -رضي الله تعالىٰ عنه- تقدّم فيها ذِكْر الله -جل شأنه- علىٰ النفس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، وهذا أقرب للطمأنينة واليقين والثقة به -سبحانه-، والنبي ﷺ وأبو بكر يشتركان في هذا الأمر

فانظر كم لأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- من فضيلة! بل خصيصة في قوله -تعالىٰ-: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

الثانية عشرة: وفي الهجرة ينزل قول الله -تعالىٰ-: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾ [التوبة:٤٠]، وهذا نص قرآني صريح علىٰ منزلة أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، فهو الثاني -رضي الله تعالىٰ عنه- في كل موطن من مواطن العزة، فهو الثاني في الإسلام وفي الدعوة، وفي مواجهة المشركين، وفي الهجرة، وفي قيادة الأمة وفي اقتفاء أثر الرسول ﷺ، وفي كل مكرمة، وما حاول أحد مسابقته إلا رجع بالإقرار لأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- بالفضل والسابقة.

الثالثة عشرة: إذا كان أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- ثاني اثنين، فهو الثاني بعد الرسول ﷺ، وهو الأول تلقائيًّا في غيابه ﷺ، دون النظر إلىٰ الغير كائنًا من كان.

وفي سيرة أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- نجد صورة من صور التوافق الروحي والقولي والعملي في الرأي والفهم منه -رضي الله تعالىٰ عنه- مع الرسول ﷺ، يظهر هذا من موقفه -رضي الله تعالىٰ عنه- يوم الحديبية بعد أن التأم الأمر ولم يبقَ إلا الكتاب وثَب عمر رضي الله عنه فأتىٰ أبا بكر رضي الله عنه فقال: يا أبا بكر: أليس برسول الله؟ قال بلىٰ! قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: بلىٰ! قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلىٰ! قال: فعلام نُعطي الدّنية في ديننا؟ فقال أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-: يا عمر الزم غرزه، فإني أشهد أنه رسول الله، قال عمر -رضي الله تعالىٰ عنه-: وأنا أشهد أنه رسول الله.

ثم أتىٰ عمر رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله ألستَ برسول الله؟ قال: بلىٰ، أَوَ لسنا بالمسلمين؟ قال: بلىٰ، قال أَوَ ليسوا بالمشركين؟ قال: بلىٰ، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال: «أنا عبد الله ورسوله لا أخالف أمره ولن يضيعني»، فانظر إلىٰ تمام التسليم من أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- الذي وافق فيه الرسول ﷺ في تمام تسليمه لربه[1].

فلأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- القدم المعلا في المتابعة.

الرابعة عشرة: من يطالع سيرة أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- في جملتها يكتشف أنه -رضي الله تعالىٰ عنه- لم يُعَظِّم أحدٌ محمدًا ﷺ كتعظيم أبي بكر له. كان إيمانه يوم دُعي إلىٰ الإيمان إيمانًا بلا تردُّد ولا سؤال ولا مناقشة، وكان موقفه يوم الإسراء فريدًا: «إن كان قاله فقد صدق»؛ وفي المدينة سار علىٰ ذلك؛ ففي بعث أسامة -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: «لو جرت الكلاب بأمهات المؤمنين ما حللت لواء عقده رسول الله ﷺ»؛ تعظيمًا لأمر الرسول ﷺ.

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٣١٧).

فلأبي بكر -رضي الله عنه- القدم المعلا في التعظيم الشرعي لرسول الله ﷺ.

الخامسة عشرة: كان من نتيجة هذا التعظيم للرسول ﷺ، أن انفرد بأمر مهم، كان -رضي الله تعالىٰ عنه- مؤمنًا مُحبًّا كلّ الحب لمحمد ﷺ، فهو آمن بمحمد النبي ﷺ، فكان يصدقه بكل ما يقول، ولا يفحص ما يقول فينظر فيه؛ بل يكفي عنده أن القائل هو محمد النبي ﷺ؛ في حين كان إيمان غيره بالنبي محمد ﷺ، فهم سمعوا القرآن، وفهموا ما يدعوا إليه محمد ﷺ؛ فآمنوا به وأحبّوه، وفرقٌ بين الأمرين؛ بل فرق بين الإيمانين.

ولا ننس أن نشير إلىٰ الدركة التي ارتكس فيها كفار قريش الذين كانوا يعرفون محمدًا الصادق الأمين، ويعرفون صدق رسالته؛ ومع ذلك كفروا، وكان أشدهم في ذلك طاغوتهم أبا جهل الذي تزعَّم قيادة الكفر والمحاربة لمحمد وللرسول ﷺ. فما قَبِل أن يكون محمد الهاشمي رسولًا من الله يوحي إليه، ولا قبل برسالة التوحيد والدعوة بعد أن عرفها وتحقق من صدقها.

السادسة عشرة: عن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم اليوم صائمًا؟» قال أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-: أنا، قال: «فمن تبع منكم اليوم جنازة؟» قال أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-: أنا، قال: «فمن أطعم منكم اليوم مسكينًا؟» قال أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-: أنا، قال: «فمن عاد منكم اليوم مريضًا؟» قال أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-: أنا، فقال رسول الله ﷺ: «ما اجتمعن في امرئ، إلا دخل الجنة»[1].

وعن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه-، أن رسول الله ﷺ، قال: «من أنفق زوجين في سبيل الله، نُودِي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل

(١) صحيح مسلم (٢/ ٧١٣) رقم (١٠٢٨)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الريان، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة»، فقال أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! ما علىٰ من دُعي من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يُدعىٰ أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم»(١).

تأمل هذين الحديثين اللذين يدلان بوضوح علىٰ شخصية أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- في العبادة والحرص علىٰ الخير، فما عرف باب خير إلا كان سبَّاقًا إليه مبرّزًا فيه، وهو بهذا يقدم غاية الامتثال.

فلأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- القدم المعلا في المسابقة في الطاعات.

يقابل هذا أبو جهل الذي كان يمثل غاية العداوة للدين، فما كان باب شر إلا كان أبو جهل سباقًا إليه، حاضرًا مُؤثِّرًا فيه، كما قال ذلك أبو طالب.

فهنا أعلىٰ درجات الخير والطاعة والامتثال. وهناك مع أبي جهل أسوأ دركات الشر والمعاداة.

ولا تظنن أن ذلك يخلو من الحكمة؛ فقد استمر هذا العداء للرسول ﷺ رغم موت أبي جهل، فقد ظهر في المدينة زعيم مماثل لأبي جهل في مكة وهو عبد الله بن أبي ابن سلول، الذي ما كان من باب شر وعداوة للإسلام إلا كان له يد بارزة فيها، واستمر يحمل لواء الطغيان في العداوة إلىٰ أن مات بعد غزوة تبوك.

السابعة عشرة: ذكرت عند الحديث عن أبي جهل أنه رُوي وصف الرسول ﷺ له بفرعون هذه الأمة، وفي مقابل ذلك تأمل حديث جندب -رضي الله تعالىٰ عنه- يقول سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس، وهو يقول: «إني أبرأ إلىٰ الله أن يكون

---

(١) صحيح البخاري (٣/ ٢٥) ط السلطانية. وصحيح مسلم (٢/ ٧١١) رقم (١٠٢٧).

لي منكم خليل؛ فإن الله -تعالىٰ- قد اتخذني خليلًا، كما اتخذ إبراهيم خليلًا، ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا»[1].

يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (مرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء، ولهذا قدمهم عليهم في الآيتين، هنا[2] وفي سورة النساء[3]، وهكذا جاءَ ذِكْرهم مقدمًا علىٰ الشهداءِ في كلامِ النبي ﷺ في قوله: «اثبت أُحد؛ فإنما عليك نبي وصديق وشهيد»، ولهذا كان نعت الصديقية وصفًا لأفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ولو كان بعد النبوة درجة أفضل من الصديقية لكانت نعتًا له رضي الله عنه)[4].

يقول الشيخ عبد العزيز بن باز -رحمه الله تعالىٰ-: (الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- هو أكمل الأمة وأفضلها، وهو أفضل الناس بعد الأنبياء، وقد دلت الأحاديث الكثيرة علىٰ أنه أفضل الخلق بعد الأنبياء -رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه-)[5].

الثامنة عشرة: تأمل قول الله -تعالىٰ- لنبيه ﷺ: ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾ [الضحىٰ:٥]، وقال -جل شأنه- عن أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-: ﴿ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴾ [الليل:٢١]، ولم يَعِد الله أحدًا من عباده في القرآن الكريم بعينه بذلك سوىٰ نبيه ﷺ وصاحب نبيه أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، وماذا بعد هذا الفضل من فضل؟!

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٣٧٧) رقم (٥٣٢).

(٢) يقصد قول الله -تعالى-: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ [الحديد:١٩].

(٣) يقصد قول الله -تعالى-: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء:٦٩].

(٤) ابن القيم، طريق الهجرتين، (القاهرة: الدار السلفية ١٣٩٤)، (ص ٣٥١).

(٥) موقع الشيخ ابن باز، في جواب سؤال عن فضل أبي بكر -رضي الله تعالى عنه- عرض عليه في برنامج نور على الدرب في إذاعة القرآن الكريم بالرياض، ونشر نص السؤال والجواب في الموقع الإلكتروني.

وتأمل قول الله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان:٤٣-٤٦]، فعن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: «لو أن قطرة من زقوم جهنم أنزلت إلىٰ الدنيا لأفسدت علىٰ الناس معايشهم»، وعن ابن وهب -رحمه الله تعالىٰ- قال: قال ابن زيد -رحمه الله تعالىٰ- في قوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ [الدخان:٤٣-٤٤]، قال: (أبو جهل)(١).

التاسعة عشرة: قد يقول قائل: هذا الدين لا يمكن أن يطبقه التطبيق الأمثل إلا الأنبياء والرسل الذين هم معصومون من الله ومؤيدون من الله -جل شأنه-، ولكن عندما نقرأ سيرة أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، نجد فيها الرد علىٰ مثل هذه الشبهة، فأبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- لم يكن نبيًّا ولم يكن يوحي إليه، ولم يكن معصومًا، ومع ذلك طبّق هذا الدين علىٰ حقيقته؛ فَعَلت منزلته وارتفعت درجته وسَمَت مكانته، وقدم نموذجًا لما ينبغي أن يكون أسوة من غير الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام-.

العشرون: لعلك بعد هذا عرفت منزلة أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- أو لعلك بهذا اكتشفت مزيدًا من مقام أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- في هذا الدين، لكن المهم هو النتيجة بعد ذلك.

المهم أن نعرف حق أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- علينا، وماذا قدم لهذا الدين، ولهذا الرسول ﷺ من النصرة في يومٍ لم يكن مع الرسول ﷺ نصير من البشر غيره، وقد تكالبت قوىٰ الكفر والشرك لمحاربة هذا الدين، فكان أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- طودًا شامخًا يدافع عن الرسول ﷺ، وينصر المستضعفين، ويدعو إلىٰ الله ويتحرك في كل الجهات وفي كل الجبهات؛ فحقه علينا حينئذ عظيم، وواجب

(١) الطبري، تفسير الطبري (٢١/ ٥٤).

مودته وموالاته كبير، وهنيئًا لمن وفَّقه ربه لذلك؛ فكان لأبي بكر مُحبًّا ومعظِّمًا ومُوقِّرًا وواليًا ومُوادًّا.

وكما نستذكر عداوة أبي جهل فنبغضه أشد البغض تقربًا إلىٰ الله -جل شأنه-، نتذكر فضل أبي بكر فنحبّه أشد الحب تقربًا إلىٰ الله -جل شأنه-.

الواحدة والعشرون: الإيمان بكمال قدرة الله -جل شأنه- وحكمته، فهو القدير وهو الحكيم، يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ويجعل المؤمن مؤمنًا، والكافر كافرًا، والبَرّ برًّا والفاجر فاجرًا، وهو الذي جعل إبراهيم -عليه السلام وآله- أئمة يدعون إليه، ويهدون بأمره، وجعل فرعون وقومه ﴿أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص:٤١]؛ بعلمه وحكمته، وهو الذي هدىٰ أبا بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- وأعلىٰ منزلته ورفع له الدرجات، وهو الذي أضل أبا جهل وأنزله أسفل الدركات. فله الحمد علىٰ علمه وقدرته وحكمته -سبحانه وتعالىٰ-.

الثانية والعشرون: كما أن في أبي جهل درسًا لكل طاغية من الطغاة الذين جعلوا همّهم محاربة الإسلام، ثم ما انتهىٰ إليه مصير أبي جهل، وسيكون مصير من سار علىٰ دربه مثله، فإن في سيرة أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- درسًا لكل عبد صالح يرجو الله ويخافه، وجعل همّه الترقي في الطاعات وتحرّىٰ ما استطاع التمسك بسنة النبي ﷺ، وسيكون له نصيب من موعودات الله -جل شأنه- لأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، علىٰ قَدْر ما فيه من الخير والتأسي، والله لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

الثالثة والعشرون: تأمل قول الله تعالىٰ: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٤-١٨]؛ وما فيها من المقارنة بين مآل كل من الأشقىٰ والأتقىٰ.

الرابعة والعشرون: وبها أختم هذه الفوائد: ورد عن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل فأخذ بيدي فأراني باب الجنة الذي

تدخل منه أُمّتي»، فقال أبو بكر: يا رسول الله، وددت أني كنت معك حتىٰ أنظر إليه، فقال رسول الله ﷺ: «أمَا إنك يا أبا بكر أول مَن يدخل الجنة مِن أُمّتي»[1].

فهو أول مَن نصر الرسول ﷺ، وهو أفضل هذه الأمة بعد نبيها، ولذلك فليس بغريب أن يكون أول داخل للجنة من الأمة، والله أعلم.

(١) رواه أبو داود في سننه (٤/ ٢١٣) رقم (٤٦٥٢)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٧٧) رقم (٤٤٤٤)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، وقال الذهبي في التلخيص: «على شرط البخاري ومسلم»، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود.

المبحث السادس

الهجرة إلى الحبشة

عن أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها- أم المؤمنين زوج النبي ﷺ أنها قالت: «لما ضاقت علينا مكة، وأُوذي أصحاب رسول الله ﷺ، وفُتِنُوا، ورَأَوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دَفْع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ في مَنَعة من قومه ومن عمّه، لا يصل إليه شيء مما يكره[1] مما ينال أصحابه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن بأرض الحبشة مَلكًا[2] لا يُظلَم أحد عنده فالحقوا ببلاده حتىٰ

(١) مقارنة بما أصاب أصحابه، وإلا فهو قد ناله الكثير من الأذى المعنوي والبدني، كما سبق ذِكْر نماذج منه، ولكن كان أقواهم وأصبرهم على تحمل الأذى، والأنبياء أشد بلاء ثم الأمثل فالأمثل. بوب البخاري -رحمه الله تعالى- به. وانظر: سنن الترمذي (٥/ ٣٩٨) رقم (٢٣٩٨)، وقال الألباني -رحمه الله تعالى-: حسن صحيح.

(٢) النجاشي: قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- في الإصابة (١/ ٣٤٧): (أصحمة بن أبحر النجاشيّ ملك الحبشة، واسمه بالعربية عطيّة. والنجاشيّ لقب له، أسلم على عهد النبي ﷺ، ولم يهاجر إليه، وكان رِدْءًا للمسلمين نافعًا، وقصته مشهورة في المغازي في إحسانه إلى المسلمين الذين هاجروا إليه في صدر الإسلام. وأخرج أصحاب الصّحيح قصة صلاته ﷺ صلاة الغائب من طرق: منها رواية سعيد بن مينا، عن جابر... وفي رواية ابن عيينة، عن ابن جريج: «قد مات اليوم عبد صالح، فقوموا فصلّوا على أصحمة» قال الطّبريّ وجماعة: كان ذلك في رجب سنة تسع، وقال غيره: كان قبل الفتح). وفي صحيح البخاري (٥/ ٥١) رقم (٣٨٧٨) عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما: أن نبي الله ﷺ «صلى على أصحمة النجاشي فصفنا وراءه فكنت في الصف الثاني أو الثالث». وفي صحيح مسلم (٣/ ١٣٩٧) رقم (١٧٧٤) عن أنس -رضي الله تعالى عنه- أن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله -تعالى-، وليس النجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ. وقال القرطبي في المفهم (٣/ ٦١٣): (إنما النجاشيُّ الذي كاتبه رسول الله ﷺ آخر غير هذا من ملوك الحبشة، إما في جهة أخرى، أو بعد موت أصحمة، والله -تعالى- أعلم). وقال العيني في عمدة القاري (٨/ ١٩): (وقوله في صحيح مسلم:=

يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه»؛ فخرجنا إليها أرسالًا حتىٰ اجتمعنا بها فنزلنا بخير دار وإلىٰ خير جار، أَمِنًا علىٰ ديننا، ولم نخش منه ظلما»[1].

فكانت أول هجرة في الإسلام، وكان فيمن هاجر عثمان بن عفان رضي الله عنه، وامرأته رقية[2] بنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم ورضي الله تعالىٰ عنها-، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو حذيفة عتبة بن ربيعة ومعه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وامرأته أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة، وعثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة، وامرأته ليلىٰ بنت أبي حثمة -رضي الله تعالىٰ عنهم-؛ فخرجوا حتىٰ أتوا الشعيبة[3]؛ منهم الراكب، ومنهم الماشي، ووفَّق الله للمسلمين -ساعة جاءوا- سفينتين للتجارة حملوهم فيها قالوا: «وقدمنا أرض الحبشة فجاورنا بها خير جار، أمنّا علىٰ ديننا، وعبدنا الله -تعالىٰ-، لا نُؤذَىٰ ولا نسمع شيئًا نكرهه»[4]. وكانت الهجرة إلىٰ الحبشة في السنة الخامسة من البعثة، ولم يطل بهم المقام في الحبشة؛ فقد عادوا بعد أشهر قليلة إلىٰ مكة بعد أن وصلهم

=هو غير النجاشي الذي صلى عليه. قلت: قيل: كأنه وَهْم من بعض الرواة، أو أنه عبّر ببعض ملوك الحبشة عن الملك الكبير، أو يحمل على أنه لما توفي قام مقامه آخر فكتب إليه).
وقال الشيخ علي ملا القاري في المرقاة (٦/ ٢٥٢٧): «(وليس) أي النجاشي الذي كتب إليه (بالنجاشي الذي...) يعني وقد وهم من قال: إنه النجاشي الذي صلى عليه، وقد خلط راويه، فإنهما اثنان، وكلاهما مسلمان.» وانظر علي ملا القاري، جمع الوسائل في شرح الشمائل (١/ ٥٣١). والله أعلم.

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٠١)، وابن هشام، السيرة النبوية ، تحقيق عادل عبد الموجود وزملاؤه (١/ ٣٤٥). وسلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٧/ ٥٧٧) رقم (٣١٩٠)، وسيأتي مزيد نقل من هذا الحديث من مسند الإمام أحمد -رحمه الله تعالى-.

(٢) وكان عمرها وقت هذه الهجرة إلى الحبشة ١٢ سنة تقريبًا؛ فقد وُلِدَتْ قبل البعثة بسبع سنوات -رضي الله تعالى عنها وأرضاها-.. وهي هنا متزوجة ومهاجرة مع زوجها.

(٣) الشعيبة: تصغير شعبة، مرفأ للسفن على البحر، وكان مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة، ومكان الشعيبة اليوم معروف، وهو جنوب جدة على مسافة ٦٨ كيلو، محمد شراب، المعالم الأثيرة (ص ١٥١).

(٤) انظر: الشامي، سبل الهدى والرشاد (٢/ ٤٨٥-٤٨٦).

خبر سجود المشركين مع الرسول ﷺ حين قرأ سورة النجم فسجد في آخرها(١). ولما أقبلوا علىٰ مكة تبيَّن لهم أن الخبر الذي وصلهم ليس صحيحًا، فدخل بعضهم بجوار، ودخل بعضهم مستخفيًا.

---

(١) تذكر بعض كتب السيرة هنا قصة الغرانيق، وهي قصة باطلة سندًا ومتنًا، لا تليق أن تُنْسَب وتُرْوَى مع العصمة النبوية المجمع عليها. قال القاضي عياض -رحمه الله تعالى- في الشفا (٢/ ١٢٣): (أجمعت الأمة فيما كان طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء منها بخلاف ما هو به لا قصدًا ولا عمدًا ولا سهوًا ولا غلطًا). وقال (٢/ ١٢٥) عن هذه القصة: (فيكفيك أن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم). وقد ذهب جمع من العلماء إلى القول بأن قصة الغرانيق قصة مفتراة دخيلة على السيرة النبوية الشريفة أبطلها العلماء انظر القاضي عياض في الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ١٢٥)، والنووي في شرح صحيح مسلم، وقال (٥/ ٧٥): (وأما ما يرويه الإخباريون والمفسرون أن سبب ذلك ما جرى على لسان رسول الله ﷺ من الثناء على آلهة المشركين في سورة النجم فباطل، لا يصح فيه شيء لا من جهة النقل ولا من جهة العقل؛ لأن مدح إله غير الله -تعالى- كفر، ولا يصح نسبة ذلك إلى لسان رسول الله ﷺ، ولا أن يقوله الشيطان على لسانه، ولا يصح تسليط الشيطان على ذلك. والله أعلم). وكتب بعض العلماء فيها رسائل مستقلة تبين بطلانها سندًا ومتنًا ومن هؤلاء: الشيخ الألباني -رحمه الله تعالى- في رسالته نصب المجانيق في نسف قصة الغرانيق، وهي رسالة تُقْرَأ من عنوانها، وقد خرَّج فيها أحاديث القصة، وحكم عليها بالضعف والبطلان، وأجاب عن أدلة من جعل للقصة أصلًا، من مثل ابن حجر -رحمه الله تعالى- فتح الباري (٨/ ٤٣٩)؛ فقد قال: (لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلًا)؛ ثم قال: (وإذا تقرر ذلك تعين تأويل ما وقع فيها مما يُستنكر)، وللأستاذ صالح بن أحمد الشامي بحث بعنوان الغرانيق قصة دخيلة على السيرة النبوية بيَّن فيها بطلان هذه القصة من حيث السند والمتن، ومن وجهة النظر التاريخية؛ حيث ذكر أن سورة النجم تتحدث عن المعراج، وقد نزلت بعده أي بعد العام العاشر من البعثة وهجرة الحبشة الأولى في السنة الخامسة، وذكرها وبين الخلاف. وناقش الأدلة أحمد القصير في كتابه الأحاديث المشكلة الواردة في تفسير القرآن الكريم (ص ٦٦٦) وما بعدها، وانتهى إلى قوله: (والحق أن هذه القصة ضعيفة بل باطلة؛ لأن كل الروايات الواردة فيها مُعلَّة إما بالإرسال أو الضعف أو الجهالة، وليس فيها ما يصلح للاحتجاج به، لا سيما في هذا الأمر الخطير الذي يمسّ مقام نبينا الكريم ﷺ). وانظر: سليمان العودة، السيرة النبوية في الصحيحين (ص ٢٨٥- ٢٩٥).

واشتد الأذىٰ علىٰ المسلمين؛ فأشار الرسول ﷺ علىٰ أصحابه بالهجرة إلىٰ الحبشة مرة ثانية، فهاجر قرابة ثلاثة وثمانين رجلًا، وثماني عشرة امرأة، قال ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ-: (وكانت هجرتهم الآخرة أعظمها مشقة)[١].

ولما علمت قريش بهذه الهجرة بعثت رجلين من أصلب رجالها وأذكاهم، وهما عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة[٢]، وأرسلوا معهما الهدايا المستطرَفة إلىٰ النجاشي وبطارقته، وجاء الرجلان إلىٰ الحبشة، وقدما رشوتهما إلىٰ البطارقة، طلبًا للمساندة في الرأي عندما يُعرَض الأمر علىٰ النجاشيّ، ولكي يُحَسِّنا طرد هؤلاء المسلمين الذين يقيمون عنده.

ولكن النجاشي لم يتعجَّل في إعطاء الرأي؛ بل طلب السماع من جميع أطراف القضية واستدعىٰ لأجل ذلك المسلمين، ولما حضروا وكانوا قد اتفقوا أن يكون المتحدّث عنهم هو جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال لهم النجاشي: «ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل»؟ فقال جعفر -رضي الله تعالىٰ عنه-: «أيها الملك! كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا علىٰ ذلك حتىٰ بعث الله إلينا رسولًا منَّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلىٰ الله؛ لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، أمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم، والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصيام». قال: فعدَّد عليه أمور الإسلام.. فصدَّقناه وآمنَّا به واتبعناه علىٰ ما جاء به، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئًا، وحرَّمنا ما حرَّم علينا، وأحللنا ما

(١) انظر: ابن سعد، الطبقات (١/ ٢٠٧).

(٢) وكل منهما أسلم فيما بعد، وحسن إسلامه، والحمد لله رب العالمين، ورضي الله عنهما.

أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذّبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلىٰ عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا، وشقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلىٰ بلدك، واخترناك علىٰ مَن سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لَا نُظلَم عندك أيها الملك.

قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه عليَّ، فقرأ عليه صدرا من (كهيعص)، قالت: فبكىٰ والله النجاشي حتىٰ أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتىٰ أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسىٰ ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكم أبدًا، ولا أكاد. قالت أم سلمة: فلما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: واللهِ لَأُنَبِّئَنَّهُمْ غدًا عَيْبَهم عِندَهم، ثمَّ أَسْتَأْصِلُ به خَضراءَهم، قالت: فقال له عبد الله ابن أبي ربيعة -وكان أتقىٰ الرجلين فينا-: لا تفعل فإن لهم أرحامًا، وإن كانوا قد خالفونا. قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسىٰ ابن مريم عبدٌ، قالت: ثم غدا عليه الغد، فقال له: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسىٰ ابن مريم قولًا عظيمًا، فأَرْسِل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه. قالت: فأرسل إليهم يسألهم عنه، قالت: ولم ينزل بنا مثله، فاجتمع القوم، فقال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسىٰ إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله فيه ما قال الله، وما جاء به نبينا كائنا في ذلك ما هو كائن، فلما دخلوا عليه، قال لهم: ما تقولون في عيسىٰ ابن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاء به نبينا: هو عبد الله ورسوله، وروحه وكلمته ألقاها إلىٰ مريم العذراء البتول، قالت: فضرب النجاشي يده إلىٰ الأرض، فأخذ منها عودًا، ثم قال: ما عدا عيسىٰ ابن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا، فأنتم سيوم بأرضي - والسيوم: الآمنون - مَن سبَّكم غُرِّم، ثم مَن سبّكم غُرِّم، فما أحب أن لي دبرًا ذهبًا، وأني آذيت رجلًا منكم -والدبر بلسان الحبشة: الجبل- ردوا عليهما

هداياهما، فلا حاجة لنا بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليَّ ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في، فأطيعهم فيه. قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردودًا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار»[1].

(١) حديث أم سلمة رضي الله عنها أخرجه بطوله الإمام أحمد في مسنده (١/ ٢٠٢، و٥/ ٢٩٠-٢٩٢)، وقال الحافظ الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٤-٢٧): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع. وقال عنه أحمد محمد شاكر: (إسناده صحيح انظر: مسند الإمام أحمد، تحقيق أحمد شاكر ٣/ ١٨٠ رقم ١٧٤٠)، وأخرجه ابن هشام في السيرة (١/ ٣٤٥)، وأبونعيم في الحلية (١/ ١١٥)، وانظر صحيح السيرة النبوية لإبراهيم العلي (ص ١٠٦)، وقال: «وسنده صحيح». وهناك رواية أخرى من حديث أبي موسى الأشعري -رضي الله تعالى عنه- رواها أبو داود في سننه رقم (٣٢٠٥)، وضعفها الألباني، وأخرجها الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٣٨) رقم (٣٢٠٨)، وصحح سند هذه الرواية عبد الله الجبرين في كتابه صحيح السيرة النبوية (ص ٣٦٠)، وضعَّف رواية أم سلمه -رضي الله تعالى عنها-.

تنبيه: بمناسبة الحديث عن الهجرة إلى الحبشة يحسن التنبيه إلى ما ذكره ابن إسحاق -رحمه الله تعالى- وغيره حول ما روي عن ردة عبيد الله بن جحش ،وكان أحد المهاجرين إلى الحبشة وموته في الحبشة على النصرانية، وقد أنكر العلماء هذه الرواية قال عنها الذهبي -رحمه الله تعالى- في سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢١): (وذكرتْ القصة بطولها وهي منكرة)، ومما يدل على بطلانها ما أخرجه الإمام ابن حبان في صحيحه، ترتيب ابن بلبان، وتحقيق شعيب الأرناؤوط (١٣/ ٣٨٥-٣٨٦) رقم (٦٠٢٧)، الطبعة الأولى: بيروت: مؤسسة الرسالة، (١٤٠٨) عَنْ عَائِشَةَ، -رضي الله تعالى عنه-ا قَالَتْ: هَاجَرَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ بِأُمِّ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ وَهِيَ امْرَأَتُهُ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، فَلَمَّا قَدِمَ أَرْضَ الْحَبَشَةِ، مَرِضَ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، أَوْصَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أُمَّ حَبِيبَةَ، وَبَعَثَ مَعَهَا النَّجَاشِيُّ شرحبيل بن حسنة»، وقال الأرناؤوط -رحمه الله تعالى-: «إسناده صحيح على شرط البخاري، رجاله رجال الشيخين غير محمد بن يحيى الذهلي، فمن رجال البخاري». وهذا كافٍ في رد هذه الفرية عن هذا الصحابي. وللشيخ محمد بن عبد الله العوشن -جزاه الله خيرًا- بحثًا بعنوان (تحقيق دعوى ردة عبيد الله بن جحش) منشور في مجلة البيان الصادرة عن المنتدى الإسلامي بلندن عدد (١٨٢) شوال ١٤٢٣هـ، ص٢٢- ٢٤، وطبع ضمن كتاب للمؤلف بعنوان «ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية» (ص ٣٧) وما بعدها: قال في نهاية البحث: (مما سبق يتبين -والله أعلم- أن قصة ردة عبيد الله بن جحش لم تثبت لعدة أدلة منها...) وذكر أربعة أدلة، والحكم بالردة على شخص ليس بالأمر السهل=

وهكذا بقي المهاجرون من الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- آمنين، وانتهت مكيدة قريش بالفشل، ورجع وفدهم خاسرين، وقد رجع المهاجرون فيما بعد إلىٰ المدينة بعد هجرة الرسول ﷺ، وكان آخرهم رجوعًا الذين رجعوا بعد فتح خيبر، وفي مقدمتهم جعفر بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين-.

نقف مع هذه الهجرة؛ لنستفيد منها ما يأتي:

أولًا: كفىٰ للنجاشي ثناءً هذه التزكية الفريدة من الرسول ﷺ حينما قال عنه: «فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد»، وقد كان له مواقف مشكورة في نصرة صحابة رسول الله ﷺ.

ثانيًا: قيمة العدل، وأن هذا هو مطلب الناس، يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (فإن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة، ولهذا يُرْوَىٰ: الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة)(١).

وعندما يأتي الحديث عن العدل فليس القصد منه عدل الحاكم فقط، بل العدل من الأفراد في بيوتهم بين أولادهم، وبين زوجاتهم، وبين إخوانهم وأخواتهم، وعدل المعلم مع طلابه، وعدل القاضي بين الخصوم عنده. فلا خير في أرض سوق الظلم فيها رائج. فالدنيا تصلح بالعدل، وطمأنينة معيشة الناس تأتي بالعدل، لكن طمأنينة قلوبهم لا تأتي إلا بذكر الله -جل شأنه- والإيمان به.

ثالثًا: لم يتمكّن صحابة رسول الله ﷺ من عبادة ربهم بأمن وطمأنينة في مكة؛

=فضلًا عن أن يكون المقصود صحابيًّا ومن المهاجرين الأوائل، والأصل السلامة، وأنه صحابي جليل هاجر إلى الحبشة فرارًا بدينه. ونسأل الله السلامة. وقد سبق أن ذكرت ذلك في مبحث أمهات المؤمنين عند الحديث عن أم المؤمنين أم حبيبة -رضي الله تعالى عنها- التي كانت عند عبيد الله بن جحش قبل أن يتزوجها الرسول ﷺ وكررته لأهميته.

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦٢-٦٣).

بسبب إيذاء قريش لهم، ولما لم يبقَ أمام هؤلاء الصحابة إلا ترك الوطن والأهل والمال، من أجل العقيدة، أو ترك العقيدة من أجل الوطن والأهل والمال؛ اختاروا العقيدة، وفارقوا أوطانهم وأهليهم من أجل المحافظة علىٰ دينهم، وهكذا العقيدة فوق الأهل والمال والوطن.

رابعًا: يقول الألباني -رحمه الله تعالىٰ- في «سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها»: (وفي الحديث دلالة ظاهرة علىٰ جواز هجرة المسلم من بلد الكفر إذا اشتد الضغط عليه من أهله إلىٰ بلد آخر يجد فيه الحرية الدينية، وليس كذلك ما يفعله بعض الشباب المسلم من السفر من بلده المسلم إلىٰ بعض البلاد الكافرة، لمجرد أنه يجد فيه شيئًا من التضييق أو التعذيب من بعض الحكّام الظالمين، فهذا لا يجوز للأحاديث الكثيرة في النهي عن ذلك، كقوله ﷺ: «المسلم والمشرك لا تتراءىٰ نارهما»، ونحوه، ولكثرة الفسق والخلاعة المنتشرة في كل مكان من تلك البلاد؛ بحيث يندر ألَّا يتأثر المسلم بذلك، فكيف بأولاده الذين يُرَبّون فيها، ويرضعون لبانتها كما هو مشاهد؟! ولذلك فنحن ننصحهم -ومن أسلم من أهلها- أن يهاجروا إلىٰ بلد من البلاد الإسلامية، يتمكنون فيه من القيام بشعائر دينهم، ويُكثِّرون سواد إخوانهم المؤمنين، والله -عز وجل- يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ الآية [النساء:٩٧])[١].

خامسًا: تبعًا لذلك، ماذا نقول لأولئك الذين تركوا أوطانهم الإسلامية وهجروها إلىٰ بلاد الكفر إعجابًا بالكفار، وتركوا بلادهم المسلمة؟ دون إيذاء أو سبب يتعلق بدينهم؟ ماذا يقال لهؤلاء، ونحن نتذكر هجرة هؤلاء الصحابة-رضي الله تعالىٰ عنهم- إلىٰ بلاد الحبشة بحثًا عن مكان آمن يعبدون الله فيه، وصحبة

(١) الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها (٧/ ٥٧٨-٥٧٩).

صالحة ولتكوين مجتمع مسلم يكون فيه الجار مسلمًا والحي بأكمله مسلمًا، ويسمع فيه النداء للصلاة خمس مرات باليوم؟

سادسًا: إن هؤلاء الصحابة الذين خرجوا من مكة إلىٰ الحبشة بينوا لنا عمليًّا كيف أن المسلم لا يتكيّف مع المجتمعات غير المسلمة فيما يخالف دينه، بل هو الذي يسعىٰ إلىٰ تكييف تلك المجتمعات؛ لتصبح إسلامية.

ومثل هذا ينطبق حتىٰ علىٰ المجالس التي يجلس فيها المسلم، ويرىٰ فيها بعض المنكرات، فهو إما أن يجاري ويسكت ويصبح بالتالي كيَّف نفسه فيها بما يخالف أمر الله -سبحانه وتعالىٰ-، أو ينكر وإذا لم يستطع الإنكار يخرج عنها ويتركها، فهجرة الصحابة إلىٰ الحبشة درس لنا في التعامل مع المجتمعات غير الإسلامية؛ بل وحتىٰ مع المجالس التي تقوم علىٰ المعاصي والمنكرات.

سابعًا: في هجرة هؤلاء الصحب الكرام، ومع بعضهم زوجاتهم، من مكة إلىٰ الحبشة، بعضهم كان راكبًا، وبعضهم كان ماشيًا، إلىٰ أن وصلوا البحر، ثم ركبوا في السفينة، ثم بعد ذلك اجتازوا تلك الصحاري في إفريقيا للوصول إلىٰ المكان الآمن، يرشدنا إلىٰ مدىٰ المعاناة والمشقة التي تحمَّلها هؤلاء في سبيل الله، ومحافظة علىٰ عقيدتهم ودينهم، فلا تستكثر ما قدمت لدينك، فقد سبق هؤلاء سبقًا عظيمًا، وأعطونا درسًا لا يُنْسَىٰ في قيمة المحافظة علىٰ دين الله مهما كلّف من مشاق.

قارن تكاليف محافظتهم علىٰ الدين، بتكاليف محافظتنا علىٰ ديننا، تركوا الأهل والوطن والمال، لأجل الدين، ونحن نتكاسل عن صلاة الجماعة في المسجد، ونرىٰ ذلك شاقًّا، ونبخل بمال قليل نتصدق به لحاجة مسكين.

ثامنًا: أود أن تستحضر مشهد رقية بنت المصطفىٰ ﷺ زوجة عثمان -رضي الله تعالىٰ عنهما-، وهي تسير علىٰ قدميها هجرة في سبيل الله إلىٰ الحبشة، وعمرها لم يتجاوز اثني عشر عامًا، قطعت هذه المسافة مرتين؛ في هجرة الحبشة الأولىٰ،

وفي هجرة الحبشة الثانية، ثم هاجرت من مكة إلىٰ المدينة، كل ذلك في سبيل الله، وبحثًا عن مكان آمن تعبد الله فيه.. يكفي أن تستحضر هذه الصورة كنموذج لمعاناة الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- في سبيل هذا الدين.

تاسعًا: في ملاحقة كفار قريش للصحابة في الحبشة، ومحاولة ردهم إلىٰ مكة، دلالة واضحة علىٰ أن العداوة بين الكفار والمسلمين ليست عداوة شخصية، بل عداوة دينية، ولو كانت عداوة شخصية لفرح الكفار بخروج المسلمين وابتعادهم عنهم، ولكن العداوة هنا عداوة دين، والذي يخالفك في الدين لا يريد منك أن تبقىٰ آمنًا مطمئنًا أبدًا أينما كنت، أما الذي يعاديك شخصيًّا، فهو يريد أن تبتعد عن وجهه ثم ينساك.

عاشرًا: تأمل قول جعفر -رضي الله تعالىٰ عنه- لما تكلم أمام الملك النجاشي قال -رضي الله تعالىٰ عنه-: «فكنا علىٰ ذلك حتىٰ بعث الله إلينا رسولًا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلىٰ الله؛ لنوحّده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان»؛ فبَنَىٰ -رضي الله تعالىٰ عنه- سرعة استجابتهم لرسول الله ﷺ علىٰ معرفتهم به نسبًا وصدقًا وأمانةً وعفافًا. وهذا مهمّ للدعاة إلىٰ الله -تعالىٰ- أن يُعرَف عنهم الصدق والأمانة والعفاف ليسارع الناس إلىٰ قبول ما يقولون.

حادي عشر: قال عثمان بن حسن: (وكان السلف إذا سُئل أحدهم عن مسألة من مسائل الاعتقاد أجاب بنصوص الكتاب والسنة، كما فعل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه مع النجاشي -ملك الحبشة-، وقد سأله النجاشي عن حقيقة عيسىٰ -عليه السلام-، فأجاب جعفر بما في سورة مريم؛ فعقل النجاشي ذلك عنه، وكان سببًا في إسلامه)[1].

---

(١) عثمان بن علي حسن، منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد (١/ ١٨٢).

ثاني عشر: لما أراد النجاشي أن يسأل الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- عن قولهم في عيسىٰ -عليه السلام-، اتفقوا علىٰ أن يقولوا الصدق، فكان منجاة لهم. مهما كلفك الصدق، فاعلم أن ما حصَّلته به فهو أثمن، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لأن يضعني الصدق -وقلَّما يضع- أحبُّ إليَّ من أن يرفعني الكذب، وقلَّما يفعل»(١). يقول أحد العلماء: (يومًا ما -في أوائل أيام عمري- علّمني جدي -عليه رحمة الله- علمني الصدق بكلمة، قال: يا بني: مَن في هذه الدنيا، يستحق أن تُغضِب الله لأجل أن تُرضيه؟ ووقعت من نفسي هذه الكلمة موقعها إلىٰ اليوم»، ولعل في هذا درسًا لنا جميعًا في التزام الصدق في سلوكنا قولًا وفعلًا.

ثالث عشر: في الهجرة إلىٰ الحبشة، وما جرىٰ فيها نأخذ جواز الاستعانة بغير المسلم المأمون عند الحاجة، ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-(٢). وهذا نأخذه هنا من الاستعانة بالنجاشي قبل أن يُسْلم، فقد لجأ إليه الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- بأمر من الرسول ﷺ وكان ملكًا عادلًا، لكنه لم يكن مسلمًا، وإنما أسلم فيما بعد.

رابع عشر: إن اختيار الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-، جعفر -رضي الله تعالىٰ عنه- لكي يتحدَّث نيابةً عنهم، اختيار موفَّق كان له أبلغ الأثر، فهو ابن عم الرسول ﷺ وأقربهم إليه، وهو البليغ الفصيح الهاشمي، وقد اختار أسلوبًا للحديث يقوم علىٰ المقارنة بين حالين؛ حالهم قبل مجيء الرسول ﷺ، وحالهم بعد ذلك، ويترك المستمع يحكم بنفسه، يقول أبو الحسن الندوي -رحمه الله تعالىٰ-: (إنّ كلام جعفر بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- أمام ملك الحبشة، وتصويره للإسلام، كلام حكيم قد جاء في أوانه ومكانه، وقد دلّ علىٰ بلاغة صاحبه العقلية، قبل أن يدلّ

---

(١) الماوردي، أدب الدنيا والدين (دار مكتبة الحياة ١٩٨٦م)، (ص ٢٦٣).

(٢) انظر: ابن القيم ، زاد المعاد (٣/ ٣٠١)، وانظر: ما يأتي في قصة الهجرة وقصة غزوة حنين ففيهما مزيد توضيح.

علىٰ بلاغته العربيّة البيانيّة، ولا يعلّل ذلك إلّا بإلهام من الله وتأييد هذا الدين الذي أراد الله أن يتمّ نوره، وأن يُظْهِره علىٰ كلّ دين، ويدلّ كذلك علىٰ سلامة الفطرة، ورجاحة العقل، اللتين فاق فيهما بنو هاشم قريشًا، وفاقت فيهما قريش العرب كلّهم، فقد فضَّل جعفر أن يكون جوابه حكاية حال لما كان عليه أهل الجاهلية في الجزيرة العربية، ولما آل إليه أمرهم بعد ما أرسل الله رسوله فيهم، ودعا إلىٰ الله وإلىٰ الدين الحنيف السمح، ومكارم الأخلاق، وآمنوا به واتّبعوه، وحكاية الحال -خصوصًا إذا لم يجانب فيه صاحبها الصواب- أبعد شيء عن المناقشة والمناظرة، وأقدر شيء علىٰ غرس المعاني المقصودة، وتحقيق الأهداف المنشودة، والتهيّؤ للتأمّل والإنصاف وحسن الاستماع)[1]، وهو درس مهم في بيان أثر الأسلوب الدعوي في الإقناع، وكم من فكرة لاقت الإشادة والقبول لحسن عرضها! وأخرىٰ مثلها شوّهها عارضها!

خامس عشر: لقد كان في كلمات جعفر الطيار -رضي الله تعالىٰ عنه- بيان صريح واضح لصفة المجتمع الذي بُعِث فيه الرسول ﷺ، وهذا يكشف لك مستوىٰ المشقة والمعاناة التي واجهها الرسول ﷺ في إصلاح هذا المجتمع، حتىٰ أصبح مجتمعًا أساسه وجوهره التوحيد وأن لا يُعْبَد إلا الله -جل شأنه-، نقيًّا من كلّ صُور الوثنية وسيئ الأخلاق والظلم.

سادس عشر: أيضًا في كلمات جعفر -رضي الله تعالىٰ عنه- عبرة، حينما بدأ يصف المجتمع الجاهلي بقوله: «كنا قومًا أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف»؛ هل جعفر رضي الله عنه يصف المجتمع الجاهلي في عصره، أم يصف بعض المجتمعات الكافرة

(١) أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، الطبعة الثانية عشرة (دار ابن كثير، دمشق ١٤٢٥)، (ص ٢٠٠).

في عصرنا؟! أَعِد النظر في قول جعفر ﵁ تجد غالب تلك العبارات -إن لم يكن كلها- تنطبق علىٰ بعض المجتمعات الكافرة المعاصرة في شرق الأرض ومغاربها، إنه في الواقع يصف كل مجتمع يبتعد عن دين الله، ذلك أن كل مجتمع يتخلَّىٰ عن دين الله يصبح بهذه الصفة.

سابع عشر: في كلمة جعفر ﵁ عندما سأله النجاشي عن هذا الدين بدأ بعرض المنهيات وأعظمها الشرك بالله، ثم المأمورات وأولها التوحيد، فالتخلية مقدَّمة التحلية، فأولًا وقبل كل شيء نَبْذ الشرك والتخلي عنه، ثم توحيد الله -سبحانه- وإفراده بالعبادة، كما قال -تعالىٰ-: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦]، فأولًا الكفر بالطاغوت، فالذين يشهدون أن لا إله إلا الله، ولا يزالون علىٰ شركياتهم ووثنياتهم، هم -في الحقيقة- غافلون عن هذا المعنىٰ العظيم الذي أشار إليه جعفر ﵁، إن دعوة محمد ﷺ قائمة علىٰ التوحيد الذي أساسه الكفر بالطاغوت والإيمان بالله وتوحيده، فلا قيمة لمجتمع ولا لفرد لم يتشبع قلبه بتوحيد الله -سبحانه وتعالىٰ-، ويتخلَّىٰ عن كلّ صُوَر عبادة الأشخاص والقبور والمزارات.

ثامن عشر: إن جعفر ﵁ لما بدأ يُعدّد ما دعاهم إليه الرسول ﷺ بدأ بالتوحيد، وهذا الذي يجب أن يبدأ به الدعاة إلىٰ الله في دعوتهم، ويمضوا معه، ويركزوا عليه، ويكثروا من تجليته وتوضيحه للناس.

تاسع عشر: في غزوة خيبر كما سيأتي عاد آخر المهاجرين إلىٰ الحبشة فكان بعض الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- يفخر علىٰ مهاجري الحبشة بأنهم سبقوهم بالهجرة إلىٰ المدينة، فأخبروا الرسول ﷺ بذلك، فقال الرسول ﷺ حينئذ: «ليس بأحق بي منكم، وله -أي: القائل- ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل

السفينة[1] هجرتان»[2]. وقد فرحوا بهذا الحديث أيّ فرح. تقول أسماء بنت عميس -رضي الله تعالىٰ عنها- وهي التي سألت الرسول ﷺ: «فلقد رأيت أبا موسىٰ وأصحاب السفينة يأتونني أرسالًا يسألونني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي ﷺ»[3]. وهذا فيه فضيلة ظاهرة لمهاجري الحبشة -رضي الله تعالىٰ عنهم-، يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وظاهره[4] تفضيلهم علىٰ غيرهم من المهاجرين، ولكن لا يلزم منه تفضيلهم علىٰ الإطلاق)[5].

العشرون: ما أعظم هذا الخُلُق العظيم من الرسول ﷺ عندما جاءه بعض مهاجري الحبشة مكسوري الخاطر بسبب قول البعض لهم: إنهم سبقوهم بالهجرة إلىٰ المدينة فأحزنهم ذلك، ولكنَّ الرسول ﷺ جبرهم بكلماته اللطيفة التي عادت لهم بالفرح والسرور والغبطة بما وفَّقهم إليه من الهجرة إلىٰ الحبشة، وهم جديرون بذلك بهجرتهم أيام الشدة إلىٰ الحبشة -وهي مكان ناءٍ جدًّا وراء البحار-؛ من أجل المحافظة علىٰ دين الله -جل شأنه-.

---

(١) أهل السفينة: هم مهاجرو الحبشة الذين قدموا بالسفينة.

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٧/ ٤٨٥) رقم ٤٢٣١.

(٣) صحيح البخاري ، المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٤) أي ظاهر الحديث الذي أشرت إليه.

(٥) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٤٨٦).

المبحث السابع

فقه السيرة في قصة إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنهما-

في هذا الجزء المهم من السيرة النبوية المباركة لا يمكننا أن نتجاوز حدثًا شخصيًّا في صورته، عظيم الأهمية في أثره، تقوَّىٰ به المسلمون واستبشروا، وكسَر الله به المشركين فتقهقروا.

هذا الحدث يتمثَّل في إسلام رجلين من خيرة قريش وأعظمها بأسًا، كان لهما المكانة فيها في الجاهلية، وكان لهما الأثر البيِّن علىٰ المسلمين بإسلامهما؛ أولهما سيد الشهداء عم الرسول ﷺ حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وثانيهما الفاروق أمير المؤمنين الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

إسلام أسد الله؛ حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه:

حمزة هو عم رسول الله ﷺ، وأخوه من الرضاعة، قال عنه الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (الإمام، البطل، الضرغام، أسد الله[1] أبو عمارة، وأبو يعلىٰ القرشي،

(١) قال في المستدرك للحاكم (٣/ ٢١٩) رقم (٤٩٠٠): «قال جابر -رضي الله تعالى عنه-: فقال رسول الله ﷺ: «سيد الشهداء عند الله -تعالى- يوم القيامة حمزة»، «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، ولم يتعقبه الذهبي، وعن سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه- قال: «كان حمزة يقاتل يوم أُحُد بين يدي رسول الله ﷺ بسيفين، ويقول: أنا أسد الله». أخرجه الذهبي في المستدرك (٣/ ٢١٤) رقم (٤٨٨٠)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه» ولم يتعقبه الذهبي. وأخرجه الذهبي في سير أعلام النبلاء (١/ ١٧٢).

الهاشمي، المكي، ثم المدني، البدري، الشهيد. عم رسول الله ﷺ)[1]. وكان إسلامه في البداية حميةً للرسول ﷺ، فقد ورد أن أَمَةً لعبد الله بن جدعان كانت في مسكن لها حينما مر أبو جهل بالرسول ﷺ عند الصفا، فآذاه وشتمه، ونال منه، فلم يكلمه الرسول ﷺ، فلم يلبث أن أقبل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه من صيدٍ له متوشحًا قوسه، فأخبرته أَمَةُ ابن جدعان بما سمعت، وكان أعزّ فتىً في قريش وأشد شكيمة، فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعىٰ ولم يقف علىٰ أحد مُعِدًّا لأبي جهل إذا لقيه أن يُوقِع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالسًا في القوم، فأقبل نحوه حتىٰ إذا قام علىٰ رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجةً منكرة، ثم قال: أتشتمه؟ فأنا علىٰ دينه أقول ما يقول، فرُدَّ عليَّ ذلك إن استطعتَ. فقامت رجال من بني مخزوم؛ لنصرة أبي جهل، فمنعهم أبو جهل. وتمَّ حمزة رضي الله عنه علىٰ إسلامه وعلىٰ ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله، فلما أسلم، عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عزَّ وامتنع، وأن حمزة رضي الله عنه سيمنعه، فكَفُّوا بعض الشيء[2].

وحمزة -رضي الله تعالىٰ عنه- وُلِدَ قبل النبي ﷺ بسنتين. وقيل: بأربع. وأسلم مبكرًا، ولازم نصر رسول الله ﷺ وهاجر معه[3].

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (١/ ١٧٢).

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣١٢)، والذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية)، (١/ ١٣٧)، وأورده الحاكم في المستدرك (٣/ ١٩٢-١٩٣)، ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٦٧) رقم (١٥٤٦١)، وقال: «رواه الطبراني مرسلًا، ورجاله ثقات». وانظر: الشامي، سبل الهدى والرشاد (٢/ ٤٤٣-٤٤٤)، وانظر رواية أخرى تتفق في المعنى عن محمد بن كعب القرظي رواها الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٦٧) رقم (١٥٤٦٠)، وقال: «رواه الطبراني مرسلًا، ورجاله ثقات»، وانظر: إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية (ص ٨٢).

(٣) انظر: ابن حجر، الإصابة (٢/ ١٠٦).

إسلام الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه شديد العداوة على المسلمين، مؤذيًا لهم، تقول ليلى بنت حثمة بن عبد الله زوجة عامر بن ربيعة رضي الله عنه: والله إنا لنرتحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر في بعض حاجته؛ إذ أقبل عمر وهو على شركه، حتى وقف عليَّ، وكنا نلقى منه البلاء، أذًى لنا وشدةً علينا، فقال: إنه الانطلاق يا أم عبد الله، قالت: فقلت: نعم والله، لنخرجن في أرض الله؛ آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا مخرجًا. قلت: فقال: صحبكم الله، ورأيت له رِقَّة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه -فيما أرى- خروجنا. قالت: فجاء عامر -رضي الله تعالى عنه- بحاجته تلك، فقلت له: يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفًا ورِقَّته وحزنه علينا، قال: أطمعتِ في إسلامه؟ قالت: قلت: نعم، قال: فلا يُسلم الذي رأيتِ حتى يُسلم حمار الخطاب؛ قالت: يأسًا منه لما كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام[1].

لقد ظهر من عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذا الموقف رقة غير معهودة منه، وخاصةً مع المسلمين، ولذلك استنكر عامر هذا القول، وقد عهد من عمر رضي الله عنه في ذلك الوقت الغلظة والشدة على المسلمين، واستبعد بناء على ذلك أن يُسلم عمر -رضي الله تعالى عنه-.

ولمكانة عمر رضي الله عنه؛ فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الله -سبحانه وتعالى- دعوة خاصة لعمر -رضي الله تعالى عنه-، وأبي جهل أن يهدي الله أحبهما إليه للإسلام، فعن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اللهم أعِزَّ الإسلامَ بأحبِّ هذين الرجلين إليك؛ بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب»، قال: وكان أحبهما

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣٦٥)، وابن حجر، الإصابة (٨ / ١٨٠-١٨١)، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٤): (رواه الطبراني وقد صرح ابن إسحاق بالسماع فهو صحيح)، وانظر: إبراهيم العلي، صحيح السيرة (ص ١٠١).

إليه عمر[1]. وعن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «اللهم أَعِزَّ الإسلام بعمر بن الخطاب خاصة»[2].

وقد استجاب الله -سبحانه وتعالىٰ- دعاء نبيه ﷺ، فآمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عقب الهجرة الأولىٰ إلىٰ الحبشة[3]، ويُروىٰ أن ذلك كان بعد إسلام حمزة رضي الله عنه بثلاثة أيام[4]، وقيل بتأخر إسلامه -رضي الله تعالىٰ عنه-، قاله ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ- استنباطًا من الحديث الذي رواه ابن حبان -رحمه الله تعالىٰ- الآتي بعد عدة أسطر.

وقد ذكرت كتب السيرة أكثر من قصة في سبب إسلامه رضي الله عنه لا يصح شيء من أسانيدها -مع وضوح التعارض بينها-، ومن أحسنها ما جاء من طريق شريح بن عبيد -رحمه الله تعالىٰ- قال: قال عمر رضي الله عنه: خَرَجْتُ أَتَعَرَّضُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ أُسْلِمَ فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي إِلَىٰ الْمَسْجِدِ فَقُمْتُ خَلْفَهُ فَاسْتَفْتَحَ سُورَةَ الْحَاقَّةِ، فَجَعَلْتُ أَعْجَبُ مِنْ تَأْلِيفِ الْقُرْآنِ. قَالَ: فَقُلْتُ هَذَا وَاللهِ شَاعِرٌ كَمَا قَالَتْ قُرَيْشٌ، قَالَ فَقَرَأَ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠-٤١]، قَالَ:

(١) أخرجه الترمذي في سننه، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب»، وصححه الألباني، صحيح سنن الترمذي، الألباني (٣/ ٢٠٤) رقم (الحديث ٢٩٠٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، وصححه الألباني دون كلمة (خاصة): صحيح سنن ابن ماجه، الألباني، المقدمة (١/ ٢٤)، حديث رقم (٨٥).

(٣) انظر: ابن سعد، الطبقات (٣/ ٢٦٩)، وقال: «وأسلم في ذي الحجة السنة في السادسة من النبوة، وهو ابن ست وعشرين سنة. قال: وكان عبد الله بن عمر يقول: أسلم عمر وأنا ابن ست سنين»، وعندي أن هذا هو أقرب الأقوال، يؤيد هذا ما ورد في فضائل الصحابة للإمام أحمد (١/ ٢٧٨) رقم (٣٧٠): «كان عبد الله بن مسعود يقول: ما كنا نقدر على أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر بن الخطاب، فلما أسلم قاتل قريشًا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه، وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب النبي ﷺ إلى أرض الحبشة»، وانظر: الشامي، سبل الهدى والرشاد (٣/ ٤٩٣)، وابن حجر، فتح الباري (٧/ ١٧٨ و١٨٢).

(٤) انظر: الشامي، سبل الهدى والرشاد (٢/ ٤٩٣)، والذهبي، السيرة النبوية (ص ١٠٧)، وابن سعد، الطبقات (٣/ ٩)، وانظر: مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٢١٢).

قُلْتُ كَاهِنٌ، قَالَ: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة:٤٢-٤٧] إِلَىٰ آخِرِ السُّورَةِ. قَالَ: فَوَقَعَ الْإِسْلَامُ فِي قَلْبِي كُلَّ مَوْقِعٍ»[١]. ورُوِيَتْ روايات أخرىٰ سبق أن أشرت إلىٰ بعضها.

والذي يهمنا هنا هو أن هذا الصحابي الجليل قد تحوَّلت شدته منذ اللحظات الأولىٰ من إسلامه إلىٰ قوة في نصرة الحق ومعاداة الباطل يتمثل ذلك في عدة مواقف لعمر رضي الله عنه؛ منها:

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: وحدثني عبد الرحمن بن الحرث، عن بعض آل عمر أو بعض أهله قال: قال عمر -رضي الله تعالىٰ عنه-: لما أسلمت تلك الليلة تذكرت أيّ أهل مكة أشد عداوة لرسول الله ﷺ حتىٰ آتيه، فأُخبره أني أسلمت؟ قال: فقلت: أبو جهل، فأقبلت حين أصبحت حتىٰ ضربت عليه بابه، فخرج أبو جهل، فقال: مرحبًا وأهلًا يا ابن أختي! ما جاء بك؟ قلت: جئت لأخبرك أني قد آمنت بالله ورسوله، وصدقت بما جاء به، فضرب الباب في وجهي، وقال: قبَّحك الله وقبَّح ما جئتَ به[٢].

وروىٰ ابن حبان -رحمه الله تعالىٰ- في صحيحه قال: سمعت محمد بن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ- يقول: حدثنا نافع عن ابن عمر -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: لما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لم تعلم قريش بإسلامه، فقال: أيّ أهل مكة أنشأ للحديث؟ فقالوا: جميل بن معمر الجمحي، فخرج إليه وأنا معه أتبع أثره،

(١) قال الألباني -رحمه الله تعالى-: «وذُكِرَ في إسلام عمر رضي الله عنه عدة روايات لا يصح شيء من أسانيدها -مع وضوح التعارض بينها-، ومن أحسنها إسنادًا مع الاختصار ما أخرجه أحمد (١/ ١٧)، ومن طريقه ابن الأثير في «أسد الغابة» (٣/ ٦٤٤)، من طريق شريح بن عبيد قال: قال عمر رضي الله عنه...»، وذكر النص أعلاه، ثم قال: «ورجال إسناده ثقات، فالإسناد صحيح، لولا أن شريح بن عبيد لم يُدرك عمر بن الخطاب».

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣٧١). وفضائل الصحابة للإمام أحمد (١/ ٢٨٤) رقم (٣٧٥).

أعقل ما أرىٰ وأسمع، فأتاه فقال: يا جميل، إني قد أسلمت، قال: فو الله ما ردَّ عليه كلمة حتىٰ قام عامدًا إلىٰ المسجد، فنادىٰ أندية قريش، فقال: يا معشر قريش، إن ابن الخطاب قد صبأ، فقال عمر: كذب ولكني أسلمت وآمنت بالله، وصدقت رسوله، فثاوروه، فقاتلهم حتىٰ ركدت الشمس علىٰ رؤوسهم، حتىٰ فتر عمر وجلس، فقاموا علىٰ رأسه، فقال عمر: افعلوا ما بدا لكم، فو الله لو كنا ثلاث مائة رجل لقد تركتموها لنا أو تركناها لكم»[1].

هذا موقفه مع كفار قريش منذ بداية إسلامه، وفي فضائل الصحابة للإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ- عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: «لما أسلم عمر- رضي الله تعالىٰ عنه- قال المشركون: قد انتصف القوم منا»[2].

أما فرح المسلمين بإسلامه ﷺ وكون إسلامه نصرًا للمسلمين وذلًا وخزيًا علىٰ أعدائهم فيدل عليه ما يلي:

١) روىٰ البخاري -رحمه الله تعالىٰ- عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر».[3]

(١) الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان ترتيب ابن بلبان (١٥/ ٣٠٢) رقم (٦٨٧٩)، وقال الألباني في تعليقه على الحديث: «حسن. «مُحَمَّدَ بْنَ إِسْحَاقَ» قال الشيخ: هو صاحبُ «السيرة»، التي اختصرها ابن هشام، وقد ذكره فيه (١/ ٣٧٠)، وفيه التصريح بالتحديث -أيضًا-؛ فالإسنادُ حسنٌ. وصحَّحه الحاكم (٣/ ٨٥) على شرطِ مُسلمٍ! ولم يتعقبه الذهبي. وقد طُبِعَ قِسمٌ مِنْ سيرة ابن إِسحاقَ، والحديث فيه (١٦٤/ ٢٢٦)، وفيه التصريح -أيضًا- «وقال الأرناؤوط محقق الكتاب: «إسناده قويّ»)، وانظر: «ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣٧٠)، وأورده ابن كثير في السيرة النبوية، وقال: «وهذا إسناد جيّد قويّ، وهو يدلّ على تأخر إسلام عمر؛ لأن ابن عمر عرض يوم أُحُد وهو ابن أربع عشرة سنة، وكانت أُحُد في سنة ثلاث من الهجرة، وقد كان مُميِّزًا يوم أسلم أبوه، فيكون إسلامه قبل الهجرة بنحو من أربع سنين. وذلك بعد البعثة بنحو تسع سنين. والله أعلم».

(٢) فضائل الصحابة (١/ ٢٤٨) رقم (٣٠٨).

(٣) البخاري، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٧/ ٤١)، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر، حديث رقم (٣٦٨٤).

٢) وفي الطبقات عند ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ-: (قال عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه-: كان إسلام عمر فتحًا، وكانت هجرته نصرًا، وكان إمارته رحمة. لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلّي بالبيت حتىٰ أسلم عمر. فلما أسلم عمر قاتلهم حتىٰ تركونا، فَصَلَّينا)[١].

٣) وفي مصنف ابن أبي شيبة -رحمه الله تعالىٰ-: قال عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه-: (إذا ذُكر الصالحون فحيهلا بعمر، إن إسلامه كان نصرًا، وإن إمارته كانت فتحًا، وايم الله، ما أعلم علىٰ الأرض شيئًا إلا وقد وجد فَقْد عمر حتىٰ العضاة، وايم الله إني لأحسب بين عينيه مَلَكًا يُسدّده ويرشده، وايم الله لو أعلم أن كلبًا يحب عمر لأحببته)[٢].

٤) وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لعمر ﷺ: «والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكًا فجًّا قط إلا سلك فجًّا غير فجك»[٣].

٥) رُوي أنه لما أسلم خرج رسول الله ﷺ ومعه حمزة وعمر وأصحابه الذين كانوا اختفوا في دار الأرقم، فعلمت قريش أنه امتنع، فلم تُصبهم كآبة مثلها، قال عمر: فسماني رسول الله ﷺ يومئذ الفاروق.[٤]

(١) الطبقات (٣/ ٢٠٤).

(٢) المصنف لابن أبي شيبة (٦/ ٣٥٣) رقم (٣١٩٨٩) ورواه أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٨٠) رقم (٤٦). وانظر عبد الله الجبرين، صحيح السيرة النبوية (ص ٣٩٠-٣٩١)، وقد أورد هذا الأثر، وقال: «وسنده حسن، رجاله كوفيون ثقات، عدا عاصم فهو حسن الحديث، وروى ابن أبي شيبة (٣١٩٨٣) حدثنا وكيع عن سفيان عن واصل عن أبي وائل قال قال عبد الله: «ما رأيت عمر إلا وكأن بين عينيه مَلكًا يُسدّده»، وسنده صحيح، ورجاله كوفيون ثقات».

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري (٣٦٨٣)، وصحيح مسلم رقم (٢٣٩٦).

(٤) انظر: ابن حجر، الإصابة (٤/ ٢٨٠)، والذهبي، السيرة النبوية (١٠٧/ ١٠٨)، وقال في بدايتها: (وروي عن ابن عباس بسند ضعيف). وضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٧/ ٦٤) رقم (٣٠٦٢) و(١٤/ ٧٣) رقم (٦٥٣١): ولا يثبت عن الرسول ﷺ هذا اللقب لعمر -رضي الله تعالى عنه-، وقال ابن حجر في الفتح (٧/ ٤٤):=

=(وأما لقبه فهو الفاروق باتفاق فقيل أول مَن لقَّبه به النبي ﷺ رواه أبو جعفر بن أبي شيبة في تاريخه عن طريق بن عباس عن عمر، وورواه ابن سعد من حديث عائشة، وقيل أهل الكتاب. أخرجه ابن سعد من الزهري، وقيل جبريل رواه البغوي). وفي تاريخ المدينة لابن شبة (٢/ ٦٦٢)، والطبقات لابن سعد (٣/ ٢٧٠) وتاريخ الطبري (٤/ ١٩٥) و(١١/ ٥٠٤): (أخبرنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد، عن أبيه، عن صالح بن كيسان قال: قال ابن شهاب: «بلغنا أن أهل الكتاب كانوا أول من قال لعمر: الفاروق، وكان المسلمون يأثرون ذلك من قولهم، ولم يبلغنا أن رسول الله ﷺ ذكر من ذلك شيئًا). ويعني ابن شهاب بالمسلمين أي الصحابة –رضي الله تعالى عنهم– وكبار التابعين فهم الذين أدركهم ابن شهاب –رحمه الله تعالى–. وأما ما نسبه ابن شهاب –رحمه الله تعالى– لأهل الكتاب فيؤيده ما رواه الإمام أحمد في فضائل الصحابة (١/ ١٠٣) رقم (٧٤) بسنده (عن ابن سيرين، عن عقبة بن أوس، عن عبد الله بن عمرو قال: وجدت في بعض الكتب يوم غزونا اليرموك أبو بكر الصديق أصبتم اسمه، عمر الفاروق قرن من حديد أصبتم اسمه، عثمان ذو النورين أوتي كفلين من الرحمة لأنه يقتل، أصبتم اسمه، قال: ثم يكون والي الأرض المقدسة وابنه، قال عقبة: قلت لابن العاص: سمّهما كما سميت هؤلاء، قال: معاوية وابنه). والحديث أخرجه ابن أبي عاصم في السنة، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولى (بيروت: المكتب الإسلامي ١٤٠٠)، (٢/ ٥٤٨) رقم (١١٥٣)، وقال الألباني –رحمه الله تعالى–: «إسناده صحيح رجاله كلهم ثقات غير عقبة بن أوس وهو السدوسي كما في الرواية الآتية، والحديث أخرجه ابن سعد (٣/ ١٧٠) من طريق أخرى عن ابن سيرين به مختصرًا بلفظ «أبو بكر سميتموه الصديق وأصبتم اسمه» وسنده صحيح أيضًا. ا.ه. وانظر كتاب الفتن لأبي نعيم، تحقيق سمير الزهيري، الطبعة الأولى (القاهرة: مكتبة التوحيد ١٤١٢)، (١/ ١١٥) رقم (٢٦٤)، والذهبي، تاريخ الإسلام تحقيق بشار عواد (٢/ ٧٣١)، والأزهري، تهذيب اللغة (٢/ ٢٩)، وقال بعد أن أورد الأثر بسنده «قلت: وَهَذَا حَدِيث عَجِيب، وَإِسْنَاده صَحِيح، وَالله أعلم بالغيوب». قال الذهبي عن الأزهري: (وكان رأسًا في اللغة والفقه، ثقة، ثبتًا، دَيِّنًا) سير أعلام النبلاء (١٦/ ٣١٦). وقال عبد السلام آل عيسى في بحث له بعنوان (دراسة نقدية في المرويات الواردة في شخصية عمر بن الخطاب وسياسته الإدارية رضي الله عنه)، نشرته عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة عام ١٤٢٣، الطبعة الأولى (ج١ ص٨٠): (وقد اختلف فيمن لقّبه بهذا اللقب؛ فقيل: إن الذي لقّبه بذلك هم أهل الكتاب. قال الزهري –رحمه الله–: وكان المسلمون يؤثرون ذلك من قولهم، ولم يبلغنا أن رسول الله ﷺ ذكر من ذلك شيئًا. وقيل: إن الذي لقّبه بذلك النبي ﷺ وأنه قال: «إن الله جعل الحقّ على لسان عمر وقلبه، وهو الفاروق فرّق الله به بين الحقّ والباطل». وكلتا الروايتين لم تثبتا،=

وقفات مع هذا المقطع من السيرة

أولًا: الإيمان نعمة؛ بل أعظم نعمة يهبها الله -جل شأنه- لمن يشاء من عباده، فلا يملك أحد الهداية لنفسه ولا لغيره ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص:٥٦]، وإذا أراد الله -جل شأنه- الهداية لعبدٍ قيَّض له أسبابها، وهو اللطيف الخبير الذي يلطف بعباده ويلطف لعباده -سبحانه-. فيا أخي اعلم يقينًا أن ما بك من نعمة فمن الله -جل شأنه-: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣]، وأعظم نعمة أسبغها عليك هي نعمة الإيمان، وقل كما قال -تعالىٰ- في كتابه الكريم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف:٤٣]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم:٧]. ولما أراد الله -جل شأنه- لحمزة -رضي الله تعالىٰ عنه- الهداية قيَّض له سببها ولطف له، ولطف به حتىٰ أصبح من خيار صحابة رسول الله ﷺ.

ثانيًا: سبق أن ذكرتُ أن إسلام حمزة رضي الله عنه كان سببه إيذاء أبي جهل لرسول الله ﷺ، وهكذا كان ذلك الشر سببًا لخير عظيم لحمزة رضي الله عنه وللمسلمين، وقد يجعل الله -سبحانه وتعالىٰ- فيما في ظاهره الشر، خيرًا كبيرًا، فسبحان من يعلم عواقب الأمور ونتائجها، والله -سبحانه وتعالىٰ- يقول في كتابه الكريم: ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:١٩]، ويقول -تعالىٰ-: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ ﴾ [البقرة:٢١٦]. وهذا مما يُولِّد الطمأنينة والرضا في نفس المؤمن، ويُعيده إلىٰ ربه، ويجعله يرضىٰ بما اختاره الله له، فقد يتضايق من أمر،

=ولعل الصواب أن الذين لقّبه بذلك هم المسلمون؛ لأن الإسلام عزّ وظهر بإسلامه كما ثبت ذلك في الصحيح، ولا مانع أن يكون أهل الكتاب لقَّبوه بذلك لما رأوا من عدالته وظهور الحقّ على يديه). وهذا عندي أقرب. وأن اللقب جاء استفاضة بين الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- وتوافقًا، وكفى بهم تزكية.

.

والله يدبّر له فيه خيرًا كثيرًا، والأصل أن العبد يرضىٰ بما كتب الله له، وهذا الرضا هو الذي يُكسب الشخص طعم الإيمان وحلاوته ولذته، وفي الحديث عن العباس بن عبد المطلب -رضي الله تعالىٰ عنه- أنه سمع رسول الله ﷺ، يقول: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا»(١).

ثالثًا: كان لإسلام كل من حمزة وعمر -رضي الله تعالىٰ عنهما- أثر واضح علىٰ المسلمين فرحًا بهم، وعلىٰ الكفار انكسارًا وانحسارًا، وكلّ من حمزة وعمر -رضي الله تعالىٰ عنهما- أفراد، وأنت أخي القارئ فرد؛ فلماذا لا يكون لك بهم أُسوة حسنة، ويكون لك الأثر في هذا الدين، فبإمكانك أن تصنع لدينك، وتخدم أُمتك، ويكون لك التأثير النافع العظيم، وكم من رجل طرح الله فيه البركة فنفع الله بجهوده الفردية أُمّته نفعًا عامًّا.

رابعًا: كان إسلام حمزة ﷺ في أول الأمر أنفة رجلٍ أبَىٰ أن يُؤذَىٰ قريبه، ثم شرح الله صدره، فقد يكون الإسلام في ابتدائه لغير الله، أو تشوبه شائبة، لكن هذا لا يمنع من صلاح النية فيما بعد؛ قال أنس -رضي الله تعالىٰ عنه-: (إن كان الرجل ليُسْلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتىٰ يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها)(٢).

وهكذا (قد يبتدئ الطالب للعلم يريد به المباهاة والشرف في الدنيا، فلا يزال به فَهْم العلم حتىٰ يتبين أنه علىٰ خطأ في اعتقاده، فيتوب من ذلك، ويخلص النية لله -تعالىٰ-، فينتفع بذلك ويحسن حاله، قال الحسن -رحمه الله تعالىٰ-: كنا نطلب العلم للدنيا فجرَّنا إلىٰ الآخرة، وقال سفيان الثوري -رحمه الله تعالىٰ-: وقال حبيب بن أبي كاتب -رحمه الله تعالىٰ-: طلبنا هذا الأمر وليس لنا فيه نيَّة، ثم جاءت النية بعدُ)(٣).

---

(١) الإمام مسلم، صحيح مسلم (١/ ٦٢) رقم (٣٤).

(٢) صحيح مسلم (٤/ ١٨٠٦) رقم (٢٣١٢)، وانظر: ابن تيمية، السياسة الشرعية (ص١٤٠).

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢٢).

وهناك من يترك الدراسة الشرعية أو يترك إمامة المسجد أو وظيفة المؤذن يقول: ما استطعت أن أُصلح نيتي لله، فخاف على نفسه، وترك هذه الدراسة أو هذا العمل، وهذا خطأ، فالنية الصالحة تأتي بالمجاهدة، وقد تكون في البداية لغير الله أو مشوبة، لكنّها ستصلح مع الاستعانة بالله -جل شأنه-.

وأظن أن هذا قد يكون مدخلًا للشيطان ليحول بين الشباب والدراسة الشرعية أو العمل الديني، ونحو ذلك.

خامسًا: إن العصبية القبلية ليست ممقوتة دائمًا، فإذا سُخِّرت لخدمة الدين وإعلاء كلمة الله، والتعاون على الخير، ورَدْع الشر وأهله؛ فهذا أمر حَسَن، وقد قلتُ من قبل: إن من أسباب اختيار الجزيرة العربية لتكون منطلقًا للرسالة الخاتمة وجود العصبية القبليَّة فيها، وإذا ضعفت العصبية تطاول السفهاء على الأنبياء، وعلى الدعاة من باب أولى، يقول -تعالى- حكاية عن هؤلاء ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ [هود:٩١]؛ أي: قومك وعشيرتك[(١)].

سادسًا: فضيلة نصرة الرسول ﷺ، فببركة هذا العمل العظيم، فتح الله على قلب حمزة رضي الله عنه وهداه للإسلام. فالعمل الصالح ولو من غير المسلم قد يكون سببًا لخير عظيم لصاحبه، والله لا يضيع عنده شيء من الخير، وبخاصة إذا كان هذا من الأعمال الفاضلة، كنصرة الرسول ﷺ، ويزيد هذا العمل فضلًا أنه كان في وقت قلة ناصر للرسول ﷺ، وتطاول وطغيان من المشركين.

ونصرة الرسول ﷺ تكون بنصرة دينه، وبالذَّبّ عن عِرْضه الشريف والدفاع عن سُنته، وما أكثر ما يتطاول سفهاء الكفار في عصرنا على مقام الرسول ﷺ مما تتناقله وسائل الإعلام، من استهزاء بسيرته، وسخرية ببعض أقواله أو أفعاله، وواجب على

(١) ابن كثير تفسير ابن كثير (٤/ ٣٤٧).

المسلم أن يستحضر مقام الدفاع عن الرسول ﷺ، وعِظَم أجر من يسهم في ذلك بما يستطيع من علم أو عمل سائغ شرعًا.

سابعًا: في قصة ليلىٰ بنت أبي حثمة -رضي الله تعالىٰ عنها- زوجة عامر بن ربيعة -رضي الله تعالىٰ عنه- نستفيد عدم اليأس من إيمان شخص من الناس؛ لشدة عداوته أو لكثرة وقوعه في المعاصي، فإن عمر بن الخطاب ؓ كان شديد الإيذاء للمسلمين حتىٰ جزم عامر ؓ أنه لن يسلم حتىٰ يسلم حمار الخطاب، ومع ذلك كتب الله -سبحانه وتعالىٰ- لعمر ؓ الهداية، بل أصبح من أقوىٰ الناس أثرًا في الإسلام.

ثامنًا: مشروعية الدعاء بالهداية لغير المسلمين، وخاصة من كان ذا تأثير وفائدة للمسلمين، فالرسول ﷺ مع فعله الأسباب، ودأبه في الدعوة إلىٰ الله، وحرصه فهو أيضًا يدعو الله -سبحانه- أن يستجيب قومه بصفة عامة، ويدعو لبعضهم بصفة خاصة بالهداية[1]، حتىٰ ولو كان هذا الشخص من أشد أعداء المسلمين وأعظمهم إيذاء.

وحينئذ فمطلوب من المسلم -من باب أولىٰ- أن يدعو بالهداية وبمزيد التوفيق لمن له حق خاص كالوالدين والأقارب، أو لمن له نفع عام بهدايته أو مزيد توفيقه كولاة الأمر، وكرجل معروف بالمكانة في المجتمع، وله تأثيره علىٰ غيره؛ فهذا يُدْعَىٰ له رجاءَ إسلام وصلاح مَن وراءَه.

---

(١) من ذلك ما أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ؓ قال: قدم طفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه على النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن دوسًا عصت وأبت، فادع الله عليهم، فقيل: هلكت دوس، قال: اللهم اهدِ دوسًا وائت بهم، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٦/ ١٠٧)، حديث رقم (٢٩٣٧)، وكذلك دعاء الرسول ﷺ لأم أبي هريرة -رضي الله تعالى عنهما- بالإسلام، وفيه: فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اهد أم أبي هريرة»، فأسلمت كما في صحيح مسلم (٤/ ١٩٣٨) رقم (٢٤٩١).

تاسعًا: إن عداوة الكافر ليست لشخصه، وإنما لما يحمله من معتقد باطل، يدل لهذا: الدعاء له بالهداية، فإن من تبغضه لشخصه لا تحب له الخير، ومن تبغضه لأمر معين اقترن به، تبغضه لهذا الأمر، ومتىٰ تجرد من هذا الأمر عادت الولاية والمحبة.

عاشرًا: مشروعية إغاظة الكافر، وإدخال الكآبة والحزن عليه، ولكن بدون اعتداء عليه فإن عمر رضي الله عنه بادر إلىٰ الإعلان بإسلامه، وإغاظة الكفار، والصلاة بجوار الكعبة، فأصاب قريشًا من ذلك كآبة وحزن وأسىٰ لا يُوصَف، والله -سبحانه وتعالىٰ- يقول: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة:١٢٠]، ويقول الله -تعالىٰ-: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩].

حادي عشر: معرفة الفضل لأصحابه والاعتراف لهم بذلك، فإن ابن مسعود رضي الله عنه يذكر لعمر رضي الله عنه فضله علىٰ المسلمين، ويذكر ذلك ويُحدّث: (مازلنا أعزة منذ أسلم عمر).

ثاني عشر: إن بداية إسلام عمر رضي الله عنه كان سببها سماعه لبعض آيات القرآن الكريم[1]؛ قال -تعالىٰ-: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]؛ أي عِظْ مُرَغِّبًا مُرَهِّبًا بالقرآن[2]. وعن جبير بن مطعم -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ

(١) انظر: تفاصيل الروايات التي وردت في قصة إسلام عمر رضي الله عنه: في إتحاف الورى بأخبار أم القرى، للنجم عمر بن فهد (١/ ٢٧١-٢٨١)، بالإضافة إلى ما سبق أو أوردته في بداية هذا المبحث.

(٢) الجزائري، أيسر التفاسير (٥/ ١٥١).

﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ﴾ [الطور:٣٥-٣٧]؛ قال: كاد قلبي أن يطير[١]. نقل ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- عن الخطابي -رحمه الله تعالىٰ- قوله: (انزعج جبير حتىٰ كاد قلبه يطير ومال إلىٰ الإسلام)[٢]. فكان سماعه للقرآن الكريم من أسباب إسلامه وهدايته. وهذا يدلّنا علىٰ عِظَم تأثير القرآن الكريم علىٰ القلوب، قال الحافظ أبو نعيم عن قصة إسلام عمر ﷺ: (وهذه القصة وإن اختلف فيها بعض الألفاظ، فقد اتفقت أن الذي أمال عمر إلىٰ الإسلام ما قرع سمعه من القرآن وأخذ بقلبه)[٣].

ولذلك علىٰ الدعاة إلىٰ الله والخطباء أن يوُلُوا هذا الجانب أهميته، فلا يسوغ خلو كلمة أو موعظة من آيات من كتاب الله الكريم، بل لا يسوغ أن تطغىٰ عبارات الواعظ علىٰ آيات القرآن الكريم لمكانته، ولعظم تأثيره في السامعين، وما أكثر ما سمعنا من تأثير الآيات الكريمة في استجابة الشخص للأوامر أو تركه للنواهي.

ثالث عشر: لما أسلم عمر ﷺ وذهب إلىٰ الرسول ﷺ في دار الأرقم وطرق عليهم الباب خاف الصحابة؛ لرؤية عمر يطرق عليهم الباب، ولم يعلموا بعدُ بإسلامه، فذهب الرسول ﷺ وفتح له الباب وجذبه من ثوبه، فأعلن عمر ﷺ شهادة أن لا له إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فلما سمع الصحابة -رضي الله عنهم- ذلك بادروا بالتكبير، وهكذا يكون المشروع عند رؤية أو سماع ما يَسرّ أن نُكبّر[٤].

(١) صحيح البخاري (٦/ ١٤٠) رقم (٤٨٥٤).
(٢) فتح الباري (٨/ ٦٠٣).
(٣) المرجع السابق (ص٢٨٢).
(٤) انظر: الدرر السنية في الأجوبة النجدية، جمع ابن قاسم (٨/ ١٠٩)، وعبد العزيز الحميدي، التاريخ الإسلامي مواقف وعبر (٢/ ١٦١).

وقد ثبت أن الرسول ﷺ لما أخبر الكفار بقصة الإسراء والمعراج كانوا «بين مُصفّق، وبين واضع يده علىٰ رأسه متعجبًا للكذب زعم!»[1]؛ فالتصفيق عند التعجب كما في هذا الموقف من فعل المشركين، وسيأتي لهذا الموضوع مزيد إيضاح وتفريق بين التصفيق في العبادات والعادات في قصة الإسراء والمعراج؛ -إن شاء الله تعالىٰ-.

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، تحقيق أحمد شاكر (٤/ ٢٩٣) رقم (٢٨٢٠)، وقال محققه: إسناده صحيح، وهو عند الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٦٤- ٦٥)، وقال: (رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط، ورجاله رجال الصحيح).

المبحث الثامن

فقه السيرة في المقاطعة العامة ودخول الرسول ﷺ شعب أبي طالب

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ من الغد يوم النحر -وهو بمنىٰ-: «نحن نازلون غدًا بخيف بني كنانة؛ حيث تقاسموا علىٰ الكفر»، يعني بذلك المحصب[1]؛ وذلك أن قريشًا وكنانة تحالفت علىٰ بني هاشم وبني عبد المطلب -أو بني المطلب- ألَّا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتىٰ يُسلّموا إليهم النبي ﷺ)[2].

في هذا الحديث دلالة علىٰ أصل القصة، ويكون ما أورده أهل المغازي كالشرح لقول الرسول ﷺ السابق: «تقاسموا علىٰ الكفر»[3]، وبيان ذلك أن قريشًا لما رأت إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما وفُشُو الإسلام في القبائل، ثم تواثُق بني المطلب وبني هاشم علىٰ حياطة الرسول ﷺ، ومنعه؛ مسلمهم وكافرهم، مسلمهم إيمانًا، وكافرهم حميةً؛ لما رأت قريش ذلك اجتمعوا وتحالفوا علىٰ أن لا يُناكِحُوا بني هاشم وبني المطلب ولا يُبايعوهم ولا يكلموهم حتىٰ يسلموا إليهم رسول الله ﷺ،

(١) المحصب: بضم الميم وفتح الحاء المهملة وتشديد الصاد المهملة أيضًا، وآخره موحدة، ما بين منى إلى المنحنى، والمنحنى: «حد المحصب من الأبطح، فمنذ أن تخرج من منى فأنت في المحصب حتى يضيق الوادي بين العيرتين فذاك المنحنى» عاتق بن غيث البلادي، معجم الْمَعَالِمِ الْجُغْرَافِيَّةِ فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ، الطبعة الأولى (مكة: دار مكة للنشر ١٤٠٢)، (ص٢٨٣).

(٢) متفق عليه: الإمام البخاري، صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٣/ ٤٥٣) رقم (١٥٩)، واللفظ له، والإمام مسلم، صحيح مسلم (٢/ ٩٥٢) رقم (١٣١٤).

(٣) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ١٩٣).

وكتبوا بذلك صحيفة علّقوها في الكعبة[1]؛ قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: فانحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلىٰ أبي طالب، وكانوا معه كلهم إلا أبا لهب فكان مع قريش[2]، وكان ابتداء حصرهم في أول يوم من المحرم سنة سبع من البعثة[3].

واشتد الحصار وقطع عنهم المشركون الطعام، فلم يكونوا يتركون شيئًا يصل إليهم في الشِّعب[4]. يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وبقوا محبوسين ومحصورين مُضيَّقًا عليهم جدًّا مقطوعًا عنهم الميرة والمادة نحو ثلاث سنين حتىٰ بلغهم الجهد وسُمِعَ أصوات صبيانهم بالبكاء من وراء الشِّعب)[5].

ويكفي أن أذكر صورة واحدة من معاناتهم في الشِّعْب، يقول السهيلي -رحمه الله تعالىٰ-: (إنهم جهدوا حتىٰ كانوا يأكلون الخبط وورق السمر حتىٰ إن أحدهم ليضع كما تضع الشاة، وكان فيهم سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالىٰ عنه-.. في رواية عنه أنه قال: خرجت ذات ليلة لأبول فسمعت قعقعة تحت البول، فإذا قطعة من جلد بعير يابسة فأخذتها وغسلتها، ثم أحرقتها ثم رضضتها، وسففتها بالماء؛ فقويت بها ثلاثًا)[6].

واستمر الحال علىٰ ذلك حتىٰ سعىٰ في نقض الصحيفة ورفع هذا الظلم بعض أقارب من كان في الشِّعب.

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣٧٢)، والنجم عمر بن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى (١/ ٢٨٢).

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٣٧٢)، وابن حجر، فتح الباري (٧/ ١٩٢).

(٣) انظر: ابن حجر ، فتح الباري (٧/ ١٩٢).

(٤) هذا الشعب يسمى شعب بني هاشم، وشعب علي، وبه وُلِدَ الرسول ﷺ، وكذلك وُلِدَ علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه-، ويسمى شعب أبي يوسف، واسمه الآن شعب علي. محمد شراب، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة (ص ١٥٠).

(٥) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٣٠).

(٦) انظر: السهيلي، الروض الأنف (٣/ ٢١٧).

قال ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ-: (ثم إنه قام في نقض تلك الصحيفة التي تكاتبت فيها قريش علىٰ بني هاشم وبني المطلب نفرٌ من قريش، ولم يُبْلِ فيها أحدٌ أحسن من بلاء هشام بن عمرو بن ربيعة، وكان هشام لبني هاشم واصلًا، وكان ذا شرف في قومه، فكان -فيما بلغني- يأتي بالبعير، وبنو هاشم وبنو المطلب في الشِّعب ليلًا، قد أوقره طعامًا حتىٰ إذا أقبل به فم الشعب خَلَع خطامه من رأسه، ثم ضرب علىٰ جنبه، فيدخل الشعب عليهم، ثم يأتي به قد أوقره بَزًّا أو بُرًّا، فيفعل به مثل ذلك. ثم إنه مشىٰ إلىٰ زهير بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب، فقال: يا زهير! أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت، لا يُباعون ولا يُبتاع منهم، ولا يَنكحون ولا يُنكح إليهم؟ أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام[1]، ثم دعوته إلىٰ مثل ما دعاك إليه منهم، ما أجابك إليه أبدًا. قال: ويحك يا هشام! فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها حتىٰ أنقضها، قال: قد وجدت رجلًا. قال: فمن هو؟ قال: أنا، قال له زهير: ابغنا رجلًا ثالثًا. فذهب إلىٰ المطعم بن عدي، فقال له: يا مطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد علىٰ ذلك موافق لقريش فيه! أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعًا، قال ويحك! فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال: قد وجدت ثانيًا، قال: من هو؟ قال: أنا، فقال: ابغنا ثالثًا، قال: قد فعلت، قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، قال ابغنا رابعًا. فذهب إلىٰ البختري بن هشام، فقال له نحوًا مما قال للمطعم بن عدي، فقال: وهل من أحد يُعين علىٰ

(١) المقصود بأبي الحكم بن هشام هو أبو جهل، وهذا يكشف أن الذي أنشأ هذه المقاطعة وجمع قريش عليها، وألَّبهم على بني هاشم هو أبو جهل، فهو لقوة شخصيته وسطوته، ومكانته في قريش، وشدة عداوته لمحمد ﷺ جعله يسعى جاهدًا للمقاطعة ويقف خلفها، ويتابع الالتزام بها ويقاتل كل من رآه يزود الذين في الشعب بالمؤونة، ويتصدى لمعارضة من سعى لنقض الصحيفة، يوم سعى بعض الأفراد لنقضها.. وقد أشرت إلى هذا فيما سبق.

هذا؟ قال: نعم، قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا معك، قال: ابغنا خامسًا. فذهب إلىٰ زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم، فقال له: وهل علىٰ هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال: نعم، ثم سمَّىٰ له القوم. فاتعدوا خطم الحجون ليلًا بأعلىٰ مكة، فاجتمعوا هنالك. فأجمعوا أمرهم وتعاقدوا علىٰ القيام في الصحيفة حتىٰ ينقضوها، وقال زهير: أنا أبدؤكم، فأكون أول من يتكلم. فلما أصبحوا غدوا إلىٰ أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حُلَّة، فطاف بالبيت سبعًا، ثم أقبل علىٰ الناس فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكىٰ لا يُباع ولا يُبتاع منهم، والله لا أقعد حتىٰ تُشَق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة. قال أبو جهل: وكان في ناحية المسجد: كذبتَ والله لا تُشَق، قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابها حيث كُتبت، قال أبو البختري: صدق زمعة، لا نرضىٰ ما كُتب فيها، ولا نقرّ به، قال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلىٰ الله منها، ومما كُتِبَ فيها، قال هشام بن عمرو نحوًا من ذلك. فقال أبو جهل: هذا أمرٌ قُضِي بليلٍ، تُشُوِّر فيه بغير هذا المكان. وأبو طالب جالس في ناحية المسجد، فقام المطعم إلىٰ الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها، إلا «باسمك اللهم»[1].

وروي أن الله -سبحانه وتعالىٰ- أطلع رسوله ﷺ علىٰ أمر صحيفتهم، وأنه أرسل عليها الأرضة فأكلت جميع ما فيها من جَوْر وظلم وقطيعة، فأخبر بذلك عمه فأخبر كفار قريش، فلما رأوا الأمر كما أخبرهم أبو طالب زادوا كفرًا علىٰ كفرهم، وخرج الرسول ﷺ ومن معه من الشِّعب في العام العاشر من المبعث، بعد أن مكثوا في الشعب ثلاث سنوات[2].

(١) ابن هشام، السيرة (٢/ ١٨).

(٢) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٢/ ٣٠- ٣١)، وابن حجر، فتح الباري (٧/ ١٩٢)، والشامي، سبل الهدى والرشاد (٢/ ٥٠٢- ٥٠٦)، وقال الدكتور مهدي زرق الله أحمد في السيرة النبوية (ص ٢١٩): (ولم يرد خبر أكل الأرضة للصحيفة بسند يُحتج به).

نقف مع هذا المقطع من السيرة؛ لنستفيد منه ما يلي:

أولًا: هذا أسلوب من أساليب مواجهة كفار قريش للرسول ﷺ، وكان بالإمكان إدراجه ضمن أساليب مواجهة كفار قريش للرسول ﷺ، لكن آثرتُ إفراده، لعِظَمه، وللمشقة الكبرىٰ العامة التي حصلت به، ثم فشله، والحمد لله، فهو مواجهة أو مؤامرة جماعية من كفار قريش، ليس في مقابل الرسول ﷺ ومن آمن معه فقط، بل مع كل مَن ناصره ولو كان علىٰ دينهم، وهذا يكشف مدىٰ العداء لهذه العقيدة والخوف منها، فقد اعتبروا كل مَن يقف معها ولو كان غير موافق لها، فهو عدو لهم يستحق المقاطعة. فنتج عن ذلك الإيذاء البالغ للرسول ﷺ وللصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-، ولنسائهم وأطفالهم وشيوخهم، وكل من ناصرهم، وحاول منع الظلم الواقع عليهم، ولو كان مشركًا. فانظر إلىٰ مدىٰ طغيان كفار قريش وعداوتهم قال تعالىٰ: ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ [التوبة: ١٠]، وهذا يجعلنا نفهم عداوة بعض الكفار لهذا الدين وأهله في كل العصور، فليس هذا التفكير والتوجه قاصرًا علىٰ كفار قريش؛ بل شامل لكل عدو للإسلام في كل زمان ومكان.

ثانيًا: يكشف لنا هذا الحدث مدىٰ ما وصلت إليه قريش في عداوتها للرسول ﷺوأصحابه، ومدىٰ ظلمها وجورها، فلم يقتصر أذاها علىٰ أمور معدودة، بل أذىٰ شديد متواصل يمتد ثلاث سنين في شعب من الشِّعاب، في المأكل والمشرب، يشمل الصغير والكبير، والمرأة والرجل، والرضيع والشيخ الفاني، كلهم دخلوا الشِّعب وحُصروا، ومُنِعَ عنهم الطعام والشراب، فأيّ قسوة، وأيّ جور أعظم من هذا الجور والظلم؟!

الإسلام هذا الذي واجهوه بهذا العنف الشديد دين الشفقة والرحمة حتىٰ مع المخالفين، بل حتىٰ مع بعض فئات المحاربين، فعن نافع عن ابن عمر -رضي الله

تعالىٰ عنهما- أخبر أن امرأة وُجِدَتْ في بعض مغازي رسول الله ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ ذلك، ونهىٰ عن قتل النساء والصبيان[1]، ونهىٰ الإسلام عن قتل الشيخ الكبير والراهب في صومعته، بل شمل الجميع بالرحمة، عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: قال: رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[2]؛ هكذا «ارحموا من في الأرض»؛ فلم يفرّق بين مسلم وكافر.

ثالثًا: من مواقف المقاطعة هذه تتبين صورة جلية لما لاقاه الرسول ﷺ وأصحابه -رضوان الله تعالىٰ عليهم- من أذىٰ واضطهاد في دين الله.

والرسول ﷺ لا يُقدّم لأُمته الأسوة في السراء فقط، بل يقدّمها لهم في السراء وفي الضراء، فكما يُقْتَدَىٰ به ﷺ في السراء يُقْتَدَىٰ به في الضراء وفي مواجهة الشدائد.

رابعًا: نأخذ من هذا الموقف أن التعاون قوة، فقد كان لموقف بني هاشم وبني المطلب ودخولهم مع الرسول ﷺ في الشِّعب ومناصرتهم للرسول ﷺ، ومنهم من هو علىٰ شركه، ولكنه حمية قبلية، هذا التعاون كان له أثره في إفشال نتائج المقاطعة؛ فقد خرج المسلمون منه أقوىٰ من وقت دخولهم.

خامسًا: إن الرسول ﷺ حفظ هذا الجميل من بني المطلب، عن سعيد بن المسيب -رحمه الله تعالىٰ-، أن جبير بن مطعم -رضي الله تعالىٰ عنه-، أخبره قال: مشيت أنا وعثمان بن عفان -رضي الله تعالىٰ عنه-، إلىٰ النبي ﷺ فقلنا: أعطيت بني المطلب من خمس خيبر، وتركتنا، ونحن بمنزلة واحدة منك، فقال: «إنما بنو

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، وصححه الألباني، الألباني، صحيح سنن الترمذي (٢/ ١١٠)، حديث رقم (١٢٧٥).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، وقال حديث حسن صحيح، وصححه الألباني، الألباني، صحيح سنن الترمذي (٤/ ٤٢٤)، حديث رقم (١٩٢٤).

هاشم، وبنو المطلب شيء واحد»؛ قال جبير: (ولم يقسم النبي ﷺ لبني عبد شمس، وبني نوفل شيئًا)[1].

وقال رسول الله ﷺ: «إنّا وبنو المطلب لا نفترق في جاهلية ولا إسلام، وإنما نحن وهم شيء واحد»، وشبّك بين أصابعه ﷺ[2]. قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (والحديث ظاهر في أنه أعطاهم بسبب النصرة)[3].

سادسًا: نأخذ من ظهور أفراد من كفار قريش يستنكرون أمر المقاطعة، ويطالبون بنقض الصحيفة، ويحتجون، ويعترضون علىٰ استمرارها، أن الباطل مهما طال الزمان فسينكشف، فالأيام تزيد الحق وضوحًا، وتزيد الباطل زيفًا؛ ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء:٨١]، ولقد انتهت المقاطعة علىٰ نحوٍ فرَّق كلمة قريش، وأوقع الخلاف والنزاع بينهم، وأظهر صبر الرسول ﷺ وأصحابه وقوتهم وثباتهم علىٰ نحو أقوىٰ مما كانوا عليه من قبل.

سابعًا: إن أهل المروءة والكرم لا يخلو منهم زمان من الأزمنة، وهؤلاء يمكن الاستفادة منهم في نصرة هذا الدين، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[4]. والمسلم بحاجة إلىٰ من يناصره في بعض المواقف ولو من غير المسلمين لتحقيق مطالبه، وهذا يستفيد منه الجاليات المسلمة في بلاد غير المسلمين.

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ١٣٧) رقم (٤٢٢٩).

(٢) أخرجه أبوداود في سننه رقم (٢٩٨٠)، وصححه الألباني.

(٣) فتح الباري (٦/ ٢٤٦).

(٤) متفق عليه: الإمام البخاري، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٦/ ١٨٩)، كتاب الجهاد، باب إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر) رقم (٣٠٦٢)، والإمام مسلم، صحيح مسلم (١/ ١٠٥)، حديث رقم (١٧٨).

ثامنًا: هذا الترتيب الذي قام به هشام بن عمرو بن ربيعة، وأعد له إعدادًا جيدًا في إنكار هذا المنكر العظيم، جعل أبا جهل يُسقط بيده ولا يملك شيئًا غير الاستسلام، أمام هذه الأصوات التي تتابعت مُنْكِرةً، وهو زعيم قريش وكبيرها المقدَّم، وهو حائك خيوط هذه المؤامرة، ومتولّي كِبرها، وانتهىٰ الأمر بنقض الصحيفة وتمزيق ما فيها من باطل. فيه درس مهم، وهو أنك إذا أردت عملًا فأَعِدَّ له إعدادًا جيدًا؛ فالإعداد الجيد سبيل النجاح في المشاريع، سواء أكان مشروعًا دينيًّا، تعليمًا أو أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر أو معالجة مسألة أسرية، أو خلافًا بين أقارب، فيحسن أن تهيئ لذلك بالترتيب المتقن لكي تنجح. أو مشروعًا دنيويًّا في عمل علميّ أو تجاريّ، أو نحو ذلك، عليك دائمًا بالإعداد المسبق الجيد، وكثير من ا لمشاريع تفشل بسبب الارتجال.

تاسعًا: من مقاطعة الكفار للمسلمين نرىٰ صورة من صور الحرب التي كانت تكيدها قريش للرسول ﷺ، وهي الحرب الاقتصادية، فكفار مكة حينما أرادوا أن يحاربوا النبي ﷺ لم يحاربوه بالسلاح فقط، وإنما كانت حربهم له حربًا اقتصاديَّة بالمقاطعة، قاطعوه وقاطعوا أهله وقبيلته ومن تابعه، بيعًا وشراءً وتزويجًا، بل وتجاوزوا ذلك، ومنعوا من يريد أن يوصلهم طعامًا بيعًا أو بلا ثمن، والمسلمون أولىٰ أن يعرفوا قيمة هذه الحرب، وأن يقاطعوا كلّ أعداء الله المحاربين للمسلمين، وليس بالضرورة أن يكون جهاد الأعداء المحاربين للمسلمين بالسلاح، فعلىٰ الأقل بالمقاطعة الاقتصادية في كل ما ينفعهم اقتصاديًّا أو ماديًّا أو تجاريًّا؛ لأن عدم المقاطعة مع العدو المحارب للمسلمين مؤدّاه التأييد المادي لحربه للمسلمين، ولا يكون المسلم عونًا لكافر في حرب علىٰ المسلمين.

وهذا يختلف عن منع الطعام والشراب عن الأطفال والنساء، الذي فعلته قريش؛ إذ الذي فعلته قريش أن حالت بين كل مَن يريد مدّ الطعام والشراب للرسول ﷺ

ومن معه، من التجار وغيرهم حتىٰ ولو من خارج مكة، أما المقاطعة الاقتصادية أن لا نبيع عليهم، أو لا نشتري منهم؛ لأن أموالنا لا يصلح أن نسلمها للعدو ليستخدمها ضدنا، ولا شأن لنا بغيرنا إذا باع معهم أو اشترىٰ.

وهذا ثمامة بن أثال -رضي الله تعالىٰ عنه- كان من زعماء نجد؛ لما أسلم استخدم الحرب الاقتصادية ضد قريش، وقدم إلىٰ مكة معتمرًا؛ فقال له قائل: صبوتَ، قال: (لا، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ، ولا والله، لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة، حتىٰ يأذن فيها النبي ﷺ)[1].

عاشرًا: مكث الرسول ﷺ في شِعْب أبي طالب ثلاث سنوات هو ومن أسلم معه، ومن معهم من بني هاشم وبني المطلب، ولا شك أنه كان في هذه المدة يدعو الله -سبحانه وتعالىٰ- بالفرج من هذه الضائقة الشديدة عليه وعلىٰ من معه من مسلم وكافر، ولم يتحقق الفرج إلا بعد ثلاث سنوات، فلا تستبطئ الإجابة عندما تدعو، وثِقْ بالله -سبحانه وتعالىٰ-، وأَحْسِن الظن به، عن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوتُ فلم يُستجَب لي»[2]. فلا تستعجل وأَبْشِر بالاستجابة لك.

---

(١) متفق عليه: الإمام البخاري (٥/ ١٧٠) رقم (٤٣٧٢). ومسلم (٣/ ١٣٨٦) رقم (١٧٦٤) من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-.

(٢) متفق عليه: الإمام البخاري «صحيح البخاري» (٨/ ٧٤ ط السلطانية)، وصحيح مسلم (٤/ ٢٠٩٥) رقم (٢٧٣٥).

المبحث التاسع

وفاة أم المؤمنين سيدة نساء العالمين خديجة -رضي اللّه عنها- ووفاة أبي طالب في هذا الوقت من الدعوة

بعد خروج الرسول ﷺ ومن معه من الشِّعب استمر في دعوته، لا يعوقه عنها عائق من عوائق الشرك التي يكيده بها كفار قريش، وكان أبو طالب ماضيًا في مناصرته، وفي مقابل ذلك كان الرسول ﷺ إذا عاد إلىٰ بيته من بعد العناء والتعب يجد مَن يُثبّته، ويُعينه علىٰ نشاط مُتجدّد في يومه الجديد.

فكان وجود هذين الشخصين؛ -زوجته خديجة رضي الله تعالىٰ عنها، وعمه أبو طالب- نافعًا أيما نفع للرسول ﷺ، ولأجل ذلك جمعت بينهما في الحديث في هذا المبحث؛ باعتبار أن نفعهما للرسول ﷺ كان يتكامل، فخديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، كانت وظيفتها المساندة الداخلية، ووظيفة أبي طالب المساندة الخارجية، وقد قدَّر الله -جلّ شأنه- أن يكون زمان رحيلهما متقاربًا، فتتابعت علىٰ رسول الله ﷺ المصائب بوفاتهما[1].

■ **أولًا: أم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالى عنها-:**

سبق أن تحدثت عن شيء من فضائلها عند الحديث عن زواج الرسول ﷺ بها، وأُضيف الآن أنها كانت من نِعَم الله الجليلة علىٰ الرسول ﷺ بمواقفها العظيمة طيلة

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية)، (١/ ١٩٤).

حياة الرسول معها التي امتدت لخمس وعشرين سنة ابتدأت بزواجهما قبل البعثة بخمسة عشر عامًا إلىٰ السنة العاشرة بعدها.

فقد وقفتْ معه بنفسها، وواسته بمالها، وكانت خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- تُدعىٰ في الجاهلية «الطاهرة»، وكانت وزيرة صدق علىٰ الإسلام، وكان ﷺ يسكن إليها. ورُزِقَ منها الأولاد، كانت امرأة جليلة سديدة الرأي مُوفَّقة مباركة.

قال عنها الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (سيدة نساء العالمين في زمانها؛ أم القاسم، ابنة خويلد بن أسد بن عبد العزىٰ بن قصي بن كلاب القرشية، الأسدية. أم أولاد رسول الله ﷺ، وأول من آمن به، وصدَّقه قبل كل أحد، وثبَّتت جأشه، ومضت به إلىٰ ابن عمها ورقة، ومناقبها جمة. وهي ممن كمل من النساء، كانت عاقلة، جليلة، ديِّنة، مصونة، كريمة، من أهل الجنة، وكان النبي ﷺ يُثني عليها، ويُفضّلها علىٰ سائر أمهات المؤمنين، ويبالغ في تعظيمها، بحيث إنَّ عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- كانت تقول: (ما غرتُ من امرأة ما غرت من خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، من كثرة ذِكْر النبي ﷺ لها)، ومن كرامتها عليه ﷺ أنها لم يتزوج امرأة قبلها، وجاءه منها عدة أولاد، ولم يتزوج عليها قط، ولا تسرَّىٰ إلىٰ أن قضت نحبها، فوجد لفقدها؛ فإنها كانت نِعْم القرين. وكانت تنفق عليه من مالها، ويتَّجر هو ﷺ لها. وقد أمره الله أن يبشّرها ببيت في الجنة من قصب، لا صَخَب فيه ولا نصب)[(١)].

عن عروة بن الزبير -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: (توفيت خديجة قبل مخرج النبي ﷺ إلىٰ المدينة بثلاث سنين)[(٢)]. ودُفِنَتْ -رضي الله تعالىٰ عنها- بمقبرة الحجون بمكة. وقد حزن الرسول ﷺ لوفاتها ولزم بيته وقلل من الخروج[(٣)].

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٠٩-١١٠).
(٢) صحيح البخاري (٥/ ٥٦) رقم (٣٨٩٦).
(٣) انظر: ابن سعد، الطبقات (١/ ٢١١).

قال القرطبي -رحمه الله تعالىٰ-: (قال حكيم بن حزام: توفيت خديجة فخرجنا بها من منزلها حتىٰ دفناها بالحجون، ونزل رسول الله ﷺ في حفرتها، ولم تكن يومئذ سنة الجنازة الصلاة عليها)[1].

فضل خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-:

أولًا: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتىٰ جبريل النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام، أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشّرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب»[2].

قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وبادَر إلىٰ الاستجابة له ﷺ صِدِّيقة النساء: خديجة بنت خويلد، وقامت بأعباء الصِّدّيقية، وقال لها: «لقد خشيت علىٰ نفسي، فقالت له: أبشر فو الله لا يخزيك الله أبدًا»، ثم استدلت بما فيه من الصفات الفاضلة والأخلاق والشِّيَم علىٰ أن من كان كذلك لا يُخزَىٰ أبدًا، فعلمت بكمال عقلها وفطرتها أن الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والشِّيَم الشريفة تناسب أشكالها من كرامة الله وتأييده وإحسانه، ولا تناسب الخزي والخذلان، وإنما يناسبه أضدادها، فمن ركَّبه الله علىٰ أحسن الصفات، وأحسن الأخلاق والأعمال، إنما يَليق به كرامته وإتمام نعمته عليه، ومن ركَّبه علىٰ أقبح الصفات وأسوأ الأخلاق والأعمال إنما يَليق به ما يناسبها، وبهذا العقل والصِّدِّيقية استحقت أن يرسل إليها ربها بالسلام منه مع رسوليه جبريل ومحمد ﷺ)[3].

---

(١) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ١٦٥).

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري (٥/ ٣٩) رقم (٣٨٢٠)، وصحيح مسلم (٤/ ١٨٨٧) رقم (٢٤٣٢).

(٣) زاد المعاد (٣/ ١٧).

ثانيًا: عن عائشة رضي الله عنها، قالت: (ما غرتُ علىٰ أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت علىٰ خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يُكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة، ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة؟ فيقول: «إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد»)(١).

يكفي من شرفها أنها لما جاءها الرسول ﷺ بعد نزول الوحي وخاف علىٰ نفسه: أنها قالت له: (كلا والله لا يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتَصدق الحديث، وتحمل الكَلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتُعين علىٰ نوائب الحق). فقد استدلت بعقلها علىٰ أن من جعل الله فيه هذه المحاسن والمكارم التي جعلها من أعظم أسباب السعادة لم تكن من سُنة الله وحكمته وعدله أن يُخزيه بل يكرمه ويعظّمه، فإنه قد عرف من سنة الله في عباده وإكرامه لأهل الخير وإهانته لأهل الشر(٢).

وقال ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (خديجة نفعته في أول الإسلام نفعًا لم يقم غيرها فيه مقامها، فكانت خيرًا له من هذا الوجه؛ لكونها نفعته وقت الحاجة)(٣).

ثالثًا: عن علي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ: يقول: «خير نسائها مريم ابنة عمران، وخير نسائها خديجة»(٤).

قال الإمام النووي -رحمه الله تعالىٰ-: (والأظهر أن معناه أن كل واحدة منهما خير نساء الأرض في عصرها)(٥).

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ٣٨) رقم (٣٨١٨).

(٢) ابن تيمية، الصفدية (١/ ٢٢٥).

(٣) ابن تيمية، منهاج السنة (٤/ ٣٠٣).

(٤) متفق عليه: صحيح البخاري (٤/ ١٦٤) رقم (٣٤٣٢)، وصحيح مسلم (٤/ ١٨٨٦) رقم (٢٤٣٠).

(٥) النووي، شرح صحيح مسلم.

رابعًا: عن عائشة رضي الله عنها، قالت: (لم يتزوج النبي ﷺ علىٰ خديجة حتىٰ ماتت)[1].

خامسًا: عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: (استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة علىٰ رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة فارتاح لذلك فقال: «اللهم هالة بنت خويلد»؛ فغرت فقلت: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين، هلكت في الدهر فأبدلك الله خيرًا منها)[2].

سادسًا: قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (ولها خصائص -رضي الله تعالىٰ عنها-:

- منها أنه ﷺ لم يتزوج عليها غيرها.
- ومنها أن أولاده ﷺ كلهم منها؛ إلا إبراهيم -عليه السلام- فإنه من سُرّيته مارية -رضي الله تعالىٰ عنها-.
- ومنها أنها خير نساء الأمة.
- ومن خصائصها أن الله -سبحانه- بعث إليها السلام مع جبريل -عليه السلام-؛ فبلَّغها رسول الله ﷺ ذلك.
- ومن خصائصها رضي الله عنها أنها لم تسؤه قط، ولم تُغاضبه، ولم ينلها منه إيلاء ولا عتب قط ولا هَجْر، وكفىٰ به مَنْقَبة وفضيلة.
- ومن خواصها أنها أول امرأة آمنت بالله ورسوله من هذه الأمة[3].

---

(١) صحيح مسلم (٤/ ١٨٨٩) رقم (٢٤٣٦).

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري (٥/ ٣٩) رقم (٣٨٢١)، وصحيح مسلم (٤/ ١٨٨٩) رقم (٢٤٣٧).

(٣) انظر: ابن القيم، جلاء الأفهام (٢٣٦-٢٣٧) باختصار.

■ ثانيًا: وفاة أبي طالب:

مما زاد في ألم المصاب بخديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- أنها توفيت هي وأبو طالب في زمن متقارب، ذكر الواقدي -رحمه الله تعالىٰ- أنهم خرجوا من الشِّعب قبل الهجرة بثلاث سنين، وأن خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- وأبو طالب توفيا في ذلك العام، وتوفيت خديجة قبل أبي طالب بخمسة وثلاثين يومًا. وذكر أبو عبد الله الحاكم -رحمه الله تعالىٰ- أن موتها كان بعد موت أبي طالب بثلاثة أيام، وكذا قال غيره(١).

لما اشتكىٰ أبو طالب وبلغ قريشًا خبرُ مرضه، وقد أسلم حمزة وعمر -رضي الله تعالىٰ عنهما-، وفشا أمر الرسول ﷺ في قبائل قريش، مشىٰ وفد من قريش إلىٰ أبي طالب، وقالوا له: يا أبا طالب! إنك منا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترىٰ وتخوّفنا عليك، وطلبوا من أبي طالب أن يَكُفّ محمد ﷺ عن دعوتهم، فلما حضر الرسول ﷺ قال: أدعوهم إلىٰ أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم، فقال أبو جهل ما هي؟ وأبيك نعطيك عشر كلمات قال: تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دون الله، فقالوا: أجعل الآلهة إلهًا واحدًا، فنزل قول الله -تعالىٰ-: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ١-٧](٢).

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية)، (١/ ١٩٤).

(٢) انظر: سنن الترمذي (٥/ ٤٤)، حديث (٣٢٨٥)، وقال عنه: هذا حديث حسن صحيح. وضعَّفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي، وقال: (ضعيف الإسناد)، (ص ٤٠٩) رقم (٦٣٦)، والآيات من أول سورة ص.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لعمه: «قل لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة». قال: لولا أن تعيرني قريش، يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع لأقررتُ بها عينك، فأنزل الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦][١].

وعن ابن المسيب عن أبيه -رضي الله تعالىٰ عنه-: (لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة[٢]؛ فقال رسول الله ﷺ: يا عم قل: لا إله إلا الله؛ كلمة أشهد لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويُعيد له تلك المقالة حتىٰ قال آخر ما كلمهم: هو علىٰ ملة عبد المطلب، وأبىٰ أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: «أما والله لأستغفرن لك، ما لم أُنْهَ عنك»؛ فأنزل الله -تعالىٰ-: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، وأنزل الله -تعالىٰ- في أبي طالب، فقال لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[٣].

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يَحوطك ويغضب لك؟، قال: «هو في ضحضاح[٤] من النار، ولولا أنا لكان في

---

(١) الإمام مسلم، صحيح مسلم (١/ ٥٥) رقم (الحديث (٢٥).

(٢) هو: عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وهو أخو أم المؤمنين أم سلمة -رضي الله تعالى عنها- التي تزوجها النبي ﷺ بعد ذلك، وقد أسلم عبد الله هذا يوم الفتح، واستشهد في تلك السنة في غزاة حنين. انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ١٩٥).

(٣) متفق عليه: الإمام البخاري، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٧/ ١٩٣)، حديث رقم (٣٨٨٤)، والإمام مسلم، صحيح مسلم (١/ ٥٤) رقم (٣٩) واللفظ له.

(٤) الضحضاح من الماء ما يبلغ الكعب، وهو هنا استعارة والمعنى أنه خفّف عنه العذاب. انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ١٩٤).

الـدرك الأسفل من النـار»[١].

وعن عبد الله بن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «أهون أهل النار عذابًا أبو طالب، وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه»[٢].

وكان موت أبي طالب في السنة العاشرة من البعثة[٣]، وعمره حينئذ بضع وثمانون سنة[٤] وكان يذبُّ عن النبي ﷺ، ويرد عنه كلّ مَن يؤذيه، وهو مقيم مع ذلك علىٰ دين قومه ومات علىٰ ذلك[٥].

لما توفيت أم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، وتوفي أبو طالب، اجتمع علىٰ رسول الله ﷺ مصيبتان، افتقد الأنيس والمعين والمُواسِي في بيته. ونالت منه قريش ما لم تكن تنال، ولا تطمع به في حياة أبي طالب[٦].

نقف مع هذا الجزء من السيرة؛ لنأخذ منه الفوائد التالية:

أولًا: إن من أعظم النِّعم التوفيق للزوجة الصالحة، فهي العون بعد الله -جل شأنه- علىٰ مواجهة أعباء الحياة، وعلىٰ تربية الأولاد، وعلىٰ إصلاح البيت، وفي مواقف خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- درس للشباب في حسن اختيار الزوجة، وأثر ذلك علىٰ مستقبل حياة الزوج.

---

(١) أخرجه البخاري، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٧/ ١٩٣)، حديث رقم (٣٨٨٣).

(٢) أخرجه الإمام مسلم، صحيح مسلم (١/ ١٩٦)، حديث رقم (٣٦٢).

(٣) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ١٩٤)، وابن حجر، الإصابة (٧/ ١١٥ - ١١٦)، وقال في الفتح: (في آخر السنة العاشرة).

(٤) انظر: ابن حجر، الإصابة (٧/ ١١٦).

(٥) يدل على ذلك الأحاديث الصحيحة التي مرت والتي ذكرت أنه في النار وأنه لولا شفاعة الرسول ﷺ لكان في الدرك الأسفل من النار والعياذ بالله.

(٦) انظر: ابن سعد، الطبقات (١/ ٢١١).

ثانيًا: إن في أمّ المؤمنين خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- أسوة حسنة لنسائنا، في التعامل مع الزوج، وكم أتمنىٰ لو أن سيرتها تقرّر في مدارس البنات، وأن الآباء والأمهات يُعلّمون بناتهم قبل الزواج هذه السيرة العطرة، فإنَّ قصص السيرة الواقعية تزرع في النفوس أخلاقًا وآدابًا عظيمة، لا تصل إليه النصوص المجردة.

ثالثًا: هذه الفضائل العظيمة الباهرة التي تجمعت في أم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، هي من فضل الله وتوفيقه، وهي بعد توفيق الله تعالىٰ نتاج عمل وإخلاص، ولا يمنع أن يتوافر شيء منها في غيرها، وفضل الله واسع، وعطاؤه عميم عظيم، فلماذا لا يسعىٰ الإنسان لكسب شيء من هذه الفضائل بالعمل الصالح، ولن يضيع عند الله شيء؛ بل قد قال -جل شأنه- كما في الحديث القدسي عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ يرويه عن ربه، قال: «إذا تقرب العبد إليَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا، وإذا تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا، وإذا أتاني مشيًا أتيته هرولة»[1].

رابعًا: وفاء الرسول ﷺ لزوجته خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- في حياتها وبعد موتها، أما في حياتها، فلم يتزوج عليها أخرىٰ ولم يَتَسَرَّ؛ اكتفاءً بها -رضي الله تعالىٰ عنها-، وأما بعد موتها -رضي الله تعالىٰ عنها- فكثرة ذِكْرها والثناء عليها وإعلانه محبّته لها ورعايته لأقاربها وصاحباتها، وفي هذا درس لكل مسلم في الوفاء؛ فالشخص إذا رزقه الله زوجة صالحة تقيةً قامت به، ونصحت له وأدت حقوقه، فإن من الوفاء أن لا يدخل عليها ضرة تؤذيها، قال الإمام الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (ومن كرامتها عليه ﷺ أنه لم يتزوج امرأة قبلها، وجاءه منها عدة أولاد، ولم يتزوج عليها قط، ولا تسرَّىٰ إلىٰ أن قضت نحبها)[2]. وقال محمد أبو شهبة -رحمه الله تعالىٰ-: (وكانت إقامتها معه خمسًا وعشرين سنة علىٰ الصحيح، وقد أفنىٰ زهرة

---

(١) صحيح البخاري (٩/ ١٥٧) رقم (٧٥٣٦)، وصحيح مسلم (٤/ ٢٠٦٧) رقم (٢٦٧٥).
(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٠٩-١١٠).

الشباب، وميعة الكهولة، ولم يشأ أن يتزوج عليها؛ وفاءً لها وتقديرًا لخدماتها، وحرصًا علىٰ عدم تكدير خاطرها، وإيلام نفسها بإدخال ضرّة عليها مهما كانت، فقد هيَّأت له ﷺ كل أسباب الراحة النفسية، والبدنية، والمالية، والمعيشية، فكان صُنْع رسول الله معها ردًّا للجميل بمثله أو بأكثر منه)[1].

وإن من أشد ما يُؤلم المرأة وينغّص عليها سعادتها؛ بل حياتها، أن تكون لها ضرة، خاصةً إذا كانت ناصحة صالحة قائمة بحقوق زوجها، ثم تُفاجَأ به لوفرة مالٍ يُدْخِل عليها ضرة تُنكّد عليها حياتها، ومن حقها علىٰ زوجها ألَّا يتسبَّب في إيذائها، ولو كان ما يفعله حقًّا من حقوقه، فليس من الوفاء أن يمارس حقوقه بما يؤذي إيذاءً بالغًا مَن أحسن إليه سنوات عمر مديد، ولو احتسب الأجر، واعتبر ذلك إكرامًا لزوجته فيُرْجَىٰ أن يكون مأجورًا مثابًا.

وكذلك الوفاء بعد الممات هو من حُسْن العهد، و«حسن العهد من الإيمان»[2]. قال النووي -رحمه الله تعالىٰ- تعليقًا علىٰ عناية الرسول ﷺ بأقارب خديجة -رضي الله تعالىٰ عنه- بعد وفاتها: (وفي هذا كله دليل لحُسْن العهد، وحفظ الود، ورعاية حرمة الصاحب والعشير في حياته ووفاته وإكرام أهل ذلك الصاحب)[3]. خاصةً أننا إذا استحضرنا أن هذا الوفاء من الرسول ﷺ لخديجة كان في المدينة، أي بعد عدة سنوات من وفاتها -رضي الله تعالىٰ عنها-. وغالبًا -عند كثير من الناس- ما يخبو ويفتر هذا الاهتمام بمُضِي السنوات.

---

(١) محمد أبو شهبة، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة (١/ ٣٩٧).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٦٢) رقم (٤٠) من حديث عاشة -رضي الله تعالى عنها-، وقال الذهبي: «على شرطهما وليست له علة»، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٥٦)، وبوَّب به البخاري في صحيحه (٨/ ٨): (باب حسن العهد من الإيمان)، وذكر فيه حديث عائشة -رضي الله تعالى عنها-: «ما غرت على أحد ما غرت على خديجة.. الحديث..».

(٣) النووي، شرح صحيح مسلم (١٥/ ٢٠٢).

خامسًا: عِظَم مُصاب الرسول ﷺ بوفاة أم المؤمنين -رضي الله تعالىٰ عنها-، فعلىٰ قدر مكانتها في حياته كانت مصيبته بها في وفاتها، فقد كان يجد المعين المواسي له إذا عاد إلىٰ بيته، وتزداد المصيبة بها، إذا استحضرنا أن في بيته ﷺ بنتين لم يتزوجا بحاجة إلىٰ رعاية، وهما أم كلثوم وفاطمة -رضي الله تعالىٰ عنهما-، وأن أم كلثوم -رضي الله تعالىٰ عنها- عمرها ثلاثة عشر عامًا، وفاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها- عمرها عند وفاة أمها قرابة أحد عشر عامًا فقط. وتزامن -أيضًا- وفاتها مع وفاة عمه أبي طالب، فتجمعت المصائب علىٰ رسول الله ﷺ، ولا شك أن لله في ذلك حكمة، لرفعة نبيه ﷺ ولتتأسىٰ به الأُمَّة، وتعلم أن الدنيا دار ممر، وأنها زاد للآخرة، فيها الصبر والاحتساب في المصائب، كما فيها الصبر علىٰ الطاعات، وقد قال -تعالىٰ-: ﴿ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلىٰ:١٧].

سادسًا: عِظَم هذه الكلمة (لا إله إلا الله) التي تدين بها العرب والعجم، ويحاجّ بها الرسول ﷺ لعمه لو قالها، هذه الكلمة هي شهادة التوحيد التي هي إفراد الله بالعبادة، فمن أفرد الله -سبحانه وتعالىٰ- بالعبادة؛ فقد استراح من عبودية الخلق والنظر إلىٰ ما في أيديهم؛ (وتحقيق التوحيد هو معرفته، والاطلاع علىٰ حقيقته والقيام بها علمًا وعملًا، وحقيقة ذلك انجذاب الروح إلىٰ الله محبةً وخوفًا وإنابةً وتوكلًا ودعاءً وإخلاصًا وإجلالًا وهيبةً، وتعظيمًا وعبادةً، وبالجملة فلا يكون في قلبه شيء لغير الله، ولا إرادة لما حرّم الله، ولا كراهة لما أمر الله؛ وذلك هو حقيقة لا إله إلا الله)(١).

سابعًا: إن هذه الكلمة (لا إله إلا الله) هي الفيصل؛ فمن جاء بها يوم القيامة سلم له بقية أعماله، وهو من أهل الجنة علىٰ قَدْر عمله الصالح، ومن جاء يوم القيامة وقد

(١) الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن الوهاب، تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (ص ٩٩).

أبىٰ أن يلتزم بها، وكان في قلبه تأليهًا لغير الله كائنًا من كان، فلا قيمة لعمله، ولو جاء بمثل الجبال حسنات، انظر لحال أبي طالب لما أبىٰ أن يقولها ويلتزم بها، لم ينفعه عمله، مع أن له أعمالًا عظيمةً في نصرة الرسول ﷺ والذَّبّ عنه علىٰ مدىٰ عشر سنوات شداد، تحمَّل فيها الشيء الكثير من أجل مَنْع قريش من إيذاء الرسول ﷺ، ودخل معه الشِّعب ثلاث سنوات عجاف، كل ذلك لم ينفعه لأنه لم يكن موحدًا، وهذا درسٌ عظيمٌ لنا جميعًا، فلا يغرّك عملك مهما كان، إذا لم تكن موحدًا، مفردًا له بالعبادة، سليمًا من أن يكون في قلبك تأليه لغير الله -سبحانه وتعالىٰ-، ناجٍ من أن يتعلق قلبك بوليّ، أو شخص مسؤول تظن أنه سينفعك، فأساس العبادة التوحيد، فلو كان الشخص حافظًا للقرآن، ويقول ليله ويصوم نهاره، وهو غير مُوحّد، قلبه مُعلّق بغير الله، يُؤلّه غير الله -سبحانه وتعالىٰ-، يرجو ويخاف ويحب ويتذلل لغير الله فلا قيمة لذاك العمل ولو كثر. ودرس أبي طالب درس عظيم لنا في فقه أهمية التوحيد ومنزلته في قبول العمل وردِّه.

ثامنًا: من موقف الكفار حينما قبلوا إعطاء الكلمة التي طلبها الرسول ﷺ، فلما أدركوا أن المطلوب هو قول: (لا إله إلا الله) نكلوا وتراجعوا، وقالوا: أتريد أن تجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟ فهم يدركون معناها، ويعلمون ما يترتب علىٰ القول بذلك من ترك الأوثان التي يطوفون حولها ويدعونها من دون الله.

فهؤلاء المشركون أعرف بهذه الكلمة من كثير من الناس الذين يقولون: «لا إله إلا الله»، ثم ينقضونها بعملهم، حينما يطوفون حول القبور أو يدعونها أو يقدمون لها القرابين أو يرجون نَفْعها أو يخافون ضرّها، بل مِن هؤلاء مَن يطوف حول القبر، وهو يقول: «لا إله إلا الله»، ولا يدري مدىٰ التناقض بين القول والعمل. التوحيد هو خلاصته دعوة الأنبياء كافة، من جاء به نجا، ومن أشرك بالله فإن الله -سبحانه وتعالىٰ- يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٤٨].

تاسعًا: إن القارئ للسيرة ليعجب من موقف أبي طالب هذا، كيف كان يعرف صدق محمد ويدافع عنه ويُعرّض نفسه للمتاعب، ويستمر مع ذلك علىٰ شركه؟!

يقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (وخالفه في ذلك عمّه أبو طالب بن عبد المطلب، وكان رسول الله ﷺ أحب خلق الله إليه طبعًا، وكان يحنو عليه، ويُحسن إليه ويُدافع عنه ويحامي، ويخالف قومه في ذلك مع أنه علىٰ دينهم وعلىٰ خلتهم؛ إلا أن الله -تعالىٰ- قد امتحن قلبه بحبّه حبًّا طبعيًّا لا شرعيًّا، وكان استمراره علىٰ دين قومه من حكمة الله -تعالىٰ- ومما صنَعه لرسول الله ﷺ من الحماية، إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه ولاجترؤوا عليه، ولمدوا أيديهم وألسنتهم بالسوء إليه ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨][١].

يؤيد هذا قول كفار قريش السابق لأبي طالب: «فإنك علىٰ مثل ما نحن عليه من خلافه»، ولعل بذلك يتضح شيء من الحكمة في بقائه علىٰ دين آبائه، وموته علىٰ ذلك، رغم ما قام به من نصرة ودفاع عن الرسول ﷺ.

وتأمل قول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ- في موضع آخر في شأن أبي طالب: (كان يصد الناس عن أذية رسول الله ﷺ وأصحابه، بكل ما يقدر عليه من فِعَال ومقال، ونفس ومال، ولكن مع هذا لم يُقدّر الله له الإيمان; لما له -تعالىٰ- في ذلك من الحكمة العظيمة، والحجة القاطعة البالغة الدامغة، التي يجب الإيمان بها والتسليم لها، ولولا ما نهانا الله عنه من الاستغفار للمشركين لاستغفرنا لأبي طالب وترحمنا عليه)[٢].

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية (٤/ ١٠٤)، و(٣/ ٤١)، وانظر: الشيخ محمد بن عثيمين ، شرح العقيدة الواسطية (٢/ ١٧٦).

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية (٤/ ٣١٥).

وقال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وكان من حكمة أحكم الحاكمين بقاؤه علىٰ دين قومه؛ لما في ذلك من المصالح التي تبدو لمن تأملها)[1]؛ يعني بذلك أبا طالب.

عاشرًا: في حرص الرسول ﷺ علىٰ هداية عمه، وموت أبي طالب علىٰ الشرك دليل علىٰ أن الرسول ﷺ لا يملك لأحد شيئًا، ومن باب أولىٰ: الأولياء والصالحون، هذا وَهُم أحياء، فكيف إذا ماتوا. قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ -رحمه الله تعالىٰ-: (ومن حكمة الرب -تعالىٰ- في عدم هداية أبي طالب إلىٰ الإسلام ليبين لعباده أن ذلك إليه، وهو القادر عليه دون من سواه، فلو كان عند النبي ﷺ -الذي هو أفضل خلقه- من هداية القلوب وتفريج الكروب; ومغفرة الذنوب، والنجاة من العذاب، ونحو ذلك شيء; لكان أحق الناس بذلك وأولاهم به عمه الذي كان يحوطه ويحميه وينصره ويؤويه، فسبحان من بهرت حكمته العقول! وأرشد العباد إلىٰ ما يدلهم علىٰ معرفته وتوحيده، وإخلاص العمل له وتجريده)[2]. فلا يتعلق قلبك بغير الله -جل شأنه-، لا تلجأ لغيره في تفريج كرب، أو تنفيس همّ أو كشف غمّ، أو مغفرة ذنب أو نجاة من عذاب. وهذا هو الذي فيه عزّك وشرفك ورفعتك في الدنيا والآخرة.

حادي عشر: لقد حرص الرسول ﷺ علىٰ عمّه، وبذل ما استطاع من جهد لهدايته، ولكن في اللحظات الأخيرة حضر جليس السوء، فكان كلما دعا الرسول ﷺ عمه لقول: لا إله إلا الله، ذكَّره جلساء السوء ملة عبد المطلب، فأصرَّ عليها، وتمسَّك بها، ومات عليها، ولم يقل: لا إله إلا الله، وأي حرمان أشد من هذا الحرمان!! بسبب جلساء السوء الذين كثيرًا ما أضلوا وأفسدوا دون أن يشعر المجتمع بأثرهم إلا

(١) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٢٢).

(٢) عبد الرحمن بن حسن، فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (بيروت: دار ابن حزم ١٤٣٣)، (١٩١-١٩٢).

بعد فوات الأوان؛ قال -تعالىٰ-: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩].

ثاني عشر: قاتل الله أصحاب السوء، فهم يُجْرِمُون في حقّ مَن يصاحبون، وبقدر ما كان لأهل السوء من أثر في الختام السيئ لأبي طالب فقد كان للعادات والتقاليد أثرها في ميتته علىٰ الشرك[1]، وقد صرَّح بهذا الأثر عندما قال للنبي ﷺ: (لولا أن تُعيّرني قريش لأقررت بها عينك)؛ كما مر قبل قليل.

ثالث عشر: إن العبرة بالخواتيم، فأبو طالب مع كفره طول عمره الذي تجاوز الثمانين عامًا، لو ختم له بالتوحيد لكان الحكم له، وهذا يذكّرنا بأهمية الخاتمة فإن العِبْرة بها، ومن أدرك قيمة الخاتمة في حياته لم يَقترف معصيةً؛ خشيةَ أن يُختَم عمره بها؛ قال -تعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢]. ولأكثَرَ مِن سؤال الله -جل شأنه- الخاتمة الحسنىٰ في دعائه دائمًا.

رابع عشر: مضرة تقليد الآباء والأجداد والتأسي بما كانوا عليه من عادات وتقاليد دون ضابط من الشرع، وأبو طالب كلما دعاه الرسول ﷺ إلىٰ الإسلام أجاب بالتمسك بما عليه الآباء والأجداد؛ قال -تعالىٰ-: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف:٢٢]. يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وما علىٰ العبد أضر من ملك العادات له، وما عارض الكفار الرسل إلا بالعادات المستقرة الموروثة لهم عن الأسلاف الماضين، فمن لم يُوطّن نفسه علىٰ مفارقتها والخروج عنها والاستعداد للمطلوب منه فهو مقطوع وعن فلاحه وفوزه ممنوع)[2].

(١) انظر: سليمان العودة، السيرة النبوية في الصحيحين عند ابن إسحاق دراسة مقارنة في العهد المكي (ص ١٩٩).

(٢) ابن القيم، مدارج السالكين، الطبعة الثالثة، (بيروت: دار الكتاب العربي ١٤١٦)، (١/ ١٦٥).

خامس عشر: إن الهداية بيد الله -سبحانه وتعالىٰ-، وليست بيد أحد من البشر، وليس علىٰ الشخص إلا أن يبذل جهده، أما التوفيق للخير فهذا بيد الله -سبحانه وتعالىٰ-؛ فمسؤولية المسلم هي هداية الدلالة والإرشاد كما قال -تعالىٰ-: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورىٰ:٥٢]، وليس عليه هداية التوفيق كما قال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦]. وفي هذا عزاء للمسلم حينما يرىٰ أحيانًا جهوده تذهب سدًىٰ، فيُذَكَّر بموقف الرسول ﷺ مع أبي طالب الذي دعاه وكرر الدعوة، ولكن لم يستجب ولم يكتب له الفلاح.

سادس عشر: شدة عذاب النار فأبو طالب في ضحضاح من النار تبلغ كعبيه يغلي من حرّها دماغه، ومع ذلك فهو أهون أهل النار عذابًا، فكيف بما فوق ذلك؟! ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات ٥٠-٥١]

سابع عشر: إن أبا طالب مات علىٰ الكفر، يدل لذلك قوله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦]، قال النووي: (أجمع المفسرون علىٰ أنها نزلت في أبىٰ طالب)(١)، ولقوله -تعالىٰ-: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة:١١٣]؛ فقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت لما قال الرسول ﷺ عن أبي طالب: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك»(٢).

---

(١) النووي، شرح صحيح مسلم (١/ ٢١٥).

(٢) متفق عليه: الإمام البخاري، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٧/ ١٩٣) رقم (٣٨٨٤)، والإمام مسلم، صحيح مسلم (١/ ٥٤) رقم (٣٩)، وسبق إيراده كاملًا قبل عدة صفحات.

ثامن عشر: في هذه القصة دلالة على صحة إسلام أو توبة من حضرته الوفاة، فلولا أن الإسلام يصح منه ما طلبه منه الرسول ﷺ، وذلك قبل المعاينة والنزاع، ولو كان في حال المعاينة والنزاع لما نفعه الإيمان؛ لقوله -تعالىٰ-: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء:١٨].

تاسع عشر: جاء في الحديث الذي سبق الإشارة إليه: (قال أبو طالب آخر ما كلمهم به هو على ملة عبد المطلب)؛ قال النووي -رحمه الله تعالىٰ-: (فهذا من أحسن الآداب والتصرفات، وهو أن من حكىٰ قول غيره القبيح أتىٰ به بضمير الغيبة؛ لقبح صورة لفظه الواقع)[1].

العشرون: حقوق الأقارب ظاهرة في هذه القصة، فقد بذل الرسول ﷺ مزيد اعتناء وحرص على إسلام أبي طالب؛ وذلك لقرابته منه ﷺ، وحق القريب أكثر من حق غيره، قال -تعالىٰ-: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [الإسراء:٢٦]، وقال -تعالىٰ- للرسول ﷺ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤]؛ فعلىٰ المسلم أن يُعطي أقاربه مزيد عناية واهتمام بالدعوة والتوجيه والنصح، ونحن نرىٰ بعض الناس لهم جهود في الدعوة إلىٰ الله، لكنهم مع أقاربهم في غفلة كبيرة، ومثله بعض الأغنياء تجده جوادًا مع الفقراء والمساكين، غافلًا عن حقوق أقاربه المالية، ولو لم يكونوا فقراء، كما هو واضح من نص الآية السابقة، وهذا من التقصير الذي ينبغي أن ينتبه إليه؛ ليتم تلافيه.

الواحدة والعشرون: الوفاء من الرسول ﷺ لأبي طالب الذي ساند الرسول ﷺ، وكانت له المواقف الكثيرة التي يُحْمَد عليها، ولما سأل العباس رضي الله عنه رسول الله ﷺ عن نفع الرسول ﷺ لأبي طالب مقابل ذلك، بيَّن الرسول ﷺ لعمه أنه لم يَنْس هذا

(١) النووي، شرح صحيح مسلم (١/ ٢١٤).

الصنيع، وأنه قد شفع له شفاعة خاصة[1] جعلته في ضحضاح من النار، وهو أهون أهل النار عذابًا، ولولا شفاعة الرسول ﷺ لكان في الدرك الأسفل من النار[2].

وهذا الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم من الوفاء لأصحاب الفضل والاعتراف لهم بالجميل والسعي في مكافأتهم بما يسوغ شرعًا كالدعاء، وفق استطاعته.

الثانية والعشرون: إن سبب التخفيف عن أبي طالب مع أنه مات مشركًا إنما هو النبي ﷺ (أي شفاعته)، وليس عمل أبي طالب، فلا تعارض حينئذ بين حديث شفاعته ﷺ لعمه وبين بطلان عمل المشركين.

فالتخفيف هنا خصوصية للرسول ﷺ وكرامة أكرمه الله بها -جل شأنه-؛ حيث قبل شفاعته في عمه أبي طالب، وقد مات علىٰ الشرك، والله يختص بفضله من يشاء، ومن أحق بذلك من رسول الله ﷺ سيد الأنبياء -عليهم جميعًا أفضل الصلاة والتسليم-؟[3].

الثالثة والعشرون: نعمة الإيمان هبة من الله -سبحانه وتعالىٰ- يهبها لمن يشاء فضلًا منه -جل شأنه- وإحسانًا، ويُحرَم منها مَن لم تُكتب له الهداية؛ يقول السيوطي -رحمه الله تعالىٰ-: (زيد بن حارثة، كان فتىٰ من كلب[4]؛ فسبَاه بعض العرب، وباعه من خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-؛ فوهبته للنبي ﷺ فتبنَّاه، فكان يقال له: زيد بن محمد، حتىٰ نزلت هذه الآية[5]. فسبحان من قاده بسلاسل العناية؛ واحد من كلب، وآخر من الحبشة، -يقصد بلالاً رضي الله تعالىٰ عنه- وآخر من

(١) انظر: ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطية (٢/ ١٧٥).
(٢) سبق تخريج هذه الأحاديث في بداية هذا المبحث.
(٣) انظر: الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، المجلد الأول، حديث رقم (٥٥).
(٤) كلب: قبيلة مشهورة من قبائل العرب.
(٥) يقصد قول الله تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٥].

الروم، -يقصد صهيبًا[1] رضي الله تعالىٰ عنه-، وآخر من فارس -يقصد سلمان رضي الله تعالىٰ عنه-، وأبو طالب واقف علىٰ الباب ينصره ويذبّ عنه، وحُرم من الدخول، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد، لا إله إلا أنت)[2].

وهذا درس عظيم يُوقظ قلوبنا لعظيم نعمة الله علينا بهدايتنا للإيمان، ونحن نرىٰ كثرة الأمم حولنا في ضلال مبين، محرومون من نور الهداية لربهم. فـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣]، ومعرفة قيمة النعمة يدعو إلىٰ التمسك بها والحرص عليها والدعاء ببقائها ونمائها. فاللهم أحيينا مؤمنين، وتوفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين، واختم لنا بالرضوان يا رب العالمين، ورحم الله عبدًا قال آمين.

الرابعة والعشرون: ولعل من حكمة وفاة أم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- في هذا الوقت من الدعوة، بعد الخروج مباشرة من الشعب واشتداد أمر العداء من قريش، ومصاحبة ذلك وفاة أبي طالب في ذات الزمن، أن يعلم المسلم أن الناصر هو الله، والحافظ هو الله -جل شأنه- فلا يتعلق قلب أحد بغير الله -سبحانه وتعالىٰ-، ولا يَقُلْ داعية في يوم من الأيام: أنا ليس عندي زوجة تواسيني، ولا عمّ يقف معي وينصرني، فقد ذهب هؤلاء وتركوا الرسول ﷺ، ومع ذلك مضىٰ ﷺ في دعوته يَعْرِضها علىٰ أهل مكة وعلىٰ القبائل الوافدة إليها، ويخرج إلىٰ الطائف، رغم وفاتهما وخروجهما من حياته اليومية.

---

(١) صهيب بن سنان من بني زيد مناة بن النمر بن قاسط النمريّ، أبو يحيى. قيل له الرّوميّ؛ لأن الرّوم سبوه صغيرًا، ثم باعوه حتى وصل إلى مكة رقيقًا. ابن حجر، الإصابة (٣/ ٣٦٤).

(٢) السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، الطبعة الأولى (دار الكتب العلمية: بيروت ١٤٠٨)، (٢/ ١٨).

الخامسة والعشرون: لعل -أيضًا- من حكمة تزامُن وفاة خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- مع وفاة أبي طالب تبيين أن هذه دعوة ربانية، لا تتأثر بالبشر، فيموت الداعية، أو يموت من ينصر الدعاة، وتمضي الدعوة كما هي، الله يحفظها ويحفظ أهلها وينصرهم. فلا تتعود القلوب أن تتعلق بشخصٍ ما، أو تظن أن الدعوة ماضية ببقائه، وتهتز أو تتعثر بذهابه، فالتعلق بالله في كل الأحوال، وخلوص القلوب من الالتفات والركون إلىٰ الناس مطلب عقدي مهمّ، ثم إن هذه ميزة الدعوة الربانية عن سائر الدعوات البشرية التي تنتهي بنهاية أصحابها.

السادسة والعشرون: تزامن وفاة أم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها-، مع وفاة أبي طالب، وشتان بين مآل كلّ منهما، خديجة -رضي الله تعالىٰ عنه- ينتظرها بيت من قصب، أي من لؤلؤ مجوف[1]، لا صَخب فيه ولا نصب -كما سبق في الحديث-، وأبو طالب أخبرنا الرسول ﷺ أنه «في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه، يغلي منه دماغه»[2]، وهم عاشوا في بيئة وإمكانات واحدة، والأمر كله بيد الله، والسعيد من جد وعمل، ودعا الله أن يُحسن مآله ويجعله من عباده الصالحين، فاللهم اجعلنا من أهل السعادة، يا أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين، ووالدينا وذرياتنا.

السابعة والعشرون: عُرف هذا العام عند بعض المتأخرين بـ«عام الحزن»؛ بسبب أنه شهد وفاة أم المؤمنين خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- زوجة رسول الله ﷺ، وعمه أبي طالب، ولا شك أن المصيبة بهما كبيرة، وأن من أطلقها قصد الإشارة إلىٰ شدة حزنه ﷺ، ولكن لم أجد هذه التسمية في شيء من الأحاديث الصحيحة؛ بل ولا الضعيفة مما اطلعت عليه، ولا في شيء من كتب السيرة وشروحها؛ كسيرة ابن إسحاق وشرحها للسهيلي، ونحوها، ومع البحث في الحواسب، وجدت أن أول

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (١/ ١٧٣).

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري (٥/ ٥٢) رقم (٣٨٨٥)، وصحيح مسلم (١/ ١٩٥) رقم (٢١٠)، من حديث أبي سعيد الخدري.

مَن ذكر هذه العبارة هو ابن الملقن في كتابه التوضيح لشرح الجامع الصحيح وهو متوفىٰ عام (٨٠٤هـ) دون أن يذكر مستنده، ثم المقريزي -رحمه الله تعالىٰ- في إمتاع الأسماع وهو متوفىٰ عام (٨٤٥هـ)، وبدر الدين العيني في عمدة القاري وهو متوفىٰ عام (٨٥٥هـ)، والقسطلاني في المواهب وهو متوفىٰ عام (٩٢٣هـ)، ثم تتابع بعد ذلك كُتّاب السِّيَر من بعده في نقله دون مصدر يعتمد عليه. وممن أنكر ثبوت هذه العبارة الألباني -رحمه الله تعالىٰ-[١]، والشيخ محمد العوشن[٢].

وقد مر علىٰ النبي ﷺ من المِحَن والشدائد العظيمة، كمقتل سبعين من أصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم- في قصة بعث بئر معونة، ومقتل عشرة من أصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم- في ماء الرجيع، واستشهاد سبعين من أصحاب الرسول ﷺ في غزوة أُحُد، ومنهم عم الرسول ﷺ حمزة -رضي الله تعالىٰ عنه-، كل ذلك خلال أقل من ستة أشهر، ولم يُنْقَل عنه مع شدة حزنه علىٰ هؤلاء أنه سمَّاه بأيِّ اسم يدل علىٰ الحزن ونحوه[٣].

الثامنة والعشرون: لعله يُستفاد من نصرة أبي طالب وهو علىٰ شركه للرسول ﷺ وقبول الرسول ﷺ لهذه النصرة دلالة علىٰ جواز الاستعانة بالمشرك بضوابطها، يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (الاستعانة بالمشرك المأمون في الجهاد جائزة عند الحاجة)[٤]. وسيأتي مزيد تفصيل لهذه الفائدة -إن شاء الله تعالىٰ-.

(١) دفاع عن الحديث والسيرة (ص ١٨).

(٢) ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية (٦٧- ٦٩).

(٣) ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية (٦٧- ٦٩).

(٤) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٣٠١)، وانظر: النووي شرح صحيح الإمام مسلم «وقال الشافعي وآخرون: إن كان الكافر حسن الرأي في المسلمين، ودعت الحاجة إلى الاستعانة به استُعين به، وإلا فيُكره» (١٢/ ١٩٩)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٩٩-١٠٠)، وابن حجر، تلخيص الحبير (٤/ ١٠١).

التاسعة والعشرون: في موقف أبي طالب يجب أن يُفرّق في الكفار بين مُعرض ومُعارض، فالمعرض وإن كان كافرًا لإعراضه، لكنه ليس مثل هذا المُعارِض الذي دأبه الاستهزاء بالمسلمين، وإيذاؤهم، والسعي لحرب الإسلام، وتسخير جهوده في كتم الحق وإظهار الباطل.

فالمعرض من أمثال أبي طالب وغالب بني هاشم والمطلب الذين لم يؤمنوا، ومع ذلك دخلوا مع الرسول ﷺ في الشِّعب.

والمعارض من أمثال أبي جهل والوليد وأبي لهب وغيرهم كثير، فهؤلاء جمعوا بين الكفر بالله والصَّدّ عن دينه، والعدوان علىٰ المسلمين. ولذلك نجد النصوص شديدة علىٰ المستهزئين، لأنهم لم يكتفوا بالكفر فقط، بل جمعوا معه الاعتراض، فهم كفار وزيادة. قال -تعالىٰ-: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابًا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾ [النحل:٨٨]؛ وهذا كما يوضّح لنا درجات معاملة الكفار، فهو في جانب منه يبين خطورة الاستهزاء، وإلىٰ أي درجة ينزل بصاحبه، وينقله من دركة المعرض إلىٰ دركة المعارض.

المبحث العاشر

فقه السيرة في خروجه ﷺ إلى الطائف للدعوة إلى الله -سبحانه وتعالى-

بعد موت أبىٰ طالب وخديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- اشتد البلاء علىٰ رسول الله ﷺ من سفهاء قومه، وتجرؤوا عليه، وكاشفوه بالأذىٰ الذي لم يكونوا يجرؤون عليه في حياة أبي طالب؛ فناله منهم الكثير من الأذىٰ البدني.

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: فلما هلك أبو طالب، نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذىٰ ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب[1]. وروىٰ البيهقي -رحمه الله تعالىٰ- عن عروة بن الزبير -رضي الله تعالىٰ عنهما-، عن عبد الله بن جعفر -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: لما مات أبو طالب عرض لرسول الله ﷺ سفيه من سفهاء قريش فألقىٰ عليه ترابًا، فرجع إلىٰ بيته، فأتت امرأة من بناته تمسح عن وجهه التراب وتبكي، قال: فجعل يقول: «أيْ بُنيّة، لا تبكين، فإن الله -عز وجل- مانع أباك»، ويقول ما بين ذلك: «ما نالت مني قريش شيئًا أكرهه حتىٰ مات أبو طالب»[2].

وروىٰ الحاكم -رحمه الله تعالىٰ- في المستدرك عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: «ما زالت قريش كاعَّة حتىٰ تُوفِّي أبو طالب»[3]؛ يقول ابن كثير -رحمه

(١) ابن هشام، السيرة (٢/ ٤٦).

(٢) البيهقي، دلائل النبوة (٢/ ٣٥٠). وابن هشام، السيرة (٢/ ٤٦).

(٣) الحاكم، المستدرك (٢/ ٦٧٩) رقم (٤٢٤٣)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ومعنى كاعَّة أي: تجبن عن أذية الرسول ﷺ في حياة أبي طالب.

الله تعالىٰ-: (وعندي أن غالب ما روي من طرحهم سلا الجزور بين كتفيه وهو يصلي، وكذلك ما أخبر به عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالىٰ عنهما- مِن خنقهم له ﷺ، حتىٰ حال دونه أبو بكر الصّديق قائلًا: أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله! وكذلك عزم أبي جهل -لعنه الله- علىٰ أن يطأ علىٰ عنقه وهو يصلي، فحيل بينه وبين ذلك، وما أشبه ذلك، كان بعد وفاة أبىٰ طالب -والله أعلم-)[١].

فلما اشتد هذا الأمر علىٰ رسول الله ﷺ، ورأىٰ تطاول سفهاء قريش بمختلف صور الأذية، وبخاصة تلك الأذية البدنية، الجارحة معنويًّا، التي أشار إليها ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-، خرج رسول الله ﷺ إلىٰ الطائف[٢].

وقد أشار ابن الجوزي -رحمه الله تعالىٰ- إلىٰ سبب خروج الرسول ﷺ إلىٰ الطائف بقوله: (وَكَانَ رَسُول الله ﷺ لما يئس من أهل مَكَّة أَن يُجِيبُوهُ خرج إِلَىٰ الطَّائِف لِيَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الْإِسْلَام، وَذَلِكَ بعد موت أبي طَالب)[٣]. وهذا يُشعر بأن خروجه ﷺ للطائف، كان بسبب إدراكه ﷺ أن الدعوة في مكة قد ضاقت سُبُلها، والقوم قد بلغتهم الرسالة، وموقف عامتهم عداء مستحكم، وإيذاء مستمر، ولعل الأفضل البحث عن من يقبل هذه الدعوة أو ينصرها أو يحميها من خارج مكة.

والطائف تبعد نحو ثمانين كيلو من مكة، خرج ﷺ سيرًا علىٰ الأقدام ذهابًا وعودةً، ومعه مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه، يبتغي الدعوة إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-، والإيواء والنصرة لتبليغ دين الله -جل شأنه-.

(١) ابن كثير، السيرة النبوية (٢/ ١٤٨).

(٢) انظر: النجم عمر بن فهد، إتحاف الورى (١/ ٣٠٩)، وفيه أن خروجه ﷺ إلى الطائف كان في شوال السنة العاشرة من البعثة، والعلم عند الله -جل شأنه-.

(٣) ابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين، تحقيق عليّ حسين البواب (الرياض: دار الوطن)، (٤/ ٢٨٣).

وكان كلما مر علىٰ قبيلة في الطريق دعاهم إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-، فلم تجب إليه واحدة منها.

ولما انتهىٰ إلىٰ الطائف عمد إلىٰ ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف وهم: عبد ياليل[1] ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفي، فجلس إليهم ودعاهم إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-، فقال أحدهم: هو يمرط[2] ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحدًا غيرك، وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدًا، إن كنت رسولًا لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام، فقام عنهم رسول الله ﷺ وقال لهم: إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني.

وأقام الرسول ﷺ بين أهل الطائف عشرة أيام لا يدع أحدًا من أشرافهم إلا دعاه إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-، فقالوا: اخرج من بلادنا، وأغروا به سفهاءهم، فوقفوا له سماطين[3]، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتىٰ دميت قدماه، وزيد بن حارثة رضي الله عنه يقيه بنفسه حتىٰ أصابه شجاج في رأسه، فانصرف راجعًا من الطائف إلىٰ مكة محزونًا، والتجأ إلىٰ حائط لعتبة وشيبة ابْنَيْ ربيعة، وهناك جلس تحت ظل شجرة ودعا بالدعاء المشهور: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني علىٰ الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلىٰ من تكلني، إلىٰ

(١) هكذا ورد في السيرة لابن هشام، والذي في صحيح البخاري -كما سيأتي- ابن عبد يالبل، وما في الصحيح هو الصحيح. وقد قال ابن حجر في الإصابة (٤/ ٣٢٠): «وذكر ابن إسحاق أن عبد ياليل بن عمرو بن عمير كان ممن وفد على رسول اللّه ﷺ في وفد ثقيف. والّذي قال غيره: إن الوافد فيهم مسعود بن عبد يا ليل». وذكر في (٦/ ٨١) و(٦/ ٤٣١-٤٣٢) إسلام مسعود وإخوته.

(٢) يمرط: المرط: نتف الشعر والريش والصوف عن الجسد، والمراد هنا أي: يمزق، ابن منظور، لسان العرب (٧/ ٣٩٩)، مادة (مرط).

(٣) سماطين: سماط القوم أي صفهم، يقال: قام القوم حوله سماطين؛ أي صفين، وكل صف من الرجال سماط، ابن منظور، لسان العرب (٣/ ٣٢٥)، مـادة (سمط).

بعيد يتجهمني؟ أو إلىٰ عدو ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل عليَّ غضبك أو أن ينزل بي سخطك، لك العتبىٰ حتىٰ ترضىٰ، ولا حول ولا قوة إلا بك»[(١)].

فلما رآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة علىٰ هذه الحال بعثا إليه غلامًا لهما اسمه عداس بقطف عنب[(٢)] فلما مد يده ﷺ؛ ليأكل قال: «بسم الله»، ثم أكل، فقال عداس: إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له الرسول ﷺ: «من أيّ البلاد أنت؟ وما دينك؟» قال: نصراني من أهل نينوىٰ، فقال الرسول ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متىٰ»، فقال له: وما يدريك ما يونس بن متىٰ؟ قال رسول الله ﷺ: «ذاك أخي كان نبيًّا وأنا نبيّ»، فأكبَّ عداس علىٰ رأس رسول الله ﷺ ويديه ورجليه يقبّلهما[(٣)]،

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٣٥): «رواه الطبراني وفيه ابن إسحاق مدلس وبقية رجاله ثقات». وأخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي (٢/ ٢٧٥) رقم (١٨٣٩)، وأخرجه الطبراني في الدعاء، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى، (بيروت، دار الكتب العلمية ١٤١٣)، (ص ٣١٥) رقم (١٠٣٦)، وعنه الضياء المختارة للمقدسي (٩/ ١٧٩) رقم (١٦٢)، من حديث عبد الله بن جعفر -رضي الله تعالى عنهما-، وضعَّف الألباني هذا الحديث في تعليقه على فقه السيرة للغزالي (ص ١٢٦). وقال خالد العمرو مخرج أحاديث شرح كتاب التوحيد للشيخ عبد الله بن حميد (ص ٣٥٠ الهامش) رقم (١): «رواه الطبراني من حديث عبد الله بن جعفر -رضي الله تعالى عنهما-، رجاله ثقات، وظاهر إسناده الاتصال، وليس فيه تقرير أصل جديد، فهو حديث حسن -إن شاء الله- لحال محمد بن إسحاق».

(٢) قال سالم بن علي الثقفي -رحمه الله تعالى، وهو من أهل الطائف- في كتابه مفاتيح الفقه الحنبلي (١/ ٣٥٨) في الهامش رقم (٥): وج: واد يخترق مدينة الطائف مقبل من المثناة إحدى ضواحي الطائف من الجهة الغربية الجنوبية، وفيها يوجد المكان الذي تناول فيه الرسول ﷺ عنقود العنب من الفتى النصراني».

(٣) ذكر ابن حجر -رحمه الله تعالى- عداس هذا في القسم الأول من الإصابة، انظر: (٤/ ٢٢٧)، وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ١٣٦)، والبيهقي، دلائل النبوة (٢/ ٤١٦)، وأكرم العمرى، السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٨٥ - ١٨٦).

فقال ابنا ربيعة أحدهما للآخر: أما غلامك فقد أفسده الرجل، فلما جاء عداس قالا له: ويحك ما هذا؟ قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا الرجل، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي، قالا له: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير لك[١].

ورجع رسول الله ﷺ في طريقه إلىٰ مكة، فلما بلغ قرن الثعالب بعث الله -جل شأنه- إليه جبريل -عليه السلام- ومعه ملك الجبل يستأمره بأن يطبق الأخشبين[٢] علىٰ أهل مكة. ففي الصحيحين عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتىٰ عليك يوم كان أشد من يوم أُحُد؟ قال: لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي علىٰ ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يُجبني إلىٰ ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم علىٰ وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك وما ردُّوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبل؛ لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبل فسلم عليَّ، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم مَن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا»[٣].

---

(١) انظر: السهيلي، الروض الأنف (٢/ ١٧٢)، وابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٣١)، والشامي، سبل الهدى (٢/ ٥٧٦)، والقسطلاني، المواهب اللدنية (١/ ٢٦٧). وانظر: محمد العوشن، ما شاع ولم يثبت في السيرة، (ص٦٥).

(٢) الأخشبان: الأخشب هو الجبل الخشن الغليظ، والأخشبان: هما الجبلان اللذان عن يمين المسجد الحرام ويساره، والمراد بهما، قعيقعان وأبو قبيس، انظر: محمد شراب، المعالم الأثيرة (ص ٢٣).

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٦/ ٣١٢)، حديث رقم (٣٢٣١)، وصحيح مسلم (٣/ ١٤٢٠)، حديث رقم (١٧٩٥).

وذكر ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- أنه قام في تلك الليلة يصلي[1]، ثم أقام بنخلة[2] أيامًا، وأراد الرجوع إلىٰ مكة؛ فقال له زيد بن حارثة -رضي الله تعالىٰ عنه-: كيف تدخل عليهم وهم قد أخرجوك؟ فقال: «يا زيد! إن الله جاعل لما ترىٰ فرجًا ومخرجًا، وإن الله مُظْهِر دينه وناصر نبيه».

ثم انتهىٰ إلىٰ حراء وبعث إلىٰ الأخنس بن شريق ليجيره فقال: أنا حليف والحليف لا يجير علىٰ الصّريح. فبعث إلىٰ سهيل بن عمرو فقال: إن بني عامر بن لؤي لا تجير علىٰ بني كعب. فبعث إلىٰ المطعم بن عدي فأجابه إلىٰ ذلك، وقال: نعم. قل له فليأتِ. فرجع إليه فأخبره فدخل رسول الله ﷺ فبات عنده تلك الليلة، فلما أصبح خرج المطعم بن عدي وقد لبس سلاحه هو وبنوه ستة أو سبعة. فقال لرسول الله ﷺ: طف. واحتبوا بحمائل سيوفهم بالمطاف، فأقبل أبو سفيان إلىٰ المطعم بن عدي فقال: أمجير أم تابع؟، قال: بل مجير. قال: إذن لا تُخْفَر؛ قد أجرنا من أجرتَ. فجلس معه حتىٰ قضىٰ رسول الله ﷺ طوافه، فلما انصرف إلىٰ بيته وانصرفوا معه، فذهب أبو سفيان إلىٰ مجلسه[3]، وقد حفظ الرسول ﷺ للمطعم هذا الصنيع، فقال في أسارىٰ بدر: «لـو كان المطعم بن عدي حيًّا، ثم كلمني في هؤلاء النتنىٰ لتركتهم له»[4].

أقف مع هذا الجزء من السيرة النبوية؛ لأدوّن الفوائد التالية:

الأولىٰ: هذا الجزء من السيرة من المواقف المؤلمة؛ إذ كيف يستطيع المسلم أن يتحمّل قراءة أخبار هذا الإيذاء الجارح في مكة، ثم الاستهزاء والإيذاء للمصطفىٰ ﷺ

---

(١) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٣٢).

(٢) نخلة: اسم قرية في الطريق بين مكة والطائف وتعرف بنخلة اليمانية.

(٣) انظر: الشامي، سبل الهدى (٢/ ٤٤٠- ٤٤١).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٦/ ٢٤٣) رقم (الحديث ٣١٣٩).

حتىٰ سالت دماء قدميه الشريفين من الحجارة التي كان يرميه به الأطفال والعبيد عائدًا من الطائف، وعدم تمكّنه من دخول بلده إلا بجوار من مشرك!!

الثانية: هذا الموقف يُعيد إلىٰ ذاكرتنا مرة أخرىٰ مدىٰ العناء والمشقة التي واجهها الرسول ﷺ في سبيل هذه الدعوة، حتىٰ وصلت إلينا، فما أعظم حقه ﷺ علىٰ كل مسلم منذ بعثته إلىٰ أن تنتهي هذه الدنيا بالنفخ في الصور.

الثالثة: خروج الرسول ﷺ إلىٰ الطائف إعلان عملي لعالمية الدعوة، وأن الأولىٰ بها من ينصرها، فالرسول ﷺ وإن بُعث في مكة ومن قريش، فإن أولىٰ الناس به المؤمنون به أينما كانوا، عن عمرو بن العاص -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: سمعت رسول الله ﷺ جهارًا غير سرّ، يقول: «ألا إن آل أبي، يعني فلانًا، ليسوا لي بأولياء، إنما وليي الله وصالح المؤمنين»(١). وهذا لا يختص بزمانه، بل الأولىٰ به ﷺ الأكثر اتّباعًا له ﷺ حيثما كانوا.

الرابعة: لما وصل الرسول ﷺ الطائف، كان همّه نجاح الدعوة، وقد بدأ ﷺ بأكابرها، وهو قدوة الدعاة إلىٰ الله -جل شأنه-، وإمامهم.

وتبعًا لذلك فالشخص يبدأ في دعوته إلىٰ الله مع أب الأسرة التي سيتحدث إليها؛ لأن له تأثيرًا علىٰ من في منزله، وفي القرية أو البلدة ينبغي علىٰ الداعية إلىٰ الله أن يقدّر أميرها ويبدأ بالذهاب إليه، وزيارته، بل ويُستحسن الاستئذان منه، والذي لا يفرّق في الدعوة بين كبير وصغير، وأمير ووضيع، يقع في أخطاء كثيرة، ويخالف سُنة الرسول ﷺ العملية، في البدء بكبار الطائف ووجهائها، ولما لم يستجيبوا له رجع وتركهم.

---

(١) متفق عليه: واللفظ لمسلم: صحيح البخاري (٨/ ٦) رقم (٥٩٩٠)، وصحيح مسلم (١/ ١٩٧) رقم (٢١٥). قال ابن حجر في الفتح (١/ ٣٣١): «قال أبو بكر بن العربي المراد آل أبي طالب».

الخامسة: ثم نلحظ أن الرسول ﷺ لما رأىٰ إعراض القوم عن الاستجابة، قال: «اكتموا عني»، وهذا يدلنا علىٰ أن الحكمة تقتضي ألَّا يتحدث الشخص عن كل شيء، بل إن بعض الأمور يكتمها الشخص ويسعىٰ إلىٰ كتمها، وعدم نشرها؛ لما في ذلك من الضرر، وقد روي في ذلك حديث ضعيف، لكن معناه صحيح: «استعينوا علىٰ إنجاح الحوائج بالكتمان؛ فإن كل ذي نعمة محسود»[1]، وإنما طلب كتم إساءتهم له؛ لأن هذا مما يُسَرّ به الأعداء في مكة.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله تعالىٰ- عند تفسير قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ [الكهف:١٩]، ومن الفوائد الحثّ علىٰ التحرُّز، والاستخفاء، والبعد عن مواقع الفتن في الدين، واستعمال الكتمان في ذلك علىٰ الإنسان وعلىٰ إخوانه في الدين[2].

السادسة: أي كرامة حلّت بدار هؤلاء الأكابر من أهل الطائف، جاءتهم في دارهم، ودخلت بيوتهم، ومع ذلك حُرموا منها، أي حسرة وندامة أصابت هؤلاء لاحقًا عندما أدركوا عمق الخطأ الذي وقعوا فيه، وعظمة الخير الذي فاتهم، عندما جاءهم سيد ولد آدم يحمل أعظم وأبرك وأفضل وأسمىٰ رسالة ليكونوا قادة وسادة فيها.

---

(١) أخرجه الطبراني: الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، الطبعة الثانية (الموصل: مكتبة العلوم والحكم ١٤٠٤هـ)، (٢٠/ ٩٤)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٥/ ٢١٥)، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ١٩٥): (رواه الطبراني في الثلاثة وفيه سعيد بن سلام العطار، قال العجلي: لا بأس به، كذّبه أحمد وغيره، وبقية رجاله ثقات؛ إلا أن خالد بن معدان لم يسمع من معاذ)، وقال ابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ١٦٦): «قَالَ مهنا: سَأَلت أَحْمَد بْن حَنْبَلٍ وَيَحْيَى بْن مَعِينٍ عَنْ قَوْلهم «اسْتَعِينُوا على طلب الْحَوَائِجِ بِالْكِتْمَانِ»؛ فَقَالَا: هُوَ مَوْضُوع، وَلَيْسَ لَهُ أصل»، وصححه الألباني في صحيح الجامع وزياداته (١/ ٣٢٠) رقم (٩٥٦). ولما سئل ابن باز عن صحة هذا الحديث قال: «لا، ما هو بحديثٍ، يُروى عن عمر».

(٢) انظر: تفسير السعدي (ص ٤٧٢).

تذكر كتب السير أن هؤلاء القوم الذي رفضوا هذه الدعوة، وأبوا أن يكون قادة فيها، جاءوا بعد الهجرة بسنوات ضمن وفد الطائف مسلمين مبايعين للرسول ﷺ في المدينة. فاسأل الله دائمًا أن يدبّر لك الخير وييسّره لك، ويلطف بك ويلطف لك -سبحانه وتعالىٰ-.

السابعة: لما خرج الرسول ﷺ من الطائف واصطف له سفهاء الطائف يرمونه بالحجارة، كان زيد بن حارثة رضي الله عنه يقي الرسول ﷺ بنفسه، فكانت الحجارة تُصيب زيدًا رضي الله عنه حتىٰ شُجَّ عدة شجاج.

لقد كان زيد رضي الله عنه يقي الرسول ﷺ بنفسه، وأنت وأنا، وإن لم ندرك الرسول ﷺ ونشرف بصحبته والذَّبّ عنه، فإن بإمكاننا أن نسعىٰ إلىٰ أن نَقِي سُنّة رسول الله ﷺ، كان زيد رضي الله عنه يدافع عن الرسول ﷺ، وعلينا اليوم أن ندافع عن سُنة الرسول ﷺ، والدفاع عنها يكون بالمحافظة عليها، والعمل بها، والحرص كل الحرص علىٰ التأسّي به ﷺ، وإحياء سُنته في أمور حياتنا، وتعليمها، والرد علىٰ كل زائغ عنها، أو مبتدع ما ليس منها، أو مثير شبهة بشأنها، ونعلم أن السعادة كل السعادة والفوز كل الفوز في التمسك بهذه السُّنة والعضّ عليها بالنواجذ.

الثامنة: أمَا كان يسع كفار الطائف وكبراؤها، إذا لم يقبلوا هذه الدعوة المباركة، وهذا الخير الذي وصلهم إلىٰ مكانهم أن يردوا ردًّا حسنًا، أو علىٰ الأقل أن يستجيبوا لطلب الكتمان، أو في أدنىٰ الأحوال وآخرها أن يكفُّوا عن الإيذاء المعنوي فلا يستهزؤوا، ولا يأمروا عبيدهم وأطفالهم أن يرموه بالحجارة؟! هل هناك سوء أشد من سوء هذه المعاملة؟ أين أخلاق العرب في شأن الوافد إليهم؟

كنت أفكر كثيرًا في أسباب هذه الصدود من كبار أهل الطائف، عن هذه الخير العظيم الذي نزل بهم، ثم حُرموا منه وواجهوه بهذا الصدود البالغ السوء. فلم أجد جوابًا لذلك؛ سوىٰ أن هذا الدّين فضل الله يختصّ بها من يشاء، قال -تعالىٰ-:

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [آل عمران:٧٣- ٧٤]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم:٤]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ١١]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر:٨]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر:٢٣].. والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة. والغرض من إيراد بعض منها هنا أن نستحضر نعمة الله -جل شأنه- بالهداية للإيمان، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله -عز وجل-، فاستحضِرْ قول الله -تعالىٰ-: ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [ال عمران:٧٤]، وتذكَّر أنك ممن اختص الله برحمته، لمَّا هداك للإيمان فاشكر المنعم وتمسك بالنعمة.

التاسعة: ثم إني وأنا أستحضر خروج الرسول ﷺ من الطائف حزينًا، لا أشك أن حزنه ﷺ الحقيقي في هذا الموقف كان علىٰ أهل الطائف وليس منهم، وكأن لسان حاله يقول: يا ليت قومي يعلمون، فالرسول ﷺ كان خائفًا عليهم كما أنه خائف علينا، أكثر شيء يحزنه أن يأتي من يرفض الإيمان وليس أن يؤذيه أو يضربه، فقد قال الله -سبحانه وتعالىٰ- له: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ [النحل:١٢٧]، وليس ولا تحزن منهم، فإنه كان خائفًا عليهم ﷺ، فقد كان ﷺ رحمة حقيقية للناس، بل للخلق جميعًا.

العاشرة: عندما خرج الرسول ﷺ من الطائف بعدما واجه الأذىٰ منهم، وقد أجهد أيما إجهاد، ونال منه التعب كلّ منال، لجأ إلىٰ ربه، ورفع يديه يدعو كما ورد في كتب السير، وعلينا أن يكون اللجوء إلىٰ الله في الشدائد هو أول أمر نستحضره، والدعاء هو العبادة، وأعظم وأنفع الأسباب المنجية. والدعاء لا ينافي الصبر؛ بل يصبر المسلم علىٰ ما يلاقي ويرفع يديه يرجو الفرج من الله -تعالىٰ-.

الحادية عشرة: الرسول ﷺ لا يتصرف في أمور الدعوة إلا بتوجيه من ربه -سبحانه وتعالىٰ-، والذي يغلب علىٰ الظن أنه ﷺ لم يخرج إلىٰ الطائف إلا بتوجيه من الله -سبحانه وتعالىٰ-، وهو -سبحانه وتعالىٰ- العليم بنتائجها، فلذلك لا يصح مطلقًا أن تحتسب نتائج الدعوة بالموازين البشرية، أو بمقدار عدد من استجاب فيها للرسول ﷺ. ولقد كانت شروط صلح الحديبية في المقاييس البشرية محزنة في أول البديهة لكثير ممن حضرها من المسلمين، ولكن الله -جل شأنه- العليم الخبير سماه فتحًا مبينًا، كما سيأتي. وهكذا الخروج إلىٰ الطائف، فليس المقياس كم عدد من استجاب للرسول ﷺ.

ومن المعلوم أن وظيفة الرسل البلاغ، وأما الهداية فهي بيد الله -سبحانه-؛ قال -تعالىٰ-: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠]، والبلاغ هنا تحقّق لأهل الطائف، وسمع الكثير منهم -خلال عشرة أيام قضاها في الطائف- الدعوة إلىٰ الله، ولا شك أن لذلك أثره علىٰ نفوسهم، وإن لم يظهر فورًا. وكم من شخص آمن بالله بتأثير كلمات سمعها منذ سنوات بقيت تعمل عملها في تفكيره حتىٰ ردته عن ضلالته.

الثانية عشرة: في قبول الرسول ﷺ هدية ابني ربيعة شيبة وعتبة لما بعثا إليه بعنقود العنب نأخذ منه جواز قبول هدية الكافر واستعمالها؛ حيث أكل الرسول ﷺ قطف العنب الذي بعثوا به إليه[1].

وعموما فالأصل هو قبول الهدية، وعن هشام بن عروة عن أبيه -رضي الله تعالىٰ عنهم- عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: (كان رسول الله ﷺ يقبل

---

(١) انظر: عبد الرحمن بن قاسم ، الدرر السنية (٧/ ٨٣)، (الرياض: د. ن ١٤١٤هـ)، الطبعة الخامسة.

الهدية ويثيب عليها)[1]. وهذا إذا لم يترتب علىٰ الهدية شر علىٰ المسلم؛ بأن يترتب عليها محبة للكافر، أو استمالته إلىٰ باطله[2]، أو علوّه علىٰ المسلم، أو يؤذيه الكافر بها لاحقًا، ونحو ذلك، وقد ورد أن النبي ﷺ رد هدية المشرك[3].

وقد يكون للشخص جيران ونحوهم من غير المسلمين فيجوز أكل هديتهم بشرط أن لا تكون مما ذُبِحَ لعيدهم، قال ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (وأما قبول الهدية منهم يوم عيدهم، فعن علي رضي الله عنه أنه أتي بهدية النيروز فقبلها)[4]. وعن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: (أما ما ذبح لذلك اليوم فلا تأكلوا، ولكن كلوا من أشجارهم)[5]. وعن أبي برزة -رضي الله تعالىٰ عنه-: كان مجوس يهدون له في النيروز والمهرجان، فيقول لأهله[6]: (ما كان من فاكهة فكلوه وما كان من غير ذلك فردوه)[7].

(١) صحيح البخاري (٣/ ١٥٧) رقم (٢٥٨٥).

(٢) قال بعض العلماء: إنما رد سليمان -عليه السلام- هدية ملكة اليمن؛ لأن فيها سعيًا لاستمالته لكي يسكت عنها ويتركها. قال -تعالى-: ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ [النمل:٣٥]، قال ابن كثير -رحمه الله تعالى-: (﴿ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾ أي: أتصانعونني بمال لأتركَكم على شرككم وملككم؟!) تفسير ابن كثير (٦/ ١٩١).

(٣) أخرج الترمذي في سننه عن عياض بن حمار أنه أهدى للنبي ﷺ هدية له أو ناقة فقال النبي ﷺ: «أسلمت؟» قال: لا. قال. «فإني نهيت عن زبد المشركين» قال أبو عيسى: (هذا حديث حسن صحيح، ومعنى قوله: «إني نهيت عن زبد المشركين»؛ يعني هداياهم. وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه كان يقبل من المشركين هداياهم، وذكر في هذا الحديث الكراهية، واحتمل أن يكون هذا بعد ما كان يقبل منهم، ثم نهى عن هداياهم). ا.هـ. قال الألباني: حسن صحيح. وقال ابن حجر في الجمع بين قبول هدية المشرك وردها بعد أن ذكر أقوالًا في المسألة: (الامتناع في حق من يريد بهديته التودد والموالاة، والقبول في حق مَن يُرجى بذلك تأنيسه وتأليفه على الإسلام وهذا أقوى).

(٤) البيهقي، السنن الكبرى (٩/ ٣٩٢) رقم (١٨٨٦٥).

(٥) ابن أبي شيبة، المصنف (٥/ ١٢٦) رقم (٢٤٣٧١).

(٦) ابن أبي شيبة، المصنف (٥/ ١٢٦) رقم (٢٤٣٧٢).

(٧) انظر: ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٥١-٥٢) مختصرًا.

ويفرق بعض العلماء بين الأعياد الدينية، فينهىٰ عن هداياهم فيها، أما أعيادهم الدنيوية كالزواج وأفراحهم التي لا ترتبط بمناسبة دينيهم فيُجيزها. وهذا أقرب للسلامة وصلاح القلب، والله أعلم.

الثالثة عشرة: في قصة الرسول ﷺ مع عداس عدة فوائد؛ منها:

أ. إن الرسول ﷺ لا يحقر أحدًا في تبليغه رسالة ربه[1]، فقد دعا الغلام النصراني «عداس» إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-، وحاوره حتىٰ أسلم كما يظهر من الحوار الذي أوردته كتب السير[2].

ب. إن سبب إسلام عداس، بل بداية الحوار كان بسبب قول الرسول ﷺ: «بسم الله» عندما أراد الأكل، وهكذا المسلم يدعو إلىٰ الله -سبحانه- بعمله كما يدعو بقوله، ويحرص علىٰ الالتزام بالآداب الإسلامية، لنفسه وتعليمًا ودعوة لغيره، وليعلم أن سلوكه مُؤثِّر خيرًا أو شرًّا.

ت. إن عداس لما عرف الرسول ﷺ أكبَّ عليه يُقبّل رأسه ويديه ورِجْليه، فهو غلام نصراني مُطّلع علىٰ الكتب[3] يعرف الرسول ومنزلته، وهو درسٌ لنا في توقير الرسول ﷺ. وتوقيره ﷺ اليوم يكون باتباع سنته والعمل بها، والدعوة إليها، وعدم معارضتها بالآراء والعقول.

يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (رأس الأدب مع الرسول ﷺ كمال التسليم له، والانقياد لأمره، وتلقّي خبره بالقبول والتصديق، دون أن يحمله معارضة خيال

(١) انظر: النجم عمر بن فهد، إتحاف الورى (١/ ٣١٢)، والبيهقي، دلائل النبوة (٢/ ٤١٦).
(٢) انظر: ابن حجر، الإصابة (٤/ ٢٢٧)، فقد نقل عن التيمي في السيرة أنه قال للنبي ﷺ: (أشهد أنك عبد الله ورسوله)، والقسطلاني، المواهب اللدنية (١/ ٢٦٩)، وقال: (فأكب عداس على يديه ورأسه ورجليه يقبلها وأسلم)، ومهدي رزق الله، السيرة النبوية (ص ٢٣٢، هامش) رقم (٢).
(٣) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٢/ ١٥)، وابن حجر، الإصابة (٤/ ٢٢٧).

باطل، يسميه معقولًا، أو يحمله شبهة أو شكًا، أو يقدم عليه آراء الرجال، وزبالات أذهانهم، فيوحده بالتحكيم والتسليم، والانقياد والإذعان، كما وحد المرسل -سبحانه وتعالىٰ- بالعبادة والخضوع والذل، والإنابة والتوكل)[1].

الرابعة عشرة: في موقف الرسول ﷺ بعد خروجه من الطائف ومجيء جبريل -عليه السلام- ومعه ملك الجبل نستفيد ما يلي:

١) إكرام الله -سبحانه وتعالىٰ- لنبيه ﷺ، فقد أذن الله -تعالىٰ- لملك الجبال أن لو شاء النبي ﷺ أن يُطبق علىٰ أهل مكة جبليها لفعل، فأعظم بها من منزلة رفيعة للنبي ﷺ[2].

٢) من قول الرسول ﷺ لملك الجبال، يتَّضح لنا الهدف الذي يسعىٰ إليه الرسول ﷺ، وهو هداية الناس وإخراجهم من ظلمات الشرك إلىٰ نور التوحيد، أما الانتقام ممن اعتدىٰ عليه وآذاه فلم يكن يلتفت إلىٰ ذلك، إذ لو كان هذا غاية عند الرسول ﷺ لبادر إلىٰ طلب هلاكهم عندما عرض عليه ملك الجبال ذلك بأمر الله -سبحانه وتعالىٰ-. والرسول ﷺ قدوتنا في الرحمة بالناس والتحمل منهم والسعي إلىٰ هدايتهم، ولو آذونا أشد الأذىٰ.

الخامسة عشرة: في طريق عودة الرسول ﷺ مهمومًا نجده ﷺ يلتجئ إلىٰ ربه ويقوم الليل يصلي ويتلو كتاب الله -سبحانه وتعالىٰ-، لقد قام ﷺ يصلي وهو في سفر وعناء ومشقة وإيذاء، وهذا يدعونا إلىٰ أن نتذكر قيام الليل، فلا نغفل عنه، والله -سبحانه وتعالىٰ- يقول: ﴿ **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا** ﴾ [الأحزاب:٢١]، وقيام الليل شرف المؤمن، يقول

(١) ابن القيم، مدارج السالكين ، تحقيق محمد البغدادي، الطبعة الثالثة (بيروت، دار الكتاب العربي ١٤١٦)، (٢/ ٣٦٥).

(٢) انظر: الأصبهاني، دلائل النبوة (٣/ ٨٩٧)، الهامش تعليق المحقق الحميد.

الرسول ﷺ في الحديث الحسن الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه أن جبريل -عليه السلام- قال للرسول ﷺ: «يا محمد شرف المؤمن قيام الليل»[1].

السادسة عشرة: إن الرسول ﷺ رغم ما واجهه من أذىٰ في مكة والطائف وما لاقاه من عنت، ومع ذلك يقول لزيد -رضي الله تعالىٰ عنه- كما روت ذلك كتب السير: «إن الله جاعل لما ترىٰ فرجًا ومخرجًا، وإن الله مظهر دينه وناصر نبيه»، فالمؤمن لا يعرف اليأس، ولا يصيبه الإحباط، يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (وهذا المذهب المهين وهو التشاؤم والكسل لا يعرفه الإسلام ولا يرتضيه، بل يحذر منه أشد تحذير ويبين للناس أن النجاح مأمول، وأن مع العسر يسرًا، وأنه سيجعل الله بعد عسر يسرًا، ويبين أنه لا أضر عليهم من اليأس والقنوط)[2].

السابعة عشرة: عاد الرسول ﷺ من الطائف وأمامه ثلاثة خيارات:

الخيار الأول هو استئصال المشركين في مكة، وهذا الخيار عرَضه عليه مَلك الجبال.

والخيار الثاني: عدم دخول مكة والبحث عن مكان آخر غير مكة، وهذا الخيار عرضه عليه رفيق رحلته زيد بن حارثة -رضي الله تعالىٰ عنه-.

والخيار الثالث: العودة ودخول مكة والإصرار علىٰ المضي في هذا الطريق، فإن لم يهتدِ هؤلاء، فسيأتي الله بالفرَج، ولينصرن الله دينه، وإن لم يدخل فيه هؤلاء فالمرجو أن يدخله جيل قادم يخرجه الله من أصلابهم.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٢٥)، وصححه، ولم يتعقبه الذهبي في التلخيص، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته (٣/ ٢٢٩) رقم (٣٦٠٤).

(٢) الشيخ السعدي، الجهاد في سبيل الله (ص ١٧٣)، مطبوع ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن السعدي، القسم الخامس، الجزء الأول.

وقد اختار الرسول ﷺ هذا الخيار الثالث، وبحث عن طريقة للدخول آمنة، فلجأ إلىٰ الاستفادة من الدخول بالجوار والتي تُهّيئ له الدخول الآمن، وتجعل موقف قريش منقسمًا إلىٰ قسمين؛ مجير، وصامت.

الثامنة عشرة: حِفْظ الرسول ﷺ للجميل، وحرصه علىٰ الوفاء؛ فقد حفظ الرسول ﷺ للمطعم موقفه وعونه للرسول ﷺ في دخول مكة، وذكر له هذا الموقف يوم انتصر علىٰ الكفار في بدر، وأخذ الأسرىٰ معه، وأخبر أن المطعم -وهو مشرك- لو كان حيًّا، وطلب منه ترك هؤلاء الأسرىٰ لأطلقهم لأجله، والوفاء وحفظ الجميل من شِيَم الرجال الكرام، والرسول ﷺ يقول: «مَن لا يشكر الناس لا يشكر الله»[1].

(١) أخرجه الترمذي في سننه، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذى (٢/ ١٨٥)، حديث رقم (١٥٩٢) عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-.

الفصل الرابع

فقه السيرة من قول الله -تعالىٰ-:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾

إلىٰ قوله -تعالىٰ-:

﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾

مقدمة

يبدأ هذا الفصل الرابع من الكتاب من حادثة الإسراء والمعراج، والتي نزل بشأنها القرآن الكريم -كما سيأتي-، وكانت في السنة العاشرة من البعثة النبوية الشريفة.

ثم تحدث الفصل عن توسيع دائرة الدعوة إلىٰ الله -جل شأنه-؛ حيث نشط الرسول ﷺ أكثر في دعوة الأفراد من خارج مكة، وعرض نفسه علىٰ القبائل العربية التي تَفِد إلىٰ مكة في المواسم.

وقد أثمر هذا العرض قبول بعض قبائل الأوس والخزرج؛ فكانت بيعة العقبة الأولىٰ ثم الثانية، وبعدها يسَّر الله -سبحانه وتعالىٰ- فَرَجًا وبلدًا للمؤمنين يأمنون فيه علىٰ أنفسهم، هذا البلد قريب من مكة، وهو المدينة؛ فبدأ الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم؛ بتوجيه من الرسول ﷺ- الهجرة إلىٰ المدينة، فكان أول مهاجر إليها أبو سلمة -رضي الله تعالىٰ عنه-، ثم توالىٰ هجرة الصحابة -رضوان الله تعالىٰ عنهم-. وكان هذا تمهيدًا للهجرة الكبرىٰ هجرة الرسول ﷺ، كما سيأتي في الفصل الخامس -إن شاء الله تعالىٰ-.

المبحث الأول

فقه السيرة في الإسراء والمعراج

قال -تعالىٰ-: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:١]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم:١٨]؛ كانت الآيات الأولىٰ تتحدث عن الإسراء، فيما كانت الآيات الثانية تشير إلىٰ المعراج. أما تفاصيل الحديث عنهما فقد بيّنته السنة.

والإسراء: أصله مأخوذ من سرىٰ: أي سار في الليل، والمقصود تلك الرحلة العظيمة المباركة التي سرىٰ فيها الرسول ﷺ بصحبة جبريل -عليه السلام- بلطف من الله وتكريم، من مكة إلىٰ المسجد الأقصىٰ.

والمعراج: والعروج: الصعود، عرج يعرج عروجًا، ومنه المعراج. وهو بالكسر شبه السلم، مفعال، من العروج: الصعود، كأنه آلة له[1].

والمراد هنا: العروج بالرسول ﷺ من المسجد الأقصىٰ إلىٰ السموات السبع إلىٰ ما شاء الله -جل شأنه- فوق ذلك.

عن أنس بن مالك، -رضي الله تعالىٰ عنه- عن مالك بن صعصعة -رضي الله تعالىٰ عنه-، أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به قال: «بينما أنا في الحطيم، -وربما قال: في الحِجْر- مضطجعًا إذ أتاني آتٍ، فَقَدَّ، قال: وسمعته يقول: فَشَقَّ ما

(١) انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث (٣/ ٢٠٣).

بين هذه إلىٰ هذه -فقلت للجارود وهو إلىٰ جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلىٰ شعرته، وسمعته يقول: من قصه إلىٰ شعرته- فاستخرج قلبي، ثم أُتِيت بطست من ذهب مملوءة إيمانًا، فغسل قلبي، ثم حُشي ثم أُعيد، ثم أُتيت بدابة دون البغل، وفوق الحمار أبيض، -فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم- يضع خطوه عند أقصىٰ طرفه، فحُملت عليه...)[1].

وعن أنس -رضي الله تعالىٰ عنه- أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «أُتِيت بالبراق، وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار، ودون البغل، يضع حافره عند منتهىٰ طرفه»، قال: «فركبته حتىٰ أتيت بيت المقدس»، قال: «فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء»، قال: «ثم دخلت المسجد، فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءني جبريل -عليه السلام- بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل ﷺ: اخترت الفطرة، ثم عُرج بنا إلىٰ السماء فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بآدم، فرحَّب بي، ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلىٰ السماء الثانية، فاستفتح جبريل -عليه السلام-، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة عيسىٰ ابن مريم، ويحيىٰ بن زكريا -صلوات الله عليهما-، فرحَّبا ودعوا لي بخير، ثم عُرج بي إلىٰ السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف ﷺ، إذا هو قد أُعطي شطر الحسن، فرحَّب ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلىٰ السماء الرابعة، فاستفتح جبريل -عليه السلام-، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قال: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإدريس، فرحب

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ٥٢) رقم (٣٨٨٧). واللفظ له، ومسلم (١/ ١٤٩) رقم (١٦٤).

ودعا لي بخير، قال الله -عز وجل-: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]، ثم عرج بنا إلىٰ السماء الخامسة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ فقال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بهارون ﷺ، فرحَّب، ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلىٰ السماء السادسة، فاستفتح جبريل -عليه السلام-، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بموسىٰ ﷺ، فرحب ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلىٰ السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم ﷺ مسندًا ظهره إلىٰ البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلىٰ السدرة المنتهىٰ، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال»، قال: «فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيَّرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحىٰ الله إليَّ ما أوحىٰ، ففرض عليَّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلىٰ موسىٰ ﷺ، فقال: ما فرض ربك علىٰ أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع إلىٰ ربك فاسأله التخفيف، فإن أُمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم». قال: «فرجعت إلىٰ ربي، فقل: يا رب، خفِّف علىٰ أمتي، فحطَّ عني خمسًا، فرجعت إلىٰ موسىٰ، فقلت: حط عني خمسًا، قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلىٰ ربك فاسأله التخفيف»، قال: «فلم أزل أرجع بين ربي -تبارك وتعالىٰ-، وبين موسىٰ -عليه السلام- حتىٰ قال: يا محمد، إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فذلك خمسون صلاة، ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة، فإن عملها كُتبت له عشرًا، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها لم تُكتب شيئًا، فإن عملها كُتبت سيئة واحدة»، قال: «فنزلت حتىٰ انتهيت إلىٰ موسىٰ ﷺ، فأخبرته، فقال: ارجع إلىٰ ربك فاسأله التخفيف»، فقال رسول الله ﷺ:

«فقلت: قد رجعت إلىٰ ربي حتىٰ استحييت منه»[1].

وقد صلىٰ النبي ﷺ بالأنبياء في المسجد الأقصىٰ إمامًا لهم؛ عن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «فحانت الصلاة فأممتهم»[2].

وعن أنس -رضي الله تعالىٰ عنه- عن مالك بن صعصعة -رضي الله تعالىٰ عنه-، وفيه «فانطلق بي جبريل حتىٰ أتىٰ السماء الدنيا فاستفتح، فقيل من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أُرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء ففتح، فلما خلصت فإذا فيها آدم، فقال: هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحبًا بالابن الصالح، والنبي الصالح، ثم صعد بي حتىٰ أتىٰ السماء الثانية...»[3]. وكلهم -كما في بقية الحديث- يبدأ بالسلام ثم التحية.

وعن ابن شهاب الزهري -رحمه الله تعالىٰ-، قال: وأخبرني ابن حزم، أن ابن عباس، وأبا حية الأنصاري -رضي الله عنهم- كانا يقولان: قال النبي ﷺ: «ثم عرج بي، حتىٰ ظهرت لمستوىٰ أسمع صريف الأقلام»[4]. قال ابن حزم، وأنس بن مالك رضي الله عنهما، قال النبي ﷺ: «... ثم انطلق حتىٰ أتىٰ بي سدرة المنتهىٰ، فغشيها ألوان لا أدري ما هي. ثم أُدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك»[5].

---

(١) صحيح مسلم (١/ ١٤٥) رقم (١٦٢). وأخرجه البخاري (٤/ ١٠٩) رقم (٣٢٠٧)، ومسلم (١/ ١٤٩) رقم (١٦٤) باختلاف يسير عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة.

(٢) صحيح مسلم (١/ ١٥٦) رقم (١٧٢).

(٣) صحيح البخاري (٥/ ٥٢) رقم (٣٨٨٧).

(٤) قال النووي في شرح صحيح مسلم (٢/ ٢٢١): (وصريف الأقلام بالصاد المهملة تصويتها حال الكتابة، قال الخطابي هو صوت ما تكتبه الملائكة من أقضية الله -تعالى- ووحيه وما ينسخونه من اللوح المحفوظ، أو ما شاء الله -تعالى- من ذلك أن يُكتب ويُرفع لما أراده من أمره وتدبيره).

(٥) صحيح البخاري (٤/ ١٣٥) رقم (٣٣٤٢)، وصحيح مسلم (١/ ١٤٨) رقم (١٦٣).

وعن أنس بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه-، عن النبي ﷺ قال: «بينما أنا أسير في الجنة، إذا أنا بنهر، حافتاه قباب الدر المجوف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر، الذي أعطاك ربك»(١). قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (قوله «بينا أنا أسير في الجنة»، تقدم في تفسير سورة الكوثر أن ذلك كان ليلة أسري به)(٢).

وعن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: (قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أُسري بي علىٰ موسىٰ بن عمران -عليه السلام-، رجل آدم طوال جعد كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسىٰ ابن مريم مربوع الخلق إلىٰ الحمرة والبياض، سبط الرأس»، وأري مالكًا خازن النار، والدجال.... في آيات أراهن الله إياه)(٣).

وعن أنس بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت -وفي رواية هداب: مررت- علىٰ موسىٰ ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر، وهو قائم يصلي في قبره»(٤).

وعن ابن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «لقيت إبراهيم ليلة أسري بي فقال: يا محمد! أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»(٥).

وكان الإسراء ببدنه وروحه يقظةً لا منامًا، والدليل علىٰ هذا قوله -تعالىٰ-: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]؛ فالتسبيح إنما يكون عند الأمور

(١) صحيح البخاري (٨/ ١٢٠) رقم (٦٥٨١).
(٢) فتح الباري (١١/ ٤٧٣).
(٣) صحيح مسلم (١/ ١٥١) رقم (١٦٥).
(٤) صحيح مسلم (٤/ ١٨٤٥) رقم (٢٣٧٥).
(٥) سنن الترمذي (٧/ ٤٦٢) رقم (٣٤٦٢)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ابن مسعود»، وحسنه الألباني.

العظام، ولو كان منامًا، لم يكن فيه كبير شيء، ولم يكن مستعظمًا، ولم ينكره كفار قريش[1].

وفي تلك الليلة رأىٰ بعض الآيات؛ منها ما رواه البيهقي -رحمه الله تعالىٰ- في الدلائل، وفيها (فسار وسار معه جبريل -عليه السلام-، فأتىٰ قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، فقال: يا جبريل! من هؤلاء؟ قال: هؤلاء المهاجرون في سبيل الله يضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾. ثم أتىٰ علىٰ قوم ترضخ رؤوسهم بالصخر كلما رضخت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شيئا، فقال: يا جبريل! من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة، قال: ثم أتىٰ علىٰ قوم علىٰ أقبالهم رقاع وعلىٰ أدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الأنعام، عن الضريع والزقوم، ورضف جهنم وحجارتها، قال: ما هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم. وما ظلمهم الله وما الله بظلام للعبيد، ثم أتىٰ علىٰ قوم بين أيديهم لحم في قدر نضج طيب ولحم آخر خبيث، فجعلوا يأكلون من الخبيث، ويدعون النضج الطيب. فقال: يا جبريل: من هؤلاء؟ قال: هذا الذي يقوم وعنده امرأة حلالًا طيبًا فيأتي المرأة الخبيثة فتبيت معه حتىٰ يصبح... ثم مر علىٰ رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها وهو يريد أن يزيد عليها، قال: يا جبريل! ما هذا؟ قال: هذا رجل من أمتك عليه أمانة لا يستطيع أداءها وهو يزيد عليها. ثم أتىٰ علىٰ قوم تُقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت ولا يفتر عنهم من ذلك شيء، قال: يا جبريل! من هؤلاء؟ قال: هؤلاء خطباء الفتنة»[2].

---

(١) انظر: الطبري، تفسير الطبري (١٤/ ٤٤٦)، وابن كثير، تفسير ابن كثير (٥/ ٤٣).
(٢) البيهقي، دلائل النبوة (٢/ ٣٩٨). وابن حجر، فتح الباري (٧/ ٢٠٠).

ومنها ما رواه الإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ- في مسنده عن سمرة بن جندب -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال نبي الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي رجلًا يسبح في نهر ويُلقَم الحجارة، فسألت ما هذا، فقيل لي: آكل الربا»[١].

وعن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كان ليلة أُسري بي، وأصبحت بمكة، فظعت بأمري[٢]، وعرفت أن الناس مكذبي»؛ فقعد معتزلًا حزينًا، قال: فمر به عدو الله أبو جهل، فجاء حتىٰ جلس إليه، فقال له كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم» قال: ما هو؟ قال: «إنه أُسري بي الليلة»، قال: إلىٰ أين؟ قال: «إلىٰ بيت المقدس؟» قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: «نعم» قال: فلم يُره أنه يكذبه، مخافة أن يجحده الحديث إن دعا قومه إليه، قال: أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتني؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم». فقال: هيا معشر بني كعب بن لؤي. حتىٰ قال: فانتفضت إليه المجالس،

(١) مسند الإمام أحمد (٣٣/ ٢٩٣-٢٩٤) رقم (٢٠١٠١)، تحقيق شعيب الأرناؤوط وزملاؤه: وقال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد قوي، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبد الوهاب -وهو ابن عطاء الخفاف- فمن رجال مسلم، وهو صدوق لا بأس به. عوف: هو ابن أبي جميلة الأعرابي، وأبو رجاء: هو عمران بن ملحان العطاردي. وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٥٠٩) من طريق عبد الوهاب بن عطاء، بهذا الإسناد. قلنا: كذا قال عبد الوهاب بن عطاء عن عوف بن أبي جميلة: «رأيت ليلة أسري بي»، وهو مما تفرد به عبد الوهاب، فقد رواه أصحاب عوف عنه، فلم يذكروا أن ذلك كان في ليلة الإسراء، بل هي رؤيا رآها النبي ﷺ في منامه. والحديث قطعة من حديث طويل برقم (٢٠٠٩٤). وهو في شعب الإيمان للبيهقي، تحقيق وتخريج الأحاديث عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، الطبعة الأولى، (الرياض: مكتبة الرشد ١٤٢٣)، (٧/ ٣٥٨) رقم (٥١٢١)، وقال المحقق: «إسناده: رجاله ثقات. عوف: هو الأعرابي. أبو رجاء العطاردي هو: عمران بن ملحان. والحديث أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ١٠) بنفس الإسناد».

(٢) قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث (٣/ ٤٥٩): «فظعت بأمري: أي اشتد عليَّ وَهِبْته».

وجاءوا حتىٰ جلسوا إليهما، قال: حَدِّث قومك بما حدثتني. فقال رسول الله ﷺ: «إني أُسري بي الليلة»، قالوا: إلىٰ أين؟ قال: «إلىٰ بيت المقدس» قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: «نعم» قال: فمن بين مصفّق، ومن بين واضع يده علىٰ رأسه، متعجبًا للكذب. زعم! قالوا: وهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد؟ وفي القوم من قد سافر إلىٰ ذلك البلد، ورأىٰ المسجد، فقال رسول الله ﷺ: «فذهبت أنعت، فما زلت أنعت حتىٰ التبس عليَّ بعض النعت»، قال: «فجيء بالمسجد وأنا أنظر حتىٰ وُضِعَ دون دار عقال أو عقيل فنعته، وأنا أنظر إليه»، قال: «وكان مع هذا نعت لم أحفظه»، قال: فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب[(١)].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لما كذبتني قريش، قمت في الحجر، فجلا الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه»[(٢)].

يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (فلما أصبح رسول الله ﷺ في قومه أخبرهم بما أراه الله -عز وجل- من آياته الكبرىٰ؛ فاشتد تكذيبهم له، وأذاهم، وضراوتهم عليه،.... وأخبرهم عن عِيرهم في مسراه ورجوعه، وأخبرهم عن وقت قدومها،

---

(١) مسند الإمام أحمد (٥/ ٢٨-٢٩) رقم (٢٨١٩). وقال محققوه: «إسناده صحيح على شرط الشيخين. روح: هو ابن عبادة، وعوف: هو ابن أبي جميلة الأعرابي العبدي البصري. وأخرجه البزار (٥٦- كشف الأستار) من طريق محمد بن جعفر وحده، بهذا الإسناد». وقال محقق المسند أحمد شاكر (٤/ ٢٩٣) رقم (٢٨٢٠): «إسناده صحيح وهو عند الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٦٤- ٦٥) وقال: (رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط، ورجاله رجال الصحيح). وأخرجه ابن أبي شيبة (١١/ ٤٦١-٤٦٢)، والنسائي في «الكبرى» (١١٢٨٥)، والطبراني (١٢٧٨٢)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٦٣-٣٦٤ و٣٦٤) من طرق عن عوف ابن أبي جميلة، به «وقال ابن حجر في الفتح (٧/ ١٩٩): «وفي حديث ابن عباس عند أحمد والبزار بإسناد حسن قال...» وذكر الحديث.

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري (٥/ ٥٢) رقم (٣٨٨٩)، وصحيح مسلم (١/ ١٥٦) رقم (١٧٠).

وأخبرهم عن البعير الذي يقدمها وكان الأمر كما قال؛ فلم يزدهم ذلك إلا نفورًا، وأبىٰ الظالمون إلا كفورًا)[١].

وإن كان هذا موقف الكفار من حادث الإسراء والمعراج، فقد ذُكر أن أناسًا ارتدوا، ممن كانوا ضعفاء الإيمان[٢].

وثبَّت الله -جل شأنه- علىٰ الإيمان الفئة الراسخة في إيمانها يتقدّمهم أبو بكر الصديق ﷺ، فإنه لما بلغه الخبر صدَّق دون تردد، فعن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: (لما أسري بالنبي ﷺ إلىٰ المسجد الأقصىٰ أصبح يتحدّث الناس بذلك، فارتدَّ ناس ممن كان آمنوا به وصدَّقوه وسعوا بذلك إلىٰ أبي بكر الصديق ﷺ، فقالوا: هل لك إلىٰ صاحبك يزعم أنه أُسْرِيَ به الليلة إلىٰ البيت المقدس؟ قال: أَوَ قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلىٰ بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدّقه بخبر السماء في غدوة أو روحة، فلذلك سُمي أبو بكر الصديق)[٣].

يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- ـ: (وقد اختلف السلف بحسب اختلاف الأخبار الواردة (في الإسراء والمعراج؛ فمنهم من ذهب إلىٰ أن الإسراء والمعراج

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٣٩).

(٢) انظر: ابن كثير، تفسير ابن كثير (٣/ ٢٣)، والقاضي عياض، الشفا (٢/ ١٢٧)، وأكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٩٢)، وقال: (وقد صح أن بعض المسلمين ارتدوا). ولولا هذه الرواية لأمكن القول باستبعاد ارتداد أحد ممن أسلم؛ لأن الإسلام في ذلك الوقت كان محاربًا غاية المحاربة فلم يدخل في الإيمان إلا من كان قويّ الإيمان صادقًا فيه، وقد لقي الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- صنوفًا من العذاب والإيذاء، ولم يُذكر أن أحدًا منهم ارتد، فكيف يرتد لمجرد خبر قاله لهم الرسول ﷺ. ولم تذكر كتب السيرة تسمية ولو شخص واحد ارتد بسبب حادثة الإسراء، ولو وُجد لذُكِرَ. والله أعلم.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ولم يتعقبه الذهبي في التلخيص.

وقعًا في ليلة واحدة في اليقظة بجسد النبي ﷺ وروحه بعد المبعث، وإلىٰ هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين، وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة، ولا ينبغي العدول عن ذلك)[1].

أما رؤية النبي ﷺ للأنبياء ليلة الإسراء، فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (وأما رؤيته أي موسىٰ -عليه السلام- ورؤية غيره من الأنبياء ليلة المعراج في السماء لما رأىٰ آدم في السماء الدنيا، ورأىٰ يحيىٰ وعيسىٰ في السماء الثانية، ويوسف في الثالثة، وإدريس في الرابعة، وهارون في الخامسة، وموسىٰ في السادسة، وإبراهيم في السابعة أو بالعكس، فهذا رأىٰ أرواحهم مصورة في صور أبدانهم)[2].

قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (فصعد من سماء إلىٰ سماء في المعراج، حتىٰ جاوز السابعة، وكلما جاء سماء تلقته منها مقرّبوها ومن فيها من أكابر الملائكة والأنبياء. وذكر أعيان من رآه من المرسلين، كآدم في سماء الدنيا، ويحيىٰ وعيسىٰ في الثانية، وإدريس في الرابعة، وموسىٰ في السادسة علىٰ الصحيح، وإبراهيم في السابعة مسندًا ظهره إلىٰ البيت المعمور)[3].

وخبر الإسراء والمعراج مما تعددت فيه الروايات، مع اشتمال كل رواية علىٰ زيادة أو نقص عن الأخرىٰ، واكتفيت منها بما بدا لي أنه الأهم في الموضوع مما غالبه من الحديث الصحيح، وفيه مما اشتهر في كتب السير والدلائل.

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ١٩٧).

(٢) ابن تيمية، الفتاوى (٤/ ٣٢٨)، وانظر: ابن حجر، فتح الباري (٣/ ٤١٤).

(٣) ابن كثير، السيرة النبوية (٢/ ٩٩)، وهذا أحسن توجيه لذكر هؤلاء الأنبياء فقط دون غيرهم. مع أنه لم يذكر السماء الثالثة والخامسة.

نقف مع خبر الإسراء والمعراج؛ لنستفيد منه الفوائد التالية:

الأولىٰ: كانت حادثة الإسراء والمعراج معجزة باهرة، ومعلمة للنبوة جلية ظاهرة، وهي من خصوصيات نبينا محمد ﷺ، فلم يقع لغيره من الأنبياء والرسل مثلها أو شبيه بها حسب قول علمائنا[١]، وهي من الآيات المكية التي وقعت للنبي ﷺ قبل الهجرة، والمتتبع لسيرة النبي ﷺ يرىٰ أن ثمة أحوالًا أليمة وحوادث قد سبقت الإسراء والمعراج، فموت عمه أبي طالب الذي كان حصنًا له أمام الكفار وناصرًا، وموت زوجته خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- أم المؤمنين، التي كانت الزوجة الوفية، سكن النبي ﷺ، وأيضًا هجرة من هاجر من أصحابه إلىٰ الحبشة فرارًا بدينهم، وخروجه ﷺ إلىٰ الطائف[٢]؛ داعيًا أهلها للإيمان والإسلام ونصرة الدين، فما كان منهم إلا أن رفضوه وما جاء به، فلما اجتمعت هذه الصعاب أكرمه الله -تبارك وتعالىٰ- بالمعجزة الساطعة والمكرمة الناصعة: الإسراء والمعراج[٣].

الثانية: كان زمن الإسراء والمعراج في وقت عصيب جدًّا من زمن الدعوة، فجاء الاحتفاء الرباني، بالنبي الكريم بأجلىٰ وأعظم صوره، وفي أحوج ما يكون إليه الرسول ﷺ كمثل الماء البارد السلسبيل، علىٰ الظمأ.

الثالثة: عندما نرىٰ مرور النبي ﷺ بالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وتجاوزه لمنازلهم؛ ندرك شيئًا من منزلة نبينا محمد ﷺ ورفعة درجته وبيان فضله، قال النووي

---

(١) انظر: ابن تيمية، الجواب الصحيح (٤/ ١٦٥)، والقسطلاني، المواهب اللدنية (٣/ ١٥)، والنووي، شرح صحيح مسلم (٢/ ٢٢١).

(٢) هذا الذي جرى عليه ابن القيم (٣/ ٣١ و٣٤) وغيره، وهو الذي مال إليه المباركفوري في الرحيق المختوم بعد عرضه للخلاف (ص ١٥٥) أن الخروج إلى الطائف سابق للإسراء، وفي المسألة خلاف أشار إليه ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ١٠٨) وغيره.

(٣) انظر: مساعد الحميد، دلائل النبوة للأصبهاني (١/ ٢٥٨ - ٢٥٩)، (تعليق المحقق).

-رحمه الله تعالىٰ-: (قال القاضي -رحمه الله تعالىٰ-[1]: وفي علو منزلة نبينا ﷺ وارتفاعه فوق منازل سائر الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- وبلوغه حيث بلغ من ملكوت السماوات دليل علىٰ علو درجته وإبانة فضله)[2].

الرابعة: عندما نقرأ ما جرىٰ في الإسراء والمعراج، ونرىٰ هذه المنزلة العظيمة للرسول ﷺ في الملأ الأعلىٰ، نسأل أنفسنا. ماذا قدمنا للرسول ﷺ، وهل عظّمناه، وهل وقَّرناه، كأنني عندما أستحضر صورة هذا السرور والتكريم والاحتفاء في الملأ الأعلىٰ من الرسل والملائكة، أقول في نفسي: هذا تعليم عملي لنا بمكانة الرسول ﷺ عند ربه، وفي الملأ، وفي الأرض.

فيا أهل الأرض من المؤمنين! ماذا فعلتم مع الرسول ﷺ، وأنتم ترون كيف الاحتفاء به في السماء؟ إن لم نتأسَّ بأولئك فقد قصرنا تقصيرًا بيِّنًا، وكما نُقل لنا صورة هذا التكريم، فقد جاءت آية كريمة تُصوِّر جانبًا من جوانب هذا التوقير العظيم للرسول ﷺ من ربه -جل شأنه- والملائكة الكرام، ثم تبعها أمر للأمة بأن تفعل ذات الفعل مع الرسول ﷺ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦]؛ فعلىٰ قدر فهمي المتواضع، فإني أفهم من حادثة الإسراء والمعراج مثل ما أفهمه من هذه الآية الكريمة، لا فارق بينهما سوىٰ أن الإسراء والمعراج أمر لنا بصورة عملية، والآية أمر لنا بنص قرآني مباشر، وكلاهما تصبّ في معنًىٰ واحد، يا أيها الأمة المباركة، إن الله ورسله وملائكته يوقرون هذا النبي العظيم، فوَقِّروه، وعظِّموه واعرفوا حقه ﷺ.

الخامسة: إن حادثة الإسراء والمعراج تُذكّر بما طلبه خليل الرحمن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- عندما قال كما أخبرنا ربنا -سبحانه وتعالىٰ- في كتابه

(١) الظاهر أنه هو القاضي أبو محمد (وأبو علي) الحسين بن محمد بن أحمد المَرْوَرُّوْذِيّ (ت ٤٦٢) الفقيه الشافعي المعروف بالقاضي، صاحب التعليقة في الفقه.
(٢) شرح صحيح مسلم (٢/ ٢٢١).

الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٠]؛ فإبراهيم -عليه السلام- (أحب أن يترقىٰ من علم اليقين في ذلك إلىٰ عين اليقين، وأن يرىٰ ذلك مشاهدة؛ فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾)[1].

وقال السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (أخبر تعالىٰ عن خليله إبراهيم -عليه السلام- أنه سأله أن يريه ببصره كيف يحيي الموتىٰ؛ لأنه قد تيقن ذلك بخبر الله -تعالىٰ-، ولكنَّه أحب أن يشاهده عيانًا ليحصل له مرتبة عين اليقين، فلهذا قال الله له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، وذلك أنه بتوارد الأدلة اليقينية مما يزداد به الإيمان ويكمل به الإيقان ويسعىٰ في نيله أولو العرفان)[2].

فاستجاب الله له، وحقَّق له مراده، وفي حادثة الإسراء والمعراج حقَّق الله لمحمد ﷺ إيمان عين اليقين بدون سؤال. تثبيتًا له وتكريمًا، وتواردت عليه من الأدلة اليقينية ما يزداد به إيمانه، ويكمل به إيقانه، لقد رأىٰ الملأ الأعلىٰ، ودخل الجنة، ورأىٰ الكوثر، ورأىٰ بعض من يُنعَّمون، ثم رأىٰ أناسا يُعذَّبون، ثم عُرج به إلىٰ مقام عَلِيٍّ عظيم، اصطفاه الله له -جل شأنه-سمع فيه صريف الأقلام، ورأىٰ من آيات الله الكبرىٰ؛ فأي منزلة نالها مخلوق غير محمد ﷺ؟!

السادسة: لا شك أنه ﷺ عاد بعد أن شاهد تلك الآيات الكبرىٰ أقوىٰ إيمانًا وأكمل إيقانًا وأمضىٰ ثباتًا في طريق الدعوة والصبر علىٰ أذىٰ المدعوين، وأكثر تحملًا لِعَنتهم وعداوتهم.

---

(١) ابن كثير، تفسير ابن كثير (١/ ٦٨٩).

(٢) تفسير السعدي (ص ١١٢).

فالإسراء والمعراج زادٌ زوَّده الله به، ليمضي في طريق الدعوة، ولو أراد الله -جل شأنه- ليَسَّر للرسول ﷺ طريق الدعوة، وألان له قلوب قريش والطائف، وجعلهم إما أن يستجيبوا، أو يكفوا أذاهم، ولكن الله -جل شأنه-، وهو الحكيم الخبير شاء المسلك الآخر، وهو أن يدع هؤلاء علىٰ فجورهم، ويقوي قلب الداعية لله -جل شأنه- محمد ﷺ، ويثبته، ويريه من آياته الكبرىٰ، ما يجعله لا يبالي بعنت هؤلاء وأذاهم، وما يُمكّنه من الاستمرار في الدعوة إلىٰ الله بثبات.

وهذا فيه المزيد من الرفعة للرسول ﷺ، والتشريع لمن بعده من الدعاة إلىٰ الله -جل شأنه-.

وحينئذ علىٰ الداعية إلىٰ الله أن يكثر من الدعاء بالتثبيت، وطلب العون من الله -جل شأنه-، وأن يهبه من الإيمان واليقين ما يطمئن قلبه، وما يجعله يمضي في طريقه لا يعوقه فجور فاجر. وهذا هو طريق الأنبياء والمرسلين.

السابعة: إن لجوء الداعية إلىٰ ربه وسؤاله أن يَرزقه ما يحصل به تثبيته وطمأنة قلبه ليترقىٰ إيمانه ويقوىٰ يقينه، ويمضي ثابتًا في طريق دعوته، ولو كانت أمورًا محسوسة، أمر مشروع؛ فقد أكرم الله نبيه محمدًا ﷺ بذلك في حادثة الإسراء والمعراج، وكان ذلك من غايتها، واستجاب دعاء إبراهيم الخليل -عليه السلام- لما دعا بذلك.

الثامنة: لقد جرىٰ شق صدر الرسول ﷺ مرتين؛ الأولىٰ في ديار بني سعد عندما كان عند مرضعته حليمة -رضي الله تعالىٰ عنها-. والثانية هنا، وفيها قال الرسول ﷺ: «فاستخرج قلبي، ثم أُتيت بطست من ذهب مملوءة إيمانًا، فغسل قلبي، ثم حشي ثم أعيد». ويلاحظ أن الفارق بين الشق الأولىٰ والثاني أنه قال في الأولىٰ فاستخرج حظّ الشيطان، أما هنا فجاءت الرواية أنه أحضر طستًا مملوءًا إيمانًا وغسل القلب ثم حشي. قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (الشق الأول كان لاستعداده لنزع العلقة

التي قيل له عندها هذا حظ الشيطان منك، والشق الثاني كان لاستعداده للتلقي الحاصل له في تلك الليلة)[1].

ألا نأخذ من هذا أهمية تطهير القلب وتنقيته من الشرك والمعاصي وسيئ الأخلاق، في كل أحوالنا بعامة!، وعند الوقوف بين يدي الله -سبحانه وتعالىٰ- بخاصة!!، فهو سبحانه الذي يعلم السر وأخفىٰ.

التاسعة: لقد فعلت قريش الأفاعيل من كل صور الإيذاء النفسي والبدني للرسول ﷺ رموا في طريقه الشوك، وألقوا علىٰ ظهره سلا الجزور، وحاولوا قتله، واستهزأوا به مرارًا، كل ذلك لإطفاء نور الله -جل شأنه-، ومَنْع الرسول ﷺ من إبلاغ رسالة ربّه، فهل يستطيعون أن يقفوا بينه وبين أن يُسرَىٰ به إلىٰ بيت المقدس ثم يُعرَج به إلىٰ ما فوق السابعة؟

إن الذي أسرىٰ به وعرج به إلىٰ مقام لم يصل إليه رسول قبله، قادر علىٰ أن ينصره ويُمكّنه من أن يبلّغ دينه ولو كره الكافرون، فهو درس في نظري من جانبين:

أ- لأعداء الدين، افعلوا ما شئتم فلن تستطيعوا أن تطفئوا نور الله، فالله متم نوره وناصر رسله.

ب- للدعاة إلىٰ الله، إن الذي أسرىٰ وعرج بمحمد ﷺ تأييدًا له ونصرًا قادر -جل شأنه- أن يثبّتكم علىٰ الطريق وينصركم، فلا تتعلقوا بأحد، ولا تنقطعوا، بل ارفعوا أكف الضراعة إلىٰ الله يرفع دعواتكم وينزل عليكم النصر، فهو القوي الناصر -سبحانه وتعالىٰ- الذي يعرج بدعواتكم إليه -سبحانه-.

العاشرة: كان مجمل الإسراء والمعراج تثبيت وتشريع: أما التثبيت فنفهمه من قول الله -تعالىٰ-: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَىٰ﴾، وقد أراه الله -جل شأنه- في الإسراء

(١) فتح الباري (١/ ٤٦٠).

والمعراج من الآيات الكبرىٰ التي تُثبِّته، وتقوّي إيمانه، وتكمل إيقانه كما سبق أن ذكرت، وهذه غاية مهمة في هذه المرحلة العصيبة من الدعوة.

وأما التشريع، فهو تشريع الصلاة، فقد رأينا أن الرسول ﷺ فرض الله عليه خمسين صلاة في اليوم والليلة، وهذا هو التشريع الوحيد الذي أوردته السنة في الإسراء والمعراج، وهو دليل علىٰ أهمية هذه العبادة وخصوصيتها وتعظيم الله -جل شأنه- لها.

الحادية عشرة: حمل الرسول ﷺ رسالة من أبيه خليل الرحمن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- إلينا؛ أمة محمد ﷺ، تتضمّن السلام والنصيحة: «أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»؛ فنقول له: وعليك السلام والرحمة، وجزاك الله عنا خير ناصح لنا. ونسعىٰ إلىٰ العمل بهذه النصيحة العظيمة، التي لم يقلها من تلقاء نفسه -عليه السلام-، وإنما لخبر يقين عنده، فلنبادر ولنغرس لأنفسنا في الجنة بملازمة هذا الذكر العظيم «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»؛ أربع كلمات يسيرة في اللسان رفيعة عند الرحمن، عظيمة الأثر في الجنان.

الثانية عشرة: إن الرسول ﷺ بعد عودته أخبر قومه بالإسراء فقط، ثم بعد ذلك انتقل إلىٰ إخبارهم بالمعراج، وفي هذا تدرُّج في قبول المستمعين للخبر؛ إذا كان مما يصعب الاقتناع به، أو كان شاقًّا. يقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (وعاد علىٰ مكة، فأصبح بها وهو في غاية الثبات والسكينة والوقار، وقد عاين في تلك الليلة من الآيات والأمور التي لو رآها أو بعضها غيره لأصبح مندهشًا أو طائش العقل. ولكنه ﷺ أصبح واجمًا، أي ساكنًا، يخشىٰ إن بدأ فأخبر قومه بما رأىٰ أن يبادروا إلىٰ تكذيبه؛ فتلطف بإخبارهم أولًا بأنه جاء بيت المقدس في تلك الليلة)[١].

(١) ابن كثير، السيرة النبوية (٢/ ١٠٢). والبداية والنهاية (٤/ ٢٨٠).

الثالثة عشرة: إن هذه الحادثة، مع ما فيها من مزيد تسلط الكفار، وسخريتهم، إلا أنها محَّصت وميَّزت الفئة المؤمنة مع الرسول ﷺ:

١- فقد رفعت درجة أبي بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه-، ولُقِّب بعدها بالصِّدِّيق. وكذلك سائر الصحب الأخيار الذين صدَّقوا وآمنوا ما أخبر به الرسول ﷺ.

٢- وكشفت عن ضَعْف في إيمان بعض الأشخاص، الذين ما لبثوا أن ارتدوا عن الإسلام بعد هذه الحادثة، وما ذاك إلا لضعف إيمانهم، ولعل من الخير للصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- والمصلحة العامة للمؤمنين أن يخرج هؤلاء الضعفاء ويتميزوا وينكشفوا بدلًا من بقائهم داخل المجتمع المسلمين غير معروفين.

الرابعة عشرة: الذين كذّبوا الرسول ﷺ في قصته الإسراء واستبعدوا وقوعه، والذين لا يزالون ينكرون الإسراء والمعراج استبعادًا لإمكانه، غفلوا عن شيء مهم في الآية، فالله -سبحانه وتعالىٰ- يقول: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾؛ فالله -جل شأنه- هو الذي أَسْرَىٰ بعبده، ولم ينسب الرسول ﷺ الإسراء إلىٰ نفسه[1]؛ فالذي يكذب بالإسراء ويستبعده، إنما يطعن في قدرة الله -سبحانه وتعالىٰ-، وليس في قدرة الرسول ﷺ.

بالإضافة إلىٰ أنَّ ما كان مستحيلًا علىٰ البشر في عصر قريش، أصبح الآن أمرًا عاديًا، فالذهاب إلىٰ بيت المقدس والعودة منه في ليلة واحدة، كان مستحيلًا في القدرة البشرية، في ذلك الوقت، والآن أصبح من السهل أن يسافر الشخص بالطائرة ويعود خلال ساعات معدودة لما هو أبعد من بيت المقدس.

ولذلك فليس العقل المجرد معيارًا لتصديق الخبر أو تكذيبه، فما يجعله العقل مستحيلًا، في زمن من الأزمنة، كثيرًا ما نراه أصبح أمرًا مألوفًا معتادًا في زماننا، وقد يأتي يوم يجعل ما كنا نراه الآن مستحيلًا، يصبح أمرًا عاديًا مألوفًا،

(١) انظر: القسطلاني، المواهب اللدنية (٣/ ١٥).

فلا تتعجل بتكذيب أو استبعاد ما ثبت شرعًا؛ لمخالفته عقلك، فالشرع لا يتغير، والعقل يتطور ويتغير.

الخامسة عشرة: وقع في الإسراء والمعراج العديد من الآيات الخارقة للعادة، وفي ذلك يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وجميع ما ورد من شق الصدر واستخراج القلب، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له دون التعرُّض لصرفه عن حقيقته؛ لصلاحية القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك)[١].

السادسة عشرة: كان من حكمة الإسراء قبل المعراج (إرادة إظهار الحق لمعاندة من يريد إخماده؛ لأنه لو عرج به من مكة إلىٰ السماء لم يجد لمعاندة الأعداء سبيلًا إلىٰ البيان والإيضاح، فلما ذكر أنه أسري به إلىٰ بيت المقدس سألوه عن تعريفات جزئيات من بيت المقدس كانوا رأوها وعلموا أنه لم يكن رآها قبل ذلك؛ فلما أخبرهم بها، حصل التحقيق بصدقه فيما ذكر من الإسراء إلىٰ بيت المقدس في ليلة، وإذا صح خبره في ذلك لزم تصديقه في بقية ما ذكره)[٢].

السابعة عشرة: في الإسراء إلىٰ بيت المقدس ثم العروج منه إلىٰ السماء دلالة علىٰ ما لهذا المسجد من مكانة وأهمية خاصةً ينبغي أن يدركها المسلمون في كل مكان، فلا يتهاونوا بالمسجد الأقصىٰ أولىٰ القبلتين ومسرىٰ رسول الله ﷺ.

الثامنة عشرة: «تضمنت قصة المعراج العديد من الخوارق، وقد سلك البعض في محاولة الرد علىٰ منكريها إقامة الدليل علىٰ أن ذلك الأمر جارٍ علىٰ ناموس الطبيعة المطردة، وأنه مألوف في الخلق معروف، وفي الواقع حينما نسلك هذا المسلك نكون قد أخرجنا هذا الأمر عن أن يكون معجزًا، وأن يكون من خصائص النبوة.

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٢٠٥).

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٢٠٠ - ٢٠١)، ونسبه إلى ابن أبي جمرة. وانظر: ابن تيمية، الجواب الصحيح (٤/ ١٦٤ - ١٦٥).

والطريقة الصحيحة أن يكون المعترض إما مؤمنًا بالله وبالرسالة وبالرسول ﷺ، أو يكون منكرًا ذلك.

فإن كان الأول لم يكن علينا أكثر من أن نبيّن له أن هذا الأمر قد جاء بسند صحيح عن صاحب الرسالة.

وإن كان الآخر، فهو إلىٰ إقامة الدليل علىٰ الله وعلىٰ رسوله أحوج منه إلىٰ إقامة الدليل علىٰ المعراج وما فيه.

وليس من الأسلوب الصحيح أن نأتي علىٰ من ينكر وجود الله -جل شأنه، وتعالىٰ الله عما يقولون علوًّا كبيرًا-، وينكر أنبياءه وكتبه، ونتعب أنفسنا في سبيل إقناعه بالمعراج، فإن هذا لا يحقّق النتيجة التي نحاول الوصول إليها، وهي أن نثبت أن محمدًا رسول الله ﷺ، بل نحن نسعىٰ إلىٰ صد الناس عن الإيمان بذلك؛ لأننا إذا أقنعنا المخالف بأن المعراج ليس مما يخص رسول الله ﷺ، بل يكون ذلك له ولغيره حسب نواميس الطبيعة نزعنا الإعجاز عنه، وهل يكون الرسول رسولًا إلا بالآيات؟ وهذا الرأي الذي يسلكه البعض عقيم الإنتاج، لا ينصر إيمانًا ولا يكسر كفرانًا.

والطريقة الصحيحة أن نقيم الدليل قبل كل شيء علىٰ الإله، الذي يقول لشيء كن فيكون، فإذا ما اعترفوا به، لم يجدوا مانعًا من أن يؤمنوا بالدين، وما جاء به الدين من أمور تَحار فيها العقول الجبارة، ومن ضمنها ما علمناه من تفاصيل أخبار الإسراء والمعراج وغيرها من المعجزات)[1].

التاسعة عشرة: يقول الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (ولم يأتنا نصّ جليّ بأن النبي ﷺ رأىٰ الله -تعالىٰ- بعينيه، وهذه المسألة مما يسع المرء المسلم في دينه

(١) عبد الله القصيمي، مشكلات الحديث النبوية وبيانها (ص ١٨٦ - ١٩٥)، (باكستان، دار الدعوة السلفية، ١٤٠٦هـ).

السكوت عنها. فأما رؤية المنام: فجاءت من وجوه متعددة مستفيضة. وأما رؤية الله عيانًا في الآخرة؛ فأمر مُتيقَّن، تواترت به النصوص)[1].

العشرون: لم يرد في تحديد تاريخ الإسراء والمعراج مستند يُعوَّل عليه، ولذلك كثر الخلاف في هذه المسألة، وتعددت الأقوال فيها. وهذا يدلنا -كما قلنا في تاريخ مولده ﷺ- أن ليلة الإسراء والمعراج ليست لها أفضلية علىٰ سائر الليالي في العمل والعبادة، فلا يُشرع في تلك الليلة مزيد عبادة سواء أكانت تلك العبادة صلاة أم عمرة أم صدقة، ولو كان لتلك الليلة أفضلية خاصة في العبادة لبُيِّنت لنا بيانًا يقطع الشك ويزيل الخلاف.

قال القسطلاني -رحمه الله تعالىٰ- نقلًا عن الشيخ أبي أمامة بن النقاش -رحمه الله تعالىٰ-: (وأما ليلة الإسراء فلم يأتِ في أرجحية العمل فيها حديث صحيح ولا ضعيف، ولذلك لم يعيّنها النبي ﷺ لأصحابه، ولا عينها أحد من الصحابة بإسناد صحيح، ولا صح إلىٰ الآن ولا إلىٰ أن تقوم الساعة فيها شيء، ومن قال فيها شيئًا فإنما قاله من كِيسه؛ لمُرجّح ظهر له استأنس به، ولهذا تصادمت الأقوال فيها وتباينت، ولم يثبت الأمر فيها علىٰ شيء ولو تعلق بها نفع للأمة ولو بِذَرَّةٍ لبيَّنه لهم نبيهم ﷺ)[2].

ونقل ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- عن شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ- قولـه: (لم يقم دليل معلوم علىٰ ليلة الإسراء ولا علىٰ شهرها ولا علىٰ عشرها ولا علىٰ عينها، بل النقول في ذلك منقطعة مختلفة ليس فيها ما يُقطَع به، ولا شُرع للمسلمين تخصيص الليلة التي يظن أنها ليلة الإسراء بقيام ولا غيره)[3].

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٦٧).

(٢) القسطلاني، المواهب اللدنية (٣/ ١٤).

(٣) ابن القيم، زاد المعاد (١/ ٥٧).

أما ما يعتقده بعض العامة من أن الإسراء كان في رجب؛ فقد قال الشيخ الشنقيطي -رحمه الله تعالىٰ-: (لم يثبت من طريق صحيح ولا حسن، أن الإسراء كان في رجب، والوارد في ذلك لا أصل له)[١]. ويقول الشيخ محمد العثيمين -رحمه الله تعالىٰ-: (وأما الإسراء والمعراج الذي اشتهر عند كثير من الناس أو أكثرهم أنه في رجب وفي ليلة السابع والعشرين منه، فهذا لا صحة له إطلاقًا، وأحسن وأظهر الأقوال أن الإسراء والمعراج كان في ربيع الأول)[٢]. فهذه أقوال جملة من العلماء في القديم والحديث أن الإسراء والمعراج لم يثبت زمنه بدليل صحيح.

الحادية والعشرون: لما علم كفار قريش بخبر الإسراء، كانوا بين مُصفّق، وبين واضع يده علىٰ رأسه مستعجبًا للكذب زعم! والتصفيق عند التعجب في الاحتفالات والاجتماعات هو مما دخل علىٰ المسلمين في الأزمان المتأخرة (تشبهًا بما لدىٰ المشركين من التصفيق للتشجيع والتعجب)[٣]. والتصفيق إما أن يكون علىٰ وجه العبادة كما يفعله الصوفية ونحوهم أو أن يكون علىٰ وجه العادة كالتصفيق في الاحتفالات للتعجب والتشجيع ونحوه، فـ(إن وقع علىٰ وجه التعبد فهو بدعة محرمة شرعًا؛ لأن التصفيق لم يتعبَّدنا الله به، وهو نظير ما ابتدعه المتصوفة من التصفيق حال الذكر والدعاء، وإن وقع التصفيق المذكور علىٰ وجه العادة، فهو مُنكَر مُحرَّم؛ لأنه تشبُّه)[٤]، وسبق أن أشرنا إلىٰ التصفيق وحكمه في قصة إسلام عمر ﵁.

الثانية والعشرون: في ترحيب أهل السماوات بالرسول ﷺ دليل علىٰ استحباب تلقي أهل الفضل بالبشر والترحيب والثناء والدعاء[٥]، وأهل الفضل ممن لهم فضل

(١) محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، منهج التشريع الإسلامي وحكمته (المدينة، المكتبة العلمية د. ت)، (ص ٣١).
(٢) محمد العثيمين، مجموع الفتاوى (٢٢/ ٢٧٤).
(٣) بكر أبو زيد، تصحيح الدعاء (ص ٨٧).
(٤) بكر أبو زيد، تصحيح الدعاء (ص ٨٨).
(٥) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٢١٧).

خاص كالوالدين ونحوهم أو فضل عام كالعلماء ونحوهم، فهؤلاء يُستقبلون ويُتلقون بالبِشْر والترحيب والثناء والدعاء بما يدل علىٰ توقيرهم وتقديرهم واحترامهم.

الثالثة والعشرون: لقد كان موسىٰ -عليه الصلاة والسلام- ناصحًا للرسول ﷺ وأُمّته حينما عرض عليه أن يعود؛ ليطلب التخفيف، ويؤخذ من هذا (بذل النصيحة لمن يحتاج إليها وإن لم يستشر الناصح في ذلك)[1].

الرابعة والعشرون: هناك مَن يحتج بما جرىٰ بين الرسول ﷺ وموسىٰ -عليه الصلاة والسلام- علىٰ انتفاع الحي بالميت، والجواب علىٰ هذا ما يلي:

١) إن معراج الرسول ﷺ ومشاهدته ما شاهده في هذا المعراج كله معجزة أو آية للرسول ﷺ لا يصح أن يُقاس عليه أحوال الناس، فهل يسوغ لشخص الآن أن يستدل بإمكان وصول البشر إلىٰ السماء السابعة؛ لأن الرسول ﷺ عُرج به إلىٰ هناك؟

٢) إن ما جرىٰ في المعراج حوار ومراجعات ومشاورات بناء علىٰ رؤية محسوسة متبادلة بين الطرفين، شاهَد وكلَّم كلّ واحد منهما الآخر كما لو كانا يتكلمان في الدنيا، وليست دعاء حي لميت يرجو نفعه، بل كانوا جميعًا أحياء بقدرة الله -جل شأنه-، والرسول ﷺ لم يذهب إلىٰ قبر موسىٰ -عليه السلام-؛ ليطلب نفعه، وإنما أحيا الله -جل شأنه- الأنبياء الذين قابلهم الرسول ﷺ، ومنهم موسىٰ -عليه السلام-، فكلا الطرفين أحياء، ولو كان ما جرىٰ مثل ما يفعله بعض الناس عند القبور لم يكن في الأمر معجزة[2].

الخامسة والعشرون: في اختصاص الصلاة بتشريعها في المعراج بهذه الصورة، بيان لمكانة هذه الصلاة في الإسلام[3]، فهي عمود الإسلام، وركن مهم فيه، ومن

(١) المرجع السابق (ص ٢١٨).
(٢) انظر: عبد الله بن منيع، مجموع فتاوى وبحوث (١/ ١٩٥) بتصرف.
(٣) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٢١٦). ومن المعلوم أن الصلاة كانت مشروعة منذ بداية البعثة كما مر، لكن تشريعها بهذه الصفة كان في المعراج.

ضيَّعها فهو لما عداها أكثر تضييعًا، ومن حافظ علىٰ هذه الخمس صلوات في اليوم والليلة، فكأنما حافظ علىٰ خمسين صلاة، وذلك من فضل الله -سبحانه وتعالىٰ-.

يقول فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين -رحمه الله تعالىٰ-: (وتأمل كيف أخَّر فرضيتها إلىٰ تلك الليلة إشادةً بها وبيانًا لأهميتها؛ لأنها:

أولًا: فُرضت من الله -عز وجل- إلىٰ رسوله ﷺ بدون واسطة.

ثانيًا: فُرضت في ليلة هي أفضل الليالي لرسول الله ﷺ.

ثالثًا: فُرضت في أعلىٰ مكان يصل إليه البشر.

رابعًا: فُرضت خمسين صلاة، وهذا يدل علىٰ محبة الله لها وعنايته بها -سبحانه وتعالىٰ-، لكنْ خُفِّفت فجعلت خمسًا بالفعل وخمسين بالميزان، غير الخمسين التي الحسنة بعشر أمثالها؛ لأنه لو كان المراد الحسنة بعشر أمثالها، لم يكن لها مزية علىٰ غيرها من العبادات، إذ كل عبادة الحسنة بعشر أمثالها، لكن الظاهر أنه يُكتب للإنسان أجر خمسين صلاة وهذا فضل عظيم من الله -عز وجل- بالنسبة لهذه الأمة)[1].

السادسة والعشرون: في قول موسىٰ -عليه السلام-: «وإني والله قد جرّبت الناس قبلك» دليل علىٰ أن التجربة -كما يقول ابن حجر رحمه الله تعالىٰ- أقوىٰ في تحصيل المطلوب من المعرفة الكثيرة[2].

السابعة والعشرون: كانت حادثة الإسراء والمعراج من فتنة الشبهات[3] التي يبتلىٰ بها المسلم والتي كثيرًا ما يثيرها الأعداء، ولما أثار الأعداء هذه الشبهة سقط

(١) محمد بن صالح العثيمين، الشرح الممتع على زاد المستقنع (٢/ ٦)، وشرح رياض الصالحين (٢/ ٣٢٦ - ٣٢٧).

(٢) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٢١٨).

(٣) انظر: عبد العزيز الحميدي، المنافقون في القرآن الكريم (ص ١٠٦).

فيها من سقط، ولا يزال الأعداء يثيرون الشبهات على المسلمين في كل وقت، تلبيسًا على المسلمين، وصدًّا لغيرهم عن الإسلام، ورد الشبهات يكون بالعلم الشرعي الذي يبطل كيد الأعداء ويرده في نحورهم.

الثامنة والعشرون: التعامل مع خبر الإسراء والمعراج يدلنا على أمر مهم؛ هو أن الدين ليس بالعقل، وإنما بالوحي والنص (وأصل الشر من تقديم الرأي على النص، والهوى على الشرع، فمن نوَّر الله قلبه، فرأى ما في النص والشرع من الصلاح والخير، وإلا فعليه الانقياد لنص رسول الله ﷺ وشرعه، وليس له معارضته برأيه وهواه)[1]، فـ(العقول لا تستقلّ بإدراك مصالحها دون الوحي)[2]، فمن استعمل عقله في خبر الإسراء والمعراج وتجاهل النص أضله عقله، ومن سلّم للنص واستسلم له، فقد وفَّقه الله وهداه، وقدوة الفريق الثاني الصِّدِّيق رضي الله عنه الذي بادر إلى تصديق الرسول ﷺ دون تردد، مؤكدًا أن أهم أمر هو صحة نسبة الخبر إلى الرسول ﷺ، فإذا ثبتت هذه النسبة وتحقَّق من قول الرسول ﷺ فليس بعد ذلك إلا التصديق والامتثال وعندها كان جديرًا بهذا الوصف العظيم (الصِّدِّيق) وحريًا بالاقتداء به رضي الله عنه في كلّ موقف مشابه.

التاسعة والعشرون: إن العقل لا يستقلّ بمعرفة الحقائق الواقعية، سواء كانت حقائق كونية طبيعية، أو حقائق وأحكامًا دينية، وإنما يستمد العقل مادته العلمية مما يأتيه عن طريق الحواس، ولا سيما السمع والبصر، لكن ما تأتي به الحواس إنما هو بمثابة المادة الخام، فالعقل هو الذي حوَّلها إلى معانٍ[3].

هذا التمهيد قصدت به بيان خطأ الذين أنكروا الإسراء إلى بيت المقدس في ليلة واحدة؛ لأن السمع والبصر في وقتهم أعطاهم معلومات ناقصة، فبنوا عليها

(١) ابن تيمية، منهاج السنة (٨/ ٤١١).

(٢) الشاطبي، الاعتصام (١/ ٤٧).

(٣) انظر: جعفر شيخ إدريس، مناهج التفكير الموصلة للحقائق الشرعية والكونية، (الرياض: مركز البيان للبحوث والدراسات ١٤٣٧)، (ص ٦٣).

حكمهم، أعطاهم معلومات أنَّ الذهاب إلىٰ بيت المقدس والعودة منه، يحتاج إلىٰ شهر، فكيف يدَّعي محمد ﷺ أنه ذهب وعاد في ليلة؟! لكنَّ المعلومة التي لديهم، كانت معلومة ناقصة، بدليل أن أيًّا منهم لو عاش في زماننا، لرأىٰ أن هذا الأمر أقل من الأمر المعتاد؛ إذ أصبح بإمكان الشخص أن يذهب إلىٰ بيت المقدس ويعود في غضون ساعات وليس ليلة كاملة.

ولذلك فالعقل ليس مصدرًا للمعرفة، وإنما وسيلة للمعرفة، ومصادر المعرفة هي الوحي والكون فقط، أما العقل فهو وسيلة يتلقىٰ المعلومات التي تصله من الحواس (السمع والبصر واللمس والشم والذوق)، ثم يُميّز بين صحيح هذه المعلومات وباطلها بناء علىٰ ما لديه من خلفية فكرية سابقة، فالبدوي الذي عاش في البادية يعطي أحكامًا علىٰ ما يراه بناء ما تكوَّن لديه من معلومات في البدو، والقروي الذي عاش في القرية، كذلك يعطي أحكامًا علىٰ ما يراه بناء علىٰ ما تكوَّن لديه من معلومات في القرية، وكذلك المثقف ابن المدينة المطّلع علىٰ صور من الحضارة والمدنية، يعطي أحكامًا علىٰ ما يراه بناء علىٰ ما تكوَّن لديه من معلومات، ولو كان المرئي واحدًا، عند البدوي والقروي والمدني.

فمثلًا الراديو أول ما وصل للناس، أنكره البدوي، وظن أنه شيء من الجن، وهرب منه، والقروي ظن أنه شيطان، وصار يقرأ عليه القرآن ليخرج الشيطان الذي فيه، والمدني جلس يستمع إلىٰ ما فيه من أخبار ويراه أمرًا عاديًّا.

وليس المؤثر هنا هو العقل، فقد يكون هذا البدوي أذكىٰ بكثير من المدني، ولكن المؤثر هنا هو المعلومات السابقة المتوافرة لدىٰ عقله التي سبق أن وصلته عن طريق السمع والبصر، وجعلها حكمًا علىٰ المعلومة الجديدة.

وهذا يشبه حادثة الإسراء فالذين أنكروها، إنما كان إنكارهم مستندًا إلىٰ المعلومات السابقة المخزَّنة في ذاكراتهم التي وصلتهم عن طريق سمعهم وأبصارهم،

فجعلوا العقل مصدرًا، وهو ليس كذلك بل وسيلة، والمصدر هنا في هذه المعلومة في وقتهم هو الوحي، ولذلك سلم وصدق أبو بكر ﷺ للوحي، وفي وقتنا هذه المعلومة تُدْرَك إما بالوحي، وتُدرك بمشاهدة الكون؛ لأنها أصبحت أمرًا مشاهدًا في الناس.

الثلاثون: يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (قول الملائكة للنبي ﷺ: «مرحبًا به» أصل في استعمال هذه الألفاظ، وما ناسبها عند اللقاء نحو أهلًا وسهلًا ومرحبًا وكرامةً وخير مَقْدم وأَيْمن مورد، ونحوها، ووقع الاقتصار منها علىٰ لفظ «مرحبًا» وحدها لاقتضاء الحال لها، فإن الترحيب هو السعة، وكان قد أفضىٰ إلىٰ واسع الأماكن ولم يطلق فيها سهلًا؛ لأن معناه وطئت مكانًا سهلًا، والنبي ﷺ كان محمولًا إلىٰ السماء)[١].

الحادية والثلاثون: قال ابن بطال -رحمه الله تعالىٰ-: (وفيه: دليل أن أوامر الله -تعالىٰ-، تُكتب بأقلام شتَّىٰ؛ لقوله: (أسمع صريف الأقلام)، ففي هذا أن العلم ينبغي أن يُكتب بأقلام كثيرة، تلك سنة في سماواته، فكيف في أرضه)[٢]؛ فالعلم حفظه بتدوينه بالقلم، عن أنس بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «قيِّدوا العلم بالكتاب»[٣].

وقال الشاعر:

العلـم صيد والكـتابة قيـده قيِّد صيودك بالحبال الـواثقة

فمن الحماقة أن تصيد غزالة وتتركها بين الخلائق طالقة

---

(١) ابن القيم، بدائع الفوائد (٣/ ٢٠٥).

(٢) ابن بطال، شرح صحيح البخاري (٢/ ١٣).

(٣) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (١/ ٣٠٦) رقم (٣٩٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٨١٦) رقم (٤٤٣٤)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٥/ ٤٠) رقم (٢٠٢٦)، وقال: «وهذا إسناد حسن، ورجاله كلهم على شرط البخاري ولولا أن في ابن أبي أويس كلامًا في حفظه لصححته».

الثانية والثلاثون: تحية المسلمين هي البدء بالسلام: أي السلام عليكم وإن أكملها بقوله ورحمة الله وبركاته فزيادة خير. ثم بعد ذلك الترحيب، إن أراد الزيادة علىٰ ذلك.

وهذا ما ورد في المعراج، ففي صحيح البخاري -في الحديث أعلاه- أن الرسول ﷺ كلما قابل نبيًّا في السماء بدأ النبي بالسلام، ثم يرد -عليه السلام- ويقول بعد ذلك مرحبًا.

فابدأ بالسلام تحية الإسلام والمسلمين، ثم رحِّب بما تشاء من عبارات الترحيب.

المبحث الثاني

فقه السيرة في العرض على الأفراد والقبائل

كان الرسول ﷺ لا يدع وافدًا من العرب له اسم وشرف إلا دعاه وعرض عليه ما عنده[1]، وقد حصل من بعضهم علىٰ ردود طيبة، ومن هؤلاء:

١) سويد بن صامت: كان شاعرًا لبيبًا من سكان المدينة، يُسَمِّيه قومُه الكاملَ؛ لجَلَدِه وشِعْره وشرفه ونسبه، جاء مكة حاجًّا أو معتمرًا، فدعاه الرسول ﷺ إلىٰ الإسلام، فقال: لعل الذي معك مثل الذي معي، فقال الرسول ﷺ: «وما الذي معك؟» قال: حكمة لقمان، قال: «اعرضها عليَّ» فعرضها، فقال الرسول ﷺ: «إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله -تعالىٰ- عليَّ هو هدىٰ ونور»، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ودعاه إلىٰ الإسلام، فلم يبعد منه، وقال: إن هذا القول حسن، ثم انصرف عنه إلىٰ المدينة، فلم يلبث أن قتله الخزرج، فكان رجال من قومه يقولون: إنا لنراه قُتِلَ وهو مسلم[2].

٢) الطفيل بن عمرو الدوسي -رضي الله تعالىٰ عنه-: كان سيدًا مطاعًا في دوس، فلما قدم مكة اجتمع به أشراف قريش وحذّروه من رسول الله ﷺ، قال: فو الله ما زالوا بي حتىٰ أجمعت أن لا أسمع منه شيئًا، حتىٰ حشوتُ أذني قطنًا، قال:

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٣٦)، وابن الجوزي، الوفاء بأحوال المصطفى (١/ ٣٤٤)، وابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ١٤٧).

(٢) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ١٤٧)، والمباركفوري، الرحيق المختوم (ص ١٤٨-١٤٩)، وجزم بإسلامه، ولكن ابن حجر-رحمه الله تعالى- قال في الإصابة (٣/ ١٨٩): (ذكره ابن شاهين -أي سويد بن الصامت- وقال شُكّ في إسلامه، وقال أبو عمر: أنا أشك فيه كما شك غيري) والله أعلم.

فغدوتُ إلىٰ المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي، قال: فقمتُ قريبًا منه، فأبىٰ الله إلا أن يُسمعني بعضَ قوله، فسمعتُ كلامًا حسنًا، قال: فقلتُ في نفسي: إني لَرَجُلٌ لبيبٌ شاعرٌ ما يخفىٰ عليَّ الْحَسَنُ من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقوله... فلما انصرف محمد ﷺ تبعته وأخبرته ما قالت قريش، فأبىٰ الله إلا أن يسمعني قولَك، فسمعت قولًا حسنًا، فاعرض عليَّ أمرَك، فعرض عليه الرسولُ ﷺ الإسلامَ وتلا عليه القرآنَ، قال: فأسلمتُ وقلتُ: يا نبي الله، إني امرؤ مطاع في قومي، وإني راجع إليهم وداعيهم إلىٰ الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية تكون عونًا عليهم فيما أدعوهم إليه... إلخ القصة(١).

وكما كان النبي ﷺ يعرض نفسه علىٰ الأفراد، فقد كان يعرضها علىٰ القبائل الوافدة إلىٰ مكة للحج أو العمرة أو المواسم، وذلك ليؤووه وينصروه ويدعوهم إلىٰ التوحيد(٢).

عن موسىٰ بن عقبة -رحمه الله تعالىٰ-، عن ابن شهاب -رحمه الله تعالىٰ-، قال: (كان رسول الله ﷺ في تلك السنين يعرض نفسه علىٰ قبائل العرب في كل موسم، ويكلم كل شريف قوم لا يسألهم مع ذلك إلا أن يؤوه ويمنعوه، ويقول: «لا أُكره أحدًا منكم علىٰ شيء، من رضي منكم بالذي أدعوه إليه فذلك، ومن كره لم أكرهه، وإنما أريد أن تحرزوني(٣) مما يراد بي من القتل حتىٰ أبلغ رسالات ربي وحتىٰ يقضي الله -عز وجل- لي ولمن صحبني بما شاء الله»، فلم يقبله أحد منهم، ولم يأتِ أحد من تلك القبائل إلا قال: قوم الرجل أعلم به. أترون أن رجلًا يُصلحنا،

(١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ٩٩)، وابن حجر، الإصابة (٣/ ٢٨٧)، ونقل عن الأصبهاني أن النبي ﷺ تلا عليه الإخلاص والمعوذتين، فأسلم في الحال. لكن هل نزلت الإخلاص والمعوذتان في ذلك الوقت؟

(٢) انظر: الشامي، سبل الهدى (٢/ ٥٩٣).

(٣) تحرزوني أي: تحفظوني وتحرسوني، ففي القاموس: وحرزه: حفظه، أو هو إبدال، والأصل حرسه.

وقد أفسد قومه ولفظوه، فكان ذلك مما ذخر الله -عز وجل- للأنصار وأكرمهم به)[1].

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه علىٰ الناس بالموقف فقال: «ألا رجل يحملني إلىٰ قومه، فإن قريشًا منعوني أن أبلّغ كلام ربي)[2].

وكان يسأل عن القبائل قبيلة، قبيلة ويقول: «يا أيها الناس! قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»، وكان لا يفتر عن قول: «يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»، وكان وراءه أبو لهب يسير خلفه ويقول: إنه صابئ كاذب[3]، ولم يكن أبو لهب يكتفي بالقول، بل كان يؤذي رسول الله ﷺ ويرميه بالحجارة حتىٰ أدمىٰ كعبيه الشريفتين[4]، وكان ﷺ يفر منه[5]، ويُعرض عنه ولا يلتفت إليه[6].

وفي رواية أخرىٰ في المسند (كان أبو جهل خلفه يحثي عليه التراب، ويقول: يا أيها الناس، لا يغرنكم هذا عن دينكم، فإنما يريد لتتركوا آلهتكم، وتتركوا اللات

(١) البيهقي، دلائل النبوة (٢/ ٤١٤) وأخرجه أبو نعيم (ت: ٤٣٠)، دلائل النبوة تحقيق محمد رواس قلعة جي وزميله، الطبعة الثانية (بيروت: دار النفائس ١٤٠٦)، (١/ ٢٩٥) رقم (٢٢١) عن أبي الأسود، عن عروة بن الزبير، وانظر: ابن كثير، السيرة النبوية (٢/ ١٥٨) وابن حجر، فتح الباري (٧/ ٢٢٠). وابن الجوزي، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى (١/ ١٧٤). كلهم (قال: موسى بن عقبة عن الزهري).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، وصححه الألباني، صحيح سنن أبي داود للألباني (٣/ ٨٩٧) رقم (٣٩٦٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد، مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وزملائه، إشراف عبد الله التركي (٢٥/ ٤٠٤) رقم (١٦٠٢٣)، وقال المحقق: (صحيح بغيره)، والبيهقي، السنن الكبرى (٦/ ٢١).

(٤) انظر: البيهقي، السنن الكبرى (٦/ ٢١).

(٥) انظر: الإمام أحمد، الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد للبناء (٢٠ / ٢١٧).

(٦) انظر: الشامي، سبل الهدى (٢/ ٥٩٥).

والعزىٰ، قال: وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ)[1].

ومن أبرز القبائل التي عرض الرسول ﷺ نفسه عليها: بنو عامر ابن صعصعة، ومحارب بن فزارة، وغسان، ومرة، وحنيفة، وسليم، وعبس، وبنو نصر، وكندة من قبائل اليمن وكلب، والحارث ابن كعب، وعذرة، والحضارمة، وبكر بن وائل ممن سكن جوار فارس، وبني شيبان بن ثعلبة، وفيهم المثنىٰ بن حارثة الشيباني، وكان كبيرًا فيهم، ولكنهم لم يستجيبوا، وإن تفاوتت ردودهم بين رد قبيح كما فعل بنو حنيفة أو رد غير سيئ كما فعل بنو شيبان[2]، وكانت هذه المواسم فرصة للنبي ﷺ؛ ليلتقي بكثير من القبائل العربية من شمال البلاد العربية ومن جنوبها، وممن جاوروا الروم أو جاوروا الفرس[3].

نقف مع هذا الجزء المهم من السيرة النبوية؛ لنأخذ منه الفوائد التالية:

أولًا: إن قريشًا لم تكتفِ بالإعراض عن الدعوة ورفضها، بل كانت تريد من الآخرين أن يرفضوها. فكانت عداوتهم الشرسة موجهة نحو هذا التوحيد الذي يدعو إليه محمد ﷺ؛ كي لا يظهر، مهما كلفهم، يريدون الوثنية أن تعلو، اسمع إلىٰ قول أبي جهل (لا يغرنكم هذا عن دينكم، فإنما يريد لتتركوا آلهتكم، وتتركوا اللات والعزىٰ)؛ فالعداوة لكلمة التوحيد خشية أن تعلو، لا لشخص محمد ﷺ، العداوة لهذا النور؛ نور التوحيد يريدون أن يطفئوه؛ ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٢-٣٣].

---

(١) الإمام أحمد، المسند (٢٧/ ١٤٨) رقم (١٦٦٠٣)، وقال محققو المسند: «إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين.. وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٢١-٢٢)، وقال: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح» ا.هـ.

(٢) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ١٣٨- ١٤٤).

(٣) انظر: أبو زهرة، خاتم النبيين (١/ ٥٨٨).

وللأسف أن العداوة للتوحيد، لا تزال قائمة، إما من شخص مشرك، عدو للدين أصلًا، أو من شخص مسلم التبس الأمر عليه، فعادىٰ دعوة التوحيد؛ لأنه لم يفهم دعوة الرسول ﷺ.

ثانيًا: إن قريشًا كانت تسعىٰ جاهدة لمنع الوافدين من قبول هذه الدعوة، ومنع الرسول ﷺ من إيجاد مخرج لها؛ فكانت تُحَذّر كلّ وافد إلىٰ مكة بطريقين:

الأول: إما أن تقابل كل وافد من أشراف العرب وذي المكانة فتحذّره من الاستماع لمحمد ﷺ، وتبالغ في ذلك أشد المبالغة حتىٰ إن الشخص يضع في أذنه قطنًا خشية السماع من محمد ﷺ من عظم التشويه الذي سمعه من قريش.

الثاني: أو تلاحق محمدًا ﷺ، بل لو قلت؛ تطارد محمدًا ﷺ مطاردة مستمرة عندما يعرض نفسه علىٰ القبائل، من أجل إيذائه، لعله يملّ، أو يتم تشويهه، لعله يُرفَض من القبائل العربية.

واللافت للنظر أن كفار قريش من شدة عداوتهم، لم يكونوا يرسلوا مندوبين منهم لمتابعة محمد ﷺ، بل كان الزعماء والكبراء منهم يباشرون ذلك بأنفسهم كأبي جهل وأبي لهب، كل منهم يدور بنفسه خلف الرسول ﷺ حيثما سار الرسول ﷺ بين القبائل الوافدة إلىٰ مكة، يرميه بالحجارة ويحذر منه العرب.

وهذا أمر يدعو إلىٰ العجب، كيف أن هؤلاء الكبراء من قريش تركوا أعمالهم وتفرغوا لملاحقة الرسول ﷺ حيثما ذهب، وتحذير القبائل منه، وهذا يدل علىٰ شدة خوف قريش من ظهور دعوة محمد ﷺ، وفي الوقت ذاته يكشف جَلَد الأعداء في محاربة دين الله، وأهل الحق هم الأَوْلَىٰ بالصبر والتَّحمُّل لنصرة دينهم.

ثالثًا: لماذا كان كفار قريش يخشون من سماع الناس لمحمد ﷺ؛ لأنهم يعلمون أنه يحمل الحق، وأن العقول إذا سمعته قبلته، وأن القلوب إذا أصغت إليه سكنت إليه

واطمأنت. فكان سبيلهم الوحيد هو الاجتهاد في صدّ الناس عن سماعه، وتشويهه حتىٰ ينفروا من الإصغاء إليه.

وهذا هو الواقع اليوم؛ فالأعداء يعرفون أن الإسلام هو الحق، ولكنهم يشوّهونه بكل السبل، ويمنعون الناس من السماع للدعاة، بتشويههم ووصفهم بالأوصاف المنفِّرة منهم.

وكان الرسول ﷺ يمضي في طريقه، لا يعبأ يهم، ولا يلتفت إليهم، واثقٌ من نصر الله له، وأن هذا الحق سيصل وسيلقىٰ القبول ولو كره الكافرون، ولو حاربه المشركون، ولكل داعية الأسوة الحسنة في رسول الله ﷺ.

رابعًا: لقد اشتد إيذاء قريش علىٰ الرسول ﷺ، مما ألجأه إلىٰ أن يعرض نفسه علىٰ القبائل الوافدة إلىٰ مكة إما للحج أو العمرة وللأسواق التجارية، وكان يؤمل منهم أحد أمرين:

الأول: أن يستجيبوا لدعوته، ويؤمنوا بالله ويقولوا كلمة التوحيد ففيها فلاحهم.

الثاني: إن لم يقبلوا بالأولىٰ، فيريد منهم أن يحموه فقط، ممن يريد منعه من إبلاغ رسالة ربه، ولهم أن يبقوا علىٰ دينهم، لا يكرههم علىٰ شيء من ذلك.

الرسول ﷺ يقول للناس، بكل وضوح، لا أجبر شخصًا علىٰ الإيمان لا أنتم ولا غيركم، لكن لديَّ رسالة من الله يجب عليَّ إبلاغها، وقريش فجرت في ظلمها وطغيانها، تريد أن تمنعني بالقوة والإيذاء أن أبلغها للناس، وأريد من يحميني لأبلغ الرسالة، وله أن يبقىٰ علىٰ دينه.

ومع ذلك، لم تتركه قريش، ولم تقبل القبائل العربية حمايته؛ لضراوة التشويه الذي بثَّته قريش في القبائل، خاصةً وأن قريشًا لها مكانتها بين القبائل العربية. فهل هناك ظلم وفجور أشد من هذا الظلم والفجور؟! والعياذ بالله.

خامسًا: إننا نجد أن الرسول ﷺ يقول للقبائل: «إنما أريد أن تحروزني -أي تحفظونني- مما يراد بي من القتل حتىٰ أبلغ رسالات ربي)؛ فالرسول ﷺ كان يدرك أنه مُهدّد بالقتل ومع ذلك كان ماضيًا في دعوته، يبحث لها عن مخرج.

سادسًا: جواز دخول المسلم في حماية الكافر، إذا لم يجد بديلًا، وكان في ذلك مصلحة شرعية غالبة. والرسول هنا التمس من القبائل العربية المشركة الحماية، لا لشخصه وإنما لدعوته إلىٰ الله؛ لأنه لو سكت عن هذه الدعوة، لم يُؤْذَ، ولم يحتج إلىٰ حماية؛ فهو في الحقيقة يريد حماية الدعوة وتمكينها من الانتشار، ولو عُرض عليه حمايته شخصيًّا، مع السكوت عن الدعوة لما قبل أصلًا، ولذلك فالحماية هنا حماية مبدأ، لا حماية شخص، لكن إذا اضطر الشخص إلىٰ حماية الكافر، لكي يدعو إلىٰ الله -جل شأنه-، فهذه مصلحة شرعية، علىٰ ألَّا يترتب عليها مفسدة أشد، كموالاة، أو موادّة، أو تنازل عما لا يجوز التنازل عنه.

سابعًا: إن الحق عليه نور، مَن سمعه قبله، ولذلك نجد أن سويد بن الصامت بمجرد سماعه لكلام الرسول ﷺ قال: هذا القول حسن، والطفيل الدوسي -رضي الله تعالىٰ عنه-، رغم التحذير الشديد الذي جاءه من كفار قريش، أدرك خطأ قريش وتضليلهم بمجرد أن أوضح الرسول ﷺ له هذا الدين فأسلم، وعاد إلىٰ أهله داعية إلىٰ الإسلام.

ولذلك علىٰ الداعية إلىٰ الله أن يحرص علىٰ إسماع الناس هذا الدين، هذا القرآن، وهو بذاته له نور يدركه سامعه بمجرد سماعه أنه الحق. قال -تعالىٰ-: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق:٤٥].

ثامنًا: إن الرسول ﷺ يكثر في دعوة الناس من تلاوة آيات قرآنية؛ فسويد بن الصامت تلا عليه الرسول ﷺ شيئًا من القرآن الكريم فتأثر، والطفيل بن عمر الدوسي رضي الله عنه أيضًا تلا عليه شيئًا من القرآن الكريم، فأسلم في الحال، وكان ﷺ يتلو

القرآنَ الكريمَ أثناء عرض دعوته على القبائل[1]، وكان مصعب ﷺ في المدينة -كما سيأتي- يُكثر من تلاوة القرآن الكريم أثناء دعوته قبل هجرة الرسول ﷺ.

إن للقرآن الكريم تأثيرًا عجيبًا على النفوس، روى البخاري -رحمه الله تعالى- عن جبير بن مطعم ﷺ يخبر عن مقدمه للمدينة كافرًا في شأن أسرى بدر، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور:٣٥-٣٧]؛ كاد قلبي يطير[2]. وكان جبير وقتها على شِرْكه، وكان سماعه لهذه الآيات من أول ما حمله على الإسلام.

وروي أن عمر ﷺ لما سمع آيات من أول سورة (طه) أذعن وآمن بعد أن ضرب ختنَه ولطم أختَه. ولذلك نلحظ أن كفار قريش كانوا يخشون هذا القرآن، ويحذِّرون كل قادم إلى مكة من الاستماع إليه -كما مر معنا قبل قليل-؛ لأنهم يعلمون قوة تأثيره على النفوس.

لذلك فالمنهج الصحيح في الدعوة هو التركيز على تلاوة آيات الله والإكثار منها، والاعتماد عليها في الخطب والمحاضرات، والابتعاد عن الكلام المنمّق الخالي من كلام الله وكلام رسوله ﷺ؛ فهو وإن بدا جميلًا فخيره قليل وتأثيره أقل.

تاسعًا: نلحظ سهولة بعض الناس وقربهم للاستجابة، فما أن سمعوا آيات تُتْلَىٰ من هذا الكتاب الكريم حتى نسوا كل عبارات التحذير التي أُلْقِيَتْ عليهم، وأدركوا بفطرتهم أنه الحق، وأن أقوال الناس تلك، وإن كانت تلبس لبوس الناصح المشفق،

(١) انظر مثالاً على ذلك: قصة وفد إياس بن معاذ مع قومه عندما قدموا من المدينة، وعرض عليهم الرسول ﷺ الإسلام وتلا عليهم القرآن، أحمد البناء، الفتح الرباني (٢٠ / ٢٦٦-٢٦٧)، وقصة وفد الأوس والخزرج الذين قابلهم الرسول ﷺ لأول مرة في السنة الحادية عشرة من البعثة أيضًا وتلا عليهم القرآن الكريم، انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ١٤٨).

(٢) صحيح البخاري، المطبوع مع فتح الباري (٨ / ٦٠٣) رقم (٤٨٥٤).

فهي في الحقيقة زيف وباطل، قال -تعالىٰ-: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء:٨١]؛ فمهما رأيت من الشخص من إعراض فلا تيأس منه؛ لأن هذه الدين ينفذ للقلوب ويجعلها قريبة.

عاشرًا: مر معنا أن الرسول ﷺ كان يقول للناس، وهو يتجول علىٰ القبائل العربية في المواسم: «يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»، فأول كلمة يدعو إليها الرسول ﷺ هي كلمة التوحيد، وهي أعظم كلمة وأهم كلمة، وأبرك كلمة، وأولاها بالعناية والرعاية، من جاء بها يوم القيامة دخل الجنة، ومَن لم يؤمن بها، فهو من أهل النار مهما كان عمله؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٤٨].

والمسلمون اليوم عليهم أن يَتَأَسَّوْا بالرسول ﷺ، فيتمسكوا بما بدأ به؛ في إخلاص توحيدهم لله، ولا يشركوا به شيئًا، في دعائهم وفي عباداتهم، وعليهم عند تربية أولادهم، وعند دعوتهم للناس، أن يعلموهم التوحيد وأهميته، وإخلاص العمل لله -سبحانه وتعالىٰ-.

حادي عاشر: كان الرسول ﷺ وهو يعرض نفسه علىٰ القبائل يدعوهم إلىٰ الله بالحكمة، ويتحدث معهم بالرفق؛ «ألا رجل يحملني إلىٰ قومه؛ فإن قريشًا منعوني أن أُبَلِّغَ رسالةَ ربي»؛ مثيرًا في نفوسهم النخوةَ التي عُرِفَ عن العرب الاهتمامُ بها والمبادرةُ إليها.

ثاني عشر: رغم الإعراض الذي كان واجهه الرسول ﷺ من القبائل العربية مع تعدد سنوات العرض، إلا أن الرسول ﷺ لم ييأس منهم، بل استمر ﷺ يَغْشىٰ القبائل في المواسم والمجامع والمنازل، كل عام يفدون فيه حتىٰ قيَّض الله له نصيرًا، ولذلك لا ينبغي أن يجد اليأسُ طريقَه إلىٰ المؤمن في نصحه لشخص معين أو في دعوته عمومًا، ولقد ورد التحذير من اليأس من روح الله؛ ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ

ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف:٨٧]. وقال -تعالىٰ-: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [الأحقاف:٣٥].

ثالث عشر: من كلام الرسول ﷺ للقبائل العربية، وبحثه عن قبيلة تؤويه؛ ندرك أهمية الأمن في الدعوة إلىٰ الله، فمع الخوف لا يتمكَّن الشخص من عبادة الله، ولا الدعوة إلىٰ الله -جل شأنه-، فمن تحقَّقت له هذه النعمة فليشكر الله وليحافظ عليها، وليُسخّرها في خدمة دين الله -جل شأنه-.

رابع عشر: إن الاستجابة للداعي إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ- قد لا تكون فوريةً، وكذلك عدمُ الاستجابة الفورية لا يعني عدمَ وجودِ التأثيرِ في المدعوّ، فمثلًا عندما عرض الرسولُ ﷺ دعوتَه علىٰ بني شيبان لم يجد منهم القبول، وكان فيهم المثنىٰ بن حارثة الشيباني -رضي الله تعالىٰ عنه-، ولكن كان لهذا اللقاء أثره الذي ظهرت نتائجه فيما بعد؛ فإن المثنىٰ أسلم بعد حين، وأصبح قائدًا كبيرًا من قواد المسلمين، وبه ابتدأت فتوح العراق وفارس[1]؛ فلا تقلل من كلمة قلتها ولم تجد لها أثرًا فوريًّا؛ فالخير له أثره علىٰ النفوس ولو بعد حين.

خامس عشر: إن الدعوة إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ- لا بد أن يصاحبها أذًىٰ[2]، ولكن علىٰ الداعية إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ- أن يصبر ويحتسب الأجر ولا يواجه ما يُقال له من كلمات سيئة واعتراضات نابئة من هذا أو ذاك بمثلها، بل يصبر ويتحمَّل الأذىٰ، ومن استجاب شرح له أكثر، ومن أعرض أو سَخِرَ أو استهزأ قابله بالسكوت والإعراض عنه؛ ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان:٦٣].

(١) انظر في ترجمة المثنى: ابن حجر، الإصابة (٦/ ٤١).
(٢) انظر: الفائدة العاشرة في قصة بدء الوحي في الفصل الثاني من هذا الكتاب، فقد ذكرت الأدلة على أن الداعية إلى الله لا بد أن يصيبه أذًى.

سادس عشر: هذا التكالب من قريش ومن العرب علىٰ معاداة الرسول ﷺ، وهو يدور وحيدًا علىٰ القبائل، يدعوهم إلىٰ الله، يجعلنا نستحضر أن هذا درب مسلوك؛ إذ كل الأنبياء والدعاة إلىٰ الله في كل العصور كان لهم أعداء، وأعداء مُتسلّطون؛ قال -تعالىٰ-: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ** ﴾ [الأنعام: ١١٢]، لاحظ أنهم شياطين من الإنس والجن، وليسوا أعداء عاديين.

ومعلوم أن الأنبياء -عليهم السلام- هم أزكىٰ الناس، وأحلم الناس، وأرحم الناس، وأحكم الناس، وأعدل الناس، وأطيب الناس خُلُقًا؛ فَهُم قمّة الكمال البشري من جميع الصفات، ومع ذلك لم يَسْلَمُوا من الأعداء، فهل يرجو الداعية اليوم أن يَسْلَم؟!

سابع عشر: في العرض علىٰ القبائل التي كانت تَفِد إلىٰ مكة من مختلف البِقَاع دليل علىٰ عالمية الدعوة، فقد كان الرسول ﷺ يتحدث أثناء العرض علىٰ قبائل وفدت من اليمن، وأخرىٰ وفدت من أعالي الجزيرة، ممن كان مجاورًا للفرس أو مجاورًا للروم، وكان يعرض عليهم دعوته في وقت مبكّر من تاريخ الدعوة، وهذا برهان جليّ علىٰ أن الرسول ﷺ كان مُرْسَلًا إلىٰ الناس جميعًا؛ كما قال -تعالىٰ-: ﴿ **قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وإن ادَّعىٰ مُدَّعٍ خصوص رسالته ﷺ إلىٰ العرب فقط، فقد اعترف بنبوته، والكذب ممتنع علىٰ الأنبياء اتفاقًا[١].

(١) محمد بن عمر بحرق، حدائق الأنوار (ص ١٣٢).

المبحث الثالث

فقه السيرة في بيعة العقبة الأولى

تميّز القادمون من المدينة الذين عرض عليهم الرسول ﷺ الإسلام بحُسْن الرّدّ عليه غالبًا؛ فقد مر معنا قصة سويد بن الصامت، ومثله ما أشرت إليه من مجيء إياس بن معاذ الذي قدم ضمن وفد من بني عبد الأشهل يلتمسون الحلف من قريش علىٰ قومهم من الخزرج، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ أتاهم، فقال لهم: «هل لكم إلىٰ خير مما جئتم به؟» قالوا: وما ذاك؟ قال: «أنا رسول الله، بعثني الله إلىٰ العباد»، ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. فقال إياس: يا قوم، هذا والله خير مما جئتم له. فأخذ أبو الحيسر رئيس الوفد حفنة من الحصباء وضرب بها إياس، وقال: دعنا منك، فسكت، فلما عادوا إلىٰ المدينة لم يلبث إياس أن هلك، وقد ذكَر مَن حضره مِن قومه أنهم لم يزالوا يسمعونه يُهلِّل الله ويُكبِّره ويحمده ويُسبِّحه حتىٰ مات، وكانوا لا يشكّون أنه مات مسلمًا[1].

وقال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (فلما أراد الله إظهار دينه وإعزاز نبيه ﷺ في الموسم، وإنجاز موعده له؛ خرج رسول الله ﷺ في السنة الحادية عشرة من البعثة[2]، فعرض نفسه علىٰ قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقي رهطًا من الخزرج أراد الله بهم خيرًا، فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده: أحمد البناء، الفتح الرباني (٢٠ / ٢٦٦- ٢٦٧)، وقال عنه البناء في بلوغ الأماني: (رواه محمد بن إسحاق في المغازي، وأورده الحافظ في الإصابة وصححه)، المرجع السابق، الصفحة ذاتها.

(٢) انظر: المباركفوري، الرحيق المختوم (ص ١٥٢).

عن أشياخ من قومه قالوا: لما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: أمن موالي[١] يهود؟[٢] قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلىٰ، فجلسوا معه فدعاهم إلىٰ الله وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، قال: وكان مما صنع الله لهم في الإسلام أن يهودًا كانوا معهم في بلادهم وكانوا أهل كتاب وعِلْم، وكانوا هم أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم في بلادهم فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا: إنَّ نبيًّا مبعوثًا الآن قد أظل زمانه نتبعه، نقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما كلَّم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلىٰ الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم! تعلمون والله إنه النبيّ الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدّقوه وقبلوا منه ما عرضه عليهم من الإسلام، وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسىٰ أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلىٰ أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا راجعين إلىٰ بلادهم قد آمنوا وصدقوا[٣].

وكان عدد هؤلاء ستة نفر من الخزرج؛ وهم: أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث بن رفاعة، ورافع بن مالك بن العجلان، وقطبة بن عامر بن حديدة، وعقبة بن عامر بن نابي، وجابر بن عبد الله بن رئاب -رضي الله تعالىٰ عنهم- [٤].

(١) قال السهيلي في الروض الأنف (٤/ ٤٤): «أي من حلفائهم، والمولى يجمع الحليف وابن العم والمعتق؛ لأنه مفعل من الولاية، وجاء على وزن مفعل لأنه مفزع وملجأ لوليه؛ فجاء على وزن ما هو في معناه».

(٢) أي حلفاؤهم، وهم سُمُّوا حلفاءَ ؛ لأنهم تحالفوا على التناصر والتعاضد، الشامي، سبل الهدى (٣/ ٢٦٩).

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٣٧-٣٨).

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٣٨-٣٩).

وكان الأوس والخزرج إخوانًا لأم وأب[1]؛ فوقعت بينهم العداوة بسبب قتيل، فلبثت الحروب بينهم مائة وعشرين سنة، ومن هذه الحروب حرب بعاث، إلىٰ أن أطفأها الله بالإسلام، وأَلَّفَ بينهم برسول الله ﷺ[2].

ثم رجع هؤلاء إلىٰ المدينة دعاةً إلىٰ الإسلام، ففشا الإسلام فيها حتىٰ لم تبقَ دار من دور الأنصار إلا وفيها ذِكْر رسول الله ﷺ[3].

فلما كان العام المقبل جاء منهم اثنا عشر رجلًا، الستة الأول، خلا جابر بن عبد الله، ومعهم معاذ بن الحارث بن رفاعة، وذكوان بن عبد القيس[4]، وعبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة وأبو الهيثم بن التيهان، وعويمر بن مالك[5].

فقابلهم رسول الله ﷺ وبايعهم، وهي التي تسمىٰ «بيعة العقبة الأولىٰ».

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: «بايعوني[6] علىٰ أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروف، فمن وفَّىٰ منكم، فأجره علىٰ الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعُوْقِبَ في الدنيا فهو كفارة له،

---

(١) قال السهيلي في الروض الأنف (٤/ ٤٣): (الأوس والخزرج. الخزرج: الريح الباردة، وقال بعضهم وهي الجنوب خاصة. الأوس هي العطية أو العوض. وأبوهم حارثة بن ثعلبة، وأمهم قيلة بنت كاهل بن عذرة قضاعية).. باختصار. وانظر: لمزيد أخبار الأوس والخزرج: السمهودي، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى (١/ ١٤٠-١٤١).

(٢) انظر: السمهودي، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى (١/ ١٧٠).

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٣٩).

(٤) وقد أقام ذكوان بمكة حتى هاجر إلى المدينة؛ فيقال: إنه مهاجري أنصاري، زاد المعاد (٣/ ٤٥).

(٥) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٤٥).

(٦) المبايعة: المعاهدة، وسميت المعاهدة هنا مبايعة تشبيهًا بالمعاوضة المالية، الحلبي، إنسان العيون (٢/ ١٦١).

ومن أصاب من ذلك شيئًا ثم ستره الله فهو إلىٰ الله؛ إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه»؛ فبايعناه علىٰ ذلك[1].

ويرىٰ بعض أهل السير أن هذه هي بيعة العقبة الأولىٰ، وأن هؤلاء النفر أسلموا وبايعوا رسول الله ﷺ علىٰ بيعة النساء؛ أي علىٰ وفق بيعتهن التي نزلت بعد ذلك عند فتح مكة[2].

يقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (وكان هذا مما نزل علىٰ وفق ما بايع عليه أصحابه ليلة العقبة، وليس هذا بعجيب، فإن القرآن نزل بموافقة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في غير موطن، وإن كانت هذه البيعة وقعت عن وحي غير متلو فهو أظهر، والله أعلم)[3].

ولكن ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- رَجَّحَ أن المبايعة التي تمت ليلة العقبة إنما كانت علىٰ الإيواء والنصرة وليست علىٰ الصفة التي وردت في حديث عبادة رضي الله عنه، وأن ما ذكره عبادة رضي الله عنه يعني به بيعة أخرىٰ بعد فتح مكة؛ لأدلة ذكرها، والله أعلم[4].

وبعد أن تمت هذه البيعة، وانتهىٰ الموسم عاد أولئك النفر إلىٰ المدينة، وبعث معهم الرسول ﷺ مصعب بن عمير رضي الله عنه؛ ليعلّمهم الإسلام، ويقرئهم القرآن، وليدعو من هنالك إلىٰ الإسلام، فأسلم علىٰ يد مصعب رضي الله عنه خلقٌ كثير من الأنصار[5].

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري، المطبوع مع فتح الباري (١/ ٦٤) رقم (٨)، كتاب الإيمان. وصحيح مسلم (٣/ ١٣٣٣)، حديث رقم (١٧٠٩).

(٢) انظر: أحمد البناء، الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد (٢٠ / ٢٦٨)، والقسطلاني، المواهب اللدنية (١/ ٢٧٩)، وابن هشام، السيرة النبوية المطبوعة مع الروض الأنف (٢/ ١٨٥)، وابن سيد الناس، عيون الأثر (١/ ٥٧ - ١٥٨)، والشامي، سبل الهدى (٣/ ٢٧٠).

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ١٥١).

(٤) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٦٦)، والحلبي، إنسان العيون (٢/ ١٦٢).

(٥) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٢٢٣).

إسلام سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير علىٰ يد مصعب بن عمير ﷺ:

كان مصعب -رضي الله تعالىٰ عنه- نازلًا علىٰ أسعد بن زرارة -رضي الله تعالىٰ عنه- في المدينة، وفي يومٍ خرج أسعد بن زرارة -رضي الله تعالىٰ عنه- بمصعب بن عمير -رضي الله تعالىٰ عنه- يريد به دار بني عبد الأشهل، فدخل به حائطًا من حوائط بني ظفر. فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم.

وسعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، يومئذ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مشرك. فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: انطلق إلىٰ هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليُسفِّها ضعفاءنا، فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منّي حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدمًا. قال: فأخذ أُسيد بن حضير حربته، ثم أقبل إليهما؛ فلما رآه أسعد بن زرارة، قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك، فاصدق الله فيه؛ قال مصعب: إن يجلس أكلمه. قال فوقف عليهما متشتمًا، فقال: ما جاء بكما إلينا تُسفّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة. فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرا قبلته، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره؟ قال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن؛ فقالا: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهّله، ثم. قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تصلي. فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلًا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من في قومه، وسأرسله إليكما الآن؛ سعد بن معاذ.

ثم أخذ حربته وانصرف إلىٰ سعد وقومه، وهم جلوس في ناديهم؛ فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلًا، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من

عندكم. فلما وقف علىٰ النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حُدِّثت أن بني حارثة قد خرجوا إلىٰ أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك، ليخفروك. قال: فقام سعد مغضبًا مبادرًا، تخوُّفًا للذي ذكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئًا، ثم خرج إليهما؛ فوقف عليهما متشتمًا.

ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة! أما والله، لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، أتغشانا في دارينا بما نكره. قال: فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع، فإن رضيت أمرًا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفت. ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، لإشراقه وتسهله، ثم قال لهما: وكيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين، قالا: تغتسل فتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، قال: فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته، فأقبل عامدًا إلىٰ نادي قومه.

قال: فلما رآه قومه مقبلًا، قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم. فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا، وأيمننا نقيبةً. قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتىٰ تؤمنوا بالله وبرسوله.

قالا: فوالله ما أمسىٰ في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة. ولم يتبقَّ منهم أحد إلا الأصيرم، فإنه تأخر وأسلم يوم أُحُد وفيها قُتِلَ[(١)].

---

(١) انظر تفصيل قصة إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضيررضي الله عنهما في: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٥٨-٦٠) وابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ١٥٢- ١٥٣)، وقد كتبت في هذه القصة بمفردها دراسة دعوية مستقلة بعنوان (وقفات دعوية في رحلة سفير الدعوة الأول إلى المدينة مصعب بن عمير ﷺ). وهو من مطبوعات دار العاصمة بالرياض، وموجود منها نسخة إلكترونية في الإنترنت.

ويقول النووي -رحمه الله تعالىٰ-: (وأسلم علىٰ يديه -أي مصعب بن عمير رضي الله عنه- سعد بن معاذ وأسيد بن حضير -رضي الله تعالىٰ عنهما-، وكفىٰ بذلك فضلًا وأثرًا في الإسلام)[١].

ومع حلول الموسم التالي عاد مصعب بن عمير رضي الله عنه إلىٰ مكة، بخبر انتشار الإسلام في المدينة وكثرة الداخلين فيه منها[٢].

الفوائد المستخلصة من هذا الجزء من السيرة النبوية المباركة

الأولىٰ: حُسن التعامل والرد من أهل المدينة؛ سواء أكانوا أفرادًا أو جماعات، عندما يقابلهم الرسول ﷺ ويدعوهم إلىٰ الإيمان. ولا شك أن التعامل الطيب مفتاح كل خير، فبحُسن قولهم، وطيب ردودهم كان التوفيق من نصيبهم، مع ما دبَّر الله لهم من الخير العظيم بإيواء الرسول ﷺ ونصرته.

الثانية: لقد تميَّز المجتمع المدني بميزات، جعلت منهم بيئة صالحة للبذرة الخيرة المباركة التي أراد الله أن تورق وتؤتي ثمارها عندهم. ومن هذه الميزات:

١- إن قبيلة الأوس والخزرج قبيلة يمنية، والأوس والخزرج أخوان شقيقان أمهما قيلة، أبوهم حارثة قدموا من اليمن واستوطنوا المدينة، وقد قال الرسول ﷺ في أهل اليمن: «أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدةً[٣] وألين قلوبًا، الإيمان يمان، والحكمة يمانية، والفخر والخيلاء في أصحاب الإبل، والسكينة والوقار في أهل الغنم»[٤]. وأهل مكة والطائف أهل إبل فيهم الفخر والخيلاء، وهو مانع من موانع المتابعة للغير.

---

(١) النووي، تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٩٦).

(٢) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٤٧).

(٣) أرق أفئدة: أي قلوبهم أكثر إشفاقًا وتأثرًا.

(٤) صحيح البخاري (٥/ ١٧٣) رقم (٤٣٨٨)، واللفظ له من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-، وصحيح مسلم (١/ ٧٣) رقم (٥٢).

٢- مجاورة الأوس والخزرج لليهود وسماعهم المستمر من اليهود عن التوراة، ورجوع اليهود إلىٰ نصوصها الموجودة معهم، مما أوجد في أذهان الأوس والخزرج قبول نصوص الوحي، وتقبُّل فكرة وجود نبيّ يُوحَىٰ إليه، بخلاف قريش؛ فقد قال الله -تعالىٰ- عنهم: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [يس:٦]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [السجدة:٣].

٣- وجود حروب بينهم أنهكتهم وجعلتهم يتلمّسون كلّ سبب يمكن أن يصلح ما بينهم، وينزع فتيل الحرب ويعود الوئام والاستقرار في ديارهم. وقد صرَّحوا بذلك في أول لقاء لهم مع الرسول ﷺ.

وفوق كل ذلك وقبله تدبير الله -جل شأنه-، فالله أعلم حيث يجعل رسالته، وربك يخلق ما يشاء ويختار. ويكرم من يشاء إكرامه، ومن يهن الله فما له من مكرم.

الثالثة: إن الرسول ﷺ لما عرض الإسلام علىٰ أهل المدينة في العقبة قال بعضهم لبعض: (إنه النبي الذي توعدكم به يهود)، وكان هذا بداية الاستجابة للرسول ﷺ؛ فرغم كونهم مشركين إلا أن هذه المعرفة مع قلتها نفعتهم في الهداية والاستجابة، وهذا مؤشر إلىٰ أهمية العلم ومكانته وفائدته، وإن كان العلم لم ينفع اليهود في الاستجابة، لكنه نفع هنا، ونفع عند بعض اليهود في التصديق والإيمان بالرسول ﷺ في أول لقاء -كما سيأتي-.

يقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (ولم يكن حيّ من العرب أعلم بالرسول ﷺ حين ذكر، وقبل أن يذكر من هذا الحي من الأوس والخزرج، وذلك لما كانوا يسمعون من أحبار يهود)[1]. فسِعة اطلاع المسلم وثقافته عون له في الاهتداء والوصول إلىٰ الحق.

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ١٥٣).

الرابعة: عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان يوم بُعَاث[1] يومًا قدّمه الله لرسوله ﷺ، فقدِم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم وقُتِلَتْ سراتُهم، وجُرِحُوا، فقدّمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام)[2].

يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- عن يوم بُعَاث: (فقُتِلَ فيها من أكابرهم من كان لا يؤمن، أي يتكبر أن يدخل في الإسلام حتىٰ لا يكون تحت حكم غيره، وقد كان بقي منهم من هذا النحو عبد الله بن أبي ابن سلول)[3]، وقد شاء الله -سبحانه وتعالىٰ- أن تكون هذه الواقعة العظيمة قُبَيْلَ مَقْدَمِ النبي ﷺ إلىٰ المدينة؛ ليتحقق أمران:

الأول: نعمة الله -سبحانه وتعالىٰ- علىٰ رسوله ﷺ الذي أزال من طريقه أولئك الرؤساء الذين قد يكون في بقائهم معارضة كبيرة للدعوة، شبيهًا بما جرىٰ في مكة، حتىٰ أصبحوا عقبة عاتية دون دخول مَن يرغب في الإسلام، فأصبح طريق الدعوة في المدينة قد سلم من أولئك الأكابر الذين منهم مَن يتكبّر عن الدخول في الإسلام ويأنف من الانضواء تحت حكم غيره، ويمنع غيره من الدخول في الإسلام، وتلك تقدمة قدّمها الله -جل شأنه- لنبيه ﷺ كما قالت عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-، وأبقىٰ الله -جل شأنه- نموذجًا واحدًا من هؤلاء يُذَكِّرُ بهم، وبنعمة الله علىٰ نبيه في زوالهم قبل مجيئه، وهذا النموذج الذي بقي هو عبد الله بن أبي ابن سلول.

---

(١) بُعَاث: بضم الموحدة وتخفيف المهملة مكان، ويقال: حصن، وقيل: مزرعة عند بني قريظة كانت به وقعة بين الأوس والخزرج، فقُتل فيها كثير منهم، وذلك قبل الهجرة بخمس سنين، ابن حجر، الفتح (٧/ ١١١)، وحددها كتاب معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية بأنها: (في الشمال الشرقي من المدينة في الطرف الغربي الشمالي من نخل العوالي اليوم)، عاتق البلادي (ص ٤٧).

(٢) صحيح البخاري، المطبوع مع فتح الباري لابن حجر (٧/ ١١٠)، حديث رقم (٣٧٧٧).

(٣) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ١١١)، وانظر: السمهودي، وفاء الوفاء (١/ ٢١٨)، والشامي، سبل الهدى (٣/ ٢٦٦)، وأحمد البناء، بلوغ الأماني (٢٠ / ٢٦٧).

الثاني: لتتهيأ النفوس لقبول الإسلام وليظهر فضل الإسلام علىٰ الأنصار، فقد جمعهم بعد فُرْقَةٍ، وغرس في قلوبهم المحبةَ بعد العداوةِ، والوئامَ بعد الشقاقِ[1].

الخامسة: نعمة الله بهذا الدين الذي يجمع القلوب ويُوَحِّدُها ويوجد الألفة، فالأوس والخزرج كانوا أعداء، وهم في قتال دام سنين عديدة، ولم تتوقف الدماء وتتحد القلوب إلا بعد إسلامهم، واليوم ونحن نرىٰ الحروب والنزاعات والاقتتال فنقول: إن الإسلام كما جمع الأوس والخزرج وأَلَّفَ بين قلوبهم، فكذلك لن يؤلِّف بين قلوب الناس اليوم إلا التمسك بالإسلام والانضواء تحت لوائه؛ ليصبح الناس حينئذ إخوانًا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران:١٠٣].

السادسة: إن الرسول ﷺ يُبْعَثُ في مكة بين قبيلته ويستمر يعرض عليهم ﷺ نفسَه أكثر من عشر سنوات، ولم يجد منهم إلا استجاباتٍ فرديةً، ويجد العداوة الجماعية من غالبيتهم، ولكنَّ النصرة تأتي من قبيلة أخرىٰ خارج مكة؛ ليدلنا هذا علىٰ أن دعوة محمد ﷺ ليست دعوة خاصة، بل هي دعوة عالمية للناس كافَّة، يعرضها الرسول ﷺ علىٰ ابن مكة كما يعرضها علىٰ سائر القبائل الوافدة إلىٰ مكة، ومن استجاب لها وناصرها فهو أولىٰ بها. قال -تعالىٰ-: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد:٣٨]، وهذا ليس خاصًّا بزمانه ﷺ، بل إن مَن استجاب له ولو كان في أقصىٰ الأرض هو أولىٰ به ممَّن في مكة أو المدينة متىٰ أعرض عن هذا الدين.

السابعة: من هذا الموقف ندرك الجهود الكبيرة التي كان يبذلها الرسول ﷺ في الدعوة إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-، فقد كان يتجول ليلًا ونهارًا، دون أن يؤثر فيه كثرة الإعراض، أو يتسرب إليه شيء من اليأس.

(١) انظر: أبو شهبة، السيرة (١/ ٤٣٢- ٤٣٣).

الثامنة: إن الفرج يأتي بعد استواء الشدة، واستحكامها، فقد دعا الرسول ﷺ أهل مكة أكثر من عشر سنين، وخرج إلىٰ الطائف فلم يلقَ عندهم إلا شرًّا، وعرض نفسه علىٰ القبائل مدة تزيد عن خمس سنوات متتالية، ولم يجد ناصرًا، أو مُؤويًا، وبعد أن استحكمت واشتدت جاء الفرج من الله -سبحانه وتعالىٰ-. وهكذا لا يتسرَّب اليأس إلىٰ قلب المؤمن، وليعلم أنه كلما اشتدت عليه الأزمة فهو إيذان بقرب الفرج. فما بعد سواد الليل إلا نور الصبح.

التاسعة: إن الفرج يأتي في زمان أو مكان قد لا يتوقعه الشخص، فالرسول ﷺ خرج إلىٰ الطائف، وكان يعرض نفسه علىٰ القبائل، ثم مر علىٰ نفر من الخزرج، فعرض عليهم نفسه كما كان يعرض علىٰ سائر القبائل؛ فإذَا بهذه الفئة تكون بدايةَ الفرج ونواةَ الخير التي قبلت هذه الدعوة وناصَرتها، وكانت هي الفئة التي يبحث عنها الرسول ﷺ في سنوات عرض دعوته علىٰ القبائل كلها.

العاشرة: في بيعة العقبة الأولىٰ كانت البيعة علىٰ ترك الشرك بالله: «بايعوني علىٰ أن لا تشركوا بالله شيئًا»، فهذا أول شرط، وهو ترك الشرك بالله -سبحانه وتعالىٰ-، وإفراد الله -سبحانه وتعالىٰ- بالعبادة وتوحيده، وهذه هي خلاصة دعوته ﷺ ودعوة الأنبياء كافة ودعوة الدعاة إلىٰ الله في كل مكان وزمان: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]. وهذا ما نُذكِّر به كُلَّ مسلمٍ، فالتوحيد هو الأساس وإفراد الله بالعبادة هو أول مطلوب، ولا يصح من المسلم أن يتهاون في الشركيات أو البدعيات أو الخرافيات، أو أي عمل ينافي التوحيد أو ينافي كماله.

ومن جاء بالتوحيد رُجِيَ له المغفرة، ومن جاء بكل الأعمال بلا توحيد فلا قيمة لعمله، يقول -تعالىٰ-: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥]. بل -كما ترىٰ- الشرك محبط للأعمال الصالحة الأخرىٰ، والعياذ بالله.

فيا أخي! التوحيد؛ إفراد الله بالعبادة، لا تقف بين يدي الله يوم القيامة، وقد كنت تذهب إلىٰ غيره ترجوه، أو تدعوه. أو في قلبك تعلق بغيره، تظن أنه يملك لك شيئًا، والله -جل شأنه- مُطّلع علىٰ ما في قلبك. ألا تعلم أن هذا التعلق هو صورة من صور العبادة التي لا تصلح إلا لله -سبحانه وتعالىٰ-.

ماذا سيكون موقفك، وقد كنت تصرف بعض العبادات التي لا تصلح إلا له -سبحانه-، وأنت كنت تصرفها لغيره من أموات لا يملكون لأنفسهم شيئًا فضلًا أن يملكوا لغيرهم ضرًّا أو نفعًا؟!

إذا أخلص العبد قلبه وعمله لله، وعرف أن النفع بيده -سبحانه-، وأن الضر لا يكون إلا إذا أذن به -سبحانه وتعالىٰ-، ووحَّد الله في توجُّهه واتبع الرسول ﷺ فيما جاء به فقد أحسن العمل وله البشرىٰ من الله -سبحانه وتعالىٰ-.

الحادية عشرة: إن النفر الستة الذين لقوا الرسول ﷺ في منىٰ، وتحدَّث معهم الرسول ﷺ، وآمنوا به وصدقوه لم يكتفوا بذلك، بل انقلبوا إلىٰ قومهم دعاةً إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-، ولذلك فمسؤولية المسلم في الدعوة إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ- مسؤولية عظيمة، عليه أن يدعو غيره إلىٰ هذا الدين، ويستشعر مسؤوليته، ويدرك واجبه كما أدركه أولئك النفر من الخزرج سواء في اللقاء الأول بالرسول ﷺ أو اللقاء الثاني الذي يُسَمَّىٰ «بيعة العقبة الأولىٰ».

وليس من شروط الداعية أن يعرف كل شيء، بل يُبلّغ ما تعلَّمه، ولو حديثًا واحدًا كما قال ﷺ: «بلّغوا عني ولو آية»[1].

الثانية عشرة: مشروعية بعث الدعاة إلىٰ الله، وإرسالهم إلىٰ المناطق؛ لتعليم الناس ودعوتهم إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-؛ أُسوةً بفعل الرسول ﷺ حينما بعث مصعب بن عمير رضي الله عنه إلىٰ المدينة؛ لدعوة الناس وتعليمهم.

---

(١) صحيح البخاري (٤/ ١٧٠) رقم (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما-.

الثالثة عشرة: وقفت متأملًا مقارنًا بين قول زعماء الطائف للرسول ﷺ استهزاءً به: «أما وجد الله غيرك يرسله»، وقول أسيد بن حضير -رضي الله تعالىٰ عنه-: «أنصفت»؛ لما قال له مصعب -رضي الله تعالىٰ عنه-: «اجلس فاسمع فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن لم ترضه أزلنا عنك ما لم ترضه».

كفار الطائف جاءهم الرسول بنفسه، ومع ذلك عاملوه أسوأ معاملة. وفي المدينة لم يأتهم الرسول ﷺ، وإنما جاءهم رسولُ الرسولِ مصعبٌ -رضي الله تعالىٰ عنه-، ومع ذلك احترموا كلامه وسمعوا منه، وأصغوا إليه، ثم قبلوا ما قاله لما رأوه حقًّا. فهذه القلوب بيد الله -جل شأنه-؛ ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥]؛ ولذلك لا ينبغي للمسلم أن يغفل عن التضرع إلىٰ الله -جل شأنه- في طلب الهداية والعون علىٰ الطاعة والتوفيق لمرضاة الله -جل شأنه-.

المبحث الرابع

فقه السيرة في بيعة العقبة الثانية

عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: مكث رسول الله ﷺ عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعُكَاظ ومجنة[(١)] وفي المواسم بمنىٰ؛ يقول: «من يؤويني؟ من ينصرني حتىٰ أبلغ رسالة ربي وله الجنة؟». حتىٰ إن الرجل لَيَخْرُجُ من اليمن أو من مُضَر فيأتيه قومه فيقولون: احذر غلام قريش، لا يَفْتِنْكَ عن دينك، ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتىٰ بعثنا الله إليه من يثرب، فآويناه وصدّقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن، فينقلب إلىٰ أهله، فيسلمون بإسلامه حتىٰ لم يبقَ دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، ثم ائتمروا جميعًا؛ فقلنا: حتىٰ متىٰ نترك رسول الله ﷺ يُطْرَدُ في جبال مكة ويُخَاف، فرحل إليه منا سبعون[(٢)] رجلاً حتىٰ قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شِعْب العقبة، فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين حتىٰ توافينا، فقلنا: يا رسول الله نبايعك، قال: «تبايعونني علىٰ السمعِ والطاعةِ في النشاطِ والكسلِ -وقال أبو حاتم: في المنشط والمكره-[(٣)] والنفقةِ في العُسْرِ واليُسْرِ، وعلىٰ الأمرِ

---

(١) عكاظ: اسم مكان بقرب مكة يقام به في الجاهلية سوق يقيمون فيه أيامًا، ومجنة: بفتح الميم وكسرها مع فتح الجيم: موضع بأسفل مكة على أميال، وكان يقام به للعرب سوق، انظر: البناء، بلوغ الأماني (٢٠ / ٢٧٠).

(٢) عند ابن هشام: أنهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان، ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ١٨٨- ١٨٩) و(ص ٢١٠)، المطبوعة مع الروض الأنف.

(٣) أي ما تنشط له النفوس مما يسرها، وما تكرهه النفوس مما يشق عليها، والمراد أنهم يطيعون الرسول ﷺ في كل أمره ونهيه، سهل أو شق. الزرقاني، شرح المواهب، تصحيح محمد الخالدي، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٧)، (٢/ ٨١-٨٢).

بالمعروفِ والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافون لومةَ لائمٍ، وعلىٰ أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمتُ عليكم مما تمنعون منه أنفسَكم وأزواجَكم وأبناءَكم ولكم الجنة»[١].

قال: فقمنا إليه فبايعناه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة -رضي الله تعالىٰ عنه-، وهو من أصغرهم؛ فقال: رويدًا يا أهل يثرب، فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضّكم السيوف؛ فإما أنتم قوم تصبرون علىٰ ذلك، وأجركم علىٰ الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جبنة[٢]؛ فبينوا ذلك فهو عذر لكم عند الله، قالوا: أَمِط عنا يا أسعد! فوالله لا ندع هذه البيعة أبدًا ولا نسلبها أبدًا[٣]. قال: فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط يعطينا علىٰ ذلك الجنة. -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين-[٤].

وبعد أن تمت بيعة العقبة علىٰ هذا النحو صرخ الشيطان علىٰ العقبة بأنفذ صوت

---

(١) أبو حاتم البستي، السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، صححه وعلق عليه السيد عزيز بك، الطبعة الثالثة (بيروت: دار الكتب الثقافية ١٤١٧)، (١/ ١٢١)، وانظر: القسطلاني، المواهب اللدنية (١/ ١٦٥)، والحلبي، السيرة الحلبية (٢/ ١١).

(٢) جبنة: أي: جبنا، البناء، بلوغ الأماني (٢٠ / ٢٧٠).

(٣) لا نسلبها: أي: لا نرفضها ولا نتركها، البناء، بلوغ الأماني (٢٠ / ٢٧٠).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده: أحمد البناء، الفتح الرباني (٢٠ / ٢٦٩- ٢٧٠)، وقال في تخريجه في بلوغ الأماني: (وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد جامع لبيعة العقبة ولم يخرجاه). قلت: وأقره الذهبي، وقال الحافظ ابن كثير في تاريخه: (هذا إسناد جيد على شرط مسلم) ا.هـ كلام البنا. وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ١٥٩- ١٦٠).

سُمِعَ قائلًا: يا أهل الجباجب[1] هل لكم في مذمم[2] والصباة[3] معه قد اجتمعوا علىٰ حربكم؟! فقال الرسول ﷺ: «هذا أزب العقبة[4]، هذا ابن أزيب، أما والله يا عدو الله لأتفرغن لك»[5].

ثم أذن الرسول ﷺ في الانصراف قائلًا: «ارفضوا[6] إلىٰ رحالكم»؛ فقال العباس بن عبادة بن نضلة -رضي الله تعالىٰ عنه-: يا رسول الله والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن علىٰ أهل منىٰ غدًا بأسيافنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «لم نُؤْمَرْ بهذا»[7].

---

(١) الجباجب: منازل منى: بلوغ الأماني (٢٠ / ٢٧٤). وقال في لسان العرب (١/ ٢٥٢-٢٥٣): الجباجب: هي جمع جبجب بالضم وهو المستوي من الأرض ليس بحزن، وهي هنا أسماء منازل بمنى، سميت لأن كروش الأضاحي تُلقَى فيها أيام الحج. والجباجب الكرش، يجعل فيها اللحم يتزود به في الأسفار، أي تجعل الكرش وعاء للحم لنقله، فسميت بذلك تلك المنطقة التي تُلْقَى فيها الكروش، الجباجب، والله أعلم.

(٢) مذمم: هذه كلمة تطلقها قريش وتعني بها محمدًا ﷺ، وفي صحيح البخاري (٣/ ١٢٩٩)، (تحقيق مصطفى البغا)؛ قال رسول الله ﷺ: « ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم؟! يشتمون مذممًا ويلعنون مذممًا وأنا محمد».

(٣) الصباة: جمع صابئ، وكان الكفار يُطلقون هذه الكلمة على من دخل في الإسلام على عهد الرسول ﷺ في بداية الإسلام.

(٤) أزب العقبة: الأزب من أسماء الشياطين، وأزب العقبة شيطان هذا اسمه، بلوغ الأماني (٢٠/ ٢٧٤- ٢٧٥).

(٥) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ١٩٢)، ومسند الإمام أحمد، الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد للبناء (٢٠ / ٢٧٤)، وابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ١٦٤). وقال السهيلي في الروض الأنف (٤/ ٧٩): «وأزب العقبة، وهو اسم شيطان».

(٦) أي: تفرقوا.

(٧) أخرجه الإمام أحمد، مسند الإمام أحمد (٣/ ٤٦٢)، انظر: سيرة ابن هشام المطبوعة مع الروض الأنف (٢/ ١٩٢)، وابن الجوزي، الوفاء بأحوال المصطفى (١/ ٣٦١)، وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٤٢- ٤٥)، وقال (ص ٤٥): (رواه أحمد والطبراني بنحوه ورجال أحمد رجال الصحيح، غير ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع).

نقف مع أحداث بيعة العقبة الثانية؛ لنأخذ منها الفوائد التالية:

الأولىٰ: إن الرسول ﷺ تدرَّج مع الأوس والخزرج في مبايعتهم، فقد لقيهم أول مرة في العام الحادي عشر من البعثة، وكانوا ستة نفر فقط، وتلا عليهم القرآن وعلّمهم التوحيد، واطمأن علىٰ استجابتهم، وواعدهم العام الذي يليه، فحضر منهم اثنا عشر، وعلّمهم التوحيد وزاد أن بايعهم وبعث معهم مصعب بن عمير -رضي الله تعالىٰ عنهم- يُعلّمهم الإسلام، ثم في العام الثالث عشر من البعثة حضر سبعون منهم، فأخذ منهم النقباء علىٰ قومهم، وبايعهم بيعة الإيواء والنصرة، وأن يدافعوا عنه إذا قدم إليهم كما يدافعوا عن أنفسهم وأهليهم ونسائهم وأولادهم. وقال لهم: «الدم الدم، والهدم الهدم»(١).

وإن من أعظم أسباب نجاح الدعوة: التدرُّج، وترك العجلة، واتباع المنهج الصحيح، والتروي في الخطوات، والتوفيق بيد الله -سبحانه وتعالىٰ-.

الثانية: ما أعظم هؤلاء الرجال الذين كانوا يتنافسون في مبايعة الرسول ﷺ وهم يدركون تَبِعة ذلك، وهي حرب الأحمر والأسود، خاصةً لما قال لهم الرسول ﷺ عندما سألوه وقالوا ما لنا بهذه البيعة وتبعاتها؟ قال: «الجنة».

كيف اشتاقوا للجنة وضحّوا لأجلها هذه التضحيات، وهم لم يروا الرسول ﷺ إلا سويعات ولم يسمعوا من القرآن إلا القليل ولم تبلغهم السُّنة.

وقد كانوا يتنافسون فيما بينهم أيهم يبايع رسول الله ﷺ أولًا، حتىٰ لقد اختلفت الروايات في من ضرب بيده علىٰ يد رسول ﷺ أولًا. كل جماعة يرون أن أول من ضرب يده علىٰ يد رسول ﷺ مبايعًا منهم. فقيل: أسعد بن زرارة -رضي الله تعالىٰ عنه-، وقيل البراء بن المعرور -رضي الله تعالىٰ عنه- (٢)، وقيل غير ذلك.

(١) ابن هشام السيرة (٢/ ٦٤) قال ابن هشام: ويقال: الهدم الهدم: يعني الحرمة. أي ذمتي ذمتكم، وحُرمتي حرمتكم.
(٢) انظر: ابن هشام، السيرة (٢/ ٦٧).

الثالثة: إذا كانت طاعة الرسول ﷺ واجبة، فما الأمر الذي أُضيف في هذه البيعة؟ الجواب عن هذا أن يقال: (إن النبي ﷺ صار له بهذه البيعة أعوان، وأنصار يُنفّذون أمره، ويجاهدون مَن خالفه، فلم يستفد بالأعوان ما يحتاج أن يضمه إلىٰ الرسالة مثل كونه إمامًا، أو حاكمًا، أو ولي أمر؛ إذ كان هذا كله داخلًا في رسالته، ولكنَّ بالأعوان حصل له كمال قدرة أوجبت عليه من الأمر والجهاد ما لم يكن واجبًا بدون القدرة، والأحكام تختلف باختلاف حال القدرة والعجز، والعلم وعدمه، كما تختلف باختلاف الغنىٰ والفقر، والصحة والمرض)[1].

وهذا فيه ردّ علىٰ بعض الناس الذين قالوا: إن الرسول ﷺ استفاد من هذه البيعة مشروعيته السياسية، وهذا قصور في فهم هذه البيعة؛ إذ الرسول ﷺ طاعته واجبة بصفته «رسول» قبل البيعة وبعدها، وكان الرسول ﷺ يبايع أصحابه عند دخولهم الإسلام، ويبايعهم أحيانًا بعد إسلامهم تجديدًا للعهد وتذكيرًا بالمقام عليه[2].

وعلىٰ هذا يتضح أن هذه البيعة أضافت أمرين:

الأول: إن الرسول ﷺ حصل له كمال قدرة أوجبت عليه من الأمر والجهاد ما لم يكن واجبًا بدون القدرة.

الثانية: تجديد العهد وتذكير للصحابة بالمقام عليه.

الرابعة: بيعة العقبة الثانية من أهمّ الأحداث في الإسلام؛ فمنها فُتِحَ الطريقُ أمام الصحابة -رضوان الله تعالىٰ عنهم- للهجرة إلىٰ المدينة، والنجاة بدينهم، ثم هجرة الرسول ﷺ، ومنها كانت غزوة بدر الكبرىٰ، والفتوحات الإسلامية.

---

(١) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، تحقيق محمد رشاد سالم (١/ ٨٦).

(٢) انظر: ابن رجب، فتح الباري، حققه محمود بن شعبان بن عبد المقصود، وزملاؤه، الطبعة الأولى (المدينة: مكتبة الغرباء ١٤١٧)، (١/ ٨٥).

يقول كعب بن مالك ﵁: (ولقد شهدت مع النبي ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا علىٰ الإسلام، وما أحبّ أن لي بها مشهدَ بدرٍ وإن كانت بدرٌ أذكرَ في الناس منها)[1].

قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- في شرحه لهذا الحديث: (لأن مَن شهد بدرًا، وإن كان فاضلًا بسبب أنها أول غزوة نصر فيها الإسلام، لكن بيعة العقبة كان سببًا في فُشوّ الإسلام، ومنها نشأ مشهد بدر)[2].

الخامسة: يدل علىٰ عظمة هذه البيعة وخطورتها، وأثرها في تحوُّل مسار الدعوة الإسلامية أن الشيطان لم يصبر، لما رأىٰ اجتماع هؤلاء واتفاقهم مع الرسول ﷺ، وقد أدرك الخطر العظيم من هذا الاجتماع علىٰ إقامة التوحيد وكسر الوثنية، والنصر العظيم الذي تحقّق لمحمد ﷺ ولهذه الرسالة الخالدة؛ فصرخ بأعلىٰ صوته مناديًا أولياءه من المشركين مستنصرًا بهم، مستصرخًا لهم.

وكما أن الشيطان يوم عرفة لا يُرَىٰ أصغر ولا أحقر منه لما يرىٰ من تنزُّل الرحمة[3]، وهرب يوم بدر لما رأىٰ الملائكة. قال -تعالىٰ-: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال:٤٨]. وفي هذا اليوم أيضًا صرخ بأعلىٰ صوته: «يا أهل الجباجب! -منازل في منىٰ- هل لكم في مذمم والصباة قد اجتمعوا علىٰ حربكم؟».

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع فتح الباري (٧/ ٢١٩) رقم (١٨٨٩).

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٢٢١).

(٣) عن طلحة بن عبيد الله بن كريز؛ أن رسول الله ﷺ، قال: «ما رُئِيَ الشَّيطانُ يَومًا هو فيه أصغَرُ، ولا أدحَرُ، ولا أحقَرُ، ولا أغيَظُ منه يَومَ عَرَفةَ، وما ذاك إلّا لِما يَرى مِن تَنزُّلِ الرَّحمةِ، وتَجاوُزِ اللهِ عنِ الذُّنوبِ العِظامِ، إلّا ما كان مِن يَومِ بَدرٍ. فقيلَ: وما رأى مِن يَومِ بَدرٍ؟ قال: أما إنَّه قد رأى جِبريلَ وهو يَزَعُ المَلائِكةَ» أخرجه الإمام مالك في الموطأ (٣/ ٦٢١) رقم (١٥٩٧) تحقيق محمد مصطفى الأعظمي (نشر مؤسسة زايد للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي، الأمارات)، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.

السادسة: الشرط الأول من شروط بيعة العقبة الثانية: السمع والطاعة، وعدم منازعة ولي الأمر، والرسول ﷺ يتحدّث إلىٰ صحابته، ولذلك لم يبدأ بالتوحيد كالعادة؛ لأن هذه المسألة سبق أن تعلموها، في لقاء سابق، وهم اليوم في مرحلة جديدة، لبناء الدولة الإسلامية التي أساسها السمع والطاعة لولي الأمر، وما قيمة ولي الأمر إذا كان لن يُسمع أمره ويُطاع؟! وقد تتابعت توجيهات الرسول ﷺ للصحابة بالسمع والطاعة لولي الأمر؛ قال -تعالىٰ-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ [النساء:٥٩]، وعن أنس بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه- عن النبي ﷺ قال: «اسمعوا وأطيعوا وإن استُعمل حبشيّ كأن رأسه زبيبة»[(١)].

ومما ينبغي التأكيد عليه هنا، هو أن الرسول ﷺ قال: «ولا ننازع الأمر أهله»؛ وهذا تأكيد لحق وليّ الأمر بأن لا يُنازَع؛ لأنه متىٰ نُوزِعَ شُغِلَ عن العمل للمسلمين، وضاع وقت الأمة وجهدها في مشاحنات، والأصل أن ولي الأمر يُعَان ولا يُعَاق، وتُنفَّذ تعليماته؛ لما فيها من الاستقرار وصلاح الأمة ولو خالفت رأي البعض، ولا يُتعرض لاجتهاداته بالنقد والانتقاص. والأصل هو طاعة ولي الأمر؛ سواء أمر بما أمر الله به، أو بما سكت عنه الشارع، فالشرط هو ألَّا يأمر بمعصية لله، وما عدا ذلك فيُطَاع ولا تجوز مخالفته.

السابعة: قوله ﷺ في البيعة: في النشاط والكسل أو في المنشط والمكره، هذه قضية مهمة، فبعض الناس أصحاب مصالح، وولاؤه لمصلحته، ينقلب معها حيث كانت، لا عهد له، ولا يؤتمن علىٰ أمر، قال -تعالىٰ-: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ ﴾ [التوبة:٥٨]، هؤلاء ليس لهم منشط ولا مكره، أما الصادق فهو مثل سعد بن عبادة -رضي الله تعالىٰ عنه- عندما قام خطيبًا في غزوة بدر، عَنْ أَنَسٍ -رضي الله تعالىٰ عنه-، أَنَّ

(١) صحيح البخاري (١/ ١٤٠) رقم (٦٩٣).

رَسُولَ اللهِ ﷺ شَاوَرَ حِينَ بَلَغَهُ إِقْبَالُ أَبِي سُفْيَانَ،... فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، -رضي الله تعالىٰ عنه-؛ فَقَالَ: (إِيَّانَا تُرِيدُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَهَا الْبَحْرَ لَأَخَضْنَاهَا، وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَىٰ بَرْكِ الْغِمَادِ لَفَعَلْنَا)[1].

ثم لنعلم أنّ كلّ الناس في المنشط حاضرون، لكنَّ التَّميُّز هو الوفاء في المَكْرَه، والناس ليسوا بحاجة إلىٰ أصدقاء وإخوة لوقت السراء، ولكنهم بحاجة إليهم في وقت الضراء، فالمَكْرَه والضراء هما ميدان الاختبار الحقيقي للوفاء.

الثامنة: في اجتماع الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- إلىٰ الرسول ﷺ ومناصرتهم له، يتبين لنا المصلحة العامة في التفاف الناس حول علمائهم؛ فالعالم بمفرده لا يستطيع أن يفعل شيئًا إذا لم يلتفّ الطلاب حوله، ويساندوه، ويؤازروه، لكي يُستفاد من عِلْمه، والناس عادةً هم الذين يصنعون للعالم المكانة بمؤازرته، وفي الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ اللهَ لا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبادِ، ولَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بقَبْضِ العُلَماءِ، حتّىٰ إذا لَمْ يُبْقِ عالِمًا اتَّخَذَ النّاسُ رُؤُوسًا جُهّالًا، فَسُئِلُوا فأفْتَوْا بغيرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا»[2]؛ فالناس هم الذي يُبرزون العالم بالرجوع إليه واستشارته وسؤاله حتىٰ تصبح له مكانة عند الناس.

التاسعة: الشرط الثاني من شروط بيعة العقبة الثانية هو النفقة في العسر واليسر، بذل المال في سبيل الله -سبحانه وتعالىٰ-. (ومن أعظم الجهاد: الجهاد المالي، والله -تعالىٰ- قَدَّمَ الجهادَ بالمال علىٰ الجهاد بالنفس؛ فإن النفقة في سبيل الله أفضل النفقات علىٰ الإطلاق)[3]، والله -سبحانه وتعالىٰ- يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٤٠٣) رقم (١٧٧٩).

(٢) صحيح البخاري (١/ ٣١) رقم (١٠٠)، وصحيح مسلم (٤/ ٢٠٥٨) رقم (٢٦٧٣).

(٣) السعدي، الجهاد في سبيل الله (ص ١٦٩)، المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن السعدي، القسم الخامس، المجلد الأول)، وانظر: ابن تيمية، منهاج السنة (٨/ ٢٣٠).

ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات:١٥].

العاشرة: في عقد البيعة بيان لأهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الدين، يقول الله -سبحانه وتعالىٰ- في صفات المؤمنين: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [التوبة:٧١]؛ فلأهميته نجد الرسول ﷺ يذكره في شروط البيعة، والقرآن الكريم يقرّره في أول أوصاف المؤمنين، ويقرن الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله[1].

الحادية عشرة: وشرط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر درس في أهمية التعاون والتعاضد علىٰ الخير، فالمصطفىٰ ﷺ وهو المُؤيَّد من الله -جل شأنه-، ومع صبره وتحمُّله؛ كان يبحث عن تأييد بشريّ، فلما تهيَّأ له هؤلاء الذي نصروه، استطاع أن ينطلق في عمله؛ قال -تعالىٰ-: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنفال:٦٢]، ومن قبل محمد ﷺ قيل لشعيب -عليه السلام-: ﴿ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴾ [هود:٩١].

الثانية عشرة: في عقد البيعة تجد الوضوح التام من الرسول ﷺ، فرغم أنه يبحث عن مستجيب أو علىٰ الأقل ناصر يؤويه، فهو واضح في شروطه لهؤلاء الذي لَقِيهم من أهل المدينة واستجابوا، فلم يُخادِع، ولم يُجامِل، ولم يُخْفِ شيئًا؛ فمنذ البداية الأمور واضحة لديه، ويوضحها لمن يريد أن يتعامل معه، ويدخل في هذا الدين، وقد بيَّنت هذا في مبحث الاستخفاء بالدعوة.

وهذا شأن المسلم، أن يكون واضحًا، أن يكون صادقًا؛ فالأمور المبنية علىٰ

(١) انظر: فضل إلهي، الحسبة (ص ٢٠)، وفيه تفصيل جيد يرجع إليه.

الخداع سرعان ما تنهار وتتحول العلاقات الطيبة إلىٰ عداوات.

الثالثة عشرة: في بيعة العقبة فضل عظيم للأنصار -رضوان الله تعالىٰ عنهم-، وقد وردت أحاديث كثيرة في فضلهم والثناء عليهم والتذكير بحقوقهم، فمن ذلك:

١) عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ أو قال أبو القاسم ﷺ: «لو أن الأنصار سلكوا واديًا أو شعبًا لسلكتُ في وادي الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار»، فقال أبو هريرة ﵁: (ما ظلَم بأبي وأمي؛ آووه ونصروه، أو كلمة أخرىٰ)[١].

٢) عن البراء ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ أو قال: قال النبي ﷺ: «الأنصارُ لا يحبهم إلا مؤمنٌ ولا يبغضهم إلا منافقٌ، فمن أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللهُ، ومن أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللهُ»[٢].

٣) وعن أنس بن مالك ﵁ عن النبي ﷺ قال: «آية الإيمان حبّ الأنصار، وآية النفاق بُغض الأنصار»[٣].

الرابعة عشرة: (في استجابةِ الأنصار واستعدادِهم لنصرة الرسول ﷺ وتَأَخُّرِ إسلامِ قومِهِ وبني عمه، وسبقِ الأباعدِ إلىٰ الإيمان به حكمةٌ عظيمةٌ؛ إذ لو بادر أهله وأقربوه إلىٰ الإيمان به لقيل: قوم أرادوا الفخر برجل منهم وتعصَّبوا له، فلما بادَر إليه الأباعد، وقاتلوا علىٰ حبّه من كان منهم أو من غيرهم، عُلِمَ أن ذلك علىٰ بصيرة صادقة، ويقين قد تغلغل في قلوبهم ورهبة من الله -تعالىٰ- أزالت صفة قد كانت سَدِكَتْ[٤] في نفوسهم من أخلاق من الجاهلية لا يستطيع إزالتها إلا الذي فطر الفِطرةَ الأولىٰ، وهو القادر علىٰ ما يشاء)[٥].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح (٧/ ١١٢) رقم (٣٧٧٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح (٧/ ١١٣) رقم (٣٧٨٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح (٧/ ١١٣) رقم (٣٧٨٤).

(٤) سدكت: بفتح أوله وكسر ثانيه أي: لزمت، انظر: ابن منظور، لسان العرب (١٠/ ٤٣٩).

(٥) السهيلي، الروض الأنف (٤/ ١٨)، والشامي، سبل الهدى (٤/ ٥٠٥).

الخامسة عشرة: عند المبايعة قام أسعد بن زرارة -رضي الله تعالىٰ عنه-، وأخذ بيده وقال: رويدًا يا أهل يثرب! فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقَتل خياركم وأن تَعضّكم السيوف؛ فإما أنتم قوم تصبرون علىٰ ذلك، وأجركم علىٰ الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جبنة، فبيّنوا ذلك فهو عذر لكم عند الله، قالوا: أَمِط عنا يا أسعد! فوالله لا ندع هذه البيعة أبدًا ولا نسلبها أبدًا، فقاموا إليه وبايعوه، فأخذ عليهم وشرط يعطيهم علىٰ ذلك الجنة -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين-.

هذه حلاوة الإيمان إذا لامست القلب صنعت الأعاجيب وأنْسَت كل تعب أو مشقة، أو مفارقة، أو قتل الخيار. ولكن البلاء عندما يكون القلب قد اكتسىٰ بحجاب غليظ مما اكتسب من الذنوب؛ فاللهم اغفر ذنوبنا واشرح صدورنا للإيمان واملأ قلوبنا من حلاوته.

السادسة عشرة: قول الأنصار -رضي الله تعالىٰ عنهم- السابق لأسعد بن زرارة -رضي الله تعالىٰ عنه-، بعد أن ذكّرهم بما في هذا الإيمان والبيعة من التبعة، ثم إقدامهم علىٰ ذلك؛ بل تسابقهم إليها، يذكّرني هذا الموقف بضده مما يُروىٰ أن الأعشىٰ -إن صح- قدم علىٰ الرسول ﷺ ليسلم، فاعترضه بعض كفار قريش، وقالوا له: يا أبا بصير إنه يُحرِّم الزنا. فقال: والله إن ذلك لأمر ما لي فيه من أرب. فقال: يا أبا بصير: إنه يُحرّم الخمر. فقال: أما هذه فو الله إنَّ في نفسي منها لعُلَالَاتٍ، ولكني منصرف فأتروىٰ منها عامي هذا، ثم آتيه فأسلم. فانصرف فمات في عامه ذلك، ولم يَعُد إلىٰ النبي ﷺ[1]؛ فرغبته في التروي من الخمر صدته عن الإسلام، أي إيمان هذا؟

حتىٰ لو لم تثبت القصة، فليس المقصود الشخص، وإنما المقصود هذه الفكرة التي لا تزال تسمعها من البعض، عندما يستصعب التكاليف، وتغلبه نفسه نحو

(١) ابن كثير، السيرة النبوية (٢/ ٨٠).

الشهوات، ويُمنّي نفسه بالطاعات، حتىٰ يدركه الممات. كثيرون هم الذين أَعْشَتهم الشهوات عن رؤية الحق، وأسكرتهم خمرة الهوىٰ عن تذوق طعم الإيمان، والله المستعان. وشتان بين أحوال الأنصار، وأوحال أعشىٰ كل زمان، والأريب من أخذ الدرس، وكان علىٰ حذر.

السابعة عشرة: في قول الرسول ﷺ: «لم نُؤْمَرْ بهذا»؛ لمَّا استأذن العباس بن عبادة بن نضلة -رضي الله تعالىٰ عنه- في أن يميلوا علىٰ الكفار بأسيافهم، في قوله ﷺ هذا؛ بيان أن هذا الدين وحي وليس رأيًا ولا عاطفةً، فلا بد من الانضباط بالأمر الشرعي والحذر من السير خلف العاطفة، وقبل كل شيء (هل أُمِرْنَا بهذا؟) إنها كلمة، بل قاعدة عظيمة في الدعوة إلىٰ الله بخاصة، وفي غيرها بعـامة، وبها ننجو من البدع والخطأ والخطل[1].

(١) الخطل: المنطق الفاسد المضطرب، انظر: الرازي، مختار الصحاح (ص ١٨١).

المبحث الخامس

فقه السيرة في الإذن للصحابة بالهجرة إلى المدينة

لما تمت بيعة العقبة الثانية لرسول الله ﷺ، وعلم كفار قريش بذلك أيقنت بالخطر عليها، وأن وجود فئة ناصرة للرسول بالمدينة، مُؤذن بتكوين قوة له، فيها الخطر عليهم، ورأوا أنه قد صار للنبي ﷺ مَنَعة، ودار هجرة، فضيَّقوا علىٰ المسلمين وآذوهم، ونالوا منهم من الشتم والأذىٰ والتناول ما لم يكونوا ينالونه أبدًا، فشكا المسلمون ذلك إلىٰ النبي ﷺ، وسألوه الهجرة.

عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ «قد أُريت دار هجرتكم، رأيت سبخة ذات نخل بين لابتين»، وهما الحرّتان، فهاجر من هاجر قِبَل المدينة حين ذكر ذلك رسول الله ﷺ، ورجع إلىٰ المدينة بعض مَن كان هاجر إلىٰ أرض الحبشة[1].

وأمر النبي ﷺ من معه من المسلمين بمكة بالخروج إلىٰ المدينة، والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار، وقال: «إن الله قد جعل لكم إخوانًا، ودارًا تأمنون بها، فمن أراد الخروج فليخرج فإن البلاد قريبة، وأنتم عارفون بها، وهي طريق عيركم إلىٰ الشام»، فجعلوا يتجهزون، ويترافقون، ويتواسون بالمال والظهر، ويُخفون ذلك، وخرجوا أرسالًا، يتراسلون[2].

(١) صحيح البخاري (٥/ ٥٨) رقم (٣٩٠٥).

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة (٢/ ٨٠)، والنجم عمر بن فهد، اتحاف الورى بأخبار أم القرى (١/ ٣٥٣).

فكان أول من هاجر إلىٰ المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين من قريش، من بني مخزوم: أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، واسمه: عبد الله، -رضي الله تعالىٰ عنه- هاجر إلىٰ المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة، وكان قدم مكة علىٰ رسول الله ﷺ من أرض الحبشة، فلما آذته قريش، وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار، خرج إلىٰ المدينة مهاجرًا[1].

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (ثم كان أول من قدمها من المهاجرين بعد أبي سلمة: عامر بن ربيعة، حليف بني عدي بن كعب، ومعه امرأته ليلىٰ بنت أبي حثمة بن غانم بن عبد الله بن عوف بن عبيد بن عدي بن كعب. ثم عبد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كثير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة، حليف بني أمية بن عبد شمس، احتمل بأهله وبأخيه عبد بن جحش، وهو أبو أحمد وكان أبو أحمد رجلًا ضرير البصر، وكان يطوف مكة، أعلاها وأسفلها، بغير قائد، وكان شاعرًا، وكانت عنده الفرعة بنت أبي سفيان بن حرب، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم فغلقت دار بني جحش[2]؛ وعدا أبو سفيان علىٰ دار بني جحش لما خلت فتملكها، إذا بقيت يبابًا لا أحد بها؛ لأنهم هاجروا بنسائهم[3].

ثم قدم المهاجرون أرسالًا؛ عكاشة بن محصن، وشجاع وعقبة ابنا وهب، وأربد بن حميرة، ومنقذ بن نباتة، وسعيد بن رقيش، ومحرز بن نضلة، ويزيد بن رقيش، وقيس بن جابر، وعمرو بن محصن، ومالك بن عمرو، وصفوان بن عمرو، وثقف بن عمرو، وربيعة بن أكثم، والزبير بن عبيد، وتمام بن عبيدة، وسخبرة بن عبيدة، ومحمد بن عبد الله بن جحش -رضي الله تعالىٰ عنهم-[4].

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة (٢/ ٨٠)، والذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية)، (١/ ٢٥٨).

(٢) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية)، (١/ ٣٥٩-٢٦٠)، والنجم عمر بن فهد، إتحاف الورى (١/ ٣٥٤).

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة (٢/ ٨٢).

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة (٢/ ٨٣).

ومن نسائهم: زينب بنت جحش، وأم خبيب بنت جحش، وجذامة بنت جندل، وأم قيس بنت محصن، وأم حبيب بنت ثمامة، وآمنة بنت رقيش، وسخبرة بنت تميم، وحمنة بنت جحش -رضي الله تعالىٰ عنهن-[1].

ولم تكن قريش لتأذن لهم بالهجرة، بل كانوا يمنعون من يريد الهجرة، ويسعون جاهدين إلىٰ منعه، وإذا هاجر لحقوه لردّه إلىٰ مكة، ولذلك كان هجرة الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- تسللًا، وخُفية من كفار قريش.

وكان الأمر شديدًا علىٰ الرسول ﷺ وعلىٰ الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-، فالصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- إن بقوا في مكة بقوا في أذًىٰ شديد، ومحنة بالغة وخطر الافتتان جراء شدة الإيذاء الذي يصيبهم، وإن خرجوا، خرجوا علىٰ خوف، تاركين الأهل والمال والوطن والديار، فكانت تضحياتهم كبيرة وعناؤهم شديدًا، يخرجون رجالًا ونساءً إلىٰ المدينة التي تبعد عن مكة قرابة ٤٠٠ كيلو، منهم من هو راكب ومنهم من يسير علىٰ قدميه كل هذه المسافة.

وسوف أذكر نموذجين لمعاناة الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- من كفار قريش عند إرادتهم الهجرة إلىٰ المدينة.

أولًا: قصة هجرة عمر بن الخطاب وعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص السهمي رضي الله عنهم:

قال ابن إسحاق -رحمه الله-: ثم خرج عمر بن الخطاب، وعياش بن أبي ربيعة المخزومي -رضي الله تعالىٰ عنهما- حتىٰ قدما المدينة. فحدثني نافع -رحمه الله تعالىٰ- مولىٰ عبد الله بن عمر -رضي الله تعالىٰ عنهما-، عن عبد الله بن عمر، عن أبيه عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: اتعدت، لما أردنا الهجرة إلىٰ المدينة،

(١) انظر: ابن هشام، السيرة (٢/ ٨٣).

أنا وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل السهمي التناضب من أضاة بني غفار، فوق سرف، وقلنا: أينا لم يصبح عندها فقد حُبِسَ فَلْيَمْضِ صاحباه. قال: فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب، وحُبِسَ عنا هشام، وفُتِنَ فافتتن.

فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلىٰ عياش بن أبي ربيعة، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما، حتىٰ قدما علينا المدينة ورسول الله ﷺ بمكة، فكلماه وقالا: إن أمك قد نذرت ألَّا يمس رأسها مشط حتىٰ تراك، ولا تستظل من شمس حتىٰ تراك، فرقَّ لها، فقلت له: يا عياش! إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو قد آذىٰ أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت. قال: فقال: أبر قسم أمي، ولي هنالك مال فآخذه. قال: فقلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالًا، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما. قال: فأبىٰ عليَّ إلا أن يخرج معهما؛ فلما أبىٰ إلا ذلك؛ قال: قلت له: أما إذ قد فعلت ما فعلت، فخذ ناقتي هذه، فإنها ناقة نجيبة ذلول، فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب، فانجُ عليها.

فخرج عليها معهما، حتىٰ إذا كانوا ببعض الطريق، قال له أبو جهل: يا ابن أخي، والله لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني علىٰ ناقتك هذه؟ قال: بلىٰ. قال: فأناخ، وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عدوا عليه، فأوثقاه وربطاه ثم دخلا به مكة، وفتناه فافتتن.

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: فحدثني به بعض آل عياش بن أبي ربيعة: أنهما حين دخلا به مكة دخلا به نهارًا موثقًا، ثم قالا: يا أهل مكة! هكذا فافعلوا بسفهائكم، كما فعلنا بسفيهنا هذا[1].

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة (٢/ ٨٥)، والذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية)، (١/ ٢٦٠).

ثانيًا: قصة هجرة أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها-:

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: حدثني أبي: إسحاق بن يسار -رحمه الله تعالىٰ-، عن سلمة بن عبد الله بن عمر بن أبي سلمة عن جدته أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، زوج النبي ﷺ قالت: (لما أجمع أبو سلمة الخروج إلىٰ المدينة رحَّل لي بعيره ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتك هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه، قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد، رهط أبي سلمة، فقالوا: لا والله، لا نترك ابننا عندها؛ إذ نزعتموها من صاحبنا.

قالت: فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتىٰ خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلىٰ المدينة. قالت: ففُرِّق بيني وبين زوجي وبين ابني. قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح، فلا أزال، أبكي، حتىٰ أُمسي؛ سنة أو قريبًا منها حتىٰ مرَّ بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة، فرأىٰ ما بي فرحمني؛ فقال لبني المغيرة: ألا تُخرجون هذه المسكينة، فرَّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها! قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئتِ. قالت: ورَدَّ بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني.

قالت: فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة. قالت: وما معي أحد من خلق الله. قالت: أتبلغ بمن لقيت حتىٰ أقدم علي زوجي، حتىٰ إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، أخا بني عبد الدار، فقال لي: إلىٰ أين يا بنت أبي أمية؟ قالت: فقلت أريد زوجي بالمدينة. قال: أوما معك أحد؟ قالت: فقلت: لا والله، إلا الله، ثم بني هذا. قال: والله ما لك من مترك، فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلًا من

العرب قط، أرىٰ أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني؛ حتىٰ إذا نزلت استأخر ببعيري؟ فحط عنه، ثم قيده في الشجرة، ثم تنحىٰ عني إلىٰ شجرة، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح، قام إلىٰ بعيري فقدَّمه فرحَّله ثم استأخر عني، وقال: اركبي، فإذا ركبت واستويت علىٰ بعيري أتىٰ فأخذه بخطامه فقاده، حتىٰ ينزل بي حتىٰ أقدمني المدينة، فلما نظر إلىٰ قرية بني عمرو بن عوف بقباء، قال: زوجك في هذه القرية وكان أبو سلمة بها نازلًا فادخليها علىٰ بركة الله، ثم انصرف راجعًا إلىٰ مكة. قال: فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحبًا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة)[(١)].

نقف مع هذا الجزء من السيرة لنأخذ الفوائد التالية:

أولًا: سبب اختيار المدينة لتكون دار الهجرة: بُعث الرسول ﷺ في مكة، فلم يجد فيها من ينصره، إلا أفرادًا ليس لهم القوة والمكانة الكافية في المجتمع، فخرج إلىٰ الطائف فكان ردهم أسوأ الرد وأقبحه، وعرض نفسه علىٰ القبائل، فلم يجد من القبائل ناصرًا. وقيَّض الله له أهل المدينة، ليفتحوا له ولصَحْبه قلوبهم، وأبواب مدينتهم، ولتكون هي دار الإيواء وهم أهل النصرة، ولا شك أن عين الله ترعاه أتم الرعاية، وأن كل ذلك يتم بالتدبير واللطف الإلهي، ومن ذلك ما هيَّأه الله -جل شأنه- في المدينة من أمور تجعلها هي دار الهجرة الملائمة ومن ذلك:

الأمر الأول: موقع المدينة المتميز: والذي نجد فيها ما يلي:

١- إنها ليست بعيدة جدًّا عن مكة؛ فلا يمكن الهجرة إليها إلا بمشقة بالغة قد لا يستطيعها الكثير. كالحبشة، وليست قريبة جدًّا من العدو يسهل علىٰ العدو مفاجأتها بغزو كالطائف مثلًا، فكانت بين هذا وذاك، ليست بعيدة جدًّا، ولا يصل إليها العدو إلا وقد سبقت الأخبار عنه إليها.

(١) ابن هشام، السيرة (٢/ ٨٠)، والذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية)، (١/ ٢٥٨-٢٥٩).

٢- إنها كانت في طريق تجارة مكة، وهذا مفيد في الضغط على أهل مكة وخنقهم اقتصاديًّا؛ باعتراض تجارتهم ذهابًا وعودًا، وهذا ما وقع فعلًا، وكانت غزوة بدر من نتائج ذلك. وفي صلح الحديبية استغل أبو بصير هذا الأمر هو ورفقته حتى ألغت قريش شرط رَدّ مَن أسلم إلى الكفار.

٣- إن المدينة يسهل حمايتها، فهي بين لابتين أي حَرّتين عليها حجارة سوداء لا تستطيع أن تخترقها الجيوش بإبلها وخيلها، من الجهة الغربية حرة الوبرة، ومن الجهة الشرقية حرة واقم الشرقية، ومن الجنوب جبل عير، وكانت هذه الجهة أيضًا محاطة بأشجار النخيل والزروع التي تعوق الجيش لو أراد المرور من خلالها إلا بتفرق أفراده. فلم يتبق إلا جهة واحدة، هي الجهة الشمالية الغربية، والتي يمكن بكتيبة من الرجال حماية المدينة، وهي الجهة التي حفر فيها الرسول ﷺ مع أصحابه الخندق، عندما أراد الأحزاب مهاجمة المدينة بجيش كبير بلغت عدته عشرة آلاف، ومع ذلك فشلوا وعادوا خاسرين خائبين.

ولعل هذا هو المعنى الذي أشار إليه الرسول ﷺ في قوله في الحديث السابق أعلاه «قد أُريت دار هجرتكم، رأيت سبخة ذات نخل بين لابتين».

الأمر الثاني: وضع أهل المدينة الاجتماعي:

الأوس والخزرج قبيلة يمنية عربية أصيلة، فيهم أخلاق العرب؛ نخوة، وشيمة، وإباء وشكيمة، ووفاء، لا يقبلون الضيم، ولم يُعهد في تاريخهم أن كانوا تابعين لأحد، بل عاشوا أحرارًا، تشرَّبوا هذه الحرية، فلم يُعرف أنهم منذ نزولهم في المدينة أن دفعوا جباية لحاكم أو غازٍ، ولذلك في غزوة الأحزاب، لما رأى الرسول ﷺ تكالب الأعداء على المدينة شاور السعدين؛ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة -رضي الله تعالى عنهما-، في دَفْع جزء من تمر المدينة لبعض القبائل العربية لكي ترجع عن المدينة فقالا قولة رجل واحد: (يا رسول الله! إن كان الله أمرك بهذا فسمعًا وطاعةً،

وإن كان شيئًا تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قِرًى أو بيعًا، فحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا؟ والله لا نعطيهم إلا السيف، فصوَّب رأيهما)[(١)].

الأمر الثالث: التدبير الإلهي الخاص:

عن عائشة -رضي الله تعالى عنها-، قالت: (كان يوم بعاث يومًا قدَّمه الله لرسوله ﷺ، فقدِم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم، وقُتلت سرواتهم وجُرحوا، فقدَّمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام)[(٢)]؛ أي حتى يتهيأ هؤلاء لقبول الإسلام والإقبال عليه ويشعروا بمزيد الحاجة إليه.

وقد كان في قتل ساداتهم تمهيد للطريق وإزالة للعقبات في سبيل الدعوة؛ لأن هؤلاء الأكابر هم في الغالب مَن يقف في طريق الدعوة حسدًا وخوفًا من زوال جاههم ومكانتهم، كما حصل في مكة.

الأمر الرابع: وجود اليهود في المدينة وحديثهم عن قرب المبعث:

كان اليهود كثيرًا ما يتحدثون عن قرب مبعث النبي ﷺ، وكانوا يظنون أنه سيكون منهم، وكانوا يتوعدون الأوس والخزرج به[(٣)]، وقد مر علينا أن الرجال الذين لقيهم

(١) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٢٤٤)، وابن كثير، الفصول في السيرة تحقيق محمد العيد الخطراوي وزميله، الطبعة الثالثة (مؤسسة علوم القرآن ١٤٠٣)، (١/ ١٦٨).

(٢) صحيح البخاري (٥/ ٣٠) رقم (٣٧٧٧).

(٣) قال ابن كثير -رحمه الله تعالى- في تفسيره (١/ ٢١٦): (وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم يقولون: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم، كما قال محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمرو، عن قتادة الأنصاري، عن أشياخ منهم، قال: فينا والله وفيهم، يعني في الأنصار وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة).

النبي ﷺ أول مرة عند العقبة في منىٰ، وتحدَّث إليهم قالوا لبعضهم: (لعل هذا هو النبي الذي تتوعدنا به اليهود فلا يسبقنكم إليه)، وكان هذا من أسباب استجابتهم، فقبيلتا الأوس والخزرج الذين يسكنون في المدينة سمعوا كثيرًا عن قرب مبعث نبي، فهم مُهَيَّؤون لخبر مبعثه، وبالتالي فهذا أدعىٰ لقبول خبر بعثته والاستجابة له.

وعلىٰ هذا فللموقع الجغرافي، وللبيئة الاجتماعية لقبيلتي الأوس والخزرج، ونشأتهم علىٰ الأخلاق العربية وكونهم أكثر تواضعًا وأرق قلوبًا من غيرهم، ثم لذهاب رؤسائهم الذي كانوا يُمكن أن يقودوا جبهة الاعتراض علىٰ الدعوة. وأصبح الأمر بعد ذلك بيد الشباب الذين هم أكثر قبولًا للجديد، ولِما يصح ويستقيم في أذهانهم، ولوجود اليهود الذي كانوا يتحدَّثون عن قرب مبعث نبي، وكل هذا مِن لطف الله وتدبيره -سبحانه وتعالىٰ-: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص:٦٨]؛ وقد كان من حكمته -جل شأنه- أن أبقىٰ عبد الله بن أبي ابن سلول، الذي أوشك الأوس والخزرج علىٰ تتويجه، ليكون مُذَكِّرًا بنعمة الله -جل شأنه- في زوال أمثاله من طريق الدعوة، فقد شرق بهذه الدعوة، وحسد وحقد علىٰ الرسول ﷺ، وتآمر مع اليهود والمشركين، وتزعَّم فئة المنافقين في المدينة حتىٰ أهلكه الله -سبحانه وتعالىٰ-.

يقول السمهودي -رحمه الله تعالىٰ-: (قدم رسول الله ﷺ المدينة وسيد أهلها عبد الله بن أبي ابن سلول، كان من الخزرج.. لا يختلف في شرفه في قومه اثنان، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده علىٰ رجل من أحد الفريقين حتىٰ جاء الإسلام غيره، ومعه في الأوس رجل هو في قومه من الأوس شريف مطاع أبو عامر بن صيفي، وهو والد حنظلة الغسيل، وكان قد ترهَّب ولبس المسوح، فشقيا بشرفهما؛ أما عبد الله بن أبي فلما انصرف عنه قومه إلىٰ الإسلام ضغن ورأىٰ أن رسول الله ﷺ قد استلبه مُلكًا، فلما رأىٰ قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهًا مُصِرًّا علىٰ نفاق

وضغن، فكان رأس المنافقين، وإليه يجتمعون)[1].

ثانيًا: لم تكن الهجرة إلىٰ المدينة سياحة، ولم تكن المدينة بلدًا سياحيًّا يقصده المتنزهون، ولم تكن مكة أرض وباء؛ ليفرح المهاجرون بخبر الخروج منها، وإنما جاء أمر الهجرة تكليفًا من تكاليف العقيدة التي آمنوا بها، وضرورة استلزمتها طبيعة رسالة الإسلام ووجوب إبلاغها[2].

خرج الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-، وتركوا الأهل والولد والمال والوطن، لقد كان الأمر قاسيًا قسوة لا تُتصوّر، لكن الحفاظ علىٰ العقيدة لا يُقدَّر بثمن.

ليس من اليسير علىٰ الشخص أن يخرج من وطنه، والنفس فُطرت علىٰ التعلق بالوطن ومحبته، والحنين إليه، وقد جاء ذكر الوطن في القرآن الكريم في عدة مواضع؛ قال -تعالىٰ-: ﴿قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٤٦]. فانظر كيف بدأوا بالدار قبل الأبناء، وفرعون لما أراد إثارة قومه ضد موسىٰ -عليه السلام- حرّك مشاعرهم تجاه أمر مهم عليهم وهو ديارهم؛ ﴿قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ [الشعراء:٣٤-٣٥]؛ لأنه يعلم أن لن يحرّك قومه مثل تخويفهم بأن موسىٰ يتآمر عليهم لكي يستولي علىٰ ديارهم، ويخرجهم منها، وتكرر هذا المعنىٰ في قصة موسىٰ -عليه السلام- مع فرعون في عدد من آي القرآن الكريم، قال -تعالىٰ-: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ [الأعراف:١٠٩-١١٠]، وقال -تعالىٰ-: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ [طه:٦٣].

---

(١) السمهودي، وفاء الوفاء (١/ ١٧٢-١٧٣).

(٢) انظر: سليمان العودة، السيرة النبوية في الصحيحين (ص ٣٥١).

ومع الوطن فقد ترك الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- أيضًا أهلهم وأولادهم إلا قلة منهم استطاعوا الخروج بزوجاتهم وأولادهم، وهم قليلون بالنسبة لمجموع المهاجرين -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين-، وتركوا أموالهم، وتسابق كفار قريش علىٰ الاستيلاء عليها فور علمهم بخروج الصحابي إلىٰ المدينة.

ولأجل هذه التضحيات كان شأن المهاجرين عظيمًا عند الله -جل شأنه-؛ نوَّه به القرآن الكريم مرارًا، قال -تعالىٰ-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [البقرة:٢١٨]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [النحل:٤١]، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [التوبة:١٠٠]، ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحشر:٨]، وغيرها من الآيات الدالة علىٰ فضلهم ومنزلتهم وعظيم تضحيتهم؛ فرضي الله عنهم وأرضاهم وحشرنا في زمرتهم.

ثالثًا: في الهجرة ومفارقة الأهل والوطن والمال، درس في المحبة، فالشخص يحب -بلا شك- أهله ووطنه وماله، وعندما ينازعه عن هذه المحبة محبة أخرىٰ، فأيّهما التي تغلب يكون لها الأثر في السلوك. فمن هاجر إلىٰ الله ورسوله ﷺ، فهذا يعني أنه قدَّم محبة الله -جل شأنه- ومحبة رسوله ﷺ، علىٰ محبة الأهل والوطن والمال. وهذا ليس خاصًّا بالهجرة، بل هو سلوك مستمر مع المؤمن في صغار أمور المؤمن وكبارها، فالصدقة بالمال -مثلًا- هي نزاع بين محبة المال ومحبة الله -سبحانه-، فإذا شحّ بماله، فقد غلبت محبة المال، وإذا انتصر وتصدق، فقد غلبت محبة الله علىٰ محبة المال.

وترك الانتصار للنفس والعفو عن مَن ظلمك هو تغليب لمحبة الله -جل شأنه- علىٰ محبة النفس؛ لأن النفس تحبّ الانتصار، والله -جل شأنه- يحب منك العفو.

وابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- يقول: (إن تقديم ما تحبه النفس علىٰ ما يحبه الله من علامات مرض القلب)، وهذا مؤشر ليس بالسهل، وعكس ذلك انتصار وقوة إيمان، فاستحضر دائما أن من أعظم العبادات تعظيم وتقديم محبة الله -جل شأنه-، علىٰ سائر المحابّ مهما كانت.

رابعًا: مبادرة الصحابة -رضوان الله تعالىٰ عليهم أجمعين- إلىٰ امتثال أمر الرسول ﷺ بالهجرة إلىٰ المدينة، ولم يتخلف إلا من رغب الرسول ﷺ في بقائه أو حُبس أو له عذر أو غير ذلك، وهم قلة. هذا يذكّرنا اليوم بوجوب المبادرة إلىٰ امتثال أمر الرسول ﷺ؛ قال -تعالىٰ-: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا**﴾ [الأحزاب:٣٦].

خامسًا: قول الرسول ﷺ: «إن الله قد جعل لكم إخوانًا، ودارًا تأمنون بها». هذا هو شأن المؤمنين في كل زمان ومكان، بعضهم أولياء بعض، فما أن يُؤذَىٰ مؤمن في أرض ويُضيَّق عليه، إلا وعلىٰ إخوانه في بلاد آمنة أن يؤوه، ويعلموا أنهم كالجسد الواحد إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له بقية الجسد بالحمىٰ والسهر.

سادسًا: الكفار غايتهم إطفاء نور الله، وهاهم هنا يؤذون المؤمنين، ولما أرادوا ترك الديار لهم والفرار بدينهم، منعوهم، وسعوا إلىٰ إعادة من خرج منهم، كما فعل أبو جهل وأخوه بأخيهم من أمهم عياش بن أبي ربيعة -رضي الله تعالىٰ عنه-، فقد لاحقوه إلىٰ المدينة، وخدعوه وكذبوا عليه، ثم أوثقوه وأدخلوه إلىٰ مكة أمام الناس جهارًا بطريقة مهينة مُوثَّقًا بالحبال. والكفر ملة واحدة مهما اختلف الزمان أو تباعد المكان.

سابعًا: في قصة هجرة أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها- مع زوجها أبي سلمة -رضي الله تعالىٰ عنه- دروس عديدة:

أولها: إن أبا سلمة -رضي الله تعالىٰ عنه- لما خرج مهاجرًا، اعترضه الكفار، وسلبوه زوجته وولده، ومع ذلك لم يتراجع ولم يُثنه ذلك عن عزيمته علىٰ الهجرة، ما أصعبه من موقف، وما أقساه!! لكنَّ للإيمان طعمًا يَنْسَىٰ صاحبُه من أجله كلَّ شيء.

ثانيها: البلاء العظيم الذي أصاب أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها- في زوجها وفي ولدها، فزوجها هاجر وتركها، وولدها أخذه أعمامه، بعد أن خلعوا كتفه أمامها، ولا تدري عن حاله، وهي عادت كالأسيرة إلىٰ بيت بعض أقاربها. وتبقىٰ علىٰ هذه الحالة تبكي كل يوم قرابة العام، دون أن تجد رحمة من هؤلاء الفجار، إلىٰ أن بعث الله لها بعض بني المغيرة بعد مضي قرابة العام وهي علىٰ هذه الحالة، فلامهم علىٰ هذه الفجور والظلم بشأن امرأة ضعيفة مسكينة لا حول لها ولا طول.

ثالثها: كيف لشخص أن يتصور أن أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنه- تهاجر وحيدة من مكة إلىٰ المدينة، وليس معها إلا طفل علىٰ بعير لمسافة تصل إلىٰ أربعمائة كيلو. ومع ذلك أقدمت علىٰ ذلك متوكلة علىٰ الله -جل شأنه-.

رابعها: موقف عثمان بن طلحة بن أبي طلحة -وهو لا يزال علىٰ شركه- عندما رآها ستهاجر بمفردها، لم يتركها، وهل الأمر سهل؟ لا والله. فقد أمسك بخطام ناقتها يقودها، هو يمشي وهي راكبة، لمسافة ٤٠٠ كيلو من مكة إلىٰ المدينة، إذا تعبوا أناخ لها بعيرها وربطه في شجرة وابتعد عنها، حتىٰ أوصلها ديار زوجها، ثم عاد أدراجه إلىٰ مكة، وهو لا يبتغي بذلك أجرًا عند الله؛ لأنه مشرك كافر، وإنما نخوة عربية، وخُلُق عظيم نشأ عليه العرب، وهذا مصداق قول الرسول ﷺ كما في حديث أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[1].

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (١٤/ ٥١٣) رقم (٨٩٥٢). وقال محقق المسند: «صحيح، وهذا إسناد قوي، رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عجلان، فقد روى له مسلم متابعة، وهو قوي الحديث. وأخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٩٢)، والبزار (٢٤٧٠- كشف الأستار)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٤٤٣٢)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق»=

فالعرب كانت لديهم أخلاق عظيمة، ومنها ما رأيناه من عثمان هذا، وجاء الإسلام ليرسّخها ويثيب عليها، ويجعلها من أهم الأعمال الصالحة التي يتقرب بها إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-.

وإذا استحضرنا مع هذه المعاناة والأذىٰ والفُرْقة التي أصابت أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، وبُعدها عن ولدها وزوجها، ثم هجرتها إلىٰ المدينة، أنها سبق أيضًا أن هاجرت مع زوجها إلىٰ الحبشة فرارًا بدينهما، ورُزقت هناك بولدها سلمة الذي كان معها أثناء الهجرة إلىٰ المدينة، وأنها عادت مع زوجها من الحبشة بعد سماعهما خبر بيعة العقبة.

لقد كانت قصة هجرة أبي سلمة وأم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنهما- كما تقول عائشة بن عبد الرحمن (بنت الشاطئ): (كانت قصة خروجهما مأساة ما تزال، علىٰ بُعد العهد وتطاول الآماد، مثيرة أليمة الوقع)[1].

حقًّا!! إن في هجرة أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنه- مع زوجها -رضي الله تعالىٰ عنه-، دروسًا عظيمة لفتياتنا. فيا ليت سيرتها تُدرَّس لبناتنا في مدارس البنات لتكون قدوةً وأُسوة صالحة لهن.

=(ص ٢)، والبيهقي في «السنن» (١٠/ ١٩١-١٩٢)، وفي «الشعب» (٧٩٧٨) من طرق عن سعيد بن منصور، بهذا الإسناد. في رواية البزار «مكارم الأخلاق...».

(١) عائشة عبد الرحمن، تراجم سيدات بيت النبوة -رضي الله تعالى عنهن- (القاهرة: دار الحديث)، (ص٢٤٨).

فهرس الموضوعات

۞ الفصل الثاني ۞

۞ الفصل الثالث ۞

فقه السيرة

فِقهُ السِّيرَة

أ.د. زيد بن عبد الكريم الزيد

أستاذ الفقه المقارن

عميد المعهد العالي للقضاء بالرياض سابقًا

المجلد الثاني

ح شركة آفاق المعرفة للنشر والتوزيع، ١٤٤٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الزيد، زيد بن عبد الكريم

فقه السيرة./ زيد بن عبد الكريم الزيد - الرياض، ١٤٤٤هـ.

٧٤٦ص؛ ١٧× ٢٤ سم

ردمك: ٢-٧-٩١٨٨٨-٦٠٣-٩٧٨

١ - السيرة النبوية

أ. العنوان

ديوي ٢٣٩ ١٤٤٤/٨٧٦

رقم الإيداع: ١٤٤٤/٨٧٦

ردمك: ٢-٧-٩١٨٨٨-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الثالثة عشرة للكتاب

الطبعة الأولى لـ (آفاق المعرفة)

(مزيدة ومنقحة)

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م


بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الخامس

فقه السيرة من قول الله -تعالىٰ-:

﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾

إلىٰ قول الله -تعالىٰ-:

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾

مقدمة

في هذا الفصل سأتحدث عن جزء مهم، بل من أهم أجزاء السيرة النبوية، بما يمثله من نقلة كبيرة في الدعوة إلىٰ الله –جل شأنه–.

كان الحديث في الفصل السابق عن الجهر بالدعوة ومعاناة الرسول ﷺ من صدود الكفار سواء في مكة أو في الطائف، أو في القبائل العربية التي كانت تَفِد إلىٰ مكة معتمرة أو حاجَّة أو في تجارة، ثم تبع ذلك الإسراء والمعراج بالرسول ﷺ، وما لقيه من تأييد إلهي من ربه –سبحانه وتعالىٰ–، واحتفاء عظيم به في ملكوت السموات، ثم عودته وما فتح الله عليه من لقاء بعض حجاج الأوس والخزرج، ثم بيعتي العقبة، وانتشار الإسلام بالمدينة وإذن الرسول ﷺ للصحابة –رضي الله تعالىٰ عنهم– بالهجرة إلىٰ المدينة.

وعندما رأت قريش ذلك؛ أدركت خطورة الموقف، وشعرت بأن الرسول ﷺ أصبح له أنصار لا سلطة ولا قدرة لهم عليهم، إنهم الأنصار في المدينة، وما تبع ذلك من تتابع خروج المهاجرين من مكة إلىٰ المدينة وانضمامهم إلىٰ إخوانهم هناك.

وخشيت قريش من أن يلحق بهم الرسول ﷺ فتنشأ قوة إسلامية يقودها الرسول ﷺ تسلب القيادة من قريش.

وفي المقابل كان الرسول ﷺ ينتظر الإذن له بالهجرة، ويطلب من أبي بكر الصديق –رضي الله تعالىٰ عنه– التريُّث ليكون صاحبه في هذه الهجرة.

ثم نزل الوحي علىٰ الرسول ﷺ بالإذن بالهجرة، فهاجر ﷺ في رحلة هي أعظم رحلة عرفتها التاريخ، جنَّدت فيها قريش كل القبائل العربية لإفشالها، ولكن مَن كان الله معه فلا يضيره ولا يضره أحد، ولو اجتمع الخلق كلهم أجمعون.

قال -تعالىٰ-: ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال:٣٠]. وقال -تعالىٰ-: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:٤٠].

وينتهي هذا الفصل عند نزول قول الله -تعالىٰ-: ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾ [الأنفال:٥]. فهو ابتدأ بإخراج الكفار للرسول من مكة، وانتهىٰ مع إخراج الله -جل شأنه- رسولَه ﷺ إلىٰ هؤلاء الكفار نصرًا له عليهم وتأديبًا لهم، وكسرًا لشوكتهم.

في هذا الفصل المبارك وفيما بين هذين الإخراجين، أتناول الحديث عن الهجرة النبوية، وأول الأعمال التي تمَّت فور استقراره ﷺ في المدينة، مبينًا ذلك في المباحث التالية:

المبحث الأول: فقه السيرة في الهجرة النبوية.

المبحث الثاني: فقه السيرة في أول أعمال الرسول ﷺ بعد وصوله المدينة.

المبحث الثالث: فقه السيرة في نزول بعض الأحكام التشريعية.

وينتهي الحديث في هذا الفصل قبيل خروج الرسول ﷺ لملاقاة عير قريش، ومن أجل الاستيلاء عليه، ثم ما أتم الله به من نعمة في تهيئة لقاء جمع الكفار وهزيمتهم في بدر.

أسأل المولىٰ العون التوفيق.

المبحث الأول

فقه السيرة في الهجرة النبوية

لما تمت بيعة العقبة الثانية لرسول الله ﷺ، وأذن الرسول ﷺ للصحابة بالهجرة إلىٰ المدينة -كما مر-، وخرجوا أرسالًا، أقام ﷺ بمكة ينتظر أن يُؤْذَنَ له في الخروج. ولم يبقَ في مكة إلا رسولُ الله ﷺ وأبو بكر ﭬ وعليّ بن أبي طالب ﭬ، وقلةٌ من المسلمين إمَّا لحبسٍ أو غيره.

وكان أبو بكر الصديق ﭬ كثيرًا ما يَستأذن الرسول ﷺ في الهجرة، فيقول له الرسول ﷺ: «لا تعجل! لعل الله أن يجعل لك صاحبًا»؛ فيطمع أبو بكر ﭬ أن يكون هو[١].

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صار له أنصار وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا تتابع خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا دارًا، وأصابوا منهم مَنعة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنهم قد أجمعوا لحربهم؛ فاجتمعوا له في دار الندوة، يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه، فاعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل، فوقف علىٰ باب الدار، فلما رأوه واقفًا علىٰ بابها؟ قالوا: مَن الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد[٢] سمع بالذي اتَّعدتم له، فحضر معكم ليسمع ما

(١) انظر: القسطلاني، المواهب اللدنية (١/ ٢٨٤- ٢٨٥).

(٢) قال السهيلي في الروض الأنف (٢/ ٢٣٩): (وإنما قال لهم: إني من أهل نجد فيما ذكر بعض أهل السير؛ لأنهم قالوا: لا يدخل معكم في المشاورة أحد من أهل تهامة؛ لأن هواهم مع محمد، فلذلك تمثل لهم في صورة شيخ نجدي). وقال الشيخ محمد نسيب الرفاعي وهو من أهل الشام: (وكأن أهل نجد منذ ذلك الزمان قد اشتُهروا بالنصح وحكمة الرأي، فتمثل=

تقولون، وعسىٰ أن لا يَعدمكم منه رأيًا ونصحًا، قالوا: أجل. فأُدخل معهم، وقد اجتمع فيها أشراف قريش، فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، فإنا والله ما نأمنه علىٰ الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأيًا. قال: فتشاوروا، ثم قال قائل منهم: احبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه بابًا، ثم تربّصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله، من هذا الموت، فقال الشيخ النجدي: لا والله، ما هذا لكم برأي. والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلىٰ أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم، فينزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم به، حتىٰ يغلبوكم علىٰ أمركم، ما هذا لكم برأي، فانظروا في غيره. فتشاوروا.

ثم قال قائل منهم: نُخرجه من بين أظهرنا، فننفيه من بلادنا، فإذا أخرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب، إذا غاب عنا وفرغنا منه، فأصلحنا أمرنا وأُلْفتنا كما كانت. فقال الشيخ النجدي: لا والله، ما هذا لكم برأي، ألم تروا حُسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته علىٰ قلوب الرجال بما يأتي به، والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل علىٰ حي من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتىٰ يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتىٰ يطأكم بهم في بلادكم، فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد، دبروا فيه رأيا غير هذا.

=الشيطان بزيهم؛ ليوهم قريشًا أنه ينصحهم فيطمئنوا لرأيه) هامش مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٨٦). وقال عبد الله القصيمي في مشكلات الحديث النبوي وبيانها (٢٠٩- ٢١٠): (إن رؤوس قريش لا يدخلون معهم إلا من يظنونه من رؤوس الدهاء والرأي والحنكة، وترحيبهم به لما قال: إنه من أهل نجد، دليل على أنهم يُسلمون لرجال نجد بالتفوق عليهم بالآراء والدهاء، ويدل أيضًا على أن الشيطان يعرف للنجديين ذلك، ويعرف أن قريشًا تعرف لهم ذلك، وهو غاية التعظيم والمدح للنجديين... والشيطان قد يتصوّر في صور كثيرة؛ فقد يتصور في صور العلماء المعروفين بالإمامة في الدين؛ لإضلال الناس، وما كان تصور الشيطان بصور هؤلاء نقصًا فيهم، بل العكس هو الصحيح، فإنه غالبًا ما يتصور بالصالحين أو من يظن أنهم صالحون؛ ليستطيع التغرير والتضليل) باختصار يسير.

قال: فقال أبو جهل: والله إن لي فيه لرأيًا ما أراكم وقعتم عليه بعدُ. قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال أرىٰ أن نأخذ من كل قبيلة فتًىٰ شابًّا جليدًا نسيبًا وسيطًا فينا، ثم نعطي كل فتىٰ منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه. فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرَّق دمه في القبائل جميعًا، فلم يقدر بنو عبد مناف علىٰ حرب قومهم جميعًا، فرضوا منا بالعقل، قال: فقال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا رأي غيره، فتفرق القوم علىٰ ذلك وهم مجمعون له[1].

فأتىٰ جبريل النبيّ ﷺ، وقال له: لا تَبِتْ هذه الليلةَ في فراشك، ولما جاء الليل أمر الرسول ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يبيت في فراشه، وأن يؤدي الأمانات التي كانت عنده للناس، وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شيء يخشىٰ عليه إلا وضعه عنده؛ لما يعلم من صدقه وأمانته ﷺ[2].

ثم ذهب الرسول ﷺ إلىٰ بيت أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فخرجا من خوخة [3] في دار أبي بكر ليلًا حتىٰ لحقا بغار ثور[4] في اتجاه اليمن[5]. وقد أخرج البخاري عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت في حديث طويل جاء فيه: (فقال النبي ﷺ للمسلمين: «إني رأيت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين، وهما الحرتان»، فهاجر من هاجر قِبَلَ المدينة، ورجع عامة من كان هاجر إلىٰ أرض الحبشة إلىٰ المدينة، وتجهز أبو بكر

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٨٩-٩١).

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٩٨)، والقسطلاني، المواهب اللدنية (١/ ٢٨٩).

(٣) الخوخة: كُوّة بين بيتين كالنافذة عليها باب صغير. انظر: ابن حجر، هدي الساري (ص١١٥).

(٤) جبل ثور: جبل جهة اليمن من مكة، يبعد عنها ثلاثة أميال. الزرقاني، شرح المواهب (٢/ ١٠٣)، ونقل عن القاموس، أن هذا الجبل كان قد نزله ثور بن عبد مناف، فنُسب إليه، وهذا الغار هو المذكور في القرآن الكريم: ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠].

(٥) انظر: السمهودي ، الوفاء (١/ ٢٣٩)، وابن سعد، الطبقات (١/ ٤٢٨).

قِبَلَ المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: «علىٰ رِسْلِكَ؛ فإني أرجو أن يُؤْذَنَ لي». فقال أبو بكر ﷺ: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟! قال: «نعم» فحبس أبو بكر نفسه علىٰ رسول الله ﷺ؛ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر وهو الخبط أربعة أشهر، قال ابن شهاب -رحمه الله تعالىٰ-: (قال عروة -رضي الله تعالىٰ عنه-: قالت عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-: فبينما نحن جلوس في بيت أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-: هذا رسول الله ﷺ متقنعًا[1] في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداءً له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر، قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن، فأذن له فدخل، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: أخْرِج من عندك، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك[2] بأبي أنت يا رسول الله، قال: فإني قد أُذِنَ لي في الخروج، فقال أبو بكر: الصحابة بأبي أنت يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ: نعم[3]. قال أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدىٰ راحلتي هاتين، قال رسول الله ﷺ: بالثمن، قالت عائشة: فجهزناهما أحثّ الجهاز وصنعنا لها سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنهما- قطعة من نطاقها، فربطت به علىٰ فم الجراب، فبذلك سُمِّيت ذات النطاق، قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور، فكمنا فيه ثلاث ليال، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنهما- وهو غلام ثَقِف لَقِن[4]؛ فيدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمرًا يكتادون به إلا

---

(١) أي مغطيًا رأسه. الزرقاني، شرح المواهب (٢/ ١٠٤).

(٢) قال الزرقاني: يعني عائشة وأسماء -رضي الله تعالى عنهما-، ووجه ذلك أن عائشة قد كان أبوها أنكحها منه -عليه الصلاة والسلام- قبل ذلك، وأسماء صارت بمنزلة أهله لنكاحه أختها فلا يُخشَى عليه منهما» شرح المواهب (٢/ ١٠٥).

(٣) تقول عائشة -رضي الله تعالى عنها-: «فرأيت أبي بكى، وما كنت أحسب أحدًا يبكي من الفرح». الزرقاني، شرح المواهب (٢/ ١٠٥).

(٤) الثقف: الحاذق، واللقن: السريع الفهم، فتح الباري (٧/ ٢٣٧).

وعاه حتىٰ يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعىٰ عليهما عامر بن فهيرة -رضي الله تعالىٰ عنه- مولىٰ أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء؛ فيبيتان في رسل[١]، وهو لبن منيحتهما ورضيفهما[٢]، حتىٰ ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلًا من بني الديل، وهو من بني عبد بن عدي[٣] هاديًا خريتًا. الخريت: الماهر بالهداية قد غمس حلفًا في آل العاص بن وائل السهمي، وهو علىٰ دين كفار قريش فأمناه، فدفعا إليه راحلتيهما، وواعده غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل، فأخذ بهم طريق السواحل)[٤].

ولما فقدت قريش الرسول ﷺ طلبوه في كل مكان في مكة، وبعثوا القافة في أثره في كل طريق وأعلنت عن مكافأة سخية لمن يأتي بأيٍّ منهما حيًّا أو مَيْتًا قدرُها مائةٌ من الإبل[٥].

---

(١) الرسل: بكسر الراء بعدها هاء مهملة ساكنة: أي اللبن الطري. ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٢٣٧).

(٢) الرضيف: اللبن المرضوف، وهو الذي طرح فيه الحجارة المحماة ليذهب وخمه. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٢/ ٢٣١).

(٣) قيل: إن اسمه عبد الله بن الأريقط، الشامي، سبل الهدى والرشاد (٣/ ٣٤٦)، وأورد المحقق في الهامش خلافًا في اسمه، وقال ابن حجر -رحمه الله تعالى- في الإصابة (٤/ ٥): (ولم أرَ من ذكره في الصحابة إلا الذهبي في التجريد، وقد جزم عبد الغني المقدسي في السيرة له بأنه لم يعرف له إسلامًا، وتبعه النّووي في تهذيب الأسماء). وذكر الشامي في (٣/ ٣٣٧) أنه كان على دين كفار قريش، وأسلم بعد ذلك. وقال محمد الخضر بن سيد عبدالله الجكني الشنقيطي كوثَر المَعَاني الدَّرَارِي في كَشْفِ خَبَايا صَحِيحْ البُخَاري، الطبعة الأولى (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤١٥)، (٥/ ٩٩) قيل: إنه أسلم بعد ذلك.

(٤) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٧/ ٢٣١) رقم (٣٩٠٥).

(٥) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٥٤).

وقد وصل المطاردون للرسول ﷺ إلىٰ باب الغار، ولكنَّ الله غالبٌ علىٰ أمره؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قلت للنبي ﷺ وأنا في الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»[1].

وحينما هدأ الطلب خرجا مع دليلهما الذي أمعن في اتجاه الجنوب نحو اليمن، حتىٰ إذا وصل إلىٰ طريق لم يألفه الناس اتجه شمالًا علىٰ مقربة من شاطئ البحر الأحمر، وسلك طريقًا لم يسلكه أحد من الناس إلا نادرًا.

ومر في مسيره بخيمتي أم معبد الخزاعية، وسألوها الطعام ليشتروا منها، فلم يجدوا عندها شيئًا، ووجدوا شاةً خلَّفها الجهد لا لبن فيها، فاستأذن منها أن يحلبها، فمسح علىٰ ضرعها وحلب وشربا، ثم حلب لها في إنائها حتىٰ ملأه[2].

وفي الطريق لحقهما سراقة، ففي صحيح البخاري -رحمه الله تعالىٰ- أن سراقة بن جعشم -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منها لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي «بني مدلج» إذ أقبل رجل منهم حتىٰ قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة، إني قد رأيت آنفًا أسودة بالساحل، أراها محمدًا وأصحابه، قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلانًا وفلانًا انطلقوا بأعيننا،

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٩٠٨) رقم (٣٦٥٣)، وصحيح مسلم (٣/ ١٨٥٤) رقم (٢٣٨١).

(٢) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٥٥ - ٥٦). والحاكم في المستدرك، (٣/ ١٠) رقم (٤٢٧٤)، وإبراهيم العلي، صحيح السيرة (١٧٨)، وذكر السهيلي في الروض الأنف (٤/ ١٤٧): (أن آل أبي معبد كانوا يؤرخون بذلك اليوم ويسمونه يوم الرجل المبارك يقولون فعلنا كيت وكيت قبل أن يأتينا الرجل المبارك، أو بعدما جاء الرجل المبارك، ثم إنها أتت المدينة بعد ذلك بما شاء الله، ومعها ابن صغير قد بلغ السعي فمر بالمدينة على مسجد رسول الله ﷺ وهو يكلم الناس على المنبر، فانطلق إلى أمه يشتد، فقال لها: يا أمتاه إني رأيت اليوم الرجل المبارك؛ فقالت له: يا بني ويحك! هو رسول الله ﷺ».

ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة فتحبسها عليَّ، وأخذت رمحي، فخرجت به من ظهر البيت، فخططتُ بزُجّه[1] الأرض وخفضت عاليه، حتىٰ أتيت فرسي فركبتها، فرفعتها[2] تُقرِّب بي[3] حتىٰ دنوت منهم، فعثرت بي فرسي، فخررت عنها، فقمت فأهويت يدي إلىٰ كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها أضرهم أم لا؟ فخرج الذي أكره، فركبت فرسي وعصيت الأزلام فقَرَّبت بي، حتىٰ إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- يكثر الالتفات، ساخت يدا فرسي في الأرض حتىٰ بلغتا الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها، فنهضت فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عنان ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام، فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان، فوقفوا فركبت فرسي حتىٰ جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ؛ فقلت له: «إن قومك قد جعلوا فيك الدية»، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني[4] ولم يسألاني، إلا أن قال: أخفِ عنا، فسألته أن يكتب لي كتاب أمان، فأمر عامر بن فهيرة -رضي الله تعالىٰ عنه- فكتب في رقعة من أدم، ثم مضىٰ رسول الله ﷺ.

قال ابن شهاب -رحمه الله تعالىٰ-: (فأخبرني عروة بن الزبير رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجارًا قافلين من الشام، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياب بياض، وسمع المسلمون بالمدينة مخرج

---

(١) الزج: بضم الزاي بعدها جيم: الحديدة التي في أسفل الرمح.

(٢) أي أسرعت في السير.

(٣) التقريب: السير دون العدو وفوق العادة، وقيل: أن ترفع الفرس يديها وتضعهما معًا. فتح الباري (٧/ ١٤١).

(٤) أي لم ينقصاني مما معي شيئًا. فتح الباري (٧/ ٢٤٢).

الرسول ﷺ من مكة، فكانوا يخرجون كل غداة إلىٰ الحرة فينتظرونه، حتىٰ يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يومًا بعدما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلىٰ بيوتهم أوفىٰ رجل من يهود علىٰ أُطُم[(١)] من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلىٰ صوته: «يا معشر العرب هذا جدكم الذي تنتظرون»؛ فثار المسلمون إلىٰ السلاح، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتىٰ نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتًا، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم يرَ رسول الله ﷺ يحيّي أبا بكر، حتىٰ أصابت الشمس رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتىٰ ظلَّل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك... الحديث)[(٢)].

قال الشيخ صفي الرحمن المباركفوري -رحمه الله تعالىٰ-: (وفي يوم الاثنين ٨ ربيع الأول سنة ١٤ من النبوة -وهي السنة الأولىٰ من الهجرة- الموافق ٢٣ سبتمبر سنة ٦٢٢م نزل رسول الله ﷺ بقباء)[(٣)].

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (فنزل رسول الله ﷺ -فيما يذكرون- علىٰ كلثوم بن هدم-رضي الله تعالىٰ عنه-، أخي بني عمرو بن عوف، ثم أحد بني عبيد، ويقال: بل نزل علىٰ سعد بن خيثمة -رضي الله تعالىٰ عنه-، ويقول مَن يذكر أنه نزل علىٰ كلثوم بن هدم: إنما كان رسول الله ﷺ إذا خرج من منزل كلثوم بن هدم -رضي الله تعالىٰ عنه- جلس للناس في بيت سعد بن خيثمة -رضي الله تعالىٰ عنه-، وذلك أنه كان عازبًا لا أهل له، وكان منزل الأعزاب من أصحاب رسول الله ﷺ من

(١) الأطم: بضم أوله وثانيه هو الحصن. فتح الباري (٧/ ٢٤٣).
(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٢٣٨- ٢٣٩) رقم (٣٩٠٦).
(٣) الرحيق المختوم (١٥٤). وقد ذكر السهيلي -رحمه الله تعالى- خلافًا في ذلك، الروض الأنف (٢/ ٣٨٥).

المهاجرين، فمن هنالك يقال نزل علىٰ سعد بن خيثمة -رضي الله تعالىٰ عنه-، وكان يقال لبيت سعد بن خيثمة: بيت الأعزاب)[1].

نقف مع حدث الهجرة النبوية العظيمة؛ لنستخرج منها الفوائد التالية:

الأولىٰ: هل تعرف جريمة أكبر، وأفدح وأشنع من هذه الجريمة، عندما يبيت القوم يتآمرون علىٰ قتل سيد البشرية، رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ الذي قال الله -جل شأنه- عنه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

يا ألله مَن يستطيع أن يتخيل هذه الجريمة؟! محمد بن عبد الله خليل الرحمن، رسول رب العالمين، الحريص علىٰ المؤمنين، رؤوف رحيم، رحمة مهداة للخلق أجمعين، صاحب الشفاعة العظمىٰ والمقام المحمود، يجتمع أبو جهل وإبليس وأضرابهم لقتله.

ماذا صنع لهم؟! لأنه قال لهم: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا!!، هل دعاهم لنفسه؟، هل طلب منهم مالًا؟، هل سعىٰ للترؤس عليهم؟، لا والله. ولكنهم أراد منهم أن يُوحّدوا الذي خلقهم ورزقهم؛ لأجل أن يفوزوا بالجنة وينجوا من النار.

الثانية: هؤلاء الفجرة الذين اجتمعوا لم يكونوا يفكرون ببشاعة الجريمة، سواء أكانت، نفيًا، أو سجنًا أو تشريدًا أو قتلًا، كلها سواء عندهم، المهم القضاء علىٰ هذا الدين الذي جاء به محمد ﷺ، لم يقل أحد منهم: لا. هذه العقوبة لا تناسب، ليست من الأخلاق، ليست من شِيَم العرب، أو لا تليق بمن هو من قبيلتنا، كل ذلك انتهىٰ، ونُسِفت القِيَم والأخلاق والمبادئ، وأصبح المهم هو التخلص من محمد ﷺ، بصرف النظر عن سوء أو حسن الطريقة، والعياذ بالله، وعندما يكون هذا هو تفكير المنتقم الحاقد فلا تسأل عن سوء التفكير وطغيان الظلم والعدوان!!

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٩٩).

ويكفي لتعرف بشاعة الفجور أن الذي يدير الرأي فيها ويخطئ فلانًا ويصوّب فلانًا هو إبليس -لعنه الله-، ومعه جيش من الأبالسة من أمثال أبي جهل والوليد وغيرهم، وهؤلاء وإن ذهبوا، فأحفادهم يتجددون مع بقاء الرأي نفسه، السعي لقتل الرحمة المهداة، وشغلهم الشاغل التآمر لإطفاء نور الله.

الثالثة: إذا كان هؤلاء يتآمرون علىٰ قتل رسول الله ﷺ شخصيًّا، دون تورّع أو خوف أو تفكير في العواقب، فمن باب أولىٰ لن يتورعوا عن قتل الدعاة إلىٰ الله -جل شأنه- دون مبالاة، قال -تعالىٰ-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران:٢١-٢٢].

الرابعة: تكالب الأعداء، ضد أمر أو مع أمر، يدل علىٰ خطورته عليهم أو أهميته لهم، وما فعله الكفار في الهجرة يدلنا علىٰ عظم هذا الحدث وإدراك العدو لأبعاده وتبعاته. وقد صوَّر القرآن الكريم شيئًا من هذا المكر، قال -تعالىٰ-: ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال:٣٠]، يقول الشيخ السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (حين تشاور المشركون في دار الندوة فيما يصنعون بالنبي ﷺ، إما أن يثبتوه عندهم بالحبس ويوثقوه. وإما أن يقتلوه، وإما أن يخرجوه، فاتفق رأيهم علىٰ رأيٍ رآه شرّيرهم أبو جهل -لعنه الله-، وهو أن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش فتًىٰ ويعطوه سيفًا صارمًا، ويقتله الجميع قتلة رجل واحد، ليتفرق دمه في القبائل. فيرضىٰ بنو هاشم بديته، فلا يقدرون علىٰ مقاومة سائر قريش)(١).

(١) انظر: تفسير السعدي (ص ٣١٩).

الخامسة: تقول عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- في روايتها لحديث الهجرة: (فكَمَنَا في الغار ثلاث ليال)، وجاء في رواية أخرىٰ في البخاري -رحمه الله تعالىٰ-: (فانطلقا حتىٰ أتيا الغار -وهو بثور- فتواريا فيه)[1].

قد يقول شخص: لماذا اختفىٰ الرسول ﷺ في الهجرة، مع أنه يقول: ﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، وقوله: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»؟ ألم يكن واثقًا من حفظ الله -جل شأنه-؟

لقد اختفىٰ الرسول ﷺ؛ لأن الاختفاء أحد أسباب السلامة المطلوبة شرعًا، فلم يختفِ ضعفًا ولا جُبنًا ولا خوفًا من الكفار، فهو يعلم أن الله هو الذي أذن له بالهجرة، وما أذن له إلا ليحفظه ويوصله سالمًا منتصرًا، وأراه في الطريق من علامات النصر، ما يزيد ثباتًا ويقينًا، اختفىٰ لأن الاختفاء سببٌ، ليُعَلِّم الناس فعل الأسباب، مثل استئجار الدليل، وتهيئة الراحلة، ومثل تهيئة خادم في الطريق، كلها أسباب، مطلوبة شرعًا مع خلوص التوكل علىٰ الله، وإفراد تعلُّق القلب به -جل شأنه-، والناس لا يختلفون في فِعْل الأسباب، فكلهم يفعلون الأسباب مُؤمنهم، وكافرهم، ولكنهم يختلفون في التوكل علىٰ الله والثقة به؛ فالمؤمن تعلقه بالله، والكافر تعلقه بالأسباب، والمؤمنون يتفاوتون فيما بينهم في مستوىٰ الثقة بالله -جل شأنه- والتوكل عليه، ورسول الله ﷺ له النصيب الأعلىٰ الأتم، والحظ الأوفر من هذا التوكل.

ثم إن الرسول ﷺ يُشَرِّع للناس، فلا يأتي متهور، فيتصرف تصرفًا لا يقدر علىٰ مواجهة تبعاته، مستندًا للتوكل علىٰ الله، تاركًا للأسباب، مدعيًا التأسي بالرسول ﷺ.

السادسة: يقول الله -تعالىٰ-: ﴿يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت:٥٦]، يقول السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (فإذا تعذرت

(١) صحيح البخاري (٥/ ١٠٦) رقم (٤٠٩٣).

عليكم عبادة ربكم في أرض، فارتحلوا منها إلىٰ أرض أخرىٰ؛ حيث كانت العبادة لله وحده، فأماكن العبادة ومواضعها، واسعة، والمعبود واحد)[1]. الهجرة مخرج المؤمن عندما تضيق عليه السبل فلا يتمكن من أداء فرائضه، ويخشىٰ علىٰ نفسه، وأرض الله واسعة، وله أُسوة في هجرة الرسول ﷺ إلىٰ المدينة، وهجرة الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- إلىٰ الحبشة ثم إلىٰ المدينة.

السابعة: حدث الهجرة النبوية من أعظم الأحداث الإسلامية، بل إن الباحث في السيرة النبوية لَيَلْحَظُ ارتباطه بالبعثة النبوية، ففي اليوم الأول من البعثة عندما ذهب الرسول ﷺ مع خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- إلىٰ ورقة بن نوفل -رضي الله تعالىٰ عنه- قال له ورقة: (ليتني حيًّا إذ يخرجك قومك، فقال الرسول ﷺ: «أَوَ مُخْرِجِيَّ هم؟» قال: نعم، لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئتَ به إلا عُوْدِيَ)[2]؛ فالرسول ﷺ منذ البداية لديه علم بأنه سيُخْرَج من بلده.

الثامنة: كان الأمر بالهجرة زمانًا ومكانًا بوحي من الله -جل شأنه-، قال الإمام البخاري -رحمه الله تعالىٰ-: وقال أبو موسىٰ -رحمه الله تعالىٰ- عن النبي ﷺ: «رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلىٰ أرض بها نخل، فذهب وهلي إلىٰ أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب»[3]. ومر معنا قول الرسول ﷺ لأبي بكر ﷺ: «فإني قد أُذِنَ لي في الخروج»؛ فقال أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-: (الصحابة بأبي أنت يا رسول الله)[4]. وما كان بوحي فهو مضمون النتائج بأعلىٰ درجاته.

(١) تفسير السعدي (ص ٦٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح (١/ ٢٣) رقم (٣).

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٢٢٦)، كتاب المناقب، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه.

(٤) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٢٣١) رقم (٣٩٠٥).

التاسعة: الهجرة لا تعني مغادرة مكان إلىٰ مكان آخر، وإن كان البعض يسميها هجرة، كمن يهاجر لتجارة أو امرأة ينكحها كما في الحديث الصحيح[1]، أو لأي غرض دنيوي، وإنما الهجرة هي الهجرة إلىٰ الله ورسوله ولو بقي في مكانه يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (إذا اتخذ الله وحده معبوده ومرجوه ومخوفه وغاية قصده ومنتهىٰ طلبه، واتخذ رسوله وحده دليله وإمامه وقائده وسائقه، فوحَّد الله بعبادته ومحبته وخوفه ورجائِهِ، وإفراد رسوله بمتابعته والاقتداءِ به والتخلق بأَخلاقه والتأَدب بآدابه؛ فله في كل وقت هجرتان: هجرة إلىٰ الله بالطلب والمحبة والعبودية والتوكل والإنابة والتسليم والتفويض والخوف والرجاءِ والإقبال عليه وصدق اللجأِ والافتقار في كل نفس إِليه، وهجرة إِلىٰ رسوله في حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة؛ بحيث تكون موافقة لشرعه الذي هو تفصيل محابّ الله ومرضاته)[2]. فمن بسط الله له من فضله، وأغناه عن الهجرة بأن يسَّر له مكان العبادة الآمن؛ فعليه بهذه الهجرة إلىٰ الله التي خصَّص ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- كتابًا كاملًا في تبيينها.

العاشرة: ألقىٰ الرسول ﷺ نظرة الوداع لبلده وموطنه، وهو لا يدري أهو الوداع الأخير أم هناك عود قريب؟! أحب البقاع إليه، خير أرض الله، وأحبها إليه، فقد اجتمع في مكة الحب الفطري والحب الشرعي، الحب الفطري لكونها بلده، يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (والنفس تحن إلىٰ الوطن)[3]، والحب الشرعي لكونها خير أرض الله وأحب البقاع إليه؛ فعن أبي سلمة بن عبد الرحمن، -رضي الله تعالىٰ عنهما- أن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري -رضي الله تعالىٰ عنه- أخبره، أنه

(١) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى؛ فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» صحيح البخاري (١/ ٦) رقم (١)، وصحيح مسلم (٣/ ١٥١٥) رقم (١٩٠٧).
(٢) ابن القيم، طريق الهجرتين، الطبعة الأولى (مكة: دار عالم الفوائد ١٤٢٩)، (١/ ٨-٩).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٤٦٣).

سمع النبي ﷺ وهو واقف بالحزورة[1] في سوق مكة يقول: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلىٰ الله -عز وجل-، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت»[2].

وعن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: قال: رسول الله ﷺ لمكة: «ما أطيبك من بلد وأحبك إليَّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك»[3].

هذا شعور الرسول ﷺ وهو يغادر مكة ويودّعها بقلب حزين أسيف علىٰ هذا البلد الحرام، أحب البلاد إلىٰ الله وأحب البلاد إلىٰ رسوله ﷺ، فيه نشأ، فأحبه الحب الطبيعي المؤيد بالمحبة الشرعية، فكان الفراق عسيرًا.

ولعل ما نزل بعد ذلك، مما ذكره ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ- في تفسيره لقوله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥]، بعد أن أورد عدة معاني، قال: (لما خرج النبي ﷺ من مكة، فبلغ الجحفة، اشتاق إلىٰ مكة، فأنزل الله عليه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] إلىٰ مكة)[4]. وفي صحيح البخاري -رحمه الله تعالىٰ-: (حدثنا محمد بن مقاتل، أخبرنا يعلىٰ، حدثنا سفيان العصفري، عن عكرمة، عن ابن عباس -رضي الله

(١) الحزورة بفتح الحاء المهملة وسكون الزاي: هي ما يعرف اليوم باسم القشاشية، مرتفع يقابل المسعى من مطلع الشمس كان ولا يزال سوقًا من أسواق مكة، وكانت الحزورة تلًّا مرتفعًا، وهي كذلك اليوم غير أن ظهرها معمور بشوارع تجارية كشارع الصوغ ومبيعات الحقائب ونحوها»، عاتق البلادي، معجم الْمَعَالِم الْجُغْرَافِيَّة فِي السِّيرَة النَّبَوِيَّة، الطبعة الأولى: (مكة: دار مكة للنشر ١٤٠٢)، (ص ٩٨). وقد أُزيلت الأسواق الآن ودخلت ضمن مشاريع التوسعة للحرم المكي الشريف.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٣١/ ١٠) رقم (١٨٧١٥)، وقال محققو المسند: «إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير أن صحابيه روى له أصحاب السنن سوى أبي داود»، ورواه ابن ماجه في سننه رقم (٣١٠٨) وصححه الألباني.

(٣) رواه الترمذي في سننه (٨/ ٤٢٦) رقم (٣٩٢٦) وصححه الألباني.

(٤) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٦/ ٢٦٠).

تعالىٰ عنهما-، ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]؛ قال: (إلىٰ مكة)[1]. فيه البُشْرىٰ للرسول بالعودة ليطمئن قلب النبي ﷺ بالوعد الإلهي له بأنه عائد إلىٰ مكة عودة فيها التدبير والتمكين الرباني من الله -سبحانه وتعالىٰ-. وهو ما تحقق -بفضل الله تعالىٰ- في فتح مكة.

الحادية عشرة: مغادرة الوطن قسرًا، ليست بالأمر اليسير علىٰ النفس، هذا أمر فُطر عليه الناس وغيرهم، حتىٰ إن الحيوانات لتحنّ إلىٰ موطنها، وقد وردت آيات في القرآن الكريم تُبين أن الإخراج من الوطن ليس بالأمر اليسير علىٰ النفس؛ قال -تعالىٰ-: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَـٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء:٦٦]. وقال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة:٩]، وقال -تعالىٰ-: ﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٤٦]، وقال -تعالىٰ- مخبرًا عن فرعون لما أراد تجييش قومه ضد موسىٰ -عليه السلام- قال لهم: إنه يريد أن يخرجكم من بلادكم؛ لما يعلمه فرعون من شدة هذا الأمر عليهم، وأن هذا أقوىٰ أمر يستفز فيه قومه ضد موسىٰ -عليه السلام- قال -تعالىٰ-: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء:٣٤-٣٥].

وقد نال الرسول ﷺ من هذا الابتلاء أشد الأمر وأعظمه؛ أُخرج وطُورِدَ، حتىٰ الإخراج القسري لم يكن آمنًا فيه، بل كان مستخفيًا يعلم باستنفار قبائل العرب للبحث عنه لقتله، وهذا أحد صور الابتلاء التي لاقاها الرسول ﷺ، فأينما اتجهت في سيرة المصطفىٰ ﷺ تجد أن الابتلاء رفيقه ﷺ، ابتُلي في نفسه وفي ولده وفي زوجه وفي ماله وفي بلده، ليكون أُسوة للعالمين، ولينال أعلىٰ الدرجات عند ربه الكريم.

(١) صحيح البخاري (٦/ ١١٣) رقم (٤٧٧٣).

وفيه من الدرس لنا أن من أُخرج من بلده فليستحضر التأسي بالرسول ﷺ لينال أوفى الأجر، ومن أكرمه الله ببلد آمن يعبد الله -جل شأنه- فليستحضر النعمة، ويشكر الله عليها[1].

الثانية عشرة: وقفت عند قول أبي بكر -رضي الله تعالى عنه-: (الصحابة بأبي أنت يا رسول الله)، عندما قال الرسول ﷺ: «فإني قد أُذن لي في الخروج». قال رسول الله ﷺ: «نعم» تقول عائشة -رضي الله تعالى عنها-: (فرأيت أبي بكى، وما كنت أحسب أحدًا يبكي من الفرح). هنا يسأل الشخص فرح بماذا؟! هل يخفى على أبي بكر -رضي الله تعالى عنه- المخاطرة الكبرى بحياته في هذه الرُّفقة؟ لا شك أنه على يقين بمستوى المخاطرة التي سيقدم عليها بهذه الهجرة، وكان من الأيسر له أن يهاجر كما هاجر غيره مستخفيًا وحده أو معه صحبة من بعض المهاجرين يتواسون في الطريق إلى أن يصلوا المدينة، لا أن يتعرض لهذه المطاردة الشرسة الظالمة من قريش ومن تابعها من قبائل العرب، وأن يكون لمن يعيده إلى قريش حيًّا أو ميتًا مائة من الإبل.

لكنَّ أبا بكر -رضي الله تعالى عنه- جعل نفسه فداءً للرسول ﷺ، بكى فرحًا لهذا الشرف العظيم الذي بشَّره به النبي ﷺ، بأن يخدم الرسول ﷺ، في هذه الرحلة، ويكون معه حارسًا مؤنسًا، ولذلك نال شرف ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾، وهذه واحدة من خصائصه -رضي الله تعالى عنه وأرضاه-.

قال الرازي في تفسيره: (وتخصيص الله إيَّاه بهذا التشريف دلَّ على منصب عالٍ له في الدين...، وأن كل من سوى أبي بكر -رضي الله تعالى عنه- فارقوا رسول الله ﷺ، أما هو فما سبق رسول الله كغيره، بل صبر على مؤانسته وملازمته وخدمته عند هذا الخوف الشديد الذي لم يبقَ معه أحد، وذلك يوجب الفضل العظيم)[2].

(١) لي كتاب بعنوان (حب الوطن من منظور شرعي)، طُبع عدة طبعات، وطبعته بعض الجهات الخيرية، وموجود منه نسخة إلكترونية.

(٢) الرازي، التفسير الكبير (١٦/ ٥٠).

إنه الحب العميق الذي تخلل القلب، الحب الذي يُنسي الأهوال، الحب الذي تتقاصر دونه الأقوال؛ حبّ أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- لرسول الله ﷺ حبّ فوق الخيال، لا يصفه واصف، ولا يبلغ منزلته كلمات بليغ، ولا يرقىٰ إليه خيال شاعر أو أديب. ولذلك لا تسأل لماذا بكىٰ أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- فرحًا بهذه الصحبة![1].

الثالثة عشرة: إذا عُدْتُ للحديث عن حدث الهجرة، فإن الكون كله قد حبس أنفاسه منذ خرج رسول الله ﷺ من بيته، ثم قابل أبا بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- وشاع خبر خروجهما، وخرجا معًا إلىٰ الغار، واختفيا فيه ثلاثة أيام، في وقت اشتد الطلب عليهما، وقَلَب الكفار كل حجر بحثًا عنهما، ثم خرجا من الغار وسارا في الطريق ومعهما عامر بن فهيرة -رضي الله تعالىٰ عنه-، والدليل عبد الله بن أريقط. وقد نقبت قريش كل طريق، واستنفرت القبائل لاستعادة محمد ﷺ، وخرج فرسان العرب بحثًا عنه للفوز بجائزة قريش.

وكيف لا يحبس الكون أنفاسه، ومحمد ﷺ خليل الرحمن وسيد ولد آدم، تطارده هذه الفئة الظالمة الفاجرة، وهو وحيد في هذا الصحراء الممتدة ليس معه إلا صديقه وخادمه ودليله.

لو كان ابن أحدنا في هذه الصحراء، يسير وحيدًا، وليس خلفه عدو يطارده، ما استقر للأب قرار حتىٰ يطمئن تمامًا علىٰ سلامة ابنه.

كيف وهو محمد ﷺ، أحب إلينا من أنفسنا وولدنا ووالدينا والناس أجمعين. وهو مُطارَد مطلوب من القبائل العربية، كيف كان شعور الصحابة -رضي الله تعالىٰ

(١) للمؤلف كتاب بعنوان (حديث القرآن الكريم عن أبي بكر الصديق -رضي الله تعالى عنه-) أسأل المولى الكريم أن ييسر إتمامه، وفيه وقفات مع هذه الآيات وأمثالها التي تحدثت عن أبي بكر -رضي الله تعالى عنه-.

عنهم- في مكة، وفي المدينة، في تلك الساعات الحرجة من هجرته ﷺ، وكيف فرحهم به؛ لما تيقنوا سلامته ﷺ.

الرابعة عشرة: وصل الكفار إلىٰ مدخل الغار الذي كان الرسول ﷺ مختبئًا فيه حتىٰ إن أحدهم لو نظر إلىٰ موضع قدميه لأبصر الرسول ﷺ وصاحبه رضي الله عنه، في هذا الوقت الحرج جدًّا، الذي يكتم فيه الشخص أنفاسه، يقول الرسول ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»

هنا وقفة عجيبة! تحتاج إلىٰ شيء من التوضيح؛ ذلك أن الشخص قد يتوكل علىٰ الله، وتظهر منه عبارات التوكل وآثاره، والعدو بعيد، لكن أن يصل العدو إلىٰ باب البيت، ولم يبقَ بينك وبينه إلا مسافة يده ليمدّها ويأخذك، ومع ذلك لا يهتز الإيمان ولا يضعف التوكل؛ بل تمام الثقة بالله -سبحانه-، فهذا شيء عجيب لا يقدر عليه إلا من كَمُل إيمانه وبلغ الغاية في توكله علىٰ الله -سبحانه-، وثقته التامة بنصره، ولو وصل الكفار إلىٰ باب الغار، ولو لم يبقَ إلا أن ينظر أحدهم إلىٰ موضع قدمه ليرىٰ الرسول ﷺ، فالثقة بالله لا تهتزّ ولا تضعف.

ولذلك فهذا هو ميدان التنافس في رسوخ التوكل علىٰ الله والثقة به، ففي الرخاء، أو في حالة كون العدو نائيًا، كلٌّ متوكّل علىٰ الله، لكن عندما يصل العدو إلىٰ الباب، ترىٰ انهيارات القلوب تترىٰ، وينكشف ضعفاء الإيمان، وتنجلي الحقيقة.

ومثل ذلك أيضًا لحوق سراقة بن مالك بالرسول ﷺ وصاحبه أبي بكر رضي الله عنه، ووصوله إليهما، ففَرْق بين التوكل والثقة بالله، والعدو بعيد، والثقة والتوكل والثبات عليه، والعدو قد لحق ووصل، وأصبح علىٰ مسافة أمتار فقط[1]. ومع ذلك

(١) ورد في مسند الإمام أحمد -رحمه الله تعالى-: (١/ ١٨١) رقم (٣) قول أبي بكر -رضي الله تعالى عنه-: «حتى إذا دنا منا فكان بيننا وبينه قدر رمح أو رمحين أو ثلاثة»؛ قال محققو المسند: «إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عمرو بن محمد العنقزي، فمن رجال مسلم».

الرسول ﷺ ثابت لا يلتفت، بل يقرأ القرآن الكريم، واثق من حفظ الله -تعالىٰ- له، وأبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- كان خائفًا علىٰ الرسول ﷺ لا خائفًا علىٰ نفسه. فكل منهما في أسمىٰ درجات العبودية لله -سبحانه وتعالىٰ-.

الخامسة عشرة: لاحظ هنا قول الرسول ﷺ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟» ولم يقل: «ما ظنك بالرسول»، أو «ما ظنك بي وبك والله معنا»، ونحو ذلك التي فيها الخصوصية للرسول ﷺ وأبي بكر ﵁، ولكن «ما ظنك باثنين» فهي تشمل كل المؤمنين الموقنين بمعية الله لهم وهي قاعدة مطردة، وليست خاصة بهذا الموقف فقط، وهي بُشرىٰ لكل مؤمن بأن الله -جل شأنه- معه؛ بحفظه ونصره وتأييده وتوفيقه.

السادسة عشرة: تأمل قول الله -تعالىٰ-: ﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ مخبرًا عن قول الرسول ﷺ لأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، وقول الله -جل شأنه- في موسىٰ -عليه السلام-: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]. فمحمد ﷺ معه المعية الإلهية، وموسىٰ -عليه السلام- معه المعية الربانية. يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وما تعلق بإلهيته أكمل وأعلىٰ مما تعلق بربوبيته) ([1]).

ومحمد ﷺ يقول ﴿مَعَنَا﴾، وموسىٰ -عليه السلام- يقول ﴿مَعِيَ﴾؛ فمعية محمد ﷺ له ولصاحبه، ومعية موسىٰ -عليه السلام- له دون من معه.

قال القسطلاني -رحمه الله تعالىٰ- نقلًا عن ابن اللبان -رحمه الله تعالىٰ-: (وتأمل قول موسىٰ -عليه السلام- لبنىٰ إسرائيل: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، وقول نبينا ﷺ للصِّدِّيق: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾؛ فموسىٰ خص بشهود المعية، ولم يتعدَّ منه إلىٰ أتباعه، ونبينا تعدَّىٰ منه إلىٰ الصِّدِّيق، ولم يقل «معي»... وأين معية الربوبية في

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٦٧).

قصة موسىٰ -عليه السلام- من معية الإلهية في قصة نبينا ﷺ؟)(١).

وقال الزرقاني -رحمه الله تعالىٰ-: (وتأمل قول موسىٰ لبني إسرائيل: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾ [الشعراء:٦٢]، وقول نبينا ﷺ للصديق: «إن الله معنا»، قدم المسند إليه للإشارة إلىٰ أنه لا يزول عن الخاطر لشدة التعلق به، أو لأنه يستلذ به لكونه محبوبًا للعباد؛ إذ لا انفكاك لأحد عن الاحتياج إليه أو لتعظيمه بوصفه بالألوهية؛ لأن سائر صفات الكمال تتفرع عليه)(٢).

ولأهمية الدلالة في قوله -تعالىٰ-: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أقف هنا مُلخِّصًا للمقارنة بين ما جرىٰ لموسىٰ -عليه السلام-(٣)، وقومه ومحمد ﷺ وصاحبه -رضي الله تعالىٰ عنه-:

١. أصحاب موسىٰ قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾، وصاحب محمد ﷺ مطمئن لكنه حزين؛ خوفًا علىٰ صاحبه. ولذلك كان جواب موسىٰ -عليه السلام- لقومه: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾، وجواب محمد ﷺ لأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

(١) القسطلاني، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (القاهرة: المكتبة التوفيقية)، (١/ ١٧٥).
وأضاف الزرقاني في شرحه للمواهب قوله: («وأين» استفهام تعجب وتعظيم للفرق بين المقامين، «معية الربوبية في قصة موسى -عليه السلام-»؛ حيث قال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ والرب من التربية، وهي التنمية والإصلاح، «من معية الإلهية في قصة نبينا ﷺ»؛ حيث عبر بالاسم الجامع لصفات الكمال). شرح الزرقاني للمواهب، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٧)، (٢/ ١٢٥).

(٢) الزرقاني، شرح الزرقاني للمواهب (٢/ ١٢٤-١٢٥).

(٣) قال -تعالى- : ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٥٢ فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ٥٦ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٥٧ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٥٩ فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٤ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ٦٥ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٥٢-٦٨].

٢. موسىٰ -عليه السلام- يقول: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾، ومحمد ﷺ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾؛ فالمعية الأولىٰ خاصة بموسىٰ -عليه السلام- دون قومه، والمعية الثانية لمحمد ﷺ وأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، وبالتالي فنجاة قوم موسىٰ -عليه السلام- لم تكن لمعية الله -جل شأنه- الخاصة، وإنما إكرامًا لموسىٰ -عليه السلام- وتبعًا له. بينما كانت نجاة الصِّدِّيق -رضي الله تعالىٰ عنه- صاحب محمد ﷺ بالمعية الإلهية لا بالتبع لمعية الرسول ﷺ فقط، فالله -جل شأنه- مع النبي ﷺ ومع أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، بينما ذلك حاصل لموسىٰ -عليه السلام- بمفرده دون أصحابه، وهذا فرق شاسع، يكشف المكانة العليا لصاحب رسول الله ﷺ.

٣. تتجلىٰ تلك المكانة أكثر بتأمل الفارق بين ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾؛ فمعية موسىٰ -عليه السلام- معية ربانية، ومعية محمد ﷺ معية إلهية. ومعية الربوبية كما سبق فيها تعلق والتجاء، مع خوف وقلق، في حين أن المعية الإلهية أكمل؛ لأن فيها تفويض العبد أمره إلىٰ الله -جل شأنه- مع طمأنينة وثقة ويقين بتأييد الله -سبحانه وتعالىٰ-.

٤. إن معية موسىٰ -عليه السلام- تقدم فيها ذِكر النفس علىٰ ذِكْر الرب -جل شأنه-: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾، ومعية محمد ﷺ وصاحبه -رضي الله تعالىٰ عنه- تقدم فيها ذِكْر الله -جل شأنه- علىٰ النفس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، وهذا أقرب للطمأنينة واليقين والثقة به -سبحانه-، والنبي ﷺ وأبو بكر يشتركان في هذا الأمر. فانظر كم لأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- من فضيلة بل خصيصة في قوله -تعالىٰ-: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾!!

السابعة عشرة: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ هذه العبارة لم تكن مجرد إجابة في موقف واحد، مر بالرسول ﷺ وصاحبه -رضي الله تعالىٰ عنه- وانتهت، وإنما درس يرافقنا في الحياة كلها، إن الله معنا. فلا تحزن ولا تَخَفْ، واشتغل بالأخذ بأسباب تقوية هذه المعية الإلهية.

الثامنة عشرة: قوله ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ الآية تحدثنا عن نوع من أنواع الحزن؛ هذا الحزن من أشرف وأعلىٰ أنواع الحزن؛ بل هو أشرفها وأعلاها، ليس من حزن الذين أهمتهم أنفسهم، إنه حزنٌ رفيع شريف، حزنٌ علىٰ الرسول ﷺ، وأي عبودية أشرف من هذه العبودية؟! حَزِن فيها أبو بكر –رضي الله تعالىٰ عنه– خوفًا وقلقًا علىٰ المصطفىٰ ﷺ(١). مع أن أبا بكر الصديق كان في ذات المخاطرة، لكنه نسي نفسه، منشغلًا بالحزن خوفًا علىٰ الرسول ﷺ، والمعتاد في هذه المواقف أن ينسىٰ الإنسان من معه مهما كانوا، في غمرة الخطر البالغ علىٰ النفس. كما جرىٰ في غزوة أُحُد، وفي غزوة حنين، من فرار بعض الصحابة الكرام –رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين–، والرسول ﷺ قائد الجيش ثابت مع قلة من الصحابة –رضي الله تعالىٰ عنهم–، ولكنَّ خَطْب الحروب وأهوالها تُذْهِل الشخص مهما كان إلا مَن عصم الله –جل شأنه–.

وتلك عبودية عملية فذَّة، واختبار جلّىٰ وكشف مكنون أبي بكر الصديق العظيم –رضي الله تعالىٰ عنه–.

---

(١) أخرج الحاكم في المستدرك (٣/ ٧) رقم (٤٢٦٨): (ثنا محمد بن سيرين، قال: ذُكِرَ رجال على عهد عمر رضي الله عنه، فكأنهم فضَّلوا عمر على أبي بكر رضي الله عنهما، قال: فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه، فقال: والله لليلة من أبي بكر خير من آل عمر، وليوم من أبي بكر خير من آل عمر، لقد خرج رسول الله ﷺ لينطلق إلى الغار ومعه أبو بكر، فجعل يمشي ساعة بين يديه، وساعة خلفه؛ حتى فطن له رسول الله ﷺ، فقال: «يا أبا بكر، ما لك! تمشي ساعة بين يدي وساعة خلفي؟»، فقال: يا رسول الله، أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد، فأمشي بين يديك، فقال: «يا أبا بكر، لو كان شيء أحببت أن يكون بك دوني؟» قال: نعم، والذي بعثك بالحق، ما كانت لتكون من ملمة إلا أن تكون بي دونك، فلما انتهيا إلى الغار، قال أبو بكر: مكانك يا رسول الله، حتى أستبرئ لك الغار، فدخل واستبرأه حتى إذا كان في أعلاه ذكر أنه لم يستبرئ الحجرة، فقال: مكانك يا رسول الله، حتى أستبرئ الحجرة، فدخل واستبرأ، ثم قال: انزل يا رسول الله، فنزل، فقال عمر: والذي نفسي بيده لتلك الليلة خير من آل عمر» قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين، لولا إرسال فيه ولم يخرجاه)، وقال الذهبي في التلخيص: «صحيح مرسل»، وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤٧٦).

يقول أبو بكر ابن العربي -رحمه الله تعالىٰ-: (إن الحزن الذي عند الصِّدِّيق -رضي الله تعالىٰ عنه- إِنَّمَا كَانَ خَوْفًا عَلَىٰ النَّبِيّ ﷺ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ ضرر، وَلَمْ يَكُنِ النَّبِيّ ﷺ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مَعْصُومًا)(١).

لقد كان حزنه -رضي الله تعالىٰ عنه- (إشفاقًا علىٰ رسول الله ﷺ، يدلّ عليه أنه قال: يا رسول الله! إن قُتِلتُ فأنا رجل واحد، وإن قُتِلتَ هلكت الأمة)(٢).

قال السهيلي -رحمه الله تعالىٰ-: (إنما قال الرسول ﷺ لأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-: لا تحزن. ولم يقل لا تخف؟ لأن حزنه علىٰ رسول الله ﷺ شغله عن خوفه علىٰ نفسه، ولأنه أيضًا رأىٰ ما نزل برسول الله ﷺ من النَّصَب، وكونه في ضيقة الغار، مع فرقة الأهل، ووحشة الغربة، وكان أرقّ الناس علىٰ رسول الله ﷺ وأشفقهم عليه؛ فحزن لذلك)(٣).

التاسعة عشرة: كما بذل أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- نفسه لرسول الله ﷺ، فقد سخر ماله كله لرسول الله ﷺ، أخرج الإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ- في المسند عن أسماء بنت أبي بكر، -رضي الله تعالىٰ عنهما- قالت: (لما خرج رسول الله ﷺ، وخرج معه أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، احتمل أبو بكر ماله كله معه: خمسة آلاف درهم، أو ستة آلاف درهم». قالت: «وانطلق بها معه». قالت: «فدخل علينا جدي أبو قحافة وقد ذهب بصره، فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه، قالت: قلت: كلا يا أبتِ، إنه قد ترك لنا خيرًا كثيرًا». قالت: (فأخذت أحجارًا، فوضعتها في كوة البيت، كان أبي يضع فيها ماله، ثم وضعت عليها ثوبًا، ثم أخذت

(١) ابن العربي، أحكام القرآن (٢/ ٥١٥)، وانظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨/ ١٤٧)، وابن العربي -رحمه الله تعالى- يشير إلى نزول قول الله -تعالى-: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.
(٢) أحمد الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، حققه أبو محمد بن عاشور، الطبعة الأولى (بيروت: دار إحياء التراث العربي ١٤٢٢)، (٥/ ٤٧).
(٣) السهيلي، الروض الأنف (٤/ ١٣٥).

بيده، فقلت: يا أبتِ، ضع يدك علىٰ هذا المال». قالت: «فوضع يده عليه، فقال: لا بأس، إن كان قد ترك لكم هذا، فقد أحسن، وفي هذا لكم بلاغ». قالت: «ولا والله ما ترك لنا شيئًا، ولكني، قد أردت أن أسكّن الشيخ بذلك»[1].

وفي المسند أيضًا عن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نفعني مال قط، ما نفعني مال أبي بكر»؛ فبكىٰ أبو بكر، وقال: هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله؟[2]. لقد جمع الله لأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- تسخير نفسه وماله في خدمة رسول الله ﷺ. وخصه بذلك، فلم يقبل الرسول ﷺ من أحد من الصحابة إنفاق ماله كله في سبيل الله، رغم أن بعضًا منهم أراد ذلك، لكن لمعرفة الرسول ﷺ أن هذا الأمر قد يفعله الشخص ثم يندم عليه فيما بعد، ولا يقوىٰ عليه إلا من هو بمثل إيمان أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، رد من رغب في ذلك إلىٰ الثلث أو نحو ذلك. وكفىٰ بذلك تزكية لأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-.

العشرون: أن الاستئجار لعمل من لأعمال يكون بناء علىٰ تقدير الكفاءة المهنية، ولا علاقة له بمسألة الولاء والبراء؛ فقد استأجر الرسول ﷺ عبد الله بن أريقط ليكون دليلًا في طريق الهجرة، مع أن في المسلمين من يعرف الطريق إلىٰ يثرب، ولكن كان ابن أريقط أحذق. نعم لو تساويا فالمسلم أولىٰ؛ لما يترتب علىٰ ذلك من عون للمسلم علىٰ رزقه وتكريمه.

الحادية والعشرون: في تصرُّف أسماء بنت الصديق -رضي الله تعالىٰ عنهما-، حينما جاءها والد أبي بكر -جدُّها- يسألها هل ترك لهم أبو بكر نفقة؟ وهو يعلم من

---

(١) المسند (٤٤/ ٥٢٠) رقم (٢٦٩٥٧). وقال محققو المسند: «إسناده حسن»، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦) رقم: (٤٢٦٧) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ولم يتعقبه الذهبي.

(٢) الإمام أحمد، المسند (١٢/ ٤١٤) رقم (٧٤٤٦)، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

سيرة ابنه أنه قد يأخذ كل ماله معه لأجل الرسول ﷺ، فكان جواب أسماء -رضي الله تعالىٰ عنها- أن أوهمت جدها بأن والدها ترك لهم نفقة تكفيهم! ووضعت يده علىٰ كيس مملوء حجارة، وكأنها نقود، وهذا يدل علىٰ قوة إيمانها، وحُسن تدبيرها، ورعايتها لمقام والدها، وتوقيرها لجدها؛ فرضي الله عن ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر وأرضاها.

الثانية والعشرون: من قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: (لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا)، وقول الرسول ﷺ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»؛ ندرك من هذا مصداق قول الله -جل شأنه-: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنفال:١٨]؛ فالوهن مزروع في كيد الكافر، ولا يمكن فصل الوهن من كيده، فالكفرة هنا بذلوا كل ما يستطيعون، وأعلنوا الجوائز وتسابق الناس يبحثون عن الرسول ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه طمعًا في الجائزة، فقلّبوا الحجارة وصعدوا الجبال وهبطوا الأودية حتىٰ وقفوا علىٰ باب الغار، وصرفهم الله -جل شأنه- بأمر يسير جدًّا، بل قد أقول: إنه أيسر الأمور، ألا وهو حركة طرف العين، تلك الحركة التي هي أسهل الحركات، تلك الحركة التي يقوم بها الإنسان في اللحظة الواحدة مرات عديدة، ومع ذلك، مع هوان الكفار وكيدهم؛ صرفهم الله -جل شأنه- بهذه الحركة اليسيرة، فلم يفعلوها تلك اللحظة، ولم يتمكنوا من رؤية الرسول ﷺ وصاحبه، فبطل كيدهم كله، ورجعوا بالخيبة والخسارة.

الثالثة والعشرون: يقول الله -سبحانه وتعالىٰ-: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:٤٠].

قال القرطبي -رحمه الله تعالىٰ-: (قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ بِهَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْمُعَاتَبَةِ الَّتِي فِي قَوْلِهِ: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ ﴾[1]. وعن الشعبي -رحمه الله تعالىٰ- قال: (لقد عاتب الله أهل الأرض جميعًا غير أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- في هذه الآية)[2].

أيها القارئ الكريم: إن الله -جل شأنه- قادر علىٰ نصرة رسوله ﷺ، قادر علىٰ أن يقول للشيء كن فيكون، أو يقول له زُلْ فيزول. ولكن الله أراد أن ينال بعضُ عباده شرفَ نصرة رسوله ﷺ فترتفع درجاتهم، ويُكتب لهم بذلك أفضل الحسنات وأعلىٰ الدرجات، ويظهر تميُّز مقامهم علىٰ سائر الناس، فكان مما اختص الله به أبا بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- بأن كان هو الذي نصر الرسول ﷺ؛ فنال أجر هذا العمل، وفاز بهذا الفضل، وحاز هذا التميز؛ فاللهم ارض عنه وأَرْضِه، وارْضَ عمَّن ترضَّىٰ عنه يا رب العالمين.

الرابعة والعشرون: هنا وقفة مع رغبة الرسول ﷺ في أن يصحبه صديق له في هذه الرحلة، إذ كان بإمكان الرسول ﷺ أن يهاجر بمفرده، وليس معه إلا خادم أو خادمان فقط لمزيد التخفّي، لكنه اختار أن يكون معه صديق، بالإضافة إلىٰ خادم، وهنا أقول لو كان هناك شخص يمكن أن يستغني عن الصديق لاستغنىٰ عنه الرسول ﷺ في حياته بعامة، وفي هجرته بخاصة، ولذلك لا يمكن أن تستغني عن صديق في حياتك، فمتىٰ رزقك الله صديقًا فتمسك به؛ بل تشبَّث به، يُؤنسك ويشاركك همومك، معك في السراء والضراء، وكن أنت معه كذلك تَنَل الأجر في الحالين. وقد قرن الله الصديق بالأقارب قال الله -تعالىٰ-: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الطبعة الأولى: (القاهرة، دار الكتب المصرية ١٣٨٤)، (٨/ ١٤٣).
(٢) الثعلبي، (ت: ٤٢٧) تفسير الثعلبي (الكشف والبيان)، (٥/ ٤٨).

أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ [النور:٦١]؛ قال القرطبي -رحمه الله-: (قرن الله -عز وجل- في هذه الآية الصديق بالقرابة المحضة الوكيدة؛ لأن قرب المودة لصيق. قال ابن عباس -رضي الله عنهما- في كتاب النقاش: (الصديق أوكد من القرابة، ألا ترىٰ استغاثة الجهنميين: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء:١٠٠ - ١٠١])[1].

الخامسة والعشرون: وقبل أن أغادر موضع الوقفة السابقة أستذكر قول عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-: (ولم يمر عليهما يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية، فبينما نحن جلوس في بيت أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- في نحر الظهيرة قال قائل: هذا رسول الله ﷺ في ساعة لم يكن يأتينا فيها. قال أبو بكر: ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر»[2].

هذه صورة للودّ والمحبة والألفة بين الرسول الكريم ﷺ وصديقه أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه-، لا يمر يوم إلا ويأتي الرسول ﷺ يزور أبا بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، وإذا كان هذا حال الرسول ﷺ مع أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، فكيف بحال أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- مع الرسول ﷺ. إنها الصورة المثلىٰ من صور الصداقة والمحبة والألفة التي نسعىٰ أن تكون قدوة لنا في حياتنا مع أصدقائنا.

السادسة والعشرون: يقول الشيخ السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (النصر علىٰ قسمين:

الأول: نصر المسلمين إذا طمعوا في عدوهم بأن يتم الله لهم ما طلبوا وقصدوا فيظهرهم الله عليهم.

---

(١) القرطبي، تفسير القرطبي (١٢/ ٣١٦).

(٢) البخاري، صحيح البخاري (٨/ ٢٦) رقم (٦٠٧٩).

الثاني: نصر المستضعف الذي طمع فيه عدوّه القادر، فنصر الله له أن يرد عنه عدوه، ولعل هذا النصر هو أنفع النَّصْرَيْنِ، ونصر الله لرسوله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين من هذا النوع)[1].

السابعة والعشرون: في قوله -تعالىٰ-: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ في هذا الجزء من الآية خصيصتان من خصائص أبي بكر الصديق ﷺ، فهو ثاني اثنين، وهو صاحب الرسول ﷺ في الغار بنص القرآن الكريم[2].

الثامنة والعشرون: من قول الرسول ﷺ لأبي بكر ﷺ: «لا تحزن»، ومن حديث البراء بن عازب ﷺ يقول في قصة الهجرة: قال أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-: (فارتحلنا بعدما مالت الشمس، واتبعنا سراقة بن مالك، فقلت: أُتينا يا رسول الله، فقال: «لا تحزن إن الله معنا» الحديث[3]؛ حيث جعل الرسول ﷺ يُسكّن أبا بكر ﷺ ويطمئنه[4]، نستفيد من هذا مشروعية تسكين وطمأنة من نزل به أمر أحزنه، ومثل هذا قول خديجة -رضي الله تعالىٰ عنها- للرسول ﷺ يوم جاء من غار حراء بعد نزول الوحي عليه وأخبرها الخبر، وقال: «لقد خشيت علىٰ نفسي»، فقالت خديجة رضي الله عنها: (كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لَتَصِلُ الرحمَ، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدومَ، وتقري الضيفَ، وتعين علىٰ نوائب الحق)[5].

يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- في فوائد هذا الحديث: وفيه (استحباب تأنيس من نزل به أمر بذكر تيسيره عليه وتهوينه لديه)[6].

---

(١) انظر: السعدي، تفسير السعدي (ص ٣٣٨) طبعة مؤسسة الرسالة ١٤٢١هـ).

(٢) انظر الرازي، التفسير الكبير (١٦ / ٦٤- ٦٥)، وابن القيم، الضوء المنير على التفسير جمع علي الحمد الصالحي (٣/ ٣٥٦ – ٣٥٧)، (الرياض: مكتبة دار السلام د. ت).

(٣) أخرجه البخاري في صحيح المطبوع مع الفتح (٦/ ٦٢٢) رقم (٣٦١٥).

(٤) الرفاعي، تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (٢/ ٣٣٩).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح (١/ ٢٣)، حديث رقم (٣).

(٦) ابن حجر، فتح الباري (١/ ٢٥).

التاسعة والعشرون: من قول الله -تعالىٰ-: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٤٠]، في عود الضمير في قوله -تعالىٰ-: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾؛ قال البيضاوي -رحمه الله تعالىٰ-: (علىٰ النبي ﷺ أو علىٰ صاحبه وهو الأظهر؛ لأنه كان منزعجًا)(١)، وقال ابن العربي -رحمه الله تعالىٰ-: (فيه قولان: أحدهما: علىٰ النبي ﷺ، والثاني: علىٰ أبي بكر ﷺ، قال علماؤنا: وهو الأقوىٰ؛ لأن الصِّدِّيق خاف علىٰ النبي ﷺ من القوم، فأنزل الله سكينته؛ ليأمن علىٰ النبي ﷺ، فسكَّن جأشه، وذهب روعه وحصل له الأمن)(٢). وقال البغوي -رحمه الله تعالىٰ-: (قيل: علىٰ النبي ﷺ، وقال ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-: علىٰ أبي بكر ﷺ، فإن النبي ﷺ كانت عليه السكينة من قبل)(٣). وهذا الحزن الذي أصاب أبا بكر ﷺ ليس بنقص، كما لم ينقص إبراهيم -عليه السلام- حيث قال الله تعالىٰ عنه: ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ [الذاريات:٢٨) ولم ينقص موسىٰ -عليه السلام-﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ﴾ [طه:٦٧]، وفي لوط -عليه السلام-: ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ﴾ [العنكبوت:٣٣]، وكذلك فإن حزن أبي بكر الصديق ﷺ لم يكن عن شكّ أو حيرة، ولا لخوف علىٰ نفسه، وإنما كان خوفًا علىٰ النبي ﷺ أن يصيبه ضرر أو سوء(٤).

الثلاثون: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ مما يظهر من الآية التعقيب بالفاء، فكأن نزول السكينة بعد قول الرسول ﷺ: «لا تحزن إن الله معنا»، فمن وثق بالله واعتمد

---

(١) البيضاوي، تفسير البيضاوي المطبوع مع حاشية محيي الدين شيخ زادة (٢/ ٨٤).

(٢) ابن العربي، أحكام القرآن (٢/ ٩٥١)، وانظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨/ ١٤٨)، والقسطلاني، المواهب اللدنية (١/ ٢٩٦).

(٣) البغوى، معالم التنزيل (٢/ ٢٩٦).

(٤) انظر: ابن العربي، أحكام القرآن (٢/ ٩٥٣)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨/ ١٤٦).

عليه وصدق في ذلك فهو موعود بأن يحصل له نصيب من السكينة والطمأنينة علىٰ قدر ثقته بالله وتوكله عليه.

وبالتالي فإن ما يعانيه البعض من خلل في سكينته؛ فإن مرده في الأصل إلىٰ خلل في ثقته بالله ونقص في توكله علىٰ ربه -جل شأنه-، ومن هنا فإن الآية تُذَكِّر بالعلاج، وهو العودة إلىٰ الله والتوكل عليه والثقة بنصره، وعندها يجد الفرد السكينة والطمأنينة، ومتىٰ وُجِدَ الشرطُ -وهو الثقة بالله- وُجِدَ المشروطُ -بإذن الله تعالىٰ-؛ وهو الطمأنينة والسكينة.

وعمومًا فإن ما نجده من نقص في الطمأنينة مرده إلىٰ النقص الذي في قلوبنا في الثقة بدين الله -تعالىٰ-، وكلما زادت ثقتنا بدين الله زادت الطمأنينة، والعكس كذلك.

الحادية والثلاثون: نجد في الآيات أنواعًا من التأييد:

١. تأييدًا داخليًّا ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾.

٢. تأييدًا خارجيًّا ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾.

٣. تقرير القاعدة ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰ﴾.

٤. تأكيد القاعدة ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَا﴾.

الثانية والثلاثون: بقي الرسول ﷺ وصاحبه في الغار ثلاثة أيام، ما الغار؟، وما أدراك ما الغار؟ ماذا توحي إليك هذه الكلمة؟ تجويف في جبل، مظلم، مُوحش، مأوىٰ الحشرات والهوام، ومع ذلك بقي فيه المصطفىٰ ﷺ ثلاثة أيام، ساكنًا مطمئنًا.

قارن هذا بمن يسكن القصور ويتمدَّد علىٰ أنعم الفراش، الهواء مكيّف، والماء مصفَّىٰ والفراش وثير. هل هذه تجلب سكينة وطمأنينة؟! لا والله، بل تزيد الشخص تعلقًا بالدنيا وخوفًا من ذهابها، وهذا من أهم مصادر القلق.

فالسكينة والطمأنينة لا تنزل علىٰ من عنده قصر، وإنما تنزل علىٰ مَن قصر قلبه علىٰ ربه؛ لأن إنزال السكينة والطمأنينة من خصائص الله -جل شأنه-، لا يملكها بشر مهما كان، لا لنفسه ولا لغيره ﴿ **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ** ﴾ [الفتح:٤]؛ هذا الغار علىٰ ضيقه ووحشته، متىٰ استقر الإيمان في قلب ساكنه أصبح قصرًا شامخًا يطل علىٰ الناس من عَلٍ.

الثالثة والثلاثون: سراقة بن مالك المدلجي -رضي الله تعالىٰ عنه-، يأتيه رجل من قبيلته فيخبره بأنه رأىٰ رجالًا بالساحل يُتوقَّع أنهم محمد ﷺ وصاحبه -رضي الله تعالىٰ عنه-، فينهض سراقة للحاق بهم راكبًا فرسه، ولما قارب الوصول إليهم عثر به فرسه، ثم عثر به مرة أخرىٰ، وخرج من تحت قدمي الفرس غبار ثار في عنان السماء؛ فعرف أنه لن يصل إليهم؛ بل عرف أن أمرَ الرسول ﷺ سيظهر، فطلب وقوفهم وتحدَّث إليهم، وعرض عليهم الزاد، وطلب الأمان.

كان من الممكن أن يلحق بالرسول ﷺ أكثر من شخص، أو أن لا يلحق به أحد مطلقًا، ولكن أن يلحق به شخص واحد ويُحَال بينه وبين الرسول ﷺ بآية محسوسة مشاهدة ليظهر عيانًا للرسول ﷺ ولصاحبه، نصرُ الله لهم، وليطمئن قلبه كما اطمأن قلب إبراهيم -عليه السلام- لما رأىٰ الطير تجتمع بعد أن مزَّقها وفرَّقها علىٰ رؤوس الجبال[1]؛ فعين اليقين أقوىٰ تأثيرًا من علم اليقين.

الرابعة والثلاثون: أمر عجيب!! تدبير الله -سبحانه وتعالىٰ- لسراقة -رضي الله تعالىٰ عنه- كيف خرج من خيمته طامعًا في قتل محمد ﷺ، والحصول علىٰ جائزة قريش، وعاد إلىٰ خيمته بعد سويعات، مدافعًا عن محمد ﷺ، رادًّا عنه كلّ مَن قابله في طريق العودة قائلًا له: قد كُفيت هذا الطريق ليس فيه أحد، ففي رحلة قصيرة أراد

(١) قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٦٠].

بها السوء، تحولت إلىٰ نعمة، وإسهام في صدّ الناس عن الوصول إلىٰ محمد ﷺ، فسبحان من بيده القلوب، يهدي من يشاء، ولو بطريق غير متوقّع، وسبحان مَن يسَّر لبعض عباده الانتفاع بالآيات فيهتدي، ومن جعله قلبه منكسًا لا ينفع معه شيء، قال -تعالىٰ-: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام:١١١].

الخامسة والثلاثون: سراقة -رضي الله تعالىٰ عنه-، لم يكابر، لما رأىٰ الآيات أمامه عيانًا، عرف الحقيقة، وعلم أن هذا الرسول ﷺ سيظهر، فطلب كتاب الأمان، وهو وإن لم يؤمن في تلك اللحظة، لكن لا شك أن ما رآه غيَّر قناعاته، وقد نفعه هذا الكتاب الذي كتبه له الرسول ﷺ، فقد جاء به إلىٰ الرسول ﷺ يوم فتح مكة مُذَكِّرًا بما فيه. ودخل في الإسلام -كما سيأتي-.

السادسة والثلاثون: في قول الرسول ﷺ: «لا تحزن إن الله معنا»؛ ندرك أن الحزن قد يعرض حتىٰ لخواص المؤمنين، ولكن المؤمن لا ييأس، ولا يقنط من رحمة الله -جل شأنه-، بل يتوكل علىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-.

السابعة والثلاثون: في الهجرة مَنْقَبة خاصة لأبي بكر الصديق ﷺ، فهو الذي اختاره الرسول ﷺ للصحبة في الهجرة، وهو الذي سخَّر أولاده وخادمه وماله لإتمامها، ويكفيه من ذلك قول الله -سبحانه وتعالىٰ-: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٤٠]، يقول محيي الدين شيخ زاده -رحمه الله تعالىٰ-: (وكفىٰ بهذا دليلًا علىٰ فضل أبي بكر ﷺ علىٰ سائر الصحابة

-رضي الله عنهم أجمعين-؛ حيث استخلصه رسول الله ﷺ لنفسه في مثل تلك الحالة)[1].

ويقول ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (ومن تأمل هذا وجد فضائل الصديق التي في الصحاح كثيرة، وهي خصائص مثل حديث (المخالّة)، وحديث (إن الله معنا)، وحديث (إنه أحب الرجال إلىٰ النبي ﷺ)، وحديث (الإتيان إليه بعده)، وحديث (كتابة العهد إليه بعده)، وحديث (تخصيصه بالتصديق ابتداء والصحبة وتركه له)[2]. وقال في موضع آخر: (ولهذا قال من قال من العلماء: إن فضائل الصديق خصائص لم يشركه فيها غيره)[3].

وقال القرطبي -رحمه الله تعالىٰ-: (والذي يُقْطَع به من الكتاب والسنة وأقوال علماء الأمة، ويجب أن تؤمن به القلوب والأفئدة فضل الصديق علىٰ جميع الصحابة)[4].

الثامنة والثلاثون: أيضًا في الهجرة مَنْقَبة خاصة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فهو الذي نام في فراش رسول الله ﷺ، وعرَّض نفسه للخطر واثقًا من حفظ الله ورعايته، وهو الذي قام بعده يؤدي الأمانات التي علىٰ الرسول ﷺ، وهو لا يزال رضي الله عنه شابًّا عمره قرابة ٢٣ سنة، وقد قال علي رضي الله عنه: «عهد إليَّ النبيّ ﷺ أنه لا يحبّك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق»[5].

---

(١) محي الدين شيخ زادة، حاشية محيي الدين الشيخ زادة على البيضاوي (٢/ ٣٣٣).

(٢) ابن تيمية، منهاج السنة (٨ / ٤١٩).

(٣) المرجع السابق (ص ٤١٧).

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨ / ١٤٨).

(٥) رواه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٩٥)، وقال الشيخ وصي الله بن محمد عباس محقق فضائل الصحابة للإمام أحمد: (إسناده صحيح).

وعن سلمة بن الأكوع ﷺ قال: (كان عليّ ﷺ قد تخلّف عن النبي ﷺ في خيبر، وكان به رمد فقال: أنا أتخلف عن رسول الله ﷺ، فخرج عليّ فلحق بالنبي ﷺ، فلما كان مساء الليلة التي فتحها الله في صباحها؛ قال رسول الله ﷺ: «لأعطين الراية أو ليأخذن الراية غدًا رجل يحبّه الله ورسوله أو قال: يحب الله ورسوله، يفتح الله عليه»، فإذا نحن بعليّ وما نرجوه، فقالوا: هذا عليّ، فأعطاه رسول الله ﷺ الراية، ففتح الله عليه)[1].

اللهم إن أشهدك أني أحب جميع صحابة رسول الله ﷺ، وأتقرب إلىٰ الله –جل شأنه– بهذه المحبة، وأرجو أن يهبني لأحدهم، وأحبّ عليًّا –رضي الله تعالىٰ عنه– حبًّا خاصًّا امتثالًا لخبر الرسول ﷺ عنه.

التاسعة والثلاثون: في حديث عائشة –رضي الله تعالىٰ عنها– أن رسول الله ﷺ: (كان يزور أبا بكر الصديق ﷺ)، وفي هذا دلالة علىٰ زيارة الكبير للصغير وليست الزيارة خاصة بالصغير للكبير فقط.

الأربعون: من قول عائشة –رضي الله تعالىٰ عنها–: (فجاء رسول الله ﷺ، فاستأذن فأذن له)؛ نأخذ أدبًا من آداب دخول المنازل، وهو الاستئذان؛ فالرسول ﷺ يستأذن مع ما له من خصوصية ومكانة، ومع أن الله –جل شأنه– يقـول عنه: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب:٥][2].

الحادية والأربعون: في أمر الرسول ﷺ لعلي بن أبي طالب ﷺ أن يتخلّف بعده لأداء الأمـانات التي كانت لقريش عند الرسول ﷺ نلحظ فائدتين:

أولًا: التناقض العجيب في عمل كفار قريش، فهم يرون الرسول ﷺ أمينًا،

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٧٠) رقم (٣٧٠٢)، وصحيح مسلم (٤/ ١٨٧٢) رقم (٢٤٠٧).

(٢) سورة الأحزاب، الآية رقم (٦).

يودعون عنده الودائع التي يخشون عليها، ولا يجدون فيهم من يكون أهلًا لحفظها، وعندما يخبرهم عن ربهم -سبحانه وتعالىٰ-، ويدعوهم إلىٰ الله يقولون: ساحر كذاب مفترٍ مجنون.. إلىٰ آخر تلك الأوصاف السيئة.

ثانيًا: إن الرسول ﷺ رغم خطورة الموقف وتآمر هؤلاء الكفار علىٰ حياته ﷺ، لم ينس حقوق الناس، وهذا يدلّنا علىٰ عِظَم هذه الحقوق، فلا يسوغ لنا التهاون في شيء منها؛ سواء كانت حقوقًا مادية، أو حقوقًا معنوية؛ كالنَّيْل من الأعراض، ونحوها.

وهذا أمر تهاون الناس فيها كثيرًا، فلم يرعوا حقوق الآخرين المادية كالأموال ونحوها أو المعنوية، وذلك بالغيبة والنميمة والاستهزاء والسخرية والعيب والذم، وهي حقوق لها أصحاب يطالبون بها يوم القيامة، والرسول ﷺ يقول في خطبة يوم النحر بمنىٰ في حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا»[١].

الثانية والأربعون: لما قدَّم أبو بكر الصديق رضي الله عنه الراحلةَ التي كان أعدها للهجرة قال الرسول ﷺ: «بالثمن». قيل في حكمة ذلك: إن الرسول ﷺ إنما فعل ذلك؛ لتكون هجرته إلىٰ الله بنفسه وماله، رغبةً منه ﷺ في استكمال فضل الهجرة والجهاد علىٰ أتم أحوالها[٢].

ولذلك فعلىٰ المسلم أن يحرص علىٰ جعل عباداته مستكملة الإحسان ما استطاع، فمثلًا إن أراد الحج يحرص أن تكون النفقة بكاملها منه ليست من أحد، حتىٰ يستكمل أجرها وافيًا.

(١) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٣/ ٥٧٣) رقم (١٧٣٩)، وصحيح مسلم (٢/ ٨٨٩) رقم (١٢١٨).

(٢) انظر: السهيلي، الروض الأنف (٢/ ٢٣٠)، والسمهودي، وفاء الوفاء (١/ ٢٣٧)، والشامي، سبل الهدى (٣/ ٣٦٠). والزرقاني، شرح المواهب (٢/ ١٠٦).

ولعل في ذلك أيضًا فائدة للداعية إلىٰ الله بأن لا يتشوَّف إلىٰ ما في أيدي الناس، وأن يكون عفيف النفس، همّه إصلاح قلوبهم وهدايتهم دون النظر إلىٰ ما في أيديهم.

الثالثة والأربعون: يقول الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (في استئجار النبي ﷺ عبد الله بن أريقط الدؤلي هاديًا في وقت الهجرة وهو كافر، دليل علىٰ جواز الرجوع إلىٰ الكافرين في الطب والمكحل والأدوية والكتابة والحساب والعيوب ونحوها، ما لم يكن ولاية تتضمن عدالة. ولا يلزم من مجرد كونه كافرًا أن لا يُوْثَق به في شيء أصلًا، فإنه لا شيء أخطر من الدلالة في الطريق ولا سيما في مثل طريق الهجرة)[١]. وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالىٰ- في فوائد قصة الهجرة: (الثالثة عشرة: الاستعانة بالكفار علىٰ الكفار)[٢].

وقد ثبت في صحيح مسلم أن الرسول ﷺ تبعه رجل وقد خرج قِبَل بدر وقال: «جئتك لأتّبعك وأصيب معك، قال له رسول الله ﷺ: «تؤمن بالله ورسوله؟»، قال: لا، قال: «فارجع فلن أستعين بمشرك»[٣].

وقال ابن الملقن -رحمه الله تعالىٰ-: (وفيه: ائتمان أهل الشرك علىٰ السر والمال إذا عهد منهم وفاء ومروءة، كما استأمن رسول الله ﷺ هذا الدليل المشرك؛ لما كانوا عليه من بقية دين إبراهيم -عليه السلام-، وإن كان من الأعداء، لكنَّه عَلِم منه مروءة، ائتمنه من أجلها علىٰ سرّه في الخروج من مكة، وعلىٰ الناقتين اللتين دفعهما إليه ليوافيهما بهما بعد ثلاث في غار ثور)[٤].

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١١٦٩) (طبعة دار عالم الفوائد)، وانظر: ابن تيمية، المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع محمد بن عبد الرحمن بن قاسم (٣/ ١٤١).
(٢) الدرر السنية في الأجوبة النجدية جمع ابن قاسم (٨/ ١٠٩).
(٣) صحيح مسلم (٣/ ١٤٥٠)، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة الاستعانة في الغزو بكافر رقم (١٨١٧).
(٤) ابن الملقن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح (١٥/ ٣٨-٣٩).

قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ -رحمهم الله تعالىٰ- عن قصة ابن أريقط في جواب له: (وما ذكرته من استعانته ﷺ بابن أريقط فهذا اللفظ ظاهر في مشاقة قوله في حديث عائشة رضي الله عنها: «إنا لا نستعين بمشرك»، وابن أريقط أجير مُسْتَخْدَم لا معين مُكْرَمٌ)[1].

وعمومًا فالصحيح جواز الاستعانة بالمشرك إذا كان في المسلمين عَجْز عن الاستقلال بأنفسهم، وكان الحل والعقد للمسلمين، والكافر مأمون الجانب، والأمر مقرون بالسياسة وما يقدره ولي الأمر حسب النوازل واختلافها، وليس من شأن الأفراد.

وقد كان الرسول ﷺ في أول أمره يستعين بالكافر علىٰ الكافر، كما في قصة أبي طالب والمطعم بن عدي، ولجوء الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- إلىٰ النجاشي في الحبشة، وكان نصرانيًّا.

وكذلك استعانة الرسول ﷺ بيهود بني قينقاع في الديات كما سيأتي، وبصفوان بن أمية قبل إسلامه -رضي الله تعالىٰ عنه- في غزوة حنين.

أما قول الرسول ﷺ: «فارجع فلن نستعين بمشرك»؛ فهذا لانتفاء بعض الشروط، فهو فرد لا تأثير له، ولا تدعو إليه حاجة.

وسيأتي كلام آخر لابن القيم حول هذا الموضوع في فوائد غزوة حنين -إن شاء الله تعالىٰ-[2].

الرابعة والأربعون: يقول سراقة رضي الله عنه: (لما أقبل علىٰ الرسول ﷺ سمعه يقرأ وكان لا يلتفت)، وهذه صورة من صور الاستفادة من الوقت في الطاعة، فلا يضيع شيئًا من وقته، فهو ﷺ رغم الأخطار ومشقة السفر لا يدع الوقت يمر عليه دون أن

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية جمع ابن قاسم رقم (٨/ ٣٦٥).
(٢) انظر: زاد المعاد لابن القيم (٣/ ٣٠١).

يستفيد منه، وما أسهل الاستفادة من الوقت في قراءة القرآن! وسيأتي أيضًا في غزوة فتح مكة أن الرسول ﷺ كان يقرأ القرآن علىٰ ناقته يوم فتح مكة.

الخامسة والأربعون: عن عطاء -رحمه الله تعالىٰ- قال: (زرت عائشة رضي الله عنها مع عبيد بن عمير، فسألناها عن الهجرة، فقالت: لا هجرة اليوم، كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه إلىٰ الله -تعالىٰ- وإلىٰ رسوله ﷺ مخافةَ أن يُفتن عليه، فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام، واليوم يعبد ربه حيث شاء ولكن جهاد ونية)[1].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلىٰ النبي ﷺ فسأله عن الهجرة، فقال: «ويحك إن الهجرة شأنها شديد، فهل لك من إبل؟» قال: نعم، قال: «فتعطيني صدقتها؟» قال: نعم، قال: «فهل تمنح منها؟» قال: نعم، قال: «فتحلبها يوم ورودها؟» قال: نعم، قال: «فاعمل من وراء البحار، فإن الله لن يَتِرَكَ عملَك شيئًا»[2]، فَلْيَحْمَدِ اللهَ العبدُ المؤمنُ علىٰ سماحة هذا الدين، وليشكر الله علىٰ نعمة الأمن والإيمان المتاحة له؛ فإنها نعمة لا يدركها علىٰ حقيقتها إلا من عانىٰ من الفتنة في الدين، وأُوْذِيَ في سبيل الله.

السادسة والأربعون: إن حكم الهجرة لم يُنْسَخ، بل هو باقٍ إلىٰ يوم القيامة، يدل لهذا:

أ. عن عبد الله السعدي رجل من بني مالك بن حنبل أنه قدم علىٰ النبي ﷺ في أناس من أصحابه، فقالوا: احفظ رحالنا، ثم تدخل، وكان أصغر القوم، فقضىٰ لهم حاجتهم، ثم قالوا: ادخل، فدخل، فقال أي رسول الله: «حاجتك؟» قال: حاجتي تحدثني انقضت الهجرة، فقال له: «حاجتك خير من حوائجهم، لا تنقطع الهجرة ما

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٢٢٦) رقم (٣٩٠٠).
(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٢٥٧) رقم (٣٩٢٣).

قُوتل العدو»[1]، وفي سنن النسائي مختصرًا: «لا تنقطع الهجرة ما قُوْتِلَ الكفارُ»[2].

ب. عن أبي الخير أن جنادة بن أبي أمية حدّثه أن رجلًا من أصحاب النبي ﷺ قال: يا رسول الله، إن أناسًا يقولون: إن الهجرة قد انقطعت، فقال رسول الله ﷺ: «إن الهجرة لا تنقطع ما كان الجهاد»[3].

قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- في الفتح في شرح الحديث السابق المشار إليه في الفائدة السابقة: «كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه...» الحديث: (أشارت عائشة -رضي الله عنها- إلىٰ بيان مشروعية الهجرة، وأن سببها خوف الفتنة، والحكم يدور مع علّته، فمقتضاه أن من قدر علىٰ عبادة الله في أيّ موضع اتفق لم تجب عليه الهجرة منه وإلا وجبت)[4].

يقول الشيخ صالح الفوزان -حفظه الله تعالىٰ-: (والهجرة باقية إلىٰ أن تقوم السّاعة، قال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء:٩٧]، هؤلاء الذين تركوا الهجرة عن غير عذر فظلموا أنفسهم بذلك؛ فالهجرة واجبة وباقية إلىٰ أن تقوم السّاعة، وفي الحديث: «لا تنقطع الهجرة حتىٰ تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتىٰ تخرُج الشمس من مغرِبها»[5]. وأمّا قولُه ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهادٌ ونيّة»[6]؛ فالمراد به: الهجرة من مكّة؛ لأنّها بعد الفتح صارت دارَ

---

(١) مسند الإمام أحمد (٥/ ٢٧١)، تحقيق أحمد شاكر، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ٢٥١): (رواه النسائي باختصار ورواه أحمد ورجاله رجال الصحيح).

(٢) سنن النسائي بشرح الحافظ السيوطي (٧/ ١٤٧).

(٣) مسند الإمام أحمد (٥/ ٣٧٥)، تحقيق أحمد شاكر، وقال الهيثمي: (رجاله رجال الصحيح).

(٤) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٢٢٩).

(٥) سنن أبي دواد، كتاب الجهاد، باب في هجرة هل انقطعت؟ (٣/ ٨) رقم (٢٤٧٩) من حديث معاوية -رضي الله تعالى عنه-. والحديث صحيح.

(٦) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير (٤/ ١٥) رقم (٢٧٨٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

إسلام، وأمّا الهجرة من بلاد الكفر إلىٰ بلاد الإسلام فهي باقية إلىٰ قيام السّاعة»[1].

السابعة والأربعون: الهجرة من أعظم الأعمال بعد الإسلام، ولهذا صار للمهاجرين ميزة علىٰ إخوانهم من الأنصار، وصاروا يُقدَّمون في الذّكر لشرفهم؛ لأنّهم تركوا أوطانهم وديارهم وأموالهم وخرجوا، بل تركوا أولادهم وأزواجهم، وخرجوا إلىٰ المدينة من أجل الدين ومن أجل نُصرة الرّسول ﷺ، فشكر الله لهم ذلك وأثنىٰ عليهم ووعدهم بجزيل الثواب[2].

الثامنة والأربعون: يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (إذا أراد الله إظهار شرف أنبيائه وأصفيائه بالصفات الكاملة قرن بهم الناقصين فيها من المستعدين للكمال، وذلك في أمور كثيرة وردت في القرآن منها: لما أراد الله إظهار شرف آدم علىٰ الملائكة بالعلم، وعلّمه أسماء كل شيء، ثم امتحن الملائكة فعجزوا عن معرفتها فحينئذ نبَّأهم آدم بها، فخضعوا لعلمه، وعرفوا فضله وشرفه..... ولما نكص أهل الأرض عن نصرة النبي ﷺ وتمالأ عليه أعداؤه، ومكروا مكرتهم الكبرىٰ للإيقاع به، نصره الله ذلك النصر العجيب؛ فإن نصر الله المنفرد الذي أحاط عدوه، الشديد حرده، القوي مكره، الذي جمع كل كيده؛ ليوقع به أشد الأخذات وأعظم النكبات، وتخلّصه وانفراج الأمر له من أعظم أنواع النصر كما ذكر الله هذه الحال التي عاتب بها أهل الأرض، فقال: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠])[3].

---

(١) صالح الفوزان، إعانة المستفيد شرح كتاب التوحيد (٢/ ٢٩٣).

(٢) صالح الفوزان، إعانة المستفيد شرح كتاب التوحيد (٢/ ٢٩٣).

(٣) السعدي، القواعد الحسان لتفسير القرآن (ص ١٧٣- ١٧٤).

التاسعة والأربعون: قارن الشيخ محمد بن عثيمين -رحمه الله تعالىٰ- بين خروج موسىٰ -عليه السلام- من مصر وخروج الرسول ﷺ من مكة، وكيف كانت العاقبة لهما؛ فقال: (كيف كان موسىٰ -عليه الصلاة والسلام- خرج من مصر خائفًا علىٰ نفسه يترقب كما خرج الرسول ﷺ من مكة يترقب، وصارت العاقبة للرسول ﷺ ولموسىٰ -عليه الصلاة والسلام-، لكن العاقبة للرسول ﷺ بفعله وأصحابه، عذّب الله أعداءهم بأيديهم، وعاقبة موسىٰ -عليه السلام- بفعل الله -عز وجل-، فهي عِبَر يعتبر بها الإنسان؛ ليُصلح بها نفسه وقلبه حتىٰ يتبين الأمر)[(١)].

الخمسون: القِيَم والأخلاق عند العرب لها مكانتها البارزة، فهذا عبد الله بن أريقط، مع كونه مشركًا إلا أنه يرىٰ وجوب الوفاء بما التزم به، ويكتفي بأجرة الدلالة علىٰ الطريق، ولا يخون من ائتمنه، وكان بإمكانه الاتفاق مع قريش علىٰ دلالتهم، وأخذ الجائزة، وهذا نستفيد منه فائدتين:

الأولىٰ: أن العرب لديهم من الاهتمام والعناية والرعاية للأخلاق العالية ما ليس عند غيرهم، وهذا يؤيده حديث الرسول ﷺ «إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق»[(٢)].

الثانية: أن المؤمنين أولىٰ بالمحافظة علىٰ الأخلاق والقِيَم والوفاء بها، وهم يتعبّدون الله بذلك، ويعلمون أنها من أفضل القربات عند الله -جل شأنه-، عن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خُلقًا» [(٣)].

---

(١) ابن عثيمين، تفسير جزء عم (ص ٥٠)، الطبعة الأولى (الرياض: دار الثريا، ١٤٢٣هـ).

(٢) سبق تخريجه قريبًا.

(٣) أخرجه سنن أبو داود (٤٦٨٢)، وقال الألباني: (حسن صحيح) والترمذي في سننه (١١٦٢).

الواحدة والخمسون: أخرج البخاري في صحيحه في (باب التاريخ، من أين أرّخوا التاريخ؟) عن سهل بن سعد -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: (ما عدُّوا من مبعث النبي ﷺ ولا من وفاته، ما عدوا إلا من مقدمه المدينةَ)(١).

وفي المستدرك للحاكم -رحمه الله تعالىٰ-: عن عمرو بن دينار، قال: (أول من أرَّخ الكتب يعلىٰ بن أمية-رضي الله تعالىٰ عنه- وهو باليمن، فإن النبي ﷺ قدم المدينة في شهر ربيع الأول، وأن الناس أرّخوا لأول السنة، وإنما أرخ الناس لمقدم النبي ﷺ)(٢).

وقال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (اتفق الصحابة -رضي الله عنهم- في سنة ست عشر وقيل سبع عشر أو ثماني عشر في الدولة العمرية، علىٰ جعل ابتداء التاريخ الإسلامي من سنة الهجرة؛ وذلك أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه رُفِعَ إليه صكٌّ أي حُجّة لرجل علىٰ آخر، وفيه: إنه يحل عليه في شعبان، فقال عمر: أيّ شعبان؟ أشعبان هذه السنة التي نحن فيها أو السنة الماضية، أو الآتية؟ ثم جمع الصحابة، واستشارهم في وضع تاريخ يتعرفون به حلول الديون وغير ذلك، فقال قائل: أَرِّخُوا كتاريخ الفرس، فكره ذلك، وكان الفرس يؤرِّخون بملوكهم واحدًا بعد واحد، وقال قائل: أَرِّخُوا بتاريخ الروم، وكانوا يؤرِّخون بملك إسكندر بن ملبس المقدوني، فكره ذلك، وقال آخرون: أَرِّخُوا بمولد رسول الله ﷺ، وقال: آخرون: بل بمبعثه، وقال آخرون: بل بهجرته، وقال آخرون: بل بوفاته، فمال عمر رضي الله عنه إلىٰ التاريخ بالهجرة؛ لظهوره واشتهاره، واتفقوا معه علىٰ ذلك)(٣).

(١) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٧/ ٢٦٧) رقم (٣٩٣٤).
(٢) المستدرك للحاكم (٣/ ٤٧٩)، رقم (٥٧٩٠) ولم يتعقبه الذهبي.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ٢٠٦)، وانظر: ابن حجر، الإصابة (٧/ ٢٦٨).

وقال السهيلي -رحمه الله تعالىٰ-: (وفي قوله -سبحانه-: ﴿مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾[1]، وقد عُلِمَ أنه ليس أول الأيام كلها، ولا أضافه إلىٰ شيء في اللفظ الظاهر، فيه من الفقه صحة ما اتفق عليه الصحابة مع عمر -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين- حين شاورهم في التاريخ، فاتفق رأيهم أن يكون التاريخ من عام الهجرة؛ لأنه الوقت الذي عزَّ فيه الإسلام، والذي أمر فيه النبي ﷺ، وأسَّس المساجد وعَبَدَ اللهَ آمنًا كما يحب، فوافق رأيهم هذا ظاهر التنزيل، وفهمنا الآن بفعلهم أن قوله -سبحانه- ﴿مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾، أن ذلك اليوم هو أول أيام التاريخ الذي يؤرّخ به الآن، فإن كان أصحاب رسول الله ﷺ أخذوا هذا من الآية، فهو الظن بأفهامهم، فهم أعلم الناس بكتاب الله وتأويله، وأفهمهم بما في القرآن من إشارات وإفصاح، وإن كان ذلك منهم عن رأي واجتهاد، فقد عُلِمَ ذلك منهم قبل أن يكونوا، وأشير إلىٰ صحته قبل أن يفعلوا؛ إذ لا يُعقَل قول القائل: فعلته أول يوم إلا بإضافة إلىٰ عام، أو شهر معلوم، أو تأريخ معلوم، وليس هاهنا إضافة في المعنىٰ إلا إلىٰ هذا التاريخ المعلوم؛ لعدم القرائن الدالة علىٰ غيره من قرينة لفظ أو قرينة حال، فتدبّره ففيه معتبر لمن ادَّكر، وعِلْم لمن رأىٰ بعين فؤاده واستبصر والحمد لله)[2].

وقال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-، تعقيبًا علىٰ قول السهيلي أعلاه: (والمتبادر أن معنىٰ قوله ﴿مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ أي دخل فيه النبي ﷺ وأصحابه المدينة، والله أعلم)[3].

من هذا نخلص إلىٰ ما يلي:

١) إن التاريخ الهجري تم بإجماع الصحابة -رضي الله عنهم- بعد مشورة عمر رضي الله عنه، فهو حكم شرعي مُجمَع عليه من خير القرون.

(١) أي قول الله -سبحانه-: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ﴾ سورة التوبة، الآية رقم (١٠٨).

(٢) الروض الأنف (٢/ ٢٤٦).

(٣) فتح الباري (٧/ ٢٦٨).

٢) إن هذا الرأي له ما يمكن أن يسنده من القرآن الكريم، مع ما سبق من إجماع الصحابة -رضوان الله عليهم-.

٣) إن التاريخ الفارسي والرومي اقْتُرِحَ عليهم؛ فكرهوه.

٤) إن سبب اختيار التاريخ الهجري؛ لأنه الوقت الذي عزَّ فيه الإسلام.

ولذلك فعلىٰ الأمة الإسلامية أن تحافظ علىٰ هذا التاريخ الذي تم بإجماع الصحابة -رضي الله عنهم- وارتبط بيوم أعز الله فيه الإسلام، وفيه استقلال الأمة الإسلامية، وبُعْدها عن التقليد والتبعية للآخرين.

وإن من المؤلم أن يختار بعض المسلمين التاريخ النصراني الذي:

١. لا يَمُت إلىٰ الدين الإسلامي بِصِلة، بل كرهه الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- كما مر، وقد سُئِلَ الإمامُ أحمدُ -رحمه الله تعالىٰ- فقيل له: إن للفرس أيامًا وشهورًا يسمونها بأسماء لا تُعْرَف، فكره ذلك أشد الكراهية، ورُوِيَ عن مجاهد -رحمه الله تعالىٰ- أنه كان يكره أن يقال: آذار ماه.

٢. لا يستند حساب الشهور فيه إلىٰ أمر شرعي ولا إلىٰ عقلي ولا محسوس، بل إلىٰ أمور اصطلاحية يختلف بعضها عن بعض[1].

وأخيرًا فإن التاريخ الهجري ارتبط به كثير من العبادات مثل حول الزكاة، وصيام رمضان، والأشهر الحرم، والحج، وعيد الفطر، ويوم عرفة، ويوم عيد الأضحىٰ، وصيام يوم العاشر من محرم، وصيام الأيام البيض: الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر، وآجال المعتدات، والأيمان، والنذور، وكل هذه مرتبطة بالتاريخ الهجري وبالأشهر المعروفة المرتبطة به، وعندما تضيع هذه الأشهر

---

(١) انظر: محمد بن صالح العثيمين، الضيـاء اللامع من الخطب الجوامع (ص ٧٠١- ٧٠٢).

وتحل محلها الأشهر والتاريخ الأجنبي النصراني نفتقد الارتباط بهذه العبادات العظيمة، كما نفتقد بترك التاريخ الهجري، أيام الإسلام العظيمة التي عرفت بالتاريخ الهجري وارتبطت به[1].

الثانية والخمسون: قال الزرقاني -رحمه الله تعالىٰ-: (ولم يؤرخوا بالمولد ولا بالمبعث؛ لأن وقتهما لا يخلو من نزاع من حيث الاختلاف فيهما، ولا بالوفاة النبوية لما يقع في تذكره من الأسف والتألم علىٰ فراقه)[2].

الثالثة والخمسون: كانت الهجرة حدًّا فاصلًا بين أمرين، فقد كان الخلاف مع قريش قبلها خلافًا فرديًّا، بين محمد ﷺ وأفراد معه، وأفراد قريش، أما بعد الهجرة فقد تحول الخلاف إلىٰ خلاف سلطة مع سلطة؛ إذ أصبح للرسول دولة جديدة في المدينة، هي الدولة الإسلامية، تقابلها السلطة القائمة في قريش، وهو مما غيَّر مجريات المواجهة، واستغلال كلّ المقدَّرات المتاحة للدول، ومنها الحرب الاقتصادية القائمة علىٰ قطع الطريق علىٰ قوافل قريش القادمة من الشام. وهو الأمر الذي سنجد أن الرسول ﷺ بادَر إليه فور استقراره في المدينة.

الرابعة والخمسون: لما وصل المهاجرون إلىٰ المدينة كان منهم أعزاب، ومنهم متأهلون، فتم إسكان العزاب في دور مستقلة منعزلة عن المتأهلين، يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (لما قدم المهاجرون المدينة كان العزاب ينزلون دارًا معروفة لهم متميزة عن دور المتأهلين، فلا ينزل العزب بين المتأهلين، وهذا كله لأن اختلاط أحد الصنفين بالآخر سبب الفتنة، فالرجال إذا اختلطوا بالنساء كان

---

(١) للمؤلف كتاب بعنوان: (التاريخ الهجري) نشر وتوزيع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، فصَّل فيه القول في هذه المسألة، ثم نشر الكتاب في طبعة أخرى وهو متاح في نسخة إلكترونية على الشبكة العنكبوتية.

(٢) الزرقاني، شرح المواهب (٢/ ١٥٤).

بمنزلة اختلاط النار والحطب، وكذلك العزب بين الآهلين فيه فتنة لعدم ما يمنعه، فإن الفتنة تكون لوجود المقتضىٰ وعدم المانع»[1].

وهذا هو الواجب أن تكون مساكن العزاب منعزلة عن مساكن البيوت التي فيها نساء؛ منعًا للاختلاط، أو رؤية العورات. والله أعلم.

(١) ابن تيمية، الاستقامة، تحقيق محمد رشاد سالم، الطبعة الأولى، (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٣)، (١/ ٣٦١).

المبحث الثاني

فقه السيرة في أول أعمال الرسول ﷺ بعد وصوله إلى المدينة

أولًا: بناء المسجد:

في صحيح البخاري -رحمه الله تعالىٰ- قال ابن شهاب -رحمه الله تعالىٰ-: (فأخبرني عروة بن الزبير -رضي الله تعالىٰ عنهما-.... وسمع المسلمون بالمدينة بمخرج الرسول ﷺ من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلىٰ الحرة، فينتظرونه حتىٰ يردّهم حَرُّ الظَّهِيرَة فانقلبوا يومًا بعدما طال انتظارهم، فلما أووا إلىٰ بيوتهم أوفىٰ رجل من يهود علىٰ أُطُم[1] من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين[2] يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال يا معشر العرب: هذا جدكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلىٰ السلاح، فتلقوا رسول الله ﷺ، وسُمِعَتْ الرَّجَّةُ والتكبيرُ في بني عمرو بن عوف، وكَبَّرَ المسلمون فرحًا بقدومه وخرجوا فتلقوه وحيَّوه بتحية النبوة، فعدل بهم ذات اليمين حتىٰ نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتًا، فطفق من جاء من الأنصار من لم ير رسول الله ﷺ يحيِّي أبا بكر رضي الله عنه حتىٰ أصابت الشمسُ رسولَ الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتىٰ ظَلَّلَ عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك، فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع

---

(١) الأطم: بضم الهمزة والطاء، وهو الحصن، ويقال: إنه كان بناء من حجارة كالقصر، كما في الفتح. انظر: شرح الزرقاني للمواهب (١/ ١٤٩).

(٢) أي: عليهم ثياب بيض.

عشرة ليلة، وأَسَّس المسجد الذي أُسِّس علىٰ التقوىٰ، وصلىٰ فيه رسول الله ﷺ، ثم ركب راحلته، فسار يمشي معه الناس حتىٰ بركت عند مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مربدًا للتمر لسُهَيْل وسهل غلامين يتيمين في حجر سعد بن زارة -رضي الله تعالىٰ عنه-، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: «هذا -إن شاء الله- المنزل»، ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد؛ ليتخذه مسجدًا، فقالا: لا، بل نهبه لك يا رسول الله، فأبىٰ رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة، حتىٰ ابتاعه منهما، ثم بناه مسجدًا، وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن في بنيانه)[١].

وكان الرسول ﷺ أول ما وصل إلىٰ قباء[٢] نزل علىٰ كلثوم بن الهدم؛ لأنه كان شيخ بني عمرو بن عوف، وهو بطن من الأوس، وكان يومئذ مشركًا، ثم أسلم، وقيل: أسلم قبل وصول الرسول ﷺ إلىٰ المدينة[٣]. وكان يجلس ﷺ ويتحدث مع أصحابه في بيت سعد بن خيثمة؛ لأنه كان عزبًا لا أهل له هناك[٤].

عن أنس بن مالك -رضي الله عنه-، قال: (لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، نزل في علو المدينة، في حي يقال لهم بنو عمرو بن عوف، قال: فأقام فيهم أربع عشرة ليلة)[٥].

فكان أول عمله بعد وصوله قباء أن أَسَّس مسجد قباء، قال أنس -رضي الله تعالىٰ عنه- (وأَسَّس المسجد الذي أُسِّس علىٰ التقوىٰ، وصلىٰ فيه رسول الله ﷺ)[٦]؛ قال

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٢٣٩- ٢٤٠) رقم (٣٩٠٦).

(٢) قال ياقوت الحموي في معجم البلدان، الطبعة الثانية، (بيروت، دار صادر ١٤٢٥)، (٤/ ٣٠١): «قُباء: بالضم: وأصله اسم بئر هناك عرفت القرية بها، وهي مساكن بني عمرو بن عوف من الأنصار، وهي قرية على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة».

(٣) انظر: الحلبي، إنسان العيون (٢/ ٢٣٢)، وابن حجر، الفتح (٢٤٤ / ٢٦٠).

(٤) المرجع السابق.

(٥) صحيح البخاري (٥/ ٦٧) رقم (٣٩٣٢).

(٦) صحيح البخاري (٥/ ٦٠) رقم (٣٩٦٠).

-تعالىٰ-: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة:١٠٨]، وبعد أن ذكر ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- الخلاف في المراد بالمسجد في هذه الآية قال: (والحق أن كلًا منهما أُسِّس علىٰ التقوىٰ، وقوله -تعالىٰ- في بقية الآية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ يؤيد كون المراد مسجد قباء. وعند أبي داود بإسناد صحيح عن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- عن النبي ﷺ قال: نزلت ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ في أهل قباء، وعلىٰ هذا فالسر في جوابه ﷺ بأن المسجد الذي أُسِّس علىٰ التقوىٰ مسجده، رفع توهّم أن ذلك خاص بمسجد قباء، والله أعلم)(١).

فكان هذا المسجد أول مسجد بُنِيَ في الإسلام، وجُعِلَ لعموم الناس(٢).

وروىٰ الحاكم وغيره أن عمار بن ياسر -رضي الله تعالىٰ عنهما- هو الذي أشار علىٰ النبي ببناء المسجد، وهو الذي جمع الحجارة له، وقال: (ما لرسول الله ﷺ بُدٌّ

(١) فتح الباري (٧/ ٢٤٥).

(٢) ورد في فضل مسجد قباء: ١- روى الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: «كان النبي ﷺ يأتي مسجد قباء كل سبت، ماشيًا وراكبًا» وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما «يفعله» البخاري (٢/ ٦١) رقم (١١٩٣) ومسلم (٢/ ١٠١٦) رقم (١٣٩٩). ٢- عن سهل بن حنيف -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «من خرج حتى يأتي هذا المسجد - يعني مسجد قباء - فيصلي فيه كان كعدل عمرة» أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٥/ ٣٥٨) رقم (١٥٩٨١)، وقال محققو المسند: «صحيح بشواهده، وهذا إسناد حسن»، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ١٣) رقم (٤٢٧٩)، وقال: «هذا حديث صحيح ولم يخرجاه»، ولم يتعقبه الذهبي. ٣- وأورد ابن حجر في الفتح (٣/ ٦٩). روى عمر بن شبة في أخبار المدينة بإسناد صحيح عن سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه- قال: لأن أصلي في مسجد قباء ركعتين أحب إليَّ من أن آتي بيت المقدس مرتين، لو يعلمون ما في قباء لضربوا إليه أكباد الإبل» أخرجه الحاكم في المستدرك -بدون الزيادة الأخيرة- (٣/ ١٣) رقم (٤٢٨٠)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، وقال الذهبي: على شرط البخاري ومسلم.

من أن نجعل له مكانًا إذا استيقظ من قائلته استظلَّ فيه، وصلَّىٰ فيه)[1].

ثم خرج الرسول ﷺ من قباء يوم الجمعة حين ارتفع النهار، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فصلّاها بمن كان معه من المسلمين في بطن وادي رانونا[2].

وكان كلما مر علىٰ دار من دور الأنصار استقبله كبارها ودَعَوْه إلىٰ النزول عندهم ويقولون: «يا رسول الله! هَلُمَّ إلىٰ القوة والمنعة فيقول: «خَلُّوا سبيلَها، فإنها مأمورة»؛ فلم تزل تسير به حتىٰ وصلتْ إلىٰ مكان المسجد اليوم، فبركتْ فلم ينزل عنها، ثم نهضتْ وسارتْ قليلًا، ثم التفتتْ ورجعتْ إلىٰ مكانها الأول وبركتْ فيه، فنزل عنها رسول الله ﷺ وقال: «هذا المنزل إن شاء الله»[3].

وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: «أيّ بيوت أهلنا أقرب؟»؛ فقال أبو أيوب - رضي الله تعالىٰ عنه -: أنا يا نبي الله، هذه داري وهذا بابي، قال: «فَانْطَلِقْ فَهَيِّئْ لنا مَقِيلًا»[4]، واحتمل أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه رَحْلَه وأدخله بيته، وذكر ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- في الفتح عن ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ- أن أبا أيوب -رضي الله تعالىٰ عنه- لما نقل رحل النبي ﷺ قال الرسول ﷺ لمن عرض عليه

---

(١) انظر: الحاكم، المستدرك (٣/ ٤٣٤) رقم (٥٦٥٥)، والروض الأنف (٢/ ٣٩٤). وسيرة ابن هشام المطبوعة مع الروض (٢/ ٣٩٤). وابن حجر، فتح الباري (٧/ ٢٤٥).

(٢) وادي رانوناء: على وزن عاشوراء، وادٍ من أودية المدينة بين قباء والمسجد النبوي يصبّ من حرة قباء في وادي بطحان جنوب مسجد الغمامة. ومسجد الغمامة معروف ومشهور، وكانت أول جمعة صلاها الرسول ﷺ في المدينة في هذا الوادي، ومسجد الجمعة معروف على يمين النازل من مسجد قباء إلى المسجد النبوي. محمد حسن شراب، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة (ص ١٢٥).

(٣) انظر: السمهودي، وفاء الوفاء (١/ ٢٥٦- ٢٥٩)، وابن حجر، فتح الباري (٧/ ٢٤٥- ٢٤٦).

(٤) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٢٥٠) رقم (الحديث ٣٩١١).

النزول عنده: «الْمَرْءُ مع رَحْلِهِ»، وأن أسعد بن زرارة -رضي الله تعالىٰ عنه- أخذ راحلة الرسول ﷺ فكانت عنده[1].

قال المقريزي -رحمه الله تعالىٰ-: (وأول هدية أتته قصعة مثرودة خبزًا وسمنًا ولبنًا جاءه بها زيد بن ثابت من عند أمه -رضي الله تعالىٰ عنهما-، فأكل وأصحابه. ثم جاءت قصعة سعد بن عبادة -رضي الله تعالىٰ عنه- وفيها عراق لحم)[2].

وفرح أهل المدينة بقدومه ﷺ، فعن البراء بن عازب -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: (... ثم قدم النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فَرَحَهم برسول الله ﷺ حتىٰ جعل الإماء يقلن: قدم رسول الله ﷺ)[3].

ويصوّر أنس بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه- شيئًا من الفرحة بقدوم الرسول ﷺ فيقول: «إني لأسعىٰ في الغلمان يقولون: جاء محمد، فأسعىٰ فلا أرىٰ شيئًا، ثم يقولون: جاء محمد، فأسعىٰ فلا أرىٰ شيئًا، قال: حتىٰ جاء رسول الله ﷺ، وصاحبه أبو بكر، فكَمَنَّا في بعض حرار المدينة، ثم بعثا رجلًا من أهل البادية ليؤذن بهما الأنصار، فاستقبلهما زهاء خمس مائة من الأنصار، حتىٰ انتهوا إليهما، فقالت الأنصار: انطلقا آمنين مطاعين، فأقبل رسول الله ﷺ وصاحبه بين أظهرهم، فخرج أهل المدينة حتىٰ إن العواتق لفوق البيوت يتراءينه، يقلن أيهم هو، أيهم هو؟ قال: فما رأينا منظرًا شبيهًا به يومئذ، قال أنس بن مالك: (ولقد رأيته يوم دخل علينا ويوم قُبِضَ، فلم أر يومين شبيهًا بهما)[4].

---

(١) انظر: ابن حجر، الفتح (٧/ ٢٤٦).

(٢) إمتاع الأسماع (١/ ٦٧). والعراق: عظام عليها لحوم رقيقة طيبة.

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٢٥٩- ٢٦٠) رقم (٣٩٢٥).

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند (٢١/ ٤٠-٤١) رقم (١٣٣١٨). وقا ل محققو المسند: «إسناده صحيح على شرط مسلم».

وعن البراء بن عازب -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: (فصعد الرجال والنساء فوق البيوت، وتفرق الغلمان والخدم في الطرق، ينادون: يا محمد يا رسول الله! يا محمد يا رسول الله)[١].

وعن أنس بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: (فما رأيت يومًا قط أنور ولا أحسن من يوم دخل رسول الله ﷺ وأبو بكر المدينة)[٢].

وقال القسطلاني -رحمه الله تعالىٰ-: (وفرح أهل المدينة بقدومه ﷺ، وأشرقت المدينة بحلوله فيها، وسرىٰ السرور إلىٰ القلوب)[٣].

وبعد أن نزل الرسول ﷺ في المدينة علىٰ أبي أيوب الأنصاري -رضي الله تعالىٰ عنه- كان أول ما عمل أن اشترىٰ أرض المربد بعشرة دنانير من مال أبي بكر رضي الله عنه[٤]. وشرع في بناء المسجد النبوي.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: (وكان في المسجد قبور المشركين، وكانت فيه خِرَب، وكان فيه نخل، فأمر الرسول ﷺ بقبور المشركين فنُبِشَتْ، وبالخرب فَسُوِّيَتْ، وبالنخل فَقُطِعَتْ، قال: فصفوا النخل قبلة المسجد، قال: وجعلوا عضادتيه حجارة)[٥].

وعمل في بنائه الرسول ﷺ وعمل معه المهاجرون والأنصار، ودأبوا فيه، وقال قائل من المسلمين:

لئن قعدنا والنبي يعمل ... لذاك منا العمل المضلل

(١) صحيح مسلم (٤/ ٢٣١٠).
(٢) الإمام أحمد، المسند (١٩/ ٢٦٤) رقم (١٢٢٣٤)، وقال محققو المسند: «إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة، فمن رجال مسلم».
(٣) المواهب (١/ ١٨٤).
(٤) انظر: القسطلاني، المواهب اللدنية (١/ ٣١٦).
(٥) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٢٦٥) رقم (٣٩٣٢).

وارتجز المسلمون وهم يبنونه يقولون:

لا عيش إلا عيـــش الآخرة   اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة.

وعن عبد الله بن عمر -رضي الله تعالىٰ عنهما- «أن المسجد كان علىٰ عهد رسول الله ﷺ مبنيًّا باللبن، وسقفه الجريد، وعُمُده خشب النخل»[١].

وروىٰ البيهقي -رحمه الله تعالىٰ- عن الحسن البصري -رحمه الله تعالىٰ- قال: لما بنىٰ رسول الله ﷺ المسجد أعانه عليه أصحابه، وهو معهم يتناول اللبن حتىٰ اغبرَّ صدره، فقال: «ابنوه عريشًا كعريش موسىٰ». فقلت للحسن: ما عريش موسىٰ؟ قال: إذا رفع يديه بلغ العريش، يعني السقف[٢].

وذكر البيهقي -رحمه الله تعالىٰ- أن بناء المسجد استغرق اثنتي عشرة ليلة[٣]. وأما إقامة النبي ﷺ في منزل أبي أيوب ﵁؛ فقد ذكر أصحاب السير أنها امتدت إلىٰ سبعة أشهر[٤]. حتىٰ أتم الرسول ﷺ بناء حُجَر أزواجه -رضي الله تعالىٰ عنهن-، وبعث رسول الله ﷺ وهو في منزل أبي أيوب -رضي الله تعالىٰ عنه- زيد بن حارثة وأبا رافع -رضي الله تعالىٰ عنهما-، وأعطاهما بعيرَيْنِ وخمسمائة درهم إلىٰ مكة فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه، وأم المؤمنـين سـودة بنت زمعة -رضي الله تعالىٰ عنهن-[٥].

---

(١) صحيح البخاري (١/ ٩٧) رقم (٤٤٦).

(٢) البيهقي، دلائل النبوة (٢/ ٥٤٢)، وابن كثير، السيرة (٢/ ٣٠٤). وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٠٠٧)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة) رقم (٦١٦).

(٣) انظر: البيهقي، دلائل النبوة (٢/ ٥٠٩) وابن كثير السيرة النبوية (٤/ ٥٠٠).

(٤) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٤/ ٤٩٩)، وابن حجر، فتح الباري (٧/ ٢٤٦).

(٥) القاضي عياض، مشارق الأنوار مشارق الأنوار على صحاح الآثار (دار التراث)، (٢/ ٥٥). ابن حجر، فتح الباري (١٠/ ٣٨٦).

أهل الصُّفة:

لما وصل النبي ﷺ المدينة مهاجرًا إليها من مكة، وبنىٰ المسجد النبوي، وبدأ يتتابع وصول المهاجرين من مكة، آخىٰ الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين-، إلا أن المهاجرين كانت أعدادهم كبيرة، لم يجد الكثير منهم مكانًا يأوون إليه، فنزلوا المسجد النبوي، واستوطنوه، واستمروا في الجزء الجنوبي منه، واستمر الأمر علىٰ ذلك إلىٰ أن حُوِّلت القبلة إلىٰ الكعبة المشرفة، فترك النبي ﷺ المكان المظلل في الجهة الشمالية في المسجد (القبلة الأولىٰ) مكانًا لأولئك المهاجرين، ومنذ ذلك الوقت أطلق عليه اسم الصفة.

قال القاضي عياض -رحمه الله تعالىٰ-: («الصُّفَّة» بِضَمّ الصَّاد وَتَشْديد الْفَاء ظلة فِي مُؤخر مَسْجِد النَّبِي ﷺ)[1].

ونقل السمهودي -رحمه الله تعالىٰ- عن الذهبي -رحمه الله تعالىٰ- قوله: (إن القبلة قبل أن تُحوَّل كانت في شمالي المسجد، فلما حُوِّلت القبلة بقي حائط القبلة الأعلىٰ مكان أهل الصُّفة)[2].

ونقل البيهقي -رحمه الله تعالىٰ- عن عثمان بن اليمان -رحمه الله تعالىٰ- قوله: (لما كثر المهاجرون بالمدينة ولم يكن لهم دار ولا مأوىٰ أنزلهم رسول الله ﷺ المسجد، وسماهم أصحاب الصفة، فكان يجالسهم ويأنس بهم)[3].

أما عن عددهم فكانوا يقلون ويكثرون حسب عدد مَن يَفِد إلىٰ المدينة، ومَن يخرج إلىٰ الجهاد، ومن يستغني بنفسه، يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-:

---

(١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٤/ ٤٩٩)، وابن حجر، فتح الباري (٧/ ٢٤٦).

(٢) السمهودي، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٩)، (١/ ٢٨٠).

(٣) البيهقي، السنن الكبرى (٢/ ٦٢٤) رقم (٤٣٣٨).

(وهم نحو من ستمائة أو سبعمائة، أو نحو ذلك. ولم يكونوا مجتمعين في وقت واحد؛ بل كان في شمال المسجد صفة يأوي إليها فقراء المهاجرين، فمن تأهل منهم أو سافر أو خرج غازيًا خرج منها، وقد كان يكون في الوقت الواحد فيها السبعون أو أقل أو أكثر)[1].

ويقول أيضًا -رحمه الله تعالىٰ-: (وكانت صفة في شمالي مسجده ﷺ ينزل بها الغرباء الذين ليس لهم أهل وأصحاب ينزلون عندهم، فإن المؤمنين كانوا يهاجرون إلىٰ النبي ﷺ إلىٰ المدينة، فمن أمكنه أن ينزل في مكان نزل به، ومن تعذر ذلك عليه نزل في المسجد، إلىٰ أن يتيسر له مكان ينتقل إليه. ولم يكن أهل الصفة ناسًا بأعيانهم يلازمون الصفة، بل كانوا يقلّون تارة ويكثرون أخرىٰ، ويقيم الرجل بها زمانًا، ثم ينتقل منها، والذين ينزلون بها من جنس سائر المسلمين، ليس لهم مزية في علم ولا دين، بل فيهم مَن ارتد عن الإسلام وقتله النبي ﷺ، كالعُرَنيين الذين اجتووا المدينة، أي: استوخموها، فأمرهم النبي ﷺ بلقاح -أي إبل لها لبن-، وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها، فلما صحوا، قتلوا الراعي، واستاقوا الذود، فأرسل النبي ﷺ في طلبهم، فأُتي بهم، فأمر بقطع أيديهم وأرجلهم، وسمرت أعينهم، وتركهم في الحرة يستسقون فلا يسقون. وحديثهم في الصحيحين من حديث أنس -رضي الله تعالىٰ عنه-، وفيه أنهم نزلوا الصفة، فكان ينزلها مثل هؤلاء، ونزلها من خيار المسلمين سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالىٰ عنه-، وهو أفضل مَن نزل بالصفة، ثم انتقل عنها، ونزلها أبو هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- وغيره، وقد جمع أبو عبد الرحمن السلمي -رحمه الله تعالىٰ- تاريخ من نزل الصُّفة، وأما الأنصار فلم يكونوا من أهل الصفة، وكذلك أكابر المهاجرين- كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وأبي عبيدة بن الجراح -رضي الله تعالىٰ عنهم-

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (١١/ ٨١)، وانظر (١١/ ٤١).

وغيرهم؛ لم يكونوا من أهل الصفة)[١].

وقال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (الصفة مكان في مؤخر المسجد النبوي مظلل أُعِدَّ لنزول الغرباء فيه ممن لا مأوىٰ له ولا أهل وكانوا يكثرون فيه ويقلون بحسب مَن يتزوج منهم أو يموت أو يسافر)[٢]. فليس هناك إقامة مقصودة يُتعبّد الله بها، وسيأتي في الفوائد مزيد بيان.

وفي صحيح البخاري قال أبو هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه-: (وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون إلىٰ أهل ولا مال ولا علىٰ أحد، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم، وأصاب منها، وأشركهم فيها)[٣].

وقال ابن رجب -رحمه الله تعالىٰ-: (وروىٰ ابن سعد عن الواقدي: حدثني واقد بن أبي ياسر التميمي، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط، قال: كان أهل الصفة ناسًا فقراء من أصحاب رسول الله ﷺ، لا منازل لهم، فكانوا ينامون علىٰ عهد رسول الله ﷺ في المسجد ويظلون فيه، ما لهم مأوىٰ غيره، فكان رسول الله ﷺ يدعوهم بالليل إذا تعشىٰ فيفرقهم علىٰ أصحابه، ويتعشىٰ طائفة منهم مع رسول الله ﷺ، حتىٰ جاء الله بالغنىٰ)[٤]. فالمسألة كانت مؤقتة حتىٰ تيسرت الأمور وجاء الخير، وانتهت الصفة، واكتفىٰ من كان فيها.

---

(١) ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط (دمش: دار البيان ١٤٠٥)، (ص ١٦-١٧)، وهو هنا يجيب -رحمه الله تعالى- على مَن غلا في أهل الصفة، وحاول تشريع عمل الصوفية المبتدعة بناء على أهل الصفة التى في مسجد الرسول ﷺ.

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٦/ ٥٩٥).

(٣) صحيح البخاري (٨/ ٩٦) رقم (٦٤٥٢).

(٤) ابن رجب فتح الباري (٣/ ٢٦٢-٢٦٣).

وقد أشار عدد من العلماء إلىٰ أن انتهاء الصفة كان مع بداية العهد الراشدي؛ لأن الهجرة إلىٰ المدينة قد انقطعت بعد فتح مكة، ولأن الحاجة التي دفعت أهل الصفة للجلوس فيها من ملازمة النبي ﷺ، والتعلم منه، وخدمته، لم تَعُد موجودة بعد انتقاله إلىٰ الرفيق الأعلىٰ، إضافة إلىٰ أن الله -تعالىٰ- قد فتح علىٰ المسلمين الفتوح، فاغتنىٰ المسلمون. قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالىٰ-: (وهؤلاء القوم إنما قعدوا فِي المسجد ضرورة، وإنما أكلوا من الصدقة ضرورة؛ فلما فتح الله عَلَىٰ المسلمين استغنوا عَنْ تلك الحال وخرجوا)[١].

وإنما ذكرت الصُّفَّة، ومن كان يسكنها؛ لأنها كانت جزءًا من مسجد الرسول ﷺ، وأسهمت في أداء وظيفة مهمة في بداية العهد المدني.

الفوائد المستنبطة من هذا الجزء من السيرة:

أولًا: محبة الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- للرسول ﷺ؛ فقد كانوا يخرجون كل يوم ينتظرون مقدمه، ولا يعودون إلا إذا اضطرهم حَرّ الشمس وعدم الظِّلّ، وهم سلفنا الصالح وقدوتنا. ومحبة الله -سبحانه وتعالىٰ- ومحبة رسوله ﷺ وتقديمهما علىٰ كلّ محبوب واجب علىٰ كل مسلم[٢]، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبد حتىٰ أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين»[٣].

ويصوّر هذا الحبَ العظيمَ من الصحابة للرسول ﷺ قولُ البراء بن عازب -رضي الله تعالىٰ عنهما-: (فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ)[٤]،

(١) ابن الجوزي، تلبيس ابليس، الطبعة الأولى (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر ١٤٢١)، (ص ١٤٦).

(٢) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٩٥).

(٣) صحيح مسلم (١/ ٦٧) رقم (٦٩).

(٤) مر تخريجه في الصفحة السابقة.

ومحبة المصطفىٰ ﷺ تقتضي اتباع سُنته وتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه[١].

ثانيًا: من خروج الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- لاستقبال الرسول ﷺ نستفيد مشروعية استقبال الأكابر واحترامهم وتوقيرهم؛ سواء أكانوا ممن لهم حق عام، أو حقّ خاصّ، كالأبوين وكل ذلك عبادة لله -سبحانه وتعالىٰ-. وعن أنس بن مالك ﷺ قال: جاء شيخ يريد النبي ﷺ، فأبطأ القوم عنه أن يُوسّعوا له؛ فقال النبي ﷺ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ولم يُوقِّر كبيرنا»[٢]، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده -رضي الله تعالىٰ عنهم- قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ولم يعرف شرف كبيرنا»[٣].

ثالثًا: لما علم الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- بوصول الرسول ﷺ إلىٰ المدينة بادروا إلىٰ استقباله، وكبَّر المسلمون فرحًا بقدومه، والمسلم إذا سرَّه شيء أو أعجبه يُكبِّر أو يُسبِّح الله -سبحانه وتعالىٰ-[٤]، وقد أشرنا إلىٰ هذا من قبل عند تكبير الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- فرحًا بإسلام عمر ﷺ.

رابعًا: لما وصل الرسول ﷺ إلىٰ قباء نزل علىٰ كلثوم بن الهدم؛ وذلك لأنه كان كبير القبيلة -كما مر-، وهذا من توقير واحترام الكبير، وحُسن الخلق، الذي ينبغي ألا يغيب عن ذهن المسلم في تعامله.

---

(١) انظر: نماذج رائعة من اتباع الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- للرسول ﷺ، وتمسكهم بسنته في كتاب «حبّ النبي ﷺ» للدكتور/ فضل إلهي من (ص ٦٠- ٧٤).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/ ١٧٩) رقم (١٥٦٥).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/ ١٧٩)، حديث رقم (١٥٦٦).

(٤) انظر: أشرف عبد المقصود، فتاوى الشيخ محمد بن صالح العثيمين (٢/ ٩٣٤)، وانظر: د. عبد العزيز الحميدي، التاريخ الإسلامي مواقف وعبر (٢/ ١٦١).

خامسًا: عمار بن ياسر -رضي الله تعالىٰ عنه- يشير ببناء مسجد لرسول الله ﷺ، وفعلًا يتم بناء مسجد قباء، ويكون لمسجد قباء هذه الفضيلة العظيمة والمكانة المتميزة، أن من أتاه وصلىٰ فيها ركعتين فله أجر عمرة، كان الرسول ﷺ يتعاهده بالصلاة، وهكذا الأفكار تكون أعظم أجورًا من كثير من الأعمال، فيُرْجَىٰ لعمار -رضي الله تعالىٰ عنه- أجر هذا العمل وأجر من صلىٰ في هذا المسجد إلىٰ يوم القيامة.

وكثير من الأعمال الخيرية التي عمَّ نفعها للمسلمين لأزمنة مديدة، أو أمكنة عديدة، كان أصلها فكرة من شخص فتح الله عليه بها، وتلقّفتها يد مباركة، فحوّلتها إلىٰ عمل مثمر، نفع الله به المسلمين، ونال صاحب الفكرة أجرها؛ ولذلك لا تَزْدَرِ بعض الأفكار، وساهِمْ بما فتح الله عليك به من الأفكار الخيرية، فقد تكون فكرتك بذرةً لمشروع خيري عظيم يبقىٰ لك أجره.

سادسًا: حُسْن اعتذار الرسول ﷺ من زعماء قبائل الأنصار الذين كانوا يعترضون طريقه بين قباء والمدينة، ويدعونه للنزول عندهم ويَعِدونه بالمَنَعة والنُّصرة، وهؤلاء زعماء لهم مكانتهم، فكان الرسول ﷺ يعتذر عن الجميع بكلمة واحدة: «خَلُّوا سبيلَها؛ فإنها مأمورة» يعني بذلك الناقة، مأمورة ممن؟ من الله -جل شأنه-، فهو الآمر، وعلىٰ الجميع التسليم لأمر الله -سبحانه-. فالرسول ﷺ لن يختار، ولم ينزل وحي علىٰ الرسول ﷺ يخبره بالمنزل -حسبما يظهر-، وإنما الجميع يعلم أن الناقة مأمورة من الله[1]. وعلىٰ الجميع أن ينتظر وينظر أين ستقف؟ اختيار علني للمنزل وللمسجد، يطيب خاطر الجميع، فالنبي ﷺ أخرج نفسه من الاختيار، وأعلمهم أنه اختيار رب العالمين -سبحانه-.

---

(١) في هامش المواهب للقسطلاني (١/ ٣١٠)، قال المحقق: (قال ابن المنير: الحكمة البالغة في إحالة الأمر على الناقة أن يكون تخصيصه -عليه السلام- لمن خصه الله بنزوله عنده آية معجزة تطيب بها النفوس وتذهب معها المنافسة، ولا يحيك ذلك في صدر أحد منهم شيئًا).

جاء في دلائل النبوة للبيهقي -رحمه الله تعالىٰ-: (فقال: «خلوا سبيلها؛ فإنها مأمورة»، فلما انتهت إلىٰ مكان مسجده بالمدينة، وهو مربد لغلامين يتيمين من بني النجار، ثم من بني غنم، وهما: سهيل وسهل ابنا رافع بن أبي عمرو بن عباد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار، وكانا في حجر معاذ بن عفراء، بركت فالتفتت يمينًا وشمالًا، ثم وثبت فمضت غير كثير ورسول الله ﷺ واضعًا لها زمامها لا يحرّكها فوقفت فنظرت، ثم التفتت إلىٰ مبركها الأول فأقبلت حتىٰ بركت فيه، فحصت بثفناتها واطمأنت، حتىٰ عرف رسول الله ﷺ أن قد أُمِرَت، فنزل عنها واحتمل أبو أيوب رحله)(١).

سابعًا: إن هذا القول «دعوها؛ فإنها مأمورة» يرشدنا إلىٰ أن مكان المسجد النبوي كان باختيار ربانيّ، وقد ذكر البعض أن قول الله -تعالىٰ-: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ فيه إشارة إلىٰ المسجد النبوي؛ لأن المسجد الأقصىٰ، هو الأقصىٰ بالنسبة إلىٰ مكة، وهذا يعني أن هناك مسجدًا أقصىٰ، مادام أن بيت المقدس هو المسجد الأقصىٰ. وقد تبين لنا أن المراد حينئذ هذا المسجد النبوي، فهو أقصىٰ، وبيت المقدس هو المسجد الأقصىٰ، والله أعلم.

ثامنًا: وكذلك لما وصل إلىٰ المدينة ودعاه بعض المسلمين للنزول عندهم قال: «المرء مع رَحْله»، وتلك عبارات لا تَجرح الداعي، ولا تُشْعره بأنه مرغوب عنه أو أنه مفضول، وتلك أخلاقه ﷺ العالية العظيمة التي أشير إليها في قوله -تعالىٰ-: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

تاسعًا: عند وصول الرسول ﷺ إلىٰ قباء واستقبال الصحابة له، ثم دخوله إلىٰ المدينة قادمًا من قباء نرىٰ البساطة والتواضع، فلم يكن هناك مواكب مصطنعة، بل

(١) البيهقي، دلائل النبوة (٢/ ٥٠٤)، وابن هشام السيرة النبوية (٢/ ١٠١).

ناقة واحدة ركبها الرسول ﷺ وناقة مع أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، ولما وصل قباء جلس صامتًا، ولم يعرفه الناس حتىٰ قام أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- يُظلّله من حرّ الشمس، ومن قباء إلىٰ المدينة أيضًا علىٰ ناقته ويردف معه أبا بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-[1]. هذا شأن العظماء لا تزيدهم نعمة الانتصار إلا تواضعًا لله وقربًا من خَلقه، وسهولةً في التعامل مع الناس، وبُعدًا عن المظاهر الجوفاء.

فكلما رزقك الله نعمة زِدْ في التواضع لله والشكر علىٰ نعمائه. وسيأتينا مثال آخر عند دخوله ﷺ مكة فاتحًا.

عاشرًا: فضيلة ظاهرة لأبي أيوب الأنصاري عندما نزل الرسول ﷺ عنده حتىٰ بُنِيَ له بَيْتٌ وانتقل إليه.

حادي عشر: إن الرسول ﷺ فور وصوله إلىٰ قباء بنىٰ مسجد قباء، ثم لما وصل المدينة بادر إلىٰ البدء في بناء المسجد، فقد سكن ﷺ عند أبي أيوب، وباشر بناء المسجد قبل أن يبني لنفسه سكنًا، وهذا يرشدنا علىٰ أهمية المبادرة إلىٰ العمل والإنجاز، وترك التسويف والتأجيل، فالرسول ﷺ أمضىٰ أكثر من أسبوع في رحلة الهجرة، بين مكة والمدينة، بعضها في الغار، وبعضها في الطريق، والمعتاد أن يصل الشخص مرهقًا، فيجلس للراحة أيامًا، ولكن الملاحظ أن الرسول ﷺ استمر علىٰ نشاطه وعمله، ويجتمع بالصحابة في دار سعد بن خيثمة يلقي عليه الدروس ويُعلّمهم أمور دينهم[2]، ويُنجز بناء مسجد قباء خلال أسبوعين من وصوله إلىٰ قباء، ثم واصل إلىٰ المدينة، وباشر بناء المسجد النبوي، وأنجزه مع أصحابه خلال اثنتي عشرة ليلة من وصوله إليها، وهو درس لنا في الجد والعمل والإنجاز وترك التسويف والتأجيل.

---

(١) عن أنس -رضي الله تعالى عنه- «وكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ على راحلته وأبو بكر ردفه، وملأ بني النجار حوله، حتى ألقى بفناء أبي أيوب» صحيح البخاري (٥/ ٦٧) رقم (٣٩٣٢).

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٩٩).

ثاني عشر: في مبادرة الرسول ﷺ إلىٰ بناء المسجد في قباء وفي المدينة، هذا يدل علىٰ عدة أمور:

أ. أهمية المسجد في الإسلام، فهو يؤدي الوظائف التالية:

١. الوظيفة التعبدية: فهو محل إقامة الصلاة جماعة والاعتكاف، وغيرها.

٢. الوظيفة التوجيهية: حيث تنطلق حِلَق التعليم والوعظ والإفتاء والقضاء والتعرف علىٰ آراء الناس وتوجيهها.

٣. الوظيفة الاجتماعية: من خلال المسجد يتم التعارف بين أهل القرية وأهل الحي الواحد، وتتحقق الأخوة الإسلامية والتواصل والترابط بين المجتمع[١].

ب. أهمية صلاة الجماعة في المسجد، فإن الرسول ﷺ لم يُؤخّر بناء المسجد إلىٰ أن يستقر في مسكنه وبيته، بل بادر إلىٰ بناء المسجد في قباء، ثم بناه في المدينة فور وصوله إليها، وجمع الناس للصلاة، ووردت في سُنته ﷺ أحاديث تدل علىٰ أهمية صلاة الجماعة، منها صلاته ﷺ بالمسلمين صلاة الخوف في حالة الحرب كما دل علىٰ ذلك قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء:١٠٢]. ومنها عدم إذنه ﷺ للأعمىٰ الذي ليس له قائد بالتخلف عن صلاة الجماعة[٢].

---

(١) لمزيد الاطلاع على هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى: زيد بن عبد الكريم الزيد، وظيفة المسجد في المجتمع، طبعته دار العاصمة بالرياض، وموجود منه نسخة إلكترونية.

(٢) انظر: صحيح مسلم (١/ ٤٥٢) رقم (٦٥٣).

ت. فضل عمارة المسجد؛ حيث بادر الرسول ﷺ إلىٰ بناء المسجد، مما يدل علىٰ أهمية وفضيلة هذا العمل؛ لعموم نفعه وبقائه.

ث- أهمية المبادرة إلىٰ بناء المسجد في كل حي من أحياء المسلمين، وأن يكون ذلك من ضمن أساسيات المخططات العمرانية، وأن تبادر الجهات الرسمية والمحسنون إلىٰ عمارة المساجد، وكذلك في البلاد التي فيها جاليات إسلامية عليهم أن يبادروا إلىٰ تأسيس المسجد، في مناطقهم؛ لما لها من أثر بالغ علمي واجتماعي ورقابي علىٰ مجتمعهم المسلم داخل تلك الدول. وتأسيًا قبل ذلك بالرسول ﷺ. وقد كان الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- يبادرون إلىٰ بناء المساجد فور فتوحاتهم أثناء الجهاد في سبيل الله -سبحانه وتعالىٰ-. وتاريخهم حافل بهذه الأعمال، ولا تزال تلك المساجد عامرة شاهدة بفضلهم، وفضل إقامة المسجد وعمارته. كمسجد عمرو بن العاص -رضي الله تعالىٰ عنه- في مصر، ومسجد عقبة بن نافع في تونس، ومسجد سعد بن أبي وقاص بالكوفة، وجامع الأمويين بدمشق، وغيرها كثير.

ثالث عشر: كان شراء أرض المسجد النبوي بمال أبي بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه-، فقد اشترىٰ الرسول ﷺ أرض المسجد من اليتيمين، من مال أبي بكر -كما مر-، فكم لأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- من الأجر في شراء أرض المسجد النبوي! وكم صلىٰ في هذا المسجد وفي تلك الروضة الشريفة من أمم مضت! كلهم في ميزان أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه-.

إنها لخصيصة عظيمة من خصائص أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-، أن نال هذا الشرف العظيم!! وخصائصه التي خصها الله بها كثيرة -رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه-.

رابع عشر: وفي هذا تنبيه لفضيلة شراء أرض لبناء مسجد، ولا شك أن بناء المسجد عمل فاضل، لكن شراء أرض المسجد أبقىٰ من بناء المسجد؛ فإن البناء

عمره ينحصر في سنوات ثم يحتاج المسجد إلىٰ إصلاح أو إعادة بناء، أو يتعرض لسيول أو حرائق فينهدم، أو يحتاج إلىٰ إعادة بناء لانتهاء عمره الافتراضي، فينتهي الأجر، لكنَّ أجر أرض المسجد باقٍ مستمر مع البناء الجديد للمسجد.

خامس عشر: لقد أسهم المسجد إسهامًا فعالًا في إيواء مَن يَفِد إلىٰ رسول الله ﷺ من الصحابة، ممن ليس له مسكن، ولا يتيسر من يؤويه، فقد اتخذ الرسول ﷺ شمالي المسجد مكانًا -عُرِف فيما بعد بالصفة كما سبق- يقيم فيه مَن لا يجد سكنًا حتىٰ يتيسر له سكن يؤويه، ويكفي لكي نعرف قيمة هذا الجزء الشمالي من المسجد أن نسمع لأبي هريرة -رضي الله عنه- وهو يقول: (لقد رأيت سبعين من أصحاب الصفة ما منهم رجل عليه رداء، إما إزار وإما كساء، قد ربطوا في أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده، كراهية أن تُرَىٰ عورته)[1]. هؤلاء لو لم يتيسر لهم الإقامة في مؤخرة المسجد مع هذه الفاقة الشديدة أين سيسكنون؟!

سادس عشر: سبق أن أشرت إلىٰ أن مدة الاستخفاء بالدعوة وقعت مرتبطة بزمانها ومكانها، وبالتالي فلا تصلح أن تكون دليلًا لأحد بأن يسلك هذا المسلك، ويجعل ذلك منهجًا دعويًّا؛ لأن هذه المدة وقعت اتفاقًا كسائر المدد الأخرىٰ كمدة الجهر ومدة الخروج إلىٰ الطائف ومدة البقاء في مكة ثم الهجرة، وسبق أن بينت ذلك في مبحث الجهر الدعوة.

لكن الذي أشير إليه هنا هو أن الاستدلال بإنزال النبي ﷺ الفقراء، والغرباء الذين يفدون إلىٰ المدينة في مؤخرة المسجد، واشتهرت بعد ذلك بالصفة، الاستدلال بذلك علىٰ بناء الزوايا الصوفية، استدلال غير صحيح؛ لأن هذا العمل جاء حلًا مؤقتًا لنازلة، وليس منهجًا، فقد كان الشخص يقدم إلىٰ المدينة، فإن تيسير للنبي ﷺ استضافه، أو دعا بعض الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- لاستضافته،

(١) صحيح البخاري (١/ ٩٦) رقم (٤٤٢).

فإذا لم يتيسر لا هذا ولا هذا، نزل في المسجد نزولًا مؤقتًا إلىٰ أن يتمكن من تدبير أمر سكنه إن استطاع، وهذه قد تطول وقد تقصر حسب قدرة الشخص علىٰ تأمين سُبُل معيشته واشتغاله بالتجارة أو الاحتطاب أو العمل عند بعض التجار أو المزارعين، أو يبقىٰ علىٰ وضعه، وبالتالي فهؤلاء الذين يقيمون إقامة مؤقتة في صُفّة المسجد ليسوا منقطعين عن العمل، بل منهم من يعمل ومنهم من يبحث عن عمل، ويخرجون للغزوات والسرايا، ويتعلمون القرآن الكريم والأحكام، ويشاركون مجتمع الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- في سائر حياتهم اليومية، ومجرد نزولهم في المسجد أو الصُّفة، لا يعطيهم فضيلة تميزهم عن بقية الصحابة، ولم يكن السكن في صفة المسجد مَنقبة أو فضيلة لأحدهم.

ونجد في السيرة من المناقب للصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-، أن يقال مهاجري، أو أنصاري أو عقبي، أو بدري، أو ممن بايع تحت الشجرة، ولا نجد منهم من كان من مناقبه أن يقال عنه أنه من أهل الصفة!! وإن كان يذكر أحيانًا عند التعريف أنه من أهل الصفة؛ فالقصد هو التعريف لا عدّها من المناقب.

وبهذا يتضح الفرق بين الصفة التي كانت موجودة في عهد النبي ﷺ، التي أوجدها ظرف مؤقت، وكانت حلًّا طارئًا، والخلوات الصوفية والزوايا البدعية التي أُقيمت ابتداء علىٰ صور من التعبد والسلوك، يخالف المنهج النبوي، ففيها الاجتماع والتعبد علىٰ عبادات ليس عليها دليل شرعي، والأصل في العبادة الحظر والمنع، والواجب التأسي بالرسول ﷺ، ومن التأسي بالرسول ﷺ وتوقيره ألَّا نعبد الله إلا بما شرعه لنا محمد ﷺ.

وبذلك لا يصلح ولا يُعدّ مِن فقه السيرة بناء الخلوات الصوفية، استدلالًا بالصُّفة الموجودة في عهد المصطفىٰ ﷺ؛ لأن هذا من الجنوح بفقه السيرة وتحميلها ما لا تَحتمل.

ولا يعني كلامي هذا الاعتراض علىٰ كل ما يُسمَّىٰ خلوة أو خلوات؛ لأن العبرة بالحقيقة لا بالاسم، فهناك أماكن تدعىٰ بالخلوات، وهي في حقيقتها مدارس لتعليم القرآن الكريم للناشئة والكبار، ومُدَارَسَة القرآن الكريم بين الطلاب. وهذا عمل مُوفَّق مبارك، وإن سماه أصحابه خلوات، والله أعلم[1].

سابع عشر: في مشاركة الرسول ﷺ للمسلمين وهم يبنون المسجد نستفيد تواضع الرسول ﷺ، فقد كان يحمل علىٰ بطنه الشريف اللَّبِن، ويشاركهم في هذا العمل رغم حرصهم علىٰ أن يقوموا به بأنفسهم ولا يكلفوا الرسول ﷺ المشاركة، لكنه ﷺ من تواضعه يشارك بنفسه بهذا العمل يلتمس فيه ما يلتمسون من الأجر.

وهذا الأمر من أبلغ الوسائل للتربية، وهو أمر نشاهده في كل فقرات السيرة، الرسول ﷺ مع أصحابه يعمل مثلهم، يشارك بنفسه في غزوة بدر، يحفر في الخندق كما يحفرون، مع الصحابة في أفراحهم وأتراحهم، يحضر الصلاة والدفن علىٰ جنائزهم مهما كان هذا الإنسان مجهولًا أو فقيرًا، أو من لون آخر، أو من بلد آخر، كل المسلمين سواء والرسول -عليه الصلاة والسلام- واحدٌ منهم.

ثامن عشر: إن مشاركة الرسول ﷺ في بناء المسجد تقديم القدوة الحسنة في العمل، فالمسلم إذا دعا إلىٰ خير يكون أول المبادرين إليه، وإذا نهىٰ عن سوء يكون أول المباعدين عنه المجتنبين له.

تاسع عشر: نلاحظ أن الرسول ﷺ يعلم الناس الاهتمام بالمضمون لا بالشكل، فليست قيمة المسجد في حجمه ولا في شكله ولا في زخرفته، فهذه كلها شكليات

---

(١) للمزيد: انظر ابن تيمية، مجموع الفتاوى (١١/ ٤٠ و٤١و٤٤و٤٥و٥٦و٥٧). وكذلك البحث الذي كتبه الشيخ صالح الشامي بعنوان «أهل الصفة بعيدًا عن الوهم والخيال»، موجود على الشبكة العنكبوتية. والصُّفة تاريخها- أصحابها، دراسة تاريخية توثيقية، محمود محمد حمو، بحث منشور في مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، العدد (٢٩)، وسبق الإشارة إلى عدد من المراجع الأخرى.

لا قيمة لها، بل على العكس من ذلك الرسول ﷺ كان يَنْهَىٰ عن هذه الشكليات، وكان ينهىٰ عن المبالغة في تزيين المساجد؛ فعن أنس -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَتَبَاهَىٰ النَّاسُ بِالْمَسَاجِدِ»[1]. وعن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أُمِرتُ بتشييد المساجد»؛ قال ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-: (لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارىٰ)[2]، أي: نهتمّ بالشكليات في البناء والزخرفة ونترك المهم من تربية الناس علىٰ أخلاق الإسلام، والمحافظة علىٰ الصلاة، وإقامة رسالة المسجد الحقيقية.

العشرون: في بدء الرسول ﷺ بالمسجد وإنجازه قبل بيوت أزواجه، دلالة علىٰ تقديم المصلحة العامة علىٰ المصلحة الخاصة؛ فالمسجد مصلحة عامة للمسلمين، أنفع لهم، وأعظم أجرًا عند الله -جل شأنه-. وبيوت أزواج النبي مصلحة خاصة بهن، وهي قاعدة عامة في الشريعة في الأفراد والجماعة.

ثانيًا: بيوت أزواج النبي ﷺ

بعد وصول الرسول ﷺ إلىٰ المدينة ونزوله علىٰ أبي أيوب الأنصاري -رضي الله تعالىٰ عنه-، شرع في بناء المسجد، ثم في بناء بيوت لأزواجه -ﷺ ورضي الله تعالىٰ عنهن-، وكان أول ما بنىٰ، بيتين؛ أحدهما لعائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-، والآخر لسودة -رضي الله تعالىٰ عنها-، ثم تتابع بناء البيوت حسب الحاجة إليها.

قال ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ- في الطبقات: (أخبرنا محمد بن عمر، أخبرنا عبد الله بن زيد الهذلي قال: رأيت بيوت أزواج النبي ﷺ حين هدمها عمر بن عبد العزيز كانت بيوتًا باللَّبِن ولها حُجَر من جريد مطورة بالطين عددت تسعة أبيات بحجرها، وهي ما بين بيت عائشة رضي الله عنها إلىٰ الباب الذي يلي باب النبي ﷺ

(١) أخرجه أبو داود في سننه (١/ ٢) رقم (٤٤٩) وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (١/ ٢) رقم (٤٤٨) وصححه الألباني.

إلىٰ منزل أسماء بنت حسن بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس، ورأيت بيت أم سلمة وحجرتها من لَبِن؛ فسألت ابن ابنها؟ فقال: لما غزا رسول الله ﷺ غزوة دومة، بَنَت أم سلمة حجرتها بِلَبِن؛ فلما قدم رسول الله ﷺ نظر إلىٰ اللَّبِن؛ فدخل عليها أول نسائه، فقال: «ما هذا البناء؟» فقالت: أردت يا رسول الله أن أكفّ أبصار الناس فقال: «يا أم سلمة! إنَّ شر ما ذهب فيه مال المسلمين البنيان»)[1].

وذكر ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ- أيضًا عن عبد الله بن المبارك -رحمه الله تعالىٰ- قال: أخبرنا حريث بن السائب -رحمه الله تعالىٰ- قال: سمعت الحسن -رحمه الله تعالىٰ- يقول: (كنت أدخل بيوت أزواج النبي ﷺ في خلافة عثمان بن عفان -رضي الله تعالىٰ عنه- فأتناول سقفها بيدي)[2].

قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (قلت: إلا أنه قد كان الحسن البصري شكلًا ضخمًا طوالًا -رحمه الله تعالىٰ-)[3].

وقال ابن النجار -رحمه الله تعالىٰ-: (لما بنىٰ رسول الله ﷺ مسجده، بنىٰ بيتين لزوجتيه عائشة وسودة رضي الله عنهما علىٰ نعت بناء المسجد من لبن وجريد النخل، وكان لبيت عائشة -رضي الله عنها- مصراعٌ واحدٌ من عرعر أو ساج، ولما تزوج رسول الله ﷺ نساءه بنىٰ لهن حجرًا، وهي تسعة أبيات. وهي ما بين بيت عائشة رضي الله عنها إلىٰ الباب الذي يلي باب النبي ﷺ. قال أهل السِّير: ضرب النبي ﷺ الحجرات ما بينه وبين القبلة والشرق إلىٰ الشام، ولم يضربها في غربيه، وكانت

---

(١) ابن سعد، الطبقات (١/ ٤٩٩-٥٠٠). وحديث بناء أم سلمة -رضي الله تعالى عنها- أخرجه أبو داود في المراسيل، تحقيق شعيب الأرناؤوط، الطبعةالأولى (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٨)، (ص٣٤٠) رقم (٤٩٤)، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (١/ ٥٧٩) رقم (١١٨٠).

(٢) ابن سعد، الطبقات (١/ ٥٠٠).

(٣) ابن كثير، السيرة النبوية (٢/ ٣١٣).

خارجة من المسجد مديرة به إلا من المغرب، وكانت أبوابها شارعة في المسجد. قال عمران بن أبي أنس: كان منها أربعة أبيات بلبن لها حجر من جريد، وكانت خمسة أبيات من جريد مطينة لا حجر لها، على أبوابها مسوح الشعر)[(١)].

ومما يدل على قِصَر جدار الحجر قول عائشة -رضي الله تعالى عنها-: (كان رسول الله ﷺ يصلي من الليل في حجرته، وجدار الحجرة قصير، فرأى الناس شخص النبي ﷺ، فقام أناس يصلون بصلاته، فأصبحوا فتحدثوا بذلك، فقام الليلة الثانية، فقام معه أناس يصلون بصلاته، صنعوا ذلك ليلتين -أو ثلاثا- حتى إذا كان بعد ذلك، جلس رسول الله ﷺ فلم يخرج، فلما أصبح ذكر ذلك الناس فقال: «إني خشيت أن تُكتب عليكم صلاة الليل»[(٢)].

وكانت سكن كل زوجة يتكون من بيت (غرفة داخلية) لكل زوجة ومعها حجرة وهي التي تحيط بالبيت، وتكون فناء له، قال -تعالى-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحجرات:٤].

قال ابن حجر -رحمه الله تعالى-: (وقد عُرف بالاستفاضة والمُشاهَدة أن حُجَر أزواج النبي ﷺ لم تكن متَّسعة، ولا يكون ضوء الشمس باقيًا في قعر الحجرة الصغيرة إلا والشمس قائمة مرتفعة، وإلا متى مالت جدًّا ارتفع ضوؤها عن قاع الحجرة، ولو كانت الجُدُر قصيرة. قال النووي: كانت الحجرة ضيّقة العرصة قصيرة الجدار)[(٣)].

قال ابن سعد: (قال محمد بن عمر: فحدثت هذا الحديث، معاذ بن محمد الأنصاري فقال: سمعت عطاء الخراساني، في مجلس فيه عمر بن أبي أنس يقول وهو فيما بين القبر والمنبر: أدركت حُجَر أزواج رسول الله ﷺ من جريد النخل

(١) محمد بن محمود بن الحسن المعروف بابن النجا، الدرة الثمينة في أخبار المدينة تحقيق حسين محمد علي شكري (شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم)، (ص ٩٠).
(٢) صحيح البخاري (١/ ١٤٦) رقم (٧٢٩).
(٣) فتح الباري (٢/ ٢٦).

علىٰ أبوابها المسوح من شعر أسود فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يُقرأ. يَأمر بإدخال حُجَر أزواج النبي ﷺ في مسجد رسول الله ﷺ؛ فما رأيت أكثر باكيًا من ذلك اليوم. قال عطاء: فسمعت سعيد بن المسيب -رحمه الله تعالىٰ- يقول يومئذ: «والله لوددت أنهم تركوها علىٰ حالها ينشأ ناشئ من أهل المدينة ويقدم القادم من الأفق فيرىٰ ما اكتفىٰ به رسول الله ﷺ في حياته، فيكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والتفاخر»، قال معاذ: فلما فرغ عطاء الخراساني من حديثه قال عمر بن أبي أنس: (... فأما ما ذكرت من البكاء يومئذ فلقد رأيتني في مجلس فيه نفر من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ منهم أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف وأبو أمامة بن سهل بن حنيف وخارجة بن زيد بن ثابت، وإنهم ليبكون حتىٰ أخضل لحاهم الدمع. وقال يومئذ أبو أمامة: ليتها تُركت فلم تُهدَم حتىٰ يقصر الناس عن البناء ويروا ما رضي الله لنبيه ﷺ ومفاتيح خزائن الدنيا بيده)[1].

هذه روايات تعطي وصفًا عامًّا كافيًا لمستوىٰ هذه البيوت، من حيث البساطة، والدلالة علىٰ التواضع والزهد في هذه الدنيا:

نقف عند هذا الجزء من السيرة لنأخذ منه ما يلي:

أولًا: إن من المهم أن نعرف صفات تلك البيوت؛ لأنه يعطينا صورة عن حياة النبي ﷺ، وزهده في هذه الدنيا، وإعراضه عنها؛ لأن البيت هو مستقر الشخص يقضي فيه غالب وقته اليومي، يرتاح فيه، ينام فيه، يأكل فيه، يصلي فيه نوافله، يستقبل فيه ضيوفه، فله ارتباط وثيق بحياته اليومية، وبالتالي يعطي صورة عن حياة ساكنه.

وإن كانت هذه البيوت لا تُمثِّل شيئًا مُهِمًّا في حياة النبي ﷺ، فهو ﷺ يراها شيئًا عابرًا وينقضي، لكنها بالنسبة لنا في غاية الأهمية نتعلم منها، سلوكًا عمليًّا في حياتنا.

---

(١) ابن سعد، الطبقات (١/ ٤٩٩-٥٠٠).

ليس في المسكن فقط، بل في كل شؤون هذه الدنيا، في المركب والملبس والمأكل والمشرب. نقرأ ونرىٰ فيها كلها التواضع، والزهد، وتقول لنا هذه البيوت بلسان الحال: هذه هي حياة سيد البشر، هذا ما اختاره سيد الخلق رسول الله ﷺ لنفسه، أفلا نختاره نحن لأنفسنا؟!

ثانيًا: يا أخي لا تُعلّق قلبك بدنيا، فما تيسر منها فخذ به، وما لم يتيسر فدعه، ولا تشغل قلبك فيه، فما في الدنيا شيء يستحق الهم، واعلم أن الهموم والأحزان لن تُغيّر شيئًا، اشتغل بما ينفعك، وعَلّق قلبك بما عند الله فهو خير وأبقىٰ.

ثالثًا: يا أخي لا تَغبط شخصًا علىٰ دنيا أعطاه الله إياها، فالدنيا للمؤمن وللكافر، وإنما الغبطة فيما اختاره الله لنبيه ﷺ؛ الغبطة في الإيمان، والتقىٰ والعمل الصالح. ومن نافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة.

رابعًا: لا تنخدع بالمظاهر، وانظر إلىٰ المخبر، فبيتٌ صغير فيه انشراح صدر وطمأنينة قلب خير من قصور شامخة والقلب خاوٍ مريض.

خامسًا: لا يعني هذا أن نترك بيوتنا الحالية، ونبني لنا بيوتًا من الطين والسعف والجريد، كبيوت النبي ﷺ، ليس هذا هو المقصود؛ ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف:٣٢]، وإنما الذي أقصده ألَّا تسكن هذه البيوت في قلوبنا، بل نحن نسكنها.

نسكنها ونحن نعلم أننا لسنا مخلدين فيها، نسكنها ونحن نرجو أن تكون عونًا لنا علىٰ طاعة الله -جل شأنه-، نسكنها ونحن نستشعر نعمة الله -تعالىٰ- علينا بها، نسكنها ونحن شاكرون فننال أجر الشاكرين، ولا نسكنها ونحن مفاخرون أو متباهون، ولا بحثًا عن مظاهر جوفاء، ولا تعالٍ علىٰ الناس.

فالمسلم يسكن ويلبس ويركب مثل بني قومه بلا إسراف ولا مخيلة، وهو إذا كان ممن يعرف حال بيوت أزواج الرسول ﷺ، فهذه المعرفة تنفعه في الحالين:

- إن كان ممن وسع الله عليه في الرزق، توسَّع متواضعًا شاكرًا، ووسع علىٰ غيره.
- وإن كانت أموره بخلاف ذلك كان له في ما اختاره الله -جل شأنه- لنبيه ﷺ أسوة تُنزل السكينة والطمأنينة والصبر والرضا علىٰ نفسه.

ثالثًا: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

قال الله -تعالىٰ-: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٨- ٩].

كان من نتائج الهجرة وجود مهاجرين من بطون مختلفة، نزلوا المدينة بلا أهل، وليس معهم مال إلىٰ قوم لم يسبق لهم بهم معرفة، وكان الأنصار قبل الإسلام قومًا لم تجفّ الدماء بينهم، إنهم جمع من القوم فيهم من مظاهر الفُرقة والنزاع شيء كثير، ومع ذلك لما آمنوا بالله ورسوله ﷺ وصفهم القرآن الكريم بهذا الوصف الفذّ الفريد:

- يحبُّون من هاجر إليهم.
- ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أُوتوا.
- يؤثرون علىٰ أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.
- وقاهم الله شُحّ أنفسهم.
- أولئك هم المفلحون.

يقول ابن جرير الطبري -رحمه الله تعالىٰ-: (يقول -تعالىٰ ذِكْره-: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾؛ يقول: اتخذوا مدينة الرسول ﷺ فابتنوها منازل، ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ بالله ورسوله ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني مِن قبل المهاجرين ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾؛ يحبون من ترك منزله وانتقل إليهم من غيرهم، وعنىٰ بذلك الأنصار يحبون المهاجرين)[1].

قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (ولا يجدون في أنفسهم حسدًا للمهاجرين فيما فضَّلهم الله به من المنزلة والشرف، والتقديم في الذِّكر والرتبة.... ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾؛ يعني: حاجة، أي: يقدمون المحاويج علىٰ حاجة أنفسهم، ويبدؤون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلىٰ ذلك... وقوله: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: من سَلم من الشح فقد أفلح وأنجح)[2].

جاء المهاجرون إلىٰ المدينة وقد تركوا خلفهم أهلهم وأموالهم، ولكن وجدوا من الأنصار ما يخفف عنهم وطأة الغُربة والفاقة، فقد تسابق الأنصار إلىٰ البذل حتىٰ عرضوا علىٰ الرسول ﷺ أن يقسم بينهم وبين المهاجرين النخل، ففي الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قالت الأنصار: اقسم بيننا وبينهم النخل، قال: «لا»، قال: (تكفونا المؤنة وتشركونا في الثمر قالوا: سمعنا وأطعنا)[3].

ومن مظاهر الأخوة العظيمة: ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قدم عبد الرحمن بن عوف -رضي الله تعالىٰ عنه-، فآخىٰ النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري -رضي الله تعالىٰ عنه-، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله، فقال عبد الرحمن بن عوف -رضي الله تعالىٰ عنه-: بارك الله لك في أهلك ومالك، دُلّني علىٰ السوق، فربح شيئًا من أقط وسمن، فرآه النبي ﷺ بعد أيام وعليه أثر من صفرة؛ فقال

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن (٢٨ / ٤١).
(٢) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٨/ ٦٨-٧١).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٢٢٣)، كتاب مناقب الأنصار، باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار.

النبي ﷺ: «مهيم يا عبد الرحمن؟» قال: تزوجتُ امرأةً من الأنصار، قال: «فما سقت عليها؟»، قال: وزن نواةٍ من ذهب، فقال النبي ﷺ: «أَوْلِمْ ولو بشاة»[1].

ووصل الإيثار بالأنصار -رضوان الله تعالىٰ عليهم- أنهم كانوا يقترعون في سكن المهاجرين لديهم، كل منهم يريد استضافة المهاجري، عن أم العلاء الأنصارية -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: (اقترعت الأنصار علىٰ سكنىٰ المهاجرين)[2]، بل وصل بهم الإيثار إلىٰ أن قالوا للرسول ﷺ: إن شئت فخُذْ منا منازلنا، فقال لهم الرسول ﷺ: «خيرًا»[3].

قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (ثم آخىٰ رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلًا نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار، آخىٰ بينهم علىٰ المواساة[4] يتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام إلىٰ حين وقعة بدر، فلما أنزل الله -عز وجل-: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ [الأحزاب:٦].

وهل المؤاخاة وقعت مرة أو مرتين، مرة في مكة ومرة في المدينة؟

يرىٰ بعض العلماء أن المؤاخاة كانت في مكة، وأن النبي ﷺ آخىٰ بينه وبين علي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه-، وآخىٰ بين حمزة وزيد حارثة -رضي الله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح (٧/ ٢٧٠)، كتاب مناقب الأنصار، باب كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه.
(٢) صحيح البخاري (٥/ ٦٧) رقم (٣٩٢٩).
(٣) انظر: البلاذري، أنساب الأشراف (١/ ٢٧٠).
(٤) سيأتي تعريف المواساة في الفوائد.

تعالىٰ عنهما- [1]. وعن أنس -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: «آخىٰ النبي ﷺ بين ابن مسعود والزبير -رضي الله تعالىٰ عنهما-»[2].

ثم آخىٰ الرسول ﷺ مؤاخاة أخرىٰ وهي التي تمت في المدينة بين المهاجرين والأنصار، ولكل واحدة من المؤاخاة ظروفها.

ومنهم من يرىٰ أن المؤاخاة كانت في المدينة بين المهاجرين والأنصار، ولم يؤاخِ الرسول ﷺ بين مهاجري ومهاجري، وممن يرىٰ ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية[3] -رحمه الله تعالىٰ- ووافقه علىٰ ذلك تلميذه ابن القيم[4] وابن كثير -رحمهم الله تعالىٰ-، وقالوا: (إن المؤاخاة كانت بين المهاجرين والأنصار، فلم يُؤاخِ رسول الله ﷺ بين المهاجرين بعضهم مع بعض؛ لأن المهاجرين كانوا مستغنين بأخوة الإسلام وأخوة الدار وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة)[5].

ومع ذلك فقد قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ- في التوفيق بين الرأيين: (اللهم إلا أن يكون النبي ﷺ لم يجعل مصلحة عليّ -رضي الله تعالىٰ عنه- إلىٰ غيره، فإنه كان ممَّن ينفق عليه رسول الله ﷺ من صغره في حياة أبيه أبي طالب، كما تقدم عن مجاهد وغيره. وكذلك يكون حمزة قد التزم بمصالح مولاهم زيد بن حارثة فآخاه بهذا الاعتبار. والله أعلم). ولكن هذا لا ينسجم مع ما صح من المؤاخاة بين ابن مسعود والزبير -رضي الله تعالىٰ عنهما-، وهما من المهاجرين، والله أعلم.

---

(١) ورد في صحيح البخاري (٥/ ١٤١) رقم (٤٢٥١) ما يشير إلى المؤاخاة بين حمزة وزيد -رضي الله تعالى عنهما- عندما اختصم زيد -رضي الله تعالى عنه- مع علي وجعفر -رضي الله تعالى عنهما-، في ابنة حمزة. قال زيد: «ابنة أخي».

(٢) البخاري، الأدب المفرد (١/ ٢٠٠) رقم (٥٦٨)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

(٣) انظر: ابن تيمية، منهاج السنة النبوية (٧/ ٢٧٩).

(٤) انظر: ابن القيم ، زاد المعاد (٣/ ٦٤).

(٥) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ٢٢٧).

وعن أنس بن مالك ﵁، قال: (لما قدم المهاجرون المدينة من مكة، وليس بأيديهم -يعني شيئًا- وكانت الأنصار أهل الأرض والعقار، فقاسمهم الأنصار علىٰ أن يعطوهم ثمار أموالهم كل عام، ويكفوهم العمل والمئونة)[(١)].

فوائد هذا الموقف من السيرة النبوية

أولًا: هذا العدد الكثير من المهاجرين الذين قدموا المدينة وليس معهم ما يقوتهم، وليس عندهم ما يؤويهم، تركوا الأهل والأموال خلفهم، ووصلوا إلىٰ أناس لم يسبق لهم بهم معرفة، في أرض لم يألفوا العيش فيها، إنها مشكلة عويصة تُواجه هؤلاء، تستعصي علىٰ فحول الرجال، ومع ذلك فقد حلَّها الرسول ﷺ حلًّا جذريًّا وحوَّلها إلىٰ أخوة إسلامية فريدة نابعة من القلب تتميز بالصدق والوفاء والتقرب إلىٰ الله -عز وجل-[(٢)].

ثانيًا: لا يعرف التاريخ كله، وقفة جماعية كحادثة استقبال الأنصار للمهاجرين وإيوائهم؛ بل فرحهم بهم وسرورهم باستقبالهم وإكرامهم، ومواساتهم بكل ما يملكون، وقدموا نموذجًا عمليًّا رائعًا للأُخوَّة الإسلامية، تُحتذَىٰ في كل العصور.

عن أنس -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال المهاجرون: يا رسول الله، ما رأينا مثل قومٍ قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلًا في كثير، لقد كفونا المئونة، وأشركونا في المهنأ، حتىٰ لقد حسبنا أن يذهبوا بالأجر كله، قال: «لا، ما أثنيتم عليهم، ودعوتم الله لهم»[(٣)].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قالت الأنصار للنبي ﷺ: اقسم بيننا وبين

(١) صحيح البخاري (٣/ ١٦٥) رقم (٢٦٣٠).
(٢) انظر: عبد العزيز المسند، النهج المحمدي (ص ١٠٥).
(٣) الإمام أحمد، المسند رقم (١٣٠٧٥٢٠/ ٣٦٠-٣٦١)، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

إخواننا النخيل، قال: «لا» فقالوا: تكفونا المئونة، ونشرككم في الثمرة، قالوا: سمعنا وأطعنا[1]؛ قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وفي الحديث فضيلة ظاهرة للأنصار -رضي الله تعالىٰ عنهم-)[2].

قال السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (من أوصاف الأنصار التي فاقوا بها غيرهم، وتميزوا بها عمن سواهم الإيثار، وهو أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بمحابّ النفس من الأموال وغيرها وبذلها للغير مع الحاجة إليها، بل مع الضرورة والخصاصة. وهذا لا يكون إلا من خُلق زكيّ، ومحبة لله -تعالىٰ-، مقدّمة علىٰ شهوات النفس ولذّاتها)[3].

لقد كانت المؤاخاة اختبارًا عمليًّا للأنصار أثبتوا من خلاله تضحيات فريدة سجَّلها لهم القرآن الكريم، وأثنىٰ بها عليهم، وهي فضيلة تُسجّل لهم -رضي الله تعالىٰ عنهم- تُضاف إلىٰ سِجِلّهم العظيم بسبق إيواء الرسول ﷺ ومبايعته بيعة العقبة علىٰ الإيواء والنصرة، ثم في هذه المؤاخاة نرىٰ مشاهد عملية فذَّة لصدق إيمانهم وتسابقهم وتنافسهم في الخير.

ثالثًا: وهذه المؤاخاة أخصُّ من الأخوة العامة بين المؤمنين جميعًا؛ لأن الأُخوَّة العامة ثابتة لكل مسلم مع أخيه المسلم بقول الله -تعالىٰ-: ﴿ **إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ** ﴾ [الحجرات:٩]، أما هذه فمؤاخاة خاصة، تمَّت بأمر النبي ﷺ وتحت إشرافه المباشر، لفئة معينة ولظرف طارئ ترتب عليها مزيد حقوق بين الأخوين المتآخيين.

وقد فهم الأنصار -رضي الله تعالىٰ عنهم- هذا المعنىٰ المراد من المؤاخاة،

(١) البخاري ، صحيح البخاري (٣/ ١٠٤) رقم (٢٣٢٥).
(٢) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ١١٣).
(٣) السعدي، تفسير السعدي (ص ٨٥٠).

وأنها أمر زائد علىٰ الأخوة الإسلامية، فصار الأنصاري يتعامل مع أخيه المهاجري الذي جرت معه المؤاخاة تعاملًا زائدًا عن معنىٰ الأخوة الإسلامية، ويعتني به عناية لا يعتني بها مع بقية المهاجرين.

وكذلك فهم المهاجرون هذا المعنىٰ الخاص، فكان بعضهم يوصي لأخيه الأنصاري بعد وفاته، -رضي الله تعالىٰ عنهم وأرضاهم-.

وكان منها حق التوارث دون أن يكون بينهما صلة من قرابة أو رحم، كما في قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ ﴾ [النساء:٣٣]. ثم نُسِخَ التوارث وبقي ما عداه. يقول السعدي -رحمه الله تعالىٰ- عند تفسير قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ [الأنفال:٧٤-٧٥]، «فهذه الموالاة الإيمانية -وقد كانت في أول الإسلام- لها وقع كبير وشأن عظيم، حتىٰ إن النبي ﷺ آخىٰ بين المهاجرين والأنصار أخوة خاصة، غير الأخوة الإيمانية العامة، وحتىٰ كانوا يتوارثون بها، فأنزل الله ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ فلا يرثه إلا أقاربه من العصبات وأصحاب الفروض، فإن لم يكونوا، فأقرب قراباته من ذوي الأرحام، كما دلَّ عليه عموم هذه الآية الكريمة»[1].

رابعًا: بدء الرسول ﷺ بالمؤاخاة يدل علىٰ أهميتها، فالمجتمع الجديد في المدينة، يحتاج إلىٰ التكاتف، وتأسيسه علىٰ قواعد سليمة، وأهم قاعدة في بناء المجتمع المسلم: قاعدة الأُخوَّة الإيمانية التي تُذيب الفروق، وتوحّد القلوب، وتتشارك في الموجود.

---

(١) السعدي، تفسير السعدي (٣٢٧).

وإن من أعظم النعم علىٰ المسلمين نعمة الأخوة في الله، وعندما عدَّد الله النعم في كتابه الكريم جعل أول نعمة يمتنّ بها: نعمة أُلفة القلوب وتآخيها في الله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٣]؛ فبدأ بنعمة الأُخوَّة ثم نعمة الإنقاذ من النار، يقول الحسن البصري -رحمه الله تعالىٰ-: (إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا؛ لأن أهلنا يُذَكروننا بالدنيا، وإخواننا يُذَكّروننا بالآخرة)[1].

وأخوة بلا إيمان لا تعدو أن تكون مصالح مؤقَّتة متبادلة، وما أسرع ما تتفتت وتنتهي. وهذه الأخوَّة في الله هي أساس المؤاخاة التي تمَّت بين المهاجرين والأنصار.

خامسًا: البدء بالمؤاخاة يدل علىٰ شمول الإسلام لأمور الدين والدنيا، فكما اهتم الإسلام بعلاقة العبد بربه من خلال بناء المسجد اهتم بإقامة علاقة العبد بأخيه المسلم من خلال المؤاخاة. وفيها التوجيه للمسلم أينما كان بحقوق إخوانه المسلمين عليه متىٰ كانوا محتاجين، وهو قادر.

سادسًا: عند مراجعة أسماء هؤلاء الصحابة، نجد أن تلك المؤاخاة جعلت الاعتبار هو كون أحدهما مهاجريًّا والآخر أنصاريًّا في الجملة، وبخاصة المؤاخاة التي تمت في المدينة، ولم تُقِم وزنًا للاعتبارات القَبَلِيَّة أو الفوارق الطَّبقية، وهذا أمر غير معهود عند العرب، ولا يقبله إلا مَن هذَّبه الله -جل شأنه- بهذا الدين وزكَّىٰ قلبه.

وقد جمعت هذه المؤاخاة بين الحر والعبد، والقوي والضعيف، والغني والفقير، والأبيض والأسود، وبذلك استطاعت هذه الأُخوَّة أن تجعل الرابطة الأولىٰ هي رابطة الإيمان، وتؤخر ما عدا ذلك، من روابط القبلية أو التعصُّب للأرض أو اللون أو الغنىٰ والفقر.

---

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين (٢/ ١٧٦).

ومعلوم أن القول سهل يسير، ولكنَّ التطبيق عسير، ومع ذلك طبَّق الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنه- ذلك، المهاجري منهم والأنصاري، وتركوا الجاهلية ومعاييرها خارج أسوار المدينة.

وهو درس لنا في إذابة هذا الفوارق، فإن من أعظم ما جاء به الإسلام وقرّره، ميزان التفاضل بين الناس؛ قال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، وجعل هذا الميزان بديلًا عن ميزان الجاهلية القائم علىٰ العصبية الممقوتة، والتفاخر بالآباء والتعالي والتكبر علىٰ الضعفاء.

سابعًا: سرعة مبادرة الأنصار إلىٰ تنفيذ أمر الرسول ﷺ حتىٰ كانوا لَيَتَسَابقون فيما بينهم علىٰ المهاجرين القادمين بإجراء القرعة كلّ منهم يريد أن يفوز باستضافة هذا المهاجر القادم إليهم، وقارن هذا بما تعيشه الأمة في كثير من أفرادها من اهتمام بنفسه وأنانية مفرطة تجعله يتوارىٰ ويختفي متىٰ علم بقادم ذي حاجة، والله المستعان.

ثامنًا: كان المهاجرون القادمون من مكة أهل تجارة، وأسواق التجارة قائمة في مكة، وعندهم رحلة الشتاء والصيف، في حين أن أهل المدينة كانوا أهل زراعة، وتشتهر المدينة بالنخيل، يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (وكان المهاجرون تغلب عليهم التجارة؛ والأنصار تغلب عليهم الزراعة)[1].

مما جعل المهاجرين يجدون أنفسهم في بيئة اقتصادية غير بيئتهم، فكان في المؤاخاة تعليم للمهاجرين الزراعة، وتعليم للأنصار التجارة؛ فاستفاد كل طرف من الآخر، وهذا مهم في تقوية المجتمع ليكون نواة للقوة الإسلامية بكل صورها التي تحملت نشر الإسلام في الأرض وبلغ العراق والشام ومصر في أمدٍ وجيز، ثم امتدَّ إلىٰ مشارق الأرض ومغاربها.

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٨/ ٥٣٣).

تاسعًا: كان من غاية المؤاخاة كما يقول السهيلي -رحمه الله تعالىٰ-: (آخىٰ رسول الله ﷺ بين أصحابه حين نزلوا المدينة؛ لِيُذْهِبَ عنهم وحشةَ الغربة، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ويَشُدَّ أزرَ بعضِهم ببعضٍ)[١].

عاشرًا: آخىٰ رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار علىٰ المواساة[٢]؛ أي يواسي الأنصار إخوانهم المهاجرين، لكنَّ الأنصار لم يكتفوا بالمواساة، بل آخَوْهُمْ علىٰ المساواة[٣] كما يدل لذلك قصة سعد بن الربيع الأنصاري مع أخيه عبد الرحمن بن عوف -رضي الله تعالىٰ عنهما- حينما عرض نصف ماله، وأن يُطلّق لأجله إحدىٰ زوجاته؛ ليتزوجها عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه[٤]. بل إن الأنصار -رضي الله تعالىٰ عنهم- قدّموا ما هو أعلىٰ من ذلك حينما آثروا المهاجرين علىٰ أنفسهم؛ كما قال -تعالىٰ-: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩]، يعني أنهم كانوا يقدّمون إخوانهم المهاجرين علىٰ أنفسهم بمتاع الدنيا، وإن كان هؤلاء الأنصار فقراء يحتاجون إلىٰ ذلك المتاع. إن الإيثار درجة أعلىٰ من المساواة، فالأنصار قد واسوا إخوانهم المهاجرين بأنفسهم وزادوا علىٰ ذلك بأن آثروهم علىٰ أنفسهم بخير الدنيا، وكفىٰ بهذا شاهدًا علىٰ صدق محبتهم وقوة إيمانهم[٥].

---

(١) السهيلي، الروض الأنف (٢/ ٢٥٢).

(٢) انظر: ابن القيم ، زاد المعاد (٣/ ٦٣)، وابن حجر، فتح الباري (٧/ ٢٧٠).

(٣) المواساة: مطلق المشاركة في الشيء، والمساواة: إعطاء النصف، والمواساة لا تستلزم المساواة، انظر: فتح الباري (١/ ٨٧ و٢٧٤). قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- (٥/ ١٧٤): «حديث أبي هريرة «فإن لم يجلسه معه فليناوله لقمة»؛ فالمراد المواساة لا المساواة من كل جهة، لكن من أخذ بالأكمل كأبي ذر -رضي الله تعالى عنه- فعل المساواة وهو الأفضل»، وقال الزبيدي في تاج العروس (٢٧/ ٧٦): (المواساة: هي المشاركة والمساهمة في المعاش والرزق).

(٤) سبق ذكر الحديث في بداية هذه الفقرة، وهو مخرج في البخاري.

(٥) د. عبد العزيز الحميدي، التاريخ الإسلامي مواقف وعبر (٤/ ٢٩).

حادي عشر: نلحظ في المؤاخاة أن المهاجرين قابلوا إيثار الأنصار لهم بالتعفُّف، ومحاولة الاستغناء، فقد كان الأنصار يؤثرون، وكان المهاجرون يتعفّفون، كما فعل عبد الرحمن بن عوف ﷺ، وهذه صفة المسلم إن وَجَدَ آثَرَ، وإن افتقر تعفَّف. يعني أنت الآن إن كنت من الموسرين فآثر إخوانك، تأسيًا بالأنصار، وإن كنت معوزًا، فتعفَّف، تأسيًا بالمهاجرين، والحمد لله الذي جعل لنا الأسوة الصالحة في الحالين لكي ننال الأجر.

ثاني عشر: في المؤاخاةِ المظهرُ الحقيقيُّ العظيمُ للتكافل الاجتماعي في الإسلام، فالمؤاخاة لم تكن ظرفًا زمانيًّا أو مكانيًّا وانتهىٰ، بل هي ملازمة للمجتمع المسلم في كل زمان ومكان، المجتمع المسلم هو المجتمع الذي يعطف فيه الغني علىٰ الفقير، ويواسيه من ماله مستشعرًا الواجب الملقَىٰ عليه في هذه الحالة، بخلاف المجتمعات الأخرىٰ التي يأكل فيها القوي الضعيف، بل يجدها القوي فرصة مواتية لاستغلال حاجة الضعيف للكسب من ورائه.

ثالث عشر: إن الآيات التي وردت لم تَنسخ المؤاخاة، وإنما نسخت الميراث بينهم، ورجع كلّ لنَسبه وذوي أرحامه، وبالتالي بقي ما لم يبطله القرآن وهو التعاون علىٰ الحق والنصر، والأخذ علىٰ يد الظالم والتناصح والتعاون[1]، كما قال ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-: (إلا النصر والرفادة والتضحية، وقد ذهب الميراث ويوصي له)[2]، ونقل الشامي قول ابن حجر -رحمهم الله تعالىٰ-: (وهذا لا يدفع المؤاخاة من أصلها، وإنما يدفع المؤاخاة المخصوصة التي عقدت بينهم؛ ليتوارثوا بينهم)[3].

---

(١) انظر: الشامي، سبل الهدى (٣/ ٥٣٥).

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٤/ ٤٧٢)، كتاب الكفالة، باب قول الله تعالى: (والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم).

(٣) الشامي، سبل الهدى (٣/ ٥٣٤).

وقال ابن حجر في الفتح -رحمه الله تعالىٰ-: (فإن الإخاء المذكور كان في أول الهجرة وكانوا يتوارثون به، ثم نسخ من ذلك الميراث، وبقي ما لم يبطله القرآن وهو التعاون علىٰ الحق والنصر والأخذ علىٰ يد الظالم)[1].

وقال أكرم العمري: (وأخيرًا فإن المؤاخاة التي شرعت بين المؤمنين باقية لم تنسخ سوىٰ ما يترتب عليها من توارث، فإنه منسوخ، وبوسع المؤمنين في كل عصر أن يتآخوا بينهم علىٰ المواساة والارتفاق والنصيحة، ويترتب علىٰ مؤاخاتهم حقوق أخص من المؤاخاة العامة بين المؤمنين)[2].

رابع عشر: وإذا كانت المؤاخاة حدثًا تاريخيًّا فريدًا، لا يزال حكمه باقيًا بين المسلمين، فما نصيبك منه، أعني هل بذلت، هل واسيت، ماذا استفاد منك المجتمع المسلم، قارن حالك بحال الأنصار، وتأسَّ بهم، وكثيرًا ما تتعرض بعض المجتمعات المسلمة لمشكلات اضطرتهم للخروج من بلادهم تاركين أموالهم فكيف كان الموقف معهم؟ هذا من مواقف الإيمان العملية التي تظهر فيها دلائل الإيمان جلية، قال -تعالىٰ-: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠].

خامس عشر: لم يكن موقف الأنصار -رضي الله تعالىٰ عنهم- ليُنْسَىٰ، فقد حفظ النبي ﷺ هذا الفضل للأنصار، فأثنىٰ عليهم في خطبته المؤثرة المشهورة بقوله: «لو أن الأنصار سلكوا واديًا، أو شعبًا، لسلكت في وادي الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار»[3]، وبيَّن حبّه لهم ووعد من أحبّهم، وأوعد من أبغضهم عن البراء -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال النبي ﷺ: «الأنصار لا يحبهم

(١) ابن حجر، فتح الباري (٤/ ٤٧٣)، وانظر: د. أكرم العمري،السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٤٥- ٢٤٧).

(٢) د. أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٤٨).

(٣) صحيح البخاري (٥/ ٣١) رقم (٣٧٧٩) من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-.

إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله»[١].

ودعا لهم ولأبنائهم وأبناء أبنائهم؛ فعن زيد بن أرقم -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم اغفر للأنصار، ولأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار»[٢]، بل دعا لهم ولأبنائهم ولأزواجهم ولذراريهم؛ ففي مسند أحمد -رحمه الله تعالىٰ- من حديث أنس -رضي الله تعالىٰ عنه- أن النبي ﷺ قال: «اللهم اغفر للأنصار، ولأبناء الأنصار، ولأزواج الأنصار، ولذراري الأنصار»[٣]. وفي صحيح مسلم عن أنس -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رسول الله ﷺ استغفر للأنصار، قال: وأحسبه قال: «ولذراري الأنصار، ولموالي الأنصار»[٤].

سادس عشر: أختم بهذه الفائدة؛ عن سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: (الناس علىٰ ثلاث منازل؛ فمضت منهم اثنتان وبقيت واحدة، فأحسن ما أنتم كائنون عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت، ثم قرأ ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ [الحشر:٨] الآية، ثم قال: هؤلاء المهاجرون وهذه منزلة وقد مضت، ثم قرأ ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر: ٩] الآية، ثم قال: هؤلاء الأنصار وهذه منزلة وقد مضت، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، قال: فقد مضت هاتان المنزلتان، وبقيت

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (٥/ ٣٢) رقم (٣٧٨٣). وصحيح مسلم (١/ ٨٥) رقم (٧٥).

(٢) متفق عليه، واللفظ لمسلم: صحيح البخاري (٦/ ١٥٤) رقم (٤٩٠٦)، وصحيح مسلم (٤/ ١٩٤٨) رقم (٢٥٠٦).

(٣) المسند (٢٠/ ٤٨) رقم (١٢٥٩٤) وقال محققو المسند: «حديث صحيح بطرقه وشواهده»، ورواه الترمذي في سننه (٦/ ١٩٦) رقم (٣٩٠٢) بلفظ: «اللهم اغفر للأنصار ولذراري الأنصار ولذراري ذراريهم»، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٤) صحيح مسلم (٤/ ١٩٤٨) رقم (٢٥٠٧).

هذه المنزلة؛ فأحسن ما أنتم كائنون عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت)[١].

ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلًا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم.

رابعًا: معاهدة اليهود:

لما وصل الرسول ﷺ إلىٰ المدينة وجد فيها مع المسلمين، قبائلَ اليهود[٢] وغيرهم، فأراد أن ينظّم العلاقات بين أهل المدينة ويبين حقوقهم وواجباتهم، فكتب كتابًا بهذا الشأن عُرِفَ في المصادر القديمة للسيرة بـ«الكتاب» أو «الصحيفة»، وعُرِفَ عند المتأخرين من كُتَّاب السيرة بـ«الدستور» أو «الوثيقة».

ورجّح الباحث في السيرة النبوية الدكتور أكرم العمري أن هذه الوثيقة كُتِبَتْ في فترتين زمنيتين مختلفتين، يقول: إن (الوثيقة في الأصل وثيقتان؛ إحداهما تتعلق بموادعة يهود كُتِبَتْ قبل بدر أول قدوم النبي ﷺ، والثانية تتعلق بحلف المهاجرين والأنصار وتحديد التزاماتهم وكُتِبَتْ بعد بدر، لكن المؤرِّخين جمعوا بين الوثيقتين)[٣].

وجريًا مع هذا القول فإني سأعرض البنود التي تتضمَّن موادعة اليهود في الوثيقة المشار إليها وهي كالتالي:

١) إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

---

(١) أخرجه الحاكم فيالمستدرك (٢/ ٥٢٦) رقم (٣٨٠٠) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وصححه الذهبي في التلخيص.

(٢) اليهوذ «نسبة إلى يهوذا وهو أكبر ولد يعقوب –عليه السلام– فقلبت العرب الذال دالاً؛ لأن الأعجمية إذا عربت غيّرت عن لفظها، وقيل: سمّوا بذلك؛ لتوبتهم من عبادة العجل، هاد: تاب، هادوا: تابوا »، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١/ ٤٣٧– ٤٣٨).

(٣) أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٨١).

٢) إن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم؛ إلا من ظلم نفسه وأثم فإنه لا يُوتغ[1] إلا نفسه وأهل بيته.

٣) إن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

٤) إن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

٥) إن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

٦) إن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف.

٧) إن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

٨) إن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يُوتغ إلا نفسه، وأهل بيته.

٩) إن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم.

١٠) إن لبني الشطيبة مثل مـــا ليهـود بني عوف، وإن البر دون الإثم.

١٢) إن موالي ثعلبة كأنفسهم.

١٣) إن بطانة يهود كأنفسهم.

١٤) إنه لا يخرج منهم أحدًا إلا بإذن محمد.

١٥) إنه لا ينحجز علىٰ ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظُلم، وإن الله علىٰ أبر هذا.

١٦) إن علىٰ اليهود نفقتهم، وعلىٰ المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر علىٰ من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.

---

(١) أي: لا يُهلك إلا نفسه.

١٧) إنه لا يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم.

١٨) إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين[١].

١٩) إن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

٢٠) إن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.

٢١) إنه لا تُجار حرمة إلا بإذن أهلها.

٢٢) إن ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث، أو اشتجار يخاف فساده؛ فإن مرده إلىٰ الله وإلىٰ محمد ﷺ، وإن الله علىٰ أتقىٰ ما في هذه الصحيفة وأبره.

٢٣) إنه لا تُجار قريش ولا مَن نصرها.

٢٤) إن بينهم النصر علىٰ من دهم يثرب.

٢٥) إذا دعوا إلىٰ صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلىٰ مثل ذلك، فإن لهم علىٰ المؤمنين إلا من حارب في الدين.

٢٦) علىٰ كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.

٢٧) إن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم علىٰ مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا علىٰ نفسه، وإن الله علىٰ أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.

٢٨) وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وإن الله جار لمن بر واتقىٰ، ومحمد رسول الله ﷺ[٢].

---

(١) وهذا تكرر في رقم (١).

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ١١٩- ١٢٣)، وأكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة (٢٨٤- ٢٨٥).

هذه بنود الوثيقة التي تمت مع اليهود في المدينة وعاشوا مع المسلمين في المجتمع الجديد تحت قيادة الرسول ﷺ، وكانوا ثلاث قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، ولم تف هذه القبائل بالعهد الذي بينهم وبين الرسول ﷺ، بل حاربوه، فمنَّ علىٰ بني قينقاع، وأجلىٰ بني النضير، وقتل بني قريظة، وسبىٰ ذريتهم ونزلت سورة الحشر في بني النضير وسورة الأحزاب في بني قريظة[1]، وكان تفصيل ما جرىٰ منهم وما جرىٰ عليهم علىٰ النحو التالي:

أولًا: بنو قينقاع

بعد غزوة بدر أظهر بنو قينقاع الغضب والحسد علىٰ المسلمين؛ بسبب نتائج هذه الغزوة، وبلغ بهم الأمر أن جاهروا بالعداء، فجاء إليهم الرسول ﷺ ونصحهم ودعاهم إلىٰ الإسلام ولكنهم ردوا ردًّا يعني التحدي والتهديد للرسول ﷺ[2]، وثَمَّ سبب آخر تذكره بعض كتب السِّير، وهو أن امرأة من المسلمين جاءت إلىٰ سوق بني قينقاع، فأراد أحد اليهود كشف وجهها، فامتنعت، فعمد خُفيةً إلىٰ طرف ثوبها فعقده في رقبتها، فلما قامت انكشفت عورتها فصاحت، فقام أحد المسلمين فقتل اليهودي المعتدي، وتواثب اليهود فقتلوا المسلم، فتواثبوا فوقع الشر بين المسلمين وبين بني قينقاع[3]، وهذا إظهار عملي لروح العداء وإخلال بالأمن واعتداء علىٰ الحرمات داخل المدينة. فحاصرهم الرسول ﷺ واشتد عليهم الحصار، فنزلوا علىٰ

---

(١) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٦٥).

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ١٧٩ و٤٢٦)، وابن حجر، فتح الباري (٧/ ٣٣٢)، وحسَّن سند هذه القصة.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٤٢٧)، والواقدي، المغازي (١/ ١٧٦ - ١٧٧)، وابن كثير، البداية والنهاية (٤/ ٣- ٤)، وقال أكرم العمري في السيرة الصحيحة: (وهذه الرواية ضعيفة، في إسنادها انقطاع... ولكن يُسْتَأْنَسُ بها من الناحية التاريخية؛ فقد أوردتها معظم مصادر السيرة)، (١/ ٣٠٠). وانظر محمد العوشن، ما شاع ولم يثبت في السيرة (ص ١٣٣- ١٣٤)، وقال: «لم تثبت بسند صحيح رغم شهرتها».

حكم الرسول ﷺ، فقام عبد الله بن أُبيّ ابن سلول[1] إلىٰ رسول الله ﷺ حين أمكنه الله منهم، فقال: يا محمد، أحسن في موالي وألح علىٰ الرسول ﷺ وتطاول عليه وأدخل يده في جيب درع الرسول ﷺ؛ فغضب الرسول ﷺ، فلما ألح عليه في ذلك قال له الرسول ﷺ: هم لك[2].

أما عبادة بن الصامت رضي الله عنه وكان أحد بني عوف بن الخزرج لهم من الحلف مثل الذي لهم من حلف ابن أبي، فخلعهم إلىٰ رسول الله ﷺ وتبرأ منهم، ففيه وفي عبدالله بن أبي ابن سلول نزلت الآيات ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١][3]، وأمر بهم النبي ﷺ أن يُجْلَوْا عن المدينة[4]؛ علىٰ أن لهم ما أقلّت الإبل من الأمتعة

---

(١) عبد الله بن أُبيّ ابن سلول، كتابة (ابن سلول) بالألف. ويعرب بإعراب عبد الله، فإنه وصف ثان له ؛ لأنه عبد الله بن أُبيّ وهو عبد الله ابن سلول أيضًا، فأُبيّ أبوه، وسلول أمه فنُسِبَ إلى أبويه.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٤٢٧- ٤٢٨)، وقال إبراهيم العلي في صحيح السيرة: (وإسناده صحيح وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث ولكنه مرسل)، والبيهقي، دلائل النبوة (٣/ ١٧٤).

(٣) سورة المائدة، الآية رقم (٥١)، وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٣/ ٤٢٨- ٤٢٩)، وقال إبراهيم العلي في صحيح السيرة: (وإسناده صحيح وقد صرح بالتحديث وهو مرسل)، والبيهقي ، دلائل النبوة (٣/ ١٧٤- ١٧٥). وانظرسليم الهلالي ومحمد آل نصر، الاستيعاب في أسباب النزول (٢/ ٦٠) عن عبادة بن الصامت -رضي الله تعالى عنه- قال: فيَّ نزلت هذه الآية حين أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبرأت إليه من حلف يهود، وظاهرت رسول الله ﷺ عليهم»؛ قال في الهامش: «أخرجه ابن مردويه في تفسيره، كما في الدر المنثور (٣/ ٩٩) من طريق عبادة بن الوليد عن أبيه عن جده عبادة به. قلنا: إن كان السند إلى عبادة صحيح؛ فالحديث صحيح غاية؛ إن شاء الله تعالى» ا.هـ.

(٤) انظر: صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٣٢٩) رقم (٤٠٢٨)؛ حيث ذكر أن الرسول ﷺ (أجلى يهود المدينة كلهم بنو قينقاع، وهو رهط عبدالله بن سلام ويهود بن حارثة وكل يهود المدينة).

والأمـوال إلا الحلقة (يعني السـلاح)، فأجلاهم إلىٰ الشام[١].

ثانيًا: بنو النضير

راسلت قريش اليهود وهددتهم بالحرب إن لم يقاتلوا محمدًا ﷺ، فلما بلغ كتابُهم اليهودَ أجمعت بنو النضير علىٰ الغدر، فأرسلت إلىٰ النبي ﷺ أن اخرج إلينا في ثلاثين من أصحابك، فلما جاءوا قريبًا من المكان، اقترحوا أن يخرج في ثلاثة من أصحابه ويخرج إليه ثلاثة من علمائهم، وقد أخفىٰ هؤلاء اليهود السلاح للفتك برسول الله ﷺ لكن امرأة منهم أخبرت ابن أخيها من المسلمين، فأسرع إلىٰ الرسول ﷺ وأخبره فرجع الرسول ﷺ، فلما كان الغد حاصرهم رسول الله ﷺ، وقاتلهم حتىٰ نزلوا علىٰ الجلاء، وعلىٰ أن لهم ما أقلت الإبل إلا الحلقة (يعني السلاح)، فأنزل الله -سبحانه وتعالىٰ- سورة الحشر[٢]؛ فأجلاهم فخرجوا إلىٰ خيبر، ومنهم من سار إلىٰ الشام[٣].

والسبب الثاني لإجلائهم أن النبي ﷺ ذهب إليهم يستعين بهم في دية القتيلَيْنِ اللذَيْنِ قتلهما عمرو بن أمية الضمري للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقد لهما، قالوا: نعم يا أبا القاسم نُعينك، ثم دخلوا وتآمروا فيما بينهم علىٰ أن يلقوا عليه صخرة من فوق الجدار، فأتىٰ رسولَ اللهِ ﷺ الخبرُ من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعًا إلىٰ المدينة وأمر الرسول ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم[٤].

---

(١) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٣٣٠).

(٢) أخرجه، عبد الرزاق في مصنفه (٥/ ٢٥٩- ٢٦٠)، تحقيق الأعظمي، وأخرجه أبو داود في سننه وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢/ ٥٨٢- ٥٨٣) رقم (٢٥٩٥) مع اختلاف في بعض اللفظ، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ١٧٨- ١٧٩).

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٣/ ١٩٣).

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٣/ ١٩١- ١٩٢)، وابن حجر، فتح الباري (٧/ ٣٣١)، والبيهقي، دلائل النبوة (٣/ ١٨٠- ١٨١).

فتحصَّنوا فأمر بقطع النخيل والتحريق، وذكر ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ- أنه حاصرهم ست ليال، وكان ناس من المنافقين بعثوا إليهم أن اثبتوا وتمنَّعوا، فإن قُوْتِلْتُمْ قاتلنا معكم، فتربصوا فقذف الله في قلوبهم الرعب فلم ينصروهم، فسألوا أن يُجْلَوا عن أرضهم علىٰ أن لهم ما حملت الإبل فَصُوْلِحُوا علىٰ ذلك(١)، وبذلك قضىٰ الله علىٰ هذه الفئة من اليهود.

أما يهود بني قريظة فسيأتي الحديث عنهم -إن شاء الله تعالىٰ- بعد الحديث عن غزوة الأحـزاب؛ لارتباط غزوة الأحـزاب بغزوة بني قريظة.

الفوائد من هذا المقطع من السيرة النبوية:

الأولىٰ: من هذه المعاهدة التي كتبها الرسول ﷺ مع اليهود ندرك أن الإسلام تشريع كامل؛ فهو كما نظَّم علاقة المسلم بربه، فهو أيضًا يُنظِّم علاقة المسلم بأخيه المسلم وعلاقة المسلم بمن معه في المجتمع سواء داخل المجتمع الإسلامي أم خارجه.

وهذه المعاهدة التي بادر إليها الرسول ﷺ ردّ عمليّ علىٰ أولئك الذين يريدون أن يحصروا الإسلام في نطاق العبادات التي تُؤَدَّىٰ في المسجد دون أن يكون للإسلام أيّ تأثير علىٰ تنظيم الحياة وشؤونها.

الثانية: لقد وادع الرسول ﷺ اليهود في المدينة وعاهدهم وأقرهم علىٰ دينهم وأموالهم، واشترط عليهم وشرط لهم، وإن هذه الوثيقة التي نقلنا جزءًا منها وضعها النبي ﷺ منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا، وهي وثيقة جديرة بالإعجاب، قرر الرسول ﷺ فيها حرية العقيدة لغير المسلمين، وحرمة المدينة، وحرمة الحياة، وحرمة المال، وبذلك سبق الإسلام إلىٰ تقرير حقوق الإنسان، ورعايتها وحفظها، والمحافظة عليها.

---

(١) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٣٣١).

فبمقتضىٰ هذه الوثيقة أصبحت المدينة بلدًا آمنًا، وأصبح كل المسلمين واليهود في أمن من الجانب الآخر، وأصبح اليهود مُلْزَمِينَ بمعاونة المسلمين إذا ما دهَم المدينةَ عدوٌّ، وعدم مساعدة المشركين ومناصرتهم[1].

الثالثة: في هذه الوثيقة نجد سماحة[2] الرسول ﷺ مع اليهود بأن وادعهم وتركهم في ديارهم آمنين، دون تعرُّض لمعتقداتهم أو أموالهم، وهو يقرر مبدأ السماحة الذي سلكه الإسلام عمومًا حينما احترم الذميين، وقرر لهم الحياة المطمئنة الآمنة في بلاد المسلمين، وهذا لا يجده المسلمون الذين يكونون أقليات في بلاد الكفر، وأخبار معاناة إخواننا المسلمين في تلك البلاد من تضييق عليهم في معيشتهم وتعليمهم تصمّ الآذان، بل نجد من هؤلاء الأعداء من يتدخل حتىٰ في أسماء أولاد المسلمين، ويمنعهم من التسمية بأسماء إسلامية، وشواهد ذلك تتجدد كثيرًا في تلك المجتمعات.

الرابعة: وفاء الرسول ﷺ بالعهد الذي التزم به لليهود ولغيرهم، وهذا ما عُرف به الرسول ﷺ، وهو كذلك ما أكَّد عليه القرآن الكريم وحديث المصطفىٰ ﷺ، قال -تعالىٰ-: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ [النحل:٩١]، وقال ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتىٰ يدعها، إذا اؤْتُمِنَ خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[3].

الخامسة: خُبْث اليهود وسوء طويتهم وعداوتهم الشديدة للإسلام والمسلمين، فلم يمضِ علىٰ المعاهدة وقت يسير إلا وهم ينقضون العهد ويخونون الله ورسوله، ولم يكتفِ اليهود بالكلام، بل تجاوزوه إلىٰ العداء العملي[4]؛ حيث تآمروا علىٰ قتل

---

(١) انظر: أبو شهبة، السيرة النبوية (٢/ ٥٩- ٦٠).

(٢) انظر: د. مهدي رزق الله، السيرة النبوية (ص ٣١٨).

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري لابن حجر (١/ ٨٩) رقم (٣٤).

(٤) انظر: محمد عزة دروزة، سيرة الرسول ﷺ (٢/ ١٨٧).

الرسول ﷺ، وأبطل الله -سبحانه وتعالىٰ- كَيْدهم وتآمرهم علىٰ حياة الرسول ﷺ، وسعوا إلىٰ الوقيعة بين الأوس والخزرج، واعتدوا علىٰ حرمات المسلمين[1].

السادسة: في اعتداء اليهود علىٰ المرأة، ومحاولة كشف وجهها، ثم ما ترتب علىٰ ذلك من غيرة المسلم علىٰ أخته المسلمة، وما تلا علىٰ ذلك من محاصرة الرسول ﷺ لليهود وإجلائهم، يدلنا هذا علىٰ مكانة المرأة في الإسلام، ورفعتها وتميز مقامها فلا يُقبل أن تمسّ بسوء، وعندما جرىٰ التعرض لها انتصر لها المسلمون، وأخرجوا القبيلة التي تلبست بهذا السلوك السيئ، فأي رفعة وأي مكانة يمكن أن تجدها المرأة في غير هذا الدين الإسلامي الكريم؟

السابعة: أهمية الحجاب للمرأة، فهذه المرأة تمسَّكت به ولم ترضَ أن تتخلَّىٰ عنه عندما حاول اليهود نزعه، وهم الآن يسعون بكل جهودهم ومكرهم؛ لكي ينزعوا حجاب المرأة، وقد انخدع بهم بعض الناس ممن لم يدرك أهمية الحجاب للمرأة، وأنه صيانة لها وتكريم قبل كل شيء[2].

الثامنة: تدل قصة بني قينقاع علىٰ حقد دفين في صدور اليهود علىٰ المسلمين لم يتمكنوا من كظمه وهم يرون انتصار المسلمين في بدر وهزيمة الكفار، فتجلىٰ ذلك في تلك التصرفات الحاقدة الآثمة، سواء بمحاولة قتل الرسول ﷺ أو محاولة الإخلال بالأمن والاعتداء علىٰ الحرمات.

التاسعة: إن اليهود هم أول مَن اصطدم مع الرسول ﷺ بعد الهجرة، ولعل من الدلائل علىٰ أنهم أول من اصطدم مع النبي ﷺ ما جاء في الآيات الأولىٰ من سورة البقرة التي هي من أول السور المدنية في ترتيب النزول، والتي يُحتمل جدًّا أن تكون هذه الأولية لها بسبب فصلها الأول الذي منه آيات المنافقين، والتي جاء

---

(١) انظر: أبو شهبة، السيرة النبوية (٢/ ٦٠).

(٢) انظر: زيد بن عبد الكريم الزيد، كيف أنصف الإسلام المرأة، (من ص ٤٣- ٥٢).

فيها: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة:١٤]؛ فقد قال جمهور المفسرين: (إن شياطينهم هم اليهود[١]، ويدل هذا على أن اليهود هم الذين أغروا المنافقين بالنفاق أو شجعوهم في مواقف الخداع، وعلى أن النبي ﷺ والمسلمين لم يغب عنهم ذلك)[٢].

العاشرة: من موقف اليهود وموقف المشركين من قبل ومن بعد، يمكن أن نستجلي صورة عامة لكل من هؤلاء وهؤلاء، تجاه الرسول ﷺ والرسالة، فقد كانت (نظرة هذين الفريقين للنبي العربي الجديد؛ فبينما كان العرب على استعداد للقبول بالشخص كانوا يرفضون رسالته، أما اليهود فكانوا يقبلون الرسالة، ولكن يرفضون صاحبها العربي، ولم يكونوا على استعداد لقبول نبي يأتي من خارج الشعب المختار؛ على زعمهم)[٣]، وكلا الأمرين كفر صريح، لا قيمة لأيّ عمل بعده، وهو تفريق بين جُزْئَيْ شهادة التوحيد (لا إله إلا الله) و(محمد رسول الله).

الحادية عشرة: نرى في مواقف اليهود أنهم كانوا يتعاونون مع المنافقين[٤]، وكان كل فريق يسعى لتثبيت الفريق الآخر ونُصرته على المسلمين، ولهذا ينبغي أن تعي الأمة الإسلامية أن الكفر ملة واحدة، سواء كانوا يهودًا أو نصارى أو منافقين أو ملاحدة أو وثنيين؛ فالأهداف متفقة والغاية واحدة؛ وهي حرب هذا الدين والكيد لأصحابه.

الثانية عشرة: نجد في قصة بني قينقاع الفارق بين عبد الله بن أبي ابن سلول -زعيم المنافقين- الذي جاء ينتصر لليهود ويواليهم ويدافع عنهم، وموقف

---

(١) انظر: الطبري، تفسير الطبري (١/ ١٣٠).
(٢) محمد عزة دروزة، سيرة الرسول ﷺ (٢/ ١٢١).
(٣) كامل الشريف، حقوق الإنسان في صحيفة المدينة (١/ ٦٣)؛ بحث منشور ضمن كتاب حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي، الرياض، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية ١٤٢٢هـ)، وما بين قوسين صغيرين نقله الباحث عن كاتب غربي.
(٤) انظر: عبد العزيز الحميدي، المنافقون في القرآن الكريم (ص ٨٩).

الصحابي الجليل عبادة بن الصامت ﷺ وكان من بني عوف بن الخزرج، وله مثل حلف عبد الله بن أبي، ومع ذلك جاء إلىٰ الرسول ﷺ وخلعهم وتبرأ منهم. و(الفرق واضح بين عبد الله بن أبي الذي أُشْرِبَ قلبُه النفاقَ وبين عبادة بن الصامت ﷺ الذي صقلته التربية المحمدية، وخلصته من آثار العصبية الجاهلية والأهواء والمصالح الشخصية، فنظر إلىٰ مصلحة العقيدة وقدّمها علىٰ مصالحه الخاصة، فكان مثلًا للمؤمن الواعي الملتزم)[1].

والولاية بين المسلمين وغير المسلمين ممنوعة ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران:٢٨]، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (إنه لا يوجد مؤمن يُوَادُّ كافرًا، فمن وَادَّ كافرًا فليس بمؤمن)[2].

فلا يجوز للمسلم أن يوالي غيرَ المسلمِ ويُوَادَّه ويحبَّه ولو كان أقرب الناس إليه، أما حسن المعاملة فمطلوب[3]، بل قد يكون من الدعوة إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-.

الثالثة عشرة: في قصة بني النضير الذين أرادوا قتل الرسول ﷺ ومجيء الخبر بالوحي من السماء يُعلِم الرسول ﷺ بذلك، آية للرسول ﷺ من ضمن الآيات التي أيّد الله -جل شأنه- بها الرسول ﷺ، وهي أيضًا مصداق لقول الله -تعالىٰ-: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة ٦٧].

(١) أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٠٢).
(٢) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٤٩٠)، قال هذا القول تعليقًا على قول الله -تعالى-: (لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم) الآية، وانظر أيضًا: د/ عبد العزيز الحميدي، المنافقون في القرآن الكريم (ص ٩٣).
(٣) انظر: محمد بن سعيد القحطاني ، الولاء والبراء في الإسلام (ص ٣٥٢- ٣٥٣).

الرابعة عشرة: من مجيء الرسول ﷺ إلىٰ يهود بني النضير يستعين بهم في دية القتيلَيْنِ نأخذ جواز أخذ الإعانات والتبرعات المالية فقط من غير المسلمين إذا كان جانبهم مأمونًا، ولا يلحق المسلمين ضرر بذلك(١).

الخامسة عشرة: لقد أدىٰ إجلاء بني النضير بعد إجلاء بني قينقاع إلىٰ كسر شوكة اليهود والمنافقين في المدينة؛ حيث جددت قريظة المعاهدة مع المسلمين خلال حصار بني النضير وأظهرت رغبتَها في المحافظة علىٰ العهد.

وقوي كيان الإسلام بالتخلص من بني النضير والاستفادة من أراضيهم بإقطاعها للمهاجرين الذين كانوا يعتمدون في سكناهم علىٰ أراضٍ وبيوت للأنصار(٢).

السادسة عشرة: ربطت الآيات القرآنية الكريمة بين اليهود المعاصرين للرسول ﷺ والسابقين، في سوء الأخلاق والمكر وعدم التناهي عن الإثم والمنكر، واستحقاقهم لعنة الله علىٰ ذلك؛ جريًا علىٰ الأسلوب القرآني الذي يستهدف إلىٰ تقرير أن ما عليه المعاصرون من أخلاق وما يتجلىٰ منهم من مواقف إنما هو جِبِلّة متوارثة عن الآباء(٣) انتقلت إلىٰ الأجيال من بعدهم جيلاً بعد جيل، وهو ما نراه اليوم من اليهود المعاصرين لنا الذين يحتلون فلسطين، ويُدنّسون حرمة بيت المقدس، ويعتدون علىٰ حرمات المسلمين وديارهم وأموالهم، قال -تعالىٰ-: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ تَرَىٰ

(١) انظر: قرار المجمع الفقهي الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي رقم (٦) في دورته العاشرة عام ١٤٠٨هـ، قرارات مجمع الفقه الإسلامي، (مكة: رابطة العالم الإسلامي د. ت)، (ص ٢٢٥).
(٢) انظر: أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة (ص٣١٠- ٣١١).
(٣) انظر: محمد عزة دروزة، سيرة الرسول ﷺ (٢/ ١٨٥- ١٨٦).

كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨-٨٢][١].

السابعة عشرة: تعطينا هذه الأحداث بجملتها مجموعة من العِبَر والعظات التي يجب التبصر بها، والعمل بما تُمليه علينا من سلوك نسلكه في مواجهة اليهود في كل عصر، والأمة الإسلامية في عصرها الحاضر في حاجة مُلحَّة إلىٰ أن تستفيد من تجارب مَن سبقها بعظات هذه التجارب؛ كي لا تتعثر في خطواتها وتُصاب بالغشاوة في مسيرتها [٢].

الثامنة عشرة: بإجلاء الرسول ﷺ لليهود من المدينة بعد نقضهم لتلك الوثيقة ينتهي أثرها وتصبح لاغية لا قيمة لها، وهو ما أكده حديث الرسول ﷺ عندما أمر بإخراج اليهود من جزيرة العرب في آخر حياته ﷺ[٣].

التاسعة عشرة: يتبادر إلىٰ القارئ سؤال مهم، وهو يرىٰ اطلاع أهل الكتاب وعلمهم بالبعثة النبوية، وصدق الرسول ﷺ، ثم لم يستجيبوا له وبخاصة أحبارهم؟ والإجابة صريحة في كتاب الله، تشهد علىٰ حسد اليهود قال -تعالىٰ-: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم

(١) انظر: محمد ضياء الرحمن الأعظمي، اليهودية والمسيحية (ص ٩٢ - ٩٧).
(٢) انظر: عبد الرحمن بن حنبكة الميداني، مكايد اليهود (ص ١٢٦).
(٣) حديث أخرجه الإمام أحمد في المسند (١/ ١٩٥)، وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٣٢٥): رواه أحمد بأسانيد ورجال طريقين منها ثقات متصل إسنادهما.

مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [البقرة:١٠٩][(١)].

والحسد داء بُلِيَتْ به الأمم والأفراد، وحال بين كثير من الناس واتباع الحق، وأدىٰ بهم إلىٰ رد كثير من الخير، والوقوع في المعاصي عن قصد وتعمُّد، ولم يقتصر هذا الأمر علىٰ الكفار، بل هو واقع حتىٰ بين المسلمين مع أنه من أشد الذنوب، يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (فالكبائر كالرياء والعجب والكبر والفخر... والفرح والسرور بأذىٰ المسلمين والشماتة بمصيبتهم ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم وحسدهم علىٰ ما آتاهم الله من فضله وتمني زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريمًا من الزنا وشرب الخمر وغيرها من الكبائر الظاهرة)[(٢)].

والمؤمن يأخذ العِبْرة والعظة من غيره، فلا يحول الحسد بينه وبين شيء من الحق، ولا يقع في مزلة الحسد الذي هو ذنب من أعظم الذنوب التي يرتكبها القلب، وفي غفلة عما يدل عليه من الاعتراض علىٰ الله -سبحانه- في تقديره، وجهل بأثر ذلك علىٰ السلوك والتعامل.

العشرون: في عداوة اليهود الشديدة للرسول ﷺ نجد فيها مصداقًا؛ لقول الله -جل شأنه-: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ [المائدة:٨٢]؛ فإن النبي ﷺ رأىٰ من اليهود من العداوة والإيذاء ما لا يضاهيهم فيه إلا المشركون في مكة ومن سار معهم، واليهود اعتادوا علىٰ قتل الأنبياء والرسل ومعاندة الله في أمره ونهيه، وتحريف تنزيله الذي أنزله في كتبه[(٣)].

(١) انظر: سليمان بن حمد العودة، قضايا ومباحث في السيرة (ص٩٥).
(٢) ابن القيم، تهذيب مدارج الساكين (هذَّبه عبد المنعم بن صالح العلي العزي)، (ص٨٦).
(٣) انظر: الطبري، تفسير الطبري، تحقيق التركي (٨/ ٦٠٠).

هذا السلوك، في مقابل ما وجده الرسول ﷺ من نصارىٰ الحبشة من الإيواء والنصرة للصحابة الذين هاجروا إلىٰ الحبشة خوفًا من إيذاء المشركين في مكة، ولما أرسل الرسول كتبه إلىٰ الملوك ورؤساء الشعوب كان النصارىٰ من أحسنهم ردًّا، فهرقل ملك الروم في الشام حاول إقناع رعيته بقبول الإسلام فلم يستطع، فاكتفىٰ بالرد الحسن، وضَنّ بمُلْكه، والمقوقس عظيم القبط في مصر كان أحسن منه ردًّا، وإن لم يكن أحسن منه ميلًا للإسلام، وأرسل للنبي ﷺ هدية حسنة، ثم لما فُتِحَتْ الشامُ ومصرُ وعرف أهلها الإسلام، أسرعوا إلىٰ الدخول فيه[1].

وهذا إنصاف يُذْكَر، وإن كان النصارىٰ لهم نصيب من العداوة؛ كما قال -تعالىٰ-: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

(١) المراغي، تفسير المراغي (٧/ ٦).

المبحث الثالث

فقه السيرة في نزول بعض الأحكام التشريعية

تمهيد:

أمضىٰ الرسول ﷺ قرابة ثلاثة عشر عامًا في مكة يدعو إلىٰ الله، كان همه الوحيد وشغله الأول التوحيد «قولوا لا إله الله تفلحوا» يصبح ويُمسي كلّ يوم وهو يُنبّه الناس إلىٰ أن هذه الأصنام التي اتخذها الآباء والأجداد آلهة من دون الله، يرجونها ويخافونها، ويرجعون إليها في مهمات أمورهم، في السراء والضراء، لا تملك من أمرها شيئًا، فضلًا أن تملك لغيرها نفعًا أو ضرًّا.

هذه الأصنام بكل صورها سواء أكانت منحوتة، أو كانت أشجارًا يعتقدون فيها، أو مغارات يتبركون بها ويذبحون لغير الله عندها، أو لها، أو قبور أولياء -كقبر اللات الذي كان يُعْبَد من دون الله- يقدمون لها القرابين أو اعتقادات باطلة في بعض الملائكة، كلها شركيات، مضادة للتوحيد، وإشراك لها في أعظم حقّ خالص لله -سبحانه وتعالىٰ- وهو إفراده -سبحانه- بالعبادة.

واستمر علىٰ هذا الأمر يعرض نفسه علىٰ القبائل ويخرج إلىٰ الطائف يدعو إلىٰ التوحيد، يدعو الناس إلىٰ الرجوع إلىٰ ربهم الذي خلقهم ورزقهم يدعوهم إلىٰ أن يُفْرِدوه بالعبادة فلا يصرفوا شيئًا منها لغير الله -سبحانه وتعالىٰ-. حتىٰ قيَّض الله -جل شأنه- بفضله ومِنّته، الأوس والخزرج من أهل المدينة فاستجابوا له وبايعوه، فقَدِم إليهم، وأقام لهم مسجد قباء ثم المسجد النبوي، وصار هذا المسجد جامعة يتعلم فيها الناس التوحيد ويتفقهون في أمور دينهم، ويُكَوِّنُون فيما بينهم النموذج

الأمثل للمجتمع المسلم، واستعدت القلوب لتقبل التشريعات، والقلب إذا استنار وعرف طريقه وأسلم لربه، أصبح مهيَّأً لتقبُّل الأوامر والنواهي.

وفي هذا المبحث أقف مع عدد من الأحكام التي نزلت بعد استقرار الرسول ﷺ في المدينة:

أولًا: تشريع الأذان للصلاة:

قال -تعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٥٧ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٧-٥٨].

قال الزهري -رحمه الله تعالىٰ-: (قد ذكر الله تعالىٰ التأذين في كتابه فقال: ﴿وإذا ناديتم إلىٰ الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾) رواه ابن أبي حاتم[١].

قال القرطبي -رحمه الله تعالىٰ-: (ليس في كتاب الله تعالىٰ ذِكْر الأذان إلا في هذه الآية، أما إنه ذُكر في الجمعة علىٰ الاختصاص)[٢]، قال البيضاوي -رحمه الله تعالىٰ-: (وفيه دليل علىٰ أن الأذان مشروع للصلاة)[٣]. وقال ابن جزي -رحمه الله تعالىٰ-: (واستدل بعضهم بهذه الآية علىٰ ثبوت الأذان من القرآن)[٤].

عن نافع -رحمه الله تعالىٰ- أن ابن عمر -رضي الله تعالىٰ عنهما- كان يقول: (كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فَيَتَحَيَّنُوْنَ الصلاةَ، ليس يُنَادَىٰ لها،

---

(١) ابن كثير، (٣/ ١٤٠).
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٢٢٥).
(٣) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد المرعشلي، الطبعة الأولى (بيروت: دار إحياء التراث العربي ١٤١٨)، (٢/ ١٣٣).
(٤) ابن جزي، التسهيل (١/ ٢٣٦).

فتكلموا يومًا في ذلك فقال بعضهم: اتَّخِذُوا ناقوسًا(١) مثل ناقوس النصارىٰ، وقال بعضهم: بل بوقًا (٢) مثل قرن اليهود؛ فقال عمر: أوَلاَ تبعثون رجلاً ينادي بالصلاة؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا بلال قم فنادِ بالصلاة»(٣).

فصار بلال -رضي الله تعالىٰ عنه- ينادي بالصلاة، وهذا النداء هو مجرد إعلام بالصلاة، وليس النداء، أي الأذان الشرعي المخصوص؛ لأنه لم يُشْرَعْ بَعْدُ، قال النووي في شرحه لهذا: (قال القاضي عياض -رحمه الله تعالىٰ-: ظاهره أنه إعلام ليس علىٰ صفة الأذان الشرعيّ بل إخبار بحضور وقتها)(٤).

وقد أخرج ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ- في الطبقات عن سعيد بن المسيب -رحمه الله تعالىٰ- قال: (كان الناس في عهد النبي ﷺ قبل أن يُؤْمَر بالأذان ينادي منادي النبي ﷺ «الصلاةَ جامعةً» فيتجمع الناس)(٥).

ثم شُرِعَ الأذانُ (وبقي ينادىٰ في الناس: الصلاة جامعة؛ للأمر يحدث فيحضرون له، يخبرون به، مثل فتح يقرأ، أو أمر يؤمرون به؛ فينادىٰ: الصلاة جامعة، وإن كان في غير وقت صلاة)(٦).

وقد جاءت رؤيا الأذان كما في سنن أبي داود -رحمه الله تعالىٰ- عن ابن أبي ليلىٰ -رحمه الله تعالىٰ-: أُحِيْلَتْ الصلاةُ ثلاثَ أحوالٍ، قال: وحدثنا أصحابنا أن

(١) الناقوس: خشبة طويلة تُضرب بخشبة أصغر منها، والنصارىٰ يعلمون بها أوقات صلاتهم، ابن الأثير، غريب الحديث (٥/ ١٠٦).

(٢) البوق: شيء مجوف ينفخ فيه فيجتمعون عند سماع صوته، وهو من شعار اليهود، ابن حجر، فتح الباري (٢/ ٨١)، وابن حجر، هدي الساري مقدمة فتح الباري (ص٩٠).

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٢/ ٧٧)، كتاب الأذان (١٠)، باب بدء الأذان، وصحيح مسلم المطبوع مع شرح النووي (٤/ ٧٥ – ٧٦).

(٤) النووي، شرح صحيح مسلم (٤/ ٧٦)، وانظر: ابن حجر، فتح الباري (٢/ ٨١).

(٥) ابن سعد، الطبقات (١/ ٢٤٦).

(٦) ابن سعد، الطبقات (١/ ٢٤٧).

رسول الله ﷺ قال: «لقد أعجبني أن تكون صلاة المسلمين -أو قال «المؤمنين»- واحدة حتىٰ لقد هممت أن أبث رجالًا في الدور ينادون الناس حين الصلاة، وحتىٰ هممت أن آمر رجالًا يقومون علىٰ الآطام[1] ينادون المسلمين حين الصلاة) حتىٰ نقسوا[2] أو كادوا أن ينقسوا، قال: فجاء رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، إني لما رجعت لما رأيت من اهتمامك رأيت رجلًا كان عليه ثوبان أخضران، فقام علىٰ المسجد فأذن، ثم قعد قعدة، ثم قام فقال مثلها إلا أنه يقول: قد قامت الصلاة، ولولا أن يقول الناس. قال ابن المثنىٰ: أن تقولوا، لقلت إني كنت يقظانًا غير نائم فقال رسول الله ﷺ:-وقال ابن المثنىٰ-: لقد أراك الله -عز وجل- خيرًا. ولم يقل عمرو: لقد أراك الله خيرًا. فمر بلال فليؤذن. قال فقال عمر: أما أني قد رأيت مثل الذي رأىٰ ولكن لما سُبِقْتُ استحييتُ)[3].

عن أبي عمير بن أنس، عن عمومة له من الأنصار، قال: (اهتم النبي ﷺ للصلاة كيف يجمع الناس لها، فقيل له: انصب راية عند حضور الصلاة، فإذا رأوها آذن بعضهم بعضًا، فلم يعجبه ذلك، فذُكِرَ له القنعُ يعني الشَّبُّور[4]، وقال زياد: شَبُّور اليهود فلم يعجبه ذلك، وقال: «هو من أمر اليهود»، قال: فذُكِرَ له الناقوسُ، فقال: «هو من أمر النصارىٰ»؛ فانصرف عبد الله بن زيد وهو مهتمّ لِهَمِّ رسولِ الله ﷺ، فأُرِيَ الأذانَ في منامه، قال: فغدا علىٰ رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: يا رسول الله، إني

(١) الآطام: جمع أطم وهو بناء مرتفع، وآطام المدينة: حصون كانت لأهلها.

(٢) نقسوا: أي ضربوا بالناقوس.

(٣) أخرجه أبو داود وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١/ ١٠٢)، حديث رقم (٤٧٨).

(٤) القنع: قال ابن الأثير: هذه اللفظة قد اختُلف في ضبطها، فرويت بالباء والتاء والثاء والنون، وأشهرها وأكثرها النون. والشبور: بفتح الشين وضم الباء المشددة وفي رواية للبخاري (بوقة)، وفي رواية لمسلم والنسائي (قرنًا)، وهذه الألفاظ الأربعة (القنع، والشبور، والبوقة، والقرن) بمعنى واحد، وهو الذي يُنْفَخ فيه؛ ليخرج منه صوت)، وانظر: ابن حجر، فتح الباري (٢/ ٨١).

لَبَيْنَ نائمٍ ويقظانَ، إذ أتاني آتٍ فأراني الأذانَ، قال: وكان عمر بن الخطاب قد رآه قبل ذلك، فكتمه عشرين يومًا، قال: ثم أخبر النبي ﷺ فقال له: «ما منعك أن تخبرني؟» فقال: سبقني عبد الله بن زيد فاستحييتُ، فقال الرسول ﷺ: «يا بلال قم فانظر ما يأمرك به عبد الله بن زيد فافعله» قال: فأذَّن بلال».

قال أبو بشر: (فأخبرني أبو عمير: أن الأنصار تزعم أن عبد الله بن زيد لولا أنه كان يومئذ مريضًا لجعله رسول الله ﷺ مؤذِّنًا)[1].

وعن عبد الله بن زيد -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: لما أمر الرسول ﷺ بالناقوس يُعمَل ليضرب به للناس لجمع الصلاة، طاف بي وأنا نائم رجل يحمل ناقوسًا في يده؛ فقلتُ: يا عبد الله، أتبيع الناقوسَ؟ قال: وما تصنع به؟ فقلتُ: ندعو به إلىٰ الصلاة، قال: أفلا أدلّك علىٰ ما هو خير من ذلك؟ فقلتُ: بلىٰ، قال: فقال: تقول: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، حي علىٰ الصلاة، حي علىٰ الصلاة، حي علىٰ الفلاح، حي علىٰ الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله.

قال: ثم استأخر عني غير بعيد، ثم قال: وتقول إذا أقمتَ الصلاةَ: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، حي علىٰ الصلاة، حي علىٰ الفلاح، قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، فلما أصبحتُ أتيتُ رسولَ اللهِ ﷺ فأخبرتُه بما رأيتُ، فقال: «إنها لرؤيا حقٍّ إن شاء الله، فقم مع بلال فألق ما رأيتَ فيؤذِّن به، فإنه أندىٰ صوتًا منك»؛ فقمتُ مع بلال، فجعلتُ ألقيه ويؤذِّن به، قال: فسمع ذلك عمرُ بنُ الخطَّاب وهو في بيته، فخرج يجرُّ رداءَه ويقول: والذي بعثك بالحق يا رسولَ اللهِ لقد رأيتُ مثلَ ما أُرِيَ، فقال رسول

(١) أخرجه أبو داود وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١/ ٩٨) رقم (٤٦٨).

الله ﷺ: «فلله الحمد»[1].

وقال فيه ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ- عن الزهري -رحمه الله تعالىٰ-: (الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر)[2].

هكذا شُرِعَ الأذانُ، فقد كانت الصلاة في البداية بدون نداء، ثم النداء لها بلفظ الصلاة جامعة، ثم بهذه الكيفية المخصوصة؛ قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (والظاهر أن إشارة عمر بإرسال رجل ينادي للصلاة كانت عقب المشاورة فيما يفعلونه، وأن رؤيا عبد الله بن زيد كانت بعد ذلك، والله أعلم)[3].

وكان تشريع الأذان بهذه الكيفية الأخيرة في السنة الأولىٰ من الهجرة، قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- في الفتح: (واخْتُلِفَ في السنة التي فُرِضَ فيها، فالراجح أن ذلك كان في السنة الأولىٰ، وقيل: بل كان في السنة الثانية)[4]، وفي الطبقات لابن سعد -رحمه الله تعالىٰ- أن بلالًا ﵁ زاد في الأذان لصلاة الصبح: (الصلاة خير من النوم)؛ فأقره رسول الله ﷺ وليست فيما أري الأنصاري[5].

الفوائد المأخوذة من تشريع الأذان للصلاة:

الأولىٰ: لقد خصَّ الله -جل شأنه- هذه الأمة بعدة خصائص، ومن هذه الخصائص الأذان، الذي هو شعيرة من شعائر المسلمين تُرفع علىٰ مسامع الناس

(١) أخرجه أبو داود: صحيح سنن أبي داود للألباني (١/ ٩٩) رقم (٤٦٩)، وقال عنه الألباني: حسن صحيح.
(٢) وصحَّح هذه الروايةَ الألباني، وقال: الأصح تربيع التكبير (هامش المرجع السابق).
(٣) ابن حجر، فتح الباري (٢/ ٨١)، وانظر: النووي، شرح صحيح مسلم (٤/ ٧٦).
(٤) ابن حجر، فتح الباري (٢/ ٧٨).
(٥) ابن سعد، الطبقات (١/ ٢٤٨)، وابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ٢٢٣)، وعبد الرحمن بن قاسم، الدرر السنية (٤/ ٢٠٧)، والغزالي، فقه السيرة (ص ١٩٠) بتعليق الألباني حيث قال: (إن معنى الحديث صحيح، فإن له شواهد كثيرة... منها عن أنس ﵁ أخرجه الدارقطني والطحاوي والبيهقي (١/ ٤٢٣) وقال: إسناده صحيح.

أجمعين في اليوم خمس مرات، تبث في قلوب المسلمين الطمأنينة، وتذكّرهم بسبيل الهداية وتدعوهم إلىٰ فلاحهم، وفي الوقت ذاته، فإن الأذان دعوة لغير المسلمين إلىٰ الاستجابة لنداء الله وتعظيمه وتوحيده واتباع رسوله والاستجابة لهذا النداء والدخول في الإسلام.

الثانية: الأذان شعار يُعلن عالمية الدعوة إلىٰ الله؛ فهو يطرق مسامع الجميع ويدعوهم إلىٰ الله، لا نجد في كلمات الأذان تخصيص أناس بالدعوة، بل الجميع مدعوون للتوحيد، والصلاة والفلاح.

الثالثة: الأذان شرعًا: الإعلام بوقت الصلاة بألفاظ مخصوصة، قال أبو العباس القرطبي -رحمه الله تعالىٰ-: (واعلم أن الأذان علىٰ قلة ألفاظه مشتمل علىٰ مسائل العقيدة؛ وذلك أنه -عليه الصلاة والسلام- بدأ بالأكبرية، وهي تتضمن وجود الله -تعالىٰ- ووجوبه وكماله، ثم ثنَّىٰ بالتوحيد، ثم ثلَّث برسالة رسوله، ثم ناداهم لما أراد من طاعته، ثم ضَمِن ذلك بالفلاح وهو البقاء الدائم، فأشعر بأن ثَمَّ جزاء، ثم أعاد ما أعاد توكيدًا)[1].

الرابعة: ليس الهدف من الأذان الدعوة إلىٰ الصلاة فحسب؛ بل قبل الصلاة الدعوة إلىٰ التوحيد، قبل الصلاة، يا أخي عظّم الله، بل أَفْرِد الله ووحّده بالعبادة، ووحِّد محمدًا ﷺ بالاتباع قبل أن تذهب تصلي راجِع توحيدك، لا تذهب للمسجد وقلبك معلّق بالضريح أو بفلان أو علان، كلهم لا يملكون من فلاحك شيئًا، سوءا أكانوا كبراء في هذه الدنيا، أو أولياء صالحين، فصلاحهم لهم، ولا يملكون لك صلاحًا ولا فلاحًا، سيد الأولياء بل سيد الأولين والآخرين يقول عن نفسه: ﴿**قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ [الأعراف:١٨٨]، وقال -تعالىٰ-:

(١) أبو العباس القرطبي، المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم تحقيق محيي الدين ميستو وزملاؤه، الطبعة الأولى، (دار ابن كثير: دمشق ١٤١٧)، (٢/ ١٤).

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان:٣]؛ فالفلاح لن تجده إلا عند الله -جل شأنه-، وطريق هذا الفلاح هو اتِّباع محمد ﷺ، هذا هو عزك وشرفك.

الله -جل شأنه- نادانا بنداء التوحيد، وفتح لنا أبواب بيته لنلجأ إليه وندعوه ونستغفره، فكيف تتعلق القلوب وتتجه وتذهب إلىٰ أبواب غيره؟!

الخامسة: كما أن من حكمة الأذان للصلاة: الإعلام بدخول الوقت، والدعوة للصلاة، فهو إظهارٌ لشعائر الإسلام[١]، قال النووي: (وذكر العلماء في حكمة الأذان أربعة أشياء: إظهار شعائر الإسلام وكلمة التوحيد والإعلام بدخول الوقت وبمكانها والدعاء إلىٰ الجماعة، والله أعلم)[٢].

السادسة: الحكمة من اختيار القول للنداء للصلاة دون الفعل؛ لسهولة القول وتيسره لكل أحد في كل زمان ومكان[٣].

السابعة: لعِظَم مكانة الأذان كان فضله وأجره عظيمًا: فعن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا»[٤]. وقد عرف الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- فضل هذا النداء، فقد أخرج البيهقي -رحمه الله تعالىٰ- عن ابن شبرمة -رحمه الله تعالىٰ- قال: (تشاجر الناس في الأذان بالقادسية؛ فاختصموا إلىٰ سعد بن وقاص -رضي الله تعالىٰ عنه- فأقرع بينهم)[٥].

---

(١) انظر: المرجع السابق.
(٢) النووي، شرح صحيح مسلم (٤/ ٧٧).
(٣) انظر: المرجع السابق.
(٤) صحيح البخاري (١/ ١٢٦) رقم (٦١٥)، وصحيح مسلم (١/ ٣٢٥) رقم (٤٣٧).
(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١/ ٦٣٠) رقم (٢٠١٣)، وذكره البخاري معلقًا في صحيحه (١/ ١٢٦) باب الاستهام في الأذان.

الثامنة: لعظم الكلمات التي يرفعها المؤذنون، والأمر الذي يدعون إليه، وأثرها في الناس، ورد في فضلهم أنهم أطول الناس أعناقًا يوم القيامة، عن معاوية -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المؤذنون أطول الناس أعناقًا يوم القيامة»[1]. وقد وردت عدة معانٍ لقوله: «أطول الناس أعناقًا»؛ فمنهم من قال: إنه طول حقيقي؛ لأن الناس في ذلك اليوم يُلجمهم العرق، والمؤذنون أطولهم أعناقًا حينئذ. ومنهم من قال المراد كونهم سادة ورؤساء؛ لأن العرب تصف السادة بطول الأعناق، وغير ذلك من المعاني التي تدل علىٰ رفعة مكانة المؤذنين[2].

التاسعة: ورد في فضل الأذان، والحث عليه، حتىٰ ولو كان الشخص بمفرده في الصحراء عن عبد الله بن أبي صعصعة الأنصاري -رضي الله تعالىٰ عنه-، أن أبا سعيد الخدري -رضي الله تعالىٰ عنه- قال له: «إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك، أو باديتك، فأذَّنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع مدىٰ صوت المؤذن، جنّ ولا إنس ولا شيء، إلا شهد له يوم القيامة»؛ قال أبو سعيد: سمعته من رسول الله ﷺ[3]. ومثله حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤذِّن يُغْفَرُ له مدىٰ صوته، ويشهد له كل رطب ويابس»[4].

العاشرة: لكون الأذان دعوة للتوحيد وتعظيم الله -جل شأنه- يفرّ منه الشيطان، ويسعىٰ لتغطية صوت الأذان أثناء فراره بالضراط؛ لأنه لا يُطيق سماع كلمة التوحيد، فعن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «إذا نُودِيَ للصلاة أدبَر الشيطان، وله ضراط، حتىٰ لا يسمع التأذين، فإذا قضىٰ النداء أقبل، حتىٰ إذا ثوّب

(١) صحيح مسلم (١/ ٢٩٠) رقم (٣٨٧).
(٢) انظر: إبراهيم الأحمدي الدمرداشي، تحفة الخلان في أحكام الأذان، الطبعة الثانية (الكويت، وزارة الأوقاف الكويتية ١٤٣١)، (ص٣٩-٤٠).
(٣) صحيح البخاري (١/ ١٢٥) رقم (٦٠٩).
(٤) أخرجه أبو داود في سننه وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١/ ١٠٤) رقم (٤٨٤).

بالصلاة أدبر، حتىٰ إذا قضىٰ التثويب أقبل، حتىٰ يخطر بين المرء ونفسه، يقول: اذكر كذا، اذكر كذا، لما لم يكن يذكر حتىٰ يظل الرجل لا يدري كم صلىٰ»[1].

فالشيطان يؤذيه ويؤلمه صوت الأذان؛ فلا يملك إلا الفرار والابتعاد، ومحاولة تغطيته بصوت ضراطه. تأمل كيف أن الشيطان يولّي وله ضراط فرارًا من سماع الأذان، واستحضِرْ معه تشريع متابعة المؤذن وهو يؤذن، وقَوْل مثل ما يقول؛ تُدْرِك مكانة هذا النداء، خاصةً إذا تذكرتَ الوعد العظيم الذي وعده الرسول ﷺ لمن تابع المؤذن وقال مثل ما يقول، ثم صلىٰ علىٰ المصطفىٰ ﷺ. مما سأشير إليه في الفائدة الآتية.

واستَحْضِرْ أنه ورد النهي عن الخروج من المسجد بعد الأذان؛ فعن أبي الشعثاء -رحمه الله تعالىٰ- قال: كنا قعودًا في المسجد مع أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- فأذن المؤذّن، فقام رجل من المسجد يمشي فأتبعه أبو هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- بصره حتىٰ خرج من المسجد، فقال أبو هريرة: (أما هذا، فقد عصىٰ أبا القاسم ﷺ)[2]؛ لما في ذلك من مشابهة الشيطان فيما يفعله عند النداء.

الحادية عشرة: إن فضل النداء يمتدّ لينال سامِع الأذان ومتابعه، ولذلك شُرِع متابعة المؤذن، ووعد الرسول ﷺ بالأجر العظيم علىٰ ذلك، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله تعالىٰ عنهما- أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عليَّ، فإنه من صلَّىٰ عليَّ صلاةً صلَّىٰ اللهُ بها عشرًا، ثم سَلُوا اللهَ -عز وجل- لِيَ الوسيلةَ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله -تعالىٰ-، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل اللهَ لي الوسيلةَ حَلَّتْ عليه الشفاعةُ»[3].
وعن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالىٰ عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين

(١) صحيح البخاري (١/ ١٢٥) رقم (٦٠٨)، صحيح مسلم (١/ ٢٩١) رقم (٣٨٩).
(٢) صحيح مسلم (١/ ٤٥٣) رقم (٦٥٥).
(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (١/ ٢٨٨) رقم (٣٨٤).

يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة آت محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة»[١].

الثانية عشرة: في الأذان وفضله وتعظيمه دلالة علىٰ أهمية صلاة الجماعة؛ فقد اهتم الرسول ﷺ بجمع الناس وحضورهم صلاة الجماعة، وعدم التأخر عنها، وشغله البحث عن وسيلة مناسبة لذلك حتىٰ تم تشريع هذا النداء لها، وواجب المسلم اليوم أن يبادر إلىٰ الاستجابة لهذا النداء، ويشارك المسلمين هذه الصلاةَ العظيمةَ التي هي الركن العملي الأول من أركان الإسلام.

الثالثة عشرة: إن الرسول ﷺ لما أَهَمَّه أمرُ الأذانِ واستشار الناسَ، عُرِضَتْ عليه بعضُ الآراءِ، ولكنه ردَّها؛ لأن فيها تشبُّهًا باليهود أو النصارىٰ، فما فيه تشبُّه باليهود أو النصارىٰ يجب علىٰ المسلم أن يدعه، ويحذر منه، ولو لم يكن قاصدًا التشبُّه.

الرابعة عشرة: إن قيل: إن مستند الأذان الرؤيا، مع أن الأحكام الشرعية لا تثبت برؤيا غير الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-؛ فيجاب بأن مستند تشريع الأذان إقرار الرسول ﷺ لذلك، وقوله ﷺ «إنها لرؤيا حقٍّ إن شاء الله».

الخامسة عشرة: أما عن الحكمة من تشريع الأذان برؤيا بعض الصحابة فقال العلماء: (الحكمة من ابتداء شرع الأذان علىٰ لسان غير النبي ﷺ التنويهُ بعُلُوِّ قدره علىٰ لسان غيره؛ ليكون أفخمَ لشأنه، والله أعلم)[٢].

السادسة عشرة: في الأذان درس في مشروعية مراعاة المصالح العامة؛ لأنه لما لاحظ الرسول ﷺ أنه يشق علىٰ الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- معرفة وقت إقامة الصلاة، فقد يأتي شخص مبكرًا، ويشق عليه الانتظار، أو يتأخر فتفوت عليه صلاة الجماعة. ولذلك فمن المشروع مراعاة أحوال الناس، بمعنىٰ أنه يُشرع لولي

---

(١) صحيح البخاري (٦/ ٨٦) رقم (٤٧١٩).

(٢) ابن حجر: فتح الباري (٢/ ٨٢).

الأمر تنظيم أمور المسلمين بما يرفع المشقة عنهم، كمواعيد إقامة الصلاة، ومواعيد العمل، ومواعيد التعليم، ونحو ذلك.

كما أنه من المشروع للشخص أن يلاحظ رعاية مصالح مجتمعه فيما له صلة به، فما ترتبط به مصالح إخوانه، ويشق عليهم انتظاره، وهو مطلوب حضوره، أن يبادر بالحضور في الموعد المتفق عليه، مثل دعوة الولائم والسفر الجماعي، والاجتماعات، ونحو ذلك.

السابعة عشرة: إن رفع الأذان بهذه الصورة سهَّل ويسَّر لجميع أفراد المجتمع حتىٰ النساء في البيوت، تقسيم أعمالهم اليومية، فعند المسلمين، ينقسم اليوم إلىٰ خمسة أجزاء، من أذان الفجر إلىٰ الظهر، ثم ما بين الظهر والعصر، وما بعد العصر إلىٰ المغرب، ثم ما بعد المغرب إلىٰ أذان العشاء، ثم ما بعد العشاء إلىٰ أذان الفجر، وقد اعتاد المسلمون أن لكل جزء من هذه الأوقات ما يناسبه من العمل أو الراحة أو تبادل الزيارات، وهو تقسيم علني يتكرر يوميًّا.

وقد تحدث بهذا المعنىٰ أحد النصارىٰ المجاورين لأحد المساجد في أمريكا، وطالب باستمرار الأذان عبر الميكرفون الخارجي، لما اعترض علىٰ ذلك بعض الأشخاص، وقال: إنه قسَّم يومه وفق أوقات هذا الأذان.

الثامنة عشرة: أخرج الطبري في تفسيره عند قوله -تعالىٰ-: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة:٥٨]، عن السدي -رحمه الله تعالىٰ- قال: (كان رجل من النصارىٰ بالمدينة إذا سمع المنادي ينادي (أشهد أن محمدًا رسول الله) قال: (حُرِقَ الكاذبُ)؛ فدخلت خادمة ذات ليلة من الليالي بنار وهو نائم وأهله نيام، فسقطت شرارة، فأحرقت البيتَ، فاحترق هو وأهله)[١].

(١) ابن جرير الطبري، تفسير الطبري (١٠ / ٤٣٢)، تحقيق محمود شاكر.

ثانيًا: تحويل القبلة إلى الكعبة:

كان رسول الله ﷺ يصلي بمكة إلىٰ بيت المقدس والكعبة بين يديه، فلما قدم المدينة وُجِّهَ إلىٰ بيت المقدس، واستمر علىٰ ذلك بضعةَ عَشَرَ شهرًا، وكان يكثر الدعاء والابتهال أن يُوَجَّهَ إلىٰ الكعبة التي هي قبلة إبراهيم -عليه السلام-[1].

وخرج رسول الله ﷺ زائرًا أُمّ بشر بن البراء بن معرور -رضي الله تعالىٰ عنهم- في بني سلمة بكسر اللام؛ فصنعت له طعامًا وحانت صلاة الظهر، فصلىٰ رسول الله ﷺ الظهرَ بأصحابه في مسجد هناك، فلما صلىٰ ركعتين نزل جبريل -عليه السلام-، فأشار أن صَلِّ إلىٰ البيت وصلىٰ جبريل -عليه السلام- إلىٰ البيت، فاستدار رسول الله ﷺ إلىٰ الكعبة، واستقبل الميزابَ، فتحولت النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء، فسُمِّيَ ذلك المسجدُ مسجدَ القبلتَيْنِ[2]؛ فخرج عباد بن بشر ﷺ، وكان صلىٰ مع رسول الله ﷺ، فمر علىٰ قوم من الأنصار ببني حارثة وهم راكعون في صلاة العصر، فقال: أشهد بالله لقد صليتُ مع رســول الله ﷺ قِبَلَ البيت فاستداروا[3].

قال رافع بن خديج -رضي الله تعالىٰ عنه-: (وأتانا آتٍ ونحن نصلي في بني عبد الأشهل، فقال: إن رسول الله ﷺ قد أُمِرَ أن يُوَجّهَ إلىٰ الكعبة، فأدارنا إمامُنا إلىٰ الكعبة ودُرْنَا معه)[4].

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٢٤٣)، وابن كثير، تفسير ابن كثير (١/ ٢٩١)، والدهلوي، حجة الله البالغة (١/ ٣٦٢).

(٢) انظر: الشامي، سبل الهدى (٣/ ٥٣٧)، وابن سعد، الطبقات (١/ ٢٤٢)، قال ابن سعد: قال الواقدي: هذا عندنا أثبت، والقسطلاني، المواهب (١/ ٣٤٥)، وابن حجر، فتح الباري (١/ ٥٠٣).

(٣) انظر: الشامي، سبل الهدى (٣/ ٥٣٨، وابن سعد، الطبقات (١/ ٢٤٢).

(٤) انظر: الشامي ، سبل الهدى (٣/ ٥٣٨).

قال ابن عمر -رضي الله تعالىٰ عنهما-: (وبينا الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آتٍ، فقال: إن النبي ﷺ قد أُنْزِلَ عليه قرآنٌ، وقد أُمِرَ أن يَستقبل الكعبة، فاستقْبِلُوها، وكانت وجوههم إلىٰ الشام؛ فاستداروا إلىٰ الكعبة)[1].

وعن البراء رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان أول ما قدم المدينة نزل علىٰ أجداده، أو قال: أخواله من الأنصار، وأنه صلَّىٰ قِبَلَ بيتِ المقدسِ ستةَ عَشَرَ شهرًا أو سبعةَ عَشَرَ شهرًا، وكان يعجبه أن تكون قبلتُه قِبَلَ البيتِ، وأنه صلَّىٰ أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلىٰ معه قوم، فخرج رجل ممن صلَّىٰ معه، فمر علىٰ أهل مسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صليتُ مع رسول الله ﷺ قِبَلَ مكةَ، فداروا كما هم قِبَلَ البيتِ، وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قِبَلَ بيتِ المقدسِ وأهل الكتاب، فلما وَلَّىٰ وجهَه قِبَلَ البيتِ أنكروا ذلك[2].

قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (والتحقيق أن أَوَّلَ صلاةٍ صلاها في بني سلمة لما مات بشر بن البراء بن معرور -رضي الله تعالىٰ عنهما- الظهرُ، وأول صلاة صلاها بالمسجد النبوي العصرُ)[3].

الفوائد المستخرجة من هذا الجزء من السيرة:

أولًا: قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (استقبال أهل الكتاب لقِبْلتهم لم يكن من جهة الوحي والتوقيف من الله، بل كان عن مشورة منهم واجتهاد، أما النصارىٰ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح (٨/ ١٧٤)، كتاب التفسير (٦٥)، باب: الذين آتينهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم (١٧) رقم الحديث (٤٤٩١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح (١/ ٩٥)، كتاب الإيمان (٢)، باب: الصلاة من الإيمان (٣٠) رقم (٤٠)، وكتاب الصلاة (٨)، باب التوجه إلى القبلة (٣١) رقم (٣٩٩)، (١/ ٥٠٢).

(٣) ابن حجر، فتح الباري (١/ ٩٧)، وقال (١/ ٥٠٣): (فظاهر حديث البراء هذا أنها الظهر)، وانظر: ابن جرير، تفسير الطبري (٣/ ١٣٥)، وابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ٢٥٣).

فلا ريب أن الله لم يأمرهم في الإنجيل ولا في غيره باستقبال المشرق أبدًا وهم مقرون بذلك)[1]. وهذا يعني أن من فضائل هذه الأمة الإسلامية أن قِبْلتهم كانت بوحي من الله -سبحانه- في قرآن كريم يُتْلَىٰ.

وقد ذكر الطبري -رحمه الله تعالىٰ- عند تفسير قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ [يونس: ٨٧] قولًا آخر في معنىٰ ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ عن سعيد بن جبير -رحمه الله تعالىٰ- عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-، ومجاهد -رحمه الله تعالىٰ- يعني الكعبة[2].

ثانيًا: قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وكان لله في جعل القبلة إلىٰ بيت المقدس، ثم تحويلها إلىٰ الكعبة حِكَمٌ عظيمةٌ، ومحنةً للمسلمين والمشركين واليهود والمنافقين؛ فأما المسلمون فقالوا: سمعنا وأطعنا، وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧]، وهم الذين هدىٰ الله، ولم تكن كبيرةً عليهم، وأما

(١) ابن القيم، بدائع الفوائد (٤/ ١٧١). وقال القسطلاني في شرح المواهب (٢/ ٢٤٢): (وكان ﷺ يصلي إلى «صخرة «بيت المقدس» التي كان موسى يصلي إليها بحذاء الكعبة، وهي قبلة الأنبياء كلهم، نقله القرطبي عن بعضهم. وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب القرظي، قال: ما خالف نبي نبيًّا في قِبْلة ولا سنة، إلا أنه ﷺ استقبل بيت المقدس، ثم تحول إلى الكعبة. وروى أبو داود في الناسخ والمنسوخ عن الحسن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٩٦] الآية، قال: أعلم قبلته فلم يبعث نبي إلا وقبلته البيت، وهذا قوَّاه الحافظ العلائي، فقال في تذكرته: الراجح عند العلماء أن الكعبة قبلة الأنبياء كلهم، كما دلت عليه الآثار. قال بعضهم: وهو الأصح، انتهى. اختار ابن العربي وتلميذه السهيلي: أن قبلة الأنبياء بيت المقدس، قال بعض: وهو الصحيح المعروف. فعد صاحب الأنموذج من خصائص المصطفى وأمته استقبال الكعبة: إنما هو على أحد القولين المرجحين، نعم ذكر فيما اختص به على جميع الأنبياء والمرسلين أن الله جمع له بين القبلتين ﷺ «بالمدينة» حال «ستة عشر شهرًا»).

(٢) انظر: الطبري، تفسير الطبري، تحقيق التركي (١٢/ ٢٥٧).

المشركون فقالوا: كما رجع إلىٰ قبلتنا يُوْشِكُ أن يرجع إلىٰ ديننا، وما رجع إليها إلا أنها الحق، وأما اليهود فقالوا: خالف قِبْلَةَ الأنبياء قَبْله ولو كان نبيًّا لكان يصلي إلىٰ قبلة الأنبياء، وأما المنافقون فقالوا: ما يدري محمد أين يتوجَّه؟ إن كانت الأولىٰ حقًّا فقد تركها، وإن كانت الثانيةُ هي الحَقَّ فقد كان علىٰ باطل، وكثرت أقاويل السفهاء، وكانت كما قال الله -جل شأنه-: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة:١٤٢]، وكانت محنة من الله امتحن بها عباده؛ ليرىٰ مَن يتبع الرسول منهم ممن ينقلب علىٰ عقبيه)[١].

وإذا تأملت قول الله -تعالىٰ-: ﴿ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ [البقرة: ١٤٣]، أدركت ما تضمنه تحويل القبلة من اختبار لكل الفئات الموجودة وقت الوحي، فهناك فئة آمنت وبادرت بالاستجابة، رغم المفاجأة فقد كانوا يصلون واستداروا وهم يصلون، وروي أن فئة من ضعفاء المؤمنين ارتدت عن الإيمان، وفئات أخرىٰ كان همّها المناوأة والمعاداة وتصيُّد الفرص للتشهير بالرسول ﷺ وبهذا الدين.

قال ابن جرير الطبري -رحمه الله تعالىٰ-: (محنة الله أصحاب رسوله في القبلة إنما كانت فيما تظاهرت به الأخبار عند التحويل من بيت المقدس إلىٰ الكعبة، حتىٰ ارتد فيما ذكر رجال ممن كان قد أسلم واتبع رسول الله ﷺ، وأظهر كثير من المنافقين من أجل ذلك نفاقهم، وقالوا: ما بال محمد يحولنا مرة إلىٰ ها هنا، ومرة إلىٰ ها هنا؟)[٢].

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٦٦- ٦٧)، وانظر: ابن حجر، فتح الباري (٨/ ١٧١)، والشامي، سبل الهدى (٣/ ٥٣٩).
(٢) تفسير الطبري (٢/ ٦٣٩).

ثالثًا: إن حادثة تحويل القبلة هي ابتلاء من الله -سبحانه وتعالىٰ-، وإذا كان الابتلاء هو مظهر من مظاهر حكمة الله -سبحانه وتعالىٰ-؛ فإن الأمر المهم هنا هو اجتياز البلاء بنجاح، وهذا الاجتياز هو محض فضل الله ورحمته -سبحانه وتعالىٰ-[1]، والموفَّق مَن وفَّقه الله -سبحانه وتعالىٰ-، وأساس ذلك الدعاء واللجوء إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-، والمعصوم من عصمه الله -جل شأنه-.

رابعًا: توجيه المسلمين في العالم كله، وأينما كانوا إلىٰ قِبْلَة واحدة، له معنًىٰ كبير، وتذكير عظيم بأن ربهم وإلههم واحد، فلا تتجهوا إلىٰ غيره في حوائجكم، وأن بيته واحد، فالصلاة إليه، والطواف عليه والحج إليه فقط، ونبيّهم واحد، فهو الذي يجب أن نُفرده في الاتباع ﷺ.

خامسًا: إن المسلم في كل زمان ومكان يجب عليه أن يُسلّم لأمر الله ونهيه، فلا يقدم أحد منهم رأيًا ولا هوًىٰ علىٰ أمر الله -عز وجل- أو أمر رسوله، قال -تعالىٰ-: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥]، فمِن الله الرسالة، وعلىٰ الرسول البلاغ، وعلينا التسليم.

سادسًا: قال السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (كان صرف المسلمين إلىٰ الكعبة، مما حصلت فيه فتنة كبيرة، أشاعها أهل الكتاب والمنافقون والمشركون، وأكثروا فيها من الكلام والشُّبه، فلهذا بسطها الله -تعالىٰ-، وبيَّنها أكمل بيان، وأكَّدها بأنواع من التأكيدات، التي تضمنتها هذه الآيات.

منها: الأمر بها، ثلاث مرات، مع كفاية المرة الواحدة، ومنها: أن المعهود، أن الأمر، إما أن يكون للرسول، فتدخل فيه الأمة تبعًا، أو للأمة عمومًا، وفي هذه الآية

---

(١) هدايات القرآن الكريم، مؤسسة معالم التدبر (مصحف التدبر)، (ص ٢٢).

أمر فيها الرسول بالخصوص في قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾، والأمة عمومًا في قوله: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ﴾[1].

وهذا درس للدعاة إلىٰ الله أن ما يحصل فيه فتنة من قضايا المسلمين، وفيه شُبَه كثيرة، وتشيعه وتنشره وسائل الإعلام المعادية، ينبغي أن يكثر التأليف فيه، والرد علىٰ الخصوم وتبيين وجه الحق.

سابعًا: حادثة تحويل القبلة مِن نِعَم الله -جل شأنه- فيها تكريم للنبي ﷺ وتكريم لأمته تبعًا له وإعادة لهذه الأمة إلىٰ قِبْلَة أبينا إبراهيم -عليه السلام-، وبسببها يحسدنا أعداؤنا، ففي الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- «إِنَّهُمْ لا يَحْسُدُونَا عَلَىٰ شَيْءٍ كَمَا يَحْسُدُونَا عَلَىٰ يَوْمِ الْجُمُعَةِ الَّتِي هَدَانَا اللهُ لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَىٰ الْقِبْلَةِ الَّتِي هَدَانَا اللهُ لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَىٰ قَوْلِنَا خَلْفَ الْإِمَامِ: آمِينَ»[2]. قال البناء -رحمه الله تعالىٰ-: (يعني الكعبة؛ لأنهم جعلوا بيت المقدس قِبْلة لهم والكعبة أفضل)[3].

ثامنًا: قال -تعالىٰ-: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:١٤٢]؛ ووصف السَّفه هنا ليس خاصًّا بهؤلاء، بل كل مَن يعارض شرع الله بعقله فهو سفيه، وبتصرفه هذا يكشف أن عقله ليس رشيدًا، وإلا لهداه عقله للصواب، أرأيت لو شاهدت شابًّا يتجاوز إشارة المرور الحمراء وهو يرىٰ سيارة شرطة المرور تراقبه، وأجهزة التصوير تُوثّق مخالفته، ومع ذلك لا يبالي بهم، ألا يقال عن هذه سفيه؛ لأنه كشف أن عقله لم يَهْده إلىٰ رشده.

(١) تفسير السعدي (٧٣).

(٢) المسند (٤١/ ٤٨١) رقم (٢٥٠٢٩). طبعة الرسالة، وقال المحقق: (حديث صحيح).

(٣) البناء، بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني، الطبعة الثانية (بيروت: دار إحياء التراث).

وأشد منه سفهًا مخلوق يعارض الذي خلقه، ويُذْنِب وهو يعلم أن الملائكة تكتب سيئاته وسيحاسب عليها، ومع ذلك لا يتوب، ويدَّعي أنه يعرف مصلحة نفسه أكثر من خالقه، قال -تعالىٰ-: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠].

تاسعًا: إن اليهود يعلمون بما في كتبهم أن القِبْلَة ستُحوَّل إلىٰ مكة، ومع ذلك أنكروا ذلك، وحاولوا التشنيع علىٰ الرسول ﷺ. يقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ- عند تفسير قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة:١٤٤]: (أي: واليهود -الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرافكم عن بيت المقدس -يعلمون أن الله تعالىٰ سيوجهك إليها، بما في كتبهم عن أنبيائهم، من النعت والصفة لرسول الله ﷺ وأُمّته، وما خصَّه الله -تعالىٰ- به وشرَّفه من الشريعة الكاملة العظيمة، ولكن أهل الكتاب يتكاتمون ذلك بينهم حسدًا وكفرًا وعنادًا؛ ولهذا يهددهم -تعالىٰ- بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾)[1].

عاشرًا: في حادثة تحويل القبلة إثبات نَسْخ الأحكام، فقد كانت المصلحة الشرعية في استمرار استقبال الرسول ﷺ لبيت المقدس مدة من الزمن، ثم قضىٰ الله -جل شأنه- بأن المصلحة الشرعية في تحويلها إلىٰ الكعبة، ومثل ذلك سائر الأحكام الشرعية التي نسخها الله لتغير الزمان أو المكان.

حادي عاشر: كانت حادثة تحويل القبلة أمرًا فاصلًا في تاريخ الإسلام؛ فعن قتادة -رحمه الله تعالىٰ- قال: (قلتُ لسعيد بن المسيب -رحمه الله تعالىٰ-: «لِمَ سُمُّوا المهاجرين الأولين؟» قال: من صلىٰ مع النبي ﷺ القبلتين جميعًا فهو من المهاجرين الأولين، ومثله عن ابن سيرين -رحمه الله تعالىٰ-)[2]، والله أعلم.

(١) ابن كثير، تفسير ابن كثير (١/ ٤٦١).

(٢) الطبري، تفسير الطبري (١٤/ ٤٣٥ - ٤٣٧)، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾. وقال الشعبي: (المهاجرون الأولون من أدرك البيعة تحت الشجرة)، المرجع نفسه.

ثاني عشر: نرىٰ في موقف تحويل القبلة سرعة مبادرة الصحابة -رضوان الله تعالىٰ عليهم- إلىٰ تنفيذ أوامر الرسول ﷺ، فالخبر يبلغهم أثناء الصلاة فيستديرون وهم في صلاتهم، فعندما أتىٰ رجل إلىٰ بعض الصحابة؛ فقال: أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قِبَلَ مكةَ، إذا بهم يبادرون بالتحوُّل إلىٰ القبلة الجديدة فورًا دون سؤال أو استفسار أو تردُّد، وهذا شأن المؤمن الاتباع والتمسُّك بالعمل بالنص فور بلوغه له والمبادرة إليه، سواء ظهرت له الحكمة من ذلك أم لم تظهر، يقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (أي: الشأن كله في امتثال أوامر الله، فحيثما وَجَّهَنَا -سبحانه- تَوَجَّهْنَا، فالطاعة في امتثال أمره، ولو وجّهنا في كل يوم مرات إلىٰ جهات متعددة فنحن عبيده وفي تصرفه وخدامه حيثما وَجَّهَنَا توجهنا)[1].

ثالث عشر: التمهيد للأمر العظيم قبل حصوله، يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وكان أمر القبلة وشأنها عظيمًا وطأ -سبحانه- قبلها أمر النسخ وقدرته عليه، وأنه يأتي بخير من المنسوخ أو مثله، ثم عقب ذلك بالتوبيخ لمن تعنَّت رسول الله ﷺ ولم ينقد... وجعل كل هذا توطئة ومقدمة بين يدي تحويل القبلة)[2]، وهذا يفيدنا في مسألة التدرج في الدعوة إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-، فهو وإن كان هذا تدرُّجًا في التشريع، لكنه يُؤخَذ منه التدرج في دعوة الناس، ومراعاة أحوالهم، والله أعلم.

رابع عشر: كان تحويل القبلة فرصة لأعداء الإسلام لإثارة الشبهات[3] وفتنة إثارة الشبهات لا تزال حية يحاول أعداء الإسلام من خلالها تشكيك المسلمين في دينهم وضعف انتمائهم له، وتمسكهم به، وصدّ غيرهم عنه، وإن مِن أعظم صُور الجهاد المعاصر الجهاد العلمي لرد الشبهات عن الدين، قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (قلم الرد علىٰ المبطلين ورفع سنة المحقين، وكشف أباطيل المبطلين

(١) ابن كثير، تفسير ابن كثير (١/ ١٩٠).

(٢) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٦٧- ٦٨).

(٣) انظر: عبد العزيز الحميدي: المنافقون في القرآن الكريم (ص ٥٤ و٦٠).

علىٰ اختلاف أنواعها وأجناسها، وبيان تناقضهم وتهافتهم وخروجهم عن الحق، ودخولهم في الباطل؛ وهذا القلم في الأقلام نظير الملوك في الأنام، وأصحابه أهل الحجة الناصرون لما جاءت به الرسل المحاربون لأعدائهم)[1].

فيا طالب العلم خذ سلاحك؛ سلاح القلم، وجاهد في سبيل الله، بيانًا للحق وردًّا لعدوان الباطل: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩].

خامس عشر: إن هذه القِبْلَة التي هدىٰ الله -جل شأنه- هذه الأمة لها (هي القبلة التي تليق بهم وهم أهلها؛ لأنها أوسط القِبَل لأفضل الأُمَم كما اختار لهم أفضل الرسل وأفضل الكتب وأخرجهم في خير القرون، وخصَّهم بأفضل الشرائع، ومنَحهم خير الأخلاق، وأسكنهم خير الأرض وجعل منازلهم في الجنة خير المنازل، وموقفهم يوم القيامة خير المواقف)[2]. فيا من كَرَّمه الله وفضَّله الله بهذه النعم؛ كن للمنعم -جل شأنه- شاكرًا.

سادس عشر: في قوله -تعالىٰ-: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [البقرة:١٤٢]؛ آية لمحمد ﷺ؛ إذ تضمنت الإخبار عن أمر غيبيّ، فالإتيان بالسين الدالة علىٰ الاستقبال من الإخبار عن المستقبل[3]، ومع ذلك أخبر القرآن الكريم به الرسول ﷺ، ووقعت الأمور كما ذكر القرآن الكريم.

سابع عشر: في تحويل القبلة إلىٰ الكعبة واستقبال المسلمين أينما كانوا لهذا البلد، بيان لمكانته وتميُّزه عن سائر الأمكنة، فهو مَهْبَط الوحي ومُنْطَلَق الرسالة

(١) ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن (٢١٢).
(٢) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٦٨).
(٣) انظر: الشامي، سبل الهدى والرشاد (٣/ ٥٣٩).

ومَهْوَىٰ الأفئدة ومقصد المسلمين في حجهم وعمرتهم، وقبلتهم أحياء وأمواتًا، قد شرَّفه الله -جل شأنه- بهذا الشرف الذي لا مزيد بعده.

ثامن عشر: في تحويل القبلة إلىٰ مكة تأكيد لوسطية هذه البقعة جغرافيًّا، وقد أشرتُ في سبب اختيار هذه الجزيرة؛ لتكون مُنْطَلَقًا للرسالة الخاتمة، إلىٰ أن هذه الجزيرة وسط العالم؛ وقد قال الله -جل شأنه-: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورىٰ:٧]، وهذا الاختيار يعني أن تكون مكة هي منطلق تحديد الجهات، ولكننا وللأسف تابعنا غيرنا، وتلقَّينا مصطلحاتهم وسلَّمنا لهم، ولو فكرنا قليلًا لأدركنا المعاني الحقيقية لكثير من هذه المصطلحات، وأنها لا ارتباط لها بواقعنا ولا بتاريخنا، فمثلًا يقولون: الشرق الأدنىٰ، والشرق الأقصىٰ والشرق الأوسط، وذلك أن المستعمِر الأوربي اعتبر نفسه في مركز الأرض، فأطلق هذا التوزيع بالنسبة لموقعه، وجاريناه علىٰ ذلك، ونسينا أننا هنا نحن الوسط والمركز، وأن هذه الوسطية المكانية ينبغي أن تكون لبلاد المسلمين، وأن ينطلق تحديد الجهات منها، وأن هذا هو المعروف في وقت قوة الأمة الإسلامية وعِزّتها، أما الآن وقد غُلِبَ علىٰ الأمة الإسلامية فأصبح ليس لبقعتها إلا أن يقال عنها «الشرق الأوسط»!

ثالثًا: تشريع الصيام:

كان الصيام مفروضًا علىٰ الأمم السابقة، والمقصود بهذه الأمم أمم التوحيد كقوم نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ -عليهم السلام-؛ كما قال -تعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣]؛ ومما هو مقطوع به أن صيام من قبلنا ليس مماثلًا لصيامنا، وإن كان الجميع يشتركون في هذه العبادة العظيمة[١]؛ يقول الإمام ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (عن معاذ بن جبل -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: (أُحِيْلَتِ الصلاةُ ثلاثةَ

(١) انظر: عبد الله الطيار، الصيام (ص ١٧).

أحوالٍ)؛ فذكر أحوال الصلاة، وقال: وأما أحوال الصيام فإن رسول الله ﷺ قدم المدينة فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام وصام عاشوراء، ثم إن الله فرض عليه الصيام، وأنزل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، إلىٰ قوله -تعالىٰ-: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾؛ فكان من شاء صام، ومن شاء أطعم مسكينًا فأجزأ ذلك عنه، ثم إن الله أنزل الآية الأخرىٰ ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾، إلىٰ قوله -تعالىٰ-: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾؛ فأثبت صيامه علىٰ المقيم الصحيح، ورخَّص فيه للمريض والمسافر، وأثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام فهذان حولان، قال: وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا، فإذا ناموا امتنعوا، ثم إن رجلًا من الأنصار يقال له: صرمة كان يعمل صائمًا حتىٰ أمسىٰ فجاء إلىٰ أهله فصلَّىٰ العِشاءَ، ثم نام فلم يأكل ولم يشرب حتىٰ أصبح فأصبح صائمًا، فرآه رسول الله ﷺ قد جهد جهدًا شديدًا، فقال: «مالي أراك قد جهدتَ جهدًا شديدًا؟»، فأخبره، قال: وكان عمر قد أصاب من النساء بعدما نام فأتىٰ رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فأنزل الله -جل شأنه-: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ ﴾، إلىٰ قوله -تعالىٰ-: ﴿ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾)[1].

وكان تشريع الصيام بهذه الكيفية في شعبان في السنة الثانية من الهجرة[2].

وبه استقر تشريع الصيام الواجب علىٰ هذا اليسر ورفع الحرج، وتأكّد وجوبه بالسُّنة القولية والعملية عن رسول الله ﷺ، وأجمع المسلمون علىٰ هذا، فلا يحل

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ٢٥٥)، ورواه عن الإمام أحمد، وقال: (ورواه أبو داود في سننه والحاكم من حديث المسعودي نحوه)، وانظر: صحيح سنن أبي داود للألباني (١/ ١٠١- ١٠٣)، حديث رقم (٤٧٨ و٤٧٩)، وانظر: الرفاعي، مختصر تفسير ابن كثير (١/ ١٤١)، وانظر: تفسير الطبري (٣/ ٤١٤) وما بعده.

(٢) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ٢٥٤)، ومحمد أبو شهبة، السيرة النبوية (٢/ ١٠٦).

للمسلم أن يفرِّط في هذا الأصل، وهذا الركن العظيم من أركان الإسلام.

وبقي تشريع صيام النوافل مثل صيام أيام البيض ويوم عرفة وأيام الاثنين والخميس وثلاثة أيام من كل شهر وستة أيام من شهر شوال، والعاشر من محرم وغيرها، كل هذه صيامها مستحب يتقرَّب بها المسلم إلىٰ ربّه.

وبعد انتهاء رمضان صلىٰ الرسول ﷺ بالناس صلاة العيد أول مرة، يقول ابن جرير -رحمه الله تعالىٰ- في تاريخه في أحداث السنة الثانية من الهجرة: (وفيها أمر الناس بإخراج زكاة الفطر، وفيها خرج إلىٰ المصلىٰ فصلىٰ بهم صلاة العيد، وكان ذلك أول خرجة خرجها بالناس إلىٰ المصلىٰ لصلاة العيد)[1]. وقال الرملي -رحمه الله تعالىٰ-: (أول عيد صلاَّهُ النبي ﷺ عيد الفطر في السنة الثانية من الهجرة ولم يتركها)[2].

وقال ابن جرير -رحمه الله تعالىٰ- عن عيد الأضحىٰ في أحداث السنة نفسها: (وحضرت الأضحىٰ، فذكر أن رسول الله ﷺ ضَحَّىٰ وأهلُ اليسر من أصحابه، يوم العاشر من ذي الحجة، وخرج بالناس إلىٰ المصلىٰ فصلىٰ بهم، فذلك أول صلاة صلىٰ رسول الله ﷺ بالناس بالمدينة بالمصلىٰ في عيد، وذبح فيه بالمصلىٰ بيده شاتين)[3].

فكان هذا هو بداية تشريع صلاة العيد، وعن أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: «كان رسول الله ﷺ يخرج يوم الفطر والأضحىٰ إلىٰ المصلىٰ، فأول شيء يبدأ به الصلاة، ثم ينصرف، فيقوم مقابل الناس، والناس جلوس علىٰ صفوفهم فيعظهم، ويوصيهم، ويأمرهم، فإن كان يريد أن يقطع بعثًا قطعه، أو يأمر

(١) ابن جرير، تاريخ الطبري (٢/ ٤١٨).
(٢) الرملي، نهاية المحتاج (٢/ ٣٨٥).
(٣) ابن جرير، تاريخ الطبري (٢/ ٤٨١).

بشيء أمر به، ثم ينصرف[1].

الدروس المستفادة من هذا الجزء من السيرة:

أولًا: حكمة الإسلام في تدرُّجه في التشريع، فلم يُفْرَض الصيامُ مرةً واحدةً، بل جاء التشريع لهذه العبادة متدرجًا بدءًا من ثلاثة أيام إلىٰ صيام شهر رمضان مع التخيير، ثم في النهاية لما مرنت النفوس وتعودت علىٰ الصيام أصبح صيام الشهر فرضًا لازمًا، ومنه نأخذ التدرج في الدعوة إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ- كما سبق أن أشرنا.

ثانيًا: نلمس من تشريع الصيام اليسر والسهولة ورفع الحرج عن الأمة الإسلامية؛ حيث كانت بداية التشريع توجب الصيام من بعد صلاة العشاء أو النوم إلىٰ نهاية النهار، ثم جاء التخفيف عنهم بقول الله -تعالىٰ-: ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ**﴾ كما ذكرنا ذلك في سبب نزولها، فالإسلام دين اليسر والسهولة، ولن يُشَادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه.

ثالثًا: في البدء في آيات تشريع الصيام بهذه الآية ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ فيه درس للدعاة إلىٰ الله في استخدام هذا الأسلوب الذي سلكه القرآن الكريم في تشريع الصيام؛ وذلك من خلال توضيح أن الصيام الذي فرضه علىٰ هذه الأمة مفروض علىٰ الأمم من قبل، وفي هذا فائدتان:

١) ترغيب للنفوس وتطييب للقلوب؛ فإن الصيام عبادة فيها مشقة، والأمور الشاقة إذا شعر الفرد بعمومها علىٰ الجميع سَهُلَ حملُها[2].

---

(١) صحيح البخاري (٢/ ١٧) رقم (٩٥٦)، ومسلم (٢/ ٦٠٥) رقم (٨٨٩).

(٢) انظر: المراغي، تفسير المراغي (٢/ ٦٨).

٢) إن في هذا تنشيطًا للمدعوِّين لفعل المأمور وإثارةً للمنافسة بين الأمم السابقة واللاحقة للمنافسة في خصال الخير[١]، وعلىٰ الدعاة إلىٰ الله الاستفادة من هذا الأسلوب في دعوتهم إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-.

رابعًا: في تشريع الصيام مراعاة لأحوال جميع طبقات المجتمع وتذكير للأغنياء بحال الفقراء وتقوية للروابط بين فئات المجتمع وتربية للنفس علىٰ التغلُّب علىٰ سلطان الشهوات.

خامسًا: وقت الصيام والإفطار محدَّد في غاية الدقة؛ حيث نرىٰ أن وقت الإمساك دقيق، ووقت الإفطار كذلك، وهذا مظهر من مظاهر النظام والانضباط الذي ينبغي أن يتعلمه المسلم في سائر أعماله بعيدًا عن الفوضوية.

ومن شاهد المسلمين -مثلًا- في الحرم المكي وهم بمئات الألوف يفطرون في دقيقة واحدة عند أول كلمة من الأذان، أدرك بهذا المشهد العظيم وأمثاله، الانضباط الذي يعيشه ويتربىٰ عليه المسلمون من خلال دينهم القويم.

سادسًا: في فرضية الصيام تعويد للمسلم الرقابة علىٰ نفسه، إذ بإمكان الفرد أن يتظاهر بالصيام ويغلق علىٰ نفسه الأبواب ويأكل ويشرب كما يشاء، ومع هذا ترك هذا الأمر للمسلم ووعد بالمحافظة علىٰ الصيام أجورًا عظيمةً حينما أخبر الرسول الكريم ﷺ في الحديث القدسي عن ربه -عز وجل- أنه قال: «يترك طعامه وشرابه من أجلي، الصيام لي وأنا أجزي به»[٢].

سابعًا: إن للصيام علاقة وُثْقىٰ بالتقىٰ وصلاح القلب، وهو ما ختم الله به -جل شأنه- آية تشريع الصيام: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣]، والتقوىٰ محلها القلب، والصيام

(١) انظر: الشيخ السعدي، تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/ ١٤٣).
(٢) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٤/ ١٠٣) رقم (١٨٩٤).

من أكبر أسباب التقوى[1]. (فيكون معنى الآية فرضت عليكم الصيام لتكونوا به من المتقين الذين أثنيت عليهم في كتابي)[2].

ثامنًا: في تشريع صلاة العيد بعد صيام رمضان، وما فيه من البهجة بعد تلك العبادة الفاضلة، وكذلك عيد الأضحى الذي شرع عند استكمال عشر ذي الحجة التي هي أفضل أيام العام، في ذلك كله درس ينبغي أن نَعِيه، وهو أن أعياد المسلمين توقيتًا ومضمونًا، مرتبطة بما ينجزه المسلم من الطاعات، فالمسلم ينبغي أن يربط فرحه وسعادته وسروره بما ينجزه من طاعة وعبادة لله -سبحانه وتعالى-[3].

رابعًا: تشريع الزكاة:

الزكاة عبادة قديمة عُرِفَتْ في الرسالات السماوية السابقة، وذكرها الله -سبحانه وتعالى- في القرآن الكريم حينما تحدث عن الأنبياء السابقين؛ قال -تعالى-: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:٧٣]، ويقول -تعالى- في شأن المسيح -عليه السلام-، وهو في مهده ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم:٣١].

(١) انظر: السعدي، تفسير السعدي (ص ٨٦).

(٢) الرازي، التفسير الكبير (٥/ ٢٤٠).

(٣) ورد في صحيح ابن خزيمة -رحمه الله تعالى- (٣/ ٣١٥ برقم ٢١٦١) من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن يوم الجمعة يوم عيد، فلا تجعلوا يوم عيدكم يوم صيامكم، إلا أن تصوموا قبله أو بعده»، ثم قال ابن خزيمة: «أبو بشر هذا شامي، ليس بأبي بشر جعفر بن أبي وحشية صاحب شعبة، وهشيم»، وقال الشيخ محمد مصطفى الأعظمي محقق صحيح ابن خزيمة: إسناده ضعيف أبو بشر مجهول»، وضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (١٤/ ٧٤٥) رقم (٦٨٢٦)، وحسنه محققو مسند أحمد، شعيب الأرناؤوط وزملاؤه (١٣/ ٣٩٥) رقم (٨٠٢٥)، وهو- على فرض صحته- سرور بما في ذلك اليوم من الفضائل العظيمة التي خصَّ الله -جل شأنه- بها أمة محمد، وهداها إليه، وضلت عنه الأمم السابقة.

والزكاة في الإسلام مرت بمرحلتين مهمتين؛ الأولىٰ في العهد المكي، والثانية في العهد المدني.

أما العهد المكي فقد وردت آيات كثيرة من أوائل ما نزل علىٰ الرسول ﷺ تتحدث عن الزكاة منها:

١. قول الله تعالىٰ في سورة المزمل: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل:٢٠].

٢. قول الله تعالىٰ في سورة فصلت: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ٦-٧]؛ وهذه الآيات تتحدث عن الزكاة والصدقة، لكنها تتحدث عنها بصفتها تشريعًا عامًّا، وترغيبًا فيها، دون أن ترد نصوص تبين فرضيتها أو تحديد ما تجب منه، أو من يجب أن تُدْفَع له.

أما العهد المدني فكان أكثر تحديدًا؛ ففي السنة الثانية من الهجرة وفي شهر شوال نزل فرضية الزكاة[1]، وصار الحديث عنها بصفتها ركنًا من أركان الإسلام؛ ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:١١].

وتولَّىٰ القرآنُ الكريمُ تحديدَ مَنْ تُصْرَفُ إليه، يقول -تعالىٰ-: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٦٠]؛ وبالتالي أصبحت الزكاة فريضة ملزمة يدفعها الغني لأخيه المستحق لها وفق الأصناف المشار إليها في الآية في أموال معينة تولت السنة بيانها وبيان مقدار الواجب فيها.

---

(١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ٢٥٦ و٣٤٧)، ومحمد أبو شهبة، السيرة النبوية (٢/ ١١١)، والطيار، الزكاة (ص ٦١).

الدروس المستفادة من تشريع الزكاة:

أولًا: ما ذكرناه في تشريع الصوم نلحظه هنا، وهو التدرج في التشريع؛ فالزكاة لم تُفْرَض مرة واحدة بوضعها الحالي، بل جاء الحثّ عليها في العهد المكي، ثم في العهد المدني فُرِضَتْ وأصبحتْ لازمةً يجب علىٰ من اكتملت فيه الشروط أن يدفعها بطيب نفس إلىٰ مستحِقِّها.

ثانيًا: إن للزكاة أهدافًا إنسانية جليلة، ومُثُلًا أخلاقية رفيعة، قصد الإسلام إلىٰ تحقيقها حينما شرع الزكاة، يقول -تعالىٰ-: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٣].

تأمل ماذا قال عن الزكاة:

- ﴿تُطَهِّرُهُمۡ﴾؛ وهذا فيه ذهاب الذنوب.
- ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾؛ وهذا فيه رفعة مقامهم.

ففي الزكاة تخلية وتحلية لقلب صاحبها.

قال السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (﴿تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ أي: تطهرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة. ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾؛ أي: تنميهم، وتزيد في أخلاقهم الحسنة، وأعمالهم الصالحة، وتزيد في ثوابهم الدنيوي والأخروي، وتنمي أموالهم)[(١)].

ثالثًا: عن أبي مالك الأشعري -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «والصدقة برهان»[(٢)]؛ الصدقة برهان علىٰ قوة الإيمان، فالشخص في تعامله المالي يشتري ويدفع الثمن راضيًا؛ لأنه أخذ مقابل الثمن الذي دفَعه، كأن يشتري سيارة ويدفع مقابلها الثمن ويخرج فرحًا مسرورًا؛ لأنه يرىٰ أنه أخذ أحسن مما أعطىٰ،

(١) السعدي، تفسير السعدي (ص ٣٥٠).
(٢) صحيح مسلم (١/ ٢٠٣) رقم (٢٢٣).

لكن عندما يُعطي فقيرًا، أو يذهب إلىٰ جمعية خيرية ويدفع مالًا، ثم يخرج، هنا دفع مالًا، لكن ماذا أخذ؟ ثقته وإيمانه بالله أنه سيعطيه خيرًا مما دفع أضعافًا، هذا هو الذي جعله يدفع؛ فصدقته برهان علىٰ قوة إيمانه بالثواب والعطاء يوم القيامة، والشخص الذي يشح في أداء الصدقة، هذا برهان علىٰ ضعف إيمانه وإيقانه بما عند الله، فالصدقة فريضة أو نافلة برهان علىٰ قوة إيمان الشخص وضعفه[1].

رابعًا: الزكاة إعانة للضعفاء وكفاية لأصحاب الحاجات وهي تعبير عمليّ عن أُخوة الإسلام، وتطبيق واقعي لأخلاق المسلم، من جانب المزكِّي، وهي أيضًا تجعل الفقير يعيش في المجتمع المسلم خاليةً نفسُه من أيّ حقد أو حسد؛ وذلك لأن حقّه محفوظ في مال الغني، فتجده يحبه ويدعو له بالبركة وكثرة المال[2].

خامسًا: من أسباب رحمة الله لعبده، أداء الزكاة يقول الله -جل شأنه-: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦]، وفي أداء الزكاة شكر لله -سبحانه وتعالىٰ- علىٰ ما أسبغ علىٰ المسلم من نعم ظاهرة وباطنة، وهذا مما يميزه عن الكافر، فالكافر يتمتع بالنعم ولا يعرف له ربًّا رازقًا يشكره، والمسلم يشكر الله وهو يتذكر قوله -تعالىٰ-: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧][3].

سادسًا: مما يدل علىٰ أهمية الدعوة إلىٰ الله، أن الله -جل شأنه- قد جعل في الزكاة نصيبًا لمن يُرْجَىٰ تأليفُ قلبِه علىٰ الإسلام؛ سواء بالدخول فيه أو قوة إيمانه، يقول الشيخ السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (الرابع: المؤلفة قلوبهم: والمؤلف قلبه

---

(١) للمؤلف كتيب بعنوان (أين أنت من الصدقة؟) طبع عدة طبعات، ويوجد منه نسخة إلكترونية على الإنترنت.

(٢) انظر: الرازي، التفسير الكبير (١٦/ ١٠١ و١٠٣).

(٣) انظر: د. الطيار، الزكاة (ص ٣١) وما بعدها.

هو السيد المطاع في قومه ممن يُرْجَىٰ إسلامُه أو يُخْشَىٰ شرُّه أو يُرْجَىٰ بعطيته قوةُ إيمانِه أو إسلامُ نظيرِه، أو جبايتها ممن لا يعطيها، فيعطىٰ ما يحصل به التأليف والمصلحة)[1].

سابعًا: من أسباب استجابة الدعاء، أن يقدّم بين يدي دعائه صدقة؛ قال -تعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [المجادلة:١٢]؛ وإذا كانت الصدقة مشروعة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ فبين يدي الله -جل شأنه- أعظم.

كما أن في الصدقة كسبَ رضا الله -سبحانه وتعالىٰ-، وإذا رضي الله -جل شأنه- أعطىٰ، وإذا أعطىٰ؛ أعطىٰ بلا حدود -سبحانه وتعالىٰ-.

خامسًا: تشريع الجهاد:

(**الجهاد نوعان:** جهاد الدعوة إلىٰ دين الإسلام، والتحذير من الأديان والمعتقدات الباطلة، وهذا مفروض منذ ابتدأت الرسالة، وهو فرض في كل وقت بما يناسب الوقت ويليق به. قال -تعالىٰ-: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل:١٢٥]، وقال -تعالىٰ-: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان:٥٢]؛ أي جاهد أهل الباطل كلهم بالقرآن الكريم.

النوع الثاني: الجهاد باليد والسلاح، فهذا فرض كفاية، والمراد به قتال الكفار المحاربين، وقد يكون فرض عين إذا حضر الزحف، وإذا حصر بلده عدو، وإذا استنفره الإمام أو من قام مقامه، كما نص الله -جل شأنه- علىٰ ذلك نصًّا يدل علىٰ فرضيته وتعيُّنه، والجهاد باليد يتبع المصلحة، كما كان هدي النبي ﷺ؛ هادَن ووَادَع

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٢٥٨)، وانظر: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير (١٠ / ٢٣٦).

حيث كانت المصلحة، وحارب حيث اقتضت المصلحة، فعلىٰ المسلمين أن يسلكوا هديه، ويتشاوروا في أمرهم، ويعملوا في كل وقت ما يناسبه ويصلح له)[١].

والجهاد أربع مراتب:

- جهاد النفس.
- جهاد الشيطان.
- جهاد الكفار.
- جهاد المنافقين.

وتفصيلها كالتالي:

جهاد النفس أربع مراتب أيضًا:

إحداها: أن يجاهدها علىٰ تعلُّم الهدىٰ ودين الحق.

الثانية: أن يجاهدها علىٰ العمل به بعد علمه.

الثالثة: أن يجاهدها علىٰ الدعوة إليه، وتعليمه من لا يعلمه.

الرابعة: أن يجاهدها علىٰ الصبر علىٰ مشاق الدعوة إلىٰ الله وأذىٰ الخلق.

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين؛ فإن السلف مجمعون علىٰ أن العالم لا يستحق أن يسمَّىٰ ربانيًّا حتىٰ يعرف الحق، ويعمل به، ويُعلّمه، فمن عَلِم وعَمِل وعلَّم فذاك يُدْعَىٰ عظيمًا في ملكوت السماوات.

أما جهاد الشيطان فمرتبتان:

- إحداهما: جهاده علىٰ دَفْع ما يلقي إلىٰ العبد من الشبهات والشكوك القادحة في الإيمان.

---

(١) السعدي، فتح الرحيم الملك العلام (ص١٣٦-١٣٧) باختصار.

- الثانية: جهاده على دفع ما يلقي إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات، فالجهاد الأول يكون بعده اليقين، والثاني: يكون بعده الصبر. قال -تعالى-: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤]؛ فالصبر يدفع الشهوات، واليقين يدفع الشبهات.

أما جهاد الكفار والمنافقين فأربع مراتب:

- بالقلب.
- واللسان.
- والمال.
- والنفس.

وجهاد الكفار أخص باليد، وجهاد المنافقين أخص باللسان.

أما جهاد أهل البدع والمنكرات فثلاث مراتب:

- الأولى: باليد إذا قدر، وكان مأذونًا له شرعًا.
- فإن عجز انتقل إلى اللسان.
- فإن عجز جاهد بقلبه.

وفرض عليه جهاد نفسه في ذات الله، وجهاد شيطانه؛ فهذا كله فرض عين لا ينوب فيه أحد عن أحد. وأما جهاد الكفار والمنافقين فقد يُكتفَى فيه ببعض الأمة إذا حصل منهم مقصود الجهاد)[1].

والمراد بالجهاد هنا هو: القتال باليد والسلاح. وقد مر تشريع الجهاد بهذا المعنى بعدة مراحل نوجزها على النحو التالي:

---

(١) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٩-١١) ملخصًا.

المرحلة الأولىٰ: كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة ونوافل الزكاة، وبالصَّفْح والعفو عن المشركين والصبر إلىٰ حين، وكانوا يتحرَّقون شوقًا إلىٰ قتال أعداء الله -جل شأنه-، ولكنهم كانوا قليلي العَدَد والعُدَّة وهم في البلد الحرام، فكانوا يُنْهَوْنَ عن القتال، وكانوا مأمورين بالصبر علىٰ أذىٰ الكفار في ذلك الوقت[1]؛ يقول -تعالىٰ-: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [النساء:٧٧]؛ وعن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابًا له -رضي الله تعالىٰ عنهم-، أتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا: يا نبي الله كنا في عزة ونحن مشركون، فلما آمنَّا صِرْنَا أَذِلَّةً، قال: «إني أُمِرْتُ بالعفو، فلا تقاتلوا القومَ»[2].

وكان الرسول ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله -عز وجل- ويصبرون علىٰ الأذىٰ[3]؛ قال الله -عز وجل-: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران:١٨٦]؛ ولذلك نجد اتفاق العلماء أن الجهاد بمعنىٰ القتال لم يُؤذن به إلا في المرحلة المدنية، يقول القرطبي -رحمه الله-: (ولم يُؤْذَنْ للنبي ﷺ في القتال مدة إقامته بمكة، فلما هاجر أُذِنَ له في قتال من يقاتله من المشركين)[4]، يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (فأول ما شرع الجهاد بعد الهجرة النبوية إلىٰ المدينة اتفاقًا)[5].

(١) انظر: الرفاعي، مختصر تفسير ابن كثير (١/ ٤١٢).

(٢) أخرجه النسائي في سننه (٦/ ٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩ / ١١)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٠٧)، وقال على شرط البخاري ولم يخرجاه ولم يتعقبه الذهبي، وصححه الرفاعي في تحقيق مختصر ابن كثير (١/ ٤١٢).

(٣) البيهقي، السنن الكبرى (٩ / ١٠).

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٣٨).

(٥) ابن حجر، فتح الباري (٦/ ٢٧).

المرحلة الثانية: وهي مرحلة الإذن بالقتال بعد الهجرة دون أن يُفْرَض عليهم[1]؛ فقال -تعالىٰ-: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج:٣٩]؛ أخرج البيهقي في سننه والحاكم في المستدرك عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة قال أبو بكر رضي الله عنه: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون؛ ليهلكن، فأنزل الله -عز وجل-: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج:٣٩]؛ وهي أول آية نزلت في القتال[2].

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة فرض القتال لمن يقاتلهم فقط، يقول الله -سبحانه وتعالىٰ-: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠]؛ قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: «ثم فُرِضَ عليهم القتالُ بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقال -تعالىٰ-: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠][3].

المرحلة الرابعة: وهي المرحلة الأخيرة قال -تعالىٰ-: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة:٢٩]؛ وهذه المرحلة هي مرحلة قتال المشركين كافة؛ كما قال -تعالىٰ-: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:٥]؛ فقوله -تعالىٰ-: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾، المراد

(١) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٧٠).
(٢) البيهقي، السنن الكبرى (٩ / ١١)، والحاكم، المستدرك (٢/ ٦٦)، وصححه على شرط الشيخين ولم يتعقبه الذهبي.
(٣) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٧١).

بهم (المحاربون الذين يريدون أن يخلو الأرض من دينه، ويأبىٰ الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون)[1].

وليس المراد مقاتلة كل كافر؛ فإن من الكفار من هو من أهل الذمة الذين يقيمون في بلاد المسلمين، ومنهم من هو مستأمن دخل بلاد المسلمين لتجارة أو يحمل رسالة أو نحو ذلك، ومنهم من هو معاهد مقيم في بلده، وبينه وبين المسلمين عهد، وكل هؤلاء لا يجوز الاعتداء عليهم بأيّ صورة من صور الاعتداء. يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (ثم فُرِضَ عليهم قتالُ المشركين كافةً، وكان محرَّمًا، ثم مأذونًا، ثم مأمورًا لمن بدأهم بالقتال، ثم مأمورًا به لجميع المشركين؛ إما فرض عين علىٰ أحد القولين أو فرض كفاية علىٰ المشهور)[2].

الفوائد المستنبطة من تشريع الجهاد:

أولًا: ما أشد علىٰ النفس أن تُؤذَىٰ ويقال لك: اصبر، لا تدافع عن نفسك. وهكذا كان الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- في بداية الدعوة، كان المشركون يؤذون المؤمنين وينالهم منهم الأذىٰ البدني، وكانوا ممنوعين من الرد بالمثل، بل كانوا مأمورين بالصبر.

وأشد من ذلك ما قاله عبد الرحمن بن عوف ومن معه من الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين- للرسول ﷺ: (يا نبي الله! كنا في عزة ونحن مشركون، فلما آمنَّا صِرْنَا أَذِلَّةً). ولكن يأتي الجواب من الرسول ﷺ بأن المسألة ليست دفاعًا عن النفس، وإنما دِين وشرع من الله -جل شأنه-، وليس من الدين والشرع القتالُ الآن، فلم يؤذن به، قال: «إني أُمِرْتُ بالعفو، فلا تقاتلوا القومَ».

---

(١) السعدي، تفسير السعدي (٣٢٩).

(٢) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٧١).

ثانيًا: وهنا أيضًا وقفة أرىٰ أنها مهمة، وهي أن نظر ولي الأمر لمصالح الإسلام والمسلمين، غير نظر الأفراد، فولي الأمر قد يرىٰ في زمن من الأزمان، أن من المصالح الكبرىٰ للأمة عدم المواجهة بكل صورها، بل أشد من ذلك، قد يرىٰ أن من المصلحة تخفيف جهود الدعوة إلىٰ الله وتقليلها، بل ربما الصمت حتىٰ لا نثير الأعداء أكثر، وذلك في مرحلة الاستضعاف الشديد، وتسلط الأعداء، والخوف علىٰ بيضة المسلمين أن تستباح، وكما أن للقوة فقهًا، فإن للضعف فقهًا أدق، وليس المقصود أن تُقال كلمة الحق، ولو أدت إلىٰ زوال أمة، وانتهاك أعراضها، واستباحة دمائها وأموالها.

ولذلك فإني أرىٰ أهمية وعي فقه الاستضعاف، وأن الأمة في زمن استضعافها بحاجة أشد من أيّ زمن، للالتفاف حول علمائها وولاتها وتوحيد الكلمة، والبعد عن الاجتهادات الشخصية التي ظاهرها عزة وانتصار للدين، وباطنها ومؤداها تدمير للأمة بكاملها.

ثالثًا: لقد شُرِعَ (الجهادُ في الوقت الأليق به؛ لأنهم لما كانوا بمكة، كان المشركون أكثرَ عددًا، فلو أُمِرَ المسلمون وهم أقل من العُشر بقتال الباقين لَشُقَّ عليهم، فلما بغىٰ المشركون وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم وهَمُّوْا بقتله وشرَّدوا أصحابَه شذر مذر، فذهب منهم طائفة إلىٰ الحبشة وآخرون إلىٰ المدينة، فلما استقروا بالمدينة ووافاهم رسول الله ﷺ واجتمعوا عليه وقاموا بنصره وصارت لهم دار إسلام ومعقل يلجأون إليه شرع اللهُ جهادَ الأعداءِ)[1]؛ فكانت الحكمة في البداية في تأجيل التشريع، وكانت الحكمة أيضًا في تشريعه لما قوي جانب المسلمين.

رابعًا: هذا القتال يختلف عن القتال والحروب التي شهدها التاريخ الإنساني والتي استهدفت تحقيق أغراض ومقاصد دنيوية لأفراد يريدون العلو في الأرض؛

(١) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٣/ ٢٢٥).

فأهداف الجهاد في الإسلام وضوابط الحق والعدل والرحمة التي حفَّت الجهاد ميَّزته عن أنواع الحروب الأخرىٰ، قال -تعالىٰ-: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء:٧٦].

ومن وصايا الرسول ﷺ للغزاة المجاهدين وقادة الجهاد في سبيل الله: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا مَن كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا»[١].

وغاية الجهاد أن يكون الدين لله -سبحانه وتعالىٰ-: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:١٩٣].

والهدف الكبير الذي يسعىٰ إليه المجاهد في سبيل الله هو أن يتمكن من يرغب الدخول في الإسلام من الدخول فيه دون أن يجد عائقًا يمنعه من ذلك، ومن أراد إعاقة راغب في الدخول في الإسلام وجب قتاله، ثم إذا دخل في هذا الدين وجد حماية[٢] فيه ممن يريد صده أو منعه من الاستمرار فيه، هذه أسمىٰ غايات الجهاد في سبيل الله، فليست الغاية من الجهاد التسلُّط علىٰ الناس وسفك الدماء، وأخذ الأموال واحتلال الأرض، ولم يحصل هذا من المسلمين المجاهدين عبر التاريخ الإسلامي، وإن كان هذا هو الواقع عند غيرهم.

خامسًا: لم تكن الغايةُ من الجهاد التدخلَ في حرية الناس في معتقدهم، قال -تعالىٰ-: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة:٢٥٦]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [يونس:٩٩-١٠٠]،

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (٣/ ١٣٥٧) رقم (١٧٣١)، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها.
(٢) انظر: محمد بن صالح العثيمين، القول المفيد على كتاب التوحيد (٣/ ٢٤٦).

وإنما يهدف الجهاد -كما قلت- إلىٰ إتاحة الفرصة لإبلاغ هذا الدين، ومن اقتنع به يجد الحماية له ممن يريد أن يحول بينه وبين الدخول في الإسلام، وإذا دخل فيه يجد الحماية ممن يريد أن يَفْرِضَ عليه غيرَ دينِ الإسلامِ، ولما شُرِعَ الجهادُ كانت الغاية منه واضحةً، وهي حماية العقيدة وحماية معتنِقِيها وتيسير سبل إبلاغها للناس[1]. ومما يؤكد حرية المعتقد في نظر الإسلام أن اليهودي والنصراني[2] له حرية البقاء علىٰ دينه حتىٰ داخل المجتمع المسلم دون أن يجد في الجهاد ما يُلزمه أو يفرض عليه تغيير معتقده، بل في الإسلام أحكام تخصّ الذمي والمستأمن وغيرهم ممن يعيشون في المجتمع الإسلامي لفترة دائمة أو مؤقتة، ولهم حقوقهم التي بها تُصَان دماؤهم وأموالُهم وأعراضُهم.

سادسًا: ومن بيان مراحل تشريع الجهاد يتضح أن الإسلام لم ينتشر بالسيف، فقد أمضىٰ الرسول ﷺ أربعة عشر عامًا قبل تشريع الجهاد وهو يدعو إلىٰ الله بالحجة والموعظة الحسنة، وقد دخل في الإسلام في هذه الفترة خيارُ الصحابة ودخل في الإسلام قبل تشريع الجهاد عن رضا واقتناعٍ كثيرٌ من الناس، ولم يكن الرسول ﷺ يملك شيئًا يُلزمهم به الدخول في هذا الدين.

سابعًا: التدرج في تشريع الجهاد دليل علىٰ التدرج في الدعوة؛ بل إن أحوال المسلمين اليوم، في موضوع الجهاد تستوجب عليهم أن يستفيدوا من مراحل تشريع الجهاد، وأن أحكامه لها صلة وتأثر بالظروف المحيطة، وإمكاناتهم، وأن عليهم أن يراعوا المصلحة العامة للأمة، فمتىٰ كانت المصلحة في الكفّ، والاكتفاء بالجهاد العلمي وجب عليهم ذلك.

---

(١) انظر: د. أكرم العمري، المجتمع المدني في عهد النبوة (الجهاد)، (ص ١٩).

(٢) يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي عند تفسير قول الله تعالى: (لا إكراه في الدين): (يستدل بالآية الكريمة على قبول الجزية من غير أهل الكتاب كما هو قول كثير من العلماء) تفسير السعدي (ص ١١٢)، الطبعة الثانية (الرياض، دار السلام ١٤٢٢هـ).

ثامنًا: إن الجهاد ليس من أمور الأفراد، بل هو من شأن ولي الأمر، فليس للأفراد أن يتصرفوا تصرفات فردية تضرّ بالأمة جميعًا، فهذا عبد الرحمن بن عوف ومن معه من الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين- يُؤذَوْن أذًىٰ شديدًا، فيأتون إلىٰ الرسول ﷺ يستأذنونه في ردّ الأذىٰ عنهم، فلم يقاتلوا الكفار من تلقاء أنفسهم رغم ما أصابهم، وإنما رجعوا لولي الأمر.

وإن من أكثر ما يجلب الضررَ العام علىٰ المجتمع المسلم بكامله، تصرفاتُ البعض في موضوع قتال الكفار، فيتجاوز فرد، بل يتهور فرد فيضر أمته بكامله، ويتخذ العدوُّ تصرفَه حجة للعدوان علىٰ المسلمين، وإيقاع التنكيل بهم، وهم ضعفاء غير قادرين علىٰ الدفع عن أنفسهم.

تاسعًا: قلت في الفائدة السابقة: إن الجهاد من شأن ولي الأمر، ومع ذلك فهو من أشرف العبادات، ولأجل هذا الاتصاف؛ نجد أن الفقهاء اختلفوا في موضع باب الجهاد في أبواب الفقه؛ فمنهم من يجعله تابعًا لأبواب العبادات، مُغلِّبًا جانب العبادة فيه، ومنهم مَن يجعله في باب القضاء باعتبار أنه من باب السياسة الشرعية ومن شؤون ولي الأمر، وهذا من تغليب جانب علىٰ جانب، وإلا فهو من أشرف العبادات، لكن لا يستقل به الأفراد؛ بل هو من شؤون ولي الأمر.

عاشرًا: عندما يقال للشخص «كُفّ عن القتال» فيكف ويصبر، ويقال له في زمان آخر «قاتل الكفار»؛ فيقاتل، فمعنىٰ هذا أنه يكفّ تعبُّدًا لله، ويقاتل تعبدًا لله -سبحانه-، وامتثالا لأمر الله -جل شأنه- لا حمية ولا غضبًا للنفس ولا للعشيرة ولا للقبيلة ولا انتصارًا للذات. وهذه هي حقيقة العبودية لله -جل شأنه-، لا ما تعارف عليه الناس في الجاهلية، ولا يزال باقيًا عند البعض، أنه مع قبيلته أو أسرته بالحق والباطل، يقول دريد بن الصمة:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد [1]

حادي عاشر: تشريع الجهاد علَّمَنا الفرق بين الانتصار للنفس، والانتصار علىٰ النفس. وقد كان الرسول ﷺ يربي أصحابه علىٰ الانتصار علىٰ النفس لا الانتصار للنفس، فمن قاتل الكافر غضبًا للنفس فقد انتصر لنفسه، واستوفىٰ حقه، ولم يبقَ له شيء، بل كانت نفسه هي التي تقوده، وهذا خذلان وضَعْف وخور.

أما الانتصار علىٰ النفس فهو أن يتعقل ويراعي المصالح، ويقدم مرضاة الله علىٰ ما عدا ذلك.

وبين الانتصار للنفس والانتصار علىٰ النفس كما بين السفح والقمة، وما أكثر من يتعثر ويسقط في الطريق إذا لم يكن معه من الزاد الإيماني ما يبلغ به القمة.

(١) أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، جمهرة أشعار العرب، تحقيق علي محمد البجادي (نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع)، (١/ ٤٦٨).

الفصل السادس

فقه السيرة من قوله -تعالىٰ-:

﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ ﴾

إلىٰ قول الله -تعالىٰ-:

﴿ إِنَّآ فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ﴾

مقدمة

في هذا الفصل من السيرة المباركة، والذي يبدأ باستنفار الرسول ﷺ أصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم- للخروج لملاقاة عير وقافلة قريش القادمة من الشام والمحملة بالتجارة؛ هذا الخروج هو ما أشار إليه قول الله -تعالىٰ-: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ [الأنفال:٥][١].

وهذا النص القرآني يوحي بأن خروج الرسول ﷺ كان بأمر إلهي، ثم ما أكرم الله -جل شأنه- نبيه ﷺ بالنصر المبين في بدر، والرجوع إلىٰ المدينة بالأسرىٰ والغنائم. هذا النصر كشف عن المنافقين، فقد اشتد غيظهم، فأطلوا برؤوسهم وتآمروا مع المشركين علىٰ المسلمين.

ثم ما تلا ذلك من محاولة كفار قريش الانتقام مما أصابهم في بدر بملاقاة المسلمين في أُحُد، ثم ما تبع ذلك من غزوات كان آخرها غزوة الأحزاب التي كانت ختام غزو المشركين للمسلمين. وما تفرع عن الأحزاب من تأديب لبني قريظة نتيجة خيانتهم العهد مع الرسول ﷺ ومؤازرة كفار قريش والقبائل ضد الرسول ﷺ.

وقد أعلن الرسول ﷺ -وهو المسدَّد المؤيَّد من الله جل شأنه- بعد هزيمة الأحزاب، قائلًا: «الآن نغزوهم لا يغزوننا».

وبالتالي فإن هذا الفصل يتناول أول لقاء عسكري مع كفار قريش، كان فيه النصر المبين للمسلمين، وينتهي مع إعلان الرسول ﷺ، انتهاء غزو الكفار للمسلمين، وتغير الموازين نهائيًّا لصالح الرسول ﷺ ومن معه، وتحوّل الغزو من الرسول ﷺ

(١) انظر: ابن كثير، تفسير ابن كثير (٤/ ١٤).

للكفار في عقر دارهم، وهو ما جرىٰ في الحديبية حينما اضطر كفار قريش للمصالحة والاعتراف بهذا الكيان الإسلامي الجديد، وفيه نزل قول الله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:١]. وهو ما سيكون الحديث عنه في الفصل القادم -بإذن الله تعالىٰ-.

وتبعًا لذلك؛ فقد تم تقسيم هذا الفصل إلىٰ مباحث علىٰ النحو التالي:

المبحث الأول: فقه السيرة في غزوة بدر الكبرىٰ.

المبحث الثاني: المنافقون في المدينة.

المبحث الثالث: فقه السيرة في غزوة أُحُد.

المبحث الرابع: فقه السيرة في غزوة بني المصطلق.

المبحث الخامس: فقه السيرة في غزوة الأحزاب.

المبحث السادس: فقه السيرة في غزوة بني قريظة.

فالفصل بدأ بأول لقاء عسكري، وخُتِم بانقلاب ميزان القوة لصالح الدولة الإسلامية في المدينة، وانتهاء تفكير المشركين بغزو الرسول ﷺ، وأصبح الرسول ﷺ هو الذي يغزوهم في عقر دارهم، ويأخذ زمام المبادرة.

والله الموفق.

المبحث الأول

فقه السيرة في غزوة بدر الكبرى

بدر: قيل فيها هي اسم بئر حفرها رجل من غفار اسمه بدر[١]، وتُسَمَّىٰ ببدر الكبرىٰ أو العظمىٰ، أو بدر القتال، أو يوم الفرقان، وهذه التسمية الأخيرة وردت في القرآن الكريم يقول -تعالىٰ-: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١]؛ قال ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-: (لأن الله تعالىٰ فرَّق فيه بين الحق والباطل)[٢].

بلغ النبي ﷺ أن أبا سفيان خرج من الشام في ألف بعير لقريش فيها أموال عظيمة، يقال: إنها خمسون ألف دينار، ولا يحرس القافلة إلا عدد قليل من الرجال لا يتجاوزون السبعين رجلًا في أكثر الأقوال، فندب الرسول ﷺ المسلمين للخروج وقال: «هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا لعل الله أن يُغنِّمُكموها»، فانتدب الناس، فبادر بعض الناس، وثقل آخرون ظنًّا بأن الرسول ﷺ لن يَلْقَىٰ حربًا، ولم يحتفل أو يهتمّ الرسول ﷺ للخروج اهتمامًا بليغًا، ولم يأذن لمن لم يكن ظهره حاضرًا، فقال: «من كان ظهره حاضرًا، فليركب معنا»، فجعل رجال يستأذنونه في ظهورهم في علو المدينة، قال: «لا، إلا من كان ظهره حاضرًا».

وكان أبو سفيان حَذِرًا يتسقط الأخبار، فبلغه خروج الرسول ﷺ لاعتراض عيره، فازداد حذرًا عند ذلك، واستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري بعشرين مثقالًا، فبعثه إلىٰ مكة وأمره أن يجدع أنف بعيره، ويحول رحله، ويشق قميصه من قُبُله ودُبُره إذا

(١) انظر: السهيلي، الروض الأنف (٣/ ٤٣). وقيل غير ذلك كما سيأتي.
(٢) انظر: الشامي، سبل الهدى (٤/ ٣٠).

دخل مكة ويأتي قريشًا ويستنفرهم إلىٰ أموالهم التي خرج محمد ﷺ بأصحابه لها، فخرج ضمضم سريعًا إلىٰ مكة وفعل ما أمره أبو سفيان[1]، وكان خروج الرسول ﷺ لاثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان من السنة الثانية من الهجرة، واستخلف أبا لبابة الأنصاري[2]، وكان عدة من خرج معه ﷺ (ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً)[3] في أقوال عديدة، وكان معهم فرس واحد مع المقداد -رضي الله تعالىٰ عنه-[4]، وسبعون بعيرًا يعتقبونها، وكان رسول الله ﷺ وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ومرثد الغنوي -رضي الله تعالىٰ عنه- يعتقبون بعيرًا[5].

وفي مقابل هذا العدد، خرج من مكة بعد وصول ضمضم واستنفاره قريشًا تسعُمائة وخمسون رجلًا[6]، معهم مائةُ فارسٍ وسبعُمائة بعيرٍ، ولم يتخلَّف أحد من أشرافهم إلا أبا لهب، فإنه بعث مكانه العاص بن هاشم بن المغيرة[7].

وفي الطريق جاء حذيفة ووالده حسيل -رضي الله تعالىٰ عنهما- إلىٰ رسول الله ﷺ، يقول حذيفة: (ما منعني أن أشهد بدرًا إلا أني خرجت أنا وأبي حسيل، قال: فأَخَذَنَا كفارُ قريشٍ قالوا: إنكم تريدون محمدًا، فقلنا: ما نريده، ما نريد إلا المدينةَ، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لَنَنْصَرِفَنَّ إلىٰ المدينة ولا نقاتلَ معه، فأتينا رسول الله ﷺ

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٢٤٤ و٢٤٦- ٢٤٧)، والشامي، سبل الهدى والرشاد (٤/ ٣٢).

(٢) انظر: القسطلاني، المواهب اللدنية (١/ ٣٤٩).

(٣) هذا الذي في صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٢٩٠)، حديث رقم (٣٩٥٧).

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند، انظر: البنا، الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد (٢١/ ٣٩).

(٥) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٢٥١).

(٦) انظر: الشامي، سبل الهدى (٤/ ٢٦)، وفي صحيح مسلم: (نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلًا) صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٤) رقم (١٧٦٣).

(٧) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٢٤٧).

فأخبرناه الخبرَ، فقال: «انصرِفَا، نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم»)[١].

وفي مكان يسمىٰ الروحاء أتىٰ الرسول ﷺ خبر النفير ومسيرهم إليه؛ ليمنعوا عيرهم، فاستشار النبي ﷺ أصحابه، فقام أبو بكر ﷺ فتكلم فأحسن، ثم قام عمر ﷺ فتكلم فأحسن، ثم قام المقداد ﷺ فقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول كما قال بنو إسرائيل لموسىٰ -عليه الصلاة والسلام-: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون؛ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون[٢]، وفي رواية البخاري في صحيحه: (ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك)، يقول الراوي: (فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه، وسرّه يعني قوله)[٣].

وفي صحيح مسلم (فقام سعد بن عبادة -رضي الله تعالىٰ عنه- فقال: إيانا تريد يا رسول الله؟ والذي نفسي بيده، لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلىٰ برك الغماد [٤] لفعلنا)[٥].

وفي السيرة قال الرسول ﷺ: «أشيروا عليَّ أيها الناس»، وإنما يريد الأنصار؛ لأنهم لما بايعوا ليلة العقبة بايعوه علىٰ أن يمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم مادام بين أظهرهم، ولم تكن المبايعة علىٰ القتال خارج المدينة، فقام سعد بن معاذ ﷺ فقال: «لقد آمنا بك وصدّقناك وشهدنا أن ما جئتَ به هو الحق، وأعطيناك علىٰ ذلك

(١) الإمام مسلم، صحيح مسلم (٣/ ١٤١٤) رقم (١٧٨٧).

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٢٥٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح (٧/ ٢٨٧)، كتاب المغازي (٦٤)، باب قوله إذ تستغيثون ربكم (٤)، حديث رقم (٣٩٥٢).

(٤) برك الغماد: اختلف في المراد منها. ويبدو أنها أمكنة متعددة، وبرك الغماد الآن جنوب القنفذة بـ(١١١) كيلو. وهي قرية من قراها. والقنفذة مدينة على ساحل البحر الأحمر جنوب جدة، حدائق الأنوار هامش (ص ٣٠٧). ومحمد حسن شراب، المعالم الأثيرة (ص ٤٦ – ٤٧).

(٥) صحيح مسلم (٣/ ١٤٠٤)، حديث رقم (١٧٧٩).

عهودَنا ومواثيقَنا على السمع والطاعة لك، فامضِ لما أردتَ فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضتَ بنا البحر فخضتَه لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن نلقىٰ عدونا غدًا، إنا لصُبُر في الحرب صُدُق عند اللقاء، لعلَّ الله يُريك منا ما تقرّ به عينك، فسِرْ بنا على بركة الله، فسُرَّ الرسولُ ﷺ بقول سعد -رضي الله تعالىٰ عنه- ونشَّطه ذلك، ثم قال: «سيروا وأبشروا، فإن الله وعدني إحدىٰ الطائفتين، والله لكأني أنظر إلىٰ مصارع القوم»[١].

ولما نزل رسول الله ﷺ قريبًا من بدر ركب هو وأبو بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- حتىٰ وقفا علىٰ شيخ من العرب، فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم، فقال الشيخ: لا أخبركما حتىٰ تخبراني من أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: «إذا أخبرتنا أخبرناك»؛ قال: أذاك بذاك؟ قال: «نعم»، قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بكذا وكذا، للمكان الذي فيه رسول الله ﷺ، وبلغني أن قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي فيه قريش، فلما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: نحن من ماء، ثم انصرفا عنه، والشيخ يقول: ماء، من ماء، أمن ماء العراق؟[٢].

ثم رجع رسول الله ﷺ إلىٰ أصحابه، فلما أمسىٰ بعث عليّ بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم- جميعًا إلىٰ ماء ببدر يستطلعون له الأخبار فأصابوا راوية[٣] لقريش فيها غلامان لها، غلام لبني الحجاج، وغلام لبني العاص بن سعيد، فأتوا بها، ورسول الله ﷺ يصلي، فقالا:

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٢٥٤).

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٢٥٤ - ٢٥٥).

(٣) الراوية: المراد هنا الإبل يُحمل عليها الماء لسقي الناس. وتطلق الراوية على المزادة (القربة الكبيرة) التي فيها الماء.

نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم الماء، فكره القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان فضربوهما، فلما أوجعوهما، قالا: نحن لأبي سفيان فتركوهما، فلما فرغ رسول الله ﷺ من صلاته قال: إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا والله إنهما لقريش، ثم قال لهما: «أخبراني عن قريش» فقالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترىٰ بالعدوة القصوىٰ، فقال لهما: «كم القوم؟» قالا: كثير، قال: «ما عدتهم؟» قالا: لا ندري، قال رسول الله ﷺ: «كم ينحرون كل يوم؟»، قالا: يومًا تسعًا ويومًا عشرًا، فقال رسول الله ﷺ: «القوم ما بين التسعمائة والألف»، فقال لهما: «فمن فيهم من أشراف قريش؟»، فذكرا عتبة بن ربيعة وشيبة وأبا جهل، وأمية بن خلف وسهيل بن عمرو في آخرين من صناديد قريش، فأقبل رسول الله ﷺ إلىٰ أصحابه قائلًا: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها!».

وكان أبو سفيان قد سبق العير يتسقط الأخبار؛ حذرًا أن يكون المسلمون قد سبقوه إلىٰ الطريق، فلما ورد ماء بدر وجد عليه مجدي بن عمرو فسأله هل رأىٰ أحدًا؟ فأجابه بأنه لم ير إلا راكِبَيْنِ أناخا إلىٰ هذا التل، وأشار إلىٰ حيث أناخا، فأتىٰ أبو سفيان مناخهما، فوجد في روث بعيرهما نوىٰ عَرَفَه من علائف يثرب، فأسرع إلىٰ أصحابه وعدىٰ بالسير عن الطريق المعهود متبعًا ساحل البحر مسرعًا في سيره حتىٰ نجا بالعير(١).

ولما رأىٰ أبو سفيان أنه قد أحرز عِيره، أرسل إلىٰ قريش قيس بن امرئ القيس: إنكم إنما خرجتم؛ لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، وقد نجّاها الله، فارجعوا، فأتاهم الخبر وهم بالجحفة، فقال أبو جهل: «والله لا نرجع حتىٰ نردَ بدرًا -كان بدر موضعًا من مواسم العرب يتجمع لهم به سوق كل عام- فنقيم عليه ثلاثًا فننحر الجُزُر، ونُطعم الطعام، ونَسْقِي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجَمْعِنَا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها».

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٢٥٢- ٢٥٧).

وكره أهلُ الرأي المسيرَ، ومشىٰ بعضهم إلىٰ بعض، وكان ممن أبطأ بهم عن ذلك الحارث بن عامر وأمية بن خلف، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وحكيم بن حزام وأبو البختري بن هشام، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن أبي منبه حتىٰ بكَّتهم أبو جهل بالجُبْن، وأعانه عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث بن كلدة، وأجمعوا المسير.

وقال الأخنس[1] بن شريق: «يا بني زهرة! قد نجىٰ الله أموالكم وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله، فاجعلوا بي جُبنها وارجعوا، فرجعوا، واغتبطت بنو زهرة بعد برأي الأخنس، فلم يزل فيهم مطاعًا[2]، وأرادت بنو هاشم الرجوع، فاشتد عليهم أبو جهل، وقال: لا تفارقنا هذه العصابة حتىٰ نرجع.

وكانت بنو عدي في النفير فلما بلغوا ثنية لِفت[3] عدلوا في السحر إلىٰ الساحل منصرفين إلىٰ مكة، فصادفهم أبو سفيان بن حرب فقال: يا بني عدي كيف رجعتم؟ لا في العير ولا في النفير!! قالوا: أنت أرسلتَ إلىٰ قريش أن ترجع.

ومضت قريش حتىٰ نزلت بالعدوة القصوىٰ من الوادي، ونزل رسول الله ﷺ والمسلمون في العدوة الدنيا، فأنزل الله -جل شأنه- تلك الليلة مطرًا كثيرًا، فكان علىٰ المشركين وابلًا شديدًا منعهم من التقدم، وكان علىٰ المسلمين طلًا طهَّرهم الله به، وأذهب عنهم رجزَ الشيطان ووطأ به الأرضَ وصلب الرملَ، وثبَّت الأقدامَ ومهد به المنزلَ، وربط به علىٰ قلوبهم ولم يمنعهم من السير، وسال الوادي فشرب

(١) واسمه أُبَيَّ بن شريق، والأخنس لقب له.
(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٢٥٨)، وقال الأزرقي في أخبار مكة (٢/ ٢٨٧): «والأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة، واسم الأخنس أُبَيّ، وإنما سمي الأخنس لأنه خنس ببني زهرة، فلم يشهدوا بدرًا على رسول الله ﷺ». الشامي، سبل الهدى (٤/ ٤٧).
(٣) لفت: بكسر اللام: ثنية تشرف على خليص من الشمال يطؤها الدرب، بينه وبين قديد، وتُسَمَّى اليوم الفيت، وقد هجرت من زمن ولم تعد مطروقة. محمد شراب، المعالم الأثيرة (ص ٢٣٦).

المؤمنون، وملأوا الأسقيةَ وسقوا الركابَ واغتسلوا من الجنابة كما قال -تعالىٰ-: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١][١].

وسبق رسول الله ﷺ المشركين إلىٰ بئر بدر[٢]، ونزلوا عليها، وقال سعد بن معاذ رضي الله عنه: يا رسول الله، ألا نبني لك عريشًا ونُعِدّ عندك ركائبك، ثم نلقىٰ عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا علىٰ عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرىٰ جلست علىٰ ركائبك فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حبًّا لك منهم، ولو ظنوا أنك تلقىٰ حربًا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم ويناصحونك ويجاهدون معك، فأثنىٰ عليه النبي ﷺ خيرًا ودعا له بخير، ثم بُني للرسول ﷺ عريش علىٰ تِلّ مشرف علىٰ ميدان القتال فكان فيه ومعه الصديق رضي الله عنه وليس معهما غيرهما[٣]، وقام سعد بن معاذ رضي الله عنه علىٰ باب العريش متوشحًا بالسيف[٤]، ومشىٰ رسول الله ﷺ في موضع المعركة، وجعل يشير بيده «هذا مصرع فلان»، قال: ويضع يده علىٰ الأرض هاهنا وهاهنا، قال: (فما ماط[٥] أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ)[٦].

(١) انظر: الشامي، سبل الهدى والرشاد (٤/ ٤٧ و٤٨).

(٢) مسند الإمام أحمد (٢/ ٢٥٩) رقم (٩٤٨) قال محققو المسند: (إسناده صحيح). أما رواية أن الحباب بن المنذر -رضي الله تعالى عنه- أشار على الرسول ﷺ بالنزول على أقرب بئر تجاه العدو، وأن الرسول ﷺ قال: قد أشرت بالرأي؛ فقد أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٤٨٢) رقم (٥٨٠١)، وقال عنها الذهبي: «حديث منكر»، وذكرها ابن حجر في الإصابة (٢/ ٩)، وقال: إسنادها ضعيف. وقال الألباني -رحمه الله تعالى-: «ضعيف على شهرته في كتب المغازي» سلسلة الأحاديث الضعيفة (٧/ ٤٥١) رقم (٣٤٤٨)، ومحمد العوشن، ماشاع ولم يثبت في السيرة النبوية (ص ١١٠-١١١).

(٣) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ١٧٩).

(٤) انظر: الشامي، سبل الهدى والرشاد (٤/ ٤٩).

(٥) ماط: أي تباعد (هامش صحيح مسلم (٣/ ١٤٠٤).

(٦) صحيح مسلم (٣/ ١٤٠٤) رقم (١٧٧٩).

وفي ليلة المعركة، وهي ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان أصاب المسلمين نعاسٌ أُلْقِيَ عليهم فناموا، عن عليّ بن أبي طالب ﷺ قال: (ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة حتىٰ أصبح)[1].

قال الواقدي -رحمه الله تعالىٰ-: (فحدثني محمد بن عبد الله، عن الزهري، عن عروة بن الزبير، ومحمد بن صالح، عن عاصم بن عمر، عن يزيد بن رومان، قالا: لما رأىٰ رسول الله ﷺ قريشًا تصوب من الوادي -وكان أول من طلع زمعة بن الأسود علىٰ فرس له، يتبعه ابنه، فاستجال بفرسه يريد أن يتبوأ للقوم منزلًا- فقال رسول الله ﷺ: «اللهم، إنك أنزلت عليَّ الكتاب، وأمرتني بالقتال، ووعدتني إحدىٰ الطائفتين، وأنت لا تخلف الميعاد! اللهم، هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادك وتكذب رسولك! اللهم، نصرك الذي وعدتني! اللهم أحنهم الغداة».

وطلع عتبة بن ربيعة علىٰ جمل أحمر، فقال رسول الله ﷺ: «إن يك في أحد من القوم خير ففي صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا»[2].

وبعث إيماء بن رحضة الغفاري إلىٰ قريش بجزائر أهداها لهم مع ابنه، وقال: «إن أحببتم أن نمدكم بسلاح ورجال فعلنا»، فأرسلوا إليه مع ابنه أن «وصلت رحمك، وقد قضيت الذي عليك، فلعمري لئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم، ولئن كنا إنما نقاتل الله كما يزعم محمد فما لأحد بالله من طاقة»[3].

(١) رواه الإمام أحمد في المسند، انظر: البنا، الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد (٢١/ ٣٩).

(٢) الواقدي، المغازي (١/ ٦٠)، وانظر صحيح السيرة إبراهيم العلي (ص٢٣٢).

(٣) انظر: الواقدي، (١/ ٦٠) وابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٢٦١)، وابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ٢٦٨)، والشامي، سبل الهدى (٤/ ٥١).

وبعث الكفار عمير بن وهب الجمحي، فقالوا له: احزر لنا أصحاب محمد، فجال بفرسه حول العسكر، ثم رجع إليهم فقال: ثلاثمائة رجل يزيدون قليلًا أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتىٰ أنظر للقوم كمين أو مدد؟ فضرب في الوادي حتىٰ أبعد فلم ير شيئًا، فرجع إليهم، فقال: ما رأيتُ شيئًا، ولكن رأيتُ يا معشر قريش البلايا[1] تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرىٰ أن يقتل رجل منهم حتىٰ يقتلوا رجلًا منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما في العيش خير بعد ذلك؛ فَرُوا رأيكم.

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشىٰ في الناس، فأتىٰ عتبة بن ربيعة فكلمه؛ ليرجع بالناس، وقال: يا أبا الوليد! إنك كبير قريش وسيدها المطاع فيها[2]، هل لك إلىٰ أمر لا تزال تُذْكَرُ فيه بخير إلىٰ آخر الدهر؟ قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس، وتحتمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي، قال: قد فعلتُ. أنت عليَّ بذلك إنما هو حليفي، فعليّ عَقْله وما أُصيب من ماله، فأتِ ابنَ الحنظلية يعني أبا جهل؛ فإني لا أخشىٰ أن يشجر أمر الناس غيره، ثم قام عتبة خطيبًا في الناس فقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدًا وأصحابه شيئًا، والله لئن أصبتموه لا

(١) البلايا: جمع بلية، والبلية: ناقة يموت صاحبها فيحفر لديها حفرة، وتشد رأسها إلى خلفها، وتبلى؛ أي تترك هناك لا تُعلَف ولا تُسقى حتى تموت جوعًا وعطشًا. كانوا يزعمون أن الناس يحشرون يوم القيامة ركبانًا على البلايا، أو مشاة إذا لم تعكس مطاياهم على قبورهم. لسان العرب (١٤/ ٨٥).

(٢) كان قصي هو سيد مكة في عصره، ولما حضرته الوفاة أعطى ابنه عبد الدار الحجابة ودار الندوة واللواء، وأعطى ابنه عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة، ولما مات عبد مناف بن قصي تولّى بعده ابنه هاشم السقاية والرفادة، وتولى عبد شمس بن عبد مناف القيادة، ثم تولى القيادة من بعده ابنه أمية بن عبد شمس، ثم من بعده ابنه حرب بن أمية بن عبد شمس، ثم كان أبو سفيان بن حرب بن أمية يقود الناس بعد أبيه، حتى كان يوم بدر، وكان أبو سفيان غائبًا مع العير فقاد الناس عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، ولما كان يوم أُحُد قاد الناس أبو سفيان، لكون القيادة في قريش لبني عبد شمس انظر الأزرقي (١/ ١٠٩).

يزال الرجل ينظر في وجهه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو قتل ابن خاله أو رجلًا من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذلك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون، إني أرىٰ أقوامًا مستميتة لا تصلون إليهم وفيكم خير، يا قوم اعصبوها اليوم برأسي وقولوا: جبن عتبة، وأنتم تعلمون أني لست بأجبنكم.

قال حكيم: فانطلقت فأتيت أبا جهل، فقلت له: إن عتبة قد أرسلني إليك بكذا وكذا، فقال: انتفخ والله سحره حين رأىٰ محمدًا وأصحابه، كلا والله لا نرجع حتىٰ يحكم الله بيننا وبين محمد، ثم بعث إلىٰ عامر بن الحضرمي، فقال له: انشد خفرتك ومقتل أخيك فقام عامر فكشف عن استه، ثم صرخ واعمراه واعمراه، فحميت الحرب، وأفسد علىٰ الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة[1].

وأخرج ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ- عن علي -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: (كانت ليلة الفرقان، ليلة التقىٰ الجمعان، في صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشر مضت من شهر رمضان. وهو الصحيح عند أهل المغازي والسير)[2].

ونهىٰ الرسول ﷺ عن قتل عدد من رجال قريش، فعن عبد الله بن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-: «أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: «إني قد عرفت أن ناسًا من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهًا لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحدًا من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما أُخرج مستكرهًا»[3].

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٢٦١-٢٦٤)، والشامي، سبل الهدى (٤/ ٥١-٥٣).

(٢) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٤/ ٦٦).

(٣) البيهقي، دلائل النبوة، (٣/ ١٤١)، وانظر: الحاكم، المستدرك، (٣/ ٢٤٧) رقم (٤٩٨٨)، وقال: (صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه)، إنما قال الرسول ﷺ ذلك؛ لأن من بني هاشم من كان مستكرهًا على الخروج، كما ورد في نص الحديث أعلاه، وأما أبو البختري=

وفي صبيحة تلك الليلة صفَّ النبي ﷺ أصحابه صفوفًا متراصة، وأثناء تسويته لصفوف أصحابه مرَّ بسواد بن غزية -رضي الله تعالىٰ عنه- وهو خارج عن الصفّ، فطعنه في بطنه بالقضيب، وقال: «استقم يا سواد»؛ فقال: يا رسول الله، أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل، فأقدني يعني مكِّني من نفسك حتىٰ أقتصَّ فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، وقال: «استقد»، فاعتنقه سواد -رضي الله تعالىٰ عنه- وقبَّل بطنَه، فقال النبي ﷺ: «وما حملك علىٰ هذا يا سواد؟» قال: يا رسول الله! حضر ما ترىٰ -يعني موطن الشهادة- فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك، فدعا لـه الرسـول ﷺ بخير، وقـال له خيرًا[1].

فلما نزل الناس أقبل نفر من قريش حتىٰ وردوا حوض رسول الله ﷺ، فيهم حكيم بن حزام، فقال رسول الله ﷺ: دعوهم. فما شرب منه رجل يومئذ إلا قُتِلَ، إلا ما كان من حكيم بن حزام؛ فإنه لم يُقتَل، ثم أسلم بعد ذلك فحسُن إسلامه، فكان إذا اجتهد في يمينه قال: «لا والذىٰ نجاني يوم بدر»[2].

وتزاحف الناس، ودنا بعضهم من بعض، ورسول الله ﷺ في العريش ومعه أبو بكر ﷺ وهو ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر، ويقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإيمان اليوم فلا تُعْبَد في الأرض أبدًا»، وأبو بكر ﷺ يقول: يا رسول الله! بعض مناشدتك لربك؛ فإن الله مُنجِز لك ما وعدك، وأخذتِ الرسولَ ﷺ سِنةٌ من النوم، ثم استيقظ مبتسمًا، فقال: «أبشر يا أبا بكر! هذا جبريل علىٰ ثناياه النقع»[3]، ثم خرج من باب العريش وهو يتلو: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٥]. وصدق

=فقد نقل البيهقي عن ابن إسحاق قوله: (وإنما نهى رسول الله ﷺ عن قتل أبي البختري؛ لأنه كان أكف القوم عن رسول الله ﷺ وهو بمكة، وكان لا يؤذيه ولا يبلغه عنه شيء يكرهه) دلائل النبوة (٣/ ١٤١).

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٢٦٦- ٢٦٧)، وابن حجر، الإصابة (٣/ ١٤٨).

(٢) ابن كثير، السيرة النبوية (٢/ ٤٠٤).

(٣) انظر: الشامي، سبل الهدى والرشاد (٤/ ٥٧).

الله -تعالىٰ- إذ يقول: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩].

وخرج من صفوف المشركين عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد بن عتبة، ودعا إلىٰ المبارزة؛ فخرج فتية من الأنصار وهم عوف ومعاذ ابنا الحارث وأمهما عفراء وعبد الله بن رواحة، فقالوا: من أنتم؟ فقالوا: رهط من الأنصار، فقالوا: مالنا بكم من حاجة. ثم نادىٰ مناديهم يا محمد، أخرج لنا أكفاءنا من قومنا، فقال ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحارث، قم يا حمزة، قم يا علي، فلما قاموا ودنوا منهم قالوا: من أنتم؟، فتسموا لهم، فقالوا: نعم، أكفاء كرام، فبارز عبيدةُ وكان أسن القوم عتبةَ، وبارز حمزةُ شيبةَ، وقيل العكس، وبارز عليٌّ الوليدَ، فقتل كلّ من حمزة وعلي -رضي الله تعالىٰ عنهما- صاحبَه، واختلف عبيدة رضي الله عنه ومن بارزه بضربتين، فوقعت الضربة في ركبة عبيدة، ومال عليّ وحمزة علىٰ الذي بارز عبيدة، فأعاناه علىٰ قتله[١]، وفي شأن هذين الفريقين المتبارزين نزل[٢] قوله -تعالىٰ-: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِي رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ [الحج١٩].

ووقف رسول الله ﷺ أمام صفوف المسلمين يُحرّضهم علىٰ القتال، ويَعِدهم بجنات النعيم علىٰ الموت في سبيل الله؛ بمثل قوله ﷺ: «قوموا إلىٰ جنة عرضها السماوات والأرض»، قال عمير بن الحمام رضي الله عنه: يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: «نعم »، قال: بخ بخ[٣]، فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك علىٰ قول

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٢٦٥).

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٢٩٦) رقم (٣٩٦٩) عن قيس بن عبادة قال: سمعت أبا ذر يقسم إن هذه الآية (هذان خصمان اختصموا في ربهم) نزلت في الذين برزوا يوم بدر حمزة وعلي وعبيدة وعتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة.

(٣) بخ بخ: كلمة تقال لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير، هامش صحيح مسلم (٣/ ١٥١٠).

بخ بخ؟» قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: «فإنك من أهلها»، فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتىٰ آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، قال: فرمىٰ بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتىٰ قُتِلَ شهيدًا ﷺ وأرضاه(١).

والتحم الجيشان، واشتد القتال، وحَمِيَ الوطيسُ(٢)، وتوالت الإمدادات الإلهية بجند الله من الملائكة تُثبِّت قلوبَ المؤمنين، وتزف لهم البشرىٰ، وتُلقِي الرعبَ في قلوب المشركين، وتشارك في القتال، وصدق الله: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢].

وتناول رسول الله ﷺ كفًّا من حصباء فرمىٰ بها في وجوه القوم، وقال: «شَاهَتِ الوُجُوهُ»، فلم يبق مشرك إلا دخل في عينيه منها شيء(٣).

وقاتل رسول الله ﷺ يومئذ بنفسه قتالًا شديدًا، وكذلك أبو بكر الصديق ﷺ كما كانا في العريش يجاهدان بالدعاء والتضرع، ثم نزلا فحرَّضا وحثَّا علىٰ القتال، وقاتلا بأبدانهما جمعًا بين المقامين(٤).

وعن علي ﷺ قال: «لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ، وهو أقربنا إلىٰ العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسًا»(٥).

(١) الإمام مسلم، صحيح مسلم (٣/ ١٥١٠) رقم (١٩٠١).

(٢) الوطيس: التنور، يقال حمي الوطيس إذا اشتدت الحرب، انظر: الجوهري، الصحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار (بيروت، دار العلم للملايين ١٤٠٧)، (٣/ ٩٨٩).

(٣) انظر: الطبري، تفسير الطبري، تحقيق التركي (١١/ ٨٥).

(٤) انظر: الشامي، سبل الهدى (٤/ ٧١)، وابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ٢٧٨).

(٥) رواه الإمام أحمد في المسند، الفتح الرباني للبنا (٢١ / ٣٦)، وقال البناء: (وسنده صحيح ورجاله ثقات).

وظهرت بوادر الفشل في جيش الكفار، ورجحت كفة الجيش الإسلامي، وكثر القتلىٰ في الكفار، ودارت الدائرة علىٰ أعداء الله ورسوله ومضىٰ المسلمون يقتلون ويأسرون، وقُتِلَ من صناديد قريش وأشرافهم ما يربو علىٰ السبعين، منهم عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد كما سبق في المبارزة، وأبو جهل بن هشام قتله معاذ بن عمرو بن الجموح ومعوذ ابن عفراء فتيان من الأنصار، ثم أدركه عبد الله بن مسعود[١] فقتله، ورُوي أن الرسول ﷺ لما علم بمقتله، قام مع ابن مسعود حتىٰ وقف عليه فقال: «الحمد لله الذي أخزاك يا عدو الله، هذا كان فرعون هذه الأمة»[٢]، وكان ابن مسعود ﷺ يقول: (قال لي: لقد ارتقيت مرقىٰ صعبًا يا رويعي الغنم. قال: ثم احتززت رأسه، ثم جئت به رسول الله ﷺ)[٣].

وممن قُتِلَ أميةُ بنُ خلف وابنه عليّ، أسرهما عبد الرحمن بن عوف -رضي الله تعالىٰ عنه-، فلما رآهما بلال -رضي الله تعالىٰ عنه- وكان عبدًا مملوكًا عند أُمية، فلما أسلم كان يُعذّبه علىٰ الإسلام ويخرجه إلىٰ رمضاء مكة، ويضع في رقبته الحبل ويسلمه للأطفال يدورون به في السكك، فلما رأىٰ بلالٌ -رضي الله تعالىٰ عنه- أميةَ، صرخ رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا. قال عبد الرحمن بن عوف -رضي الله تعالىٰ عنه-: أي بلال، أَبِأَسِيرَيَّ؟ قال: لا نجوت إن نجا. قال: قلت أتسمع يا ابن السوداء، قال: لا نجوت إن نجا. قال: ثم صرخ بأعلىٰ صوته. يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا. قال: فأحاطوا بنا حتىٰ

---

(١) انظر في مقتل أبي جهل: صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٢٩٣) رقم (٣٩٦٣).

(٢) رواه الإمام أحمد، مسند الإمام أحمد، تحقيق وتخريج شعيب الأرناؤوط وزملائه (٧/ ٢٧٨- ٢٨٠) رقم (٤٢٤٦ و٤٢٤٧)، وقال المحقق عن كل من الحديثين: (إسناده ضعيف لانقطاعه). وانظر: ابن كثير، تفسير ابن كثير (٤/ ٧٥)، فقد قال: «وَلِهَذَا كَانَ أَبُو جَهْلٍ فِرْعَوْنَ هَذِهِ الْأُمَّةِ». وابن حجر، فتح الباري (١/ ٢٦) فقد قال: وقعت النقمة على يد النبي ﷺ بفرعون هذه الأمة، وهو أبو جهل بن هشام ومن معه ببدر».

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ٢٨٨).

جعلونا في مثل المسكة فضرب رجلٌ، عليّ بن أمية بن خلف فوقع، وصاح أمية صيحة ما سمعت مثلها قط. قال: فقلت: انجُ بنفسك ولا نجاء بك، فوالله ما أغني عنك شيئًا. قال: فهبروهما بأسيافهم حتىٰ فرغوا منهما[1].

وممن قتل أيضًا: العاصُ بنُ هشامٍ، وعبدُ الله بنُ الجراح والد أبي عبيدة، وحنظلةُ بنُ أبي سفيان، ونوفل بن خويلد، وأبو البختري بن هشام، وكان رسول الله ﷺ قد أوصىٰ به خيرًا، ولكنه أبىٰ إلا أن يُتْرَكَ هو وزميل له، فقالوا له: ما أمرنا الرسول ﷺ إلا بك وحدك، قال: «لا والله إذًا لأموتن أنا وهو جميعًا»[2]، وغير هؤلاء كثير.

وانتزع أبو اليسر، كعب بن عمرو الأنصاري السلمي -رضي الله تعالىٰ عنه، وعمره عشرون سنة فقط- لواء الكفار من حامله أبي عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير -رضي الله تعالىٰ عنه-، كما أنه أَسَر العباسَ بن عبد المطلب يوم بدر، وكان رجلًا قصيرًا، والعباس رجل طويل ضخم جميل[3]؛ فقال له النبي ﷺ: «لقد أعانك عليه ملك كريم»[4].

ومع زوال الشمس ذاك اليوم رجعت فلول من نجا من كفار قريش منهزمين مخذولين، وتفرقوا في الشعاب، والأودية، يلتمسون النجاة، ويبحثون عن السلامة من القتل أو الأسر، لا يجرأ أحد منهم أن يدخل مكة من الخزي والعار، وخلّفوا وراءهم جثث زعمائهم ومعسكرًا كاملًا مليئًا بالغنائم.

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ١٩٩).
(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٢٧٠).
(٣) مسند الإمام أحمد (٥/ ٣٣٥) رقم (٣٣١٠)، وقال المحقق: «حسن، وهذا إسناد ضعيف لإبهام راويه عن عكرمة».
(٤) انظر: ابن عبد البر، الاستيعاب (٤/ ١٧٧٦). و(٣/ ١٣٢٣).

وفي جانب الفريق المسلم كان النصر من الله -جل شأنه-، والتمكين من رؤوس الكفر وأموالهم؛ حيث أمر رسول الله ﷺ بزعماء قريش القتلىٰ فَنُقِلَ بعضهم من مصارعهم التي كانوا بها إلىٰ قليب بدر، فطُرحوا فيها، إلا ما كان من أمية بن خلف، فإنه انتفخ في درعه، فملأها فألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة[(١)].

وأرسل رسول الله ﷺ مُبَشِّرَيْنِ إلىٰ المدينة: عبد الله بن رواحة -رضي الله تعالىٰ عنه- لأهل العالية، وزيد بن حارثة -رضي الله تعالىٰ عنه- لأهل المدينة راكبًا علىٰ ناقة رسول الله ﷺ، فطافا بالمدينة يهلِّلان ويكبِّران ويبشِّران أهلَ المدينة بالنصر العظيم.

ولما أراد المسلمون أن يقتسموا الغنائم التي غنموها في بدر اختلفوا، فقال الشباب الذين خرجوا يتعقبون الكفار: نحن الذين نفينا عنها العدو، ولولانا لما أصبتموها، وقال الرجال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ ونافحوا عنه: نحن خِفْنا علىٰ رسول الله ﷺ أن يُصيب منه العدو غرَّة، فاشتغلنا به عن جمع الغنائم، وقال الذين جمعوا الغنائم: نحن الذين استحوذنا عليها وليس لأحد فيها نصيب[(٢)]. فأمر رسول الله ﷺ أن تُجْمَعَ الغنائمُ حتىٰ يحكم الله حكمه فيها، فأنزل[(٣)] الله -سبحانه وتعالىٰ-: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال:١]، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر رسول الله ﷺ براحلته، فشُدَّ عليها رَحْلها، ثم مشىٰ وتبعه أصحابه حتىٰ قام علىٰ شفا القليب، وجعل ينادي بأسماء القتلىٰ الذين ألقوا في القليب «يا فلان بن فلان! ويا فلان بن فلان! أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا».

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٢٧٩).
(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٢٨٣-٢٨٤).
(٣) انظر: ابن كثير، تفسير ابن كثير (٢/ ٢٨٣).

فقال عمر ﵁: يا رسول الله كيف تكلم أجسادًا لا أرواح فيها؟ فقال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»[١].

ثم قفل الرسول ﷺ بالصحابة إلىٰ المدينة شاكرين لله حامدين له، وكان مع الرسول ﷺ الأسرىٰ السبعين، وقال ﷺ في شأنهم: «لو كان المطعم بن عدي حيًّا، ثم كلمني في هؤلاء النتنىٰ لتركتهم له»[٢]؛ أي تركتهم أحياء ولأطلقتهم تقديرًا لمواقفه؛ لأنه كان أجار النبي ﷺ يوم رجع من الطائف، ولأنه كان ممن شارك في إبطال صحيفة المقاطعة التي عُلقت في الكعبة، ونتج عنها مقاطعة قريش لبني هاشم والمطلب ثلاث سنين.

وقد فرَّق الرسول ﷺ الأسرىٰ بين أصحابه وأوصاهم بهم خيرًا، ونفذ الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- وصية رسول الله ﷺ، فهذا الأسير أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير يقول: (كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر فكانوا إذا قدّموا غداءهم أو عشاءهم خصوني بالخبز، وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها، فأستحيي فأردها، فيردها عليَّ لا يمسها)[٣]، واستشار الرسول ﷺ أصحابه في الأسرىٰ، فأشار أبو بكر باستبقائهم وأخذ الفداء، وأشار عمر بن الخطاب ﵁ بقتلهم، فمال الرسول ﷺ إلىٰ الفداء، وأنزل الله -سبحانه وتعالىٰ-: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال:٦٧-٦٨][٤].

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٣٠٠-٣٠١) رقم (٣٩٧٦).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح (٦/ ٢٤٣)، حديث رقم (٣١٣٩).
(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٢٨٨).
(٤) انظر: صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٥) رقم (١٧٦٣).

يقول ابن الأثير -رحمه الله تعالىٰ- في «أُسد الغابة» في شأن العباس -رضي الله تعالىٰ عنه- وكان من ضمن الأسرىٰ: «وكان -أي العباس- ممن خرج مع المشركين إلىٰ بدر مُكرهًا، وأُسر يومئذ فيمن أُسِرَ، وكان قد شُدَّ وثاقه، فسهر النَّبِي ﷺ تلك الليلة ولم ينم، فقال له بعض أصحابه: ما يسهرك يا نبي الله؟ فقال: «أسهر لأنين العباس»، فقام رجل من القوم فأرخىٰ وثاقه، فقال له رَسُول اللهِ ﷺ: «مالي لا أسمع أنين العباس؟»، فقال الرجل: أنا أرخيت من وثاقه فقال رَسُول اللهِ ﷺ: «فافعل ذلك بالأسرىٰ كلهم»[1].

وبدأت قريش ببعث فداء الأسرىٰ ومَنَّ الرسولُ ﷺ علىٰ بعض الأسرىٰ بإطلاقهم دون فداء؛ لكونهم فقراء لا يملكون شيئًا؛ مثل أبو عزة الشاعر، ومنهم من كان فداؤه تعليمَ عشرةٍ من غلمانِ المدينةِ القراءةَ والكتابةَ[2]. عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: (كان ناس من الأسرىٰ يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ، فداءهم أن يُعلّموا أولاد الأنصار الكتابة)[3].

وكان قد اسْتُشْهِدَ يوم بدر من المسلمين أربعةَ عَشَرَ رجلًا؛ ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار؛ ستة من الخزرج، واثنان من الأوس.

قال ابن عبد البر -رحمه الله تعالىٰ- في تَسْمِيَة من اسْتشْهد ببدر من الْمُسلمين: (فَائِدَة: هَذِه التَّسْمِيَة معرفَة الْحق لأهل الْحق، وفضيلة السَّبق لأهل السَّبق، وَحسن الْعَهْد وتجديد الذّكر، والمسارعة إِلَىٰ الدُّعَاء لَهُم بالرضوان والغفران علىٰ الْيَقِين: عُبَيْدَة بْن الْحَارِث بْن الْمطلب بْن عَبْد منَاف، وَعُمَيْر بْن أبي وَقاص -وَكَانَت سنّه فِيمَا ذكرُوا يَوْم قتل سِتَّة عشر أَو سَبْعَة عشر عَامًا- وَعُمَيْر بْن الْحمام من بني سَلمَة

(١) ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة (٣/ ١٦٣).

(٢) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ٣٢٨)، والشامي، سبل الهدى (٤/ ١٠٤- ١٠٥)، وأبو شهبة، السيرة النبوية (٢/ ١٦٤- ١٦٥).

(٣) الإمام أحمد، المسند (٤/ ٩٢) رقم (٢٢١٦)، وحسن الحديث محقق المسند.

من الْأَنْصَار، وَسعد بْن خَيْثَمَة بْن بني عَمْرو بْن عَوْف من الْأَوْس، وَذُو الشمالين بْن عَبْد عَمْرو بْن نَضْلَة الْخُزَاعِيّ حَلِيف بني زهرَة. ومبشر بْن عَبْد الْمُنْذر الْأَنْصَارِيّ من بني عَمْرو بْن عَوْف، وعاقل بْن البكير اللَّيْثِيّ حَلِيف بني عدي بْن كَعْب، وَمهجع مولىٰ عمر بْن الْخطاب رضي الله عنه، وَصَفوَان بْن بَيْضَاء الفِهري، وَيزِيد بْن الْحَارِث الْأَنْصَارِيّ من بني الْحَارِث بْن الْخَزْرَج، وَرَافِع بْن الْمُعَلَّىٰ الْأَنْصَارِيّ، وحارثة بْن سراقَة الْأَنْصَارِيّ من بني النجار، وعَوْف ومعوذ ابْنا عفراء. الْجَمِيع أَرْبَعَة عشر رجلًا: سِتَّة من الْمُهَاجِرين، وَثَمَانِية من الْأَنْصَار: سِتَّة من الْأَوْس وَاثْنَانِ من الْخَزْرَج)[1]؛ رضي الله تعالىٰ عنهم وأرضاهم، وجزاهم عن الرسول ﷺ والإسلام وأهله خير الجزاء، وجمعنا بهم في أعالي جناته؛ إنه جواد كريم.

وكان من قصة سعد بن خيثمة -رضي الله تعالىٰ عنهما-، وهو أحد شهداء بدر أن الرسول ﷺ لما ندب الناس يوم بدر فأسرعوا، قال خيثمة لابنه سعد -رضي الله تعالىٰ عنهما-، آثرني بالخروج مع الرسول ﷺ، وأقم مع نسائك! فأبىٰ، وقال: لو كان غير الجنة آثرتك بها. فاقترعا، فخرج سهم سعد، فخرج، واستشهد في بدر، واستشهد أبوه خيثمة -رضي الله تعالىٰ عنه- يوم أُحُد[2].

وهكذا انتهت غزوة بدر بنصر عظيم للمؤمنين وهزيمة فاصلة، شديدة قاسية علىٰ الكفر والكافرين، والحمد لله رب العالمين.

الفوائد المستخرجة من غزوة بدر الكبرىٰ

الأولىٰ: جزاء السيئة بمثلها، فإن قريشًا اعتدت علىٰ المؤمنين وآذتهم في دينهم وأهلهم وأموالهم وديارهم حتىٰ خرج الرسول ﷺ وأصحابه المهاجرون من أوطانهم

(١) ابن عبد البر، الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق شوقي ضيف، الطبعة الثانية (دار المعارف، القاهرة ١٤٠٣)، (ص ١٠٩).
(٢) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (١/ ٢٦٦).

وأهليهم وأموالهم، فاعتراض العير حينئذ ومحاولة الاستيلاء علىٰ ما فيها من أموال إنما هو عمل سائغ مشروع، عدل لا ظلم فيه، بالإضافة إلىٰ أن المسلمين كانوا في حالة حرب مع كفار قريش، والحربيّ يجوز الاستيلاء علىٰ أمواله، وبالتالي فهناك سبب خاصّ وآخر عام، سَوَّغَ للمسلمين الخروجَ لملاقاة العير ومحاولة الاستيلاء علىٰ ما فيها من أموال لكفار قريش.

الثانية: إن المسلمين خرجوا بقصد الاستيلاء علىٰ الأموال التي كانت مع العير، فكان خروجهم لهذه الغاية، واستعدادهم علىٰ قدر تحقيق هذا الهدف، وهو ملاقاة ما يقارب السبعين رجلًا في سلاح عادي، وبقصد أخذ ما معهم من تجارة، ولكن الله -جل شأنه- أراد لهم ما هو أسمىٰ وأعلىٰ من ذلك وأعظم تأثيرًا في الإسلام وأوقع ألمًا في الكفار، وأنفع لهم، وهو ملاقاة النفير ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنفال:٧].

فإحقاق الحق وقطع دابر الكافرين غاية أعلىٰ من مجرد ما يتحقق من استيلاء علىٰ قافلة تجارية فيها أموال الكفار رغم ما في هذا من خير، لكنَّ قطع رؤوس الكفر في بدر أنفع، مع ما حصل فيه من غنائم وأسرىٰ أخذوا منهم الفداء. فالخير فيما اختاره الله -جل شأنه-، وقد يريد العبد شيئًا ويحرص عليه، ويريد الله له -تكريمًا له- غير ذلك مما هو خير له في العاجلة والآجلة.

الثالثة: خروج الرسول ﷺ للترصد للعير والاستيلاء علىٰ ما فيه من أموال، قد يقول قائل، هذا من إرادة الدنيا، فالجواب عن ذلك أن نقول:

أولًا: إن الاستيلاء علىٰ مال الحربي، إضعافٌ للعدو، وتقويةٌ للمسلمين، وهذا مطلب شرعي نفعُه عامّ للإسلام والمسلمين، ومن الأعمال الصالحة، قال في سبل السلام: (طلب المغنم لا ينافي الجهاد، بل إذا قصد بأخذ المغنم إغاظة المشركين

والانتفاع به على الطاعة كان له أجر؛ فإنه -تعالى- يقول: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ [التوبة:١٢٠]، والمراد النيل المأذون فيه شرعًا)[١]. وقال أيضًا: (ثم إنه قد يقصد المشركين لمجرد نهب أموالهم كما خرج رسول الله ﷺ بمن معه في غزاة بدر لأخذ عير المشركين، ولا ينافي ذلك أن تكون كلمة الله هي العليا، بل ذلك من إعلاء كلمة الله -تعالى-؛ وأقرهم الله -تعالى- على ذلك)[٢].

ثانيًا: إن بعض العبادات ورد فيها جواز طلب الدنيا إذا كان الشخص مستحضرًا ما حضَّ الشارع عليه من العبادة؛ فعن أبي قتادة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «من قتل قتيلًا له عليه بينة؛ فله سَلَبه»[٣]. وعن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه-، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «مَن سرَّه أن يُبْسَط له في رزقه، أو يُنْسَأ له في أثره، فليصل رحمه»[٤]. فهنا نجد الشارع حضَّ على قتال العدو بذكر ثواب دنيوي، ورغَّب في صلة الرحم بذكر ثواب دنيوي، وهو بسط الرزق ونسأ الأجل. ولا شك أن الشارع ما حضَّ بذكر الدنيا إلا لأنه أذن أن يكون ذلك مطلوبًا[٥].

وقتال الأعداء مما وعد الله عليه بالعطاء الدنيوي؛ قال -تعالى-: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال:٤١].

---

(١) الصنعاني، سبل السلام (٢/ ٤٦٤).
(٢) الصنعاني، سبل السلام (٢/ ٤٦٤).
(٣) صحيح البخاري (٤/ ٩٢) رقم (٣١٤٢)، وصحيح مسلم (٣/ ١٣٧٠) رقم (١٧٥١).
(٤) صحيح البخاري (٣/ ٥٦) رقم (٢٠٦٧)، وصحيح مسلم (٤/ ١٩٨٢) رقم (٢٥٥٧).
(٥) انظر: صالح آل الشيخ، شرح الأربعين النووية (الرياض: دار الحجاز للنشر ١٤٣٦)، (ص ٣٨).

الرابعة: كان رسول الله ﷺ يعتقب علىٰ بعير هو وعلي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد الغنوي –رضي الله تعالىٰ عنهما–، ولما جاءت نوبة الرسول ﷺ في المشي قالا له: يا رسول الله، نحن نمشىٰ عنك، فقال: «ما أنتما بأقوىٰ مني، ولا أنا أغنىٰ عن الأجر منكما»، وبهذا نرىٰ كيف أن الرسول ﷺ يربّي أصحابه علىٰ أمور:

الأمر الأول: عظيم تواضعه ﷺ يمشي إلىٰ بدر التي تبعد عن المدينة قرابة (١٥٠) كيلو، علىٰ أقدامه، وهو سيد الخلق وأكرمهم عند الله وأعلاهم منزلة؛ يبتغي بذلك نصرة هذا الدين وكسر أعداء الله المشركين.

الأمر الثاني: الإنصاف من النفس، فلم يقبل الرسول ﷺ أن يؤثره أصحابه، وأن يفضل عليهم وأن يركب ويدعهما يمشيان، بل يشاركهما في التعب والنصب والأجر، وهذا مهم في التربية، ينبغي أن يرعاه ويهتم به الآباء والدعاة والمربون والمعلمون؛ فالشخص –مثلًا– مع زوجته ومع أولاده، ومع زملائه يحرص أن يشارك في العمل، ولا يُطاوع نفسه الميالة للراحة والكسل؛ بل يتأسىٰ بالرسول ﷺ: «ما أنتما بأقوىٰ مني»، فهو أقوىٰ في التعليم والتأثير.

الأمر الثالث: طلب الأجر، والتماس ما عند الله –جل شأنه–، يقول ﷺ «ولا أنا أغنىٰ عن الأجر منكما»، فلا ينظر الإنسان إلىٰ ما تميل له نفسه من الراحة والكسل، بل ينظر ما هو أطيب له عند الله وأعظم منزلة، فما عند الله خير وأبقىٰ.

الخامسة: خرج المسلمون مع الرسول ﷺ يريدون العير، والله –جل شأنه– يريد النفير؛ لما في ذلك من الخير ما يفوق الاستيلاء علىٰ العير، فينبغي للمؤمن أن يُعوّد نفسه التسليم والرضا لما يختاره الله له، فهو الخير، وإن خَفِيت عليه العاقبة، والشخص لا علم له بالعواقب، وما تنتهي إليه الأمور[١]. ولو علموا بحسن العاقبة ما اختاروا غير النفير.

---

(١) انظر: الرفاعي، مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٧٣).

السادسة: في قوله -سبحانه وتعالىٰ-: ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾ [الأنفال:٤٢]؛ يتبين أن ما جرىٰ هو تدبير رباني من الله -سبحانه وتعالىٰ-، وليس بترتيب بشري، فالله -جل شأنه- يُدبِّر؛ يُدبِّر لدينه ويُدبِّر لعباده، فلا تَخَف علىٰ هذا الدين، فله رَبّ يُدبِّر له ويحميه، ولكن خفْ علىٰ نفسك من التقصير فيما أمرك الله -جل شأنه- به.

من تأمل سيرة المصطفىٰ ﷺ من بدايتها إلىٰ نهايتها، يجد تدبير الله -جل شأنه- ظاهرًا جليًّا، والكفار يمكرون، ويقلب الله مكرهم عليهم؛ بل إن مكرهم هو جزء من هذا التدبير لنصرة الدين، من حيث لا يشعرون.

والله كما يدبر لدينه فهو يدبر لعباده، بما فيه صلاحهم وفلاحهم، وإن كانوا أحيانًا لا يرون هذا الصلاح أو الفلاح في عاجل أمرهم، ولو كُشِفَ لهم لطف الله وتدبيره لهم ما أحبوا غيره، ولطاروا فرحًا به. فأبشر يا أخي بخيرٍ من تدبيرك، وأتقن من تخطيطك، وأنفع من اختيارك.

السابعة: في قصة حذيفة ووالده -رضي الله تعالىٰ عنهما- اللَّذَيْنِ قبض عليهما المشركون، ولم يطلقوهما إلا بعد أن أخذوا عليهما عهدًا ألَّا ينصرا المسلمين عليهم، وقول الرسول ﷺ: «نفي لهم، ونستعين بالله عليهم»؛ نأخذ منها فائدتين:

أ. مكانة الوفاء بالعهد.

ب. التربية النبوية للصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين-، فإن الوفاء بالعهد هنا -كما يظهر- غير لازم؛ ولكنَّ الرسول ﷺ أراد أن يُعَلِّم أصحابه ترك المصلحة إذا كان فيها دَفْع لمفسدة أكبر، يقول النووي -رحمه الله تعالىٰ-: (أمرهما النبي ﷺ بالوفاء، وهذا ليس للإيجاب، فإنه لا يجب الوفاء بترك الجهاد مع الإمام ونائبه، ولكن أراد النبي ﷺ ألَّا يشيع عن أصحابه نَقْض العهد، وإن كان لا يلزمهم

ذلك؛ لأن المشيع عليهم لا يذكر تأويلًا)[1]. وقد يترك الشخص أمرًا لا لكون تركه واجبًا، وإنما تركه تربيةً وتعليمًا.

الثامنة: لما علم الرسول ﷺ بخبر خروج النفير ونجاة العير استشار أصحابه في ملاقاة العدو، وفي هذه المشورة نستفيد ما يلي:

١. مشروعية الشورىٰ في الأمور التي لا نص فيها من قبل الشارع، فالأمور الطارئة التي لم يرد فيها نص من الكتاب أو السنة يُشرَع التشاور فيها للوصول إلىٰ رأي يختاره الإمام، يراه هو الأصح بعد إجراء المشورة، والتعرف علىٰ وجوه الرأي والبحث عن أصوبها وأرشدها.

٢. كانت مشورة الرسول ﷺ لأصحابه بمثابة اختبار لمعرفة مدىٰ استعدادهم للقاء العدو؛ رغم قلة العدد والعُدَّة في مقابل عدو مجهَّز بعددٍ كبير من الرجال وعُدَّة كاملة من السلاح.

٣. في طريقة طرح الشورىٰ كان للرسول ﷺ أسلوب فريد عندما كان يكرر كلمة: «أشيروا عليَّ أيها الناس»؛ حيث تكلم أبو بكر رضي الله عنه، ثم تكلم عمر رضي الله عنه، ثم تكلم المقداد رضي الله عنه ومع ذلك لا يزال الرسول ﷺ يكرر كلمة: «أشيروا علي أيها الناس»؛ لأنه كان يريد الأنصار، ويود معرفة رأيهم، فهم الذين بايعوه بيعة العقبة الثانية علىٰ أن يدافعوا ويقاتلوا معه ما داموا في المدينة، والقتال الآن خارجها، ومع ذلك لم يكن يسمي الأنصار، بل يقول: «أشيروا عليَّ أيها الناس»؛ حتىٰ تحدَّث سعد بن عبادة وسعد بن معاذ -رضي الله تعالىٰ عنهما-، فسُرّ الرسول ﷺ بقولهما، وانشرح صدره.

---

(١) النووي، شرح صحيح مسلم (١٢ / ٤٧٨)، تحقيق علي أبو الخير وزملائه، الطبعة الخامسة (بيروت: دار الخير للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٢٠هـ).

التاسعة: في استشارة الرسول ﷺ للصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- مع أنه أكمل منهم، يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (أخرج ابن أبي حاتم بسندٍ حَسَن عن الحسن -رحمه الله تعالىٰ- قال: قد علم أنه ما به إليهم حاجة، ولكن أراد أن يستنَّ به من بعده)[١].

العاشرة: خرج رسول الله ﷺ مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو في مقربة من بدر حتىٰ وقفا علىٰ شيخ من العرب، فسألاه، فأبىٰ أن يجيبهما إلا أن يعرف من هما، فوعده الرسول ﷺ أن يخبره، فأخبرهم الشيخ عما يعرفه من أخبار النفير وأخبار جيش الرسول ﷺ، فلما سألهما ممن أنتما؟ قال الرسول ﷺ: «نحن من ماء»، ولم يعطه إجابة محددة تنفعه، وهذه من التوريات البديعة التي يلجأ إليها الفرد حينما يحتاج إلىٰ إخفاء الحقيقة دون أن يدرك السائل ذلك، ودون أن يقع في محذور، فمراد النبي ﷺ بكلمة: «نحن من ماء»؛ أي: الماء الذي خُلِقَ منه كُلُّ كائنٍ حيٍّ، فهو أجاب الشيخ الأعرابي لكن بجواب صادق لا فائدة فيه للشيخ، وهذا مخرج للمسلم يستطيع أن يستفيد منه كي يتجنب الكذب في المواقف المحرجة.

الحادية عشرة: لما بُنِيَ للرسول ﷺ عريشٌ؛ ليكون فيه يشرف منه علىٰ الواقعة كان معه في العريش أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وفي هذا خصيصة لأبي بكر الصديق، فهو الذي معه في الغار، وهو الذي معه في العريش؛ يقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (فهذه خصوصية للصِّدِّيق؛ حيث هو مع الرسول ﷺ في العريش؛ كما كان معه في الغار رضي الله عنه وأرضاه)[٢].

الثانية عشرة: يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة حتىٰ أصبح)؛ نستفيد من هذا سُنة عمليَّة في مشروعية اللجوء إلىٰ الله، والفزع إليه، وبخاصة في الشدائد.

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (١٣ / ٣٤٠).

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ٢٧٢).

وهو منهج للمسلم يسلكه في قضاء حوائجه - وما أكثرها-؛ لا تفزع إلىٰ بشر، وإنما افزع إلىٰ ربّ البشر -سبحانه وتعالىٰ-؛ عبادةً وتأسيًا وطلبًا للعطاء من الله، تأسيًا برسول الله ﷺ الذي قضىٰ ليلة بدر يصلي حتىٰ أصبح.

ومن جانب آخر نستفيد فائدة أخرىٰ؛ فقد ورد في صحيح مسلم عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-: (وما رأيت رسول الله ﷺ قام ليلة حتىٰ الصباح)[1]. وهنا يقول علي رضي الله عنه أن الرسول ﷺ يصلي حتىٰ أصبح، فيكون هذا في الأمور الطارئة، التي يلجأ فيها المؤمن إلىٰ ربه رجاءَ نصر أو تفريج كرب أو كشف همّ أو دفع بلاء متوقَّع، ويكون حديث عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- في الأمور المعتادة؛ حتىٰ لا يشق المؤمن علىٰ نفسه.

ونستفيد فائدة ثالثة، وهي أن الدعاء مشروع فيه الإلحاح، أي تكرار الدعاء، فإذا دعوت فأَلِحَّ علىٰ ربك، وكَرِّر دعاءك، يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (ومن أنفع الأدوية، الإلحاح في الدعاء)[2].

الثالثة عشرة: بعث إيماءة الغفاري إلىٰ كفار قريش بمدد وعرض عليهم المزيد من الرجال والسلاح، ولكنهم قالوا له: «إن كنا نقاتل محمدًا، فمعنا من الرجال ما يكفي لقتال محمد، وإن كنا نقاتل رب محمد، فلا طاقة لأحد برب محمد»؛ هذه العبارة قالها قوم وثنيون جاهليون، وغفل عمليًّا عنها في عصرنا قوم مسلمون، ألسنا بحاجة إلىٰ التذكير بالثقة بنصر الله؟ وأن المؤمن يتميز بأنه لا يقاتل ولا يواجه العدو بنفسه، وإنما بتوفيق الله وتسديده وتأييده ومعونته ونصره، وهذا هو الفارق بين جهادنا وقتالهم.

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٥١٦) رقم (٧٤٦).

(٢) ابن القيم، الجواب الكافي، تحقيق: محمد أجمل إصلاحي، الطبعة الرابعة (الرياض: دار عطاءات العلم ١٤٤٠)، (ص ١٣). أما ما يروى «إن الله يحب الملِحّين في الدعاء» فهذا لا يصح حديثًا عن الرسول ﷺ، قال عنه الألباني في إرواء الغليل (٣/ ١٤٣) رقم (٦٧٧): «موضوع».

الرابعة عشرة: لما بلغ كفار قريش خبر نجاة العير، ورأوا جمع المسلمين كرهوا اللقاء، فسعىٰ عتبة بن ربيعة وحكيم بن حزام للرجوع بالجيش، وترك الحرب، وساندهم بعض من كبراء قريش، إلا أن أبا جهل أبَىٰ إلا المضي في طريق الحرب، وقال: «والله لا نرجع حتىٰ نردَ بدرًا، ونقيمَ عليه ثلاثًا فننحر الجُزُر، ونُطعم الطعام، ونَسْقِي الخمر، وتعزف علينا القيانُ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجَمْعِنَا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها»؛ وأيده في ذلك عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث. وكل منهما من شياطين قريش، فسايروا طاغوت قريش بهذا الرأي.

وقفت عند جبروت أبي جهل وإصراره علىٰ هذه الرأي والاستماتة في سبيله، -رغم أنه لم يكن قائد الجيش-؛ فاستيقنت أنه تدبير إلهي من الحكيم الخبير؛ ليتم اللقاء، ويتحمل هذا الطاغوت كِبَر إثم قومه، ويتحقق النصر والفتح المبين، ولكي تدرك شيئًا من الحكمة؛ تأمل، ماذا لو أن هذا الرجل أصغىٰ لمشورة عقلاء قومه كعتبة بن ربيعة وحكيم بن حزام، بعد نجاة قافلة العير، وعاد بالجيش إلىٰ مكة، سيعود الجيش الإسلامي لم يحقّق شيئًا، فلم يدرك الأموال التي مع العير، ولم يُقتَل رؤوس الكفر، ولم يحصل للمسلمين غنائم النفير وأسراهم. وكان خروج المسلمين جهدًا ليس له كبير فائدة أمام العدو، ويكون كفار قريش قد سلمت لهم أموالهم، وحفظت لهم قوتهم العسكرية، وحقنوا دماءهم، وبقيت لهم هيبتهم في العرب.

لكن الله -جل شأنه- أراد، بفضله ومنّه وإحسانه، الأمر الأعلىٰ الأتم للفئة المسلمة، فسخَّر وسلَّط هذا الطاغوت ليستغلَّ سطوته فيهم ويُجبر قومه علىٰ اللقاء وهم كارهون، فتقع الهزيمة العظيمة، ويكون هو من أول قتلاها، والله -جل شأنه- إذا أراد أمرًا سخَّر له حتىٰ العدو وجَنَّده في سبيل إتمامه. تأمل قول الله -تعالىٰ-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٣].

ولست أتجاوز الحقيقة -إن شاء الله تعالىٰ- أن هذا الأمر يشمل قضايا المسلمين العامة والخاصة، الجماعية منها والفردية في كل العصور، متىٰ كان إلىٰ الله وحده اتجاهنا، وتعلقت به قلوبنا، وكنا عبادًا لله صالحين، فإن الله يُسخّر لك عدوك، رغمًا عنه -من حيث لا يشعر- لإمضاء الخير الذي يريده الله لك من العدو نفسه.

الخامسة عشرة: وقفت عند قول أبي جهل، عندما جاءه فئة من قومه يدعونه للسلم فيأبىٰ في كبريائه ويقول: «والله لا نرجع حتىٰ نردَ بدرًا، فنقيمَ عليه ثلاثًا فننحر الجُزُر، ونطعم الطعام، ونَسْقِي الخمر، وتعزف علينا القيانُ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجَمْعِنَا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها»؛ لاحظ ماذا يريد هذا الطاغوت، كل أعماله تجبُّر ومَعَاصٍ، يريد أن ينحر الجُزُر ويطعم الطعام مفاخرةً ومباهاةً، وتجبرًا في الأرض علىٰ الناس، ويريد أن يسقي الناس الخمر ويقضي لياليه مع عزف علىٰ القيان؛ أي العبيد والإماء الذين يعزفون مع الأغاني، ويريد أن تهابه العرب، ثم انظر ماذا حصل له من أمانيه؟!

تلك الليالي التي كان ينوي أن يقضيها مع المفاخرة والخمور والقيان والعزف والغناء، باتها في قليب بدر جثة متعفنة مع جمع من جثث كبراء قومه، الذي لم ينفعهم طاعته والسير خلف رأيه، والحمد لله رب العالمين.

السادسة عشرة: وقفت عند محاولة إقدام عدد من كفار قريش علىٰ الشرب من الحوض، وجميعهم قُتِلَ دون الحوض إلا ما كان من حكيم بن حزام فإنه نجا من سيوف المسلمين، وكتب الله له الإسلام فيما بعد وحسُن إسلامه، وكان إذا اجتهد في يمينه يقول: «والذي نجاني يوم بدر»؛ لقد وقف الرجل علىٰ الباب، باب النار -والعياذ بالله-؛ فقد قُتل جميع من غامر ليشرب من حوض ماء المؤمنين، وأُخِذَ إلىٰ الجحيم كما يظهر، إلا حكيم بعد أن وقف معهم علىٰ الباب ولم يبقَ إلا أن يرتفع عليه سيف من سيوف المسلمين ليلحق بصَحْبه، لكن جاء فضل الله، لينجو ثم يُسْلم ويحسن إسلامه ويدخل في صحب الرسول الكرام.

أيّ خبيئة أو عمل كان سببًا لذلك؟! تذكر كتب السُّنة أن الرجل كان له أعمال إحسان كثيرة، فعن عروة بن الزبير -رضي الله تعالىٰ عنهما- أن حكيم بن حزام -رضي الله تعالىٰ عنه- أخبره أنه قال لرسول الله ﷺ: أيْ رسول الله! أرأيتَ أمورًا كنت أتحنث بها في الجاهلية من صدقة أو عتاقة أو صلة رحم أفيها أجر؟ فقال رسول الله ﷺ: «أسلمتَ علىٰ ما أسلفتَ من خير»[1]. فلعل الله -جل شأنه- كتب له الرحمة ونجَّاه بتلك الأعمال التي كان يعملها، يرحم بها مسكينًا، ويطعم بها جائعًا، ويقضي بها حاجة محتاج.

قال القاضي عياض -رحمه الله تعالىٰ- في كتابه إكمال المعلم في فوائد مسلم شرحًا لقول النبي ﷺ لحكيم -رضي الله تعالىٰ عنه-: (وقيل: معناه: ببركة ما سبق لك من خير هداك الله إلىٰ الإسلام، أي سبق لك عند الله من الخير ما حملك علىٰ فعله في جاهليتك، وعلىٰ خاتمة الإسلام لك، وأنَّ من ظهر منه خير في مبتدئه، فهو دليل علىٰ سعادة أخراه وحسن عاقبته)[2]. ولا يضيع عند الله -جل شأنه- شيء.

السابعة عشرة: في قصة سواد بن غزية رضي الله عنه الذي طلب القصاص من الرسول ﷺ حينما طعنه في بطنه بقضيب، وقال له: «استقم يا سواد»، ثم كشف عن بطنه للاقتصاص، فقبَّل بطن الرسول ﷺ، في هذه القصة أمران:

١. شدة محبة الصحابة -رضي الله عنهم- لرسول الله ﷺ.

٢. عظمة الرسول ﷺ وطيب خُلقه حينما كشف عن بطنه، ومكَّن سوادًا من القصاص عن طيب خاطر[3]، وهو غاية العدل الذي يمكن أن يتصوره الشخص.

(١) صحيح البخاري (٢/ ١٤١) رقم (١٤٣٦)، ومسلم، صحيح مسلم (١/ ١١٣) رقم (١٢٣).
(٢) إكمال المعلم في فوائد صحيح مسلم، تحقيق يحْيَى إِسْمَاعِيل، الطبعة الأولى، (دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع: مصر١٤١٩)، (١/ ٤١٦)، وانظر مثل ذلك: المباركفوري، مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٩٥).
(٣) انظر: أبو شهبة، السيرة النبوية (٢/ ١٤٠).

الثامنة عشرة: في دعاء الرسول ﷺ وهو في العريش حتىٰ سقط الرداء، وقول الله -جل شأنه-: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩]؛ مشروعية الدعاء، والإلحاح فيه، وبخاصة في الشدائد، قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (ومن أنفع الأدوية: الإلحاح في الدعاء... وفي كتاب الزهد للإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ- عن قتادة -رحمه الله تعالىٰ- قال: قال مورق -رحمه الله تعالىٰ-: (ما وجدت للمؤمن مثلًا، إلا رجل في البحر علىٰ خشبة، فهو يدعو: يا رب يا رب؛ لعل الله -عز وجل- أن ينجيه)[(١)].

ونحن كثيرًا ما نغفل عن الدعاء في مهماتنا، أو ندعو ثم نتوقف لتأخر الإجابة، ولو استحضرنا أن الدعاء هو العبادة، وأنه سلاح المؤمن؛ سلاح المؤمن في دقائق الأمور وصغارها -فضلًا عن كبارها وشدائدها- لَماَ تهاونَّا به وغفلنا عنه.

وبعض الناس يقول: ما عندنا إلا الدعاء؟ وهذا خطأ جسيم، كأنه يستقلّ أو ينتقص من منزلة الدعاء، نقول له: عندنا الدعاء الذي هو أعظم سلاح لنا، السلاح الأهم الذي يُميّزنا عن أعدائنا، ومن استقرأ قَصص الأنبياء في القرآن وجد أن من أكثر ما ذُكِرَ لنا عنهم كثرة دعائهم، واستجابة الله لهم، ترغيبًا لنا في الدعاء، وفي سورة الأنبياء نماذج كثيرة من ذلك[(٢)].

---

(١) ابن القيم، الجواب الكافي (ص ١١). أما حديث: «إن الله يحب الملحين في الدعاء»؛ فلا يصح، وقال الألباني في الإرواء (٣/ ١٤٣) رقم (٦٧٧): «موضوع».

(٢) قال -تعالى- في قصة نوح -عليه السلام-: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٧]، وفي شأن أيوب -عليه السلام-: قال -تعالى-: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤]، وقال -تعالى-: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٩٠].

التاسعة عشرة: فضيلة الجهاد في سبيل الله؛ قال ﷺ: «قوموا إلىٰ جنة عرضها السماوات والأرض»[1]، وأثر ذلك علىٰ عمير بن الحمام رضي الله عنه الذي سمع هذا القول، فألقىٰ التمرات التي معه، وقام طلبًا لهذه المنزلة العظيمة في الجنة حتىٰ قُتِلَ في سبيل الله.

العشرون: اليقين المستقر في قلوب الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-، حتىٰ كأنهم يرون الجنة عيانًا، يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- وهو يتحدث في منزلة اليقين في كتابه العظيم «مدارج السالكين»: (وتأمل حال ذلك الصحابي الذي أخذ تمراته، وقعد يأكلها علىٰ حاجة وجوع وفاقة إليها، فلما عايَن سوق الشهادة قامت؛ ألقىٰ قوته من يده، وقال: إنها لحياة طويلة إن بقيت حتىٰ آكل هذه التمرات، وألقاها من يده، وقاتل حتىٰ قُتل[2]، وكذلك أحوال الصحابة -رضي الله عنهم- كانت مطابقة لما أشار إليه)[3].

الواحدة والعشرون: نهىٰ الرسول ﷺ أن يُقْتَل أحدٌ من بني هاشم، كما نهىٰ عن قتل أبي البختري بن هشام؛ وذلك لكون بعض بني هاشم خرج مستكرهًا، ولهم -عمومًا- مواقف في حماية الرسول ﷺ ونُصرته عندما كان في مكة، ودخلوا معه الشِّعْب في المقاطعة، كما كان لأبي البختري مواقف جيدة، منها موقفه في نقض الصحيفة الظالمة، وإخراج بني هاشم من حصار الشعب. ولذلك نرىٰ هذا الموقف العظيم من الرسول ﷺ صلةً للرحم ووفاء لأصحاب الفضل[4]، وتذكرًا للجميل واعترافًا به، وهو ما ينبغي أن يتحلىٰ به المؤمن في تعامله.

---

(١) سبق تخرجه.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه رقم الحديث (١٩٠١) من حديث أنس -رضي الله تعالى عنه-، والصحابي كما مر قبل قليل هو عمير بن الحمام -رضي الله تعالى عنه- الذي استشهد في بدر.

(٣) ابن القيم، مدارج السالكين (٢/ ٣٧٩-٣٨٠).

(٤) انظر: أبو زهرة، خاتم النبيين (٢/ ٧٦٢)، وأبو شهبة، السيرة النبوية (٢/ ١٤٧).

الثانية والعشرون: وقفت عند قول الله -تعالىٰ-: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢]؛ ففي هذه الآية تثبيت للذين آمنوا، وإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا، وهذا من أعظم النِّعم الجليلة؛ وذلك لأن أمير النفس هو القلب، فلما بيَّن الله -تعالىٰ- أنه ربط علىٰ قلوب المؤمنين، بمعنىٰ أنه قوَّاها وأزال الخوف عنها، والجوارح تبع لذلك، ذكر أنه ألقىٰ الرعب والخوف في قلوب الكافرين، فكان ذلك من أعظم نعم الله -تعالىٰ- علىٰ المؤمنين(١)، ولك أن تتصور جيشين؛ الجيش الأول ربط الله علىٰ قلوبهم وثبَّتهم، والجيش المقابل ملأ الله قلوبهم رعبًا وخوفًا، فلمن سيكون النصر؟

وهذا يزيل ما في نفوس بعض المؤمنين من جعل موازين النصر والهزيمة مادية محسوسة، فماذا ينفع السلاح مع قلب امتلأ رعبًا، لن يعدو هذا السلاح أن يكون غنيمة باردة لمن ثبَّت الله قلبه، ولو لم يكن معه إلا العصا.

وهذه صورة من صور المدد الإلهي المتجدّد للمؤمنين، والخذلان لأعداء الله؛ ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم:٢٧].

الثالثة والعشرون: في تأمل من تأملات ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- التي يربط فيها بين الأسماء وأثرها، يقول -رحمه الله تعالىٰ-: (وتأمل أسماء الستة المتبارزين يوم بدر كيف اقتضىٰ القدر مطابقة أسمائهم لأحوالهم يومئذ، فكان الكفار شيبة وعتبة والوليد، ثلاثة أسماء من الضعف، فالوليد له بداية الضعف، وشيبة له نهاية الضعف، كما قال -تعالىٰ-: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم:٥٤]، وعتبة من العتب، فدلت

(١) انظر: الرازي، التفسير الكبير (١٥/ ٤٦٣).

أسماؤهم علىٰ عتب يحلّ بهم، وضعف ينالهم، وكان أقرانهم من المسلمين عليّ، وعبيدة، والحارث[١] -رضي الله عنهم-، ثلاثة أسماء تناسب أوصافهم، وهي العلو والعبودية، والسعي الذي هو الحرث، فعلوا عليهم بعبوديتهم وسعيهم في حرث الآخرة)[٢].

الرابعة والعشرون: في كيفية مقتل أبي جهل الذي قتله فَتَيَانِ من الأنصار، ورقىٰ ابن مسعود ﷺ حتىٰ احتز رأسه، وجاء به إلىٰ الرسول ﷺ، في هذه الكيفية يقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (وقال -تعالىٰ-: ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة ١٤-١٥]؛ فكان قتل أبي جهل علىٰ يد شاب من الأنصار، ثم بعد ذلك وقف عليه عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه- ومسك لحيته وصعد علىٰ صدره، حتىٰ قال: لقد رقيتَ مرتقىٰ صعبًا يا رويعي الغنم، ثم بعد ذلك حزَّ رأسه، واحتمله حتىٰ وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، فشفىٰ الله به قلوب المؤمنين، كان هذا أبلغ من أن تأتيه صاعقة، أو أن يسقط عليه

(١) الحارث هو والد عبيدة، ولذلك فإما أن ابن القيم ذكر اسم والد أحد المتبارزين، أو أنه سبق قلم، أراد ذكر حمزة؛ فذكر اسم الحارث، خاصةً أنه ألف كتابه أثناء السفر، من ذاكرته -رحمه الله تعالى-، مع أن الحارث الظاهر أنه مات قبل الإسلام، وفي المطبوع الترضي عنه؛ لأن عبيدة أكبر من الرسول ﷺ بعشر سنين، وهذا يرجح كونه سبق قلم من ابن القيم -رحمه الله تعالى-. ومع ذلك، فإن معنى حمزة كما في قواميس اللغة ما يؤيد ما ذهب إليه ابن القيم -رحمه الله تعالى-. قال الأزهري -رحمه الله تعالى- في تهذيب اللغة (٤/ ٢٢٠): «أَبُو عُبَيْد: وسُئِلَ ابْن عَبَّاس -رضي الله تعالى عنهما-: أَيُّ الأعمالِ أفْضَلُ؟ فَقَالَ: أحْمَزُها يَعْني أمْتَنُها وأقْوَاها.. وَقَول ابْن عَبَّاس: أحْمَزُها، يُرِيد أمضُّها وأشَقُّها.. وَفِي لُغَة هُذَيل: الحَمْزُ: التَّحْديدُ، يُقَال: حَمَزَ حَديدَتَه إِذا حَدَّدَها، وقَدْ جَاء ذَلِك فِي أشعارهم. وَقَالَ ابْن السِّكِّيت: يُقَال: فُلاَنٌ أحْمَزُ أمْرًا من فُلاَنٍ إِذا كَانَ مُتَقَبِّضَ الأمْرِ مُشَمَّرَه، وَمِنْه اشْتُقَّ حَمْزَةُ، والحَامِزُ القَابِضُ».

(٢) ابن القيم، زاد المعاد (٢/ ٣٣٩).

سقف منزلـه أو يموت حَتْفَ أَنْفِهِ، والله أعلم)[1]. والحمد لله رب العالمين.

الخامسة والعشرون: في إلقاء قتلىٰ كفار قريش في القليب ومواراة أمية بن خلف

ندرك أن الحرب في الإسلام حرب فضيلة وأخلاق[2]؛ فهؤلاء القتلىٰ طالما آذوا الرسول ﷺ وشتموه وسبُّوه وأذاقوه وأصحابه ألوانًا من العذاب وهم الذين أخرجوه وأصحابه من ديارهم وأهليهم وأموالهم، ومع ذلك كله فالإسلام فوق الأحقاد والتمثيل بالقتلىٰ[3]، أو ترك جيف هؤلاء في العراء، انتقامًا منهم ومن أفعالهم، فقد واراهم الرسول ﷺ في القليب أو ألقىٰ عليهم التراب والحجارة؛ ليدلنا هذا الموقف علىٰ نُبْل الإسلام وتكريمه للإنسان، وحرصه علىٰ الرفع من شأنه، والله -جل شأنه- يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء:٧٠].

وفي سنن الدار قطني -رحمه الله تعالىٰ- عن يعلىٰ بن مرة -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: «سافرتُ مع رسول الله ﷺ غير مرة، فما رأيته يمر بجيفة إنسان فيجاوزها حتىٰ يأمر بدفنها، لا يسأل أمسلم هو أو كافر؟»[4].

وقال السهيلي -رحمه الله تعالىٰ-: (فإن قيل ما معنىٰ إلقائهم في القليب، وما فيه من الفقه قلنا: كان من سنته -عليه السلام- في مغازيه إذا مرَّ بجيفة إنسان أمر بدفنه لا يَسأل عنه مؤمنًا، كان أو كافرًا، هكذا وقع في السنن للدار قطني، فإلقاؤهم في القليب من هذا الباب، غير أنه كره أن يشق علىٰ أصحابه لكثرة جيف الكفار أن يأمرهم

(١) ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ٢٩٦).

(٢) انظر: محمد أبو زهرة، خاتم النبيين (٢/ ٧٦٧).

(٣) انظر: أبو شهبة، السيرة النبوية (٢/ ١٥٠).

(٤) الدارقطني، سنن الدارقطني المطبوع مع التعليق المغني على سنن الدارقطني (٤/ ١١٦)، كتاب السير، حديث (٤١)، وانظر: التعليق المغني على سنن الدارقطني (٤/ ١١٦)، والسهيلي، الروض الأنف (٣/ ٦٣)، والشامي، سبل الهدى والرشاد (٤/ ١٢٩).

بدفنهم فكان جرهم إلىٰ القليب أيسر عليهم، ووافق أن القليب حَفَره رجل من بني النار اسمه بدر فكان. فَأْلًا مقدمًا لهم، وهذا علىٰ أحد القولين في بدر، والله أعلم)[1].

السادسة والعشرون: بعض الناس توجد فيه بذرة خير، لكنها تنطفئ بالصحبة السيئة، ومن تأمل مواقف عتبة بن ربيعة -رغم ما وقع منه إيذاء للرسول ﷺ وللصحابة، رضي الله تعالىٰ عنهم، في مكة- يجد له مواقف فيه العقل والرشد، لكنه لم يُوفَّق للخير، ووقع في بلاء قرناء السوء، ومحنة الإصغاء للأشرار، والرسول ﷺ يعرف ذلك العقل منه؛ فإنه لما رآه مقبلًا علىٰ جمله الأحمر يوم بدر مع الكفار قال: «إن يكن فيهم خير، ففي صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا»؛ ولما اقترح حكيم بن حزام -وكان في جيش الكفار- الرجوع بالجيش بعد نجاة العير، سانده عتبة، وأيَّده وتحمَّل دية الضمري، وقال: «ارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذلك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون»، لكنَّ أبا جهل تصدَّىٰ لهم واتهمهم بالجبن مما جعلهم يلزمون الصمت، وترك الأمر لرأي أبي جهل، وقبل ذلك في مكة جاء عتبة للرسول ﷺ واستمع منه أول سورة فصلت، ثم رجع إلىٰ قومه ونصحهم بأن يتركوا محمدًا؛ فإن ظهر ففيه عزّه وعزهم، وإن كانت الأخرىٰ فيكون بغير أيديهم. ولكنهم لم يسمعوا نُصحه، فكان توجهه نحو المسالمة أحسن من غيره.

وقد كان ابنه أبو حذيفة -رضي الله تعالىٰ عنه- يعرف ذلك من أبيه، وكان يرجو إسلامه، قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (ولما أمر رسول الله ﷺ أن يلقوا في القليب، أُخذ عتبة بن ربيعة، فسُحب إلىٰ القليب، فنظر رسول الله ﷺ -فيما بلغني- في وجه أبي حذيفة بن عتبة -رضي الله تعالىٰ عنه-، فإذا هو كئيب قد تغيَّر لونه، فقال: «يا أبا حذيفة، لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء؟» أو كما قال ﷺ،

(١) السهيلي، الروض الأنف (٥/ ١٠٨).

فقال: «لا، والله يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكنني كنت أعرف من أبي رأيًا وحلمًا وفضلًا، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلىٰ الإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر، بعد الذي كنت أرجو له، أحزنني ذلك»، فدعا له رسول الله ﷺ بخير، وقال له خيرًا)[1].

فالهداية أولًا بيد الله -سبحانه-، وللقرناء الأثر الواضح في الخير والسوء. وفي ذلك تعليم عملي لنا ولأولادنا ولطلابنا؛ للاستفادة من هذا الدرس في الحرص علىٰ أهل الخير والحذر من أهل الشر، والقصص من أمثال هذا كثير.

السابعة والعشرون: لما كان اليوم الثالث بعد هزيمة كفار قريش، مشىٰ الرسول ﷺ وتبعه أصحابه حتىٰ قام علىٰ شفا القليب، وجعل ينادي بأسماء القتلىٰ الذين أُلقوا في القليب «يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان! أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا»، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله كيف تكلم أجسادًا لا أرواح فيها؟ فقال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»[2].

قال بعض العلماء إن الموتىٰ يسمعون كلام الأحياء، واستدلوا علىٰ هذا بعدة أدلة -إضافة إلىٰ هذا الحديث- منها ما يلي:

أولًا: قال -تعالىٰ-: ﴿ **فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ** ﴾ [الأعراف:٧٨-٧٩]، قال الإيجي في تفسيره: (خاطبهم به بعد هلاكهم، كما خاطب نبينا ﷺ أصحاب قليب بدر بقوله: «هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا»)[3].

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٦٤٠-٦٤١).

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٣٠٠-٣٠١) رقم (٣٩٧٦).

(٣) محمد بن عبدالرحمن الإيجي، جامع البيان في تفسير القرآن، ومعه حاشية الغزنوي، تحقيق عبد الحميد الهنداوي (بيروت، دار الكتب العلمية ١٤٢٤) (١/ ٦٢٩).

ومثله قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف ٩٠-٩٣].

ثانيًا: عن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: (إنَّ العبد إذا وُضِعَ في قبره، وتولَّىٰ وذهب أصحابه حتىٰ إنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان، فأقعداه...»[(١)].

ثالثًا: عن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسم أتىٰ المقبرة؛ فقال «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون»[(٢)]؛ قال ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (فهذا خطاب لهم، وإنما يُخاطب مَن يسمع)[(٣)]. وقال ابن مفلح -رحمه الله تعالىٰ-: (وفي الإفصاح في حديث بريدة في السلام علىٰ أهل المقابر، قال: فيه وجوب الإيمان بأن الموتىٰ يسمعون سلام المُسلِّم عليهم، وأنه لم يكن رسول الله ﷺ ليأمر بالسلام علىٰ قوم لا يسمعون)[(٤)].

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (٢/ ٩٨) رقم (١٣٧٤)، وصحيح مسلم (٤/ ٢٢٠٠) رقم (٢٨٧٠).

(٢) صحيح مسلم (٢/ ٢١٨) رقم (٢٨٧٠).

(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٢٤/ ٣٦٣).

(٤) ابن مفلح، الفروع (٣/ ٤١٥) تحقيق عبد الله التركي. والمسألة فيها خلاف في القديم والحديث، وقد كتبت فيها كتابًا صغيرًا بعنوان (هل يسمع الأموات كلام الأحياء؟) طبعته دار التدمرية بالرياض عام ١٤٣٧، وهو موجود على الإنترنت. ويمكن الرجوع إلى: التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي -رحمه الله تعالى-، وابن تيمية مجموع الفتاوى (٢٤/ ٣٦٢-٣٨٠)، وابن القيم في إغاثة اللهفان (١/ ٣٩٣) وكتابه الروح (٨٧-٨٩)، وتفسير ابن كثير -رحمه الله تعالى- تحقيق سامي محمد سلامة (٦/ ٣٢٥-٣٢٧)، والشنقيطي، أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن (٦/ ١٢٤- ١٤٢)، وهم ممن أطال في نصر القول بالسماع في هذه المسألة والاستدلال لها.

ولعل في ذلك ما يشجع على زيارة أمواتنا والدعاء لهم، ولا يعني هذا، أن الميت إذا كان يسمع كلام الحي أنه يملك شيئًا، أو أنه يستطيع نفع الحي بشيء؛ فالسماع شيء والنفع شيء آخر، فهو في دار البرزخ لا يستطيع نفع نفسه؛ فضلًا أن ينفع غيره، وهو بأحوج ما يكون لمن يستغفر له ويدعو له.

الثامنة والعشرون: قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (قال الشيخ تقي الدين السبكي -رحمه الله تعالىٰ-: سُئِلْتُ عن الحكمة في قتال الملائكة مع النبي ﷺ، مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه، فقلت: وقع ذلك لإرادة الله أن يكون الفعل من النبي ﷺ وأصحابه، وتكون الملائكة مددًا على عادة مدد الجيوش؛ رعايةً لصورة الأسباب وسننها التي أجراها الله -تعالىٰ- في عباده، والله -تعالىٰ- هو مالك الجميع، والله أعلم)[١].

وقال الرازي -رحمه الله تعالىٰ-: (إن قيل كيف أنزل الله جنودًا في يوم بدر... نقول ذلك تعظيمًا لمحمد ﷺ، وإلا كان تحريك ريشة من جناح مَلَك كافيًا في استئصالهم)[٢].

وقال الإيجي -رحمه الله تعالىٰ- في تفسيره (إنزال الجند من السماء لنصرة النبي -عليه أكمل الصلوات وأفضل التسليمات- من خاصته لشرفه)[٣].

التاسعة والعشرون: أخرج الإمام مالك -رحمه الله تعالىٰ- في الموطأ قال: (أخبرنا أبو مصعب، قال: حدثنا مالك، عن إبراهيم بن أبي عبلة، عن طلحة بن عبيد الله بن كريز، أن رسول الله ﷺ، قال: «مَا رُئِيَ الشَّيطانُ يَومًا هو فيه أصغَرُ ولا أدحَرُ ولا أحقَرُ ولا أغيَظُ منه يَومَ عَرَفَةَ؛ لما يَرىٰ مِن تَنزيلِ الرَّحمةِ وتَجاوُزِ اللهِ عنِ الذُّنوبِ

(١) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٣١٣).
(٢) الرازي، التفسير الكبير (٢٦/ ٢٦٩).
(٣) الإيجي، جامع البيان في تفسير القرآن معه حاشية الغزنوي، (٣/ ٤٢٢).

العِظامِ إلّا ما رأىٰ يَومَ بَدرٍ. قيلَ: وما رأىٰ يَومَ بَدرٍ؟ قال: أما إنَّه قد رأىٰ جِبريلَ يَزَعُ[1] المَلائكةَ)[2].

قال ابن عبد البر -رحمه الله تعالىٰ-: (ويقتضي ذلك أن تكون ملائكة نزلت بالرحمة علىٰ أهل بدر مع النصر الذي نصرهم الله به علىٰ أعدائهم، وكان الشيطان أدركه الصَّغار والغيظ يوم بدر لما رأىٰ من الرحمة مع النصر، ويحتمل أن يكون ذلك أصابه لما رأىٰ من النصر وإن لم يدرك معنىٰ الرحمة التي أنزلت عليهم، فأدركه الصَّغَار والغيظ لما رأىٰ من ظهور الإيمان وغلبة الحق)[3]. فالظاهر أن يوم بدر كان أغيظ للشيطان من يوم عرفة، مع ما في يوم عرفة من تنزُّل الرحمة والتجاوز عن الذنوب، وهذا يدل علىٰ عِظَم منزلة بدر والبدريين.

الثلاثون: سمَّىٰ الله -جل شأنه- يوم بدر «يوم الفرقان»؛ قال -تعالىٰ-: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال:٤١]؛ لأن الله فرَّق فيه بين الحق والباطل، ونصَر فيه جنده، وهم عدد قليل في مقابل عدو معه العدد والعُدَّة أضعاف ما مع المسلمين[4]؛ ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران:١٢٣]؛ فغزوة بدر هي المعركة الحاسمة، التي رفعت راية التوحيد، وكسرت راية الشرك، فما بعدها ما هو إلا امتداد لها وأثر من آثارها، ويدل علىٰ أثرها، عظم منزلة من شارك فيها، فصار يسمىٰ

(١) يزع: قال ابن عبد البر في الاستذكار، تحقيق سالم محمد عطا، وزميله، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٢١) (٤/ ٤٠١): (الوازع هو المانع الذي يكفّ، وهو في هذا الحديث بمعنى يعبئهم ويرتبهم للقتال ويصفهم، ويمنع من أن يشف بعضهم بعضًا ويخرج بعضهم عن بعض).

(٢) الإمام مالك، الموطأ (١/ ٥٦٥) رقم (١٤٦١).

(٣) ابن عبد البر، التمهيد، الطبعة الثانية (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي)، (٣/ ٧٩).

(٤) انظر: القرطبي، تفسير القرطبي (٨/ ٢٠)، وابن كثير تفسير ابن كثير (٤/ ٦٦).

بدريًّا[1]، والعبادات تعظم بعظم أثرها ونفعها في الأمة.

لقد قوَّت نتائج بدر عزائم المسلمين، وأعطتهم درسًا عمليًّا أن النصر ليس بالعدد ولا بالعُدَّة، بل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ [محمد:٧-٨]؛ أضل أعمال الكفار مهما كانت عُدتهم وعددهم.

كان كفار قريش قبل بدر يستكبرون في الأرض، قال -تعالىٰ-: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾ [الأنفال:٤٧][2]. وبعدها لم يستطع الناجي من القتل والأسر أن يدخل مكة خزيًا وعارًا، فكانت تاريخًا فارقًا في جبروت قريش وطغيانها. ثم انظر كيف ختم الآية بقول -تعالىٰ-: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ تنبيهًا علىٰ أن ما جرىٰ ليس بقوتكم، وإنما بقوة مَن لا يعجزه شيء، وهو علىٰ كل شيء قدير، فسيروا وامضوا في طريقكم، وكذلك من بعدكم يسيرون علىٰ مثل ما سرتم عليه وينصرهم الله كما نصركم.

الواحدة والثلاثون: كان أمية بن خلف ممَّن يُعذِّب بلالًا -رضي الله تعالىٰ عنه- لما أسلم، وكان يضع الصخرة علىٰ صدره في رمضاء مكة، ويقول: «لا تزال هكذا حتىٰ تموت أو تكفر بمحمد»، حتىٰ اشتراه أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- وأعتقه، ويكتب الله -جل شأنه- أن يكون مقتل عدو الله أمية بن خلف علىٰ يد بلال -رضي الله تعالىٰ عنه- ليشفي غَيْظه منه، فقد أُسِرَ أمية، فلما رآه بلال -رضي الله تعالىٰ عنه- صاح: «أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا»، ولا يُلَام بلال -رضي الله تعالىٰ

---

(١) وهذا من خصائص المشاركين في غزوة بدر، فلا يقال لمن شارك في غزوة أحد أُحُديًّا، ولا في غزوة خيبر أو فتح مكة مثل ذلك.

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٧٣): (قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدي في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾؛ قالوا: هم المشركون، الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر).

عنه- علىٰ هذه المقالة؛ لشدة ما رآه من هذا الرجل من التعذيب علىٰ الإسلام في مكة، ولذلك فقد استنجد بلال بالأنصار حتىٰ قطعوه بسيوفهم -كما مر معنا في عرض السيرة-، وهكذا الرب الكريم يمهل للظالم لكنه لا يُهمل، فقد حانت ساعة من ساعات شفاء الغيظ من الظالم، وما أمام هذا العدو الظالم، أشد وأنكىٰ، وهو درس وعبرة لكل مَن يؤذي المؤمنين بسبب إيمانهم.

الثانية والثلاثون: في إرسال الرسول ﷺ مُبَشِّرَيْنِ إلىٰ المدينة بالنصر؛ نأخذ منه مشروعية تبشير المؤمن فيما يستجِدُّ من خير عام أو خاصّ؛ ذلك أن إدخال السرور علىٰ المسلم أمر مطلوب، وتبشيره بالخير إدخال للسرور عليه وفرح له بالخير، والمؤمن يحب لأخيه الخير، ولأجل هذا يُشْرَعُ للمسلم أن يُبشِّر أخاه بما يستجِدُّ له من الخير تحقيقًا لتلك الأهداف العظيمة.

الثالثة والثلاثون: في اختلاف المسلمين علىٰ الغنائم وانقسامهم في الرأي، نأخذ الحذر من الدنيا، فإننا كلما اقتربنا منها فرّقتنا، والتمسك بها، وإعلاء شأنها من أبرز أسباب النزاع، وإن القناعة والأخذ منها بقدر وبحذر، والرجوع إلىٰ الله، وإصلاح ذات البين هو سبب رئيس في ألفة القلوب، ولذلك لما اختلف الناس في الغنائم، نزل قول الله -تعالىٰ-: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١]؛ فبين أنها لله -جل شأنه- ولرسوله ﷺ، وأن واجب المسلم التقوىٰ وإصلاح ذاتِ البَيْنِ والالتزام بطاعة الله ورسوله.

الرابعة والثلاثون: رجع رسول الله ﷺ بالأسرىٰ، وقد أوصىٰ بهم خيرًا، فكان الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- يكرمونهم، مع أنهم كانوا قبل قليل يقاتلون الرسول ﷺ وأصحابه، ومنهم من آذىٰ الرسولَ ﷺ أَشَدَّ الأذىٰ في مكة، ومع ذلك هم اليوم أسرىٰ يوصي بهم الرسول ﷺ خيرًا.

ووالله لو أن الأمر بالعكس وكان أسرىٰ المسلمين مع الكفار لرأيت صنوفًا من الإذلال والتعذيب البدني والنفسي مما لا يطيقه البشر.

وهذا يؤكِّد فائدة سبق أن سقناها؛ وهي أن الحرب في الإسلام حرب فضيلة، الحرب في الإسلام حرب شريفة، الأسرىٰ يُكْرَمُونَ ولا يُهَانون ولا يُؤْذَوْنَ[1]. قال -تعالىٰ-: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان:٨][2]. ثم الفائدة الأخرىٰ التفريق بين حسن المعاملة والمودة، والمؤمن وإن كان يبغض الكافر فهو يستحضر في تعامله الدعوة إلىٰ الله -جل شأنه-، قال -تعالىٰ-: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢].

والمودة ممنوعة، وعدم مودة الكافر لا تضره، فالذي يهمه هو حسن التعامل، ولذلك كان مطلوبًا؛ لأن فيه تأليفًا للقلوب ودعوة إلىٰ الله -جل شأنه-، لعل هؤلاء إذا رأوا حسن التعامل أن يسلموا، ويعودوا إلىٰ ربهم -جل شأنه-، وهو -سبحانه وتعالىٰ- القائل: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣]؛ قال الطبري -رحمه الله تعالىٰ- في تفسير هذه الآية: (وقال الحسن -رحمه الله تعالىٰ-: لين القول من الأدب الحسن الجميل، والخلق الكريم، وهو مما ارتضاه الله وأحبه)[3].

---

(١) للمؤلف كتاب بعنوان (مقدمة في القانون الدولي في الإسلام)؛ طبعه مكتب الصليب الأحمر في الكويت عام ١٤٢٥، تحدثت فيه عن بعض المقدمات المهمة في القانون الدولي الإنساني في الإسلام، ومنها معاملة الأسرى في الإسلام، ومتاح منه نسخة إلكترونية.

(٢) قال الرازي -رحمه الله تعالى- في تفسيره (٣٠/ ٧٤٨): (أما الأسير فقد اختلفوا فيه على أقوال: أحدها: قال ابن عباس والحسن وقتادة: إنه الأسير من المشركين).

(٣) الطبري، جامع البيان (١/ ٣٩٢)، وانظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٦).

ولذلك ينبغي علينا أن نفرّق في علاقتنا مع غير المسلم بين المودة وحُسْن التعامل، فالمودة ممنوعة وحسن التعامل مطلوب، بل هو من الدعوة إلىٰ الله -جل شأنه- والله أعلم.

الخامسة والثلاثون: أخذ الرسول ﷺ من الأسرىٰ الفداء، ومنهم من كان فداؤه تعليم عشرة من غلمان المدينة القراءة والكتابة. وقبول النبي ﷺ تعليم القراءة والكتابة بدل الفداء في هذا الوقت الذي كانوا فيه بأشد الحاجة إلىٰ المال؛ يُرينا سُموّ الإسلام في نظرته إلىٰ العلم والمعرفة وإزالة الأمية، وليس هذا بعجيب من دين كان أول ما نزل من كتابه الكريم ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١-٥]؛ واستفاضت نصوص القرآن والسنة في الترغيب في العلم وبيان منزلة العلماء.

وبهذا العمل الجليل يكون النبيُّ ﷺ أوَّلَ مَن وضع حجر الأساس في إزالة الأميَّة وإشاعة القراءة والكتابة في أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب[(١)].

السادسة والثلاثون: نأخذ من تعليم الأسرىٰ أبناءَ المسلمين القراءةَ والكتابةَ جوازَ طلبِ العلمِ الدنيوي من الكافر، مثل القراءة والكتابة ونحوها، مما لا خطر فيه علىٰ المسلم ودينه؛ لأن أسرىٰ بدر يومئذ من المشركين[(٢)]، وينبغي أن يكون هذا عند عدم وجود مسلم يُعلِّم أولاد المسلمين؛ لأنه وإن جاز في مثل موقف الأسرىٰ، فإن الأسير أجير ضعيف، بخلاف من كان معلِّمًا، فإنه سيكون أسوة وقدوة لطلابه شاءوا أم أَبَوْا، والسلوك ينتقل وتأثر الطالب بمعلمه قويّ، وسيتلقون منه الأخلاق والسلوك ولو بطريق غير مباشر، ولذلك الأَوْلىٰ أن لا يُلجأ إلىٰ ذلك ما وُجد المعلم المسلم، لكن في هذا الموقف من السيرة دليل علىٰ الجواز.

---

(١) انظر: أبو شهبة، السيرة النبوية (٢/ ١٦٤- ١٦٥).
(٢) انظر: عثمان دوكلي، التدابير الواقية من التشبه بالكفار، رسالة دكتوراه (ص ٤٤١).

السابعة والثلاثون: في قول الرسول ﷺ في شأن الأسرىٰ: «لو كان المطعم بن عدي حيًّا، ثم كلمني في هؤلاء النتنىٰ لتركتهم له»[1]؛ أي تركتهم أحياء ولأطلقتهم من غير فداء تقديرًا لمعروفه وقبولًا لشفاعته، فإنه كان ممن قام بنقض الصحيفة، وله موقف مذكور عندما عاد الرسول ﷺ من الطائف، فلم يدخل مكة إلا في جوار المطعم بن عدي[2]، مع أنه مات علىٰ شِرْكه، وحفظ له الرسول ﷺ هذا الصنيع، واعترف له بهذا الجميل، وهو يُذكِّرنا بأهمية الوفاء لمن أَسْدَىٰ إلينا خيرًا، أو صنع لنا معروفًا، أن نحفظ له هذا الجميل، ولو كان من غير المسلمين.

روىٰ ابن أبي الدنيا –رحمه الله تعالىٰ– في كتابه قضاء الحوائج: (قال محمد بن مسلمة الأنصاري –رضي الله تعالىٰ عنه–: كنا يومًا عند رسول الله ﷺ، فقال لحسان بن ثابت: «يا حسان، أنشدني قصيدة من شعر الجاهلية، فإن الله –عز وجل– قد وضع عنك آثامها في شعرها وروايتها». فأنشده قصيدة هجا بها الأعشىٰ علقمةَ بن علاثة:

علقم ما أنت إلىٰ عامر　　　الناقض الأوتار والواتر

في هجاء كثير هجا به علقمة، فقال النبي ﷺ: «يا حسان لا تعد تنشدني هذه القصيدة بعد مجلسي هذا». قال: يا رسول الله تنهاني عن رجل مشرك مقيم عند قيصر؟، فقال النبي ﷺ: «يا حسان أشكر الناس للناس أشكرهم لله، وإن قيصر سأل أبا سفيان بن حرب عني، فتناول مني، وقال وقال، وسأل هذا عني فأحسن القول»، فشكره رسول الله ﷺ علىٰ ذاك)[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح (٦/ ٢٤٣)، حديث رقم (٣١٣٩).
(٢) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٣٢٤).
(٣) قضاء الحوائج، تحقيق السيد إبراهيم (القاهرة: مكتبة القرآن)، (ص ٦٩)، وانظر: القاضي عياض، الغنية في شيوخ القاضي عياض (١/ ١٨٦)، وقال: (كان علقمة هذا من المؤلفة قلوبهم، وقد جاء ذكر هذا في صحيح مسلم على اختلال عند الرواة هناك. وأظهر الإسلام وكان قد ارتد آخر أيام النبي –عليه السلام–، ولحق بالشام وغزا المدينة أيام أبي بكر، ثم أسلم وجاء إلى أبي بكر فقبل إسلامه؛ ذكره الطبري)، وانظر: برهان الدين الحسيني الحنفي، أسباب ورود الحديث،=

فهذه أخلاق المسلمين: حفظ الجميل، والشكر عليه، ولو كان من شخص كافر محارب، بل ويؤخذ من هذا أن النبي ﷺ، كان يقبل شفاعة الكافر المحارب[1].

الثامنة والثلاثون: وفي موقف الرسول ﷺ من المطعم بن عدي، أستذكر حديث رسول الله ﷺ الذي فيه: «ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه؛ فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتىٰ تروا أنكم قد كافأتموه»[2]. نقل المناوي -رحمه الله تعالىٰ- قول بعضهم: (إنما أمر بالمكافأة ليستخلص القلب من إحسان الخلق ويتعلق بالملك الحق)[3]، وهذه فائدة مهمة جدًّا في العقيدة والتوحيد، والتربية علىٰ إخلاص القلب لله، فلا يبقىٰ فيه التفات لأحد غيره؛ ذلك أن الشخص إذا صنع إليك معروفًا يبقىٰ في قلبك شيء من الالتفات إليه مادام هذا المعروف قائمًا لم تُكافؤه عليه، أما إذا كافأته عليه، بمثل ما صنع أو بالدعاء له، وشعرت أنك صنعت له مثل ما صنع، أو خيرًا من ذلك، لم يبقَ في قلبك شيء من المنة له، والالتفات إليه وخلص قلبك لله -سبحانه وتعالىٰ-، وما أعظمها من فائدة، وما أحوجنا إليها في تعاملنا مع ربنا -جل شأنه-[4].

التاسعة والثلاثون: قيمة العدل التي نجدها في سيرة المصطفىٰ ﷺ جلية واضحة، فقد مر معنا أن الرسول ﷺ سمع أنين العباس في وثاقه، وكان من ضمن الأسرىٰ، خرج مكرهًا مع قريش، وسهر الرسول ﷺ لسماعه هذا الأنين، فقام أحد الصحابة وأرخىٰ وثاقه، فأمره النبي ﷺ أن يُرخي وثاق جميع الأسرىٰ.

=تحقيق سيف الدين الكاتب (بيروت: دار الكتاب العربي)، (١/ ٩٩). وعن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»؛ قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. سنن الترمذي (٤/ ٤٥٤) رقم (١٩٥٤)، وصححه الألباني.

(١) انظر: الطريفي، التفسير والبيان لأحكام القرآن (٤/ ٢١٣٥).

(٢) رواه أبوداود في سننه (١٦٧٢) وصححه الألباني.

(٣) عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، الطبعة الأولى (مصر: المكتبة التجارية ١٣٥٦)، (٦/ ٥٥).

(٤) وهذا المعنى سمعته أيضًا من الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ في محاضرة عامة له.

الأربعون: في موقف سعد بن خيثمة ووالده -رضي الله تعالىٰ عنهما-، لما دعا الرسول ﷺ إلىٰ الخروج لملاقاة العير، طلب الأب من ابنه سعد أن يُؤثره بالخروج مع الرسول ﷺ ويبقىٰ الابن مع النساء، فكان جواب الابن (سعد): لو كانت غير الجنة لآثرتك بها، فلم يكن بُدّ من القُرعة بينهما من يخرج؟، فوقعت لسعد -رضي الله تعالىٰ عنه-، وخرج ونال الشهادة، وخرج الأب خيثمة -رضي الله تعالىٰ عنه- يوم أُحُد فاستُشهد.

يا أخي! تأمل هذا التنافس علىٰ الجهاد والشهادة في سبيل الله بين الأب وابنه! لتدرك شيئًا مما قدّمه هؤلاء لدينهم، وتنافسهم في تقديم النفس لله -سبحانه-، وراجع نفسك، فلعل في ذلك يقظة للقلب وشعورًا بالتقصير.

نحن نعيش في عصر إذا حافظ الشخص علىٰ الصلاة في وقتها -ولو في بيته- أصابه غرور، وظن أنه من خاصة أولياء الله، وهذا بلاء.

إن أقرب الطرق إلىٰ الله استشعار التقصير، والافتقار إلىٰ الله، وكثرة الاعتذار لله من عظيم تقصيرنا؛ لعل الله يرحمنا. وقراءة سِيَر هؤلاء وأمثالهم مما يُنبّه لهذا التقصير ويُحْيي الافتقار والاعتذار.

الواحدة والأربعون: في مسألة الغنائم التي كسبها المسلمون في بدر، أقف عند كلام لابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- عندما نقل خلاف الفقهاء في أطيب المكاسب وأحلها؛ قال: (فإن قيل: فما أطيب المكاسب وأحلها؟ قيل: هذا فيه ثلاثة أقوال للفقهاء؛ أحدها: أنه كسب التجارة. والثاني: أنه عمل اليد في غير الصنائع الدنيئة كالحجامة ونحوها. والثالث: أنه الزراعة، ولكل قول من هذه وجه من الترجيح أثرًا ونظرًا، والراجح أن أحلّها الكسب الذي جعل منه رزق رسول الله ﷺ وهو كسب الغانمين، وما أُبيح لهم علىٰ لسان الشارع، وهذا الكسب قد جاء في القرآن مدحه أكثر من غيره، وأُثني علىٰ أهله ما لم يُثْن علىٰ غيرهم؛ ولهذا اختاره الله لخير خلقه،

وخاتم أنبيائه ورسله؛ حيث يقول ﷺ: «بُعثت بالسيف بين يدي الساعة حتىٰ يُعبَد الله وحده لا شريك له، وجُعل رزقي تحت ظل رمحي، وجُعل الذلة والصغار علىٰ من خالف أمري»[١]، وهو الرزق المأخوذ بعزة وشرف وقهر لأعداء الله، وجعل أحب شيء إلىٰ الله، فلا يقاومه كسب غيره. والله أعلم)[٢].

الثانية والأربعون: في فضيلة الذين شاركوا في غزوة بدر من المسلمين:

١. عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه -رضي الله تعالىٰ عنهما- وكان أبوه من أهل بدر قال: «جاء جبريل إلىٰ النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: «من أفضل المسلمين أو كلمة نحوها» قال: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة»[٣].

٢. عن أنس بن مالك ﷺ يقول: (أصيب حارثة[٤]، وهو غلام، فجاءت أمه إلىٰ النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله! قد عرفت منزلة حارثة منّي، فإن يكن في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرىٰ تَر ما أصنع، فقال: «ويحك! أو هبلت! أو جنة واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة وإنه في جنة الفردوس»[٥]. يقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (وفي هذا تنبيه عظيم علىٰ فضل أهل بدر، فإن هذا الذي لم يكن في بُحَيْحَة

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٩/ ١٢٣) رقم (٥١١٤)، وقال المحقق (إسناده ضعيف)، وحسنه محقق زاد المعاد، وعلقه البخاري بصيغة التمريض؛ فقال: ويُذكر عن ابن عمر، عن النبي ﷺ: «جُعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري» (٤/ ٤٠)، باب ما قيل في الرماح.

(٢) ابن ا لقيم، زاد المعاد (٥/ ٧٩٣)، وانظر أيضًا: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٦٩) وابن عبد البر، بهجة المجالس (١/ ١٣٢) وابن مفلح، الآداب الشرعية (٣/ ٢٩١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح (٧/ ٣١١) رقم (٣٩٩٢).

(٤) قال ابن حجر في الإصابة (١/ ٧٠٤): «حارثة بن سراقة بن الحارث بن عديّ بن مالك بن عامر بن غنم بن عديّ ابن النجار الأنصاريّ النجاريّ، وأمه الرّبيّع بنت النّضر عمة أنس بن مالك. استشهد يوم بدر»، وكان أول قتيل قتل يوم بدر من الأنصار، وهو غلام أصابه سهم في حنجرته وهو على الحوض يشرب». الاستيعاب (١/ ٣٠٨).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح (٧/ ٤٠٣) رقم (٣٩٨٢).

القتال ولا في حَوْمَة الوَغَىٰ، بل كان من النظارة[1] من بعيد، وإنما أصابه سهم غَرِب وهو يشرب من الحوض، ومع هذا أصاب بهذا الموقف الفردوس التي هي أعلىٰ الجنان وأوسط الجنة، ومنه تفجّر أنهار الجنة التي أمر الشارع أُمّته إذا سألوا اللهَ الجنةَ أن يسألوه إيّاها، فإذا كان هذا حال هذا؛ فما ظنك بمن كان واقفًا في نحر العدو، وعدوهم علىٰ ثلاثة أضعافهم عددًا وعدة؟!)[2].

٣. عن علي بن أبي طالب ﵁ أن رسول الله ﷺ قال في شأن حاطب بن أبي بلتعة ﵁: «أليس من أهل بدر؟ فقال: لعل الله اطَّلع علىٰ أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد وجبتْ لكم الجنةُ أو فقد غفرتُ لكم»[3]. قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (والراجح أن المراد بذلك أن الذنوب تقع منهم، لكنها مقرونة بالمغفرة تفضيلًا لهم علىٰ غيرهم بسبب ذلك المشهد العظيم)[4]. وقال أبو شهبة -رحمه الله تعالىٰ-: (والمراد عدم مؤاخذتهم عما عسىٰ أن يبدر منهم، بعد ذلك من الزلات والتجاوز عن سيئاتهم كفاء ما قدَّموا للإسلام من مخاطرة بالنفس في هذه الغزوة، وما أظهروه من إيمان وبطولة، وليس المراد أن الله -سبحانه وتعالىٰ- أتاح لهم أن يفعلوا أي شيء أرادوه من المعاصي والآثام؛ كما يتوهم ذلك، وقد كان صحابة رسول الله ﷺ، ولا سيما أهل بدر، أشد الناس تقوىٰ لله وخوفًا من الله علىٰ كثرة ما وعدهم من المغفرة والرضوان والنعيم المقيم في الآخرة)[5]. وقال الشيخ محمد

---

(١) النظارة: «بتشديد الظاء المعجمة المشالة-: الذين ينظرون إلى العسكر». الشامي، سبل الهدى والرشاد (٤/ ٢٨٣)، وقيل الذين ينظرون ويتعرفون أخبار العدو.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ٣٢٩).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح (٧/ ٢٠٥) رقم (٣٩٨٣).

(٤) ابن حجر، فتح الباري (٨/ ٤٨٠)، وانظر: الشامي، سبل الهدى والرشاد (٤/ ١٣٤- ١٣٥)، فقد أورد أقوالًا أخرى في المسألة)، وانظر رأي ابن الجوزي في: صيد الخاطر (ص ٥٠٣).

(٥) أبو شهبة، السيرة النبوية (٢/ ١٦٩).

العثيمين -رحمه الله تعالىٰ-: (اطَّلع الله علىٰ أهل بدر وقال لهم: اعملوا ما شئتم، فقد غفرتُ لكم، كل معصية تقع منهم، فإنها مغفورة؛ لأن الثمن مقدم)[1].

الثالثة والأربعون: قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- عند قول الرسول ﷺ في شأن أهل بدر «اعملوا ما شئتم...»: (فهذا فيه إشعار بأن من باشر بعض الأعمال الصالحة يُثَاب من جزيل الثواب بما يقاوم الآثام الحاصلة من ترك الفرائض الكثيرة)[2]. ثم ذكر في هذا المعنىٰ (ما وقع في حديث سهل بن الحنظلية في قصة الذي حرس ليلة حنين؛ فقال له النبي ﷺ: «هل نزلتَ؟» قال: لا. إلا لقضاء حاجة. قال: «لا عليك أن لا تعمل بعدها»[3]. وهذا مما يشعر بعموم النص، والحمد لله رب العالمين.

الرابعة والأربعون: دع عنك الحسابات المادية في المواقف الإيمانية، فعندما يكون الله معك، فلو اجتمعت الأمة كلها لتكيدك فلن تفعل شيئًا، خرجت جموع قريش باستعداد مادي كامل من الرجال والسلاح، وهيأوا أنفسهم للحرب، وخرج الرسول ﷺ ومن معه برجال معدودين للاستيلاء علىٰ قافلة تجارية، مع قلة ذات اليد، ولم تَمضِ ساعات من بدء القتال إلا وهم يَقتلون ويَأسرون أولئك الأقوام المدجَّجين بالسلاح والعتاد، وتتفرق تلك الأعداد الكافرة بين قتيل وجريح وأسير، وفارّ ناج بنفسه لا يلوي علىٰ أحد.

الخامسة والأربعون: قال ابن عبد البر -رحمه الله تعالىٰ-: (وكانت أشرف غزواته وأعظمها حرمةً عند الله وعند رسوله وعند المسلمين غزوة بدر الكبرىٰ؛ حيث قتل الله صناديد قريش، وأظهر دينه وأعزَّه الله من يومئذ، وليس في غزواته ما يعدل بها في الفضل، ويقرب منها إلا غزوة الحديبية؛ حيث كانت بيعة الرضوان)[4].

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٢٣٥).

(٢) ابن حجر، فتح الباري (١٢/ ٣٠٩).

(٣) ابن حجر، فتح الباري (١٢/ ٣٠٩).

(٤) ابن عبد البر، الاستيعاب (١/ ٤٣).

السادسة والأربعون: كانت من نتائج غزوة بدر أن ظهر النفاق في المدينة، فلم يكن في مكة نفاق؛ لأن المسلمين كانوا ضعافًا، المنافق يُظهر الإسلام لمصلحة أو خوف من المسلمين، وهذا غير موجود في مكة، أما في المدينة فبعد النصر العظيم للرسول ﷺ خاف بعض مشركي المدينة، ورأوا أن مصلحتهم في التخفّي بالإسلام وعدم المواجهة، أخرج الإمام البخاري -رحمه الله تعالىٰ- في صحيحه عن أسامة بن زيد -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: (... فلما غزا رسول الله ﷺ بدرًا، فقَتل الله به صناديد كفار قريش، قال ابن أُبَيّ ابن سلول ومن معه من المشركين وعَبَدة الأوثان: (هذا أمر قد توجَّه، فبايعوا الرسول ﷺ علىٰ الإسلام فأسلموا)[1].

وسوف أتحدث في المبحث التالي عن النفاق في المدينة.

(١) صحيح البخاري (٦/ ٣٩) رقم (٤٥٦٦).

المبحث الثاني

المنافقون في المدينة

لا يمكن لمن يدرس السيرة النبوية، وبخاصة غزوة بدر أن يتجاوز الحديث عن المنافقين في المدينة؛ إذ إن هذه الفئة التي ظهرت في المجتمع، لم تكن قليلة العديد، ولا خفيفة الأثر علىٰ المجتمع المسلم؛ بل كانت فئة كبيرة حاقدة ناقمة علىٰ كل خير للمسلمين، تتلون تلوُّن الثعبان، تتقلب حسب ما تُمليه عليه مصالحها، وكان ظهورها واضحًا بعد غزوة بدر، ثم ما تلا ذلك من أحداث سواء أكانت لصالح المسلمين أو عليهم.

لقد كان من نتائج الانتصار العظيم في غزوة بدر، ظهور النفاق في المدينة، والنفاق عادة لا يظهر إلا عند عَجْز الشخص عن المواجهة، فيعمل متخفيًا، مظهرًا خلاف ما يبطن، والنفاق دركات أحطها وأسوأها النفاق العقدي الذي هو إبطان الكفر وإظهار الإيمان(١). وهؤلاء هم الذين نتحدَّث عنهم في هذا الفصل.

يقول ابن رجب -رحمه الله تعالىٰ-: النفاق (وهو في الشرع ينقسم إلىٰ قسمين؛ أحدهما: النفاق الأكبر، وهو أن يُظهِر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويبطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه، وهذا هو النفاق الذي كان علىٰ عهد النبي ﷺ، ونزل القرآن بذمّ أهله وتكفيرهم، وأخبر أن أهله في الدرك الأسفل

(١) النفاق في الاصطلاح الشرعي هو إظهار القول باللسان أو الفعل بخلاف ما في القلب من القول أو الاعتقاد. عارضة الأحوذي (١٠/ ٩٧). أو هو الذي يُظهر إيمانه ويستر كفره، وسُمي بذلك لأنه يدخل في الشرع من باب، ويخرج منه من باب آخر.

من النار)[١]. وإن كان هناك أنواع أخرىٰ للنفاق في عهد النبي ﷺ كما سيأتي في كلام ابن تيمية -رضي الله تعالىٰ عنه-، ولكن هذا هو الغالب الأكبر، والنفاق إذا أُطلق ذِكْره في القرآن الكريم، فإن المراد به النفاق الأكبر المنافي للإيمان[٢].

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية؛ لأن مكة لم يكن فيها نفاق، بل كان خلافه، من الناس من كان يظهر الكفر مستكرهًا، وهو في الباطن مؤمن، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلىٰ المدينة، وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج، وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام، علىٰ طريقة مشركي العرب، وبها اليهود من أهل الكتاب علىٰ طريقة أسلافهم، وكانوا ثلاث قبائل: بنو قينقاع حلفاء الخزرج، وبنو النضير، وبنو قريظة حلفاء الأوس، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج، وقلَّ من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سلام -رضي الله تعالىٰ عنه-، ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضًا؛ لأنه لم يكن للمسلمين بعدُ شوكة تُخاف، بل قد كان -عليه الصلاة والسلام- وادع اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالي المدينة، فلما كانت وقعة بدر العظمىٰ وأظهر الله كلمته، وأعلىٰ الإسلام وأهله، قال عبد الله بن أبي ابن سلول -وكان رأسًا في المدينة، وهو من الخزرج، وكان سيد الطائفتين في الجاهلية، وكانوا قد عزموا علىٰ أن يُملّكوه عليهم، فجاءهم الخير وأسلموا، واشتغلوا عنه، فبقي في نفسه من الإسلام وأهله-؛ فلما كانت وقعة بدر قال: «هذا أمر قد توجّه»، فأظهر الدخول في الإسلام، ودخل معه طوائف ممن هو علىٰ طريقته ونِحْلته، وآخرون من أهل الكتاب، فمن ثَمَّ وُجد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب)[٣].

---

(١) ابن رجب، جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٨١).
(٢) موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، مركز تفسير للدراسات القرآنية (٣٣/ ٢٩٢).
(٣) ابن كثير، تفسير ابن كثير (١/ ١٧٦-١٧٧).

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (وقدم رسول الله ﷺ المدينة وسيد أهلها عبد الله بن أبي ابن سلول ومعه في الأوس رجل هو في قومه من الأوس شريف مطاع، أبو عامر عبد عمرو، وهو والد حنظلة الغسيل يوم أُحد -رضي الله تعالىٰ عنه-، وكان يقال له الراهب. فشقيا بشرفهما وضرهما[١].

وكان هؤلاء المنافقون ذا عدد كبير، ومنهم من كان يحضر المسجد فيستمعون أحاديث المسلمين ويسخرون ويستهزئون بدينهم، فاجتمع يومًا في المسجد منهم ناس فرآهم رسول الله ﷺ يتحدثون بينهم خافضي أصواتهم قد لصق بعضهم ببعض، فأمر بهم رسول الله ﷺ فأُخرجوا من المسجد إخراجًا عنيفًا؛ فقام أبو أيوب الأنصاري -رضي الله تعالىٰ عنه- إلىٰ عمرو بن قيس، أحد بني غنم بن مالك بن النجار -وكان صاحب آلهتهم في الجاهلية- فأخذ برجله فسحبه حتىٰ أخرجه من المسجد، وهو يقول: أتخرجني يا أبا أيوب من مربد بني ثعلبة؟ ثم أقبل أبو أيوب أيضًا إلىٰ رافع بن وديعة، أحد بني النجار، فلبَّبه بردائه ثم نتره نترًا شديدًا، ولطم وجهه، ثم أخرجه من المسجد، وأبو أيوب يقول له: أُفٍّ لك منافقًا خبيثًا: أدراجك يا منافق من مسجد رسول الله ﷺ). قال ابن هشام -رحمه الله-: أي ارجع من الطريق التي جئت منها[٢].

يقول أبو الحسن الندوي -رحمه الله تعالىٰ-: لما (قام المجتمع الإسلاميّ -في المدينة- بجميع لوازمه، تغير الوضع ونجم النفاق ورفع رأسه، وكان ظاهرة طبيعية نفسية لا بدّ منها، فإنّما تظهر بادرة (النفاق) في بيئة تجمع بين دعوتين متنافستين، وقيادتين متقابلتين، هناك يوجد عنصر مضطرب يتأرجح بين هاتين الدعوتين، ويتردد في إيثار إحداهما علىٰ الأخرىٰ، وقد ينحاز إلىٰ دعوة، فيكون في معسكرها، ويعطيها ولاءه وحبّه العاطفيّ، إلا أنّ مصالحه المادية، وانتشار الدعوة المقابلة

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية المطبوعة مع الروض الأنف تحقيق السلامي (٥/ ٢٣).
(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية المطبوعة مع الروض الأنف (٤/ ٢١٨).

وانتصارها، لا يسمح له بإعلان موقفه، والانضواء إلىٰ الدعوة الأولىٰ، وقطعه للحبال التي تربطه ببيئته الأولىٰ، وقد صوّر القرآن هذا الموقف المضطرب تصويرًا دقيقًا، فقال -تعالىٰ-: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [الحج:١١]، وهم الذين وصفهم الله -جل شأنه- بقوله -تعالىٰ-: ﴿ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ [النساء:١٤٣])(١).

وهؤلاء المنافقون برزوا بعد بدر، وخذلوا المسلمين يوم أُحُد، وأرجفوا بالمسلمين يوم الخندق، وتولوا كِبْر حادثة الإفك، وتخلفوا يوم غزو تبوك، وكانوا بين ذلك مرجفين في المدينة، يثيرون الشبهات، ويتتبعون العورات ويناصرون الأعداء، ويراسلونهم بأخبار المسلمين، ويشجعونهم علىٰ حربهم، ويقولون القصائد في التشبيب بنساء المسلمين، ويظهرون الولاء ويبطنون العداء للمسلمين.

يقول الله -تعالىٰ- عنهم: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾ [البقرة:٨-١٦].

ويقول -تعالىٰ- عنهم متوعدًا لهم ومبينًا مصيرهم في الآخرة: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ

(١) أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية (ص ٢٨٤).

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة:٦٨]. وقال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء:١٤٥].

هذا عرض سريع للتنبيه إلىٰ حال هؤلاء المنافقين، نقف عنده لنأخذ شيئًا من الدرس المفيد لنا في عصرنا:

أولًا: إنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية؛ لأن مكة لم يكن فيها نفاق، بل كان خلافه، فقد كان من الناس من يظهر الكفر مستكرهًا، وهو في الباطن مؤمن[١]. وهذا يدل علىٰ تنزل الآيات علىٰ وفق حال المجتمع وحاجته، وهو يرشد الداعية إلىٰ اختيار ما يناسب حال المخاطبين في حديثه.

ثانيًا: إن النفاق علامة من علامات قوة هذا الدين[٢]؛ فنفاقهم نتيجة خشيتهم قوة المسلمين وعند ضعف المسلمين يجاهر العدو بمبدئه وعقيدته، ولذلك فأول منشأ النفاق في المدينة بعد غزوة بدر، وانتصار المسلمين الكبير علىٰ المشركين[٣].

ثالثًا: تاريخ المنافقين في عهد الرسول ﷺ شاهِدٌ علىٰ تآمرهم مع اليهود ومع مشركي مكة علىٰ حرب المسلمين ومحاولة القضاء عليهم[٤].

رابعًا: إن المنافقين دائمو القلق والخوف، قلوبهم خالية من الإخلاص، أعمالهم تنطوي علىٰ نوايا خبيثة، كلما هتف امرؤ ظنوا أنه يهتف ضدهم[٥]، يقول الله -تعالىٰ- عنهم: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، ثم أعقبها بكلمة مهمة

(١) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٧)، وانظر: ابن تيمية، منهاج السنة (٨/ ٤٧٦)، وقارن بوجهة نظر أخرى للدكتور عبد العزيز الحميدي في كتابه (المنافقون في القرآن)، (ص١٠٠).

(٢) انظر: عبد الرحمن الدوسري، النفاق (ص ٥)، (المقدمة).

(٣) المرجع السابق.

(٤) انظر: محمد عزة دروزة، سيرة الرسول ﷺ (٢/ ٧٦ و٨٩).

(٥) انظر: عبد الرحمن الدوسري، النفاق (ص ٩٣).

تُعَرِّيهم؛ قال -تعالىٰ-: ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المنافقون:٤].

خامسًا: وصفهم ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- في كتابه «مدارج السالكين»؛ فقال:

١. (لكل منه وجهان؛ وجه يلقىٰ به المؤمنين ووجه ينقلب به إلىٰ إخوانه الملحدين، وله لسانان؛ أحدهما يقبله بظاهره المسلمون، والآخر يترجم له عن سرّه المكنون؛ ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة:١٤][1].

٢. يتربصون الدوائر بأهل القرآن والسُّنة، فإن كان لهم فتح من الله قالوا: ألم نكن معكم؟ وأقسموا علىٰ ذلك بالله جَهْدَ أيمانِهم، وإن كان لأعداء الكتاب والسنة من النصرة نصيب قالوا: ألم تعلموا أن عقد الإخاء بيننا مُحْكَم، وأن النسب بيننا قريب، فيا مَن يريد معرفتهم خُذ صفاتهم من كلام رب العالمين؛ فلا تحتاج بعده دليلًا: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء:١٤١])[2].

سادسًا: نلحظ اهتمام القرآن الكريم بذكر أوصاف المنافقين والإعراض عن أسمائهم، وفي هذا إشارة خفية إلىٰ أن هذا النوع من البشر يتجدّد وجوده، ويتسمَّىٰ بأسماء مختلفة، فأراد من عدم ذِكْر الأسماء أن يَلفت نظر الناس إلىٰ الخصائص المميزة لهم مع غضّ الطرف عن أسمائهم ومحدداتهم[3].

---

(١) ابن القيم، مدارج السالكين (١/ ٢٥٠)، تحقيق محمد حامد الفقي.

(٢) المرجع السابق (ص ٢٥٢).

(٣) انظر: عبد الكريم بكار، فصول في التفكير الموضوعي (ص ٧٢).

سابعًا: يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (لم يكن المتّهمون بالنفاق نوعًا واحدًا، بل فيهم المنافق المحض؛ وفيهم من فيه إيمان ونفاق؛ وفيهم من إيمانه غالب، وفيه شعبة من النفاق. وكان كثير ذنوبهم بحسب ظهور الإيمان؛ ولما قوي الإيمان وظهر الإيمان وقوته عام تبوك؛ صاروا يعاتبون من النفاق علىٰ ما لم يكونوا يعاتبون عليه قبل ذلك)[1]. وهذه قاعدة مفيدة في التعامل مع المنافقين في المجتمعات.

ثامنًا: القصة في القرآن الكريم لا تُذكَر إلا لما يتكرر وقوعه، وإلا كان كتاب تاريخ، فما ورد من أخبار المنافقين وأقوالهم وأفعالهم في القرآن الكريم، هي أقوال وأفعال ستتكرر مرة أخرىٰ بل مرات، فالغرض من ذِكْرها أن نستعد ونحذر ونحسن التعامل مع الموقف؛ لأننا نوقن بأننا سنواجه أمثال هؤلاء في مجتمعنا، وعلىٰ الأمة الإسلامية أن تكون حذرة منهم وتتعامل معهم كما تعامل الرسول ﷺ معهم.

تاسعًا: كثرة القصص في القرآن عن المنافقين، وورود ذلك في عدد من السور، يدلنا علىٰ كثرتهم وكثرة أفعالهم السيئة المعادية للأمة الإسلامية، بل وتنبه إلىٰ خطورتهم علىٰ المجتمع المسلم، فلا يتهاون في شأنهم وشأن التحذير منهم.

عاشرًا: إن التعرف علىٰ صفات المنافقين أمر في غاية الأهمية، وذلك حتىٰ يعرف وينكشف هذا العنصر الخبيث من البشر، وحتىٰ يحذر المؤمنون من الوقوع في صفاتهم، وكي لا ينخدع المؤمنون بمكرهم. يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (ولهذا نبَّه الله -سبحانه- علىٰ صفات المنافقين لئلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون، فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم، ومن اعتقاد إيمانهم، وهم كفار في نفس الأمر، وهذا من المحذورات الكبار، أن يُظَن بأهل الفجور خير)[2].

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٧/ ٥٢٣).

(٢) ابن كثير، تفسير ابن كثير (١/ ١٧٧).

حادي عشر: إن المنافقين أخطر صنف على المسلمين[1]؛ لأن المسلمين لا يُؤْتَوْنَ في معظم ما يصيبهم من الشر إلا من قِبَل المنافقين. وأنهم العدو الحقيقي الأول للمسلمين، يقول الطاهر بن عاشور -رحمه الله تعالىٰ- في تفسير قول الله -تعالىٰ-: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون:٤]: (والتعريف في ﴿ٱلْعَدُوُّ﴾ تعريف الجنس الدال علىٰ معين، لكمال حقيقة العدو فيهم؛ لأن أعدىٰ الأعادي، العدو المتظاهر بالموالاة وهو مدّاح، وتحت ضلوعه الداء الدوي. وعلىٰ هذا المعنىٰ رتب عليه الأمر بالحذر منهم)[2].

ولم يجافِ ابن عاشور -رحمه الله تعالىٰ- الحقيقة عندما أرجع وصف القرآن الكريم لهم بـ ﴿ٱلْعَدُوُّ﴾ إلىٰ كمال حقيقة العدو فيهم، وكيف لا تكمل حقيقة العداء في هؤلاء، وهم كما قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالىٰ-: (عيون لأعدائك من الكفار)[3]. بل إن هؤلاء المنافقين ليسوا عيون الأعداء فقط، وإنما قلوبهم وألسنتهم، قلوب الأعداء وألسنتهم، كما ذكر الإمام الطبري -رحمه الله تعالىٰ- في تفسير قول الله -تعالىٰ-: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾؛ حيث قال: (هم العدو يا محمد فاحذرهم، فإن ألسنتهم إذا لقوكم معكم وقلوبهم عليكم مع أعدائكم، فهم عين لأعدائكم عليكم)[4].

ثاني عشر: إن خطورة النفاق والمنافقين لا تقتصر علىٰ الأفراد بل علىٰ المجتمع بكامله، فالمنافقون يُقوّضون بنيان المجتمع من أساسه، ولأجل هذا الخطر الكبير، نجد أن القرآن حذَّر من النفاق وبيّن صفات المنافقين في سبع عشرة سورة مدنية، واستغرق ذلك قرابة ثلاثمائة وأربعين آية بشتىٰ الصيغ؛ حتىٰ قال ابن القيم -رحمه

(١) انظر: عبد الرحمن الدوسري، النفاق (ص ٧١).

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٤١-٢٤٢).

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير (٤/ ٢٨٨).

(٤) ابن جرير، تفسير الطبري (٢٢/ ٦٥٣)، وانظر موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن (٣٣/ ٣١٢).

الله تعالىٰ-: (كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم)[1].

ثالث عشر: علينا أن نعي أن خطر المنافقين ينطلق من الداخل، بين صفوف المسلمين، بينما يجيء خطر الكفار الظاهرين من الخارج، وخطر الخارج لا يستفحل دائمًا إلا بمساندة من الداخل، والحرب مع العدو الخارجي المجاهر بالعداوة ساعة، أو أيامًا، ثم تنقضي، ويعقبها النصر والظفر، أما هذه الفئة المنافقة فهم في طيات وثنايا المجتمع المسلم، معهم في دُوُرهم وفي مجالسهم صباحًا ومساءً يدُلُّون العدو علىٰ عورات المسلمين، ويصعب التحرز منهم ومناجزتهم[2]. وخطر المنافقين علىٰ الأمة في القديم والحديث كبير، وفتنتهم شديدة، فما تمكن الأعداء من بلدان المسلمين سواء من الناحية العسكرية أو الفكرية إلا عن طريقهم.

رابع عشر: علينا أن نعلم أن المنافق طالب مصالح دنيوية، ذليل جبان ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، لا يقدر علىٰ المواجهة، حتىٰ المواجهة الفكرية عاجز عنها، فهو يتخفىٰ، ويجاري هؤلاء ويعتذر لأولئك، حائر في طريقه، متخبّط في مسيره، يترقب الدوائر لضعفه وخوره ودناءة نفسه، عن ابن عمر -رضي الله تعالىٰ عنهما-، عن النبي ﷺ، قال: «مثل المنافق، كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلىٰ هذه مرة، وإلىٰ هذه مرة»[3].

فهَذَا الْمُنَافِقُ مُتَلَوِّنٌ كَالْحِرْبَاءِ، لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعْلَمَ لَهُ تَوَجُّهًا، وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُدْرِكَ لَهُ هَدَفًا. هُوَ أَكَّالٌ عَلَىٰ جَمِيعِ الْمَوَائِدِ، مَيَّالٌ مَعَ كُلِّ رِيحٍ، مُوَالٍ لِكُلِّ قَوْمٍ!

(١) ابن القيم، مدارج السالكين (١/ ٣٦٤)، وانظر موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن (٣٣/ ٣١٤).

(٢) انظر موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن (٣٣/ ٣١٥).

(٣) صحيح مسلم (٤/ ٢١٤٦) رقم (٢٧٨٤). قال في النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٣٢٨) «أي المترددة بين قطيعين، لا تدري أيهما تتبع»؛ (تعير) أي تتردد.

خامس عشر: إن الله -جل شأنه؛ رحمة بعباده ولطفًا بهم- لم يكتفِ بوصف حال هؤلاء المنافقين في الدنيا، بل إنه -جل شأنه- بيَّن لنا مآلهم لنحذر ليس منهم فقط، بل لنحذر منهجهم، ونخشىٰ علىٰ أنفسنا من صفات المنافقين، فبيَّن لنا -سبحانه وتعالىٰ- منزلتهم في الآخرة ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء:١٤٥]. وكونهم في الدرك الأسفل من النار؛ لأنهم زادوا علىٰ كفرهم الكذب والمراوغة والمخادعة للمؤمنين.

وإنما كانت هذه الفئة في الدرك الأسفل من النار؛ لغلظ كفرهم، فإنهم خالطوا المجتمع المسلم وسمعوا القرآن والسنة، وعرفوا من الإيمان ما لم يصل إلىٰ المنابذين بالعداوة، فإذا كفروا مع هذه المعرفة والعلم كانوا أغلظ كفرًا وأخبث قلوبًا وأشد عداوة لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين، من البعداء عن المجتمع المسلم[1].

سادس عشر: قال الله -تعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران:١١٨-١٢٠].

يقول الشيخ السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾؛ فإذا أتيتم بالأسباب التي وعد الله عليها النصر -وهي الصبر والتقوىٰ- لم يضركم مكرهم، بل يجعل الله مكرهم في نحورهم؛ لأنه محيط بهم علمه وقدرته فلا منفذ لهم عن ذلك،

(١) انظر: موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن (٣٣/ ٣١٥-٣١٦).

ولا يخفىٰ عليه منهم شيء)[١].

ففي هذه الآيات نهي عن موالاة هؤلاء المنافقين متىٰ علموا، وبيان للمنهج الصحيح في التعامل معهم، الذي يؤمن السلامة من مكرهم وكيدهم.

سابع عشر: عندما يذكر الله -جل شأنه- صفات المنافقين فهو يدعونا إلىٰ أن نترقىٰ بأنفسنا فنتصف بضدها؛ إذ لا يكفي فقط التخلّي عن صفاتهم، بل علينا أن نحذر صفاتهم ونتصف بضدها لما فيها من الخير، قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (وقال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[٢]؛ ولما كانت هذه من صفات المنافقين، كان التلبُّس بضدها من صفات المؤمنين، ولهذا أثنىٰ الله علىٰ عبده ورسوله إسماعيل -عليه السلام- بصدق الوعد، وكذلك كان رسول الله ﷺ صادق الوعد أيضًا، لا يَعِد أحدًا شيئًا إلا وفَّىٰ له به)[٣].

والمؤمن يخاف علىٰ نفسه النفاق، قال إبراهيم التيمي -رحمه الله تعالىٰ-: (ما عرضت قولي علىٰ عملي إلا خشيت أن أكون مُكذّبًا)، وقال ابن أبي مليكة -رحمه الله تعالىٰ-: (أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ، كلهم يخاف النفاق علىٰ نفسه، ما منهم أحد يقول: إنه علىٰ إيمان جبريل وميكائيل)، ويُذكر عن الحسن -رحمه الله تعالىٰ-: (ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق)[٤].

ويقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (تالله لقد قطع خوف النفاق قلوب السابقين الأولين، لعلمهم بدقّه وجلّه وتفاصيله)[٥]. وهذه النصوص وإن كانت في النفاق العملي؛ إلا أنها مفيدة في الحذر من النفاق العقديّ.

(١) السعدي، تفسير السعدي (١٤٤).
(٢) متفق عليه: صحيح البخاري (١/ ١٦) رقم (٣٣)، وصحيح مسلم (١/ ٥٨) رقم (٧٩).
(٣) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٥/ ٢٣٩).
(٤) أخرجه البخاري تعليقًا، البخاري، صحيح البخاري (١/ ١٨).
(٥) ابن القيم، مدارج السالكين (١/ ٣٦٥).

ثامن عشر: لا تظن أن النفاق قد انقطع، بل هو موجود وهو يزيد بضعف الإيمان وتعدد المصالح الدنيوية؛ يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم؛ لكثرتهم علىٰ ظهر الأرض وفي أجواف القبور، فلا خلت بقاع الأرض منهم لئلا يستوحش المؤمنون في الطرقات، وتتعطل بهم أسباب المعايش، وتخطفهم الوحوش والسباع في الفلوات، سمع حذيفة رضي الله عنه رجلًا يقول: اللهم أهلك المنافقين، فقال: يا ابن أخي، لو هلك المنافقون لاستوحشتم في طرقاتكم من قلة السالك)[1].

وكلما بعد العهد كثروا في طوائف أهل البدع قال ﷺ: «إن بين يدي الساعة كذابين فاحذروهم»[2]؛ وأبرز هؤلاء الكذابين في هذا العصر هم أصحاب الشعارات البراقة والدعاوىٰ الضالة، فعلىٰ الناس أن يحذروا هذه الأصناف جميعًا أشد الحذر من مكرهم وكيدهم، وهم بمثابة الطابور الخامس[3] الذي يعمل لمصلحة العدو، ومنذ ظهور قوة الإسلام والأمة الإسلامية تعاني بشدة من هذه الظاهرة الخطرة ولا تزال.

---

(١) ابن القيم، مدارج السالكين (١/ ٣٦٥).

(٢) صحيح مسلم (٣/ ١٤٥٣) رقم (١٨٢٢).

(٣) الطابور الخامس مصطلح نشأ أثناء الحرب الأهلية الإسبانية، ويُقصَد به جماعة سرية متعاطفة أو مؤيدة للعدو، وتعمل لصالحه، تشترك في التجسس أو التخريب في داخل المجتمع، وتبث فيه روح الخوف والانهزامية أمام العدو، وأصل التسمية بالطابور الخامس أن أحد القواد في الحرب الإسبانية لما سُئِلَ مَن يدخل مدريد؟ وكان جيشه مكونًا من أربعة طوابير، قال الطابور الخامس، وهو يقصد بذلك جواسيسه وأعوانه داخل مدريد. رمزي المنياوي، الحرب النفسية والطابور الخامس، الطبعة الأولى: (القاهرة: دار الكتاب العربي)، (ص ٢٣١)، وانظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرة، مصطلح: طابور خامس، بتاريخ ١٤/ ١٢/ ١٤٤١.

المبحث الثالث

فقه السيرة في غزوة أحد[1]

بعد غزوة بدر أصبح طريق التجارة القرشية الشامية غير آمن، ولما قرب موعد الرحلة السنوية للشام، بدأت قريش في البحث عن طريق بديل آمن.

أخرج البيهقي -رحمه الله تعالىٰ- في دلائل النبوة بسنده عن ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ- قال: (فأقام رسول الله ﷺ بعد رجوعه من بدر بالمدينة ستة أشهر ثم بعث زيد بن حارثة -رضي الله تعالىٰ عنه- إلىٰ ذي القصة؛ فأصابوا عيرًا لقريش فيها أبو سفيان علىٰ القَرَدَة- ماء من مياه نجد- وكان من حديثها أن قريشًا كانت قد خافت طريقها التي كانت تسلك الشام حين كان من وقعة بدر ما كان، فسلكوا طريق العراق فخرج منهم تجار فيهم أبو سفيان بن حرب ومعه فضة كثيرة -وهي عظم تجارتهم-، واستأجروا رجلًا من بكر بن وائل يقال له فرات بن حيان يدلهم علىٰ الطريق فبعث رسول الله ﷺ زيدًا فلقيهم علىٰ ذلك الماء، فأصاب تلك العير وما فيها، وأعجزه

(١) قال السهيلي في الروض الأنف (٥/ ٢٩٦): (أُحُد الجبل المعروف بالمدينة، سُمِّي بهذا الاسم لتوحُّده وانقطاعه عن جبال أخرى هنالك). وقد وردت أحاديث في فضل هذا الجبل منها الحديث المتفق على صحته في صحيح البخاري (٥/ ١٠٣) رقم (٤٠٨٤)، وصحيح مسلم (٢/ ١٠١١) رقم (١٣٩٣)، واللفظ له عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أُحُدًا جبل يحبّنا ونحبّه». قال النووي -رحمه الله تعالى- في شرح صحيح مسلم (٩/ ١٣٩-١٤٠): «الصحيح المختار أن معناه أن أُحُدًا يُحبّنا حقيقة جعل الله -تعالى- فيه تمييزًا يحبّ به، كما قال -سبحانه وتعالى-: ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾، وكما حنَّ الجذع اليابس وكما سبَّح الحصى، وكما فرَّ الحجر بثوب موسى ﷺ، وكما قال نبينا ﷺ: «إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليَّ»، وغيرها.

الرجال هربًا فقدم بها علىٰ رسول الله ﷺ وقال حسان بن ثابت فيه أبياتًا)[1]؛ ومنها:

دعوا فلجات الشأم قد حال دونها جلاد كأفواه المخاض الأوارك

بأيدي رجال هاجروا نحو ربهم وأنصاره حقًّا وأيدي الملائك[2]

وكان ذلك لهلال جمادىٰ الآخرة من السنة الثالثة من الهجرة[3]، وكانت نكبةً عظيمةً علىٰ قريش في أموالها؛ فرغم تغييرها للطريق وسلوكها الطريق النجدي ثم العراقي للشام؛ إلا أنها لم تسلم من سرايا الرسول ﷺ، مما زادها أسًىٰ، وأدركت أنها قد ضُيِّق عليها اقتصاديًّا، بعد أن هُزِمَتْ عسكريًّا في الميدان، وكان هذا ممَّا عجَّل وقوَّىٰ عزائم قريش علىٰ المسير إلىٰ أُحُد. مع ما سبق في غزوة بدر، ومحاولة لأخذ الثأر واسترداد المكانة في قبائل العرب.

ذلك أن أبا سفيان لما رجع بالعير، الذي خرج الرسول ﷺ لأخذه وكان سببًا في وقعة بدر، قال جَمْعٌ من كِبار قريش: «يا معشر قريش! إن محمدًا قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال علىٰ حربه، فأجابوا لذلك، وكانت ألف بعير والمال خمسين ألف دينار[4]؛ فصاروا يجمعون الجموع لقتال النبي ﷺ، واستنفروا حلفاءهم من الأحابيش[5]، والقبائل المنتشرة حول مكة، وخرجوا من مكة شهر

(١) البيهقي، دلائل النبوة (٣/ ١٧٠).
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية المطبوعة مع الروض الأنف (٥/ ٢٨٠-٢٨٢).
(٣) البيهقي، دلائل النبوة (٣/ ١٧١).
(٤) انظر: القسطلاني، المواهب اللدنية (١/ ٣٩٢).
(٥) الأحابيش: هم الذين حالفوا قريش، وهم بنو المصطلق وسعد بن عمرو وبنو الهون من خزيمة، وبنو الحارث بن عبد مناف، اجتمعوا بذنبة حبشي، وهو بحاء مهملة مضمومة فموحدة ساكنة، فشين معجمة مكسورة فتحتيَّة مشدَّدة، كما في معجم البلدان لياقوت الحموي، وهو جبل بأسفل مكة، فتحالفوا، أنَّا يدٌ على غيرنا، ما سجَا ليل، ووضح نهار، وما رئي حبشي في مكانه. فسُمّوا بالأحابيش باسم الجبل. انظر: الشامي، سبل الهدى والرشاد (٤/ ٢٥٧)، والسيرة الحلبية (٢/ ٦٩٥) والروض الأنف (٢/ ١٥٠).

شوال من السنة الثالثة من الهجرة[١].

وخرجوا معهم بالظعن -أي النساء- التماس الحفيظة حتىٰ لا يفروا، خرجوا بثلاثة آلاف مقاتل، وكان العباس بن عبد المطلب قد كتب للنبي ﷺ يخبره بما يجري، وأعطاه لرجل من بني غفار، فأوصله الرجل إلىٰ النبي ﷺ، فقرأه عليه أبي بن كعب ﵁، فاستكتمه الرسول ﷺ ما فيه[٢].

وشاع خبر قريش ومسيرهم في الناس، وأرجفت اليهود والمنافقون، ووصل المشركون ظاهر المدينة بـ(عينين) جبل ببطن السبخة من قناة[٣]، علىٰ شفيرة الوادي مقابل المدينة، وباتت وجوه الأوس والخزرج ليلة الجمعة عليها السلاح في المسجد بباب الرسول ﷺ خوفًا من بيات المشركين، وحرست المدينة حتىٰ أصبحوا[٤].

ورأىٰ ﷺ ليلة الجمعة رؤيا، فلما أصبح قال: «إني والله قد رأيتُ خيرًا، رأيتُ بقرًا تُذْبَحُ، ورأيتُ في ذباب سيفي ثلمًا، ورأيتُ أني أدخلت يدي في درع حصينة، فأما البقر فناسٌ من أصحابي يُقْتَلُونَ، وأما الثّـلم الذي أُريت في سيفي فهو رجل من أهل بيتي يُقْتَلُ»[٥].

وعن أبي موسىٰ الأشعري ﵁ عن النبي ﷺ قال: «رأيتُ في رؤيايَ أني هَزَزْتُ سيفًا فانقطع صدره، فإذا هو ما أُصيب من المؤمنين يوم أُحُد، ثم هَزَزْتُه أخرىٰ فعاد

---

(١) انظر: القسطلاني، المواهب اللدنية (١/ ٣٩١)، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٢٤): (رواه الطبراني ورجاله ثقات).

(٢) انظر: الشامي، سبل الهدى والرشاد (٤/ ٢٧٢).

(٣) قناة: بالفتح أحد أودية المدينة، يمر بين المدينة وأحد، فإذا اجتمع مع بطيحان وعقيق المدينة تكون وادي إضم، وهذه الأودية الثلاثة تكتنف المدينة من جميع جوانبها. المعالم الأثيرة في السنة والسيرة لمحمد حسن شراب (ص ٢٢٨).

(٤) انظر: الشامي، سبل الهدى والرشاد (٤/ ٢٧٣- ٢٧٤).

(٥) انظر: القسطلاني، المواهب اللدنية (١/ ٣٩٢ - ٣٩٣)، وعلق بعضه البخاري، انظر: صحيح البخاري، تحقيق مصطفى البغا (٦/ ٢٦٨٢).

أحسن ما كان، فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيتُ فيها بقرًا والله خير[١]، فإذا هم المؤمنون يوم أُحُد)[٢].

ثم استشار ﷺ أصحابه وقال: «إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة، ونجعل النساء والذرية في الآطام[٣]؛ فإن أقاموا، أقاموا بشَرّ مقام، وإن دخلوا علينا قاتلناهم في الأزقة فنحن أعلم بها منهم، ورُمُوا من فوق الصياصي[٤] والآطام»، وكان هذا الرأي هو رأي الأكابر من المهاجرين والأنصار، وكان عبد الله بن أبي يرىٰ رأي رسول الله ﷺ، فقال جماعة من المسلمين غالبهم من الأحداث لم يشهدوا بدرًا وطلبوا الشهادة وأحبّوا لقاء العدو: يا رسول الله ﷺ اخرج بنا إلىٰ أعدائنا لا يرون أنّا جبنّا عنهم، ورسول الله ﷺ لِمَا يرىٰ من إلحاحهم كَارِهٌ.

وفي المسند فقال ﷺ لأصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم-: «لو أنّا أقمنا بالمدينة؛ فإن دخلوا علينا فيها قاتلناهم»، فقالوا: يا رسول الله، والله ما دُخل علينا فيها في الجاهلية، فكيف يُدخَل علينا فيها في الإسلام؟. قال عفان في حديثه: فقال: «شأنكم إذًا»[٥].

فلما أَبَوْا ذلك صلَّىٰ ﷺ الجمعة بالناس، فوعظهم وأمرهم بالجِدّ والاجتهاد، ففرحوا بالشخوص إلىٰ عدوهم، وكره ذلك المخرج آخرون، ثم صلَّىٰ بالناس

(١) قال النووي في شرح صحيح مسلم (١٥/ ٣٣-٣٤): (قال القاضي: قال أكثر شراح الحديث معناه ثواب الله خير، أي صنع الله بالمقتولين خير لهم من بقائهم في الدنيا. قال القاضي: والأولى قول من قال: والله خير من جملة الرؤيا، وكلمة ألقيت إليه وسمعها في الرؤيا عند رؤياه البقر بدليل تأويله لها بقوله ﷺ: وإذًا الخير ما جاء الله، والله أعلم».

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٣٧٤-٣٧٥) رقم (٤٠٨١)، ومسلم، صحيح مسلم (٤/ ١٧٧٩) رقم (٢٢٧٢).

(٣) الآطام، بالمد جمع أطم بضمتين، وهي الحصون التي تبنى بالحجارة. سبل الهدى (٣/ ٣١١).

(٤) الصياصي: جمع صيصية وهي كل ما يمتنع به، والمراد الحصون.

(٥) مسند الإمام أحمد (٢٣/ ٩٩) رقم (١٤٧٨٧).

العصر، وقد حشدوا وحضر أهل العوالي، ورفعوا النساء في الآطام، ودخل رسول الله ﷺ بيته، فجاء سعد بن معاذ وأُسيد بن حضير -رضي الله تعالىٰ عنهما- وقالا: استكرهتم رسول الله ﷺ، فرُدُّوا الأمر إليه، فخرج رسول الله ﷺ وقد لبس لَأْمَته -أي الدرع- وتقلد سيفه، فندموا علىٰ ما صنعوا، فقالوا: ما كان لنا أن نخالفك، فاصنعْ ما شئتَ، فقال: «ما ينبغي لنبيّ إذا لبس لَأْمته أن يضعها حتىٰ يحكم الله بينه وبين عدوه»(١).

وسار رسول الله ﷺ ومعه قرابة ألف رجل، فلما وصلوا إلىٰ الشوط(٢) انخزل(٣) عبد الله بن أبي ابن سلول بثلاثمائة من أصحابه، وقال: أطاعهم وعصاني، علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس؟ فرجع مَن اتبعه مِن قومه من أهل النفاق والشك(٤).

وفي الطريق استعرض رسول الله ﷺ الجيش وكان قد خرج مع الرجال بعض الغلمان الذين لا طاقة لهم بالجهاد وإنما رغبة في الجهاد وحبًا في الشهادة في سبيل

(١) انظر: الشـــامي، سبل الهدى (٤/ ٢٧٦)، والقسطلاني، المواهب (١/ ٣٩٣- ٣٩٤).
(٢) قال محمد حسن شراب: «قلت: ولم يعرف أحد مكانه، ولعل هذه الأسماء التي يذكرها المؤرخون لم تكن معروفة في الجاهلية وصدر الإسلام، فإذا وصفوا حدثًا، وضعوا له أسماء الأماكن التي طرأت فيما بعد. ولعلّ الشوط هنا: مكان سباق الخيل لم يكن معروفًا أيام الرسول ﷺ، وإنما حدث فيما بعد في زمن الرواية بالعصر العباسي، أو أنه: اسم بستان ازدرعه الناس في العصر العباسي، وكان مكان عدو الخيل.. والله أعلم»، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة (ص ١٥٣).
(٣) انخزل: أي انفرد. النهاية في غريب الحديث (٢/ ٢٩).
(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٣/ ٨). وفيهم نزل قول الله -تعالى-: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء:٨٨]، انظر ابن كثير تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧١)، وفي صحيح البخاري (٥/ ٩٦) رقم (٤٠٥٠)، وصحيح مسلم (٤/ ٢١٤٢) رقم (٢٧٧٦) عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال: لما خرج النبي ﷺ إلى أُحُد، رجع ناس ممن خرج معه، وكان أصحاب النبي ﷺ فرقتين؛ فرقة تقول: نقاتلهم، وفرقة تقول: لا نقاتلهم، فنزلت ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ [النساء: ٨٨].

الله، فردهم النبي ﷺ لصغرهم، وكان ممن رد سَمُرَة بن جندب ورافع بن خديج -رضي الله تعالىٰ عنهما- وهم أبناء خمس عشرة سنة، فقيل له: يا رسول الله، إن رافعًا رجلٌ رامٍ، فأجازه فقيل له: إن سَمُرَةَ يَصْرَعُ رافعًا فأجازه [١].

ثم مضىٰ رسول الله ﷺ وقال: «مَنْ رجل يخرج بنا علىٰ القوم من كثب؟»، فقال أبو خيثمة الحارثي [٢]. أنا يا رسول الله، فسلك به حرة بني حارثة وبين أموالهم حتىٰ سلك في حائط لمربع بن قيظي وكان منافقًا ضرير البصر، فلما سمع حسَّ رسولِ اللهِ ﷺ ومن معه من المسلمين قام يحثو الترابَ في وجوههم ويقول: إن كنتَ رسولَ اللهِ فإني لا أُحِلُّ لك أن تدخل حائطي، فابتدره القوم؛ ليقتلوه، فقال ﷺ: «لا تقتلوه فهذا أعمىٰ القلبِ، أعمىٰ البصرِ» [٣].

ونفذ رسول الله ﷺ حتىٰ نزل الشعب من أحد في جانب الوادي وجعل ظهره إلىٰ أحد ونهىٰ الناس عن القتال حتىٰ يأمرهم، فلما أصبح يوم السبت تعبأ للقتال وهو في سبعمائة، واستعمل علىٰ الرُّماة ـ وكانوا خمسين ـ عبدَ اللهِ بنَ جُبَيْرٍ رضي الله عنه [٤]. وأمره وأصحابه أن يلزموا مركزهم وألا يفارقوه ولو رأىٰ الطيرَ تتخطَّف العسكر وكانوا خلف الجيش وأمرهم أن ينضحوا المشركين بالنبل؛ لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم [٥].

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٣/ ١٠-١١).

(٢) وقيل: إن اسمه أبو حتمة. انظر الإصابة (٧/ ٩٤)، وقال: الأمر فيه على الاحتمال، وهو الصحابي الذي تخلَّف عن غزوة تبوك ثم لحق بالرسول ﷺ، فلما قدم عليهم ورآه من بعيد. قال الرسول ﷺ: (كن أبا خيثمة). فإذا به أبو خيثمة فدعا له الرسول ﷺ.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٣/ ٩)، والشامي، سبل الهدى (٤/ ٢٧٩).

(٤) قال في الروض الأنف: وقوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢]، قال ابن عباس: هو عبد الله بن جبير -رضي الله تعالى عنه- الذي كان أميرًا على الرماة، وكان أمرهم أن يلزموا مكانهم، وألا يخالفوا أمر نبيهم، فثبتت معه طائفة فاستشهد واستشهدوا، وهم الذين أرادوا الآخرة»، وقال في السيرة الحلبية (٢/ ٥٠٣): «إن المشركين لما قتلوه مثّلوا به ومن كثرة طعنه بالرماح خرجت حشوته».

(٥) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ١٩٤).

وظاهَر رسول الله ﷺ يومئذ بين دِرْعين، وعبَّأت قريش جيشها وتصافوا، وكان معهم مائتا فرس، فجعلوا علىٰ الميمنة خالد بن الوليد، وعلىٰ الميسرة عكرمة بن أبي جهل، وعلىٰ المشاة صفوان بن أمية.

قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (كانت غزوة أُحُد في شهر شوال، وقال: قتادة لإحدىٰ عشرة ليلة خلت من شوال. وقال عكرمة: يوم السبت للنصف من شوال)(١).

وابتدأ القتال بالمبارزة حيث دعا طلحة بن أبي طلحة أحد حملة لواء الكفار إلىٰ المبارزة، فخرج إليه الزبير ﷺ فوثب حتىٰ صار معه علىٰ جمله ثم ألقاه علىٰ الأرض وذبحه بسيفه، فقال الرسول ﷺ: «إنَّ لكل نبي حواريًّا(٢)، وإن حواري الزبير بن العوام»(٣)، ثم التحم الجيشان وحَمِيَ الوطيسُ(٤).

أما الرسول ﷺ فيقول عنه المقداد -رضي الله تعالىٰ عنه-: «والذي بعثه بالحق إن زال رسول الله ﷺ شبرًا واحدًا، إنه لفي وجه العدو»(٥). وتعانقت السيوف وحملت خيالة المشركين علىٰ المسلمين ثلاث مرات، فينضحهم الرماة بالنبال فينكصون علىٰ أعقابهم، وأبلىٰ كثير من المسلمين في هذا اليوم بلاءً حسنًا، وأظهروا من البطولات ما أعجز المشركين.

وقاتل علي والزبير وطلحة وأبو طلحة الأنصاري وسعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين-، وأبطال غيرهم كثير قتال الأبطال، وقاتل أسد الله وأسد

---

(١) انظر: ابن كثير، تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٩).

(٢) المراد بالحواري، الأصفياء، أيسر التفاسير (١/ ١٦٩). فحواري النبي أي أصفياؤه. سمو بذلك لخلوص نياتهم ونقاء سريرتهم. وفي التحرير والتنوير (٢٨/ ١٨٠) قال: الصاحب الصفي.

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٧/ ٨٠) رقم (٣٧١٩).

(٤) الوطيس: التنور، يضرب مثلاً بالأمر إذا اشتد، يقال: قد حمي الوطيس وهو من فصيح الكلام يُعَبَّرُ به عن اشتباك الحرب وقيامها على ساق (لسان العرب، ابن منظور، مادة وطس).

(٥) البهقي، دلائل النبوة (٣/ ٢٦٤).

رسوله حمزة بن عبد المطلب ﷺ وأرضاه قتال الأبطال أيضًا، فقَتَل نفرًا من حملة اللواء من بني عبد الدار، وبينما هو علىٰ هذا الحال، كمن به وحشي حتىٰ تمكن منه، ثم رماه بحربته فأصابت منه مقتلًا، يقول وحشي واصفًا هذا الموقف كما في صحيح البخاري: (إنَّ حَمْزَةَ قَتَلَ طُعَيْمَةَ بنَ عَدِيِّ بنِ الخِيَارِ ببَدْرٍ، فَقَالَ لي مَوْلَايَ جُبَيْرُ بنُ مُطْعِمٍ: إنْ قَتَلْتَ حَمْزَةَ بعَمِّي فأنْتَ حُرٌّ، قَالَ: فَلَمَّا أنْ خَرَجَ النَّاسُ عَامَ عَيْنَيْنِ -وعَيْنَيْنِ جَبَلٌ بحِيَالِ أُحُدٍ، بيْنَهُ وبيْنَهُ وادٍ- خَرَجْتُ مع النَّاسِ إلىٰ القِتَالِ، فَلَمَّا أنِ اصْطَفُّوا لِلْقِتَالِ، خَرَجَ سِبَاعٌ فَقَالَ: هلْ مِن مُبَارِزٍ؟ قَالَ: فَخَرَجَ إلَيْهِ حَمْزَةُ بنُ عبدِ المُطَّلِبِ، فَقَالَ: يا سِبَاعُ، يا ابْنَ أُمِّ أنْمَارٍ مُقَطِّعَةِ البُظُورِ، أتُحَادُّ اللهَ ورَسولَه ﷺ؟! قَالَ: ثُمَّ شَدَّ عليه، فَكانَ كَأَمْسِ الذَّاهِبِ، قَالَ: وكَمَنْتُ لِحَمْزَةَ تَحْتَ صَخْرَةٍ، فَلَمَّا دَنَا مِنِّي رَمَيْتُهُ بحَرْبَتِي، فأضَعُهَا في ثُنَّتِهِ حتَّىٰ خَرَجَتْ مِن بَيْنِ ورِكَيْهِ، قَالَ: فَكانَ ذَاكَ العَهْدَ به»[1].

قال ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ-: (ولما وقف رسول الله ﷺ علىٰ حمزة -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: «لن أُصاب بمثلك أبدًا! ما وقفت موقفًا قط أغيظ إليَّ من هذا»)[2].

وأسلم وحشي -رضي الله تعالىٰ عنه- فيما بعد، وأخبر بلقائه بالرسول ﷺ يقول: (قدمت علىٰ رسول الله ﷺ، فلما رآني قال: «آنت وحشي؟» قلت: نعم، قال: «أنت قتلت حمزة؟» قلت: قد كان من الأمر ما بلغك، قال: «فهل تستطيع أن تُغيّب وجهك عني»؛ قال: فخرجتُ فلما قُبِضَ رسول الله ﷺ، فخرج مسيلمة الكذاب، قلت: لأخرجن إلىٰ مسيلمة، لعلِّي أقتله فأكافئ به حمزة، قال: فخرجت مع الناس، فكان من أمره ما كان، قال: فإذا رجل قائم في ثلمة جدار، كأنه جمل أورق ثائر الرأس،

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ١٠٠) رقم (٤٠٧٢).

(٢) ابن هشام، السيرة (٢/ ٩٦).

قال: فرميته بحربتي، فأضعها بين ثدييه حتىٰ خرجت من بين كتفيه، قال: ووثب إليه رجل من الأنصار فضربه بالسيف علىٰ هامته، قال: قال عبد الله بن الفضل: فأخبرني سليمان بن يسار، أنه سمع عبد الله بن عمر، يقول: (فقالت جارية علىٰ ظهر بيت: وا أمير المؤمنين، قتله العبد الأسود)[1].

وحضرت الملائكة، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ يوم أُحد ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض كأشد القتال ما رأيتها قبل ولا بعد»[2]، قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (هما جبريل وميكائيل كذا وقع في مسلم من طريق أخرىٰ عن مسعر، وفي آخره يعني جبريل وميكائيل)[3]، ثم أنزل الله -سبحانه وتعالىٰ- نصره علىٰ المؤمنين، فحسّوا[4] الكفار بالسيوف حتىٰ كشفوهم عن العسكر، وكانت الهزيمة، فولَّىٰ الكفار لا يَلْوُونَ علىٰ شيء.

وحمل لواء المشركين يومئذ طلحة بن أبي طلحة، فقُتِلَ، والذي قتَله -كما سبق- هو الزبير -رضي الله تعالىٰ عنه-، فحمله أخوه أبو شيبة عثمان بن أبي طلحة، فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، فضربه علىٰ عاتقه ضربة بترت يده من كتفه، حتىٰ وصلت إلىٰ سرته، فبانت رئته، ومات. ثم رفع اللواء أخوهما أبو سعد بن أبي طلحة، فرماه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بسهم أصاب حنجرته، فقتله. ثم رفع اللواء مسافع بن طلحة بن أبي طلحة، فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح رضي الله عنه بسهم فقتله، ثم حمل اللواء بعده أخوه الحارث بن طلحة بن أبي طلحة، فرماه عاصم بن ثابت رضي الله عنه بسهم فقتله. ثم حمل اللواء بعدهم

(١) صحيح البخاري (٥/ ٩٩-١٠٠) رقم (٤٠٧٢).

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٣٥٨) رقم (٤٠٥٤).

(٣) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٣٥٨). يقول الشيخ محمد بن عثيمين في تفسير قول الله تعالى: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ﴾ أن الملائكة لم تقاتل بلا شك «تفسير سورة آل عمران (٢/ ١٣٦).

(٤) حسوا الكفار: استأصلوهم قتلاً، الرازي، الصحاح (ص ١٣٦).

من بني عبد الدار أرطاة بن شرحبيل، فقتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقيل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، ثم حمل اللواء شريح بن قارظ، فقتله قزمان، ثم حمل لواء المشركين أبو يزيد بن عمير بن هاشم، ويقال أبو زيد عمرو بن عبد مناف بن هاشم العبدري، فقتله قزمان.

وهكذا قُتل ثمانية من حملة لواء المشركين واحدًا تلو الآخر من بني عبد الدار، ولم يبقَ منهم أحد يحمله. وأصبح لواء المشركين شؤمًا عليهم، ما يدنو منه أَحَد إلا قُتِلَ، فتركوه ملقًى علىٰ الأرض[1]. وهذا يبين لك مقدار الهزيمة التي لحقت بالمشركين، فإذا كان هذا الذي حلَّ بحَمَلة اللواء فكيف بالجيش نفسه؟! وكان عدد القتلىٰ من الكفار اثنين وعشرين رجلًا، أو واحدًا وعشرين.

أخرج الإمام أحمد في مسنده عن عبيد الله بن عتبة -رحمه الله تعالىٰ-، عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-، أنه قال: «ما نصر الله -تبارك وتعالىٰ- في موطن، كما نصر يوم أُحُد. قال: فأنكرنا ذلك، فقال ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-: بيني وبين من أنكر ذلك كتاب الله -تبارك وتعالىٰ-؛ إن الله -عز وجل- يقول في يوم أُحُد: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، يقول ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-: والحس: القتل»[2].

وقال الواقدي -رحمه الله تعالىٰ-: (وقالوا: ما ظفر الله نبيه في موطن قط ما ظفره وأصحابه يوم أُحُد، حتىٰ عصوا الرسول وتنازعوا في الأمر. لقد قُتل أصحاب اللواء وانكشف المشركون منهزمين، لا يلوون)[3]، ونساؤهم يدعون بالويل والثبور وتبعهم المسلمون حتىٰ أجهضوهم ووقعوا ينهبون العسكر[4].

(١) انظر: الواقدي، المغازي (١/ ٢٢٧-٢٢٨). وابن سعد، الطبقات (٢/ ٤٠-٤١).
(٢) مسند الإمام أحمد (٤/ ٣٦٩-٣٧٠) رقم (٢٦٠٩)، وقال المحقق إسناده حسن.
(٣) الواقدي، المغازي (١/ ٢٢٩).
(٤) انظر: القسطلاني، المواهب (١/ ٣٩٧- ٣٩٨).

وعن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: (لما كان يوم أُحُد هُزِمَ المشركون، فصرخ إبليس -لعنة الله عليه-: أي عباد الله أخراكم! فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم)[1].

وعن البراء ﵁ قال: (لقينا المشركين يومئذ، وأجلس النبي ﷺ جيشًا من الرماة وأَمَّرَ عليهم عبدَ الله -رضي الله تعالىٰ عنه- وقال: «لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تُعينونا»، فلما لقينا هربوا حتىٰ رأيت النساء يشتددن في الجبل رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون: الغنيمة، الغنيمة، فقال عبد الله -رضي الله تعالىٰ عنه-: عهد إلينا النبي ﷺ أن لا تبرحوا، فأبوا فلما أبوا صرف وجوههم، فأصيب سبعون شهيدًا من المسلمين.

وكان من سبب الهزيمة -بعد تقدير الله جل شأنه- ما ذكره الذهبي -رحمه الله تعالىٰ-: (قال زهير بن معاوية: حدثنا أبو إسحاق قال: سمعت البراء يحدّث قال: جعل رسول الله ﷺ علىٰ الرماة يوم أُحد -وكانوا خمسين- عبد الله بن جبير -رضي الله تعالىٰ عنهم-، وقال: «إذا رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا حتىٰ أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتىٰ أرسل إليكم». قال: فهزمهم فأنا والله رأيت النساء يشتددن علىٰ الجبل قد بدت خلاخيلهن وسوقهن رافعات ثيابهن. فقال أصحاب عبد الله بن جبير -رضي الله تعالىٰ عنهم-: الغنيمة، أي قوم، الغنيمة ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبد الله لهم: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ فقالوا: لنأتين الناس فلنُصيبن من الغنيمة. فأتوهم فصرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين. فذلك إذ يدعوهم الرسول في أخراهم. فلم يبقَ مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلًا، فأصابوا منا سبعين)[2].

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٧/ ٣٦١)، حديث رقم (٤٠٦٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية)، (١/ ٣٩٧-٣٩٨).

ومع هذا الارتباك في صفوف المسلمين، ورجوع أولاهم علىٰ أخراهم، بدأ تغير الموقف لغير صالحهم، ورجع من كان قد فرَّ من المشركين، وأسرعت امرأة من الكفار هي: عمرة بنت علقمة الحارثية، فرفعت لواء المشركين المطروح علىٰ الأرض[1]. فاجتمع حوله المشركون، وتنادىٰ بعضهم بعضًا، حتىٰ اجتمعوا علىٰ المسلمين، وأُحيط بهم من الأمام والخلف.

وكان الشهداء سبعين صحابيًّا؛ ستة من المهاجرين، وأربعة وستين من الأنصار، ودارت الدائرة علىٰ المسلمين، ووقع الاضطراب في صفوفهم، وأصبحوا بين فَكَّيْ كماشة من العدو، وتفرقت صفوفهم، وحاول المشركون قتل رسول الله ﷺ فاندفع رجال من المشركين منهم ابن قمئة الذي أقبل يريد رسول الله ﷺ، فتلقاه مصعب بن عمير -رضي الله تعالىٰ عنه- فقتله ظنًّا منه أنه رسول الله ﷺ.

وعن أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالىٰ عنه-: أن عتبة بن أبي وقاص رمىٰ رسول الله ﷺ يومئذ، فكسر رباعيته اليمنىٰ السفلىٰ، وجرح شفته السفلىٰ، وأن عبد الله ابن شهاب الزهري شجَّه في جبهته، وأن ابن قمئة جرح وجنته[2]، فدخلت حلقتان من حِلَق المغفر[3]. في وجنته، فانتزعها أبو عبيدة بن الجراح -رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه-، وعض عليها حتىٰ سقطت ثنيتاه رضي الله عنه من شدة غوصهما في وجه الرسول ﷺ.

ووقع رسول الله ﷺ في حفرة من الحفر التي حفرها أبو عامر الفاسق ليقع فيها المسلمون، وهم لا يعلمون، فأخذ عليّ بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- بيد

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٧٨).

(٢) الوجنة: الناتئ في أعلى الخد. وفي الوجه الوجنتان، وهما فوق ما بين الخدين والمدمع إذا وضعت يدك وجدت حجم العظم تحتها وحجمه نتوءه. ابن سيده المخصص (١/ ٩٤).

(٣) المغفر: شبيه بحلق الدرع يجعل على الرأس تحت القلنسوة، يتقى به في الحرب. ابن سيده، المخصص (٢/ ٤٥).

رسول الله ﷺ، ورفعه طلحة بن عبيد الله -رضي الله تعالىٰ عنه- حتىٰ استوىٰ قائمًا[1].
وأخرج البخاري في صحيحه عن قيس بن أبي حازم -رحمه الله تعالىٰ- قال: «رأيت يد طلحة -رضي الله تعالىٰ عنه- التي وقىٰ بها النبي ﷺ قد شُلّت»[2]. يعني من أثر السهام التي كانت تصيبها ويقي بها رسول الله ﷺ.

وأُشِيعَ مَقْتَلُ رسول الله ﷺ، وهنا عظمت البلية، وطاشت عقول المسلمين وذهلوا عن أنفسهم، فمنهم من ولَّىٰ هاربًا ولم ترده إلا حيطان المدينة، ومنهم من انطلق صاعدًا فوق الجبل وألقىٰ بسلاحه، ومنهم من قاتل دفاعًا عن دينه، وقدِم أنس بن النضر -رضي الله تعالىٰ عنه- علىٰ قوم ممن أذهلتهم الشائعة، وألقوا بسلاحهم؛ فقال: ما يُجلسكم؟ قالوا: قُتل رسول الله ﷺ فقال: يا قوم، إن كان محمد قُتِلَ، فإن ربّ محمد لم يُقْتَل، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ؟ فقاتِلوا علىٰ ما كان عليه، وموتوا علىٰ ما مات عليه. وقال: اللهم إني أعتذر إليك مما قال هؤلاء -يعني المسلمين-، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء -يعني المشركين-، ثم لقي سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال: يا سعد إني لأجد ريح الجنة دون أُحُد، ثم ألقىٰ بنفسه في أتون[3] المعركة، وما زال يقاتل حتىٰ اسْتُشْهِدَ، فوُجِدَ به بِضْعٌ وثمانون ما بين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم[4].

وثبت حول النبي ﷺ ثُلَّةٌ من المهاجرين والأنصار وفدوه بأنفسهم حتىٰ فاء إليه الكثيرون ممن أذهلتهم الشائعة أنه قُتِلَ، وممن تفرقوا بين الصفوف يقاتلون، فسار بهم حتىٰ وصل إلىٰ الصخرة التي فوق الجبل.

---

(١) ابن هشام، سيرة ابن هشام (٢/ ٨٠).
(٢) صحيح البخاري (٥/ ٢٢) رقم (٣٧٢٤) وقيس بن أبي حازم أسلم في حياة النبي ﷺ ولم يره. أسد الغابة (٤/ ١١٧).
(٣) أتون: بالتشديد: الموقد والعامة تخففه، الرازي، مختار الصحاح (ص ٤).
(٤) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ١٩٨).

وفي دلائل النبوة (وترَّس دون رسول الله ﷺ أبو دجانة -رضي الله تعالىٰ عنه- بنفسه يقع النبل في ظهره وهو مُنْحَنٍ علىٰ رسول الله ﷺ حتىٰ كثرت فيه النبل)[١].

وعن أنس رضي الله عنه، قال: (لما كان يوم أُحُد، انهزم الناس عن النبي ﷺ، قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر، وأم سليم -رضي الله تعالىٰ عنهم-، وإنهما لمُشمّرتان، أرىٰ خدم سوقهما تنقزان القِرَب، وقال غيره: تنقلان القِرَب علىٰ متونهما، ثم تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانها في أفواه القوم)[٢].

وقال عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه- عن أم سليط والدة أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالىٰ عنهما-: «إنها كانت تزفر لنا القرب يوم أُحُد»[٣].

وذكر الواقدي -رحمه الله تعالىٰ- في المغازي أن جملة من شارك من النساء أربع عشرة امرأة، منهن فاطمة بنت رسول الله -ﷺ، ورضي الله تعالىٰ عنها وأرضاها-، يحملن الطعام والشراب علىٰ ظهورهن، ويسقين الجرحىٰ ويداوينهم[٤]. وذكر ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- مشاركة حمنة بنت جحش -رضي الله تعالىٰ عنه- في ذلك[٥]. وهذا يدل علىٰ خروج النساء إلىٰ ميدان القتال ومشاركتهن في أعمال مساندة.

(١) البيهقي، دلائل النبوة (٣/ ٢٣٤).
(٢) صحيح البخاري (٤/ ٣٣) رقم (٢٨٨٠): (تنقزان) من النقز وهو الوثب والإسراع في المشي. (القرب) أي تثبان وهما تحملان القرب. (متونهما) ظهورهما. (أفواه القوم) من الجرحى ومن فيهم رمق.
(٣) صحيح البخاري (٤/ ٣٣) رقم (٢٨٨١) قال في الفتح (٦/ ٨٠): «تزفر بفتح أوله وسكون الزاي وكسر الفاء أي تحمل وزنًا ومعنًى، وقيل تخيط....» وتُعُقِّب بأن ذلك لا يعرف في اللغة، وإنما الزفر الحمل».
(٤) الواقدي، المغازي (١/ ٢٤٩).
(٥) انظر: ابن حجر، الإصابة (٨/ ٨٨).

وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال ﷺ: «لا تجيبوه»، فقال: أفي القوم ابن قحافة؟ قال ﷺ: «لا تجيبوه» فقال: أفي القوم ابن خطاب؟ فقال: إن هؤلاء قُتِلُوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمرُ نفسَه فقال: كذبتَ يا عدو الله أبقىٰ الله ما يُخزيك، قال أبو سفيان: اعْلُ هبل، فقال النبي ﷺ: «أجيبوه»؛ قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلىٰ وأجل»، قال أبو سفيان: لنا العُزَّىٰ ولا عُزَّىٰ لكم، فقال النبي ﷺ: «أجيبوه» قالوا: ما نقول؟ قولوا: «الله مولانا ولا مولىٰ لكم»، قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، وتجدون مُثْلَةً لم آمر بها، ولم تسؤني[(١)].

ولما وقعت الهزيمة، وقُتِلَ مَنْ قُتِلَ من المسلمين انطلق المشركون إلىٰ التمثيل بالشهداء بحقد وغيظ وشراسة، فصاروا يجدعون الأنوف والآذان ويبقرون البطون.

وأمر رسول الله ﷺ بدفن شهداء أُحُد حيث ماتوا، عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالىٰ عنهما- أن رسول الله ﷺ كان يجمع الرجلين من قتلىٰ أُحُد في ثوب واحد، ثم يقول: «أيهما أكثر أخذًا للقرآن؟» فإذا أشير إلىٰ أحدهما قدَّمه في اللحد، وقال: «أنا شهيد علىٰ هؤلاء يوم القيامة»[(٢)].

وأُصِيْبَ يومئذ كثيرٌ من المسلمين بجراح ورجع رسول الله ﷺ إلىٰ المدينة بعد دفن الشهداء.

أخرج النسائي-رحمه الله تعالىٰ- في السنن الكبرىٰ عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: (لما انصرف المشركون عن أُحُد وبلغوا الروحاء[(٣)]، قالوا: لا محمدًا قتلتموه، ولا الكواعب أردفتم، وبئس ما صنعتم ارجعوا)؛ فبلغ ذلك

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٣٤٩ - ٣٥٠) رقم (٤٠٤٣).

(٢) صحيح البخاري، المطبوع مع فتح الباري (٧/ ٣٧٤) رقم (٤٠٧٩).

(٣) «الرّوحاء: على الطريق بين المدينة وبدر، على مسافة أربعة وسبعين كيلو من المدينة» محمد شراب، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة (ص ١٣١).

رسول الله ﷺ، فندب الناس فانتدبوا حتىٰ بلغوا حمراء الأسد[1] وبئر أبي عنبة، فأنزل الله -تعالىٰ-: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٧٢][2]. وتمت مطاردة المشركين إلىٰ حمراء الأسد؛ مع ما بهم من الجراح كما أشارت إلىٰ ذلك الآية السابقة، وكان الغرض إظهار قوة المسلمين وعدم تأثرهم بما جرىٰ حتىٰ إن الرسول ﷺ لم يأذن لمن لم يشارك في أُحُد أن يخرج معه إلىٰ حمراء الأسد إلا جابر بن عبد الله -رضي الله تعالىٰ عنهما-؛ لكونه تخلف بأمر من أبيه الذي استُشهد في أُحُد ليبقىٰ مع أخواته.

قال العيني -رحمه الله تعالىٰ-: (قال محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبي السائب مولىٰ عائشة بنت عثمان أن رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ، من بني عبد الأشهل كان شهد أُحدًا، قال: شهدت أُحدًا مع رسول الله ﷺ، أنا وأخ لي فرجعنا جريحين، فلما أذَّن مؤذن رسول الله ﷺ، بالخروج في طلب العدو. قلت لأخي وقال لي: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ والله ما لنا من دابة نركبها وما منا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله ﷺ، وكنت أيسر جراحات، فكان إذا غُلب حملته عقبة، حتىٰ انتهينا إلىٰ ما انتهىٰ إليه المسلمون)[3].

ولما علم أبو سفيان بخروج الرسول ﷺ إليه لملاحقته، خاف وأسرع العودة إلىٰ مكة.

---

(١) حمراء الأسد: جبل أحمر جنوب المدينة على مسافة عشرين كيلو إذا خرجت من ذي الحليفة تؤم مكة عن طريق بدر رأيت حمراء الأسد جنوبًا، وتقع حمراء الأسد على الضفة اليسرى لعقيق الحسا على الطريق من المدينة إلى الفرع، محمد شراب، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة (ص١٠٢).

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١٠/ ٥٥) رقم (١١٠١٧). قال ابن حجر في الفتح (٨/ ٢٢٨-٢٢٩): أخرجه النسائي وابن مردويه ورجاله رجال الصحيح؛ إلا أن المحفوظ إرساله عن عكرمة ليس فيه ابن عباس. ومن الطريق المرسلة أخرجه ابن أبي حاتم وغيره».

(٣) العيني، عمدة القاري (١٨/ ١٥٢).

وأقام الرسول ﷺ في حمراء الأسد ثلاثة أيام، ثم عاد إلىٰ المدينة، وقد استرد المسلمون الكثير من هيبتهم بعد الذي جرىٰ في أُحُد.

ولما حصل للرسول ﷺ ما حصل جعل زعيم المنافقين عبد الله بن أبي ابن سلول والمنافقون معه، يشمتون ويُسرون بما أصاب المسلمين، ويُظهِرون أقبح القول، وجعلوا يُخذّلون عن رسول ﷺ، ويقولون: لو كان من قُتِلَ منكم عندنا ما قُتِلُوا، وأظهر اليهود القول السيئ وقالوا: ما محمد إلا طالب مُلك.

وكان مما أنزل الله -تعالىٰ- في يوم أُحُد من القرآن ستين آية من آل عمران فيها صفة ما كان في يومهم ذلك[1]، أولها قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٢١] إلىٰ آخر الستين آية[2].

الفوائد المستخرجة من أحداث غزوة أُحد:

الأولىٰ: غزوة أحد ذات شأن خاص في السيرة النبوية كلها:

- كان فيه إصابة الرسول ﷺ (وأُصِيْبَ رسولُ الله ﷺ بجراح وكُسِرَتْ رباعيتُه وجُرِحَتْ شفتُه السفلىٰ، وشُجّ رسول الله ﷺ في جبهته، ودخلت حلقتان من المغفر في وجنته ﷺ)، ولم يحصل هذا الأمر في أيّ لقاء للرسول ﷺ مع الكفار.
- كان فيها إشاعة مقتل الرسول ﷺ، وعظيم وَقْعها علىٰ الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين-.

(١) انظر: تفسير ابن كثير، تحقيق مقبل الوادعي (٢/ ١٢٥)، وقال عند تفسير قوله تعالى: (وإذ غدوت من أهلك) المراد بهذه الوقعة يوم أحد عند الجمهور، والشامي، سبل الهدى (٤/ ٣٣٩).

(٢) انظر: ابن كثير، تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٩)، وابن هشام، السيرة النبوية (٣/ ٥٨)، والشامي، سبل الهدى (٤/ ٣٣٩).

- كان فيها الهزيمة بعد أن ذاقوا طعم النصر، وهذا من أشق الأمور علىٰ النفوس، ولو كانت هزيمة ابتداء، لكانت أهون، والتمسوا لأنفسهم العذر.
- كان بالإمكان أن تقع الهزيمة من أول المعركة، لكن الله أراد أمرًا آخر أن يقع النصر ثم تقع الهزيمة؛ للحكمة العظيمة في ذلك.
- كانت الهزيمة بسبب تصرُّف بعض الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين-، وهذا أشد إيلامًا وحسرةً علىٰ الصحابة بعامة، وعلىٰ الذين نزلوا من الجبل من أجل الغنائم بخاصة.
- كان فيها استشهاد عم الرسول ﷺ حمزة -رضي الله تعالىٰ عنه-.
- كان فيها استشهاد هذا العدد الكبير من الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين-.
- كان فيها عصيان بعض الصحابة لأمر أميرهم عبد الله بن جبير -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين-.
- كانت الغزوة التي تمنىٰ الرسول ﷺ أن يكون استشهد فيها، مع أصحابه الذي استشهدوا في أُحُد.
- كانت أول غزوة انكشف فيها المنافقون، وتراجعوا وهم في الطريق إليها.
- كانت الغزوة التي أظهرت حرص البعض علىٰ الدنيا.
- كانت الغزوة التي نزل فيها ستون آية من القرآن الكريم، يتلوها الناس، ويتجدد فيهم أخذ الدرس مما جرىٰ.

الثانية: إذا كانت غزوة بدر كسرًا للكفار، ونصرًا للمسلمين علىٰ عدوهم الخارجي؛ فإن أُحُد نصرٌ علىٰ العدو الذي في الداخل، والعدو في الداخل نوعان: نوع داخل المجتمع، ونوع داخل النفوس. أما الذي في داخل المجتمع فهم المنافقون،

وقد تميزوا قبيل بدء المعركة وانخزلوا مع زعيمهم عبد الله بن أبي ابن سلول. وانخزالهم وتميزهم وانكشافهم بعد أن كانوا مستخفين، نعمةٌ من أعظم النعم علىٰ المسلمين.

وأما العدو الذي في داخل النفوس، من محبة الدنيا والتعلق بها وتقديم شهوة المال وجمع الغنائم علىٰ طاعة الأمير. فكان ما أجراه الله في نهاية الغزوة؛ بسبب ذلك بعد أن أذاقهم حلاوة النصر، بمثابة عصا التربية؛ وتلك عصا الرحمة، وهي وإن كانت مؤلمة لكنَّ فيها الشفاء المحمود العاقبة.

فأُحد وإن كان ظاهرها هزيمة، فهي في هذه المرة نصر لكنَّه نصر داخليّ، نصر غير مرئي، والحمد لله رب العالمين.

الثالثة: في غزوة أُحُد نبَّه الله -جل شأنه- عباده المؤمنين إلىٰ عيوبهم، وغفر لهم ذنوبهم؛ فأصلح لهم دنياهم وآخرتهم.

الرابعة: لما بلغ الرسولَ ﷺ كتابُ العباس رضي الله عنه والذي فيه خبر مسير قريش إليه طلب من أُبيّ بن كعب رضي الله عنه أن يكتم هذا الأمر ولا يخبر به، وفي هذا مشروعية الكتمان لما يخشىٰ من عاقبة إفشائه، وإطلاع الغير عليه، وقد قيل: (استعينوا علىٰ إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود)[1]؛ فإذا كان لشخص حاجة أو عنده خبر، لو اطلع الغير عليه، قد يناله ضرر، فإن من المصلحة أن يكتم ولا يتحدث، فإن إخبار الناس مثلًا بخبر كتاب العباس رضي الله عنه للرسول ﷺ ومسير قريش، فيه ما يَسُرّ اليهود والمنافقين، ويحزن الذين آمنوا ويدخل الخوف عليهم، والرسول ﷺ يريد أن يستعدّ لهذا الأمر دون أن يعلم العدو أنه قد علم بخروجهم إليه.

(١) يذكره بعض العلماء على أنه حديث، وقد أورده ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- في كتابه، الموضوعات (٢/ ١٦٦)، وقال: هذا حديث لا يصح، ثم قال: «قال مهنا: سألت أحمد بن حنبل ويحيى بن معين عن قولهم: (استعينوا على طلب الحوائج بالكتمان)؛ فقالا: هو موضوع، وليس له أصل».

الخامسة: إن الله -جل شأنه- إذا أراد أمرًا سخَّر له مِن خلقه ما يشاء ليتمّ هذا الأمر، فقد كان رأي الرسول ﷺ عدم الخروج، ولكنَّ أمر الله وقضاءه غالبٌ، فقد أنطق الله هؤلاء الصحب -رضي الله تعالىٰ عنهم-، ليخالفوا رأيه، ويروا غير ذلك، ويلحوا علىٰ رأيهم ويصروا عليه، ليحصل ما حصل في أُحُد، وهكذا تدبير الله، يُسَخِّر من عباده لما يريده من القضاء، والله غالب علىٰ أمره، وله الحكمة التامة، والخير الكامل فيما يقضي ويقدر.

السادسة: في استشارة الرسول ﷺ للصحابة -رضي الله عنهم- في الخروج لملاقاة العدو أو البقاء في المدينة ومقاتلتهم في طرقاتهم ورغبة كثير من الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- في الخروج[1]، ثم أخذ الرسول ﷺ بهذا الرأي، فيه دلالة علىٰ عدم الإلزام برأي الأكثرية، ولكن ليس هذا علىٰ إطلاقه[2]، وقد بحثت هذه المسألة بتفصيل أوسع في آخر هذا الكتاب في الدروس والعِبَر من فاجعة وفاة المصطفىٰ ﷺ.

السابعة: في قول الرسول ﷺ: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لَأْمته أن يضعها حتىٰ يحكم الله بينه وبين عدوّه»، يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (الجهاد يلزم بالشروع فيه حتىٰ إنَّ مَن لبس لَأْمته وشرع في أسبابه وتأهب للخروج ليس له أن

---

(١) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٣٤٦).

(٢) من الأمور التي لا عبرة فيها بالأكثرية، المأمومون مع الإمام، فإن الرسول ﷺ قال لعثمان ابن أبي العاص -رضي الله تعالى عنه- «أنت إمامهم، واقتد بأضعفهم» أخرجه النسائي (٢/ ٣١٦) رقم (٦٧٢)، وصححه الألباني، وقال ﷺ: «إذا صلى أحدكم للناس فليخفف، فإن فيهم الضعيف والسقيم وذا الحاجة» (متفق عليه) صحيح البخاري (١/ ١٤٢) رقم (٧٠٣)، وصحيح مسلم (١/ ٣٤١) رقم (٤٦٧) فيراعى هؤلاء ولو لم يكن منهم إلا واحدًا، ولهذا قال ﷺ: «إني لأدخل في الصلاة، فأريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز مما أعلم من شدة وَجْد أُمّه من بكائه» (متفق عليه) من حديث أنس -رضي الله تعالى عنه- صحيح البخاري (١/ ١٣) رقم (٧١٠)، وصحيح مسلم (١/ ٣٤٣) رقم (٤٧٠).

يرجع عند الخروج حتىٰ يقابل عدوه)[1]، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (ولهذا مضت السنة بأن الشروع في العلم والجهاد يلزم كالشروع في الحج؛ يعني أنَّ ما حفظه من علم الدين وعلم الجهاد ليس له إضاعته؛ لقول النبي ﷺ: «مَن قرأ القرآن ثم نسيه لقي الله وهو أجذم»[2]، وقال: «عُرِضَتْ عليَّ أعمالُ أُمّتي حسنها وسيئها، فرأيت في مساوئ أعمالها الرجل يؤتيه الله آية من القرآن، ثم ينام عنها حتىٰ ينساها»[3]، وقال: «من تعلَّم الرميَ، ثم نسيه فليس منا»[4]، وكذلك الشروع في عمل الجهاد، فإن المسلمين إذا صافوا عدوهم أو حاصروا حصنًا ليس لهم الانصراف عنه حتىٰ يفتحوه، ولذا قال النبي ﷺ: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن ينزعها حتىٰ يحكم الله بينه وبين عدوه»[5].[6].

الثامنة: في استعداد الرسول ﷺ للحرب، نلحظ أنه ظاهَر بين درعين؛ أي لبس درعًا فوق درع، ومن هذا نأخذ مشروعية الجمع بين التوكل وفِعْل الأسباب، فلا يكفي التوكل دون فعل الأسباب، ولا يصح الاعتماد علىٰ فعل الأسباب فقط دون التوكل علىٰ الله؛ (فقد كان رسول الله أعظم المتوكلين، وكان يلبس لأمته ودرعه،

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٢١١)، وانظر: ابن القيم، بدائع الفوائد وقال: (وفي الاستدلال بالحديث شيء، فإن فيه الإشارة إلى الاختصاص بقوله: «ما ينبغي لنبي»، ولم يقل: «ما ينبغي لأحد، ولا ما ينبغي لكم»؛ فدل على مخالفة حكم غيره له في هذا، وأنه من خواصه...) إلخ ما قاله في التفريق في هذه المسألة، فيرجع إليه لمن رغب التوسع.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود (ص ١٤٥) رقم (٣١٧).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود رقم (٨٨)، (ص ٤٤)، وضعيف الجامع للألباني (٤/ ٢٩) رقم (٣٧٠٢)، وأخرجه أبو يعلى في مسنده (٧/ ٢٥٤)، تحقيق حسين سليم أسد، الطبعة الأولى (دمشق: دار المأمون للتراث، ١٤٠٤هـ).

(٤) صحيح مسلم (٣/ ١٥٢٣) رقم (١٩١٩) بلفظ «من علم الرمي ثم تركه فليس منا أو قد عصى» عن عقبة بن عامر -رضي الله تعالى عنه-.

(٥) في البخاري معلقًا بلفظ «لا ينبغي لنبيّ يلبس لأمته فيضعها حتى يحكم الله» (٦/ ٢٦٨٢)، تحقيق مصطفى البغا، الطبعة الثالثة (بيروت: دار ابن كثير ١٤٠٧هـ).

(٦) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٢٨ / ١٨٦-١٨٧).

بل ظاهَر يوم أحد بين درعين واختفىٰ في الغار ثلاثًا، فكان متوكلًا في السبب لا علىٰ السبب)[1]. فيفعل السبب، وهو يعلم ويوقن بأن الأمر بيد مسبب الأسباب وخالقها وموجدها.

بمعنىٰ أن يأخذ المؤمن بفعل الأسباب ويحتاط بما يستطيع، وكأن الأسباب كل شيء، ثم يتوكل علىٰ الله -جل شأنه- وكأن الأسباب ليست بشيء.

التاسعة: قال -تعالىٰ- مخبرًا عما قاله الرسول ﷺ للصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- لما سمعوا بمجيء المشركين وما معهم من مدد: ﴿**إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ**﴾ [آل عمران:١٢٤]؛ يقول الشيخ محمد العثيمين -رحمه الله تعالىٰ- في فوائد هذه الآية: (ما كان عليه النبي ﷺ في معاملة أصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم- من إدخال الأمل في قلوبهم عند اشتداد الأزمات، وهذه هي الطريقة السليمة؛ لأنك إذا أدخلت الأمل علىٰ الناس نشطوا ونسوا ما هم فيه من الهم والغم، أما بعض الناس فيكون علىٰ العكس، تجده يدخل علىٰ الناس التشاؤم والمروعات والمخيفات، كلما قلنا: انتهت هذه المروعات، جاءنا بما هو أشد ترويعًا، هذا لا شك أنه خلاف السياسة الشرعية، بل وخلاف العقل، نعم الشيء الذي تدعو الضرورة إليه مما يروع هذا لا بد منه، أما الذي لا تدعو الحاجة إليه ولا الضرورة فافتح للناس باب الأمل، فالرسول ﷺ قال لهم لما خافوا من إمداد المشركين بعضهم بعضًا قال لهم: ﴿**إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ**﴾... ولكن مع ذلك أنا أقول: إنما يكون إدخال الأمل حينما يتعلق القلب بالله -عز وجل-، وتنقطع الحِيَل إلا من عند الله -عز وجل-)ا.هـ[2].

---

(١) ابن القيم، الروح (ص ٢٥٥).

(٢) ابن عثيمين، تفسير سورة آل عمران (١٣٤-١٣٦).

العاشرة: في الطريق إلىٰ أُحُد استعرض الرسول ﷺ الجيش وإذا فيه عدد من الشباب استصغرهم الرسول ﷺ، فردهم فلم يفرحوا بردهم؛ بل تنافسوا في أن يتيح لهم الرسول ﷺ الفرصة للمشاركة في الجهاد، وهذا أثر التربية الإسلامية آنذاك في نفوس الشباب[1]، فالشباب هم عماد الأمة وهم مستقبلها، وهم أحق من اعْتُنِيَ بتربيته وتوجيهه ورعايته الرعاية الإسلامية الصحيحة.

الحادية عشرة: في انخزال عبد الله بن أُبيّ ومن معه وامتناعهم عن استمرار المسير لملاقاة المشركين خارج المدينة، ثم ما حصل من السرور بعد ذلك للمنافقين من نتائج المعركة نأخذ منها أن حكمة الله -سبحانه- اقتضت (أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، فإن المسلمين لما أظهرهم الله علىٰ أعدائهم يوم بدر، وطار لهم الصيت دخل معهم في الإسلام ظاهرًا مَن ليس معهم فيه باطنًا، فاقتضت حكمة الله -عز وجل- أن سَبَّبَ لعباده محنة ميَّزتْ بين المؤمن والمنافق، فأطْلَع المنافقون رؤوسهم في هذه الغزوة، وتكلموا بما كانوا يكتمونه، وظهرت مخبآتُهم وعاد تلويحهم تصريحًا، وانقسم الناس إلىٰ كافر ومؤمن ومنافق انقسامًا ظاهرًا، وعرف المؤمنون أن لهم عدوًّا في دُورهم، يساكنونهم، ولا يفارقونهم، فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم؛ قال الله -تعالىٰ-: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٧٩])[2]؛ فالشدائد تكشف الصديق من العدو، وتُميِّز بينهما تمييزًا واضحًا، وقد قال الشاعر:

جزىٰ الله الشدائـد كل خير ... وإن كـانت تُغصصني بريقي
وما شكـري لهـا إلا لأني ... عرفتُ بها عدوي من صديقي

(١) انظر: أبو شهبة، السيرة النبوية (٢/ ١٩٠).
(٢) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٢١٩ - ٢٢٠).

ومن أعظم النعم: معرفة العدو وكشفه للحذر منه ومن كيده ودسائسه. وسبق أن أشرت إلىٰ ذلك في مبحث النفاق.

الثانية عشرة: انخزل عبد الله بن أبي بثلاثمائة من أصحابه، وقال: «أطاعهم وعصاني، علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس؟»؛ فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والشك.

هذا يكشف لنا حجم النفاق والمنافقين في المدينة، وأنهم يمثلون الثلث، وأن قلوبهم مع زعيمهم في النفاق عبد الله بن أبي، وأنهم يتحيّنون الفرص لإيقاع الضرر بالمسلمين

الثالثة عشرة: لن يفوتني أن أقف للمقارنة بين شباب الإسلام الذي خرجوا إلىٰ أُحد مع الرسول ﷺ، ولما أراد الرسول ﷺ ردّهم لصِغَر سنّهم، بكىٰ بعضهم، وكان ممن رُدَّ سَمُرَةَ بن جندب ورافع بن خديج -رضي الله تعالىٰ عنهما- وهم أبناء خمس عشرة سنة، فقيل له: يا رسول الله، إن رافعًا رجلٌ رامٍ، فأجازه فقيل له: إن سَمُرَةَ يَصْرَعُ رافعًا فأجازه[1]؛ -كما مر-. قارن بين هؤلاء والفئة المنافقة ممن كان مع عبد الله بن أبي ابن سلول الذين انخزلوا وعادوا مخذولين للمدينة. فسبحان مَن يُعِز من يشاء بفضله، ويذل من يشاء بعدله وحكمته، ومن يهن الله فماله من مكرم. نسأل المولىٰ أن يجعلنا ممن اصطفاه الله لما يحبه -سبحانه-.

الرابعة عشرة: لن يفوتني أن أقف مع فتيات الإسلام، وأذكّرهن بما فعلته فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها-، وعائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-، ومن معهما من الصحابيات الجليلات اللاتي شاركن في سقي وإطعام ومداواة الجرحىٰ يوم أُحُد، كأم سليم وأم سليط -رضي الله تعالىٰ عنهن وأرضاهن-، خاصةً إذا علمنا أن فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها- عمرها تقريبًا تسع عشرة سنة فقط، وأن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- كان عمرها عند المشاركة في غزوة أُحد، ما بين إحدىٰ عشرة واثنتي

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٣/ ١٠-١١).

عشرة سنة فقط. وهي تحمل قِرَب الماء وتنقز بها نقزًا، أي تثب وتقفز لتبادر بالماء وتسقيه الجرحىٰ الذين قد يكونون عطشىٰ ولا يستطيعون الحركة وطلب الماء فتنقذهم بهذا الماء، فأين فتيات الإسلام من هذه المواقف العظيمة لفاطمة ولأم المؤمنين ومن معها من الصحابيات الجليلات -رضي الله تعالىٰ عنهن وأرضاهن-؟ وجعل فتياتنا يقتدين بهن في التمسك بدينهن، والعمل للإسلام.

الخامسة عشرة: في قول الرسول ﷺ: «من يخرج بنا علىٰ القوم من كثب؟»، ومسيرهم في حائط للمنافق مربع بن قيظي، يدلنا هذا علىٰ أن المصلحة العامة مقدَّمة علىٰ المصلحة الخاصة، فمصلحة جند المسلمين في اختصار الطريق مقدَّمة علىٰ مصلحة هذا الرجل في مزرعته، يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- حول هذا الموضوع: (ومنها جواز سلوك الإمام بالعسكر في بعض أملاك رعيته إذا صادف ذلك طريقه وإن لم يرض المالك)[1].

السادسة عشرة: في مخالفة أغلب الرماة لأمر أميرهم عبد الله بن جبير -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين- وتركهم للجبل، وما ترتب علىٰ ذلك من أضرار بالغة، درس بليغ في أهمية طاعة الأمير، ذلك أن طاعة ولي الأمر لها اعتبارها ومكانتها وعظيم أثرها، والله -جل شأنه- يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء:٥٩]، ويقول الرسول ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصىٰ الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني»[2]؛ فالطاعة عبادة لله -سبحانه-، وامتثال لأمره، فينبغي أن يدرك الجميع أهمية طاعة ولي الأمر في غير معصية الله -جل شأنه-، وأن مصلحة المجتمع والأفراد في طاعة ولي أمرهم، ومخالفة ولي الأمر ومعصيته، معصية لله، وضررها بالغ علىٰ الأمن والاستقرار العام والخاص.

(١) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٢١١).

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٦/ ١١٦) رقم (٢٩٥٧).

وفي رأيي أنه يجب أن يُنَشَّأ الشباب علىٰ توقير ولاتهم وطاعتهم في غير معصية الله -سبحانه-، وأن يتقربوا بذلك إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-، وأن يدركوا المصالح العامة من السمع والطاعة لولي الأمر، وكم جرَّ بعض الشباب علىٰ دينهم ومجتمعهم وأنفسهم من أضرار بالغة؛ بسبب عدم طاعتهم لولاة أمرهم.

ولن نذهب بعيدًا في ضرب المثال، فعندنا قصة مخالفة بعض الرماة -رضي الله تعالىٰ عنهم جميعا- لأمر أميرهم. فكم جرت مخالفة بعض الرماة -رضوان الله تعالىٰ عليهم أجمعين- من أسًىٰ وضرر علىٰ المسلمين في أُحد! بسبب عدم طاعتهم للرسول ﷺ، وعدم طاعتهم لأميرهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه حينما أمرهم بالبقاء، ونهاهم عن ترك الجبل، وذكَّرهم بأمر رسول الله ﷺ، وقد بقي لنا اليوم الدرس والعظة مما جرىٰ.

السابعة عشرة: وتتميمًا للفائدة السابقة أقول: إن فكرة الطاعة فكرة غير متزنة عند العرب قبل الإسلام، فكانوا إما أن يطيعوا طاعة عمياء لزعيم القبيلة، أو يستنكفوا عن الطاعة ويستكبروا، وتجدهم يتفاخرون بإعلان العصيان، ونفوسهم أبيَّة علىٰ من يأمرهم أمرًا مباشرًا، ويبادرون إلىٰ الرفض، ولو كان أمرًا يسيرًا، وكانت المرأة الناشز علىٰ زوجها محل فخر عند أهلها عند بعض القبائل العربية.

فالعرب يعلون من شأن الحرية، واستقلال الرأي، لكن بغير ضابط، وجاء الإسلام بإعلان الحرية بضوابطها التي لا تمتد إلىٰ أذىٰ الغير، وبالأمر بالطاعة فيما يعود علىٰ المجتمع بالاستقرار، كطاعة الأمير، أو يعود علىٰ البيت الصغير، بالتربية وحسن القوامة كطاعة الوالدين، وطاعة الزوجة لزوجها، وقيَّدها بأن تكون هذه الطاعة في غير معصية الله -جل شأنه-.

الثامنة عشرة: من قول بعض الرماة: «أي قوم الغنيمة»؛ وما ترتب علىٰ ذلك، نأخذ الحذر من الحرص علىٰ الدنيا، والله -سبحانه وتعالىٰ- يقول: ﴿مِنكُم مَّن

يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٥٢]، والرسول ﷺ يقول: «إني لست أخشىٰ عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخشىٰ عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها وتقتتلوا، فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم»(١)، وهذا موقف يسير قصير من الحرص علىٰ الدنيا، فكيف بمن يصبح ويمشي والدنيا أكبر همه؟!

وليس المراد هنا هو ترك الدنيا والإعراض عنها، فالدنيا خُلِقَت لنا، قال -تعالىٰ-: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، ونحن في هذا الدنيا جئنا لنعمرها؛ قال -تعالىٰ-: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١]، وعمرانها بالعمل، واليد العليا خير من اليد السفلىٰ، والمال سماه الله خيرًا؛ فقال -تعالىٰ-: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة:١٨٠]، ولكن المقصود أن لا تكون الدنيا في قلوبنا، والقائدة لسلوكنا؛ بل تكون في أيدينا، مسخرة في طاعة الله ومرضاته ورفعة منازلنا عنده وزادًا لنا في الآخرة، وكثير من الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- كانوا تجارًا وأثرياء، وخدموا بمالهم الإسلام، وجهزوا الجيوش التي قادها الرسول ﷺ وفتحوا بها البلاد ونشروا الإسلام.

التاسعة عشرة: وما دام الحديث عن الدنيا والحرص عليها وعواقب ذلك، يجدر بنا أن نُذكّر بقول الله -تعالىٰ- عن اليهود ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ [البقرة:٩٦]، وقد جعل الرازي -رحمه الله تعالىٰ- هذا الحرص هو علَّة التفاوت في قول الله -تعالىٰ-: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة:٨٢]؛ فقال: (علة هذا التفاوت أن اليهود مخصوصون بالحرص الشديد

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه (٤/ ١٧٩٦) رقم (٢٢٩٦).

علىٰ الدنيا والدليل عليه قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾؛ فقرنهم في الحرص بالمشركين المنكرين للمعاد، والحرص معدن الأخلاق الذميمة؛ لأن من كان حريصًا علىٰ الدنيا طرح دينه في طلب الدنيا، وأقدم علىٰ كل محظور ومنكر؛ بطلب الدنيا...)[1].

العشرون: من قول بعض الرماة: «ماذا تنتظرون؟ ظهر أصحابكم»؛ مع سبق وصية الرسول ﷺ لهم بأن لا يبرحوا أماكنهم، سواء ظهر المسلمون علىٰ المشركين أو العكس، نأخذ أهمية التمسك بالنص الشرعي، وضرر الاجتهادات الشخصية في مقابلة النصوص الشرعية، فما دام هناك أمر من الرسول ﷺ فيجب الوقوف عنده، وتوقير النص دلالة علىٰ توقير قائله، وما وقعت الفُرْقَة والنزاع، إلا عندما ضعفت قيمة النصوص، وكثر التعويل علىٰ الآراء والاجتهادات الشخصية.

ولنعلم أن من يقف عند النص ويتمسك به، ويقف معه لا يندم مهما كانت النتائج، فعنده النص يستند إليه، وأكثر من يندم، هم أصحاب العجلة والرأي والاجتهادات الشخصية في مقابلة النصوص.

الواحدة والعشرون: إن الذين ألحوا علىٰ الرسول ﷺ للخروج إلىٰ أُحُد ومقاتلة الكفار كانوا فرسانًا وأبطالًا، ولم ينهزموا، ولم تأتِ الهزيمة مِن قِبَلهم؛ بل ما أن تقابل الجيشان وبدأت السيوف تعمل عملها، حتىٰ ولَّىٰ كفار قريش منهزمين، وقُتل مِن حملة لوائهم ثمانية تباعًا، وبقي لواؤهم تدوسه الأرجل لا يجرؤ أحد علىٰ القرب منه، وتسابق رجالهم علىٰ الهرب طلبًا للنجاة، وهرب نساء المشركين إلىٰ الجبال، لكنَّ الهزيمة وقعت بسبب مخالفة بعض الرماة الذين علىٰ الجبل لأمر أميرهم، والقصد أن أبين أن الذين حرصوا علىٰ الخروج أبلوا بلاء حسنًا في القتال

(١) الرازي، التفسير الكبير (١٢ / ٦٦).

وهزموا الكفار وشرذموهم، لكن حصل الخلل من غيرهم، والله المستعان، والله غالب علىٰ أمره وهو الحكيم العليم.

الثانية والعشرون: عن أبي عقبة -رضي الله تعالىٰ عنه- وكان مولىٰ من أهل فارس قال: شهدت مع رسول الله ﷺ أحدًا، فضربت رجلًا من المشركين، فقلت: خذها مني وأنا الغلام الفارسي، فالتفت إليَّ رسول الله ﷺ، فقال: «هلا قلت: خذها مني وأنا الغلام الأنصاري»[(١)]، نأخذ منها تصحيح العبارات حتىٰ في أحلك المواطن[(٢)]، وأن الانتساب الحقيقي للمسلم إنما هو لأهل الإسلام، فلا عصبية ولا قبلية ولا قومية ينتمي إليها المسلم ويدع انتماءه الحقيقي لهذا الدين (ولذلك كره النبي ﷺ أن ينتسب هذا الرجل إلىٰ فارس؛ لأنهم كانوا كفارًا، فأرشده ﷺ إلىٰ الانتساب إلىٰ مواليه الأنصار وترك الانتساب إلىٰ الاسم الجاهلي)[(٣)].

الثالثة والعشرون: كان لإشاعة مقتل النبي ﷺ أثرها السيئ علىٰ بعض المسلمين، فألقىٰ بعضهم السلاح، وقال: ما الفائدة من القتال؟ وبعضهم ذهب إلىٰ المدينة. نأخذ من هذا الحذر من تصديق الإشاعات.

والإشاعات اليوم سلاح للعدو فتّاك بالمجتمع، متىٰ وجد آذانًا صاغية، يبثها العدو، وينخدع بها بعض الناس، ويسهمون -من حيث لا يشعرون- في خدمة العدو، بنقل تلك الأخبار التي يراد منها بثّ الوهن والخوف والضعف في قلوب المسلمين.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٢٩٥)، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في العصبية، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١١٥): (رواه أبو يعلي ورجاله ثقات)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود (ص ٥٠٧) رقم (١٠٩٦)، وانظر: إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية (ص٣٠١)، وقال: (وإسناده حسن).

(٢) إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية (ص ٣٠١).

(٣) أحمد البناء، بلوغ الأماني (٢٢ / ١٧٧)، وانظر: محمد شمس الحق العظيم آبادي، عون المعبود (١٤ / ٢٨).

والإسلام أرشدنا إلىٰ المنهج في التعامل مع الأخبار في الآيات التالية:

١) أن نطلب من المتحدث الدليل لما يقول، فلا نقبل الخبر المجرد؛ فالله -سبحانه وتعالىٰ- يقول: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة:١١١]؛ فلا يُقبل قول أحد إلا ببرهان.

٢) أن يتثبت المسلم ويتبين، فلا يتأثر ويبني أحكامه علىٰ عجلة، والله -جل شأنه- يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء:٩٤]؛ فالمسلم مطلوب منه التبين وعدم تصديق أيّ خبر يصل إلىٰ مسامعه.

٣) يقول الله -جل شأنه-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات:٦]؛ فالمستعجل يقبل الخبر ويصدِّقه في أول سماع، ولذلك تجده كثير الندم، لكثرة أخطائه، كما تشير إلىٰ ذلك الآية الأخيرة في خاتمتها.

الرابعة والعشرون: وإذا كنا أخذنا من فعل بعض الصحابة -رضوان الله تعالىٰ عليهم- درسًا، فإننا نأخذ درسًا مُهِمًّا من فعل البعض الآخر، أولئك الذين أحسنوا التعامل مع الإشاعة، فلم يُصدّقوها، ولم يتأثروا بها، بل علىٰ العكس من ذلك، حوّلوها إلىٰ خلاف ما يريد العدو حينما جعلوها دافعًا لمزيد العمل والجهاد والبذل، يقول أنس بن النضر ﵁ لما سمع إشاعة مقتل الرسول ﷺ؛ قال: «يا قوم إن كان محمد قُتِلَ، فإن رب محمد لم يُقْتَل، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله؟ فقاتلوا علىٰ ما قاتل عليه، وموتوا علىٰ ما مات عليه»؛ فالعدو يريد من خلال الإشاعة أن يَفُتّ في عضد المسلمين، ولكن أنسًا ﵁ يقلب الأمر ويحاول أن يجعل من هذه

الإشاعة -علىٰ فرض صحتها- دافعًا للعمل والجهاد، ومزيد ذودٍ عن هذا الدين ومقاتلة الأعداء لا إلقاء السلاح والاستسلام، ومثل ذلك إشاعة مقتل عثمان ﷺ في صلح الحديبية كانت سببًا في عكس ما يريد الأعداء، فقد كانت سببًا في بيعة الرضوان، وهو عكس ما يريده العدو، وسنتحدث عنها بمزيد من التفصيل في موضعه -إن شاء الله تعالىٰ-.

الخامسة والعشرون: من قول أبي سفيان بعد انتهاء المعركة: «أفي القوم ابن أبي قحافة؟ أفي القوم عمر؟»؛ فلم يسأل عن أحد من الصحابة سوىٰ عن هذين الصحابيين الجليلين مما يدل علىٰ اشتهار وظهور مكانتهما المتميزة حتىٰ عند الأعداء، فهما صاحبا الرسول ﷺ ووزيراه ومستشاراه، وهما أولىٰ الناس بخلافته بعد وفاته ﷺ؛ يقول الكشميري -رحمه الله تعالىٰ-: (قوله: (أفي القوم محمد؟ قال: لا تجيبوه. فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة)... إلخ. فيه: أن الكفار أيضًا كانوا يعرفون أن الفضل بينهم بهذا الترتيب)(١).

السادسة والعشرون: لما قال أبو سفيان بعد المعركة: «اعْلُ هبل»؛ قال الرسول ﷺ: «أجيبوه»، قالوا: «ما نقول؟»، نأخذ من هذا الرجوع إلىٰ أهل العلم فيما يُشكل. وهذا الذي ينبغي أن يُنَشَّأَ عليه الناس، وبخاصة الشباب، وأن يبتعد الفرد عن الاعتماد علىٰ رأيه في مسائل العلم، أو يُفتي نفسه، والله -سبحانه وتعالىٰ- يقول: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]، ويقول الشيخ السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (وعموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم، وأن أعلىٰ أنواعه؛ العلمُ بكتاب الله المنزل، فإن الله أمر مَن لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث)(٢).

---

(١) محمد أنور شاه الكشميري، فيض الباري على صحيح البخاري، تحقيق محمد بدر عالم، الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٦)، (٥/ ٣٨).

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/ ٦٢).

السابعة والعشرون: لم أجد أحدًا نقل إلينا أن الرسول ﷺ عتب أو لام مَن بقي من الرماة الذين نزلوا وتركوا الجبل، وترتب علىٰ فعلهم ومخالفتهم ما جرىٰ!! فقد كانوا كثيرين؛ إذ قد نزل من جبل الرماة أربعون صحابيًّا -رضي الله تعالىٰ عنهم-، ولم يبقَ مع عبد الله بن جبير -رضي الله تعالىٰ عنه- إلا قرابة العشرة، وكان الرماة خمسين رجلًا، ولعل السبب في ذلك عفو الله -جل شأنه- عما جرىٰ في غزوة أُحد، منهم ومن غيرهم، من الفرار، أو الحرص علىٰ الدنيا، وأن الهدف هو الدرس المستفاد من الغزوة، ولا عتب بعد العفو.

فإذا عفوت عن شخص، فلا تذكر عفوك لأحد، ولا تَمُنّ علىٰ مَن عفوتَ عنه، ولا تَلُمه علىٰ خطئه، سواء أكان أخًا، أو صديقًا أو ابنًا أو زوجًا، أو غير ذلك.

الثامنة والعشرون: من قوله -تعالىٰ-: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ** ﴾ [آل عمران:١٤٤]؛ نلحظ اللوم علىٰ مَن ظن أن الإسلام مرتبط بالأشخاص، فالمسلم يرتبط بالرسالة، وهذا القول إذا كان في شأن الرسول ﷺ وهو المعصوم، فما بالك بأشخاص من الأمة يصيبون ويخطئون. وهذا يُذَكَّر به أصحاب الانتماءات والأحزاب الذين ولاؤهم لرئيس الحزب أو الجماعة، فإذا أخطأ الرئيس أخطأ الأتباع كلهم، وهو لا شك سيخطئ؛ إذ هو غير معصوم، فيجرّ بخطئه أتباعه إلىٰ ذات الخطأ ليتكرر بعددهم.

ولذلك فالإسلام لا يقر الانتماء والتحزب للأشخاص، وإنما المسلم يرتبط بالرسالة فقط، بالدين والمبدأ، لا بالشخص، فلا يعطي ولاءه وانتماءه وانتسابه لشخص يدور في فلكه، فالأشخاص يذهبون، والأشخاص بعد الرسول ﷺ غير معصومين.

والانتماء للأشخاص يُفرّق الأُمّة، كل شخص يتحزب لرئيسه مصيبًا كان أو مخطئًا، والانتماء للدين يجمع ولا يُفرّق؛ إذ كل منهم يبحث عن مراد الله -جل شأنه-، عن الدليل الشرعي كائنًا مَن كان قائله، وهذا هو الذي يرد المخطئ إلىٰ النص، وبه تتحد القلوب وتتآلف.

التاسعة والعشرون: قد يتساءل شخص كيف نصر الله الكافرين الظالمين، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة:٢٧٠]؛ يقول الشيخ محمد العثيمين -رحمه الله تعالىٰ-: (الله -سبحانه وتعالىٰ- لا ينصر الظالم؛ لقوله -تعالىٰ-: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾، ولا يَرِد علىٰ هذا ما وقع في أُحُد من انتصار الكافرين، لوجوه:

الوجه الأول: أنه نوع عقوبة؛ حيث حصل من بعض المسلمين عصيانهم لأمر النبي ﷺ كما قال -تعالىٰ-: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:١٥٢].

الوجه الثاني: أن هذا الانتصار من أجل أن يمحق الله الكافرين؛ لأن انتصارهم يُغريهم بمقاتلة المسلمين، حتىٰ تكون العاقبة للمسلمين، كما قال -تعالىٰ-: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١])[1].

الوجه الثالث: (قال -تعالىٰ-: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤]؛ ليقوم سوق الجهاد، ويتبين بذلك أحوال العباد، الصادق من الكاذب، وليؤمن من آمن إيمانًا صحيحًا عن بصيرة، لا إيمانًا مبنيًّا علىٰ متابعة أهل الغلبة، فإنه إيمان ضعيف جدًّا، لا يكاد يستمر لصاحبه عند المِحَن والبلايا)[2].

(١) ابن عثيمين، تفسير سورة البقرة (٣/ ٣٥٦-٣٥٧).
(٢) السعدي، تفسير السعدي (٧٨٤).

الثلاثون: قوله -تعالىٰ-: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٢٨]؛ هذه الآية نزلت بعد غزوة أُحُد والتي فيها شَجّ المشركون وجه نبينا الشريف ﷺ، فقال ﷺ «كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيّهم؟»[(١)]. فنزلت هذه الآية يقول الإمام الطبري -رحمه الله تعالىٰ-: (وتأويل قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨]، ليس إليك يا محمد من أمر خَلقي إلا أن تنفّذ فيهم أمري، وتنتهي فيهم إلىٰ طاعتي، وإنما أمرهم إليَّ، والقضاء فيهم بيدي دون غيري أقضي فيهم، وأحكم بالذي أشاء من التوبة علىٰ من كفر)[(٢)].

هذا يدلنا علىٰ عدة أمور:

١- إن محمدًا ﷺ مع أنه خاتم الأنبياء والرسل، وأفضلهم، وهو خليل الرحمن -جل شأنه-، ومع ذلك قيل له هذا القول؛ فإن من دون ذلك من باب أولىٰ بكثير، فلا يملك لا الرسول ﷺ ولا غيره مهما كان من أمر مغفرة الذنوب ولا التوبة عن العباد شيئًا، فهذه من خصائص الله -جل شأنه-. فلا تتجه القلوب في طلب المغفرة، أو التوبة إلا لله وحده، فكيف بمن يعوذ أو يلوذ بولي يستعيذ به من شر، أو يرجوه لخير، والرسول ﷺ قيل له ليس لك من الأمر شيء!

٢- إنه لا يملك أحد من الخلق كائنًا مَن كان أن يحكم علىٰ أحد بعدم الفلاح، فأمر الفلاح عند الله وهو من خصائصه فلا تحكم علىٰ أحد بعينه بأنه لن يفلح، أو أن الله لن يَغفر له، أو أن الله لن يتوب عليه، إلا من حكم عليه النص.

الواحدة والثلاثون: إن المَضَارَّ قد تصيب من لا ذنب له سابق، ولا يراد ابتلاؤه في نفسه، وإنما يراد بذلك ابتلاء غيره، نأخذ هذا مما جرىٰ للنبي ﷺ في هذه الغزوة،

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٤١٧) رقم (١٧٩١) من حديث أنس -رضي الله تعالى عنه-.
(٢) الطبري، تفسير الطبري ، تحقيق عبد الله التركي (طبعة دار هجر) (٦/ ٤٢).

مما أريد به ابتلاء المؤمنين، ورفع درجات النبي ﷺ[1]، فلا يلزم من وجود الابتلاء سبق ذنب، والله أعلم.

الثانية والثلاثون: كان رسول الله ﷺ عند دَفْن الشهداء يُقَدِّمُ في القبر أكثرَهم أخذًا للقرآن وهذا يدلنا علىٰ أمور:

أ. عظمة هذا القرآن الكريم ورفعة وشرف حامله؛ قال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾ [فاطر:٢٩-٣٠]، قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (أي يرجون ثوابًا عند الله لا بد من حصوله..، يقول لصاحبه إن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة... وقال قتادة: كان مطرف -رحمه الله تعالىٰ- إذا قرأ هذه الآية يقول: هذه آية القراء)[2].

ب. إن ميزان التفاضل بين المسلمين هو التمسك بالإسلام، فأفضلهم أكثرهم تمسكًا بالإسلام، ومن علامة ذلك المحافظة علىٰ كتاب الله -سبحانه وتعالىٰ-، وليس ميزان التفاضل قبليًّا أو ماليًّا أو وظيفيًّا، وإنما قال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات:١٣]، فالتُّقىٰ هو ميزان التفاضل، يقول الشيخ السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (فأكرمهم عند الله أتقاهم، وهو أكثرهم طاعة وانكفافًا عن المعاصي لا أكثرهم قرابةً وقومًا ولا أشرفهم نسبًا)[3].

---

(١) انظر: عبد الرحمن المعلمي، رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله، وتحقيق معنى التوحيد والشرك بالله. تحقيق عثمان شيخ علي، الطبعة الثانية (مطبوع ضمن آثار الشيخ عبد الرحمن المعلمي المجلد الثالث)، (مكة: دار عالم الفوائد ١٤٣٤)، (٢/ ٦٦٦).

(٢) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٣/ ٥٥٤).

(٣) الشيخ عبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٥/ ٧٤).

ت. إن في فعل النبي ﷺ عندما كان يسأل: «أيهما أخذًا للقرآن؟»، ثم يقدمه في القبر، في فعله ﷺ هذا تعليمًا للأمة تقديم صاحب القرآن، بل وتكريمًا لصاحب القرآن في كل أمور دنيانا، فحيثما وُجِدَ صاحب القرآن فهو مقدَّم، وحيثما كان صاحب القرآن فهو مكرَّم، والأُمة بأفرادها ومجموعها مطلوب منها التأسي بالرسول ﷺ في حُسْن التعامل مع حامل القرآن الكريم.

ث. من حكمة الله -سبحانه وتعالىٰ- أن جعل التفاضل بين الناس في أمور كسبية للإنسان لا قهرية، فالشعوب والقبائل ونحوها للتعارف ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات:١٣]، أما التفاضل المعتبر بين الناس فهو بالتُّقىٰ والصلاح وطاعة الله -سبحانه وتعالىٰ- وهو أمر كسبيّ. ومثل هذا قوله ﷺ: «لا نُوْرَثُ، ما تركناه صدقةٌ»(١)، وقوله ﷺ: «وإن العلماء ورثة الأنبياء»(٢)، ومعنىٰ الحديثين -والله أعلم-: نحن لا نُوْرَثُ بالانتساب ولكننا نُوْرَثُ بالاكتساب، فالتأسي بالنبي ﷺ لا يسبق إليه ذو النسب، وإنما يكون بفعل السبب؛ بطلب العلم والعمل، وقد قال ﷺ في بقية الحديث: «وإن الأنبياء لم يُوَرِّثُوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما وَرَّثُوْا العلمَ، فمن أخذه أخذ بحظٍ وافرٍ»(٣)؛ فهم لم يورِّثوا لقرابتهم شيئًا، وإنما تركوا العلم يتنافس الناس فيه، وبطلبه وبالعمل به يتفاضلون.

الثالثة والثلاثون: يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- في دروس غزوة أُحُد: (فمنها تعريفهم سوء عاقبة المعصية والفشل والتنازع، وأن الذي أصابهم إنما بشؤم ذلك؛ كما قال -تعالىٰ-: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا

(١) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٦/ ١٩٧) رقم (٣٠٩٣).
(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب فضل العلم، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢/ ٦٩٤) رقم (٣٠٩٦).
(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب فضل العلم، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢/ ٦٩٤) رقم (٣٠٩٦).

فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٥٢]؛ فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول ﷺ وتنازعهم وفشلهم، كانوا بعد ذلك أشدَّ حَذَرًا ويقظةً وتحرزًا من أسباب الخذلان)[١].

وإلىٰ هذه الآية التي ذكرها ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- نضيف ثلاث فوائد مهمة:

الرابعة والثلاثون: سوء عاقبة التنازع، فعندما تنازع بعض الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين-؛ منهم من يريد النزول من الجبل والمشاركة في جمع الغنائم، ومنهم من يريد البقاء واختلفوا كما يقول الله -جل شأنه-: ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ﴾ كان هذا التنازع من أسباب ما جرىٰ في أُحد من تغيُّر مجراها لغير صالح المسلمين، وبناء علىٰ ذلك يجب علىٰ المسلم أن يَحْذَر الفُرْقَةَ والنزاعَ، وأن يحرص كل واحد في المجتمع أن يكون عضوًا صالحًا في مجتمعه متلاحمًا مع إخوانه مبتعدًا عن التنازع، وفي الحديث المتفق عليه أن الرسول ﷺ أوصىٰ معاذًا وأبا موسىٰ الأشعري لما بعثهما إلىٰ اليمن، وقال لهما: «يَسِّرَا ولا تُعسِّرَا، وبشِّرَا ولا تُنفِّرَا، وتطاوعا ولا تختلفا»[٢]،. فأمرهما بالتطاوع. ومعنىٰ هذا أن يلين المسلم مع إخوانه، ويستشعر أن ذلك عبادة، ويحتسب الأجر امتثالًا لأمر الرسول ﷺ.

مع ملاحظة أن التنازع الذي وقع في أُحُد حصل من بعض الرماة الذين علىٰ الجبل، ولم يحصل من الصحابة المقاتلين في الميدان -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين-، ومع ذلك جاء الحكم عامًّا، لخطورة هذا الأمر.

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٢١٨- ٢١٩).

(٢) متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري -رضي الله تعالى عنه-، صحيح البخاري (٣٠٣٨)، وصحيح مسلم (١٧٣٣).

الخامسة والثلاثون: سوء عاقبة الذنوب والمعاصي، فإن ما وقع من المعصية في أُحُد، كما قال -تعالىٰ-: ﴿وَعَصَيْتُم﴾، كان سببًا من أسباب ما جرىٰ، والذنوب ضررها عظيم وسريع علىٰ الفرد والمجتمع، وقد أُخْرِجَ آدمُ -عليه السلام- من الجنة بسبب المعصية، وطُرِدَ إبليسُ -لعنه الله- من رحمة الله بسبب المعصية.

ويضيف ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ- في تفسيره أمرًا آخر، كان ما جرىٰ في أحد عقوبة عليه، يقول -رحمه الله تعالىٰ- عند تفسير قول الله -تعالىٰ-: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥]: (عن ابن أبي حاتم بسنده عن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: «لما كان يوم أُحد من العام المقبل، عُوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقُتل منهم سبعون وفرَّ أصحاب رسول الله ﷺ عنه، وكُسرت رباعيته وهُشِّمت البيضة علىٰ رأسه، وسال الدم علىٰ وجهه، فأنزل الله -عز وجل-: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٥]؛ بأخذكم الفداء». وهكذا رواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن غزوان، وهو قراد أبو نوح، بإسناده ولكن بأطول منه، وكذا قال الحسن البصري)[١]. فكان ما جرىٰ في أُحُد من أسبابه أخذ الفداء في أسرىٰ بدر.

السادسة والثلاثون: مع كلّ ما سبق، فإن المخالفة التي وقعت من بعض الرماة -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين-، إنما هي مخالفة لأمر تنظيميّ وليس لأمر تشريعيّ، وفرق كبير بينهما، فالأوامر أو النصوص التشريعية هي لله -جل شأنه- ولرسوله ﷺ فقط: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورىٰ:٢١]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر:٧]، أما الأوامر أو النصوص التنظيمية فهي تصدر من السلطة التنفيذية كالحاكم أو قائد الجيش، من أجل بيان كيفيات تنفيذ الشرع، وإجراءاته، والرسول ﷺ عندما أمر

(١) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٢/ ١٥٩).

الرماة بالبقاء علىٰ الجبل كأن أمره بصفته قائدًا للجيش، ومعلوم أنه يسوغ لكل قائد جيش أن يُصدِر مثل هذه الأوامر تنظيمًا للجيش قبل البدء في المعركة، ومنه يتضح أن المخالفة هنا، كانت لأمر تنظيميّ وليس لأمر تشريعيّ، والأمر التنظيمي أخف بكثير من الأمر التشريعي. وأقول هذا لأبين:

١- إن المخالفة التي وقعت من بعض الرماة لم تكن في أمر تشريعي، وهذه يخفف العتب عليهم

٢- إن العقوبة كانت لمخالفة أمر تنظيمي، فكيف لو كانت لأمر تشريعي. وهذا ينبّه إلىٰ عِظَم المخالفة التشريعية.

٣- إن العلماء أخذوا من هذا التفريق بين التشريعي والتنظيمي.

السابعة والثلاثون: أيضًا نستفيد من الآية فائدة مهمة عند قوله -تعالىٰ-: ﴿ولقد عفا عنكم﴾؛ فإن المسلم عندما يقرأ غزوة أحد، وما جرىٰ فيها من أحداث يجب ألَّا يؤثر ذلك عليه في محبة وتوقير وتعظيم الصحابة -رضوان الله تعالىٰ عليهم أجمعين-؛ لأن ما جرىٰ في ذلك الموقف العصيب قد انتهىٰ بالعفو من الله عنهم بنص القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾، فما حصل انتهىٰ، وبقي لنا نحن فقط الدرس والعظة والعبرة.

وإذا كان الله -جل شأنه- قد عفا، فماذا تريد أنت؟! أما أن يتحدث متحدث يريد الانتقاص من مقام صحابي من صحابة رسول الله ﷺ فيُرَدُّ عليه بالآية. وعلينا أن نحفظ مكانة صحابة رسول الله ﷺ في قلوبنا، ونحفظ ألسنتنا إلا باللهج ثناء عليهم، ونعرف ما لهم علينا من حق الترضّي والمحبة والتوقير والاحترام ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وهذا الموقف، له موقف مشابه، فإن أبانا آدم -عليه السلام- أُخْرِجَ من الجنة، ولكن الله -سبحانه وتعالىٰ- تاب عليه واجتباه، فانتهىٰ ما حصل منه -عليه السلام-، وبقي علينا أن نحذر إغواء الشيطان وتزيينه.

الثامنة والثلاثون: حكمة الله وسُنّته في رسله وأتباعهم جرت، بأن يُدَالوا مرة ويُدَال عليهم أخرىٰ، لكن تكون لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائمًا دخل معهم المؤمنون وغير المؤمنين، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انتُصِرَ عليهم دائمًا لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة، فاقتضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين ليتميز مَن يتبعهم ويطيعهم للحق، وما جاءوا به، ممن يتبعهم علىٰ الظهور والغلبة خاصة[1].

قال -تعالىٰ-: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه:١٣٢]، وعن عبد الله بن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل قال له: «سألتُكَ كيف كان قتالكم إياه؟، فزعمتَ أن الحرب سجال ودُوَل، فكذلك الرسل تُبْتَلىٰ، ثم تكون لهم العاقبة»[2].

التاسعة والثلاثون: هذا الأمر يجعل المسلم مطمئنًا، فمتىٰ رأىٰ هزيمة في المسلمين لا يهتز، بل يعلم أنها لحكمة، ويراجع نفسه، فلا يستسلم ولا يتضعضع ولا يصيبه شك، ويعلم أنها لا تعدو أن تكون أشواكًا في الطريق، يُشمِّر لينال أجر الصبر عليها وليجتازها بسلام.

الأربعون: لما وقعت الهزيمة انطلق المشركون إلىٰ التمثيل بالشهداء بحِقْد وغيظ وشراسة، فصاروا يجدعون الأنوف والآذان ويبقرون البطون، هذا هو تعامل الكفار مع المسلمين ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ

(١) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ١٩٦-١٩٧).

(٢) صحيح البخاري (٤/ ١٩) رقم (٢٨٠٤).

فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة:٨]؛ قارن هذا السلوك بتعامل المسلمين مع قتلىٰ الكفار في بدر، جاءوا إليهم وواروهم، وبعضهم ألقي في قليب من قلب بدر، وأمية بن خلف لما أرادوا سحبه للقليب تمزق فتركوه وواروه في مكانة بالحجارة. ولم يُمَثَّل بأحد منهم، وتلك أخلاق المسلمين في الحروب[1].

الواحدة والأربعون: أنزل الله -جل شأنه- في شأن غزوة أحد ستين آية من سورة آل عمران بيّنت تفاصيل أهم ما جرىٰ في الغزوة، ومزجت الآيات بين العتاب الرقيق بأخذ الدرس والاستفادة من الحدث، والعفو عما سلف، وتهذيب النفوس وإصلاح النوايا، ورفع المعنويات والوعود الكريمة حتىٰ يستفاد من الحدث، وحتىٰ لا يؤدي ما جرىٰ إلىٰ الانكسار في النفوس، وفلّ القوىٰ، والانشغال بالتلاوم، والتحسر، وشلّ الإنتاج. بدأت هذه الآيات بقوله -تعالىٰ-: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٢١]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤٠]؛ تأمل هذا الخطاب للأمة بأن لا تَهِن ولا تحزن، وأنهم هم الأعلون خُوطِبُوا كما خُوطِب أحد أولي العزم من الرسل وهو موسىٰ -عليه السلام-؛ قال -تعالىٰ-: ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [طه:٦٨]، وفي هذا مزيد عناية بهذه الأمة وتكريم لها[2].

(١) لي كتاب صغير بعنوان «مقدمة في القانون الدولي الإنساني في الإسلام» طبعه مكتب الصليب الأحمر في الكويت، وهو يتحدث عن تعامل المسلمين مع المحاربين أثناء القتال. والكتاب متاح إلكترونيًّا.

(٢) انظر: الإيجي، تفسير الإيجي عند هذه الآيةمن سورة آل عمران (الهامش).

وقال -تعالى-: ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤١-١٤٢]، وقال -تعالى-: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال -تعالى-: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٥]، وقال -تعالى-: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨]، وقال -تعالى-: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٠].

وقال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٥٢]، وقال -تعالى-: ﴿ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [آل عمران:١٥٣].

وقال -تعالى-: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ

ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقال -تعالىٰ-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٥٥]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [آل عمران:١٥٦-١٥٧].

وقال -تعالىٰ-: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ آل عمران: ١٥٩]، وقال -تعالىٰ-: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران:١٦٥]، وقال -تعالىٰ-:﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ [آل عمران:١٦٦-١٦٧].

وقال -تعالىٰ-: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧١]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٢-١٧٤].

وقال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال -تعالىٰ-: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٧٩].

لقد أطَلْتُ في نقل الآيات؛ لأن لها معنىً خاصًّا وفهمًا دقيقًا وعلاجًا رقيقًا يشفي العليل ويروي الغليل، لمن يعايش الأحداث في السيرة، ثم يقرأ الآيات مستحضرًا الوقعة وآلامها ونتائجها ومآلاتها.

آيات تعاتب وتعالج وتداوي وتربّي، وتعيد الأمر إلىٰ دواخل النفوس، ثم ترفع المعنويات، وتعلن العفو عما سلف، وتأمر بالشورىٰ رغم نتائجها، وتبشر بالخيرات، وتهنئ تلك القلوب التي نجحت وطاردت رغم الجراح.

ومن تأمل جانب الفضائل، ووقف عند الثناءات التي أوردتها الآيات شعر بالأمن والطمأنينة والراحة، وإن كان جرحه يثعب دمًا.

ويكفيهم أنه -جل شأنه- قال لهم في نهاية الأحداث وفي أواخر الآيات ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤]، وهل هناك علاج نفسي أعظم من هذا العلاج؟! وهل هناك وعد أطيب من هذا الوعد؟! فالحمد لله رب العالمين.

الثانية والأربعون: مهما وقع في أُحُد فهو بإذن الله -جل شأنه-، والله -جل شأنه- هو الذي قدَّر هذا الأمر، وما قدَّره الله -جل شأنه- في أوليائه فهو خير كله أوله وآخره، وإن خفي علىٰ المؤمن بعض هذا الخير.

الثالثة والأربعون: في فضل شهداء أحد ورد عدد من الأحاديث:

١) عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا ذُكر أصحاب أُحُد: «أما والله لوددت أني غُودرت مع أصحاب نُحْص الجبل» يعني سفح الجبل[١]؛ أي: يا ليتني استُشهدت معهم[٢]، وفيه دلالة علىٰ زيادة شرف شهداء أحد من بين الشهداء. والرسول ﷺ لن يتمنىٰ إلا الأفضل. وكفىٰ - والله- هذا شرفًا لمن غادره المسلمون شهيدًا في أُحُد، وتركوه علىٰ عمل تمنَّاه المصطفىٰ ﷺ لنفسه!!

٢) عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالىٰ عنهما- أن رسول الله ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلىٰ أُحُد في ثوب واحد، ثم يقول: «أيهم أكثر أخذًا للقرآن؟»؛ فإذا أُشِيرَ له إلىٰ أَحَدٍ قَدَّمَه في اللحد، وقال: «أنا شهيد علىٰ هؤلاء يوم القيامة»، وأمر بدفنهم بدمائهم ولم يُصلِّ عليهم ولم يُغَسَّلُوا[٣].

٣) عن أنس رضي الله عنه قال: (غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله! غِبتُ عن أول قتال قاتلتَ المشركين، لئن الله أشهدني قتالَ المشركين ليرىٰ

(١) مسند الإمام أحمد (٢٣/ ٢٦٩-٢٧٠) رقم (١٥٠٢٥). وقال محققو المسند: «إسناده حسن، رجاله ثقات رجال الشيخين غير ابن إسحاق -وهو محمد بن إسحاق بن يسار صاحب المغازي- فهو صدوق حسن الحديث. وأخرجه الحاكم (٢/ ٧٦ و٣/ ٢٨)، وعند البيهقي في «الدلائل» (٣/ ٣٠٤) من طريق يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، بهذا الإسناد، قال السندي: قوله: «إذا ذكر» يحتمل أنه على بناء الفاعل، والضمير له ﷺ، أو على بناء المفعول، أي: ذُكِرَ عنده أصحاب أُحُد.

قوله: «أني غُودرت» من المغادرة، وهي الترك، أي: ليتني تُركت مع قتلى أُحد، وأُبقيت فيهم، أي: ليتني استشهدت معهم»، وقال الشيخ البنا في بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني (٢١/ ٥٨: «أورده الهيثمي وقال رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، غير ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع» ا.هـ يعني أن الحديث صحيح «ا.هـ.

(٢) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث (٣/ ٣٤٤).

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٣٧٤) رقم (٤٠٧٩).

الله ما أصنع. فلما كان يوم أُحُد وانكشف المسلمون قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء؛ يعني أصحابه، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء؛ يعني المشركين، ثم تقدم، فاستقبله سعد بن معاذ -رضي الله تعالىٰ عنه-، فقال: يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أُحُد، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ووجدناه قد قُتِلَ وقد مَثَّلَ به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه[1]. قال أنس: كنا نرىٰ أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ إلىٰ آخر الآية [الأحزاب:٢٣])[2].

٤) عن جابر بن عبد الله ﭭ قال: لما قُتِلَ أبي جعلتُ أبكي، وأكشف عن وجهه، فجعل أصحاب النبي ﷺ ينهونني، والنبي ﷺ لم يَنْهَ، وقال النبي ﷺ: «لا تَبْكه! ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتىٰ رُفِعَ»[3].

٥) وعن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالىٰ عنهما- أيضًا قال: (لقيني رسول الله ﷺ، فقال لي: «يا جابر ما لي أراك منكسرًا؟» قلت: يا رسول الله اسْتُشْهِدَ أبي وترك عيالًا ودَينًا، قال: قال: «ألا أبشرك بما لقي الله به أباك؟» قال: بلىٰ يا رسول الله، قال: «ما كلم الله أحدًا قط إلا من وراء حجابه وأحيا أباك فكلمه كفاحًا[4]؛ فقال: تَمَنَّ عليَّ أُعْطِكَ، قال: يا رب تحييني، فأُقْتَلَ فيك ثانية، قال الرب -تبارك وتعالىٰ-: إنه قد سبق مني أنهم لا يرجعون»، قال: وأُنْزِلَتْ هذه الآيةُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ

(١) البنانة: واحدة البنان وهي أطراف الأصابع، الرازي، مختار الصحاح (ص ٦٥).
(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٦/ ٢١) رقم (٢٨٠٥).
(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٣٧٤) رقم (٤٠٨٠)، وصحيح مسلم (٤/ ١٩١٧) رقم (٢٤٧١).
(٤) كفاحًا أي مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول، ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث (٤/ ١٨٥).

ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [آل عمران:-١٦٩ ١٧٠])[(١)].

٦) وعن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه سُئِلَ عن قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴾ [آل عمران:١٦٩]؛ فقال: (أمَا إنّا قد سألنا عن ذلك[(٢)]، فقال: أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلىٰ تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعه، فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يُتْرَكُوا، قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتىٰ نُقْتَلَ في سبيلك مرةً أخرىٰ، فلما رأىٰ أنه ليس لهم حاجة تركوا)[(٣)].

٧) عن أبي هريرة ﷺ قال: (إن رسول الله ﷺ حين انصرف من أُحُد مَرَّ علىٰ مصعب بن عمير ﷺ وهو مقتول علىٰ طريقه فوقف عليه، ودعا له، ثم قرأ هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلًا ﴾ [الأحزاب:٢٣]، ثم قال رسول الله ﷺ: «أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فأْتوهم وزُوروهم، والذي نفسي بيده لا يُسلّم عليهم أَحَد إلىٰ يوم القيامة إلا ردوا عليه»)[(٤)].

(١) أخرجه الترمذي في سننه، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣/ ٣٥) رقم (٢٤٠٨).
(٢) قال النووي -رحمه الله تعالى- في شرح صحيح مسلم (١٣/ ٣١): «وهذا الحديث مرفوع؛ لقوله: إنا قد سألنا عن ذلك فقال يعني النبي ﷺ قوله ﷺ في الشهداء».
(٣) صحيح مسلم (٣/ ٥٠٣) رقم (١٨٨٧).
(٤) أخرجه الحاكم مختصرًا في المستدرك (٣/ ٢٠٠)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ولم يتعقبه الذهبي. وانظر: ابن سعد، الطبقات (٣/ ١٢١)، وإبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية (ص ٢٩٧ - ٢٩٨).

٨) أخرج الإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ- في المسند من حديث طلحة -رضي الله تعالىٰ عنه- أنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ حتىٰ إذا أشرفنا علىٰ حرة واقم، قال: فدنونا منها، فإذا قبور بِمَحْنِيَّةٍ، فقلنا: يا رسول الله قبور إخواننا هذه. قال: «قبور أصحابنا»، ثم خرجنا حتىٰ إذا جئنا قبور الشهداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «هذه قبور إخواننا»[(١)]؛ فقوله ﷺ: («قبور أصحابنا»، يعني الذين ماتوا بغير جهاد. وقوله ﷺ «قبور إخواننا»[(٢)]؛ أي: الذين ماتوا مجاهدين في سبيل الله، ولذلك خصهم النبي ﷺ بالأخوة؛ لما لهم من الفضل والكرامة عند الله)[(٣)].

٩) روىٰ عمر بن شبة -رحمه الله تعالىٰ- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يأتي قبور الشهداء، فإذا أتىٰ فرضة الشعب يقول: «السلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبىٰ الدار»، ثم كان أبو بكر رضي الله عنه بعد النبي ﷺ يفعله، وكذا عمر رضي الله عنه وعثمان رضي الله عنه[(٤)].

١٠) عن جابر -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: لَمّا حَضَرَ أُحُدٌ دَعانِي أَبِي مِنَ اللَّيْلِ، فَقالَ: ما أُرانِي إلّا مَقْتُولًا في أوَّلِ مَن يُقْتَلُ مِن أصْحابِ النبيِّ ﷺ، وإنِّي لا أتْرُكُ بَعْدِي أعَزَّ عَلَيَّ مِنْكَ، غيرَ نَفْسِ رَسولِ اللهِ ﷺ، فإنَّ عَلَيَّ دَيْنًا فاقْضِ، واسْتَوْصِ بأَخَواتِكَ خَيْرًا، فأصْبَحْنا، فكانَ أوَّلَ قَتِيلٍ ودُفِنَ معهُ آخَرُ في قَبْرٍ، ثُمَّ لَمْ تَطِبْ نَفْسِي أنْ أتْرُكَهُ مع الآخَرِ، فاسْتَخْرَجْتُهُ بَعْدَ سِتَّةِ أشْهُرٍ، فَإِذا هو كَيَومِ وضَعْتُهُ هُنَيَّةً غيرَ أُذُنِهِ»[(٥)].

---

(١) الإمام أحمد المسند (٣/ ١٠) رقم (١٣٨٧). وقال محققو المسند: «إسناده حسن». حرة واقم: هي إحدى حَرَّتَي المدينة، وهي الشرقية، وأما الحرة الثانية، فهي حرة الوبرة، وهي الغربية. وقوله: «بمحنية»، هو حيث ينعطف الوادي، وهو منحناه أيضًا، ومحاني الوادي: معاطفه.

(٢) البناء، بلوغ الأماني (١٤/ ٢٩).

(٣) البناء، بلوغ الأماني (١٤/ ٢٩).

(٤) الشامي، سبل الهدى والرشاد (٤/ ٣٦٩).

(٥) صحيح البخاري (٢/ ٩٣) رقم (١٣٥١).

١١) ورد في موطأ الإمام مالك -رحمه الله تعالىٰ- قال: (عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة المازني -رحمه الله تعالىٰ-، أنه بلغه، أن عمرو بن الجموح، وعبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاريين، ثم السلميين -رضي الله تعالىٰ عنهما-، كانا قد خرق السيل قبرهما، أو حفر عنهما، ليغيرا من مكانهما، وكانا في قبر واحد فوُجِدَا لم يتغيرا، كأنما ماتا بالأمس، وكان أحدهما قد جُرِحَ، فوضع يده علىٰ جرحه، فدفن وهو كذلك، فأُميطت يده عن جرحه، ثم أرسلت فرجعت كما كانت، وكان بين أُحُد وبين يوم حفر عنهما، ست وأربعون سنة)[١].

١٢) قال ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ- في الطبقات: (عن الزهري، عن جابر بن عبد الله: (قالوا: وكان عبد الله بن عمرو بن حرام أول قتيل قتل من المسلمين يوم أُحُد،.. قال: وكان عبد الله بن عمرو رجلًا أحمر، أصلع، ليس بالطويل، وكان عمرو بن الجموح رجلًا طويلًا، فعُرِفَا فدُفِنَا في قبر واحد، وكان قبرهما مما يلي المسيل، فدخله السيل فحفر عنهما، وعليهما نمرتان وعبد الله قد أصابه جرح في وجهه فيده علىٰ جرحه، فأُميطت يده عن جرحه فانبعث الدم، فرُدَّت يده إلىٰ مكانها فسكن الدم، قال جابر: فرأيت أبي في حفرته كأنه نائم وما تغير من حاله قليل ولا كثير، فقيل له: فرأيت أكفانه؟ قال: إنما كفن في نمرة خُمِّر بها وجهه، وجعل علىٰ رجليه الحرمل، فوجدنا النمرة كما هي والحرمل علىٰ رجليه علىٰ هيئته، وبين ذلك ست وأربعون سنة، فشاورهم جابر في أن يطيب بمسك فأبىٰ ذلك أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: لا تُحْدِثُوا فيهم شيئًا، وحُوِّلا من ذلك المكان إلىٰ مكان آخر، وذلك أن القناة كانت تمر عليهما، وأخرجوا رطابًا يتثنون)[٢].

---

(١) الموطأ (١/ ٣٦٨) رقم (٩٣٨).

(٢) ابن سعد في الطبقات، الطبعة الأولى، بتحقيق إحسان عباس (بيروت: دار صادر ١٩٦٨)، (٣/ ٥٦٢-٥٦٣)، وأورد القصة مختصرة الذهبي في سير أعلام النبلاء (٣/ ١٩٠)، وقال المحقق: (والسند صحيح).

الرابعة والأربعون: لقي رسول الله ﷺ جابرًا فرآه حزينًا منكسرًا بعد استشهاد والده، فقال له: «يا جابر ما لي أراك منكسرًا؟». تأمل لُطْف هذه العبارة من الرسول ﷺ بأصحابه، ومتابعته لأحوالهم حتىٰ النفسية وجبر خواطرهم وتبشيرهم، فقد سأل جابرًا -رضي الله تعالىٰ عنه- عن سبب انكساره، ثم بشَّره بحال والده، وأن الله -جل شأنه- كلّمه كفاحًا. فأي جَبْر لكسره يقوم مقام هذه البشرىٰ العظيمة لجابر عن حال والده عند ربه؟!

الخامسة والأربعون: كان لحمزة -رضي الله تعالىٰ عنه- مكانة خاصة عند الرسول ﷺ، ووصفه بأنه سيد الشهداء.

عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: فَقَد رسول الله ﷺ يوم أُحُد حمزة، حين فاء الناس من القتال، قال: فقال رجل: رأيته عند تلك الشجرة، وهو يقول: أنا أسد الله وأسد رسوله، اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء؛ لأبي سفيان وأصحابه، وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء من انهزامهم، فسار رسول الله ﷺ نحوه، فلما رأىٰ جبهته بكىٰ، ولما رأىٰ ما مُثِّل به شهق، ثم قال: «ألَا كُفْن؟» فقام رجل من الأنصار فرمىٰ بثوب، قال جابر: فقال رسول الله ﷺ: «سيّد الشهداء عند الله تعالىٰ يوم القيامة حمزة»[1]؛ رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه.

السادسة والأربعون: من شدة وَجْد الرسول ﷺ وحزنه وعظيم تأثره بموت حمزة -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال لوحشي -رضي الله تعالىٰ عنه- الذي قتل حمزة -رضي الله تعالىٰ عنه- في أُحُد لما جاء إليه مُسْلِمًا بعد فتح مكة: «فهل تستطيع أن تُغيِّب وجهك عني؟» يدلنا هذا علىٰ ثلاثة أمور:

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢١٩) رقم (٤٩٠٠)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ولم يتعقّبه الذهبي في التلخيص.

أولًا: إنَّ الحزن والوَجْد علىٰ حمزة -رضي الله تعالىٰ عنه- لا يزال في قلب النبي الكريم ﷺ رغم مرور خمس سنوات علىٰ الحادثة؛ فقد كانت أُحُد في شهر شوال من السنة الثالثة من الهجرة وفتح مكة في رمضان السنة الثامنة من الهجرة. والعادة في الحزن علىٰ الأموات أنْ لَا تبقىٰ هذه السنوات إلا إذا كان المصاب عظيمًا.

ثانيًا: إن الرسول ﷺ قال هذا القول لوحشي؛ لكي لا يتجدد الحزن عليه، فإنه كلما رأىٰ وحشيًّا -رضي الله تعالىٰ عنه- سيتجدد الحزن، وتجدُّد الحزن مما يسعىٰ له الشيطان -أعاذنا الله منه-، قال -تعالىٰ-: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [المجادلة:١٠]. والمؤمن مطلوب منه أن يبتعد عما يحزنه لما في ذلك من إضعاف النفس، وإقعادها عن العمل، ولو عملت مع الحزن لكمالها، لعملت وهي مُرهَقة مُتعبة.

وكانت المصلحة الشرعية الابتعاد عن كلّ أعراض النفس المكروهة، تأمل قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ﴾ [آل عمران:١٧٦]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ [يونس:٦٥]. وهذا هو سبب قول الرسول ﷺ لوحشي تلك العبارة، وهو درس لنا في حياتنا أن استقرار النفوس مطلب شرعيّ يعين علىٰ الطاعة والعمل، والابتعاد عن أسباب أعراض النفس المكروهة مطلب محمود[١]، سواء أكان رؤية أشخاص أو مكان أو بلد، أو حدث، فلا يُعرض المسلم نفسه لهذه الأشياء التي تُذكّره بما يكره، وعلىٰ المسلم أيضًا أن يراعي نفسية أخيه فلا يُذكِّره بما يؤذيه، سواء أكان مكانًا أو زمانًا أو حدثًا أو خبرًا سيئًا يثير عليه أو يجدد عليه حزنه، وهو فقه للنفوس، كثير من الناس يغفل عنه، فيؤذي نفسه، ويجلب الأذىٰ لغيره.

(١) انظر: الطريفي، الفصل بين النفس والعقل (ص ١٤٥).

ثالثًا: إن المسلم لا يُلَام شرعًا علىٰ الإعراض عن مقابلة شخص، إذا كان هذا الشخص قد سبقت منه سابقة مؤذية له، وبسببها يتجدّد عليه الحزن أو الغم برؤيته. فلو صارحه بعدم رغبته في مقابلته، أو تعمَّد الصدود عنه، دون هجران أو عداوة، فهذا حقّ له لا يُلام عليه، بل قد يكون محمودًا إذا كان تأثيره كبيرًا.

السابعة والأربعون: قال -تعالىٰ-: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ...﴾ (في هذه الآية دلالة علىٰ أن الله -جل شأنه- يُحْدِث لعبده أسباب المخاوف والشدائد ليحدث العبد التوكل علىٰ ربه والإخلاص والتضرع فيزداد إيمانه، وينمو يقينه؛ كما قال الله -تعالىٰ-: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣])[١].

الثامنة والأربعون: إن الله -جل شأنه- كما يهيئ لأوليائه أسباب الكرامة والرفعة عنده، فهو كذلك إذا أراد بأعدائه الهلاك والمحق قيَّض لهم من الأسباب ما يستوجبون به هلاكهم ومَحْقهم، ومن أعظم ذلك بعد كفرهم: بغيهم وطغيانهم، ومبالغتهم في أذىٰ أوليائه ومحاربتهم، فكان ما جرىٰ في أُحُد من حكمته أن يطغىٰ هؤلاء الكفرة، ثم يمحقهم الله -جل شأنه-، قال -تعالىٰ-: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١][٢]. ومن تأمل ما وقع بعد ذلك من أحداث حتىٰ تمَّ فتح مكة وفتح خيبر تبين له كيف مَحَق الله الشرك والمشركين من الجزيرة.

التاسعة والأربعون: في غزوة أُحُد شاور الرسول ﷺ الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-، وكان رأي الرسول ﷺ البقاء في المدينة ومقاتلة المشركين داخلها، في الأزقة والطرقات، وكان هذا رأي عدد من الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-، ولكن كان

---

(١) السعدي، المواهب الربانية من الآيات القرآنية. اعتنى بها عمر المقبل (٣٩-٤٠).

(٢) انظر: ابن القيم ، زاد المعاد (٣/ ١٩٩).

رأي الأكثر -ومنهم الذين فاتهم المشاركة في غزوة بدر- هو الخروج لملاقاة العدو خارج المدينة، فلبس الرسول ﷺ لأْمته وأخذ برأيهم وترك رأيه. فكانت الهزيمة، وكان المنتظَر أن يترك الرسول ﷺ الشورىٰ، ولكننا نجد في القرآن الذي نزل في شأن غزوة أُحُد بعد ذلك قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وهذا يعني أهمية الشورىٰ، وأنها هي الطريق الصحيح للوصول للرأي الرشيد، مهما كانت النتائج بعد ذلك، ولو حصل ما حصل هذه المرة، فالمبدأ لا يتأثر، والمحافظة علىٰ الشورىٰ مطلب شرعيّ دائمًا.

الخمسون: (نية المؤمن تقوم مقام من عمله، وإذا أحسن العبد في عبادة ربه، ووطَّن نفسه علىٰ الأعمال الفاضلة الشَّاقَّة، سهَّل الله له الأمور، وهوَّن عليه صعابها، وربما انقلبت المخاوف أمنًا، وتبدَّلت المحنة مِنْحَة، وربما حصل من آثار ذلك خير الدنيا والآخرة، ويدل لذلك قوله -تعالىٰ-: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾؛ إلىٰ قوله -تعالىٰ-: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران:١٧٢-١٧٤]؛ فلا يستنكر هذا الخير علىٰ ذي الفضل العظيم)[١].

الواحدة والخمسون: لا بد أن أقف عند أمر مُهمّ، وهو أن كفار قريش لما خرجوا بثلاثة آلاف رجل إلىٰ المدينة، بقيادة أبي سفيان، ماذا كان هدفهم؟ هل كان هدفهم قتل سبعين رجلًا، وإصابة عدد آخر بجراح، ثم العودة من حيث أتوا؟ هل لأجل هذا الغرض خرجوا بهذا الجمع من مكة؟ بلا شك، لم يخرجوا لهذا الهدف، يدل لهذا ما أخرجه النسائي -رحمه الله تعالىٰ- في السنن الكبرىٰ عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: لما انصرف المشركون عن أُحُد وبلغوا الروحاء[٢]،

(١) السعدي، المواهب الربانية من الآيات القرآنية. اعتنى بها عمر المقبل (٣٩-٤٠).
(٢) «الرّوحاء: على الطريق بين المدينة وبدر، على مسافة أربعة وسبعين كيلو من المدينة» محمد شراب، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة (ص ١٣١).

قالوا: «لا محمدًا قتلتموه، ولا الكواعب أردفتم، وبئس ما صنعتم ارجعوا»، -وقد سبق الإشارة إليه أثناء عرض أحداث الغزوة-.

كان من أبرز أهدافهم القضاء علىٰ الرسول ﷺ والصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-، ثم تأمين طريق التجارة إلىٰ الشام، ثم استعادة هيبتهم التي مُحِقَتْ في بدر. فهل شيء من ذلك تحقق؟

لم يتحقق شيء من هذه الأهداف، حتىٰ الهدف الأخير، الذي ظنُّوا أنهم حقَّقوا شيئًا منه، محاه الرسول ﷺ بمطاردتهم إلىٰ حمراء الأسد، وفرُّوا لما علموا بمقدمه، ولم يصمدوا لملاقاته.

ولذلك يمكن القول بأن غزوة أحد لا مغنم فيها لكفار قريش لا ماديًّا ولا معنويًّا، وإنما كانت درسًا تربويًّا للمؤمنين.

الثانية والخمسون: يُستفاد من غزوة أُحد حكمة مشروعية تعدُّد الزوجات، فبعد هذه الغزوة تأيَّم عدد كبير من النساء. فمن لهن لو لم يُؤذَن بالتعدُّد. فبين عشية وضحاها تأيم في المدينة قرابة سبعين امرأة، فهل تُترك تلك النسوة لمصابهن، ومن تأمل سِيَر الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- وجد أنهم كانوا يتزوجون تلك الأيِّمات، بل تجد المرأة يتعاقب عليه عدة رجال، كلما قُتِلَ رجل في سبيل الله، تزوَّجها آخر ولا يتركونها أيِّمًا.

الثالثة والخمسون: إن غزوة أُحد كانت إحدىٰ المقدمات والممهدات لوفاة الرسول ﷺ، وخطوة نحو تهيئة المجتمع المسلم لما بعد الرسول ﷺ، فقد أُشيع أن الرسول ﷺ قُتِلَ، وصدَّق البعض هذه الإشاعة، وكأن في هذا تدبيرًا لتهيئة النفوس لهذا الحدث الجلل، فإن الرسول ﷺ سيموت، وهي الفاجعة العظمىٰ، تعجز القلوب والعقول عن تحمُّل هولها، فماذا سيصنعون؟ لا بد من التهيئة لهذا الحدث الأعظم،

بل الحدث الأعظم والمصاب الأكبر علىٰ الأمة كلها[1]، وسيأتي مزيد حديث عن هذه المسألة في مبحث الفاجعة العظمىٰ بوفاة المصطفىٰ ﷺ في الفصل الثامن -إن شاء الله تعالىٰ-.

(١) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٢٠١).

المبحث الرابع

فقه السيرة في غزوة بني المصطلق

هذه الغزوة تُسَمَّىٰ غزوةَ بني الْمُصْطَلِق أو الْمُرَيْسِيْع. والـمُصْطَلِق[1] -بضم الميم وسكون المهملة وفتح الطاء المهملة وكسر اللام بعدها قاف- هو لقب لشخص اسمه جذيمة بن سعد بن عمرو بن ربيعة بن حارثة، بطن من بني خزاعة.

وأما الـمُرَيْسِيْع فبضم الميم وفتح الراء وسكون التحتانيتين بينهما مهملة مكسورة وآخره عين مهملة، هو ماء لبني خزاعة بينه وبين الفرع مسيرة يوم[2].

وغزوة بني المصطلق كانت لليلتين خلتا من شهر شعبان من السنة الخامسة من الهجرة علىٰ الراجح من أقوال أهل السيرة[3].

---

(١) قال ابن منظور في لسان العرب (١٠/ ٢٠٥): (الصلق: الصوت الشديد يريد رفعه عند المصائب وعند الموت ويدخل فيه النوح؛ ومنه الحديث: «أنا بريء من الصالقة والحالقة»)، وقال السهيلي في الروض الأنف (٧/ ١٨): «وهم بنو جذيمة بن كعب من خزاعة، فجذيمة هو المصطلق وهو مفتعل من الصلق وهو رفع الصوت».

(٢) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٤٣٠)، وقال محمد حسن شراب: «كأنه تصغير المرسوع: وهو الذي انسلقت عينه من السهر. جاء ذكره في غزوة بني المصطلق من خزاعة: وهو جزع من وادي «حورة»، أحد روافد «ستارة»، وستارة وقديد واد واحد، وهو بعيد عن الساحل في الداخل بما يقرب من ثمانين كيلو عن سيف البحر»، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة (ص٢٥١).

(٣) انظر: المرجع السابق، والشامي، سبل الهدى (٤/ ٥٠٣)، ومحمد سعيد القرافي، الدروس الدعوية في غزوة بني المصطلق (ص ٩) (بحث غير منشور)، وإبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية (ص ٣٢٩).

كان من آثار غزوة أُحُد أن تجرَّأ بعض الأعراب علىٰ محاربة الرسول ﷺ، وقد بلغ الرسولَ ﷺ أن بني المصطلق يجمعون له، الرجال والسلاح وتأليب القبائل المجاورة للقيام بهجوم علىٰ المدينة، بقيادة زعيمهم الحارث ابن أبي ضرار[1].

فبعث رسول الله ﷺ بريدة بن الحصيب الأسلمي -رضي الله تعالىٰ عنه-؛ ليتأكد من الخبر، فأتاهم ولقي الحارث بن أبي ضرار وكلَّمه، ورجع إلىٰ رسول الله ﷺ وأخبره خبرَ القومِ وما عزموا عليه.

فندب الرسول ﷺ الناس للخروج إليهم، وخرج بسبعمائة مقاتل، وخرج معهم عدد كبير من المنافقين، وعلىٰ رأس هؤلاء المنافقين زعيمهم عبد الله بن أبي ابن سلول، ولما كان بنو المصطلق ممن بلغتهم دعوة الإسلام واشتركوا مع الكفار في غزوة أُحد وكانوا يجمعون الجموع لحرب المسلمين؛ فقد أغار عليهم الرسول ﷺ وهم غارون[2]؛ كما في صحيح البخاري -رحمه الله تعالىٰ- عن عبد الله بن المبارك -رحمه الله تعالىٰ- أخبرنا ابن عون قال: كتبت إلىٰ نافع فكتب إليَّ: إن النبي ﷺ أغار علىٰ بني المصطلق وهم غارون، وأنعامهم تُسقىٰ علىٰ الماء، فقتل مقاتلهم، وسبَىٰ ذراريهم، وأصاب يومئذ جويرية، حدثني ابن عمر -رضي الله تعالىٰ عنهما- وكان في ذلك الجيش[3].

وقد قتلوا منهم عشرة، وأسروا سائرهم، وسبوا النساء والرجال والذرية والنعم، ولم يُقْتَل من المسلمين إلا رجلٌ واحدٌ[4] هو هشام بن صبابة -رضي الله تعالىٰ عنه- قتله أحد الأنصار خطأ، ظنًّا أنه من الأعداء[5].

(١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٤/ ١٥٦).
(٢) غارون: أي غافلون، أي أخذهم على غرة، فتح الباري (٥/ ٩٧١).
(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٥/ ١٧٠) رقم (٢٥٤١).
(٤) انظر: القسطلاني، المواهب اللدنية (١/ ٤٤٢).
(٥) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية المطبوعة مع الروض الأنف (٤/ ٧).

قالت عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-: (لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق، وقعت جويرية بنت الحارث -رضي الله تعالىٰ عنها-(١) في السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له فكاتبته علىٰ نفسها، وكانت امرأة حلوة ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها، قالت عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-: فوالله ما هو إلا أن رأيتُها علىٰ باب حجرتي، فكرهتُها وعرفتُ أنه سيرىٰ منها رسول الله ﷺ ما رأيتُ، فدخلتْ عليه، فقالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يَخْفَ عليك، فوقعتُ في السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له فكاتبته علىٰ نفسي، فجئتك أستعينك علىٰ كتابتي، قال: «فهل لك في خير من ذلك؟» قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: «أقضي عنك كتابتك وأتزوجك!» قالت: نعم يا رسول الله، قال: قد فعلت.

قالت: وخرج الخبر إلىٰ الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ، وأرسلوا ما بأيديهم، قالت: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأةً كانت أعظمَ علىٰ قومها بركةً منها)(٢).

---

(١) جويرية أم المؤمنين -رضي الله تعالى عنها-، انظر الروض الأنف للسهيلي (٧/ ٥٦٣)، وإمتاع الأسماع للمقريزي (٦/ ٨٣-٨٤). وجاء في الخصائص الكبرى للسيوطي (١/ ٣٩٢) أن والدها الحارث بن أبي ضرار قدم المدينة بعد الغزوة بإبل معه من أجل فداء ابنته، فلما أقبل على المدينة أعجبه فيها بعيرين فغيبهما في أحد أودية المدينة، ثم أقبل على الرسول ﷺ وقال له أقبلت بفداء ابنتي، فقال له الرسول ﷺ: أين البعيرين اللذين غيبتهما؟! فقال الحارث: أشهد أنك رسول الله، وأسلم. وسبق ترجمة لأم المؤمنين جويرية -رضي الله تعالى عنها- في مبحث زوجات النبي ﷺ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند، الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد للبناء (١٤/ ١٠٩/ ١١٠)، وقال البناء في بلوغ الأماني (١٤/ ١١٠): (وسنده جيد)، وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية المطبوعة مع الروض الأنف (٤/ ٨-٩).

وجرىٰ في هذه الغزوة حادثتان مهمتان هما أبرز ما جرىٰ فيها؛ بل هما مما دعاني إلىٰ الوقوف مع هذه الغزوة للدراسة، والحادثتان هما:

الحادثة الأولىٰ: محاولة إثارة الفتنة بين المهاجرين والأنصار:

يقول ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (حدثني عاصم بن عمر بن قتادة... فبينا الناس علىٰ ذلك الماء، وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه- أجير له من بني غفار يقال له: جهجاه بن مسعود يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج علىٰ الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار! وصرخ جهجاه يا معشر المهاجرين! فغضب عبد الله بن أبي ابن سلول وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم -رضي الله تعالىٰ عنه- غلام حدث؛ فقال: أوقد فعلوها؟ قد نافرونا، وكاثرونا في بلادنا، والله ما أَعُدّنا وجلابيب[1] قريش هذه إلا كما قال الأول: «سَمِّنْ كلبَكَ يأكلْكَ»، أما والله لئن رجعنا إلىٰ المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ منها الأَذَلَّ، ثم أقبل علىٰ من حضره من قومه، فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلىٰ غير داركم، فسمع بذلك زيد بن أرقم ﵁ فمشىٰ به إلىٰ رسول الله ﷺ، فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه-، فقال: مُر به عباد بن بشر -رضي الله تعالىٰ عنه- فليقتله، فقال رسول الله ﷺ: «فكيف يا عمر! إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه، لا، ولكن آذن بالرحيل»، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس، وقد مشىٰ عبد الله بن أبي ابن سلول إلىٰ رسول الله ﷺ حيث بلغه أن زيد بن أرقم -رضي الله تعالىٰ عنه- بلّغه ما سمع منه، فحلف بالله ما قلت ما قال، ولا تكلمت به وكان في قومه شريفًا عظيمًا، فقال مَن

(١) جلابيب: هذا لقب أطلقه بعض المشركين على مَن أسلم مِن المهاجرين، وأصل الجلابيب الأُزُر الغلاظ كانوا يلتحفون بها، فلقبوهم بذلك.

حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسىٰ أن يكون الغلام أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل، حدبًا علىٰ ابن أبي ودفعًا عنه).

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (فلما استقلَّ رسول الله ﷺ وسار لقيه أسيد بن حضير رضي الله عنه، فحيَّاه بتحية النبوة وسلَّم عليه، وقال يا رسول الله، والله لقد رحتَ في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: «أَوَ ما بَلَغَكَ ما قال صاحبُكم؟» قال: أي صاحب يا رسول الله؟ قال: «عبد الله بن أبي ابن سلول»، قال: وما قال؟ قال: «زعم أنه إن رجع إلىٰ المدينة أخرج الأعزُّ منها الأذلَّ»، قال: فأنت يا رسول الله تخرجه إن شئتَ، هو والله الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله ارْفُقْ به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه ليَنْظمون له الخرز ليُتوِّجُوه، فإنه ليرىٰ أنك قد استلبته مُلكًا، ثم مشىٰ رسول الله ﷺ بالناس يومه ذلك حتىٰ أمسىٰ، وليلتهم حتىٰ أصبح، وصدر يومهم ذلك حتىٰ آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرض فوقعوا نيامًا، وإنما فعل ذلك؛ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس، من حديث عبد الله بن أبي)[1].

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين في ابن أبيّ ومن كان علىٰ مثل أمره، فأخذ رسول الله ﷺ بأُذن زيد بن أرقم -رضي الله تعالىٰ عنه- وقال: «هذا الذي أوفىٰ الله بأُذُنِهِ».

وجاء عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول -رضي الله تعالىٰ عنه- فقال: يا رسول الله بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلًا فمر لي به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبرّ بوالده

(١) ابن كثير، البداية والنهاية (٤/ ١٥٧-١٥٨)، وأورد البخاري -رحمه الله تعالى- القصة مختصرة في صحيحه، كتاب التفسير، باب قولـه: (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم...) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٨/ ٦٤٨) رقم (٤٩٠٥).

مني، وإني أخشىٰ أن تأمر غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلىٰ قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس، فأقتله فأقتل مؤمنًا بكافر، فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: «بل نترفّق به ونُحْسِن صُحبته ما بقي معنا». وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه-، حين بلغه ذلك من شأنهم: «كَيْفَ تَرىٰ يا عُمَرُ؟ أما واللهِ لَوْ قتَلْتَهُ يَوْمَ قُلْتَ لِي: اقْتُلْهُ، لَأُرْعِدَتْ لَهُ أُنُفٌ، ولَوْ أمَرْتُها اليَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلَتْهُ». قال: قال عمر -رضي الله تعالىٰ عنه-: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري)[1].

ووقف عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول لأبيه عند مضيق المدينة؛ فقال: قف فو الله لا تدخلها حتىٰ يأذن رسول الله ﷺ في ذلك، فلما جاء رسول الله ﷺ استأذن في ذلك، فأذن له فأرسله حتىٰ دخل المدينة[2].

وأما الحادثة الثانية، فقصة الإفك[3]:

عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- زوج النبي ﷺ قالت: (كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-: فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج سهمي، فخرجتُ مع رسول الله ﷺ بعد ما نزل الحجاب، فأنا أُحمَل في هودجي وأنزل فيه، فسرنا حتىٰ إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل، فقمتُ حين آذنوا بالرحيل فمشيتُ حتىٰ جاوزتُ الجيش، فلما قضيتُ

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٣/ ٣٣٦-٣٣٧).
(٢) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٤/ ١٥٨).
(٣) قال العيني في عمدة القاري (١٣/ ٢٢٨): (الإفك: قال النسفي -رحمه الله تعالى-: الإفك أبلغ ما يكون من الافتراء والكذب، وقيل: هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك) ا.هـ. والمراد به هنا ما جرى من افتراء وكذب على أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها-.

شأني أقبلتُ إلىٰ رحلي، فإذا عِقْدٌ لي من جزع أظفار[1] قد انقطع، فالتمستُ عقدي وحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي، فاحتملوا هودجي، فرحّلوه علىٰ بعيري الذي كنتُ ركبتُ وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافًا، فلم يثقلن اللحم، إنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يَستنكر القومُ خفةَ الهودج حين رفعوه، وكنتُ جاريةً حديثةَ السِّنّ، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدتُ عِقْدِي بعد ما استمر الجيش، فجئتُ منازلَهم وليس بها داعٍ ولا مجيب، فأممت منزلي الذي كنتُ به، وظننتُ أنهم سيفقدونني فيرجعون إليَّ، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتْني عيني فنمتُ، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني -رضي الله تعالىٰ عنه- من وراء الجيش، فأدلج، فأصبح عند منزلي، فرأىٰ سوادَ إنسانٍ نائمٍ، فأتاني فعرفني حين رآني، وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظتُ باسترجاعه حين عرفني، فخمرتُ وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة ولا سمعتُ منه كلمة غير استرجاعه، حتىٰ أناخ راحلته، فوطئ علىٰ يديها فركبتُها، فانطلق يقود بي الراحلةَ حتىٰ أتينا الجيشَ بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك، وكان الذي تولَّىٰ الإفكَ عبدُ اللهِ بنُ أبي ابن سلول، فقدمنا المدينةَ، فاشتكيتُ حين قدمتُ شهرًا، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجهي أنىٰ لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرىٰ منه حين أشتكي، إنما يدخل عليَّ رسول الله ﷺ فيسلِّم ثم يقول: «كيف تيكم»، ثم ينصرف، فذاك الذي يريبني ولا أشعر

---

(١) قال في النهاية في غريب الحديث (٣/ ٣٥٢): «عقد من جزع أظفار: والصحيح في الروايات أنه من جزع ظفار: اسم لمدينة في اليمن». وقال في تفسير غريب ما في الصحيحين (١/ ٢٥٧): «جزع أظفار: نوع من الخرز وقيل هو جزع ظفار مدينة باليمن». وقال في شرح أبي داود للعيني (٢/ ١٢١): «الجزع بفتح الجيم وسكون الزاي: خرز يماني ملون». وقال ابن حجر في الفتح (٥/ ٢٧٣): «من جزع أظفار، كذا للأكثر وفي رواية الكشميهني: ظفار وهو أصوب». وظفار الآن مدينة مشهورة من مدن سلطنة عمان.

بالشر، حتىٰ خرجتُ بعدما نقهتُ، فخرجتْ معي أُمّ مسطح قبل المناصع[1]، وهو متبرزنا، وكنا لا نخرج إلا ليلًا إلىٰ ليل، وذلك قبل أن تُتَّخذ الكُنُف قريبًا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قِبَل الغائط، فكنا نتأذىٰ بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح وهي ابنة أبي رهم بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح[2] بن أثاثة، فأقبلت أنا وأم مسطح قِبَل بيتي، وقد فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت، أتسبين رجلًا شهد بدرًا؟ قالت: أي هنتاه، أو لم تسمعي ما قال؟ قالت: قلتُ: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددتُ مرضًا علىٰ مرضي، فلما رجعتُ إلىٰ بيتي ودخل عليّ رسول الله ﷺ تعني سلَّم علي ثم قال: «كيف تيكم؟)»، فقلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر مِن قِبَلهما، قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ، فجئت أبويَّ، فقلت لأمي: يا أمتاه ما يتحـدَّث الناس؟ قالـت: يا بنية هـوّني عليك، فو الله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، قالت: فقلت: سبحان الله، أو لقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيتُ تلك الليلةَ حتىٰ أصبحتُ لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم حتىٰ أصبحت أبكي، فدعا رسول الله ﷺ علي بنَ أبي طالب وأسامةَ بنَ زيدٍ -رضي الله تعالىٰ عنهم- حين استلبث الوحي يستأمرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد -رضي الله تعالىٰ عنه- فأشار علىٰ رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود فقال: يا رسول الله، أهلك، وما نعلم إلا خيرًا، وأما علي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- فقال: يا رسول الله لم يُضيّق الله عليك والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك، قالت: فدعا

(١) قال في النهاية في غريب الحديث (٥/ ٦٥): «هي المواضع التي يتخلى فيها لقضاء الحاجة، واحدها: منصع؛ لأنه يُبرز إليها ويُظهر. قال الأزهري: أراها مواضع مخصوصة خارج المدينة».
(٢) قال ابن حجر في الفتح (٨/ ٤٦٥): «والمسطح عود من أعواد الخباء، وهو لقب واسمه عوف وقيل عامر والأول هو المعتمد».

رسول الله ﷺ بريرة -رضي الله تعالىٰ عنها- فقال: «أي بريرة هل رأيتِ من شيء يريبك؟» قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت عليها أمرًا أغمصه[1] عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن[2] فتأكله، فقام رسول الله ﷺ فاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبي ابن سلول، فقال رسول الله ﷺ وهو علىٰ المنبر: «يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فو الله ما علمت علىٰ أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل علىٰ أهلي إلا معي»؛ فقام سعد بن معاذ الأنصاري -رضي الله تعالىٰ عنه- فقال: يا رسول الله، أنا أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة -رضي الله تعالىٰ عنه- وهو سيد الخزرج وكان قبل ذلك رجلًا صالحًا، ولكن احتملته الحمية فقال لسعد: كذبت لعمر الله، لا تقتله ولا تقدر علىٰ قتله، فقام أسيد بن حضير -رضي الله تعالىٰ عنه- وهو ابن عم سعد بن معاذ -رضي الله تعالىٰ عنه-، فقال لسعد بن عبادة -رضي الله تعالىٰ عنه-: كذبت لعمر الله لنقتله، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتىٰ هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم علىٰ المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يُخفّضهم حتىٰ سكتوا وسكت، قالت: فمكثتُ يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، قالت: فأصبح أبواي عندي وقد بكيتُ ليلتين ويومًا لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع يظنان أن البكاء فالق كبدي، قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنتْ عليَّ امرأةٌ من الأنصار فأذنتُ لها، فجلستْ تبكي معي، قالت: فبينا نحن علىٰ ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل، وقد لبث شهرًا لا يُوحَىٰ إليه في شأني

(١) بفتح الهمزة وكسر الميم: أعيبها به. الديباج على صحيح مسلم (٦/ ١٢٨).

(٢) الداجن: هي الشاة ونحوها تألف البيت ولا تخرج إلى المرعى. الديباج على صحيح مسلم (٦/ ١٢٨).

قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: «أما بعد، يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرؤك الله، وإن كنت ألممت بذنب، فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب إلىٰ الله تاب الله عليه». قالت: فلما قضىٰ رسول الله مقالته قلص دمعي حتىٰ ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب رسول الله ﷺ فيما قال، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ، قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، قالت: فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرًا من القرآن: إني والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث حتىٰ استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقونني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقنني، والله ما أجد لكم مثلًا إلا قول أبي يوسف، قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨].

قالت: ثم تحوّلت، فاضطجعت علىٰ فراشي. قالت: وأنا حينئذ أعلم أني بريئة، وأن الله يبرئني ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيًا يُتْلَىٰ، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر يُتْلَىٰ، ولكن كنت أرجو أن يرىٰ رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرؤني الله بها، قالت: فو الله ما رام رسول الله ﷺ ولا خرج أحد من أهل البيت حتىٰ أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء[١] حتىٰ إنه ليتحدر منه مثل الجمان[٢] من العرق وهو في يوم شاتٍ مِن ثِقَل القول الذي ينزل عليه، قالت: فلمَّا سُرِّي[٣] عن رسول الله ﷺ سُرِّي عنه وهو يضحك، فكانت أول

(١) البرحاء: بضم الموحدة وفتح الراء وحاء مهملة ومد، هي الشدة من ثقل الوحي.الديباج شرح صحيح مسلم (٦/ ١٢٨)، والنهاية في غريب الحديث (١/ ٢٩٢).

(٢) الجمان جمع جمانة وهو اللؤلؤ.

(٣) سُرِّي عنه: بضم السين وكسر الراء المشددة: أي كشف. الديباح شرح صحيح مسلم (٣/ ٢٧١).

كلمة تكلم بها: «يا عائشة، أما الله -عز وجل- فقد بَرَّأَكِ»؛ فقالت أمي: قُوْمِي إليه قالت: فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله -عز وجل- وأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ العشر آيات كلها من سورة النور. فلما أنزل الله في براءتي قال أبو بكر الصديق ﷺ - وكان ينفق علىٰ مسطح بن أثاثة -رضي الله تعالىٰ عنه؛ لقرابته منه وفقره-: والله لا أنفق علىٰ مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٢٢]؛ قال أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-: بلىٰ والله، إني أحب أن يغفر الله لي، فرجع إلىٰ النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا.

قالت عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب ابنة جحش -رضي الله تعالىٰ عنها-، عن أمري فقال: يا زينب، ماذا علمتِ أو رأيتِ؟ فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، ما علمت إلا خيرًا، قالت: وهي التي كانت تساميني[١] من أزواج رسول الله ﷺ، فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها حمنة -رضي الله تعالىٰ عنها- تحارب لها، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك)[٢].

وفي مسند الإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ- عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: (لما نزل عذري، قام رسول الله ﷺ علىٰ المنبر، فذكر ذلك، وتلا القرآن، فلما نزل أمر برجلين وامرأة، فضُرِبُوا حدّهم)[٣].

---

(١) تساميني: تعادلني وتضاهيني في المنزلة عند رسول الله ﷺ في الحظوة والمنزلة الرفيعة. انظر: الديباج شرح صحيح مسلم (٥/ ٤٠٦). أو تفاخرني وتضاهيني جمالها ومكانها عند النبي ﷺ. انظر: الديباج شرح صحيح مسلم (٦/ ١٢٨).

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٨/ ٤٥٢- ٤٥٥) رقم (٤٧٥٠).

(٣) مسند الإمام أحمد (٤٠/ ٧٦-٧٧) رقم (٢٤٠٦٦) وقال محققو المسند: حديث حسن.

قال ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ-: (عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-... ثم خرج إلىٰ الناس، فخطبهم، وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك، ثم أمر بمسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش -رضي الله تعالىٰ عنهم-، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة، فضُرِبُوا حدّهم)[1].

أما شأن عبد الله بن أبي ابن سلول فتقول عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-: «وكان الذي تولىٰ كبر الإفك عبد الله بن أبي ابن سلول». قال عروة -رحمه الله تعالىٰ-: (أُخبرت أنه كان يُشاع ويُتحدّث به عنده، فيُقرّه ويستمعه ويستوشيه)[2]. قال العيني -رحمه الله تعالىٰ-: («ويستوشيه» أي: يستخرجه بالبحث والمسألة، ثم يفشيه ولا يدعه ينخمد، وقال الجوهري -رحمه الله تعالىٰ-: يستوشيه أي يطلب ما عنده ليزيده)[3].

قال بعض العلماء: (إن عبد الله بن أبي، لم يَجلده الرسول ﷺ لما يخشىٰ من تفريق الكلمة[4]. وقيل: إنه لم يُضرب الحد حتىٰ لا ينقص من عذابه في الآخرة؛ لأن الحدود كفارات[5]. وقيل: إن الحد لا يُقام إلا بإقرار أو ببينة، ولم يثبت عليه ذلك بإقرار ولا بينة، بل كان يستخرجه ويستوشيه، كما قال عروة -رحمه الله تعالىٰ-، وكان لا يتكلم به إلا عند أصحابه، ولا يتكلم به عند المؤمنين)[6].

---

(١) ابن هشام، السيرة (٢/ ٣٠٢)، ورواه بنحوه الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٣٠) وقال: «رواه البزار، وفيه محمد بن عمرو، وهو حسن الحديث، وبقية رجاله ثقات».
(٢) صحيح البخاري (٥/ ١١٦) رقم (٤١٤١).
(٣) العيني، عمدة القاري (١٧/ ٢٠٨).
(٤) انظر: العيني، عمدة القاري (١٣/ ٢٣٦).
(٥) انظر: العيني، عمدة القاري (١٩/ ٨٩).
(٦) انظر: ابن القيم، زاد لمعاد (٢/ ١١٥).

الفوائد المستخرجة من هذه الغزوة وما جرىٰ فيها من أحداث:

الأولىٰ: من بعث الرسول ﷺ لبريدة بن الحصيب -رضي الله تعالىٰ عنه- إلىٰ الحارث بن أبي ضرار؛ ليتأكد من صحة ما بلغ الرسول ﷺ، نأخذ منه أهمية التثبت والتبين في الأخبار وعدم العجلة، فبعض الناس تستفزهم الأخبار؛ فيتعجلون في أحكامهم، ثم يتبين عدم صحة الخبر فيندم وقت لا ينفع الندم.

الثانية: من الأحكام المستنبَطة من هذه الغزوة جواز الإغارة علىٰ من بلغتهم دعوة الإسلام دون إنذار، أما من لم تبلغهم دعوة الإسلام فتجب دعوتهم أولًا قبل قتالهم(١).

الثالثة: من فوائد هذه الغزوة: مشروعية العدل بين الزوجات، ومن العدل إجراء القرعة بين الزوجات عند إرادة السفر ببعضهن؛ كما فعل الرسول ﷺ في هذه الغزوة، حيث خرجت القرعة لعائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- فخرج بها(٢)، مع أن القسم بين نسائه غير واجب عليه علىٰ الأرجح(٣).

الرابعة: كان في زواجه ﷺ من جويرية بنت الحارث -رضي الله تعالىٰ عنها- تكريمًا لتلك القبيلة العربية التي كانت من أعز قبائل العرب وأكبرها قدرًا، وقد وقعوا في الأَسْر، ولما علم الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- بتزوُّج الرسول ﷺ منهم،

(١) أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤١٤).

(٢) المرجع السابق، وتُستخدم القرعة إذا تزاحم عدد، وجُهِل مَن يُقَدَّم، ولا يمكن اجتماعهم فيه، ولا مميز لأحدهما عن الآخر، أقرع بينهم، فالقرعة تُستخدم لتمييز المراتب المتساوية، وكذلك تُستخدم القرعة إذا علمنا أن الشيء لأحدهما وجهلناه مثل إذا طلق إحدى زوجاته أو أعتق أحد عبيده، وجُهل مَن وقع عليه الطلاق أو العتق أُجريت القرعة فالقرعة حينئذ تستخدم لأمرين:

١- تمييز المراتب المتساوية. ٢- إزالة جهالة سبقها علم، والله أعلم)، وانظر: السعدي، القواعد في الأصول الجامعة (ص ٦٧)، القاعدة الخامسة والعشرين.

(٣) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤ / ٢١٤).

قالوا: أصهار رسول الله، فأطلقوا ما بأيديهم من النساء والوِلدان، وهو حلّ كريم لهذه المشكلة الكبيرة التي يؤدي بقاؤها إلىٰ إذلال هذه القبيلة العظيمة، ولقد كان لهذا الحل أثره الكبير عليهم؛ حيث أقبلوا مسلمين راغبين في الدخول في الدين[1].

الخامسة: كانت هذه الضربة التي وُجِّهَتْ إلىٰ بني المصطلق قد أعطت درسًا لكل من يفكر أن يتجرأ علىٰ المسلمين بعد غزوة أُحد؛ حيث إن هذه الضربة كفّت الكثير من القبائل العربية عن خطوات مماثلة وجعلتها تشعر أن المسلمين قادرون علىٰ حماية أنفسهم ورد الاعتداء عنهم بقوة، وأن وقعة أُحُد لم تؤثر عليهم[2].

السادسة: لما اختلف الأنصاري والمهاجري علىٰ الماء، وقال الأنصاري: يا للأنصار! وقال المهاجري: يا للمهاجرين! وكاد القتال أن يقع قال الرسول ﷺ: «دعوها، فإنها منتنة»، والنتن: الرائحة الكريهة، أي اتركوا هذه الدعوىٰ الجاهلية، كما تتركون النتن.

وقد جاءت النصوص بالتحذير من دعوىٰ الجاهلية، ومن ذلك حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال: قال النبي ﷺ: «ليس منَّا مَن لطم الخدود، وشقَّ الجيوب، ودعا بدعوىٰ الجاهلية»[3].

يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (فمن تعصَّب لأهل بلدته أو مذهبه أو طريقته أو قرابته أو لأصدقائه دون غيرهم كانت فيه شُعبة من الجاهلية حتىٰ يكون المؤمنون كما أمرهم الله تعالىٰ معتصمين بحبله وكتابه وسنة رسوله)[4].

---

(١) انظر: عبد العزيز المسند، النهج المحمدي (ص١٦١)، وأبو شهبة، السيرة النبوية (٢/ ٢٥٣-٢٥٤).

(٢) انظر: محمد سعيد القرافي، الدروس الدعوية في غزوة بني المصطلق (ص ١٩)، (بحث غير منشور).

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري (٢/ ٨١) رقم (١٢٩٤)، وصحيح مسلم (١/ ٩٩) رقم (١٠٣).

(٤) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٢٢).

وإنَّ من دعوىٰ الجاهلية، أن ندع ما أمرنا به ديننا، وندعو بالانتماءات والولاءات الحزبية، والتعصب للحزب، وهذا من أبرز ما أدىٰ إلىٰ الخلافات بين المسلمين، فلا يقال: «يا لفلان»، أو «يا لحزب فلان»؛ لأنها من دعوىٰ الجاهلية، وقد جعل الله المؤمنين إخوة وحزبًا واحدًا، فإنما ينبغي أن تكون الدعوة «يا للمسلمين» فقط دون غيرها من سائر الانتماءات والولاءات[١].

السابعة: حكمة الرسول ﷺ في التعامل مع المنكر الذي وقع من كبير المنافقين عبد الله بن أبي ابن سلول، فمع وجود القرائن علىٰ مقالته تلك لم يوافق الرسول ﷺ علىٰ طلب عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قتله، ومن ذلك يتقرر أن المنكر لا يُزَالُ بمنكر مثله أو أكبر منه، ولكن عند عدم التمكّن من إزالته بالكلية نلجأ إلىٰ إزالة القدر المستطاع إزالته مع مراعاة المصلحة الراجحة في ذلك[٢].

الثامنة: من موقف عبد الله بن أبي ابن سلول الذي تصدر إيذاء الرسول ﷺ وتزعَّم المنافقين في المدينة وواجه منه المسلمون في المدينة العنت والمشقة، نتذكر في هذا الرجل قول عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-: (كان يوم بُعَاث[٣] يومًا قدّمه الله لرسول الله ﷺ، فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملأهم، وقُتلت سرواتهم[٤] وجُرحوا، فقدّمه الله لرسول الله ﷺ في دخولهم الإسلام)[٥]؛ حيث مهَّد الله -سبحانه وتعالىٰ- لهذه الدعوة بقتل مَن كان يتكبر ويأنف أن يدخل في الإسلام، يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (فقتل منها من أكابرهم من كان لا يؤمن، أي يتكبّر ويأنف أن يدخل في

(١) انظر: السهيلي، الروض الأنف (٤/ ١٧)، والشامي، سبل الهدى (٤/ ٥٠٤).

(٢) انظر: محمد سعيد القرافي، الدروس الدعوية في غزوة بني المصطلق (ص ٣٤)، (بحث غير منشور).

(٣) بُعَاث: بضم الموحدة وتخفيف المهملة وهو مكان عند بني قريظة على ميلين من المدينة، وكانت به وقعة بين الأوس والخزرج فقُتِلَ فيها كثيرٌ منهم، فتح الباري (٧/ ١١١).

(٤) سرواتهم: أي خيارهم، المرجع السابق.

(٥) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري لابن حجر (٧/ ١١٠) رقم (٣٧٧٧).

الإسلام حتىٰ لا يكون تحت حكم غيره، وقد كان بقي منهم من هذا النحو عبد الله بن أبيّ بن سلول)[1]؛ ونأخذ من هذا أمرين:

الأول: أن الله -سبحانه وتعالىٰ- هو الذي يتولَّىٰ أمرَ هذا الدينِ، وعلىٰ المؤمن أن يفعل الأسباب، فالله -سبحانه وتعالىٰ- هو الذي كتب هذا القتال في المدينة؛ لكي يفرح الأنصار بمقابلة الرسول ﷺ ويرجون أن يكون اجتماعهم علىٰ يديه ﷺ بعد نزاعهم الدامي المُرّ الذي حصل بينهم، وهو -سبحانه- الذي جعل في هذا القتال ما يزيل عَقَبة من عقبات الدعوة في المدينة، وهم أولئك الملأ أمثال عبد الله بن أبي ابن سلول في المدينة وأمثال أبي جهل في مكة حيث سلط أهل المدينة بعضهم علىٰ بعض؛ لِيُقْتَلَ الكِبَارُ الذين ربما يتكبرون ويأنفون من الدخول في الإسلام ويعيقون غيرهم من الدخول فيه، وتكون أغلبية الأوس والخزرج من الشباب الذي بادروا للاستجابة للدعوة.

الثاني: بقاء عبد الله بن أُبَيّ بن سلول وهو من هذا النوع؛ لكي نتذكر نعمة الله -سبحانه وتعالىٰ-، ونعرف رعاية الله -سبحانه وتعالىٰ- لهذه الدعوة، وأن العشرات من أمثال ابن أبي لو كانوا بقوا علىٰ قيد الحياة حتىٰ مجيء الرسول ﷺ سيقولون مثل قوله، ويفعلون مثل فعله، لكن الله -سبحانه- بتدبيره ونصره للمؤمنين كفاهم شرّ هؤلاء، وأبقىٰ واحدًا منهم يُذَكِّر بهم، والله -سبحانه وتعالىٰ- يقول: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٣٧].

التاسعة: يُؤخَذ من تعامل الرسول ﷺ مع عبد الله بن أبي وعدم التشدد في مؤاخذته؛ بخلاف ما لو وقع من غيره، أنه قد يُجامَل الكبير في القوم ذو الأتباع، ليس توقيرًا لشخصه، وإنما للمصلحة، لئلا ينفر أتباعه، وفيه تحمُّل مفسدة لجلب مصلحة راجحة[2].

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ١١١).

(٢) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٨/ ٦٤٦).

العاشرة: حكمة الرسول ﷺ في عدم قتله لعبد الله بن أبي وقوله: «إذًا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»، ومنه نأخذ مشروعية الدفع عن العِرْض؛ فالمسلم لا يُعرِّض نفسه للحديث في عِرْضه، ولو كان القائل مخطئًا في قوله، بل عليه أن يجتنب ما استطاع تلك المواقف التي تجعله عرضةً لحديث الناس. ويشبه هذا، قول الرسول ﷺ للرجلين لما رأياه في الليل في الطريق ومعه زوجته أم المؤمنين صفية -رضي الله تعالىٰ عنها- فأسرعا في مشيهما، فقال لهما: «علىٰ رِسْلكما، إنها صفية بنت حيي»؛ فقالا: سبحان الله يا رسول الله! وكبر عليهما، فقال النبي ﷺ: «إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغَ الدَّمِ، وإني خشيتُ أن يقذف في قلوبكما شيئًا»[1]. قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وفيه التحرز من سوء الظن... قال ابن دقيق العيد -رحمه الله تعالىٰ-: وهذا متأكَّد في حقّ العلماء، ومَن يُقْتَدَىٰ بهم، فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلًا يُوجب سوء الظن بهم، وإن كان لهم فيه مخلص؛ لأن ذلك سبب إلىٰ إبطال الانتفاع بعلمهم)[2].

الحادية عشرة: حكمة الرسول ﷺ في إشغال الناس عن الحديث في هذه المقالة التي قالها عبد الله بن أبيّ، ليُفسِدَ هذا المنافق الأُخوَّة والمودة بين المهاجرين والأنصار؛ فقد عالج الرسول ﷺ الموقف أحسن علاج؛ حيث جدَّ بالسير حتىٰ تعب الناس، ثم شُغِلُوا بالنوم عن الحديث في هذا الموضوع.

وهذه فائدة تربوية في إشغال الشخص، فمن رأيته يغتاب في المجلس، أو تخشىٰ أن يغتاب أو ينحرف بحديث الناس إلىٰ أمر غير سائغ شرعًا، فأَشْغِلْه أو أَشْغِل المجلس بأمر مفيد، حتىٰ لا تتيح المجال للحديث فيما لا يسوغ، وربما هذا أنفع من الإنكار المباشر والوقوع في الجدل.

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٤/ ٢٧٨) رقم (٢٠٣٥).

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٤/ ٢٨٠).

الثانية عشرة: في استئذان عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول في أن يتولَّىٰ هو قتلَ أبيه إن كان النبي ﷺ يريد قتله، يقول السهيلي -رحمه الله تعالىٰ-: (وفي هذا العَلَم العظيم والبرهان النَّيِّر من أعلام النبوة، فإن العرب كانت أشد خَلْق الله حميةً وتعصبًا، فبلغ الإيمان منهم ونور اليقين من قلوبهم إلىٰ أن يرغب الرجل منه في قتل أبيه ووالده؛ تقربًا إلىٰ الله وتزلفًا إلىٰ رسول الله ﷺ، مع أن الرسول ﷺ أبعد الناس نسبًا منهم)(١).

الثالثة عشرة: في حادثة الإفك توضيح دقيق لبشرية الرسول ﷺ؛ فقد تأثر أبلغ التأثر لرمي المنافقين زوجه -رضي الله تعالىٰ عنها-، ومع حرصه عليها وحبّه لها ولأبيها، فإنه لم يتمكّن من الكشف عن الغيب أو استحضار الوحي الذي تأخَّر عنه شهرًا؛ ليجري عليه الابتلاء والامتحان(٢)، وهذا يدل علىٰ بشريته ﷺ، وأن الوحي من عند الله -سبحانه وتعالىٰ-، وهو الذي يعلم الغيب؛ قال -تعالىٰ- في شأن الرسول ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]؛ فالرسول ﷺ بَشَر، لكنَّه يتميز عن غيره بأنه -عليه الصلاة والسلام- يُوْحَىٰ إليه.

الرابعة عشرة: في حادثة الإفك فضيلة ظاهرة عظيمة لأم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-؛ حيث نزلت براءتها بنصّ قرآنيّ يُتْلَىٰ إلىٰ يوم القيامة، وتولَّىٰ الله -جل شأنه- الدفاع عن نبيه ﷺ وعنها -رضي الله تعالىٰ عنها-، وإن كانت -رضي الله تعالىٰ عنها- تقول: (ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يُتْلَىٰ، ولكن كنت أرجو أن يرىٰ رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرؤني الله بها)، لكن هذا شأنها في نفسها، وهذا من تواضعها -رضي الله تعالىٰ عنها-، وشأنها عند الله -جل شأنه- تبعًا لهذه الآيات، وعند المؤمنين عظيم جدًّا، وازداد عند المؤمنين مقامها بهذه البراءة المتلوَّة علىٰ ألسنة أهل القرآن إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها.

(١) السهيلي، الروض الأنف (٤/ ١٨)، والشامي، سبل الهدى (٤/ ٥٠٥).
(٢) أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤١٥).

وفضائل عائشة –رضي الله تعالىٰ عنها– كثيرة، منها: عن أبي موسىٰ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فضل عائشة علىٰ النساء كفضل الثريد علىٰ سائر الطعام»[1]. وعن عمرو بن العاص –رضي الله تعالىٰ عنه–، أن النبي ﷺ، بعثه علىٰ جيش ذات السلاسل، قال: فأتيته فقلت: أي الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة» –رضي الله تعالىٰ عنها–. فقلت: من الرجال؟ فقال: «أبوها»[2] –رضي الله تعالىٰ عنه–.

الخامسة عشرة: كانت هذه الحادثة في سنة خمس من الهجرة، مما يعني أن عمر عائشة –رضي الله تعالىٰ عنه– يومئذ اثنتا عشرة سنة تقريبًا[3]؛ فلك أن تتصور عظم البلاء الذي نزل بها وهي في هذا السن، وكيف كان تأثرها وتعاملها معه. كما أن من يقرأ تصرُّفاتها وأقوالها أثناء الحادثة يظن أنها امرأة كبيرة السن، ولا يخطر بباله أنها لا تزال في الثانية عشرة من عمرها.

السادسة عشرة: يقول ابن جزي –رحمه الله تعالىٰ–: (الإفك: أشدّ الكذب، ونزلت هذه الآية وما بعدها إلىٰ تمام ست عشرة آية في شأن سيدتنا عائشة رضي الله، عنها وفي براءتها مما رماها به أهل الإفك، وذلك أن الله برَّأ أربعة بأربعة؛ برأ يوسف بشهادة الشاهد من أهلها، وبرأ موسىٰ من قول اليهود بالحجر الذي ذهب بثوبه، وبرأ مريم بكلام ولدها في حجرها، وبرأ عائشة من الإفك بإنزال القرآن في شأنها، ولقد تضمَّنت هذه الآيات الغاية القصوىٰ في الاعتناء بها، والكرامة لها والتشديد علىٰ من قذفها)[4]؛ فالحمد لله رب العالمين.

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (٤/ ١٥٨) رقم (٣٤١١)، وصحيح مسلم (٤/ ١٨٨٦) رقم (٢٤٣١).

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري (٥/ ٥) رقم (٣٦٦٢)، وصحيح مسلم (٤/ ١٨٥٦) رقم (٢٣٨٤).

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢/ ١٥٣).

(٤) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٦٢).

السابعة عشرة: ومما يبين مزيد العناية والتكريم لعائشة -رضي الله تعالىٰ عنه- قوله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النور:٢٣]، يقول ابن جزي -رحمه الله تعالىٰ-: (هذا الوعيد للقاذفين لعائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-، لذلك لم يذكر فيه توبة، قال ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-: كل مذنب تقبل توبته إذا تاب إلا من خاض في حديث عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-)(١).

الثامنة عشرة: في حادثة الإفك بيان لمكانة المرأة وعِظَم شأنها في الإسلام، فقد نزلت هذه الآيات التي تُتْلَىٰ في كتاب الله إلىٰ يوم القيامة في شأن تبرئة امرأة.

التاسعة عشرة: في حادثة الإفك بيان لعظمة العِرْض، فلا يصح التهاون فيه؛ إذ موضوع الآيات التي نزلت في تبرئة عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- في عرضها.

العشرون: في حادثة الإفك شؤم الحرص علىٰ الدنيا، يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (فيه شؤم الحرص علىٰ المال؛ لأنها لو لم تُطِل في التفتيش لرجعت بسرعة؛ فلما زاد علىٰ قدر الحاجة أثّر ما جرىٰ)(٢).

الحادية والعشرون: في حادثة الإفك فضيلة ظاهرة لأم المؤمنين زينب بنت جحش -رضي الله تعالىٰ عنها-؛ فقد قالت عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-: «وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب ابنة جحش -رضي الله تعالىٰ عنها- عن أمري؛ فقال: «يا زينب، ماذا علمتِ أو رأيتِ؟»؛ فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، ما علمت إلا خيرًا، قالت: وهي التي كانت تساميني(٣) من أزواج رسول الله ﷺ،

---

(١) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٦٥).

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٨/ ٤٧٩).

(٣) تساميني: تعادلني وتضاهيني في المنزلة عند رسول الله ﷺ في الحظوة والمنزلة الرفيعة. انظر: الديباج شرح صحيح مسلم (٥/ ٤٠٦). أو تفاخرني وتضاهيني جمالها ومكانها عند النبي ﷺ. انظر: الديباج شرح صحيح مسلم (٦/ ١٢٨).

فعصمها الله بالورع»؛ عصمها الله بالورع، فنجحت وفازت في هذا الاختبار.

والشخص يمر عليه مواقف يتبين بها صدق إيمانه، وهذا وأمثاله من أعظم المواقف التي يمتحن فيها الإيمان، وعلينا جميعا أن نتعلم قول: «أحمي سمعي وبصري»، ولا يستجرينك الشيطان، واعلم أن هذا هو الجهاد والانتصار الحقيقي علىٰ النفس؛ لإرغامها الخضوع لأمر الله، وتذكر أن النفس أمَّارة بالسوء وتشتهي التنفيس عن مكنوناتها ولو بالباطل ولو بالحرام، والسعيد من انتصر في هذا الميدان، وعصَمه ورعه كما عصم الورعُ أمَّ المؤمنين زينب؛ رضي الله تعالىٰ عنها وأرضاها.

الثانية والعشرون: الآيات التي نزلت في حادثة الإفك طمأنة المؤمنين بل بشرتهم بأنه خير لهم؛ قال -تعالىٰ-: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، يقول ابن جزي -رحمه الله تعالىٰ-: (﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، خطاب للمسلمين، والخير في ذلك من خمسة أوجه: تبرئة أم المؤمنين، وكرامة الله لها بإنزال الوحي في شأنها، والأجر الجزيل لها في الفرية عليها، وموعظة المؤمنين، والانتقام من المفترين)[1]. كما أن في ذلك تهويلَ الوعيد لمن تكلم في عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-، والثناء علىٰ من ظن بكم خيرًا[2].

الثالثة والعشرون: هذا الخير الذي أشارت إليه الآية ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ كما تضمن التنويه بشأن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-؛ فقد تناول عموم المدح لسائر زوجات النبي ﷺ. فقد جاء في ختام الآيات قوله -تعالىٰ-: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾؛ فالرسول ﷺ أفضل الطيبين من الخلق علىٰ الإطلاق، وهم لا يناسبهم إلا كل طيب من النساء[3].

---

(١) ابن جزي، التسهيل (٢/ ٦٣).

(٢) انظر: المراغي، تفسير المراغي (١٨/ ٨٣).

(٣) السعدي، تفسير السعدي (٥٦٣).

الرابعة والعشرون: فضيلة ظاهرة للصحابي الجليل صفوان بن المعطل السلمي -رضي الله تعالىٰ عنه- الذي أثنىٰ عليه الرسول ﷺ علىٰ المنبر فقال: «ولقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا».

الخامسة والعشرون: هنا فائدة في كيفية تزكية الشخص؛ قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وفيه استعمال «لا نعلم إلا خيرًا» في التزكية، وأن ذلك كافٍ في حقّ مَن سبقت عدالته ممن يطلع علىٰ خفي أمره)[1].

السادسة والعشرون: أيضًا مما يذكر لصفوان -رضي الله تعالىٰ عنه- من الفضيلة أنه لما رأىٰ عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- استرجع ولم يتكلم معها بكلمة واحدة، بل أناخ الجمل لتركب، ثم سار أمامها يقوده إلىٰ أن أوصلها الجيش. تقول عائشة -رضي الله تعالىٰ عنه-: «وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني -رضي الله تعالىٰ عنه- من وراء الجيش، فأدلج، فأصبح عند منزلي، فرأىٰ سوادَ إنسانٍ نائمٍ، فأتاني فعرفني حين رآني، وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظتُ باسترجاعه حين عرفني، فخمرتُ وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة ولا سمعتُ منه كلمة غير استرجاعه، حتىٰ أناخ راحلته، فوطئ علىٰ يديها فركبتُها، فانطلق يقود بي الراحلةَ حتىٰ أتينا الجيشَ». يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (فيه دلالة علىٰ فطنة صفوان -رضي الله تعالىٰ عنه- وحسن أدبه)[2].

وهو أدب يجب أن يرعاه المسلم، في ترك الحديث مع المرأة الأجنبية عنه، وبخاصة فيما لا يدعو له حاجة، أو كانا بعيدين عن الناس.

السابعة العشرون: قول عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- عن صفوان -رضي الله تعالىٰ عنه-: «وكان يراني قبل الحجاب»، وقولها: «فخمرت وجهي بجلبابي»؛ أي

(١) ابن حجر، فتح الباري (٨/ ٤٨٠).
(٢) ابن حجر، فتح الباري (٨/ ٤٦٣).

لما رأته غطّت وجهها، وهذا دليل علىٰ أن المرأة لا تكشف وجهها للأجانب، وأن هذا أمر معروف متقرّر في عهد الرسول ﷺ. وفيه رد علىٰ من يقول بأن الصحابيات لم يكن يغطين وجوههن عند الرجال الأجانب.

الثامنة والعشرون: في قصة الإفك درس في التعامل مع الإشاعة؛ فالله -سبحانه وتعالىٰ- يقول: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور: ١٢-١٣]؛ يقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (نزلت في أبي أيوب الأنصاري وامرأته -رضي الله تعالىٰ عنهما- فإن أبا أيوب قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-؟ قال: نعم، وذلك الكذب، أكنتِ فاعلةً ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك)[1].

ويقول ابن جزي -رحمه الله-: (﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾؛ لولا هنا عرض، والمعنىٰ أنه: كان ينبغي للمؤمنين والمؤمنات أن يقيسوا ذلك الأمر علىٰ أنفسهم، فإن كان ذلك يبعد في حقهم، فهو في حق عائشة أبعد لفضلها)[2].

والآية تقرر بالإضافة إلىٰ ذلك، قاعدة عامة بين المسلمين، وهو أن هذا الظن الحسن بأخيك من الظن الواجب، حين سماع المؤمن عن أخيه المؤمن، مثل هذا الكلام، أن يبرئه بلسانه، ويكذب القائل لذلك[3].

هذا أدب إسلامي ينبغي أن يحيا فينا، ففي مثل هذه المواقف، قِسْ الأمر علىٰ نفسك! هل تقبله لنفسك، أو هل تفعله؟! فإن قلت لا. وكنت تترفع عنه، فاعلم أن أخاك

(١) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٦/ ٢٧).
(٢) ابن جزي، التسهيل (٢/ ٦٣).
(٣) انظر: السعدي، تفسير السعدي (ص ٥٦٣).

المسلم أيضًا يترفع عنه ولا يمكن أن يُقْدِم عليه. لقد كان جواب أبي أيوب لأم أيوب -رضي الله تعالىٰ عنهما- من أحسن الأجوبة وأنفعها في قطع دابر الظن السيئ بالمسلم.

التاسعة والعشرون: أخرج البخاري -رحمه الله تعالىٰ- عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت في شأن حادثة الإفك: «وقال رجل من الأنصار: سبحانك ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك هذا بهتان عظيم»[1]؛ قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (قائل ذلك من الأنصار أبو أيوب -رضي الله تعالىٰ عنه- رواه الحاكم)[2]، وذكر ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- في الفتح أن ممن رُوي أنه قال ذلك أيضًا زيد بن حارثة وسعد بن معاذ وأسامة بن زيد وأبي بن كعب وقتادة بن النعمان -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين-، فهؤلاء ستة من صحابة رسول الله ﷺ ذُكر عنهم ذلك[3]. وليس هذا غريبًا عن أولئك الأطهار الأخيار؛ رضي الله تعالىٰ عنهم وأرضاهم.

وهذا منهج للمسلم؛ يجب عليه أن يلزمه، ويحفظ لسانه، فإن زلات اللسان سريعة ومهلكة، وتأمل خطورة القول وأثره في قوله -تعالىٰ-: ﴿وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ [المائدة:٦٤]، وقوله -تعالىٰ-: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [المائدة:٨٥]؛ ففي الآية الأولىٰ لَعْنٌ بسبب قولهم، وفي الآية الثانية جزاؤهم بسبب قولهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها.

وقد قال الرسول ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة، ما يتبين ما فيها، يهوي بها في النار، أبعد ما بين المشرق والمغرب»[4]؛ وهنا أيضا يتمايز المتقون، من المنافقين المشتملين علىٰ الحقد والحسد.

---

(١) صحيح البخاري (٩/ ١١٣) رقم (٧٣٧٠).

(٢) فتح الباري (١/ ٣٤٣).

(٣) فتح الباري ١٣/ ٣٤٤).

(٤) متفق عليه من حديث أبي هريرة: صحيح البخاري (٨/ ١٠٠) رقم (٦٤٧٧)، وصحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٠) رقم (٢٩٨٨) واللفظ له.

الثلاثون: نقل العيني -رحمه الله تعالىٰ- في عمدة القاري عن المحب الطبري -رحمه الله تعالىٰ- أن عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- قال ذلك أيضًا، فقد أورد العيني -رحمه الله تعالىٰ- ما رُوي أن عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- وافق ربه في آيات نزلت، ثم قال: (ومنها في شأن عائشة رضي الله عنها؛ لما قال أهل الإفك ما قالوا. فقال يا رسول الله من زوَّجكها؟ فقال: الله تعالىٰ!! قال: أفتنظر أن ربك دلَّس عليك فيها؛ سبحانك هذا بهتان عظيم! فأنزل الله ذلك. ذكره المحب الطبري في أحكامه)[1].

ما أعظم فقه عمر -رضي الله تعالىٰ عنه-، الذي ذكَّر في هذه المناسبة، بأن زواج الرسول ﷺ من عائشة -رضي الله تعالىٰ عنه- كانت برؤيا رآها الرسول ﷺ في منامه مرات، ويخبره بذلك ملك. ويقول الرسول ﷺ: «إن يك هذا من عند الله، يمضه»[2].

الواحدة والثلاثون: يقول ابن جزي -رحمه الله تعالىٰ- عند قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾؛ أي: كان الواجب أن يبادروا إلىٰ إنكار هذا الحديث أول سماعهم له، ولولا أيضًا في هذه الآية عرض، وكان حقها أن يليها الفعل من غير فاصل بينهما، ولكنه فصل بينهما بقوله: ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾؛ لأن الظروف يجوز فيها ما لا يجوز في غيرها، والقصد بتقديم هذا الظرف الاعتناء به، وبيان أنه كان الواجب المبادرة إلىٰ إنكار الكلام في أول وقت سمعتموه، ومعنىٰ ما يكون لنا: ما ينبغي لنا ولا يحل لنا أن نتكلم بهذا)[3]. فلا يكفي السكوت، بل لا بد من الإنكار، وأيضًا، المبادرة إلىٰ الإنكار فور سماع مثل هذا الكلام.

الثانية والثلاثون: هنا أقف وقفة عارضة للمقارنة، تنفعنا الآن، في التعامل فيما بيننا، فمن أحسن الظن بأخيه المسلم فله شَبه بعمر وسعد بن معاذ وأَبي أيوب وأُبي

---

(١) عمدة القاري (٤/ ١٤٤).

(٢) الحديث سبق أن ذكرته في زواج الرسول ﷺ بعائشة -رضي الله تعالى عنها- وهو حديث متفق عليه (صحيح البخاري ٣٨٩٥)، وصحيح مسلم (٢٤٣٨).

(٣) ابن جزي، التسهيل (٢/ ٦٤).

بن كعب وزيد وأسامة وقتادة بن النعمان -رضي الله تعالىٰ عنهم-، ومن أساء الظن، فله شبه بابن سلول وأضرابه الذين تولوا كِبْر هذا الأمر.

الثالثة والثلاثون: في حادثة الإفك عظمة عقوبة الذين يحبون إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، ولا شك أن الذين يشيعونها فعلًا أشد عقوبة، وسواء كانت الفاحشة صادرة أو غير صادرة[1]. وأشد منهم عقوبة الذين يشيعونها زورًا وبهتانًا واختلاقًا. وأشد منهم، وأنكىٰ من يشيعها عن صحابي أو صحابية -رضي الله تعالىٰ عنهم جميعًا-.

الرابعة والثلاثون: يقول الزمخشري -رحمه الله تعالىٰ- في الكشاف: (ولو فلّيت القرآن كله وفتّشت عما أوعد به العصاة لم ترَ الله -تعالىٰ- قد غلَّظ في شيء تغليظَه في إفك عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-، ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف واستعظام ما ركب من ذلك، واستفظاع ما أقدم عليه ما أنزل فيه علىٰ طرق مختلفة وأساليب مفتنة، كل واحد منها كافٍ في بابه، ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفىٰ بها؛ حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعًا، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يُوفّيهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهله حتىٰ يعلموا عند ذلك ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾؛ فأوجز في ذلك وأشبع وفصَّل وأجمل وأكَّد وكرَّر وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفظاعة وما ذاك إلا لأمر... وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان بالبصرة يوم عرفة، وكان يُسْأَلُ عن تفسير القرآن حتىٰ سُئِلَ عن هذه الآيات؛ فقال: (من أذنب ذنبًا ثم تاب منه قُبِلَتْ توبتُه، إلا من خاض في أمر عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-)؛ وهذه منه مبالغة وتعظيم لأمر الإفك. ولقد بَرَّأَ اللهُ -تعالىٰ- أربعةً بأربعةٍ: بَرَّأَ يوسفَ بلسان الشاهد،

(١) السعدي، تفسير السعدي (٥٦٣).

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾، وبَرَّأَ موسىٰ من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه، وبَرَّأَ مريمَ بإنطاق ولدها حين نادىٰ من حجرها: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، وبَرَّأَ عائشةَ بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز المتلو علىٰ وجه الدهر مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات. فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك، وما ذاك إلا لإظهار علو منزلة رسول الله ﷺ، والتنبيه علىٰ إنافة محل سيد ولد آدم وخير الأولين والآخرين وحجة الله علىٰ العالمين، ومَن أراد أن يتحقق عظمة شأنه ﷺ وتقدّم قدمه وإحرازه قصب السبق دون كل سابق فليتلقَّ ذلك من آيات الإفك، وليتأمل كيف غضب الله له في حرمته، وكيف بالغ في نفي التهمة عن حجابه)[1].

الخامسة والثلاثون: إن قول الزمخشري -رحمه الله تعالىٰ- في الفائدة السابقة: «هذا الوعيد في الإفك، جاء بما لم يقع في وعيد المشركين، وما ذاك إلا لأمر..».

أقول: نعم إن هذا يدلنا علىٰ مكانة المصطفىٰ ﷺ عند ربّه، الذي غضب الرب -جل شأنه-، وتوعد هذا الوعيد، لمن خاض في عرضه ﷺ. والغضب للشخص، يدل علىٰ المحبة والتعظيم له. ولا شك أنك إذا كنت تحب شخصًا محبة كبيرة وتُقَدِّره، فإنك ستغضب أشد الغضب علىٰ من أساء إليه.

السادسة والثلاثون: إن هذا الاتهام كان في غاية الإيلام لعائشة -رضي الله تعالىٰ عنه-؛ فأم المؤمنين الطاهرة المطهّرة زوجة المصطفىٰ ﷺ بوحي من الله -جل شأنه-، تُتَّهم بالزنا والعياذ بالله، ومن المعلوم أن الشخص عندما يُتَّهم بشيء هو أبعد ما يكون منه، يكون إيلامه في غاية الإيلام، ولذلك تولىٰ الله -جل شأنه- تكذيب المتّهمين لها، مع الوعيد لهم بأشد العقوبات، في آيات تُتْلَىٰ في كتابه الكريم، وبرَّأ وزكَّىٰ وأثنىٰ علىٰ أم المؤمنين -رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاها- من مقالة المنافقين ومن سار علىٰ دربهم.

(١) الزمخشري، الكشاف (٣/ ٥٦-٥٧).

وهذا يشبه في بعض جوانبه تبرئة الله -جل شأنه- لرسوله ﷺ والثناء عليه وتزكيته عندما اتهمه كفار قريش بالسحر والكهانة والجنون، وهو أبعد الناس ﷺ عن هذه الأوصاف، فكان إفكهم هذا مؤلمًا للرسول ﷺ أشد الإيلام؛ فتولىٰ الله -جل شأنه- الدفاع عن نبيه ﷺ وأكد ذلك بعدة مؤكدات تصل إلىٰ عشرة، قال -تعالىٰ-: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القلم: ١-٧].

السابعة والثلاثون: قول عليّ رضي الله عنه لما استشاره الرسول ﷺ في قصة الإفك، قال العلماء: إنما رأىٰ علي رضي الله عنه من النبي ﷺ انزعاجًا وقلقًا، فأراد راحة خاطره، ومما يدل علىٰ أنهم كانوا يرون انزعاج خاطره أشد عليهم من كل أمر: أن عمر رضي الله عنه لما قال للأنصاريّ: أجاء الغساني؟ قال: بل أشد، اعتزل الرسول ﷺ نساءه[1]؛ فاهتمام الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- براحة خاطر الرسول ﷺ مُقدَّم عندهم علىٰ كل شيء، حتىٰ علىٰ راحة أنفسهم.

الثامنة والثلاثون: قال عبد الرحمن المعلمي -رحمه الله تعالىٰ-: (سبب منع أبي بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- النفقة عن مسطح -رضي الله تعالىٰ عنه-؛ المناسب لمقام الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- أن منعه عن مسطح النفقة لم يكن غضبًا لنفسه وابنته، وإنما هو غضب لله -تعالىٰ-؛ لأن قوله بالإفك معصية، ويؤيده أن ظاهر القصة أنه إنما منعه النفقة بعد براءة عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- والله أعلم)[2].

التاسعة والثلاثون: إن الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- الذين خاضوا في الإفك اغتروا بمقالة المنافقين، وبعضهم أخذته الحمية، وحسبوه هينًا كما تشير

(١) محمد بن عمر بحرق، حدائق الأنوار (ص ٣٠٠).

(٢) عبد الرحمن المعلمي، مجموع مؤلفات المعلمي، فوائد المجاميع (٢٤/ ٤٢٢).

إلىٰ ذلك الآية، وقد جلدهم الرسول ﷺ الحد، وتابوا من قولهم[1]، ورجعوا عنه، واعتذروا، وقد قال حسان بن ثابت -رضي الله تعالىٰ عنه- يعتذر من الذي كان في شأن عائشة رضي الله عنها:

حَصانٌ رَزانٌ ما تُزَنُّ بِريبَةٍ ... وَتُصبِحُ غَرثىٰ مِن لُحومِ الغَوافِلِ
عَقيلَةُ حَيٍّ مِن لُؤَيِّ بنِ غالِبٍ ... كِرامِ المَساعي مَجدُهُم غَيرُ زائِلِ
مُهَذَّبَةٌ قَد طَيَّبَ اللَهُ خَيمَها ... وَطَهَّرَها مِن كُلِّ سوءٍ وَباطِلِ
فَإِن كُنتُ قَد قُلتُ الَّذي قَد زَعَمتُمُ ... فَلا رَفَعَت صَوتي إِلَيَّ أَنامِلي
فَكَيفَ وَوِدّي ما حَييتُ وَنُصرَتي ... لِآلِ رَسولِ اللَهِ زَينِ المَحافِلِ
لَهُ رَتَبٍ عالٍ عَلىٰ الناسِ كُلِّهِم ... تَقاصَرُ عَنهُ سَورَةَ المُتَطاوِلِ
فَإِنَّ الَذي قَد قيلَ لَيسَ بِلائِطٍ ... وَلَكِنَّهُ قَولُ اِمرِئٍ بِيَ ماحِلِ[2]

فجمع الله -جل شأنه- بين تطهيرهم بالحد، وتوفيقهم للرجوع والتوبة إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-، فلذلك لا يسوغ أن يُنَال مِن عِرْض هؤلاء أو أن يُنْتَقص من مقامهم؛ فهم صحابة رسول الله ﷺ بالدرجة الأولىٰ الذين أثْنَىٰ الله -جل شأنه- ورسوله ﷺ عليهم، ومن تابَ تاب الله عليه. وقد يصبح الشخص بعد التوبة خيرًا منه قبل الذنب، والله أعلم.

---

(١) انظر: السعدي، تفسير السعدي (٥٦٣)، وانظر المراغي، تفسير المراغي (١٨/ ٨٩).

(٢) ابن هشام، السيرة (٢/ ٣٠٦-٣٠٧).

المبحث الخامس

فقه السيرة في غزوة الأحزاب[1]

وتُسَمَّىٰ غزوةَ الخندقِ نِسبةً إلىٰ الخندق الذي حفره المسلمون فيها (وهي الغزوة التي ابتلىٰ الله فيها عباده المؤمنين وبعث الإيمان في قلوب أوليائه المتقين، وأظهر ما كان يبطنه أهل النفاق وفضحهم وفزّعهم، ثم أنزل الله -تبارك وتعالىٰ- نصره، ونَصَرَ عبدَه، وهزم الأحزابَ وحده، وأَعَزَّ جندَه، وردَّ الكفرة بغيظهم ووقىٰ المؤمنين شرَّ كيدِهم، وحرم عليهم شرعًا وقدرًا أن يغزوا المؤمنين بعدها، بل جعلهم المغلوبين وجعل حزبه هم الغالبون)[2].

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (كانت غزوة الخندق في شوال سنة خمس

(١) وتسميتها بغزوة الأحزاب نسبة إلى الأحزاب، الذين تحزبوا وتجمعوا لقتال الرسول ﷺ وهم قريش والأحابيش الذين طاوعوهم، وغطفان وبنو سليموبنومرة وأشجع، ثم من انضم إليهم (بنو قريظة). وقد اخترت هذه التسمية لأنها هي التي وردت في القرآن في أكثر من موضع مراد بهم هؤلاء الذين تجمعوا لحرب الرسول ﷺ قال تعالى ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب:٢٠]، وقال تعالى ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٢٢] والسورة التي وردت بشأنهم سميت بسورة الأحزاب، خاصة إذا أخذنا بقول السيوطي -رحمه الله تعالى-: «وقد ثبتت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار، ولولا خشية الإطالة لبينت ذلك» انتهى. السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب١٣٩٤) (١/ ١٨٦).

(٢) الشامي، سبل الهدى والرشاد (٤/ ٣٦٣).

من الهجرة[١] وسبب هذه الغزوة أن النبي ﷺ لما أجلىٰ بني النضير، وساروا إلىٰ خيبر وبها من يهود، قوم أهل عدد وجند، وليس لهم من البيوت والأحساب ما لبني النضير، فخرج حيي بن أخطب وكنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس الوائلي وأبو عامر الفاسق في جماعة سواهم إلىٰ مكة، فدعوا قريشًا وأتباعهم إلىٰ حرب رسول الله ﷺ وهم الذين حزبوا الأحزاب، فقالوا لقريش: نحن معكم حتىٰ نستأصل محمدًا، جئنا نحالفكم علىٰ عداوته وقتاله، فنشطت قريش لذلك وفرحت به)[٢].

ثم خرجوا إلىٰ غطفان، فدعوهم إلىٰ حرب رسول الله ﷺ وخرجوا كذلك إلىٰ بني سليم، فوعدوهم المسير معهم إذا خرجت قريش[٣].

وخرج أبو سفيان بقريش ومن اتبعه من قبائل العرب وخرجت بنو سليم بقيادة سفيان بن عبد شمس، وخرجت غطفان بقيادة عيينة بن حصين، وبنو مرة بقيادة الحارث بن عوف، وأشجع بقيادة مسعر بن رخيلة[٤] وتجمع بهذا جمع عظيم متجه إلىٰ المدينة، ذكر أهل السير أن عدتهم عشرة آلاف رجل[٥] والجميع بقيادة أبي سفيان بن حرب.

ولما علم الرسول ﷺ بخبر هذه الجموع شاورهم في الأمر، فأشار سلمان الفارسي بالخندق، فأعجبهم ذلك وأحبوا الثبات في المدينة.

فعمل الرسول ﷺ يومئذ الخندق، وندب الناس وجعل المسلمون يعملون

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة المطبوعة مع الروض الأنف (٣/ ٢٥٨).وابن حجر، الفتح (٧/ ٣٩٣) ، ولعله في آخر شوال حتى يتفق مع الرواية التي سأذكرها أن الرسول ﷺ عاد إلى المدينة بعد انتهاء الغزوة لسبع بقين من ذي القعدة. وكانت مدتها أربعا وعشرين ليلة.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة (٢/ ٢١٤-٢١٥) الشامي، سبل الهدى والرشاد (٤/ ٥١٢).

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة (٢/ ٢١٤-٢١٥).

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة المطبوعة مع الروض الأنف (٣/ ٢٥٩).

(٥) انظر: الشامي، سبل الهدى والرشاد (٤/ ٥١٤)

مستعجلين يبادرون قدوم العدو عليهم، واستعاروا من بني قريظة آلة كثيرة من مساحي وكرازين ومكاتل للحفر.

قال الشامي -رحمه الله تعالىٰ-: (وروىٰ الطبراني-رحمه الله تعالىٰ- بإسناد لا بأس به عن عمرو بن عوف المزني -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رسول الله ﷺ خط الخندق من أجَم الشيخين طرف بني حارثة حتىٰ بلغ المذاد[1]. فقطع لكل عشرة أربعين ذراعًا)[2]. وقد اختلفوا في المدة التي قضوها في الحفر، والخلاف يدور بين كونها خمسة عشر يومًا إلىٰ الشهر)[3].

قال الواقدي -رحمه الله تعالىٰ-: (وكان الخندق بطول القامة وكان المهاجرون والأنصار ينقلون علىٰ رؤوسهم المكاتل[4]. وكانوا إذا رجعوا بالمكاتل جعلوا فيها الحجارة يأتون بها من قبل سلع، وكانوا يجعلون التراب مما يلي النبي ﷺ وأصحابه)[5] وكان من فرغ من حصته عاد إلىٰ غيره، فأعانه حتىٰ كمل الخندق.

ولم يتأخر عن العمل في الخندق أحد من المسلمين وكان أبو بكر وعمر -رضي الله عنهما- ينقلان التراب في ثيابهما، إذ لم يجدا مكاتل من العجلة وكانا لا يفترقان في عمل ولا مسير ولا منزل.

---

(١) المذاد: بالفتح وآخره دال مهملة: وهو اسم مكان من «ذاده» «يذوده» إذا طرده ودفعه قال ياقوت: موضع بالمدينة حيث حفر الخندق النبي ﷺ، وقيل: هو واد بين جبل سلع وخندق المدينة « محمد حسن شراب، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة (ص ٢٤٥)

(٢) البيهقي، دلائل النبوة (٣/ ٤١٨)، الشامي، سبل الهدى والرشاد (٤/ ٥١٥).

(٣) انظر: ابن حجر، الفتح (٧/ ٣٩٤).

(٤) «المكتل والمكتلة: الزبيل الذي يحمل فيه التمر أو العنب إلى الجرين، وقيل: المكتل شبه الزبيل يسع خمسة عشر صاعا. وفي حديث الظهار: أنه أتي بمكتل من تمر.؛ هو بكسر الميم: الزبيل الكبير كأن فيه كتلا من التمر أي قطعا مجتمعة. وفي حديث خيبر: فخرجوا بمساحيهم ومكاتلهم « ابن منظور، لسان العرب، (١١/ ٥٨٣)

(٥) الوافدي، المغازي (٢/ ٤٤٦).

وعن سهل بن سعد -رضي الله عنه- قال: (كنا مع رسول الله ﷺ في الخندق، وهم يحفرون ونحن ننقل التراب علىٰ أكتافنا، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم لا عيشإلا عيش الآخرة، فاغفر للمهاجرين والأنصار»[1].

وعن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: (إنا يوم الخندق نحفر، فعرضت لنا كدية[2] شديدة، فجاءوا إلىٰ النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: «إني نازل»، ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقًا، فأخذ النبي ﷺ المعول، فضرب في الكدية، فعاد كثيبًا أهيل أو أهيم[3]، فقلت: يا رسول الله، ائذن لي إلىٰ البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئًا ما كان في ذلك صبر، فعندك شيء؟ فقالت: عندي شعير وعناق، فذبحتُ العناق، وطحنتْ الشعير حتىٰ جعلنا اللحم علىٰ البرمة، ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر، والبرمة بين الأثافي قد كادت أن تنضج، فقلت طُعيم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال: «كم هو؟» فذكرت له، فقال: «كثير طيب» قال: «قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتىٰ آتي» فقال: «قوموا»، فقام المهاجرون والأنصار، فلما دخل علىٰ امرأته، قال: ويحك جاء النبي بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، فقال: «ادخلوا ولا تضاغطوا»، فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه، ويُقَرِّب إلىٰ أصحابه، ثم ينزل، فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتىٰ شبعوا وبقىٰ بقية، قال: «كلي هذا وأهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة»[4]، وورد في رواية أخرىٰ للبخاري-رحمه الله تعالىٰ- أن عددهم ألف[5].

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٣٩٢) (رقم ٤٠٩٨).

(٢) الكديةهي بضم الكاف وتقديم الدال على التحتانية وهي القطعة الصلبة الصماء من الأرض. ابن حجر، الفتح (٧/ ٣٩٦).

(٣) قوله: «أهيل أو أهيم شك من الراوي في رواية الإسماعيلي أهيل بغير شك وكذا عند يونس وفي رواية أحمد كثيبا يهال والمعنى أنه صار رملا يسيل ولا يتماسك»ابن حجر، الفتح (٧/ ٣٩٧).

(٤) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٣٩٥) (رقم ٤١٠١).

(٥) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٣٩٦) (رقم ٤١٠٢).

وجاء في دلائل النبوة لأبي نعيم -رحمه الله تعالىٰ- قال:(أن ابنة لبشير بن سعد -رضي الله تعالىٰ عنهما- أخت النعمان بن بشير -رضي الله تعالىٰ عنهما- قالت: دعتني عمرة بنت رواحة -رضي الله تعالىٰ عنها- فأعطتني حفنة من تمر في ثوبي ثم قالت: يا بنية اذهبي إلىٰ أبيك وخالك عبد الله بن رواحة -رضي الله تعالىٰ عنهما- بغدائهما. قالت: فأخذتها فانطلقت بها، فمررت برسول الله ﷺ وأنا ألتمس أبي وخالي فقال: «تعالي يا بنية ما هذا معك؟»، فقلت: يا رسول الله، هذا تمر بعثتني به أمي إلىٰ أبي بشير بن سعد وخالي عبد الله بن رواحة يتغديان به، قال: «هاتيه»، فصببته في كفي رسول الله ﷺ فما ملأهما، ثم أمر بثوب فبسط، ثم دحا التمر عليه فتبدد فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده: «اصرخ في أهل الخندق: هلم إلىٰ الغداء». فاجتمع أهل الخندق عليه، فجعلوا يأكلون منه وجعل يزيد حتىٰ صدر أهل الخندق عنه وإنه ليسقط من أطراف الثوب[1].

وقال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وجاء بإسناد حسن من حديث البراء بن عازب -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: (لما كان حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ فيها المعاول، فاشتكينا ذلك إلىٰ النبي ﷺ فجاء فأخذ المعول فقال: «بسم الله»، فضرب ضربة فكسر ثلثها، وقال: «الله أكبر أُعْطِيْتُ مفاتيحَ الشام، والله إني لأبصر قصورَها الحمر الساعة» ثم ضرب الثانية فقطع الثلث الآخر، فقال: «الله أكبر أُعْطِيْتُ مفاتيحَ فارس والله إني لأبصر قصرَ المدائنِ الأبيضَ» ثم ضرب الثالثة وقال: «بسم الله»فقطع بقية الحجر، فقال: «الله أكبر أُعْطِيْتُ مفاتيحَ اليمنِ، والله إني لأبصر أبوابَ صنعاءَ من مكاني هذا الساعة»)[2].

قال عمرو بن عوف: فكنت أنا وسلمان وحذيفة بن اليمان والنعمان بن مقرن وستة من الأنصار -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين- في أربعين ذراعًا، فحفرنا

(١) أبو نعيم، دلائل النبوة (١/ ٤٩٩) (رقم ٤٣١).
(٢) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٣٩٧).

حتىٰ إذا بلغنا الثدي، أخرج الله من بطن الخندق صخرة بيضاء مدورة، فكسرت حديدنا، وشقت علينا، فقلنا: يا سلمان! ارق إلىٰ رسول الله ﷺ فأخبره خبر هذه الصخرة، فإنا إن نعدل عنها، فإن المعدل قريب، وإما أن يأمرنا فيها بأمره، فإنا لا نحب أن نجاوز خطه، فرقىٰ سلمان حتىٰ أتىٰ رسول الله ﷺ وهو ضارب عليه قبة تركية، فقال: يا رسول الله! بأبينا أنت وأمنا خرجت صخرة بيضاء من الخندق مروة فكسرت حديدنا، وشقت علينا حتىٰ ما يحيك فيها قليل ولا كثير، فمرنا فيها بأمرك، فإنا لا نحب أن نجاوز خطك، فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان في الخندق، ورقينا عن الشقة في شقة الخندق، فأخذ رسول الله ﷺ المعول من سلمان، فضرب الصخرة ضربة صدعها، وبرقت منها برقة أضاء ما بين لابتيها - يعني لابتي المدينة-، حتىٰ لكأن مصباحًا في جوف ليل مظلم، فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة فتح، فكبر المسلمون. ثم ضربها رسول الله ﷺ الثانية، فصدعها وبرق منها برقة أضاء لها ما بين لابتيها حتىٰ لكأن مصباحًا في جوف ليل مظلم، فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة فتح، وكبر المسلمون. ثم ضربها رسول الله ﷺ الثالثة، فكسرها، وبرق منها برقة أضاء ما بين لابتيها، حتىٰ لكأن مصباحًا في جوف بيت مظلم، فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة فتح، فكبر المسلمون. ثم أخذ بيد سلمان فرقىٰ فقال سلمان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! لقد رأيت شيئًا ما رأيته قط، فالتفت رسول الله ﷺ إلىٰ القوم، فقال: هل رأيتم ما يقول سلمان؟ قالوا: نعم يا رسول الله بأبينا أنت وأمنا، قد رأيناك تضرب، فخرج برق كالموج، فرأيناك تكبر، ولا نرىٰ شيئًا غير ذلك، فقال: «صدقتم، ضربت ضربتي الأولىٰ، فبرق الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور الحيرة، ومدائن كسرىٰ، كأنها أنياب الكلاب، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها.ثم ضربت ضربتي الثانية، فبرق الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب، وأخبرني جبريل -عليه السلام- أن أمتي ظاهرة عليها.ثم ضربت ضربتي الثالثة، فبرق منها الذي رأيتم، أضاءت منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب، فأخبرني جبريل -عليه السلام- أن

أمتي ظاهرة عليها، فأبشروا،يبلغهم النصر، وأبشروا يبلغهم النصر، وأبشروا يبلغهم النصر».فاستبشر المسلمون، وقالوا: الحمد لله موعود صادق بأن الله وعدنا النصر بعد الحصر، فطلعت الأحزاب، فقال المسلمون: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ﴾ [الأحزاب: ٢٢]. وقال المنافقون: (ألا تعجبون: يحدثكم ويمنيكم، ويعدكم بالباطل، يخبركم أنه بصر من يثرب قصور الحيرة، ومدائن كسرىٰ، وأنها تفتح لكم، وأنتم تحفرون الخندق، ولا تستطيعون أن تبرزوا!)، وأنزل القرآن: ﴿ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴾ [الأحزاب:١٢][1].

وقال البراء: (لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ رأيته ينقل من تراب الخندق حتىٰ وارىٰ عني التراب جلدة بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة -رضي الله تعالىٰ عنه- وهو ينقل من التراب يقول:

والله لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فَأَنْزِلَنْ سكينةً علينا ... وثَبِّتِ الأقدامَ إن لاقينا

إن الألىٰ قد بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا

قال: ثم يمد صوته بآخرها[2].

وصوَّرت آيات سورة الأحزاب أحوال المنافقين وأساليبهم في التهرب من الاشتراك في حفر الخندق، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ۝١٣ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ﴾ [الأحزاب:١٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ

(١) البيهقي، دلائل النبوة (٣/ ٤١٩ -٣٢).

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٣٩٩) (رقم ٤١٠٦).

﴿الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]. قال ابن جزي -رحمه الله تعالىٰ-: (ونزلت هذه الآية في وقت حفر الخندق بالمدينة، فإن بعض المؤمنين كانوا يستأذنون في الانصراف لضرورة، وكان المنافقون يذهبون بغير استئذان ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أي لبعض حوائجهم)[1].

ولما فرغ رسول الله ﷺ من عمل الخندق، استخلف علىٰ المدينة ابنَ أم مكتوم -رضي الله تعالىٰ عنه - ووضع النساء والأطفال في الأطم.

وكان طول الخندق (٥٥٤٤) مترًا، ومتوسط عرضه (٦٢ , ٤) أربعة أمتار واثنان وستون سنتيمتر، ومتوسط عمقه (٢٣ , ٣) ثلاثة أمتار وثلاث وعشرون سنتيمتر[2].

ونزل أمام سلع، فجعله خلف ظهره والخندق أمامه[3] وأقبلت قريش حتىٰ نزلت بمجمع الأسيال من رومة في أحابيشها، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد، حتىٰ نـزلوا بذنب نقمي إلىٰ جانب أحد.

---

(١) ابن جزي، التسهيل (٢/ ٧٦).

(٢) انظر: شوقي أبو خليل، أطلس السيرة النبوية. وقد مر قول الواقدي رحمه الله تعالى أن عمقه في مثل قامة الإنسان، لكن الواقدي ذكر في المغازي (٢/ ٤٧١) «أن نوفل بن عبد الله وقع به فرسه في الخندق، فرمي بالحجارة حتى قتل» وهذا يؤيد أن عمق الخندق أطول من قامة الإنسان، لأنه لو كان كذلك لتمكن نوفل من القفز والهرب، وقد كان نوفل أحد فرسان المشركين الذين اقتحموا الخندق إلى جهة جيش المسلمين فلاحقهم فرسان المسلمين حتى قتلوا عمرو بن عبد ود، وهرب الباقون ووقع نوفل في الخندق، ولو كان الخندق في طول قامة الإنسان لا يصعب على الإنسان القفز والتعلق بحافته والهرب غالبا. ثم وجدت أن الشيخ وهبةالزحيلي قال في التفسير المنير الطبعة الثانية (دمشق: دار الفكر المعاصر١٤١٨) (٢١/ ٢٦٣): «وبلغ طول الخندق حوالي خمسة آلاف ذراع، وعمقه سبعة أذرع إلى عشرة، وعرضه تسعة فأكثر» وهذا قريب من قول شوقي أبو خليل من حيث عمق الخندق. والله أعلم.

(٣) انظر: الشامي، سبل الهدى والرشاد (٤/ ٥٢٣).

ثم خرج عدو الله حيي بن أخطب حتىٰ أتىٰ كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة، وكان قد وادع رسول الله ﷺ علىٰ قومه وعاهده، فلما سمع بمجيء حيي بن أخطب، أغلق الباب دونه، ولكنه لم يزل به حتىٰ فتح الباب له، ثم نقض العهد مع الرسول ﷺ[1].

وبعث الرسول ﷺ الزبير -رضي الله تعالىٰ عنه- إلىٰ بني قريظة، عن جابر -رضي الله عنه- قال: قال النبي ﷺ: «من يأتيني بخبر القوم؟» يوم الأحزاب، قال الزبير رضي الله تعالىٰ عنه: أنا، ثم قال: «من يأتيني بخبر القوم؟»، قال الزبير رضي الله تعالىٰ عنه: أنا، فقال النبي ﷺ: «إن لكل نبي حواريًا وحواري الزبير»[2]. والمراد بالقوم: بنو قريظة. ففي صحيح البخاري -رحمه الله تعالىٰ- عن عبد الله بن الزبير -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: كنت يوم الأحزاب جُعلت أنا وعمر بن أبي سلمة في النساء، فنظرت فإذا أنا بالزبير، علىٰ فرسه، يختلف إلىٰ بني قريظة مرتين أو ثلاثًا، فلما رجعت قلت: يا أبتِ رأيتك تختلف؟ قال: أوهل رأيتني يا بني؟ قلت: نعم، قال: كان رسول الله ﷺ قال: «من يأتِ بني قريظة فيأتيني بخبرهم». فانطلقت، فلما رجعت، جمع لي رسول الله ﷺ أبويه فقال: «فداك أبي وأمي»[3].

فلما بلغ رسولَ اللهِ ﷺ خبرُ بني قريظة، بعث سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة وخوات بن جبير -رضي الله تعالىٰ عنهم- وقال: «انطلقوا حتىٰ تنظروا أَحَقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقًا فالحنوا إلي لحنًا أعرفه، ولا تفتوا في أعضاد الناس وإن كانوا علىٰ الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس»، فخرجوا، فوجدوهم قد نقضوا العهدَ، فرجعوا إلىٰ رسول الله ﷺ فقال سعد بن عبادة -رضي الله تعالىٰ عنه-: عضل والقارة. يعني كغدر عضل والقارة بأصحاب

(١) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٢٧٢).
(٢) صحيح البخاري (٤/ ٢٧) (رقم ٢٨٤٦)
(٣) صحيح البخاري (٥/ ٢١)، (رقم ٣٧٢٠)، وصحيح مسلم (٤/ ١٨٧٩) (رقم ٢٤١٦).

الرجيع وسكت الباقون، ثم تقنع رسول الله ﷺ بثوبه حين جاءه الخبر عن بني قريظة، فاضطجع ومكث طويلًا، فاشتد علىٰ الناس البلاء والخوف حين رأوه اضطجع، وعرفوا أنه لم يأته عن بني قريظة خير. ثم إنه رفع رأسه وقال ﷺ: «أبشروا يا معشر المؤمنين بنصر الله تعالىٰ وعونه»(١).

واشتد الخوف وعظم البلاء وخيف علىٰ الذراري والنساء وكانوا كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب:١٠].

ورسول الله ﷺ والمسلمون قبالة عدوهم، لا يستطيعون الزوال عن مكانهم، يعتقبون خندقهم ويحرسونه.

وأخذ المشركون يدورون حول الخندق غضابًا، يتحسسون نقطة ضعيفة، لينحدروا منها، وأخذ المسلمون يتابعون جولات المشركين، يرشقونهم بالنبل، حتىٰ لا يجترئوا علىٰ الاقتراب منه، ولا يستطيعوا أن يقتحموه، أو يهيلوا عليه التراب، ليبنوا به طريقًا يمكنهم من العبور.

ولأجل الاشتغال بمثل هذه المكافحة الشديدة، فاتت بعض الصلوات عن رسول الله ﷺ والمسلمين، عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالىٰ عنهما- أن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه- جاء يوم الخندق، بعد ما غربت الشمس، فجعل يسب كفار قريش، قال: يا رسول الله، ما كدت أصلي العصر، حتىٰ كادت الشمس تغرب، قال النبي ﷺ: «والله ما صليتها»، فقمنا إلىٰ بطحان، فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها، فصلىٰ العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلىٰ بعدها المغرب(٢).

---

(١) انظر: ابن كثير السيرة النبوية (٣/ ٢٠٠)، و الشامي، سبل الهدى والرشاد (٤/ ٥٢٨).
(٢) متفق عليه: صحيح البخاري (١/ ١٢٢) (رقم ٥٩٦)، وصحيح مسلم (١/ ٤٣٨) (رقم ٦٣١).

ونجم النفاق من بعض المنافقين، فقال بعضهم: كان محمد يعدنا أن نأخذ كنوز كسرىٰ وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن علىٰ نفسه أن يذهب إلىٰ الغائط.

وكان المشركون يتناوبون فيما بينهم، فيغدو أبو سفيان بن حرب في أصحابه يومًا ويغدو خالد بن الوليد يومًا ويغدو عكرمة يومًا وهكذا.

وفي غضون هذا الواقع المتكالب علىٰ المسلمين، أراد الرسول ﷺ أن يفعل شيئًا يفُتُّ في عضد تجمع الأحزاب، فأرسل إلىٰ عيينة بن حصن والحارث بن عوف وهما قائدا غطفان وأراد مصالحتهما علىٰ ثلث تمر المدينة، ودعا الرسول ﷺ السعدين؛ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة -رضي الله تعالىٰ عنهما- فاستشارهما فقالا: يا رسول الله، إن كان الله أمرك بهذا فسمعًا وطاعة، وإن كان شيئًا تصنعه لنا، فلا حاجة لنا فيه، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم علىٰ الشرك وعبادة الأوثان وهم لا يطمعون أن يأكلوا منه تمرة إلا قرىٰ أو بيعًا، فقطع رسول الله ﷺ المفاوضة مع الأعراب[1].

ولجأ إلىٰ ربه وألح بالدعاء وكان من دعائه ﷺ: «اللهم مُنَزِّلَ الكتابِ سريعَ الحسابِ اهْزِمِ الأحزابَ، اللهم اهزمهم وزَلْزِلْهُمْ»[2].

وظلت مناوشات المشركين للمسلمين وتراشقهم معهم بالنبل دون انقطاع طيلة مدة الحصار حتىٰ إنهم شغلوا المسلمين أكثر من مرة عن الصلاة في وقتها.

وفشلت محاولات المشركين في اقتحام الخندق وقُتِلَ من اقتحمه مثل عمرو بن عبد ود، الذي قتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه[3]، وفر الباقون لما رأوا قتله، وقُتِلَ أيضًا نوفلُ المخزومي. في الخندق فقد سقط فيه أثناء محاولته الهرب، فرماه

---

(١) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٢٧٣).

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٤٠٦) (رقم ٤١١٥).

(٣) انظر: الواقدي، المغازي (٢/ ٤٧١)

الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- بالحجارة حتىٰ قتلوه[1].

واسْتُشْهِدَ من المسلمين خمسة: أنس بن أويس بن عتيك وعبد الله بن سهل والطفيل بن النعمان وثعلبة بن غنيمة وكعب بن سعد -رضي الله تعالىٰ عنهم- وكل هؤلاء دفنوا في مقبرة هناك، وجُرِح جرحًا استشهد منه سعد بن معاذ، ودفن في البقيع بعد أن حكم في بني قريظة[2].

واستمر الحصار لمدة أربع وعشرين ليلة تقريبًا. وكما قال الله -جل شأنه- في كتابه الكريم، فقد كفىٰ الله المؤمنين القتال وهيأ من شأنه وسيلتين أولاهما جهود نعيم بن مسعود الذي أسلم دون أن يشعر قومه بذلك، فسعىٰ بإذن الرسول ﷺ إلىٰ التفريق بين اليهود في قريظة والمشركين، فقد ذكر لبني قريظة أن لا يبدأوا الحرب ضد محمد ﷺ إلا إذا أعطتهم قريش رهائن، كي لا يذهبوا ويتركوهم، ونصح قريشًا بأن قريظة قد ندمت علىٰ نقضها العهد وقال: إنهم سيطلبون رهائن ثم يسلمونها إلىٰ محمد دليلًا علىٰ توبتهم من نقض العهد، وهكذا فرَّق الله قلوب هذا الجمع وأنشأ بينهم التخاذل وسوء الظن[3].

أما الوسيلة الثانية فهي الريح الشديدة التي أرسلها الله -جل شأنه- علىٰ الكفار، فلم تَدَعْ لجيش المشركين خيمةً إلا أسقطتها ولا قِدْرًا إلا أكفأته ولا نارًا إلا أطفأتها[4]. حتىٰ اضطروا لإعلان الرحيل يجرون أذيال الخيبة والفشل.

يقول حذيفة بن اليمان -رضي الله تعالىٰ عنهما-: (والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق، وصلىٰ رسول الله ﷺ من الليل هويًا، ثم التفت إلينا فقال: «من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم يشرط له رسول الله ﷺ أنه يرجع، أدخله الله الجنة»، فما

(١) المرجع السابق.
(٢) انظر: غالي الشنقيطي، الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين (ص ٢١٧).
(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية المطبوعة مع الروض الأنف (٣/ ٢٦٥).
(٤) المرجع السابق (ص ٢٦٦).

قام رجل، ثم صلىٰ رسول الله ﷺ هويًا من الليل، ثم التفت إلينا فقال: «من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم، ثم يرجع يشرط له رسول الله ﷺ الرجعة، أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة»، فما قام رجل من القوم مع شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد، فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله ﷺ فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني، فقال: «يا حذيفة، فاذهب فادخل في القوم فانظر ما يفعلون، ولا تحدثن شيئًا حتىٰ تأتينا»، قال: (فذهبت فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل ما تفعل لا تقر لهم قِدْرًا، ولا نارًا ولا بناءً)، فقام أبو سفيان بن حرب فقال: يا معشر قريش، لينظر امرؤ من جليسه، فقال حذيفة -رضي الله تعالىٰ عنه-: فأخذت بيد الرجل الذي إلىٰ جنبي، فقلت: من أنت؟ قال: أنا فلان بن فلان، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح ما ترون، والله ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء[1] فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلىٰ جمله وهو معقول، فجلس عليه، ثم ضربه فوثب علىٰ ثلاث، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم، ولولا عهد رسول الله ﷺ لا تحدث شيئًا حتىٰ تأتيني، ثم شئت لقتلته بسهم، قال حذيفة رضي الله تعالىٰ عنه: (ثم رجعت إلىٰ رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي في مرط لبعض نسائه مرحل، فلما رآني أدخلني إلىٰ رحله، وطرح عليَّ طرف المرط، ثم ركع وسجد وإنه لفيه، فلما سلم أخبرته الخبر، وسمعت غطفان بما فعلت قريش، فانشمروا إلىٰ بلادهم)[2]، وكان

(١) ورد في دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٤٥٢) قول حذيفة -رضي الله تعالى عنه-(وإذا الريح في عسكرهم، ما تجاوز عسكرهم شبرا، فو الله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم، وفرشهم، الريح تضربهم بها).

(٢) الإمام أحمد، المسند (٣٨/ ٣٥٩)، (رقم الحديث ٢٣٣٣٤) وقال محققو المسند: «حديث صحيح، وهذا إسناد حسن لولا إرساله، فإن محمد بن كعب القرظي لم يدرك حذيفة، وقد روي هذا الحديث من طرق أخرى تقويه» وأخرجه مختصرا الإمام مسلم في صحيحه (٣/ ١٤١٤) (رقم ١٧٨٨).

ذلك لسبع بقين من ذي القعدة[(١)].

وكانت نعمةً من الله تعالىٰ ونصرًا للمؤمنين كما قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب:٩] إلىٰ أن قال -جل شأنه-: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب:٢٥].

ولم تكن هذه الهزيمة التي عاد بها الأحزاب هزيمة مؤقتة، بل بشَّر النبي ﷺ أصحابه بأنهم لن يغزوا المؤمنين بعد هذه الغزوة، وإنما المؤمنون هم الذين يغزونهم، عن سليمان بن صرد -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول حين أجلىٰ الله -جل شأنه- الأحزاب عنه: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا نحن نسير إليهم»[(٢)].

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وفيه علم من أعلام النبوة، فإنه ﷺ اعتمر في السنة المقبلة، فصدته قريش عن البيت ووقعت الهدنة بينهم إلىٰ أن نقضوها، فكان ذلك سبب فتح مكة، فوقع الأمر كما قال ﷺ)[(٣)].

الفوائد التي نستخرجها من هذه الغزوة:

الأولىٰ: تأمل هذا الجمع الهائل من الجيش الذي أظن أن العرب لم تجمع مثله من قبل، يصفه ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ- بقوله: (وخرج أبو سفيان بقريش ومن اتبعه من قبائل العرب وخرجت بنو سليم بقيادة سفيان بن عبد شمس، وخرجت غطفان بقيادة عيينة بن حصن، وبنو مرة بقيادة الحارث بن عوف، وأشجع بقيادة مسعر بن رخيلة، وتجمع بهذا جمع عظيم متجهًا إلىٰ المدينة، ذكر أهل السير أن

(١) ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في الفتح (٧/ ٤٠٥) نقلا عن الواقدي.
(٢) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري لابن حجر (٧/ ٤٠٥) (رقم ٤١١٠).
(٣) فتح الباري (٧/ ٤٠٥).

عددهم عشرة آلاف رجل، والجميع بقيادة أبي سفيان بن حرب).

جمع هائل يزحف علىٰ المدينة مستعدًا بالسلاح، طامعًا في الاستئصال والعودة بالغنائم والأسرىٰ والسبي والعياذ بالله، فكان الخطب عظيمًا والأمر جللًا، والترويع شديدًا، لكن من كان مع الله -جل شأنه- فالله معه، ولن يضره شيءٌ ولو كادته الأرض جميعًا ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١]، وهذا في كل زمان ومكان والحمد لله رب العالمين.

فلا تهولنكم قوىٰ الأعداء مهما بلغت، إذا كان الله معكم.

الثانية: لقد خرج قادة اليهود من خيبر إلىٰ مكة وإلىٰ المشركين من قبائل العرب والتقوا جميعًا علىٰ حرب الرسول ﷺ فمع اختلاف أديانهم وعقائدهم إلا أن حرب الإسلام والمعاداة لهذا الدين جمعتهم، فالكفر ملة واحدة، وكلهم أعداء لهذا الدين لا يَأْلُوْنَ جُهْدًا في محاربته ومعاداته.

الثالثة: لما علم الرسول ﷺ بخبر الأحزاب، شاور أصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم- ولم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ[١]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (وقد قيل إن الله أمر بها نبيه، لتأليف قلوب أصحابه وليقتدي به من بعده، وليستخرج منهم الرأي فيما لم ينزل فيه وحي من أمر الحروب، والأمور الجزئية، وغير ذلك، فغيره ﷺ أولىٰ بالمشورة)[٢].

الرابعة: كان من نتيجة هذه المشورة هذا الرأي المبارك الذي طرحه سلمان -رضي الله تعالىٰ عنه- وهو حفر الخندق، وكان سببًا بارزًا -بتوفيق الله -جل شأنه- في صد المشركين ومنعهم دخول المدينة، وقالوا عن الخندق إنها لمكيدة ما كانت تعرفها العرب.

---

(١) انظر: ابن تيمية، السياسة الشرعية (ص ١٥٨).

(٢) المرجع السابق.

ونستفيد من هذا، أهمية الرأي، وأن الشخص قد يخدم دينه وأمته من خلال مقترح أو فكرة أو رأي يقدمه، فليست الأعمال الفاضلة محصورة في جانب دون آخر، فهذا عنده عمل سديد، وهذا عنده رأي رشيد، بل هذا يجيد الرأي، وهذا يجيد التنفيذ. وهذا عالم وهذا مجاهد وهذا مهندس وهذا طبيب وهذا مفكر يرد الشبهات، وهذا واعظ، وكل منهم علىٰ ثغر من ثغور المسلمين.

وحتىٰ تتضح الرؤية، أقول: ما أعظم أجر سلمان -رضي الله تعالىٰ عنه- الذي بسبب رأيه وفكرته، التي لم تكلفه جهدًا ولا مالًا، سلم اللهُ رسولَه ﷺ ونجىٰ المسلمين وحمىٰ الله الأعراض والذراري من شر المشركين.

فيا أخي، لا تبخل بمقترح ولا برأي ولا تحتقر فكرة تقدمها للأمة؛ تجد يدًا مباركة تحولها إلىٰ عمل مثمر، يطرح الله فيه البركات، ويعم به النفع، ويمنحك الله به عظيم الأجر.

الخامسة: من قصة حفر الخندق نأخذ الاستفادة مما لدىٰ الغير، مما لا يتعارض مع ديننا، فقد أخذ الرسول ﷺ فكرة حفر الخندق من سلمان الفارسي الذي نقلها عن الفرس، حيث قال: (كنا إذا خفنا الخيل خندقنا حول أنفسنا)، فالاستفادة مما لدىٰ الغير مطلوبة بشرط أن لا يقبل المسلم شيئًا يتعارض مع دينه.

السادسة: مشاركة الرسول ﷺ بنفسه مع أصحابه في حفر الخندق، فقد كان ينقل التراب معهم ﷺ فعلىٰ الداعية إلىٰ الله، والأب في المنزل، والمعلم في المدرسة، وإمام المسجد في الحي، إذا أمر بخير أن يكون أول المبادرين إليه وأول الناس إسهامًا فيه، فلا يكفي، بل ولا يصح أن يكون الداعية إلىٰ الله ونحوه، آمرًا بالمعروف دون أن يشارك، والله -سبحانه وتعالىٰ- يقول: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤].

السابعة: في هذه الغزوة وقد أقبلت جيوش الأحزاب من كل جهة وبدأ المسلمون يحفرون الخندق يطوِّقون به المدينة، كي لا يدخلها العدو، يأتي الرسول المصطفىٰ ﷺ وينزل في الخندق، ليكسر صخرة اعترضت طريق الحفر ويضرب بيده الشريفة بالمعول تلك الصخرة ويقول للناس والجيوش مقبلة من كل صوب لتحاصر المدينة: «الله أكبر أُعْطِيْتُ مفاتيحَ الشامِ، والله إني لأبصر قصورَها الحمراءَ الساعةَ، ثم ضربها الثانية فقال: الله أكبر، أُعْطِيْتُ مفاتيحَ فارسٍ والله إني لأبصر قصرَ المدائنِ أبيضَ، ثم ضرب الثالثة وقال: الله أكبر أُعْطِيْتُ مفاتيحَ اليمنِ والله إني لأبصر أبوابَ صنعاءَ من مكاني هذه الساعة»، أيُّ تثبيتٍ للقلوب الوجلةبعد هذا التثبيت؟ أيُّ وعدٍ للمؤمنين بعد هذا الوعد الصادق من المصطفىٰ، ﷺ! نعم، هو رسول الله ﷺ ولكن لماذا توقيت هذا الوعـد ليقولـه في هذا المكان والحال؟ لماذا هذا التوقيت لهذا الوعد الصادق من الرسول ﷺ في هذه الشدة؟ والرسول ﷺ يواجه القبائل الزاحفة علىٰ المدينة يقول هذا القول! فتوقيتُه يحمل توجيهًا للأمة أن تُرَكِّزَ في الشدائد علىٰ تثبيت القلوب وطمأنتها وإذهاب الفزع والخوف عنها.

إن الناس في الأزمات بحاجة إلىٰ من يُثَبِّتُهُمْ، لا من يُخَوِّفُهُمْ، ولا من يقول لهم: (لا مقام لكم فارجعوا)، ولا (ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا).

فتلك أقوال المنافقين، إن الأمة بحاجة إلىٰ مثبتين لا مثبطين، ولا مرجفين، إن الأمة بحاجة إلىٰ المؤمنين العقلاء، الأمة في الشدائد، بحاجة إلىٰ من يقوِّي ثقتَها وإيمانَها بربها ويُرَسِّخُ عقيدتَها ويشدها نحو دين الله عز وجل.

الثامنة: في حديث عمرو بن عوف –رضي الله تعالىٰ عنه– الذي فيه أنه أعاقتهم صخرة أثناء الحفر، فأرسلوا سلمان –رضي الله تعالىٰ عنه– إلىٰ الرسول ﷺ يستأمرونه، وكان بإمكانهم أن يعدلوا قليلًا عن الصخرة يمينًا أو شمالًا، لكن لما كان الرسول ﷺ هو الذي خط الخندق بقدَمِهِ قالوا: لا نعدل عن خط الرسول ﷺ فقد

جاء في قولهم: (....يا سلمان! ارق إلىٰ رسول الله ﷺ فأخبره خبر هذه الصخرة، فإنا إن نعدل عنها، فإن المعدل قريب، وإما أن يأمرنا فيها بأمره، فإنا لا نحب أن نجاوز خطه، فرقىٰ سلمان، فقال: يا رسول الله! خرجت صخرة بيضاء من الخندق مروةٌ فكسرت حديدنا، وشقت علينا فمرنا فيها بأمرك، فإنا لا نحب أن نجاوز خطك)[1]. وهذا فيه أمران:

الأول: حكمة الله -جل شأنه- أن يكون خط الرسول ﷺ فوق هذه الصخرة الشديدة الصلبة.

الثاني: شدة امتثال الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- لأمر الرسول ﷺ ما قالوا نعطف يمينًا أو يسارًا[2]. وهكذا يجب أن يكون تعاملنا مع نصوص المصطفىٰ ﷺ لا نحيد عنها يمنة ولا يسرة.

التاسعة: في الأمور الجدية يظهر وينكشف المنافقون، ذلك أن حفر الخندق مع شدة الجوع وإقبال العدو والخوف علىٰ الذراري أمرٌ لا يُقْدِم عليه إلا الصادقون، أما ما عدا ذلك فيتسلل إلىٰ أهله لواذًا، ويترك الرسول ﷺ. وقد قال الله -سبحانه وتعالىٰ-: ﴿ **قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًاۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [النور:٦٣].

العاشرة: من نظر إلىٰ الخندق وطوله ومشقة العمل فيه فهو أكثر من خمسة آلاف متر بعمق يتجاوز ثلاثة أمتار وعرضه يتجاوز أربعة أمتار -كما مر- ومع ذلك يجب أن ينجز بسرعة، لقرب وصول العدو. لكن التعاون والتنظيم وتجزئة العمل سهل المهمة، فقد قسمت المسافة، كل عشرة يتولون حفر أربعين ذراعًا، وإذا انتهوا منه أعانوا من لم ينتهِ من عمله.

---

(١) انظر: البيهقي، دلائل النبوة (٣/ ٤١٩)مختصرا.

(٢) انظر: ابن عثيمين ـ تفسير ابن عثيمين (سورة الأحزاب) (ص ١٠٦).

الحادية عشرة: شؤم الصديق السيئ، فإن كعب بن أسد زعيم بني قريظة كان في مأمن وعهد مع الرسول ﷺ لكن جاءإليه صديق مشؤوم، وقرين سوء، وهو حيي بن أخطب، فما زال به حتىٰ نقض العهد الذي بينه وبين الرسول ﷺ وجاهر بالخيانة، وبسببه كانت نهاية قومه، كما سيتبين ذلك عند الحديث عن غزوة بني قريظة.

يقول الرسول ﷺ: «مَثَلُ الجليس الصالح والجليس السوء كمثل صاحب المسك وكير الحداد، لا يعدمنك صاحب المسك إما أن تشتريه أو تجد ريحه، وكير الحداد يحرق بيتك أو ثوبك أو تجد منه ريحًا خبيثة»[1].

الثانية عشرة: لما بلغ الرسولَ ﷺ خبرُ بني قريظة بعث إليهم أربعةً من الصحابة، ليتأكد من صحة ما نُسِبَ إليهم، وهكذا المؤمن يتثبَّت فيما يبلغه من الأخبار ولا يتعجَّل، وقد أوردنا قصصًا مماثلةً لهذا فيما سبق.

الثالثة عشرة: أوصىٰ الرسول ﷺ الصحابة الذين ذهبوا إلىٰ بني قريظة، ليتأكدوا من الخبر بأن يلحنوا له لحنًا يفهمه الرسول ﷺ ولا يفهمه الصحابة الآخرون إن كان بنو قريظة نقضوا العهد، وإن كانوا لم ينقضوا العهد أعلنوا ذلك للناس، وهكذا أمور السوء لا تُعْلَنُ ولا يُتَحَدَّثُ بها ولا تُفْشَىٰ بين الناس، فإن هذا من الإرجاف والتخويف وهو أمر يَسُرُّ العدوَ، ويفرح به، ويُحْزِنُ المؤمنين، أما لو كان الأمر علىٰ عكس ذلك حينما يكون أمر خير، فإنه يُعْلَنُ لتقوية نفوس المسلمين، ولهذا ينبغي للشخص أن يحفظ لسانه من الحديث حتىٰ لو كان الحديث صدقًا فليس كل ما يُعرف يقال، وليس كل ما يقال، يقال علىٰ كل حال.فإن المؤمنَ كَيِّسٌ فَطِنٌ يدرك آثارَ كلامِه، فإذا كان يؤدِّي إلىٰ ضرر كف عن الحديث، بل وكتمه.

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٤/ ٣٢٣) (رقم ٢١٠١)، وصحيح مسلم (٤/ ٢٠٢٦) (رقم ٢٦٢٨) واللفظ للبخاري.

الرابعة عشرة: كان الرسول ﷺ يحب التفاؤل، حتىٰ في أشد المواقف وأحلكها، فقد قال لما جاءه خبر نقض بني قريظة للعهد: «أبشروا يا معشر المؤمنين بنصر الله تعالىٰ وعونه»، فإحسان الظن بالله، والتبشير بالخير من الله ونصره دائمًا ينبغي أن يكون حاضرًا أيًا كانت الظروف.

الخامسة عشرة: في غزوة الأحزاب حصلت معجزات للرسول ﷺ من تكثير طعام جابر بن عبد الله -رضي الله تعالىٰ عنهما- حتىٰ أطعم أكثر من ألف رجل، والتمرات التي جاءت بها ابنة بشير بن سعد رضي الله تعالىٰ عنهما، تحمِلُها بيدها فأكل منها أهل الخندق كلهم وبقي بقية، وفي تبشيره بفتح بلاد فارس والشام واليمن، وغيرها من المعجزات الأخرىٰ.

السادسة عشرة: في استشارة الرسول ﷺ للسعدين -رضي الله تعالىٰ عنهما- في إعطاء بعض تمر المدينة لغطفان كي يرجعوا، وقول السعدين في ذلك، نستفيد منه حدود الرأي، فإن كان الأمر وحيًا شرعيًا، فلا يسوغ حينئذ للرجل أن يجتهد، فالسعدان -رضي الله تعالىٰ عنهما-أرادا التأكد قبل أن يبينا رأيهما. هل هذا الصلح بوحي من الله -سبحانه وتعالىٰ-أم هو اجتهاد يسوغ فيه الأخذ والنقاش؟ فلما علما أنه اجتهاد وليس بوحي حينئذ قالا رأيهما وبيَّنا وجهة نظرهما.

ولذلك علينا أن نسلم للنص الشرعي ولا نعارضه برأي، ونقصر الاجتهاد فيما لا نص فيه.

السابعة عشرة: يَدُلُّنا حديثُ جابرٍ -رضي الله تعالىٰ عنه-، ودعوته للرسول ﷺ للطعام، ثم دعوة الرسول ﷺ لأهل الخندق بكاملهم، مدىٰ ما كان عليه أولئك القوم من التعاون، وأنه كان لا ينفرد أحدهم بطعام عن الباقين[1]، بل تعاون وتعاضد فيما

---

(١) انظر: أبو زهرة، خاتم النبيين (٢/ ٩٢٧)

بينهم وإيثار وشفقة، وهذا شأن المجتمع المسلم الذي إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والْحُمَّىٰ.

الثامنة عشرة: فضل الصحابية الجليلة زوجة جابر بن عبد الله -رضي الله تعالىٰ عنهما- واسمها سهيلة بنت مسعود الأنصارية رضي الله تعالىٰ عنها[١]، وهذا يتبين من موقفها -رضي الله تعالىٰ عنها- فإن جابر -رضي الله تعالىٰ عنه -دعا الرسول ﷺ لطعام قليل يكفيه ورجل أو رجلان معه، فدعا الرسول ﷺ الذين يحفرون الخندق كلهم -كما سبق أن ذكرتُ- يقول جابر -رضي الله تعالىٰ عنه-: (فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله -عز وجل- وقلت: جاء الخلق علىٰ صاع من شعير وعناق، فدخلت علىٰ امرأتي أقول: افتضحت جاءك رسول الله ﷺ بالخندق أجمعين، فقالت: هل كان سألك كم طعامك؟فقلت: نعم. فقالت: الله ورسوله أعلم ونحن قد أخبرناه بما عندنا. فكشفت عني غمًا شديدًا)[٢].

هذا الموقف من هذه الصحابية الجليلة التي استضافت أهل الخندق كلهم، ووثقت بكلام رسول الله ﷺ وكشفت غم زوجها، يقول عنها ابن حجر، -رحمه الله تعالىٰ-: (ودل ذلك علىٰ وفور عقلها وكمال فضلها)[٣]، لله درك يا ابن حجر عندما قلت (وكمال فضلها) ولم تقل: (وفضلها).

فهذه وأمثالها من الصحابيات الجليلات الكريمات التي يجب أن تكون سيرتهن بين نسائنا يتعلمن منها ويقتدين بها.

(١) انظر: ابن حجر، الفتح (٧/ ٣٩٧).
(٢) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٣٩٨).
(٣) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٣٩٨.) ولهذا المرأة موقف آخر يقول ابن حجر رحمه الله تعالى في الفتح (٣/ ٣٩٨) وقد وقع لها مع جابر في قصة التمر أن جابرا أوصاها لما زارهم رسول الله ﷺ أن لا تكلمه فلما أراد رسول الله ﷺ الانصراف نادته يا رسول الله صل علي وعلى زوجي فقال صلى الله عليك وعلى زوجك فعاتبها جابر فقالت له أكنت تظن أن الله يورد رسوله بيتي ثم يخرج ولا أسأله الدعاء أخرجه أحمد بإسناد حسن في حديث طويل».

التاسعة عشرة: أن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه- جاء يوم الخندق، بعد ما غربت الشمس فجعل يسب كفار قريش، قال: يا رسول الله، ما كدت أصلي العصر، حتىٰ كادت الشمس تغرب، قال النبي ﷺ: «والله ما صليتها».

نأخذ منها فقه الأولويات في العبادة. فهنا ترك الرسول ﷺ الصلاة، إنشغالًا بمجاهدة العدو، وكان بإمكانه أن يترك العدو ويصلي، لكن فقه التعبد يقتضي معرفة درجات العبادة وأن بعضها مقدم علىٰ بعض عند تزاحمها، وهو ما فعله عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- ولم ينكر عليه الرسول ﷺ بل أخبره أنه فعل مثلما فعل وأنه لم يصلِّ حتىٰ الآن.

وتحدث ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- في كتابه «مدارج السالكين» عن «أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص»، ثم ذكر الخلاف في ذلك وانتهىٰ إلىٰ القول: (الصنف الرابع، قالوا: إن أفضل العبادة العمل علىٰ مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضىٰ ذلك الوقت ووظيفته، فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلىٰ ترك الأوراد، من صلاة الليل وصيام النهار، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض، كما في حالة الأمن. والأفضل في وقت حضور الضيف مثلًا القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل. والأفضل في أوقات الأذان ترك ما هو فيه من ورده، والاشتغال بإجابة المؤذن. والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته عيادته، وحضور جنازته وتشييعه، وتقديم ذلك علىٰ خلوتك وجمعيتك. فالأفضل في كل وقت وحال إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه. وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق، والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد)[1].

وهذا فقه في التعبد يغيب عن كثير من الناس، حيث يترك عبادة فاضلة لانشغاله بعبادة مفضولة.

---

(١) ابن القيم، مدارج السالكين تحقيق محمد المعتصم، الطبعة الثالثة (بيروت: دار الكتاب العربي ١٤١٦) باختصار.(١/ ١٠٦-١١١).

العشرون: لقد كان لغزوة الأحزاب نتائج عظيمة لم تكن لغيرها من كل الغزوات النبوية[1]، فقد أسقطت هذه الغزوة هيبة قريش في القبائل العربية، بل إنها عادت بالوهن علىٰ قريش نفسها، فلم تفكر قريش بعد هذه الجموع التي جمعتها ثم عادت تجر أذيال الخيبة أن تعود لمثلها، وتحوَّل موقف كفار قريش إلىٰ موقف الدفاع، وهو ما مهد لصلح الحديبية الذي وقع بعد سنة واحدة فقط وسماه الله عز وجل فتحًا.

الواحدة والعشرون: إن المرتزقة كغطفان وبعض قبائل العرب التي جاءت مع قريش، لا يصمدون في الحروب، فما جاءوا لحرب وإنما جاءوا لكسب، فإن وجدوا كسبًا وإلا عادوا، ولذلك سرعان ما رجعوا إلىٰ ديارهم لما رأوا أن الكسب غير متيسر لهم.

الثانية والعشرون: إن ما جرىٰ من يهود خيبر وبني النضير من إذكاء الحرب بين القبائل العربية والرسول ﷺ فقد جابوا الصحاري لإشعال الحرب بين قريش وقبائل العرب من جهة والرسول ﷺ من جهة أخرىٰ، وظلوا ينأون بأنفسهم عن نارها، وهذا شأنهم في كل العصور.

الثالثة والعشرون: إن غزوة الأحزاب أسهمت -كما أسهمت غزوة أحد وبعدها غزوة تبوك- في كشف عناصر النفاق المتخفي في المدينة، وما كان هؤلاء لينكشفوا ويعرفهم المسلمون لولا الشدائد، فقد كانوا في الخندق يتسللون لواذًا عن العمل، ويرجفون بالمدينة، ويخوفون من قوة الأعداء، ويخذلون[2]، ويسعون إلىٰ بث روح الهزيمة في نفوس المسلمين.

---

(١) انظر: غالي الشنقيطي، الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين (٢١٦-٢١٧).

(٢) من أعمال المنافقين الإرجاف والتخذيل، والفرق بينهما أن المرجف من يخوف من العدو، أما المخذل فهو من يقلل الرغبة في الخير، فالمرجف يرهبك، والمخذل فهو من يثبط عزيمتك، كأن يقول ما الفائدة من هذا العمل، هذا لا يستحق هذا الجهد... انظر: ابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين (سورة الأحزاب) (ص ١١٩). ولذلك يقول الفقهاء ويمنع الإمام المخذل وهو الذي يفند الناس عن الغزو، ويزهدهم في الخروج إليه، والمرجف وهو الذي يُحَدِّث بقوة الكفار وضعفنا. انظر المبدع شرح المقنع (٣/ ٣٠٥).❊

الرابعة والعشرون: كما نستذكر بالأحزاب غزوة أحد، فيمكن أن يُستذكر بالأحزاب -أيضًا- بدر، ففي غزوة بدر رأينا بذرة الثقة بنصر الله عمليًا، رأينا كيف حطم أولئك الصحب الكرام قليلو العدد والعدة، جيشًا يفوقهم من حيث العدد أضعافًا، ولديهم من حُسْن العدة والأسلحة أصنافًا، ثم يتنزل نصر الله عز وجل ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران:١٢٣]. وفي الأحزاب أينعت ثمار الثقة بنصر الله جل شأنه.

فإن كانت النصوص تتابع تَعِد بالنصر، فها هي ذي في الأحزاب تتشكل واقعًا، يبلغ الآفاق، لو اجتمع عليكم -أيها المؤمنون- أهل الأرض جميعًا وكادوكم، فالله معكم.

فاجتمع للصحب الكرام في الأحزاب تلاوة النص الناصر، ورؤية النصر في الواقع بأعلىٰ درجاته العملية.

وتأثير هذا عظيم جدًا في القلوب، طمأنة وتثبيتًا لها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة:٢٦٠]، فإبراهيم -عليه السلام- قد تيقن أن الله يحيي الموتىٰ بخبر الله تعالىٰ، ولكنه أحب أن يشاهده عيانًا ليحصل له مرتبة عين اليقين، إذ بتوارد الأدلة اليقينية يزداد الإيمان ويكمل الإيقان، وهو مما يسعىٰ في نيله أولو العرفان(١).

الخامسة والعشرون: لما بلغ الرسولَ ﷺ خبر نقض بني قريظة للعهد أصابه هم شديد، يصف الحال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ- بقوله: (وتقنع رسول الله ﷺ بثوبه حين جاءه الخبر عن بني قريظة، فاضطجع ومكث طويلًا، فاشتد علىٰ الناس البلاء والخوف حين رأوه اضطجع، وعرفوا أنه لم يأتِه عن بني قريظة خير، ثم إنه ﷺ تجلد ورفع رأسه وقال: «أبشروا -يا معشر المؤمنين- بنصر الله تعالىٰ وعونه».

(١) انظر: السعدي، تفسير السعدي (ص ١١٢)

أصاب الرسول ﷺ هَمٌ شديدٌ لا لأجل نفسه ولكن لأجل هذا الدين، ولأجل أصحابه الذين معه وتتبعهم ذرية ونساء، هم في الأطم بجوار بني قريظة، الذين أصبحوا من جملة الأحزاب.

ومع ذلك، تجلد ﷺ وقام وبشر وتفاءل ووثق بنصر الله وعونه، ودعا الناس إلىٰ ذلك وشد من أزرهم وثبتهم. فاللهم اجْزِ نبينا عنا وعن أمة الإسلام أضعاف أضعاف ما جازيت نبيًا عن أمته، فقد جاهد فيك يا ربنا من أجل إبلاغ دينك وصد أعدائك وتحمل في سبيل ذلك شتىٰ أنواع البلاء والإيذاء ومختلف صور الهموم طيلة حياته ﷺ.

السادسة والعشرون: إن الخوف الطبيعي[١] لا حرج فيه، فالشخص في طبيعته يخاف من العدو ويخاف من الحيوان المفترس، والممنوع الخوف المبني علىٰ عقيدة وهو ما يسمىٰ بخوف السر، كالخوف من الكاهن أو وثن، كما قال تعالىٰ عن قوم هود -عليه السلام- إنهم قالوا له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود:٥٤-٥٥]، أو الخوف من ولي ميت مقبور أو الخوف من الجن أو التطير والخوف من الطير إذا طار واتجه شمالًا أن يصاب بأذىٰ، والخوف من البومة إذا وقعت علىٰ منزله أنه سيموت أو سيموت أحد في داره.فهذا خوف شركي، وخوفه منه لعقيدة عنده أن فيه سرًا، فهو يخافه لاعتقاده أنه فيه سرًا، وأنه يأتي عقابه من الولي الميت سرًا، لا يأتي بجيوش، وإنما يأتيه ويصيبه ولو كان في عقر بيته. بقدرة لا يُعلم عنها، هذا تصور وعقيدة الذين يخافون من الأولياء الموتىٰ، ومن السحرة والمشعوذين ونحوهم.وهي عقيدة باطلة، وهو معروف عند عباد الأولياء والقبور،

(١) الخوف الطبيعي: هو الذي يكون مطبوعًا عليه الإنسان في نفسه، كخوفه من السبع، والحية، وجدار أن يسقط عليه، أو ماء يغرق فيه، أو ما أشبه ذلك؛ فهذا لا بأس به؛ لأن هذا أمر مطبوع عليه الإنسان، وليس هو مثل خوف السر المبني على عقيدة لا يجوز أن يصرف إلا لله سبحانه وتعالى.

يقولون: إن صاحب القبر فيه سر، فمن قدم له طاعةً ونذورًا نفعه سره وجاءه النفع منه، ومن لم يفعل ذلك فإن سره يضره، وقد يميته أو يمرضه أو يفقره، أو يميت أولاده وما أشبه ذلك، هكذا يتصورونه. وهذا الميت لا يملك شيئًا لنفسه فضلًا أن يملكه لغيره، وهذا هو الخوف الشركي والعياذ بالله(١).

السابعة والعشرون: لما وصل الأحزاب إلىٰ المدينة، وأصبح الأمر واقعًا، هنا أريد أن أقف للمقارنة..

يقول تعالىٰ في وصف حال المنافقين: ﴿ **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا** ﴾ [الأحزاب:١٢].

ويقول تعالىٰ فيوصف حال المؤمنين: ﴿**وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا** ﴾ [الأحزاب:٢٢].

قارن بين: ﴿ **مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا** ﴾، ﴿ **هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا** ﴾.

والمرئي أو المشاهد هنا واحد، وهو تجمع الأحزاب، ولكن الحال تختلف، فالمنافقون أصابهم الهلع، وصاروا يُرجفون بقوة العدو، وبالسخرية بوعود الله -جل شأنه- ووعود الرسول ﷺ.

والمؤمنون زادتهم مشاهدة الأحزاب إيمانًا وتصديقًا للرسول ﷺ.

وهذا ليس خاصًا بهذه القضية، بل في كل قضية، يكون الموقف واحدًا، والحكم يختلف حسب قوة الإيمان، وإن كنا هنا نقارن بين منافق ومؤمن، فإني أريد أن أستحضر موقفًا آخر بين المؤمنين أنفسهم، بل بين صحابة رسول الله ﷺ، وذلك عندما أشيع مقتل رسول الله ﷺ في غزوة أحد،حيث ألقىٰ بعض الصحابة -رضي

(١) انظر: فتح المجيد (ص ٢٤٤)

الله تعالىٰ عنهم- السلاح، وقالوا: ما الفائدة من القتال إذا كان قد قُتل الرسول ﷺ؟ وأما أنس بن النضر -رضي الله تعالىٰ عنه- لما مر ببعض الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- من الذين ألقوا سلاحهم، وقالوا له إن الرسول ﷺ قد قُتِل، قال لهم: إن كان الرسول ﷺ قد قُتِل فقوموا وموتوا علىٰ ما مات عليه رسول الله ﷺ وما قيمة الحياة بعد موته، فجعل إشاعة موته مشجعة للإقدام لا للتثبيط، ثم اتَّجَهَ نحو العدو، وقاتل حتىٰ قتل وما عرفوه إلا ببنانه. وقد أشرت إلىٰ ذلك في فوائد غزوة أحد.

وهكذا المواقف التي تمر بنا نحن في حياتنا اليومية، حيث تجد موقفًا واحدًا، يصاب البعض بسببه بالانهيار والوهن، والحديث في المجالس عن التثبيط والتيئيس، وفئة أخرىٰ تنظر للموقف نفسه بمنظار آخر يدفعها لقوة الإيمان والثبات، ومزيد من العمل الجاد النافع، فراجع نفسك وتفكيرك في مثل هذه المواقف، واعلم أن سلوكك ناتج عن تفكيرك وتحليلك، لعل الله ينفعك بما ذكرت لك. وقد مرت علينا في حياتنا مواقف كثيرة مشابهة لذلك.

الثامنة والعشرون: هذا أمر، والأمر الآخر أن أثر الرؤية غير أثر الخبرعلىٰ الشخص، فليس من رأىٰ كمن سمع. وكثير من الناس من يتكلم، فإذا جاء الواقع ذهب الكلام أدراج الرياح.

قبل مجيء الأحزاب وعند سماع أخبارهم، كان الجميع يتحدثون عن الإيمان ومتابعة الرسول ﷺ ونصرته، لكن عندما شاهدوهم، تمايزوا؛ ففئة انكشف نفاقها وأظهرت الشدائد خبيئتها السيئة وخورها وضعفها وصاروا يتحججون بمختلف الحجج، ويقولون: بيوتنا عورة وما هي بعورة، ويتسللون عن الرسول ﷺ لواذًا.

وأما المؤمنون الصادقون فلا نقول ثبتوا علىٰ قولهم، بل زاد ثباتهم ويقينهم بنصر الله -سبحانه وتعالىٰ- بعد مشاهدة جموع الأحزاب عيانًا.

التاسعة والعشرون: في غمرة هذه الشدائد، كان الرسول ﷺ ملازمًا للصلاة والدعاء، فقد روىٰ لنا حذيفة -رضي الله تعالىٰ عنه- كما مر- أن الرسول ﷺ بات ليلته كلها يصلي وذهب حذيفة -رضي الله تعالىٰ عنه- إلىٰ معسكر المشركين والرسول ﷺ يصلي، وجلس معهم وسمع أخبارهم، وعاد إليه وهو يصلي في تلك الليلة الشاتية الطويلة. وعن عبد الله بن أبي أوفىٰ -رضي الله تعالىٰ عنهما- يقول: (دعا رسول الله ﷺ يوم الأحزاب علىٰ المشركين، فقال: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اللهم اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم»[1].

فعند المسلمين، يعد السلاح الأقوىٰ الذي لن تنصلح حالهم إلا به هو سلاح الصلاة والدعاء والتضرع إلىٰ الله، وإذا ضيعوه ضاعوا.

الثلاثون: تختلف غزوة الأحزاب عن الغزوات التي قبلها، فقد كانت غزوة استئصال كما خطط لها الكفار، ولذلك جاءوا بجمع هائل كما قال تعالىٰ: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾، [الأحزاب:١٠]، ولما علمت قريظة بهذا الجمع أيقنت بالنصر، فنقضت العهد.

لكنه جمع انتهىٰ بالتخاذل والتفرق بين المشركين، وشك بعضهم في بعض، وعودة كل فريق منهم إلىٰ ديارهم يجر أذيال الخيبة والفشل.

ولذلك فالذي وقع هو حرب أعصاب لكنها كانت من أحسم المعارك في تاريخ الإسلام، حيث تمخضت عن تخاذل المشركين، وأفادت أن أية قوة من قوات العرب لن تستطيع النيل من القوة الناشئة التي تنمو في المدينة، لأن العرب لم تكن تستطيع أن تأتي بجمع أقوىٰ مما أتت به في الأحزاب[2]. لقد عاش أو عانىٰ المسلمون أربع

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (٤/ ٤٤) (رقم ٢٩٣٣) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٦٣) (رقم ١٧٤٢).

(٢) المباركفوري،(الرحيق المختوم) (ص٢٨٧).

وعشرين ليلة تقريبًا مرعبة ومخيفة، واشتد الأمر عليهم كما قال تعالىٰ: ﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾، وكأنها ظلام الليل الحالك الذي تلاه نور الفجر الصادق معلنًا عن عهدٍ جديدٍ مشرقٍ للمسلمين، فقد أصبحوا وإذا أماكن المشركين خالية قد اقتلعتهم الريح وأجبرتهم علىٰ الارتحال ولم يبقَ في ميدان القتال إلا الرسول ﷺ ومعه صحبه الكرام آمنين ومطمئنين. والحمد لله رب العالمين. فكلما رأيتَ الأمور اشتدت علىٰ المسلمين، تفاءل جدًا بقرب طلوع الفجر الصادق لهم.

الواحدة والثلاثون: جاء المشركون بهدف الاستئصال السريع، ولما رأوا الخندق أدركوا أنهم عاجزون عن ذلك، فغيروا خطتهم إلىٰ حصار المسلمين، لكنه حصار مرتجل دون استعداد منهم له، إذْ كيف لعشرة آلاف من الأشخاص أن يبقوا في الصحراء مدة طويلة دون مؤونة كافية لهم ولإبلهم وخيلهم. فسرعان ما شعروا بثقل الحصار علىٰ أنفسهم، وعِظم كلفته، وصعوبة الاستمرار فيه، ثم سلط الله - جل شأنه- عليهم التخاذل بينهم، وجاءت الريح بأمر الله -سبحانه وتعالىٰ- لتقلب القدور وتطفئ النار وتقلع الخيام لتقضي علىٰ أي أمل في البقاء. وكفىٰ الله المؤمنين القتال وكان الله قويًا عزيزًا.

الثانية والثلاثون: قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب:٩]، قال ابن جزي -رحمه الله تعالىٰ-: (﴿ وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ ﴾ يعني: الملائكة)[1]. فالملائكة حضرت في الأحزاب وزلزلت العدو وملأت قلوبهم رعبًا. لكن بالإضافة إلىٰ ذلك فإن لغزوة الأحزاب شأنًا آخر اختصت به. وهو أن غزوة الأحزاب جرىٰ فيها نصر من الله -جل شأنه- تميز بأمرين:

الأول: نصر بأمرٍ ظاهر بيِّن، نصر مادي مشاهد.

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ١٤٧).

الثاني: لم يكن للبشر علاقة به، ولم يشارك فيه المسلمون بسلاحهم، بل نصر اختص الله -عز وجل- به.

هذا النصر كان بالريح في ليلة شاتية شديدة البرودة قلبت القدور وأطفأت النار، وقلعت الخيام، فكيف يمكن للجيش بهذه الحال المقام، مهما كانت كثرته وعُدته؟ حتىٰ إن هذه الريح -كما يقول حذيفة -رضي الله تعالىٰ عنه- كانت في حدود معسكر الكفار (وإذا الريح في عسكرهم، ما تجاوز عسكرهم شبرًا، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم، وفرشهم، الريح تضربهم بها)[1].

أما النصر في بدر، فقد نزلت الملائكة تقاتل وهو عمل غير مرئي، وسلَّ المؤمنون فيها سلاحهم وقاتلوا وصارت النسبة الظاهرية للنصر، لسيوف الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- لولا النصوص التي وردت في هذا الشأن.

ولذلك نجد الرسول ﷺ يستذكر هذا المعنىٰ شكرًا لله -جل شأنه- ويكرره في مناسبات كثيرة. عن عبد الله بن عمر -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: كان رسول الله ﷺ إذا قفل من الجيوش أو السرايا أو الحج أو العمرة[2]، إذا أوفىٰ علىٰ ثنية أو فدفد[3]، كبَّر ثلاثًا، ثم قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو علىٰ كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون، صدق الله

(١) البيهقي، دلائل النبوة (٣/ ٤٥٢) وابن حجر، فتح الباري (٧/ ٤٠١).
(٢) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في الفتح (٧/ ٤٠٧): «قوله أو الحج أو العمرة ليست أو للشك بل هي للتنويع».
(٣) الفدفد بفائين مفتوحتين بينهما دال مهملة ساكنة وهو الموضع الذي فيه غلظ وارتفاع وقيل هو الفلاة التي لا شيء فيها وقيل غليظ الأرض ذات الحصى وقيل الجلد من الأرض في ارتفاع وجمعه فدافد شرح صحيح مسلم للنووي (٩/ ١١٣).

وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب[1] وحده»[2]. فهزيمة المشركين في الأحزاب لها لون خاص يختلف عن بقية الهزائم التي حلت بهم في لقاءاتهم بالمسلمين.

وإذا كان الرسول ﷺ يستذكر نصر الله -جل شأنه- لموسىٰ -عليه الصلاة والسلام- فيشكر الله سبحانه وتعالىٰ. عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ لما قدم المدينة، وجدهم يصومون يومًا، يعني عاشوراء، فقالوا: هذا يوم عظيم، وهو يوم نجىٰ الله فيه موسىٰ، وأغرق آل فرعون، فصام موسىٰ شكرًا لله، فقال: «أنا أولىٰ بموسىٰ منهم»، فصامه وأمر بصيامه[3].

وإني أجد شبهًا كبيرًا بين النصرين، نصر الله -جل شأنه- لنبيه محمد ﷺ بالريح، ونصر الله -جل شأنه- لنبيه موسىٰ -عليه الصلاة والسلام- بإغراق فرعون ومن معه، وحينما نشكر الله -جل شأنه- علىٰ نصرة موسىٰ -عليه الصلاة والسلام- وإغراق فرعون وجنده، فكذلك نشكر الله علىٰ نصرة نبينا محمد ﷺ وصحبه -رضي الله تعالىٰ عنهم- وإجلاء الأحزاب، من باب أولىٰ، وكلما تذكرنا هذه النعمة، نشكر الله -سبحانه وتعالىٰ- ولا يعني هذا استحداث عبادة من صيام أو غيره في اليوم الموافق ليوم إجلاء الله للأحزاب بالريح، ولكن شكرًا يتجدد عند كل تذكر لهذا النصر العظيم من الله -سبحانه وتعالىٰ- طيلة العام، ولعل في تكرار الرسول ﷺ لهذا الدعاء السابق إذا قفل من جيش أو عمرة أو حج، ما يشعر بالحث علىٰ تجديد شكر نعمة الله -سبحانه وتعالىٰ- علىٰ ما صنع بالأحزاب وحده جل شأنه.

---

(١) قال النووي رحمه الله تعالى في شرحه لصحيح مسلم (٩/ ١١٣) «وهزم الأحزاب وحده أي من غير قتال من الآدميين والمراد الأحزاب الذين اجتمعوا يوم الخندق وتحزبوا على رسول الله ﷺ فأرسل الله عليهم ريحا وجنودا لم تروها».

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري (٤/ ٥٧) (رقم ٢٩٩٥) وصحيح مسلم (٢/ ٩٨٠) (رقم ١٣٤٤).

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري (٤/ ١٥٣) (رقم ٣٣٩٧) وصحيح مسلم (٢/ ٧٩٦) (رقم ١١٣٠)

ثم وجدت الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله تعالىٰ- يقول في تفسيره للآية السابقة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ .... ﴾: (بيان مِنَّة الله -سبحانه وتعالىٰ- علىٰ هذه الأمة أولها وآخرها بهذا الدفاع من الله -سبحانه وتعالىٰ- عن المؤمنين. ووجهه: أن الله تعالىٰ أمرنا بأن نذكر هذه النعمة)[1].

الثالثة والثلاثون: قوله تعالىٰ: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗا ﴾، يقول ابن عاشور، -رحمه الله تعالىٰ-: (والرد: الإرجاع إلىٰ المكان الذي صدر منه، فإنَّ ردَّهم إلىٰ ديارهم من تمام النعمة علىٰ المسلمين بعد نعمة إرسال الريح عليهم، لأن رجوعهم أعمل في اطمئنان المسلمين)[2].

الرابعة والثلاثون: قول الله تعالىٰ: ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَ ﴾، يقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ- في تفسيره: (وقوله: ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَ ﴾ أي: لم يحتاجوا إلىٰ منازلتهم ومبارزتهم حتىٰ يجلوهم عن بلادهم، بل كفىٰ الله وحده، ونصر عبده، وأعز جنده)[3].

وقال أيضًا -رحمه الله تعالىٰ- في هذه الآية (إشارة إلىٰ وضع الحرب بينهم وبين قريش، وهكذا وقع بعدها، لم يغزهم المشركون، بل غزاهم المسلمون في بلادهم)[4].

الخامسة والثلاثون: فضيلة ظاهرة لسعد بن معاذ -رضي الله تعالىٰ عنه- هذا الصحابي الشاب[5] الذي كان سيد قومه، وكان ممن بادر بالإسلام عند قدوم

(١) تفسير ابن عثيمين (سورة الأحزاب) (ص ٩٧).
(٢) تفسير ابن عاشور (٢١/ ٣١٠).
(٣) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٩٦).
(٤) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٩٦).
(٥) ذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء (١/ ٢٩٠) نقلا عن الواقدي أنه توفي وعمره سبع وثلاثون سنة.

مصعب -رضي الله تعالىٰ عنه- المدينة، وأسلمت بإسلامه القبيلة بكاملها، وعاش في الإسلام سبع سنوات فقط، ولما استشهد بسبب جراحه في غزوة الأحزاب، اهتز عرش الرحمن(١)، فرحًا بقدومه -رضي الله تعالىٰ عنه(٢)-، عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ»(٣).

فماذا عمل سعد في سبع سنوات فقط، عاشها في الإسلام حتىٰ ينال هذه الفضيلة، بل الخصيصة، وأعظم بها من خصيصة أن يهتز عرش الرحمن فرحًا بقدومه.

هذا يرشدنا إلىٰ أمر استقر في قلوب الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- من التصديق والإيمان الراسخ في قلوبهم كالجبال، وتبعه العمل الصالح والنية الصادقة، مع الصُحبة للنبي ﷺ وهذا مشابه لما روي عَن بكر بن عبد الله الْمُزنِيّ -رَحمه الله تعالىٰ- قَالَ: (لم يفضل أَبُو بكر -رَضِي الله تعالىٰ عَنهُ- النَّاس بِكَثْرَة صَوْم وَلَا صَلَاة، إِنَّمَا فَضلهمْ بِشَيْء كَانَ فِي قلبه)(٤).

(١) قال النووي رحمه الله تعالى في شرح صحيح مسلم (١٦/ ٢٢): «(اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ) اختلف العلماء في تأويله فقالت طائفة هو على ظاهره واهتزاز العرش تحركه فرحا بقدوم روح سعد وجعل الله تعالى في العرش تمييزا حصل به هذا، ولا مانع منه كما قال تعالى ﴿ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ ﴾ وهذا القول هو ظاهر الحديث وهو المختار» وقال الذهبي (١/ ٢٩٧) «والعرش خلق لله مسخر، إذا شاء أن يهتز اهتز بمشيئة الله، وجعل فيه شعورًا لحب سعد، كما جعل -تعالى- شعورا في جبل أحد بحبه النبي -ﷺ-».

(٢) قال البيهقي في الدلائل (٤/ ٢٨) «وحدثنا أحمد بن سلمة. قال: حدثنا إسحاق. قال: أخبرنا المعتمر، عن أبيه، عن الحسن، قال: اهتز له عرش الرحمن فرحا بروحه».

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري (٥/ ٣٥) (رقم ٣٨٠٣) وصحيح مسلم (٤/ ١٩١٥) (رقم ٢٤٦٦).

(٤) الحكيم الترمذي، نوادر الأصول في أحاديث الرسول ﷺ تحقيق عبد الرحمن عميرة (بيروت: دار الجيل) (١/ ١٤٩) وانظر ابن رجب، جامع العلوم والحكم، تحقيق ماهر الفحل (١/ ١١٦)، وعبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، فتح المجيد (ص ٤٨) وأورده ابن تيمية رحمه الله تعالى في منهاج السنة في موضعين من قول أبي بكر بن عياش رحمه الله تعالى. منهاج السنة النبوية (٦/ ٢٢٣) و(٨/ ٤٩٣).

ولذلك كان حقًا للأنصار أن يفتخروا به، وفي ذلك قال شاعر منهم:

وما اهتز عرش الله من موت هالك... سمعنا به إلا لسعد أبي عمرو[1].

والله -جل شأنه- ليس بينه وبين أحد نسب، وإنما هي التقىٰ والعمل الصالح، فأصلح قلبك وعملك ترتفع منزلتك عند ربك.

السادسة والثلاثون: فضيلة ظاهرة لحذيفة -رضي الله تعالىٰ عنه- الذي اختاره الرسول ﷺ ليذهب إلىٰ معسكر المشركين في تلك الليلة الباردة والشاتية والمخيفة، التي نادىٰ الرسول ﷺ فيها الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- يقول: «ألا رجل يأتيني بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة؟» ثم يقول: «من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم، ثم يرجع يشرط له رسول الله ﷺ الرجعة، أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة» ولا يقوم أحد من شدة الخوف والبرد فيقول الرسول ﷺ: «قم يا حذيفة، فأْتنا بخبر القوم»، فيذهب ويأتيه بخبر القوم الذي يَسُرُّه ﷺ.

السابعة والثلاثون: عندما قال الرسول ﷺ: «من يأتيني بخبر القوم»، وتأخر الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- في ذلك، والمعهود عنهم المسارعة في الاستجابة لأمر الرسول ﷺ، لم يكن هذا التأخر عن تباطؤ في تنفيذ أمر الرسول ﷺ وإنما لأن كل واحد منهم، كان فيه من الجوع والضعف والخوف ما جعله لا يأنس من نفسه القدرة علىٰ تنفيذ أمر الرسول ﷺ ولو كان قادرًا ما تأخر لحظة عن ذلك، وكان كل واحد يؤمل أن يتولىٰ هذا الأمر من هو أقدر علىٰ تنفيذ أمر رسول الله ﷺ منه وأنفع، ويتمنىٰ لو كان قادرًا علىٰ ذلك، ولذلك لما سمىٰ الرسول ﷺ حذيفة -رضي الله تعالىٰ عنه- بادر بالقيام، وامتثل الأمر بلا تردد، إذ لم يعد للرأي والاجتهاد فيه مجال، فرضي الله تعالىٰ عن صحابة رسول الله ﷺ أجمعين.

---

(١) ابن هشام، السيرة (٢/ ٢٥٢).

الثامنة والثلاثون: موقف نعيم بن مسعود الغطفاني -رضي الله تعالىٰ عنه- الذي استطاع التفريق بين الأحزاب، وتشكيك بعضهم في بعض، يرشدنا إلىٰ أن الشخص حتىٰ لو كان بمفرده، يمكنه أن يعمل عملًا عظيمًا يخدم به دينه وأمته. متىٰ فكر وخطط وتروىٰ واستشار أميره، وكل ذلك فعله نعيم -رضي الله تعالىٰ عنه- فنجحت خطته، وأسهم إسهامًا واضحًا في هزيمة الجيش وتفريق كلمة المشركين وفشلهم وعودتهم خائبين.

وكما أسهم سلمان -رضي الله تعالىٰ عنه- برأي، أسهم نعيم -رضي الله تعالىٰ عنه- بعمل، فتكاملت الجهود وبارك الله تلك الأعمال وأنزل النصر والتأييد من عنده سبحانه وتعالىٰ.

التاسعة والثلاثون: إننا لو نظرنا إلىٰ عدد الشهداء من المسلمين لوجدناه قليلًا جدًا، ستة أشخاص فقط، مقارنة بجيش جرار فيه عشرة آلاف من المقاتلين، فحتىٰ في الميزان العددي الظاهري، كانت نتائج الغزوة عظيمة جدًا، فقد رَدَّ اللهُ الكفارَ بغيظهم، لم ينالوا خيرًا.

الأربعون: إن المشركين مهما ظهر أن أمرهم في اجتماع واتفاق فهم إلىٰ افتراق وفشل[1]، والله جل شأنه يقول في كتابه الكريم: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنفال:١٨]، فقد اجتمع الكفار من قريش ومن غطفان ومن سائر قبائل العرب مع يهود بني النضير وقريظة، وكان من أول ما بدر منهم، هو التخاذل والتنازع والفرقة ثم -بحمد الله تعالىٰ- الفشل والعودة خائبين، والحمد لله رب العالمين.

الواحدة والأربعون: وبها أختم: كيف كان شعور أبي سفيان وهو يعلن الرحيل عائدًا إلىٰ مكة؟ وكيف كان شعور زعماء القبائل العربية وزعماء اليهود وهم جميعًا

(١) انظر: أبو زهرة، خاتم النبيين (٢/ ١٤٤).

يغادرون موقع المعركة؟ ماذا سيقولون لجنودهم ولمن خلفهم في بلادهم إذا رجعوا إليهم، تبريرًا لهذه العودة، ومعهم جيش جرار لم تعرفه العرب من قبل، بهذه القوة البشرية والمادية، ومع ذلك عاد أدراجه خائبًا!

كيف كان شعورهم وقد جاءوا يُمَنُّون أنفسهم بالغنائم واستئصال هذه القوة الإيمانية الناشئة في المدينة، وتأمين تجارتهم وحياتهم الاقتصادية؟

كيف كان شعورهم وهم العرب أصحاب الأنفة، الذين يأبون الهوان، ومع ذلك كله عادوا متفرقين، يجر كل منهم إلىٰ قومه أذيال الخيبة والفشل، وقد رضوا من الغنيمة بالإياب! فلا طريق التجارة أمنوه، ولا نصر حققوه، يكفي في وصف حالهم قول الله تعالىٰ: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ﴾، فهم عادوا مغتاظين غاية الغيظ، ووجه اغتياظهم أنهم جاءوا بهذا الجمع الكثير الذي لم يشهد له نظير في ذلك الوقت، يريدون القضاء علىٰ النبي ﷺ ومع ذلك حصل لهم التعب والعناء والجوع والبلاء، وأخيرًا رجعوا هاربين[1].

إن هذا الشعور سيتكرر بإذن الله تعالىٰ في أعداء المسلمين، متىٰ وحدنا الله – عز وجل – بالعبادة، ولجأنا إليه واعتصمنا به، ولم تركن قلوبنا إلىٰ مخلوق كائنًا من كان، وأخلصنا لله العمل، وصدَقْنا في التمسك بسنة نبينا ﷺ.

(١) انظر: ابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين، (سورة الأحزاب) (ص ١٨٨).

المبحث السادس

فقه السيرة في غزوة بني قريظة

قدَّمنا في غزوة الأحزاب أن بني قريظة كانوا علىٰ عهد مع رسول الله ﷺ ثم لما تجمع الأحزاب لحرب الرسول ﷺ تمكن حيي بن أخطب من أن يجر بني قريظة إلىٰ نقض العهد مع الرسول ﷺ ومظاهرة الأحزاب ونصرتهم ضد الرسول ﷺ.

فما أجدىٰ ذلك عنهم شيئًا وعاد الأحزاب وبنو قريظة بالخسران، كما قال الله تعالىٰ عن الأحزاب: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب:٢٥]، وقال تعالىٰ عن بني قريظة: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ (١) وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝٢٦ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب:٢٦-٢٧].

قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ أي: عاونوا الأحزاب وساعدوهم علىٰ حرب رسول الله ﷺ ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: بني قريظة من اليهود، من بعض أسباط بني إسرائيل، كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديمًا، طمعًا في اتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة:٨٩]، فعليهم لعنة الله[٢].

ولما انصرف رسول الله ﷺ إلىٰ المدينة عائدًا من الأحزاب لم يكن إلا أن وضع سلاحه، عن عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ لما رجع يوم الخندق ووضع

(١) أي حصونهم، تفسير ابن كثير (٦/ ٣٩٨).
(٢) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٦/ ٣٩٨).

السلاح، واغتسل فأتاه جبريل وقد عصب رأسه الغبار، فقال: وضعت السلاح فوالله ما وضعته، فقال رسول الله ﷺ: «فأين»؟ قال، ها هنا، وأومأ إلىٰ بني قريظة، قالت: فخرج إليهم رسول الله ﷺ[١].

وسار جبريل -عليه السلام- في موكبه من الملائكة[٢]. وعن أنس رضي الله عنه قال: (كأني أنظر إلىٰ الغبار ساطعًا في زقاق بني غَنْم، موكب جبريل -عليه السلام- حين سار رسول الله ﷺ إلىٰ بني قريظة)[٣].

وعن ابن عمر -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: (قال النبي ﷺ يوم الأحزاب: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتىٰ نأتيهم وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد منا ذلك، فذُكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنِّف أحدًا منهم)[٤].

قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- في شأن الذين لم يصلوا إلا في بني قريظة: (وقع عند ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ- أنهم صلوها في وقت العشاء، وعند موسىٰ بن عقبة-رحمه الله تعالىٰ- أنهم صلوها بعد أن غابت الشمس)[٥].

وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف من المقاتلين، معهم ست وثلاثون فرسًا وضرب الحصار علىٰ بني قريظة خمسًا وعشرين ليلة[٦]، ورد الله حيي بن أخطب حتىٰ جاء ودخل الحصن، وقذف الله في قلوبهم الرعب.

---

(١) صحيح البخاري (٤/ ٢١)، (رقم ٢٨١٣). وصحيح مسلم (٣/ ١٣٨٩)، (رقم ١٧٦٩).
(٢) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ١٣٠).
(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٤٠٧)، رقم (٤١١٨).
(٤) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٤٠٨)، رقم (٤١١٩).
(٥) ابن حجر، الفتح (٧/ ٤١٠).
(٦) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية (٣/ ٢٣٠). هناك خلاف في كتب السيرة في عدد الليالي فبعضهم يقول بضع عشرة ليلة وعند ابن سعد في الطبقات خمس عشرة ليلة والله أعلم.

ولما اشتد عليهم الحصار عرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد ثلاث خصال: إما أن يُسلموا ويدخلوا مع محمد ﷺ في دينه، فيأمنوا علىٰ دمائهم وأموالهم وأبنائهم ونسائهم، وقال لهم: والله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل، وأنه الذي تجدونه في كتابكم، وإما أن يقتلوا ذراريهم ونساءهم بأيديهم، ويخرجوا إلىٰ النبي ﷺ بالسيوف مصلتين، يناجزونه حتىٰ يظفروا بهم، أو يقتلوا عن آخرهم، وإما أن يهجموا علىٰ رسول الله ﷺ وأصحابه، ويكبسوهم يوم السبت؛لأنهم قد أمنوا أن يقاتلوهم فيه، فأبوا أن يجيبوه إلىٰ واحدة من هذه الخصال الثلاث، وحينئذ قال سيدهم كعب بن أسد، في انزعاج وغضب: (ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازمًا).

ولم يبقَ لقريظة بعد رد هذه الخصال الثلاث إلا أن ينزلوا علىٰ حكم رسول الله ﷺ لكنهم أرادوا أن يتصلوا ببعض حلفائهم من المسلمين، لعلهم يتعرفون ماذا سيحل بهم إذا نزلوا علىٰ حكمه، فبعثوا إلىٰ رسول الله ﷺ أن أرسل إلينا أبا لبابة -رضي الله تعالىٰ عنه- نستشيره، وكان حليفًا لهم، وكانت أمواله وولده في منطقتهم، فلما رأوه قام إليه الرجال، وجهش النساء والصبيان يبكون في وجهه، فَرَقَّ لهم، وقالوا: يا أبا لبابة أترىٰ أن ننزل علىٰ حكم محمد؟ قال: نعم! وأشار بيده إلىٰ حلقه، يقول إنه الذبح، ثم علم من فوره أنه خان الله ورسوله، فمضىٰ علىٰ وجهه، ولم يرجع إلىٰ رسول الله ﷺ حتىٰ أتىٰ المسجد النبوي بالمدينة، فربط نفسه بسارية المسجد، وحلف ألا يحله إلا رسول الله ﷺ بيده، وأنه لا يدخل أرض بني قريظة أبدًا. فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره -وكان قد استبطأه- قال: «أما إنه لو جاءني لاستغفرت له، أما إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتىٰ يتوب الله عليه»(١).

(١) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية (٣/ ٢٣١)، وصفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم (٢٨٩).

وروىٰ الطبري -رحمه الله تعالىٰ-: عن عبد الله بن أبي قتادة، قال: نزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧] في أبي لبابة رضي الله تعالىٰ عنه[١] وبعد أن ذكر الطبري -رحمه الله تعالىٰ- الخلاف في سبب النزول قال: (وأولىٰ الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال إن الله نهىٰ المؤمنين عن خيانته وخيانة رسوله وخيانة أمانته. وجائز أن تكون نزلت في أبي لبابة، وجائز أن تكون نزلت في غيره، ولا خبر عندنا بأي ذلك كان يجب التسليم له بصحته)[٢].

وذكر ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ- أن توبة أبي لبابة -رضي الله تعالىٰ عنه- نزلت علىٰ رسول الله ﷺ وهو في بيت أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها-: فسمعت رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك، فقلت: مم تضحك؟ قال: «تيب علىٰ أبي لبابة». قلت: أفلا أبشره؟ قال: «إن شئتِ». قال: فقامت علىٰ باب حجرتها، وذلك قبل أن يضرب عليهم الحجاب، فقالت: يا أبا لبابة! أبشر فقد تاب الله عليك. قالت: فثار إليه الناس ليطلقوه. فقال: لا والله حتىٰ يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده. فلما مر عليه خارجا إلىٰ صلاة الصبح أطلقه[٣].

---

(١) الطبري، تفسير الطبري تحقيق التركي (١١/ ١٢٢). قال سليم الهلالي ومحمد آل نصر في هامش كتابهما الاستيعاب في الأسباب (في أسباب نزول القرآن الكريم) (٢/ ٢٢٣): (أخرجه الطبري في جامع البيان) (٩/ ١٤٦) وسعيد بن منصور في سننه (٥/ ٢٠٥)، (رقم ٩٨٧) وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٨٤)، (رقم ٨٩٧٥) من طريق ابن عيينة ثنا إسماعيل بن أبي خالد قال سمعت عبد الله بن أبي قتادة به: قلنا: وهذا إسناد صحيح رجال ثقات ؛ لكنه مرسل. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٨) وزاد نسبته لابن المنذر وأبي الشيخ: أ. هـ كلامهما.

(٢) الطبري، تفسير الطبري تحقيق التركي (١١/ ١٢٢).

(٣) ابن هشام، السيرة (٢/ ٢٣٧)، والبيهقي، دلائل النبوة (٤/ ١٦)، والذهبي، سير أعلام النبلاء (السيرة النبوية) (١/ ٥١١).

وكان عمرو بن سعدىٰ القرظي[1]. قد أبىٰ الدخول مع قومه في نقض العهد، ونصحهم بأن لا يغدروا بمحمد ﷺ ولما حاصرهم الرسول ﷺ خرج في تلك الليلة، فمر بحرس رسول الله ﷺ وعليه محمد بن مسلمة -رضي الله تعالىٰ عنه- فلما رآه قال: من هذا؟ قال: أنا عمرو بن سعدىٰ، فقال محمد بن مسلمة -رضي الله تعالىٰ عنه-حين عرفه: اللهم لا تحرمني إقالة عثرات الكرام، ثم خلىٰ سبيله. فخرج علىٰ وجهه، فبات في مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة تلك الليلة، ثم ذهب، فلم يدرِ أين توجه من الأرض إلىٰ يومه هذا، فذكر لرسول الله ﷺ شأنه، فقال: «ذاك رجل نجاه الله بوفائه»[2].

ثم إن بني قريظة نزلوا علىٰ حكم رسول الله ﷺ فتواثبت الأوس إلىٰ رسول الله ﷺ يلتمسون منه الإحسان إلىٰ حلفائهم بني قريظة -كما أحسن إلىٰ بني قينقاع حلفاء الخزرج- فقال ﷺ: «ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟»، قالوا: بلىٰ، قال: «فذاك إلىٰ سعد بن معاذ»، قالوا: قد رضينا[3].

وفي صحيح البخاري -رحمه الله تعالىٰ- عن أبي سعيد الخدري قال: (نزل أهل قريظة علىٰ حكم سعد بن معاذ -رضي الله تعالىٰ عنه- فأرسل النبي ﷺ إلىٰ سعد -رضي الله تعالىٰ عنه- فأتىٰ علىٰ حمار، فلما دنا من المسجد قال للأنصار: قوموا إلىٰ سيدكم أو خيركم، فقال: «هؤلاء نزلوا علىٰ حكمك». فقال: تقتل مقاتلهم وتسبي ذراريهم، قال: «قضيت بحكم الله. وربما قال بحكم المَلِك»[4].

---

(١) قال ابن حجر في الإصابة (٤/ ٦٣٦) ذكره الطبري والبغوي وابن شاهين وغيرهم في الصحابة: وقال في الصفحة نفسها: إنه خرج ليلة حصار بني قريظة، حتى أتى مسجد النبي ﷺ فبات فيه وأسلم فلما أصبح غدا فلم يُدر أين سلك حتى الساعة فأخبر به النبي ﷺ فقال: «ذاك رجل نجاه الله بصدقه».

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة (٢/ ٢٣٩). والبيهقي، دلائل النبوة (٤/ ٣٢)، وابن حجر، الإصابة (٤/ ٦٣٦).

(٣) ابن هشام، السيرة (٢/ ٢٣٩).

(٤) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٤١١)، (رقم ٤١٢١).

وفي السيرة لابن هشام -رحمه الله تعالىٰ-لما جاء سعد -رضي الله تعالىٰ عنه- قال له قومه من الأوس: (أحسن في مواليك، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتُحسن فيهم، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم. فرجع بعض من كان معه من قومه إلىٰ دار بني عبد الأشهل، فنعىٰ لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد، عن كلمته التي سمع منه)[١].

قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (قالوا: يا سعد إن هؤلاء القوم قد نزلوا علىٰ حكمك وقال: وحكمي نافذ عليهم؟ قالوا: نعم، قال: وعلىٰ المسلمين؟ قالوا: نعم، قال: وعلىٰ من هاهنا وأعرض بوجهه وأشار ناحية رسول الله ﷺ إجلالًا وتعظيمًا، قال: «نعم وعليّ». قال: فإني أحكم فيهم أن يُقْتَلَ الرجالُ وتُسْبَىٰ الذريةُ وتُقْسَمَ الأموالُ، فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات»، وأسلم منهم تلك الليلة نفر قبل النزول. فلما حكم فيهم بذلك أمر رسول الله ﷺ بقتل كل من جرت عليه الموسىٰ منهم، ومن لم يُنبت أُلْحِقَ بالذرية، فحُفر لهم خندق في سوق المدينة وضُرِبَتْ أعناقُهم، ولم يُقتل من النساء أحد، سوىٰ امرأة واحدة كانت طَرحت علىٰ رأس سويد بن الصامت رحىٰ فقتلته[٢].

وورد في حديث جابر بن عبد الله -رضي الله تعالىٰ عنهما- عند الترمذي -رحمه الله تعالىٰ-أن عدد من قتل من بني قريظة أربعمئة مقاتل[٣].

---

(١) ابن هشام، السيرة (٢/ ٢٣٩).

(٢) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ١٣٤-١٣٥)، وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٤/ ١٢١)، وانظر: إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية (ص ٣٧٦ - ٣٧٧).

(٣) الترمذي، سنن الترمذي (٤/ ١٤٤)، (رقم ١٥٨٢). وقال:هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني. وقال ابن كثير -رحمه الله تعالى-: وهم ستمائة أو سبعمائة، والمكثر لهم يقول: كانوا ما بين الثمانمائة والتسعمائة. قلت: وفيما رواه الليث عن أبى الزبير عن جابر أنهم كانوا أربعمائة فالله أعلم: السيرة النبوية (٣/ ٢٣٩).

وأُتِيَ بحُيي بن أخطب وعليه حلة فقاحية[1] قد شقها من كل ناحية قدر أنملة، لئلا يُسلبها، مجموعةٌ يداه إلىٰ عنقه بحبل، فلما نظر إلىٰ رسول الله ﷺ قال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل، ثم أقبل علىٰ الناس، فقال: يا أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله علىٰ بني إسرائيل، ثم جلس فضُرِبَتْ عُنُقُه[2].

الفوائد المستخرجة من غزوة بني قريظة:

الأولىٰ: لقد كان بنو قريظة في ديارهم آمنين، لم يجدوا من الرسول ﷺ إلا الوفاء وحسن التعامل، ومع ذلك خانوا الله والرسول ﷺ في موقف كان أحرج وأصعب المواقف التي مرت بالرسول ﷺ فلم يجتمع جمع علىٰ المدينة لغزوها واستئصال المسلمين فيها مثل الجمع الكبير الزاحف يوم الأحزاب بالسلاح والعدد والعدة والاستعداد لغزوة خاطفة تدخل المدينة، فتعيث فيها قتلًا وأسرًا وسبيًا وانتهاكًا للأعراض والأنفس والأموال.

وكان العهد مع بني قريظة أن يقفوا في صف الرسول ﷺ لكنهم لطبعهم وسوء نيتهم وخبثهم، لم يكتفوا بالتخلي عن الرسول ﷺ بل انضموا إلىٰ حزب العدو، وبدأوا في الترتيب للهجوم معه.

ومن ثم، فإن الجريمة التي ارتكبتها قبيلة بني قريظة ليست جريمة سهلة، ومع ذلك لا يوجد لها أي مسوغ، سوىٰ طبع الخيانة والغدر المتأصل في نفوس أولئك القوم، ولو صنفت الجرائم في عصرنا لجعلت أعظمها علىٰ الإطلاق.

(١) قال السهيلي في الروض الأنف (٦/ ٢٤٠): الحلة: إزار ورداء وأصل تسميتها بهذا إذا كان الثوبان جديدين كما حل طيهما، فقيل له حلة لهذا، ثم استمر عليه الاسم قاله الخطابي. وقوله فقاحية نسبت إلى الفقاح وهو الزهر إذا انشقت أكمته وانضرجت براعيمه وتفتقت أخفيته فيقال له حينئذ فقح وهو فقاح: والمراد أنها كانت تضرب إلى الحمرة.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٣/ ٢٦٠). والبيهقي، دلائل النبوة (٤/ ٢٣).

ولذلك نجد جبريل -عليه السلام- يقول للرسول ﷺ بعد العودة من الأحزاب: (قد وضعت السلاح؟ والله ما وضعناه! فاخرج إليهم. قال: فإلىٰ أين؟ قال: هاهنا. وأشار إلىٰ بني قريظة. فخرج النبي ﷺ إليهم)[1] ويقول الرسول ﷺ للصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة».ثم يحكم فيهم سعد -رضي الله تعالىٰ عنه- بأمر الرسول ﷺ بذلك الحكم الذي مَرَّ، فيقول الرسول ﷺ: «قضيت بحكم الله»[2].

فالمسألة ليست سهلة أبدًا، ويكفي أن نعرف أن الأحزاب كان أكبر تجمع كفري واجه الرسول ﷺ وخيانة بني قريظة أعظم خيانة وقعت، ليس في عهد الرسول ﷺ فقط، بل في التاريخ الإسلامي كله إلىٰ يومنا هذا من حيث توقيتها وخطورتها علىٰ الإسلام وشدة وطأتها ووقعها علىٰ المسلمين. ولذلك كانت فيها هذه المناجزة والقسوة في العقوبة التي تلائمها، وكانت الغزوة بوحي من الله جل شأنه.

الثانية: مبادرة الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- إلىٰ امتثال أمر الرسول ﷺ رغم ما بهم من الجهد والمشقة بعد غزوة الأحزاب، وتوجههم مباشرةً إلىٰ ديار بني قريظة بعد سماع منادي رسول الله ﷺ: لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة، فبادروا إلىٰ الخروج فورًا، امتثالًا لأمر رسول الله ﷺ وهذا هو شأن المسلم، الامتثال للأمر، بل المبادرة إلىٰ امتثال الأمر، وترك التسويف، ينبغي للمسلم فور سماعه لآيات الله -سبحانه وتعالىٰ- أو سماعه لأحاديث رسول الله ﷺ أن يمتثل ما فيها من أمر ويجتنب ما تضمنته من نهي.

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (٥/ ١٤٢) رقم (٤١١٧)، وصحيح مسلم (٣/ ١٣٨٩) رقم (١٧٦٩).

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري (٤/ ٨١)، (رقم ٣٠٤٣) بلفظ «لقد حكمت فيهم بحكم الملك»وصحيح مسلم (٣/ ١٣٨٩)، (رقم ١٧٦٨)من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه، واللفظ له.

لم يكن من طريقة الصحب الكرام عند سماعهم أمر الرسول ﷺ أن يسألوا: هل هو واجب أو مستحب؟ أو عندما يسمعون نهيه عن شيء، أن يقولوا: هل هو مكروه أو محرم؟ بل كانوا يبادرون إلىٰ الامتثال.

ونصوص القرآن الكريم والسنة النبوية بين أيدينا، فينبغي لنا أن نتأسىٰ بتعامل الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- مع النصوص الشرعية، وهذا من أرقىٰ وأسمىٰ أنواع التأسي المشروع بهؤلاء الصحب الكرام. نسأل المولىٰ الكريم أن يهدينا ويعيننا علىٰ كل ما يرضيه عنا، ويرفع منزلتنا عنده سبحانه وتعالىٰ.

الثالثة: خرج الصحابة -رضوان الله تعالىٰ عنهم- إلىٰ بني قريظة، امتثالًا لأمر الرسول ﷺ ودخل وقت الصلاة، فمنهم من صلَّىٰ ومنهم من تمسك بظاهر النص ولم يُصَلِّ إلا بعد وصوله إلىٰ بني قريظة، ولم يعنف الرسول ﷺ أيًا من الفريقين،

وهنا عدة وقفات مهمة:

١- أن الصحابة -رضوان الله تعالىٰ عليهم- اختلفوا في عهد الرسول ﷺ والخلاف إذا كان راجعًا إلىٰ مجرد نقص في العلم، فإن ضرره قليل وعلاجه ممكن، قال تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء:٥٩]، أما الخلاف المؤدي للفتنة والشر، فهو عندما يكون مبنيًا علىٰ الهوىٰ والانتصار لحزب أو طائفة أو شيخ أو مذهب؛ لأن مثل هذا الخلاف لا يبحث أصحابه عن الحق، وإنما يدافعون عن القول الذي صدر من تلك الجهات التي نصبوها، ويأخذون منها الحقائق.

والخلاف الفقهي الفردي لا ينتج عنه تعصب؛ لأن الفرد كثيرًا ما يخالف فلانًا في تلك المسألة ويوافقه في مسألة أخرىٰ، ويخالف من وافقه في المسألة الأولىٰ، ـوتأتي مسألة ثالثة فيتفق الثلاثة علىٰ رأي واحد، ومثل هذا الخلاف دافع للإبداع،

ولا يؤدي إلىٰ تقسيم الأمة إلىٰ فرق متناحرة[1]، بخلاف الأول.

٢- إن كلا الفريقين من الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- مأجور، وفي الحديث، عن عمرو بن العاص -رضي الله تعالىٰ عنه- أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر»[2]. وكل الصحابة -رضي الله تعالىٰ- عنهم قد اجتهدوا، ولم يُعنف الرسول ﷺ أيًّا منهم، قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وفيه أن كل مختلفين في الفروع من المجتهدين مصيب)[3]. وترك الرسول ﷺ تعنيف أي منهم، تصويب لعمل كل منهم، بل فيه تحفيز وترغيب في البحث والاستدلال للوصول إلىٰ الحكم الشرعي؛ لأن الجميع مأجورون.

٣- إن الرسول ﷺ صوب كل فريق في عمله، ولم يصوب ظن كل فريق بخطأ الفريق الآخر، ولذلك يجب عدم الخلط بين المسألتين.

٤- قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (قال السهيلي -رحمه الله تعالىٰ-وغيره: في هذا الحديث من الفقه أنه لا يعاب علىٰ من أخذ بظاهر حديث أو آية، ولا علىٰ من استنبط من النص معنىٰ يخصصه)[4].

٥- هل يعني هذا أن الحق يتعدد؟ الظاهر أن تحرير المسألة أن يقال (إن كان المقصود بالحق الذي يقابل الباطل، فإن الحق لا يمكن أن يتعدد، والحق واحد، أما إن كان المقصود بالحق في نظر الشرع، أي الذي يرضىٰ عنه الشرع، فإن الحق بهذا

(١) انظر: جعفر شيخ إدريس، مناهج التفكير الموصلة للحقائق الشرعية والكونية (الرياض: مركز البيان للبحوث والدراسات) (ص ٥٧-٥٨).
(٢) متفق عليه: صحيح البخاري المطبوع مع الفتح، كتاب الاعتصام، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (١٣/ ٣١٨)، (رقم ٧٣٥٢)، وصحيح مسلم (٣/ ١٣٤٢)، (رقم ١٧١٦).
(٣) فتح الباري (٧/ ٤٠٩)، وانظر السهيلي، الروض الأنف (٦/ ٣٢٥).
(٤) فتح الباري (٧/ ٤٠٩)، وانظر السهيلي، الروض الأنف (٦/ ٣٢٥).

المعنىٰ يتعدد، أي علينا أن نفرق بين الحق في ذاته، وبين ما يعتبره الشرع حقًا يثاب صاحبُه. فالحق في ذاته واحد لا يتعدد، وأما الذي يعتبره الشرع حقًا ويرضىٰ عنه ويثيب عليه فيجوز أن يتعدد. وقد سبقت الإشارة إلىٰ حديث الرسول ﷺ أن الحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد، والله لا يعطي الأجر علىٰ الباطل. ومثل هذا في عصرنا الحاضر، تعدد المذاهب الفقهية الأربعة واختلاف أتباعها، فمع اختلافهم في بعض المسائل، فإن المقلِّد لواحد منها يكون -إن شاء الله تعالىٰ- علىٰ حق، أي: علىٰ عمل شرعي مرضي)[1].

٦- إن ما جرىٰ بين الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- وعدم تعنيف الرسول ﷺ لأي من الفريقين، تقرير لمسألة جواز الوقوف عند النص، أو الأخذ بالمقاصد، فقد اختار بعض الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- الوقوف عند النص، فما صلوا العصر إلا في بني قريظة، ولو خرج الوقت المعروف، واختار فريق آخر من الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- الأخذ بالمقاصد، فبادروا إلىٰ الصلاة، وقالوا: ما أراد الرسول ﷺ منا إلا الحث والإسراع والمبادرة إلىٰ بني قريظة. وهاتان المدرستان قائمتان في المذاهب الفقهية المشهورة الآن. فبعض المذاهب تأخذ بالمقاصد، وبعضها تتمسك بالنص، علىٰ درجات متفاوتة.

٧- إن وجود هاتين المدرستين في الأمة الإسلامية ضروري لصيانة الفقه الإسلامي، ولهذا لا يصح أن توجد خصومة بين هؤلاء وهؤلاء، بل إنهم يتكاملون فيما بينهم، فالمدرسة القائمة علىٰ المقاصد تعطي الفقه المرونة، ومواجهة ما يستجد من نوازل غير معروفة في الزمن السابق، وتُسهِّل الوصول إلىٰ الحكم في النازلة، والمدرسة النصية تحفظ الدين من الانفلات عندما تؤخذ الأحكام من المقاصد بمفردها، إذْ لو غابت المدرسة النصية، لانفلتت المقاصد وأصبحت بلا ضابط، كما هو حاصل ممن وقع في العبث بالدين باسم العمل بالمقاصد دون ضابط من النصوص.

(١) علي الطنطاوي، فتاوى علي الطنطاوي (ص ٥١). مع اختصار يسير.

وكذلك لو غابت المدرسة المقاصدية لوجدنا مشقة في النوازل المستجدة.

ومن ثم، فالمدرستان جناحا طائر لا يمكن أن يطير الطير بدونهما معًا، وعيبُ أصحابِ مدرسةٍ للمدرسة الأخرىٰ، جهلٌ بالمصلحة المشتركة بينهما، بل إن سيْطرة إحدىٰ المدرستين وطغيانها علىٰ المدرسة الأخرىٰ مؤذن بِشَرٍّ كبير، فإذا ساد أصحاب الألفاظ وعزلوا أصحاب المعاني تمامًا، رأيت جمودًا في الفكر وإعناتًا للخلق وضيقًا في الأفق، وإن ساد أصحاب المعاني وعزلوا أصحاب الألفاظ تمامًا، رأيت تفلتًا في النظر، وفَوْرَة لضعيف الآراء وسقيمها[1]. وعبثًا بنصوص التشريع وفرصة مواتية لمفسدي الدين.

ولهذا وجب علىٰ طلاب العلم معرفة فقه الخلاف، والتعامل معه وفق هذا.

الرابعة: إن الملائكة حضرت في غزوة بني قريظة وشاركت في زلزلة العدو وقذف الرعب والخوف في قلوبهم.

الخامسة: موقف أبي لبابة الذي ذهب إلىٰ بني قريظة لأجل أن يستشيروه، فلما وصل إليهم وسألوه أخبرهم أن نزولهم علىٰ حكم الرسول ﷺ يعني الذبح، وقد أدرك وهو في مكانه أن في ذلك خيانةً لله - جل شأنه- ولرسوله ﷺ فذهب وربط نفسه بسارية المسجد حتىٰ نزل قبول توبته.

نأخذ من هذا أن القلوب الحية متىٰ وقعت في الخطأ، عادت سريعًا وأن ابنَ آدمَ خطَّاءٌ وخيرُ الخطَّائِيْنَ التوَّابون، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١]، قال الشيخ السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (ذكر تعالىٰ علامةَ المتقين من الغاوين، وأن المتقي إذا أحس بذنب، ومسه طائف من الشيطان، فأذنب بفعل محرم أو ترك واجبًا، تذكر من أي باب أُتِيَ، ومن أي مدخل دخل الشيطان إليه، وتذكر ما أوجب الله

(١) انظر: أيمن صالح، أهل الألفاظ وأهل المعاني(الخبر: تكوين للدراسات والأبحاث) (ص٣١-٣٢).

عليه، وما عليه من لوازم الإيمان، فأبصر واستغفر الله تعالىٰ، واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح والحسنات الكثيرة، فرد شيطانه خاسئًا حسيرًا، قد أفسد عليه كل ما أدركه منه)[1].

السادسة: في قصة أبي لبابة، تبين لنا مبلغ قوة الإيمان، وتذكر القلب ويقظة الضمير الذي أدرك الخطأ وندم عليه قبل أن يتحرك من مكانه الذي هو فيه، وهذا يدل علىٰ قوة إيمانه وصدق يقينه، وأنها زلة لم تكن بسابقة تفكير، أو تخطيط لها.

السابعة: من نعم الله -جل شأنه- أن فتح باب التوبة لمن وقع في زلة، وسبَق منه خطيئة، والحمد لله رب العالمين، فإن الشخص إذا تاب، تاب الله عليه، بل قد تكون حاله بعد التوبة خيرًا منها قبل الذنب.

الثامنة: في القصة أيضًا صدق التوبة وشدَّة الندم من أبي لبابة -رضي الله تعالىٰ عنه- علىٰ ما سلف، وقوة العزيمة علىٰ تدارك ما مضىٰ، حيث أقدم علىٰ ربط نفسه بالسارية عدة ليالٍ حتىٰ نزلت توبته من الله سبحانه وتعالىٰ.

التاسعة: فضيلة لأبي لبابة -رضي الله تعالىٰ عنه- بتوبة الله عليه جل شأنه، فإن من أعظم النعم علىٰ العبد أن يوفقه للتوبة، وأعظم منها أن يعلم أن الله -جل شأنه- قبل توبته وأقال عثرته.

نقل ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ- عن ابن حاتم -رحمه الله تعالىٰ- بسنده قال: (عن تميم، يعني ابن مالك المقري، قال: سمعت أبا الدرداء -رضي الله تعالىٰ عنه- يقول: (لأن أستيقن أن الله قد تقبل مني صلاة واحدة أحب إلي من الدنيا وما فيها)، إن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧][2].

(١) تفسير السعدي (ص٣١٣).

(٢) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٣/ ٨٥).

العاشرة: وفيه أيضًا محبة الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- بعضهم لبعض، لحرص أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها- علىٰ تبشير أبي لبابة -رضي الله تعالىٰ عنه- بتوبة الله عليه فور معرفتها بذلك في السحر، عندما كان عندها رسول الله ﷺ - كما مر- وأيضًا يدل علىٰ هذه المحبة العظيمة بين الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم جميعًا- فرحهم بهذه التوبة لما سمعوا البشرىٰ من أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها- وهم في المسجد، وتواثبهم ومبادرتهم إلىٰ أبي لبابة -رضي الله تعالىٰ عنه- لفك رباطه.

الحادية عشرة: نستفيد من هذه القصة أيضًا تبشير المسلم لأخيه المسلم بما يسره وبما يستجد له من خير، فإن إدخال السرور علىٰ المسلم قربة وطاعة لله -سبحانه وتعالىٰ- وزيادة في توثيق عرىٰ الأخوة الإسلامية.

الثانية عشرة: أيضًا نأخذ من هذه القصة، واجب النصيحة لله ولرسوله ﷺ ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم، فلا تجوز الخيانة، لا خيانة الله ولا خيانة رسوله ﷺ ولا خيانة كتابه ولا خيانة إمام المسلمين، ولا خيانة عامة المسلمين.

الثالثة عشرة: ومن هذه القصة أيضًا نستفيد أهمية الابتعاد عن مواطن المعاصي، فإن أبا لبابة -رضي الله تعالىٰ عنه- جعل من توبته أن لا يعود مرة أخرىٰ إلىٰ ديار بني قريظة، وهذا مفيد للتائب، فإن من تاب من معصية ينبغي له أن يبتعد عن مواطنها[1]،

(١) ونتذكر بهذا أيضًا حديث الذي قتل تسعًا وتسعين نفسًا، ثم سأل راهبًا هل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، ثم سأل عالمًا فقال له: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا، فإن بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء، فخرج فمات في منتصف الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقاسوا فوجدوا أنه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضه ملائكة الرحمة) والحديث متفق عليه في صحيح البخاري المطبوع مع الفتح الباري (٦/ ٥١٢)، (رقم ٣٤٧٠)، وصحيح مسلم (٤/ ٢١١٨)، (رقم ٢٧٦٦)، فقد نصح العالم هذا الرجل التائب بمغادرة مكان المعصية ومجالسة الصالحين محافظة على توبته.

ومن أهم مواطنها مجالسة أصحاب تلك المعصية، فإن من دلائل صدق التوبة عدم مقاربة أولئك القرناء[١].

الرابعة عشرة: في قول الرسول ﷺ لما جاء سعد بن معاذ: «قوموا إلىٰ سيدكم»، مشروعية احترام أهل الفضل[٢] والأكابر، وتوقيرهم وتقديرهم، سواء كانوا أكابر لمنزلتهم في السن أو في العلم أو الولاية، فيُشْرَعُ القيامُ إلىٰ الكبير والعالم والأمير واحترامهم وتقديرهم.

الخامسة عشرة: ينبغي أن نفرق هنا بين القيام إلىٰ الشخص والقيام للشخص والقيام علىٰ الشخص.

فالقيام إلىٰ الشخص: هو ملاقاته إذا دخل للترحيب به مثلًا أو تهنئته، وذلك مثل ما حصل من طلحة بن عبيد الله لما دخل كعب بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه- إلىٰ المسجد بعد نزول توبة الله عليه، فقد قام طلحة -رضي الله تعالىٰ عنه- إلىٰ كعب -رضي الله تعالىٰ عنه- فصافحه وهَنَّأَه بتوبة الله عليه، كما سيأتي في قصة غزوة تبوك، وهذا القيام لا بأس به، بل مستحب، وقد جاءت به السنة أمرًا وإقرارًا وفعلًا. أما الأمر فقصة سعد بن معاذ هنا، وأما الإقرار فقصة طلحة مع كعب -رضي الله تعالىٰ عنهما- وقد سبقت الإشارة إليها، وأما الفعل فقيامه ﷺ إلىٰ ابنته فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها- لما دخلت عليه[٣].

(١) انظر: أبو شهبة، السيرة النبوية (٢/ ٤٠٨).

(٢) انظر: النووي، شرح صحيح مسلم (١٢/ ٩٣).

(٣) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت ما رأيت أحدا كان أشبه سمتا وهديا ودَلا وقال الحسن حديثا وكلاما ولم يذكر الحسن السمت والهدي والدل برسول الله ﷺ من فاطمة كرم الله وجهها كانت إذا دخلت عليه قام إليها فأخذ بيدها وقبلها وأجلسها في مجلسه وكانت إذا دخل عليها قامت إليه فأخذت بيده فقبلته وأجلسته في مجلسها. أخرجه أبو داود في سننه (٢/ ٧٧٦)، (رقم ٥٢١٧). وقال الشيخ الألباني: صحيح.

والقيام للشخص: وهو أن تقوم للشخص وأنت باقٍ في مكانك لا تتحرك إليه، فهذه الصفة قال الشيخ محمد بن عثيمين -رحمه الله تعالىٰ- فيها: (لا بأس به إذا اعتاده الناس؛ لأنه لم يرد النهي عنه، وإنما النهي والتحذير من الذي يقام له لا من القائم، وإن كان الأولىٰ تركه. فإن من يقام له قال فيه النبي ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أن يتمثَّل له الناسُ قيامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مقعدَه من النار»)[1].

وقال ابن مفلح -رحمه الله تعالىٰ- في الآداب الشرعية: (وقال ابن الجوزي -رحمه الله تعالىٰ- وقد كان النبي ﷺ إذا خرج لا يقومون له، لما يعرفون من كراهته لذلك. أخرجه أحمد والبخاري والترمذي - رحمهم الله تعالىٰ- وإسناده صحيح. وهذا كان شعار السلف ثم صار ترك القيام كالإهوان بالشخص، فينبغي أن يقام لمن يصلح). وكذا قال الشيخ تقي الدين -رحمه الله تعالىٰ- في الفتاوىٰ المصرية: (ينبغي ترك القيام في اللقاء المتكرر المعتاد ونحوه، لكن إذا اعتاد الناس القيام وقدم من لا يرىٰ كرامته إلا به، فلا بأس به، فالقيام دفعًا للعداوة والفساد خير من تركه المفضي إلىٰ الفساد وينبغي مع هذا أن يسعىٰ في الإصلاح علىٰ متابعة السنة)[2].

وقال آخرون إن النهي كما يشمل الذي يقام له، فهو أيضًا يمنع الشخص القيام، وذلك اتباعًا لعادة السلف -رضي الله تعالىٰ عنهم- فما كانوا يقومون في عهد الرسول ﷺ وعهد خلفائه الراشدين، ولما فيه من التعاون علىٰ الخير وعدم فتح باب الشر، قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (ومحصل المنقول عن مالك -رحمه الله تعالىٰ- إنكار القيام ما دام الذي يقام لأجله لم يجلس ولو كان في شغل نفسه، فإنه سُئِلَ عن المرأة تبالغ في إكرام زوجها، فتتلقاه وتنزع عنه ثيابه وتقف حتىٰ يجلس،

(١) أخرجه أبو داود في سننه وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/ ٩٨٢)، (رقم ٤٣٥٧)، وأخرجه الترمذي في سننه، صحيح الترمذي للألباني (٢/ ٣٥٧)، (رقم ٢٢١٢) وانظر: محمد العثيمين، شرح رياض الصالحين (١/ ٢٥٧) و(٤٣٤).

(٢) ابن مفلح، الآداب الشرعية والمنح المرعية، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعمر القيام (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤١٧هـ) (١/ ٤٣٤).

فقال: (أما التلقي فلا بأس به، وأما القيام حتىٰ يجلس فلا، فإن هذا فعل الجبابرة)[1].

أما القيام علىٰ الشخص: وذلك بأن يكون الشخص جالسًا ويقوم شخص أو أكثر علىٰ رأسه تعظيمًا له، فهذا منهي عنه إلا في حالتين:

(أ) إذا دعت الحاجة إلىٰ ذلك؛ كأن يخاف عليه أن يعتدي عليه أحد، فلا بأس أن يقوم عليه القائم، بمعنىٰ أن يكون حارسًا له.

(ب) إذا قام عليه إكرامًا له في حال يقصد فيها إكرامه وإهانة العدو مثل ما حصل من المغيرة بن شعبة في صلح الحديبية حينما كانت قريش تراسل الرسول ﷺ للمفاوضة بينهما[2]. وعندي أن تقسيم ابن عثيمين -رحمه الله تعالىٰ- تقسيم جيد، جامع بين النصوص، واضح في التطبيق والله أعلم.

السادسة عشرة: لما نزل بنو قريظة علىٰ حكم الرسول ﷺ وحكَّم سعدًا -رضي الله تعالىٰ عنه- فيهم، قام الأوس ليشفعوا في بني قريظة؛ بسبب أنهم مواليهم، ولأن عبد الله بن أبي ابن سلول شفع في مواليه من بني قينقاع، فوهبهم الرسول ﷺ له، لكن سعدًا -رضي الله تعالىٰ عنه- أعلنها صريحة، فقال (لقد آن لسعدٍ أن لا تأخذه في الله لومة لائم)، انتهت القبلية والعصبية والموالي وجاءت أخوة الدين لتتقدم علىٰ كل ذلك، فإن كان عبد الله بن أبي ابن سلول فعل ذلك، فسعد بن معاذ -رضي الله تعالىٰ عنه- أعاذه الله أن يكون فيه شبه بمنافق، فضلًا عن زعيم المنافقين، الذي يجامل يهودًا خانوا الله ورسوله وظاهروا الأحزاب في موقف من أشق المواقف علىٰ المسلمين، وكشفوا عن حقيقتهم ونياتهم تجاه المسلمين.

(١) فتح الباري (١١/ ٥٠-٥١)، وللمزيد يرجع إلى ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم (١/ ٣٩٥)، وشرح صحيح مسلم للنووي (١٢/ ٩٣)، وفتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (١/ ١٤٤- ١٤٥)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها للألباني (١/ ٧١ - ٧٥)، حديث (رقم ٣٥٧).

(٢) انظر: محمد بن العثيمين، شرح رياض الصالحين (١/ ٢٥٩-٢٦٠)، وينظر أيضًا: ابن قاسم، الدرر السنية (١٥/ ٣٨٧-٣٨٨).

وكثيرًا ما تمر علىٰ الشخص بعضٌ من مثل هذه المواقف، فلا تنتصر لقبيلة أو عصبية أو قرابة، ولا تأخذك في الله لومة لائم، من قريب أو كبير أو غيره، فالله -جل شأنه- أولىٰ، بل هو الأحق أن يطاع جل شأنه. وهذا درس مهم لنا، فقد اختار الله جل شأنه هذا العمل الصالح ليختم به حياة سعد -رضي الله تعالىٰ عنه- ويهتز عرش الرحمن فرحًا بقدوم هذا العبد الصالح، كما سبق أن ذكرت.

السابعة عشرة: بعد انتهاء الأحزاب وتفرقهم، ولّىٰ أبو سفيان مدبرًا إلىٰ مكة، وولّىٰ عيينة بن حصن إلىٰ دياره كذلك، ومثلهم سائر قادة القبائل العربية الذين انضموا للأحزاب، وكل منهم رضي من الغنيمة بالإياب، لكن كان هناك فئة من الأحزاب، لا مفر لها، ذهب الأحزاب وتركوهم يذوقون وبال الخيانة ونقض العهد.

هكذا وجد بنو قريظة أنفسهم في الميدان وحيدين لا ناصر لهم، وهكذا الكفر والنفاق في كل زمان ومكان يتمالأون إذا وجدوا مصالح لهم، وإذا شعروا بالخطر تخلوا عن من كان معهم، قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر: ١١-١٢]، والآية وإن نزلت في بني النضير، فإن حكمها عام زمانًا ومكانًا، ومن أول من تنطبق عليه، يهود بني قريظة والأحزاب من المشركين في ذلك الوقت.

الثامنة عشرة: لما علم زعيم بني قريظة كعب بن أسد بمجيء حيي بن أخطب إليه، أغلق دونه باب الحصن، مدركًا الأمر الذي يريده، ولكن حيي تدرج به خطوة خطوة حتىٰ فتح له الباب، ثم تدرج بها خطوة خطوة حتىٰ نقض العهد، وهكذا أهل الشر يتدرجون وزعيمهم وسيدهم وقائدهم إبليس، قال الله تعالىٰ محذرًا من طريقته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ [النور: ٢١].

فكن علىٰ حذر من خطوات أهل الشر، واعلم أن الشر والمعصية والزلل المهلك، يبدأ بالخطوة الأولىٰ، فاحذرها. أغلق الباب من أوله تسلم.

التاسعة عشرة: أن ما جرىٰ في الأحزاب لم يكن غائبًا عن زعيم بني قريظة كعب بن أسد، فإنه لما جاءه حيي بن أخطب ودعاه للانضمام للأحزاب أبىٰ أن يفتح له باب الحصن، وبعد إلحاحه فتح له، ولما سمع وُعُودَه، ووصف له جيوش الأحزاب، قال: (جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماؤه يرعد ويبرق وليس فيه شيء، ويحك يا حيي فدعني وما أنا عليه، فإني لم أرَ من محمد إلا وفاءً وصدقًا)[1].

فهو يعرف واقع تجمع الكفار، ويعرف صدق محمد ﷺ ورأىٰ دلائل ذلك عيانًا، لكنه غلبه الطبع، والحسد والحقد؛ فباء بالخسران.

وهذا واقعٌ اليوم، فأعداء هذا الدين يكابرون ويعلمون أن الإسلام هو الدين الحق، وسيحيق بهم -بإذن الله- الأمر الذي حاق بأسلافهم.

العشرون: قول حيي بن أخطب زعيم بني النضير الذي دخل مع بني قريظة في الحصن لما انهزم الأحزاب، وعندما جاء دوره للقتل وإذا به قد لبس حُلة، مزقها كي لا تلبس بعده، ولما رأىٰ الرسول ﷺ قال كلمته المماثلة لكلمة أبي جهل في غزوة بدر: (أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل). نعم، من يخذل الله يخذل، يعرف هذا المعنىٰ العدو، كما عرفه فرعون هذه الأمة أبوجهل الذي ورد أنه قال في بدر هو أو أحد زعماء المشركين في بدر: (إن كنت أقاتل محمدًا فمعي من الرجال ما يكفي لقتال محمد، وإن كنت أقاتل رب محمد فلا طاقة لأحد برب محمد)، فهو عداء عن علم وبصيرة، ناتج عن الحقد والحسد الذي أعمىٰ قلوبهم عن الاستجابة للحق.

ومما يؤيد ذلك أن كعب بن أسد زعيم بني قريظة لما اشتد عليه الحصار، عرض علىٰ قومه الدخول في الإسلام، وقال لهم: (لقد تبين لكم أنه رسول الله حقًا،

---

(١) ابن كثير، السيرة النبوية (٣/ ١٩٨).

فهلم ندخل معه؟)، فأبوا عليه، ولم ينفعه علمه هذا، ولم يدخل في هذا الدين، رغم أنه يعلن أمام قومه أنه يعلم أنه محمد رسولُ الله ﷺ حقًا.

الواحدة والعشرون: قد نجد من يستعظم حكم سعد بن معاذ في بني قريظة[1]، ولكي تتضح الرؤية الكاملة عن هؤلاء القوم وجريمتهم، ويتضح عدالة الحكم الذي صدر فيهم نشير إلىٰ ما يلي:

١. يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وأما قريظةُ فكانتْ أَشَدَّ اليهودِ عداوةً لرسول الله ﷺ وأغلظَهم كفرًا ولذلك جرىٰ عليهم ما لم يَجْرِ علىٰ إخوانهم)[2].

٢. إنهم يعلمون علمًا يقينًا بأن محمدًا رسول الله ﷺ حقًا، وقد أشرت إلىٰ مقالة زعيمهم كعب بن أسد بذلك، فهم مصرون علىٰ الكفر والعناد عن علم، وليس عن جهل.

٣. أن نتذكر ماذا سيحل بالمسلمين من هؤلاء اليهود لو نجح الأحزاب في غزوهم للمدينة، ماذا سيحصل لو تمكن بنو قريظة من مهاجمة المسلمين من ظهورهم والتعدي علىٰ نسائهم وذراريهم؟ إلىٰ أي مدىٰ ستكون الكارثة؟ لا شك أنها ستكون كارثة كبرىٰ فيها الاعتداء علىٰ النساء والذراري، والمسلمون في صفوفهم أمام الأحزاب، وبذلك تتضح الخيانة الكبرىٰ التي وقع فيها بنو قريظة

---

(١) نقل الدكتور أكرم العمري أن بعض الباحثين المعاصرين في مؤتمر السيرة العالمي المنعقد في قطر جنح إلى نفي الروايات المتعلقة بالعقوبات التي واجهتها بنو قريظة وتضعيفها، بزعم أن إثباتها يجرح المشاعر الإنسانية ويخدم الدعاية الصهيونية، ثم علق بقوله: (وليس الأمر كذلك فإن أوثق المصادر الإسلامية قد أثبتت وقوع ذلك ولم تكن العقوبة الشديدة إلا جزاء للخيانة العظمى التي ارتكبها بنو قريظة عندما غدرت بالمسلمين وتبرأت من حلفهم بدل أن تشترك معهم في الدفاع عن المدينة المنورة بموجب نصوص المعاهدة بين الطرفين. وما زالت الدول تحكم بقتل الخونة المتواطئين مع الأعداء حتى في الوقت الحاضر... إلى أن قال: فليس من داع للتنصل من حقائق التاريخ وتكذيب الروايات الصحيحة) السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣١٧).

(٢) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ١٢٩).

وجعلتهم يستحقون هذه العقوبة[1].

٤. إن بني قريظة كانوا مقاتلين واستمرت لهم هذه الصفة إلىٰ آخر لحظة، ولم يكونوا ناكثين للعهد فقط، بل حملوا السلاح وأمدوا الأحزاب بالمؤن وساعدوهم واستمروا علىٰ الحرب، حتىٰ تم نزولهم علىٰ حكم رسول الله ﷺ[2].

٥. إن بعض بني قريظة لم يوافقوا علىٰ النقض، فلم يتم التعرض لهم مثل عمرو بن سعدىٰ القرظي الذي كان معارضًا لنقض العهد مع الرسول ﷺ ولما خرج من الحصن منكرًا فِعْل قومه من بني قريظة، لم يتعرض له أحد من المسلمين بسوء، مما يعني أن العقوبة التي نزلت بهم، ليست لأنهم يهود، كلا، بل لأنهم خونة وغدارون.

٦. إن الفرصة كانت متاحة لهم إلىٰ آخر لحظة ليُسْلِموا، ومع ذلك أصروا علىٰ عنادهم، أما الذين نزلوا من الحصن من بني قريظة، ودخلوا في الإسلام، فقد أصبحوا جزءًا من المجتمع المسلم، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم.

٧. إن بني قريظة كانوا مواطنين مع المسلمين في المدينة، يمثلون جميعًا الوطن الواحد الذي تعاهدوا فيه علىٰ النصرة علىٰ من دهمهم، وعندما جاء الأعداء من الخارج، إذا ببني قريظة -وهم مواطنون في المدينة- يتآمرون ضد أبناء المدينة المسلمين ويرتكبون ثلاث جرائم:

أ. اتصلوا بالعدو ونقلوا له أخبارًا عن المدينة وأهلها.

ب. أمدّوا العدو الغازي بما أمكنهم من عون مادي ومعنوي.

ت. رفعوا السلاح ضد جيش المدينة ونكثوا العهد وأعلنوا استعدادهم لضرب أبناء بلدهم من الخلف في ظرف بالغ الخطورة[3].

(١) انظر: أبو شهبة، السيرة النبوية (٢/ ٤١٠).
(٢) انظر: أبو زهرة، خاتم النبيين (٢/ ٩٤٩).
(٣) انظر: با شميل، غزوة بني قريظة (ص ٢٥٠).

لأجل هذا، فليس غريبًا أن يصدر فيهم هذا الحكم من سعد بن معاذ ويؤيده وينفذه رسول الله ﷺ فتلك جريمة ضد المجتمع المسلم بكامله؛ كبيره وصغيره وضد مؤسساته بل وضد الرسول ﷺ وكفىٰ بها جرمًا.

٨- أن حكم سعد رضي الله عنه هذا هو ما قضىٰ به كتابهم المقدس، يقول محمد أبو شهبة -رحمه الله تعالىٰ- تعليقًا علىٰ حكم سعد -رضي الله تعالىٰ عنه-: (وهو ما قضىٰ به كتابهم المقدس (العهد القديم) في حق العدو المهزوم، ففي سفر التثنية الإصحاح ١٣، فقرة ١٣ و١٤: (وإذا دفعها الرب إلهك إلىٰ يدك، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم، وكل ما في المدينة، كل غنيمتها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك)، وهكذا يتبين لنا أن ما قضىٰ به سعد-رضي الله تعالىٰ عنه-لم يخرج عما حكمت به التوراة، وأيضًا فهم ليسوا أعداءً مهزومين فحسب، بل خائنين وغادرين غير وافين بالعهد)[(١)].

الثانية والعشرون: قال الماردي -رحمه الله تعالىٰ-: (فإن قيل: فقد ضرب رقاب بني قريظة صبراً في يوم واحد، وهم نحو سبعمئة، فأين موضع العفو والصفح، وقد انتقم انتقام من لم يعطفه عليهم رحمة ولا داخلته لهم رقة؟ قيل: إنما فعل ذلك في حقوق الله تعالىٰ، وقد كان بنو قريظة رضوا بتحكيم سعد بن معاذ -رضي الله تعالىٰ عنه- عليهم فحكم أن من جرت عليه الموسىٰ قتل ومن لم تجر عليه استرق، فقال رسول الله ﷺ: «هذا حكم الله من فوق سبعة أرقعة». فلم يجز أن يعفو عن حق وجب الله تعالىٰ عليهم، وإنما يختص عفوه بحق نفسه)[(٢)].

الثالثة والعشرون: بالقضاء علىٰ بني قريظة تخلص المسلمون من آخر شوكة في ظهورهم، وأصبح المجتمع المدني علىٰ قلب واحد إلا فئة من المنافقين، ولقد أنهىٰ

(١) محمد أبو شهبة، السيرة النبوية (٢/ ٤٠٩).

(٢) الماوردي، أعلام النبوة (ص ٢٢٢).

الحكم الذي نُفذ في بني قريظة، قوة اليهود، فأصبحوا بعده أذلة صاغرين، وضعفت حركة النفاق في المدينة، وطأطأ المنافقون رؤوسهم، وجبنوا عن كثير من التصرفات التي كانوا يعلنون بها، بل امتد هذا الذل إلىٰ سائر المشركين من قريش أو عرب الجزيرة، وأصبح موقف المسلمين بعد الأحزاب وقريظة مهيبًا، كلٌ يود مهادنتهم، ويخشىٰ صولتهم عليه.

الرابعة والعشرون: لما أصيب سعد بن معاذ-رضي الله تعالىٰ عنه- في أكحله في غزوة الأحزاب، دعا الله أن لا يميته حتىٰ يقر عينه من بني قريظة، فقد أخرج الإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ- في مسنده عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالىٰ عنهما- أنه قال: (رُمي يوم الأحزاب سعد بن معاذ-رضي الله تعالىٰ عنه- فقطعوا أكحله، فحسمه رسول الله ﷺ بالنار، فانتفخت يده، فحسمه، فانتفخت يده، فحسمه أخرىٰ، فانتفخت يده، فنزفه، فلما رأىٰ ذلك قال: (اللهم لا تخرج نفسي حتىٰ تقر عيني من بني قريظة)، فاستمسك عرقه، فما قطر قطرة حتىٰ نزلوا علىٰ حكم سعد -رضي الله تعالىٰ عنه- فأرسل إليه، فحكم أن تقتل رجالهم، وتستحيا نساؤهم وذراريهم، ليستعين بهم المسلمون، فقال رسول الله ﷺ: «أصبت حكم الله فيهم». وكانوا أربعمئة، فلما فرغ من قتلهم، انفتق عرقه، فمات)[1]. لقد استجاب الله -جل شأنه- دعاء هذا السيد الكبير، وأقر عينه من بني قريظة قبل أن يموت شهيدًا. وقد عاده الرسول ﷺ وهو يجود بنفسه فقال له الرسول ﷺ: «جزاك الله خيرًا من سيد قوم فقد صدقت الله ما وعدته، والله صادقك ما وعدك»[2].

(١) المسند (٢٣/ ٩٠)، (رقم ١٤٧٧٣) وقال محققو المسند: «إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي الزبير، فمن رجال مسلم، وهو وإن لم يصرح بالسماع، فد روى عنه هذا الحديث الليث بن سعد، وروايته عنه محمولة على السماع».

(٢) ابن أبي شيبة، المصنف، تحقيق كمال يوسف الحوت، الطبعة الأولى (الرياض: مكتبة الرشد ١٤٠٩) (٤/ ٢١٦)، (رقم ١٩٤٣٨).

ولما مات -رضي الله تعالىٰ عنه- نزل جبريل -عليه السلام- ليخبر الرسول ﷺ بوفاته، فقد أخرج الحاكم -رحمه الله تعالىٰ- في المستدرك أن سعد بن معاذ -رضي الله تعالىٰ عنه- انفجر جرحه بالليل فمات، فأتىٰ جبريل -عليه الصلاة والسلام- رسول الله ﷺ فقال له: (من هذا الذي فتحت له أبواب السماء واهتز له عرش الرحمن؟ فخرج النبي ﷺ إلىٰ سعد فوجده قد مات)[1].

قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (حدثنا عبد الأعلىٰ -رحمه الله تعالىٰ- عن عبيد الله بن عمر -رحمه الله تعالىٰ- عن نافع -رحمه الله تعالىٰ- عن ابن عمر -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد هبط يوم مات سعد بن معاذ -رضي الله تعالىٰ عنه- سبعون ألف ملك إلىٰ الأرض، لم يهبطوا قبل ذلك»[2].

وقد أشرت إلىٰ شيء من فضائل هذا السيد الكبير عند الحديث عن فوائد غزوة الأحزاب، لكن تكرار الحديث عن مثله محفز للعمل الصالح، إذْ كيف بلغ هذه المنزلة العظيمة عند الرسول ﷺ في الأرض، وهذا الاحتفاء من الملائكة، والاستقبال في السماء، واهتز عرش الرحمن فرحًا بقدومه هذا الضيف العظيم، كل ذلك كان نتيجة عمله في سبع سنوات فقط، هي عُمره منذ أسلم إلىٰ أن مات -رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه- وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده، والله ذو الفضل العظيم، أسأل الله العظيم من فضله.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٢٧) رقم (٤٩٢١). من حديث عبد الله بن كعب بن مالك، ولم يتعقبه الذهبي، وأخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار من حديث جابر بن عبد الله (١٠/ ٣٦٨) رقم (٤١٧٣).

(٢) ابن كثير، البداية والنهايةتحقيق التركي (٦/ ١٠٢) وقال: وهذا إسناد جيد لكن قال البزار: رواه غيره، عن عبيد الله، عن نافع مرسلا.

الفصل السابع

فقه السيرة من قوله -تعالىٰ-:

﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾

إلىٰ قول الله -تعالىٰ-:

﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾

مقدمة

يبدأ هذا الفصل بهذا الفتح المبين، الذي بشر الله - جل شأنه- نبيه ﷺ به في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، وذلك بخروج الرسول ﷺ معتمرًا، وتحول بتدبير الكريم -سبحانه وتعالىٰ- إلىٰ كتابة صلح الحديبية، واعتراف قريش بالدولة الإسلامية الجديدة، والإذن لمن يشاء من القبائل العربية الدخول في تحالف معها، والإقرار بهذا الكيان، وإنهاء حالة الاقتتال والسماح بالتلاقي وسماع ما لدىٰ المسلمين من دعوة إلىٰ الله يحملونها للناس.

ونشط الرسول ﷺ بعدها إلىٰ مراسلة الملوك والأمراء يدعوهم إلىٰ الله -جل شأنه- وتملك المسلمون زمام المبادرة، فغزوا اليهود في عقر دارهم، وآخر معقل لهم في الجزيرة وهو خيبر، وأرغموهم علىٰ كتابة صلح مع الرسول ﷺ سلموه بموجبه مدينتهم ومزارعهم، وأصبحوا فلاحين عنده.

ووجه الرسول ﷺ جيشه إلىٰ شمال الجزيرة، مما يعتبر بداية لفتوحات عظيمة، أدت فيما بعد إلىٰ فتوح العراق والشام وفارس.

ولا ينتهي الفصل إلا مع استعداد الرسول ﷺ لدخول مكة وإنهاء سلطة كفار قريش فيها، بعد أن بلغه أنباء نقض قريش للصلح المكتوب بين الطرفين.

فأول الباب الفتح المبين وآخره أيضًا استعداد لفتح عظيم قوض به آخر معقل وأكبر معقل للشرك في الجزيرة.

وقد جاء تقسيم هذا الباب علىٰ النحو التالي:

المبحث الأول: فقه السيرة في صلح الحديبية.

المبحث الثاني: فقه السيرة في رسائل النبي ﷺ إلىٰ الملوك والأمراء يدعوهم إلىٰ الله جل شأنه.

المبحث الثالث: فقه السيرة في غزوة خيبر.

المبحث الرابع: فقه السيرة في غزوة ذات الرقاع.

المبحث الخامس: فقه السيرة في عمرة القضاء.

المبحث السادس: فقه السيرة في غزوة مؤتة.

والحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول

فقه السيرة في صلح الحديبية

خرج رسول الله ﷺ في مستهل ذي القعدة سنة ست من الهجرة النبوية الشريفة[١]، معلنًا أنه يريد العمرة، بعد أن استنصر الرسول ﷺ العربَ ومن حوله من البوادي والأعراب، ليخرجوا معه وهو يخشىٰ من قريش أن يعرضوا له بحرب، أو يصدوه عن البيت، فأبطأ عليه كثير من الأعراب[٢]، فخرج رسول الله ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار وبمن لحق به من العرب وساق معه الهدي، وأحرم بالعمرة، ليأمن الناس من حربه، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائرًا لهذا البيت، مُعَظِّمًا له[٣].

وكان رسول الله ﷺ قد رأىٰ في منامه عند خروجه إلىٰ العمرة أنه يطوف بالبيت هو وأصحابه، بعضهم محلقون وبعضهم مقصرون[٤]. وأخبر أصحابه بذلك، فاستبشروا بذلك.

(١) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٢٨٦)، والعيني، عمدة القاري (١٤/ ٦).

(٢) قال السيوطي رحمه الله تعالى في الدر المنثور (٧/ ٥١٨): (وَأخرج عبد بن حميد وَابْن جرير وَابْن الْمُنْذر وَالْبَيْهَقِيّ فِي الدَّلَائِل عَن مُجَاهِد رَضِي الله عَنهُ فِي قَوْله: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ قَالَ: أَعْرَاب الْمَدِينَة جُهَيْنَة وَمُزَيْنَة استنفرهم لِخُرُوجِهِ إِلَى مَكَّة فَقَالُوا: نَذْهَب مَعَه إِلَى قوم جاؤه فَقتلُوا أَصْحَابه فَنُقَاتِلهُمْ فِي دِيَارهمْ فَاعْتَلُّوا لَهُ بِالشغلِ..... وأخرج عبد بن حميد وَابْن جرير عَن قَتَادَة رَضِي الله عَنهُ ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾ قَالَ: ظنُّوا بِنَبِي الله ﷺ وَأَصْحَابه أَنهم لن يرجِعوا من وجههم ذَلِك وَأَنَّهُمْ سيهلكون فَذَلِك الَّذِي خَلفهم عَن نَبِي الله ﷺ وهم كاذبون بِمَا يَقُولُونَ).

(٣) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٤/ ١٦٤-١٦٥)

(٤) ابن جزي، التسهيل (٢/ ٣٩١).

وبعث بين يديه عينًا له من خزاعة يخبره عن قريش حتىٰ إذا كان بعسفان لقيه عينه بسر بن سفيان الكعبي، فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العوذ(١) المطافيل(٢) قد لبسوا جلود النمور وقد نزلوا بذي طوىٰ يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم أبدًا، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموا إلىٰ كراع الغميم، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش، لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس، فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا، قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش، والله إني لا أزال أجاهدهم علىٰ الذي بعثني الله له، حتىٰ يظهره الله له أو تنفرد هذه السالفة»(٣).

فاستشار النبي ﷺ أصحابه وقال: «أترون أن نميل إلىٰ ذراري هؤلاء الذين أعانوهم؟ أم ترون أن نؤم البيت، فمن صدنا عنه قاتلناه؟»، قال أبو بكر -رضي الله عنه-: الله ورسوله أعلم، إنما جئنا معتمرين ولم نجئ لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقال النبي ﷺ: «فروحوا إذًا»(٤) ثم قال: «من رجل يخرج بنا علىٰ طريق غير طريقهم التي هم بها؟». فقال رجل من أسلم: أنا يا رسول الله، فسلك بهم طريقًا وعرًا، فلما خرجوا منه وقد شق ذلك علىٰ المسلمين، فأفضوا إلىٰ أرض سهلة عند منقطع الوادي(٥) وصلىٰ الرسول ﷺ بأصحابه بعسفان صلاة الخوف(٦).

---

(١) العوذ: جمع عائذ وهي الناقة ذات اللبن.

(٢) المطافيل: الأمهات اللاتي معهن أطفالهن، يقصد أنهم خرجوا بذوات اللبن؛ ليتزودوا بألبانها فلا يرجعوا. انظر: الشامي، سبل الهدى (٥/ ١٣١).

(٣) مسند الإمام أحمد (٣١/ ٢١٢)، (رقم ١٨٩١٠) إسناده حسن.

(٤) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٢٨٩).

(٥) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٣/ ٣٥٧).

(٦) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٤٢٣).

فلما رأت خيل قريش قترة[1] الجيش قد خالفوا عن طريقهم، رجعوا راكضين إلىٰ قريش[2].

وخرج رسول الله ﷺ حتىٰ إذا سلك ثنية المرار بركت ناقته، فقال الناس: خلأت القصواء[3]، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت وما هو لها بخلق[4] ولكن حبسها حابس القيل» ثم قال: «والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها» ثم زجرها، فوثبت به فعدل حتىٰ نزل بأقصىٰ الحديبية علىٰ ثمد[5] قليل الماء، فلم يلبث الناس أن نزحوه فشكوا ذلك إلىٰ رسول الله ﷺ فانتزع سهمًا من كنانته، فأعطاه رجلًا من أصحابه، فنزل به في قليب من تلك القلب، فغرزه في جوفه، فجاش بالرواء حتىٰ ضرب الناس عنه بعطن.

---

(١) قترةتعلوها وتغشاها، قال ابن زيد في الفرق بين الغبرة والقترة، أن القترة ما ارتفع من الغبار، فلحق بالسماء والغبرة ما كان أسفل في الأرض، قال تعالى ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ تفسير البغوي (٨/ ٧٤٠).

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٣/ ٣٥٧).

(٣) قال الخطابي في معالم السنن (٢/ ٣٢٧): «والقصواء اسم ناقته وكانت مقصوة الأذن وهو أن يقطف طرفًا من الأذن يقال ناقة قصواء ولم يقولوا جمل أقصى ومعناه المقصوة جاء بلفظ فاعل ومعناه مفعول». وقال السمرقندي في تفسيره بحر العلوم (٣/ ٢٥١): «(خلأت) أي: صارت حرونا. ومعنى (حرن) أي: إذا طُلب منه المشي وقف».

(٤) قال الخطابي في معالم السنن (٢/ ٣٢٧-٣٢٨): «وقوله ما خلأت ولكن حبسها حابس الفيل يريد أن الخِلاء لم يكن لها بخلق فيما مضى ولكن الله حبسها عن دخول مكة كما حبس الفيل حين جاء به أبرهة الحبشي يريد هدم الكعبة واستباحة الحرم، ويشبه أن يكون المعنى في ذلك وفي التمثيل بحبس الفيل أن أصحابه لو دخلوا مكة لوقع بينهم وبين قريش قتال في الحرم وأريق فيه دماء وكان منه الفساد والفناء، ولعل الله سبحانه قد سبق في علمه ومضى في قضائه أنه سيسلم جماعة من أولئك الكفار في غابر الزمان وسيخرج من أصلابهم قوم مؤمنون يعبدون الله ويوحدونه فلو استبيحت مكة وأتى القتل عليهم لانقطع ذلك النسل ولبطلت تلك العواقب».

(٥) قال الخطابي في معالم السنن (٢/ ٣٢٨): «(الثمَد): الماء القليل، ويقال: (ماء مثمود) إذا كثر عليه الشفاه حتى يفنى وينزف».

فلما اطمأن رسول الله ﷺ أتاه بديل بن ورقاء في رجال من خزاعة، فكلموه وسألوه ما الذي جاء به؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حربًا، وإنما جاء زائرًا للبيت ومعظِّمًا لحرمته، فرجعوا إلىٰ قريش فأخبروهم، فما قبلوا منهم، فبعثوا إليه مكرز بن حفص، فلما رآه الرسول ﷺ مقبلًا قال: «هذا رجل غادر»، فلما انتهىٰ إلىٰ الرسول ﷺ وكلَّمه، قال له مثلما قال لبديل، فرجع إلىٰ قريش فأخبرهم، ثم بعثوا بالحليس بن علقمة وكان سيد الأحابيش، فلما رآه الرسول ﷺ مقبلًا قال: «هذا من قوم يَتَأَلَّهُوْنَ فابعثوا الهدي في وجهه حتىٰ يراه». فلما رأىٰ الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده، رجع إلىٰ قريش ولم يصل إلىٰ رسول الله ﷺ إعظامًا لما رأىٰ، فقال لهم ذلك، فقالوا: اجلس إنما أنت أعرابي، ثم بعثوا عروة بن مسعود الثقفي، فخرج حتىٰ أتىٰ رسول الله ﷺ فجلس بين يديه، ثم قال: أجمعت أوباش[1] الناس؟ ثم جئت بهم إلىٰ بيضتك، لتفضها بهم، وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا غدا عنك، قال أبو بكر الصديق -رضي الله عنه-: (امصص بظر اللات أنحن نفر عنه)، فقال: من هذا يا محمد؟ قال: «هذا ابن أبي قحافة». قال: قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك. قال: وجعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه والمغيرة بن شعبة-رضي الله تعالىٰ عنه-واقف علىٰ رأس رسول الله ﷺ في الحديد، فجعل يقرع يده عندما يتناول لحية رسول الله ﷺ ويقول: اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليك، فقال عروة: من هذا؟ قالوا: هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة، قال أي غدر، وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس؟[2].

وكان عروة يرقب ما يصنع الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- لا يتوضأ الرسول ﷺ إلا ابتدروا الوضوء ولا يبصق بصاقًا إلا ابتدروه ولا يسقط من شعره

---

(١) قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١٤٦): (الأوباش: جموع من قبائل شتى. وهم الأوباش والأوشاب).

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٣/ ٣٦٢)، و ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ٣٣١).

شيء إلا أخذوه، فرجع إلىٰ قريش، فقال: يا معشر قريش، إني قد جئت كسرىٰ في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكًا في قومه قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قومًا لا يسلمونه لشيء أبدًا، فروا رأيكم[1].

ودعا رسول الله ﷺ خراش بن أمية الخزاعي، فبعثه إلىٰ قريش وحمله علىٰ بعير له يقال له: الثعلب، ليبلغ أشرافهم عن ما جاء به، فعقروا به جمل رسول الله ﷺ وأرادوا قتله، فمنعه الأحابيش فخلوا سبيله[2].

فدعا الرسول ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ، ليبعثه إليهم، فاعتذر لعدم وجود قوم له ينصرونه، وأشار إلىٰ عثمان بن عفان رضي الله عنه، فبعثه رسول الله ﷺ وقال: «أخبرهم إنا لم نأتِ لقتال، وإنما جئنا عمارًا، وادعهم إلىٰ الإسلام»، وأمره أن يأتي رجالًا بمكة مؤمنين، فيبشرهم بالفتح، فانطلق عثمان، فمر علىٰ قريش ببلدح، فأخبرهم وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص، فذهب به وأسرج له فرسه وحمله عليه وأجاره. وقال بعض المسلمين قبل أن يرجع عثمان –رضي الله تعالىٰ عنه–: خلص عثمان قبلنا إلىٰ البيت وطاف به، فقال رسول الله ﷺ: «ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون»، فقالوا: وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص إليه؟ قال: «ذلك ظني به ألا يطوف بالكعبة حتىٰ نطوف معه»[3].

وبلغ رسولَ اللهِ ﷺ أن عثمان –رضي الله تعالىٰ عنه– قد قُتِلَ، فدعا إلىٰ البيعة، فثار المسلمون إلىٰ رسول الله ﷺ تحت الشجرة، فبايعوه، فأخذ الرسول ﷺ بيد نفسه وقال: «هذه عن عثمان» ولم يتخلف عن البيعة إلا الجد بن قيس[4].

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٣/ ٣٦٢-٣٦٣).
(٢) انظر: المرجع السابق.
(٣) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٢٩١).
(٤) انظر: صحيح الإمام مسلم (٣/ ١٤٨٣)، (رقم ١٨٥٦).

ولما تمت البيعة، رجع عثمان -رضي الله تعالىٰ عنه- فقال المسلمون: اشتفيت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت، قال: بئس ما ظننتم بي، والذي نفسي بيده لو مكثت بها سنة ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية، ما طفت بها حتىٰ يطوف بها رسول الله ﷺ ولقد دعتني قريش إلىٰ الطواف بالبيت، فأبيت فقال المسلمون: رسول الله كان أعلمنا بالله وأحسننا ظنًا.

ولما علمت قريش بما جرىٰ من البيعة داخلها الخوف، فبعثت سهيل بن عمرو، وقالوا: ائتِ محمدًا وصالحه ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تتحدث العرب أنه دخلها عنوة أبدًا.

فأتاه سهيل بن عمرو، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلًا قال: «قد سهل لكم من أمركم» وقال: «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل»، فلما انتهىٰ إلىٰ الرسول ﷺ تكلم سهيل وأطال وتراجعا، ثم جرىٰ بينهما الصلح، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر، فأتىٰ أبا بكر، فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟ قال: بلىٰ! قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: بلىٰ! قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلىٰ! قال: فعلامَ نعطىٰ الدنية في ديننا؟ فقال أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-: يا عمر الزم غرزه، فإني أشهد أنه رسول الله، قال عمر -رضي الله تعالىٰ عنه-: وأنا أشهد أنه رسول الله، ثم أتىٰ رسول الله، فقال: يا رسول الله، ألست برسول الله؟ قال: بلىٰ، أَوَ لسنا بالمسلمين؟ قال: بلىٰ، قال أَوَ ليسوا بالمشركين؟ قال: بلىٰ، قال: فعلامَ نعطي الدنية في ديننا؟ قال: «أنا عبد الله ورسوله لا أخالف أمره ولن يضيعني»، وكان عمر يقول: (ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذٍ مخافة كلامي الذي قلته يومئذٍ حتىٰ رجوت أن يكون خيرًا..).

ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: «اكتب باسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: لا أعرف هذا ولكن اكتب: باسمك اللهم، فقال رسول الله ﷺ:

«اكتب باسمك اللهم»، فكتبها، قال: «ثم اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمر»، فقال سهيل: لو شهدتُ أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب: اسمك واسم أبيك، فقال رسول الله ﷺ: «اكتب هذا ما صالح عليه محمدٌ بن عبد الله سهيلَ بن عمرو، اصطلحا علىٰ وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض، علىٰ أنه من أتىٰ محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه، وأن بيننا عيبة مكفوفة[1] وأنه لا إسلال[2] ولا إغلال[3] وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل»، فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم.

وكان من ضمن الشروط أن يرجع الرسول ﷺ عامه هذا، فإذا كان عام قابل خرجت قريش، فدخلها الرسول ﷺ بأصحابه ثلاثة أيام ليس معهم سوىٰ سلاح الراكب.

وأخرج الإمام مسلم -رحمه الله تعالىٰ- في صحيحه عن أنس بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه- أن قريشًا صالحوا النبي ﷺ فيهم سهيل بن عمرو فقال النبي ﷺ لعلي -رضي الله تعالىٰ عنه-: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» قال سهيل: أما باسم الله، فما ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم ولكن اكتب ما نعرف باسمك اللهم، فقال ﷺ: «اكتب من محمد رسول الله»، قالوا لو علمنا أنك رسول لاتبعناك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال النبي ﷺ: «اكتب من محمد بن عبد الله»، فاشترطوا علىٰ النبي ﷺ أن من جاء منكم لم نرده عليكم ومن جاءكم منا رددتموه علينا. فقالوا: يا رسول الله،

---

(١) أي: صدر صاف خال من الغل والخداع مطوي على نية الوفاء بالصلح، والمكفوفة أي المسرجة المشدودة، ابن الأثير، النهاية (٣/ ٣٢٧).

(٢) أي: لا سرقة.

(٣) أي: لا خيانة.

أنكتب هذا؟ قال: «نعم، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجًا ومخرجًا»[1].

وفي صحيح البخاري -رحمه الله تعالىٰ- أن سهيلاً قال في المفاوضة في الصلح: فقال سهيل: (وعلىٰ أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان علىٰ دينك إلا رددته إلينا)[2].

وبينما يكتب الرسول ﷺ الكتاب مع سهيل، إذ جاء أبو جندل -رضي الله تعالىٰ عنه- وهو ابن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد قد انفلت إلىٰ رسول الله ﷺ فلما رأىٰ سهيل ابنه أبا جندل، قام إليه، فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه وقال: هذا أول ما قاضيتك عليه يا محمد، فأراد الرسول ﷺ من سهيل أن يدعه، فلم يقبل، فقال الرسول ﷺ: «يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معكم من المستضعفين فرجًا ومخرجًا وإنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا وأعطيناهم علىٰ ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم».

فزاد هذا الموقف غم المسلمين وحزنهم لما رأوا أنهم لن يدخلوا مكة ورأوا أبا جندل وهو يُجر من أيديهم لا يستطيعون نصرته وقد وصل إلىٰ أيديهم.

فلما فرغ رسول الله ﷺ من الصلح قال: «قوموا، فانحروا، ثم احلقوا»، فما قام رجل منهم، فقام ودخل علىٰ أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها- فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها-: اخرج ثم لا تكلم أحدًا منهم حتىٰ تنحر بُدْنَك وتدعو حالقك فيحلقك، فقام فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتىٰ فعل ذلك، نحر بُدْنَه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأىٰ الناس ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتىٰ كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًا[3].

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٤١١)، (رقم١٧٨٤).
(٢) صحيح البخاري (٣/ ١٩٦)، (رقم ٢٧٣١) ط السلطانية من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه.
(٣) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٢٩٥). وقد أورد البخاري -رحمه الله تعالى - في صحيحه المطبوع مع الفتح قصة غزوة الحديبية(٥/ ٣٢٩)، الحديث (رقم ٢٧٣١ و ٢٧٣٢).

وكان منهم من حلَق ومنهم من قصَّر، فقال رسول الله ﷺ: «يرحم الله المحلِّقين»، قالوا: والمقصِّرين؟ قال: «يرحم الله المحلِّقين، ثم قال في الثالثة والمقصِّرين»[(١)].

وكان الرسول ﷺ قد ساق في هديه جملًا في رأسه برة من فضة كان لأبي جهل من غنائم بدر، وذلك ليغيظ المشركين[(٢)].

قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (كان رسول الله ﷺ قد أُري في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك علىٰ أن يعودوا من قابل، وقع في نفوس بعض الصحابة- رضي الله تعالىٰ عنهم- من ذلك شيء، حتىٰ سأل عمر بن الخطاب-رضي الله تعالىٰ عنه- في ذلك، فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلىٰ، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟» قال: لا. قال: «فإنك آتيه ومطوف به». وبهذا أجاب الصديقُ-رضي الله عنه-أيضًا حذو القذة بالقذة[(٣)].

ثم انصرف رسول الله ﷺ من وجهه ذلك قافلًا حتىٰ إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾. ثم قال الله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ

(١) انظر: الخلاف في تاريخ هذا الدعاء في فتح الباري لابن حجر (٣/ ٥٦٢-٥٦٤) وخاصة قوله (ص ٥٦٤) عن هذا الدعاء: (ثم قال النووي - رحمه الله تعالى -: لا يبعد أن يكون وقع في الموضعين انتهى، وقال عياض- رحمه الله تعالى - كان في الموضعين وكذا قال ابن دقيق العيد- رحمه الله تعالى - أنه الأقرب، قلت: بل هو المتعين لتظاهر الروايات بذلك في الموضعين كما قدمنا إلا أن السبب في الموضعين مختلف) أي الحديبية وحجة الوداع.

(٢) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٤/ ١٧٠).

(٣) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٧/ ٣٥٦).

﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾ [الفتح:١٨] إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾ [الفتح: ٢١].

قال ابن كثير -رحمه الله- في تفسيره: (نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلىٰ المسجد الحرام ليقضي عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك، ثم مالوا إلىٰ المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل، فأجابهم إلىٰ ذلك)(١).

قال ابن عطية -رحمه الله تعالىٰ-: (ولما نزلت هذه الآية، ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا﴾ [الفتح:٢٧]. علم المسلمون أن تلك الرؤيا ستخرج فيما يستأنفون من الزمن، واطمأنت قلوبهم بذلك وسكنت، فخرجت في العام المقبل، خرج رسول الله ﷺ إلىٰ مكة في ذي القعدة سنة سبع، ودخلها ثلاثة أيام هو وأصحابه، وصدقت رؤياه ﷺ)(٢).

ولما رجع ﷺ إلىٰ المدينة جاءه أبو بصير -رضي الله تعالىٰ عنه- رجل من قريش مسلمًا، فأرسلوا في طلبه رجلَيْنِ، وقالوا: العهد الذي جعلت بيننا، فدفعه إلىٰ الرجلَيْنِ، فخرجا به حتىٰ إذا بلغوا ذا الحليفة نزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير -رضي الله تعالىٰ عنه- لأحد الرجلين: والله إني لأرىٰ سيفك هذا جيدًا، فاستله الآخر فقال: أجل والله إنه لجيد، فقال أبو بصير -رضي الله تعالىٰ عنه-: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه، حتىٰ برد، وفر الآخر يعدو حتىٰ بلغ المدينة، فدخل المسجد فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأىٰ هذا ذعرًا»، فلما انتهىٰ إلىٰ النبي ﷺ قال: قُتل والله صاحبي وإني لمقتول، فجاء أبو بصير -رضي الله تعالىٰ عنه- فقال: يا نبي الله،

(١) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٧/ ٣٢٥)، وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٣/ ٣٧٠).
(٢) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد الله الأنصاري وزملاؤه، الطبعة الأولى (طبع على نفقة أمير قطر الشيخ خليفة آل ثاني ١٤٠٩هـ) (١٣/ ٤٧١).

قد والله أوفىٰ الله ذمتك، وقد رددتني إليهم، فأنجاني الله منهم، فقال النبي ﷺ: «ويل أمه مسعر[١] حرب لو كان له أحد»، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتىٰ أتىٰ سيف البحر وينفلت أبو جندل بن سهيل -رضي الله تعالىٰ عنه- فلحق بأبي بصير رضي الله تعالىٰ عنه، فلا يخرج رجل من قريش وقد أسلم إلا لحق بأبي بصير -رضي الله تعالىٰ عنه- حتىٰ اجتمعت منهم عصابة، فواللهِ لا يسمعون بعير لقريش خرجت إلىٰ الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلىٰ النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما يرسل إليهم، فمن آتاه منهم فهو آمن[٢].

الفوائد المستخرجة من صلح الحديبية:

قبل أن أبدأ الحديث عن الفوائد أذَكِّر بما نقله الحلبي -رحمه الله تعالىٰ- في السيرة الحلبية، أن أبا بكر الصديق-رضي الله تعالىٰ عنه-قال: (ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية، ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد ﷺ وربه، والعباد يعجلون والله لا يعجل لعجلة العباد، حتىٰ تبلغ الأمور ما أراد)[٣].

ويقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- عن الحِكَم التي تضمنها هذا الصلح: (وهي أكبر وأجل من أن يحيط بها إلا الله الذي أحكم أسبابها، فوقعت الغاية علىٰ الوجه الذي اقتضته حكمته وحمده)[٤].

وصلح الحديبية مليء بالحكم والفوائد، ولقد كتب عنها هذا الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- وأطال في زاد المعاد، وكتب عنها الإمام المجدد محمد بن

(١) قال الخطابي في معالم السنن (٢/ ٣٣٣): (يقال: فلان مسعر حرب، إذا كان أول من يوقد نارها ويصلى حرها، من قولك سعرت النار إذا أوقدتها).

(٢) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٢٩٦- ٢٩٧)، وقد أورد البخاري – رحمه الله تعالى – في صحيحه المطبوع مع الفتح قصة غزوة الحديبية (٥/ ٣٢٩)، الحديث (رقم ٢٧٣١ و٢٧٣٢).

(٣) الحلبي، السيرة الحلبية (٣/ ٤١). والزرقاني، شرح الزرقاني على المواهب (٣/ ٢٠٧).

(٤) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٣٠٩).

عبد الوهاب -رحمه الله تعالىٰ- مبحثًا مستقلًا[1] أوصل فيه الفوائد إلىٰ مائة وتسع وثلاثين فائدة، وهنا أوجز مجموعة من الفوائد المستخرجة من هذا الصلح المبارك:

الأولىٰ: قرار الرسول ﷺ بالذهاب إلىٰ مكة معتمرًا وإعلانه ذلك ودعوته الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- والعرب للمشاركة يدل علىٰ ما كانت عليه القوة الإسلامية من مكانة في جزيرة العرب، ويقابل ذلك مكانة قريش التي لم يعد يرىٰ الرسول ﷺ لها اعتبارًا، ويذهب إليهم في عقر دارهم، كل هذا يدل علىٰ أن قريشًا بعد ما جرىٰ في الأحزاب، لم تكن ذات قوة يحسب لها، وإلا لما أقدم الرسول ﷺ بالذهاب إليهم في ديارهم، خصوصًا أن المدة قصيرة جدًا بين الأحزاب والحديبية.

الثانية: من بعث بُسر بن سفيان وكان مشركًا عينًا له، يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (الاستعانة بالمشرك المأمون في الجهاد جائزة عند الحاجة؛ لأن عينه الخزاعي كان كافرًا إذ ذاك، وفيه من المصلحة أنه أقرب إلىٰ اختلاطه بالعدو، وأخذه أخباره)[2].

وقال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- عنه: (وفيه جواز استنصاح بعض المعاهدين وأهل الذمة إذا دلّت القرائن علىٰ نصحهم وشهدت التجربة بإيثارهم أهل الإسلام علىٰ غيرهم ولو كانوا من أهل دينهم، ويستفاد منه جواز استنصاح بعض ملوك العدو استظهارًا علىٰ غيرهم ولا يُعَدُّ ذلك من موالاة الكفار ولا موادة أعداء الله، بل من قبيل استخدامهم وتقليل شوكة جمعهم وإنكاء بعضهم ببعض ولا يلزم من ذلك جواز الاستعانة بالمشركين علىٰ الإطلاق)[3] وكل هذا مبني علىٰ أن بسر كان

(١) ملحق المصنفات ضمن مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى، وهناك بحث بعنوان كيف كان صلح الحديبية فتحا مبينا، كتبه محمد بن إبراهيم أبا الخيل، منشور في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عدد (٤٢) شهر ربيع الآخر ١٤٢٤.

(٢) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٣٠١)، وانظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن الكريم (٨/ ٩٩)، وابن حجر، تلخيص الحبير (٤/ ١٠١)، والنووي، شرح صحيح مسلم (١٢/ ١٩٩).

(٣) ابن حجر، فتح الباري (٥/ ٣٣٨)، وانظر: الشوكاني، نيل الأوطار (٨/ ١٩٠) حيث قال: (وإن الاستعانة بالمشرك الموثوق به في أمر الجهاد جائزة للحاجة؛ لأن عينه الخزاعي كان كافرًا).

مشركًا، وأما علىٰ القول بأنه كان مسلمًا فلا مدخل لهذه الفائدة هنا[1].

الثالثة: موقف المنافقين الذين كانوا يخذلون ويقولون ﴿لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أي أنهم يقولون لن يرجع الرسول ﷺ والصحابة من سفرهم هذا، إذًا ستبيدهم قريش وتقتلهم[2]، إذْ كيف يخرج محمد ﷺ دون سلاح إلىٰ أعدائه في ديارهم، وهو قد خرج منها خائفًا، وكانت قريش أعلنت عن جائزة قدرها مائة من الإبل لمن يأتي به حيًا أو ميتًا، وهم قد جاءوا إليه في المدينة بجيوشهم يحاربونه، وهم أكثر عددًا وعدة.

بل تجاوز المنافقون والأعراب التخذيل إلىٰ أن زُيِّن هذا الأمر لهم ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: زين لكم الشيطان فكرة أن الرسول ﷺ والمؤمنين لن يعودوا إلىٰ المدينة، فإن قريشًا ستقضي عليهم وتنهي وجودهم[3]. وكان أمرًا محببًا إليكم تتمنونه لتفرحوا بهزيمة المسلمين.

وهذا التخذيل موجود لدىٰ بعض الناس حتىٰ اليوم، يقولون لن تقوم للإسلام ولا للمسلمين قائمة، فالعالم كله أجمع ضد المسلمين، متفقون علىٰ تفتيت الأمة الإسلامية وعلىٰ إضعافها وإفقارها، وهؤلاء كأنهم لا يرون أن الأمر كله لله، ولا يرون أن الله هو القوي الناصر، ولا يقرأون النصوص، ولا يطلعون علىٰ التاريخ الإسلامي ولا يعلمون كيف نصر الله الأمة الإسلامية الصادقة مع قلة أعدادها في مواجهة أعداء كُثُر، بعدد وعدة تفوقهم كثيرًا.

قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (هذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة)[4].

(١) انظر: حافظ الحكمي، مرويات غزوة الحديبية (ص ٢٧٨-٢٧٩).

(٢) انظر: ابن كثير تفسير ابن كثير (٧/ ٣٣٧).

(٣) انظر: أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير (٥/ ١٠٠).

(٤) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٥).

الرابعة: أن قريشًا لما علمت بمقدم الرسول ﷺ للعمرة لم يكن تصرفها تصرف الحكيم، بل تصرف الفاجر الأثيم، كما قال الرسول ﷺ: «وإذا خاصم فجر»[1]. فإن عين الرسول ﷺ بسر بن سفيان الكعبي، أخبره بأن قريشًا قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العوذ المطافيل، لقد لبسوا جلود النمور وقد نزلوا بذي طوىٰ يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم أبدًا.

ما هذا الفجور في الخصومة؟ يَمنعون من يريد أن يعتمر!! ويعود إلىٰ بلده، هذا هو شأن الكافر، عداوته شديدة وحاقدة، فاجرة، يرعد ويزبد ويهدد ويتوعد ويبذل قصارىٰ جهده في العمل العدواني.

والمسلم متسامح، ذو أخلاق ومبادئ، لا يعرف الحقد، مجتنب للعدوان.

الخامسة: أن قريشًا لما سمعت بقدوم الرسول ﷺ قررت منعه ﷺ من دخول مكة معتمرًا، وهذا فيه تدبير إلهي أدىٰ إلىٰ نتيجتين مهمتين:

أولًا: أنه أضر بسمعة قريش، لمنعها المعتمر من دخول مكة، وهذا ليس من حقها، وخصوصًا عند من يتألهون من العرب ويعظمون الحرمات، فليس البلد الحرام ملكًا لقريش لتمنع من تشاء وتأذن لمن تشاء، وهذا كما أضر بسمعتها في القبائل العربية، فقد قوَّىٰ موقف الرسول ﷺ.

ثانيًا: منعت قريش الرسول ﷺ من العمرة، ليقع الصلح، بل ليقع الفتح العظيم، وتصبح مكة بلدًا مسلمًا، فتأخير العمرة إلىٰ قابل، ويحصل الفتح خير من الاعتمار هذا العام، ويبقىٰ الشرك في مكة ظاهرًا. وعسىٰ أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا.

---

(١) صحيح البخاري (١/ ١٦)، (رقم ٣٤) وصحيح مسلم (١/ ٧٨)، (رقم ٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما.

السادسة: لقد أشفق الرسول ﷺ علىٰ قريش التي تولت مناصبة الرسول ﷺ الحرب، وتحملت كِبْر قيادة هذه المعاداة، وأهلكت نفسها بسبب ذلك، وعادت وقاتلت الرسول ﷺ إلىٰ آخر رمق فيها، وتمنىٰ الرسول ﷺ لو أن قريشًا كانت أعقل من ذلك.

يقول ﷺ وقد أحزنه موقف قريش: «يا ويح قريش، لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس، فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم، دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا، قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش، والله إني لا أزال أجاهدهم علىٰ الذي بعثني الله له حتىٰ يظهره الله له أو تنفرد هذه السالفة»[1].

ماذا يضير قريش لو استجابت لنداء العقل ولم تتصدر للعداوة والحرب، وتركت هذا الأمر لغيرها وحقنت دماءها وأبقت علىٰ نفسها لكن ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٦].

وهذا موجود في حياتنا، تجد بعض الناس يتسلط في العداوة ويتصدر ويهلك نفسه، ولو تعقل وكان حكيمًا، وترك الأمر لغيره، لسلمت له نفسه وقواه ومكانته.

السابعة: من قول الرسول ﷺ: «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق». يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (ومنها رد الكلام الباطل ولو نُسِبَ إلىٰ غير مكلف، فإنهم لما قالوا: خلأت القصواء، يعني حرنت وألحت، فلم تسرْ، والخلاءفي الإبل بكسر الخاء والمد نظير الحران في الخيل، فلما نسبوا إلىٰ الناقة ما ليس من خلقها وطبعها رده عليهم، وقال: «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق» ثم أخبر ﷺ عن سبب بروكها وأن الذي حبس الفيل عن مكة حبسها، للحكمة العظيمة التي ظهرت بسبب حبسها وما جرىٰ بعده)[2].

(١) مسند الإمام أحمد (٣١/ ٢١٢)، (رقم ١٨٩١٠) إسناده حسن.

(٢) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٣٠٢).

وإذا كان الرسول ﷺ يدفع عن عرض حيوان غير مكلف، فمن باب أولىٰ الدفع عن عرض المسلم، بأن لا نقول غيبة لأحد أو نسمعها في أحد وندفع الغيبة، وننصح المغتاب. وقارن هذا بما يجري في كثير من المجالس التي لا تخلو غالبًا من حديث عن عرض مسلم، ولا أحد يدافع عنه.

الثامنة: في صلاة الرسول ﷺ صلاة الخوف بعسفان دلالة علىٰ أهمية الصلاة وأهمية الصلاة جماعة، حيث حافظ الرسول ﷺ علىٰ الجماعة حتىٰ في ظروف الحرب والخوف من الأعداء، ولم يأذن الرسول ﷺ للمسلمين أن يصلوا فرادىٰ في أمكنتهم.

وقد تهاون المسلمون كثيرًا في عصرنا الحاضر في صلاة الجماعة في المسجد، ولعل في الاطلاع علىٰ هذا الموقف ما يوقظ الهمم للعناية بصلاة الجماعة في المسجد، تأسيًا بنبينا محمد ﷺ وسيرة سلفنا الصالح، وطلبًا للأجر المترتب علىٰ هذه العبادة.

التاسعة: مبدأ قبول قريش للمفاوضة مع الرسول ﷺ نصرٌ عظيمٌ للرسول ﷺ وللإسلام والمسلمين، وهو تصرف من قريش يعبر عما وصل إليه المسلمون من قوة في نظر المشركين تجعلهم يقبلون أن يجلسوا علىٰ مائدة التفاوض معهم بعد أن كانت قريش لا تعترف بالإسلام وتسعىٰ جاهدةً لاستئصال المسلمين.

العاشرة: بعثت قريش الحليس بن علقمة وكان سيد الأحابيش، فلما رآه الرسول ﷺ مقبلًا قال: «هذا من قوم يَتَأَلَّهُوْنَ فابعثوا الهدي في وجهه حتىٰ يراه»، فلما رأىٰ الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده رجع إلىٰ قريش ولم يصل إلىٰ رسول الله ﷺ إعظامًا لما رأىٰ، وهذا درس في مخاطبة كل شخص بما يلائمه، فهذا الرجل من قوم يتألهون أي: يعظمون شعائر الله المعروفة لديهم في ذلك الوقت، ومنها الهدي، ويعرف الرسول ﷺ ذلك فيهم، فأمر بأن يبعث الهدي في طريقة، فعاد إلىٰ قريش معاتبًا لهم علىٰ تصرفهم ومنعهم المعتمرين والمهدين للبيت من إكمال شعائرهم.

وهكذا مخاطبة كل مجتمع بما يناسبه في طريقة الدعوة، بل ومخاطبة العالِم غير مخاطبة التاجر، ومخاطبة الأمير غير مخاطبة الشخص العادي، ومخاطبة المشرك غير مخاطبة الموحد، وخلفية الشخص الفكرية مؤثرة جدًا في قبول الدعوة أو النصح، وقد جاء شاب إلىٰ النبي ﷺ يستأذنه في الزنا فقال له: «أتحبه لأمك؟» قال: لا. والله جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم». قال: «أفتحبه لابنتك؟» قال: لا. والله يا رسول الله جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم»....... قال: فوضع يده عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه، وحصن فرجه» قال: فلم يكن بعد ذلك الفتىٰ يلتفت إلىٰ شيء[١]. فخاطبه خطابًا يناسبه، وهكذا الدعوة إلىٰ الله جل شأنه.

الحادية عشرة: في قول أبي بكر الصديق لعروة بن مسعود: (امصص بظر اللات أنحن نفر عنه)، يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وفيه جواز النطق بما يستبشع من الألفاظ لإرادة زجر من بدا منه ما يستحق به ذلك)[٢]. ويقول الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالىٰ-: (قول أبي بكر لعروة ليس من الفحش المذموم)[٣].

الثانية عشرة: من وقوف المغيرة بن شعبة علىٰ رأس رسول الله ﷺ يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (فيه جواز القيام علىٰ رأس الأمير بالسيف بقصد الحراسة ونحوها من ترهيب العدو ولا يعارض النهي عن القيام علىٰ رأس الجالس؛ لأنه محله ما إذا كان علىٰ وجه العظمة والكبر)[٤]، ويقول الشيخ محمد العثيمين -رحمه

(١) الإمام أحمد، المسند (٣٦/ ٥٤٥)، (رقم٢٢٢١١) قال المحقق: «إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح» .

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٥/ ٣٤٠).

(٣) محمد بن عبد الوهاب، بعض فوائد صلح الحديبية (ص ٦) ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ملحق المصنفات.

(٤) ابن حجر، فتح الباري (٥/ ٣٤٠)، وانظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٣٠٤)، وابن قاسم، الدرر السنية (٥/ ٣٨٧-٣٨٨).

الله تعالىٰ-: (فالقيام علىٰ الرجل منهي عنه، اللهم إلا إذا دعت الحاجة إلىٰ ذلك كأن يخاف أن يعتدي عليه أحد، فلا بأس أن يقوم عليه القائم، وكذلك إذا قام عليه الرجل إكرامًا له في حال يقصد فيه إكرامه وإهانة العدو مثل ما حصل من المغيرة بن شعبة في صلح الحديبية)[1]. وقد مر الحديث عن مثل هذا.

الثالثة عشرة: محبة الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين- لرسول الله ﷺ وعظيم توقيرهم له، يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- في الفوائد من هذا الموقف: (وما كان عليه الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- من المبالغة في تعظيم النبي ﷺ وتوقيره ومراعاة أحواله وردع من جفا عليه بقول أو فعل)[2].

الرابعة عشرة: كان الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- يتبركون بالنبي ﷺ والتبرك بالنبي ﷺ سواء بذاته أو بشعره أو ثيابه أو فضل وضوئه ونحو ذلك كله أمر تسابق عليه الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم، والبركة نعمة عظيمة من الله جل شأنه؛ لأنها تقتضي نماء الخير وزيادته.

ولكن علينا أن نعلم أن البركة من الله سبحانه وتعالىٰ، فهو المبارك (بكسر الراء)، وهو -سبحانه- يضع البركة فيما يشاء من خلقه، وأن البركة لا تطلب إلا من الله جل شأنه، وفي الحديبية وما جاء فيها من البركات يخبرنا جابر بن عبد الله -رضي الله تعالىٰ عنهما-قال: قد رأيتني مع النبي ﷺ وقد حضرت العصر، وليس معنا ماء

(١) ابن عثيمين، شرح رياض الصالحين (١/ ٢٦٠). وانظر أيضًا: ابن عثيمين، التعليق على صحيح البخاري (٨/ ٢٧٤-٢٧٥)، وفيها فصل الشيخ - رحمه الله تعالى - حالات القيام الثلاث، وهي القيام للشخص والقيام عليه والقيام إليه، فأما القيام إليه فهو مستحب لأهل الفضل والخير، وهو أن تقوم إلى شخص قادم وتقابله وترحب له، وأما القيام له فهو جائز، وهي أن يقوم الشخص لشخص قادم ولا يتحرك من مكانه بل يقوم، وإذا جلس القادم جلس، لكن المحذور يقع على من أحب أن يتمثل له الناس قيامًا، وأما القيام عليه فهو منهي عنه وهو أن يقوم الشخص واقفًا والآخر جالس، إلا إذا كان القصد الحراسة أو إذلال العدو كما في قصة المغيرة رضي الله تعالى عنه أعلاه، (باختصار).

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٥/ ٣٤٢).

غير فضلة، فجُعل في إناء، فأُتِيَ النبي ﷺ به، فأدخل يده فيه وفرج أصابعه[١]، ثم قال: «حي علىٰ أهل الوضوء، البركة من الله»، فلقد رأيت الماء يتفجر من بين أصابعه، فتوضأ الناس وشربوا، فجعلت لا آلو ما جعلتُ في بطني منه، فعلمت أنه بركة. قال الراوي: قلت لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: (ألفًا وأربع مائة)[٢].

تأمل يا أخي ماذا يقول الرسول ﷺ: «البركة من الله»، فالرسول ينفي حتىٰ عن نفسه أنه يملك البركة لأحد، بل كان يدعو ﷺ ربه بأن يبارك في المدينة، وفي صاعها وفي مدها. وكان يدعو الله -جل شأنه- أن يبارك في الطعام والشراب وغيره.

والله -جل شأنه- هو الذي جعل البركة في ذوات الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وفي مقدمتهم خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ وهذه من خصائصهم عليهم الصلاة والسلام، فلا يجوز أن يتبرك بذات شخص كثيابه أو شعره أو فضل وضوئه أو غسل يديه، أو سؤره بعد أن يشرب إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وهذا الأمر كان واضحًا عند الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم جميعًا- فقد كانوا يتسابقون علىٰ فضل وضوء النبي ﷺ ويتسابقون علىٰ شعره لما حَلَق رأسه في حجة الوداع، وتبركوا بثيابه وعرقه.

ولم يكونوا يفعلون ذلك، مع أبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي أو أحد من العشرة المبشرين بالجنة -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين- وهؤلاء هم سادة الأولياء، بل هم أفضل الأمة، لِعِلْم الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- أن ذلك من خصائص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) يقول العلماء: إنما جعل يده ﷺ في الإناء لتنزل البركة في الماء الموجود فيه، وهكذا كان الرسول ﷺ دائمًا يأتي إلى طعام قليل أو بئر فيها ماء قليل فيضع يده فيه، أو يضع سهمًا من سهامه في البئر فتفيض، ولا يوجد شيئًا معدومًا، كأن يأتي بماء أو بطعام ابتداء، لأن الرسول ﷺ لا يخلق، وإنما يُجري الله البركة على يديه في القليل فيصبح كثيرًا.

(٢) صحيح البخاري، (٧/ ١١٤) رقم (٥٦٣٩).

ولم يكن التابعون يفعلون - أعني التبرك بالذات-مع الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- لعلمهم المشتهر بأن التبرك بالذوات لا يكون إلا مع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ومن توقير الأنبياء وتعظيمهم، العناية بخصائصهم التي خصهم الله بها، فلا ننسب شيئًا من تلك الخصائص، لغيرهم من الناس أيًا كانت منزلتهم.

ومن ثم، فإن طلب البركة الذاتية من غير الأنبياء لا تجوز مطلقًا، بل إنها هي التي فتحت بابًا واسعًا من الشركيات والتمسح بالأولياء والصالحين، والغلو فيهم، والذهاب إلىٰ القبور وطلب بركتها، ورجاء النفع ودفع الضر من غير الله سبحانه، وهذه فتنة عظيمة منتشرة في كثير من ديار المسلمين، أسأل الله -عز وجل- أن يردهم إلىٰ التوحيد الخالص وإفراد الله -عز وجل- وحده بالعبادة، وأن يوحده بطلب البركة منه -سبحانه- وفق ما شرعه لنا رسول الله ﷺ[1].

الخامسة عشرة: عندما جاء رسل قريش إلىٰ الرسول ﷺ تعمد بعض الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- فعلَ أشياء مع الرسول ﷺ ما كانوايفعلونها معه في العادة، كان -عليه الصلاة والسلام- إذا تنخع تلقوا نخامته بأيديهم، ثم يمسحون بها وجوههم وصدورهم، مع أنهم ما كانوا يفعلون هذا في العادة، لكن لأجل التأثير علىٰ رسل الكفار وإشعارهم بمدىٰ تعظيمهم لرسول الله عليه الصلاة والسلام، وحتىٰ إذا ذهب هؤلاء الرسل إلىٰ الكفار بَيَّنَوا لهم حال الصحابة- رضي الله تعالىٰ عنهم- مع نبيهم ﷺ وأنهم لن يسلموه مهما كلفهم، وهذا مما يغيظ العدو ويدخل عليه الرعب والخوف[2].

(١) موضوع التبرك من الموضوعات المهمة التي ضل فيه خلق كثير من المسلمين، ولذلك أنصح بالرجوع إلى كتاب التبرك لناصر الجديع، والتبرك الممنوع والتبرك المشروع لعلي بن نفيع العلياني، والتبرك المشروع والتبرك الممنوع لمحمد صفوت نور الدين، وفق الله الجميع لما يحبه ويرضاه.

(٢) انظر: ابن عثيمين، شرح رياض الصالحين (١/ ٢٦١).

قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (ولعل الصحابة فعلوا ذلك بحضرة عروة وبالغوا في ذلك، إشارة منهم إلىٰ الرد علىٰ ما خشيه من فرارهم وكأنهم قالوا بلسان الحال من يحب إمامه هذه المحبة ويعظمه هذا التعظيم، كيف يُظن به أنه يفر عنه، ويسلمه لعدوه، بل هم أشد اغتباطًا به وبدينه وبنصره، من القبائل التي يُراعي بعضها بعضًا بمجرد الرحم)[1].

السادسة عشرة: قول عروة للرسول ﷺ: (أجمعت أوباش[2] الناس؟ ثم جئت بهم إلىٰ بيضتك، لتفضها بهم، وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا غدًا عنك)، هذا حكم من عروة علىٰ الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-، بناء علىٰ أن العادة جرت أن الجيوش المجمعة لا يؤمن عليها الفرار بخلاف من كان من قبيلة واحدة، فإنهم يأنفون الفرار في العادة، وما درىٰ عروة أن مودة الإسلام أعظم من مودة القرابة، وقد ظهر له ذلك من مبالغة المسلمين في تعظيم النبي ﷺ[3].

السابعة عشرة: أهمية السلوك في التأثير، فإن عروة قال للرسول ﷺ عن الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- في البداية: إني أرىٰ أوباشًا من الناس ولكأني بهم قد انكشفوا غدًا عنك، وسرعان ما تغير هذا الظن عنده، لما جلس معهم ورأىٰ تعامل الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- مع الرسول ﷺ وعظيم احترامهم، وشديد توقيرهم له، حتىٰ عاد إلىٰ قريش وقال لها: يا معشر قريش، إني قد جئت كسرىٰ في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه وإني والله ما رأيت ملكًا في قومه قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قومًا لا يسلمونه لشيء أبدًا، فَرُوا رأيكم! ويستغرب الشخص كيف يصدر هذا القول المتعارض من شخص واحد، وليس بينهما إلا وقت قصير جدًا، ولكن حينما يتبين الأمر، يدرك ما صنعه السلوك في تغيير الرأي.

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٥/ ٣٤١).

(٢) قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١٤٦): (الأوباش: جموع من قبائل شتى. وهم الأوباش والأوشاب).

(٣) ابن حجر، فتح الباري (٥/ ٣٤٠).

الثامنة عشرة: لما تأخر عثمان، ظن بعض المسلمين أنه طاف بالبيت ولكن الرسول ﷺ قال: «ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون»، فكان الأمر كما ظنه الرسول ﷺ وهكذا علىٰ المسلم دائمًا أن يحسن الظن بأخيه، ويُقدِّم الظن الحسن علىٰ الظن السيئ، والله -سبحانه وتعالىٰ- يقول: ﴿**لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ**﴾ [النور:١٢]، وقال عمر: (لا تظنن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شرًا، وأنت تجد لها من الخير محملًا)[١].

ومشكلة الظن السيئ، تعانيها كثير من مجتمعاتنا، لا أدري لماذا نبادر إلىٰ الظن السيئ، بل إن البعض يظن الظن السيئ ويبني عليه حكمًا أو أحكامًا، كأن يظن الظن السيئ بأخيه، ثم يقاطعه ويهجره، وهو لم يتحدث معه، ولم يسأله عن سبب هذا التصرف الذي جعله يظن هذا الظن، ولو سأله لربما عرف السبب وانتهىٰ الأمر، أو لو أنه أحسن الظن بأخيه، لما وقع منه هذا الحكم المتعجل.

التاسعة عشرة: في المواقف الحرجة يجتهد الأعداء في إلقاء الإشاعة والإرجاف بالمؤمنين، وهنا في الحديبية، أُشِيْعَ أن عثمان قد قُتِلَ، وهذا كثيرًا ما يتكرر في أزمنة الحروب.

ولذلك علىٰ المسلم أن يكون متيقظًا عند ورود مثل هذه الإشاعات المرجفة بالمجتمع المسلم، فلا يستمعْ إليها، وهذه أولىٰ خطوات المواجهة لها، ولا يُصَدِّقْهَا ولا يروِيها ولا يَتَأَثَّرْ بها، وليتأكَّدْ منذ البداية أن مصدرها هو العدو، فلا يتعجل الخبر، بل يتثبت ويتبين، ولا يتصرف تصرفاتٍ تَسُرُّ العدوَ وتُدْخِلُ الخوفَ والفزعَ علىٰ المسلمين.

العشرون: التعامل مع الإشاعة أمر مهم، وهنا نرىٰ كيف تعامل الرسول ﷺ مع الإشاعة، لقد تعامل معها تعاملًا بعكس ما يحقِّق هدف العدو، فالإشاعة كان القصد

(١) ابن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب (ص ٢٠٣).

منها أن تفت في عضد المسلمين، وتُدْخِلَ الفرقةَ والخلافَ بينهم، ولكن الذي حصل بعد الإشاعة هو عكس ما يريد العدو، ألا وهو الدعوة إلىٰ البيعة علىٰ أن لا يفروا، أو علىٰ الموت، والمؤدىٰ -في ما يظهر- واحد، فتسابق الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- إلىٰ البيعة وظهروا بمظهر المجتمع المتماسك المتكاتف المستعد للتضحية ومواجهة الأعداء بكل تصميم وإقدام، ولما بلغ العدو خبر هذه البيعة داخلهم الخوف، ومالوا إلىٰ الصلح.

وهكذا تحولت الإشاعة -بحسن التعامل- لتصبح مصدر قوة للأمة المسلمة، ونحن علينا أن نتعامل علىٰ هذا النحو مع ما يبثه العدو من إشاعات مرجفة، فنتكاتف مع ولاتنا وعلمائنا، ولا نصدق الإشاعة، ولا نتداولها فيما بيننا، بل نسعىٰ إلىٰ توجيهها - إن أمكن- لتصبح تلك الإشاعة مصدر قوة للمجتمع، وإلا فالسعي إلىٰ إماتتها.

الواحدة والعشرون: لما أقبل سهيل بن عمرو ورآه الرسول ﷺ قال: «قد سهل أمركم»، وهذا يدلنا علىٰ استحباب التفاؤل، يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (ومنها استحباب التفاؤل وأنه ليس من الطيرة المكروهة، لقوله لما جاء سهيل: «سهل أمركم»[1].

وهنا نفرق بين التطير والتفاؤل، فالتطير هو التشاؤم بمشاهد أو مسموع أو معلوم.

فالمشاهد: مثل أن يخرج الشخص من بيته لعمل معين، فيقابله رجل أعور فيتشاءم ويرجع ويترك العمل هذا اليوم.

والمسموع: مثل أن يسمع عند خروجه من البيت شخصًا ينادي آخر يقول له يا فاشل، فيتشاءم ويرجع.

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٣٠٥)، وانظر: الفائدة رقم (١٠١) في بعض فوائد صلح الحديبية للشيخ محمد بن عبد الوهاب.

والمعلوم: أن يتشاءم ببعض الأيام التي اعتادت الجاهلية التشاؤم بها كيوم الأربعاء أو شهر صفر.

والتطير من الشرك، وقد قال ﷺ: «الطيرة شرك، الطيرة شرك ثلاثًا»[1].

وكانت الطيرة من الشرك؛ لأنها أثَّرت علىٰ سلوك الشخص وجعلته يعتقد ما ليس بسبب حسي ولا شرعي سببًا[2]، فمثلاً لو رأىٰ عند خروجه من المنزل غرابًا فتشاءم ورجع، هنا جعل رؤية الغراب سببًا في اعتقاد وقوع شر أمامه، وهذا ليس بسبب شرعي ولا حسي، وإنما خوف سر، أي أنه دخله خوف سري لا يعلم مصدره.

وضابط الطيرة ما ورد في حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالىٰ عنهما-، أن رسول الله ﷺ قال: «من ردته الطيرة من حاجة، فقد أشرك». قالوا: يا رسول الله، ما كفارة ذلك؟ قال: «أن يقول أحدهم: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك»[3]. فالشرك أن يتأثر السلوك بمثل هذه الأمور التي تحصل أمامه، أما إذا دفعها عن قلبه وتوكل علىٰ الله وشغل نفسه بالدعاء، فلا يضره شيء.

(١) من حديث ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: (سنن أبي دواد ٣٩١٠) وصححه الألباني، والترمذي في سننه (برقم ١٦١٤) بلفظ «الطيرة من الشرك»: وقال حديث حسن صحيح.

(٢) وبيان علاقة ذلك بالشرك، أن السبب هو من مخلوقات الله، فلو قال لك شخص: من الذي جعل شيئا سببا لشيء آخر؟ فستقول: الله جل شأنه، وبالمثال يتضح، من قال لك: من جعل الدواء سببا للشفاء؟ ومن جعل الصلاة سببا لطمأنينة النفس؟ ومن جعل الماء سببا لإذهاب العطش؟ ومن جعل النار سببا للإحراق؟ من جعل الكلمة الطيبة تسر النفس؟ ستقول الله جل شأنه! وهنا تجد الأسباب إما شرعية عرفاناها بالنص الشرعي أو حسية عرفناها بالحس، وكلها من فعل الله سبحانه وتعالى، وحينئذ من قال إن البومة إذا وقعت على البيت فمعناها أنه سيموت شخص من أهل هذا البيت. نقول له: لك أنت جعلت مجيئ البوم سببا بلا دليل شرعي ولا حسي، وجعل الأسباب من خصائص الله - أي الربط بين الفعل والنتيجة - فإن قال إن مجيئ البوم دليل على حصول الموت وليس سببا، قلنا له: هل البوم يعلم الغيب؟ ومعلوم أننا نتحدث عن الشرك الأصغر.

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند (١١/ ٦٢٣)، (برقم ٧٠٤٥)، وقال محققو المسند (حديث حسن).

أما التفاؤل بأمر يراه أو يسمعه وسروره به، وذلك كما تفاؤل الرسول ﷺ بقدوم سهيل، فهذا مطلوب ومستحب، وهو حسن ظن بالله -سبحانه- بأن الله ييسر أمره، ولكن يشترط العلماء في التفاؤل أمرين:

الأول: أن لا يقصده بمعنىٰ أن يكون الشيء الذي تفاءل به أمرًا حصل دون قصد منه، فلو أخذ طيرًا وطيره، فذهب الطير إلىٰ جهة اليمين ففرح، فهذا ليس تفاؤلًا، بل هو من فعل الجاهلية وهو من التطير.

الثاني: أن لا يعتمد عليه، بل يكون ماضيًا في الأمر قبل رؤية ما تفاءل به، لكن حصل هذا الأمر السار ففرح ونشط، فهذا تفاؤل حسن، كمن خرج للعمل فسمع شخصًا يقول لآخر: يا مبارك، ففرح بذلك، فهذا تفاؤل حسن، وهو حسن ظن بالله، بأن الله -جل شأنه- سييسر أمره.

الثانية والعشرون: في قول بعض الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين- علامَ نعطي الدنية في ديننا؟ قال ﷺ: «أنا عبد الله ورسوله لا أخالف أمره ولن يضيعني»، يتبين لنا أن هذا الصلح وقبول تلك الشروط التي كانت محل تساؤل من الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- كل ذلك كان بوحي من الله جل شأنه، وأنه أُعْلِم بأن المآل سيكون إلىٰ الخير للمسلمين، في حين أن ظاهرها ليس كذلك، وهذا يعني أن بعض مواقف السيرة كانت بوحي من الله سبحانه وتعالىٰ، وبعضها تصرف من النبي ﷺ وعند دراسة السيرة وفقهها ينبغي ملاحظة ذلك، فما كان بوحي فهو خاص بالنبي ﷺ ولا مجال للتأسي فيه، وما عداه هو محل التأسي، والله أعلم.

الثالثة والعشرون: في موقف بعض الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- من صلح الحديبية نأخذ منه أهمية اتهام العقل أمام النصوص الشرعية[(١)]، وأن نجعل العقل تابعًا للشرع، وأن نتمسك بقول أبي بكر لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: الزم غرزه، فإنه رسول الله.

---

(١) انظر: الحكمي، مرويات غزوة الحديبية (ص ٣٠١).

يقول عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: (أيها الناس اتهموا الرأي علىٰ الدين، فقد رأيتُني أردّ أمرَ رسولِ الله ﷺ برأيي اجتهادًا، فواللهِ ما آلو عن الحق، وذلك يوم أبي جندل)[1].

ويقول سهل بن حنيف -رضي الله عنه-: (اتهموا رأيكم، رأيتُني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله ﷺ لرددته)[2]، ويقول الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالىٰ- في فوائد صلح الحديبية: (التاسعة عشرة: معرفة فضيلة التسليم للشارع فيما لم يدرك بالعقل)[3].

فعلينا أن نحذر من معارضة نصوص الشرع بالعقل، بل علينا أن نتَّهم العقلَ إذا عارض النص، ونُقَدِّمَ نصوصَ الشرعِ من الكتاب والسنة ونسلِّم لها ونذعن لمرادها ولو خالفتِ الرأيَ والعقلَ، فهي في الحقيقة لا تخالف العقل، ولكن لقصور في عقولنا ظننا أحيانًا أنها تخالفه. ولا شك أن ملكات الشخص وعقله ينمو ويتطور ويتغير، فقد يرىٰ شخصٌ اليوم أن هذا الأمر سيئ، ثم يراه في وقت آخر حسنًا.

الرابعة والعشرون: وعندما يقال لنا اتهموا الرأي، واتهموا العقل، وتمسكوا بالنص، لا يعني هذا انتقاصًا للعقل، فالعقل هو محل التكليف، وبدونه ينزل الشخص إلىٰ درجة المجانين، ويرتفع عنه التكليف، ومن أعظم ما يتميز به الإنسان عن الحيوان هذا العقل. ومن أعظم ما يتفاوت الناس فيه، عقولهم.

لكن هل العقل وسيلة للوصول إلىٰ الحقائق أو مصدر لها؟

(١) أخرجه الطبراني، المعجم الكبير (١/ ٧٢) تحقيق حمدي السلفي، الطبعة الثانية (الموصل، مكتبة العلوم والحكم ١٤٠٤)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٤٦) وقال: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح، و(١/ ١٧٩) وقال: رواه أبو يعلى ورجاله موثوقون وإن كان فيه مبارك بن فضالة.

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٦/ ٢٨١)، رقم (٣١٨١).

(٣) الإمام محمد بن عبد الوهاب، بعض فوائد صلح الحديبية (ص ٥).

العقل كالسمع والبصر، كلها وسائل للوصول إلىٰ الحقائق ومعرفتها، قال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦]، فالعقل يتلقىٰ المعلومات من السمع والبصر ثم يُحللها علىٰ ضوء ما عنده من علمٍ وخلفيات سابقة، ليُعطيَ حكمه، فإن كان صاحب العقل مؤمنًا، استند في حكمه إلىٰ ما تلقاه مما عنده من نصوص الوحي قرآنًا وسنة أو استند إلىٰ ما في الكون من دلائل وآيات ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [الغاشية: ١٧-٢١]. وإن كان الشخص غير مؤمن، لم يعط نصوص القرآن والسنة اعتبارًا في أحكامه.

فالمصدر عند المؤمن هو الوحي أو الكون، والعقل كالسمع والبصر وسيلة للوصول إلىٰ الحقائق، ويأتي الخطأ عندما نجعل العقل مصدرًا للحقائق. وإذا كانت المقدمة خطأً، كانت النتيجة خطأً.

الخامسة والعشرون: كان من الشروط أن من جاء إلىٰ المسلمين من الكفار يُرد إليهم، ومن جاء من المسلمين إلىٰ الكفار لا يُرد إليهم، ولما تساءل الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- عن سبب قبول هذا الشرط، أجاب الرسول ﷺ بقوله: «إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجًا ومخرجًا»[1]. هذه معجزة نبوة، فقد جعل الله لهم مخرجًا عظيمًا، بل انقلب الشرط عليهم، وأرسلوا وفدًا إلىٰ الرسول ﷺ يرجونه أن يقبل من جاء إليه منهم فارًا.

وذلك كما في قصة أبي بصير -رضي الله تعالىٰ عنه-، عندما أصبح هو ومن معه من الهاربين من جحيم قريش، يقطعون الطريق علىٰ تجارة قريش، فجاءت قريش ممثلة بوفد منها إلىٰ المدينة تطلب إلغاء هذا الشرط وقبول من جاءه مسلمًا ولا يرده،

---

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٤١١)، (رقم ١٧٨٤) من حديث أنس رضي الله تعالى عنه.

يقول الشيخ محمد بن عثيمين -رحمه الله-: (فانظر كيف حصل الفرج؟!حصل الفرج رغمًا عن أنوف المشركين، وما ذهب أحد من المسلمين إليهم)[١].

السادسة والعشرون: لو قال قائل: كيف قَبِل الرسول ﷺ شرط قريش: من جاء إلىٰ الرسول ﷺ من قريش فإنه يرد إليهم مع وجوب نصرة المسلم وإيوائه إذا جاء إلىٰ المسلمين، فالجواب عن هذا من جانبين:

أولًا: إن ما وقع في الحديبية كان بوحي من الله جل شأنه، كما مر بيان ذلك.

ثانيًا: إن هؤلاء المؤمنين، سبق أن طُلب منهم الهجرة، ولم يهاجروا، ثم إن لهم من السبل ما يخرجون إليه، غير المدينة وأرض الله واسعة، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [النساء:٩٧]، فلهم مهجر إلىٰ غير المدينة، ولهم ملجأ غير الرسول ﷺ وقد أشار النبي ﷺ إلىٰ ذلك بقوله ﷺ: «ومن جاءنا منهم، سيجعل الله له فرجًا ومخرجًا». وهذه لا شك بشرىٰ متيقنة عندما يقولها رسول الله ﷺ وقد جعل -سبحانه وتعالىٰ- لهم فرجًا ومخرجًا، بل ونصرًا، فلله الحمد والمنة.

ثالثًا: (إن الله قد أباح التقية للمسلم، إذا خاف الهلاك ورخص له أن يتكلم بالكفر مع إضمار الإيمان إن لم يمكنه التورية)[٢].

السابعة والعشرون: من قول عمر -رضي الله عنه-: (ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق من الذي صنعتُ مخافة كلامي الذي قلته يومئذٍ حتىٰ رجوتُ أن يكون خيرًا)، يتبين لنا فضل الله العظيم وسعة رحمته، والله -سبحانه وتعالىٰ- يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود:١١٤].

---

(١) ابن عثيمين، شرح الأصول من علم الأصول (الرياض: دار ابن الجوزي) ١٥٦. وقد أورد البخاري ــ رحمه الله تعالى ــ في صحيحه المطبوع مع الفتح قصة غزوة الحديبية (٥/ ٣٢٩)، الحديث رقم (٢٧٣١ و ٢٧٣٢).

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٥/ ٣٤٥).

فإذا شعر المسلم أنه وقع في خطأ معين فعليه بأمرين:

الأول: المبادرة إلىٰ التوبة والندم علىٰ ما سلف منه من زلل.

الثاني: المبادرة إلىٰ التعويض عن هذا الخطأ بأعمال صالحات، تكفر سيئاته، وتُرضي ربه، وترفع درجته عنده، والحمد لله رب العالمين. وليكن هذا منهجًا دائمًا في حياته.

وإن من توفيق الله للعبد أن ينبهه إلىٰ زلته، لكي يتدارك ما سلف منه بالتوبة والعمل الصالح، قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

الثامنة والعشرون: في مجيء أبي جندل بن سهيل -رضي الله تعالىٰ عنه- منفلتًا من قريش، وإلقاء نفسه بين المسلمين أثناء كتابة الصلح، التماسًا للنجاة، وإصرار سهيل بن عمرو علىٰ تنفيذ الشرط، وإعادة أبي جندل -رضي الله تعالىٰ عنه-، وتألم الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- من الشرط ذاته، ومن تنفيذه بين أيديهم فورًا، مزيد امتحان لقلوبهم في التسليم لأمر الله -عز وجل- وأمر رسوله ﷺ فقد كان هذا الموقف قاسيًا جدًا علىٰ قلوب الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- حتىٰ أن بعضهم يسمي يوم الحديبية بـ(يوم أبي جندل)(١)، لعظم مشقة ما رأوا أمام أعينهم في شأن أخيهم المظلوم المعذب، ولا يستطيعون نصرته. ولكنه كان ابتلاءً وامتحانًا للتسليم لأمر الله.

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وقول سهل بن حنيف: يوم أبي جندل، أراد به يوم الحديبية، وإنما نسبه لأبي جندل؛ لأنه لم يكن فيه علىٰ المسلمين

(١) يقول عمر بن الخطاب ﷺ: (أيها الناس اتهموا الرأي على الدين، فقد رأيتُني أردّ أمرَ رسولِ الله ﷺ برأيي اجتهادًا، فو الله ما آلو عن الحق، وذلك يوم أبي جندل) ويقول سهل بن حنيف ﷺ: (انهوا رأيكم، رأيتُني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله ﷺ لرددته) وقد سبق تخريج هذين الأثرين قريبًا.

أشد من قصته)[1].

التاسعة والعشرون: في تسليم أبي جندل بن سهيل بن عمرو للمشركين بعد مجيئه فارًا إلىٰ المسلمين بسبب الصلح ندرك أمرين:

١. ما كان عليه الرسول ﷺ من المحافظة علىٰ العهد والوفاء به مهما كان قاسيًا علىٰ النفس.

٢. أهمية وفاء المسلم بالعهد الذي يقطعه علىٰ نفسه رخاء أو شدة، له أو عليه، ونقارن هذا بما عليه كثير من الناس اليوم من وفائهم بعهودهم متىٰ كان الحق لهم، وسرعان ما ينكثون إذا كان الحق عليهم، وهذا علىٰ المستوىٰ الفردي أو الدولي. قال تعالىٰ: ﴿ **وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ** ﴾ [النور: ٤٨-٥٠].

الثلاثون: بعد إنهاء كتابة الصلح، أمر الرسول ﷺ أصحابه - رضي الله تعالىٰ عنهم- بالحلق والنحر فلم يفعلوا، وهذا التوقف من الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- في التنفيذ لم يكن عصيانًا، وإنما انتظار لأمر يرجون حدوثه، أي لعل هذا الأمر ينسخ[2] أو يُعدَّل؛ لأن النبي ﷺ يأمر بالشيء ثم يُراجَع من بعض الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- في الأمر، فيدع الأمر الأول إلىٰ أمر آخر، كما حصل في غزوة خيبر عندما أمر بأن تكفأ القدور التي فيها لحوم الحمر الأهلية وتكسر. قالوا: يا رسول الله أو تغسل، فقال: اغسلوها.

ولما رأوا الرسول ﷺ حلق شعره ونحر بُدْنه، أدركوا أن الأمر لن ينسخ، فتسابقوا في الاستجابة لأمر الله -سبحانه وتعالىٰ- وأمر رسوله ﷺ.

---

(١) فتح الباري (٦/ ٢٨١).

(٢) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٥/ ٣٤٧).

قال الخطابي -رحمه الله تعالىٰ-: (وإنما كان توقف الصحابة- رضي الله تعالىٰ عنهم- عن أمره الأول، فلم ينفذوا له، انتظارًا أن يُحدث الله -سبحانه- لرسوله ﷺ أمرًا خلاف أمره الأول، فيتم لهم حُرْمهم وقضاء نسكهم، إذ كان لا ينكر في زمانه أن يؤمروا بالشيء ثم يتعقبه النسخ، فلما رأوه قد فعل النحر والحلاق في أمر نفسه علموا أنه ليس وراء ذلك عاقبة تنتظر، فبادروا إلىٰ تنفيذ قوله والتأسي بفعله)[1].

وقال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (ونظير هذا ما وقع لهم في غزوة الفتح هناك، من أمره لهم بالفطر في رمضان، فلما استمروا علىٰ الامتناع تناول القدح فشرب، فلما رأوه شرب شربوا)[2].

الواحدة والثلاثون: مما يتبع الفائدة السابقة، أن الرسول ﷺ لما رأىٰ الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- توقفوا في الحلق ونحر الهدي بعد أن أمرهم بذلك، دخل علىٰ أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها- فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها-: يا نبي الله، أتحب ذلك؟اخرج ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتىٰ تنحر بُدْنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتىٰ فعل ذلك، نحر بُدنه ودعا حالقه، فحلقه[3]، فلما فعل ذلك تسابق الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- إلىٰ حلق رؤوسهم ونحر هديهم، وهذا يدلنا علىٰ أهمية القدوة في العمل، ولها تأثيرها في الحزم والجد والمبادرة، يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- في أثر الفعل في الأوامر والنواهي: (وأن الفعل إذا انضم إلىٰ القول كان أبلغ من القول المجرد)[4]، وهذا مفيد في التربية المنزلية والمدرسية، فالأب في منزله قدوة لأولاده، يتأثرون بسلوكه وبما يرونه يفعله، وإن لم يدعهم صراحةً إلىٰ هذا السلوك، بل إن الأخ الأكبر له تأثيره في سلوكه علىٰ بقية إخوانه وأخواته.

(١) الخطابي، معالم السنن (٢/ ٢٣٣).
(٢) ابن حجر، فتح الباري (٥/ ٣٤٧).
(٣) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٥/ ٣٤٧).
(٤) ابن حجر، فتح الباري (٥/ ٣٤٧).

ولذلك شرع للرجال صلاة النوافل في البيوت، وكانت أفضل من أدائها في المسجد.

وكذلك المدرِّس مؤثِّر بسلوكه أمام طلابه أكثرَ من تأثير أقواله. ومثل هؤلاء الداعية إلىٰ الله عليه أن يلحظ ذلك وأن يهتم بسلوكه وأن يجعل سلوكه دعوة وقدوة حسنة لمن حوله.

الثانية والثلاثون: فضيلة أم المؤمنين أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها وأرضاها- فقد وفقها الله -جل شأنه- للرأي الرشيد وذلك فضل الله، وعطاؤه، قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (قالت أم سلمة: يا رسول الله، لا تكلمهم فإنهم قد دخلهم أمر عظيم مما أدخلت علىٰ نفسك من المشقة في أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح)(١)، وهذا فقه واعتذار عظيم من أم المؤمنين -رضي الله تعالىٰ عنها-، وقال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- أيضًا: (وعرف النبي ﷺ صواب ما أشارت به ففعله)(٢)، وقال -رحمه الله تعالىٰ- في تعليقه علىٰ هذا الموقف وفيه: (فضل أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها- ووفور عقلها)(٣).

الثالثة والثلاثون: رأي أم المؤمنين أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها- يدلنا علىٰ أهمية الرأي وعظم أجر صاحبه، فكم من رأي سديد لم يكلف صاحبه شيئا، لكن كان أجره عظيمًا، ولذلك لا تبخل برأي ونصح ومشورة لأخيك ولأمتك تؤجر علىٰ هذا الرأي أجرًا بقدر من عمل به.

الرابعة والثلاثون: أسلوب الترغيب في الدعوة إلىٰ الله، فقد بَيَّنَ الرسول ﷺ أفضلية الحلق علىٰ التقصير من خلال تكرار دعوته للمحلِّقين بالرحمة ثلاث مرات

(١) ابن حجر، فتح الباري (٥/ ٣٤٧).
(٢) ابن حجر، فتح الباري (٥/ ٣٤٧).
(٣) ابن حجر، فتح الباري (٥/ ٣٤٧).

ولم يدع للمقصِّرين إلا مرة واحدة، وهذا معناه الترغيب في حلق الرأس للمحرم في تحلله من نسكه، بأسلوب غير مباشر.

الخامسة والثلاثون: ساق الرسول ﷺ في هديه جملًا كان لأبي جهل في أنفه برة من فضة، غنمه المسلمون في بدر، وذلك إغاظة للمشركين، يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (ومنها استحباب مغايظة أعداء الله، فإن النبي أهدىٰ في جُمْلة هديه جملاً لأبي جهل في أنفه برة من فضة يغيظ به المشركين، وقد قال تعالىٰ في صفة النبي -عليه الصلاة والسلام- وأصحابه: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩].

وقال -عز وجل-: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة:١٢٠](١).

وأعلىٰ إغاظة، هي إغاظة الشيطان، واعلم أن إعراضك عن المعصية عندما تتيسر سبلها، إغاظة للشيطان أيما إغاظة، فعليك بها، أعانك الله.

السادسة والثلاثون: ذكر ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ- أن هدي الرسول ﷺ في الحديبية كان سبعين بدنة(٢). وبعض الناس يظن -كما هو شائع عند عوام الناس- أن الهدي خاص بالحج دون العمرة، والرسول ﷺ يهدي في عمرته سبعين بدنة، وليس شاة واحدة، وسيأتي في حجة الوداع أنه أهدىٰ مائة بدنة، وهذا من تعظيم شعائر الله جل شأنه، ولذلك ينبغي إحياء هذه السنة التي غفل عنها كثير من الناس بالإهداء في العمرة، وإن في كثرة الهدي في الحج والعمرة، تطبيقًا للسنة وتعظيمًا لشعائر الله، وتأسيًا بالرسول ﷺ.

(١) ابن القيم، زاد المعاد (٢/ ٢٦٨).
(٢) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٥/ ٣٤٧).

السابعة والثلاثون: أن ندرك أن العبرة بما تؤول إليه الأمور وعسىٰ أن يكره المؤمن شيئًا ويكون خيرًا، فقد كره بعض الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- صلح الحديبية وما فيه من شروط، وتبين بعد ذلك أن ما فيه من الخير للإسلام والمسلمين الشيء الكثير الذي لم يكن متوقعًا. مما ستأتي الإشارة إليه.

فعلىٰ المسلم أن لا يتعجل ويحكم علىٰ الأمور بظاهرها، أو بعاجل نتائجها، فإن ما جرىٰ كان في الصورة الظاهرة ضيمًا للمسلمين وفي الصورة الباطنة عِزًا لهم[1].

الثامنة والثلاثون: أن ما جرىٰ في صلح الحديبية تسليم عظيم لأمر الله جل شأنه، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (قال الله تعالىٰ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ وذلك -والله أعلم- بسبب ما حصل بسببه من الطاعات الكثيرة، والدخول في الدين بكثرة، وبما تحمل ﷺ من تلك الشروط التي لا يصبر عليها إلا أولو العزم من المرسلين، وهذا من أعظم مناقبه وكراماته ﷺ أن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر)[2].

فتأمل يا أخي هذا التعليل لهذا الاختصاص بالمغفرة للسابق واللاحق، فهو تعليل عظيم، إنه كمال التسليم لله -سبحانه وتعالىٰ- في موقف عظيم يعلم الرسول ﷺ أنه سيخالفه فيه جموع الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- ويجادلونه، ومع ذلك أقدم وتحمل في ذلك وصبر تسليمًا لأمر ربه، أيًا كانت العواقب وفق الرؤية البشرية، فاللهم صلِ وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلىٰ يوم الدين.

التاسعة والثلاثون: مع ما أشرت إليه من كون ما جرىٰ في الحديبية من شروط كان قبولها بوحي من الله جل شأنه، فإن بعض العلماء أشاروا إلىٰ أن الرسول ﷺ يدرك أن في قبول تلك الشروط تهدئة لأجواء الصراع، وفتح الطريق أمام الدعوة، حيث لم يكن من الممكن قبول قريش للإسلام في حالة الحرب.

(١) ابن حجر، فتح الباري (٥/ ٣٤٨).
(٢) تفسير السعدي (ص ٧٩١).

ولا شك أن الصلح أوجد بيئة صالحة للدعوة، وسهَّل لبعض رجالات قريش التفكير في الإسلام والدخول فيه. بخلاف ما لو استمرت أجواء الحرب بين الطرفين.

الأربعون: إذا كنا نستغرب موقف بعض الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم جميعًا- فيما جرىٰ في صلح الحديبية، وهم يريدون الآخرة، يريدون مواجهة العدو وإرغامه، ويريدون الطواف بالبيت وأداء العمرة، فلا بد أن نعترف أننا في بعض مواقفنا وواقعنا اليوم عارضنا النصوص بآرائنا، لا لطلب أمر أخروي، بل لأمر دنيوي، وشتان بين من كان همه الآخرة، ومن همه الدنيا، وجاءت معارضته للنصوص لهوىٰ، ولمصلحة عاجلة.

كم من شخص ترك نصوص تحريم الربا، وعارضها بحجج واهية طلبًا لعاجل مالي يَمحق في النهاية مالَه!

كم من شخص يبيع بعض المحرمات في محله التجاري، متأولًا النص بخوفه من كساد تجارته الأخرىٰ، إذ لم يبع هذه السلعة المحرمة... إلخ.

ولا يدري أنه بهذا التأويل الباطل يجر علىٰ نفسه ثلاثة آثام: أولها: أنه لوىٰ النص متابعة لهواه، وثانيها: أنه خالف أمر الله تعالىٰ عمليًا، وثالثها: أنه يَسُن لمن يتأثر به ليعمل مثل عمله، فيتحمل وزره، ولو أنه عندما خالف أمر الله -جل شأنه- اعترف بالمخالفة، وقال: أعلم أني مخالف لأمر الله، ولكن أسأل الله أن يهديني ويعينني علىٰ امتثال أمر الله، لكان هذا أهون بكثير من الأول؛ لأنه لم يتحمل وزر تأويل النص، ولا يدعو بسلوكه للمعصية ذاتها، ولأنه يؤمل لنفسه الاستغفار والتوبة.

الواحدة والأربعون: يكفي في فضل أهل الحديبية أن الله جل شأنه أنزل في الثناء عليهم قرآنًا يتلىٰ، تضمن البُشرىٰ، وفيه المغفرة للرسول ﷺ لما تقدم وما تأخر من ذنبه والنصر، وفيه الشهادة بزيادة الإيمان للصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم.

أ. أما البشرىٰ فقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:١].

ب. وأما المغفرة للرسول ﷺ والنصر فقوله تعالىٰ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ٢-٣].

ج. وأما الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- فقد قال تعالىٰ عنهم: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح:٤].

عن أنس بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه - ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح:١-٣]. قال: قال الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-: هنيئًا مريئًا، فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الفتح: ٥][(١)].

قال السعدي -رحمه الله تعالىٰ- عند قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح:٤]. يخبر تعالىٰ عن مِنته علىٰ المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم، وهي السكون والطمأنينة والثبات عند نزول المحن المقلقة والأمور الصعبة التي تشوش القلوب وتزعج الألباب وتضعف النفوس، فمن نعمة الله علىٰ عبده في هذه الحال أن يثبته ويربط علىٰ قلبه، وينزل عليه السكينة، ليتلقىٰ هذه المشقات بقلب ثابت ونفس مطمئنة، فيستعد بذلك لإقامة أمر الله في هذه الحال، فيزداد بذلك إيمانه ويتم يقينه، فالصحابة -رضي الله عنهم- لما جرىٰ ما جرىٰ بين رسول الله ﷺ والمشركين، من تلك الشروط التي ظاهرها أنها غضاضة عليهم، وحط من أقدارهم، وتلك لا تكاد

(١) انظر: صحيح البخاري (٥/ ١٢٥)، (رقم ٤١٧٢).

تصبر عليها النفوس، فلما صبروا عليها ووطنوا أنفسهم لها، ازدادوا بذلك إيمانًا مع إيمانهم[1].

الثانية والأربعون: وإذا كنت أتحدث عن فضل أهل الحديبية فلا بد أن أقف مع أعظمهم موقفًا، الجبل الراسخ الأشم في المواقف الصعبة، لعلك عرفته، إنه أبو بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- الذي كان راضيًا عما يجري، مُسَلِّمًا تام التسليم لأمر الله جل شأنه، لم يكن يناقش أو يجادل، بل كان موقفه موقف المدافع عن شروط الصلح، ويأمر كل من يناقشه أو يبدي شيئًا من عدم الرضا عن الشروط، بالتسليم، ويذكره بأن الذي يُجري الصلح هو رسول الله ﷺ وأن علىٰ الجميع أن يلزموا غرزه، ويرضوا بما رضيه.

وتلك فضيلة، إن لم نقل خصيصة حازها الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه-، كما حاز فضيلة الصديقية يوم الإسراء، وقال قولته العظيمة: (إن كان قاله فقد صدق).

فأبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- آمن بمحمد النبي ﷺ فكل ما يقوله محمد ﷺ مقبول عنده، مقطوع بصحته وصدقه، وهذا بخلاف من آمن بالنبي محمد ﷺ فإنه اقتنع بما يقوله، ثم صار بعد ذلك مصدقًا له.

الثالثة والأربعون: راجع عمر-رضي الله تعالىٰ عنه- في الصلح أبا بكر الصديق- رضي الله تعالىٰ عنه- وراجع الرسول ﷺ ولم يراجع أحدًا غيرهما، وذلك لجلالة قدر أبي بكر-رضي الله تعالىٰ عنه- وسعة علمه عنده، وفي جواب أبي بكر لعمر بنظير ما أجابه النبي ﷺ سواء، دلالة علىٰ أنه كان أكمل الصحابة وأعرفهم بأحوال رسول الله ﷺ وأعلمهم بأمور الدين وأشدهم موافقة لأمر الله تعالىٰ، وقد وقع التصريح في هذا الحديث بأن المسلمين استنكروا الصلح المذكور، وكانوا علىٰ رأي عمر في ذلك، وظهر من هذا أن الصديق- رضي الله تعالىٰ عنه- لم يكن في ذلك موافقًا لهم،

---

(١) تفسير السعدي (ص ٧٩١).

بل كان قلبه علىٰ قلب رسول الله ﷺ سواء، وقد ورد أن ابن الدغنة وصف أبا بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- بنظير ما وصفت به خديجة رسول الله ﷺ سواء، من كونه يصل الرحم ويحمل الكل ويعين علىٰ نوائب الحق وغير ذلك، فلما كانت صفاتهما متشابهة من الابتداء استمر ذلك إلىٰ الانتهاء[١].

الرابعة والأربعون: في قول عمر -رضي الله تعالىٰ عنه-: (فعلامَ نعطي الدنية في ديننا). يقول النووي -رحمه الله تعالىٰ-: (قال العلماء: لم يكن سؤال عمر -رضي الله عنه- وكلامه المذكور شكًّا، بل طلبًا لكشف ما خفي عليه، وحثًا علىٰ إذلال الكفار وظهور الإسلام كما عُرف من خلقه -رضي الله عنه- وقوته في نصرة الدين وإذلال المبطلين، وأما جواب أبي بكر-رضي الله تعالىٰ عنه- لعمر بمثل جواب النبي ﷺ فهو من الدلائل الظاهرة علىٰ عظيم فضله وبارع علمه وزيادة عرفانه ورسوخه في كل ذلك وزيادته فيه كله علىٰ غيره-رضي الله تعالىٰ عنه)[٢].

الخامسة والأربعون: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:١٨] في الآية أمران مهمان: وصف لحال الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- في الحديبية، وتلك مهمة لنا، في أخذ الدرس والعبرة:

أولها: أن رضا الله -سبحانه وتعالىٰ- وهو من أعظم الغايات، بل هو غاية الغايات كلها، أخبرنا الله -جل شأنه- أنه تحقق للصحابة رضا الله تعالىٰ عنهم؛ بسبب عمل قلبي وهو العزم علىٰ لقاء العدو ومناجزته ببيعة الرضوان، فلما عزموا علىٰ هذا الأمر وصدقوا في ذلك رضي الله تعالىٰ عنهم، ولذلك فعمل القلوب وصلاحها هو الجوهر، قال الشيخ السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (فأخبر الله تعالىٰ

(١) ابن حجر، فتح الباري (٥/ ٣٤٦).
(٢) النووي، شرح صحيح مسلم (١٢/ ١٤١).

أنه رضي عن المؤمنين في تلك الحال التي هي من أكبر الطاعات وأجل القربات، ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإيمان، ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾) (ص٧٩٤).شكرًا لهم على ما في قلوبهم[١].

وقد قال تعالى للمشركين الأسرى في بدر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال:٧٠]، فتأمل ماذا وعد الله المشرك إذا علم الله منه صلاح القلب، سيؤتيه الله خيرًا مما أخذ منه ويغفر له ويرحمه. فلا يكن في قلبك إلا ما يرضي الله جل شأنه، لتفوز برضاه، فإنه لا يخفى عليه شيء.

ثانيهما: إنزال السكينة في القلوب، وهذه من خصائص الله جل شأنه، فلا يملك كائن من كان إنزال السكينة في القلب.

وإنزال السكينة في قلوب الصحب الكرام -رضي الله تعالى عنهم- لِمَا علم ما في قلوبهم من الجزع من تلك الشروط التي شرطها المشركون على رسوله، فأنزل عليهم السكينة تثبتهم وتطمئن بها قلوبهم[٢].

وكثيرًا ما يكابد المسلم في هذه الحياة مشكلات تقلق القلب وتضيق الصدر وتخرجه من سكينته، ولا حل لعودة السكينة إلى القلب إلا برضا الله واطلاعه على قلب عبده، ليجده قلبًا سليمًا.

السادسة والأربعون: وقفت عند قول الله تعالى: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ وهذا الفتح القريب، هو فتح خيبر، لكن الوقفة عند قوله تعالى: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾، فلعل فيها ما يشير إلى أن صلاح القلب سبب

(١) تفسير السعدي (ص ٧٩٣).
(٢) تفسير السعدي (ص ٧٩٣).

للرزق الكثير، يقول السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (فاختصوا بخيبر وغنائمها، جزاءً لهم وشكرًا علىٰ ما فعلوه من طاعة الله تعالىٰ والقيام بمرضاته)[1].

السابعة والأربعون: ما جرىٰ في الحديبية يسميه البعض غزوة الحديبية، ويسميه آخرون صلح الحديبية، ومنهم من يسميه عمرة الحديبية[2]. ولكن القرآن الكريم سماه فتحًا، وبعض العلماء سموه الفتح[3]، والفتح غير الغزو، قال ابن عاشور -رحمه الله تعالىٰ-: (والفتح: إزالة غلق الباب أو الخزانة، قال تعالىٰ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف:٤٠]،ويطلق علىٰ النصر وعلىٰ دخول الغازي بلاد عدوه؛ لأن أرض كل قوم وبلادهم مُدَافَعٌ عنها، فاقتحام الغازي إياها بعد الحرب يشبه إزالة الغلق عن البيت أو الخزانة، ولذلك كثر إطلاق الفتح علىٰ النصر المقترن بدخول أرض المغلوب أو بلده ولم يطلق علىٰ انتصار كانت نهايته غنيمة وأسر دون اقتحام أرض، فيقال: فتح خيبر وفتح مكة ولا يقال: فتح بدر. وفتح أحد)[4].

وهذا له دلالته أن ما جرىٰ أعظم وأنفع للمسلمين من الغزو، وأقل تكلفة وأعظم نكاية في العدو.

الثامنة والأربعون: كان من نتائج صلح الحديبية سرعة انتشار الإسلام في الجزيرة العربية، فلو نظرنا إلىٰ الذين أسلموا في السنتين التاليتين لصلح الحديبية إلىٰ فتح مكة، أي من أواخر سنة ست إلىٰ رمضان سنة ثمان، لوجدنا العدد كبيرًا، ومن أحد المؤشرات التي تدل علىٰ ذلك أن عدد من كان مع الرسول ﷺ في الحديبية ألف

---

(١) تفسير السعدي (ص ٧٩٣).

(٢) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٤٥٧).

(٣) عن البراء رضي الله عنه قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحا ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية: صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٧/ ٤٤١)، (رقم ٤١٥٠). وسيأتي.

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٦/ ١٤٣).

وأربعمئة، في حين كان الذين معه في فتح مكة عشرة آلاف وهو عدد ليس بالسهل، وهو مؤشر له دلالته علىٰ كثرة الداخلين في الإسلام خلال هذه المدة.

لقد أنهىٰ صلح الحديبية حالة الحرب، ودخل المسلمون في حالة السلم، وانطلق المسلمون ينشرون الدين، وكان جهدهم في السابق دفاعيًا في الغالب، لكثرة الأعداء، والآن أصبح جهدهم دعويًا لنشر رسالة الإسلام.

يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (ولما كانت قصة الحديبية مقدمة للفتح سُمِّيَتْ فتحًا، فإن الفتح في اللغة فتح المغلق والصلح كان مغلقًا حتىٰ فتحه الله، وكان من أسباب فتحه صد المسلمين عن البيت، وكان في الصورة الظاهرة ضيمًا للمسلمين وفي الصورة الباطنة عزًا لهم، فإن الناس لأجل الأمن الذي وقع بينهم اختلط بعضهم ببعض من غير نكير، وأسمع المسلمون المشركين القرآن وناظروهم علىٰ الإسلام جهرة آمنين، وكانوا قبل ذلك لا يتكلمون عندهم بذلك إلا خفية، وظهر من كان يخفي إسلامه، فذلَّ المشركون من حيث أرادوا العزةَ وأُقْهِرُوا من حيث أرادوا الغلبة)[1].

التاسعة والأربعون: كان من نتائج الصلح علىٰ العلاقة بين الرسول ﷺ والقبائل العربية أن دخلت قبائل عربية في عهد مع الرسول ﷺ وما كانت هذه القبائل تتجرأ علىٰ هذا الأمر قبل هذا الصلح، وكانت تُعظم قريشًا وتهابها، وأول هذه القبائل قبيلة خُزَاعة، وبعدها بدأت القبائل تتوافد علىٰ المدينة المنورة[2].

الخمسون: لم يقتصر أثر هذا الفتح علىٰ القبائل العربية القريبة من مكة، بل كان الأثر أوسع من ذلك، إذْ بدأ الرسول ﷺ يفكر في دعوة من هو خارج الجزيرة العربية، من الأفراد والزعماء، فقد راسل كسرىٰ فارس، وقيصر الروم، وزعماء العالم في كل

(١) ابن حجر، فتح الباري (٥/ ٣٤٨).

(٢) انظر: مهدي رزق الله، السيرة (ص ٤٩٥).

مكان ليدعوهم إلىٰ الإسلام، وقبل صلح الحديبية لم تذكر كتب السير أنه ﷺ راسل أحدًا من هؤلاء، مما يعني ظهور آفاق جديدة للدعوة بعد صلح الحديبية، وهذا -بلا شك- فتح كبير من فتوحات صلح الحديبية.

الواحدة والخمسون: لقد كان أثر صلح الحديبية عميقًا حتىٰ علىٰ المجتمع القرشي في مكة، بل علىٰ زعماء كبار منهم، كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان ابن أبي طلحة الذين توافدوا إلىٰ المدينة لإعلان إسلامهم وانضمامهم للقوة الإسلامية، ولا شك أن دخول هؤلاء وخصوصًا خالد بن الوليد مكسب عظيم للقوة الإسلامية، وآثاره بعد ذلك كانت واضحة في فتح مكة وما جاء بعدها من غزوات، حتىٰ في عهد الخلفاء الراشدين، فقد كان من أعظم قادة الجيوش الإسلامية في العراق وفي الشام. وعمرو بن العاص فاتح فلسطين ومصر رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين.

الثانية والخمسون: كان من القضايا الكبار التي يحمل الرسول ﷺ همها، تلك القوة اليهودية المتجمعة في خيبر، ولما انتهىٰ الرسول ﷺ من صلح الحديبية، وحيَّد قوة قريش ومن دخل في عهدهم، تفرغ لهذه القوة المحاربة له والمتآمرة عليه، فاستطاع القضاء عليهم دون أن يجدوا من ينصرهم، وغنم أموالهم وقسمها بين أصحابه، وبقي أهل خيبر فلاحين عند الرسول ﷺ ولم تستطع قريش أن تعين اليهود أو تمدهم بمال أو سلاح.

الثالثة والخمسون: رضا قريش بالمفاوضة مع الرسول ﷺ يعبر عن هزيمة نفسية لقريش، إذ كيف قبل عام تذهب إلىٰ المدينة بهدف الاستئصال، وفي العام الذي يليه تجلس معه علىٰ مائدة المفاوضات، وهو علىٰ حدود ديارهم.

وهذا يكشف ما وصل إليه المسلمون من قوة في نظر المشركين، فقد كانت قريش منذ ظهور الدعوة الإسلامية تعتبر النبي ﷺ صابئًا خارجًا عما اجتمع عليه

ملؤهم، وتعتبره ومن معه شرذمةً لا كيان لهم ولا مكان، لكن في صلح الحديبية اعترفت بهم قريش وجلست معهم جلوس الند للند[1].

الرابعة والخمسون: تكملة للفائدة السابقة، نلحظ أن قريشًا اكتفت بأن تدفع عنها الرسول ﷺ ولو لسنة واحدة فقط، فهي أصبحت غير قادرة علىٰ منعه دخول مكة، ورأت – فقط– حفظًا لماء الوجه أن تؤجل هذا الدخول ولو لعام واحد فقط، وهو ما نبه إليه الرسول ﷺ صحابته- رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين- عندما أكثروا إليه الشكوىٰ مما جرىٰ في صلح الحديبية، فذكَّرهم بالمقارنة بين حالهم في أحد والخندق، وما تم لهم في صلح الحديبية. روىٰ البيهقي -رحمه الله تعالىٰ- عن عروة بن الزبير -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: (أقبل رسول الله ﷺ من الحديبية راجعًا فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: والله ما هذا بفتح صُددنا عن البيت وصُد هَدْينا. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «بئس الكلام هذا، بل هو أعظم الفتح، لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم!! ويسألوكم القضية، ويرغبون إليكم الأمان، وقد كرهوا منكم ما كرهوا، ولقد أظفركم الله عليهم، وردكم سالمين غانمين مأجورين، فهذا أعظم الفتح أنسيتم يوم أحد؟ إذْ تُصعدون ولا تلوون علىٰ أحد، وأنا أدعوكم في أخراكم، أنسيتم يوم الأحزاب؟ إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون». فقال المسلمون: صدق الله ورسوله! وهو أعظم الفتوح والله يا رسول الله ما فكرنا فيما ذكرت، ولأنت أعلم بالله وبالأمور منا)[2].

الخامسة والخمسون: من تأمل حال قريش يلحظ أنها بدأت تتشرذم بإسلام العديد من قادتها، وأنها انكفأت علىٰ نفسها بمن بقي منهم بعد الصلح، ولم يتجاوز

---

(١) انظر: با شميل، غزوة الأحزاب (ص ٣٣١)، وانظر: أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٥٠).

(٢) صحيح الإمام مسلم (٤/ ١٩٤٢)، (رقم ٢٤٩٦).

اهتمامها بعد الحديبية شؤونها التجارية الخاصة بها، وسعيها لتأمين سلامة رحلاتها التجارية، ولم تهتم بضم أحلاف جديدة، في حين نشط المسلمون في التوسع بعد الحديبية في مجالاتهم الدينية والعسكرية داخل الجزيرة وخارجها.

السادسة والخمسون: يكفي لمعرفة منزلة صلح الحديبية أن الرسول ﷺ وهو في طريق عودته بعد الصلح إلىٰ المدينة نزلت عليه آيات، يقول عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه-: (جئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه، فقال: «لقد أنزلت علي الليلة سورة، لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس» ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:١])[١].

وفي صحيح مسلم -رحمه الله تعالىٰ- عن أنس بن مالك رضي الله تعالىٰ عنه قال: لما نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١-٥] مرجعه من الحديبية، وهم يخالطهم الحزن والكآبة، وقد نحر الهدي بالحديبية، فقال: «لقد أنزلت علي آية هي أحب إلي من الدنيا جميعًا»[٢].

السابعة والخمسون: لقد استحقت هذه الغزوة أن تقرن بغزوة بدر في الفضيلة، لما ترتب عليها من عز وانتصار للإسلام، وذل وانكسار للكفر والنفاق.

قال ابن عبد البر -رحمه الله تعالىٰ-: (ليس في غزوات الرسول ﷺ ما يعدل بدرًا أو يقرب منها إلا غزوة الحديبية، وهذا هو الراجح عندنا، وأما متكلمو الأشاعرة فقدموا غزوة أحد في الفضيلة علىٰ الحديبية، فزعموا أن غزوة أحد هي التي تلي غزوة بدر في الفضيلة والأول أولىٰ، والله أعلم)[٣].

(١) صحيح البخاري (٥/ ١٢٦)، (رقم ٤١٧٧).
(٢) صحيح مسلم (٣/ ١٤١٣)، (رقم ١٧٨٦).
(٣) السفاريني، شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد (١/ ٢٧٨).

وعن البراء قال: (تَعُدُّوْنَ أنتم الفتحَ فتحَ مكة، وقد كان فتحُ مكةَ فتحًا ونحن نَعُدُّ الفتحَ بيعةَ الرضوانِ يومَ الحديبيةِ)[1].

قال الزهري -رحمه الله تعالىٰ-: (فما فُتِح في الإسلام فتح قبله كان أعظم من فتح الحديبية، إنما كان القتال حيث التقىٰ الناس ولما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس، كلم بعضهم بعضًا والتقوا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة ولم يعلم أحد بالإسلام أو يعقل شيئًا في تلك المدة إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر، يعني من صناديد قريش)[2].

قال ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ-: (والدليل علىٰ قول الزهري - رحمه الله تعالىٰ- أن رسول الله ﷺ خرج إلىٰ الحديبية في ألف وأربعمئة في قول جابر بن عبد الله -رضي الله تعالىٰ عنهما- ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف)[3]، وقد سبقت الإشارة إلىٰ هذا المؤشر.

يقول النووي -رحمه الله تعالىٰ-: (والمصلحة المترتبة علىٰ إتمام هذا الصلح ما ظهر من ثمراته الباهرة وفوائده المتظاهرة التي كانت عاقبتها فتح مكة وإسلام أهلها كلهم ودخول الناس في دين الله أفواجًا، وذلك أنهم قبل الصلح لم يكونوا يختلطون بالمسلمين ولا تتظاهر عندهم أمور النبي ﷺ كما هي، ولَا يَحِلُّونَ بِمَنْ يُعْلِمُهُمْ بِهَا مُفَصَّلَةً، فلما حصل صلح الحديبية اختلطوا بالمسلمين وجاءوا إلىٰ المدينة وذهب المسلمون إلىٰ مكة وحلوا بأهلهم وأصدقائهم وغيرهم ممن يستنصحونه وسمعوا منهم أحوال النبي ﷺ مفصلة بجزئياتها ومعجزاته الظاهرة وأعلام نبوته المتظاهرة وحسن سيرته وجميل طريقته وعاينوا بأنفسهم كثيرًا من ذلك، فلما عرفت نفوسهم الإيمان، بادر خلق منهم إلىٰ الإسلام قبل فتح مكة، فأسلموا بين صلح الحديبية

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٤٤١)، (رقم ٤١٥٠).
(٢) ابن حجر، فتح الباري (٥/ ٣٤٨).
(٣) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/ ٣٧٢).

وفتح مكة وازداد الآخرون ميلًا إلىٰ الإسلام، فلما كان يوم الفتح أسلموا كلهم لما كان قد تمهد لهم من الميل)[1].

هذا بالنسبة إلىٰ الصلح، أما من حضره وبايع بيعة الرضوان، فيقول الله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ١٨-١٩]، ويقول جابر: (قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: «أنتم خير أهل الأرض» وكنا ألفًا وأربعمئة ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة)[2].

وعن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالىٰ عنهما- يقول: أخبرتني أم مبشر -رضي الله تعالىٰ عنها- أنها سمعت النبي ﷺ يقول- عند حفصة -رضي الله تعالىٰ عنها-: «لا يدخل النار -إن شاء الله- من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها» قالت: بلىٰ يا رسول الله. فانتهرها. فقالت حفصة -رضي الله تعالىٰ عنها-: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١]، فقال النبي ﷺ: قد قال الله -عز وجل-: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢][3].

الثامنة والخمسون: إن المسلمين -أحيانًا- تؤلمهم أحداثٌ معينة، وقد يكون الخير فيها، وقد لا يتجلىٰ خيرها إلا بعد حين، فلعل صلح الحديبية الذي أحزن المسلمين وآلم العديد منهم أشد الألم وقتها، ثم تكشفت الخيرات والبركات التي أتت منه علىٰ نحو غير متوقع، لعله درس مستمر للمسلمين ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].

---

(١) النووي، شرح صحيح مسلم (١٢/ ١٤٠).
(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٤٤٣)، رقم (٤١٥٤). وهذا بعدما كبر وكف بصره -رضي الله تعالى عنه-.
(٣) صحيح الإمام مسلم (٤/ ١٩٤٢)، (رقم ٢٤٩٦).

وهذا الأمر ينطبق علىٰ المسلمين بصفتهم أمة، وينطبق علىٰ حال الأفراد منهم، فإذا جاءت الأمور علىٰ خلاف ما تشتهون فلا تحزنوا ولا تقلقوا، فالعاقبة خير ﴿نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ﴾ [هود:٤٩]، وإذا جاءت الأمور في العالم الإسلامي علىٰ غير ما يشتهي المسلمون، وتوهم البعض أنه لن تقوم للمسلمين قائمة، فاعلم أنهم واهمون، وما علىٰ المسلمين إلا الثقة في الله وتقوية إيمانهم بفعل الطاعات وتجنب المعاصي، فهذا الدين، دين الله، وقد رأينا من مواقف النصر وحسن العاقبة ما تطمئن له قلوبنا، وأن الأحداث وإن ساءت بعضنا، فالعاقبة هي النصر -والحمد لله- وإن طال الزمن.

التاسعة والخمسون: الشجرة التي تمت البيعة تحتها والتي ورد ذكرها في القرآن الكريم هل قطعها عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- لماعلم بذهاب الناس إليها والصلاة عندها، أو أن الله أعمىٰ الناس عنها، فلم تُعرف بعد ذلك.

في الحقيقة، كنت أفكر في هذا الموضوع، حتىٰ وجدت بحثًا قصيرًا موجزًا ومفيدًا للشيخ عبد الحليم توميات في الموضوع، نشره في موقعه علىٰ الإنترنت، فنقلته بحروفه تقريبًا، يقول وفقه الله تعالىٰ: (فقد شاع وذاع لدىٰ العامّة والخاصّة قصّة قطع عمر -رضي الله عنه- لشجرة الحديبية التي تمّت البيعة المباركة عندها، وخلّد القرآن الكريم ذكرها، وقد بحثت عن أصل هذه القصّة، فرأيت الخلاف في ذلك قديمًا، ومجمله قولان:

القول الأوّل: لم يقطع عمر -رضي الله عنه- الشجرة.

قالوا: لأنّه لا يعلم مكانَها أحدٌ إلاّ الله عزّ وجلّ. ومعتمد هؤلاء ما يلي:

١. ما رواه البخاري -رحمه الله تعالىٰ- عن طارقِ بنِ عبدِ الرّحمنِ قال: انْطَلَقْتُ حَاجًّا، فَمَرَرْتُ بِقَوْمٍ يُصَلُّونَ، قُلْتُ: مَا هَذَا الْمَسْجِدُ؟ قَالُوا: هَذِهِ الشَّجَرَةُ حَيْثُ بَايَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ! فَأَتَيْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ

سَعِيدٌ: (حَدَّثَنِي أَبِي أَنَّهُ كَانَ فِي مَنْ بَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، قَالَ: فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنْ الْعَامِ الْمُقْبِلِ نَسِينَاهَا، فَلَمْ نَقْدِرْ عَلَيْهَا، فَقَالَ سَعِيدٌ: إِنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ لَمْ يَعْلَمُوهَا وَعَلِمْتُمُوهَا أَنْتُمْ؟! فَأَنْتُمْ أَعْلَمُ).

٢. ما رواه البخاري -رحمه الله تعالىٰ- أيضًا عن ابنِ عمرَ -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: رَجَعْنَا مِنْ الْعَامِ الْمُقْبِلِ، فَمَا اجْتَمَعَ مِنَّا اثْنَانِ عَلَىٰ الشَّجَرَةِ الَّتِي بَايَعْنَا تَحْتَهَا! كَانَتْ رَحْمَةً مِنْ اللهِ.

٣. قال الحاكم -رحمه الله تعالىٰ-في: معرفة علوم الحديث: (ص٦٥): (... ثمّ إنّ الشجرة فُقدت بعد ذلك، فلم يجدوها، وقالوا: إنّ السّيول ذهبت بها، فقال سعيد بن المسيب: سمعت أبي - وكان من أصحاب الشّجرة- يقول: (قد طلبناها غير مرّة فلم نجدها).

٤. قال الإمام الطّبري -رحمه الله- في تفسيره: (ج٢٢/ ٢٢٦): (وزعموا أنّ عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- مرّ بذلك المكان بعد أن ذهبت الشجرة، فقال: أين كانت؟ فجعل بعضهم يقول: هنا، وبعضهم يقول: ههنا، فلمّا كثر اختلافهم قال: سيروا، هذا التكلّف. فذهبت الشّجرة، وكانت سمُرة إمّا ذهب بها سيل، وإمّا شيء سوىٰ ذلك).

٥. قالوا: أما أثر عمر رضي الله عنه في قطع الشّجرة، فقد أخرجه ابن سعد في الطّبقات (٢/ ١٠٠) عن نافع قال: كان النّاس يأتون الشّجرة الّتي يقال لها: (شجرة الرضوان)، فيصلّون عندها، قال: فبلغ ذلك عمر بن الخطّاب رضي الله عنه فأوعدهم فيها وأمر بها فقطعت. ورواه ابن أبي شيبة أيضًا في المصنّف: (٢/ ٧٣/ ٢)، قال: حدّثنا معاذ بن معاذ، قال: حدثنا ابن عون عن نافع قال: بلغ عمرَ بنَ الخطّاب -رضي الله عنه- أنّ أناسًا يأتون الشّجرة الّتي بويع تحتها، قال: فأمر بها فقطعت. والأثران صحيحان إلىٰ نافع، أمّا إلىٰ عمر فلا، فإنّهما من قبيل المرسل؛ لأن نافعًا لم يُدرك عمر بن الخطّاب رضي الله عنه. وقد ضعّفه الشّيخ الألباني -رحمه الله- في تحذير السّاجد: (ص١٢٥).

القول الثّاني: أنّ مكانها معلوم لبعضهم، وإنّ عمر قطع الشّجرة.

ومعتمد هؤلاء ما يلي:

(أ) ما رواه البخاري عن جابر بنِ عبدِ الله -رضي الله عنهما- قال: قال لنا رسولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ: «أَنْتُمْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ». وَكُنَّا أَلْفًا وَأَرْبَعَمِئَةٍ، وَلَوْ كُنْتُ أُبْصِرُ الْيَوْمَ لَأَرَيْتُكُمْ مَكَانَ الشَّجَرَةِ. قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله- في فتح الباري (٧/ ٤٤٨): (إنكار سعيد بن المسيّب علىٰ من زعم أنّه عرفها معتمدًا علىٰ قول أبيه: إنّهم لم يعرفوها في العام المقبل، لا يدلّ علىٰ رفع معرفتها أصلًا، فقد وقع عند المصنّف من حديث جابر-رضي الله تعالىٰ عنه-الذي قبل هذا: (لو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة)، فهذا يدل علىٰ أنّه كان يضبط مكانها بعينه، وإذا كان في آخر عمره بعد الزمان الطويل يضبط موضعها، ففيه دلالة علىٰ أنه كان يعرفها بعينها؛ لأن الظاهر أنها حين مقالته تلك كانت هلكت إما بجفاف وإما بغيره، واستمر يعرف موضعها بعينه.

(ب) أمّا أثر نافع فهو حقًّا مرسل، لكنّه يتقوّىٰ بغيره، من ذلك:

- ما أخرجه الفاكهي في أخبار مكّة: (٥/ ٧٧) قال: حدّثنا أحمد بن سليمان، قال: ثنا زيد بن المبارك، قال: (ثنا ابن ثور عن ابن جريج في قوله تعالىٰ: ﴿يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ قال: سمرةٌ كانت بالحديبية، فكانت هذه الشجرة يُعرَف موضعُها، ويؤتىٰ هذا المسجد، حتّىٰ كان عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فبلغه أنّ النّاس يأتونها، ويصلّون عندها فيما هنالك، ويعظّمونها، فرأىٰ أنَّ ذلك من فعلهم حدث).

- وأخرج أيضًا في (٥/ ٧٨) قال: (حدّثنا حسين بن حسن المروزي، قال: ثنا إسماعيل بن إبراهيم، قال: ثنا ابن عون، قال: بلغ عمرَ -رضي الله عنه- أنّ الشّجرة الّتي بويع عندها تؤتىٰ، فأوعد في ذلك وأمر بها فقطعت). لذلك صحّحه الشّيخ الألباني في تخريج أحاديث فضائل الشّام، ومن المعلوم أنّه -رحمه الله- ألّفه بعد تحذير السّاجد.

الحاصل: يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يقال: إنّ عمر -رضي الله عنه- قد قطع شجرةً، ولكن ليست هي شجرة الحديبية الّتي تمّت عندها البيعة؛ لأنه لم يعد يعرف مكانها أحدٌ، ومن كان يعرف مكانها لم يقدِر علىٰ بيانها للنّاس مثل جابر -رضي الله عنه-، ولكنّه قطع شجرة أخرىٰ كان النّاس يظنّون أنّها هي الشجرة الّتي وقعت تحتها البيعة. وذلك لأمرين اثنين:

(أ) تجمّع النّاس حول تلك المنطقة أمر ثابت كما في صحيح البخاري.

(ب) ثمّ لا يمكن أن يرىٰ عمر -رضي الله عنه- هذا المنكر، وهو تعظيم النّاس لشجرة يُظنّ أنّها مباركة، ثمّ لا يغيّره!

لذلك ما أجمل قول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ- في اقتضاء الصّراط المستقيم: (١/ ٣٠٦): (أمر عمر-رضي الله تعالىٰ عنه- بقطع الشّجرة الّتي توهّموا أنّها الشّجرة الّتي بايع الصّحابة النبيّ ﷺ تحتها بيعة الرّضوان، لمّا رأىٰ النّاس ينتابونها ويصلّون عندها كأنها المسجد الحرام أو مسجد المدينة) اهـ. والله تعالىٰ أعلم، وأعزّ وأكرم.[١]. انتهىٰ.

الستون: نأخذ من فعل عمر -رضي الله تعالىٰ- في قطع الشجرة التي يتوهم الناس أنها شجرة البيعة، حرص الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- علىٰ حماية جناب التوحيد، وسد ذرائع الشرك بالله سبحانه وتعالىٰ، والبعد عن تعلق القلوب بغير الله -جل شأنه- أو طلب البركة من غيره سبحانه وتعالىٰ.

قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- وهو يتحدث عن إخفاء موقع الشجرة: (الحكمة في ذلك وهو أن لا يحصل بها افتتان لما وقع تحتها من الخير، فلو بقيت لما أمن تعظيم بعض الجهال لها حتىٰ ربما أفضىٰ بهم إلىٰ اعتقاد أن لها قوة نفع أو ضر

(١) عبد الحليم توميات، موقع الشيخ عبد الحليم توميات (نبراس الحق) على الإنترنت، نقلته بتاريخ ١١ محرم ١٤٤٢.

كما نراه الآن مشاهدًا في ما هو دونها)[1]. فقد اجتمع -ولله الحمد- إخفاء وقطع لما يتوهم أنه الشجرة، حتىٰ لا ينساق الناس إلىٰ أوهام الشرك والوثنية.

يقول الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله تعالىٰ-: (وقد قُطعت الشجرة، ونُسي مكانها، وذلك خير، فلو بقيت لضربت عليها قبة، وشدت إليها الرحال، فإن الرعاع سرع في التعلق بالمواد والأثار التي تقطعهم عن الله سبحانه وتعالىٰ)[2].

فيا أخي تمسك بالتوحيد وعلق قلبك بالله، ولا تكن من هؤلاء الرعاع الذين دينهم قائم علىٰ العاطفة، يُعلقون قلوبهم بالأشجار والأحجار لأدنىٰ مناسبة دينية، ويتبركون بها ويطلبون نفعها ويلجأون إليها لدفع الضر، وهي أشجار أو أحجار لا تملك شيئًا، بل تقطعهم عن الله وعن التوجه إليه وطلب الحاجات منه سبحانه وتعالىٰ.

ورسالة نبينا ﷺ جوهرها هو توجيه القلوب إلىٰ التعلق به -سبحانه- وإفراده -سبحانه- بالرجاء والخوف والمحبة وكل القربات والعبادات.

الواحدة والستون: سهيل بن عمرو -رضي الله تعالىٰ عنه- الذي امتنع أن يُقر للرسول ﷺ بالنبوة في صلح الحديبية، وقال للرسول ﷺ: اكتب اسمك واسم أبيك، نجده في حجة الوداع -بعد أن هداه الله للإسلام- يلتقط من شعر الرسول ﷺ ويضعه علىٰ عينيه، محبةً للرسول ﷺ وتبركًا بها، يقول أبو بكر الصديق-رضي الله تعالىٰ عنه- كمافي السيرة الحلبية: (لقد رأيت سهيل بن عمرو-رضي الله تعالىٰ عنه- بعد إسلامه في حجة الوداع قائمًا عند المنحر يُقَرِّب لرسول الله ﷺ بُدنة، ورسول الله ﷺ ينحرها بيده، ودعا الحلاق لحلق رأسه، فأَنْظُر إلىٰ سهيل -رضي الله تعالىٰ عنه- يلتقط من شعر رسول الله ﷺ ويضعه علىٰ عينيه، وأذكر امتناعه أن يُقرّ يوم الحديبية بأن يكتب بسم الله الرّحمن الرّحيم، أي: وأن محمدًا رسول الله ﷺ فحمدتُ الله

(١) فتح الباري (٦/ ١١٨).

(٢) محمد الغزالي، فقه السيرة (ص٣٣٠).

وشكرتُه الذي هداه للإسلام)[1].

ويقول الذهبي -رحمه الله تعالىٰ- عن سهيل -رضي الله تعالىٰ عنه-: قال الزبير بن بكار -رحمه الله تعالىٰ-: كان سهيل -رضي الله تعالىٰ عنه- بعدُ، كثير الصلاة والصوم والصدقة، خرج بجماعته إلىٰ الشام مجاهدًا. ويقال: إنه صام وتهجد حتىٰ شحب لونه وتغير، وكان كثير البكاء إذا سمع القرآن[2].

وهذه ذكرتها استطرادًا لبيان صنائع الإيمان في النفوس، وكيف كانت حال الصحب الكرام بعد الإيمان، وكيف كان الصحابي، يتذوق طعم الإيمان وحلاوته، فيكون إيمانه أحب إليه من الدنيا وما فيها، كيف محبتهم للرسول ﷺ وتوقيرهم لهم، وكيف حوَّلهم الإسلام إلىٰ عاملين وجادين وأتقياء وصالحين، صلاةً وصيامًا وصدقةً وجهادًا وتلاوةً للقرآن الكريم. اللهم ارحمنا برحمتك يا أرحم الراحمين.

الثانية والستون: يقول الخطابي -رحمه الله تعالىٰ- تعليقًا علىٰ قصة أبي جندل -رضي الله تعالىٰ عنه- وما فيها من الفقه: (وإنما رد الرسول -ﷺ- أبا جندل إلىٰ أبيه؛ لأن الغالب من أمره أنه لا يقتله لكن يستبقيه، وينتظر به الرجعىٰ، فكان يسير الفساد في الأمر الخاص محتملًا في جنب الكثير من الصلاح في الأمر العام شامل النفع، والله أعلم)[3]. وهذا فقه مهم في الموازنة بين الفساد والصلاح خاصه وعامه.

وأختم بهذه الفائدة:

الثالثة والستون: ورد في عبارات الصلح أن المتفق عليه هو (أنه لا يأتيك منا أحد وإن كان علىٰ دينك إلا رددته إلينا، وخليت بيننا وبينه)[4]. وورد أيضًا (وعلىٰ

(١) الحلبي، السيرة الحلبية (٣/ ٤١). والزرقاني، شرح الزرقاني على المواهب (٣/ ٢٠٧).
(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء (١/ ١٩٥).
(٣) الخطابي، أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) (٢/ ١٣٤٠).
(٤) صحيح البخاري (٣/ ١٨٨) رقم (٢٧١١) من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان علىٰ دينك إلا رددته إلينا)[1]. وعلق علىٰ العبارة الثانية الشيخ محمد الطاهر بن عاشور -رحمه الله تعالىٰ- بقوله: (هكذا ثبت في رواية معمر عن الزهري، وإذا كان كذلك كتب سهيل فهي زلة سياسية غلبه فيها الاستعمال الشائع، من إطلاق الرجل علىٰ الإنسان مطلقًا، مثل المرء، إلا أن مقامات التوثق في الشروط يجتنب فيها اللفظ الموهم، فإذا كان كذلك كان امتناع الرسول ﷺ من رد المؤمنات المهاجرات إلىٰ المشركين غير ناقض لشروط العهد، وقد كان هذا السهو لطفًا من الله بالمسلمين، فيكون قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ [الممتحنة: ١٠] بيانًا للحالة التي لا يُرجعن فيها إلىٰ المشركين، وليس نسخًا لشرط الصلح، إذْ النسخ لا يتعلق بشروط العدو»[2]. وهي أيضًا فائدة في أهمية الدقة في صياغة العقود والشروط، وكل ما يحتاج إلىٰ توثيق.

الرابعة والستون: نخلص من هذا كله أن الرسول ﷺ خرج يريد العمرة، وعاد وقد حيَّد قريشًا، وأخرجها من دائرة العدو المحارب، إلىٰ دائرة العدو المصالح والمسالم، ولا شك أن تحييد قريش، وتأجيل العمرة سنة واحدة، خيرٌ وأعلىٰ وأنفع للمسلمين من أداء العمرة في ذلك العام مع بقاء حالة الحرب مع قريش.

---

(١) صحيح البخاري (٣/ ١٩٣) رقم (٢٧٣١) من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

(٢) محمد الطاهر بن عاشور، النظر الفسيح عند مضائق الأنظار في الجامع الصحيح، الطبعة الثالثة (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع ١٤٣٣هـ) (ص ٨٢).

المبحث الثاني

فقه السيرة في رسائل النبي ﷺ

إلىٰ الملوك والأمراء

بعد أن فرغ الرسول ﷺ من الحديبية، وحيَّد موقف قريش، وعاد إلىٰ المدينة، بدأ ﷺ بمكاتبة الملوك والأمراء في الجزيرة وما حولها، يدعوهم إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ. والغالب أن تاريخ هذه الكتب كان متقاربًا، وأنها في حدود شهر ذي الحجة من العام السادس أو محرم من السنة السابعة، ولم يُعرف أن الرسول ﷺ كاتب أحدًا قبل الصلح، يدعوه إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ- ولما أراد الرسول ﷺ أن يكتب قيل له: (إنهم لا يقرأون كتابًا إلا مختومًا، فاتخذ خاتمًا من فضة نقشه محمد رسول الله)[1].

ومن أوثق الرسائل تلك الرسالة التي بعثها الرسول ﷺ إلىٰ هرقل ملك الروم، فقد ورد نص هذه الرسالة في صحيح البخاري: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله ورسوله إلىٰ هرقل عظيم الروم، سلام علىٰ من اتبع الهدىٰ، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللهُ أجرَك مرتين، فإن تَوَلَّيْتَ فإنما عليك إثم الأريسين[2] ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (١/ ١٥٥)، (رقم ٦٥).

(٢) قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- في الفتح (١/ ٣٩): «الأريسيين هو جمع أريسي وهو منسوب إلى أريس بوزن فعيل وقد تقلب همزته ياء كما جاءت به رواية أبي ذر والأصيلي وغيرهما هنا قال ابن سيده: الأريس الأكار أي الفلاح».

بِأَنَّامُسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٦٤][١]، وفي الصحيح تفصيل قصة هرقل مع أبي سفيان لما سأله عن النبي ﷺ وصفته وأشياء أخرىٰ بعد ورود الرسالة إليه يحملها دحية الكلبي -رضي الله عنه- في المدة الواقعة بين الحديبية وفتح مكة، ولم يستجب قيصر وإن كان رد ردًا وسطًا، لكنه ضن بملكه فلم تُكْتَبْ له الهداية.

وفي صحيح البخاري -رحمه الله تعالىٰ- عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه إلىٰ كسرىٰ ملك الفرس مع عبد الله بن حذافة السهمي -رضي الله تعالىٰ عنه- فأمره أن يدفعه إلىٰ عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلىٰ كسرىٰ، فلما قرأه مَزَّقَه، قال الراوي: فحسبت أن ابن المسيب -رحمه الله تعالىٰ- قال: فدعا عليهم رسول الله ﷺ «أن يُمَزَّقُوْا كُلَّ مُمَزَّقٍ»[٢].

وبعث رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة -رضي الله تعالىٰ عنه- إلىٰ المقوقس صاحب الإسكندرية، فمضىٰ بكتاب رسول الله ﷺ فقبَّل الكتاب وأكرم حاطبًا، وأحسن له وحمَّله هدايا للنبي ﷺ[٣].

وفِعْل المقوقس هذا يدل علىٰ تقديره لرسول الله ﷺ كما يدل علىٰ أنه لم يُسلم خوفًا علىٰ ملكه[٤].

وكاتب رسول الله ﷺ النجاشي ملك الحبشة، الذي أسلم، ولما مات صلىٰ عليه الرسول ﷺ صلاة الغائب، ثم كاتب النجاشي الذي ولي بعده وكان كافرًا[٥]. وفي صحيح مسلم -رحمه الله تعالىٰ- عن أنس -رضي الله عنه- (أن النبي ﷺ كتب إلىٰ كسرىٰ وإلىٰ قيصر وإلىٰ النجاشي وإلىٰ كل جبار يدعوهم إلىٰ الله -عز وجل-

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (١/ ٣٢)، (رقم ٧).
(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٨/ ١٢٦)، (رقم ٤٤٢٤).
(٣) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٤/ ٢٧٢).
(٤) انظر: أبو شهبة، السيرة (٢/ ٣٦٢).
(٥) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٨/ ١٢٩).

وليس بالنجاشي الذي صلىٰ عليه النبي ﷺ)[1].

وبعث رسول الله ﷺ سليط بن عمرو -رضي الله تعالىٰ عنه- إلىٰ هوذة بن علي صاحب اليمامة[2]. فلم يُسلم، وبعث العلاء بن الحضرمي إلىٰ جيفر بن الجلندي وعمار بن الجلندي الأزديين صاحبي عمان[3].

وكتب إلىٰ المنذر بن ساوىٰ أمير البحرين مع أبي العلاء الحضرمي، فأسلم وأقره النبي ﷺ علىٰ إمارته. وكلها رسائل يدعو فيها أولئك إلىٰ الإسلام والدخول في هذا الدين.

الفوائد المستخرجة من مكاتبة الرسول ﷺ الملوك والأمراء

الأولىٰ: هذه الخطوة الجديدة في مجال الدعوة، وهي مكاتبة زعماء العالم ودعوتهم إلىٰ الإسلام، لم تكن لتتم لولا اعتراف قريش بهذه الدولة الإسلامية، إذ إن من المعروف لدىٰ زعماء العالم الكبار في ذلك الوقت أن الزعامة الدينية والاقتصادية في الجزيرة العربية لقريش، فلما رضيت قريش بالتعامل مع المسلمين،

---

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٣٩٧)، (حديث (رقم ١٧٧٤).

(٢) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٤/ ٢٧٣).

(٣) المرجع السابق. وقد ذكر ابن كثير -رحمه الله تعالى- في السيرة (٣/ ٥١٥) أن الرسول ﷺ بعث العلاء بن الحضرمي -رضي الله تعالى عنه- إلى جيفر ابن الجلندي وعمار بن الجلندي الأزديين صاحبي عمان. وقال في (٣/ ٧١٠) عن الواقدي -رحمه الله تعالى- قوله: «وفي هذه السنة بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص -رضي الله تعالى عنه- إلى جيفر وعمرو ابني الجلندي من الأزد» وهو ما ذكره ابن هشام في السيرة، والسهيلي في الروض الأنف (٦/ ٢٨٧ و ٧/ ٥١٦). مع أن عمرو بن العاص -رضي الله تعالى عنه- لم يسلم إلا بعد الحديبية. فإن صح ما ذكر فلعل الرسول ﷺ كاتبهما مرتين، الأولى وهي التي حملها العلاء بن الحضرمي -رضي الله تعالى عنه- والأخيرة هي التي حملها عمرو بن العاص -رضي الله تعالى عنه- ومما يؤيد هذا أن عمرو بن العاص -رضي الله تعالى عنه- كان على عمان فجاءه كتاب أبي بكر -رضي الله تعالى عنه- بوفاة رسول الله ﷺ سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٦٩)، كما أن الرسول ﷺ كاتب النجاشي مرتين، والله أعلم.

كان اعترافًا منها بالتخلي عن هذه الزعامة والتسليم لهذا المنافس القوي المجاور، مما سهل قبول سائر الزعامات للرسائل، واستقبال الرسل من الرسول، ﷺ.

الثانية: لم يكن الإقدام علىٰ إرسال الرسل لهؤلاء الزعماء بالأمر اليسير، بخاصة أنه وقع دفعة واحدة في أيام متقاربة، ولو كانت زعامة دنيوية تنظر إلىٰ المصالح الدنيوية، لما أقدمت علىٰ هذه الخطوة.

وهذه الخطابات تكشف وتُثبت -بما لا يدع مجالًا للشك- عظمة هذا الرسول ﷺ في قيادته وفي قوته وجهاده، إذ لا يخشىٰ في الله لومة لائم، متجردًا تمامًا لله -عز وجل- طائعًا لكل أوامره؛ لأنه لو كان أحد ملوك الدنيا، فلن يفكر أبدًا في مثل هذه المراسلات؛ لأنها ستقلب عليه الأوضاع تمامًا، وتثير عليه كبار أهل الدنيا، وتجعلهم يتكالبون للقضاء عليه.

وقد يتهور بعض هؤلاء الأعداء ويجيشون الجيوش لمحاربة هذه الدولة والقضاء عليها في مهدها، لكن الرسول ﷺ كان همه الدعوة الىٰ الله وتبليغ رسالته وثقته التامة بنصر الله -سبحانه وتعالىٰ- ولذلك أقدم علىٰ ذلك وكاتبهم جميعًا، وأبلغهم رسالة ربه، متحملًا كل النتائج، واثقًا بأن الذي حفظه وكفاه في الهجرة وفي بدر وأحد والأحزاب والحديبية وغيرها سيحفظه وسينصره لو حاول زعيم من هؤلاء الزعماء العالميين اللقضاء عليه، بل لو حاولوا كلهم مجتمعين من فُرْس وروم وحبشة وأقباط، فالله ناصره عليهم أجمعين.

الثالثة: كانت الرسائل متشابهة فيما بينها، وكان الهدف واضحًا لا مجاملة فيه، ولا غرض دنيوي، ولا دعوة شخصية، إنما دعوة واضحة إلىٰ التوحيد، إلىٰ توحيد الله -سبحانه وتعالىٰ- مع ترغيب وإنصاف للمدعو: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًۭٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًۭا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

دعوة إلىٰ أن يتخذ الجميع ربًا واحدًا، وحده لا شريك له، يوحدونه في الربوبية، ويوحدونه في الألوهية، فلا ربوبية لأحد منا علىٰ الآخر. ولا يتجه أحد منا بشيء من عبادته لغير الله سبحانه وتعالىٰ.

وهل يريد المُنْصف أحسن من هذا؟

الرابعة: في مكاتبة الرسول ﷺ لأولئك الملوك والأمراء دليل علىٰ عالمية هذه الرسالة وأنها للناس كافة، فقد قال الله تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ: ٢٨].

وعن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَىٰ قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَىٰ النَّاسِ عَامَّةً»(١).

فبعد صلح الحديبية، كانت الفرصة سانحة لتوسيع دائرة الدعوة ومخاطبة أمم لم تبلغهم الرسالة ومكاتبة آفاق لم تتم مكاتبتها من قبل.

ومن خلال النصوص الشرعية، والتطبيق العملي في سيرة النبي ﷺ تظهر لنا هذه العالمية في الدعوة، وأنها تأخرت لأنه لم يحن وقتها إلا بعد الحديبية، وفي ذلك رد علىٰ أولئك الذين يقولون إن محمدًا ﷺ مبعوثٌ للعرب فقط وليس للعالمين.

الخامسة: عالمية الرسالة أوضحتها آيات نزلت في العهد المكي مثل هذه الآية، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، مما يوضح خطأ

(١) صحيح البخاري (١/ ٩١)، (رقم ٣٣٥).

النظرة القائلة بالتدرج في نطاق الدعوة من الإقليمية إلىٰ العالمية تبعًا لاتساع النفوذ السياسي للرسول ﷺ وأن الرسول ﷺ لم يخطر بباله العالمية إلا بعد أن انتشرت دعوته في الجزيرة العربية، ويرد علىٰ هذا أن صفة العالمية -كما تشير إليها الآية المذكورة- تقررت والمسلمون مستضعفون بمكة يخافون أن يتخطفهم الناس[(١)].

السادسة: إن هذه العالمية للدعوة تُحَمِّل كل مسلم مسؤولية الدعوة إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ- في أي بقعة من هذا العالم، فمحمد ﷺ رسول للعالمين، وأمته كذلك تابعة له، دعاة إلىٰ الله، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف:١٠٨].

السابعة: توقيت إرسال هذه الكتب له دلالته، وقد كان الرسول ﷺ وهو في مكة يُدرك هذه العالمية في الدعوة، لكن لم يأتِ وقتها بعد، ولكنه كان يُبشِّر بها المؤمنين في مكة قبل سنوات من الهجرة، ويخبرهم بأن لهم وظيفة تجاه العالم، وهي دعوتهم إلىٰ الله، وأن هذه الدعوة تجعلهم سادة العالم، وكان يقول لهم: «يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، وتملكوا بها العرب، وتذل لكم بها العجم»[(٢)].

الثامنة: من قبول الرسول ﷺ لاتخاذ الخاتم بعد أن أُخْبِرَ أن من سيكتب لهم لا يقرأون إلا كتابًا مختومًا، نأخذ منه إمكانية الاستفادة مما لدىٰ الغير مما لا يتعارض مع الدين.

التاسعة: في مكاتبة الرسول ﷺ للملوك والأمراء تنبيه إلىٰ حقوق ذوي السلطة والمكانة، فالرسول ﷺ يوجه إليهم الخطاب ويلقبهم بألقاب فيها تقدير لهم، فهو يقول: (عظيم الروم، عظيم فارس، وهكذا). ومع ذلك، فقد قيَّد هذا التعظيم، ولم يجعله مطلقًا، (عظيم الروم، عظيم فارس...)، وهذا هو الواقع، فإنه معظَّم عندهم.

(١) انظر: أكرم العمري، السيرة الصحيحة (٢/ ٤٥٦).
(٢) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٣٩).

العاشرة: نلحظ أن الرسول ﷺ يجمع في أسلوبه بين الترغيب والترهيب، فهو يقول لعظيم الروم: «أَسْلِمْ تَسْلَمْ يؤتِكَ اللهُ أجرَكَ مرتين» وهذا ترغيب له، ثم يقول: «فإن تولَّيتَ فإنما عليك إثمُ الإريسيين» وهذا ترهيب له من عاقبة عدم إسلامه[1].

الحادية عشرة: وهي تكملة للفائدة السابقة، وهي أن الراعي مسؤول عن رعيته، له أجرهم، وعليه وزرهم، في ما يجب عليه من ولاية، وما يتحمله من تقصير، عن عبد الله بن عمر -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راعٍ ومسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها»[2].

فلو استجاب كسرىٰ، وتبعه الفرس بالإسلام لكان له أجرهم، ولما أبىٰ الإسلام كان عليه إثمهم، وكذلك بقية الزعماء الذين خاطبهم الرسول ﷺ وأبلغهم دعوة الإسلام.

ولو أخذنا بنطاق ضيق، فإن الأب في بيته له أجر هداية أولاده، وعليه وزرهم إن قصر في الواجب عليه من تعليمهم ونصحهم، وتلك مسؤولية غفل عنها كثير من المسلمين، فأهملوا الواجب عليهم تجاه زوجاتهم وأبنائهم وبناتهم، وقد قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

الثانية عشرة: يُلاحَظُ علىٰ هذه الكتب عمومًا الخبرةُ الدقيقةُ بنفوس من أُرْسِلَتْ إليهم وحُسْنُ اختيارِ الألفاظ المناسبة للكل والمثيرة للعواطف والمحرِّكة للمشاعر، ولذلك من لم يُسْلِم - في الغالب- لم يكن رده سيئًا[3].

---

(١) انظر: ابن حجر، فتح الباري (١/ ٣٩ - ٤٠).
(٢) صحيح البخاري (٢/ ٦)، (رقم ٨٩٣) وصحيح مسلم (٣/ ١٤٥٩)، (رقم ١٨٢٩)
(٣) انظر: أبو شهبة، السيرة النبوية (٢/ ٣٦٥).

كان الرسول ﷺ يختار الرسول من أشخاص لهم معرفة وخبرة سابقة بالأماكن التي يرسلهم إليها.

الثالثة عشرة: في موقف الزعماء النصارىٰ الذين كاتبهم النبي ﷺ وكانت ردودهم فيها التقدير للرسول وإن لم تكن فيها الاستجابة، نتذكر قول الله تعالىٰ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة:٨٢]. ونجد في آيات أخرىٰ أن القرآن الكريم ذكر من أحوال النصارىٰ ما شنع به عقيدتهم، ونهىٰ عن اتخاذ أي من الفريقين أولياء، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١]، لكنه فرق بينهم، وبين اليهود والمشركين من حيث بُغضهم للمسلمين والتآمر عليهم، فهم ليسوا في السوء سواء.

ووجد النبي ﷺ من نصارىٰ الحبشة الإيواء والنصرة للمهاجرين إلىٰ الحبشة، وعداوة يهود المدينة غير خافية علىٰ أحد، وهنا لما أرسل الرسول ﷺ كتبه إلىٰ الملوك والأمراء، فكان النصارىٰ من أحسنهم ردًا، وقد حاول هرقل ملك الروم في الشام إقناع رعيته بقبول الإسلام، فلم يستطع، واكتفىٰ برد حسن، وضن بملكه، والمقوقس عظيم القبط في مصر كان أحسن منه ردًا، وإن لم يكن أحسن منه ميلًا للإسلام، وأرسل للنبي ﷺ هدية حسنة، ثم لما فُتِحَتِ الشامُ ومصرُ وعرف أهلها الإسلام، أسرعوا إلىٰ الدخول فيه[1]. وهذا مفيد للداعية الىٰ الله في تعامله مع هؤلاء.

الرابعة عشرة: الرسائل وسيلة من وسائل الدعوة إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ- ووسيلة من وسائل النصح، فبها يستطيع الشخص أن يبلغ الدعوة إلىٰ أماكن بعيدة، لا يستطيع أن يصل إليها، ويستطيع أن يأمر بمعروف وينهىٰ عن منكر بأدب واحترام،

(١) المراغي، تفسير المراغي (٧/ ٦).

دون إحراج للمدعو، أو لمن يريد أن يأمره بمعروف أو ينهاه عن منكر، وكم تناصح العلماء فيما بينهم، وناصح العلماء ولاة أمورهم وتناصح الإخوان فيما بينهم، والأقارب والجيران والتلميذ والمعلم، كل ذلك عن طريق الرسائل المؤدبة أسلوبًا، وبنصائح سرية لا يطلع عليها إلا من قُدمت له النصيحة.

الخامسة عشرة: من تفاوت الرد علىٰ رسائل الرسول ﷺ بين مستجيب ومتردد ورافض وممزق للرسالة، نأخذ أن الداعية إلىٰ الله ليس عليه إلا البلاغ المبين، والهداية بيد الله –جل شأنه– يَمُن بها علىٰ من يشاء من عباده، قال تعالىٰ: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ [المائدة:٩٩]. وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص:٥٦].

المبحث الثالث

فقه السيرة في غزوة خيبر

كان تاريخ اليهود في خيبر مع الرسول ﷺ مليئًا بالغدر به، والتآمر عليه، ونصرة العدو، بل أسهموا إسهامًا بالغًا في تجييش الجيوش ضد الرسول ﷺ فقد أرسلوا وفدًا منهم إلىٰ قريش، وإلىٰ قبائل العرب يدعونهم إلىٰ حرب الرسول ﷺ ووعدوهم بالمال والسلاح، وساروا في قبائل العرب يؤلبونهم علىٰ حرب الرسول ﷺ واتفقوا مع غطفان علىٰ أن يعطوهم نصف تمر خيبر علىٰ أن يشاركوا في غزوة الأحزاب، وأمدوهم بالسلاح والمال.

ولما هزم الله الأحزاب وفرق جمعهم، توجه الرسول ﷺ إلىٰ بني قريظة وأنزل بهم ما يستحقونه من عقوبة، وبقي يهود خيبر ينتظرهم جزاء أفعال الغدر والخيانة والتآمر علىٰ المسلمين.

ولما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية، مكث عشرين يومًا أو قريبًا من ذلك ثم خرج إلىٰ خيبر، وهي التي وعده الله إياها[١]. ليناجزهم وينزل بهم ما يستحقونه من عقوبة، جزاء ما صنعوه.

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من الحديبية في ذي الحجة وبعض المحرم، ثم خرج في بقية المحرم إلىٰ خيبر[٢] وأمر أن لا يخرج معه إلا من شهد الحديبية، وأراد بعض الأعراب الذين تخلفوا عن الحديبية أن يخرجوا معه فقال لهم: «لا تخرجوا معي إلا رغبة في الجهاد، أما الغنيمة

(١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٤/ ١٨١).
(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٣/ ٢٧٨).

فلا أعطيكم منها شيئًا»، وقد أراد الرسول ﷺ أن يبين لهم أن لا حاجةَ له في الذين لا هَمَّ لهم إلا الغنيمة، ولا يَهُمُّهم نصرُ الإسلام[1].

ثم إن رسول الله ﷺ حين خرج من المدينة إلىٰ خيبر، سلك علىٰ عِصْر[2]، ثم علىٰ الصهباء[3] ثم أقبل رسول الله ﷺ بجيشه حتىٰ نزل بوادٍ يقال له: الرجيع[4]، فنزل بينهم وبين غطفان، ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر، وكانوا لهم مظاهرين علىٰ رسول الله ﷺ فلما سمعت غطفان بمنزل الرسول ﷺ جمعوا له ثم خرجوا، ليظاهروا اليهود عليه، حتىٰ إذا ساروا مرحلة سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حسًا ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم فرجعوا علىٰ أعقابهم في أهليهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر[5].

وكان من شأن رسول الله ﷺ إذا غزا قومًا لم يُغر عليهم حتىٰ يصبح، فإن سمع أذانًا كف وإن لم يسمع أذانًا أغار، فوصل إلىٰ خيبر ليلاً، فبات حتىٰ أصبح لم يسمع أذانًا، فركب وركب معه أصحابه، فاستقبلهم يهود خيبر بمساحيهم ومكاتلهم، فلما رأوا رسول الله ﷺ والجيش معه، قالوا: محمد والجيش معه. فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر.. خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباحُ الْمُنْذَرِينَ»[6].

---

(١) انظر: أبو شهبة، السيرة النبوية (٢/ ٤١٤).

(٢) عصر: بكسر أولـه وسكون الثانية، ويُرْوَى بفتح الاثنين جبل بين المدينة وخيبر في طريق رسول الله ﷺ إلى خيبر، محمد حسن شراب، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة (ص ١٩٢-١٩٣).

(٣) الصهباء: جبل يطل على خيبر من الجنوب ويسمى اليوم جبل (عطوة) يشرف على بلدة (الشريف) قاعدة خيبر من الجنوب، وعنده تزوج الرسول ﷺ صفية بنت حيي رضي الله تعالى عنها، محمد حسن شراب، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة (ص ١٦٢).

(٤) الرجيع: موضع قريب من خيبر في طريق الرسول ﷺ إلى خيبر (بين خيبر وغطفان) وهو غير الرجيع الموضع المشهور القريب من مكة الذي غدرت فيه عضل والقارة بسبعة النفر الذين بعثهم الرسول ﷺ معهم، محمد شراب، المعالم الأثيرة (ص ١٢٥).

(٥) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٣/ ٣٨٠-٣٨١).

(٦) انظر الحديث في: صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٢/ ٨٩)، (رقم ٦١٠)، كتاب الأذان، باب ما يحقن بالأذان من الدماء.

وكان تعداد الجيش مع الرسول ﷺ ألفًا وستمائة ومعهم مائتا فرس وقيل: ثلاثمائة، يقابلهم قوة كبيرة من يهود خيبر من أشد الطوائف اليهودية بأسًا وأكثرهم مالًا وأوفرهم سلاحًا.

وكانت قريش والعرب في الجزيرة تنتظر ماذا تؤول إليه هذه المعركة الفاصلة الحاسمة، حتىٰ حصل من البعض المراهنة علىٰ أي الفريقين ستكون له الغلبة.

وحاصر المسلمون حصونَ خيبرَ التي تحصنوا بها، فأخذ المسلمون في افتتاح هذه الحصون واحدًا تلوَ الآخر، وكان أول ما سقط من حصونهم، ناعم، ثم القموص، حصن ابني أبي الحقيق، وحصن الصعب بن عاذ، وما بخيبر حصن كان أكثر طعامًا وودكًا منه، ثم انتهوا إلىٰ حصني منطقة الوطيح والسلالم، وكانا آخر حصون أهل خيبر افتتاحًا[1].

وفيما كان الرسول ﷺ مُحَاصِرًا لهم جاء إليه راعي غنم لهم أسود ومعه غنم له، كان فيها أجيرًا لرجل يهودي، فقال: يا رسول الله، اعرض عليَّ الإسلام فعرضه عليه فأسلم، وكان رسول الله ﷺ لا يحقر أحدًا أن يدعوه إلىٰ الإسلام ويعرضه عليه، فلما أسلم قال: يا رسول الله، إني كنت أجيرًا لصاحب هذه الغنم وهي أمانة عندي فكيف أصنع بها؟ قال: «اضرب في وجوهها، فإنها سترجع إلىٰ وليها»، فقام الأسود فأخذ حفنة من الحصباء فرمىٰ بها في وجوهها وقال: ارجعي إلىٰ صاحبك فوالله لا أصحبك[2].

وقد واجه المسلمون مقاومةً شديدةً عند فتح هذه الحصون؛ لأن اليهود يعلمون أن هزيمتهم ما هي إلا القضاء الأخير عليهم في جزيرة العرب، ومع اشتداد القتال واستماتة اليهود في الدفاع واستبسال المسلمين في التضحية، قال الرسول ﷺ:

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٣/ ٣٨١- ٣٨٣).

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٣/ ٣٩٨).

«لأعْطِيَنَّ هذه الرايةَ غدًا رجلًا يفتح الله علىٰ يديه، يحب اللهَ ورسولَه ويحبه اللهُ ورسولُه»، قال: فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يُعطاها؟

فلما أصبح الناس غَدَوْا علىٰ رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يُعْطَاهَا، فقال ﷺ: «أين علي بن أبي طالب؟»، فقيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال: «فأرسلوا إليه»، فأُتِيَ به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ حتىٰ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الرايةَ، فقال علي -رضي الله تعالىٰ عنه-: يا رسول الله، أقاتلهم حتىٰ يكونوا مثلنا؟ فقال: «أنفذ علىٰ رسلك[١] حتىٰ تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلىٰ الإسلام وأَخْبِرْهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من أن يكون لك حُمْر النَّعم»[٢].

ولما ذهب إليهم خرج مرحب اليهودي يختال في سلاحه ويرتجز ويدعو إلىٰ المبارزة، فبرز له محمد بن مسلمة -رضي الله تعالىٰ عنه- فقتله، وخرج بعد مرحب أخوه ياسر يقول: هل من مبارز؟ فبرز له الزبير بن العوام -رضي الله عنه- فقتله[٣].

ثم فتح الله علىٰ يد علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-[٤] واستولىٰ اليأس علىٰ اليهود، فطلبوا من النبي ﷺ الصلح علىٰ أن يحقن دماءهم، قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (أخرج البيهقي -رحمه الله تعالىٰ- عنه بإسناد رجاله ثقات، من حديث ابن عمر -رضي الله تعالىٰ عنهما- أن النبي ﷺ لما ترك من ترك من أهل خيبر علىٰ أن لا يكتموه شيئًا من أموالهم، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد، قال: فغيبوا مسكًا فيه مال وحلي لحيي بن أخطب كان احتمله معه إلىٰ خيبر فسألهم عنه فقالوا: أذهبته

(١) أي على مهلك، أي: متمهلا.
(٢) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٧/ ٤٧٦)، (رقم ٤٢١٠).
(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٣/ ٣٨٥).
(٤) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٤/ ١٨٦).

النفقات، فقال: العهد قريب والمال أكثر من ذلك، قال: فوُجِدَ بعد ذلك في خربه)[1].

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (وأتىٰ رسول الله بكنانة بن الربيع، وكان عنده كنز بني النضير، فسأله عنه فجحد أن يكون يعلم مكانه. فأتىٰ رسول الله ﷺ رجل من اليهود فقال لرسول الله ﷺ: «إني رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة». فقال رسول الله ﷺ لكنانة: «أرأيت إن وجدناه عندك أقتلك؟» قال: نعم.. فأمر رسول الله ﷺ بالخربة فحفرت فأخرج منها بعض كنزهم، ثم سأله عما بقىٰ فأبىٰ أن يؤديه، فأمر به رسول الله ﷺ الزبير بن العوام -رضي الله تعالىٰ عنه- فقال: عذبه حتىٰ تستأصل ما عنده، ثم إن الرسول ﷺ دفعه إلىٰ محمد بن مسلمة -رضي الله تعالىٰ عنه- ليقتله بأخيه محمود بن مسلمة، رضي الله تعالىٰ عنه[2].

وكان من ضمن السبايا صفية بنت حيي بن أخطب، وقد اصطفاها الرسول ﷺ ودعاها إلىٰ الإسلام فأسلمت فتزوجها -رضي الله تعالىٰ عنها- ورأىٰ رسول الله ﷺ بعينيها خُضرة، فقال: «يا صفية، ما هذه الخضرة؟» فقالت: كان رأسي في حجر بن أبي حقيق وأنا نائمة، فرأيت كأن قمرًا وقع في حجري، فأخبرته بذلك فلطمني، وقال: تمنين ملك يثرب؟)[3].

وقال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (ولما اصطفاها رسول الله ﷺ وصارت في حوزه وملكه، وبنىٰ بها بعد استبرائها وحِلها، وجد أثر تلك اللطمة في خدها، فسألها: ما شأنها؟ فذكرت له ما كانت رأت من تلك الرؤيا الصالحة، رضي الله عنها وأرضاها)[4].

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٤٧٩).

(٢) ابن كثير، السيرة النبوية (٣/ ٣٧٤).

(٣) ابن حبان، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان. وحسنه الألباني كما في الهامش، وقال عنه شعيب الأرناؤوط إسناده صحيح، تحقيق شعيب الأرناؤوط، الطبعة الثانية (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤١٤) (١١/ ٦٠٧)، (رقم ٥١٩٩).

(٤) ابن كثير، السيرة النبوية حبان (٣/ ٣٧١).

وفي غزوة خيبر، حدث موقف يحسن الإشارة إليه

الأولىٰ: جاء رجل من الأعراب إلىٰ النبي ﷺ فآمن به واتبعه فقال: أهاجر معك، فأوصىٰ به النبي ﷺ بعض أصحابه، فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول الله ﷺ شيئًا فقسم، وقسم له، فأعطىٰ أصحابه ما قسم له، وكان يرعىٰ ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه فقال: ما هذا؟ قال: قسم قسمه لك، فأخذه فجاء به النبي ﷺ فقال: ما هذا يا محمد؟ قال: «قسم قسمته لك»، قال: ما علىٰ هذا اتبعتك، ولكن اتبعت علىٰ أن أُرْمَىٰ هاهنا وأشار إلىٰ حلقه بسهم فأموت فأدخل الجنة، فقال: «إن تَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْكَ» ثم نهضوا إلىٰ قتال العدو، فأتي به النبي ﷺ يُحمل وقد أصابه سهم، حيث أشار فقال النبي ﷺ: «هو هو؟»، قالوا: نعم، قال: «صَدَقَ اللهَ فَصَدَقَهُ»[(١)].

الثانية: عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: شهدنا خيبر فقال رسول الله ﷺ لرجل ممن معه يَدَّعي الإسلام: «هذا من أهل النار»، فلما حضر القتال قاتل الرجل أشد القتال حتىٰ كثرت به الجراح، فكاد بعض الناس يرتاب، فوجد الرجل ألم الجراحة، فأهوىٰ بيده إلىٰ كنانته فاستخرج منها أسهمًا فنحر بها نفسه، فاشتد رجال من المسلمين، فقالوا: يا رسول الله، صدق الله حديثك، انتحر فلان فقتل نفسه. فقال: «قم يا فلان فأَذِّنْ أنه لا يدخل الجنةَ إلا مؤمنٌ، إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر»[(٢)].

الثالثة: عن زيد بن خالد الجهني -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رجلًا من المسلمين توفي بخيبر، وأنه ذُكر لرسول الله ﷺ فقال: «صلوا علىٰ صاحبكم» قال: فتغيرت

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٤/ ١٥-١٦) واللفظ له، والنسائي، سنن النسائي (٤/ ٦٠-٦١)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٥٩٥-٥٩٦)، ولم يتعقبه الذهبي. وقال إبراهيم العلي في هامش صحيح السيرة النبوية: (وإسناده صحيح) (ص ٤٤٦).

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٧ / ٤٧١)، (رقم ٤٢٠٣)، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه إلا أنه ذكر (حنينًا بدل خيبر) قال القاضي عياض في شرح مسلم للنووي: (صوابه خيبر بالحاء المعجمة).

وجوه القوم لذلك، فلما رأىٰ الذي بهم، قال: «إن صاحبكم غلَّ في سبيل الله»، ففتشنا متاعه، فوجدنا فيه خرزًا من خرز اليهود ما يساوي درهمين[١].

وبعد فتح خيبر، قدم جعفر بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- من الحبشة ففرح به الرسول، ﷺ. وعن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: لما قدم جعفر بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- من أرض الحبشة قال رسول الله ﷺ: «ما أدري بأيهما أنا أفرح، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر»[٢].

وقدم كذلك مهاجرو الحبشة وعددهم ثلاثة وخمسون رجلًا تقريبًا ومعهم الأشعريون. عن أبي موسىٰ -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: بلغنا مخرج النبي ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي أنا أصغرهم، أحدهما أبو بردة والآخر أبو رهم، إما قال بضع وإما قال في ثلاثة وخمسين، أو اثنين وخمسين رجلًا من قومي فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلىٰ النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- فأقمنا معه حتىٰ قدمنا جميعًا فوافقنا النبي ﷺ حين افتتح خيبر، وكان أناس من الناس يقولون لنا -يعني لأهل السفينة- سبقناكم بالهجرة، ودخلت أسماء بنت عميس -رضي الله تعالىٰ عنها- وهي ممن قدم معنا، علىٰ حفصة -رضي الله تعالىٰ عنها- زوج النبي ﷺ زائرة، وقد كانت هاجرت إلىٰ النجاشي فيمن هاجر، فدخل عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- علىٰ حفصة -رضي الله تعالىٰ عنها- وأسماء -رضي الله تعالىٰ عنها- عندها، فقال عمر حين رأىٰ أسماء: من هذه؟ قالت أسماء بنت عميس: قال عمر -رضي الله تعالىٰ عنه-

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٢ / ٢٥٧)، (رقم ١٧٠٣١). وقال محققو المسند: إسناده محتمل للتحسين. وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ١٣٨ رقم ٢٥٨٢ وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين وأظنهما لم يخرجاه» ولم يتعقبه الذهبي في التلخيص

(٢) الحاكم، المستدرك (٢/ ٦٨١)، (رقم ٤٢٤٩) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وصححه الذهبي في التلخيص. وحسنه الألباني في تعليقه على فقه السيرة للغزالي (ص٣٥١) وقال: «وبالجملة فالحديث قويّ بهذه الطرق، وقد صحّحه الحاكم»

: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم. قال: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم. فغضبت وقالت: كلا والله، كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم، وكنا في دار، أو في أرض البعداء البُغَضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسوله ﷺ وأيم الله، لا أطعم طعامًا، ولا أشرب شرابًا حتىٰ أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ ونحن كنا نؤذىٰ ونخاف، وسأذكر ذلك للنبي ﷺ وأسأله والله لا أكذب، ولا أزيغ، ولا أزيد عليه. فلما جاء النبي ﷺ قالت: يا نبي الله، إن عمر قال كذا وكذا. قال: «فما قلتِ له» قالت قلت له كذا وكذا، قال: «ليس بأحق بي منكم وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان»، قالت: فلقد رأيت أبا موسىٰ -رضي الله تعالىٰ عنه- وأصحاب السفينة يأتوني أرسالًا يسألوني عن هذا الحديث ما من الدنيا شيء هُم به أفرح، ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي ﷺ قال أبو بردة قالت أسماء: فلقد رأيت أبا موسىٰ وإنه ليستعيد هذا الحديث مني. حدثني إسحاق بن إبراهيم سمع حفص بن غياث، حدثنا بريد بن عبد الله، عن أبي بردة، عن أبي موسىٰ -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: (قدمنا علىٰ النبي ﷺ بعد أن افتتح خيبر فقسم لنا ولم يقسم لأحد لم يشهد الفتح غيرنا)[1].

وبعد الفراغ من الغزوة، حاول اليهود[2] قتل الرسول ﷺ بالسم، فقد أهدته امرأة منهم شاة مشوية مسمومة وأكثرت السم في ذراع الشاة عندما عرفت أنه يحبه، فلما أكل من الذراع، أخبرته الذراع، فلفظ اللقمة واستجوب المرأة، فاعترفت بجريمتها،

(١) صحيح البخاري (٥/ ١٧٤-١٧٥) الأرقام (٤٢٣٠و٤٢٣١و ٤٢٣٣).

(٢) جاء في صحيح البخاري (٤/ ١٢١)، (رقم ٣١٦٩) من حديث أبي هريرة، -رضي الله تعالى عنه- قال: لما فتحت خيبر أُهديتْ للنبي ﷺ شاة فيها سم فقال النبي ﷺ اجمعوا إلي من كان هاهنا من يهود فجمعوا له فقال إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي عنه فقالوا نعم...... ثم قال - هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه فقالوا نعم يا أبا القاسم قال هل جعلتم في هذه الشاة سُمًّا. قالوا نعم. قال: ما حملكم على ذلك؟ قالوا: أردنا إن كنت كاذبا نستريح وإن كنت نبيا لم يضرك».

فلم يعاقبها في حينها[1]، ولكنه قتلها عندما مات بشر بن البراء بن معرور -رضي الله تعالىٰ عنهما- من أثر السم الذي ابتلعه مع الطعام عندما أكل مع الرسول ﷺ[2].

وعن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ يوم خيبر، فلم نغنم ذهبًا ولا فضة، إلا الأموال والثياب والمتاع، فأهدىٰ رجل من بني الضُّبَيْبِ، يقال له: رفاعة بن زيد، لرسول الله ﷺ غلامًا، يقال له: مِدْعَمٌ، فوجه رسول الله ﷺ إلىٰ وادي القرىٰ، حتىٰ إذا كان بوادي القرىٰ، بينما مدعم يحط رحلا لرسول الله ﷺ إذا سهم عائر فقتله، فقال الناس: هنيئًا له الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «كلا، والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم، لم تصبها المقاسم، لتشتعل عليه نارًا»، فلما سمع ذلك الناس، جاء رجل بشراك -أو شراكين- إلىٰ النبي ﷺ فقال: «شراك من نار أو شراكان من نار»[3].

وقد بقىٰ اليهود في خيبر يزرعونها علىٰ أن للمسلمين الشطر من كل زرع ونخيل وشيء ما بدا لرسول الله ﷺ، وكان عبد الله بن رواحة -رضي الله تعالىٰ عنه- يأتيهم كل عام، فشكوا للرسول ﷺ شدة خرصه وأرادوا أن يرشوه، فقال: يا أعداء الله، تطعمونني السحتَ، والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلي، ولأنتم أبغض الناس إلي من عدتكم من القردة والخنازير ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه علىٰ أن لا

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية ٣/ ٣٨٩-٣٩٠، وأصل القصة في صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (١٠/ ٢٤٤- ٢٤٥)، (رقم الحديث ٥٧٧٧).

(٢) انظر: الحاكم، المستدرك (٣/ ٢٢٠)، وانظر: ابن حجر، فتح الباري (١٠/ ٢٤٥) وقال: (ومن المستغرب قول محمد بن سحنون -رحمه الله تعالى-: أجمع أهل الحديث أن رسول لله ﷺ قتلها).

(٣) صحيح البخاري (٨/ ١٤٣)، (رقم ٦٧٠٧). قال ا بن حجر في الفتح (٧/ ٤٨٩): «قوله: «بشراك أو بشراكين» الشراك بكسر المعجمة وتخفيف الراء: سير النعل على ظهر القدم، وفي الحديث تعظيم أمر الغلول»

أعدل عليكم، فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض[١].

ولما فتح الله علىٰ المسلمين خيبر وغنموا منها وصالحوا أهلها علىٰ بعض ثمارها، وكان فيها النخيل والتمر، استفاد الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- من ذلك، تقول عائشة -رضي الله عنها-: (لما فُتِحَتْ خيبرُ قلنا: الآن نشبع من التمر)[٢]، وعن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: (ما شبعنا حتىٰ فتحنا خيبر)[٣].

وعن أنس بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه- يقول: خرجت مع رسول الله ﷺ إلىٰ خيبر أخدمه، فلما قدم النبي ﷺ راجعًا وبدا له أحد قال: «هذا جبل يحبنا ونحبه» ثم أشار بيده إلىٰ المدينة، قال: «اللهم إني أحرم ما بين لابتيها كتحريم إبراهيم مكة، اللهم بارك لنا في صاعنا ومدنا»[٤].

الفوائد المستنبطة من هذه الغزوة

الأولىٰ: سياسة الرسول ﷺ في مناجزة العدو واحدًا تلو الآخر، فقد قضىٰ علىٰ بني قريظة، ثم صالح قريشًا ثم تفرغ ليهود خيبر، وسيأتي دور غطفان.

الثانية: كانت خيبر غنيمة قدمها الله -جل شأنه- لأهل الحديبية -رضي الله تعالىٰ عنهم- كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [الفتح:١٨-١٩]، قال ابن جزي -رحمه الله تعالىٰ- في التسهيل (وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا، يعني: فتح خيبر وقيل: فتح مكة، والأول أشهر، أي جعل الله ذلك ثوابًا لهم علىٰ بيعة الرضوان، زيادة علىٰ ثواب الآخرة. وأما المغانم المذكورة أولًا فهي غنائم خيبر، وهي المعطوفة علىٰ الفتح القريب)[٥].

(١) انظر: ابن كثير، البداية (٤/ ١٩٩).
(٢) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري، لابن حجر (٧/ ٤٩٥)، (رقم ٤٢٤٢).
(٣) المرجع السابق، (رقم ٤٢٤٣).
(٤) صحيح البخاري (٧/ ٣٦٣)، (رقم ٢٨٨٩). وصحيح مسلم (٢/ ٩٩٣)، (رقم ١٣٦٥).
(٥) ابن جزي، التسهيل (٢/ ٢٨٩).

وهذا بُشرىٰ من الله -جل شأنه- لرسول ﷺ وللمؤمنين بفتحٍ ومغانم كثيرة ونصر من الله علىٰ اليهود.

الثالثة: حاصر المسلمون حصونَ خيبرَ التي تحصنوا بها، هذا من أول ما جرىٰ في خيبر، وعنده نتوقف لنقارن بين حال المسلمين بالأمس، عندما كان اليهود والأحزاب يحاصرون المدينة، لدخولها ووصف حال المؤمنين بقوله تعالىٰ: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب:١٠-١١]، كان بالأمس الرسول ﷺ ومن معه محاصَرين، واليوم -بفضل الله تعالىٰ- هم الذين يحاصرون اليهود في أكبر قلاع وحصون يهودية في جزيرة العرب. والحمد لله رب العالمين.

الرابعة: جاءت غطفان لتنصر يهود خيبر، ولكنها في الطريق سمعت بحسٍ، فقذف الله -جل شأنه- في قلوبهم الرعب، وخشيت أن يكون سرية من سرايا الرسول ﷺ قد خلفتهم في أهليهم وذراريهم وأموالهم، فخافوا وعادوا وتخلوا عن اليهود، وتركوهم يواجهون مصيرهم منفردين.

وهكذا تكون النتيجة عندما تكون العلاقة قائمة علىٰ مصالح مادية، سرعان ما يتخلىٰ فريق عن الفريق الآخر، والصديق عن صديقه.

الخامسة: جاء إلىٰ الرسول ﷺ راعي غنم لهم أسود ومعه غنم له، كان فيها أجيرًا لرجل يهودي، فعرض الرسول ﷺ الإسلام فأسلم.

لقد كان الرسول ﷺ لا يحقر أحدًا أن يدعوه إلىٰ الإسلام، ورغم أنه كان في حالة حرب والعدو قريب، فإنه يدعو هذا العبد إلىٰ الإسلام، فيسلم.

فلا تحتقر أحدًا أن تدعوه إلىٰ دين الله، أو تنصحه أو تدله علىٰ خير، أو تنهاه عن منكر. هذا هو منهج رسول الله ﷺ يقول ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ- في السيرة: (وكان رسول الله ﷺ لا يحتقر أحدًا أن يدعوه إلىٰ الإسلام ويعرضه عليه).

السادسة: هذا العبد لما أسلم، اهتم بأداء الأمانة، وهي الأغنام التي معه، وهي ليهودي، فأمره الرسول ﷺ أن يضرب في وجوهها ويرسلها وستذهب لصاحبها.

وإن القارئ لهذا ليعجب من أمانة هذا العبد وحرصه علىٰ أدائها، ومبادرته إلىٰ ذلك، فور إيمانه، وحلفه أن لا يذهب معها، وإقرار الرسول ﷺ له بذلك، وإنك لتعجب من قوة إيمان هؤلاء، كيف تتشرب قلوبهم الإيمان ويجدون بشاشته وحلاوته، فيتخلون عن كل ما كانوا عليه من شرك وكفر، إلىٰ إيمان عظيم بالله والتزام بشرعه، وهذا ينقصنا كثيرًا في واقعنا مع أنفسنا وفي مجتمعنا، ونحن نعيش الإيمان سنوات، فتجد قلوبًا غافلة، وسلوكًا معوجة كثيرًا عن سلوك المسلم الحق، والله المستعان.

السابعة: فضيلة عظيمة لعلي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- تشوَّف لها الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- فقد قال الرسول ﷺ يوم خيبر: «لأعْطِيَنَّ هذه الرايةَ غدًا رجلًا يفتح الله علىٰ يديه يحب اللهَ ورسولَه ويحبه اللهُ ورسولُه»، قال: فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يُعطاها؟

فلما أصبح الرسول ﷺ دعا عليًا -رضي الله تعالىٰ عنه- وأعطاه الراية، رغم أن عمره -رضي الله تعالىٰ عنه- في ذلك الوقت كان ثلاثين سنة فقط، وإعطاؤه الراية شهادة ذاتية له، بأن الله -جل شأنه- يحبه، وأن الرسول ﷺ يحبه، ومحبة الله للعباد أسمىٰ ما يطلبه في هذه الدنيا، قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (قال بعض الحكماء العلماء: ليس الشأن أن تُحِبّ، إنما الشأن أن تُحَبّ)[1]. وأعظم ذلك كله أن يحبك الله -سبحانه وتعالىٰ- وهذا فضيلة بارزة ظاهرة للخليفة الراشد علي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه-.

(١) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢).

ومع ذلك، فإن الله -جل شأنه- قال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة:٢٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤] وقال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران١٤] وقال تعالىٰ: ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، ففتح لنا -سبحانه- أبوابًا واسعة ندخل منها إلىٰ نيل محبته -سبحانه وتعالىٰ- وأسأل المولىٰ الكريم، لي ولك، أن ينفعنا بهذه الأبواب، ويوفقنا لأن نكون ممن يحبه الله جل شأنه.

الثامنة: آية بينة للرسول ﷺ عندما أخبروه أن عليًا -رضي الله عنه- يشتكي عينيه، فأرسل إليه، فأُتِيَ به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له، فبرأ حتىٰ كأن لم يكن به وجع.

التاسعة: في قول الرسول ﷺ لعلي بن أبي طالب -رضي الله عنه-: «لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم»، في هذا بيان لفضل الدعوة إلىٰ الله وعظيم أجر الداعي إلىٰ الله، فاستجابة شخص واحد لدعوته وإيمانه بالله خير له من حمر النعم التي هي أثمن الأموال وأغلاها في ذلك الوقت.

العاشرة: رغم كل الجرائم التي فعلها اليهود، وذلك التاريخ الأسود لهم مع المسلمين، فإن الرسول ﷺ كان حريصًا علىٰ هدايتهم ودخولهم في نور الإسلام. ولننظر إلىٰ رحمة الإسلام، وحرصه علىٰ هداية كل البشر، فقد قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه-: «انْفُذْ عَلَىٰ رِسْلِكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ الإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ فِيهِ، فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»، فالرسول ﷺ رغم ما فعلوه معه، كان حريصًا علىٰ هدايتهم وسلامتهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة، وهو بهذا يعلمنا أن إسلام هؤلاء اليهود أحب إليه من أموالهم ومن ديارهم، وأحب

إليه من سلطانهم، وأحب إليه من كل شيء، هذه صورة من عظمة الإسلام ورحمته بالعالمين.

الحادية عشرة: قد يقول قائل: أليس في هذا إكراه على الإسلام، والله -جل شأنه- يقول في كتابه الكريم: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦]، فكيف يقول لهم إما أن تسلموا وإما أن نقاتلكم؟

والجواب: أن القتال ليس لإلزامهم بالإسلام، فقد فتح الرسول ﷺ خيبر، ولم يجبر اليهود على الإسلام، بل بقي اليهود في خيبر يعملون في مزارعهم ويؤدون ما تم الاتفاق عليه من حق المزارعة، وبقوا محتفظين بديانتهم اليهودية.

والسبب في محاربتهم هو معاقبتهم على ما جرى منه من جرائم، وإن أسلموا عفا عنهم، وإن استسلموا وخضعوا ليكون شرع الله هو الحاكم المهيمن، فلهم حريتهم وديانتهم في أنفسهم.

الثانية عشرة: طبع الخيانة متأصل في اليهود، فقد صالح الرسول ﷺ اليهود، بعد استسلامهم على أن لا يكتموه شيئًا من المال، فإن كتموا حلت له دماؤهم، ومع ذلك كتم كنانة ابن أبي الحقيق مالًا لحيي بن أخطب، فقتله رسول الله -عليه الصلاة والسلام- لعدم التزامه بالعهد الذي بينهم.

الثالثة عشرة: عجيب ذلك الأعرابي الذي جاء إلى الرسول ﷺ فآمن به واتبعه فقال: أهاجر معك، فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه، فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول الله ﷺ شيئًا فقسم وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم -أي إبلهم- فلما جاء دفعوه إليه فقال: ما هذا؟ قال: قَسْمٌ قسمه لك، فأخذه فجاء به النبي ﷺ فقال: ما هذا يا محمد؟ قال: قَسْمٌ قسمته لك، قال: ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعت على أن أُرْمَى هاهنا وأشار إلى حلقه بسهم فأموت فأدخل الجنة، فقال: «إن تَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْكَ» ثم نهضوا إلى قتال العدو، فأتي به النبي ﷺ يُحمل وقد

أصابه سهم حيث أشار، فقال النبي ﷺ: «هو.. هو؟» قالوا: نعم، قال: «صَدَقَ اللهَ فَصَدَقَهُ».

ما أعظم إيمان أولئك الصحب الكرام! هذا أعرابي، ويقول هذا الكلام، يأبىٰ أن يأخذ شيئًا من نصيبه من المغنم الذي أعطاه إياه الرسول ﷺ ويقول: ما علىٰ هذا اتبعتك! ولكن اتبعت علىٰ أن أُرْمَىٰ هاهنا، وأشار إلىٰ حلقه بسهم فأموت فأدخل الجنة.

أين واقعنا من هذا الأعرابي؟ أين سُرَّاق الأموال العامة والمختلسون من المسلمين؟ أين المرتشون والفاسدون وآكلو الربا وأموال الناس بالباطل وهم يصلون ويصومون ويتصدقون؟ ما الفائدة إذا لم يغير الإيمان سلوكهم، ويصلح شهوة المال في قلوبهم؟

وهذا الأعرابي يعطيه الرسول ﷺ مالًا طيبًا من المغنم، فيأبىٰ أن يأخذه، ويقول: أسلمت لغرض آخر غير هذا! أسلمت طلبًا للجنة، بل طلبًا للشهادة في سبيل الله ودخول الجنة شهيدًا.

الرابعة عشرة: وقفت مقارنا بين هذا الأعرابي، والرجل الذي امتنع أن يصلي عليه الرسول ﷺ صلاة الميت، لما مات، وبيَّن الرسول ﷺ سبب ذلك، بكونه غلَّ من المغنم، أي أخذ منها شيئًا قبل القسمة أو الاستئذان من الرسول ﷺ رغم أنهم لم يجدوا عنده إلا خرزًا لا يساوي درهمين، أي مال تافه يسير جدًا، والعياذ بالله.

فالأعرابي يأبىٰ أن يأخذ حتىٰ نصيبه من القسمة، ويقول إنه لا يريد أن يأخذ شيئًا علىٰ جهاده، ويريده خالصًا لله سبحانه وتعالىٰ.

والرجل الآخر غلبته نفسه، فتعجل شيئًا من الغنائم التي لم تقسم، فامتنع الرسول ﷺ من الصلاة عليها.

وهذا درس لنا في الأموال العامة، وخطورة الأخذ منها بغير وجه حق، فنسأل الله السلامة والمغفرة مما فرط منا. وسيأتي درس هذا في الموضوع ذاته في قصة الغلام مدعم.

الخامسة عشرة: وقفت عند قول الرسول ﷺ: «إن تَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْكَ» ثم نهضوا إلىٰ قتال العدو، فأتي به النبي ﷺ يُحمل وقد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبي ﷺ: «هو.. هو؟» قالوا: نعم، قال: «صَدَقَ اللهَ فَصَدَقَهُ».

قال المناوي -رحمه الله تعالىٰ-: (وَهَذَا كِنَايَة عَن تناهي رفْعَة دَرَجَته، قَالَ تَعَالَىٰ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ﴾ [الأحزاب:٢٣])[١].

قال الصنعاني -رحمه الله تعالىٰ-: (وفيه أن من أراد من الله تعالىٰ أمرًا دينيًا بصدق عزيمة أعطاه الله تعالىٰ إياه)[٢].

فهلا نصدق الله في مطالبنا الأخروية ليصدقنا -سبحانه وتعالىٰ- كما صدق هذا الأعرابي -رضي الله تعالىٰ عنه- فصدقه الله -سبحانه وتعالىٰ- ورفع درجته رفعة عظيمة.

السادسة عشرة: من قول الرسول ﷺ لما رأىٰ اليهود قد خرجوا ومعهم مساحيهم: «الله أكبر، خربت خيبر»، يقول السهيلي -رحمه الله تعالىٰ-: (فيه إباحة التفاؤل، وذلك أنه لما رأىٰ المساحي والمكاتل وهي من آلة الهدم والحفر، مع أن لفظ المساحي من سحوت الأرض إذا قشرتها)[٣].

---

(١) المناوي، التيسيرشرح الجامع الصغير (٢/ ٨٨).

(٢) الصنعاني، التنوير شرح الجامع الصغير (٦/ ٥٧٦).

(٣) السهيلي، الروض الأنف (٤/ ٥٨) مع حذف يسير، وانظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٤٦٨).

السابعة عشرة: من قبول الرسول ﷺ الشاة المصلية التي جاءت بها المرأة اليهودية، نأخذ قبول هدية الكافر وجواز الأكل من ذبائح أهل الكتاب وحل طعامهم بهذه الصفة[1].

الثامنة عشرة: في محاولة اليهود قتل الرسول ﷺ صورة أخرىٰ من صور الخبث والخيانة في هذه الغزوة، والتي عُرفت عن اليهود، فقد ترك لهم الرسول ﷺ مزارعهم وأرضهم ولم يجلهم منها، وصالحوه، ومع ذلك حاولوا قتله ﷺ بالشاة المسمومة، التي كانت بتآمر من يهود، وجعلوا المرأة اليهودية هي التي تتولىٰ تنفيذ هذه المؤامرة -كما مر- لتسهيل قبول الشاة والأكل منها.

التاسعة عشرة: في إخبار الذراع للرسول ﷺ بأنه مسموم، آية للرسول ﷺ وهذا إخبار من الرسول ﷺ بالغيب الذي أعلمه الله إياه وتكليم الجماد له ﷺ[2].

العشرون: في قصة الرجل الذي قاتل مع المسلمين أشد القتال، ومع ذلك ومع إسهامه الكبير في هذا العمل العظيم، فالرسول ﷺ يخبر عنه أنه من أهل النار، فكانت خاتمته أن قتل نفسه، وفي هذا التحذير من الاغترار بالعمل، وأن علىٰ العبد أن لا يتكل عليه ولا يركن إليه مخافة انقلاب الحال للقدر السابق[3] ويسأل اللهَ دائمًا حُسْنَ الختام، قال تعالىٰ: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [آل عمران:٨].

---

(١) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٣٥١)، وابن حجر، فتح الباري (٧/ ٤٩٨).

(٢) انظر: ابن حجر، فتح الباري (١٠/ ٢٤٦).

(٣) انظر: النووي، شرح صحيح مسلم (٢/ ١٢٦). وفي مسند أحمد -رحمه الله تعالى- (١٩/ ١٦٠)، (رقم ١٢١٠٧) « عن أنس قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك». قال: فقلنا يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: فقال: «نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله عز وجل يقلبها» قال محققو المسند: «إسناده قوي على شرط مسلم».

كما ينبغي لنا ألا نغتر بالمظاهر، فهذا الرجل رغم جهاده في سبيل الله مع رسول الله ﷺ فقد أخبرنا الصادق المصدوق ﷺ أنه في النار.

الواحدة والعشرون: في هذا الحديث آية لرسول الله ﷺ حيث أخبر بما سيؤول إليه حال هذا الرجل، فكان كما أخبر ﷺ حيث أقدم علىٰ قتل نفسه بسهم كان معه.

الثانية والعشرون: في فرح الرسول ﷺ بقدوم جعفر بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- من الحبشة، واستقباله له وتقبيله له بين عينيه، وقوله: ما أدري أنا أفرح بفتح خيبر أم بقدوم جعفر -رضي الله تعالىٰ عنه- بيان لعظمة المصطفىٰ ﷺ وحرصه علىٰ أقاربه وأصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم- ومشاعره الفياضة تجاههم، وعواطفه نحوهم، التي يعبر عنها بهذا التعبير، حتىٰ إنه ليتردد أيهما الذي كان سرورًا علىٰ قلبه أكبر، فتح خيبر بما فيه من كسر وهزيمة بالغة لليهود، أم بقدوم جعفر -رضي الله تعالىٰ عنه- وكيف ستكون مشاعر جعفر -رضي الله تعالىٰ عنه- وهو يرىٰ هذا الاستقبال الكريم، والتبجيل والفرح من الرسول ﷺ ومعادلة قدومه بفتح خيبر.

ومشكلتنا أو مشكلة كثير منا، نضوب العاطفة عنده، نحو أقاربه وأحبابه وإخوانه، فلا يتفاعل معهم، ويفرح بهم، ويعبر عن تلك المشاعر بما يؤلف ويقرب القلوب بعضها من بعض، ولا نستشعر أن تلك عبادة يتقرب بها العبد إلىٰ ربه، وهي من أعظم العبادات المؤلفة بين القلوب، المقوية لأواصر المحبة بين الأقارب والإخوان. ونسأل الله العفو والمغفرة من عظيم التقصير.

الثالثة والعشرون: لما عاد مهاجرو الحبشة إلىٰ المدينة بعد غربة طويلة، بما فيهم الذي أخذتهم السفينة قسرًا إلىٰ الحبشة، فنزلوا هناك وكانوا يقصدون المجيء إلىٰ الرسول ﷺ ثم عادوا هم والمهاجرون إلىٰ الحبشة، فتكلم بعض الصحابة -رضوان الله تعالىٰ عنهم- في حق هؤلاء المهاجرين أنهم مسبوقون؛ بسبب

بقائهم في الحبشة، فلم علم الرسول ﷺ بذلك قال عنهم: «ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان»، فأي لطف من الرسول ﷺ لهؤلاء القادمين من الغربة، بعد طول غياب في أرض بعيدة نائية، وأي طمأنة، وأي فضل، وأي سرور، لهؤلاء بهذه البشرىٰ من الرسول ﷺ لهم، حتىٰ كانوا يأتون تباعًا يسمعون هذا الحديث من أسماء -رضي الله تعالىٰ عنها- يستمتعون بسماعه، بل وبتكرار سماعه، ولم يكتف الرسول ﷺ بذلك، بل ضرب لهم سهمهم في غنائم خيبر، ولم يضرب لغيرهم، ممن لم يشاركوا، وهذا فيه مزيد شهادة تفضيل لهم عن بقية الصحابة، رضي الله تعالىٰ عنهم.

الرابعة والعشرون: في قصة الغلام مدعم الذي كان يخدم رسول الله ﷺ فأصابه سهم عائر -أي لا يُدرىٰ مصدره- فمات، فقال بعض الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-: هنيئًا له الجنة، فقال الرسول ﷺ: «إن الشملة التي غلها من المغنم لتشتغل عليه نارًا».

هذا الغلام يخدم من؟

هذا الغلام يجاهد في سبيل الله!

هذا الغلام أصابه سهم فقتله!

أعمال صالحة عظيمة، ومع ذلك شملة وهي قطعة كساء منسوج من صوف، لا تساوي شيئًا، تشتعل عليه نارًا، فلم تشفع له خدمة الرسول ﷺ ولا الجهاد في سبيل الله ولا الموت في سبيل الله.

إنه درس عظيم لمن تكون له سلطة في التصرف بمال من الأموال العامة ثم يختلس شيئًا منها، بتزوير أو بتحايل، عليه أن يستحضر هذه النتيجة لهذا الغلام ويخشىٰ علىٰ نفسه العاقبة والعقوبة ذاتها، نسأل الله السلامة والعفو والمغفرة.

الخامسة والعشرون: حاول اليهود رشوة عبد الله بن رواحة -رضي الله عنه- عندما جاءهم ليخرص التمر عليهم، فقال: أتطعمونني السحتَ، وحُبي لرسول الله ﷺ وبُغضي لكم لا يحملني علىٰ أن لا أعدل معكم. هذا هو المسلم التقي، لا يقبل الرشوة ولا يؤثر فيه البغض والحب في مجانبة العدل والحيف علىٰ أحد الطرفين، فالرشوة سحت وهي آفة المجتمعات وهي نقيض العدل ورفيق الظلم والحيف والجور.

السادسة والعشرون: من قول اليهود لعبد الله بن رواحة -رضي الله عنه-: (بهذا قامت السماوات والأرض)، أي بالعدل قامت السماوات والأرض، وبالظلم تنهدم المجتمعات وتتحول إلىٰ غابات يأكل فيها القويُّ الضعيفَ، وبالعدل يكون العمرانُ والبناءُ والصلاحُ، فاليهود يعرفون العدل ولكنهم يبتغون الحيف والجور من المؤمنين لمصلحتهم، ولما رفض ابن رواحة -رضي الله عنه- وأبىٰ إلا العدل قالوا مقالتهم تلك. والعدل أساس صلاح الأحوال ونصر الله -سبحانه وتعالىٰ- يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (فإن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة، ولهذا يُرْوَىٰ: الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة)[1]، وهذا الذي لا يريده اليهود للمسلمين.

السابعة والعشرون: قول عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- وقول عبد الله بن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنهما- في شبع الصحابة من التمر بعد فتح خيبر يدل علىٰ ما كان عليه الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- من الجوع والفاقة وأنهم كانوا لا يجدون ما يشبعهم حتىٰ من التمر، مع أن المدينة ذات نخل وهم أسوتنا -رضي الله تعالىٰ عنهم وأرضاهم- فلا نتعلق بالدنيا ولا نحرص الحرص الشديد عليها، إذ لو كان في ذلك خير لكان للصحابة - رضي الله تعالىٰ عنهم- منها النصيب الأوفر.

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع ابن قاسم (٢٨/ ٦٣).

الثامنة والعشرون: كانت غنائم خيبر كثيرة جدًا، ومع ذلك عاد الرسول ﷺ إلىٰ المدينة ليسكن في بيته الذي بناه عندما قدم من المدينة مهاجرًا، حيث تغيرت أحواله ﷺ من الضيق إلىٰ السعة، ومن القلة إلىٰ الكثرة، ولكنه ﷺ لم يتغير، بقي في بيته، فلم يغير البيت، ولم يزد فيه، مع أن الله -جل شأنه- قد فتح عليه وأفاء عليه أموال بني النضير، فما اختار منها بستانًا له، ولا حصنًا يتعالىٰ فيه، ورزقه مغانم كثيرة في خيبر، فعاد إلىٰ بيته، وكانت تُجبىٰ إليه الأموال فينثرها في المسجد ولا يقوم من مكانه إلا وقد فرقها في الناس، ثم ينقلب إلىٰ بيته المبني من اللَّبِن والجريد، وسريره المرمول بحبال ليف، لينام عليه ويؤثِّر في جنبه الشريف ﷺ.

التاسعة والعشرون: الرسول ﷺ لما قفل راجعًا من خيبر وأقبل إلىٰ المدينة ورأىٰ جبل أحد قال: «هذا جبل يحبنا ونحبه». قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (قوله هذا جبل يحبنا ونحبه، قيل هو علىٰ الحقيقة ولا مانع من وقوع مثل ذلك بأن يخلق الله المحبة في بعض الجمادات وقيل هو علىٰ المجاز والمراد أهل أحد علىٰ حد قوله تعالىٰ واسأل القرية)[1].

وقد تكرر هذا القول من الرسول ﷺ في أكثر من مرة، فقد ورد أنه قاله لما عاد من تبوك. وقال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- في ذكر أحد الأقوال: (الحب من الجانبين علىٰ حقيقته وظاهره..... ولا مانع في جانب البلد من إمكان المحبة منه كما جاز التسبيح منها، وقد خاطبه ﷺ مخاطبة من يعقل فقال لما اضطرب اسكن أحد)[2]. ويقصد ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ صعد أحدًا، وأبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم، فقال: «اثبت أحد فإنما عليك نبي، وصديق، وشهيدان»[3].

(١) ابن حجر، فتح الباري (٦/ ٨٧).
(٢) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٣٨٧).
(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٣٨)، (رقم ٣٦٧٥).

فهذا في فضل جبل أحد ومحبة الرسول ﷺ له، ومحبة الجبل للرسول ﷺ.

وإذا كان الجذع الذي كان يخطب عليه الرسول ﷺ حن إليه، لما تركه، بعد صناعة منبر له، وجبل أحد يحبه، والحصىٰ يسبح بين يديه، والحجر يسلم عليه.

وكلها جمادات غير مكلفة، فكيف بنا نحن المكلفين، وقد بعثه الله إلينا منقذًا من النار، هاديًا إلىٰ الجنة، حريصًا علينا، رحيمًا بنا، نحن أولىٰ بمحبته ﷺ محبة تفوق محبة النفس والولد والوالد.

أما محبة الرسول ﷺ للجبل، فهذا يدل علىٰ منزلته عند الرسول ﷺ ونحن نحب ما أحب الرسول ﷺ ونتقرب إلىٰ الله بهذا الحب ولا نزيد علىٰ ذلك.

الثلاثون: ومع ذلك فإن القارئ للموقف، يلحظ أن الرسول ﷺ قال هذا القول أكثر من مرة، إذا أقبل إلىٰ المدينة ورأىٰ جبل أحد: «جبل أحد يحبنا ونحبه»، فكأن الشخص يفهم من هذا أن الرسول ﷺ أراد أن يُذهب ما قد يكون في النفوس من التشاؤم بالأمكنة، فقد وقع عند هذا الجبل أقسىٰ موقعة شُج فيها الرسول ﷺ وقتل فيها جمع كبير من الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- في مقدمتهم عمه حمزة -رضي الله تعالىٰ عنه- مع هزيمة شاقة بعد مقدمات نصر واضح، ربما يلمس القارئ لهذا القول وتكراره من الرسول ﷺ شيئًا من هذا المعنىٰ، والله أعلم.

الواحدة والثلاثون: سأل الرسول ﷺ صفية أم المؤمنين -رضي الله تعالىٰ عنها- عن الخُضْرة التي في عينها، فأخبرت أن رأت رؤيا كأن القمر سقط في حجرها، فأخبرت ابن أبي الحقيق زوجها السابق، فلطمها وقال لها: تمنين مَلِكَ يثرب؟

هذا يدل علىٰ أن تفسير الرؤىٰ، لا علاقة له بالإيمان والصلاح، بل هو موهبة شأنها مثل سائر المواهب، كالذكاء ونحوه، تكون للمسلم والكافر علىٰ حد سواء والله أعلم[1].

(١) ذكر ابن الملقن في كتابه التوضيح شرح الجامع الصحيح (١٤/ ٦١٠): كما رأت صفية في منامها سيد الآنام، رآه غير واحد من أزواجه، روى الحاكم في كتابه الإكليل: أن جويرية رأت في المنام كما رأت صفية قبل تزوجها به « وذكر ابن سعد في الطبقات (٨/ ٩٧): أن جويرية أم المؤمنين -رضي الله تعالى عنها- قالت « فأرى في النوم كأن آتيا يقول: يا أم المؤمنين ففزعت فأولتها أن رسول الله يتزوجني». وذكر أيضا ابن سعد في الطبقات (٨/ ٥٦): «عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: «كانت سودة بنت زمعة عند السكران بن عمرو أخي سهيل بن عمرو فرأت في المنام كأن النبي ﷺ أقبل يمشي حتى وطئ على عنقها، فأخبرت زوجها بذلك، فقال: وأبيك لئن صدقت رؤياك لأموتن وليتزوجنك رسول الله ﷺ فقالت: حجرا وسترا، وقال: هشام: الحجر: تنفي عن نفسها ذاك، ثم رأت في المنام ليلة أخرى أن قمرا انقض عليها من السماء وهي مضطجعة، فأخبرت زوجها، فقال: وأبيك لئن صدقت رؤياك لم ألبث إلا يسيرا حتى أموت وتزوجين من بعدي، فاشتكى السكران من يومه ذلك، فلم يلبث إلا قليلا حتى مات، وتزوجها رسول الله ﷺ».

المبحث الرابع

فقه السيرة في غزوة ذات الرقاع

بعد الانتهاء من خيبر، لم يبقَ من قوةٍ في الجزيرة إلا قوة غطفان[1]، تلك القبيلة التي شاركت بقوة كبيرة في الأحزاب، ولا تزال علىٰ مواقفها العدائية تجاه الرسول ﷺ والإسلام مستمرة، فكان من الضروري حماية للمسلمين وقف خطورة قبيلة غطفان، وتأمين جانب المسلمين من جهة هذه القبيلة ومن يساندها من الأعراب.

ورغم توجيه الرسول ﷺ إليهم عددًا من السرايا، فإنها لم تكن كافية، ولذلك فقد خرج إليهم الرسول ﷺ في هذه الغزوة التي سميت بـ«غزوة ذات الرقاع».

وكان سبب هذه الغزوة هو ما بلغ الرسول ﷺ أن جموعًا من بني محارب أو من أنمار، وبني ثعلبة من غطفان، قد اتفقوا علىٰ حربه[2] ﷺ فخرج رسول الله ﷺ إليهم في أربعمئة من الصحابة، وقيل سبعمئة. فلقىٰ ﷺ بنخل[3] جمعًا من غطفان، فتواقفوا، وأخاف الناس بعضهم بعضًا، وهرب الأعراب إلىٰ ذراري الجبال، فلم يكن حرب[4].

---

(١) غطفان: قبيلة عدنانية، كانت منازلهم بنجد، مما يلي وادي القرى وجبل طيئ. ومن ديارهم: ذو أرل والهباءة، ومن جبالهم: ضرغد، ومن أوديتهم: «الرّمة»، كانوا يعبدون العزّى في الجاهلية» محمد شراب، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة (ص ٢٠٩)، ومساكنهم ومواقعهم في السابق، هي مناطق تبدأ من مدينة الحناكية ومرتفعات نجد، والدوادمي ومنطقة وادي الرمة المعروف وحائل.

(٢) انظر: الواقدي، المغازي (١/ ١٩٤).

(٣) نخل: وادي الحناكية. المعالم الأثيرة في السنة والسيرة (ص ١٢٨) .

(٤) انظر: الواقدي، المغازي (١/ ١٩٤) وابن حزم، جوامع السيرة (ص١٤٦).

ورغم الخلاف في تاريخ الغزوة فإن الراجح، الذي اختاره البخاري -رحمه الله تعالىٰ-[١] وابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-[٢] وابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-[٣] وابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-[٤] -وكفىٰ بهم وغيرهم- هو أنها بعد الأحزاب وخيبر، وذلك لمشاركة أبي موسىٰ الأشعري وأبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنهما- فيها، وقد جاءا بعد خيبر، ولأن الرسول ﷺ صلىٰ فيها صلاة الخوف، ولم يصل صلاة الخوف في الأحزاب، فعن عبد الله بن عمر -رضي الله تعالىٰ عنهما- (أن النبي ﷺ صلىٰ بأصحابه صلاة الخوف في غزوة السابعة ذات الرقاع)[٥].

وقال أبو هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه-: (صليت مع رسول الله ﷺ في غزوة نجد صلاة الخوف)، وإنما جاء أبو هريرة إلىٰ النبي ﷺ أيام خيبر[٦].

وعن جابر -رضي الله عنه- قال: (خرج النبي ﷺ إلىٰ ذات الرقاع من نخل، فلقي جمعًا من غطفان وأخاف الناس بعضهم بعضًا، فصلىٰ النبي ﷺ ركعتي الخوف)[٧].

وعن أبي موسىٰ الأشعري -رضي الله عنه- قال: (خرجنا مع النبي ﷺ في غزاة ونحن في ستة نفر بيننا بعير نعتقبه، فنقبت أقدامنا ونقبت قدماي وسقطت أظفاري، فكنا نلف علىٰ أرجلنا الخرق فسميت غزوة ذات الرقاع [٨]، لما كنا نعصب من

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٤١٦)، باب غزوة ذات الرقاع.
(٢) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٢٣٥).
(٣) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية (٣/ ٢٨٥).
(٤) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٤١٩-٤٢٠).
(٥) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٤١٦-٤١٧)، (رقم ٤١٢٥).
(٦) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٤٢٦)، (رقم ٤١٣٧).
(٧) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٤١٧)، (رقم ٤١٢٧).
(٨) هذا الذي يذكره العلماء سببا لتسمية الغزوة بهذا الاسم. قال محمد شراب في المعالم الأثيرة (ص ١٢٨) « واختلفوا في سبب الاسم، فقيل: اسم شجرة، وقيل: لأن أقدامهم ثقبت=

الخرق على أرجلنا، وحدث أبو موسى -رضي الله تعالى عنه- بهذا الحديث ثم كره ذلك قال: ما كنت أصنع بأن أذكره كأنه كره أن يكون شيئًا من عمله أفشاه)[(١)].

وعن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال: (كنا مع النبي ﷺ بذات الرقاع، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبي ﷺ، فجاء رجل من المشركين وسيف النبي ﷺ معلق بالشجرة فاخترطه، فقال له: تخافني؟ فقال له: «لا»، قال: فمن يمنعك اليوم مني؟ قال: «الله»، فتهدده أصحاب النبي ﷺ وأقيمت الصلاة، فصلى بطائفة ركعتين، ثم تأخروا وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين وكان للنبي ﷺ أربع وللقوم ركعتان، وقال مسدد عن أبي عوانة عن أبي بشر: اسم الرجل غورث بن الحارث)[(٢)].

وفي مسند الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- مزيد إيضاح، فعن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- قال: قاتل رسول الله ﷺ محارب خصفة بنخل، فرأوا من المسلمين غرة، فجاء رجل منهم يقال له: غورث بن الحارث، حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف، فقال: من يمنعك مني؟ قال: «الله»، فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ فقال: «من يمنعك مني؟»، قال: كن كخير آخذ، قال: «أتشهد أن لا إله إلا الله»، قال: لا، ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى سبيله، قال: فذهب إلى أصحابه، قال: قد جئتكم من عند خير الناس)[(٣)].

=من المشي فلفوا عليها الخرق. وقيل: اسم جبل فيه سواد وبياض وحمرة فكأنها رقاع في الجبل.. أما مكانها فقال البلادي: موقع ذات الرّقاع محصور بين نخل (وادي الحناكية) وبين الشّقرة، في مسافة خمسة وعشرين كيلا طولا، فالأول يبعد عن المدينة مائة كيلا، والثاني يبعد عنها خمسة وسبعين كيلا».

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٤١٧)، (رقم ٤١٢٨).

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٤٢٦)، (رقم ٤١٣٦).

(٣) مسند الإمام أحمد (٢٣/ ١٩٣)، (رقم١٤٤٢٩) وقال المحقق: «حديث صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير سليمان بن قيس اليشكري، فقد روى له الترمذي وابن ماجه، وهو ثقة، وأبو بشر- وهو جعفر بن أبي وحشية- لم يسمع منه، وروايته عنه من صحيفته عن جابر. أبو عوانة: هو الوضاح بن عبد الله اليشكري».

وفي هذه الغزوة، وقعت قصة الحراسة وملخصها أن المسلمين في مرجعهم من غزوة ذات الرقاع سَبَوْ امرأة من المشركين، فنذر زوجها أن يهرق دمًا في المسلمين، فجاء ليلًا وقد جعل الرسول ﷺ عمار بن ياسر وعباد بن بشر -رضي الله تعالىٰ عنهما- يحرسان المسلمين أثناء نومهم. وفي مسند الإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ-: (فلما خرج الرجلان إلىٰ فم الشعب، قال الأنصاري للمهاجري: أي الليل أحب إليك أن أكفيكه؟ أوله أو آخره؟ قال: اكفني أوله، فاضطجع المهاجري فنام، وقام الأنصاري يصلي)[1].

فكان عباد قائمًا يصلي، فضربه بسهم فنزعه ومضىٰ في صلاته، ثم ضربه بالثاني، ثم بالثالث، فلما سلم أيقظ صاحبه فوثب، فلما رأىٰ ما به من الدماء قال: هلا نبهتني، فقال: كنت في سورة أقرأوها، فلم أحب أن أقطعها، فلما تابع علي الرمي ركعت فآذنتك ولولا أن أضيع ثغرًا أمرني الرسول ﷺ بحفظه لقطع نفسي أو أكمل السورة[2].

وعن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته فرأينا حُمَّرة (طائر بري صغير) معها فرخان فأخذنا فرخيها فجاءت الحمرة فجعلت تعرش، فجاء النبي ﷺ فقال: «من فجع هذه بولدها؟ ردوا إليها ولدها»[3].

---

(١) مسند الإمام أحمد (٢٣/ ٥٢)، (رقم ١٤٧٠٤).

(٢) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٤/ ٨٥)، وإبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية (ص ٤٧٨) وقال: (وإسناده حسن). وورد في دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٣٧٩) أن السورة التي كان يقرأها عباد -رضي الله تعالى عنه- هي سورة الكهف. وقصة صلاة عباد -رضي الله تعالى عنه- أخرجها البخاري في صحيحه (١/ ٥٥) (معلقا بغير صيغة الجزم، ويُذكر عن جابر....) باب من لم ير الوضوء إلا من المخرجين القبل والدبر.

(٣) سنن أبي داود (٢/ ٧٨٩)، (رقم ٥٢٦٨) وصححه الألباني. وفي دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٣٧٩) ورد عن جابر رضي الله تعالى عنه ما يدل على أن هذه القصة وقعت في غزوة ذات الرقاع. إذ أوردها في سياق الحديث عن الغزوة والله أعلم.

وفي الغزوة أيضًا قصة جمل جابر -رضي الله عنه- حيث تأخر عن الركب فقال له الرسول ﷺ: «ما لك يا جابر؟»، فقلت: يا رسول الله، أبطأ بي جملي هذا، قال: «فأنخه» وأناخ رسول الله ﷺ، ثم نخسه الرسول ﷺ فصار يكاد يسبق ناقة رسول الله ﷺ ثم حادثه الرسول ﷺ واشترىٰ جمله منه، ولما وصل إلىٰ المدينة ذهب جابر إلىٰ الرسول ﷺ ليعطيه الجمل، فرد الرسول ﷺ جمله وأعطاه ثمنه وأرجح[1].

ورجع الرسول ﷺ إلىٰ المدينة، بعد أن غاب عنها خمس عشرة ليلة.

الفوائد المستنبطة من هذه الغزوة

الأولىٰ: حكمة الرسول ﷺ في القضاء علىٰ الأعداء واحدًا تلو الآخر، حتىٰ أصبحت القوة الإسلامية في المدينة هي القوة الأولىٰ في جزيرة العرب.

الثانية: هذه الغزوة تكشف لنا حال الصحابة -رضوان الله عليهم- فلم يكونوا يجدون ما ينتعلون به حتىٰ نقبت أقدامهم وسقطت أظفارهم وكانوا يلفون علىٰ أرجلهم الخرق، ويخرجون شبه حفاة يجاهدون في سبيل الله. وتجد ستة منهم يعتقبون بعيرًا واحدًا.

الثالثة: أهمية الصلاة وأنها لا تسقط بحال من الأحوال، لا في السفر ولا في الحضر ولا في الأمن ولا في الخوف، وذلك لعظم مكانتها وأهميتها في الإسلام، فمتىٰ وُجِد التكليف وجدت الصلاة، وصلىٰ علىٰ حسب ما يستطيع مما افترض عليه.

الرابعة: أهمية صلاة الجماعة، فمع شدة الخوف وملاقاة الأعداء يقيم المسلمون الصلاة جماعة، مما يدلنا علىٰ أهمية الصلاة جماعة، وبخاصة في المسجد الذي بُنِيَ

(١) انظر: صحيح البخاري (٣/ ٦٢) (رقم ٢٠٩٧)، وصحيح مسلم (٢/ ١٠٨٩)، (رقم ٧١٥)، وابن كثير، البداية والنهاية (٤/ ٨٦-٨٧)، وابن حجر، فتح الباري (٥/ ٣٢٠) وإبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية (ص ٤٧٨-٤٧٩).

لأجل إقامة الصلاة فيه.

وصلاة الجماعة من أهم الشعائر قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢].

وبعض العلماء يقسم العبادات إلىٰ قسمين:

- أمانات كالوضوء والصيام والصلاة.
- شعائر مثل صلاة الجماعة والحج والعمرة، وكل العبادات الظاهرة شعائر وهي من أهم العبادات.

الخامسة: خاف الرسول ﷺ من الأعراب أن يأخذوا المسلمين علىٰ حين غرة، فصلىٰ بالصحابة صلاة الخوف، وهذا درس عملي بليغ في أخذ الحذر من العدو. وقد قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء:١٠٢]، فكرر الأمر بأخذ الحذر مرتين في آية واحدة، والحذر يعني أن يكون المسلمون متيقظين، مستعدين بكل ما يتطلبه الموقف ماديًا ومعنويًا.

السادسة: تشريع صلاة الخوف، جاء بعدة صور، جمع بينها الفقهاء بأن كل صورة حسب الموقف، فأحيانًا يكون العدو في جهة القبلة، وأحيانًا غير ذلك، والإسلام كما يراعي حالة الحرب، فهو يراعي ظروف المريض ويجيز له أن يصلي قاعدًا إن لم يستطع القيام، ويجيز له التيمم إن لم يتيسر له الوضوء بالماء، ويجيز هنا صلاة الخوف وقصرها إلىٰ ركعتين، بل إذا اشتد الخوف والتحم القتال وحضر وقت الصلاة أثناء المسايفة، صلىٰ المسلم علىٰ قدر ما يستطيع ولو إيماء، وهذا فيه

دلالة واضحة علىٰ ما في الإسلام من مرونة ويسر، ومراعاة للظروف والأحوال، ورفع للحرج والمشقة، والحمد لله رب العالمين.

السابعة: ثقة الرسول ﷺ بالله تعالىٰ، فمع أن الأعرابي قد اخترط السيف بيده، والرسول ﷺ نائم ليس بيده سلاح، ومع ذلك يقول للأعرابي: «الله يمنعني منك»، فهو واثق في حفظ الله ورعايته له، فلم يتمكن الأعرابي من أن يصنع شيئًا وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧].

يقول ابن كثير –رحمه الله تعالىٰ–: (أي بلغ أنت رسالتي وأنا حافظك من الناس وناصرك ومؤيدك علىٰ أعدائك ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك)[١]، يقول ابن القيم –رحمه الله تعالىٰ–: (والله –سبحانه وتعالىٰ– قد أمر رسوله أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه وضمن له حفظه وعصمته من الناس، وهؤلاء المبلغون عنه من أمته لهم من حفظ الله وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينهم وتبليغهم له)[٢].

ويقول ابن حجر –رحمه الله تعالىٰ–: (ويؤخذ من مراجعة الأعرابي له في الكلام أن الله –سبحانه وتعالىٰ– منع نبيه ﷺ منه، وإلا فما أحوجه إلىٰ مراجعته مع احتياجه إلىٰ الحظوة عند قومه بقتله، وفي قول النبي ﷺ في جوابه: «الله» أي: يمنعني منك إشارة إلىٰ ذلك، ولذلك أعادها الأعرابي، فلم يزده علىٰ ذلك الجواب، وفي ذلك غاية التهكم به وعدم المبالاة به أصلًا)[٣].

الثامنة: حرص الصحابة –رضي الله تعالىٰ عنهم– علىٰ العبادة وقيام الليل، فالصحابيان عمار بن ياسر وعباد بن بشر –رضي الله تعالىٰ عنهما– وما أجمل

---

(١) ابن كثير، تفسير ابن كثير، تحقيق مقبل الوادعي (٣/ ١٩٠).

(٢) محمد أويس الندوي، التفسير القيم لابن القيم (ص٤٣٠).

(٣) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٤٢٧).

اسميهما وما فيها من دلالة! فهذا عمَّار، وهذا عبَّاد بصيغة المبالغة لكل منهما، ونحن ما خلقنا إلا للعبادة وعمارة الأرض[1]، لمَّا كلفهما الرسول ﷺ بالحراسة اقتسما الليل نصفين؛ أحدهما يصلي النصف الأول، والآخر يصلي النصف الثاني.

يقتسمون الليل بين حراسة في سبيل الله، وصلاة وتهجد. تتجافىٰ جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفًا وطمعًا، أولئك هم القدوات لمن يبتغي الدرجات.

وأظن لو أن أحدنا أوكلت إليه مثل هذه الحراسة لقضىٰ تلك الليلة في أحاديث مع صاحبه يقطع بها وقته، نسأل المولىٰ الكريم أن يصلح أحوالنا ويردنا إليه ردًا كريمًا جميلًا.

التاسعة: مع تعبد الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- نرىٰ أمرًا آخر وهو هذا الخشوع العظيم في الصلاة، وشدة توقيرهم لما يقرأون من القرآن الكريم، وتعظيمهم للوقوف بين يدي الله -سبحانه وتعالىٰ- فهذا الصحابي الجليل عبَّاد بن بشر -رضي الله عنه- يصلي النافلة وليس الفريضة، فيصاب بسهم، فلا يفزع ولا يخاف، بل ينزع السهم ويمضي في صلاته، ثم يصاب بالسهم الثاني وينزف الدماء وينزعه ويمضي في صلاته.

ما هذا؟ أي قلب يحمله هذا الصحابي العظيم؟، دماء تنزف، وسهم جديد يترقبه، لا يدري أين سيكون موطنه من جسمه، ومع ذلك يمضي في صلاته.

ليس الحديث هنا عن كثرة الصلاة، فقد سبقت الإشارة إلىٰ أنه سيصلي نصف الليل الأول، وإنما الحديث عن كيفية هذه الصلاة، قد يستطيع شخص الكثرة! وأن يصلي نصف ليلة، لكن أنَّىٰ له بمثل هذه الصلاة في كيفيتها وخشوعها وخضوعها وتعظيمها وتوقيرها.

(١) قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٤]، وقال تعالى ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١].

ثم يصاب بالسهم الثالث، فأتم صلاته ولم يقطعها ثم أيقظ صاحبه، لا خوفًا من الرامي ولكن خوفًا علىٰ ثغر المسلمين، أين نحن من هؤلاء السلف الصالح رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين؟ الذين تعلقوا بالصلاة وعرفوا قدرها ووعوا مكانتها، فكانوا يرتاحون بها لا منها، وكانت قلوبهم وهم في كل مكان معلقة بالمساجد وبها، ونحن ندخل المسجد ونؤدي الصلاة وقلوبنا لا تدخل المسجد، بل معلقة بالأسواق وأمور الدنيا وصخبها، نسأل الله الرحمة.

العاشرة: لاحظ تعظيم هذا الصحابي للقرآن الكريم، فهو يقول: (كنت في سورة فلم أحب أن أقطعها)، فمع شدة الموقف، وتتابع السهام يمضي في قراءته، وما يمنعه من الركوع والتعجيل بإنهاء الصلاة إلا توقيره للسورة ورغبته في إكمالها، ونحن نُقطِّع تلاوة السورة لأدنىٰ حاجة، بل بدون حاجة!

الحادية عشرة: من كراهية أبي موسىٰ الأشعري -رضي الله عنه- للحديث عما حصل له في غزوة ذات الرقاع من المشقة، يقول النووي -رحمه الله تعالىٰ-: (فيه استحباب إخفاء الأعمال الصالحة وما يكابده العبد من المشاق في طاعة الله تعالىٰ ولا يظهر شيئًا من ذلك إلا لمصلحة مثل بيان حكم ذلك الشيء والتنبيه علىٰ الاقتداء به فيه ونحو ذلك، وعلىٰ هذا يُحْمَلُ ما وجد للسلف من الإخبار بذلك)(١)، فعلىٰ المسلم أن يحرص علىٰ بقاء الأعمال الصالحة بينه وبين ربه، فهو أخلص وأعظم للأجر وأبعد عن الحبوط، والشيطان يحرص علىٰ منع المسلم من عمل الصالحات، فإذا انتصر عليه وعمل العمل الصالح، سعىٰ الشيطان في إبطال هذا العمل، أو إنقاص أجره، وذلك بالحديث عنه.

الثانية عشرة: كان لهذه الغزوة أثر في قذف الرعب في قلوب الأعراب القساة، وإذا نظرنا إلىٰ تفاصيل السرايا بعد هذه الغزوة، نرىٰ أن هذه القبائل من غطفان لم

(١) النووي، شرح صحيح مسلم (١٢/ ١٩٧-١٩٨).

تجترئ أن ترفع رأسها بعد هذه الغزوة، بل استكانت شيئًا فشيئًا حتىٰ استسلمت، بل وأسلمت، حتىٰ نرىٰ عدة قبائل من هذه الأعراب، تشارك مع المسلمين في فتح مكة، وفي غزوة حنين، وتسعىٰ إلىٰ الحصول علىٰ شيء من غنائمها، ويُبعث إليها المصدقون فتعطي صدقاتها بعد الرجوع من غزوة الفتح، فهكذا - بفضل الله جل شأنه- كُسِرَت الأجنحة الثلاثة التي كانت ممثلة في الأحزاب، وساد المنطقة الأمن والسلام، واستطاع المسلمون بعد ذلك أن يسدوا بسهولة كل خلل وثلمة حدثت في بعض المناطق من بعض القبائل، وبعد هذه الغزوة بدأ التمهيد لفتوح البلدان والممالك الكبيرة؛ لأن داخل البلاد كانت الظروف قد تطورت لصالح الإسلام والمسلمين[١]، والحمد لله رب العالمين.

الثالثة عشرة: في قصة جمل جابر -رضي الله عنه- نأخذ متابعة الرسول ﷺ لأحوال أصحابه - رضي الله تعالىٰ عنهم- ورفقه بهم ومؤانسته لهم، والحديث معهم وتفقده لشؤونهم، وقد ورد أنه إذا كان مع أصحابه سار في آخرهم؛ لكي يتمكن من معرفة أحوالهم وإعانة ضعيفهم.

الرابعة عشرة: آية ظاهرة للرسول ﷺ في جمل جابر -رضي الله تعالىٰ عنه- الذي أعيا، وتأخر بجابر -رضي الله تعالىٰ عنه- ثم لما نخس الرسول ﷺ الجمل صار يسابق بقية الجمال، بل إن جابرًا -رضي الله تعالىٰ عنه- يذكر أنه تعب في منع جمله كي لا يسبق جمل رسول الله ﷺ فقد جاء في صحيح مسلم: (خرجت مع رسول الله ﷺ في غزاة[٢]، فأبطأ بي جملي فأتىٰ عليَّ رسول الله ﷺ فقال لي: «يا

(١) انظر المباركفوري، الرحيق المختوم (ص ٣٥٠).

(٢) قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- في الفتح (٥/ ٣٢٠) في تحديد المراد بهذه الغزوة: «جزم بن إسحاق عن وهب بن كيسان في روايته المشار إليها قبل بأن ذلك كان في غزوة ذات الرقاع من نخل وكذا أخرجه الواقدي من طريق عطية بن عبد الله بن أنيس عن جابر وهي الراجحة في نظري لأن أهل المغازي أضبط لذلك من غيرهم».

جابر»، قلت: نعم. قال: «ما شأنك؟» قلت: أبطأ بي جملي وأعيا، فتخلفت. فنزل فحجنه بمحجنه ثم قال: اركب فركبت فلقد رأيتني أكفه عن رسول الله ﷺ)[١].

الخامسة عشرة: من كريم أخلاقه ﷺ وحسن قضائه لجابر -رضي الله عنه- أنه عندما وصل إلىٰ المدينة رد عليه جمله الذي اشتراه منه وأعطاه ثمنه وأرجح له في الثمن. اللهم صَلِّ وسَلِّمْ وبَارِكْ علىٰ هذا النبي العظيم.

السادسة عشرة: ذكر بعض أهل العلم أنه لم يُعرف عن الرسول ﷺ أنه باع شيئًا وقبض له ثمنًا[٢]، بل كان ﷺ يشتري ما يحتاج إليه، وكان يهب ويتصدق ويهدي.

السابعة عشرة: قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- في الفتح تعليقًا علىٰ قوله ﷺ لجابر -رضي الله تعالىٰ عنه-: «خذ جملك وثمنه»: (قال ابن الجوزي هذا من أحسن التكرم، لأن من باع شيئًا فهو في الغالب محتاج لثمنه، فإذا تعوض من الثمن بقي في قلبه من المبيع أسفٌ علىٰ فراقه، كما قيل:

وقد تُخرِج الحاجات يا أمَّ مالك ... نفائس من ربٍّ بهن ضنينِ

فإذا رد عليه المبيع مع ثمنه، ذهب الهم عنه وثبت فرحه وقضيت حاجته فكيف مع ما انضم إلىٰ ذلك من الزيادة في الثمن)[٣]. فاللهم صل وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد صاحب الخلق الأعظم والوجه الأكرم وآله وصحبه أجمعين.

---

(١) صحيح مسلم (٢/ ١٠٨٦)، (رقم ٧١٥) قوله (فلقد رأيتني أكفه) أي رأيت نفسي أمنع البعير عن بعير رسول الله ﷺ حتى لا يتقدم عليه بالسبق في السير

(٢) لا يؤثر على هذا حديث عروة البارقي -رضي الله تعالى عنه- قال دفع إليَّ رسول الله ﷺ دينارا لأشتري له شاة فاشتريت له شاتين فبعت إحداهما بدينار وجئت بالشاة والدينار إلى النبي ﷺ فذكر له ما كان من أمره فقال له بارك الله لك في صفقة يمينك» رواه الترمذي في سننه (١٢٥٨) وصححه الألباني في إرواء الغليل (ص١٢٨٧). لأن الرسول ﷺ أعطاه المال ليشتري له، ولم يكن أذن له في البيع، أما ما وقع من بيع فقد كان بتصرف من عروة -رضي الله تعالى عنه- ولم يعلم به الرسول ﷺ إلا بعد التفرق، والمقصود هنا البيع ابتداء والله أعلم.

(٣) فتح الباري (٥/ ٣١٧).

المبحث الخامس

فقه السيرة في عمرة القضاء

قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (قال الحاكم في الإكليل: تواترت الأخبار أنه لما أهلَّ ذو القعدة أمر أصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم- أن يعتمروا قضاء عمرتهم وأن لا يتخلف منهم أحد شهد الحديبية، فخرجوا إلا من استُشْهِدَ، وخرج معه معتمرون آخرون، فكانت عدتهم ألفين سوىٰ النساء والصبيان، قال: وتُسَمَّىٰ أيضًا عمرةَ الصلح)[(١)]

(وهذه العمرة تحَصَّل من أسمائها أربعة: القضاء والقضية والقصاص والصلح)[(٢)].

خرج رسول الله ﷺ سنة سبع من الهجرة[(٣)] بعد استدارة العام من الشهر الذي

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٥٠٠).

(٢) المرجع السابق. والمراد بالقضاء أي الفصل الذي وقع في الحديبية، لا لأنها قضاء عن العمرة السابقة التي صد فيها عن البيت؛لأنها لم تفسد، وتسمي القضية لأن الرسول ﷺ قاضى قريش في الحديبية أن يعتمر العام المقبل، وتسمى القصاص؛ لأن الرسول ﷺ اقتص من قريش، فاعتمر في العام الذي يليه، وتسمى الصلح؛ لأنه ناتجة عن الصلح الذي وقع في الحديبية، وربما هؤلاء يسمون باسم وهؤلاء يسمون باسم آخر ولا مانع من ذلك، قال السهيلي -رحمه الله تعالى- في الروض الأنف (٧/ ١٥٦): «ويروى أيضا: عمرة القضاء ويقال لها: عمرة القصاص وهذا الاسم أولى بها لقوله تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة:١٩٤] وهذه الآية فيها نزلت، فهذا الاسم أولى بها، وسميت عمرة القضاء لأن النبي ﷺ قاضى قريشا عليها، لا لأنه قضى العمرة التي صد عن البيت فيها، فإنها لم تك فسدت بصدهم عن البيت بل كانت عمرة تامة متقبلة».

(٣) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٣٧٠).

صده المشركون فيه عن مكة، وساق معه ستين بدنة وحمل السلاح والبيض[1] والدروع والرماح وقاد مائة فارس احتياطًا من غدر المشركين، فلما انتهىٰ إلىٰ ذي الحليفة، قدَّم الخيل أمامه عليها محمد بن مسلمة، وقدم السلاح واستعمل عليه بشير بن سعد.

وأحرم النبي ﷺ والمسلمون يلبون معه ومضىٰ محمد بن مسلمة في الخيل إلىٰ مر الظهران، فوجد بها نفرًا من قريش فسألوه، فقال: هذا رسول الله ﷺ يصبح هذا المنزل غدًا إن شاء الله تعالىٰ، فأتوا قريشًا فأخبروهم ففزعوا.

ونزل رسول الله ﷺ بمر الظهران وقدم السلاح إلىٰ بطن يأجج[2] حيث ينظر إلىٰ أنصاب الحرم[3]، وخلف عليه أوس بن خولي الأنصاري في مائتي رجل.

وخرجت قريش من مكة إلىٰ رؤوس الجبال[4]، وقدَّم رسول الله ﷺ الهدي أمامه، فحُبس بذي طوىٰ[5].

وفي صحيح البخاري -رحمه الله تعالىٰ- عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: (قدِم رسول الله ﷺ وأصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم- فقال المشركون: إنه يقدم عليكم وقد وهنتهم حُمَّىٰ يثرب، فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة وأن يمشوا ما بين الركنين، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط

(١) البيض هنا: أي الخوذة غطاء الرأس.

(٢) يأجج: بالهمزة وجيمين، اسم لمكان قريب من مكة، وهو واد من أودية مكة، شمال التنعيم، ووادي التنعيم يصب في يأجج، يقطعه الطريق إلى المدينة على عشرة أكيال من المسجد الحرام، يعرف اليوم باسم ياج. محمد شراب، المعالم الأثيرة (ص ٢٩٧).

(٣) أي: أعلام حدوده.

(٤) يقال إنهم لما سمعوا بأن المسلمين أصابتهم حمى يثرب، صعدوا الجبال خوف العدوى.

(٥) القسطلاني، المواهب (١/ ٥٤١-٥٤٢). وذو طوى: مكان معروف الآن قريب جدا من الحرم بل ربما وصلته توسعة الملك عبد الله -رحمه الله تعالى- الجديدة للحرم، وهوالذي يسمى الآن (جرول).

كلها إلا الإبقاء عليهم، وزاد ابن سلمة عن أيوب عن سعيد بن جبير -رحمهم الله تعالىٰ- عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: لما قدم النبي لعامه الذي استأمن قال: «ارملوا ليرىٰ المشركون قوتكم، والمشركون من قِبَل قُعيقعان»[(١)].

وفي السيرة لابن هشام -رحمه الله تعالىٰ-: (فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمنىٰ ثم قال: «رحم الله امرأً أراهم اليوم من نفسه قوة»، ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه حتىٰ إذا واراه البيت منهم وتسلم الركن اليماني، مشىٰ حتىٰ يتسلم الركن الأسود، ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف ومشىٰ سائرها)[(٢)].

ثم طاف رسول الله ﷺ بين الصفا والمروة علىٰ راحلته، فلما كان الطواف السابع عند فراغه وقد وقف الهدي عند المروة قال: «هذا المنحر وكل فجاج مكة منحر»[(٣)].

وأمر رسول الله ﷺ ناسًا منهم أن يذهبوا إلىٰ أصحابهم ببطن يأجج فيقيموا علىٰ السلاح ويأتي الآخرون فيقضوا نسكهم ففعلوا[(٤)].

وفي صحيح البخاري -رحمه الله تعالىٰ-: (فلما دخلها ومضىٰ الأجل أتوا عليًا -رضي الله تعالىٰ عنه- فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضىٰ الأجل، فخرج النبي ﷺ فتبعته ابنة حمزة تنادىٰ يا عم يا عم، فتناولها علي -رضي الله تعالىٰ عنه- فأخذ بيدها وقال لفاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها-: دونك ابنة عمك احمليها فاختصم فيها علي وزيد وجعفر رضي الله تعالىٰ عنهم. قال علي: أنا أخذتها وهي

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٥٠٨-٥٠٩)، (رقم ٤٢٥٦)، وقعيقعان جبل يشرف على الركنين الشاميين ومن كان به لا يرى من بين الركنين اليمانيين، فتح الباري (٧/ ٥١٠).

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية المطبوعة مع الروض الأنف (٤/ ٦٩).

(٣) انظر: موطأ الإمام مالك (٣/ ٥٧٦)، (رقم ١٤٦٨).

(٤) انظر: القسطلاني، المواهب اللدنية (١/ ٥٤٤).

بنت عمي، وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي، فقضىٰ بها النبي ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم» وقال لعلي -رضي الله تعالىٰ عنه-: «أنت مني وأنا منك» وقال لجعفر -رضي الله تعالىٰ عنه-: «أشبهت خَلْقي وخُلقي» وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا»[1].

وأثناء بقاء الرسول ﷺ في مكة سأل عن خالد بن الوليد، يقول خالد مخبراً عن نفسه: (دخل رسول الله ﷺ في عمرة القضية فتغيبت ولم أشهد دخوله، فكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبي ﷺ في عمرة القضية، فطلبني فلم يجدني وكتب إلي كتابًا فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإني لم أرَ أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعَقْلُك عَقْلُك، ومثل الإسلام يجهله أحد؟ قد سألني رسول الله ﷺ عنك فقال: «أين خالد؟» فقلت: يأتي الله به، فقال: «ما مثله جهل الإسلام، ولو كان جعل نكايته وجِدَّه للمسلمين علىٰ المشركين كان خيرًا له ولقدمناه علىٰ غيره»، فاستدرك يا أخي ما قد فاتك، وقد فاتتك مواطن صالحة، فلما جاءني كتابه نشطت للخروج وزادني رغبة في الإسلام)[2] ولم يلبث خالد -رضي الله تعالىٰ عنه- إلا يسيرًا، وإذا به يقدم إلىٰ المدينة مسلمًا.

وفي طريق عودته ﷺ وبموضع يقال له: (سَرِف) تزوج الرسول ﷺ ميمونة بنت الحارث -رضي الله عنها وأرضاها- ثم واصل سيره إلىٰ المدينة عليه الصلاة والسلام[3].

الفوائد المستخرجة من عمرة القضاء

الأولىٰ: كانت عمرة القضاء تمثل صورة عملية من صور انتصار المسلمين علىٰ

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٤٤٩)، (رقم ٤٢٥١).
(٢) البيهقي، دلائل النبوة (٤/ ٣٥٠).
(٣) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٣٧٢).

الكفار، فقد أفزع قريش مقدم الرسول ﷺ ولم يسكن روعهم إلا بعد أن تأكدوا أن الرسول ﷺ قدم للعمرة فقط، وهذا يدل علىٰ ما بلغته قوة المسلمين في نفوس المشركين.

الثانية: تمكَّنَ المسلمون -بفضل الله سبحانه وتعالىٰ- من دخول مكة والطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة وإعلان شعائر التوحيد آمنين مطمئنين كما وعدهم الله -سبحانه وتعالىٰ- علىٰ مرأىٰ من قريش لا يستطيعون أن يفعلوا شيئًا.

ويتضح هذا المعنىٰ بمقارنة حال المسلمين في بداية الدعوة وحالهم يوم عمرة القضاء، حيث كانوا في بداية الدعوة لا يستطيعون حتىٰ المجاهرة بالإسلام أو تلاوة شيء من آيات القرآن الكريم، واليوم يُلَبُّوْنَ بالتوحيد ويطوفون ويسعون آمنين، مطمئنين، أعزة، أقوياء، وكفار قريش أذلة وضعفاء، يخرجون من مكة حتىٰ لا يروا هذا الموقف، أو يصعدون إلىٰ رؤوس الجبال.

الثالثة: دخول الرسول ﷺ ومعه الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- يرفعون أصواتهم بشعار التوحيد «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»، من أعظم النعم رفع شعار التوحيد، يُرفع عاليًا، يُدوي في سماء مكة، بعد أن عانت الشرك والوثنية، وهذه أول مرة يدخل المسلمون مكة، رافعين شعار التوحيد بالتلبية، الذي طالما جحده المشركون، وأبوا إلا الانتصار لأصنامهم وعبادة الحجارة، ونعمة التوحيد أعظم نعمة يَمنُّ بها الله -جل شأنه- علىٰ العبد، وعلىٰ الأرض، وعلىٰ من سكن هذه الأرض، وأقبح ما يكون فسادًا في الأرض أن يرفع فيها شعارات الشرك والتعلق بغير الله، إما دعاءً وتوسلًا ومحبة وخوفًا ورجاءً، من مخلوقات لا تملك لنفسها شيئًا، فضلًا عن أن تملكه لغيرها، أو طوافًا علىٰ أصنام وأحجار وأشجار وجمادات صماء، بلغت العقول الغاية في سخفها عندما تطلب حاجتها من شجر أو حجر أو ميت في قبر.

الرابعة: في حمل رسول الله ﷺ للسلاح معه ووضعه في يأجج قريبًا من مكة للحيطة والحذر من غدر المشركين نأخذ من ذلك مشروعية الحيطة والحذر، ويتأكد ذلك في المواقف التي يُخْشَىٰ فيها من غدر الكفار ومباغتتهم للمسلمين.

الخامسة: مشروعية إغاظة العدو الكافر، فإن الرسول ﷺ لما علم بما قاله المشركون وأن المسلمين قد وهنتهم حمىٰ يثرب، أمر بالرمل في الطواف، ليرىٰ المشركون جلد المسلمين وقوتهم وليريهم من المسلمين ما يغيظهم، قال في زاد المعاد: (وكان رسول الله ﷺ يكايدهم بكل ما استطاع)[1]، وقال مثل ذلك ابن كثير[2] والشامي[3] رحمهم الله تعالىٰ.

السادسة: أن هذه الأفعال التي قصد بها الرسول ﷺ إغاظة الكفار، بقيت مشروعة إلىٰ يوم القيامة ولو ذهب سبب مشروعيتها، قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وهذه قاعدة من قواعد الشرع أن الأحكام المشروعة لهذه الأسباب في الأصل لا يُشْتَرَطُ في ثبوتها، قيامُ تلكَ الأسبابِ)[4].

السابعة: في قول الرسول ﷺ: «رحم الله إمرأً أراهم من نفسه اليوم قوةً». أسلوب دعوي فيه الترغيب في إظهار القوة لإغاظة الكفار، وأسلوب الدعاء استخدمه الرسول ﷺ في بعض المواقف مثل قوله: «رحم الله المحلقين ثلاثًا» وذلك عندما رغَّب في الحلق وفضَّله علىٰ التقصير في صلح الحديبية، كما مر معنا من قبل. وهو أسلوب تربوي حي متجدد.

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٣٧١).

(٢) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٤/ ٢٢٩).

(٣) انظر: الشامي، سبل الهدى والرشاد (٥/ ٢٩٣).

(٤) ابن القيم، بدائع الفوائد (٣/ ١٦١)، وانظر: زاد المعاد (٢/ ٢١٥)، وتهذيب السنن (٢/ ٣٠٩-٣١٠).

الثامنة: أحيانًا قد يكون ليس من المستحسن أن لا ترد على الشخص ردًا قوليًا، بل تترك العمل يرد عليه، والرسول ﷺ لما علم بمقالة كفار قريش عن الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- بأنهم وهنتهم حمى يثرب، سكت ولم يرد قولًا على ذلك، بل أمر الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- أن يرملوا في الطواف ويظهروا القوة والنشاط أمام الكفار، ليكون هذا ردًا عمليًا على قولهم، وهو أنفع وأكثر وقوعًا، ولذلك صار الكفار يتلاومون فيما بينهم، ويقولون لبعضهم: أهؤلاء الذين تقولون إنهم وهنتهم حمى يثرب؟

التاسعة: سعى الرسول ﷺ راكبًا، وفي هذا بيان لجواز السعي راكبًا، فأما إن كان لعذر فيجوز إجماعًا، نقل الإجماع ابن عبد البر[١]. وابن القيم[٢]. رحمهم الله. وأما إن كان من غير عذر ففيه الخلاف: فذهب الجمهور إلى المنع[٣]، وأجازه بعض العلماء[٤].

العاشرة: في سؤال الرسول ﷺ عن خالد بن الوليد -رضي الله تعالى عنه- وترغيبه في الإسلام، وعتبه عليه في تأخره، ووعده إن بادر أنه سيقدمه، ثم أثر ذلك على خالد -رضي الله تعالى عنه- في القدوم على الرسول ﷺ والإسلام[٥]. وليكون من أعظم قادة الإسلام، وعلى يديه جرت فتوحات عظيمة للمسلمين في العراق والشام.

---

(١) قال ابن عبد البر في التمهيد (١٣/ ٩٩): «هذا (ما) لا خلاف فيه بين أهل العلم كلهم يقول إن من كان له عذر أو اشتكى مرضا أنه جائز له الركوب في طوافه بالبيت وفي سعيه بين الصفا والمروة».

(٢) قال ابن القيم في إعلام الموقعين (٤/ ٣٦٠): «والطواف والسعي إذا عجز عنه ماشيا فعله راكبا اتفاقا».

(٣) انظر: البهوتي، شرح منتهى الإرادات (١/ ٥٧٣).

(٤) انظر: ابن قدامة، المغني (٣/ ٣٥٩)، وهو من القائلين بالجواز، واختار الشيخ ابن باز -رحمه الله تعالى- الجواز، قال: (وإن سعى راكبًا فلا حَرَجَ، ولا سيَّما عند الحاجة) (مجموع فتاوى ابن باز) (١٧ / ٤٢٩).

(٥) أسلم خالد بن الوليد -رضي الله تعالى عنه- بعد عمرة القضاء بحوالي شهر، فقد قدم المدينة هو وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة رضي الله تعالى عنهم، مسلمين في شهر صفر من السنة الثامنة من الهجرة.

كل هذا يرشدنا إلىٰ العناية البالغة من الرسول ﷺ بالدعوة إلىٰ الله، ومعرفته بطبائع الرجال، ومنازلهم ومعاملة كل واحد بما يلائمه، وبالأمر الذي يرغبه في الإسلام.

الحادية عشرة: في قضاء الرسول ﷺ في ابنة حمزة لخالتها وقوله ﷺ: «الخالة بمنزلة الأم»، بيان لعظمة مكانةالخالة وحقها، وقرابتها من أوثق القرابات، وحقها من حق الأم، وإكرامها إكرام للأم، وقد ورد في بعض ألفاظ هذا الحديث كما في مسند أحمد -رحمه الله تعالىٰ- أن الرسول ﷺ قال في قضائه: «والجارية عند خالتها، فإن الخالة والدة»(١). وعن ابن عمر -رضي الله تعالىٰ عنهما-أن رجلاً أتىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أصبت ذنبًا عظيمًا فهل لي توبة؟ قال: «هل لك من أم؟» قال: لا، قال: «هل لك من خالة؟» قال: نعم، قال: «فَبِرَّها»(٢).

وهذه كلها وصايا تذكر بعظم حق الخالة نصًا، وتذكر بما هو أعظم منه وهو حق الأم إشارةً، فإذا كان البر بالخالة سببًا لمغفرة الذنب العظيم، فكيف بالبر بالأم!

الثانية عشرة: عظيم خلق الرسول ﷺ فهو لمَّا حكم بالجارية للخالة، أثنىٰ علىٰ كل واحد من الذين كانوا يريدون حضانتها، تطييبًا للنفوس وإراحة للخواطر، فقد طيب نفس علي وجعفر وزيد -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين- بثناء علىٰ كل واحد منهم(٣)، فينبغي أن يكون أسوة لكل مسلم في تعامله مع أهله وأقاربه وجيرانه والمسلمين.

---

(١) مسند الإمام أحمد(٢/ ١٦١)، (رقم ٧٧٠) من حديث علي -رضي الله تعالى عنه- وقال محققوه: «إسناده حسن، رجاله ثقات رجال الشيخين غير هانئ بن هانئ وهبيرة بن يريم فقد روى لهما أصحاب السنن، وحديثهما حسن لمتابعة أحدهما للآخر».

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٤/ ٣١٤) والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ١٨٧)، (رقم ٧٨٦٤). وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٦٥٨)، (رقم ٢٥٠٤).

(٣) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٥٠٧).

الثالثة عشرة: فضيلة ظاهرة لكل واحد من هؤلاء الصحب الكرام، علي وجعفر وزيد -رضي الله تعالىٰ عنهم- بهذه الفضائل التي ذكرها الرسول ﷺ عن كل منهم.

قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وقال لعلي -رضي الله تعالىٰ عنه-: «أنت مني وأنا منك»، أي: في النسب والصهر والمسابقة والمحبة وغير ذلك من المزايا ولم يُرد محض القرابة وإلا فجعفر شريكه فيها)[1].

وقال لجعفر -رضي الله تعالىٰ عنه-: أشبهت خَلقي وخُلقي بفتح الخاء الأولىٰ وضم الثانية. وهي منقبة عظيمة لجعفر. وأما شبهه في الخُلق بالضم فخصوصية لجعفر إلا أن يقال إن مثل ذلك حصل لفاطمة -عليها السلام- فإن في حديث عائشة - رضي الله تعالىٰ عنها- ما يقتضي ذلك ولكن ليس بصريح كما في قصة جعفر هذه، وهي منقبة عظيمة لجعفر، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾)[2].

وقال أيضا: (وقال لزيد: أنت أخونا. أي: في الإيمان ومولانا أي: من جهة أنه أعتقه. ومولىٰ القوم منهم فوقع منه ﷺ تطييب خواطر الجميع)[3].

(١) انظر: ابن حجر، فتح الباري(٧/ ٥٠٧).
(٢) انظر: ابن حجر، فتح الباري(٧/ ٥٠٧).
(٣) انظر: ابن حجر، فتح الباري(٧/ ٥٠٧).

المبحث السادس

فقه السيرة في غزوة مؤتة

يُطلق عامة كتب السير علىٰ هذه السرية اسم غزوة، رغم أن الرسول لم يشارك فيها وذلك لكثرة عدد رجالها، حيث بلغ من خرج فيها ثلاثة آلاف مقاتل، وهو عدد كبير بالنسبة إلىٰ غزوات الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقد كانت هذه الغزوة في جمادىٰ الأولىٰ من السنة الثامنة للهجرة وتُنْسَبُ إلىٰ المكان الذي وقعت فيه وهو قرب (مؤتة)[1].

وسبب هذه المعركة أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدي -رضي الله تعالىٰ عنه-بكتابه إلىٰ عظيم بصرىٰ، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني، فأوثقه رباطًا وضرب عنقه[2]، فغضب الرسول ﷺ لمقتل رسوله، واشتد عليه الأمر، وأرسل هذه السرية، وأَمَّرَ عليها زيدَ بنَ حارثةَ ثم قال: «إن قُتِلَ زيدٌ فجعفرٌ وإن قُتِلَ جعفرٌ فعبدُ الله بنُ رواحةَ»[3] رضي الله تعالىٰ عن الجميع.

وعن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة -رضي الله تعالىٰ عنه- في سرية، فوافق ذلك يوم الجمعة، قال: فقدم أصحابه، وقال: أتخلف فأصلي مع النبي ﷺ الجمعة، ثم ألحقهم. قال: فلما صلىٰ رسول الله ﷺ رآه، فقال: «ما منعك أن تغدو مع أصحابك؟» قال: فقال: أردت أن

---

(١) مؤتة: تقع في شرق الأردن على مسيرة أحد عشر كيلاً جنوب الكرك، وهي قرية الآن عامرة بالسكان. محمد شراب، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة (ص ٢٣٧).

(٢) انظر: القسلانى، المواهب اللدنية (١/ ٥٤٩).

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح لابن حجر (٧/ ١٠)، (رقم ٤٢٦١).

أصلي معك الجمعة، ثم ألحقهم. قال: فقال رسول الله ﷺ: «لو أنفقت ما في الأرض، ما أدركت غدوتهم»[1].

وعندما تهيأ الجيش للخروج وَدَّعَ الناس أمراء الرسول ﷺ، وأوصاهم الرسول ﷺ أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير وأن يدعوا من هنالك إلىٰ الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعانوا بالله عليهم وقاتلوهم، وحينئذ بكىٰ عبد الله بن رواحة ﷺ، فسألوه عن السبب فقال: أما والله ما بي حُبٌّ لدنيا ولا صبابة بكم ولكن سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله -عز وجل- يذكر فيها النار: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم:٧١]، فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود فقال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم وردكم صالحين، فقال ابن رواحة ﷺ:

ولكنني أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا
أو طعنة بيدي حران مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتىٰ يقال إذا مروا علي جدثىٰ أرشده الله من غاز وقد رشدا

ثم خرج القوم وخرج رسول الله ﷺ مودِّعًا إياهم حتىٰ بلغ ثنية الوداع، فوقف وودعهم. وفي هذه الغزوة، يشارك لأول مرة مع المسلمين - بفضل الله سبحانه وتعالىٰ- خالد بن الوليد رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه.

ولما بلغ الروم مخرج الجيش الإسلامي خرجوا مع هرقل في مائة ألف مقاتل وانضم إليهم من لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلي مائة ألفٍ آخرين.

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٣/ ٤٣٢)، (رقم ١٩٦٧) وقال محققو المسند: «إسناده ضعيف، فيه عنعنة الحجاج- وهو ابن أرطاة-والحكم- وهو ابن عتيبة- لم يسمعه من مقسم» وقال أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (٢/ ٤٦٥): (إسناده صحيح). ورواه الترمذي في سننه (٢/ ٤٠٥)، (رقم ٥٢٧) وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (ص ٥٩)، (رقم ٣٧٥).

فلما بلغ هذا الأمر إلىٰ المسلمين أقاموا علىٰ مدينة معان ليلتين يتشاورون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلىٰ رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي، فشجع عبد الله بن رواحة الناس وقال: يا قوم إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدىٰ الحسنيين إما ظهور وإما شهادة، فقال الناس: قد صدق والله عبد الله بن رواحة[1]، فاستقر الرأي علىٰ ما قاله عبد الله بن رواحة -رضي الله عنه-، وتحرك الجيش لملاقاة العدو حتىٰ لقيتهم جموع هرقل بقرية يقال لها: (مشارف) ثم دنا العدو فانحاز المسلمون إلىٰ قرية (مؤتة)، فعسكروا هناك وتعبأوا للقتال.

قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (وقال الواقدي -رحمه الله تعالىٰ-: حدثني ربيعة بن عثمان، عن المقبري، عن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: شهدت مؤتة، فلما دنا منا المشركون، رأينا ما لا قبل لأحد به من العدة والسلاح والكراع والديباج والحرير والذهب، فبرق بصري، فقال لي ثابت بن أرقم[2]: يا أبا هريرة كأنك ترىٰ جموعًا كثيرة؟ قلت: نعم. قال: إنك لم تشهد بدرًا معنا، إنا لم ننصر بالكثرة. رواه البيهقي)[3].

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٣/ ٤٣٠)، وابن كثير، البداية والنهاية (٤/ ٢٤٣).

(٢) قال ابن حجر في الإصابة: «ثابت بن أقرم بن ثعلبة بن عدي بن العجلان البلوي، حليف الأنصار. ذكره موسى بن عقبة في البدريين. وقال ابن إسحاق في «المغازي»: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة، قال: ثم أخذ الراية- يعني في غزاة مؤتة- ثابت بن أقرم بعد قتل ابن رواحة، فدفعها إلى خالد بن الوليد. وكذا رواه ابن مندة من حديث أبي اليسر بإسناد ضعيف. وروى الواقديّ، عن أبي هريرة، قال: شهدت مؤتة، فقال لي ثابت بن أقرم: إنك لم تشهدنا ببدر، إنا لم ننصر بالكثرة». هكذا ذكره ابن حجر ابن أقرم والذي في البداية والنهاية ابن أرقم.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية (٣/ ٤٦١).

وهناك في مؤتة التقىٰ الفريقان، وبدأ القتال المرير، ثلاثة آلاف رجل يواجهون هجمات مائتي ألف مقاتل. معركة عجيبة تشاهدها الدنيا وتشهد لها بالدهشة والحيرة، ولكن إذا هبت ريح الإيمان جاءت بالعجائب. كل رجل من الجيش الإسلامي يقابله (٦٦) رجلًا من الكفار.

أخذ الراية زيد بن حارثة -رضي الله تعالىٰ عنه- حِب رسول الله ﷺ وجعل يقاتل بضراوة بالغة، وبسالة لا يوجد لها نظير إلا في أمثاله من أبطال الإسلام، فلم يزل يقاتل ويقاتل حتىٰ شاط[١] في رماح القوم، وخر صريعًا.

وحينئذ أخذ الراية جعفر بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- وطفق يقاتل قتالًا منقطع النظير، حتىٰ إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه الشقراء فعقرها، ثم قاتل علىٰ رجليه حتىٰ قطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله، ولم يزل بها حتىٰ قطعت شماله، فاحتضنها بعضديه، فلم يزل رافعًا إياها حتىٰ قتل[٢]. وأثابه الله بجناحيه جناحين في الجنة، يطير بهما حيث يشاء[٣]، ولذلك سمي: بجعفر الطيار، وبجعفر ذي الجناحين[٤]. وكان عمره عند استشهاده ثلاثًا وثلاثين سنة، رضي الله تعالىٰ وأرضاه[٥].

عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: (أَمَّرَ رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيدَ بنَ حارثَةَ، فقال رسول الله: «إن قُتِلَ زيدٌ فجعفرٌ وإن قُتِلَ جعفرٌ فعبدُ الله بنُ رواحةَ» قال عبد الله رضي الله تعالىٰ عنه: كنت فيهم في تلك الغزوة فالتمسنا جعفرًا، فوجدناه في القتلىٰ ووجدنا في جسده بضعًا وتسعين من طعنة ورمية)[٦].

---

(١) شاط: هلك أو قتل. مختار الصحاح (ص ١٧١).
(٢) انظر: ابن حزم، جوامع السير (٢٢١) وحدائق الأنوار (٣٤٣).
(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٣/ ٤٣٣- ٤٣٥).
(٤) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٧٥)، (رقم ٣٠٧٩).
(٥) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/ ٣٧٨).
(٦) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٥١٠)، (رقم ٤٢٦١).

وكان ابن عمر -رضي الله تعالىٰ عنهما- إذا حيَّا ابن جعفر -رضي الله تعالىٰ عنهما-، قال: (السلام عليك يا ابن ذي الجناحين)[1].

وبعد استشهاد جعفر، أخذ الرايةَ عبدُ الله بنُ رواحةَ -رضي الله تعالىٰ عنه-، فقاتل حتىٰ قُتِلَ -رضي الله عنه وأرضاه- ثم تقدم ثابت بن أرقم[2]. فأخذ الراية وقال: يا معشرَ المسلمين اصْطَلِحُوا علىٰ رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فاصْطَلَحُوا علىٰ خالد بن الوليد رضي الله تعالىٰ عنه.

فلما أخذ الرايةَ خالدٌ قاتل قتالًا مريرًا، فعن قيس بن أبي حازم -رحمه الله تعالىٰ- قال: سمعت خالد بن الوليد -رضي الله تعالىٰ عنه- يقول: (لقد انقطعتْ في يدي يومَ مؤتةَ تسعةُ أسيافٍ، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية)[3].

ولما بات خالد أصبح وقد جعل مقدمة الجيش ساقته وساقته مقدمته وميمنته ميسرته وميسرته ميمنته، فأنكر الأعداء ما كانوا يعرفون من رايات وهيئات المسلمين وقالوا: قد جاءهم مدد فرعبوا.

عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ نعىٰ زيدًا وجعفرًا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال: «أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب -وعيناه تذرفان- حتىٰ أخذ الراية سيف من سيوف الله حتىٰ فتح الله عليهم»[4].

وعلىٰ الرغم من ضراوة هذه المعركة وكثرة أعداد جيش العدو، فقد استشهد من المسلمين اثنا عشر رجلًا فقط، ذكرهم بالأسماء ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٥١٥)، (رقم ٤٢٦٤).
(٢) والذي في الإصابة ابن أقرم كما مر.
(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٥١٥)، (رقم ٤٢٦٥).
(٤) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٥١٢)، (رقم ٤٢٦٢).

في السيرة[١]، أما الأعداء فلم يُعْرَفْ عدد قتلاهم غير أن وصف المعركة يدل علىٰ أنهم كثير. فقد اندقت في يد خالد بمفرده تسعة أسياف كما سبق أن أشرت من قبل، فكم -يا ترىٰ- قتل هذا البطل من علوج بأسيافه التسعة التي اندقت في رقابهم؟ وهذا يدل علىٰ كثرة القتلىٰ في صفوف العدو، وعاد المسلمون من هذه الغزوة ظافرين[٢].

ما يستفاد من أحداث هذه الغزوة

الأولىٰ: أن مقتل الرسل جريمة من أكبر الجرائم، فقد جرىٰ العرف علىٰ أن الرسل لا يُقْتَلُون، لكن من لا دين له فلا خُلق له ولا مبدأ، فقد أقدم شرحبيل الغساني علىٰ قتل رسول رسول الله ﷺ صبرًا، ولم تكن هذه الجريمة ليسكت الرسول ﷺ عنها، فقد بعث هذا الجيش الكبير من أجل مقتل هذا الرجل المسلم الذي يحمل رسالة رسول الله ﷺ إلىٰ عظيم بصرىٰ.

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٣٨٨-٣٨٩) قال ابن هشام « وهذه تسمية من استشهد يوم مؤتة. من قريش، ثم من بني هاشم: جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وزيد بن حارثة رضي الله عنه. ومن بني عدي بن كعب: مسعود بن الأسود بن حارثة بن نضلة. ومن بني مالك بن حسل: وهب بن سعد بن أبي سرح. : ومن الأنصار ثم من بني الحارث بن الخزرج: عبد الله بن رواحة، وعباد بن قيس. ومن بني غنم بن مالك بن النجار: الحارث بن النعمان بن أساف بن نضلة ابن عبد بن عوف بن غنم. ومن بني مازن بن النجار: سراقة بن عمرو بن عطية بن خنساء، قال ابن هشام: وممن استشهد يوم مؤتة، فيما ذكر ابن شهاب: من بني مازن بن النجار: أبو كليب وجابر، ابنا عمرو بن زيد بن عوف بن مبذول وهما لأب وأم. ومن بني مالك بن أفصى: عمرو وعامر، ابنا سعد بن الحارث بن عباد بن سعد بن عامر بن ثعلبة بن مالك بن أفصى. قال ابن هشام: ويقال أبو كلاب وجابر، ابنا عمرو».

(٢) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٥١٣)، و إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية (ص ٥٠١ – ٥٠٢) حيث عرض الأقوال في هذه الغزوة ورجح القول القائل بانتصار المسلمين استنادًا إلى أدلة أهمها قول الرسول ﷺ الذي سبق الإشارة إليه حينما نعى زيدًا وجعفرًا وعبد الله بن رواحة وقال في نهاية الحديث: (حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليه) ففي هذا دلالة على أن الفتح والنصر كان بجانب المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

فهذا جيش كبير فيه ثلاثة آلاف مقاتل، يسير هذه المسافة الطويلة، ويواجه هذا الكم الكبير من الأعداء انتصارًا لمسلم واحد، وقع الاعتداء عليه، وجرىٰ قتله ظلمًا وبغيًا وعدوانًا.

الثانية: كانت غزوة مؤتة فاتحة للقاء المسلمين بالروم، ومجاهدتهم في سبيل الله تعالىٰ، وكانت فاتحة مشجعة للمسلمين مروعة للكفار، حتىٰ تم -بفضل الله سبحانه وتعالىٰ- الانتصار عليهم وإخراجهم من أرض الشام كلها وتحويلها إلىٰ بلاد إسلامية، ويرجىٰ أن يكون لأول جيش غزا هذه الوجهة، فضيلة سن سنة حسنة لمن بعده من جيوش المسلمين، وكسب أجرهم، وأجر ما حققوه من انتصارات دخل بسببها الألوف في دين الله جل شأنه.

الثالثة: في تولية الرسول ﷺ لزيد بن حارثة قيادة الجيش وهو من الموالي، رغم أن في الجيش ابن عم رسول الله ﷺ جعفر بن أبي طالب، وفيه أيضًا عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- وعبد الله بن رواحة وغيرهم، في ذلك دلالة واضحة علىٰ المعتبر في الولايات، وقيادة الجيوش، فلا عبرة بالقبلية أو القرابة في ذلك، وإنما التقوىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات:١٣].

هذا هو المعيار الشرعي، فالتُّقَىٰ دافع للشخص لمراقبة عمله وخوفه من ربه وأدائه للأمانة، وهو درس لكل من تحمل مسؤولية، أن يختار دائمًا الأصلح والأتقىٰ في من يعمل معه في الإدارات المتفرعة عن عمله، ولا يولي إدارة تتبع له شخصًا لقرابة، أولمصلحة خاصة، فالمسؤولية أمام الله -جل شأنه- عظيمة.

الرابعة: فضيلة ظاهرة لزيد بن حارثة -رضي الله تعالىٰ عنه- الذي ولاه الرسول ﷺ علىٰ هذا الجيش الكبير المكلف بهذه المهمة الشاقة والبعيدة والخطيرة، ومعه جمع من فضلاء الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- وكلهم فضلاء ولا شك

أنها تزكية عظيمة، بل عُظمىٰ من المصطفىٰ ﷺ لهذا الصحابي -رضي الله تعالىٰ عنه- تقول عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-: (ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في جيش قط إلا أمَّره عليهم، ولو بقي بعده استخلفه)[1]. هذا قولها وهي ابنة الصديق أبي بكر، رضي الله تعالىٰ عنه وعنها.

الخامسة: في تأخر عبد الله بن رواحة -رضي الله تعالىٰ عنه- لصلاة الجمعة مع رسول الله ﷺ ثم اللحاق بالجيش الذي سبقه بالغُدُّو، ثم ما رُوِي من قول الرسول ﷺ: «لو أنفقت ما في الأرض، ما أدركت غدوتهم»، بيان لتفاضل العبادات.

وما أكثر ما نقع في ذات الخطأ، عندما ننشغل بعبادة مفضولة عن عبادة فاضلة، وهذا من دقائق الفقه في العبادات، له أحاديث كثيرة تؤدي هذا المعنىٰ، وتكلم عنه علماء السلوك، وقد تكون العبادة المفضولة، أشق من العبادة الفاضلة، ومع ذلك نتمسك بها، ويفوتنا بسبب ذلك أجر عظيم.

قال تعالىٰ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة:١٩].

وكان الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- يسألون الرسول ﷺ: (أي الأعمال أحب إلىٰ الله؟)[2]، عن أنس -رضي الله عنه- قال: كنا مع النبي ﷺ أكثرنا ظلاً الذي يستظل بكسائه، وأما الذين صاموا فلم يعملوا شيئًا وأما الذين أفطروا فبعثوا الركاب وامتهنوا وعالجوا، فقال النبي ﷺ: «ذهب المفطرون اليوم بالأجر»[3].

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٤٣/ ٧٤)، (رقم ٢٥٨٩٨). وقال محققو المسند: «إسناده حسن إن صح سماع البهي: وهو عبد الله من عائشة، فقد ثبته البخاري في «تاريخه الكبير» (٥/ ٢٥٦)، ودفعه الإمام أحمد، وقال: ما أرى هذا شيئا، إنما يروي عن عروة، وبقية رجاله ثقات» وأخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٣٨)، (رقم ٤٩٥٣) وقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه. وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٤١٥)، (رقم ٣٦٩٧٨).

(٢) تكرر هذا السؤال، وانظر على سبيل المثال صحيح البخاري (٨/ ١٢٢)، (رقم ٦٤٦٥).

(٣) صحيح البخاري (٤/ ٤٢)، (رقم ٢٨٩٠). وصحيح مسلم (٣/ ١٤٣)، (رقم ٢٦٧٨).

وفي سنن النسائي -رحمه الله تعالىٰ- عن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «سبق درهم مائة ألف درهم» قالوا: وكيف؟ قال: كان لرجل درهمان تصدق بأحدهما، وانطلق رجل إلىٰ عرض ماله فأخذ منه مائة ألف درهم فتصدق بها»(١)، وواضح هنا تقديم الكيفية علىٰ الكمية في العبادة، وذلك لما قام في قلب هذا الذي لا يملك إلا درهمين من الإخلاص لله والانتصار علىٰ النفس مما لم يظهر عند الآخر، وقد انتزع ابن شاط -رحمه الله تعالىٰ- قاعدة في هذا فقال: المعتبر في تفاضل الأعمال المتحدة:

أولاً: تفاضل أحوال عامليها.

ثانيًا: تفاضل الأعمال أنفسها.

ثالثًا: تفاضل أحوال المنتفع بها إن كانت متعدية النفع.

والدليل علىٰ صحة هذا الترتيب قوله ﷺ: «سبق درهم مائة ألف درهم». فلو كان المعتبر أولًا تفاضل أحوال المنتفع لسبقت مائة الألف الدرهم، لأنها أعظم نفعًا بالمشاهدة)(٢)، وفقه هذا، من الأمور المهمة في التعبد، فعليك به فإنه فقه في تفاضل الأعمال غائب عن كثير من الناس.

وسبق في فائدة مضت الإشارة إلىٰ هذا المعنىٰ ونقلت كلامًا لابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- حول الفائدة ذاتها(٣)، وهو مما يحسن التنبيه إليه، بل وتكرار التنبيه إليه لكثرة وقوعه والحاجة إليه.

السادسة: موقف عبد الله بن رواحة الصحابي الجليل عندما بكىٰ لما تذكر آية من كتاب الله -سبحانه وتعالىٰ-: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا

(١) سنن النسائي (١/ ١٧١) رقم (٢٥٢٧) وحسنه الألباني في التعليق على الترغيب والترهيب (٢/ ٢٨-٢٩).

(٢) ابن الشاط، إدرار الشروق على أنوار الفروق، المطبوع مع الفروق للقرافي، عالم الكتب (٢/ ١١).

(٣) انظر: ابن القيم، مدارج السالكين (١/ ١٠٩-١١١).

مَّقۡضِيّٗا ﴾ [مريم:٧١]، إنه موقف إيماني عظيم يجب أن يفقهه المسلم ويفكر فيه، ويُعِد من الآن أداة الصدور بعد تيقنه من الورود، نسأل الله السلامة.

هو يا أخي درس لي ولك، وليس لابن رواحة -رضي الله تعالىٰ عنه- أن نوقن بورود النار - والعياذ بالله من النار- ونستعد بما ينفعنا وينجينا منها، والسعيد من كان حاضرًا لديه شعور ابن رواحة -رضي الله تعالىٰ عنه- واستعداده.

السابعة: كان لقاء المسلمين بالجيوش الرومية رغم كثرة عددها وقوتها وسمعتها المرهبة للعرب، كان هذا سببًا لخوف القبائل العربية من المسلمين، مما جعل العديد من القبائل تُذعن وتدخل في الإسلام بعد ذلك.

الثامنة: ثقة الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- بنصر الله وأنهم لا يقاتلون بعددٍ ولا عدة، وإنما يقاتلون بالإيمان الذي وقر في قلوبهم، فرغم قلة عددهم ومعرفتهم بأعداد الكفار الهائلة، استعدوا للمواجهة واثقين في نصر الله.

هل تأملت في عدد جيش كل من الطرفين؟ المسلمون عددهم ثلاثة آلاف رجل، يواجهون مائتي ألف مقاتل، ومعنىٰ ذلك أن المسلم الواحد يواجه ستة وستين رجلًا، فالنظر العددي للمعركة، يجزم بالنتائج.

لكن شتان بين من يقاتل وهو يمتثل أمر ربه، ويستجيب لندائه، محب للقاء الله، يجد ريح الجنة، تحت ظلال سيوف العدو، فيقدم إقدام من لا يقف أمامه مئات الرجال.

ورجل آخر جاء مستأجَرًا، أو مكرَهًا، قد زاغ منه البصر، وبلغ منه القلب الحنجرة، واحتبس نَفَسُه، وانتفخ صدره رعبًا وخوفًا.

التاسعة: فضيلة جعفر الذي أبىٰ أن يُسلم اللواء، رغم قطع يمينه ثم قطع شماله، كل ذلك يصر علىٰ بقاء لواء المسلمين مرفوعًا حتىٰ قُتِلَ، فعوضه الله تعالىٰ جناحين

يطير بهما في الجنة[1] فرضي الله عنه وأرضاه. عن ابن عمر -رضي الله تعالىٰ عنهما- قوله: (أنه وقف علىٰ جعفر يومئذ، وهو قتيل، فعددت به خمسين، بين طعنة وضربة، ليس منها شيء في دبره) يعني في ظهره[2]. قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وفي قوله: ليس شيء منها في دبره، بيان فَرْط شجاعته وإقدامه)[3].

صور إيمانية نقرأها عن هؤلاء الصحب الكرام، لا أبالغ إذا قلت إن الخيال يقف عاجزًا وحائرًا أن يصل إليها، فقد فاقت - والله في نظري- حتىٰ الخيال.

العاشرة: في إخبار الرسول ﷺ الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- بنتائج غزوة مؤتة واستشهاد قواده الثلاثة وتولية خالد بن الوليد وانحيازه بالمسلمين علم ظاهر من أعلام النبوة[4].

الحادية عشرة: عِظَم المصاب علىٰ الرسول ﷺ فقد استشهد حِبّ رسول الله ﷺ زيد بن حارثة -رضي الله تعالىٰ عنه[5] -واستشهد جعفر -رضي الله تعالىٰ عنه- ابن عم الرسول ﷺ الذي قال فيه الرسول ﷺ عندما علم بقدومه من الحبشة: «واللهِ ما أدري بأيهما أفرح، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟»، ولم يمكث جعفر -رضي الله تعالىٰ عنه- بعد خيبر، وفرح الرسول ﷺ به فرحًا يوازي فرحه بفتح خيبر إلا يسيرًا، ثم إذا به يفجع به شهيدًا. ويأتيه ﷺ خبر هذين الرجلين معًا في وقت واحد.

(١) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٧٦).

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٧/ ٥١١)، (رقم ٤٢٦٠).

(٣) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٥١٢).

(٤) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٥١٣).

(٥) عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: بعث رسول الله ﷺ بعثا، وأمر عليهم أسامة بن زيد، فطعن الناس في إمرته، فقام رسول الله ﷺ فقال: «إن تطعنوا في إمرته، فقد كنتم تطعنون في إمرة أبيه من قبل، وايم الله إن كان لخليقا للإمرة، وإن كان لمن أحب الناس إلي، وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده» متفق عليه: صحيح البخاري (٥/ ٢٣)، (رقم٣٧٣٠) وصحيح مسلم (٤/ ١٨٨٤)، (رقم ٢٤٢٦).

وينعي الرسول ﷺ قادته الثلاثة: زيد وجعفر وابن رواحة -رضي الله تعالىٰ عنهم- وعيناه تذرفان[1] حزنًا وأسىٰ عليهم، فاللهم صلِ وسلم عليه وجازه عنهم وعنا أحسن الجزاء، وأتَمَّهُ واجمعنا به يوم الحوض، وفي الفردوس الأعلىٰ من الجنة.

الثانية عشرة: فضيلة ظاهرة لخالد بن الوليد[2]، فقد فاز بلقب عظيم من الرسول ﷺ بعد هذه الغزوة وتزكية له، فلقبه بـ«سيف من سيوف الله»، فمن يومئذ سمي سيف الله[3] وقال: «فتح الله علىٰ يديه» وهو البطل العظيم الذي كانت له المشاهد المذكورة في فتوح المسلمين في العراق والشام.

الثالثة عشرة: في نتائج هذه المعركة العجيبة، نجد ما يلي:

١. أن الرسول ﷺ سمىٰ نهاية المعركة فتحًا، «فتح الله علىٰ يديه»، والفتح نصر. قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (وفتح الله عليهم، وتخلصوا من أيدي أولئك، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة)[4].

٢. قول خالد بن الوليد -رضي الله تعالىٰ عنه- الذي في صحيح البخاري عن قيس بن أبي حازم[5] رحمه الله تعالىٰ، قال: (سمعت خالد بن الوليد يقول: لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية)[6]. قال الحافظ بن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وهذا الحديث يقتضي أن المسلمين قتلوا

(١) تذرفان: تدفعان بالدموع. ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٥١٣).
(٢) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٥١٣).
(٣) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٥١٣).
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية (٦/ ٤٣٤).
(٥) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٤/ ١٩٨) «العالم، الثقة، الحافظ، أبو عبد الله البجلي، الأحمسي، الكوفي..... أسلم، وأتى النبي ﷺ ليبايعه، فقبض نبي الله ﷺ وقيس في الطريق».
(٦) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٥١٥)، (رقم ٤٢٦٥).

من المشركين كثيرًا)[1]. وقال ابن كثير –رحمه الله تعالىٰ– تعليقًا علىٰ المروي عن خالد –رضي الله تعالىٰ عنه–: (وهذا يقتضي أنهم أثخنوا فيهم قتلًا، ولو لم يكن كذلك لما قدروا علىٰ التخلص منهم، وهذا وحده دليل مستقل، والله أعلم)[2].

ومع ذلك، فقد اختلف أهل السير في نتائج هذه المعركة التي ليس فيها أدنىٰ تكافؤ عددي بين الفريقين، وابن القيم –رحمه الله تعالىٰ– يرىٰ أن كل فئة انحازت عن الأخرىٰ[3]، وقال البيهقي –رحمه الله تعالىٰ–: (قلت: قد اختلف أهل المغازي في فرارهم وانحيازهم؛ منهم من ذهب إلىٰ ذلك، ومنهم من زعم أن المسلمين ظهروا علىٰ المشركين وانهزم المشركون، وحديث أنس بن مالك –رضي الله تعالىٰ عنه– عن النبي ﷺ: «ثم أخذها خالد ففتح عليه»، يدل علىٰ ظهوره عليهم. والله تعالىٰ أعلم ما الصواب)[4].

وقال ابن كثير –رحمه الله تعالىٰ–: (قلت: ويمكن الجمع بين قول ابن إسحاق وبين قول الباقين، وهو أن خالدًا لما أخذ الراية حاشىٰ بالقوم المسلمين، حتىٰ خلصهم من أيدي الكافرين من الروم والمستعربة، فلما أصبح وحول الجيش ميمنة وميسرة، ومقدمة وساقة، كما ذكره الواقدي، توهم الروم أن ذلك عن مدد جاء إلىٰ المسلمين، فلما حمل عليهم خالد، هزموهم بإذن الله). والله أعلم[5].

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٥١٦).

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية تحقيق التركي (القاهرة:دار هجر) (٦/ ٤٣٦).

(٣) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٣٣٦).

(٤) البيهقي، دلائل النبوة (٤/ ٣٧٤) ونقل ذلك ابن كثير، البداية والنهاية تحقيق التركي (القاهرة:دار هجر) (٦/ ٤٣٦).

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية تحقيق التركي (القاهرة:دار هجر) (٦/ ٤٣٠). ونقله ابن حجر في الفتح (٧/ ٥١٤) وأضاف عليه:ثم أصبح خالد وقد غير هيئة العسكر كما تقدم وتوهم العدو أنهم قد جاء لهم مدد حمل عليهم خالد حينئذ فولوا فلم يتبعهم ورأى الرجوع بالمسلمين هي الغنيمة الكبرى.

وعلىٰ أي حال، فإن جرأة الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- ووقوفهم أمام هذا الجيش العرمرم وهم يعلمون عدده وعدته، يكفيهم بطولة، ثم تمكنهم من الإثخان في العدو، مع أن الجيش الإسلامي لم يستشهد فيه سوىٰ اثني عشر رجلًا فقط، فأين صنيع المائتي ألف رجل وسيوفهم؟ وهذه دلالة عددية علىٰ نتيجة المعركة تؤخذ من عدد القتلىٰ من الطرفين.

يقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ- بعد أن ذكر أسماء الشهداء في مؤتة: (فالمجموع علىٰ القولين اثنا عشر رجلًا، وهذا عظيم جدًا أن يتقاتل جيشان متعاديان في الدين، أحدهما، وهو الفئة التي تقاتل في سبيل الله، عدتها ثلاثة آلاف مقاتل، وأخرىٰ كافرة عدتها مائتا ألف مقاتل؛ من الروم مائة ألف، ومن نصارىٰ العرب مائة ألف، يتبارزون ويتصاولون، ثم مع هذا كله لا يقتل من المسلمين إلا اثنا عشر رجلًا، وقد قتل من المشركين خلق كثير. هذا خالد وحده يقول: لقد اندقت في يدي يومئذ تسعة أسياف، وما صبرت في يدي إلا صفيحة يمانية. فماذا ترىٰ قد قتل بهذه الأسياف كلها؟ دع غيره من الأبطال والشجعان، من حملة القرآن، وقد تحكموا في عبدة الصلبان، عليهم لعائن الرحمن، في ذلك الزمان، وفي كل أوان. وهذا مما يدخل في قوله تعالىٰ: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [آل عمران:١٣])(١).

ويكفينا في معرفة نتيجة المعركة وصف الرسول ﷺ بأنها فتح، ولا شك أنها فتح عظيم، فَتحت أبواب العراق والشام أمام الجيوش الإسلامية، وأعطت الروم ونصارىٰ العرب درسًا لا ينسونه، ويجعلهم يحسبون ألف حساب لملاقاة الجيوش الإسلامية، وقد رأوا أن ثلاثة آلاف فعلوا الأفاعيل في مائتي ألف.

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية تحقيق التركي (القاهرة:دار هجر) (٦/ ٤٦١).

ولقد كان لصنيع خالد في نهاية المعركة، القائد الملهم عظيم الأثر- بعد توفيق الله وعنايته- فصنع ما صنع من المكيدة الحربية، وجعل الكفار يرضون من الغنيمة بالإياب والسلامة علىٰ ما بقي معهم من رجال، ونجح خالد في الانحياز بالمسلمين إلىٰ المدينة، لكنه انحياز بعد أثر بالغ مروع في قلوب الكفار.

الرابعة عشرة: موقف خالد بن الوليد -رضي الله تعالىٰ عنه- وأثره في تغيير مجرىٰ المعركة لصالح المسلمين، استحضرت معه موقفه في غزوة أحد حينما كان علىٰ ميمنة جيش المشركين، وكان له الأثر الواضح في تغيير مسار المعركة لصالح الكفار، بعد نصر جلي للمسلمين.

كان خالد يراقب الرماة علىٰ الجبل، ثم لما رآهم نزلوا استدار بمن معه علىٰ المسلمين من الخلف وقتل القلة الباقية علىٰ الجبل، فتغير مسار المعركة وأحيط بالجيش المسلم من الخلف والأمام وأصيب المسلمون، مما سبق ذكره في غزوة أحد.

فسبحان من بيده القلوب، ومغير الأحوال، ومسخر الناس في حزب الله أو حزب الشيطان.

الخامسة عشرة: عن عبد الله بن جعفر -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: لما جاء نعي جعفر -رضي الله تعالىٰ عنه- حين قُتل، قال النبي ﷺ: «اصنعوا لآل جعفر طعامًا، فقد أتاهم أمر يشغلهم أو أتاهم ما يشغلهم»[1].

فيه صورة من صور الاهتمام بالمصاب، ومشاركته ما أهمه والسعي إلىٰ التخفيف عنه، وهذا من حقوق المسلم علىٰ المسلم التي ينبغي التذكير بها دائمًا.

---

(١) الإمام أحمد، المسند (٣/ ٢٨٠)، (رقم ١٧٥١) وقال محققو المسند: (إسناده حسن). وقال أحمد شاكر في تعليقه على المسند (٢/ ٣٦٨): (إسناده صحيح).

السادسة عشرة: لقد تضمنت غزوة مؤتة دروسًا وخبرات عظيمة في لقائهم الأول مع الروم، أفادوا منها كثيرًا في مستقبل جهادهم معهم، حيث تعرفوا علىٰ قوتهم وخططهم وطبيعة أراضيهم التي يقاتلون عليها[١].

السابعة عشرة: البطولات الجهادية العظيمة التي قدمها الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- في لقاءاتهم مع الكفار، يقول عمير بن الحمام -رضي الله تعالىٰ عنه- في بدر: (لئن أنا حييت حتىٰ آكل تمرا، إنها لحياة طويلة)[٢]، ثم يلقي بنفسه مقاتلاً العدو حتىٰ قتل، ومعاذ بن عمرو بن الجموح -رضي الله تعالىٰ عنهما- يقول: (ضربني- يعني في غزوة بدر- عكرمة بن أبي جهل علىٰ عاتقي، فطرح يدي، فتعلقت بجلدة من جنبي، وأجهضني القتال عنه، فلقد قاتلت عامة يومي، وإني لأسحبها خلفي، فلما آذتني وضعت عليها قدمي، ثم تمطيت بها عليها حتىٰ طرحتها)[٣]، ومصعب بن عمير -رضي الله تعالىٰ عنه- في أُحُد تُقطع يده اليمنىٰ وهو يحمل اللواء فيحمله بيده اليسرىٰ، فتقطع يده اليسرىٰ فيبرك علىٰ اللواء ويجعله بين رجليه، كي لا يسقط[٤]، فيقتل واللواء بين ركبتيه، وجعفر الطيار -رضي الله تعالىٰ عنه- مثل ذلك في مؤتة[٥]، وجريحان في أُحُد لما دعا الرسول ﷺ إلىٰ ملاحقة كفار قريش إلىٰ حمراء الأسد خرجا بجراحهما، فكان أحدهما يحمل الآخر إذا أعيا ولم يستطع المشي بسبب الجراح[٦]، وعباد بن بشر -رضي الله تعالىٰ عنه- تصيبه السهام وهو واقف يصلي في الليل يحرس للجيش فلا يقطع صلاته، وتتابعت السهام عليه حتىٰ غطت الدماء

(١) انظر: أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٧٠).
(٢) ابن حجر، الإصابة (٤/ ٥٩٤).
(٣) ابن هشام، السيرة (٢/ ٢٠١).
(٤) سبق ذكر ذلك عند الحديث عن غزوة أحد.
(٥) سبق ذكر ذلك عند الحديث عن غزوة مؤتة.
(٦) انظر: العيني، عمدة القاري (١٨/ ١٥٢).

كثيرًا من ثيابه، ولما خشي علىٰ المسلمين أيقظ صاحبه الذي كان يحرس معه[1].

هذه نماذج يسيرة من مواقف الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- ذكرتها في مواطنها، وكنت أفكر كيف بلغ الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- هذه المنزلة من الإقبال علىٰ الله وقوة التضحيات! ثم وجدت جوابًا أرجو أن يكون نافعًا ومحييًا للقلوب، فتعمدت تأخيره إلىٰ آخر الغزوات ليكون جوابًا عن كل تلك المواقف.

لقد فهم الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- الإيمان علىٰ أنه نعيم القلب وقرة العين وسرور النفس، فلم تكن العبادات في نظرهم تكاليف شرعية ينالون بها الأجر، يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (نفس الإيمان بالله وعبادته ومحبته وإخلاص العمل له وإفراده بالتوكل عليه هو غذاءُ الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه، كما عليه أَهل الإيمان، وكما دل عليه القرآن، لا كما يقوله من يقول: إن عبادته تكليف ومشقة علىٰ خلاف مقصود القلب ولذته، بل لمجرد الامتحان والابتلاء كما يقوله منكرو الحكمة والتعليل، أو لأجل التعويض بالأجر لما في إيصاله إليه دون معاوضة منه تكدره، أو لأجل تهذيب النفس ورياضتها واستعدادها لقبول العقليات كما يقوله من يتقرب إلىٰ النبوات من الفلاسفة، بل الأمر أعظم من ذلك كله وأجل، بل أوامر المحبوب قرة الأعين وسرور القلوب ونعيم الأرواح ولذات النفوس وبها كمال النعيم، فقرة عين المحب في الصلاة والحج، وفرح قلبه وسروره ونعيمه في ذَلِكَ وفي الصيام والذكروالتلاوة، وأَما الصدقة فعجب من العجب، وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إِلىٰ الله والصبر علىٰ أعداء الله سبحانه، فاللذة بذلك أمر آخر لا يناله الوصف ولا يدركه من ليس له نصيب منه، وكل من كان به أقوم كان نصيبه من الالتذاذ به أعظم، ومن غلظ فهمه وكثف طبعه عن إدراك هذا فليتأَمل إِقدام القوم علىٰ قتل آبائهم وأَبنائهم وأَحبابهم ومفارقة أَوطانهم

(١) مسند الإمام أحمد (٢٣/ ٥٢)، (رقم ١٤٧٠٤).

وبذل نحورهم لأَعدائهم ومحبتهم للقتل وإيثارهم علىٰ البقاءِ وإيثار لوم اللائمين وذم المخالفين علىٰ مدحهم وتعظيمهم، ووقوع هذا من البشر دون أَمر يذوقه من حلاوته ولذته وسروره ونعيمه ممتنع، والواقع شاهد بذلك، بل ما قام بقلوبهم من اللَّذة والسرور والنعيم أَعظم مما يقوم بقلب العاشق الذىٰ يتحمل ما يتحمله في موافقة رضا معشوقه، فهو يلتذ به ويتنعم به لما يعلم من سرور معشوقه به.

فيا منكرًا هذا تأَخر فإِنه حرام علىٰ الخفاش أَن يبصر الشمس فمن كان مراده وحبه الله، وحياته في معرفته ومحبته في التوجه إليه وذكره، وطمأْنينته به وسكونه إليه وحده، عرف هذا وأَقر به)[1].

وبهذا تتضح لنا عبادات أولئك الصحب الكرام -رضي الله تعالىٰ عنهم- سواء في جهادهم وقتالهم الأعداء، أو وقوفهم وخشوعهم بين يدي الله -جل شأنه- للصلاة، أو صيامهم، أو أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، أو صدقاتهم أو أذكارهم وسائر عباداتهم، كيف كانوا يستمتعون بها، ويجدون فيها نعيمًا، ينسيهم كل نعيم، ويجعلهم يُقْبِلون علىٰ تلك العبادات وكأنما يُقْبِلون علىٰ متعة من المتع، أو لذة من اللذات، إنه لذة ونعيم طاعة المحبوب جل شأنه.

(١) ابن القيم، طريق الهجرتين (ص٥٨).

الفصل الثامن

فقه السيرة من قوله -تعالىٰ-:

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾

إلىٰ قول الله -تعالىٰ-:

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾

مقدمة

هذا هو الفصل الثامن والأخير، في سلسلة هذه السيرة المباركة، والتي كان التركيز فيها علىٰ فقه السيرة، والحرص علىٰ استخراج المعاني المفيدة من تلك الأحداث.

ولا شك أن هذا الفصل الذي نختم به فصول السيرة يمثل تاجًا علىٰ رأس عناصر السيرة كلها، فقد افتتح بالفتح العظيم فتح مكة، الذي صدق فيه قول الله تعالىٰ: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء:٨١] ففي هذا الفتح جاء الحق وزهق الباطل، باطل الشرك والوثنية، وارتفعت شهادة التوحيد مدوية في الأذان للصلاة في الحرم، وفي التلبية وفي العمرة والحج.

ثم استكمل الرسول ﷺ هذا الفتح بالقضاء علىٰ سلطة القبيلة التي تسامي قبيلة قريش في الزعامة العربية، وهي قبيلة ثقيف وهوازن، الذين تداعوا لمواجهة الرسول ﷺ فخرج إليهم والتقوا في حنين، وكان النصر المبين الذي خلدته آيات تتلىٰ في كتاب الله.

ثم بعد ذلك، وبعد أن فرغ الرسول ﷺ من شأن القبائل العربية المناوئة للإسلام، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، اتجه الرسول ﷺ إلىٰ شمال الجزيرة وكأنه ﷺ يستفتح لخلفائه الطريق الجديد لنشر الإسلام، فسار إلىٰ تبوك التي تبعد قرابة سبعمئة كيلًا عن المدينة شمالًا، ومع ذلك وصل إليها، وجاءته بعض القبائل إما مسلمة تابعة، وإما خاضعة وأعطت الجزية، وأخاف من لا يزال مناوئًا.

وفي نهاية الفصل، تكرر الحديث عن الوداع، فحج الرسول ﷺ وودع الناس ومهد بكلماته وأقواله وخطبه للوداع الأخير.

ونزلت بعض الآيات التي تشعر بقرب الرحيل، لتخفف شدة الفاجعة عن الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠] وقال تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر:١-٣]، ففهم الرسول ﷺ المراد، وأكثر من التسبيح والاستغفار والتوبة.

وقد قسمت هذا الفصل إلىٰ المباحث التالية:

المبحث الأول: فقه السيرة في فتح مكة.

المبحث الثاني: فقه السيرة في غزوة حنين وحصار الطائف.

المبحث الثالث: فقه السيرة في غزوة تبوك.

المبحث الرابع: فقه السيرة في حجة الوداع.

المبحث الخامس: فقه السيرة في الفاجعة العظمىٰ، فاجعة وفاة النبي ﷺ.

المبحث الأول

فقه السيرة في فتح مكة

ذكر الله -جل شأنه- هذا الفتح العظيم في كتابه الكريم في أكثر من موضع، قال تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر:١-٣].

وقال تعالىٰ في جَعْل الفتح حدًا فاصلًا بين مرحلتين في الإسلام: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَ[1] أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [الحديد:١٠].

قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (فصل في الفتح الأعظم الذي أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدىً للعالمين من أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء وضربت أطناب عزه علىٰ مناكب الجوزاء، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وأشرق به وجه الأرض ضياءً وابتهاجًا، خرج له رسول الله ﷺ بكتائب الإسلام وجنود الرحمن سنة ثمان لعشر مضين من رمضان)[2].

وكان سببُ هذا الفتحِ نقضَ قريشٍ العهدَ الذي وقع في الحديبية، فإنه كان قد وقع الشرط أنه من أحبَّ أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده فعل، ومن أحبَّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فعل، فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده.

---

(١) قال ابن كثير - رحمه الله تعالى - في تفسيره (٨/ ١٢) والجمهور على أن المراد بالفتح هاهنا فتح مكة. وعن الشعبي وغيره أن المراد بالفتح هاهنا: صلح الحديبية.

(٢) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٣٩٤).

وكان بين بني بكر وخزاعة حروب وثارات، فلما كانت الهدنة خرج نوفل بن معاوية الديلي من بني بكر في نفر من قومه حتىٰ بيتوا خزاعة وهم علىٰ ماء لهم يقال له الوتير[١] فاقتتلوا، وأمدت قريش بني بكر بالسلاح وقاتل بعضهم معهم ليلاً في خفية[٢].

فخرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكبًا من خزاعة حتىٰ قدموا علىٰ رسول الله ﷺ يخبرونه بالذي أصابهم ويستنفرونه فقال رسول الله ﷺ له: «نُصِرْتَ يا عمرو بن سالم»[٣].

وقدم أبو سفيان إلىٰ المدينة لمحاولة تجديد العهد وتوثيقه، فدخل علىٰ ابنته أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله تعالىٰ عنها، فلما ذهب ليجلس علىٰ فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: يا بنية، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس علىٰ فراش رسول الله ﷺ قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر. ثم خرج حتىٰ أتىٰ رسول الله ﷺ فكلمه، فلم يرد عليه شيئًا، ثم ذهب إلىٰ أبي بكر، ثم عمر ثم عثمان ثم علي -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين- ثم بعض أشراف قريش والأنصار، فلم يجد جوابًا، فعاد إلىٰ مكة لم يحقق شيئًا مما يريد[٤].

وأخذ رسول الله ﷺ في الاستعداد لفتح مكة، وأمر بالتجهز، ولم يعلن الجهة التي يريدها، وذكر ابن هشام - رحمه الله تعالىٰ - في السيرة أن الرسول ﷺ قال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتىٰ نبغتها في بلادها»[٥].

---

(١) الوتير: ويعرف اليوم بالوتائر، ويقال: الوتران وهما شعبان جنوب غربي مكة، وقيل: هو ماء لخزاعة ويقع أسفل مكة، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة (ص ٢٩٥).

(٢) انظر: القسطلاني، المواهب اللدنية (١/ ٥٦١ - ٥٦٢).

(٣) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٤/ ٢٧٨).

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة (٢/ ٣٩٦). والبيهقي، دلائل النبوة (٥/ ١٠).

(٥) انظر: ابن هشام، السيرة (٢/ ٣٩٧). ونقله عنه ابن كثير في السيرة (٣/ ٥٣٥).

وكتب حاطب بن أبي بلتعة إلىٰ أهل مكة يخبرهم بغزو الرسول ﷺ لهم، عن عبيد الله بن أبي رافع، قال: سمعت عليًا -رضي الله تعالىٰ عنه- يقول: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبيروالمقداد، فقال: «انطلقوا حتىٰ تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوا منها»، قال: فانطلقنا تعادىٰ بنا خيلنا حتىٰ أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا لها: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب، أو لنلقين الثياب، قال: فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة، إلىٰ ناس بمكة من المشركين، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «يا حاطب، ما هذا؟» قال: يا رسول الله، لا تعجل علي، إني كنت امرأً ملصقًا في قريش، يقول: كنت حليفًا، ولم أكن من أَنْفُسِهَا، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم، أن أتخذ عندهم يدًا يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتدادًا عن ديني، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه قد صدقكم»، فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع علىٰ من شهد بدرًا، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». فأنزل الله السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الممتحنة:١] إلىٰ قوله - ﴿فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[1].

وجاء أيضًا في صحيح البخاري -رحمه الله تعالىٰ-: (فقال النبي ﷺ: «صدق ولا تقولوا له إلا خيرًا» فقال عمر -رضي الله تعالىٰ عنه-: إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني فلأضرب عنقه، فقال: «أليس من أهل بدر؟» فقال: «لعل الله اطلع إلىٰ أهل بدر؟ فقال: اعملوا ما شئتم، فقد وجبت لكم الجنة، أو: فقد غفرت لكم»، فدمعت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم)[2].

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٥١٩)، (رقم ٤٢٧٤.) وصحيح مسلم (٤/ ١٩٤١)، (رقم ٢٤٩٤).

(٢) صحيح البخاري (٥/ ٧٧)، (رقم ٣٩٨٣).

وبعد أن أكمل الرسول استعداده، خرج من المدينة في عشرة آلاف، وفي الطريق زار قبر أمه (آمنة بنت وهب)، ففي صحيح مسلم -رحمه الله تعالىٰ- عن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: زار النبي ﷺ قبر أمه، فبكىٰ وأبكىٰ من حوله، فقال: «استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت»[١]. وقد وقع في مسند الإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ- ما يغلب علىٰ الظن أن ذلك كان في غزوة الفتح[٢] فعن بريدة بن الحصيب -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رسول الله ﷺ غزا غزوة الفتح، فخرج يمشي إلىٰ القبور حتىٰ إذا أتىٰ أدناها جلس إليه كأنه يكلم إنسانًا جالسًا يبكي. قال: فاستقبله عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه- فقال: ما يبكيك؟ جعلني الله فداءك. قال: «سألت ربي أن يأذن لي في زيارة قبر أم محمد، فأذن لي. فسألته أن يأذن لي فأستغفر لها فأبىٰ»[٣]. وجاء في لفظ آخر عن بريدة -رضي الله تعالىٰ عنه-: (قال رسول الله ﷺ: «إني سألت ربي في استغفار لأمي، فلم يأذن لي، فدمعت عيناي رحمة لها من النار»[٤].

فلقيه في الطريق العباس بن عبد المطلب، حيث خرج من مكة مهاجرًا بأهله وعياله وقد كان قبل ذلك مقيمًا بمكة علىٰ سقايته، ورسول الله ﷺ عنه راضٍ[٥].

---

(١) صحيح مسلم (٢/ ٦٧١)، (رقم ٩٧٦).

(٢) غزوة الفتح ظاهرها أن المراد فتح مكة، لكن قد يكون المراد صلح الحديبية والله أعلم.

(٣) مسند الإمام أحمد (٣٨/ ١٤٥)، (رقم ٢٣٠٣٨). وقال المحقق: «حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف من أجل أبي جناب - وهو يحيى بن أبي حية الكلبي، فهو ضعيف، لكنه قد توبع، وباقي رجال الإسناد موثقون. » وفي المستدرك للحاكم (١/ ٥٣١)، (رقم ١٣٨٩) عن بريدة رضي الله تعالى عنه» قال: «زار النبي ﷺ قبر أمه في ألف مقنع، فلم ير باكيا أكثر من يومئذ»

(٤) مسند الإمام أحمد (٣٨/ ١١١)، (رقم٢٣٠٠٣). وقال المحقق: «إسناده صحيح على شرط الشيخين من جهة الحسن بن موسى -وهو الأشيب البغدادي-».

(٥) انظر: ابن هشام، السيرة (٢/ ٤٠٠)، وابن كثير، البداية والنهاية (٤/ ٢٨٧).

ولما انتهىٰ رسول الله ﷺ إلىٰ مر الظهران[1] نزل فيه، فأمر أصحابه - رضي الله تعالىٰ عنهم- فأوقدوا عشرة آلاف نار ولم يبلغ قريشًا مسيرهم وهم مغتمون لما يخافون من غزوه إياهم، وخرج أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتحسسون الأخبار حتىٰ بلغوا مر الظهران، فلما رأوا العسكر أفزعهم، فرآهم ناس من حرس رسول الله، فأدركوهم فأخذوهم فأتوا بهم رسول الله، فأسلم أبو سفيان -رضي الله تعالىٰ عنه- فلما سار قال ﷺ للعباس -رضي الله تعالىٰ عنه-: «احبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتىٰ ينظر إلىٰ المسلمين» فحبسه العباس -رضي الله تعالىٰ عنه- فجعلت القبائل تمر مع النبي)[2].

وقد كان العباس قال للرسول ﷺ: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئًا، قال: «نَعَمْ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»[3].

ومضىٰ رسول الله ﷺ في طريقه حتىٰ انتهىٰ إلىٰ ذي طُوىٰ[4]، وإن رسول الله ﷺ

(١) مر الظهران: واد فحل من أودية الحجاز ويمر شمال مكة، على مسافة اثنين وعشرين كيلاً. ويصب في البحر جنوب جدة ومن قراه: الجموم، وبحرة. المعالم الأثيرة في السنة والسيرة (ص ٢٥٠).

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٨/ ٦٠٥)، (رقم ٤٢٨٠).

(٣) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٤/ ٢٩٠).

(٤) يقول عاتق بن غيث البلادي في معالم مكة التاريخية والأثرية، الطبعة الأولى:(مكة: دار مكة للنشر ١٤٠٠) (ص ١٧٠): «طُوى: بضم الطاء المهملة، وواو، مقصور: المعروف اليوم «بئر طوى» بجرول بين القبة وريع أبي لهب، وهي بئر مطوية عليها بناء، أما في كتب الجغرافية فهو الوادي الذي يمر بين الحجون وريع الكحل مارًا بجرول حتى يجتمع بوادي إبراهيم في المسفلة، وموضع البئر المتقدمة هو المكان الذي بات فيه رسول الله ﷺ ليلة فتح مكة، ذلك بإجماع مؤرخي مكة، وكُتَّاب السيرة الشريفة. فلما أصبح أخذ ذات اليسار على طول الوادي وأمر خالدًا أن يأخذ ذات اليمين من عند المكان المعروف اليوم بالقُبَّة، فيأخذ (كُدىً) بالقصر، فيأتي مكة من أسفلها». وهو الآن حي من أحياء مكة قريب جدا من الحرم من جهة توسعة الملك عبدالله رحمه الله تعالى، وهي المنطقة المواجهة للقادم من المدينة، وسبق التعريف به فيما سبق.

ليضع رأسه تواضعًا لله جل شأنه، وذقنه على راحلته متخشعًا[١]، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح[٢]، يتلو القرآن الكريم وهو على ناقته؛ يقرأ سورة الفتح[٣].

وبعث رسول الله ﷺ الزبير بن العوام -رضي الله تعالى عنه- على المهاجرين وخيلهم وأمره أن يدخل من كدا، من أعلى مكة، وأمره أن يغرز رايته بالحجون ولا يبرح حتى يأتيه.

وبعث خالدَ بنَ الوليدِ -رضي الله تعالى عنه- في قبائل قضاعة وسليم وغيرهم وأمره أن يدخل مكة من أسفلها وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت.

وبعث سعد بن عبادة -رضي الله تعالى عنه- في كتيبة الأنصار في مقدمة رسول الله ﷺ وأمرهم أن يكفوا أيديهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم[٤].

ومضى خالد بن الوليد، ودخل مكة من أسفلها وقد تجمع بنو بكر وبنو الحارث بن عبد مناف وناس من هذيل ومن الأحابيش الذين استنفرت بهم قريش فقاتلوا خالدًا فقاتلهم فانهزموا.

وقد استثنى الرسول ﷺ من الأمان العام الذي أعلنه للناس أربعة رجال وامرأتين، حيث أهدر دماءهم ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة وهم: عكرمة بن أبي جهل وعبد الله بن خطل ومقيس بن صبابة وعبد الله بن أبي السرح، وقد قُتِلَ ابنُ خطل وهو متعلق بأستار الكعبة وقُتِلَ مقيس في مكة واختفى عكرمة ثم جاء مسلمًا كما سيأتي، وابن أبي السرح اختفى حتى ضمن الأمان من الرسول ﷺ فجاء

(١) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٨/ ١٨).
(٢) انظر: ابن هشام السيرة (٢/ ٤٠٥).
(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٩/ ٩٢)، كتاب فضائل القرآن (٦٦)، باب الترجيع (٣٠)، حديث رقم (٥٠٤٧)، وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب ذكر قراءة النبي ﷺ (١/ ٥٤٧)، (رقم٧٩٤).
(٤) انظر: القسطلاني، المواهب اللدنية (١/ ٥٧٠).

فأسلم[١]. والمرأتان هما فرتنىٰ وسارة جاريتان لابن خطل.

ورُكزت راية رسول الله ﷺ بالحجون عند مسجد الفتح، وكان رسول الله ﷺ أمر أصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم- أن يتجمعوا في الخيف، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «منزلنا -إن شاء الله- إذا فتح الله الخيف، حيث تقاسموا علىٰ الكفر»[٢]. ولما ارتفع النهار أتىٰ دار أم هانئ بنت أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنها- فاغتسل ثم صلىٰ ثماني ركعات في بيتها، فقد ذكرت -رضي الله تعالىٰ عنها- أن الرسول ﷺ يوم فتح مكة اغتسل في بيتها، ثم صلىٰ ثماني ركعات، قالت: «لم أره صلىٰ صلاة أخف منها غير أنه يتم الركوع والسجود»[٣].

ثم رجع إلىٰ حيث ضربت خيمته عند شعب أبي طالب وهو المكان الذي حصرت فيه قريش المسلمين[٤]، ثم نهض رسول الله ﷺ والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله حتىٰ دخل المسجد، عن عبد الله -رضي الله عنه- قال: دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمئة نصب[٥]، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الإسراء:٨١]، ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ:٤٩][٦]. والأصنام تتساقط علىٰ وجوهها[٧].

---

(١) انظر: النسائي، سنن النسائي المطبوع مع شرح السيوطي (٧/ ١٠٥- ١٠٦)، وأبو داود، سنن أبي داود وصححه الألباني، صحيح سنن أبي داود (٢/ ٥١٠)، (رقم ٢٣٣٤).

(٢) صحيح البخاري (٥/ ١٤٧)، (رقم ٤٢٨٤) وصحيح مسلم (٢/ ٩٥٢)، (رقم ١٣١٤).

(٣) صحيح البخاري (٥/ ١٤٩)، (رقم ٤٢٩٢) وصحيح مسلم (١/ ٢٦٥)، (رقم ٣٣٦).

(٤) ابن حجر، فتح الباري (٨/ ١٩).

(٥) قال ابن الملقن في التوضيح (٢١/ ٤٣٨)»والنصب: الحجر أو الصنم المنصوب للعبادة، ومنه: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة:٣]».

(٦) صحيح البخاري المطبوع مع التوضيح لابن الملقن (٢١/ ٤٣١)، (رقم ٤٢٨٧).

(٧) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٤٠٦).

ثم طاف بالبيت علىٰ راحلة، ثم دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة فأمر بها، ففُتِحَتْ، فدخلها فرأىٰ فيها الصور ورأىٰ فيها صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يستقسمان بالأزلام، فقال: «قاتلهم الله والله لقد علموا ما استقسما بها قط».

ورأىٰ في الكعبة حمامة من عيدان، فكسرها بيده وأمر بالصور فمُحِيَتْ. وعن أسامة بن زيد -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: دخلت علىٰ رسول الله ﷺ في الكعبة ورأىٰ صورًا قال: فدعا بدلو من ماء فأتيته به فجعل يمحوها ويقول: «قاتل الله قومًا يصورون ما لا يخلقون»[1].

ثم صلَّىٰ في البيت، ثم وقف علىٰ قريش وقد ملأت المسجد فخطب فيهم إلىٰ أن قال: «يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب»، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣].

ثم قال: «يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟» قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾، «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[2]. قال البيهقي -رحمه الله تعالىٰ-: (وإنما أطلقهم بالأمان

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده، تحقيق محمد التركي، الطبعة الأولى (القاهرة: دار هجر١٤١٩) (٢/ ١٧)، (رقم ٦٥٧).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، تحقيق عبد الله التركي (القاهرة: مركز هجر للبحوث والدراسات ١٤٣٢) (١٨/ ٣٨٥)، (رقم ١٨٣٢٣). ولفظ الطلقاء ورد في صحيح البخاري -رحمه الله تعالى- (٥/ ١٥٩)، (رقم ٤٣٣٣) وصحيح مسلم (٢/ ٧٣٥)، (رقم ١٠٥٩) وفيه:عن أنس رضي الله عنه، قال: لما كان يوم حنين، التقى هوازن ومع النبي ﷺ عشرة آلاف، والطلقاء، فأدبروا، قال: «يا معشر الأنصار». قالوا: لبيك يا رسول الله وسعديك لبيك نحن بين يديك، فنزل النبي ﷺ فقال: «أنا عبد الله ورسوله». فانهزم المشركون، فأعطى الطلقاء والمهاجرين ولم يعط الأنصار شيئا...» وهذا لفظ البخاري. وسيأتي بقية هذا الحديث في غزوة حنين إن شاء الله تعالى.

الأول الذي عقده علىٰ شرط قبولهم، فلما قبلوه قال: «أنتم الطلقاء». يعني بالأمان الأول)[١]. يقصد -والله أعلم- قوله ﷺ لهم عند دخول مكة: «من دخل بيته فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن».

ثم جلس في المسجد فقام إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فسأله مفتاح الكعبة، فقال: أين عثمان بن طلحة؟ فَدُعي له، فقال: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بِرٍّ ووفاء»[٢].

وذكر ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ- في الطبقات أن الرسول ﷺ دعا عثمان بن طلحة فدفع إليه المفتاح[٣] وقال: «خذوها يا بني أبي طلحة تالدة خالدة لا ينزعها منكم أحد إلا ظالم»[٤].

ولما فتح الله مكة علىٰ رسوله ﷺ قالت الأنصار بعضهم لبعض: (أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته)، قال أبو هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه-:

(١) البيهقي في السنن الكبرى، تحقيق عبد الله التركي (القاهرة: مركز هجر للبحوث والدراسات ١٤٣٢) (١٨/ ٣٨٥).

(٢) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٤٠٧ - ٤٠٩).

(٣) قال ابن سيد الناس -رحمه الله تعالى- في عيون الأثر (٢/ ٢٢٧) «وَرُوِّينَا عَنْ عُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ سَعْدٍ قال: كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الاثنين والخميس، فأقبل يعني النبي ﷺ يوما يريد أن يدخل الكعبة مع الناس فغلظت عليه ونلت منه وحلم عني ثم قال: «يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدي أضعه حيث شئت» فقلت: لقد هلكت قريش يومئذ وذلت، فقال: «بل عمرت وعزت يومئذ» ودخل الكعبة، فوقعت كلمته مني موقعا ظننت يومئذ أن الأمر سيصير إلى ما قال. وفيه أنه عليه السلام قال له يوم الفتح: «يا عثمان، أن أتني بالمفتاح»، فأتيته به، فأخذه مني ثم دفعه إلي وقال: «خذوها تالدة خالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا ما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف». قال عثمان: فلما وليت ناداني فرجعت إليه فقال:«ألم يكن الذي قلت لك؟» قال: فذكرت قوله لي بمكة قبل الهجرة: «لعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدي أضعه حيث شئت» فقلت: بلى، أشهد أنك رسول الله ﷺ».

(٤) ابن سعد، الطبقات الطبعة الأولى (بيروت: دار الكتب العلمية١٤١٠) (٢/ ١٠٤).

وجاء الوحي وكان إذا جاء الوحي لا يخفىٰ علينا، فإذا جاء فليس أحد يرفع طرفه إلىٰ رسول الله ﷺ حتىٰ ينقضي الوحي، فلما انقضىٰ الوحي، قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار»، قالوا: لبيك يا رسول الله، قال: «قلتم: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته؟»، قالوا: قد كان ذاك، قال: «كلا، إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلىٰ الله وإليكم، والمحيا محياكم والممات مماتكم»، فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله، ما قلنا الذي قلنا إلا الضن بالله وبرسوله، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله ورسوله يصدقانكم، ويعذرانكم»)[(١)].

قال أبو هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- كما في المستدرك:(فوالله ما منهم أحد إلا بلَّ نحره بالدموع)[(٢)].

وبايع رسول الله ﷺ الناس جميعًا؛ الرجال والنساء والكبار والصغار، وبدأ بمبايعة الرجال علىٰ الصفا، فأخذ عليهم البيعة علىٰ الإسلام والسمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا.

وعن أبي مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رجلًا كلم النبي ﷺ يوم الفتح، فأخذته الرعدة، فقال النبي ﷺ: «هوِّن عليك فإنما أنا ابن امرأة من قريش، كانت تأكل القديد»[(٣)].

ثم بايع النساء من غير مصافحة، فقد كان لا يصافح النساء ولا يمس يد امرأة إلا امرأة أحلها الله له أو ذات محرم منه، قالت عائشة رضي الله عنها: (والله ما مست يده

---

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٤٠٥)، (رقم ١٧٨٠).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٢)، (رقم ٢٣٢٨). وصححه ولم يتعقبه الذهبي رحمهم الله تعالى.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٥٠)، (رقم ٤٣٦٦) ورواه ابن ماجه في سننه (٧/ ٣١٢)، (رقم ٣٣١٢) وصححه الألباني. والقديد هو اللحم المجفف.

يد امرأة قط في المبايعة وما بايعهن إلا بقوله)[1].

ولما دخل رسول الله ﷺ مكة ودخل المسجد الحرام أتاه أبو بكر بأبيه يقوده، وقد كان مكفوفًا، فلما رآه الرسول قال: «هلا تركت الشيخ في بيته حتىٰ أكون أنا آتيه فيه»، قال أبو بكر: يا رسول الله، هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه، ثم مسح الرسول ﷺ علىٰ صدره ودعاه إلىٰ الإسلام فأسلم[2]، وعن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ هنأ أبا بكر بإسلام أبيه[3].

وكان ممن أهدر الرسول ﷺ دمه عكرمة ابن أبي جهل، فهرب عكرمة وركب البحر فأصابتهم ريح عاصف، فقال أصحاب السفينة أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئا هاهنا. فقال عكرمة: والله لئن لم ينجني في البحر إلا الإخلاص ما ينجيني في البر غيره، اللهم إن لك عليّ عهدًا إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمدًا ﷺ حتىٰ أضع يدي في يده، فلأجدنه عفوًا كريمًا، فجاء فأسلم[4].

وأقام الرسول ﷺ بمكة تسعة عشر يومًا، عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: (أقام النبي ﷺ بمكة تسعة عشر يومًا يصلي ركعتين[5])، أمضاها في ترسيخ عقيدة التوحيد، وهدم معالم الشرك والوثنية، وتثقيف الناس وتعليمهم أمور دينهم، وبعث السرايا لهدم الأوثان واجتثاثها من الأرض بعد أن اجتثها من القلوب.

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٥/ ٣١٢)، (رقم ٢٧١٣) (عن عروة)، وصحيح مسلم (٣/ ١٤٨٩)، (رقم ١٨٦٦).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٤٦-٤٧) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ولم يتعقبه الذهبي. انظر: البيهقي، دلائل النبوة (٥/ ٩٥-٩٦)، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٧٣ - ١٧٤): (رواه أحمد والطبراني ورجالهما ثقات)، وإبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية (ص ٥٣٢).

(٣) انظر: البيهقي، دلائل النبوة (٥/ ٩٦).

(٤) النسائي، السنن الكبرى (٣/ ٤٤٣)، (رقم ٣٥١٦).

(٥) صحيح البخاري (رقم ٤٢٩٨).

وفي هذه المدة، أرسل النبي بعض الصحابة للدعوة إلىٰ الإسلام وهدم الأصنام والأوثان والأنصاب حول مكة، حيث أرسل خالد بن الوليد إلىٰ نخلة لهدم العزىٰ التي كانت مضر جميعًا تُعظِّمها فهدمها، وأرسل عمرو بن العاص إلىٰ سواع صنم هذيل فهدمه، وأرسل سعد بن زيد الأشهلي إلىٰ مناة بالمشلل علىٰ الطريق بين مكة والمدينة، فهدمها وبذلك أُزِيْلَتْ مراكزُ الوثنيَّةِ من جزيرة العرب[1].

وجاء في مغازي الواقدي -رحمه الله تعالىٰ- أن منادي رسول الله ﷺ بمكة نادىٰ: «من كان يؤمن بالله وبرسوله فلا يدعن في بيته صنمًا إلا كسره».

ولم يكن رجل من قريش بمكة إلا وفي بيته صنم. إذا دخل مسحه وإذا خرج مسحه تبركًا به.

فجعل المسلمون يكسرون تلك الأصنام، وكان عكرمة بن أبي جهل -رضي الله تعالىٰ عنه- حين أسلم لا يسمع بصنم في بيت من بيوت قريش إلا مشىٰ إليه حتىٰ يكسره، ولما أسلمت هند بنت عتبة -رضي الله تعالىٰ عنها- جعلت تضرب صنمًا في بيتها بالقدوم، فلذة فلذة، وهي تقول: كنا منك في غرور![2]. ثم بعث رسول الله ﷺ تميم بن أسد الخزاعي فجدد أنصاب الحرم[3].

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٤/ ٦٤)، و ابن سعد، الطبقات (١/ ١٤٥-١٤٦).

(٢) انظر: الواقدي(٢/ ٨٧٠-٨٧١).

(٣) انظر: ابن سعد الطبقات (٢/ ١٣٧) و(٤/ ٢٩٥)، وابن حجر، الإصابة (١/ ٤٨٧) وحسن إسناده. وأخرج البيهقي بسنده في دلائل النبوة (٢/ ٦٣) «عن ابن عباس: أن جبريل أرى إبراهيم، عليهما السلام، موضع أنصاب الحرم، فنصبها، ثم جددها إسماعيل عليه السلام، ثم جددها قصي بن كلاب، ثم جددها رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم. قال الزهري: قال عبيد الله: فلما ولي عمر بن الخطاب بعث أربعة من قريش فنصبوا أنصاب الحرم بموضع أنصاب الحرم: مخرمة بن نوفل ابن أهيب بن عبد مناف بن زهرة، وأزهر بن عبد عوف، وسعيد بن يربوع، وحويطب بن عبد العزى»وانظر أيضا الواقدي، المغازي (٢/ ٨٤٢) وزاد: «ثم كان عثمان بن عفان فبعث هؤلاء النفر، ثم كان معاوية -رضي الله تعالى عنه- عام حج فبعث هؤلاء النفر. قال: فحدثني ابن أبي سبرة، عن المسور بن رفاعة، قال:=

وفي أثناء إقامة الرسول ﷺ في مكة في هذه الغزوة سرقت إمرأة شريفة من نساء بني مخزوم، فاهتمت لها قريش لعلمها أن الرسول ﷺ سيقطع يدها، عن أم المؤمنين عائشة، -رضي الله تعالىٰ عنها- زوج النبي ﷺ أن قريشًا أهمهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد -رضي الله تعالىٰ عنه- حِبّ رسول الله ﷺ فأُتِيَ بها رسول الله ﷺ فكلمه فيها أسامة بن زيد، فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال: «أتشفع في حد من حدود الله؟»، فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العشي، قام رسول الله ﷺ فاختطب، فأثنىٰ علىٰ الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»، ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت، فقطعت يدها، قال يونس: قال ابن شهاب -رحمه الله تعالىٰ-: قال عروة -رحمه الله تعالىٰ-: قالت عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-: فحسنت توبتها بعد، وتزوجت، وكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلىٰ رسول الله)[1].

=لما حج عبد الملك بن مروان أرسل إلى أكبر شيخ يعلمه يومئذ من خزاعة، وشيخ من قريش، وشيخ من بني بكر، ثم أمرهم بتجديده» وانظر النووي، شرح المهذب (٧/ ٤٦٤). وتتابع عناية الحكام المسلمين بها حتى الدولة السعودية المباركة، فقد جددت في عهد الملك عبد العزيز والملك سعود والملك خالد والملك فهد رحمهم الله تعالى جميعا، وفي عام ١٤١٢ صدر قرار من هيئة كبار العلماء في المملكة بتكوين لجنة لتحديد حرم مكة والمدينة، وتمت موافقة المقام السامي على ذلك، وتم إنجاز العمل بإشراف علماء متخصصين في ذلك، وزيد في هذه الأعلام قرب الطرق الرئيسة الداخلة إلى مكة لتكون واضحة للقادمين إليها. عبد الله البسام (وهو أحد أعضاء هذه اللجنة) نيل المرام (٢/ ٢٢٥) وعبد الله البسام، شرح بلوغ المرام (٤/ ١١٠) وبعض المعلومات المنشورة في الشبكة العنكبوتية من مركز تاريخ مكة بدارة الملك عبد العزيز بالرياض.

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (٤/ ١٧٥)، (رقم ٣٤٧٥) وصحيح مسلم (٣/ ١٣١٥)، (رقم ١٦٨٨) واللفظ له.

من أحداث فتح مكة نأخذ الفوائد التالية

الأولىٰ: كان الفتح حدًا فاصلًا بين مرحلتين في الإسلام، قال تعالىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

قال ابن جزي -رحمه الله تعالىٰ-: (فإن الإسلام قبل الفتح كان ضعيفًا، والحاجة إلىٰ الإنفاق والقتال كانت أشد، ويؤخذ من الآية أن من أنفق في شدة أعظم أجرًا ممن أنفق في حال الرخاء)[١].

فما قبل الفتح يختلف عما بعده، كان المسلمون قبل الفتح لا يزالون أمامهم أعداء كبار في مكة وفي الطائف، مع قبائل عربية تتربص بهم، لكن لما تم الفتح وقضىٰ الله -جل شأنه- علىٰ أكبر معقل للشرك في الجزيرة، ورفع راية التوحيد، وجاء نصر الله والفتح، تغير الوضع، وأصبح المستقبل الإسلامي أكثر وضوحًا، ولذلك لا يستوي من أنفق من قبل الفتح وقاتل مع من أنفق بعده وقاتل، وإن كان الله -جل شأنه- قد وعد كلا الحسنىٰ.

الثانية: الوفاء بالعهد، فالمتابع لأحوال المسلمين والمشركين يدرك مدىٰ تفوُّق المسلمين علىٰ الكفار في ذلك الوقت، ولكن كان العهد مانعًا فتح مكة، فلما نكثت قريش بالعهد كان عاقبة ذلك عليها بأن غزاها الرسول ﷺ في عقر دارها وأزال الوثنية الموجودة في مكة.

الثالثة: وكذلك أيضًا نأخذ الوفاء بالعهد من قول الرسول ﷺ لعمرو بن سالم: «نُصِرْتَ يا عمرو بن سالم»، فإن هذا من مقتضيات العهد الذي بين الرسول ﷺ وخزاعة. فالاعتداء علىٰ قبيلة من أطراف الصلح يُعَدُّ اعتداءً علىٰ جميع من في هذا الطرف، ونقضه مع خزاعة نقض له مع الرسول ﷺ.

(١) ابن جزي، التسهيل (٢/ ٣٤٤).

الرابعة: قول الرسول ﷺ لعمرو بن سالم: «نُصِرْتَ يا عمرو بن سالم»، ينبئ عن مدىٰ ما بلغته الدولة الإسلامية من قوة، بل أضحت قوة عظمىٰ في المنطقة، بها يستنصر المظلوم، ويخافها الظالم، ويحسب لها قبائل المنطقة كل حساب.

فما إن قال الرسول ﷺ هذه الكلمة، حتىٰ عرف عمرو بن سالم مآل قريش وأعدائه من بني بكر الذين بيَّتُوهم وقتلوا منهم علىٰ حين غِرة.

ورجع عمرو بن سالم بالبشرىٰ لقومه، بأنهم منصرون آخذون بثأرهم من عدوهم. يؤكد هذا مسارعة أبي سفيان في المجيء إلىٰ المدينة، خائفًا من تبعات هذا النقض، مدركًا عدم مقدرة قريش علىٰ المواجهة.

وهذا يكشف التغير الكبير في ميزان القوىٰ لصالح المسلمين. والحمد لله رب العالمين.

الخامسة: في مجيء أبي سفيان إلىٰ المدينة ودخوله علىٰ ابنته أم المؤمنين أم حبيبة رضي الله تعالىٰ عنها، ورغبته في الجلوس علىٰ الفراش فتطويه عنه، وتقول: هذا فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل نجس.

لقد كان البراء من الشرك والمشركين واضحًا في تعامل الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم-، أيًا كانت القرابة، حتىٰ لو كان أبًا أو أمًا أو أخًا أو غير ذلك.

السادسة: جاء أبو سفيان إلىٰ رسول الله ﷺ فكلمه في تثبيت الصلح وتمديده، فلم يَرُد عليه شيئًا، ثم ذهب إلىٰ أبي بكر، ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين.

لاحظ ماذا صنع أبو سفيان وهو الخبير في منازل الناس! بعد الرسول ﷺ ذهب إلىٰ أبي بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي -رضي الله تعالىٰ عنهم- تمامًا كما وقع بعد ذلك في الخلافة الراشدة، وكما كان مشتهرًا بين الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- في ترتيب أفضليتهم.

السابعة: مشروعية الكتمان لما يخاف من ضرر إعلانه، ولم يخبر الرسول ﷺ الناس بالجهة التي يريدها، لما في ذلك من المصلحة، وكي لا تعلم قريش فتستعد لذلك، وقد قال تعالىٰ عن أهل الكهف: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف:١٩]، «وليتلطف أي يكون ذلك في سر وكتمان، يعني دخول المدينة وشراء الطعام، ولا يشعرن بكم أحدًا، أي لا يخبرن بمكانكم أحدًا من أهل المدينة»[(١)]، ومن المأثور بين الناس: «استعينوا علىٰ إنجاح حوائجكم بالكتمان»[(٢)].

الثامنة: في بعث الرسول ﷺ خلف المرأة التي كانت تحمل كتابًا من حاطب آية للرسول ﷺ، فقد اطلع عن طريق الوحي بخبر هذه الرسالة ومكان المرأة، فبعث خلفها من يأخذ الخطاب منها، وحدَّد المكان الذي يجدونها فيه، فوجدوها كما ذكر الرسول ﷺ. قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وفيه من أعلام النبوة إطلاع الله نبيه علىٰ قصة حاطب مع المرأة)[(٣)].

(١) الرازي، التفسير الكبير(٢١/ ٤٤٥). وانظر: تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن للشيخ عبد الرحمن السعدي (ص٢٨٩) عند نفسير الآية ذاتها.

(٢) رُوي عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل وابن عباس وأبي هريرة وغيرهم وقد استنكره الأئمة النقاد كالإمام أحمد ويحيى بن معين حيث قالا: «هذا موضوع، وليس له أصل». «المنتخب من علل الخلال» (ص٢٥). وكبار المحدثين على تضعيف هذا الحديث فقد قال عنه ابن أبي حاتم في «العلل» (٢٢٥/ ٢): «منكر»، وذكره ابن الجوزي في «الموضوعات» (١٦٥/ ٢) وأنكره الذهبي في « ميزان الاعتدال» (١٤١/ ٢) وضعفه الحافظ ابن حجر في «لسان الميزان» (٥٥/ ٤). وقال العجلوني في كشف الخفاء (١/ ١٣٩) رواه الطبراني وأبو نعيم بسند ضعيف عن معاذ بن جبل رفعه، وكذا البيهقي وابن أبي الدنيا والعسكري والقضاعي بسند فيه سعيد بن سلام كذبه أحمد، وأخرجه العسكري أيضًا من غير طريقه بسند ضعيف « وضعفه الزرقاني في مختصر المقاصد (ص ٩٥). وقال الشيخ ابن باز رحمه الله: (ليس بحديث يروى عن عمر -رضي الله تعالى عنه-) وقال ابن عثيمين في اللقاء المفتوح (١٣٥):(ليس بصحيح). بينما صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤٣٦/ ٣) من طريق أبي هريرة مرفوعًا وقال: (فالحديث بهذا الإسناد جيد عندي).

(٣) ابن حجر، فتح الباري (١٢/ ٣١٠).

التاسعة: في تصرف حاطب -رضي الله تعالىٰ عنه- هذا التصرف، وهو أحد الصحابة، وأحد المهاجرين وأحد الذين شهدوا بدرًا، وربما يكون أحد الذين أطلعهم الرسول ﷺ علىٰ جهة مسيره التي أخفاها عن الناس، في هذا التصرف بيان لما يعتور النفس وتتعرض له من الضعف البشري، مهما بلغت من الكمال الإيماني.

يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (إن المؤمن ولو بلغ بالصلاح أن يقطع له بالجنة لا يعصم من الوقوع في الذنب)[1]. فكن دائم اللجوء إلىٰ الله، ملتزمًا الاعتصام به سبحانه وتعالىٰ، اللهم إنا نبرأ من التوكل إلا عليك ومن الثقة إلا بك، ومن اللجوء إلا إليك، ومن الاعتصام إلا بحبلك المتين، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

العاشرة: في قصة حاطب -رضي الله تعالىٰ عنه- وأن الرسول ﷺ قال له: «ما حملك ياحاطب علىٰ ما صنعت»، فاستفصاله ﷺ دليل علىٰ اعتبار القصد في التصرفات قولًا أو عملًا، وقد علل حاطب -رضي الله تعالىٰ عنه- تصرفه بأمر دنيوي، وهو حماية أهله وماله في مكة، فدل هذا علىٰ أنه لم يرد ظهور الكفر علىٰ الإسلام، وإنما قصد حماية المال والنفس، وفرق كبير بينهما، فإرادة ظهور الكفر، أمرٌ راجعٌ إلىٰ الدين، وحماية المال والنفس راجعٌ إلىٰ أمر دنيوي، وهذا المعنىٰ الأخير محرم وضلال عن سواء السبيل، ولكن ليس مكفرًا، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة:١]، قال العلماء: أثبت أنهم ألقوا بالمودة، ومع ذلك ناداهم باسم الإيمان، وختم الآية ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، فدل علىٰ أن هذا الفعل – وهو

(١) ابن حجر، فتح الباري (١٢/ ٣١٠).

الموالاة بهذا المعنىٰ- محرم وضلال عن سواء السبيل، ولكن لا يُخرج عن اسم الإيمان[1]. وهي قاعدة مهمة يجب أن لا تغيب في أمثال هذه المواقف.

الحادية عشرة: ولا يسوغ مطلقًا أن يؤثر هذا في مقام ومنزلة هذا الصحابي المهاجر البدري الجليل، أليس الرسول ﷺ قد أخبرنا عن أهل بدر فقال: «لعل الله أن يكون قد اطلع علىٰ أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[2]. وقال لنا ﷺ في شأن حاطب رضي الله تعالىٰ عنه: «صدق ولا تقولوا له إلا خيرًا»[3]. فزَكَّاه بكونه من أهل بدر، وزكاه بكونه صادقًا، وأمرنا أن لا نقول إلا خيرًا في شأنه رضي الله تعالىٰ عنه.

الثانية عشرة: في تعامل الرسول ﷺ مع الموقف، نجد أنه ﷺ تبين وتلطف في السؤال، ثم عذر، وأمرنا أن نعذر ونحسن الظن والتعامل، وأن لا يصدر منا إلا القول الحسن، فصلوات ربي وسلامه عليه، ما أرحمه وأعظمه وأبره وأحسن خلقه!

الثالثة عشرة: في تعامل الرسول ﷺ السابق، منهج لنا في التعامل مع إخواننا، فنحسن الظن ونلتمس العذر ونُقيل العثرة ونذكر الحسنة السابقة ونستحضر الضعف البشري الذي يعتور الأشخاص، فيضعفوا لا عن شك، ولا عن نقص إيمان، ولكن حالة تعتري الشخص لعارض دنيوي ثم يؤوب إلىٰ ربه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، فهم أتقياء ومع ذلك يمسهم طائف من الشيطان، لكن سرعان ما يتذكروا ويبصروا الحقيقة ويعودون إلىٰ ربهم، ولم تتلوث سيرتهم بشيء، بل ربما كانوا بعد الأوبة والتوبة خيرًا منهم قبل الذنب.

---

(١) انظر: صالح آل الشيخ، شرح كتاب الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، الطبعة الثالثة (الرياض: مكتبة دار الحجاز ١٤٤٠)، (١٨-١٩).

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري (٤/ ٥٩)، (رقم ٣٠٠٧)، وصحيح مسلم (٤/ ١٩٤١)، (رقم ٢٤٩٤).

(٣) سبق تخريجه في أول هذا المبحث.

الرابعة عشرة: في موقف حاطب -رضي الله تعالىٰ عنه- منهج لمن سبق منه زلة - ومن هو الذي لم يسبق منه زلة[1]- أن لا يجحد الخطأ الذي وقع منه، وأن يبادر إلىٰ التوبة إلىٰ الله والاعتذار والصدق في الحديث، فلا منجاة للشخص بمثل التوبة، والاعتذار والاعتراف بالخطأ، وصِدْق القول، قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وفيه أن من وقع منه الخطأ ينبغي له ألا يجحده، بل يعترف ويعتذر لئلا يجمع بين ذنبين)[2].

الخامسة عشرة: في قصة حاطب، بيان لمكانة أهل الفضل وأن أخطاءهم تذوب في بحور حسناتهم، فالعلماء وأصحاب الفضل عمومًا أخطاؤهم ليست كأخطاء غيرهم، بل تقدر حسناتهم، ويراعىٰ التجاوز عن أخطائهم، تقديرًا لتلك الحسنات.

السادسة عشرة: في قصة حاطب، أهمية الرجوع إلىٰ أهل العلم فيما يشكل، فإن عمر قال للرسول ﷺ: دعني أضرب عنق هذا المنافق، ولم يتصرف من تلقاء نفسه، بل استأذن، فبيَّن له الرسول ﷺ الموقف الشرعي الصحيح في هذا.

السابعة عشرة: في قصة حاطب، بيان لمكانة أهل بدر -رضي الله عنهم أجمعين- ورفعة منزلتهم وعظيم سابقتهم في نصرة الإسلام والمسلمين.

الثامنة عشرة: في ختام قصة حاطب -رضي الله تعالىٰ وأرضاه- يحسن أن أشير إلىٰ خلاصة في عقيدة الولاء والبراء تعرضت لغلو أصابها من وجهين:

الأول: غلو إفراط.

---

(١) عن أنس -رضي الله تعالى عنه- أن النبي ﷺ قال: «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون». أخرجه الترمذي في سننه (٤/ ٦٥٩)، (رقم ٢٤٩٩) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث علي بن مسعدة عن قتادة. وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، وأخرجه ابن ماجه في سننه (٥/ ٣٢١)، (رقم ٤٢٥١). تحقيق شعيب الأرناؤوط وزملاؤه وقالوا: «حسن إن شاء الله، رجاله ثقات غيرَ علي بن مسعدة، وهو مختلف فيه».

(٢) ابن حجر، فتح الباري (١٢/ ٣١٠).

والثاني: غلو تفريط أو جفاء.

أمّا مظاهر وعلامات غلوّ الإفراط، فيمكن أن ترجع إلىٰ علامتين ظاهرتين:

الأولىٰ: التكفير بالأعمال الظاهرة، وهذا ناتج عن عدم وضوح مناط التكفير في الولاء والبراء، وأنه هو عمل القلب، فمحبة الكافر لكفره، أو تمني نصرة الكفار وظهور دينهم علىٰ دين المسلمين، هذا هو الكفر في الولاء والبراء.

وهذا يختلف عن الأمر العملي المتمثل في مجرد النصرة العملية للكفار علىٰ المسلمين، فهذا العمل وحده لا يكفي للحكم علىٰ فاعله بأنه كافر؛ لأنه لا يزال احتمال أن فاعل ذلك يحب دين الإسلام ويتمنىٰ نصرته، لكن ضَعُف إيمانه لعارض ومصلحة دنيوية قدمها علىٰ مصلحته الأخروية.

ويشهد لهذا قصة حاطب بن أبي بلتعة -رضي الله تعالىٰ عنه- فقد قال حاطب نفسه: (لم أفعلْه كُفْرًا، ولا ارتدادًا عن ديني، ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام). فقال النبي ﷺ: «صدق»[1].

يقول شيخ الإسلام بن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (وقد يحصل من الرجال نوع من موادتهم لرحم أو حاجة، فيكون ذنبًا ينقص به إيمانه، ولا يكون به كافرًا، كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة)[2].

الثانية: من علامات الإفراط في الولاء والبراء:

الخطأ في تطبيق البراء من الكفار، وسبب هذا الخطأ في التطبيق إما اجتزاء النصوص، فالشريعة التي جاءت بعقيدة الولاء والبراء جاءت بحسن التعامل والقول الحسن، قال تعالىٰ: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [البقرة:٨٣]، وقال تعالىٰ: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ

(١) صحيح البخاري رقم(٣٠٨١،٣٠٠٧) وصحيح مسلم رقم(٢٤٩٤، ٢٤٩٥).
(٢) الإيمان الأوسط، ابن تيمية، تحقيق علي الزهراني الطبعة الأولى (الرياض، دار ابن الجوزي ١٤٢٣) (١/ ٤٠٣).

ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨]، والبعض يقتصر علىٰ نصوص البراء، ويترك نصوص حسن التعامل.

أما الجانب الآخر من الغلو وهو جانب التفريط في الولاء والبراء، وقادة هذا الفكر هم فئة من المثقفين الذين نشأوا في الغرب دراسةً أو تلقيًا لكتبهم وأفكارهم، فأرادوا تمييع هذه العقيدة إما قصدًا وإما تقليدًا دون وعي بالنتائج، ويتمثل هذا التفريط في الولاء والبراء في أولئك الذين يهاجمون عقيدة الولاء والبراء، ويطالبون بإلغائها، طلبًا للتسامح بين الأديان، وبحجّة أنها تؤصّل ثقافة الكراهية للآخرين، وتؤجّج نار التطرُّف والغُلُوّ.

وهذا يترتب عليه رد الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الصريحة في البراء من الكفار، وموالاة المؤمنين.

ويجب أن ينتبه هؤلاء، أو يُنَبَّهوا، أن لا يُحَمِّلوا الإسلام أخطاء بعض الأفراد فيه، وبخاصة في جانب الولاء والبراء، وأن لا يقابل الغلو بغلو معاكس له.

التاسعة عشرة: فضل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه- وغيرته علىٰ الدين، وحرصه علىٰ نقاء المجتمع وصفائه، وأيضًا مما يُذكر له -رضي الله تعالىٰ عنه- أنه رغم ما وجده من غيرة علىٰ الدين فإنه رجع إلىٰ الرسول ﷺ وهذه أيضًا من فضائله، وعندما بين الرسول ﷺ منزلة حاطب -رضي الله تعالىٰ عنه- وكونه من أهل بدر ودخوله معهم في الفضل، دمعت عيناه -رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه- ورجع، ففي صحيح البخاري -رحمه الله تعالىٰ-: (قال: فدمعت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم)[1]. قال ابن حجر -رحمه الله- في الفتح: (ويحتمل أن

(١) صحيح البخاري (٨/ ٥٧)، (رقم ٦٢٥٩).

يكون عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- بكىٰ حينئذ لما لحقه من الخشوع والندم علىٰ ما قاله في حق حاطب رضي الله تعالىٰ عنه)[1].

العشرون: يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- في فوائد فتح مكة: (وفيها أن الرجل إذا نَسب المسلم إلىٰ النفاق والكفر متأوِّلًا وغضبًا لله ورسوله ودينه لا لهواه وحظه، فإنه لا يكفر بذلك، بل لا يأثم بذلك، بل يثاب علىٰ نيته وقصده، وهذا بخلاف أهل الأهواء والبدع، فإنهم يُكفِّرون ويُبدِّعون لمخالفة أهوائهم ونحلهم، وهم أولىٰ بذلك ممن كفروه وبدعوه)[2].

وهذا مهم في التفريق بين من يُكَفِّر ويُنَفِّق ويُبدّع ويُفسّق لحظ نفسه، ومن يفعل ذلك انتصارًا لله وغضبًا له متأولًا.

قال الشيخ عبد الله أبا بطين -رحمه الله تعالىٰ-: (ومن كفر إنسانًا أو نفَّقه أو فسّقه متأولًا، غضبًا لله تعالىٰ، فيرجىٰ العفو عنه، كما قال عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- في شأن حاطب ابن أبي بلتعة -رضي الله تعالىٰ عنه- إنه منافق، وكذلك جرىٰ من غيره من الصحابة وغيرهم، وأما من كفَّر شخصًا أو نفَّقه، غضبًا لنفسه، وبلا تأويل، فهذا يخاف عليه)[3].

الواحدة والعشرون: وقال الشيخ عبد الله أبا بطين -رحمه الله تعالىٰ- أيضًا: (وفيها أن الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تُكَفَّرُ بالحسنة الكبيرة الماحية، كما وقع الجس من حاطب مكفرًا بشهوده بدرًا)[4].

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (١٢/ ٣١١).

(٢) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٤٢٣).

(٣) عبد الله أبا بطين، مجموع فتاوى ورسائل الشيخ عبدالله أبا بطين، تحقيق خالد السكران، الطبعة الأولى(الرياض: مكتبة دارالمنهاج للنشر والتوزيع ١٤٣٨) (ص٣٢٦-٣٢٧).

(٤) المرجع السابق (ص ٤٢٣- ٤٢٤).

الثانية والعشرون: هذا الجيش الكبير الذي يزحف من مكة إلىٰ المدينة، أخذ الله -جل شأنه- عن قريش خبره، ووصل الرسول ﷺ إلىٰ أطراف مكة دون أن تعلم، وقد خرج أبو سفيان ومن معه إلىٰ حدود مكة، يتحسسون الأخبار، وإذا بهم يفاجأون بجيش الرسول ﷺ بأعداده وعدته الهائلة قد حلت بأرضهم، وهذه آية من آيات الله -جل شأنه- أن تعمىٰ الأخبار، ولا تصل إلىٰ مكة مع عظم الجيش وكثرة عدده.

الثالثة والعشرون: في الطريق وقف الرسول ﷺ عند قبر أمه (آمنة بنت وهب) وزار قبرها وبكىٰ وأبكىٰ من حوله، وقال: «استأذنت ربي في أن أزور قبرها فأذن لي واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي».

للأم شأن عظيم، بل لها الشأن الأعظم في حقوق من عاصرك من البشر، لن توفيها حقها مهما بذلت، فقد بذلتْ لك من عمرها وحياتها وروحها ومشاعرها وقلقها ما لا تستطيع أن تحصيه، فضلًا عن أن تكافئه.

وللأم مع الرسول ﷺ شأن خاص، فهي أمه وأبوه، فقد وُلِد ﷺ يتيمًا، وهذا أشد أنواع اليتم، كما يقول ابن كثير رحمه الله تعالىٰ، فكانت أمه ﷺ بالنسبة إليه كل شيء؛ الأم والأب والأخ والأخت، فلا يَعرف غيرها، وفقدها في غربة، وفي سفر بين المدينة ومكة، وودعها وهو صغير في صحراء نائية عنه في مكة، فلا يتمكن من زيارتها في صغره وشبابه، وربما اليوم يمر بها لأول مرة، وبينه وبين آخر لقاء بها، عندما وقف مع الذين كانوا يوارونها التراب، قرابة خمس وخمسين سنة. والمشاعر كما هي، مشاعر الابن مع أمه، لم تخبو ولم تضعف، فيستأذن ربه في الزيارة فيأذن له، ويزور باكيًا مبكيًا لكل من حوله، وما لهم لا يبكون وهم يشاهدون بكاءه ﷺ وهو أحب إليهم من أنفسهم، وأغلىٰ عندهم من الدنيا ومن وما فيها.

فهذا درس في قدر الأم ومكانتها، فأمك ثم أمك ثم أمك، كما قال ذلك المصطفىٰ ﷺ.

وهو درس في صلتها والبر بها إن كانت من الأحياء، وزيارتها وبرها إن كانت ممن سبقك إلىٰ الدار الآخرة[1]. لا تتهاون في زيارة قبرها والسلام عليها، ويكفيك في ذلك التأسي بالمصطفىٰ ﷺ فقد زار قبر أمه، مع ما علمتَ من منع الرسول ﷺ من الاستغفار لها، وللأسف غفل كثيرون عن زيارة والديهم الأموات، بل نسي البعض قبر أمه أو أبيه مع طول الانقطاع عنه.

ودرس في الصلة للأقارب عمومًا، وزيارة الأقارب الموتىٰ. وقد تهاون كثير من الناس في زيارة أقاربهم الأموات.

الرابعة والعشرون: في هذه الزيارة وقول الرسول ﷺ: «استأذنت ربي في الاستغفار فلم يأذن لي»، جرىٰ خلاف قديم بشأن مصير أبوي النبي ﷺ والخلاصة في ذلك -في رأيي- التوقف بشأنهما وعدم القطع لهما لا بالجنة ولا بالنار؛ لأن الأمر شديد، والمسؤولية عظيمة، والنصوص الخاصة ليست صريحة، يقابلها نصوص عامة صريحة.

أما الحديث الوارد بشأن أبيه ﷺ فقد جاء فيه اختلاف، يستدعي الخوف من المزلة، فيتوقف الشخص، ولا يقطع بمضمونه، ولا يجزم بشيء.

وأما شأن أمه ﷺ فلم يأتِ حديث صحيح صريح بشأنها، والوارد هو النهي عن الاستغفار لها، وهذا لا يلزم منه تحديد مصيرها، فقد يكون سبب عدم الإذن بالاستغفار لها، لأنها ماتت في الفترة، ومصير أهل الفترة مجهول، ولا يُدرىٰ ما

(١) لما توفيت والدتي رحمها الله رحمة واسعة وأعلى منزلتها عنده، جمعت بعض النصوص وأقوال العلماء في مسألة سماع الأموات لكلام الأحياء، رغبة في معرفة علم والدتي بزيارتي لها وأنسها بذلك، كنت أريده لنفسي، فتحصل لي بعض النصوص المفيدة، صرت إلى طباعتها في كتيب بعنوان (هل يسمع الأموات كلام الأحياء)طبعته دار التدمرية بالرياض عام ١٤٣٧ وموجود نسخة إلكترونية على الإنترنت.

يصيرون إليه، وقد شاء الله -جل شأنه- أن يكون مصيرها مجهولًا ومخفيًا عنه ﷺ لحِكَم يريدها الله سبحانه وتعالىٰ، وقد يكون من هذه الحِكَم، أنه لو أذن له بالاستغفار لأمه؛ لفُهِم منه جواز الاستغفار لأهل الفترة عمومًا[1].

قال السندي -رحمه الله تعالىٰ-: (الاستغفار فرع تصوير الذنب، وذلك في أوان التكليف ولا يعقل ذلك فيمن لم تبلغه الدعوة، فلا حاجة إلىٰ الاستغفار لهم، فيمكن أنه ما شرع الاستغفار إلا لأهل الدعوة لا لغيرهم وإن كانوا ناجين)[2].

وأيضًا يمكن أن يقال إن أهل الجاهلية عمومًا يعاملون معاملة الكفار في الدنيا، فلا يُدعىٰ لهم، ولا يستغفر لهم، وأما أمرهم في الآخرة فإلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ[3].

ولا يلزم من بكائه ﷺ لما زارها أنها كانت تعذب، بل ربما كان السبب عدم علمه بمصيرها، ولشفقته عليها والله أعلم[4]. قال النووي -رحمه الله تعالىٰ-: (قَالَ الْقَاضِي بُكَاؤُهُ ﷺ عَلَىٰ مَا فَاتَهَا مِنْ إِدْرَاكِ أَيَّامِهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ)[5]. وزيارة قبر القريب تثير البكاء؛ شفقة ورحمة، فكيف بالأم!؟

---

(١) انظر: أحمد القصير، الأحاديث المشكلة الواردة في تفسير القرآن الكريم، الطبعة الأولى (الرياض: ابن الجوزي١٤٣٠) (ص ٣٣٥).

(٢) السندي، حاشية السندي على سنن النسائي، الطبعة الثانية (حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية ١٤٠٦) (٤/ ٩٠).

(٣) انظر: ابن باز، مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، (٥/ ١٨١).

(٤) السندي، حاشية السندي على سنن النسائي، الطبعة الثانية (حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية ١٤٠٦) (٤/ ٩٠). ومن أراد التوسع في هذا الموضوع فيمكنه الرجوع إلى ١- أدلة معتقد أبي حنيفة لعلي القاري، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (٤/ ٣٢٤-٣٢٦) والتذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي، ومسالك الحنفا في والدي المصطفى للسيوطي، ويجمع ذلك كله كتاب الأحاديث المشكلة الواردة في تفسير القرآن الكريم عرض ودراسة لأحمد بن عبد العزيز القصير من منشورات دار ابن الجوزي في الرياض، (ص ٣١٦-٣٣٨) وقد رجح ما ذكرته من التوقف في المسألة، وأمرهم إلى الله سبحانه وتعالى.

(٥) النووي، شرح صحيح مسلم (٧/ ٤٦).

ويقابل هذه النصوص الخاصة، نصوص عامة صريحة تبين الأصول العامة في الشريعة مثل قول الله تعالىٰ: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [المائدة:١٩] وقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء:١٥]، وقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾ [طه:١٣٤]، وكلها تبين أنه لا عذاب قبل الإنذار، مما يؤيد القول بالتوقف، والله أعلم. وقد سبق الحديث عن هذا الموضوع في فائدة سابقة.

الخامسة والعشرون: قال النووي -رحمه الله تعالىٰ-: (فيه جواز زيارة المشركين في الحياة وقبورهم بعد الوفاة؛ لأنه إذا جازت زيارتهم بعد الوفاة ففي الحياة أولىٰ)[١]. وهذا يدل علىٰ أن النووي -رحمه الله تعالىٰ- ممن يرىٰ كفر أم الرسول ﷺ.

السادسة والعشرون: إنزال الناس منازلهم نأخذها من قول الرسول ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»[٢] ففي هذا توقير لأبي سفيان وتمييز له وهو سيد من سادات قريش.

السابعة والعشرون: عناية الرسول ﷺ بتأليف القلوب، فقد ألَّف قلب أبي سفيان وهو رجل يحب الفخر بأن جعل من دخل داره فهو آمن، وفي هذا تأليف لقلبه، وتثبيت له علىٰ الإسلام الذي هو حديث عهد به.

الثامنة والعشرون: تواضع الرسول ﷺ وتهدئته الرجل الذي جاء إليه، ولما أراد أن يتحدث إلىٰ الرسول ﷺ أخذته رعدة وخوف، هيبة لمقام الرسول ﷺ. بأبي وأمي ونفسي فداء لرسول الله ﷺ له هيبة ووقار ترتعد له الفرائص، وحق أن له كل الهيبة

(١) النووي، شرح صحيح مسلم (٧/ ٤٥).
(٢) انظر: أبو بكر الجزائري، هذا الحبيب (ص ٤٠٠).

والوقار، ومع ذلك وقد جمع الله فيه كل صفات العظمة البشرية، يُهِّون الرسول ﷺ علىٰ الرجل ويقول له: «هوِّن عليك فإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد».

وفيه تذكير بماضيه وحال أمه في صغره، وكأنه ينظر إليها وهي تأكل اللحم المجفف، وفي الوقت ذاته، تعليم لكل فرد منا، لا تنس ماضيك الضعيف، تواضع لله جل شأنه، لا تتكبر علىٰ أحد، ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١]، ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس:١٩].

وكثير من الناس ممن بلغ منزلة في الدنيا، تراه لا يتذكر إلا حالته تلك تفاخرًا وتعظمًا، ولا يتذكر، ولا يريد أن يُذَكَّر بماضيه، ونشأته الضعيفة.

التاسعة والعشرون: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح متواضعًا متخشعًا متذللًا لله سبحانه وتعالىٰ. وإن قيمة هذا التواضع في كون هذا الفتح موقفًا يُعَدُّ أكبر نصر للمسلمين، إذ إن الجيش الذي دخل مكة لا قِبَل لأحد من أهل مكة به، فلم يكن أمامهم إلا الاستسلام.

وكلما قويت أسباب النصر، وتفاقمت هزيمة العدو، يُداخل النفوس شيء من العظمة والاغترار، لكن الرسول ﷺ بعبوديته يقابل ذلك النصر بمزيد من التذلل لله عز وجل، والاعتراف بأن هو الناصر، ولا حول ولا قوة للعبد إلا بالله.

ثم إذا قارنا هذا بمواقف الجبروت والعظمة والتعالي والطغيان، التي اعتادها كثير من القادة غير المسلمين في مواقف انتصروا فيها علىٰ خصومهم، أدركنا عظمة الإسلام في حربه وفي سلمه، وفي انتصاره وتمكنه من عدوه.

قال تعالىٰ: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل:٣٤]. قال السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ قتلًا وأسرًا ونهبًا لأموالها، وتخريبًا لديارها، ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ

﴿أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗ﴾ أي: جعلوا الرؤساء السادة أشراف الناس من الأذلين)[1]، والرسول ﷺ كرم أبا سفيان زعيم قريش وقائدها في محاربته في أحد والأحزاب، وقال: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن».

إن تواضع الرسول ﷺ درس عملي لكل قائد منتصر، وما أصعب الظهور بهذا المظهر ساعة النصر![2]، يقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (وهذا التواضع في هذا الموطن عند دخوله ﷺ مكة في مثل هذا الجيش الكثيف العرمرم بخلاف ما اعتمده سفهاء بني إسرائيل حين أُمروا أن يدخلوا بيت المقدس وهم سجود -أي ركَّع- يقولون: حطة، فدخلوا يزحفون علىٰ أستاههم وهم يقولون: حنطة في شعيرة)[3].

بل هو درس لنا في العقيدة والتوحيد، في كل مواقفنا التي ننال فيها حظًا من الخير أن نستحضر أن هذا فضل الله جل شأنه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]، وأنه لا حول لنا ولا قوة إلا بالله سبحانه، فلا ننسب شيئًا من النعم، أو دفع النقم إلىٰ الأسباب أو إلىٰ جهدنا أو ذكائنا أو أو. فالأسباب كلها بيد الله، وهو الذي أعطانا السبب وهو الذي أعان علىٰ فعله، وهو الذي جعل فيه هذا الأثر، وهو مسبب الأسباب سبحانه وتعالىٰ.

ولا صلاح للقلب إلا بهذا التوحيد، وبه يشكر العبد ربه؛ لأنه أرجع كل الفضل له سبحانه وتعالىٰ[4].

---

(١) السعدي، تفسير السعدي (ص ٦٠٤).
(٢) انظر: محمود خطاب، الرسول القائد (ص ٣٥٦).
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية (٤/ ٢٩٣).
(٤) وأنصح كل من يريد التوسع في فهم هذا المعنى أن يرجع إلى كتاب التوحيد للإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- باب قول الله تعالى ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ وشروحاته وبخاصة القول المفيد شرح كتاب التوحيد لابن عثيمين رحمه الله تعالى، وإعانة المستفيد لصالح الفوزان والتمهيد لصالح آل الشيخ وفقهما الله تعالى.

يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وأما ضبط السرور: أن يخرج إلىٰ مشابهة الجرأة. فلا يقدر عليه إلا الأقوياء أرباب العزائم، الذين لا تستفزهم السراء، فتغلب شكرهم. ولا تضعفهم الضراء، فتغلب صبرهم، كما قيل).

لا تغلب السراء منهم شكرهم   كلا... ولا الضراء صبر الصابر

والنفس قرينة الشيطان ومصاحبته، وتشبهه في صفاته. ومواهب الرب -تبارك وتعالىٰ- تنزل علىٰ القلب والروح. فالنفس تسترق السمع. فإذا نزلت علىٰ القلب تلك المواهب، وَثَبَتْ لتأخذ قسطها منها، وتُصَيِّره من عدتها وحواصلها. فالمسترسل معها، الجاهل بها، فيدعها تستوفي ذلك. فبينما هو في موهبة القلب والروح وعدَّة وقوة له، إذ صار ذلك كله من حاصل النفس وآلتها، وعددها. فصالت به وطغت؛ لأنها رأت غناها به. والإنسان يطغىٰ أن رآه استغنىٰ بالمال. فكيف بما هو أعظم خطرًا، وأجل قدرا من المال، بما لا نسبة بينهما من علم، أو حال، أو معرفة، أو كشف؟ فإذا صار ذلك من حاصلها، انحرف العبد به ولا بد، إلىٰ طرف مذموم من جرأة، أو شطح، أو إدلال. ونحو ذلك.

فوالله كم هاهنا من قتيل وسليب وجريح يقول: من أين أُتيت؟ ومن أين دُهيت؟ ومن أين أُصبت؟ وأقل ما يعاقب به من الحرمان بذلك أن يغلق عنه باب المزيد. ولهذا كان العارفون وأرباب البصائر، إذا نالوا شيئًا من ذلك انحرفوا إلىٰ طرف الذل والانكسار، ومطالعة عيوب النفس. واستدعوا حارس الخوف، وحافظوا علىٰ الرباط بملازمة الثغر بين القلب وبين النفس، ونظروا إلىٰ أقرب الخلق من الله، وأكرمهم عليه، وأدناهم منه وسيلة، وأعظمهم عنده جاهًا، وقد دخل مكة يوم الفتح، وذقنه تمس قربوس سرجه، انخفاضًا وانكسارًا وتواضعًا لربه تعالىٰ في مثل تلك الحال، التي عادة النفوس البشرية فيها أن يملكها سرورها وفرحها بالنصر والظفر والتأييد، ويرفعها إلىٰ عنان السماء.

فالرجل من صان فتحه ونصيبه من الله. ووراه عن استراق نفسه. وبخل عليها به، والعاجز من جاد لها به. فيا له من جود ما أقبحه. وسماحة ما أسفه صاحبها. والله المستعان)[1]. فتأمل هذه الحروف الذهبية فهي أغلىٰ من الدرر.

الثلاثون: دخول الرسول ﷺ بهذه القوة وهذا الانتصار، لا ننسىٰ أن نقارنه بيوم خروجه أو إخراجه من مكة، ومطاردته من قبل كفار قريش، وحيدًا إلا برفقة صاحبه أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- وخادمه -رضي الله تعالىٰ عنه- ودليله.

وقد قال الله جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥]، عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال: إلىٰ مكة[2]. وقد تحقق وعد الله لرسوله ﷺ وهو وعد - أيضًا- بنصر المتقين عمومًا، وإن طال الزمن، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه:١٣٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣]، فلا يستبطئ المؤمنُ النصر.

فالذي نصر الرسول ﷺ وقد خرج وحيدا من مكة يطارده كفارها، ثم نصر عبده، وأنجز وعده، ودخل الرسول ﷺ مكة بجيش لا يملك أعداؤه إلا رفع راية الاستسلام، والذي هيأ ذلك - سبحانه وتعالىٰ- قادر-جل شأنه- أن يهيأ ما وعد به عباده المتقين من أن تكون العاقبة لهم.

وواجبنا جميعًا أن نحقق الصفة التي وعد الله من اتصف بها أن تكون العاقبة له، وهي التقىٰ، فمن أراد العاقبة الحسنىٰ في أموره فعليه بالتقوىٰ، وكلما ترقىٰ في درجاتها، ارتفع سهمه في حسن العاقبة حتىٰ يبلغ درجات عالية منها.

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٧١-٣٧٢).

(٢) صحيح البخاري (٦/ ١١٣)، (رقم ٤٧٧٣)، وابن كثير، تفسير ابن كثير (٦/ ٢٦٠). وابن جزي، التسهيل (٢/ ١٢١).

الواحدة والثلاثون: وقفت عند تجمع الأحزاب للقضاء علىٰ الإسلام في المدينة في السنة الخامسة، وكان عددهم عشرة آلاف، وفي السنة الثامنة أي: بعد ثلاث سنوات فقط- يأتي الرقم ذاته من المسلمين غزاة إلىٰ مكة ليفتحوها، فانظر كيف أنهم لما جمعوا عشرة آلاف لحرب الإسلام، جاءهم الله -جل شأنه- بعشرة آلاف فاتح يدخلون مكة في مدة وجيزة، وذلك فضل الله ونصره لعباده المؤمنين.

الثانية والثلاثون: في تسليط النبي ﷺ علىٰ هذا البلد، ودخوله فاتحًا منتصرًا آية من آيات الله للرسول ﷺ ودليل من أدلة نبوته، يقول ابن رجب -رحمه الله تعالىٰ-: (فكان في تسليط نبيه ﷺ علىٰ هذا البلد وتمليكه إياه ولأمته من بعده ما دل علىٰ صحة نبوته، فإن الله حبس عنه من يريد به الأذىٰ وأهلكه ثم سلط عليه رسوله وأمته كما قال ﷺ: «إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين»، فإن الرسول ﷺ وأمته إنما كان قصدهم تعظيم البيت وتكريمه واحترامه، ولهذا أنكر النبي ﷺ يوم الفتح علىٰ من قال: اليوم تستحل الكعبة وقال: «اليوم تعظم الكعبة»، وقد كان أهل الجاهلية غيَّروا دين إبراهيم وإسماعيل-عليهما الصلاة والسلام- بما ابتدعوه من الشرك وتغيير بعض مناسك الحج، فسلط الله رسوله وأمته علىٰ مكة فطهروها من ذلك كله وردوا الأمر إلىٰ دين إبراهيم الحنيف، عليه الصلاة والسلام)[1]

الثالثة والثلاثون: قول الرسول ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقىٰ السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن»، هذا أمر لم يعرفه التاريخ، ولن يعرف له التاريخ مثيلًا في العفو والصفح.

أكثر من عشرين سنة قضاها مشركو مكة في حرب هذه الدعوة والصد عن سبيلها ومعاداتها، وما تركوا من حيلة إلا بذلوا جهودهم فيها، وما من طريق إلا سلكوه ليحولوا بين الناس وبين هذا الدين، وتفننوا في مؤامرات قتل الرسول ﷺ

---

(١) ابن رجب، لطائف المعارف (ص ٩٤).

وكم أوغلوا في تعذيب الأتباع، والتضييق عليهم وحبسهم، بل وقتلهم، ومطاردة من خرج منهم حتىٰ خارج الجزيرة العربية، ثم شنوا ضدهم ثلاثة حروب، ومع ذلك كله يدخل ﷺ مكة ومعه عشرة آلاف مقاتل متواضعًا متخشعًا لله[1]. يعلن العفو الشامل عن الجميع ويؤمنهم بمجرد أن يدخل أحدهم بيته ويغلقه علىٰ نفسه.

الرابعة والثلاثون: سبق أن ذكرت أن الرسول ﷺ كان يوم الهجرة عندما لحقه سراقة سمعه يتلو القرآن الكريم ويوم فتح مكة كان الرسول ﷺ أيضًا علىٰ ناقته يتلو القرآن الكريم، وهذا يدلنا علىٰ الاستفادة من الوقت في العبادة، وهي فرصة لحفظة كتاب الله تعالىٰ أو حفظ جزء منه، وأن يستغلوا أوقاتهم أثناء التنقل بتلاوة القرآن الكريم، ويستحضروا التأسي بالرسول ﷺ ليجمعوا بين الأجرين.

وغيرهم كذلك يمكن أن يستفيدوا من وقتهم بالقراءة في المصحف أو بالاستماع إلىٰ ما يفيد، تعبدًا لله وتأسيًا برسوله ﷺ.

يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- نقلًا عن ابن أبي جمرة -رحمه الله تعالىٰ- قوله: (وفي الحديث ملازمته ﷺ للعبادة؛ لأنه حالة ركوبه الناقة وهو يسير لم يترك العبادة بالتلاوة)[2].

الخامسة والثلاثون: قول رسول الله ﷺ: «منزلنا -إن شاء الله- إذا فتح الله الخيف، حيث تقاسموا علىٰ الكفر»، معنىٰ تقاسموا علىٰ الكفر: أي -كما يقول النووي رحمه الله تعالىٰ-: (تحالفوا وتعاهدوا عليه وهو تحالفهم علىٰ إخراج النبي ﷺ وبني هاشم وبني المطلب من مكة إلىٰ هذا الشعب وهو خيف بني كنانة وكتبوا بينهم الصحيفة المشهورة وكتبوا فيها أنواعًا من الباطل وقطيعة الرحم والكفر). قال بعض العلماء: (وكان نزوله ﷺ هنا شكرًا لله تعالىٰ علىٰ الظهور بعد الاختفاء وعلىٰ

---

(١) انظر: العوشن، ما شاع ولم يثبت في السيرة (١٩٠-١٩١).
(٢) ابن حجر، فتح الباري (٩/ ٩٢).

إظهار دين الله تعالىٰ. والله أعلم)[1].

ولعل هناك معنىٰ آخر وهو إظهار الطاعة في مكان عُصي الله فيه، قال ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (أما أماكن الكفر والمعاصي التي لم يكن فيها عذاب إذا جعلت مكانًا للإيمان أو الطاعة فهذا حسن، كما أمر النبي ﷺ أهل الطائف أن يجعلوا المسجد مكان طواغيتهم[2]، وأمر أهل اليمامة أن يتخذوا المسجد مكان بيعة كانت عندهم[3])[4].

قال في عون المعبود: (والحديث يدل علىٰ جواز جعل الكنائس والبيع وأمكنة الأصنام مساجد وكذلك فعل كثير من الصحابة حين فتحوا البلاد جعلوا متعبداتهم متعبدات للمسلمين وغيروا محاريبها، وإنما صنع هذا لانتهاك الكفر وإيذاء الكفار، حيث عبدوا غير الله هنا، وقد عمل علىٰ هذه السنة ملك الهند السلطان العادل عالم كبير -رحمه الله- حيث بنىٰ عدة مساجد في معبد الكفار خذلهم الله تعالىٰ)[5].

السادسة والثلاثون: نلحظ أن الرسول ﷺ بادر إلىٰ تحطيم الأصنام وهدم صروح الوثنية المنصوبة حول الكعبة فور دخوله مكة، فالشرك أعظم الكبائر، وأشد الظلم، وأقبح الجرائم، لا صبر عليه.

وفي إزاء ذلك، إقامة التوحيد ونشره، فهو أفضل الطاعات، وأعلىٰ القربات، وكان أول أعمال الرسول ﷺ بعد أن دخل مكة واستقر بها، أن بادر بإرسال من يهدم دور الأصنام التي كانت تعبد من دون الله حول مكة ويطاف بها ويتقرب إليها.

---

(١) النووي، شرح صحيح مسلم (٩/ ٦١-٦٢).

(٢) أبو داود، السنن (١/ ١٢٣)، (رقم ٤٥٠)، وضعفه الألباني، والبيهقي، دلائل النبوة (٥/ ٣٠٦).

(٣) النسائي، سنن النسائي (٢/ ٣٨)، (رقم ٧٠١) قال عنه الألباني «صحيح الإسناد».

(٤) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (١/ ٢٦٦).

(٥) العظيم آبادي، عون المعبود (٢/ ٨٤).

وهدم الشرك، وتقويض معالمه، وإقامة صروح التوحيد، جوهر رسالة محمد ﷺ ومن لم يعط التوحيد حقه في حياته، ويخلص العبادة لله سبحانه، فقد ضيع أهم ما جاء به الرسول ﷺ بل أهم ما جاءت به جميع الرسل -عليهم السلام- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

السابعة والثلاثون: دخل الرسول ﷺ المسجد الحرام ورأىٰ في الكعبة حمامة من عيدان فكسرها ومحا ما وجده من صور، ولقد جاء وعيد شديد في المصورين، فعن أبي جحيفة -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: (لعن النبي ﷺ المصورين)[1].

وعن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن أشد الناس عذابًا عند الله يوم القيامة المصورون»[2].

قال ابن بطال -رحمه الله تعالىٰ-: (إنما نهىٰ النبي -عليه الصلاة والسلام- أولًا عن الصور كلها وإن كانت رقمًا؛ لأنهم كانوا حديث عهد بعبادة الصور، فنهىٰ عن ذلك جملة، ثم لما تقرر نهيه عن ذلك، أباح ما كان رقمًا في ثوب للضرورة إلىٰ اتخاذ الثياب، وأباح ما يمتهن؛ لأنه يؤمن علىٰ الجاهل تعظيم ما يمتهن، وبقي النهي في ما فيه ترفه ولا يمتهن، وفي ما لا حاجة بالناس إلىٰ اتخاذه، وما يبقىٰ مخلدًا في مثل الحجر وشبهه من الصور التي لها أجرام وظِل؛ لأن في صنيعها التشبه بخلق الله تعالىٰ)[3].

وقال النووي -رحمه الله تعالىٰ-: (قال أصحابنا وغيرهم من العلماء تصوير صورة الحيوان حرام شديد التحريم وهو من الكبائر... وأما اتخاذ المصور فيه صورة حيوان، فإن كان معلقًا علىٰ حائط أو ثوب ملبوسا أو عمامة ونحو ذلك

(١) صحيح البخاري (٧/ ٦١)، (رقم ٥٣٤٧).

(٢) صحيح البخاري (٧/ ١٦٧)، (رقم ٥٩٥٠).

(٣) ابن بطال، شرح صحيح البخاري، تحقيق ياسر بن إبراهيم، الطبعة الثانية (الرياض: مكتبة الرشد ١٤٢٣) (٩/ ١٨٠).

مما لا يعد ممتهنًا فهو حرام، وإن كان في بساط يداس ومخدة ووسادة ونحوها مما يمتهن فليس بحرام، ولكن هل يمنع دخول ملائكة الرحمة ذلك البيت)[1]. ثم قال: (وأما هؤلاء الملائكة الذين لا يدخلون بيتًا فيه كلب أو صورة فهم ملائكة يطوفون بالرحمة والتبريك والاستغفار، وأما الحفظة فيدخلون في كل بيت ولا يفارقون بني آدم في كل حال؛ لأنهم مأمورون بإحصاء أعمالهم وكتابتها)[2].

وقد تساهل الناس في الصور وامتلأت بيوتهم منها، لمجرد المباهات والتفاخر، والوعيد فيها شديد، ومن تأمل نصوص الوعيد الواردة في الصور، خاف علىٰ نفسه من تبعتها، والنصيحة لنفسك أن تبادر إلىٰ تطهير بيتك منها، إلا الصور الشخصية التي تطلبها الجهات الرسمية لهوية أو جواز ونحوه، أو شيئًا ممتهنًا في فراش يوطأ -كما مر- ولا تحرم نفسك وبيتك دخول الملائكة الذين يطوفون بالرحمة والتبريك والاستغفار، والله أعلم.

الثامنة والثلاثون: في إعادة مفتاح الكعبة إلىٰ عثمان بن طلحة، درس في الوفاء يعلمنا إياه عمليًا رسولنا ﷺ حيث قال له وهو يعيد إليه المفتاح: «اليوم يوم بِرٍّ ووفاء».

التاسعة والثلاثون: في موقفه العظيم عندما عفا عن مشركي قريش الذين آذوه وأخرجوه من بلده وقاتلوه ثم لما قدر عليهم وتمكن منهم قال لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، وقد كان من أثر عفو النبي ﷺ الشامل عن كفار مكة والعفو عن بعض من أهدر دماءهم أن دخل أهل مكة رجالًا ونساءً في دين الله طواعية واختيارًا ورغبة في هذا الدين[3].

---

(١) النووي، شرح صحيح مسلم (١٤/ ٨١).

(٢) النووي، شرح صحيح مسلم (١٤/ ٨٤).

(٣) انظر: أبو شهبة، السيرة النبوية (ص ٤٥٦).

الأربعون: من قول الرسول ﷺ لأبي بكر لما جاء بأبيه يقوده: «هلا تركت الشيخ في بيته حتىٰ أكون أنا آتيه»، نأخذ منه حُسْنَ خُلُق الرسول ﷺ وتواضعه، ونأخذ مشروعية توقير الكبير واحترامه.

ويقدم الرسول ﷺ لنا الأسوة في ذلك، في هذه القصة، ويقول أيضًا: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ولم يعرف شرف كبيرنا»[١].

الواحدة والأربعون: من تهنئة الرسول ﷺ لأبي بكر، بإسلام أبيه نأخذ مشروعية التهنئة للمسلم بما يجِّد من خير ديني، وسيأتي نموذج لذلك في قصة الثلاثة الذين خُلِّفُوْا عندما هنَّأ الصحابةُ -رضي الله تعالىٰ عنهم- كعبَ بن مالك بتوبة الله عليه[٢]، قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وفيه دليل علىٰ استحباب تهنئة من تجددت له نعمة دينية، والقيام إليه إذا أقبل، ومصافحته، فهذه سنة مستحبة، وهو جائز لمن تجددت له نعمة دنيوية)[٣]، فالتهنئة في النعم الدينية مستحبة، وفي النعم الدنيوية جائزة كما يقول شيخ الإسلام ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- والله أعلم.

الثانية والأربعون: من هروب عكرمة بن أبي جهل وركوبه البحر فرارًا من الرسول ﷺ ثم تعرضهم للغرق وقول أصحاب السفينة: (أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئًا هاهنا)، فقال عكرمة: والله لئن لم ينجني في البحر إلا الإخلاص، ما ينجيني في البر غيره، اللهم إن لك عليَّ عهدًا إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمدًا ﷺ حتىٰ أضع يدي في يده، فلأجدنه عفوًا كريمًا، فجاء فأسلم.

هذا درس عظيم في التوحيد، وأن الناس حتىٰ المشركين يدركون في حالة الشدة أن الأولياء الأموات وكل من يُدعىٰ من دون الله -جل شأنه- لا يملكون لأنفسهم

(١) أخرجه الترمذي في سننه، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/ ١٧٩)، حديث (رقم ١٥٦٦).
(٢) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٥٥٥).
(٣) المرجع السابق (ص ٥٨٥).

شيئًا، فضلًا عن أن يملكوه لغيرهم؛ لا جلب نفع ولا دفع ضر. وأنه إذا جد الأمر واشتد الخطر، لجأوا إلىٰ الله وحده لا شريك له ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:٢٢-٢٣]، وهذا تمامًا مماثل لما وقع للسفينة التي ركبها عكرمة.

والحمد لله الذي هدىٰ عكرمة -رضي الله عنه- ووفقه للإسلام، وأسأل المولىٰ الكريم الذي هدىٰ عكرمة -رضي الله عنه- أن يهدي ضال المسلمين، الذين لا يزالون يدعون أمواتًا، ويلجأون إليهم في الشدائد، يحسبون أنهم يملكون لهم شيئًا.

ولم يكتفِ عكرمة -رضي الله تعالىٰ عنه- بذلك، بل حين أسلم، أصبح لا يسمع بصنم في بيت من بيوت قريش إلا مشىٰ إليه حتىٰ يكسره.

وليت كل أولئك الذين اغتروا بالشركيات المعاصرة كالطواف علىٰ القبور والتمسح بها، واللجوء إليها عند الشدائد أن يستدركوا أنفسهم ويعودوا إلىٰ توحيد ربهم ونبذ الشرك، لكي ينجو في دنياهم وآخرتهم.

الثالثة والأربعون: نادىٰ منادي رسول الله ﷺ بمكة: «من كان يؤمن بالله وبرسوله فلا يدعن في بيته صنمًا إلا كسره»، ولم يكن رجل من قريش بمكة إلا وفي بيته صنم. إذا دخل مسحه وإذا خرج مسحه تبركًا به.

هذا أيضًا درس في التوحيد، ودروس التوحيد مهما كُررت، فلا تملَّها، نحن دائمًا في أمس الحاجة إلىٰ ترسيخ التوحيد في قلوبنا، وأن نأخذ العبرة والعظة، وأعظم فائدة نستفيدها من سيرة المصطفىٰ ﷺ هي قوة الاستجابة لما كان يدعو إليه ليلًا ونهارًا سرًا وعلانية، ألا وهو التوحيد، «قولوا لا إله إلا الله، تفلحوا».

ولما أسلمت هند بنت عتبة -رضي الله تعالىٰ عنها- جعلت تضرب صنمًا في بيتها بالقدوم، فلذة فلذة، وهي تقول: كنا منك في غرور.

نعم كل مشرك يطوف علىٰ قبر أو يتمسح به، أو يدعوه أو يرجوه، سيقول هذه الكلمة، إما في الدنيا، إن كتب الله له السعادة، أو سيقولها في الآخرة: ﴿ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:٩٦-٩٨].

الرابعة والأربعون: ولما فتح الله مكة علىٰ رسوله ﷺ خشيت الأنصار -رضي الله تعالىٰ عنهم- أن يبقىٰ في مكة، وتحدث فئة منهم محبة للرسول ﷺ وحرصًا منهم عليه، فجاء الوحي للرسول ﷺ بذلك، فدعاهم الرسول ﷺ وطمأنهم، قائلًا: «كلا، إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلىٰ الله وإليكم، والمحيا محياكم والممات مماتكم»، فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله، ما قلنا الذي قلنا إلا الضن بالله وبرسوله، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله ورسوله يصدقانكم، ويعذرانكم»)[1].

قال أبو هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- كما في المستدرك: (فوالله ما منهم أحد إلا بلَّ نحره بالدموع)[2].

فهذا فيه أمران:

الأول: الوفاء العظيم من الرسول الكريم ﷺ للأنصار الذين بايعوه علىٰ النصرة، فهاجر إليهم، ونصروه، وأووا أصحابه من المهاجرين، ونصروهم، وقد بشرهم بعد فتح مكة بأن المحيا محياهم والممات مماتهم.

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٤٠٥)، (رقم ١٧٨٠).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٢)، (رقم ٢٣٢٨). وصححه ولم يتعقبه الذهبي رحمهم الله تعالى.

الثاني: فضل الأنصار -رضي الله تعالىٰ عنهم- الذين كانوا حريصين علىٰ شرف بقاء الرسول ﷺ معهم في المدينة.

الخامسة والأربعون: يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ- في حكمة بقاء الرسول ﷺ والمهاجرين في المدينة: (إنهم كانوا بها مهاجرين، مجاهدين، مرابطين بخلاف مكة)[1].

السادسة والأربعون: كان من أبرز نتائج هذا الفتح أن أخذت قبائل العرب تبادر إلىٰ الإسلام؛ لأنهم كانوا ينتظرون نتيجة الصراع بين المسلمين وقريش، ففي صحيح البخاري -رحمه الله تعالىٰ- من حديث عمرو بن سلمة -رضي الله تعالىٰ عنه-: (وكان يمر بنا الركبان فنسألهم ما للناس، ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون: يزعم أن الله أرسله، أوحي إليه، أو أوحي إليه بكذا، فكنت أحفظ ذلك الكلام فكأنما يقر في صدري وكانت العرب تلوَّم بإسلامهم الفتح فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم)[2].

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (وإنما كانت العرب تربص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش وأمر رسول الله ﷺ وذلك أن قريشًا كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله ﷺ وخلافه، فلما افتتحت مكة، ودانت له قريش، ودوخها الإسلام، وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته، فدخلوا في دين الله، كما قال عز وجل، أفواجًا يضربون إليه من كل وجه، يقول الله تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ

(١) ابن تيمية، جامع الرسائل، المجموعة الخامسة، تحقيق محمد عزيز شمس الطبعة الأولى (مكة: دار عالم الفوائد ١٤٢٤) (ص ٣٥٦-٣٥٧).
(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٨/ ٢٢)، (رقم ٤٣٠٢).

﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾: أي فاحمد الله علىٰ ما أظهر من دينك، واستغفره إنه كان توابًا)[1]

السابعة والأربعون: في قصة المخزومية التي سرقت، فوائد أجملها علىٰ النحو التالي:

١. قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (واختلف العلماء في ذلك، فقال أبو عمر بن عبد البر -رحمه الله تعالىٰ-:(لا أعلم خلافًا أن الشفاعة في ذوي الذنوب حسنة جميلة ما لم تبلغ السلطان، وأن علىٰ السلطان أن يقيمها إذا بلغته)، وذكر الخطابي -رحمه الله تعالىٰ- وغيره عن مالك -رحمه الله تعالىٰ- أنه فرَّق بين من عُرف بأذىٰ الناس، ومن لم يُعرف. فقال: (لا يشفع للأول مطلقًا، سواء بلغ الإمام أم لا، وأما من لم يُعرف بذلك، فلا بأس أن يشفع له ما لم يبلغ الإمام)[2]. والتفريق بين من عُرف بأذىٰ الناس ومن كانت منه زلة، تفريق صحيح ينبغي مراعاته، فليس كل من أذنب يُستحب الشفاعة له، بل من الناس من يستحب تأديبه رعاية لمصلحة المجتمع، ومصلحته هو، لتكرار الذنب منه.

٢. (تحريم الشفاعة في الحدود إذا بلغت الإمام، فيَحرُم علىٰ الشافع وعلىٰ المُشَفَّع، وهذا لا يختلف فيه)[3]. والحديث فيه تهديد ووعيد شديد علىٰ ترك القيام بالحدود، وعلىٰ ترك التسوية فيما بين الدَّنيء والشريف، والقوي والضعيف. ولا خلاف في وجوب ذلك[4]، والتشديد في ذلك والإنكار علىٰ من رخص فيه أو تعرض للشفاعة فيمن وجب عليه[5].

---

(١) ابن هشام، السيرة (٢/ ٥٦٠).
(٢) ابن حجر، فتح الباري (١٢/ ٩٥).
(٣) انظر: القرطبي، المفهم (٥/ ٧٨).
(٤) القرطبي، المفهم (٥/ ٧٩).
(٥) انظر: ابن حجر، فتح الباري (١٢/ ٩٦).

٣. في قوله ﷺ: «إنَّما أهلك الذين قبلكم أنَّهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدَّ»، الاعتبار بأحوال من مضىٰ من الأمم ولا سيما من خالف أمر الشرع.

٤. في الحديث صورة من صور العدل الذي جاء به الإسلام وقرره، وهو العدل بين الناس في الأحكام، كائنًا من كان، حتىٰ إن الرسول ﷺ ليضرب مثلًا بمن هي أعز الناس عنده وعند المؤمنين، وحاشا وكرمها أن يقع منها شيء من ذلك، ولكن الرسول ﷺ كأنما أخذ الغاية في النزاهة فضرب بها مثلًا، ليقتلع من قلوب الناس كل صور الأمل في الشفاعة في الحدود المبنية علىٰ المكانة.

٥. أن الشافع هنا هو حِب رسول الله ﷺ ومع ذلك تلون وجه الرسول ﷺ وشدد في إنكار هذا الأمر، ولو كان مجيزًا لأحد شفاعة، لأجازها لأسامة -رضي الله تعالىٰ عنه- لما اشتهر من كونه -رضي الله تعالىٰ عنه- حب رسول الله ﷺ وابن حبه.

٦. أن البلاء كل البلاء عندما يكون في المجتمع قانونان، قانون للضعفاء، وقانون للأقوياء، فالقوي يسرق ويسامح، والضعيف يسرق فتقطع يده، رغم أن الأَوْلَىٰ قطع يد الغني؛ لأنه ليس له عذر في ذلك، والفقير قد يكون سرق ليسد جوعه. وعندما يوجد هذا الأمر يتحول المجتمع إلىٰ غابة يأكل فيها القوي الضعيف، وينقم فيه الضعيف علىٰ القوي ويتربص به، وبهذا لا يمكن أن يقوم مجتمع صالح، ولا توجد أُخُّوة، ولا تستقيم حياة، بل صراع مؤذن بالهلاك والفناء.

٧. في الحديث إشارة إلىٰ منزلة فاطمة بنت الرسول ﷺ وذلك عندما ضرب بها المثل، فجاء ﷺ بأقصىٰ وأعلىٰ من عنده منزلة ومكانة ونزاهة.

٨. في الحديث إشارة إلىٰ منزلة أسامة -رضي الله تعالىٰ عنه- عند الرسول ﷺ حتىٰ إن هذه المنزلة مشتهرة في قريش، فلم يجدوا أولىٰ من يُكَلِّمه في هذا الأمر إلا أسامة، رضي الله تعالىٰ عنه.

الثامنة والأربعون: لقد تأخر دخول قريش في الإسلام هذه المدة الطويلة وهم أهم القبائل العربية، وفيهم بعث الرسول ﷺ وهذا ربما فيه فائدة، وهي أن الباطل إذا استحكم في القلوب، فإن من سنة الله -جل شأنه- أن يؤخر إنهاءه، حتىٰ يتم استحكام القناعة التامة ببطلانه، ويخرج من القلوب ما أُشربت من محبته، فلا يبقىٰ في النفوس بقايا منه، قد يجعلها تعود لتدافع عنه، أو تنصره.

ولو أن النصر جاء من بداية الأمر، لبقي للباطل في نفوس قريش بقية، لكن الله -جل شأنه- والله أعلم- أمهلهم، وكشف عن باطلهم، وبين خطأ معتقداتهم، وزيف حججهم، حتىٰ إذا جاء الفتح، لم يبق في نفوسهم من محبة الباطل ما يجعلهم يدافعون عنه، أو يتشوقون له، أو يقبلونه لو قام من يدعو إليه.

وإذا انتصر الحق علىٰ الباطل، وهو لا يزال له في النفوس مكانة، وله من ينصره ويضحي في سبيله، فإنه لو رجع هذا الباطل لوجد أنصارًا، لكن من رحمة الله تعالىٰ أنه لا ينصر أهل الحق علىٰ أهل الباطل إلا بعد أن ينكشف عوار الباطل تمامًا، وبعد أن يستوعب الناس بطلانه، ويكرهونه، فإذا انكسر الباطل في هذه الحالة، كان كسره نهائيًا، لن يجد بعد ذلك من ينصره.

ولهذا لما حصلت الردة في العرب، رأينا أن قريشًا لم يرتد منهم أحد، ولم يقع -ولله الحمد- في الحرمين ولا في مكة ولا في المدينة ردة، فدل هذا علىٰ أنهم قد كرهوا هذا الباطل، ولم يعد لهم أدنىٰ تعلق به.

وربما لو أسلمت قريش مبكرًا، وفيهم بقايا من باطل، لربما كان فيهم من يرتد مع من ارتد من العرب.

فكان من سنة الله ورحمته إذا أراد نصر الدين، أن لا يُمَكِّن له حتىٰ يزيح الباطل ويكشف عواره ويُظهر مخازيه، فلو حاول من يريد إرجاعه لم يجد له أنصارًا.

والنفوس إنما تنخدع، إذا كان الباطل مشوبًا بالحق، وله بقايا لم يتم إزالتها، أما إذا كان الباطل جليًا، فلا تحبه القلوب، وإن اتبعه من اتبعه لهوىٰ، وليس عن عقيدة[1].

التاسعة والأربعون: يقول ابن تيمية –رحمه الله تعالىٰ–: غزوة (بدر كانت أساس عز الدين، وفتح مكة كانت كمال عز الدين، فكانوا قبل بدر يسمعون الأذىٰ الظاهر ويؤمرون بالصبر عليه، وبعد بدر يؤذون في السر من جهة المنافقين وغيرهم فيؤمرون بالصبر عليه، وفي تبوك أمروا بالإغلاظ للكفار والمنافقين فلم يتمكن بعدها كافر ولا منافق من أذاهم في مجلس خاص ولا عام، بل مات بغيظه لعلمه بأنه يقتل إذا تكلم)[2].

الخمسون: كان فتح مكة سببه نقض عهد، وقد قال تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:١٤-١٥]. يقول ابن تيمية –رحمه الله تعالىٰ–: (أمر –سبحانه– بقتال الناكثين الطاعنين في الدين وضمن لنا إن فعلنا ذلك أن يعذبهم بأيدينا ويخزيهم وينصرنا عليهم ويشفي صدور المؤمنين الذين تأذوا من نقضهم وطعنهم وأن يذهب غيظ قلوبهم؛ لأنه رتب ذلك علىٰ قتالهم ترتيب الجزاء علىٰ الشرط والتقدير: إن تقاتلوهم يكن هذا كله، فدل علىٰ أن الناكث الطاعن مستحق هذا كله، وإلا فالكفار يدالون علينا المرة وندال عليهم الأخرىٰ وإن كانت العاقبة للمتقين)[3]، وهذا تفريق

(١) انظر: أحمد الغامدي، شرح تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، الطبعة الأولى (مكة: دار طيبة الخضراء، ١٤٤٠) (٢/ ٤٩٣).

(٢) ابن تيمية، الصارم المسلول على شاتم الرسول تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (توزيع الشؤون الدينية بالحرس الوطني بالرياض ١٤٣١) (٢٢٠).

(٣) ابن تيمية، الصارم المسلول (ص١٩).

مهم بين عاقبة قتال الناكث، وعاقبة قتال الكافر الحربي الذي لم ينكث العهد. وقال الشيخ الطاهر بن عاشور -رحمه الله تعالىٰ- في تفسير هذه الآية: (وجزم يعذبْهم في قوله تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]، وما عطف عليه في جواب الأمر. وفي جعله جوابًا وجزاءً أن الله ضمن للمسلمين من تلك المقاتلة خمس فوائد، تنحل إلىٰ اثنتي عشرة، إذ تشتمل كل فائدة منها علىٰ كرامة للمؤمنين، وإهانة لهؤلاء المشركين، وروعي في كل فائدة منها الغرض الأهم، فصرح به وجعل ما عداه حاصلًا بطريق الكناية.

الفائدة الأولىٰ: تعذيب المشركين بأيدي المسلمين، وهذه إهانة للمشركين وكرامة للمسلمين.

الثانية: خزي المشركين وهو يستلزم عزة المسلمين.

الثالثة: نصر المسلمين، وهذه كرامة صريحة لهم وتستلزم هزيمة المشركين، وهي إهانة لهم.

الرابعة: شفاء صدور فريق من المؤمنين، وهذه صريحة في شفاء صدور طائفة من المؤمنين وهم خزاعة، وتستلزم شفاء صدور المؤمنين كلهم، وتستلزم حرج صدور أعدائهم، فهذه ثلاث فوائد في فائدة)[١].

---

(١) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (١٠/ ١٣٥).

المبحث الثاني

فقه السيرة في غزوة حنين[1] وحصار الطائف

هذه الغزوة غزوة حنين، ومنهم من يسميها أوطاس[2]، ومنهم من يسميها هوازن، ولكن التسمية القرآنية هي حُنَيْن[3].

وتُعَدُّ غزوةُ حُنَيْنٍ امتدادًا لفتح مكة، وأثرًا من آثارها، ذلك أن غزوة حُنَيْن قامت نتيجة هذا الفتح العظيم. فإن هوازن وثقيف[4]، لما علمت بما جرىٰ لقريش في مكة، بدأت تستعد وتجمع الجموع، لمحاربة الرسول ﷺ.

ولما علم الرسول ﷺ وهو في مكة بذلك، خرج لملاقاتهم، في حنين، وكان خروجه يوم السادس من شوال من السنة الثامنة من الهجرة[5].

وعيَّن علىٰ مكة أميرًا عليها عتاب بن أسيد[6] رضي الله عنه. وكان مع الرسول ﷺ عشرة آلاف بالإضافة إلىٰ ألفين من الطلقاء من أهل مكة.

---

(١) حنين تبعد عن مكة ستة وعشرين ميلاً شرقًا وتُعْرَف الآن بالشرائع، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة (ص ١٠٤).

(٢) أوطاس: موضع يقع شرق مكة أقرب المواضع المأهولة منه عشيرة، غرب وادي العقيق على مقربة من البركة شمالها نحو الغرب ولا تزال هذه المواضع معروفة الآن. سعد الجنيدل، معجم الأمكنة الوارد ذكرها في صحيح البخاري (ص ٤٠).

(٣) الآية [رقم ٢٥]من سورة التوبة وسيأتي نقل نص الآية بعد قليل.

(٤) هوازن من أكبر القبائل العربية تلتقي مع قريش في (مضر بن عدنان) وأما ثقيف فهي فخذ أو فرع من فروع قبيلة هوازن.

(٥) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٤/ ٦٤- ٦٥)، والقسطلاني، المواهب اللدنية (١/ ٥٩٦).

(٦) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية المطبوعة مع الروض الأنف (٤/ ١٢٣).

وكان جيش المشركين من الطائف تحت قيادة مالك بن عوف النصري واجتمع إليه من هوازن وثقيف كلها واجتمعت نصر وجشم كلها وسعد بن بكر وناس من بنىٰ هلال وهم قليل. ومن بني جشم دريد بن الصمه شيخ كبير ليس له فيه شيء، إلا الاستفادة من رأيه ومعرفته بالحرب، وكان شيخًا مجرِّبًا.

فلما أجمع مالك النصري ومن معه علىٰ المسير إلىٰ رسول الله ﷺ حط مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، فلما نزل بأوطاس اجتمعوا إليه، وكان دريد بن الصمة في شجار[1] له يقاد به، فلما نزل قال: بأي واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس، قال: نِعْمَ مَجَالُ الْخَيْلِ! لَا حَزْنٌ ضِرْسٌ[2]، وَلاَ سَهْلٌ دَهْسٌ[3]، مَا لِي أَسْمَعُ رُغَاءَ الْبَعِيرِ، وَنُهَاقَ الْحَمِيرِ، وَبُكَاءَ الصَّغِيرِ، وَيُعَارَ الشَّاءِ؟ قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، قال: أين مالك؟ قيل: هذا مالك، ودُعْي له، فقال: يا مالك إنك قد أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام، مالي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير ويعار الشاء؟ قال: سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم. فقال: لِمَ ذاك؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم. قال: راعي ضان والله! وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك[4] قال: والله لا أفعل ذلك، إنك قد كبرت وكبر عقلك. والله لتطعينني يا معشر هوازن أو لأتكأن علىٰ هذا السيف حتىٰ يخرج من ظهري. وكره أن يكون لدريد بن الصمة فيها ذكر أو رأي، فقالوا: أطعناك، فقال دريد بن الصمه: هذا يوم لم أشهده ولم يفتني[5].

---

(١) الشجار هو مركب مكشوف دون الهودج، ابن الأثير، النهاية (٢/ ٤٤٦).

(٢) الْحزن: الْمُرْتَفع من الأَرْض. والضرس: الّذي فِيهِ حِجَارَة محددة

(٣) الدهس: اللين الْكثير التُّرَاب.

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية المطبوعة مع الروض الأنف (٤/ ١٢٢).

(٥) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ٤٣٩).

وبلغ عدد من مع مالك بن عوف عشرين ألفا[1] تجمعوا لمحاربة الرسول ﷺ، ورتب مالك عيونه فأتوه وقد تفرقت أوصالهم فقال: ويلكم ما لكم؟ فقالوا: رأينا رجالًا بيضًا علىٰ خيل بلق، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترىٰ، فما رده ذلك عن وجهه وقصده[2].

واستعار الرسول ﷺ أدراعًا وأسلحة من صفوان بن أمية – وكان لا يزال علىٰ شركه– فقال: أغصبًا يامحمد؟ قال رسول الله ﷺ: بل عارية مضمونة، فأعار صفوان الرسول ﷺ مائة درع[3].

وكان هذا أكبر جيش إسلامي يخرج مع رسول الله ﷺ ولما رأىٰ رجل من المسلمين كثرة عدد الجيش قال: لن نغلب اليوم من قلة، فشق ذلك علىٰ رسول الله[4] وأنزل الله قوله تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة:٢٦][5].

وفي الطريق، مر المسلمون بشجرة للمشركين يقال لها: ذات أنواط[6]، عن أبي واقد الليثي –رضي الله تعالىٰ عنه–: أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلىٰ حنين، قال: وكان للكفار سدرة يعكفون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم، يقال لها:

(١) انظر: الواقدي، المغازي (٣/ ٨٩٣)، وابن حجر، فتح الباري (٨/ ٢٩).
(٢) انظر: البيهقي، دلائل النبوة (٥/ ١٢٣).
(٣) الإمام أحمد، المسند (٢٤/ ١٣)، (رقم ١٥٣٠٢).
(٤) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٨/ ٢٧)، و أحمد البنا، بلوغ الأماني (٢١/ ١٦٩).
(٥) انظر: البيهقي، دلائل النبوة (٥/ ١٢٤ – ١٢٥).
(٦) قال في النهاية في غريب الحديث (٥/ ١٢٨):(هي اسم شجرة بعينها كان المشركون ينوطون بها أسلحتهم أي يعلقونه بها ويعكفون حولها).

ذات أنواط، قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة، قال: فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط. فقال رسول الله ﷺ: «قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف:١٣٨] إنها السنن، لتركبن سنن من كان قبلكم سنة سنة»[١].

وبعث الرسول ﷺ عبد الله ابن أبي حدرد الأسلمي -رضي الله تعالىٰ عنه وعن أبيه- من يأتيه بخبر هوازن، فدخل في القوم فوجدهم قد جمعوا جموعهم لمحاربة الرسول ﷺ ونقل ما رأىٰ للرسول ﷺ فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «تلك غنيمة المسلمين غدًا إن شاء الله»[٢].

ثم إن الرسول ﷺ قال: «من يحرسنا الليلة؟»، قال أنس بن أبي مرثد الغنوي -رضي الله تعالىٰ عنه-: أنا يا رسول الله، قال: «فاركب»، فركب فرسًا له، فجاء إلىٰ رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «استقبل هذا الشعب حتىٰ تكون في أعلاه، ولا نغرن من قبلك الليلة»، فلما أصبحنا، خرج رسول الله ﷺ إلىٰ مصلاه، فركع ركعتين، ثم قال: «هل أحسستم فارسكم»، قالوا: يا رسول الله، ما أحسسناه، فثُوب بالصلاة، فجعل رسول الله ﷺ يصلي، وهو يلتفت إلىٰ الشعب حتىٰ إذا قضىٰ صلاته وسلم قال: «أبشروا فقد جاءكم فارسكم»، فجعلنا ننظر إلىٰ خلال الشجر في الشعب، فإذا هو قد جاء حتىٰ وقف علىٰ رسول الله ﷺ فسلم فقال: إني انطلقت حتىٰ كنت في أعلىٰ هذا الشعب حيث أمرني رسول الله ﷺ فلما أصبحت اطلعت الشعبين كليهما

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣٦/ ٢٢٦)، (رقم٢١٨٩٧) وقال محققو المسند: (إسناده صحيح على شرط الشيخين) والطبراني في المعجم الكبير (٣/ ٢٤٤)، (رقم ٣٢٩١)، وأخرجه الترمذي في سننه (٤/ ٤٧٥)، (رقم٢١٨٠). وقال: (هذا حديث حسن صحيح (ص: ٤٧٦) وأبو واقد الليثي اسمه الحارث بن عوف وفي الباب عن أبي سعيد، وأبي هريرة) وصححه الألباني، وانظر: أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٩٧).

(٢) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٨/ ٢٧)، والقسطلاني، المواهب اللدنية (١/ ٥٩٧).

فنظرت، فلم أر أحدًا، فقال له رسول الله ﷺ: «هل نزلت الليلة؟» قال: لا، إلا مصليًا أو قاضيًا حاجة، فقال له رسول الله ﷺ: «قد أوجبت، فلا عليك أن لا تعمل بعدها»(١).

ثم مضىٰ رسول الله ﷺ في طريقه حتىٰ وصل إلىٰ حنين، وكان مالك بن عوف وجيشه قد سبقوا رسول الله ﷺ إليه، فأعدوا أنفسهم وكمنوا في مضايق الوادي وأحنائه، وأقبل رسول الله ﷺ في أصحابه حتىٰ نزلوا بالوادي في عماية الصبح، وإنهم لكذلك إذ شدت عليهم قبائل هوازن وثقيف شدة رجل واحد، وخرج من كان مستترًا في شعاب الوادي ومضايقه وأمطروهم بالسهام، فاختلط أمر المسلمين وأذهلتهم المفاجأة، فولّوا مدبرين متقهقرين لا يلوون علىٰ شيء وثبت رسول الله ﷺ وقلة من المؤمنين معه، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثم قال: «إليَّ أيها الناس، هلموا إليَّ أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله»، ومعه رهط من المهاجرين والأنصار، وأهل بيته غير كثير، فقد ثبت معه ﷺ أبو بكر وعمر، ومن أهل بيته، علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، وابنه الفضل بن عباس، وأبو سفيان بن الحارث، وربيعة بن الحارث، وأيمن بن عبيد وهو ابن أم أيمن، وأسامة بن زيد -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين(٢). وجعل الرسول ﷺ ينادي: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»(٣)، وكان من دعائه: «اللهم إنك إن تشأ لا تُعبد بعد اليوم»(٤).

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٣/ ٩)، (رقم٢٥٠١) قال ابن حجر في الإصابة (١/ ٢٨٠): «إسناده على شرط الصحيح» وصححه الألباني.

(٢) مسند الإمام أحمد (٢٣/ ٢٧٤)، (رقم١٥٠٢٧). وقال محققو المسند: «إسناده حسن، رجاله ثقات رجال الشيخين غير ابن إسحاق، فهو صدوق حسن الحديث، وقد صرح بالتحديث في «سيرة ابن هشام»، و «مسند أبي يعلى» فانتفت شبهة تدليسه». وانظر: البيهقي، دلائل النبوة (٥/ ١٢٧).

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٨/ ٢٧)، (رقم ٤٣١٥).

(٤) الإمام أحمد، المسند (٣/ ١٢١) عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه.

وفي صحيح مسلم عن العباس -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: (شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ علىٰ بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي، فلما التقىٰ المسلمون والكفار ولىٰ المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قِبل الكفار، قال عباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها إرادة أن لا تسرع، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «أي عباس، ناد أصحاب السمرة»، فقال عباس: وكان رجلًا صيتًا، فقلت بأعلىٰ صوتي: أين أصحاب السمرة؟ قال: فوالله، لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر علىٰ أولادها، فقالوا: يا لبيك، يا لبيك، قال: فاقتتلوا والكفار، والدعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار، يا معشر الأنصار، قال: ثم قصرت الدعوة علىٰ بني الحارث بن الخزرج، فقالوا: يا بني الحارث بن الخزرج، يا بني الحارث بن الخزرج، فنظر رسول الله ﷺ وهو علىٰ بغلته كالمتطاول عليها إلىٰ قتالهم، فقال رسول الله ﷺ: «هذا حين حمي الوطيس»، قال: ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمىٰ بهن وجوه الكفار، ثم قال: «انهزموا ورب محمد»، قال: فذهبت أنظر فإذا القتال علىٰ هيئته فيما أرىٰ، قال: فوالله، ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرىٰ حدهم كليلًا[1]، وأمرهم مدبرًا)[2].

وأشرف رسول الله ﷺ علىٰ المعركة والناس يجتلدون، وقد بدت كفة الميزان تتغير لصالح المسلمين[3]، وأمدَّ الله المؤمنين بجند من عنده[4] قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٣٩٨)، (رقم ١٧٧٥).
(٢) اي مازلت أرى قوتهم ضعيفة.
(٣) انظر: القسطلاني، المواهب اللدنية (١/ ٥٩٩).
(٤) انظر: الطبري، تفسير الطبري، تحقيق التركي (١١/ ٣٩٠) عند تفسير قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ ...﴾ الآية[التوبة:٢٦].

عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٦]. قال الشوكاني -رحمه الله تعالىٰ- عند تفسير هذه الآية: (الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر، وأنهم إنما حضروا في غير يوم بدر، لتقوية قلوب المؤمنين، وإدخال الرعب في قلوب المشركين)[١]، وقال السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾: وهم الملائكة، أنزلهم الله معونة للمسلمين يوم حنين، يثبتونهم ويبشرونهم بالنصر)[٢].

واشتدت مطاردة المسلمين للمشركين وما هي إلا ساعة حتىٰ انهزم المشركون وجيء بالأسرىٰ إلىٰ الرسول. وظل المسلمون يتبعون الكفار في كل وجه، لا يلوي أحد منهم علىٰ أحد، وهكذا انهزم الكفار هزيمة منكرة، تاركين وراءهم نساءهم وذراريهم وأنعامهم، غنيمة للمسلمين.

ولما انهزم المسلمون في البداية، تكلَّم بعض جفاة الأعراب، وبعض من لا يزال علىٰ شركه ممن كان مع المسلمين وبعضُ حديثي العهد بالإسلام كلامًا ينمّ عن التشفّي والشماتة، فقال كلدة بن الحارث وهو أخو صفوان بن أمية لأمه: ألا بطل السحر اليوم، فقال له صفوان وكان لا يزال علىٰ شركه: اسكت فض الله فاك، فوالله لأن يَرُبَّني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن[٣].

ومر رجل بصفوان فقال: أبشر بهزيمة محمد وأصحابه، فوالله لا يجبرونها أبدًا، فزجره صفوان وقال: تبشِّرني بظهور الأعراب.

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢/ ٣٩٧).
(٢) السعدي، تفسير السعدي(ص ٣٣٣).
(٣) انظر البيهقي، دلائل النبوة (٥/ ١٢٨)، وانظر: الهيثمي، مجمع الزوائد (٦/ ١٧٩-١٨٠) وقال: (رواه أحمد وأبو يعلى ورجال أحمد رجال الصحيح).

ولم يعنِّف الرسول ﷺ أحدًا ممن فرَّ منه، بل لما قالت له أم سليم الأنصارية -رضي الله تعالىٰ عنها- أن يقتل الطلقاء لفرارهم قال: «إن الله قد كفىٰ وأحسن»[١].

وأمر الرسول ﷺ بتعقُّب الفارّين من جيش هوازن، وأباح سلب المشرك لقاتله، ولما رأىٰ امرأة مقتولة (نهىٰ عن قتل النساء والصبيان)[٢]

وكان ممن جرح في هذه الغزوة خالد بن الوليد -رضي الله تعالىٰ عنه- وكان علىٰ خيل المسلمين، عن الزهري -رحمه الله تعالىٰ- قال: (كان عبد الرحمن بن أزهر -رضي الله تعالىٰ عنه- يحدث أن خالد بن الوليد -رضي الله تعالىٰ عنه- خرج مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فكان علىٰ خيل رسول الله ﷺ قال ابن الأزهر: فلقد رأيت النبي ﷺ وهو يقول: «من يدل علىٰ رحل خالد بن الوليد؟»، قال ابن الأزهر: فمشيت أو قال: سعيت بين يديه وأنا محتلم أقول: من يدل علىٰ رحل خالد بن الوليد؟ حتىٰ دُللنا علىٰ رحله، فإذا هو قاعد مستند إلىٰ مؤخر رحله، فأتاه رسول الله ﷺ فنظر إلىٰ جرحه، قال الزهري -رحمه الله تعالىٰ-: (وحسبت أنه قال: ونفث فيه رسول الله ﷺ)[٣].

وقد استشهد في غزوة حنين أربعة نفر فقط: أيمن بن عبيد ابن أم أيمن، ويزيد بن زمعة الأسدي، وسراقة بن الحارث الأنصاري، وأبو عامر الأشعري، كما سيأتي عندما لحق من ذهب إلىٰ أوطاس، رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين.

---

(١) الإمام مسلم، صحيح مسلم (٣/ ١٤٤٢)، (رقم ١٨٠٩).

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٦/ ١٤٨)، (رقم ٣٠١٥) وكان النهي في غزوة حنين كما في ابن هشام، السيرة النبوية (٤/ ٩٠-٩١)، وابن حجر، فتح الباري (٦/ ١٤٧-١٤٨).

(٣) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق شعيب الأرناؤوط الطبعة الثانية (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤١٤)، (١٥/ ٥٦٤)، (رقم ٧٠٩٠) وقال عنه الألباني: (صحيح لغيره) وقال شعيب الأرناؤوط: (حديث صحيح)

وتدل روايات ليست قوية، لكنها تتضافر لإسناد الخبر التأريخي إلىٰ أن أمه ﷺ من الرضاعة حليمة السعدية -رضي الله تعالىٰ عنها- قدمت إليه، فأكرمها وطوىٰ لها ثوبه، لتجلس عليه[(١)]، وجاءته أيضًا أخته من الرضاعة الشيماءُ بنت الحارث فأكرمها-ﷺ[(٢)].

ولما انهزمت هوازن وثقيف، تفرَّقوا، فذهبت فرقة منهم إلىٰ الطائف يتقدمهم رئيسهم مالك بن عوف، حيث دخلوا الطائف وتحصَّنوا بها، وسارت فرقة أخرىٰ فعسكرت بمكان يقال له: أوطاس، وتوجَّهت فرقة ثالثة نحو نخلة، فبعث رسول الله ﷺ خلف من توجَّه قِبَلَ أوطاس سريةً[(٣)]، وأمَّر عليها أبا عامر الأشعري -رضي الله عنه- فالتقوا وتناوشوا للقتال[(٤)]، وأبلىٰ أبو عامر -رضي الله عنه- بلاءً حسنًا حتىٰ قُتِلَ وحَمَلَ الرايةَ بعده ابنُ أخيه أبو موسىٰ الأشعري -رضي الله تعالىٰ عنه-[(٥)].

(١) انظر: البيهقي، دلائل النبوة (٥/ ١٩٩)، وسنن أبي داود المطبوع مع بذل المجهود (٢٠/ ٨١)، وانظر: قول صاحب بذل المجهود (٢٠/ ٨١)، وقال الألباني عن الحديث: (ضعيف الإسناد) (رقم ١١٠٢)، وانظر: الطبري، جامع البيان (١٠/ ١٠١)، طبعة دار الفكر، وقال عنه أكرم العمري في السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٠٦):(من مراسيل قتادة بإسناد حسن)، وانظر: الحاكم، المستدرك (٣/ ٦١٨- ٦١٩)، (٤/ ١٦٤) وقال:(هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه) ولم يتعقبه الذهبي. قال المنذري في مختصر سنن أبي داود، تحقيق محمد صبحي حلاق، الطبعة الأولى (الرياض: مكتبة المعارف ١٤٣١) (٣/ ٤٢٣): «وأمُّه ﷺ من الرضاعة: حَليمةُ السَّعدية، أسلمت، وجاءت إليه، وروت عنه ﷺ روى عنها عبد اللَّه بن جعفر» وقد سبق الإشارة إلى هذا في (رضاعة النبي ﷺ)

(٢) انظر: البيهقي، دلائل النبوة (٥/ ١٩٩-٢٠٠)، وقال المحقق: «نقله الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٤: ٣٦٤) عن المصنف، ونقله قبله (٤: ٣٦٣- ٣٦٤) عن ابن إسحاق» وانظر: أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة (٢ / ٥٠٦)، وقال: (تضافرت الأحاديث المرسلة من ابن إسحاق وغيره على إكساب هذه المادة القوة التاريخية).

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٤/ ٨٤).

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٤/ ٨٧).

(٥) انظر في قصة أبي عامر رضي الله عنه: صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٨/ ٤١)، (رقم ٤٣٢٣).

وسار الرسول ﷺ خلف من تحصَّن بالطائف وحاصرهم[١]، فصار أهل الطائف يرمون بالنبل من فوق السور، فأصابوا عددًا من المسلمين فابتعد المسلمون عن الحصون وأقاموا محاصرين للطائف بحيث لا تصل إليهم سهام من علىٰ الحصن وبُنِيَ في هذا المكان مسجدٌ[٢].

ومكث رسول الله ﷺ حول الحصون بضع عشرة ليلة[٣] استخدم خلالها المنجنيقَ والدبابةَ ولكنهم لم يتمكنوا من فتح الحصن[٤].

وعاد رسول الله ﷺ والمسلمون دون أن يفتح الطائف، وقيل للرسول: ادع الله عليهم فقال: «اللهم اهدِ ثقيفًا»[٥].

وسار رسول الله ﷺ حتىٰ وصل إلىٰ الجعرانة، حيث السبي والغنائم، ويقول ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ- في السيرة عن هذه الغنائم: (وكان مع الرسول ﷺ من سبي هوازن ستة آلاف من الذراري والنساء، ومن الإبل والشاة ما لا يدرىٰ ما عدده)[٦]، واستأن -أي انتظر- بهوازن لعلهم يقدمون مسلمين بضع عشرة ليلة ثم بدأ بقسم الأموال.

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرةالنبوية (٤/ ١٢٢).
(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٤/ ١٢٧)، وأكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٠٨).
(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٤/ ١٢٧)، وأكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٠٧)، وابن كثير، البداية والنهاية (٤/ ٣٥٦)، وفي صحيح مسلم (٢/ ٧٣٧)، (رقم ١٠٥٩) أن الحصار دام أربعين ليلة.
(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٤/ ١٢٨).
(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢٣/ ٥٠)، (رقم ١٤٧٠٢)، وقال محققوه: إسناده قوي على شرط مسلم. و الترمذي في سننه وقال: حديث حسن صحيح غريب، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (ص ٥٢٧)، (رقم ٨٣٠)، وقال إبراهيم العلي في صحيح السيرة (ص ٥٦٦):(ورجاله ثقات)، وانظر: أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٢١١).
(٦) ابن هشام، السيرة النبوية (٤/ ١٣٤).

وطفق يعطي رجالًا المائة من الإبل يتألفهم علىٰ الإسلام، فأعطىٰ أبا سفيان مائةً بعير، وأعطىٰ الحارث بن هشام مائة بعير، وأعطىٰ سهيل بن عمرو مائة بعير، وأعطىٰ حويطب بن عبد العزىٰ بن أبي قيس مائة بعير، وأعطىٰ العلاء بن جارية الثقفي، حليف بني زهرة مائة بعير، وأعطىٰ عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر مائة بعير، وأعطىٰ الأقرع بن حابس التميمي مائة بعير وغيرهم.

وأعطىٰ صَفْوَانَ بنَ أُمَيَّةَ وكان لا يزال مشركًا عطاءً كثيرًا، قال ابن شهاب: حدثنىٰ سعيد بن المسيب أن صفوان قال: (والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إلي، فما برح يعطيني حتىٰ إنه لأحبّ الناس إليّ)[1].

وأعطىٰ حكيم بن حزام عطايا، ففي الصحيح عن حكيم بن حزام -رضي الله عنه- قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته، فأعطاني، ثم سألته، فأعطاني ثم قال: «يا حكيم، إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، كالذي يأكل ولا يشبع، اليد العليا خير من اليد السفلىٰ»، قال حكيم: فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ[2]. أحدًا بعدك شيئًا حتىٰ أفارق الدنيا، فكان أبو بكر -رضي الله عنه- يدعو حكيمًا إلىٰ العطاء، فيأبىٰ أن يقبله منه، ثم إن عمر -رضي الله عنه- دعاه ليعطيه فأبىٰ أن يقبل منه شيئًا، فقال عمر: إني أشهدكم يا معشر المسلمين علىٰ حكيم، أني أعرض عليه حقه من هذا الفيء فيأبىٰ أن يأخذه، فلم يرزأ حكيم أحدًا من الناس بعد رسول الله ﷺ حتىٰ توفي)[3].

---

(١) صحيح مسلم (٤/ ١٨٠٦)، (رقم ٢٣١٣).

(٢) قوله: «لا أرزأ» بفتح الهمزة وإسكان الراء وفتح الزاي بعدها همزة أي لا أنقص ماله بالطلب منه». ابن حجر، فتح الباري (٣/ ٣٣٦).

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري (٢/ ١٢٣)، (رقم ١٤٧٢)، وصحيح مسلم (٢/ ٧١٧)، (رقم ١٠٣٥).

ثم أتاه وفد هوازن بالجعرانة مسلمين، فسُرَّ الرسول ﷺ بهم، فقالوا: يا رسول الله، إنا أهل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفىٰ عليك فامنن علينا مَنَّ الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: «أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟»، فقالوا: يا رسولَ الله، خَيَّرْتَنَا بين أموالنا وأحسابنا، بل تردّ علينا نساءنا وأبناءنا، فهذا أَحَبُّ إلينا، فقال لهم: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلىٰ المسلمين، وبالمسلمين إلىٰ رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم»، فلما صلَّىٰ رسول الله ﷺ بالناس الظهر، فقاموا فتكلموا بالذي أمرهم به، فقال رسول الله ﷺ: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم»، فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، فقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا، وقال عباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا، فقالت بنو سليم: بلىٰ، ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي، فله بكل إنسان ست فرائض من أول سبي أصيبه فردوا إلىٰ الناس أبناءهم ونساءهم»[(١)].

وعن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: (أتىٰ رجل رسول الله ﷺ بالجعرانة منصرفه من حنين وفي ثوب بلال فضة ورسول الله ﷺ يقبض منها يعطي الناس، فقال يا محمد: اعدل، قال:ﷺ: «ويلك! ومن يعدل إذا لم أكن أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل»، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دَعْني يا رسول الله

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢/ ١٨٤)، وابن هشام في السيرة النبوية المطبوعة مع الروض الأنف (٤/ ١٥٢)، والبيهقي، دلائل النبوة (٥/ ١٩٤ - ١٩٦)، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٨٧ - ١٨٨): (رواه أبو داود باختصار كثير ورواه أحمد ورجال أحمد أسانيده ثقات)، وانظر: إبراهيم العلي، صحيح السيرة (ص ٥٦٩ - ٥٧٠)، وانظره مختصرًا في صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٨/ ٣٢ - ٣٣)، (رقم ٤٣١٨ - ٤٣١٩).

أَقْتُلْ هذا المنافقَ، فقال ﷺ: «معاذ الله! أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي، إن هذا وأصحابه يقرأون القرآن لا يتجاوز حناجرهم يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية»[(١)].

ولما أعطىٰ الرسول ﷺ ما أعطىٰ من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب ولم يكن في الأنصار منها شيء وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتىٰ قال قائلهم: لقد لقي -والله- رسولُ الله ﷺ قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: (يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعتَ في هذا الفيء الذي أصبتَ قسمتَ في قومك وأعطيتَ عطايا عظامًا في قبائل العرب ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء، قال ﷺ: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي، قال: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة»، قال: فخرج سعد -رضي الله تعالىٰ عنه- فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا له أتاه سعد -رضي الله تعالىٰ عنه- فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنىٰ عليه بما هو أهله، ثم قال: «يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتني عنكم؟ ووجِدَةً وجدتموها علي في أنفسكم؟»، في صحيح البخاري، فلما اجتمعوا قام النبي ﷺ فقال: ما حديث بلغني عنكم؟ فقال فقهاء الأنصار: (أما رؤساؤنا فلم يقولوا شيئًا، وأما ناس منا حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسول الله يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائه)[(٢)]. «ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألَّف الله بين قلوبكم؟»، قالوا: بلىٰ، الله ورسوله أمن وأفضل، ثم قال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟»، قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المن والفضل، قال ﷺ: «أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم أتيتنا مُكَذَّبًا فصدَّقناك، ومخذولًا

(١) صحيح مسلم (٢/ ٧٤٠)، (رقم ١٠٦٣).

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع (٨/ ٢٥- ٥٣)، (رقم ٤٣٣١).

فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فآسيناك. أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلىٰ إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلىٰ رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار»، فبكىٰ القوم حتىٰ أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قسمًا وحظًا، ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا)[١].

وعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: جمع النبي ﷺ ناسًا من الأنصار فقال: «إن قريشًا حديث عهد بجاهلية ومصيبة، وإني أردت أن أجبرهم وأتألفهم، أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا، وترجعون برسول الله ﷺ إلىٰ بيوتكم»، قالوا: بلىٰ، قال: «لو سلك الناس واديًا، وسلكت الأنصار شعبًا، لسلكت وادي الأنصار، أو شعب الأنصار»[٢].

وفي حديث عبد الله بن زيد بن عاصم -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «... ولو سلك الناس واديًا وشعبًا لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والناس دثار[٣] إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتىٰ تلقوني علىٰ الحوض»[٤].

(١) الإمام أحمد، المسند (٣/ ٧٦- ٧٧)، وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية المطبوعة مع الروض الأنف (٤/ ١٥٦ - ١٥٧)، وانظر القصة مختصرة في: صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٨/ ٤٧ و ٥٢)، حديث (رقم ٤٣٣٠)، (ورقم ٤٣٣١)، (ورقم ٤٣٣٢)، (ورقم ٤٣٣٤)، وصحيح مسلم (٢/ ٧٣٣ و ٧٣٨)، (رقم ١٠٥٩)، (ورقم ١٠٦١).

(٢) صحيح البخاري (٥/ ١٥٩)، (رقم ٤٣٣٤)، وصحيح مسلم (٢/ ٧٣٥)، (رقم ١٠٥٩).

(٣) قال النووي في شرح صحيح مسلم (٧/ ١٥٧): (قوله ﷺ (الأنصار شعار والناس دثار) قال أهل اللغة الشعار الثوب الذي يلى الجسد والدثار فوقه ومعنى الحديث الأنصار هم البطانة والخاصة والأصفياء وألصق بي من سائر الناس وهذا من مناقبهم الظاهرة وفضائلهم الباهرة)

(٤) صحيح البخاري (رقم ٤٣٣٠) وصحيح مسلم (رقم ١٠٦١).

ولم يقتصر الأمر علىٰ ترك الأنصار، بل ترك آخرين ممن شابههم في قوة الإيمان، يقول ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: (حدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي قائلًا: قال لرسول الله ﷺ من أصحابه: يا رسول الله، أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة مائة، وتركت جعيل بن سراقة الضمري! فقال رسول الله ﷺ: «أما والذي نفس محمد بيده لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض[1] كلهم مثل عيينة بن حصن والأقرع بن حابس، ولكني تألفتهما ليسلما، ووكلت جعيل بن سراقة إلىٰ إسلامه»[2].

وسأل الرسول ﷺ عن مالك بن عوف النصري، فأخبروه أنه بالطائف مع ثقيف، فقال ﷺ: «أخبروا مالكًا أنه إن أتاني مسلمًا رددت عليه أهله وماله وأعطيه مائة من الإبل»، فأُخْبِر مالك بذلك فخرج إليه من الطائف حتىٰ لحق برسول الله ﷺ فأسلم، فرد عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل واستعمله علىٰ من أسلم من قومه، فكان يقاتل بهم ثقيفًا ولا يخرج لهم سرحًا إلا أغار عليه حتىٰ يصيبه[3].

ودخل رسول الله ﷺ مكة محرمًا بالعمرة من الجعرانة، ثم بعد انتهاء عمرته، عاد -عليه الصلاة والسلام- إلىٰ المدينة.

وفي الطريق، أذن مؤذن رسول الله ﷺ فسمعه أبو محذورة وكان شابًا صغيرًا، عمره ستة عشر عامًا، هو وبعض رفقائه فقلدوا المؤذن استهزاءً، فسمعهم النبي ﷺ فناداهم وكان أرفعهم صوتًا أبو محذورة، فألقىٰ عليه كلمات الأذان فأذن، فأعطاه الرسول ﷺ صرة من فضه، ومسح علىٰ صدره ودعا له فأسلم، فقال للرسول ﷺ:

---

(١) طلاع الأرض: ما يملؤها حتى يطلع عنها ويسيل.

(٢) ابن هشام، السيرة (٢/ ٤٩٦). وابن حجر، الإصابة (١/ ٥٩٦) وقال « وهذا مرسل حسن، لكن له شاهد موصول».

(٣) أخرجه البيهقي، دلائل النبوة (٥/ ١٩٨ - ١٩٩)، و انظر: أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥١٧).

مرني بالتأذين في مكة، فأمر له، فصار يؤذن في الحرم، والأمير عتاب بن أسيد رضي الله تعالىٰ عنه[1]، قال القرطبي -رحمه الله تعالىٰ-: (وزعم الشافعي-رحمه الله تعالىٰ- أن أذان أهل مكة لم يزل في آل أبي محذورة كذلك إلىٰ وقته وعصره)[2]، بل قال ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ-: (فتوارث الأذان بعدُ بمكة ولده وولد ولده إلىٰ اليوم في المسجد الحرام، وتوفي أبو محذورة -رضي الله تعالىٰ عنه- بمكة سنة تسع وخمسين)[3].

ووصل الرسول ﷺ إلىٰ المدينة مظفرًا، بعد أن مكنه الله -جل شأنه- من القضاء علىٰ أقوىٰ قوتين عربيتين في الجزيرة، ودخلها لست ليالٍ بقين من ذي القعدة[4].

أما ثقيف، فإنهم بقوا علىٰ حالهم حتىٰ عودة الرسول ﷺ من غزوة تبوك، فقدم وفدهم، علىٰ النبي ﷺ، فعلم بهم المغيرة بن شعبة -رضي الله تعالىٰ عنه- فأسرع ليبشر الرسول ﷺ فطلب منه أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- أن يكون هو الذي يبشر الرسول ﷺ فوافق المغيرة -رضي الله تعالىٰ عنه- فذهب أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- ودخل علىٰ الرسول ﷺ فبشره بهم[5].

وبنىٰ لهم الرسول ﷺ في المسجد خيامًا، فأسلموا، وعن الحسنِ -رحمه الله تعالىٰ- عن عثمانَ بن أبي العاصِ -رضي الله تعالىٰ عنه- أن وَفْدَ ثَقيفٍ لَمَّا قدموا علىٰ رسولِ الله ﷺ أنزلَهم المسجدَ، ليكون أرقَّ لِقلوبِهم، فاشترطوا عليه أن لا يُحْشَروا

---

(١) الإمام أحمد، المسند (٢٤/ ٩٨)، (رقم ١٥٣٨٠)، وقال المحقق « حديث صحيح بطرقه، وهذا إسناد حسن».

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٢٢٧).

(٣) انظر: ابن سعد، الطبقات (٥/ ٤٥٠). وابن سعد رحمه الله تعالى توفي عام ٢٣٠، وهذا يعني أن الأذان في المسجد الحرام استمر في ذريته أكثر من مائتي سنة.

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة (٢/ ٥٠٠).

(٥) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٤٣٧).

ولا يُعْشَرُوا ولا يُجَبُّوا[١]، فقال رسولُ الله ﷺ: «لكم أن لا تُحشَروا ولا تُعشَروا، ولا خيرَ في دِين ليس فيه ركوعٌ»[٢]، وطلبوا من الرسول ﷺ أن يؤخِّر هدم اللات ثلاث سنين، فأبىٰ إلا هدمها، فطلبوا أن لا يتولوا هدمها بأنفسهم، فأرسل أبا سفيان والمغيرة بن شعبة -رضي الله عنهما- ليتوليا هدم اللات فهدماها، وأمَّر عليهم عثمان بن أبي العاص[٣]، وكان أصغرهم سنًا، لما رأىٰ حرصه علىٰ تعلم القرآن الكريم والتفقه في الدين[٤]، ورُوِيَ أنه أمَرَه أن يجعل مسجد الطائف حيث كان طواغيتهم[٥].

(١) قال في عون المعبود (٨/ ١٨٥-١٨٦) قوله: «(أن لا يحشروا) بصيغة المجهول أي لا يندبون إلى الغزو ولا تضرب عليهم البعوث وقيل لا يحشرون إلى عامل الزكاة بل يأخذ صدقاتهم في أماكنهم كذا في المجمع وقال الخطابي معناه الحشر في الجهاد والنفير له (ولا يعشروا) بصيغة المجهول أي لا يؤخذ عشر أموالهم وقيل أرادوا الصدقة الواجبة قاله في المجمع (ولا يجبوا) بالجيم وشدة الموحدة. قال في المجمع في مادة جبو وفي حديث ثقيف ولا يجبوا أصل التجبية أن يقوم قيام الراكع وقيل أن يضع يديه على ركبتيه وهو قائم وقيل السجود وأرادوا أن لا يصلوا والأول أنسب لقوله لا خير إلخ وأريد به الصلاة مجازا انتهى قال الخطابي قوله لا يجبوا أي لا يصلوا وأصل التجبية أن يكب الإنسان على مقدمه ويرفع مؤخره»

(٢) رواه أبو داود في سننه تحقيق شعيب الأرناؤوط وزميله الطبعة الأولى (دار الرسالة العالمية، ١٤٣٠) (٤/ ٦٣٧). وقال محققه «صحيح لغيره، وهذا إسناد رجاله ثقات، إلا أن في سماع الحسن -وهو البصري من عثمان بن أبي العاص- اختلافًا» (حكم الألباني: ضعيف: الضعيفة (٤٣١٩) وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٦٢٣)، (رقم ٤٣٣٤)بزيادة ولا يستعمل عليكم من غيركم

(٣) عثمان هذا هو الذي أمسك ثقيفًا عن الردة في أيام الردة حيث قال لهم: يا معشر ثقيف كنتم آخر الناس إسلامًا، فلا تكونوا أولهم ارتدادًا، انظر: السهارنفوري، بذل المجهود (٣/ ٢٨١).

(٤) انظر: البيهقي، دلائل النبوة (٥/ ٢٩٩ - ٣٠٤)، وأكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥١٧ - ٥٢٠).

(٥) أخرجه أبو داود في سننه (١/ ٣١١)، كتاب الصلاة، باب في بناء المساجد، حديث رقم (٤٥٠)، وأخرجه ابن ماجه (١/ ٢٤٥)، كتاب المساجد والجماعات، باب أين يجوز بناء المسجد؟، حديث رقم (٧٤٣)، وضعفه الألباني في سنن أبي داود (ص ٤٢)، رقم (٨٣) وأخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦١٨) وسكت عليه، ولم يتعقبه الذهبي في التلخيص. وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى(٢ / ٤٣٩). وقال الشوكاني في نيل الأوطار (٢/ ١٥١):(رجال إسناده ثقات)، وانظر: الألباني، الثمر المستطاب من فقه السنة والكتاب=

الفوائد المستخرجة من غزوة حنين وحصار الطائف

أولا: أن الله -جل شأنه- بتوفيقه، يدبر لعباده المؤمنين، ويلطف بهم، ويهيئ من تدبير الكفار أنفسهم ما يجعلهم غنيمة للمسلمين، فما أن فرغ الرسول ﷺ من قوة كفار قريش في مكة، إلا ويقذف الله في قلوب هوازن وثقيف التحرك لمقاتلة الرسول ﷺ ويجعلهم يواجهونه، ومعهم نساؤهم وأموالهم من الإبل والشاة ما لا يحصيه إلا الله، لتكون تلك غنيمة للمسلمين يتقوىٰ بها الرسول ﷺ علىٰ تأليف القلوب ومداواة جراح أهل مكة، بعد هزيمة كبيرة لحقت بمشركيها، والرسول ﷺ في أمس الحاجة إلىٰ تأليف قلوبهم في هذه المرحلة من الدعوة، وليس عنده شيء، إلىٰ درجة أنه يستعير الأدرع من صفوان. فتأتي هذه الأموال الطائلة والغنائم الكبيرة ويسخرها الرسول ﷺ لتأليف قلوب الزعماء الذين ذهبت رئاستهم، فسبحان مدبر الأمور ومصرف القلوب كيف يشاء، وهو العليم الحكيم(١).

ثانيًا: استعارة الرسول ﷺ للدروع من صفوان فيه فوائد:

١. قلة الإمكانات المادية لجيش الرسول ﷺ حتىٰ احتاج استعارة سلاح من مشرك.

٢. أن للإمام أن يستعير سلاح المشرك لقتال العدو(٢). وهذه صورة من صور الاستعانة.

=(١/ ٤٩٦)، وعند النسائي أنه أمر أهل اليمامة أن يتخذوا المسجد مكان بيعة كانت عندهم، انظر: سنن النسائي، كتاب المساجد، باب اتخاذ البيع مساجد (٢/ ٣٨ - ٣٩)، وانظر: اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية -رحمه الله تعالى- (١/ ٢٣٣-٢٣٤) فقد أورد هذين الحديثين، وقد قال محقق هذا الكتاب عن حديث النسائي: (إسناده جيد).

(١) انظر: الشامي، سبل الهدى (٥/ ٥٩٤).

(٢) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٤٧٩).

٣. وأن العارية مضمونة، ولو كانت مال مشرك، علىٰ خلاف بين الفقهاء في ذلك[١].

ثالثًا: بعث مالك النصري قائد جيش ثقيف وهوازن عيونه أمامه لكي تأتيه بأخبار الرسول ﷺ وأخبار جيش المسلمين، فعادوا إليه وقد تفرقت أوصالهم من الفزع والخوف، فقال مالك: ويلكم، ما لكم؟ فقالوا: رأينا رجالًا بيضًا علىٰ خيل بلق، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترىٰ، فما رده ذلك عن وجهه وقصده.

هذه صورة من صور الرعب الذي نصر الله به رسوله ﷺ وعباده المؤمنين، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب:٢٦]، وقال تعالىٰ: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [آل عمران:١٥١]، وقال ﷺ: «نصرت بالرعب»[٢].

رابعًا: لما قال رجل من المسلمين: (لن نُغلب اليوم من قلة) وشق ذلك علىٰ رسول الله ﷺ لأنه يدرك عواقب مثل هذا الكلام. نستفيد منه ما يلي:

١. أن رجلًا واحدًا تكلم - كما ذكر أهل السير - ونتيجة ذلك بلاءٌ عظيمٌ يصيب الجيش بكامله، فليحذر المسلم أن يجر بلاءً علىٰ مجتمعه أو علىٰ أهله، ويصيبهم شؤم فعله أو قوله. وكما قد يكون الرجل شؤمًا علىٰ مجتمعه، فقد يكون مباركًا

---

(١) قال ابن قدامة في الشرح الكبير (١٥/ ٨٨): «والعارية مضمونة بقيمتها يوم التلف، وإن شرط نفي ضمانها، سواء تعدى المستعير فيها أو لم يتعد. رُوي ذلك عن ابن عباس، وأبي هريرة. وهو قول الشافعي، وإسحاق. وقال الحسن، والنخعي، والشعبي، وعمر بن عبد العزيز، والثوري، وأبو حنيفة، ومالك، والأوزاعي، وابن شبرمة: هي أمانة، لا يجب ضمانها إلا بالتعدي».

(٢) صحيح البخاري (١/ ٧٤)، (رقم ٣٣٥) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما، وصحيح مسلم (١/ ٣٧٢)، (رقم ٥٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

علىٰ مجتمعه، بصلاحه ودعائه، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وكونه قدوة في سمته وخلقه.

٢. أنها كلمة واحدة، ومع ذلك وقع البلاء. عن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن العبد ليتكلم بالكلمة، ما يتبين فيها، يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق»(١).

٣. ضعف ابن آدم وسرعة غروره. فهذا الشخص ما إن رأىٰ هذه الجموع حتىٰ انتفخ سحره، وتعاظم في نفسه، وأيقن بالنصر، وقال كلمته تلك، التي تنم عن الضعف البشري الذي ينتاب العبد في بعض المواقف، إن لم يستحضر دائمًا تقوىٰ الله ومراقبته والخضوع له واستشعار نعمه.

٤. خطورة هذا الأمر؛ لأنه يتعلق بالعقيدة، فالمسلم من أعظم عباداته الخضوع لله، والشكر له علىٰ نعمه، والحذر من الغفلة عن ذلك، وليعلم أن الاستعلاء، ودخول شيء من الكبر إلىٰ القلب من الكبائر المهلكة.

٥. يدل علىٰ خطورة هذا الأمر، العقوبة الفورية التي وقعت، والآيات التي نزلت، تُتلىٰ علىٰ الأمة، لتأخذ الدرس في مستقبلها، فلا تَعُد لمثل هذا القول، يقول أبو بكر الجزائري -رحمه الله تعالىٰ- فيه: (حرمة الإعجاب بالنفس أو العمل أو القوة، إذْ ترتب علىٰ ذلك هزيمة المؤمنين في أول لقائهم بعدوهم)(٢).

٦. في هذا الموقف أيضًا درس في العقيدة، فإن وقعة بدر قد قررت للمسلمين أن القلة لا تضرهم شيئًا في جنب أعدائهم، إذا كانوا صابرين ومتَّقين، متعلقة قلوبهم

---

(١) صحيح البخاري (٨/ ١٠٠)، (رقم ٦٤٧٧) وصحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٠)، (رقم ٢٩٨٨). كذا في جميع نسخ البخاري (أبعد مما بين المشرق). وفي مسلم (أبعد ما بين المشرق والمغرب). قاله مصطفى البغا في تحقيقه لصحيح البخاري.

(٢) أبو بكر الجزائري، هذا الحبيب (ص ٤١١).

بالله سبحانه وتعالىٰ، وأن غزوة حنين قد قررت للمسلمين أن الكثرة أيضًا لا تفيدهم شيئًا، إذا لم تتعلق قلوبهم بالله جل شأنه.

خامسًا: في قول بعض من مع الرسول ﷺ: (اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط). فوائد:

١. إن الذين قالوا هذا القول هم كما قال راوي الحديث أبو واقد الليثي -رضي الله تعالىٰ عنه-: (ونحن حدثاء عهد بكفر)، فهم ممن أسلموا حديثًا بعد فتح مكة أو معه، وليسوا من الصحابة الذين سبق إسلامهم، فإن مثل هذا الأمر لا يمكن أن يخفىٰ عليهم، أو يطلبوه، رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين.

٢. نأخذ الحذر من الشرك، فإن هؤلاء يعلِّقون سيوفَهم بالشجرة علىٰ سبيل التبرُّك، ومع ذلك بيَّن الرسول ﷺ أن هذا مثل قول أصحاب موسىٰ: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة.

فانظر كيف جعل التبرك، أو طلب البركة، عبادة وتأليه للمتبرك به، وقد قال عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فقلَّ الماء، فقال: «اطلبوا فضلة من ماء»، فجاءوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء، ثم قال: «حي علىٰ الطهور المبارك، والبركة من الله»[1]، البركة من الله وحده لا تطلب إلا منه، والمبارك -بكسر الراء- هو الله -جل شأنه- لا غير.

وباب التبرك من أعظم الأبواب التي دخل من خلالها الشرك علىٰ الناس، فكانوا في البداية يحبون علماءهم وعُبَّادهم والصالحين، ويطلبون منهم الدعاء، ثم صاروا يتمسحون بهم، ويعتقدون أن لديهم القدرة علىٰ منح البركة بسبب صلاحهم ومنزلتهم عند ربهم، ولما ماتوا استمروا في طلب البركة منهم، فظهر التبرك بالأولياء والصالحين، والتبرك بالقبور، بل صاروا يتبركون بالأشجار والأحجار، وهذا كله

(١) صحيح البخاري (٤/ ١٩٤)، (رقم ٣٥٧٩).

طلب للبركة ممن لا يملكها، والرسول ﷺ لما جاء إلىٰ المدينة وأحب أن تكون فيها بركات، دعا الله سبحانه، ففي حديث أبي سعيد الخدري أن الرسول ﷺ قال: «اللهم بارك لنا في مدينتنا، اللهم بارك لنا في صاعنا، اللهم بارك لنا في مدنا، اللهم بارك لنا في صاعنا، اللهم بارك لنا في مدنا، اللهم بارك لنا في مدينتنا، اللهم اجعل مع البركة بركتين»(١)، يدعو الله أن يبارك في المدينة ويبارك في مدهم وصاعهم، وإذا كان الرسول ﷺ يطلب البركة من الله، فعلينا أن لا نطلبها إلا من الله جل شأنه.

وطلب البركة تأليه، كما قال الرسول ﷺ للذين طلبوا البركة من تعليق سلاحهم بالشجرة، إن هذا الأمر مثل من قال اجعل لنا إلهًا، وجَعْلُ إله مع الله شرك بالله جل شأنه.

فياليت هؤلاء ينتبهون، ويتجهون إلىٰ الله ويوحدونه في طلب البركة، كما يوحدونه في سائر العبادات(٢).

---

(١) صحيح مسلم (٢/ ١٠٠١)، (رقم ١٣٧٤).

(٢) قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في كتابه تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد (ص ١٥٠): «ذكر بعض المتأخرين أن التبرك بآثار الصالحين مستحب كشرب سؤرهم، والتمسح بهم أو بثيابهم، وحمل المولود إلى أحد منهم ليحنكه بتمرة حتى يكون أول ما يدخل جوفه ريق الصالحين، والتبرك بعرقهم ونحو ذلك، وقد أكثر من ذلك أبو زكريا النووي في «شرح مسلم» في الأحاديث التي فيها أن الصحابة فعلوا شيئًا من ذلك مع النبي ﷺ وظن أن بقية الصالحين في ذلك كالنبي ﷺ. وهذا خطأ صريح لوجوه: منها: عدم المقاربة فضلًا عن المساواة للنبي ﷺ في الفضل والبركة. ومنها: عدم تحقق الصلاح، فإنه لا يتحقق إلا بصلاح القلب، وهذا أمر لا يمكن الاطلاع عليه إلا بنص، كالصحابة الذين أثنى الله عليهم ورسوله، أو أئمة التابعين، ومن شهر بصلاح ودين كالأئمة الأربعة ونحوهم من الذين تشهد لهم الأمة بالصلاح وقد عدم أولئك، أما غيرهم، فغاية الأمر أن نظن أنهم صالحون فنرجو لهم. ومنها: أنَّا لو ظننا صلاح شخص، فلا نأمن أن يختم له بخاتمة سوء، والأعمال بالخواتيم، فلا يكون أهلًا للتبرك بآثاره. ومنها: أن الصحابة لم يكونوا يفعلون ذلك مع غيره لا في حياته، ولا بعد موته، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه، فهلا فعلوه مع أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ونحوهم من الذين شهد لهم النبي ﷺ بالجنة، وكذلك التابعون،=

١. تأمل ماذا طلب هؤلاء من الرسول ﷺ قالوا: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، قال في فتح المجيد: (يعني أنهم لم يطلبوا منه أن يجعل لهم إلهًا يعبدونه من دون الله؛ لأنهم كانوا أجل وأعقل من ذلك، وإنما طلبوا شجرة يأذن لهم النبي فيها فيتبركون بها ويعلقون عليها أسلحتهم دون أن يصلوا أو يتصدقوا لها، فبين لهم أن ما طلبوا من التبرك ولو لم يكن صلاة ولا صيامًا ولا صدقة هو الشرك بعينه. وفيه إبطال لشبهة مشركي هذا الزمان وزعمهم أن ما يفعلونه تبرك وتعظيم لا بأس به)[١].

٢. (ليس ما طلبوه من الشرك الأصغر، ولو كان منه لما جعله النبي نظير قول نبي إسرائيل (اجعل لنا إلهًا)، وأقسم علىٰ ذلك، بل هو من الشرك الأكبر، كما أن ما طلبه بنو إسرائيل من الأكبر. وإنما لم يكفروا بطلبهم؛ لأنهم حدثاء عهد بالإسلام، ولأنهم لم يفعلوا ما طلبوه ولم يُقدِموا عليه، بل سألوا النبي ﷺ)[٢].

٣. (أنه متقرر عندهم أن العبادات مبناها علىٰ الأمر)[٣]. فالصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- الذين طلبوا هذا الطلب ليتقربوا به، لم يُقدِموا علىٰ العمل، بل اتجهوا أولًا إلىٰ الرسول ﷺ لعلمهم أن العبادات قبل فعلها لا بد أن تكون مأذونًا بها شرعًا، حتىٰ لا يقع الشخص في البدع، وهي عبادة الله بغير ما شرع.

سادسا: نأخذ أيضًا الحذر من التشبه بالكفار؛ لأن الرسول ﷺ بين ذلك فقال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة»، لذلك مما ينبغي للمسلم، بل مما يجب عليه، هو الحذر من التشبه بالكفار في جميع أمورهم والتحذير من اتباع أهل

=هلا فعلوه مع سعيد بن المسيب وعلي بن الحسين وأويس القرني، والحسن البصري ونحوهم ممن يقطع بصلاحهم، فدل أن ذلك مخصوص بالنبي ﷺ. ومنها: أن فعل هذا مع غيره ﷺ لا يؤمن أن يفتنه، وتعجبه نفسه، فيورثه العجب والكبر والرياء، فيكون هذا كالمدح في الوجه بل أعظم».

(١) عبد الرحمن بن حسن، فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص ١٤٢).

(٢) عبد الرحمن بن حسن، فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص ١٤٢).

(٣) الإمام محمد بن عبد الوهاب، كتاب التوحيد (ص ٣٤).

الأهواء والزيغ من الأمم الماضية[١]، كما أن التشبه بالكفار من أهم أسباب البدع، ففي هذا الحديث أن التشبه بالكفار هو الذي حمل بني إسرائيل علىٰ أن يطلبوا من موسىٰ أن يجعل لهم آلهة يعبدونها، كما أن للكفار آلهة يعبدونها وهو الذي حمل بعض أصحاب محمد ﷺ ورضي الله عنهم -مما كان حديث عهد بإسلام- أن يسألوه أن يجعل لهم شجرة يتبرَّكون بها من دون الله، وهذا هو الواقع اليوم، فإن فئات من المسلمين قلَّدوا الكفار في عمل البدع والشركيات وكان من أبرز أسباب ذلك التشبه بالكافرين[٢].

سابعا: لما بعث الرسول ﷺ عبد الله ابن أبي حدرد -رضي الله تعالىٰ وعن أبيه- ليأتيه بخبر جيش ثقيف، فلما عاد وأخبره عما ساقته ثقيف معها من النساء والأهل والذراري والنَّعم، ومقصودهم بذلك الثبات وعدم الفرار عند اللقاء، وهو أمر مخيف للجيش المقابل، ولكن الرسول ﷺ تبسم وقال: «تلك غنيمة المسلمين غدًا إن شاء الله»، نأخذ من هذا التفاؤل.

وحياة الرسول ﷺ كلها تفاؤل، أيًا كانت الظروف، فهو دائمًا ينظر، أو يأخذ دائمًا بالجانب المشرق فيبرزه، ويدعو به، فلم تؤثر عليه جموع ثقيف، بل قال كلمة التفاؤل، وأسمعها أصحابه رضي الله تعالىٰ عنهم، وتلك تبعث الأمل وتنشط النفس، وتثبت القلب، فإن النفوس إذا ذُكِّرت بالجانب المشرق، وأُعطيت الأمل بالسبي والغنائم الكبيرة، تشجعت وأقدمت، وكأن مشهد جمع الغنائم حاضر أمامها.

وهذا شبيه بموقفه ﷺ لما عاد إليه الصحابة -وهم سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة وخوات بن جبير-رضي الله تعالىٰ عنهم- الذين بعثهم ﷺ للتأكد من نقض قريظة للعهد يوم الأحزاب، فأخبروه أنهم نقضوا العهد، فرفع رأسه

(١) انظر: سعيد بن حجي، الكلام المنتقى مما يتعلق بكلمة التقوى (ص ٣٩) (مطبوع على الآلة).

(٢) انظر: صالح الفوزان، كتاب التوحيد (الرياض: مكتب الأثير، د. ت) (ص ٨٧).

وقال ﷺ: «أبشروا يا معشر المؤمنين بنصر الله تعالىٰ وعونه». فإذا اشتدت المواقف وتكالب الأعداء، وتعلقت القلوب بالله، جاء النصر، وكان الرسول ﷺ حريصًا في ذاك اليوم علىٰ بث الطمأنينة، والتفاؤل أمام الصحابة، رضي الله تعالىٰ عنهم.

ثامنًا: لما طلب الرسول ﷺ رجلًا يحرس قال أنس بن أبي مرثد الغنوي -رضي الله تعالىٰ عنه-: أنا يا رسول الله، فأمره الرسول ﷺ أن يركب الفرس فركبه في أول الليل، واستمر كل الليل يتجول في الوادي يحرس حتىٰ أصبح، وهنا أقف وقفات سريعة:

١. إن الرسول ﷺ سأل عنه لما اجتمعوا لصلاة الفجر، وصلىٰ وهو يرقب الوادي يفكر فيه، ولما رآه مقبلًا، وهو في الصلاة بادر بعد تسليمه مباشرةً، يبشر أصحابه، قائلًا: أبشروا فقد جاء فارسكم! ما أعظم رعاية الرسول ﷺ لصحبه وعنايته بهم، وسؤاله عنهم، ومتابعته أحوالهم، وفرحه بسلامتهم، ولذلك أحبوه حبًا فاق محبتهم لأنفسهم، فاللهم صلِ علىٰ نبينا محمد صلاة طيبة مباركة متجددة بتجدد الأوقات، واجعلنا في زمرة المحبين له أعلىٰ المحبة، المتبعين لسنته، المتمسكين بهديه، واحشرنا تحت لوائه، وأسقنا بيده من حوضه، وارزقنا شفاعته.

٢. إن الرسول ﷺ سأله: «هل نزلت الليلة؟»، أي هل نزلت من علىٰ الفرس؟ أم قضيت الليل كله تحرس، وأنت علىٰ الفرس، فأجاب أنس -رضي الله تعالىٰ عنه- قائلًا: لا، إلا مصليًا أو قاضيًا حاجة. أي أنه استمر كل الليل لم ينزل إلا لأحد هذين الأمرين، الصلاة، أو قضاء حاجة، ونأخذ من هذا انضباط الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- في أعمالهم ولو غابوا عن أعين قائدهم، وهذا شأن المؤمن فهو يعمل تحت رقابة الله جل شأنه، وليس تحت رقابة البشر، والأمر الثاني أن الرسول ﷺ بشره ببشرىٰ عظيمة قائلًا له: «قد أوجبت فلا عليك أن لا تعمل بعده»، قال في عون المعبود شرح سنن أبي داود: (قد أوجبت) أي عملت عملًا يوجب لك الجنة،

(فلا عليك إلخ)، أي لا ضرر ولا جناح عليك في ترك العمل بعد هذه الحراسة لأنها تكفيك لدخول الجنة)[1].

وهذا يفتح للمسلم أملًا عظيمًا أن يوفقه الله -عز وجل- كما وفق الله هذا الصحابي- لعمل تكتب له فيه الجنة، عملٍ مباركٍ يخدم به المسلمين، يجلب لهم به خيرًا عامًا، أو يدفع عنهم شرًا عامًا، أو يكون له أثر صالح في نفع الأمة، وفضل الله واسع، ولا تحتقر نفسك، وعليك السعي، ولا تدري أين التوفيق والبركات.

تاسعًا: من مفاجأة الكفار للمسلمين، واختلاط أمر المسلمين ثم انهزامهم، ولم يثبت مع رسول الله ﷺ إلا قلة من المؤمنين، درس عملي للمسلمين في كل زمان ومكان، أن لا تنخدعوا بقوتكم ولا بما عندكم، فهاهم هنا المسلمون الذين قال عنهم البعض إنا لن نغلب اليوم من قلة، ها هم ينهزمون في أول لحظات اللقاء بالعدو، وكأن الأمر تأديب وتربية للقلوب[2]. أن لا تلتفت إلىٰ غير الله، وأنها متىٰ التفتت القلوب إلىٰ غيره فمصيرها هو مصير جيش حنين في بداية الأمر: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة:٢٥].

وبعد أن تحقق الدرس، ووصلت الرسالة، وفهم الناس عمليا أنه لن تنفعهم قوتهم ولا كثرتهم، إن لم ينصرهم الله جل شأنه، حينئذ تنزل النصر من الله جل شأنه.

والله -جل شأنه- لن يتخلىٰ عن عباده المؤمنين، فهو القائل بمنه وفضله وإحسانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧]، ولكن بعد أن أرىٰ الله المؤمنين عيانًا واقعهم دون نصر الله، جاء النصر من الله، قال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ

(١) العظيم آبادي، عون المعبود شرح سنن أبي داود (٧/ ١٣١).

(٢) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (١٠/ ١٥٦).

سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٦].

وعلينا اليوم - وواقعنا مشتت، وقلوبنا ليست متعلقة بالله كما ينبغي- أن نستوعب هذا الدرس جيدًا لتنصلح حالنا، ألا إن نصر الله قريب.

عاشرًا: قوله تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦].

قال الطاهر بن عاشور -رحمه الله تعالىٰ-: (وأسند النصر إلىٰ الله بالصراحة لإظهار أن إيثار محبة الله وإن كان يُفِيتُ بعض حظوظ الدنيا، ففيه حظ الآخرة وفيه حظوظ أخرىٰ من الدنيا وهي حظوظ النصر بما فيه من تأييد الجماعة، ومن المغانم، وحماية الأمة من اعتداء أعدائها، وذلك من فضل الله، إذ آثروا محبته علىٰ محبة علائقهم الدنيوية)[1].

وقال: (وتخصيص يوم حنين بالذكر من بين أيام الحروب؛ لأن المسلمين انهزموا في أثناء النصر ثم عاد إليهم النصر، فتخصيصه بالذكر لما فيه من العبرة بحصول النصر عند امتثال أمر الله ورسوله-عليه الصلاة والسلام- وحصول الهزيمة عند إيثار الحظوظ العاجلة علىٰ الامتثال)[2].

حادي عشر: مناداة العباس -رضي الله تعالىٰ عنه- لأصحاب الشجرة وللمهاجرين وللأنصار ثم عودتهم ولم يمر إلا وقت قصير إلا والأسرىٰ بين يدي

(١) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (١٠/ ١٥٥).
(٢) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (١٠/ ١٥٥).

رسول الله ﷺ يدل علىٰ أن الفرار لم يكن بعيدًا، بل كانت مفاجأة واختلاطًا وارتباكًا وفرارًا قريبًا يسمعون فيه صوت المنادي، تحقق فيه التأديب كما في الفائدة السابقة، ثم التثبيت الرباني والنصر من الله سبحانه وتعالىٰ، يقول النووي -رحمه الله تعالىٰ-:(قال العلماء في هذا الحديث دليل علىٰ أن فرارهم لم يكن بعيدًا وأنه لم يحصل الفرار من جميعهم وإنما فتحه عليهم مَن في قلبه مرض من مسلمة أهل مكة المؤلفة ومشركيها الذين لم يكونوا أسلموا، وإنما كانت هزيمتهم فجأةً لانصبابهم عليهم دفعة واحدة ورشقهم بالسهام ولاختلاط أهل مكة معهم ممن لم يستقر الإيمان في قلبه وممن يتربص بالمسلمين الدوائر وفيهم نساء وصبيان خرجوا للغنيمة فتقدم أخِفَّاؤهم فلما رشقوهم بالنبل ولَّوا، فانقلبت أولاهم علىٰ أخراهم إلىٰ أن أنزل الله -سبحانه وتعالىٰ- سكينته علىٰ المؤمنين كما ذكر الله تعالىٰ في القرآن)[1].

ثاني عشر: لما نادىٰ العباس أصحاب بيعة الشجرة، ونادىٰ الأنصار والخزرج كانوا يبادرون إلىٰ الاستجابة والرجوع إلىٰ رسول الله ﷺ حتىٰ إذا لم يتمكن أحدهم من عطف جمله نزل عنه وتركه، ورجع بسلاحه إلىٰ رسول الله ﷺ وهذا يؤكد لنا وجوب الاستجابة لرسول الله ﷺ ويذكرنا بأهمية المبادرة إلىٰ ذلك فور سماعنا للنصوص الشرعية من الكتاب والسنة.

ثالث عشر: نلاحظ أن الرسول ﷺ وهو رؤوف رحيم بالمؤمنين لم يعنِّف أحدًا ممن فرّ عنه، بل لما قالت له أم سليم-رضي الله تعالىٰ عنها- أن يقتل الطلقاء لفرارهم قال: «إن الله قد كفىٰ وأحسن»، فالتعنيف واللوم لأمور مضت وانتهت لا سبيل إلىٰ تداركها، وبخاصة في مثل أمور الحرب التي تندهش فيها النفوس، رأىٰ الرسول ﷺ بكريم خلقه عدم إثارتها، وهكذا يحسن العفو والتجاوز والإقلال من التثريب علىٰ ما يقع من المسلم من الأخطاء التي لا يمكن تداركها ويلتمس للمسلم بعض العذر في ذلك والله أعلم.

(١) شرح صحيح مسلم (١٢/ ١١٥).

رابع عشر: مشروعية الدعاء والتوجه إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، وهو ما نرىٰ الرسول ﷺ يسلكه، وبخاصة عندما تشتد الأمور، فهو في حُنين يناشد ربه ويلحّ في الدعاء لنصر المسلمين علىٰ المشركين.

والنصر من عند الله -سبحانه وتعالىٰ- واتجاه الرسول ﷺ إلىٰ ربه في هذا الموقف العصيب كان العامل الأقوىٰ في تغيير دفة القتال لصالح المسلمين[١].

خامس عشر: لما رأىٰ الرسول ﷺ امرأة مقتولة، نهىٰ عن قتل النساء والصبيان، وهذه هي مبادئ الحرب في الإسلام، وهذه من وصايا الرسول ﷺ الدائمة للجيش كما في مسند الإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ- عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشه قال: «اخرجوا بسم الله تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع»[٢].

ولما بعث بعثا لقتل ابن أبي الحقيق أوصاهم بهذا، قال الزهري: فأخبرني ابن كعب بن مالك، عن عمه -رضي الله تعالىٰ عنه-: (أن النبي ﷺ حين بعث إلىٰ ابن أبي الحقيق بخيبر، نهىٰ عن قتل النساء والصبيان)[٣].

فالحرب في الإسلام حرب أخلاقية، والأخلاق في الإسلام لها مقامها حتىٰ مع العدو المحارب، فلا عدوان ولا ظلم، ولا إفساد، ولا يأخذ أحدًا بجريرة غيره[٤].

(١) انظر: محمد فرج، العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ (ص ٦٠٢)، دار الفكر العربي للنشر، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٧٧ م.

(٢) مسند الإمام أحمد (٤/ ٤٦١)، (رقم٢٧٢٨) وقال عنه محققو المسند: (حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٥٤)، (رقم ١٨١٥٤).

(٣) مسند الإمام أحمد (٣٩/ ٥٠٦) وقال المحقق « صحيح لغيره»

(٤) للمؤلف كتاب صغير، بعنوان: (مقدمة في القانون الدولي الإنساني في الإسلام) طبعته المفوضية الإقليمية للجنة الدولية للصليب الأحمر في الكويت عام ١٤٢٥وهو متاح على الشبكة العنكبوتية.

وهذا أيضًا يرشدنا إلىٰ رفعة مكانة حقوق الإنسان في الإسلام، ولو كان كافرًا بهذا الدين، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠]، فالإسلام يحترم الإنسان بصفته إنسانًا، أيًا كانت ديانته ومعتقده، حتىٰ في حالة الحرب، فكيف بحالات السِّلْم والمعايشة، والحرب في الإسلام حرب شريفة لا يتخلىٰ المسلم فيها عن المبادئ السامية، فالنساء والصبيان، لا شأن لهم في الحرب، فيجب أن يُكف عنهم، ولا تُقْتَل المرأةُ إلا إذا باشرت بنفسها الحرب، ولا تحمل أوزار قومها.

ومن يحفظ حقوق المرأة بوجه خاص، والإنسان بوجه عام في حالة الحرب والقتال لهو أجدر أن يحفظ حقوق الإنسان في السلم. ولقد رفع الإسلام حقوق الإنسان، حتىٰ إننا لنرىٰ -جليًا- أن حقوق الإنسان في الإسلام هي محور مقاصد الشريعة الإسلامية، نقول هذا والعالم أجمع يرىٰ ما يجري علىٰ أرض الواقع من انتهاك لحقوق المسلمين في بعض المجتمعات المتحضرة، حيث نرىٰ القتل الجماعي، وتدمير المدن والمنازل فوق سكانها دون تفريق بين نساء وأطفال وشيوخ وبين محاربين مقاتلين، والرسول ﷺ يمر بامرأة مقتولة في وقت حرب، امرأة واحدة فقط، فينكر هذا، ويواريها، وينهىٰ عن قتل النساء والصبيان، وتبعًا لذلك، فقد قال الفقهاء: (يحرم قتل النساء والصبيان إذا لم يقاتلوا)[1].

سادس عشر: كان خالد بن الوليد -رضي الله تعالىٰ عنه- ممن شارك في غزوة هوازن وكان علىٰ الخيل، لكنه جُرح، ولما علم الرسول ﷺ سار إليه بأقدامه يسأل عن خيمته حتىٰ وجده، فسأل عن حاله، واطلع علىٰ جرحه، وتفل فيه لمداواته، فالرسول ﷺ رغم عدد الجيش الذي معه، يتفقد أصحابه ويسأل عنهم ويتعاهدهم،

(١) انظر: ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري (٦/ ١٤٧)، والنووي، شرح صحيح مسلم (١٢/ ٤٨).

ثم إن خالدًا رغم ما أصيب به من جراح، نجد أنه يشارك في غزوة الطائف، وإن قارئ السيرة ليعجب من ذلك، كيف أنه -رضي الله تعالىٰ عنه- مصاب بجراحة، ومع ذلك يواصل السير إلىٰ الطائف ويشارك في حصار الطائف، لا يريد أن يفوته شيء من أجر الجهاد، رغم أن من أصابته جراحة بسبب الجهاد ممن يُلتمس له العذر لو تخلف، وهذا يُذكرني بما حصل بعد غزوة أحد عندما طارد الرسول ﷺ كفار قريش ولحقهم إلىٰ حمراء الأسد، رغم ما في الصحابة-رضي الله تعالىٰ عنهم- من جراحة كبيرة، ومع ذلك لم يتخلفوا، ونزل فيهم قول الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٧٢][١].

سابع عشر: لما لم يتمكن الرسول ﷺ من فتح حصن الطائف قيل له: (ادع الله عليهم)، فدعا لهم بالهداية ولم يَدْعُ عليهم. وهذا من كمال رأفته ورحمته ﷺ وإلا فأهل الطائف آذوا الرسول ﷺ وأخرجوه لما جاء يدعوهم إلىٰ الله ورموا عقبيه بالحجارة[٢]، ومع ذلك، دعا لهم ﷺ بالهداية وهم من ألدّ أعدائه، وهذا من دلائل شفقته ورحمته ﷺ بأمته، وقد استجاب الله دعائه فجاءوا مسلمين بعد ذلك دون عناء أو مشقة[٣]، وهكذا يحسن بالمسلم أن ينصح لله، ويتحاشىٰ الانتقام للنفس، ويدعو بهداية خصمه، بل بهداية عدوه للإسلام.

وإذا اختلفت مع شخص قريب أو بعيد فبدلًا من أن تدعو عليه، ادع الله له بالهداية، تكسب الأجر وتنتصر علىٰ الشيطان والنفس والهوىٰ، ويرتفع مقامك عند الله – جل شأنه– وتُثبت عمليًا طهارة القلب وصلاح السريرة، وهذا سلوك غائب عنا في كثير من تصرفاتنا.

---

(١) انظر: ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ١٧١).

(٢) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٥٠٤ – ٥٠٥).

(٣) انظر: إبراهيم قريبي، مرويات غزوة حنين (ص ٣٤٣).

ثامن عشر: لو احتج شخص بهذا الحديث عندما قيل للرسول ﷺ: ادع الله علىٰ ثقيف، فقال: «اللهم اهدِ ثقيفًا»[1]، علىٰ أنه لا يجوز الدعاء علىٰ الكافر؛ لأن الرسول ﷺ امتنع عن الدعاء علىٰ ثقيف ودعا لهم بالهداية، ولم يستجب لطلب بعض الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- بالدعاء عليهم، ويؤيد هذا، حديث أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قدم الطفيل وأصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم- فقالوا: يا رسول الله، إن دوسًا قد كفرت وأبت، فادع الله عليها فقيل: هلكت دوس، فقال ﷺ: «اللهم اهد دوسًا وائت بهم»[2].

والجواب أنه نقول: إنه قد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- أن الرسول ﷺ قال: «اللهم اشدد وطأتك علىٰ مضر، واجعلها عليهم كسني يوسف»[3].

ولذلك فلا بد من الجمع، وقد أدخل البخاري في صحيحه حديث الدعاء لدوس في باب (باب الدعاء للمشركين ليتألفهم). وعلق علىٰ هذا ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ- قائلًا: (وقوله: (ليتألفهم) من تفقه المصنف، إشارة منه إلىٰ الفرق بين المقامين، وأنه ﷺ كان تارة يدعو عليهم، وتارة يدعو لهم، فالحالة الأولىٰ حيث تشتد شوكتهم ويكثر أذاهم...والحالة الثانية حيث تؤمن غائلتهم ويرجىٰ تألفهم كما في قصة دوس)[4].

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢٣/ ٥٠)، (رقم ١٤٧٠٢)، وقال محققوه: (إسناده قوي على شرط مسلم). و الترمذي في سننه وقال: حديث حسن صحيح غريب، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (ص ٥٢٧)، (رقم ٨٣٠)، وقال إبراهيم العلي في صحيح السيرة (ص ٥٦٦):(ورجاله ثقات)، وانظر: أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٢١١).
(٢) صحيح مسلم (٤/ ١٩٥٧)، (رقم ٢٥٢٤).
(٣) صحيح البخاري (٢/ ٢٦)، (رقم ١٠٠٦)، وصحيح مسلم (١/ ٤٦٦)، (رقم ٦٧٥).
(٤) ابن حجر، فتح الباري (٦/ ١٠٨).

وقال قبله شيخه ابن الملقن -رحمه الله تعالىٰ-: (كان نبينا -عليه أفضل الصلاة والسلام- يحب دخول الناس في الإسلام، فكان لا يعجل بالدعاء عليهم طالما يطمع في إجابتهم إلىٰ الإسلام، بل كان يدعو لمن يرجو منه الإنابة، ومن لا يرجوه ويخشىٰ ضره وشوكته، يدعو عليه، كما دعا عليهم بسنين كسني يوسف، ودعا علىٰ صناديد قريش لكثرة أذاهم وعداوتهم، فأجيبت دعوته فيهم، فقتلوا ببدر، كما أسلم كثير ممن دعا له بالهدىٰ)[١].

وهذا يرشدنا إلىٰ أمر مهم في السيرة، أننا لكي نأخذ الدرس من دروس السيرة، لابد أن نجمع الأحداث ونقارن بينها ونخرج من مجموعها بالفائدة؛ لأن بعضها قد يكون مرتبطًا بحال دون حال، أو بعضها خاص والآخر عام، أو بعضها متقدم وبعضها متأخر... إلخ.

تاسع عشر: قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ- في الحكمة من تأخير فتح الطائف: (وكانت الحكمة الإلهية تقتضي أن يُؤَخَّرَ الفتحُ عامئذٍ لئلا يستأصلوا قتلًا؛ لأنه قد تقدم أنه -عليه السلام- لما كان خرج من الطائف فدعاهم إلىٰ الله تعالىٰ وإلىٰ أن يؤووه حتىٰ يبلغ رسالة ربه -عز وجل- وذلك بعد موت عمه أبي طالب، فردوا عليه قوله وكذَّبوه، فرجع مهمومًا لم يستفق إلا عند قرن الثعالب، فإذا هو بغمامة وإذا فيها جبريل فناداه ملك الجبال فقال: يا محمد، إن ربك يقرأ عليك السلام وقد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، فإن شئتَ أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال رسول الله: «بل أستأني بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده وحده لا يشرك به شيئًا»، فناسب قوله: بل أستأني بهم أن لا يفتح حصنهم لئلا يقتلوا عن آخرهم وأن يؤخر الفتح، ليقدموا بعد ذلك مسلمين في رمضان من العام المقبل)[٢].

---

(١) ابن الملقن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح (١٨/ ٣٠)
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية (٤/ ٣٥٢).

العشرون: يقول الشامي- رحمه الله تعالىٰ- في سبل الهدىٰ عن حكمة عطاء المؤلَّفة قلوبهم: (اقتضت حكمة الله تعالىٰ أن غنائم الكفار لما حصلت، قُسمت علىٰ من لم يتمكن الإيمان من قلبه من الطبع البشري، من محبة المال فقسمه فيهم لتطمئن قلوبهم وتجتمع علىٰ محبته؛ لأنها جُبِلَتْ علىٰ حُبّ من أحسن إليها، ومنع أهل الجهاد من كبار المجاهدين ورؤساء الأنصار مع ظهور استحقاقهم لجميعها؛ لأنه لو قسم ذلك فيهم لكان مقصورًا عليهم بخلاف قسمه علىٰ المؤلَّفة؛ لأن فيه استجلاب قلوب أتباعهم الذين كانوا يرضون إذا رضىٰ رئيسهم، فلما كان ذلك العطاء سببًا لدخولهم في الإسلام ولتقوية قلب من دخل إليه قبل، تبعهم من دونهم في الدخول، فكان ذلك مصلحة عظيمة)[١].

الواحدة والعشرون: ونأخذ أيضًا من هذا دقة نظر الرسول ﷺ وعمق معرفته بدخائل النفوس البشرية وما يُقَوِّم اعوجاجها، حيث أعطىٰ تلك العطايا السخية ومنح تلك المنح الهائلة لأناس يعادونه وكفار لم يدخلوا في دين الله بَعْدُ، وآخرين يتألف بهم قومهم لعلهم يهتدون ويسلمون، وكانت النتيجة التي توخَّاها ﷺ من تخصيص هؤلاء الذين تألفهم بهذه العطايا أن أسلموا وحَسُنَ إسلامُهم وكانوا جنودًا صادقين في الدفاع عن الإسلام[٢].

والتأليف علىٰ الإسلام بالمال كما يكون من الحاكم يكون من الأفراد، فصاحب المؤسسة يؤلف العاملين لديه من غير المسلمين علىٰ الإسلام، ومن لديه خادم أو سائق أو خادمة من غير المسلمين يسعىٰ إلىٰ تأليفهم علىٰ الإسلام، فإن النفوس جُبلت علىٰ حب من يحسن إليها، وإذا أحبت النفس شخصًا، أحبت تحقيق رغباته وإدخال السرور عليه، فإذا دعاهم للإسلام كانوا سريعي الاستجابة له.

(١) انظر: الشامي، سبل الهدى (٥/ ٥٩٥).

(٢) انظر: إبراهيم قريبي، مرويات غزوة حنين وحصار الطائف (ص ٤٠١)، و أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥١٢)

الثاني والعشرون: حكيم بن حزام -رضي الله تعالىٰ عنه- كان أحد المؤلفة قلوبهم علىٰ الإسلام، أعطاه الرسول ﷺ مائة من الإبل، فسأل الرسول ﷺ فأعطاه، ثم سأل الرسول ﷺ فأعطاه، فوقع في قلبه محبة عظيمة للرسول ﷺ يدل علىٰ ذلك أن الرسول ﷺ علَّمه درسًا في محبة المال فوقع هذا الدرس أحسن المواقع في قلبه، فأقسم للرسول ﷺ أن لا ينقص مال أحد بعد ذلك اليوم، أي لا يأخذ مالًا من أحد بعد ذلك، حتىٰ العطاء الذي يكون من الفيء، كان يرفض أخذه، فكان أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- بعد وفاة الرسول ﷺ يدعو حكيمًا ليأخذ عطاءه، فيأبىٰ ويدعوه عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- بعد ذلك، فيأبىٰ وعاش بقية حياته، علىٰ نحو ذلك، حتىٰ مات عزيزًا في خلاف معاوية ملتزمًا ما وعد به نبي الله ﷺ.

والشخص وهو يقرأ هذا الموقف العجيب، كيف تغير هذا الصحابي من كونه يسأل الرسول ﷺ مرة تلو الأخرىٰ، وفي ذلك من الإلحاح ما فيه، ثم بعد ذلك يصبح حتىٰ العطاء الذي ينال أمثاله يأبىٰ أن يأخذه.

ففيه عظمة هذا الصحابي -رضي الله تعالىٰ عنه- وثباته علىٰ المبدأ الذي التزم به رغم المدة الطويلة من فتح مكة إلىٰ عدة سنوات من خلافة معاوية، أي ما يزيد علىٰ ثلاثين عامًا وهو ثابت علىٰ المبدأ. لا يأخذ من أحد مالًا.

وفيه حسن اختيار الوقت المناسب للموعظة، فقد وعظ الرسول ﷺ حكيمًا -رضي الله تعالىٰ عنه- بعد أن أعطاه ثلاث مرات، فوقعت موقعها من نفسه، وغيرت شخصيته وصاغته رجلًا آخر، ينظر إلىٰ الدنيا غير النظرة السابقة، ولو أن الرسول ﷺ وعظه قبل العطاء، فمن المتوقع أن لا يكون لها هذا القبول الذي لقيته بعد العطاء ثلاث مرات.

وفيه وصف للدنيا بأنها خداعة حلوة خضرة، من جعلها غايته، فلن يشبع منها، مهما تحقق له، وهذا واقع في حياة بعض الناس، الذين همهم الدنيا، فمهما بلغت

أرصدتهم المالية، فلن يقفوا عند حد، عن أنس بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن لابن آدم واديًا من ذهب أحب أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله علىٰ من تاب»(١).

ثم تأمل قول المصطفىٰ ﷺ في موعظته لحكيم -رضي الله تعالىٰ عنه-: «فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه»، فسخاوة النفس سبب للبركة، والنهم سبب لمحق البركة، ومن المعلوم أن المال القليل المبارك فيه، خير من المال الكثير الذي ليس فيه بركة، إذ إن العبرة ليست في كثرة المال ولا قلته، فهو وسيلة لتحقيق سعادة، وإلا فالمال في ذاته، لا يسمن ولا يغني من جوع، لا تأكله ولا تشربه ولا تسكنه، ولو أن شخصًا في صحراء ومعه أموال طائلة، وليس عنده ما يشتريه ليأكله لم ينفعه المال، وسيموت جوعًا وعطشًا، فالمال وسيلة لتحصيل متطلبات الحياة، كالأكل والمشرب والمسكن ونحو ذلك.

فإذا لم يبارَك فيه، حرمه الله من منفعته، بأن -مثلًا- يمرض فيضيع ماله في العلاج، أو يبتلىٰ بداء لا يستطيع أن يأكل ما يشتهي، فيحرم خير المال، بل يصبح المال عبئًا عليه قلقًا من أجله يخشىٰ ذهابه، يخشىٰ عليه من السراق، أو يقع في خسارة مالية تجر له الهموم والأحزان.

فلذلك، تعد القناعة في القليل سببًا للبركة وتحصيل المنفعة، وإذا بارك الله في مال فلا حدود لبركته سبحانه.

الثالثة والعشرون: إننا إذا نظرنا إلىٰ جملة عطايا الرسول ﷺ في حنين وجدنا جملتها لكبار القوم من المؤلفة قلوبهم، وهم أغنياء، والرسول ﷺ أعطاهم، لا لحاجتهم للمال وإنما أعطاهم لمصلحة الإسلام، تأليفًا لقلوبهم علىٰ هذا الدين، وإذا أسلموا أسلم من ورائهم من الاتباع، ومن ثم، فإن العطاء للمصلحة مقدم علىٰ

(١) صحيح البخاري (٨/ ٩٣) (رقم ٦٤٣٩)، وصحيح مسلم (٢/ ٧٢٥) (رقم ١٠٤٨).

العطاء للحاجة. ونجاة الناس من النار، مقدم علىٰ إشباع بطن فقير، وهذه قاعدة في الحياة، فمصلحة الإسلام العامة مقدمة علىٰ مصلحة الأفراد الخاصة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (ولما كان عام حنين، قسم غنائم حنين بين المؤلَّفة قلوبهم من أهل نجد والطلقاء من قريش، كعيينة بن حصن، والعباس بن مرداس، والأقرع بن حابس، وأمثالهم، وبين سهيل بن عمرو وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وأبي سفيان بن حرب وابنه معاوية وأمثالهم من الطلقاء الذين أطلقهم عام الفتح، ولم يعط المهاجرين والأنصار شيئًا. أعطاهم لتتآلف بذلك قلوبهم علىٰ الإسلام، وتأليفهم عليه مصلحة عامة للمسلمين، والذين لم يعطهم وهم أفضل عنده، وهم سادات أولياء الله المتقين، وأفضل عباد الله الصالحين بعد النبيين والمرسلين، والذين أعطاهم منهم من ارتد عن الإسلام قبل موته، وعامتهم أغنياء لا فقراء، فلو كان العطاء للحاجة مقدَّمًا علىٰ العطاء للمصلحة العامة لم يعط النبي ﷺ هؤلاء الأغنياء السادة المطاعين في عشائرهم، ويدع عطاء من عنده من المهاجرين والأنصار الذين هم أحوج منهم وأفضل)(١).

الرابعة والعشرون: النجاح في كسب المخالف هذا هو النجاح الحقيقي، وهذا هو فن الدعوة إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، أما كسب الموافق فليس فيه شيء جديد، النجاح في الدعوة أن يقابلك من هو مبغض لك وللدعوة أو للدين الذي تدعو إليه، فلا يقوم من عندك إلا وقد صار الدين الذي تدعو إليه أحب الأديان إلىٰ قلبه، وصرت أنت من أحب الناس إليه.

وهذا الذي نراه في سيرة المصطفىٰ ﷺ عَرف كيف يكسب قلوب الناس ويحولهم من أعداء إلىٰ أولياء، يأتيه الكافر مبغضًا للرسول ﷺ متمنيًا التمكن منه ليقتله، فما إن يجلس عنده حتىٰ ينقلب ذلك البغض حبًا للرسول ﷺ وهذا صرح

(١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥٧٩- ٥٨٠).

به عدد من الصحابة كعمرو بن العاص وحكيم بن حزام وعمير بن وهب الجمحي، وعدي بن حاتم الطائي وغيرهم، رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين. جاؤوا إلىٰ الرسول ﷺ بعضهم يريد قتله، ثم إذا به يعود مسلمًا، يعلن شهادة التوحيد في مجلسه قبل أن يقوم، وينقلب ذلك البغض حبًا شديدًا، وبعضهم جاءه للدنيا وما يقوم من عنده إلا وقد ازدرىٰ الدنيا كلها وعرف قدرها وأقسم أن لا يسألها أحدًا من الناس.

وهذا درس للدعاة إلىٰ الله، فواجبهم كسب قلوب الناس، وإحسان التعامل مع المخالف، أيًا كان الاختلاف معه.

وبعض الناس يجعل الخلاف، بسبب سوء التعامل، يتحول إلىٰ عداوة متجذرة، وبدلًا من كسب المخالف في لقائه به، عمّق نقاط الخلاف معه، وزاد بون الشُّقة بينهما، وليس كذلك الداعية الناجح، والله الموفق.

الخامسة والعشرون: (إنّ في الدنيا أقوامًا كثيرين يقادون إلىٰ الحق من بطونهم لا من عقولهم، فكما تهدىٰ الدواب إلىٰ طريقها بحزمة برسيم تظلّ تمد إليها فَمَها، حتىٰ تدخل حظيرتها آمنة! كذلك هذه الأصناف من البشر، تحتاج إلىٰ فنون من الإغراء حتىٰ تستأنس بالإيمان وتهشّ له)[1].

السادسة والعشرون: قول الله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التوبة:٢٦-٢٧]، قال الطاهر بن عاشور -رحمه الله تعالىٰ-: (﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾، هذه إشارة إلىٰ إسلام هوازن بعد تلك الهزيمة، فإنهم جاءوا إلىٰ رسول الله ﷺ مسلمين وتائبين)[2].

(١) محمد الغزالي، فقه السيرة (ص ٣٩٤).

(٢) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (١٠/ ١٥٩).

السابعة والعشرون: لم تكن الغنائم غاية من غايات الجهاد، بل إسلام الناس أحب إليه ﷺ من أن يغنم أموالهم ويسبي نساءهم، ولذلك تأنَّىٰ في قسمة غنائم هوازن يرجو مجيئهم، وانتظر في الجعرانة قرابة العشرين يومًا، وهي مدة كافية لأن يفكر رؤساء هوازن ويعودوا لرشدهم، ويبادروا بالإسلام ويسترجعوا نساءهم وأولادهم وأموالهم، ولما تأخروا وكان الانتظار أكثر من ذلك مكلفًا للجيش، بلا بارقة أمل وفائدة من الانتظار، قسم الأموال.

ومع ذلك، لما جاءت هوازن بعد القسمة، فرح بهم الرسول ﷺ وأخبرهم أنه انتظر مجيئهم، وأن أهلهم وأموالهم خرجت من يده إلىٰ أيدي الناس، وخيَّرهم بين أهليهم أو أموالهم، ثم ساعدهم في كيفية استعادة ما سبق توزيعه بين الناس، وبدأ بنفسه وبني عبد المطلب عمليًا في إعادة ما لديهم.

وما كان للصحب الأخيار -رضي الله تعالىٰ عنهم- أن يتخلفوا عن الاقتداء به ﷺ في إعادة ما عندهم، وتخلف عن ذلك بعض الأعراب، فاشترىٰ الرسول ﷺ ما لديهم، وأمر الجميع بأن يعيدوا ما لديهم من النساء والذراري إلىٰ هوازن.

ومن يستعِد التاريخ يستحضر ما صنعه أهل الطائف بالرسول ﷺ يوم خرج إليهم وليس معه إلا مولاه زيد بن حارثة -رضي الله تعالىٰ عنه- فرموه بالحجارة وسخروا منه، ثم لما فتح الله عليه مكة، تجمعوا لحربه، ولما انتصر عليهم، كان معهم سمحًا كريمًا، همُّه مصلحة الإسلام، وكلَّ ما يعين علىٰ نشره، ولم ينتقم الرسول ﷺ لنفسه مطلقًا.

وهذا هو خلق المسلم دائمًا، يبتعد عن (الشخصنة) - إن صحت العبارة- العداوة والخلاف مع الآخرين، والسعي للانتقام، والترصد لنقاط الضعف فيهم، وإنما قاعدته السماحة والعفو والتصالح والالتقاء علىٰ مصلحة هذا الدين، وإعلاء كلمة الله، وعفا الله عما سلف.

الثامنة والعشرون: في مبادرة الرسول ﷺ إلىٰ رد ما بيده وما بأيدي بني عبد المطلب من السبي إلىٰ وفد هوازن، نأخذ سلوك القدوة في الدعوة إلىٰ الله، فالرسول ﷺ بدأ بنفسه في رد السبايا، لكي يمتثل ويقتدي به الآخرون في رد ما بأيديهم إلىٰ هوازن.

التاسعة والعشرون: من مقالة ذي الخويصرة، ندرك مدىٰ جفوة هذا الرجل وأمثاله وجرأتهم وغلظتهم، حيث خاطب الرسول ﷺ بهذا القول الذي يدل علىٰ خبث طوية وفساد معتقد وجهل مركب، وجفاء في التعامل، فلم يفقه النصوص، ولم يعرف حق الرسول ﷺ واعتد برأيه علىٰ عمىٰ وجهل وحقد وغلظة وشراسة والعياذ بالله من هذا.

الثلاثون: نأخذ أيضًا الحذر من الغلو في الدين، فإن هذا الرجل دفعه الغلو في الدين إلىٰ المروق منه، فهو يأبىٰ التسليم لله ولرسوله ﷺ ويرد علىٰ رسول الله ﷺ، ويطالبه بالعدل ويحتكم إلىٰ عقله وهواه في تحديد معنىٰ العدالة، فزاغ من حيث طلب الهدىٰ.

وتكون السلامة من الغلو بالتمسك بالنصوص، وتوقيرها وتعظيمها والوقوف عندها، وتعظيم الرسول ﷺ وما جاء به، ومعرفة مكانة السلف وفهمهم، والوقوف عند ذلك، ومعرفة أقدار العلماء ومنزلتهم وحقوقهم، فهذا هو المأمن من الزيغ، أما الاعتداد بالرأي والإزراء بالعلماء ومكانتهم، فهو انحراف في المنهج مؤذن يقينًا بالغلو في الدين، مؤدٍ بصاحبه إلىٰ الهلاك كما فعل ذو الخويصرة.

هذا الانحراف يبدأ فكرة صغيرة في الرأس، تتطور حتىٰ تتحول إلىٰ سلوك أثيم يدمر الأخضر واليابس، ويهلك الحرث والنسل والعياذ بالله.

وهذه الفئة أساءت إساءة بالغة للإسلام والمسلمين عبر العصور، ولا زالت، وصدَّت أناسًا عن الدخول في الإسلام، وأعطت العدو فرصة للتنفير من الإسلام والمسلمين.

الواحدة والثلاثون: من قصة ذي الخويصرة نأخذ صبر الرسول ﷺ وحلمه علىٰ أولئك الأعراب الجفاة الغلاظ، وتحمله لهذا الكلام الذي يقال له جهارًا أمام الناس وهو يقسم الغنائم، قسمة عظيمة، لم يحتفظ لنفسه منها بشيء، وإنما كان همه تسخيرها في تأليف قلوب الناس علىٰ هذا الدين، ثم يأتي هذا الأعرابي يتهمه بالجور في القسمة، ومع ذلك يتركه الرسول ﷺ ويخبر الناس بعلامة وآية من آيات النبوة بأنه سيأتي أناس مثل هذا الرجل يمرقون من الإسلام، محذرًا أمته منهم، معلمًا لهم كيف يتعاملون معهم.

الثانية والثلاثون: مع استحضار ما سبق، نجد أن القاضي عياض -رحمه الله تعالىٰ- ينقل قول أحد العلماء فيقول: (وقال بعض مشايخنا لعل القائل: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله وقوله: أعدل، لم يفهم النبي ﷺ منه الطعن عليه والتهمة له، وإنما رآها من وجه الغلط في الرأي وأمور الدنيا والاجتهاد في مصالح أهلها، فلم ير ذلك سبًا، ورأىٰ أنه من الأذىٰ الذي له العفو عنه والصبر عليه، فلذلك لم يعاقبه)[1] ثم بعد أن ذكر بعض الأقوال، قال: (والأظهر من هذه الوجوه مقصد الاستئلاف والمداراة علىٰ الدين لعلهم يؤمنون)[2]

الثالثة والثلاثون: من قول الرسول ﷺ لعمر، لما طلب منه أن يأذن له بقتل المنافق فقال ﷺ: «معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي»، وهذا يدل علىٰ مشروعية الدفع عن العِرْض وعدم التعرُّض لمواقف التهم، وقد رُوي « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم»[3]، ولذا فعلىٰ المسلم أن يحمي

(١) القاضي عياض، الشفا (٢/ ٢٢٨).

(٢) القاضي عياض، الشفا (٢/ ٢٢٩).

(٣) انظر: الزمخشري، الكشاف (٣/ ٢٧٣)، والعجلوني، كشف الخفاء (٢/ ٣٣٣)، وأورده عادل بن عبد القادر، منبر الإيمان(خطب جمع) (ص ١١١) موقوفًا على عائشة - رضي الله عنها -، واجتناب مواضع التهم مطلوب شرعًا في أكثر من دليل، طالع مثالا لهذا: صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٤/ ٢٧٨)، (رقم ٢٠٣٥) (حديث صفية رضي الله عنها)، وتعليق ابن حجر في الفتح (٢/ ٣٣٦) و (٤/ ٢٨٠).

عِرْضَه من أن يتحدث الناس فيه، وهو ما نستنبطه هنا من حرص الرسول ﷺ علىٰ عدم إتاحة الفرصة لمتحدث ينال من هذا الدين مع تطبيق قاعدة: (درء المفسدة مقدَّم علىٰ جلب المصلحة)، فالمفسدة التي تترتب علىٰ قتل هذا الرجل أعظم من المصلحة المتحققة من قتله، ومن ذلك حديث الناس، حديث الشامت أنه يقتل أصحابه؛ لأن حقيقة هذا الرجل ليست ظاهرة للناس، والله أعلم.

الرابعة والثلاثون: قال ابن عبد البر –رحمه الله تعالىٰ–: (سئل مالك –رحمه الله تعالىٰ– عن الزندقة؟ فقال: ما كان عليه المنافقون علىٰ عهد رسول الله ﷺ من إظهار الإيمان وكتمان الكفر هو الزندقة عندنا اليوم. قيل لمالك: فلِمَ يُقتل الزنديق رغم أن رسول الله ﷺ لم يقتل المنافقين وقد عرفهم؟ فقال: إن رسول الله ﷺ لو قتله بعلمه فيهم وهم يظهرون الإيمان لكان ذريعة إلىٰ أن يقول الناس يقتلهم للضغائن أو لما شاء الله غير ذلك فيمتنع الناس من الدخول في الإسلام. هذا معنىٰ قوله)[1].

وهذا الأمر مكمل لحديث عائشة –رضي الله عنها– قالت: سألت النبي ﷺ عن الجدر أمن البيت هو؟ قال: «نعم» قلت: فما لهم لم يدخلوه في البيت؟ قال: «إن قومك قصرت بهم النفقة»، قلت: فما شأن بابه مرتفعا؟ قال: «فعل ذلك قومك، ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا، ولولا أن قومك حديث عهدهم بالجاهلية، فأخاف أن تنكر قلوبهم، أن أدخل الجدر في البيت، وأن ألصق بابه بالأرض»[2]. فحديث عائشة –رضي الله تعالىٰ عنها– يراعي مفسدة الخروج من الدين، وحديث ذي الخويصرة يراعي مفسدة عدم الدخول في الدين. وهذا من الفقه العظيم في السياسة الشرعية.

---

(١) ابن عبد البر (١٠/ ١٥٤) الطبعة المغربية.

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري (٢/ ١٤٦)، (رقم ١٥٨٤) الطبعة السلطانية، وصحيح مسلم (٢/ ٩٧٣)، (رقم ١٣٣٣).

الخامسة والثلاثون: كان عدم إعطاء الرسول ﷺ للأنصار من الغنائم، ثقة منه بقوة إيمانهم وسخاوة نفوسهم، وهذه تزكية عظيمة من الرسول ﷺ لهم، وأعطىٰ الغنائمَ أناسًا يخاف هلعهم وجزعهم ويتألفهم علىٰ الإسلام[1]. فهو ﷺ يقول لهم: «لا تظنون أني أرخصتكم»، بل ذهب الناس بالشاة والبعير، وذهبتم برسول الله ﷺ يا ترىٰ ماذا سيكون موقف من يقال له هذا القول؟ لقد بكىٰ الأنصار، وحقًا لهم أن يبكوا فرحًا وغبطة بهذه المقارنة، وبهذه المنزلة التي عرفوها لهم عند رسول الله ﷺ وواللهِ لو ذاب أحدهم فرحًا وسرورًا بهذا القول، لما لامه أحد. فكيف إذا أخضل لحيته بكاءً من الفرح، الناس لهم الشاة والبعير، والأنصار لهم رسول الله ﷺ.

السادسة والثلاثون: إن الرسول ﷺ لم يعاتبهم، بل كان يجيب عنهم، قال ﷺ: «أما والله لو شئتم لقلتم فلصَدَقْتُم ولصُدِّقْتُم أتيتنا مُكَذَّبًا فصدَّقناك، ومخذولًا فنصرناك وطريدًا فآويناك وعائلًا فآسيناك»، لقد كان الرسول ﷺ حريصًا علىٰ إزالة كل ما في نفوسهم من شبهة أو استشكال حتىٰ يظهر لهم السبب الذي جعله يعطي الغنائم للمؤلفة قلوبهم دون الأنصار.

السابعة والثلاثون: نأخذ من خطبة الرسول ﷺ في الأنصار مشروعية الخطبة، يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وفيه مشروعية الخطبة عند الأمر الذي يحدث سواء كان خاصًا أم عامًا)[2]، ولقد خطب النبي ﷺ في الأنصار خطبة بليغة، ما سمع في باب الاسترضاء أروع من هذه الخطبة البليغة الجامعة بين الحق والصراحة والرقة والاستعطاف[3]، عليه صلوات الله وسلامه المتجددة بتجدد الأوقات إلىٰ يوم الدين.

(١) انظر: إبراهيم قريبي، مرويات غزوة حنين وحصار الطائف (ص ٤١٥).
(٢) ابن حجر، فتح الباري (٨/ ٥٢).
(٣) انظر: أبو شهبة، السيرة النبوية (٢/ ٤٨٤).

الثامنة والثلاثون: في خطبة الرسول ﷺ في الأنصار نأخذ (تسلية من فاته شيء من الدنيا بما حصل له من ثواب الآخرة)[1].

التاسعة والثلاثون: فيه فضيلة للأنصار بسرعة رجوعهم إلىٰ الحق وتسليمهم له فور تبيين الرسول ﷺ لهم، وحسن إنصاتهم وأدبهم في مخاطبة الرسول ﷺ وإجابته حين كان يلقي عليهم الأسئلة. وقد نقلت من قبل قول بعض العلماء: (إن الرجوع إلىٰ الحق من جملة الدين)[2]، ينبغي للمؤمن أن لا يستنكف عن الرجوع إلىٰ الحق إذا تبين له.

الأربعون: فيه أهمية إزالة الشبهة عن من اشتبه عليه أمر، سواء كان ذلك بأمر عام فيكون البيان عامًا، أو بأمر خاص فيكون البيان خاصًا.

وما أجمل المصارحة والوضوح لإزالة ما في النفوس من عتب، ولو تصارح الناس فيما بينهم، وأوضحوا بعض مواقفهم التي فيها عتب، لانتهت الكثير من المشكلات.

ويقول البعض: إذا كنتُ مصيبًا في تصرفي، فلا أبالي بكلام الناس، فيقال له: هذا خطأ، بل عليك أن تُبيِّن للناس وجه تصرفك، وتزيل ما لديهم من شبهة، وتوضح لهم وجهة نظرك، ومستندك في تصرفك، وتدفع عن عرضك، وتصلح القلوب، وتبعد سوء الظن في المجتمع.

وجاءت المصارحة من الرسول الكريم ﷺ حينما خطب في الأنصار تلك الخطبة العظيمة البليغة، وجاءت أيضًا من سعد بن عبادة -رضي الله تعالىٰ عنه- عندما نقل للرسول ﷺ وجهة نظر الأنصار، وأخبره بما في نفوسهم.

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٨/ ٥٢).

(٢) العيني، عمدة القاري (١/ ٦٦).

وفيه أيضًا المصارحة بأن هذا رأي شبابهم، لا رأي شيوخهم، ومعروف في الغالب أن رأي الشيوخ والكبار فقهًا وعلمًا وعملًا وخبرة وتقىٰ أفضل من رأي الشباب.

الواحدة والأربعون: في قول الرسول ﷺ: «إن قريشًا حديث عهد بجاهلية ومصيبة، وإني أردت أن أجبرهم وأتألفهم»، فائدة عظيمة في تأليف الناس، وتقدير نفسياتهم، فقريش أصابها مصاب عظيم بهذا الفتح، وهو حتىٰ إن كان نعمة من الله عليهم، بل هي أعظم النعم عليهم، لكنها في نظرهم، كسر عظيم لجاههم وسلطانهم، وتفرق لكبرائهم الذين بقوا علىٰ الشرك، فأراد الرسول ﷺ أن يجبر ما يعتقدونه مصابًا، ليذهب ما في نفوسهم، ويخفف وقع الأمر عليهم بهذه العطايا، وهو مطلب نفسي ينبغي لنا أن نلحظه في تعاملنا في جبر النفوس المكسورة ولو بحق، والسعي إلىٰ التخفيف عنها، وهذا خلق إسلامي رفيع لا يدركه إلا من كان ذا حظ عظيم.

الثانية والأربعون: قال أحد الأشخاص لرسول الله ﷺ: إنك أعطيت عيينة والأقرع وتركت جُعيلًا الضمري وقصده بذلك تذكير الرسول ﷺ بجعيل، فقال الرسول ﷺ هذه المقالة العظيمة، التي من استحضرها لم يغبط شخصًا علىٰ مكانة دنيوية، ورنا بقصده إلىٰ الله، وطلب المنزلة عنده، اقرأ جواب الرسول ﷺ الصادق المصدوق- وهو يقسم ﷺ علىٰ هذا الجواب: «أما والذي نفس محمد بيده، لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض[1] كلهم مثل عيينة بن حصن والأقرع بن حابس، ولكني تألفتهما ليسلما، ووكلت جعيل بن سراقة إلىٰ إسلامه»، فلا تغرك المنازل الدنيوية والمناصب، فما هي إلا غرور، يتبعه ندامة، واطلب المنزلة عند الله جل شأنه. وكم من شخص بيننا لا نأبه به، هو خير من طلاع الأرض ممن خدعته المناصب.

(١) طلاع الأرض: ما يملؤها حتى يطلع عنها ويسيل.

ثم إن هذا القول من الرسول ﷺ يُقرر به أن الأمر ليس خاصًا بالأنصار، بل إنه وَكَلَ غيرهم مما شابهم إلىٰ إيمانه، منهم هذا الصحابي الغفاري، رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه.

الثالثة والأربعون: في وعد الرسول ﷺ لمالك بن عوف النصري إن جاء مسلمًا سيعيد له الرسول ﷺ أهله وماله ومائة من الإبل، يفيدنا هذا أمرين:

الأول: أن الغاية من الجهاد إسلام الناس وليس الغنائم والمكاسب المالية، فالرسول ﷺ يَعِد زعيم الطائف إن أسلم أن يرد عليه أهله وماله ومائة من الإبل مكافأة له وترغيبًا له للدخول في الإسلام، ليبين له الرسول ﷺ مدىٰ الحرص عليه وعلىٰ إسلامه وأن لا رغبة في استرقاق أهله ومصادرة ماله. وسبقت الإشارة إلىٰ مثل هذا.

الثاني: هذا أسلوب دعوي عظيم سلكه الرسول ﷺ لتأليف هذا الزعيم العربي المصاب، وأسلوب تأليف القلوب سلكه الرسول ﷺ وبخاصة في غزوة حنين التي أعطىٰ فيها العطايا العظام لتأليف قلوب كبار الأعراب علىٰ الإسلام طعمًا في إسلامهم وإسلام من ورائهم، ولذلك ينبغي للشخص أن يعي مرامي العطايا التي يبذلها الإمام، للدول ولرؤساء الدول، وللكبراء في المجتمعات، بهدف تحقيق مصالح عامة للمسلمين، ومصالح خاصة للبلد نفسه.

الرابعة والأربعون: قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (اقتضت حكمة الله أن فتح مكة كان سببًا لدخول كثير من قبائل العرب في الإسلام وكانوا يقولون: دعوه وقومه فإن غلبهم دخلنا في دينه وإن غلبوه كفونا أمره، فلما فتح الله عليه استمر بعضهم علىٰ ضلاله، فجمعوا له وتأهبوا لحربه، وكان من الحكمة في ذلك أن يظهر أن الله نصر رسوله لا بكثرة من دخل في دينه من القبائل ولا بانكفاف قومه عن قتاله)[١].

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٨/ ٤٩).

الخامسة والأربعون: يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- عن غزوة حُنَيْن: (ومنها أن الله -سبحانه وتعالىٰ- افتتح غزو العرب بغزوة بدر وختم غزوهم بغزوة حُنَيْن، ولهذا يقرن بين هاتين الغزاتين بالذكر فيقال: بدر وحُنَيْن، وإن كان بينهما سبع سنين، والملائكة قاتلت بأنفسهم مع المسلمين في هاتين الغزاتين[1]، والنبي ﷺ رمىٰ في وجوه المشركين بالحصباء فيهما، وبهاتين الغزاتين طفئت جمرة العرب لغزو رسول الله ﷺ والمسلمين. فالأولىٰ خوفتهم وكسرت من حدهم والثانية استفرغت قواهم واستنفذت سهامهم وأذلت جمعهم، حتىٰ لم يجدوا بدًا من الدخول في دين الله[2].

وقد كان من خصائص حُنَيْن أنها كانت المعركةَ الفاصلةَ الأخيرةَ بين المسلمين والمشركين في جزيرة العرب كما كانت بدرٌ الكبرىٰ المعركةَ الفاصلةَ الأولىٰ بين الطائفتين[3].

السادسة والأربعون: في سماع الرسول ﷺ لأبي محذورة وهو يقلد المؤذن استهزاءً، وكان لا يزال علىٰ شركه شابًا صغيرًا، ثم طلب الرسول ﷺ إحضاره، وتلقينه كلمات الأذان، والإعجاب بصوته ودعوته إلىٰ الإسلام وإسلامه وتعيينه مؤذنًا في المسجد الحرام فيه فوائد:

١. من نِعم الله الصوت الندي، وهو هبة من الله -سبحانه وتعالىٰ- لبعض عباده، عن أبي موسىٰ الأشعري -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رسول الله ﷺ قال له: «لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة، لقد أوتيتَ مزمارًا من مزامير آل داود»[4].

(١) يظهر أن ابن القيم -رحمه الله تعالى- يرى أن الملائكة قاتلت في غزوة حنين، وقد ذكرتُ من قبل أن الملائكة لم تقاتل إلا في بدر، أما في غير ذلك فكانت للتثبيت دون مباشرة القتال، والله أعلم.

(٢) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٤٧٩).

(٣) إبراهيم قريبي، مرويات غزوة حنين (١/ ١٨٥).

(٤) صحيح البخاري (٦/ ١٩٥)، (رقم ٥٠٤٨)، وصحيح مسلم واللفظ له (١/ ٥٤٦)، (رقم ٧٩٣).

هذا الجمال لا يمكن أن يُكتسب، وإنما هبة من الله -سبحانه وتعالىٰ- يختص به من يشاء من عباده.

٢. ما أعظم هذه النعمة حينما تُسَخَّر في طاعة الله تعالىٰ! فبلال -رضي الله عنه- صار مؤذن رسول الله ﷺ لكونه أندىٰ صوتًا كما قال ذلك رسول الله-ﷺ[١].

٣. وما أقبح البلاء حينما تُسَخَّر في معصية الله -جل شأنه- ليصبح الشخص بها مشهورًا بالغناء والمجون، ومجالس لا يذكر فيها اسم الله سبحانه وتعالىٰ.

٤. وقد أكرم الله هذا الصحابي الشاب؛ بسبب صوته الندي أن كان مؤذنًا في المسجد الحرام خمسين سنة، ثم توارثت ذريته هذا الفضل من بعده أكثر من قرنين؛ بسبب بركة هذه الطاعة.

٥. وأنت أيها القارئ لا تخلو من نعمة وهبك الله إياها، ليس لك يد في كسبها، وغيرك يتمناها، فسخرها في طاعة الله، تنل بركتها أنت ومن خلفك.

٦. أسلوب الدعوة لهذا الشاب الذي جمع الرسول ﷺ بين إظهار الإعجاب به، والدعاء له وترغيبه بالمال، فكان لها الأثر في إسلامه.

٧. علىٰ الأب بوجه خاص، وعلىٰ مسؤولي التربية والتعليم بوجه عام، البحث عن أصحاب المواهب، والكشف عنهم، وتشجيعهم وتمكينهم من تنمية مواهبهم، والاستفادة منها في ما ينفع المجتمع، ويخدم الأمة، فإهمالهم تضييع لثروات، وإهدار لقدرات مهمة لا تقدر بثمن.

---

(١) أخرج أبو داود في سننه حديث عبد الله بن زيد -رضي الله تعالى عنه- في رؤيا الأذان وفيه قول الرسول ﷺ «إنها لرؤيا حق إن شاء الله فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت فليؤذن به فإنه أندى صوتا منك» (رقم ٤٩٩) وقال الألباني -رحمه الله تعالى- « (حديث عبد الله بن زيد) حسن صحيح، (رواية ابن إسحاق عن الزهري) صحيح، (رواية معمر ويونس عن الزهري) صحيح، لكن الأصح تربيع التكبير»

السابعة والأربعون: في مجيء وفد ثقيف إلىٰ الرسول ﷺ وما جرىٰ معهم من حوار ثم إسلامهم نأخذ منه ما يلي:

١. (استجابة الله -جل شأنه- دعاء الرسول ﷺ لثقيف أن يهديهم ويأتي بهم، وقد حاربوه وقاتلوه، وقتلوا جماعة من أصحابه، وقتلوا رسوله الذي أرسله إليهم يدعوهم إلىٰ الله، ومع ذلك، دعا لهم ولم يدعُ عليهم، وهذا من كمال رأفته ورحمته ونصيحته صلوات الله وسلامه عليه)[١].

٢. في طلب أبي بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- من المغيرة -رضي الله تعالىٰ عنه- أن يؤثره بالبشرىٰ لرسول الله ﷺ بقدوم وفد ثقيف فائدة مهمة في بيان جواز الإيثار بالقرب، مع أنه من المتقرر عند بعض الفقهاء قاعدة (يكره الإيثار بالقرب)[٢]، ولكن من يقرأ فعل أبي بكر والمغيرة -رضي الله تعالىٰ عنهما- وأن أبا بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- طلب الإيثار، والمغيرة وافق علىٰ ذلك يستنتج جواز هذا الأمر طلبًا وموافقة، يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وهذا يدل علىٰ أنه يجوز للرجل أن يسأل أخاه أن يؤثره بقربة من القرب، وأنه يجوز للرجل أن يؤثر بها أخاه، وقول من قال من الفقهاء: لا يجوز الإيثار بالقرب ولا يصح. وقد آثرت عائشة - رضي الله تعالىٰ عنها- عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه- بدفنه في بيتها جوار النبي ﷺ وسألها عمر ذلك، فلم تكره له السؤال، ولا لها البذل، وعلىٰ هذا، فإذا سأل الرجل غيره أن يؤثره بمقامه في الصف الأول، لم يكره له السؤال، ولا لذلك البذل ونظائره. ومن تأمل سيرة الصحابة، وجدهم غير كارهين لذلك، ولا ممتنعين منه، وهل هذا إلا كرم وسخاء، وإيثار علىٰ النفس، بما هو أعظم محبوباتها، تفريحًا لأخيه المسلم، وتعظيمًا لقدره، وإجابةً له إلىٰ ما سأله، وترغيبًا له في الخير،

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٤٤٢).

(٢) انظر: السيوطي، الأشباه والنظائر (!/ ١١٦) وقال: «القاعدة الثالثة: الإيثار في القرب مكروه وفي غيرها محبوب» ثم ذكر من قال بذلك من فقهاء الشافعية رحمهم الله تعالى.

وقد يكون ثواب كل واحد من هذه الخصال راجحًا علىٰ ثواب تلك القربة، فيكون المؤثر بها ممن تاجر فبذل قربة وأخذ أضعافها، وعلىٰ هذا، فلا يمتنع أن يؤثر صاحب الماء بمائه أن يتوضأ به ويتيمم هو إذا كان لا بد من تيمم أحدهما، فآثر أخاه وحاز فضيلة الإيثار وفضيلة الطهر بالتراب، ولا يمنع هذا كتاب ولا سنة، ولا مكارم أخلاق، وعلىٰ هذا، فإذا اشتد العطش بجماعة وعاينوا التلف، ومع بعضهم ماء، فآثر علىٰ نفسه واستسلم للموت، كان ذلك جائزًا، ولم يقل إنه قاتل لنفسه، ولا أنه فعل محرمًا، بل هذا غاية الجود والسخاء، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩]، وقد جرىٰ هذا بعينه لجماعة من الصحابة في فتوح الشام، وعد ذلك من مناقبهم وفضائلهم، وهل إهداء القرب المجمع عليها والمتنازع فيها إلىٰ الميت إلا إيثار بثوابها، وهو عين الإيثار بالقرب، فأي فرق بين أن يؤثره بفعلها ليحرز ثوابها، وبين أن يعمل ثم يؤثره بثوابها)(١). وقد نقلت النص بكامله مع طوله لأهميته ولأنه ذكر أمثلة جيدة تفتح أبوابًا أخلاقية سلوكية في التعامل بين الناس ترفع مقام التواد بينهم.

٣. حرص أبي بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- علىٰ الفوز بإدخال السرور علىٰ رسول الله ﷺ وتوقير المغيرة -رضي الله تعالىٰ عنه- لأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- باستجابته لطلبه.

٤. (أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة علىٰ هدمها وإبطالها يومًا واحدًا، فإنها شعائر الكفر والشرك، وهي أعظم المنكرات، فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة، وهكذا حكم المشاهد التي بُنيت علىٰ القبور التي اتخذت أوثانًا وطواغيت تعبد من دون الله، والأحجار التي تقصد للتعظيم والتبرك والنذر والتقبيل لا يجوز إبقاء شيء منها علىٰ وجه الأرض مع القدرة علىٰ إزالتها،

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٤٤٢ -٤٤٣).

وكثير منها بمنزلة اللات والعزىٰ، ومناة الثالثة الأخرىٰ، أو أعظم شركًا عندها)[١].

٥. أن الرسول ﷺ لما أَمَّرَ عثمانَ بنَ أبي العاص علىٰ الطائف أَمَرَه أن يبني مسجدًا محل طواغيتهم (والحديث يدل علىٰ جواز جعل الكنائس والبِيَع وأمكنة الأصنام مساجدَ، وكذلك فعل الصحابة -رضي الله عنهم- حينما فتحوا البلاد جعلوا متعبداتهم متعبدات للمسلمين وغيروا محاريبها، وإنما صنع هذا لانتهاك الكفر وإيذاء الكفار، حيث عبدوا غير الله هنا)[٢]، وفي ذلك إغاظة للكفار، وإظهار للإسلام، والله -سبحانه وتعالىٰ- يقول: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩]، وقد قال ابن تيمية-رحمه الله تعالىٰ-: (فأما أماكن الكفر والمعاصي التي لم يكن فيها عذاب، فإذا جُعِلَتْ مكانًا للإيمان أو الطاعة فهذا حسن كما أمر النبي ﷺ أهل الطائف أن يجعلوا المسجد مكان طواغيتهم وأمر أهل اليمامة أن يتخذوا المسجد مكان بيعة كانت عندهم)[٣].

٦. كان عثمان بن أبي العاص -رضي الله تعالىٰ عنه- هو أصغر وفد ثقيف الستة، لكنه كان أحرصهم علىٰ القرآن الكريم والعلم، وكان يتردد علىٰ الرسول ﷺ يتعلم منه ويسأله، فلما أرادوا العودة إلىٰ الطائف جعله أميرًا عليهم وإمامًا لهم في الصلاة، وهذا هو المعيار الحقيقي في التفاضل، وهذا هو الميدان الذي ينبغي أن يتنافس فيه المتنافسون، قال تعالىٰ: ﴿قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ

(١) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٤٤٣).

(٢) شمس الحق العظيم آبادي، عون المعبود (٢/ ٤٤٧)، وانظر: السهارنفوري، بذل المجهود (٣/ ٢٨١). وقد سبق الإشارة إلى هذا في فوائد فتح مكة.

(٣) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٣٣ - ٢٣٤).

﴿أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٤٧]. فجعل السبب الأول للتفضيل هو العلم.

٧. (جواز إنزال المشرك في المسجد، ولا سيما إذا كان يرجو إسلامه، وتمكينه من سماع القرآن، ومشاهدة أهل الإسلام وعبادتهم)[١].

٨. وأختم هذه الفوائد من مجيء وفد ثقيف، بفائدة أراها من أهم الفوائد، وهي أن وفد ثقيف حاور الرسول ﷺ وطلب أو اشترط بعض الشروط، لكي يُسلم، وبعض هذه الشروط رفضها الرسول ﷺ وبعضها وجدت شيئًا من المرونة، [٢] فقال رسولُ الله ﷺ: «لكم أن لا تُحشَروا ولا تُعشَروا، ولا خيرَ في دِين ليس فيه ركوعٌ»، وعن وهب قال: سألت جابرًا -رضي الله تعالىٰ عنه- عن شأن ثقيف إذ بايعت قال: اشترطت علىٰ النبي ﷺ أن لا صدقة عليها ولا جهاد وأنه سمع النبي ﷺ بعد ذلك يقول: «سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا»[٣].

وفي هذا العصر، يواجه بعض الدعاة قبائل - كما في إفريقيا- تقبل الدخول في الإسلام، عند دعوتها، لكن لديهم عادات وأعراف متأصلة في مطعمهم أو مشربهم،

(١) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٥٢٥).

(٢) قال في عون المعبود (٨/ ١٨٥-١٨٦) قوله: «(أن لا يحشروا) بصيغة المجهول أي لا يندبون إلى الغزو ولا تضرب عليهم البعوث وقيل لا يحشرون إلى عامل الزكاة بل يأخذ صدقاتهم في أماكنهم كذا في المجمع وقال الخطابي معناه الحشر في الجهاد والنفير له (ولا يعشروا) بصيغة المجهول أي لا يؤخذ عشر أموالهم وقيل أرادوا الصدقة الواجبة قاله في المجمع (ولا يجبوا) بالجيم وشدة الموحدة. قال في المجمع في مادة جبوا وفي حديث ثقيف ولا يجبوا أصل التجبية أن يقوم قيام الراكع وقيل أن يضع يديه على ركبتيه وهو قائم وقيل السجود وأرادوا أن لا يصلوا والأول أنسب لقوله لا خير إلخ وأريد به الصلاة مجازا انتهى قال الخطابي قوله لا يجبوا أي لا يصلوا وأصل التجبية أن يكب الإنسان على مقدمه ويرفع مؤخره».

(٣) سنن أبي دواد (٣٠٢٥) وصححه الألباني في الصحيحة (١٨٨٨).

أو في تعاملهم فيما بينهم يصعب التخلص الفوري منها، ولو اشترط الداعية عليهم التخلي عنها فورًا، يغلب علىٰ الظن أن تكون نتيجة ذلك عدم إسلامهم، فلا يدري هل يقبل إسلامهم، ويؤجل ما يجد أنه سيكون عائقًا دون دخولهم في الإسلام، رجاء أن تصلح أحوالهم لاحقًا، وأن يستجيبوا بعد أن يلامس الإيمان قلوبهم، ويرتاضوا عليهم، أو يقف الموقف الآخر مع ما فيه من تبعة.

يرىٰ البعض القول الأول وهو أن يقبل منهم ما تيسر ويؤجل ما يرىٰ أنه سيكون سببًا في عدم إسلامهم، ويستند فيه إلىٰ:

١. أن تشريع الأحكام جاء متدرجًا سواء في العبادات أو في نزول تحريم المحرمات، فالصلاة ورد التدرج في تشريعها لم تستقر إلا بعد الهجرة، ركعتان في السفر وأربع في الإقامة، وكان الصيام مفروضًا يوم عاشوراء، ثم استقر شرع صيام رمضان، والجهاد كذلك، كان ممنوعًا ثم مأذونًا به ثم دفاعًا عن النفس ثم انتهىٰ إلىٰ التشريع الحالي من مقاتلة المشركين كافة، كما يقاتلون المسلمين كافة، وفي تحريم الخمر نزل التحريم علىٰ أربع مراحل.

٢. تقول أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-: (إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتىٰ إذا ثاب الناس إلىٰ الإسلام، نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا)[١]. ونفسيات الناس واحدة حتىٰ إن اختلف الزمان أو المكان.

٣. وعن حكيم -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: (بايعت رسول الله ﷺ أن لا أخِرَّ إلا قائمًا)[٢].

(١) صحيح البخاري (٦/ ١٨٥)، (رقم ٤٩٩٣).

(٢) سنن النسائي (٢/ ٢٠٥)، (رقم ١٠٨٤) وقال الألباني: «صحيح الإسناد».

٤. عن أنس بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «أَسْلِمْ». قال: أجدني كارهًا. قال: «أسلم وإن كنت كارهًا»[١].

٥. هذا من باب سياسة الدعوة ومراعاة جلب المصالح ودفع المفاسد، فدخولهم في الإسلام مصلحة كبرىٰ، يتحمل في سبيلها الكثير من المفاسد التي يرجىٰ أيضًا زوالها. وتؤجل إلىٰ استقرار العقيدة في النفوس، ثم من خلال التعليم يُبين للناس ما يجب عليهم بالتدرج.

ومع ذلك، يقولون لا يُترك هذا الأمر لاجتهاد الأفراد من الدعاة، بل يرجع فيه إلىٰ أصحاب العلم في البلد، إما المفتي إذا وجد في البلد؛ المفتي المؤهل، وإما المجلس الإسلامي المشرف علىٰ أمور الدعوة في البلد، ويؤخذ رأيه، حتىٰ لا يتسع الأمر، ويُتهاون في معاصٍ كبيرة، يُقَر الناس عليها، باسم مصلحة الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ.

والأمر محل اجتهاد، والله أعلم بالصواب.

(١) الإمام أحمد، المسند (١٩/ ١١٧)، (رقم ١٢٠٦١)، وقال محققوه: «إسناده صحيح على شرط الشيخين. وأخرجه الضياء في «المختارة» (١٩٩٠) من طريق عبد الله بن أحمد بن حنبل، عن أبيه، بهذا الإسناد».

المبحث الثالث

فقه السيرة في غزوة تبوك

أمر الرسول ﷺ أصحابه في شهر رجب من العام التاسع بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك في زمانٍ من عسرة الناس وشدة من الحر، وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار في المدينة، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص علىٰ الحال من الزمان الذي هم عليه.

وكان الرسول ﷺ قلَّما يخرج في غزوة إلا كنىٰ عنها، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يقصد، إلا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بيَّنها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو، ليتأهب الناس لذلك أهبته، فأمر بالجهاز، وأخبرهم أنه يريد الروم[1]. وكانت هذه الغزوة هي آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ[2].

أما سبب هذه الغزوة، فقد تعددت الأسباب التي ذكرها أهل السير والتاريخ، وقيل إن سبب الغزوة أن الرسول ﷺ بَلَغَه من الأنباط الذين يقدمون بالزيت إلىٰ المدينة، أن الروم تجمعت بالشام مع هرقل لحرب المسلمين[3]، ومما يؤيد هذا حديث عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- في طلاق الرسول ﷺ لنسائه وفيه: (إني كنت وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد، وهي من عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول علىٰ النبي ﷺ فينزل يومًا وأنزل يومًا، فإذا نزلت، جئته من خبر ذلك اليوم

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية المطبوعة مع الروض الأنف (٤/ ١٣٧).
(٢) انظر: الحاكم، المستدرك على الصحيحين (٣/ ٦٥٤)، (رقم ٦٤٠٤)، وصححه ولم يتعقبه الذهبيفي التخليص.
(٣) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٨/ ١١١).

من الأمر وغيره، وإذا نزل فعل مثله، وكنا تحدثنا أن غسان تنعل النعال لغزونا، فنزل صاحبي يوم نوبته فرجع عشاءً، فضرب بابي ضربًا شديدًا، وقال: أنائم هو؟ ففزعت، فخرجت إليه، وقال: حدث أمر عظيم، قلت: ما هو؟ أجاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم منه وأطول؛ طلق رسول الله ﷺ نساءه)[1].

وقيل غير ذلك، لكن صاحب كتاب «الذهب المسبوك في تحقيق روايات غزوة تبوك» رجح أن خروج النبيﷺ كان (بناء علىٰ أمر إلهي شامل، عندما انتهت الحروب الداخلية في الجزيرة العربية، فعليه أن يوجه عنايته إلىٰ خارج الجزيرة لإبلاغ هذه الرسالة السامية، مستندًا إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾[التوبة:٢٩]، هذا هو الأمر الإلهي الذي كان سببًا أساسيًا لوقوع غزوة تبوك، وهو قول ابن عباس–رضي الله تعالىٰ عنهما– ومجاهدوعكرمة وسعيد بن جبير، وقتادة والضحاك بن مزاحم الهلالي، وغيرهم رحمهم الله تعالىٰ)[2] والله أعلم.

وحث الرسول ﷺ علىٰ البذل والإنفاق في سبيل الله، وتسابق الخيِّرون في هذا المضمار.

فأراد عمر –رضي الله تعالىٰ عنه– مسابقة أبي بكر –رضي الله تعالىٰ عنه– في التصدق، فجاء بنصف ماله، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟»، قال: مثله. وأتىٰ أبو بكر الصديق –رضي الله تعالىٰ عنه– بكل ما عنده، فقال ﷺ: «يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك؟». فقال: أبقيت لهم الله ورسوله، قال عمر: (لا أسابقك إلىٰ شيء

---

(١) صحيح البخاري (٣/ ١٣٣)، (رقم ٢٤٦٨) وصحيح مسلم (٢/ ١١١١)، (رقم ١٤٧٩).

(٢) عبد القادر السندي، الذهب المسبوك في تحقيق روايات غزوة تبوك (المدينة النبوية: مطابع الرشيد) ص٤، وأصلها رسالة ماجستير.

أبدًا)[١] وتبرع عثمان -رضي الله تعالىٰ عنه- بألف دينار جاء بها في ثوبه، فجعل الرسول ﷺ يقلبها وهو يقول: «ما ضَرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم»، يردد ذلك مرارًا[٢] وتبرَّع أيضًا بثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها[٣] في غزوة تبوك[٤]. وجاء عبد الرحمن بن عوف -رضي الله تعالىٰ عنه- بثمانية آلاف درهم[٥] وجاء غيرهم بمال كثير، وأرسلت النساء ما استطعن من حليهن.

وجاء جماعة إلىٰ رسول الله ﷺ وكانوا سبعة[٦] يسألونه ما يحملهم عليه، فلم يجدوا فرجعوا وهم يبكون[٧] وفيهم نزل قول الله تعالىٰ: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا

(١) أخرجه أبو داود والترمذي في سننهما وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١/ ٣١٥)، (رقم ١٤٧٢)، وصحيح سنن الترمذي (٣/ ٢٠٢)، (رقم ٢٩٠٢)، وانظر: حاشية بذل المجهود (٨/ ٢٢٧).

(٢) الإمام أحمد، المسند (٥/ ٦٣)، والإمام أحمد، فضائل الصحابة (١/ ٤٥٧)، وقال محققه وصي الله عباس:(وإسناده حسن)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣/ ٢٠٨)، (رقم ٢٩٢٠).

(٣) قال المباركفوري في تحفة الأحوذي (١٠/ ١٣١): «الأحلاس جمع حلس بالكسر وسكون اللام وهو كساء رقيق يجعل تحت البرذعة. والأقتاب: جمع قتب بفتحتين وهو رحل صغير على قدر سنام البعير وهو للجمل كالإكاف لغيره. يريد عليَّ هذه الإبل بجميع أسبابها»

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند (٢٧/ ٢٤٧رقم١٦٦٩٦)، وقال المحقق إسناده ضعيف، والترمذي في سننه (٥/ ٦٢٥)، (رقم ٣٧٠٠)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (ص ٤٩٥ - ٤٩٥)، (رقم ٧٦٤)، وضعف الحديث لا يمنع أنه قدم ذلك فقد ثبت أن الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ أقروا له بتجهيز جيش العسرة وهم ثلاثون ألف مقاتل فلابد أنه أنفق نفقة عظيمة في ذلك، انظر: صحيح سنن الترمذي (٣/ ٢٠٨)، (رقم ٢٩١٩)، وأكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة (٢ / ٥٢٥).

(٥) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٨/ ٣٣٢).

(٦) ذكرهم ا بن سعد في الطبقات (٢/ ١٦٥): «وهم سالم بن عمير وهرمي بن عمرو وعلبة بن زيد وأبو ليلى المازني وعمرو بن عنمة وسلمة بن صخر والعرباض بن سارية» رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

(٧) انظر: الطبري، تفسير الطبري، تحقيق التركي (١١/ ٦٢٦- ٦٢٧)، وابن كثير، تفسير ابن كثير (٤/ ١٩٩) وابن هشام، السيرة النبوية (٤/ ١٢٧).

عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة:٩١-٩٢].

ولما تأهب رسول الله ﷺ للخروج، قال قوم من المنافقين: لا تنفروا في الحر، فنزل قول الله تعالىٰ: ﴿ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴾ [التوبة:٨١].

وعن ابن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: لما أُمِرْنَا بالصدقة كنا نتحامل فجاء أبو عقيل[(١)] بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منه، فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رياءً فنزلت: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة:٧٩][(٢)].

قال ابن سعد -رحمه الله تعالىٰ-: (وجاء ناس من المنافقين يستأذنون رسول الله ﷺ في التخلف من غير علة، فأذن لهم وهم بضعة وثمانون رجلًا، وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم فاعتذروا إليه، فلم يعذرهم وهم اثنان وثمانون رجلًا)[(٣)].

قال تعالىٰ: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ

(١) قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- في الفتح (١/ ٢٧٢): «وأما أبو عقيل فاسمه عبد الرحمن بن شيخان ذكره بن الكلبي في تفسيره وأخرجه بن منده من طريقه وقيل اسمه جثجاث بجيمين وثاءين مثلثتين وحكى عن قتادة ذلك وذكره السهيلي وقال أوله حاء مهملة».

(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع فتح الباري (٨/ ٣٣٠)، (رقم ٤٦٦٨).

(٣) ابن سعد، الطبقات (٢/ ١٦٥).

لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة: ٤٢-٤٥].

قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (يقول تعالىٰ موبخًا الذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، وقعدوا عن النبي ﷺ بعد ما استأذنوه في ذلك، مظهرين أنهم ذوو أعذار، ولم يكونوا كذلك)(١).

ومن هؤلاء الذين جاءوا يعتذرون، الجد بن قيس من بني سلمة -بكسر اللام- الذي قال له الرسول ﷺ: «يا جد، هل لك العام في جلاد بني الأصفر؟»، فقال: يا رسول الله! أو تأذن لي، ولا تفتنِّي؟ وادعىٰ خوف الفتنة إن رأىٰ بنات بني الأصفر، وفيه نزل قول الله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة: ٤٩](٢).

ولم يكتفِ بعض المنافقين بالتخلف، بل كان منهم من يثبط المؤمنين ويسعىٰ إلىٰ الإرجاف والتخويف، ويقولون: أتحسبون جلاد بنىٰ الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضًا، والله لكأنا بكم غدًا مقرنين في الحبال إرجافًا وترهيبًا للمؤمنين.

قال ابن هشام -رحمه الله تعالىٰ-: (وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحر. زهادة في الجهاد، وشكًّا في الحق، وإرجافًا برسول الله ﷺ فأنزل

---

(١) ابن كثير، التفسير (٤/ ١٥٨).

(٢) قال الطبري -رحمه الله تعالى- في تفسيره (١١/ ٤٩١): «وذُكر أن هذه الآية نزلت في الجد بن قيس... وبذلك من التأويل تظاهرت الأخبار عن أهل التأويل». وقال الألباني عن هذا الحديث: «قلت: وهذا إسناد حسن، رجاله ثقات معروفون وهو من حديث جابر رضي الله تعالى عنه» سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦/ ١٢٢٥)، (رقم ٢٩٨٨).

الله -تبارك وتعالىٰ- فيهم: ﴿ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [التوبة: ٨١- ٨٢][(١)].

وكانت فئة أخرىٰ منهم تستهزئ بالمؤمنين، ففي تفسير ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (عن عبد الله بن عمر -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء. فقال رجل في المسجد: كذبت، ولكنك منافق. لأخبرن رسول الله ﷺ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن. قال عبد الله بن عمر: وأنا رأيته متعلقًا بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب. ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ ﴾ [التوبة:٦٦][(٢)].

واستخلف الرسول ﷺ عليًا -رضي الله تعالىٰ عنه- فقال: (أتخلفني في الصبيان والنساء؟)، قال: «ألا ترضىٰ أن تكون مني بمنزلة هارون من موسىٰ إلا أنه ليس نبي بعدي؟»[(٣)].

وتخلف نفر من المسلمين من غير شك ولا ارتياب، ولكنهم أخذهم التسويف حتىٰ فات الركب، منهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية -رضي الله تعالىٰ عنهم- وسيأتي تفصيل ما جرىٰ لهم[(٤)].

---

(١) ابن هشام، السيرة (٢/ ٥١٧).
(٢) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٤/ ١٧١). والشوكاني، فتح القدير (٢/ ٤٣١).
(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٨/ ١١٢)، (رقم ٤٤١٦).
(٤) سورة التوبة، الآية (رقم ١١٨)، وانظر: الطبري، تفسير الطبري، تحقيق التركي (١٢/ ٥٦)، وابن هشام، السيرة و النبوية (٤/ ١٣٧).

وتخلف أيضًا أبو ذر وأبو خيثمة -رضي الله تعالىٰ عنهما- لكنهما لحقاه فيما بعد[(١)].

أما أبو خيثمة -رضي الله تعالىٰ عنه-، فيخبر عن نفسه كما عند الطبراني -رحمه الله تعالىٰ-: (تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، حتىٰ مضىٰ رسول الله ﷺ فدخلت حائطًا، فرأيت عريشًا قد رش بالماء، ورأيت زوجتي، فقلت: ما هذا بالإنصاف، إن رسول الله ﷺ في السموم والحميم، وأنا في الظل والنعيم، فقمت إلىٰ ناضح فاحتقبته، وإلىٰ تميرات فتزودتها، فخرجت أريد رسول الله ﷺ، فلما اطلعت علىٰ العسكر، فرأىٰ الناس، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة»، فجئت فقلت: كدت أهلك يا رسول الله، فحدثته حديثي، فقال لي رسول الله ﷺ:«خيرًا»، ودعا لي)[(٢)].

وأما أبو ذر -رضي الله تعالىٰ عنه- فقد أعاقه بعيره، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه من عليه، وجعله علىٰ ظهره، ثم خرج يتبع رسول الله ﷺ ماشيًا علىٰ الأقدام، ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازله، ونظر ناظر من المسلمين، فقال: يا رسول الله، إن هذا الرجل ماشٍ علىٰ الطريق. فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا ذر». فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذر. فقال رسول الله ﷺ: «يرحم الله أبا ذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»[(٣)].

ومضىٰ الرسول ﷺ قاصدًا تبوك، قال الواقدي -رحمه الله تعالىٰ-: (وعقد الألوية والرايات، فدفع لواءه الأعظم إلىٰ أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ورايته

(١) انظر: ابن هشام السيرة النبوية (٤/ ١٧٥-١٧٩)، والقسطلاني، المواهب اللدنية (١/ ٦٣٠).

(٢) أشار الإمام مسلم -رحمه الله تعالى- في صحيحه (٤/ ٢١٢٠)، (رقم ٢٧٦٩)، إلى لحوق أبي خيثمة رضي الله تعالى للرسول ﷺ في غزوة تبوك في حديث كعب بن مالك وتوبته رضي الله تعالى عنه، وانظر، الطبراني، المعجم الكبير (٦/ ٣١)، (رقم ٥٤١٩).

(٣) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٧/ ١٥٩) وقال: «إسناده حسن» وضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (١٢/ ٤٠ ٥٥٣١).

العظمىٰ إلىٰ الزبير رضي الله تعالىٰ عنه، ودفع راية الأوس إلىٰ أسيد بن الحضير رضي الله تعالىٰ عنه، ولواء الخزرج إلىٰ أبي دجانة -رضي الله تعالىٰ عنه-، ويقال: إلىٰ الحباب بن المنذر بن الجموح، رضي الله تعالىٰ عنه)[1].وهكذا سار الرسولﷺ في ثلاثين ألفا أو أكثر، في قلة من الظهر، وفي جهد شديد حتىٰ كان الرجلان والثلاثة يعتقبون علىٰ بعير واحد، وفي قلة من المؤنة حتىٰ استأذنوا رسول الله ﷺ أن ينحروا رواحلهم، ليأكلوا ويشربوا ما في كرشها من الماء[2].

ولما مر الرسول ﷺ بالحِجر- ديار ثمود- قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذرًا أن يصيبكم مثل ما أصابهم» ثم زجر فأسرع حتىٰ خلَّفها[3]. وأمرهم الرسول ﷺ أن لا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها، فأخبروه أنهم استقوا وعجنوا فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا، ويعلفوا الإبل العجين[4].

وأصابت الناس مجاعة شديدة، فعن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، أو عن أبي سعيد -رضي الله تعالىٰ عنهما- شك الأعمش قال: لما كانت غزوة تبوك، أصاب الناس مجاعة، قالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا، فأكلنا وادهنا، فقال رسول الله ﷺ: «افعلوا»، قال: فجاء عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- فقال: يا رسول الله، إن فعلت قلَّ الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم

---

(١) الواقدي، مغازي الواقدي (٣/ ٩٩٦). قال عبد القادر السندي، في كتابه المذهب المسبوك في تحقيق روايات غزوة تبوك (ص ١٨٣). «قلت: لم يصح هذا الإسناد لأنه دائر عند الجميع على محمد بن عمر الواقدي وهو متروك»

(٢) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٥/ ٩-١٠) والقسطلاني، المواهب اللدنية (١/ ٦٣٠)، والشامي، سبل الهدى والرشاد (٥/ ٦٣٨).

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٨ / ١٢٥)، (رقم ٤٤١٩)، صحيح مسلم (٤/ ٢٢٨٦)، (رقم ٢٩٨٠) واللفظ له.

(٤) متفق عليه: صحيح البخاري (٤/ ١٤٨)، (رقم ٣٣٧٨) وصحيح مسلم (٤/ ٢٢٨٦)، (رقم٢٩٨١).

ادع الله لهم عليها بالبركة، لعل الله أن يجعل في ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، قال: فدعا بنطع، فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم، قال: فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، قال: ويجيء الآخر بكف تمر، قال: ويجيء الآخر بكسرة حتىٰ اجتمع علىٰ النطع من ذلك شيء يسير، قال: فدعا رسول الله ﷺ عليه بالبركة، ثم قال: «خذوا في أوعيتكم»، قال: فأخذوا في أوعيتهم، حتىٰ ما تركوا في العسكر وعاءً إلا ملأوه، قال: فأكلوا حتىٰ شبعوا، وفضلت فضلة، فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقىٰ الله بهما عبد غير شاك، فيحجب عن الجنة»(١).

وفي الطريق، ضلت ناقة الرسول ﷺ فتكلم بعض المنافقين وقالوا: يزعم محمد أنه نبي يأتيه خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته. فقال ﷺ: «إني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني عليها، وهي في هذا الوادي، في شعب كذا وكذا، قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتىٰ تأتوني بها»، فذهب الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- فوجدوها كذلك فجاؤوا بها(٢).

وعن سلمة بن المحبق -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أتىٰ علىٰ بيت، فإذا قربة معلقة، فسأل الماء، فقالوا: يا رسول الله، إنها ميتة، فقال: «دباغها طهورها»(٣).

وفي طريقه نزل الجيش في الليل، وعند الفجر ذهب الرسول ﷺ لقضاء الحاجة ومعه المغيرة بن شعبة -رضي الله تعالىٰ عنه- فتأخر فقدَّم المسلمون عبد الرحمن

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (٣/ ١٣٧)، (رقم ٢٤٨٤). من حديث سلمة بن الأكوع، وصحيح مسلم (١/ ٥٦)، (رقم ٢٧) واللفظ له.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة (٢/ ٥٢٣)، وإبراهيم العلي، صحيح السيرة (ص٤٧٢) وقال»وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث، وإسناده رجاله ثقات، ولا يضر جهالة الصحابة وهم من بني عبد الأشهل، ومحمود بن لبيد من صغار الصحابة فيكون الحديث صحيحًا»

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ٦٦)، (رقم ٤١٢٥) وصححه الألباني.

بن عوف -رضي الله تعالىٰ عنه- فصلىٰ بهم، وفي الركعة الثانية جاء الرسول ﷺ فأدرك ركعة وأتم ركعة، ففزع المسلمون، فلما سلَّم الرسول ﷺ قال لهم: «أحسنتم» أو قال: «أصبتم»[1].

ولما أقبلوا علىٰ تبوك قال ﷺ: «إنكم ستأتون غدًا- إن شاء الله- عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتىٰ يضحىٰ النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئًا حتىٰ آتي» فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان، والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء، قال فسألهما رسول الله ﷺ: «هل مسستما من مائها شيئًا؟»، قالا: نعم، فسبهما النبي ﷺ وقال لهما ما شاء الله أن يقول. قال: ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلًا قليلًا، حتىٰ اجتمع في شيء، قال: وغسل رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه، ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء منهمر أو قال: غزير - شك أبو علي أيهما قال- حتىٰ استقىٰ الناس، ثم قال: «يوشك، يا معاذ إن طالت بك حياة، أن ترىٰ ما هاهنا قد ملئ جنانًا»[2].

وأقام الرسول ﷺ في تبوك عشرين يومًا، لم يلق كيدًا، ولم يواجه عدوًا، وإنما أرهب الروم في عقر دارهم، فلم يخرجوا لملاقاته، وآثروا التحصن في بلادهم.

وأثناء إقامته ﷺ في تبوك، كاتب قيصر وأرسل إليه، وأتاه أثناء إقامته صاحب أيلة، فصالحه وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جرباء وأذرح فأعطوه الجزية وكتب ﷺ لهم كتابًا[3].

وفي غزوة تبوك، توفي عبد الله ذو البجادين رضي الله تعالىٰ عنه، ونزل الرسول ﷺ في قبره، وكان الذي يدليه في قبره أبو بكر وعمر -رضي الله تعالىٰ عنهما- ودعا له

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٣١٧)، (رقم ٢٧٤).
(٢) صحيح مسلم (٤/ ١٧٨٤)، (رقم ٧٠٦).
(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٤/ ١٨٠).

الرسول ﷺ قائلًا: «اللهم إني أمسيت راضيًا عنه فارض عنه»[(١)].

ثم انصرف عائدًا إلىٰ المدينة، وفي الطريق كان معاذ بن جبل -رضي الله تعالىٰ عنه- قريبًا من الرسول ﷺ فاستغل قربه من الرسول ﷺ وانفراده به. يقول معاذ -رضي الله تعالىٰ عنه-: أقبلنا مع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، فلما رأيته خليًا. قلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة. قال: «بخ، لقد سألت عن عظيم، وهو يسير علىٰ من يسره الله عليه، تقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتلقىٰ الله لا تشرك به شيئًا. أولا أدلك علىٰ رأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ أما رأس الأمر، فالإسلام، فمن أسلم سلم، وأما عموده، فالصلاة، وأما ذروة سنامه، فالجهاد في سبيل الله، أولا أدلك علىٰ أبواب الخير؟ الصوم جُنة، والصدقة تُطفئ الخطيئةَ كما يطفئ الماءُ النارَ، وقيام العبد في جوف الليل يكفر الخطايا، وتلا هذه الآية: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[السجدة:١٦]، أولا أدلك علىٰ أملك ذلك لك كله؟»، قال: فأقبل نفر، قال: فخشيت أن يشغلوا عني رسول الله ﷺ قال: فقلت: يا رسول الله، قولك: أولا أدلك علىٰ أملك ذلك لك كله؟ قال: فأشار رسول الله ﷺ بيده إلىٰ لسانه. قال: قلت: يا رسول الله وإنا لنؤاخذ بما نتكلم به؟ قال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس علىٰ مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟»[(٢)].

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية(٢/ ٥٢٨). قال ابن حجر في الإصابة (٤/ ١٣٩): «رواه البغويّ بطوله من هذا الوجه، ورجاله ثقات إلا أن فيه انقطاعا، وهو كذلك في السيرة النبويّة. وأخرجه ابن مندة من طريق سعد بن الصلت، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن عبد اللَّه بن مسعود، قال.... فذكره. ومن طريق كثير بن عبد اللَّه بن عمرو بن عوف، عن أبيه، عن جده نحوه».

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٣٦/ ٣٨٨)، (رقم ٢٢٠٦٩) وقال المحقق صحيح بطرقه وشواهده. ورواه الترمذي (٤/ ٣٠٨)، (رقم ٢٦١٦) وقال «حديث حسن صحيح» وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

وفي الطريق تآمر عدد من المنافقين علىٰ الغدر برسول الله ﷺ ومزاحمته علىٰ العقبة لإلقائه منها، ولكن الله -جل شأنه- عصمه من كيدهم، وحفظه من مكرهم، وهربوا ملثمين. قال تعالىٰ: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [التوبة: ٧٤][(١)].

فلما وصل الرسول ﷺ إلىٰ وادي القرىٰ[(٢)] تعجل السير إلىٰ المدينة. عن أبي حميد -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وساق الحديث وفيه، ثم أقبلنا حتىٰ قدمنا وادي القرىٰ، فقال رسول الله ﷺ: «إني مسرع، فمن شاء منكم فليسرع معي، ومن شاء فليمكث»، فخرجنا حتىٰ أشرفنا علىٰ المدينة، فقال: «هذه طابة، وهذا أحد، وهو جبل يحبنا ونحبه»[(٣)].

وكان المنافقون قد شرعوا في بناء مسجد لهم بأمر من الفاسق (أبو عامر الراهب)، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج النبي ﷺ إلىٰ تبوك، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم، ليحتجوا بصلاته ﷺ فيه، علىٰ تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: «إنا علىٰ سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله».

ومن سعيهم لإحكام خطتهم في قبول هذا المسجد الظالم أهله، أن جاؤوا بشاب قارئ للقرآن الكريم، اسمه (مجمع بن جارية) لا يعلم من حالهم شيئًا، وجعلوه إمامًا للمسجد يقول السهيلي -رحمه الله تعالىٰ-: (وكان إذ ذاك غلامًا

(١) انظر: ابن كثير، التفسير (٤/ ١٨١).

(٢) قال محمد حسن شراب في المعالم الأثيرة في السنة والسيرة (ص ٢٢٤) «وادي القرى: سمي بذلك لكثرة قراه، وهو بين المدينة وتبوك، وأعظم مدنه اليوم: مدينة (العلا) شمال المدينة، على مسافة (٣٥٠) كيلا، ويعرف اليوم: (وادي العلا) «وانظر: عاتق البلادي، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية (ص ٢٥٠).

(٣) صحيح البخاري (٢/ ١٢٥)، (رقم ١٤٨١). صحيح مسلم (٢/ ١٠١١)، (رقم ١٣٩٢) واللفظ لمسلم.

حدثًا قد جمع القرآن، فقدموه إمامًا لهم وهو لا يعلم بشيء من شأنهم، وقد ذُكر أن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه- في أيامه أراد عزله عن إمامة أحد المساجد، وقال: أليس بإمام مسجد الضرار، فأقسم له مجمع أنه ما علم شيئًا من أمرهم وما ظن إلا الخير، فصدقه عمر وأقره)(١).

فلما قفل، ﷺ راجعًا إلىٰ المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه الوحي بخبر مسجد الضرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم، ومسجد قباء، الذي أسس من أول يوم علىٰ التقوىٰ، فبعث رسول الله ﷺ إلىٰ ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة، روىٰ علي بن أبي طلحة -رحمه الله تعالىٰ-عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة:١٠٨]، والذين بعثهم الرسول ﷺ لهدم مسجد الضرار وإحراقه، هما مالك بن الدخشم ومعن العجلاني رضي الله تعالىٰ عنهما، وأمرهما بالذهاب إلىٰ المدينة وهدم وحرق مسجد الضرار الذي بناه المنافقون، فذهبا إلىٰ المسجد وأشعلا فيه النيران وهدماه(٢).

(١) السهيلي، الروض الأنف (٧/ ٤٠٤). وانظر الإصابة لابن حجر (٥/ ٥٧٧) ترجمة لمجمع بن جارية، وورد فيها أن والده جارية كان ممن اتخذ مسجد الضرار.

(٢) انظر: الطبري، جامع البيان (١٤/ ٤٦٨)، تحقيق أحمد شاكر، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٢٥٣)، والبيهقي، دلائل النبوة (٥/ ٢٥٩ - ٢٦٠)، وابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٥٤٩)، وهناك إشارات إلى مسجد الضرار في فتح الباري لابن حجر (١/ ٥٥٢)، و(١٠/ ٣٢) و (١١/ ٢٥٦) وقال الألباني في تخريجه لفقه السيرة للغزالي: (ضعيف رواه ابن هشام (٢/ ٣٢٢) عن ابن إسحاق بدون سند لكن ذكره ابن كثير في التفسير (٢/ ٣٨٨) عن ابن إسحاق عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمروابن قتادة وغيرهم مرسلًا والله أعلم) (ص ٤١٥).

ولما دنا من المدينة قال: «إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم» قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة حبسهم العذر»[(١)]. وفي لفظ عند مسلم -رحمه الله تعالىٰ-: «إلا شركوكم في الأجر»[(٢)]. ولما وصل المدينة تلقاهم الناس والصبيان يرحبون بهم[(٣)].

وجاء من كان تخلف عنه، فمنهم من حلف له فعذره واستغفر له، وجاءه كعب وصاحباه -رضي الله تعالىٰ عنهم- فصَدَقُوه وأخبروه أنهم ما تأخروا وتخلفوا لعذر، وإنما بسبب التسويف، فصدَّقهم رسول الله ﷺ وأرجأ أمْرهم، وأمَر الناس بهجرهم وعدم الحديث معهم.

وفي الصحيحين: (قال كعب -رضي الله تعالىٰ عنه-: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحدًا تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش، حتىٰ جمع الله بينهم وبين عدوهم علىٰ غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة، حين تواثقنا علىٰ الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر، أذكر في الناس منها، كان من خبري: أني لم أكن قط أقوىٰ ولا أيسر حين تخلفت عنه، في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط، حتىٰ جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورىٰ بغيرها، حتىٰ كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا، ومفازًا وعدوًا كثيرًا، فجلىٰ للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٨ /١٢٦)، (رقم ٤٤٢٣). وصحيح مسلم (٣/ ١٥١٨)، (رقم ١٩١١).

(٢) صحيح مسلم (٣/ ١٥١٨)، (رقم ١٩١١).

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٨/ ١٢٦)، (رقم ٤٤٢٧)، وانظر: الشامي، سبل الهدى والرشاد (٥/ ٦٧٣).

مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ -يريد الديوان- قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفىٰ له، ما لم ينزل فيه وحي الله، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئًا، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادىٰ بي حتىٰ اشتد بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئًا، فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئًا، ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقض شيئًا، فلم يزل بي حتىٰ أسرعوا وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت، فلم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم، أحزنني أني لا أرىٰ إلا رجلًا مغموصًا عليه النفاق، أو رجلًا ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتىٰ بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب؟» فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه برداه، ونظره في عطفه، فقال معاذ بن جبل -رضي الله تعالىٰ عنه-: بئس ما قلت، والله يا رسول الله، ما علمنا عليه إلا خيرًا، فسكت رسول الله ﷺ قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجه قافلا، حضرني همي، وطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدًا، واستعنت علىٰ ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادمًا زاح عني الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبدًا بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه، وأصبح رسول الله ﷺ قادمًا، وكان إذا قدم من سفر، بدأ بالمسجد، فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك، جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلًا، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلىٰ الله، فجئته فلما سلمت عليه تبسَّم تبسُّم المغضب، ثم قال: «تعالَ» فجئت أمشي حتىٰ جلست بين يديه، فقال لي: «ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟»، فقلت: بلىٰ، إني والله لو جلست

عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيتُ جدلًا، ولكني والله، لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضىٰ به عني، ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق، تجد علي فيه، إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله، ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوىٰ، ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتىٰ يقضي الله فيك». فقمت، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبًا قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلىٰ رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك، فوالله ما زالوا يؤنبوني حتىٰ أردت أن أرجع فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، رجلان، قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين، قد شهدا بدرًا، فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي، ونهىٰ رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا نحن الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناسُ، وتغيروا لنا حتىٰ تنكرت في نفسي الأرض، فما هي التي أعرف، فلبثنا علىٰ ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا، وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا، فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام عليَّ أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت علىٰ صلاتي، أقبل إليَّ، وإذا التفت نحوه، أعرض عني، حتىٰ إذا طال عليَّ ذلك من جفوة الناس، مشيت حتىٰ تسورت جدار حائط أبي قتادة -رضي الله تعالىٰ عنه- وهو ابن عمي وأحب الناس إليَّ، فسلمت عليه، فوالله ما رد عليَّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله، هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت إليه فنشدته فسكت، فعدت إليه فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، وتوليت حتىٰ تسورت الجدار،

قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة، إذا نبطي من أنباط أهل الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل علىٰ كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون إليه، حتىٰ إذا جاءني دفع إلي كتابًا من ملك غسان، فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان، ولا مضيعة، فالحقْ بنا نواسِك، فقلت لما قرأتها: وهذا أيضًا من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرته بها، حتىٰ إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها؟ أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلىٰ صاحبي مثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فتكوني عندهم، حتىٰ يقضي الله في هذا الأمر، قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية إلىٰ رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله: إن هلال بن أمية شيخ ضائع، ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقربك». قالت: إنه والله ما به حركة إلىٰ شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلىٰ يومه هذا، فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه؟ فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب؟ فلبثت بعد ذلك عشر ليال، حتىٰ كملت لنا خمسون ليلة من حين نهىٰ رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة، وأنا علىٰ ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس علىٰ الحال التي ذكر الله، قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ، أوفىٰ علىٰ جبل سلع بأعلىٰ صوته: يا كعب بن مالك أبشر، قال: فخررت ساجدًا، وعرفت أن قد جاء فرج، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلىٰ صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض إلي رجل فرسًا، وسعىٰ ساعٍ من أسلم، فأوفىٰ علىٰ الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، نزعت له ثوبيَّ، فكسوته إياهما، ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ،

واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلىٰ رسول الله ﷺ فيتلقاني الناس فوجًا فوجًا، يهنوني بالتوبة، يقولون: لتهنك توبة الله عليك، قال كعب: حتىٰ دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إليَّ طلحة بن عبيد الله- رضي الله تعالىٰ عنه- يهرول حتىٰ صافحني وهناني، والله ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة، قال كعب: فلما سلمت علىٰ رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك»، قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ قال: «لا، بل من عند الله». وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه، حتىٰ كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلىٰ الله وإلىٰ رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك». قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، فقلت: يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقًا، ما بقيت. فواللهِ ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلىٰ يومي هذا كذبًا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت، وأنزل الله علىٰ رسوله ﷺ: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ [التوبة:١١٧] إلىٰ قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة:١١٩]، فواللهِ ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته، فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا -حين أنزل الوحي- شر ما قال لأحد، فقال -تبارك وتعالىٰ-: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ ﴾ [التوبة:٩٥] إلىٰ قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٩٦]، قال كعب: (وكنا تخلفنا نحن الثلاثة عن أمر أولئك الذين قَبِل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتىٰ قضىٰ الله فيه، فبذلك قال الله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ

خُلِّفُواْ ﴾ [التوبة: ١١٨]. وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو، إنما هو تخليفه إيانا، وإرجاؤه أمرنا، عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه)[١].

وهذه القصة عظيمة التأثير، كثيرة الفوائد[٢]، جديرة بالتدبر، يقول عبد الله بن الإمام أحمد -رحمهما الله تعالىٰ-:(ما رأيتُ أبي يبكي قط إلا في حديث توبة كعب)[٣].

وكان المتخلفون في غزوة تبوك أربعة أصناف:

الأول: مأمورون مأجورون كعلي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة رضي الله تعالىٰ عنهما[٤].

والثاني: معذورون وهم الضعفاء والمرضىٰ.

والثالث: عصاة مذنبون كالثلاثة الذين خُلِّفُوْا. وانتهىٰ أمر هؤلاء الثلاثة إلىٰ التوبة عليهم.

والرابع: ملومون مذمومون وهم المنافقون[٥].

وفي غزوة تبوك، نزلت آيات كثيرة وبخاصة في شأن المنافقين، كما نزل قول الله تعالىٰ: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ

(١) صحيح البخاري (٦/ ٣)، (رقم ٤٤١٨) وصحيح مسلم (٤/ ٢١٢٠)، (رقم ٢٧٦٩).
(٢) انظر إلى مزيد من فوائد هذه القصة: زيد بن عبد الكريم الزيد، تأملات في قصة الثلاثة الذين خلفوا، وهو كتيب مطبوع، طبعته دار العاصمة بالرياض، وموجود نسخة إلكترونية منه.
(٣) ابن مفلح، الآداب الشرعية (٢/ ١٠٣).
(٤) انظر: ابن هشام، السيرة (٢/ ٥١٩) فقد ذكر أن الرسول ﷺ استعمل على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله تعالى عنه.
(٥) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٥/ ٢٧).

ﵟٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌﵞ [التوبة:٤٠]. قال القرطبي -رحمه الله تعالىٰ-: (قوله تعالىٰ: ﵟإِلَّا تَنصُرُوهُﵞ، يقول: تعينوه بالنفر معه في غزوة تبوك. عاتبهم الله بعد انصراف نبيه -عليه الصلاة والسلام- من تبوك. قال النقاش: هذه أول آية نزلت من سورة [براءة]. والمعنىٰ: إن تركتم نصره فالله يتكفل به، إذ قد نصره الله في مواطن القلة وأظهره علىٰ عدوه بالغلبة والعزة)[1]. وقال الطاهر بن عاشور:(التقدير: إن لا تنصروه فهو غني عن نصرتكم بنصر الله إياه، إذ قد نصره في حين لم يكن معه إلا واحد لا يكون به نصر، فكما نصره يومئذ ينصره حين لا تنصرونه)[2].

الفوائد المستنبطة من غزوة تبوك

الأولىٰ: كانت غزوة تبوك أكبر تجمع في الغزو بقيادة الرسول ﷺ وكانت هذه الغزوة، هي آخر غزوة غزاها ﷺ وكأنها إشارة إلىٰ من بعده ﷺ بأن ينطلقوا إلىٰ خارج الجزيرة، لنشر الإسلام، بعد أن ساد هذا الدين في الجزيرة، وتم القضاء علىٰ كل القوىٰ الكبيرة داخلها، وقدم الناس من أطرافها يعلنون إسلامهم، فبقي أن يخرج الدعاة إلىٰ الله، وأن ينطلق الجهاد خارج الجزيرة، فهو ﷺ كما قال تعالىٰ عنه: ﵟوَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَﵞ [سبأ:٢٨]، وقال تعالىٰ: ﵟوَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَﵞ [الأنبياء: ١٠٧].

الثانية: شاء الله -جل شأنه- أن تكون الغزوة في ثلاثة أحوال مجتمعة، كل واحدة شديدة علىٰ المؤمنين للابتلاء والتمحيص:

١. حال فاقة وشدة وقلة ذات يد.

٢. حال نضوج الثمار، وطيب المقام، وشدة حر علىٰ المسافر.

---

(١) القرطبي، تفسير القرطبي (٨/ ١٤٣).

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٠/ ٢٠١).

٣. حال بعد مسافة ومشقة، إذْ إن تبوك تبعد عن المدينة أكثر من سبعمائة ميلًا، في طريق رملي، لا ينبت، ويصعب المسير فيه، والعطش فيه شديد علىٰ الإنسان والحيوان.

فالدواعي للمقام كبيرة، وعقبات الخروج للجهاد أيضًا شديدة.

وبُعْدُ المسافة يقتضي أن الغياب عن المدينة سيكون طويلًا. وهذه مشقة أخرىٰ تضاف إلىٰ ما سبق، فليس من المتوقع لجيش يخرج إلىٰ هذه المسافة البعيدة أن يعود خلال مدة وجيزة، وهذا الذي وقع فعلًا، فقد غاب الرسول ﷺ ومعه هذا الجيش الكبير عند المدينة شهرين من الأيام الأولىٰ من رجب إلىٰ الأيام الأولىٰ من رمضان.

الثالثة: ولذلك كانت هذه الغزوة بمثابة الاختبار الكبير للمجتمع، فتميز الأخيار، وتسابقوا في الإنفاق، وبذلوا أموالًا باعوا بها الدنيا كلها واشتروا الآخرة.

وفي المقابل، ظهر النفاق، فنزلت سورة براءة، تفضح أقوالهم، وتخرج سرائرهم، وتتابعت الآيات تتنزل: ﴿ومنهم، ، ، ﴾﴿ومنهم، ، ﴾ ﴿ومنهم، ،﴾، ذلك أن النفاق في المدينة كان يتزايد كلما تزايدت قوة المؤمنين، خوفًا وطمعًا. فاحتاج الأمر إلىٰ تجليتهم؛ لأنهم فئة لا تنقطع، في كل زمان ومكان، ولكنها تقل وتكثر حسب قوة المسلمين وضعفهم.

فظهرت للمجتمعات المسلمة القدوة الصالحة التي بادرت إلىٰ الاستجابة لأمر الله، والتحذير من الفئة الفاسدة الموصوفة بتلك الصفات التي من اتصف بها فقد أخذ نصيبًا من الحكم عليهم.

الرابعة: مشروعية الجهاد بالمال وأنه قرين الجهاد بالنفس، بل ورد مقدَّمًا عليه في عدة آيات من كتاب الله -عز وجل- قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥].

ومما يؤيد هذا المعنىٰ وضوحًا ويجليه، قول الرسول ﷺ لعثمان -رضي الله تعالىٰ عنه-: «ما ضرَّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم»، يردد ذلك مرارًا. فهذا القول يدل علىٰ فضل الجهاد بالمال، فقد قاله الرسول ﷺ لعثمان لما جاهد بماله، وهذه فرصة عظيمة للأغنياء، ليجاهدوا في سبيل الله بأموالهم بمختلف صور الجهاد والذي لا ينحصر في القتال فقط أو تجهيز المقاتل.

الخامسة: مشروعية التنافس في الخير، فإننا نرىٰ أن الرسول ﷺ لما دعا إلىٰ الصدقة والنفقة في غزوة تبوك، بادر عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- منافسًا ومسابقًا لأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- كما مر معنا في الحديث، حيث تصدَّق بنصف ماله ظانًّا أنه سيسبق أبا بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- لكن أبا بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- سبقه بالصدقة بكل ماله.

السادسة: فضيلة ظاهرة لأبي بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- الذي جاء بماله كله للجهاد في سبيل الله، وهذا يُظهر قوة توكُّله علىٰ الله وعِظَم إيمانه الراسخ. وكذلك فضيلة عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه- الذي جاء بنصف ماله، وكذلك عثمان -رضي الله تعالىٰ عنه- الذي تصدق بتلك الصدقات الكبيرة حتىٰ قال عنه الرسول ﷺ: «ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم».

السابعة: نلاحظ أن الرسول ﷺ كان يخطب ويحث الناس علىٰ الصدقة، فيقوم عثمان -رضي الله تعالىٰ عنه- ويعلن صدقته أمام الناس، وهذا يلفت أنظارنا إلىٰ أمر مهم، وهو مسألة إعلان الصدقة أو إخفائها، أيهما أفضل؟

الذي يظهر أن ذلك يختلف حسب مصرف الصدقة، فإن كانت لمصلحة عامة، وفي إعلانها مصلحة تأسِّي الناس بالمتصدق، فالمصلحة الإعلان، وإن كانت الصدقة لشخص معين فإسرارها أولىٰ جبرًا لخاطر هذا الشخص، بأن لا يكسر

بإعلان صدقة عليه، وهذا يفهم من قول الله تعالىٰ: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة:٢٧١]، يقول الشيخ السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (ففي هذا أن صدقة السر علىٰ الفقير أفضل من صدقة العلانية، وأما إذا لم تكن الصدقات علىٰ فقراء، فمفهوم الآية أن السر ليس خيرًا من العلانية، فيرجع في ذلك إلىٰ المصلحة، فإن كان في إظهارها إظهار شعائر الدين وحصول الاقتداء ونحوه، فهو أفضل من الإسرار)[١]. ولذلك فإن إعلان المتبرع في بعض الجمعيات الخيرية أو في بعض اللقاءات التي يُقصد منها جمع تبرعات لكوارث أو مشاريع خيرية ينبغي أن يلحظ فيها هذا المعنىٰ والله أعلم.

الثامنة: جاء أبو بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- بكل ماله إلىٰ الرسول ﷺ فقبله منه (وفي سنن أبي داود أن رجلًا جاء إلىٰ رسول الله ﷺ بمثل بيضة من ذهب فقال: يا رسول الله، أصبت هذا من معدن فخذها فهي صدقة، ما أملك غيرها، فأعرض عنه الرسول ﷺ ثم أتاه من قبل ركنه الأيمن فقال مثل ذلك، فأعرض عنه، ثم أتاه من قبل ركنه الأيسر، فأعرض عنه رسول الله ﷺ فأتاه من خلفه، فأخذها رسول الله ﷺ فحذفه بها، فلو أصابته لأوجعته أو لعقرته. فقال رسول الله ﷺ: «يأتي أحدكم بما يملك فيقول هذه صدقة ثم يقعد يستكف الناس، خير الصدقة ما كان عن ظهر غنىٰ»[٢].

ولما نزلت توبة كعب بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه- قال للرسول ﷺ: (إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلىٰ الله وإلىٰ رسوله، ﷺ)، قال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك»[٣].

(١) السعدي، تفسير السعدي(ص ١١٦). باختصار يسير

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٢/ ١٢٨)، وانظر: ابن القيم، زاد المعاد، هامش (٣ / ٥٨٩)، حيث قال محققه:(ورجاله ثقات)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبو داود (ص ١٦٩)، (رقم ٣٦٩).

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٥/ ٣٤)، كتاب (رقم ٦٤)، (باب ٧٩).

فقد قبل الرسول ﷺ من أبي بكر الصديق الصدقة بماله كله، وعنَّف الرجل الذي جاء يريد الصدقة بكل ما يملك وأشار علىٰ كعب -رضي الله تعالىٰ عنه- بالأرفق من إمساك بعض المال وعدم الصدقة بالجميع. فالرسول ﷺ عامل كل واحد بما هو الأصلح له فلم ينكر علىٰ أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- لعلمه بقوة صبره وتوكله[1]، أما الذي لا يحتمل الصدقة بماله، اختلفت معاملته، فلا يُؤْذَن للشخص بالصدقة بكل ماله إذا كان ممن يُخشىٰ عليه الفتنة أو لا يستطيع الصبر علىٰ الفقر[2]. وهذا من الحكمة في الدعوة إلىٰ الله، وذلك بمراعاة تفاوت الأشخاص واختلاف قواهم الإيمانية ومقدرتهم علىٰ التحمل والصبر، والتعامل مع كل فرد بحسبه[3].

التاسعة: في غزوة تبوك فضيلة ظاهرة لعلي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- عندما قال له الرسول ﷺ حينما استخلفه في المدينة: «ألا ترضىٰ أن تكون مني بمنزلة هارون من موسىٰ إلا أنه ليس نبي بعدي؟».

العاشرة: كان بعض الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- فقراءً، ومع ذلك كانوا يشاركون، فمنهم من كان يشارك بالصاع من التمر أو الصاع من الشعير، ومنهم من هو دون ذلك، وكان هذا نصف ما يملكه، يأتي أحدهم بصاع ويترك صاعًا لأهله، وهو سيغيب عنهم هذه السفرة الطويلة.

إذًا، ليس المقصود هو القيمة المالية للصدقة، وإنما قيمتها تأتي من الانتصار علىٰ النفس وإخراج ما لديه، فهذا الصاع هو في الحقيقة نصف ماله، له مكانة نصف مال الغني، والانتصار في هذه الحالة شديد، والأجر عليه عظيم، عن أبي هريرة

---

(١) انظر: السهارنفوري، بذل المجهود (٨/ ٢٢٧).

(٢) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٥٨٩)، والخطابي، معالم السنن المطبوع مع مختصر سنن أبي داود للمنذري (٢/ ٢٥٤)، وابن العربي، عارضه الأحوذي (١٣/ ١٤٠)، والعظيم آبادي، عون المعبود (٥/ ٩٤).

(٣) انظر: زيد بن عبد الكريم الزيد، الحكمة في الدعوة إلى الله (ص ٥٢ – ٥٥).

-رضي الله تعالىٰ عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «سبق درهم مائة ألف درهم»، قالوا: وكيف؟ قال: «كان لرجل درهمان تصدق بأحدهما، وانطلق رجل إلىٰ عُرض ماله، فأخذ منه مائة ألف درهم فتصدق بها»(١).

فالمسلم في حالة اختبار أيًا كان ماله، فقيرًا كان أو غنيًا، المهم هو الانتصار علىٰ النفس، وتقديم حظ الله علىٰ حظ النفس. وأن لا يغيب عن ميدان المنافسة والمسابقة إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ.

الحادية عشرة: جاء جماعة إلىٰ الرسول ﷺ يسألونه ما يحملهم عليه، فلم يجد فرجعوا وهم يبكون حزنًا أن لا يجددوا ما ينفقون، وفيهم نزل قول الله تعالىٰ: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة:٩٢].

أليس للمسلم الذي يعيش في عصر الاستضعاف أسوة بهؤلاء الضعفاء، الذين نصحوا لله ورسوله، فالبكاؤن الذين لم يملكوا إلا أعينًا فاضت بالدمع حزنًا أنهم ليس لديهم ما يستطيعون به نصر الإسلام والمسلمين، عذرهم الله جل شأنه، بل أثنىٰ عليهم -جل شأنه- كما يفهم من الآيات والله أعلم.

فعندما يرىٰ المسلم العدوان علىٰ دين الله والاستهزاء برسوله وشرعه، وهو لا يملك شيئًا، ونصح لله ورسوله بقلبه، وصدق العزم أنه لو كان يملك ما تأخر،

(١) أخرجه النسائي في السنن (٥/ ٥٩)، (رقم ٢٥٢٧). واللفظ له، وحسنه الألباني، وابن خزيمة في صحيحه (٢/ ١١٧٠)، (رقم ٢٤٤٢٤) وقال المحقق محمد مصطفى الأعظمي «إسناده حسن»، وابن حبان في صحيحه (٨/ ١٣٥٣٣٤٧) وقال المحقق شعيب الأرناؤوط: «إسناده حسن، ابن عجلان صدوق روى له مسلم متابعة والبخاري تعليقا، وباقي السند علي شرط الصحيح» وقد سبق إيراد هذا الحديث.

فهؤلاء ألا ينطبق عليهم قول السعدي -رحمه الله تعالىٰ- في تفسير الآية (هؤلاء ليس عليهم حرج، بشرط أن ينصحوا لله ورسوله، بأن يكونوا صادقي الإيمان، وأن يكون من نيتهم وعزمهم أنهم لو قدروا لجاهدوا، وأن يفعلوا ما يقدرون عليه من الحث والترغيب والتشجيع علىٰ الجهاد. وإذا أحسن العبد فيما يقدر عليه، سقط عنه ما لا يقدر عليه. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ومن مغفرته ورحمته، عفا عن العاجزين، وأثابهم بنيتهم الجازمة ثواب القادرين الفاعلين. وإذا سقط الحرج عنهم، عاد الأمر إلىٰ أصله، وهو أن من نوىٰ الخير، واقترن بنيته الجازمة سَعْيٌ فيما يقدر عليه، ثم لم يقدر، فإنه ينزل منزلة الفاعل التام)[1].

وهذا من فضل الله علىٰ عباده في وقت الاستضعاف، عندما تتكالب قوىٰ الشر والعدوان علىٰ المسلمين، في وقت ليس للمسلمين قوة ولا حيلة، فما أمامهم إلا أن يسلكوا هذا المنهج ويصدُقُوا الله -جل شأنه- من قلوبهم، فالقلب يحزن، والعين تدمع، والدعاء مرفوع، والحرج موضوع، والله -جل شأنه- مطلع، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، والأجر ثابت، والنصر قريب بإذن الله تعالىٰ.

وهذا كما أنه تخفيف، فهو من جانب آخر تكليف، لا بد من النصح لله ورسوله، ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فلا عذر لمؤمن في التقصير فيما يقدر عليه، ولا يصح أن يعيش المؤمن ميت القلب، عديم الإحساس بمآسي المسلمين بحجة أنه غير قادر، فهناك قدرة لا تعزب عن أي مسلم ولا يعذر فيها، وهي قدرة القلب وحزنه، ودمعة العين، والمشاركة في الهم، والدعاء للمسلمين كما سبق، والله أعلم.

الثانية عشرة: لما بادر المؤمنون إلىٰ الصدقة، كل بما يستطيع، فمن كان موسرًا تصدَّق بالكثير، ومن كان مُقِلًا تصدَّق بالقليل، لكن المنافقين لا يسلم منهم أحد، فإذا رأوا غنيًا ينفق كثيرًا قالوا: هذا مُرَاءٍ، وإذا جاء فقير بشيء قليل، قالوا: إن الله

---

(١) السعدي، تفسير السعدي (ص ٣٤٧).

عن صدقة هذا لَغَنِيٌّ، وهذا الصنف من الناس لا يخلو منه مجتمع من مجتمعات المسلمين، ولذلك فعلىٰ المؤمن أن يبادر إلىٰ عمل الصالحات ولا يهتم بما يقوله المنبثون في المجتمعات المسلمة، الذين لا هَم لهم إلا انتقاد فلان واتهام علان.

الثالثة عشرة: علبة بن زيد -رضي الله تعالىٰ عنه- صحابي من الصحابة الفقراء، لما لم يجد ما ينفق في سبيل الله، بات ليلته يعتذر إلىٰ ربه، وتصدق علىٰ المسلمين بكل مظلمة له عليهم في مال أو جسد أو عرض، فلما أصبح مع الناس قال رسول الله ﷺ: «أين المتصدق هذه الليلة؟»، وبعد أن كرر الرسول ﷺ السؤال، قام علبة -رضي الله تعالىٰ عنه- فأخبره، فقال الرسول ﷺ: «أبشر، فوالذي نفسي بيده، لقد كتبت في الزكاة المتقبلة»[(١)].

لقد بلغ حب الجهاد في نفوس هؤلاء الصحب الكرام مبلغًا جعلهم يبيتون الليل يتألمون من نقص ذات اليد، فلا يجد مركبًا يتبلغ به بنفسه في الجهاد، ولا يجد مالًا، يسهم به في سبيل الله، فلا يجد إلا المظالم التي له علىٰ المسلمين، فيتصدق بها.

إن المهم هنا يقظة القلب، والشعور بأنه عضو حي في المجتمع المسلم، لابد أن يكون له ما يسهم به، أيًا كان، حتىٰ لو لم يجد إلا ما أصيب من عرضه وماله وبدنه.

هذه الحياة هي التي بها فتح المسلمون البلاد، وساحوا يدعون إلىٰ الله وينشرون دينه.

الرابعة عشرة: الحذر من الإرجاف، وهو التخويف من قوة العدو، والتقليل من شأن المسلمين، وتصوير قرب الهزيمة بجيش المسلمين، لإرهابهم وتثبيطهم، وقد قال بعض المنافقين في غزو تبوك: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضًا؟ والله لكأنا بكم غدًا مقرنين في الحبال، والله -جل شأنه- يقول:

---

(١) انظر: ابن حجر، الإصابة (٤/ ٤٥٠) وصححه الألباني في فقه السيرة للغزالي (ص ٤٠٤)، والسهيلي، الروض الأنف (٧/ ٤٠١).

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٦٢]، يقول السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي: المخوفون المرهبون الأعداء، المحدثون بكثرتهم وقوتهم، وضعف المسلمين، ولم يذكر المعمول الذي ينتهون عنه، ليعم ذلك، كل ما توحي به أنفسهم إليهم، وتوسوس به، وتدعو إليه من الشر، من التعريض بسب الإسلام وأهله، والإرجاف بالمسلمين، وتوهين قواهم)[1].

وهذا الإرجاف يقع من بعض الأشخاص في المجتمعات الإسلامية دون أن يقصد؛ لأنه يتتبع أخبار الأعداء وينقلها كما هي دون تمحيص، وفيها ما لا يجوز نقله للناس، لما يترتب عليه من بث الخوف في نفوسهم، ويتحقق في فعله هذا معنىٰ الإرجاف من حيث لا يشعر، ويجب علىٰ المسلم أن يكون حذرًا من أن يكون جنديًا للعدو أو مجندًا للعدو وهو لا يشعر وبخاصة في مواطن وأوقات الأزمات والشدائد.

الخامسة عشرة: وفئة أخرىٰ من المنافقين تبحث عن الأعذار، أو ربما تختلق الأعذار للقعود، يقولون: ﴿لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾، واختلاق الأعذار منهج الكسالىٰ والبطالين الذين يقضون حياتهم في الأماني، إذا جاء الصيف اعتذر بحر الشمس وإذا جاء الشتاء اعتذر ببرودة الجو، ويتنقل في مراحل عمره بالأعذار والأماني.

لا تضيع الوقت، فإذا رأيت حر الشمس لا تسوف إلىٰ الشتاء ولكن تذكر حر جهنم، فقد أجاب الله هؤلاء المختلقين للأعذار بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا﴾.

(١) السعدي، تفسير السعدي (ص ٦٧١).

بل إن من الأشخاص من يعتذر بالتظاهر بالتقىٰ والصلاح والخوف من الوقوع في المأثم ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة:٤٩]، ومع أن هذا الاعتذار صادر من منافق، إلا أنه في الواقع مدخل من مداخل الشيطان علىٰ ابن آدم، فإن الشيطان يأتي إلىٰ ابن آدم من عدة طرق، ومنها التظاهر بالتقىٰ، وإني أخاف الله، ولو كان يخاف الله -جل شأنه- لعمل، وما ترك العمل لأعذار واهية.

السادسة عشرة: وفئة أخرىٰ من المنافقين -وكأنما يقتسمون الأدوار في إلحاق الضرر بالجيش المسلم- دأبهم الاستهزاء والسخرية بالمسلمين، فقد قال بعض هؤلاء- يقصدون الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم الذين خرجوا في جيش العسرة مع قلة الزاد وبُعْد المسافة-: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء. فقال رجل في المسجد: كذبت، ولكنك منافق. لأخبرن رسول الله ﷺ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن. قال عبد الله بن عمر -رضي الله تعالىٰ عنهما-: وأنا رأيته متعلقًا بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب. ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة:٦٦][1].

ويكفي هذا الوعيد الشديد في المستهزئ ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾. يقول السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (فإن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر مخرج عن الدين؛ لأن أصل الدين مبني علىٰ تعظيم الله وتعظيم دينه ورسله، والاستهزاء بشيء من ذلك، منافٍ لهذا الأصل، ومناقض له أشد المناقضة)[2].

(١) ابن كثير، تفسير ابن كثير (٤/ ١٧١)، والشوكاني، فتح القدير (٢/ ٤٣١).
(٢) السعدي، تفسير السعدي (ص ٣٤٢).

ومع ذلك، فإن نصوص الوعيد، (قد جاء عن سفيان الثوري وأحمد كراهية تأويلها، ليكون أوقع في النفوس وأبلغ في الزجر)[1]، والله أعلم.

السابعة عشرة: إن المنافقين سخروا من الرسول ﷺ ومن المؤمنين، ومع ذلك نزلت الآية تبين أن هذا القولَ سخريةٌ بالله وآياته ورسوله، مما يدل علىٰ شدة هذا القول وحرمة عِرْض المؤمنين، حينما جعل السخرية بالمؤمنين سخرية بالله وآياته ورسوله.

ومما ينبغي التنبه إليه، أن الاستهزاء والسخرية بالأمر استهزاء وسخرية بالآمر، وليس بالمأمور. وهذا يدل علىٰ عظمة جرم الاستهزاء والسخرية بشيء من القرآن الكريم أو من السنة النبوية أو شيء من الأحكام الشرعية.

الثامنة عشرة: ومن دروس غزوة تبوك أن الله -جل شأنه- بيَّن أن هؤلاء المتخلفين، لو كانوا يعلمون أنهم سيحصلون علىٰ عَرَض دنيوي، لبادروا إلىٰ الخروج، قال تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ﴾، ومثل ذلك قوله ﷺ في الحديث الذي يرويه أبو هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- بشأن المتخلفين عن صلاة العشاء: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِحَطَبٍ، فَيُحْطَبَ، ثُمَّ آمُرَ بِالصَّلَاةِ، فَيُؤَذَّنَ لَهَا، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيَؤُمَّ النَّاسَ، ثُمَّ أُخَالِفَ إِلَىٰ رِجَالٍ، فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ يَعْلَمُ أَحَدُهُمْ، أَنَّهُ يَجِدُ عَرْقًا سَمِينًا، أَوْ مِرْمَاتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ، لَشَهِدَ العِشَاءَ»[2].

وهذا كثير في المجتمع، لو كان لأحدهم غرض دنيوي، لقام إليه منتصف الليل، في حين أنه ينام عن صلاة الفجر، والمسلم يحذر من التشبه بأفعال المنافقين.

(١) عبد الرحمن بن حسن، فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص ٣٦٤).
(٢) صحيح البخاري (١/ ١٣١)، (رقم ٦٤٤).

التاسعة عشرة: عقد الرسول ﷺ الألوية والرايات عند مغادرته المدينة، وأعطىٰ لواءه الأعظم لأبي بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- ووزع الرايات بين كبار المهاجرين والأنصار من الأوس والخزرج، وفي هذا إشارة إلىٰ منزلة أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- فهو صاحب اللواء الأعظم في أكبر غزوة وآخر غزوة يغزوها رسول الله ﷺ وهو المقدم في الصحابة ليحمل اللواء بعد الرسول ﷺ.يقول محمد أبو شهبة -رحمه الله تعالىٰ-: (ولا يخفىٰ علىٰ القارئ الفطن ما في إعطائه ﷺ اللواء في آخر غزوة غزاها، الصدّيق، من إشارة لطيفة إلىٰ أن الصدّيق أحق الصحابة بالخلافة)[1].

العشرون: في غزوة تبوك مصداق لقول الرسول ﷺ: «نُصِرْتُ بالرعب مسيرةَ شهرٍ»[2] فإن الروم لما علمت بخبر مقدم الرسول ﷺ دخلهم الرعب، ولم يستطيعوا القدوم لمواجهته، وأنهزموا قبل اللقاء، قال ابن حجر: (وهذه الخصوصية حاصلة له علىٰ الإطلاق، حتىٰ لو كان وحده بغير عسكره، وهل هي حاصلة لأمته من بعده؟ فيه احتمال)[3].

الواحدة والعشرون: في تخلف أبي ذر وأبي خيثمة -رضي الله تعالىٰ عنهما- ثم لحوقهما برسول الله ﷺ دلالات:

١. أن الشخص قد يضعف ثم يوفقه الله ويعيده إليه، لمن كانت نيته صالحة، ولذلك قال الرسول ﷺ لما ذُكر له تخلف كل من أبي ذر وأبي خيثمة -رضي الله تعالىٰ عنهما-: «دعوه، إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم»[4].

٢. أن أبا خيثمة -رضي الله تعالىٰ عنه- تبع الرسول ﷺ ولم يدركه إلا في تبوك، وهي تبعد عن المدينة قرابة سبعمائة كيلًا، قطعها أبو خيثمة وحيدًا بسعىٰ خلف الرسول ﷺ وسيلته ناقة، وزاده تميرات معه. إن قوة الإيمان تصنع العجائب.

(١) محمد أبو شهبة، السيرة النبوية (٢/ ٤٩٩).
(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (١/ ٤٣٦)، (رقم ٣٣٥).
(٣) ابن حجر، فتح الباري (١/ ٤٣٧).
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية (٧/ ١٥٨).

٣. أن أبا ذر -رضي الله تعالىٰ عنه- لما رأىٰ بعيره ضعيفًا لا يستطيع أن يلحق بالركب، أخذ متاعه، وسار علىٰ أقدامه وحيدًا، حتىٰ لحق بالرسول ﷺ لم يلتمس لنفسه عذرًا بأن بعيره أعيا أو عجز عن المتابعة، فيقعد كما يقعد مختلقو الأعذار، ولكنه لم يسمح لنفسه أن تفكر هذا التفكير، وإنما انفروا خفافًا وثقالًا. فاللهم ارض عن أولئك الصحب الكرام، واجمعنا بهم في جناتك، فإنا نحبهم ونتقرب إلىٰ الله بمحبتهم لما صنعوه من نصرةٍ للرسول ﷺ، ولما ضحوا به في سبيل نشر الدين من نفس وأهل ومال ونفيس.

الثانية والعشرون: في تخلف الثلاثة -وهم من خيار الصحابة وكلهم أخيار- وتسويفهم حتىٰ فاتهم الركب، نأخذ الحذر من التسويف في الطاعة، وأن علىٰ المسلم أن يكون من أهل الحزم، والمبادرة إلىٰ الطاعة واستغلال الفرصة؛ لأنها قد لا تُتَاح مرة أخرىٰ، فالحزم كل الحزم في انتهازها والمبادرة إليها. وإياكم والعجز في تأخيرها والتسويف بها[1]. يقول ابن الجوزي -رحمه الله تعالىٰ-: (إياك والتسويف، فإنه أكبر جنود إبليس)[2]، وكم في القبور من قال: سوف أتوب، وأدركه الموت وهو لم يتب، وكم في القبور من قال: سوف أصلي، سوف أتصدق، سوف أتعلم، ونزل به القدر وهو لم يفعل شيئًا من ذلك.

الثالثة والعشرون: لما مرَّ الرسول ﷺ بالحجر -ديار ثمود- أسرع السير، ولذلك ينبغي لمن مرّ بديار المغضوب عليهم والمعذَّبين أن لا يدخلها، بل يسرع السير ويتقنع بثوبه حتىٰ يجاوزها ولا يدخل عليهم إلا باكيًا معتبرًا[3].

وهذا ليس خاصًا بديار ثمود، بل كل ديار وقع فيها عذاب من الله، وهذا يشمل أيضًا -من باب أولىٰ- قصدها بالسفر، والبقاء فيها للاطلاع.

(١) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٥٧٤).
(٢) ابن الجوزي، صيد الخاطر (ص ٢٠٦).
(٣) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٥٦٠).

الرابعة والعشرون: أصابت الناس مجاعة شديدة، فأشار عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- علىٰ الرسول ﷺ بأن يدعوالناس إلىٰ إحضار فضل أزوادهم، ثم يدعو بالبركة، فأمر الرسول ﷺ بذلك، فملأ الناس أوعيتهم وبقي فضل طعام في مكانه، والدرس الذي قصدته، أن الناس في غفلة عن طلب البركة، أو أن فئة منهم يطلبونها بطريقة غير صحيحة.

والبركة نعمة أنعم الله بها علىٰ عباده، وهي من خصائصه، فهو الذي يمنح البركة، وغيره يطلبها، والملاحظ أن الرسول ﷺ في كثير من المواقف التي يشح فيها الماء أو الطعام، يدعو بالبركة فيستجاب له، وهو بهذا يعلمنا أمرين:

أ. أن نطلب البركة، ولا نغفل عنها، ونتأسىٰ به ﷺ.

ب. أن نتوجه إلىٰ الله -جل شأنه- في طلبها، ونتقرب بذلك إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ.

ونحن بهذا وسط بين الفئتين، فئة غافلة عن البركة وطلبها، وفئة غلت في طلبها فطلبتها من الناس أحياءً وأمواتًا. وهم لا يملكون منها شيئًا لأنفسهم فضلًا أن يملكوها لغيرهم.

مع ملاحظة ما للرسول ﷺ من خصائص في هذه البركة، ليست لغيره، وهي بركته الذاتية التي لا توجد إلا فيه ﷺ دون غيره من صحابته كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم -رضي الله تعالىٰ عنهم- ومن دونهم فهو من باب أولىٰ.

الخامسة والعشرون: عندما ضلت ناقة الرسول ﷺ وتكلم بعض المنافقين وقالوا إن محمدًا يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء وهو لا يدري أين ناقته، أجاب عن مقالتهم هذه بأنه لا يعلم إلا ما علمه الله، ثم أخبرهم بمكان الناقة، فوجدوها كما ذكر الرسول ﷺ وبهذا نعلم أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب، إلا ما أعلمه الله به من

بعض الأمور، وقد قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل:٦٥].

السادسة والعشرون: مر الرسول ﷺ في طريقه ببيت فيه قربة معلقة فيها ماء، فطلب ماءً ليشرب، فقيل له إنها ميتة، فقال ﷺ: «دباغها طهورها».

هنا أقف عند تواضع النبي ﷺ وسهولته وبساطته، فهو سيد الأولين والآخرين، ومع ذلك يشرب من قربة ماء، معلقة في بيت علىٰ الطريق، وفيها أيضًا سهولة هذا الدين ويسره، فحتىٰ لو كانت القربة أصلها جلد ميتة، فالدباغ يطهره، مع أن هناك خلاف فقهي في مسألة طهارة الجلود بالدبغ، والتفريق بين مأكول اللحم وغير مأكول اللحم، وبعضهم يعمم ولا يستثني إلا جلد الكلب والخنزير ومحل ذلك كتب الفقه.

السابعة والعشرون: في غزوة تبوك صلىٰ الرسول مأمومًا خلف عبد الرحمن بن عوف -رضي الله تعالىٰ عنه- صلاة الفجر- كما مر- وفي ذلك فضيلة بارزة لعبد الرحمن رضي الله تعالىٰ عنه.

الثامنة والعشرون: جنازة عبد الله ذي البجادين -رضي الله تعالىٰ عنه- الذي توفي في غزوة تبوك، شهدها رسول الله ﷺ وهو الذي نزل في القبر، ودلاها في القبر أبو بكر وعمر رضي الله تعالىٰ عنهما. هذا الصحابي الفقير، يتولىٰ جنازته ويودعه رسول الله ﷺ بالدعاء له وإعلان رضاه عنه، وطلب رضا الله تعالىٰ عنه، ويساعده في ذلك أفضل رجلين بعده.

أي عظمة في الدين، وأي جنازة هذه الجنازة، ولذلك لما رآها عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه- في ظلام الليل أسرع إليها ورأىٰ هذا المشهد العظيم وسمع دعاء الرسول ﷺ فتمنىٰ أن يكون هو صاحب هذا القبر.

التاسعة والعشرون: يُخبر معاذ -رضي الله تعالىٰ عنه- بأنه وجد نفسه ينفرد بالرسول ﷺ في الطريق، فبادر يسأله عن العمل الذي يدخله الجنة، وورد في بعض

الروايات أنه قال له: أسألك عن أمر أسقمني وأمرضني؟ ثم بين ذلك بسؤاله عن العمل الذي يدخله الجنة ويباعده عن النار، هذا ومعاذ -رضي الله تعالىٰ عنه- لا يزال شابًا في العشرينيات من عمره، هذا هو الشاب الذي يجب أن يكون قدوة لشبابنا، تُدرس سيرته، هذا الشاب أرسله النبي ﷺ إلىٰ اليمن معلمًا وداعيًا إلىٰ الله، ولما عاد من اليمن بعد وفاة الرسول ﷺ خرج إلىٰ الشام معلمًا وداعيًا إلىٰ الله -عز وجل- ومجاهدًا في سبيله، ومات هناك بالطاعون وعمره قرابة ثلاث وثلاثون سنة.

وقد بين له الرسول ﷺ الأعمال التي تدخله الجنة، وزاده من العلم لما توسم فيه خيرًا، ودله علىٰ ملاك ذلك كله، وهو اللسان، ولما استغرب معاذ -رضي الله تعالىٰ عنه- ذلك قال له الرسول ﷺ قولته العظمىٰ التي تدوي في الآفاق تحذيرًا من هذه التبعة الكبرىٰ لزلات اللسان: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار علىٰ مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم».فالحذر الحذر ألف مرة من زلات اللسان، لمن يريد لنفسه النجاة من النار والعياذ بالله من النار.

الثلاثون: لم يكتفِ المنافقون بالتثبيط والإرجاف والتشكيك في النيات والاستهزاء، والسعي إلىٰ التفريق بين المؤمنين، بل سعوا إلىٰ محاولة قتل الرسول ﷺ وذلك بمضايقته في عقبة في الطريق لإسقاطه منها أثناء صعوده، ولكن الله -جل شأنه- عصمه منهم، ومن كل كيد كما وعده الله -جل شأنه- بذلك ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧].

الواحدة والثلاثون: لما وصل الرسول ﷺ وادي القرىٰ، أخبر أصحابه أنه مسرع إلىٰ المدينة، ولما أشرف علىٰ المدينة ورأىٰ جبل أحد قال: «هذا أحد جبل يحبنا ونحبه».

صلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه، حجرٌ في مكة، يسلم عليه، وجذعُ نخل في المسجد يحن إليه، وطعامٌ بيده يسبح، وماءٌ عذب يتفجر بين أصابعه، وجبل يحبه.

ولم يبق إلا أنت وأنا، ما موقفنا منه؟!، وقد قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»[1].

الثانية والثلاثون: في أمر الرسول ﷺ الصحابِيَيْنِ بأن يذهبا إلىٰ مسجد الضرار ويحرقاه ويهدماه، (بيان للسنة في القضاء علىٰ العمل الذي يُرَادُ منه الإضرارُ بالمؤمنين وتفريقُ كلمتِهم، فالداء العضال لا يعالج بتسكينه والتخفيف منه، وإنما يعالج بحسمه وإزالة آثاره حتىٰ لا يتجدد ظهوره بصورة أخرىٰ)[2]، إذ بالإمكان الاستفادة من هذا المبنىٰ في مصلحة من المصالح، لكن الرسول ﷺ أراد اجتثاث الشر من جذوره.

وينبغي لنا أن نلاحظ أن هذا موكول للإمام، وليس لأحد من الناس أن يتصرف هذا التصرف، فالصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- لم يفعلوا ذلك إلا عندما أمرهم الرسول ﷺ فالمرجع إليه ثم إلىٰ ولاة الأمر بعده والله أعلم.

ومثل ذلك ما ورد في قصة موسىٰ وهارون -عليهما الصلاة والسلام- مع السامري، قال تعالىٰ: ﴿ **قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا** ﴾ [طه:٩٧]. قال الشيخ السعدي -رحمه الله تعالىٰ-: (فأراد موسىٰ -عليه السلام- إتلافه بالإحراق والسحق وذريه في اليم ونسفه وهم ينظرون، حتىٰ لا تمكن إعادته ، ليزول ما في قلوبهم من حبه، كما زال شخصه، ولأن في إبقائه محنة، لأن في النفوس أقوىٰ داعٍ إلىٰ الباطل)[3].

الثالثة والثلاثون: من تحريق مسجد الضرار يقول القرطبي -رحمه الله تعالىٰ-:

(١) صحيح مسلم (١/ ٦٧)، (رقم ٤٤) من حديث أنس رضي الله تعالى عنه.
(٢) عبد العزيز الحميدي، المنافقون في القرآن الكريم (ص ٤٠١).
(٣) السعدي، تفسير السعدي (ص٥١٢).

(قال علماؤنا: (وكل مسجد بُني ضرارًا أو رياءً وسمعة فهو في حكم مسجد الضرار لا تجوز الصلاة فيه)[1].

فكما نهىٰ الرسول ﷺ أن يذبح في مكان يذبح فيه لغير الله، فكذلك يأتي النهي عن الصلاة في مكان يُصلىٰ فيه لغير الله نفاقًا ومكرًا وخداعًا للمؤمنين.

الرابعة والثلاثون: يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (قوله سبحانه عن مسجد الضرار: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة:١٠٨]، فإنه كان من أمكنة العذاب، قال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩]، وقد روي أنه لما هدم، خرج منه دخان، وهذا كما أنه ندب إلىٰ الصلاة في أمكنة الرحمة كالمساجد الثلاثة، ومسجد قباء، فكذلك نهىٰ عن الصلاة في أماكن العذاب. فأما أماكن الكفر والمعاصي، التي لم يكن فيها عذاب إذا جعلت مكانًا للإيمان أو الطاعة، فهذا حسن، كما أمر النبي ﷺ أهل الطائف أن يجعلوا المسجد مكان طواغيتهم. وأمر أهل اليمامة أن يتخذوا المسجد مكان بيعة كانت عندهم)[2].

الخامسة والثلاثون: من قوله تعالىٰ في آية مسجد الضرار ﴿وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٠٧]، هذا يدلنا علىٰ أن المقصد الأكبر والغرض الأظهر من وضع الجماعة تأليف القلوب علىٰ الطاعة، وذلك كي يقع الأنس بالمخالطة وتصفو القلوب من الأحقاد[3].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٢٥٤)، وانظر: الألباني، الثمر المستطاب في فقه السنة والكتاب (١/ ٣٩٨).

(٢) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق ناصر العقل (١/ ٢٦٧).

(٣) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٢٥٧).

السادسة والثلاثون: يقول الدكتور عبد العزيز الحميدي: (وإذا كان المنافقون في عصر النبي ﷺ قد أنشأوا مسجدًا للضرار، فإن العصور التي تلت ذلك العصر قد شهدت من أعمال المكر والخداع المتلبس بالتدين ما يربو أثره علىٰ ذلك المسجد الذي أقيم في عهد النبي ﷺ وخصوصًا في هذا العصر الذي تعقدت فيه الحياة وتلونت فيه أساليب المكر والخداع وأصبحت من كثرة ممارسة الناس لها تتخذ شكل الشرعية والأحقية، فقد أُنْشِئَتْ علىٰ مدىٰ العصور الإسلامية أحزابٌ تتَّسم بالتديُّن والدعوة إلىٰ الإسلام في ظاهرها، وهي في باطنها تحارب الإسلام الممثل في دعاته المخلصين، فتحاول أن تنفر الناس عنهم وتهدم في ساعات ما بنوه في سنوات)[1].

السابعة والثلاثون: إن علىٰ المسلم أن يتيقظ، فلا يكون مركبًا لمنافق أو فاسقًا أو عدوًا للدين، وهو لا يعلم، ولا يؤخذ بسبب غفلته، فهو حتىٰ إن كان يخاف الله ولا يحتال، ولا يكذب، فالمجتمع فيه الكذابون والمحتالون والمتآمرون، وهذا الشاب الذي استغل المنافقون غفلته، فجاؤوا به إمامًا لمسجد الضرار لتمرير مخططهم الظالم، لم يكن يعلم بذلك، ولكن استغله الأعداء وهو لا يدري عن الواقع، وربما كان ذلك بسبب ضعف الحذر من هؤلاء وأمثالهم، وهو درس للشباب أينما كانوا، أن لا يُسْتَغلُّوا في مواقف تسبب التشويه للدين، أو للمسلمين أو يكسب فيها العدو مكاسب لنفسه.

الثامنة والثلاثون: توفيق الله لكعب وصاحِبَيْهِ -رضي الله عنهم- حينما تميزوا من بين الآخرين بالصدق، فلم يختلقوا أعذارًا وإنما تحدثوا بالصدق فأعقبهم الله -سبحانه وتعالىٰ- الفلاح كل الفلاح، ولذلك أُمرنا بالتأسي بهم في قوله تعالىٰ في نهاية قصتهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

---

(١) عبد العزيز الحميدي، المنافقون في القرآن الكريم (ص ٤٠٥).

التاسعة والثلاثون: هناك جانب آخر أشار إليه كعب رضي الله تعالىٰ عنه، وذكر أن الله سلمه منه، وهو أن بعض بني قومه جاءوا إليه يزينون له الاعتذار ولو بعذر غير صحيح، ويقولون له: يكفيك استغفار الرسول ﷺ وكاد يصغي لهم حسب قوله، ولكن الله سلمه ونجاه.

وأمثال هؤلاء كثيرون في المجتمعات ممن يزينون المعاصي ويهونون من أثرها، ويُلِحُّون في ذلك، وأن طريق الاستغفار ميسور، وأن الله غفور رحيم، إلىٰ غير ذلك من الحجج الزائفة التي هي من جند الشيطان، بقصد إيقاعه في المعصية، والموفق من كان يقظًا لمثل هؤلاء وأساليبهم.

الأربعون: في هجر الرسول ﷺ للثلاثة الذين خلفوا وأمره بهجرهم، يقول ابن القيم - رحمه الله تعالىٰ-:(فيه دليل علىٰ هجران الإمام والعالم والمطاع لمن فعل ما يستوجب العتب ويكون هجرانه دواء له، بحيث لا يضعف عن حصول الشفاء به ولا يزيد في الكمية والكيفية عليه فيهلكه، إذ إن المراد تأديبه لا إتلافه)[1].

الواحدة والأربعون: في أمر الرسول ﷺ الناس بهجر هؤلاء الثلاثة الذين خلفوا جانب تحصين وحماية لهم، قال الإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ- في رواية الفضل: (وقيل له: ينبغي لأحد أن لا يكلم أحدًا؟ فقال: نعم، إذا عرفت من أحد نفاقًا فلا تكلمه؛ لأن النبي ﷺ خاف علىٰ الثلاثة الذين خلفوا، فأمر الناس أن لا يكلموهم)[2].

الثانية والأربعون: في إحراق كعب -رضي الله تعالىٰ عنه- للرسالة التي وردت إليه من ملك الغساسنة نأخذ المبادرة إلىٰ إتلاف ما يخشىٰ منه الفساد والمضرة في الدين[3] والتخلص منه، حتىٰ لا يعود إليه في يوم من الأيام.

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٥٧٨).

(٢) ابن مفلح، الآداب الشرعية (١/ ٢٢٩) وعنه نقلها الحجاوي في شرح منظومة الآداب لابن عبد القوي (١/ ١٠٠).

(٣) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٥٨١).

قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (ودل صنيع كعب- رضي الله تعالىٰ عنه- هذا علىٰ قوة إيمانه ومحبته لله ولرسوله وإلا فمن صار في مثل حاله من الهجر والإعراض قد يضعف عن احتمال ذلك. لكن لما احتمل عنده أنه لا يأمن من الافتتان حسم المادة وأحرق الكتاب ومنع الجواب)(١).

الثالثة والأربعون: في مبادرة كعب -رضي الله تعالىٰ عنه- إلىٰ إحراق الرسالة، درس مهم، فهذه المبادرة للتخلص من الرسالة قطع لمطامع النفس وشهواتها، فإن النفس شديدة الميل والطمع، فإذا تراخىٰ العقل في التأمل وأطال التفكير، قد يتحول ذلك من تمحيص لذات الفكرة والرأي إلىٰ التأسيس لما يوصل إلىٰ مطمع النفس وشهوتها، وذلك كالنفس شديدة الطمع للمال، فإذا وجد الإنسان مالًا في قارعة الطريق، فالنظر الصحيح يقتضي ألا يطيل العقل التفكر في ذلك، فأول الوقوف للإنسان السوي علىٰ المال يكون العقل حاضرًا ومتشوفًا إلىٰ الوصول إلىٰ صاحب المال، لكن إن تراخىٰ اشتغل العقل بالتأصيل لعكس ذلك، وتمكنت النفس الطامعة من السيطرة علىٰ العقل وقياده لما تريد(٢).

الرابعة والأربعون: تاب الله -جل شأنه- علىٰ هؤلاء الثلاثة توبة كريمة، شرف فيها قدرهم، ورفع منزلتهم، وألحقهم بالرسول ﷺ والصحب الكرام من المهاجرين والأنصار الذين كانوا مع الرسول ﷺ في الغزوة، فرد لهؤلاء الثلاثة اعتبارهم، ومكانتهم في المجتمع، قال تعالىٰ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

(١) ابن حجر، فتح الباري (٨/ ١٢١).

(٢) انظر: عبد العزيز الطريفي، الفصل بين العقل والنفس (ص١٨٨-١٨٩).

﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٧-١١٩]، فبدأ -جل شأنه- بذكر التوبة علىٰ النبي ﷺ ثم ثَنَّىٰ بالمهاجرين والأنصار الذين شاركوا في الغزوة، ثم ثلَّث بالثلاثة فألحقهم بهم، ثم أمر سائر الناس بأن يقتدوا بهم في الصدق الذي كانت تلك عاقبته.

وبعد هذا الضيق العظيم الذي نزل بهم، صار لهم بعد التوبة فرح ليس له نظير أبدًا، وصارت حالهم أيضًا بعد أن تاب الله عليهم، أكمل من قبل، وصار ذكرهم بعد التوبة، أكبر من قبل، فقد ذكروا بأعيانهم، قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ﴾[1].

الخامسة والأربعون: لاحظ كيف كان أثر الذنب علىٰ الثلاثة، لقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وأيقنوا بأن لا ملجأ من الله إلا إليه، هذا هو القلب الذي يتألم من الذنب، أما القلب الميت فهو يذنب وهو يضحك لا يشعر بثقل، ولا تضيق عليه الأرض، ولا تضيق نفسه، فلا يبادر إلىٰ التوبة، ولذلك فتأخير التوبة تدل علىٰ مرض، والمبادرة بعد الذنب إلىٰ التوبة دلالة حياة.

السادسة والأربعون: استحباب تهنئة من تجددت له نعمة دينية والقيام إليه إذا أقبل ومصافحته، فهذه سنة مستحبة وهو جائز لمن تجددت له نعمة دنيوية[2]. وانظر إلىٰ تأثيرها في نفس كعب رضي الله تعالىٰ عنه، عندما قال عن قيام طلحة -رضي الله تعالىٰ عنه- وتهنئته له، (والله لا أنساها لطلحة) رضي الله تعالىٰ عنهما.

السابعة والأربعون: عِظَمُ عاقبة الصدق، فقد كان به نجاة كعب وأصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم- وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (فالصدق مفتاح كل خير، كما أن الكذب مفتاح كل شر)[3]، ويقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وفيها عظم مقدار الصدق وتعليق سعادة الدنيا والآخرة والنجاة من

(١) انظر: ابن عثيمين، القول المفيد شرح كتاب التوحيد (٢/ ٤١٥).
(٢) انظر: ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٥١٢).
(٣) ابن تيمية، الاستقامة (٢/ ٤٦٧).

شرهما به، فما أنجىٰ الله من أنجاه إلا بالصدق ولا أهلك من أهلكه إلا بالكذب، وقد أمر الله -سبحانه- عباده المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين، فقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقد قسم -سبحانه- الخلق إلىٰ قسمين: سعداء وأشقياء، فجعل السعداء هم أهل الصدق والتصديق، والأشقياء هم أهل الكذب والتكذيب، وهو تقسيم حاصر ومطرد ومنعكس، فالسعادة دائرة مع الصدق والتصديق، والشقاوة دائرة مع الكذب والتكذيب. وأخبر -سبحانه وتعالىٰ- أنه لا ينفع العباد يوم القيامة إلا صدقهم وجعل علم المنافقين الذي يتميزون به هو الكذب في أقوالهم وأفعالهم، فجميع ما نعاه عليهم، أصله الكذب في القول والفعل، فالصدق بريد الإيمان ودليله ومركبه وسائقه وقائده وحليته ولباسه، بل هو لُبُّه وروحه، والكذب بريد الكفر والنفاق ودليله ومركبه وسائقه وقائده وحليته ولباسه ولُبُّه، فمضادة الكذب للإيمان كمضادة الشرك للتوحيد، فلا يجتمع الكذب والإيمان إلا ويطرد أحدهما صاحبه ويستقر موضعه، والله -سبحانه وتعالىٰ- أنجىٰ الثلاثة بصدقهم وأهلك غيرهم من المخلَّفين بكذبهم، فما أنعم الله علىٰ عبد بعد الإسلام بنعمة أفضل من الصدق الذي هو غذاء الإسلام وحياته ولا ابتلاه ببلية أعظم من الكذب الذي هو مرض الإسلام وفساده، والله المستعان)[1]. ويقول الشيخ العدوي: (ولو لم يكن من قبح الكذب سوىٰ فرار الكفرة أعداء صالح نبي الله منه لكفىٰ أهله معرةً وذمًا)[2].

الثامنة والأربعون: نأخذ من قبول الرسول ﷺ اعتذار المنافقين ظاهرًا أن من أساء إليك ثم جاء ليعتذر من إساءته، فإن عليك أن تقبل عذره وتكل أمره إلىٰ الله، يقول ابن قيم الجوزية -رحمه الله تعالىٰ-: (من أساء إليك ثم جاء يعتذر من إساءته،

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٥٩٠ - ٥٩١).

(٢) العدوي، دعوة الرسل إلى الله تعالى (ص ٣٩)، ويعنى الشيخ قول الله تعالى: ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ [النمل:٤٩].

فإن التواضع يوجب عليك قبول معذرته حقًا كانت أو باطلًا وتكل سريرته إلىٰ الله تعالىٰ كما فعل رسول الله ﷺ في المنافقين الذين تخلفوا عنه في الغزو، فلما قدم جاءوا يعتذرون إليه فقبل أعذارهم ووكل سرائرهم إلىٰ الله تعالىٰ)[١].

التاسعة والأربعون: أهمية النية في العمل، ونأخذها من موقفَيْنِ حدثا في غزوة تبوك:

الأول: حين بنىٰ المنافقون مسجدًا ادَّعوا فيه صلاح النية وبيَّتوا خلاف ذلك، فأمر الرسول ﷺ بإحراقه وهدمه وسمَّاه مسجدَ الضِّرارِ.

الثاني: لم يتمكن الصحابة الذين بالمدينة من مرافقة الرسول ﷺ حيث حبسهم العذر، ومع ذلك لهم أجر الذين خرجوا للجهاد، كما قال الرسول ﷺ: «إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم حبسهم العذر»[٢]، يقول النووي -رحمه الله تعالىٰ-: (وفي هذا الحديث فضيلة النية في الخير وأن من نوىٰ الغزو وغيره من الطاعات فعرض له عذر منعه حصل له ثواب نيته، وأنه كلما أكثر من التأسف علىٰ فوات ذلك وتمنىٰ كونه مع الغزاة ونحوهم، كثر ثوابه، والله أعلم)[٣].

فالمنافقون عملوا ولكن نيتهم فاسدة، فباؤوا بالخسران، وأصحاب الأعذار صلحت نياتهم فأثابهم الله وهم في بيوتهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وهذا يدلنا علىٰ أهمية صلاح النية.

---

(١) ابن القيم، مدارج السالكين (٢/ ٣٢١).
(٢) متفق عليه وقد سبق تخريجه في هذا المبحث.
(٣) يقول النووي -رحمه الله تعالى- في هذه النصوص وأمثالها « والمراد بمثل أجر فاعله أن له ثوابا بذلك الفعل كما أن لفاعله ثوابا ولايلزم أن يكون قدر ثوابهما سواء». شرح صحيح مسلم للنووي (١٣/ ٣٩)

الخمسون: نلحظ أن الرسول ﷺ قَبِلَ أعذارَ المنافقين الذين جاءوا يعتذرون إليه من عدم الذهاب إلىٰ تبوك، لكنه شدَّد علىٰ الثلاثة الصادقين المؤمنين، فأمر بهجرهم ثم أمرهم باعتزال نسائهم.

وذلك لأن الشدة والقسوة في هذا المقام مظهر للإكرام والتشريف بدليل العاقبة التي حصلت لهم، والمنافقون لا يستحقون العاقبة والنهاية التي فاز بها الثلاثة الذين خُلِّفُوْا وصدقوا في اعتذارهم وتوبتهم، فقد نزلت آيات تُتْلَىٰ في توبتهم والعفو عنهم، أما المنافقون فحقهم الإهمال وموعدهم يوم الحساب.

يقول ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (فأراد هجر الصادقين وتأديبهم علىٰ هذا الذنب، وأما المنافقون فجرمهم أعظم من أن يقابل بالهجر، فدواء هذا المرض لا يعمل في مرض النفاق ولا فائدة فيه، وهكذا يفعل الرب -سبحانه وتعالىٰ- بعباده في عقوبات جرائمهم، فيؤدب عبده المؤمن الذي يحبه وهوكريم عنده بأدنىٰ زلة وهفوة، فلا يزال مستيقظًا وحذرًا، وأما من سقط من عينه وهان عليه، فإنه يُخَلِّىٰ بينه وبين معاصيه، وكلما أحدث ذنبًا، أحدث له نعمة، والمغرور يظن أن ذلك من كرامته عليه ولا يعلم أن ذلك عين الإهانة وأنه يريد به العذاب الشديد والعقوبة التي لا عاقبة معها)[١].

الواحدة والخمسون: من كمال السياسة النبوية أنها لا تقتصر علىٰ العفو دائمًا، فلئن كان العفو هو السمة الغالبة في هديه ﷺ لكن الأخذ بالشدة والعقوبة أمر مهم، ولا تستقيم الأحوال إلا بذلك، ولهذا نجد في سيرة المصطفىٰ ﷺ وقائع عدة أخذ بالعقوبة، ومنها هذا الموقف مع الثلاثة الذين خلفوا، ومنها أيضا:

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٥٧٨).

١. أنه ﷺ هَم بأن يحرق بيوت المتخلفين عن صلاة الجماعة.

٢. وأنه أباح سلب الذي يصطاد في حرم المدينة لمن وجده[١].

٣. وحرق مسجد الضرار.

(١) صحيح مسلم (٢/ ٩٩٣)، (رقم ١٣٦٤) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه.

المبحث الرابع

فقه السيرة في حجة الوداع

في السنة التاسعة من الهجرة، بعث رسول الله ﷺ أبا بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- أميرًا علىٰ الحج، ليقيم للمسلمين حجهم، وأهل الشرك لا يزالون علىٰ منازلهم من حجهم لم يُصَدوا بعد عن البيت، ومنهم من له عهد مؤقت إلىٰ أمد. فلما خرج أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- بمن معه من المسلمين، أنزل الله -عز وجل- هذه الآيات من أول سورة التوبة: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ إلىٰ آخر الآية رقم (٣٣)[١]، فبعث عليًا -رضي الله تعالىٰ عنه- بعد أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- ليكون معه ويتولىٰ علي -رضي الله تعالىٰ عنه- بنفسه إبلاغ البراءة إلىٰ المشركين نيابةً عن رسول الله ﷺ لكونه ابن عمه من عصبته.

فلما قدم علىٰ أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- قال له أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-: أمير أو مأمور؟ فقال: بل مأمور، ثم مضيا، فأقام أبو بكر للناس حجهم حتىٰ إذا كان يوم النحر، قام علي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- فأذن بالذي أمره به رسول الله ﷺ وبعث معه أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- مؤذنين. روىٰ أبو هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- أن أبا بكر الصديق -رضي الله عنه- بعثه في الحجة التي

(١) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٨/ ٣١٩).

أمره عليها رسول الله ﷺ قبل حجة الوداع يوم النحر في رهط يؤذن في الناس: «ألا، لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»[١]، ويخبر أبو هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- يقول: (كنت مع علي -رضي الله تعالىٰ عنه- حيث بعثه رسول الله ﷺ إلىٰ أهل مكة ببراءة، وكنت أنادي حتىٰ صحل صوتي)[٢]. وفي سنن الترمذي عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-: (وكان علي ينادي، فإذا عَيِيَ قام أبو بكر فنادىٰ بها)[٣].

وأجَّل المشركين أربعة أشهر من يوم أذن فيهم، ليرجع كل قوم إلىٰ مأمنهم وبلادهم ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحد كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو إلىٰ مدته، فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ولم يطف بالبيت عريان، ثم قدما علىٰ رسول الله ﷺ[٤].

وكان هذا الأمر تمهيدًا لحج الرسول ﷺ في العام العاشر من الهجرة[٥]. حينما تجهز الرسول ﷺ للحج في شهر ذي القعدة وأمر الناس بالجهاز له.

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (٢/ ١٥٣)، (رقم ١٦٢٢)، وصحيح مسلم (٢/ ٩٨٢)، (رقم ١٣٤٧).

(٢) مسند الإمام أحمد (١٣/ ٣٥٦)، (رقم ٧٩٧٧) وقال المحقق إسناده حسن. ومعنى صحل صوتي أي: بح صوتي.

(٣) سنن الترمذي (٧/ ٩١)، (رقم ٣٠٩١) وقال عنه الألباني: صحيح الإسناد.

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية (٤/ ٢٠٣-٢٠٤)، وابن حجر، فتح الباري (٨/ ٣١٩).

(٥) قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- في زاد المعاد (٢/ ٩٦)» لا خلاف أنه لم يحج بعد هجرته إلى المدينة سوى حجة واحدة وهي حجة الوداع، ولا خلاف أنها كانت سنة عشر. واختلف: هل حج قبل الهجرة؟ فروى الترمذي، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: («حج النبي ﷺ ثلاث حجج: حجتين قبل أن يهاجر، وحجة بعدما هاجر معها عمرة»). قال الترمذي: هذا حديث غريب من حديث سفيان. قال وسألت محمدا - يعني البخاري - عن هذا، فلم يعرفه من حديث الثوري، وفي رواية لا يعد هذا الحديث محفوظا. ولما نزل فرض الحج، بادر رسول الله ﷺ إلى الحج من غير تأخير، فإن فرض الحج تأخر إلى سنة تسع أو عشر».

ولما أُذِّنَ في الناس (أن رسول الله ﷺ حاجٌّ، قدم المدينةَ بشرٌ كثيرٌ كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله)[1].

وخرج رسول الله ﷺ لخمس ليالٍ بقين من ذي القعدة[2]، ومعه ﷺ أكثر من مائة ألف حاج، وكان ﷺ معه نساؤه كلهن في الهوادج.

وبات تلك الليلة في ذي الحليفة، ثم أحرم بالحج والعمرة من ذي الحليفة، عن أنس بن مالك قال: حج النبي ﷺ علىٰ رحل رث وقطيفة تساوي أربعة دراهم أو لا تساوي، ثم قال: «اللهم حجة لا رياء فيها ولا سمعة»[3].

وفي ذي الحليفة، ولدت أسماء بنت عميس -رضي الله تعالىٰ عنها- محمد بن أبي بكر، فأخبر أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- النبي بذلك، فأمره أن يأمرها بأن تغتسل وتستثفر بثوب ثم تهل بالحج[4].

ثم واصل سيره، حتىٰ نزل بسرف -وهي علىٰ عشرة أميال من مكة- قال لأصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم-: «من لم يكن معه هدي، فأحب أن يجعلها عمرة، فليفعل، ومن كان معه هدي فلا»[5].

وفي سرِف، حاضت عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- فقال لها رسول الله ﷺ: «لعلك نفست؟»، قالت: نعم، قال: «فإن ذلك شيء كتبه الله علىٰ بنات آدم، فافعلي

(١) صحيح مسلم المطبوع مع شرح النووي (٨/ ١٧٢).

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية المطبوعة مع الروض الأنف (٤/ ٢٣٠)، وابن حجر، فتح الباري (٨/ ١٠٤).

(٣) رواه ابن ماجه في سننه (٦/ ٣٩٠)، (رقم ٢٨٩٠) وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (رقم ٢٦١٧).

(٤) صحيح مسلم (٢/ ٨٦٩)، (رقم ١٢١٠).

(٥) صحيح البخاري (٢/ ١٤١)، (رقم ١٥٦٠) وصحيح مسلم (٢/ ٨٧٥)، (رقم ١٢١١). من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها.

ما يفعل الحاج، غير أن لا تطوفي بالبيت حتىٰ تطهري»[1].

وواصل الرسول ﷺ سيره ملبيًا، والصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- يلبون، حتىٰ وصل إلىٰ مكة فبات بذي طوىٰ بعد أن أمضىٰ في الطريق ثماني ليال.

وفي صباح يوم الأحد، اغتسل ودخل المسجد الحرام وطاف وسعىٰ ولم يحل؛ لأنه كان قارنًا، وأمر من لم يكن معه هدي من أصحابه أن يحلوا إحرامهم وأن يجعلوها عمرة، فترددوا فقال ﷺ: «لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما أهديتُ، ولولا أن معي الهَدْيَ لأحللتُ»، فحل من لم يكن معه هدي من الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم.

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: كانوا يرون أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض، ويجعلون شهر المحرَّم صفرًا، ويقولون: إذا برأ الدبر، وعفا الأثر، وانسلخ صفر، حلت العمرة لمن اعتمر، قدم النبي ﷺ وأصحابه صبيحة رابعة مهلين بالحج، فأمرهم أن يجعلوها عمرة، فتعاظم ذلك عندهم، فقالوا: يا رسول الله، أي الحل؟ قال: «حل كله»[2].

ثم عاد الرسول ﷺ بعد فراغه من الطواف والسعي ونزل في الأبطح وأقام فيه الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء، حتىٰ صلىٰ الصبح يوم الخميس، كل ذلك يصلي بأصحابه هناك ولم يعد إلىٰ الكعبة بعد طوافه بها، حتىٰ رجع من عرفة.

قال ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-: (ثم نزل بأعلىٰ مكة عند الحجون وهو مهل بالحج، ولم يقرب الكعبة بعد طوافه بها حتىٰ رجع من عرفة)[3].

(١) صحيح البخاري (١/ ٦٨)، (رقم ٣٠٥) وصحيح مسلم (٢/ ٨٧٣)، (رقم ١٢١١) من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها.
(٢) صحيح البخاري (٢/ ١٤٢)، (رقم ١٥٦٤) وصحيح مسلم (٢/ ٩٠٩)، (رقم ١٢٤٠).
(٣) صحيح البخاري (٢/ ١٣٧)، (رقم ١٥٤٥).

وفي اليوم الثامن من ذي الحجة، توجَّه إلىٰ منىٰ، فصلَّىٰ بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء وبات تلك الليلة، ثم في الصباح، توجه إلىٰ عرفات ونزل بنمرة، حتىٰ إذا زالت الشمس سار حتىٰ أتىٰ بطن الوادي من أرض عرنة، فخطب الناس وهو علىٰ راحلته.

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالىٰ-: ثم مضىٰ رسول الله ﷺ علىٰ حجه، فأرىٰ الناس مناسكهم، وأعلمهم سنن حجهم، وخطب الناس خطبته التي بيَّن فيها ما بيَّن، فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال: «أيها الناس، اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، بهذا الموقف أبدًا، أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلىٰ أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة، فليؤدها إلىٰ من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون. قضىٰ الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله، وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان مسترضعًا في بني ليث، فقتلته هذيل فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية. أما بعد، أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدًا، ولكنه إن يُطع فيما سوىٰ ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه علىٰ دينكم، أيها الناس، إن النسيء زيادة في الكفر، يضل به الذين كفروا، يحلونه عامًا ويحرمونه عامًا، ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية، ورجب مضر، الذي بين جمادىٰ وشعبان. أما بعد أيها الناس، فإن لكم علىٰ نسائكم حقًا، ولهن عليكم حقًا، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن

ضربًا غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئًا، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا، أمرًا بيِّنًا، كتاب الله وسنة نبيه. أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم، اللهم هل بلغت؟ فذكر لي أن الناس قالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله ﷺ: اللهم اشهد. وكان الذي يبلغ عن الرسول ﷺ هو ربيعة بن أمية بن خلف، وكان صيتًا فكان يقول للناس: يقول الرسول ﷺ كذا[1]. وأمر بالسمع والطاعة لولاة الأمر[2].

وبعد أن فرغ من خطبته، نزل عليه قول الله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٣][3].

وعلَّم الناس الدعاء، فعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده-رضي الله عن الجميع- أن النبي ﷺ قال: «خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو علىٰ كل شيء قدير»[4].

ثم وقف في عرفات، فلم يزل واقفًا يدعو، حتىٰ غربت الشمس، ثم توجه نحو مزدلفة فبات فيها، فلما طلع الفجر من مزدلفة، صلىٰ بالناس الصبح مغلسًا، ثم دعا عند المشعر الحرام طويلًا، ثم توجه نحو منىٰ قبل الشروق.

(١) انظر: ابن هشام، السيرة (٢/ ٦٠٣-٦٠٥). وانظر: صحيح مسلم (٢/ ٨٨٦)، (رقم ١٢١٨)

(٢) أخرجه الترمذي وصححه الألباني صحيح سنن الترمذي (١/ ١٩٠)، (رقم ٥٠٢).

(٣) انظر: الطبري، تفسير الطبري، تحقيق التركي (٨/ ٩١).

(٤) الترمذي، سنن الترمذي (٥/ ٥٧٢)، (رقم ٣٥٨٥) وحسنه الألباني.

عن جابر -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: دفع رسول الله ﷺ وعليه السكينة، وأوضع في وادي محسر، فأراهم مثل حصىٰ الخذف، وأمرهم السكينة، وقال: «لتأخذ أمتي منسكها، فإني لا أدري لعلي لا ألقاهم بعد عامهم هذا»[1].

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو علىٰ ناقته: «القط لي الحصىٰ»، فلقطتُ له سبع حصيات هن حصىٰ الخذف، فجعل ينفضهن في كفه ويقول: «أمثال هؤلاء فارموا» ثم قال: «يا أيها الناس، إياكم والغلو في الدين، فإنه أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين»[2].

وعن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال: رأيت النبي ﷺ يرمي علىٰ راحلته يوم النحر، ويقول: «لتأخذوا مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه»[3].

وخطب الرسول ﷺ الناس في منىٰ، وودعهم. فقالوا: هذه حجة الوداع[4]. ومما قال في خطبته: «ألا هل بَلَّغْتُ؟»، قالوا: نعم، قال: «اللهم اشهد، فليبلِّغ الشاهدُ الغائبَ، فرُبَّ مُبَلَّغٍ أوعىٰ من سامع، فلا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضُكم رِقَابَ بعضٍ»[5].

وحلق الرسول ﷺ ودعا للمحلقين ثلاثًا وللمقصرين واحدة، عن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم اغفر للمحلِّقين»، قالوا: وللمقصِّرين، قال: «اللهم اغفر للمحلِّقين»، قالوا: وللمقصِّرين قالها ثلاثًا، قال: «وللمقصِّرين»[6].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٢/ ٤١٩)، (رقم ١٤٥٥٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢ / ١٧٧)، (رقم ٢٤٥٥).

(٣) صحيح مسلم (٢/ ٩٤٣)، (رقم ١٢٩٧).

(٤) صحيح مسلم (٢/ ٩٤٣)، (رقم ١٢٩٧).

(٥) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٣/ ٥٧٤)، (رقم ١٧٤١).

(٦) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٣/ ٥٦١)، (رقم ١٧٢٨)، وانظر: تاريخ وقوع هذا الدعاء في فتح الباري (٣/ ٥٦٢ - ٥٦٤).

ثم تطيب وأفاض فطاف طواف الإفاضة، وشرب من زمزم، ثم رجع وأقام في منىٰ.

وجاء عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- إلىٰ الحجر فقبَّله وقال: (إني أعلم أنك حجر لا تضرّ ولا تنفع ولولا أني رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقبِّلك ما قبَّلْتُكَ)[1].

وعن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالىٰ عنهما- أن رسول الله ﷺ وقف في حجة الوداع فجعلوا يسألونه، فقال رجل: لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح، قال: «اذبح ولا حرج»، فجاء آخر، فقال: لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي، قال: «ارم ولا حرج»، فما سُئِلَ يومئذٍ عن شيء قدّم ولا أخّر إلا قال: «افعل ولا حرج»[2].

وفي أواسط أيام التشريق، نزل عليه قول الله تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ١-٣].

وبعد أن أكمل رمي الجمار أيام التشريق، نفر النبي ﷺ من منىٰ فنزل بخيف بين كنانة من الأبطح وأقام هناك بقية يومه وليلته، ولما شكت عائشة -رضي الله عنها- أن الناس يعودون بحج وعمرة وتعود بحج بسبب حيضها، أمر أخاها عبد الرحمن بن أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنهما- أن يخرج بها إلىٰ التنعيم فاعتمرت فقال: «هذه مكان عمرتك»[3].

وعن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- أن صفية بنت حيي -رضي الله تعالىٰ عنها- زوج النبي ﷺ حاضت في حجة الوداع، فقال النبي ﷺ: «أحابستنا هي»، فقلت: إنها قد أفاضت يا رسول الله وطافت بالبيت، فقال النبي ﷺ: «فلتنفر»[4].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح (٣/ ٤٦٢)، (رقم ١٥٩٧).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح (٣/ ٥٦٩)، (رقم ١٧٣٦).
(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٣/ ٤١٥)، (رقم ١٥٥٦).
(٤) صحيح البخاري (٥/ ١٧٦)، (رقم ٤٤٠١) وصحيح مسلم (٢/ ٩٦٤)، (رقم ١٢١١).

أي أن صفية -رضي الله تعالىٰ عنها- حاضت بعد أن طافت طواف الإفاضة، فسقط عنها طواف الوداع.

(وصلّىٰ هناك الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثم رقد رقدة بالمحصب، ثم ركب إلىٰ البيت فطاف به)[1] طواف الوداع ثم لما قضىٰ مناسكه توجَّه إلىٰ المدينة النبوية[2].

وعن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- أنها كانت تحمل من ماء زمزم وتخبر (أن رسول الله ﷺ كان يحمله)[3].

وفي طريقه إلىٰ المدينة، نزل غدير خُمّ[4]. عن زيد بن أرقم -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قام رسول الله ﷺ يومًا فينا خطيبًا بماء يدعىٰ خُمًّا بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنىٰ عليه ووعظ وذكر ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما: كتاب الله، فيه الهدىٰ والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به»، فحث علىٰ كتاب الله ورغب فيه ثم قال: «وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي»، فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: هم

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٣/ ٥٩٠)، (رقم ١٧٦٤).

(٢) انظر: القسطلاني، المواهب اللدنية (٤/ ٤٦٢- ٤٦٣).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، (٣/ ٢٨٦)، (رقم ٩٦٣) وقال: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه» وصححه الألباني.

(٤) غدير خمّ: اصله من غادرت الشيء إذا تركته، وهو فعيل بمعنى مفعول، كأن السيل غادره في موضعه، فصار كل ماء غودر من ماء المطر في مستنقع- صغيرا كان أو كبيرا- سمي غديرا. ولكنه لا يبقى إلى زمن القيظ. وغدير خم: مكان بين مكة والمدينة، يوجد مكانه شرق الجحفة، على ثمانية أكيال منها، ويعرف اليوم (الغربة)» محمد شراب، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة (ص٢٠٨).

آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس، قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم[1].

الفوائد المستخرجة من حجة الوداع

الأولىٰ: في بعث الرسول ﷺ أبا بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- أميرًا علىٰ الحج في السنة التاسعة، فضيلة ظاهرة لأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه-.

الثانية: في بعث الرسول ﷺ لعلي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- ليبلغ عن الرسول ﷺ البراءة من الشرك ومنع المشركين من الحج بعد ذلك العام، فضيلة ظاهرة لعلي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه-.

الثالثة: أن حج أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- وإبلاغ علي -رضي الله تعالىٰ عنه- كان تمهيدًا لحج الرسول ﷺ والمقصود منه تطهير مكة من الشرك والمشركين، حتىٰ إذا حَجَّ رسول الله ﷺلم يجد في مكة شركًا ولا مشركًا.

وفي ذلك توحيد التأسي بالرسول ﷺ فلا ترىٰ تلك الجموع من الحجاج إلا توحيدًا لله، وتلبية لا شرك فيها، والجميع يقف بعرفة وينصرف منها بوقت واحد، خلف رسول الله ﷺ وكذلك في مزدلفة، أما لو حج الرسول ﷺ ولا يزال هناك مشركين يحجون، لكان هناك صورتان من الحج قد يلتبس بعضها علىٰ من هو حديث عهد بالإسلام ممن حج في ذلك العام.

الرابعة: أن إبلاغ البراءة من المشركين التي حملها علي -رضي الله تعالىٰ عنه- كانت لمرة واحدة تحققت بها الغاية، وهي تطهير مكة من المشركين، ومن ثم فلا يُشْرَع تكرارُها بدليل أن النبي ﷺ حجَّ حجة الوداع، ولم يأمر عليًا ولا غيره بالبراءة،

(١) صحيح مسلم المطبوع مع شرح النووي (١٥/ ١٧٩ - ١٨٠)، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم فضائل علي رضي الله عنه، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٤/ ٣٣٠)، (رقم ١٧٥٠) حيث جاء في الطريق الأول للحديث ما نصه: (لما دفع النبي ﷺ من حجة الوداع ونزل غدير خم... الخ)، وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٥/ ٢٠٩).

وحج أبو بكر وعمر وعثمان وعلي - رضي الله تعالىٰ عنهم- من بعده بالناس، وهم الخلفاء الراشدون لم يأمروا بالبراءة، مما يؤكد عدم شرعية تكرارها.

الخامسة: إن البراءة من الشرك والمشركين، من أعظم مقاصد الدين، فما بعث الرسل إلا لتعليم الناس التوحيد وإفراد الله بالعبادة، والخلاص من الشرك وأهله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥]، تأمل الحصر الوارد في الآية، تدرك أهمية التوحيد، والسلامة من الشرك بإخلاص العبادة لله سبحانه وتعالىٰ.

السادسة: إن إعلان البراءة فيها تعليم للناس، أنه كما خلَّص الرسولُ ﷺ بيتَ الله وحرمه من المشركين، ومنعهم من دخوله، فإن علىٰ كل مسلم أن يخلص بيته من الشرك، ووسائله، وأعمال المشركين، كتعليق الصور والتماثيل.

وكذلك تخليص القلوب من الشركيات والتعلق بغير الله -سبحانه وتعالىٰ- وتطهير الاعتقاد نفعًا أو ضرًا من أن يكون بيد غير الله -سبحانه وتعالىٰ- شيء من ذلك.

وكذلك تربية القلوب علىٰ بغض المشركين وأنهم أعداء الله، فما رضوا بالله ربًا ولا معبودًا، بل دعوا معه غيره، واتجهوا إلىٰ القبور والأشجار والأحجار، وعلقوا قلوبهم بها، يؤملونها في جلب خير لهم أو دفع ضر عنهم.

السابعة: يقول النووي -رحمه الله تعالىٰ-: (لا يحج بعد العام مشرك)، موافق لقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَا﴾ [التوبة:٢٨] والمراد بالمسجد الحرام ها هنا الحرم كله فلا يُمَكَّن مشرك من دخول الحرم بحال، حتىٰ لو جاء في رسالة أو أمر مهم لا يمكن من الدخول بل يخرج إليه من يقضي الأمر المتعلق به ولو دخل خفية ومرض ومات نبش وأخرج

من الحرم)[١].

الثامنة: للقيم والأخلاق المقام الرفيع في الإسلام، ومن ذلك الوفاء بالعهود، وهنا نجد الوفاء بالعهد الذي التزمه الرسول ﷺ للمشركين، فمن كان له عهد فهو إلىٰ مدته، امتثالًا لقول الله -جل شأنه-: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٤].

التاسعة: بهذا النداء العظيم الذي كان يرفعه علي ومن معه -رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين- قضىٰ الإسلام علىٰ معالم الشرك في مكة، وأصبحت مهيأةً بالتوحيد لاستقبال الرسول ﷺ حاجا، حجته الكبرىٰ، حجة الوداع معه أكبر جمع من المؤمنين.

العاشرة: نلحظ أن النداء الذي كان ينادي به علي -رضي الله تعالىٰ عنه- بأمر الرسول ﷺ ربط بين أمرين هما الشرك، والطواف بالبيت عريان، وهذا يلفت أنظارنا إلىٰ أن التعري ليس عملًا ثانويًا، كلا، بل إن للتعري عند العرب وفي الإسلام شأنًا كبيرًا:

١. يقول الأزرقي -رحمه الله تعالىٰ- في أخبار مكة: (وكانت الجارية إذا حاضت أدخلت دار الندوة، ثم شَقَّ عليها بعض ولد عبد مناف بن عبد الدار درعها ثم درَّعها إياه، وانقلب بها أهلها فحجبوها)[٢]. فهم كانوا يهتمون بالحجاب. والطواف عاريًا كان أمرًا طارئًا فيهم، أوجدته بعض المعتقدات الفاسدة، والغالب أن أصله كان اقتصاديًا ألبس لباسًا دينيًا، لمزيد من تحريك اقتصاد مكة، والاستفادة من الحجاج والمعتمرين القادمين إلىٰ مكة ليشتروا ثيابًا جديدة من مكة، إذ لا يجوز حسب معتقداتهم الجاهلية أن يطوف بثياب قدم بها من الحل، فإما أن يشتري ثيابًا

(١) النووي، شرح صحيح مسلم (٩/ ١١٦).
(٢) اخبار مكة (ص ١٧٨).

جديدة يطوف بها أو يطوف عريان، والأصل تحريك الاقتصاد، ثم تحول إلىٰ معتقد ديني خالص لديهم.

٢. إن للتعري ارتباطًا وثيقًا بجوهر النفس الإنسانية، منذ بدء الخليقة، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف:٢٧]، فهو أول عمل وقع نتيجة المعصية. أو نقول هو أول عقوبة، فالتعري في جوهره عقوبة تحل بابن آدم؛ بسبب معصيته لله سبحانه وتعالىٰ.

٣. إن لكلٍ من العري واللباس في المجتمع، دلالة خاصة، تعبر كل منهما عن حضارة معينة، عقيدة ومنهج حياة. لذلك فإن التعري من سبل الحرب الحضارية التي يشنها أعداء الإسلام في كل عصر علىٰ المجتمع المسلم لتعريته ثم تدميره أخلاقيًا.

٤. تأمل هذه الآية النبوية العظيمة، التي يخبرنا عنها الرسول ﷺ ولم تقع في عهده، ورآها الناس من بعده كما وصفها ﷺ عن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»[1]. واضح أن سبب كون تلك النساء من أهل النار، وحرمانهن من رائحة الجنة هو التهاون في اللباس.

فليس التعري والتهاون في اللباس للرجال والنساء، مسألة اجتماعية، تتطور مع المجتمع، وتختلف من بيئة إلىٰ أخرىٰ، بل هي مسألة دينية عقدية، هي حرب علىٰ الإسلام والمسلمين، أول من أعلنها هو الشيطان الرجيم، يوم وقع أبونا آدم

(١) صحيح مسلم (٤/ ٤٥٤)، (رقم ٢١٤٩).

-عليه السلام- فيما نهاه الله عنه. ثم تبع الشيطانَ أعوانُه من شياطين الإنس في إفساد المجتمعات الإسلامية.

وهو مسألة أصيلة في أخلاق العرب وقيمهم، كانت تفصل فيه قريش في دار الندوة لأهميته، وتُلبس الفتاة القرشية حجابها في دار الندوة إذا بلغت المحيض، تأكيدًا علىٰ قدسيته ومكانته فيهم.

ولذلك فالمسؤولية عظيمة علىٰ الأب والأم في المحافظة علىٰ لباس أولادهم بوجه عام وبناتهم بوجه خاص، وتنشئتهم علىٰ التستر والحشمة، وهي من الأمانة التي يحملها الأبوان تجاه أولادهما لتنشئتهما منذ صغر الأولاد علىٰ ذلك.

الحادية عشرة: التعليم بالقدوة، فقد كان من مقاصد إعلان خروج الرسول ﷺ بنفسه، تعليم الناس مناسك الحج تعليمًا عمليًا يؤدي أمامهم مناسك الحج، مؤكدًا عليهم هذا التعليم العملي بقوله: «خذوا عني مناسككم»، ويؤدِّيها المسلمون كما أدَّاها ﷺ.

الثانية عشرة: حرص الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- علىٰ التأسِّي بالرسول ﷺ والاقتداء به، فقد اجتمع معه ﷺ جمع من الحجاج لم يجتمع معه من قبل مثله، كلهم يريد أن يتأسَّىٰ بالرسول ﷺ ويأخذ عنه.

الثالثة عشرة: وصف أنس -رضي الله تعالىٰ عنه- رحل الرسول ﷺ فقال: حج النبي ﷺ علىٰ رحل رث وقطيفة تساوي أربعة دراهم أو لا تساوي، ثم قال: «اللهم حجة لا رياء فيها ولا سمعة»، هذا هو التواضع لله-سبحانه وتعالىٰ-فالحج ليس مباهاة ولا سمعة، ولا ليقال فلان حج، أو (الحاج فلان).

وإنما عبودية لله وتذلل، وتجرد في اللباس إلا من ردائين، ليستحضر ضعفه ونهايته ولحظة خروجه من هذه الدنيا، فيستكين لله ويخضع له ويقضي هذه الأيام

المعدودة في عبودية لله -سبحانه وتعالىٰ- والشعث والغبرة الحاصلة من أعمال الحج عمل صالح وقربة عند الله سبحانه وتعالىٰ.

الرابعة عشرة: وقفت عند خروج أسماء بنت عميس -رضي الله تعالىٰ عنها- التي شرعت في أعمال الحج وهي في نهاية شهرها التاسع، لتضع وليدها في أول محطة يقف فيها الرسول ﷺ (ذو الحليفة) التي لا تبعد عن المدينة إلا مسافة قصيرة.

حرصتْ أن ترافق الرسول ﷺ وتتأسىٰ به، رغم هذا العذر البين، والمشقة الكبيرة الحاصلة لها.

ما أعظم أولئك الصحب الكرام! وما أقوىٰ الإيمان في نفوسهم! وما أشد محبتهم للرسول ﷺ وحرصهم علىٰ التأسي به ومرافقته وموافقته!

كلما تذكرت هذا الموقف، شعرت بالخجل من واقع نعيشه، يحرص فيه الكثير علىٰ التملص من الأعمال الصالحة لأوهىٰ الأعذار، وتحجَّجا بأن الدين يُسر، وأن الله تعالىٰ قد رفع عنا الحرج.

الخامسة عشرة: أسلوب التدرُّج الذي سلكه الرسول ﷺ مع أصحابه في إذهاب ما في قلوبهم من أمر الجاهلية في تحريم العمرة في أشهر الحج، وذلك عندما أمرهم بأن يفسخوا الحج بالعمرة أمر تخيير، ثم أكَّد عليهم بعد ذلك، ثم قال: «لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما سقتُ الهديَ»، وجعله أمرًا إلزاميًا لمن لم يسق الهديَ.

السادسة عشرة: نلحظ أن الرسول ﷺ سلك أسلوب التدرج في إبطال الأمور الجاهلية، لعلمه أن هذه العوائد تتأصل في النفوس، ويصعب انتزاعها، ويدل ذلك علىٰ أن الرسول ﷺ مع التدرج الذي سلكه، إلا أن الأمر لم يكن بالسهل علىٰ نفوس بعض الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- رغم مرور سنين طويلة من إسلامهم، فحجة الوداع كانت كما هو معلوم في السنة العاشرة، حتىٰ أنهم تساءلوا:

يا رسول الله، أنذهب إلىٰ منىٰ وذكر أحدنا يقطر منِيًّا؟ لأنهم عاشوا زمنًا طويلًا مع ما تعارفت عليه الجاهلية من كون العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور، كما مر معنا في حديث ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-وهذا درس مهم للدعاة في مواجهة عادات الأقوام المدعوين، بخاصة إذا كان المدعوون من تلك القبائل المتأصل فيها بعض العادات، فعلىٰ الداعية أن يتدرج في ذلك، ولا يواجه القوم مباشرةً من أول الأمر، فقد يؤدي ذلك إلىٰ النفور، وقد أشرت إلىٰ شيء من هذا المعنىٰ في غزوة الطائف وتعامل الرسول ﷺ مع وفد ثقيف.

السابعة عشرة: في قول الرسول ﷺ: «لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما أهديتُ، ولولا أن معي الهَدْيَ لأحللتُ»، يقول الشيخ محمد العثيمين -رحمه الله تعالىٰ- في الجمع بين هذا القول وقوله ﷺ: «وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا»[1]، أن الذم علىٰ قول كلمة (لو) ندمًا وتحسرًا، أو اعتراضًا علىٰ القدر، أما لو قاله الإنسان خبرًا لا اعتراضًا علىٰ القدر ولا ندمًا علىٰ ما وقع، فإن هذا لا بأس به ومنه قول النبي ﷺ في حجة الوداع «لو استقبلت...»وليس هذا من باب التمني مثل ما ذهب إليه بعض العلماء، وأن لو استخدمت في تمني الخير، بل نقول هي خبر، وهذا يقع كثيرًا، وقد تقول للشخص: لو زرتني بالأمس لأكرمتك وما أشبه ذلك، تريد بذلك الخبر، وعلىٰ ذلك يكون استعمال (لو) علىٰ وجوه:

١. أن يكون اعتراضًا علىٰ المقدر، فهذا لا يجوز، وهو منازعة للرب -عز وجل- في قضائه وقدره.

٢. أن يكون مثارًا للندم والتحسر، فهذا لا يجوز أيضًا، لنهي النبي ﷺ عنه كما في الحديث أعلاه.

---

(١) صحيح مسلم (٤/ ٢٠٥٢)، (رقم ٢٦٦٤).

٣. أن يكون خبرًا عن الواقع فلا بأس به؛ لأنه لا يحمل الإنسان علىٰ الندم، وليس فيه منازعة لقدر الله جل شأنه، وهذا يقع كثيرًا في كلام الناس[١].

الثامنة عشرة: في نزول الرسول ﷺ في الأبطح، وصلاته فيه مع أصحابه جمعًا وقصرًا، وتركه النزول إلىٰ الكعبة، فلم يطف بالبيت نافلة تلك المدة، ولم يصل الفريضة بالمسجد الحرام، مع قربه منه، فوائد منها:

١. ما كان عليه الرسول ﷺ من الرفق بأمته ورحمته بهم وشفقته عليهم، فلو نزل لنزل أصحابه رضي الله تعالىٰ عنهم، ولو نزل لشق ذلك علىٰ أمته من ساكني تلك المناطق، ومن الحجاج والمعتمرين أيضًا.

٢. فيه دلالة علىٰ أن تضعيف الصلاة يشمل جميع الحرم وليس المسجد الحرام. ويبقىٰ الفضل للمسجد الحرام في كثرة الجماعة ونحو ذلك، لا التضعيف الوارد في الحديث، والله أعلم.

٣. يظهر لي -والله أعلم- من خلال الاستقراء أن عبودية الرسول ﷺ لربه، تجد فيها السهولة واليسر فيما يخشىٰ علىٰ أمته المشقة في التأسي به ﷺ فيختار العبادة الأرفق والأيسر، وذلك مثل الحالة التي هنا، ومثل صلاته بالليل لما اجتمع الناس عليه وصلوا خلفه، فلم يخرج، فهاهنا فيه مشقة علىٰ الناس لو خرج، وأما العبادات الخاصة به كقيام الليل منفردًا فهو يقوم الليل حتىٰ تفطرت قدماه ويكثر من الصيام، وذلك لأنه أمر شخصي لا يعلم عنه الناس.

التاسعة عشرة: في خطبة الرسول ﷺ في عرفة، وفي هذا الجمع العظيم، ركز الرسول ﷺ علىٰ قضايا مهمة حرص علىٰ إبلاغها للأمة ولكي يتناقلونها ويبلغونها لمن خلفهم ولمن بعدهم، وأبرز هذه القضايا:

---

(١) انظر: ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم، تفسير سورة آل عمران (٢/ ٤٣١) عند تفسير قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ﴾ [ال عمران:١٦٨]

١. عِظَمَ حق المسلم، وحرمة دمه وماله وعِرْضه وأنه مُصَان لا يجوز انتهاك حرمة شيء من ذلك.

٢. إبطال أمور الجاهلية المخالفة للإسلام، نأخذها من قوله ﷺ: «ألا كل شيء من أمر الجاهلية موضوع تحت قدمي هذا» وما أكثر تلك الأعراف الجاهلية المتوارثة لدىٰ بعض القبائل التي يكثر فيها الجهل وقلة العلم الشرعي.

٣. تحريم الربا والمبادرة فورًا إلىٰ ترك الموجود منها.

٤. إن علىٰ الداعية إلىٰ الله إذا نهىٰ عن شيء أن يبدأ بنفسه وأقاربه في التخلص من تلك المنكرات التي نهىٰ عنها.

٥. تعظيم أمر السمع والطاعة لولاة الأمر من قوله ﷺ: «وأطيعوا أمراءكم تدخلوا جنة ربكم»[1].

٦. تعظيم حقوق النساء.

٧. الوصية بكتاب الله والسنة والأمر بالتمسك بهما، وأنه لا سبيل للنجاة إلا بالتمسك بهما.

٨. الوصية بآل بيت النبي ﷺ ورضي الله تعالىٰ عنهم.

العشرون: في قول الرسول ﷺ: «خيرالدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو علىٰ كل شيء قدير». نقل المباركفوري -رحمه الله تعالىٰ- قول الطيبي -رحمه الله تعالىٰ-: (قوله وخير ما قلت والنبيون من قبلي لا إله إلا الله. بيان لذلك الدعاء. فإن قلت: هو ثناء. قلت: في الثناء تعريض بالطلب)[2]. فهذا يفيدنا بأمرين:

(١) سبق تخريجه قريبًا.

(٢) المباركفوري، تحفة الأحوذي (١٠/ ٣٣).

١. مكانة التوحيد عند الله -جل شأنه- وعظم مقام أصحاب التوحيد، فالذي يعلن التوحيد في هذا المقام، ويعلن التجرد من الشرك والتخلص منه وإفراد الله -جل شأنه- بالعبادة له مقام عظيم عند الله، فخير ما نتقرب به إلىٰ الله -جل شأنه- أن نوحده ونفرده بالعبادة، فلا تتعلق القلوب بغيره، ولا ندعو إلا هو، ولا نرجو أحدًا غيره في جلب خير، أو دفع شرعنا.

٢. أن الثناء دعـاء، بل هو من أبلغ الدعاء، وأرفعه، بدليل أنه خير ما قال محمد ﷺ والنبيون من قبله.

الواحدة والعشرون: التحذير من الغلو في الدين وأنه من أبرز أسباب هلاك الأمم، وكذلك هو من أوضح أسباب تشويه الدين وأهله، نأخذ هذا من تنبيه الرسول ﷺ لأمته لهذا الأمر، وتحذيرها منه لكون هذا الداء أهلك من كان قبلنا من الأمم، كما مر، وقد قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (ومن كيده -أي الشيطان- أنه يشام النفس حتىٰ يعلم أي القوتين تغلب عليها: قوة الإقدام والشجاعة أو قوة الانكفاف والإحجام والمهانة؟ فإن رأىٰ الغالب علىٰ النفس المهانة والإحجام أخذ في تثبيطه وإضعاف همته وإرادته عن المأمور به وثقَّله عليه، فهون عليه تركه حتىٰ يتركه جملة أو يقصر فيه ويتهاون به، وإن رأىٰ الغالب عليه قوة الإقدام وعلو الهمة، أخذ يقلِّل عنده المأمور به ويوهمه أنه لا يكفيه وأنه محتاج معه إلىٰ مبالغة وزيادة، فيقصر بالأول ويتجاوز بالثاني كما قال بعض السلف: (ما أمر الله تعالىٰ بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان إما إلىٰ تفريط وتقصير وإما إلىٰ مجاوزة وغلو، ولا يبالي بأيهما ظفر، وقد اقتطع أكثر الناس إلا أقل القليل في هذين الواديين: وادي التقصير، ووادي المجاوزة والتعدي، والقليل منهم جدًا الثابت علىٰ الصراط الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه)[1]. وقبله قال شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله

(١) ابن القيم، إغاثة اللهفان (١/ ١١٥ - ١١٦).

تعالىٰ-: (فإن الشيطان قصده أن يحرف الخلق عن الصراط المستقيم ولا يبالي إلىٰ أي الشقين صاروا)[1].

وهذا الداء واقع في الأمة، وعانته عبر العصور، فقد عانت غلو الخوارج في وقت مبكر، بدءًا من خروجهم علىٰ الخليفة الراشد علي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- ثم خروجهم علىٰ الخلفاء من بعده، ومازالت هذه الطائفة يتجدد نشاطها حينًا بعد حين؛ بسبب الجهل وإلزام النفس والناس بما ليس في الدين، مما أوقع أضرارًا بالغة وتشويهًا وتنفيرًا عظيمًا عن الإسلام.

الثانية والعشرون: استغلال المناسبة في الدعوة إلىٰ الله، فالرسول ﷺ يأمر بلقط الحصىٰ لرمي الجمار ويأخذه في مثل حصىٰ الخذف، ثم يستغل هذه المناسبة التي يغلو فيها بعض الأشخاص برمي الجمار بحصىٰ كبار، ظنًا منه أن ذلك أزكىٰ في العبادة، فنهىٰ عن هذا ونهىٰ عمومًا عن الغلو في الدين.

الثالثة والعشرون: في نزول قول الله تعالىٰ: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة:٣].

كمل الدين وتمت النعمة، والحمد لله، لكن علىٰ مستوىٰ الأفراد، كلٌ تكمل له النعمة ويتم له دينه علىٰ قدر أخذه من هذا الدين، فكم من شخص يعيش بجوار الحرم وهو محروم لم يكمل له دينه ولم تتم له النعمة، بل ربما محروم منه تماما، وآخر في أقاصي الدنيا، له من هذه النعمة أوفر حظ ونصيب باتباعه للمصطفىٰ ﷺ وتمسكه بسنته. فتمام النعمة عليك بقدر اتباعك للمصطفىٰ ﷺ.

الرابعة والعشرون: قال ﷺ في خطبته يوم النحر في منىٰ: «ألا هل بَلَّغْتُ؟»، قالوا: نعم، قال: «اللهم اشهد، فليبلِّغ الشاهدُ الغائبَ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أوعىٰ من سامع»، نأخذ

(١) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٦٢٤).

من قوله ﷺ: «فليبلغ الشاهد الغائب» أن تبليغ هذا العلم يتجزأ فلا يشترط في من يُعَلِّم الناس هذا العلم الشرعي، ويدعو إلىٰ الله، أن يكون لديه كل العلم أو أكثره، بل من علم آية أو حديثًا عن الرسول ﷺ بلغه لغيره. قال ﷺ: «بلغوا عني ولو آية»[1]، وهذا في ظاهره تخفيف، لكنه في الواقع مسؤولية عظيمة، فعلىٰ المسلم أن يدرك أن مسؤولية الدعوة إلىٰ الله ليست منوطة بفئة معينة، هم العلماء، بل الأب داعية إلىٰ الله في بيته، ولو يبلغهم آية أو حديثًا سمعه في المسجد، وكذا المعلم في المدرسة، وإمام المسجد في الحي وهكذا.

الخامسة والعشرون: تجري بعض الأحداث التي تظهر وكأنها أمر عادي بينما فيها تدبير ورحمة للأمة، وتبيين عملي للتشريع، فأسماء بنت عميس -رضي الله تعالىٰ عنها- تلد في الطريق إلىٰ مكة، ليتبين لنا حكم النفساء في الحج، وعائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- تحيض بعد أن أحرمت قارنة، لنعرف حكم من تحيض بعد الإحرام ماذا تصنع، وصفية -رضي الله تعالىٰ عنها- تحيض بعد أن تطوف الإفاضة وقبل طواف الوداع، لنعلم أن طواف الوداع يسقط عن الحائض وأن طواف الإفاضة لا يسقط عنها لقوله ﷺ معلقًا علىٰ هذا الحدث: «أحابستنا هي»، وامرأة ترفع طفلًا معها وتقول للرسول ﷺ: ألهذا حج؟ فتنتفع الأمة كلها بجوابه ﷺ: «نعم ولك أجر»، وحاج يسقط في عرفات من علىٰ راحلته، فيموت وهو محرم ليتبين لنا ونعرف الحكم الشرعي في هذه الحالة، ويبشرنا الرسول ﷺ بأنه يبعث يوم القيامة ملبيًا، وهي قاعدة في ختام الأعمال للعبد.

السادسة والعشرون: نلحظ في قول الله تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ الفرق بين كلمتي (أَكۡمَلۡتُ) و(وَأَتۡمَمۡتُ).

(١) رواه الترمذي في سننه، من حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- (٦/ ١٦٩)، (رقم ٢٦٦٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

أكمل الأمْرَ: أي أنهاهُ علىٰ مراحل مُتقطّعة بينها فواصل زمنيّة. فالذي عندهُ أيّام إفطار في رمضان وعليه صيامها فيما بعد، لديه فرصة ١١ شهرًا لقضائها، ولو علىٰ فترات متقطّعة، لذلك قال تعالىٰ: ﴿ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ ﴾، أما أتمّ الأمر: يجب أنْ لا ينقطع العمل حتّىٰ ينتهي، فلا يجوز مثلًا الإفطار عند النهار في يوم الصيام ولو لمدة قصيرة جدًّا، لذلك يقول الله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِ ﴾، وكذلك لا يجوز للإنسان أن يتحلّل مِنَ الإحرام في الحجّ، حتىٰ ينهي شعائره، لذلك يقول الله تعالىٰ: ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِ ﴾.

ونزل الشرع علىٰ فتراتٍ متقطّعة علىٰ مدىٰ ٢٣ عامًا، أما نعمة الله -جل شأنه- فلم تنقطع قط، فقال: ﴿ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي ﴾.. فنِعْمةُ الله لمْ تَنقطع ولا حتىٰ ثانية واحدة عن هذه الأمة.

السابعة والعشرون: تمام النعمة الوارد في الآية في حجة الوداع، لنا أن نتساءل: ما المقصود به؟ أهي في أمور الدنيا أم أمور الآخرة؟

أما أمور الدنيا، فإن الرسول ﷺ تتنزل عليه هذه الآيات وهو راكب الجمل، ورحله لا يساوي أربعة دراهم كما مر علينا في حديث أنس رضي الله تعالىٰ عنه، وينام علىٰ الحصير الذي يؤثر في جنبه، ويمر عليه الهلال تلو الهلال تلو الهلال لا يوقِد في بيته نارًا وإنما طعامه وأهله الأسودان: التمر والماء، وهكذا كان أصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم- معه، فتمام النعمة المقصودة هنا، إنما هي العلم بالله جل شأنه، والعمل بهذا العلم، فمعرفة الله أشرف المعارف، معرفته بأسمائه وصفاته وتوحيده في ربوبيته وإلاهيته وأسمائه وصفاته، هذه هي النعمة الحقيقية التي أنعم الله علينا بها، فأنقذ قلوبنا وخلصها من الذل لغيره، أنقذنا من أن نركض إلىٰ قبر عندما تنزل بنا حاجة، أو تقع مصيبة، وأعزنا بتوحيده، وعرفنا بنفسه وبأسمائه وصفاته، وهدانا إلىٰ طريق رضوانه وطريق جناته، وحذرنا من طرق النار، ومتىٰ امتثلنا ذلك

وعملنا به، رضي عنا وأرضانا، وأعطانا جنة عرضها السموات والأرض، فأي نعمة أتم من هذه النعمة لمن كان له قلب أو ألقىٰ السمع وهو شهيد.

الثامنة والعشرون: في نزول هذه الآية العظيمة ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي...﴾ إشارة عظيمة، فهمها عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه- يقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (وروينا من طريق جيد أن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه- حين نزلت هذه الآية بكىٰ، فقيل: ما يبكيك؟ فقال: إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان. وكأنه استشعر وفاة النبي ﷺ)[1].

التاسعة والعشرون: في خطبة الرسول ﷺ قال: «ألا هل بلغت؟»، قالوا: نعم. قال: «اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب».

هذه رسالة وأمانة حمَّلها الرسول ﷺ من سمع خطبته، وهي لهم ولمن بعدهم، كل يتحمل هذه الأمانة لمن بعده، فليس التدين أن تكون في نفسك صالحا، تقيم الشعائر في نفسك فقط، ولكنه أمانة تسلمتها لتقيمها في نفسك وتسلمها لمن بعدك، فإن لم تفعل، فقد قصرت في الأمانة. فصلاح أولادك جزء من إقامة شعائر دينك، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب:٧٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦]، وليس أنفسكم فقط. إن هذا الدين يمتد وينتشر عندما نشعر بهذه المسؤولية وأننا كما تسلمناه ممن قبلنا، علينا أن نسلمه لمن بعدنا، ونحن مسؤولون عن هذه الأمانة ليبلغ الشاهد الغائب.

تأمل قول إبراهيم -عليه السلام- لبنيه، بأي شيء وصاهم؟ وماذا قال يعقوب عليه السلام لبنيه لما حضرته الوفاة؟ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ

(١) ابن كثير، البداية والنهاية (٨/ ٦).

﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣١-١٣٣]. يوصي إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- بنيه بهذا الدين، وينقل لهم الأمانة، ويعقوب عليه الصلاة والسلام ينقل هذه الوصية لبنيه، فهي أمانة يحملها الشخص وينقلها لمن بعده، ومن قصر في تبليغ الدين لمن بعده، فقد قصر في أداء الأمانة التي حُمِّلها.

ولو أننا حافظنا علىٰ أداء هذه الأمانة لأجيالنا، ما ضعف الدين في النفوس، وما جاء التقصير في الدين في الأجيال إلا - في الغالب- لتقصير ممن كان قبلهم في التبليغ. فانظر في نفسك هل أديت الأمانة في ذريتك وأهلك؟

الثلاثون: في تقبيل عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه- للحجر الأسود وقوله: (إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي ﷺ يقبِّلك ما قبَّلْتُكَ)، قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (قال الطبري -رحمه الله تعالىٰ-: (إنما قال ذلك عمر -رضي الله تعالىٰ عنه-؛ لأن الناس كانوا حديثي عهد بعبادة الأصنام، فخشي عمر أن يظن الجهال أن استلام الحجر من باب تعظيم بعض الأحجار كما كانت العرب تفعل في الجاهلية[١]، فأراد عمر أن يعلِّم الناسَ أن استلامه اتباع لفعل الرسول ﷺ لا لأن الحجر ينفع ويضر بذاته، كما كانت الجاهلية تعتقد في الأوثان)[٢].

وإن من المحزن جدًا أننا لا نزال في هذه العصور نجد من بقيت عنده بقية عقيدة النفع أو الضر في غير الله سبحانه وتعالىٰ. والسعيد من أخلص قلبه لله سبحانه.

(١) لم يقتصر الأمر على حديثي العهد بعبادة الأصنام بل لا يزال هناك من يحاول إثارة الشبه على المسلمين بسبب تقبيل الحجر الأسود فيجاب بمثل ما قال الطبري هنا.
(٢) ابن حجر، فتح الباري (٣/ ٤٦٢ – ٤٦٣).

الواحدة والثلاثون: قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وفي قول عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- هذا، التسليم للشارع في أمور الدين وحسن الاتباع فيما لم يكشف عن معانيها، وهو قاعدة عظيمة في اتباع النبي ﷺ فيما يفعله ولو لم يعلم الحكمة فيه)[١].

الثانية والثلاثون: من قول الرسول ﷺ: «رحم الله المحلِّقين» ثلاث مرات ثم قال: «رحم الله المقصِّرين» هذا أسلوب دعوة فيه الترغيب بالحلق في النسك، سواء كان حجًا أو عمرة، حيث دعا الرسول ﷺ للمحلِّقين ثلاثًا وللمقصِّرين بعدهم واحدة، والمسلم يستكثر من دعوة الرسول ﷺ ما استطاع وقد مر علينا مثل هذا في غزوة الحديبية.

الثالثة والثلاثون: من قول الرسول ﷺ للصحابة الذين كانوا يسألونه يوم العيد عن تقديم بعض أعمال الحج في ذلك اليوم علىٰ بعض، فكان يقول تلك القاعدة العظيمة التي بُني عليها أساس كبير من هذا التشريع، وهو قاعدة التيسير ورفع المشقة والحرج عن المسلمين، فكان يقول: «افعل ولا حرج»، وكان ﷺ يوصي بهذا أصحابه عندما يبعثهم في مهام الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، حيث يقول: «يسِّروا ولا تُعَسِّرُوْا، وبشِّروا ولا تُنَفِّرُوْا»[٢].

ومع ذلك، فيحسن الإشارة إلىٰ أن الرسول ﷺ كان يقول لأصحابه -رضي الله تعالىٰ عنهم-: «خذوا عني مناسككم»، فكيف نوفق بين عبارة: «افعل ولا حرج»، وقوله: «خذوا عني مناسككم»، ففي الأولىٰ تسهيل، وفي الثانية إذا التزم الناس أداء النسك تمامًا كما فعل الرسول ﷺ فقد يشق عليهم.

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٣/ ٤٦٣).

(٢) قال ذلك لمعاذ بن جبل ولأبي موسى الأشعري - رضي الله عنهما - عندما بعثهما إلى اليمن، صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٨/ ٦٠)، (رقم ٤٣٤١ - ٤٣٤٢).

فيقال في التوفيق بين هاتين العبارتين: «افعل ولا حرج» و«خذوا عني مناسككم» إن الأولىٰ وإن كان فيها دلالة التيسير، والثانية فيها التشديد، فإن لكل مقام مقال، فالأولىٰ تقال لمن جاء يسأل عن أمر قد وقع، أو لشخص بعينه، ليس خطابًا عامًا للكافة، وإنما لسائل أو مستفتٍ ونحوه، ولا يناسب أن تقال في تشريع عام للناس (افعلوا ولا حرج)، فهذه العبارة لو قالها شخص لأناس مقبلين علىٰ أداء النسك، فقد يفهم منها التشجيع لهم علىٰ التفلت من بعض الأعمال أو الواجبات، بخلاف العبارة الثانية «خذوا عني مناسككم» فهي تقال تشريعًا عامًا، ولا يشدد علىٰ شخص سائل بعينه بأن يقال له عندما يسأل عن أمر وقع منه، عليك أن تتأسىٰ بالرسول ﷺ ففي هذا تشديد عليه، قد يكون غير مشروع.

ولأجل هذا وقع الخلط من البعض حينما جعل عبارة (افعل ولا حرج) تشريعًا عامًا في الحج، فأدىٰ ذلك إلىٰ التساهل في أداء بعض المناسك، والله أعلم.

الرابعة والثلاثون: في موقف الرسول ﷺ مع عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- حينما اشتكت إليه أنها بسبب حيضها لم تتمكن من عمرة مفردة قبْل الحج، فأراد الرسول ﷺ تطييب خاطرها بأن أمر أخاها عبد الرحمن بن أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنهما- أن يخرج بأخته عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- إلىٰ التنعيم، لتحرم بعمرة وانتظرها حتىٰ خرجت وعادت محرمة وأدَّت عمرتها، كل هذا من عظيم حسن خلقه ﷺ ورفقه بأهله وتطييبه لخواطرهم ومراعاة لنفسياتهم، وقد قال ﷺ: «خيركم، خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»[1].

الخامسة والثلاثون: ذكرت عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- أنها كانت تحمل معها ماء زمزم عند مغادرتها مكة، وأن الرسول ﷺ كان يحمله، وهذا فيه فائدة، أن

(١) أخرجه الترمذي في سننه، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣/ ٢٤٥)، (رقم ٣٠٥٧)، وأخرجه الدارمي في سننه (٢/ ٨٢)، (رقم ٢٢٦٥)، وقال عبد القادر الأرناؤوط في هامش جامع الأصول لابن الأثير (١/ ٤١٧): (وإسناده صحيح).

هذا الماء مبارك تبقىٰ فيه بركته أينما كان، وشرعية نقله وحمله إلىٰ خارج مكة.

السادسة والثلاثون: في خطبة الرسول ﷺ في طريق عودته إلىٰ المدينة أكَّد علىٰ مكانة الكتاب الكريم والاعتصام به، وأن فيه الهدىٰ والنور، وأمر بالأخذ به والتمسك بنصوصه والعمل بما فيه، وهذا تأكيد لما سبق أن جاء في خطبته ﷺ في عرفات.

السابعة والثلاثون: أكَّد ﷺ في خطبته علىٰ حقوق آل البيت، عندما قال: «أذكركم الله في أهل بيتي»، وأهل بيت النبي ﷺ هم (آل النبي ﷺ الذين حرمت عليهم الصدقة وهم آل علي وآل جعفر وآل عقيل وآل العباس وبنو الحارث بن عبد المطلب وأزواج النبي ﷺ وبناته)[1]،(وأهل السنة يحبونهم ويكرمونهم، لأن ذلك من محبة النبي ﷺ وإكرامه، وذلك بشرط أن يكونوا متبعين للسنة، مستقيمين علىٰ الملة كما كان عليه سلفهم كالعباس وبنيه وعلي وبنيه، أما من خالف السنة ولم يستقم علىٰ الدين، فإنه لا تجوز موالاته ولو كان من أهل البيت)[2].

الثامنة والثلاثون: نلحظ كثرة خطب النبي ﷺ في حجة الوداع، فهو ﷺ يستغل كل مناسبة في إلقاء خطبة عامة يوضِّح بها للناس دينهم ويذكِّرهم ويعظهم.

خطب الناس في عرفات وفي منىٰ وفي الطريق إلىٰ المدينة، وهذا أسلوب دعوة يستفيده الداعية إلىٰ الله بأن يستغل الأوقات المناسبة التي تجمع الناس ليلقي فيهم خطبًا يدعو فيها إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ.

التاسعة والثلاثون: حجة الوداع، التسمية بهذا الاسم، تسمية مؤلمة للقلب لما تحمله من دلالة قرب الفراق، وفراق مَن؟ إنه فراق خليل الرحمن، الرحمة المهداة ﷺ ولعلم الرسول ﷺ بعظم هذا المصاب علىٰ الأمة، فقد كان الرسول ﷺ يكثر في

(١) صالح الفوزان، كتاب التوحيد (ص ٦٩).
(٢) المرجع السابق (ص ٦٩ - ٧٠).

خطبه في هذه الحجة من التمهيد لهذا الأمر الجلل، الذي هو أعظم مصيبة حلت بالأمة ولن يحل بالأمة مصيبة أعظم منها!

كان الرسول ﷺ يكثر في خطبه في مكة من قوله: «لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا».

وتكرار هذا القول له فوائد منها:

١. التهيئة للأمر الجلل والمصيبة العظمىٰ والفاجعة الكبرىٰ التي ستحل بالأمة، وهي وفاته ﷺ فكأنه يهيئهم للاستعداد، ومن المعلوم أن التهيئة للمصيبة تخفف من وقعها. كما سيأتي

٢. إن علىٰ الأمة أن تبادر إلىٰ التأسي بالرسول ﷺ والتعلم منه قبل أن يلحق بالرفيق الأعلىٰ، فيحتاجون إلىٰ العلم فلا يجدون الرسول ﷺ.

المبحث الخامس

فقه السيرة في الفاجعة العظمى.. فاجعة وفاة الرسول ﷺ

عاد الرسول ﷺ من حجة الوداع بعد أن نزل عليه قول الله تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ إذ تضمنت نعي رسول الله ﷺ[1] وبدأت تظهر علىٰ لسان رسول الله ﷺ عبارات التوديع وتبرز من خلال أفعاله، فقد قال للناس في حجة الوداع: «لتأخذوا عني مناسككم لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا»[2]، وفي طريق العودة، قال ﷺ: «أيها الناس، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب»[3]، وفي المدينة خرج إلىٰ البقيع واستغفر لأهله[4] وخرج إلىٰ شهداء أحد وصلىٰ عليهم، وخطب في الناس كالمودِّع للأموات والأحياء[5]

ومن ذلك ما رواه معاذ بن جبل -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: لما بعثه رسول الله ﷺ إلىٰ اليمن، خرج معه رسول الله ﷺ يوصيه ومعاذ راكب، ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته، فلما فرغ، قال: «يا معاذ، إنك عسىٰ أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا، وقبري»، فبكىٰ معاذ جشعًا لفراق رسول الله ﷺ ثم التفت فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال: «إن أولىٰ الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا»[6].

---

(١) انظر: صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٨/ ٣٠)، (رقم ٤٤٣٠).
(٢) سبق تخريجه قريبًا ﷺ.
(٣) صحيح مسلم (٤/ ١٨٧٣)، (رقم ٢٤٠٨).
(٤) انظر: مسند الإمام أحمد (٣/ ٤٨٨ - ٤٨٩).
(٥) انظر: صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧ / ٣٧٧)، (رقم ٤٠٨٥).
(٦) مسند أحمد (٣٦/ ٣٧٦)، (رقم ٢٢٠٥٢) وقال محققوه (إسناده صحيح).

ومن ذلك التهيئة الخاصة لأهل بيته؛ مسارته لابنته فاطمة رضي الله تعالىٰ عنها. عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: أقبلت فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها- تمشي كأن مشيتها مشي النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «مرحبًا بابنتي» ثم أجلسها عن يمينه، أو عن شماله، ثم أسر إليها حديثًا فبكت، فقلت لها: لِمَ تبكين؟ ثم أسر إليها حديثًا فضحكت، فقلت: ما رأيت كاليوم فرحًا أقرب من حزن، فسألتها عما قال: فقالت: (ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ حتىٰ قُبض النبي ﷺ فسألتها، فقالت: أسرَّ إلي: «إن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي، وإنك أول أهل بيتي لحاقًا بي». فبكيت، فقال: «أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة، أو نساء المؤمنين» فضحكت لذلك)[١].

وعن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ جلس علىٰ المنبر فقال: «إن عبدًا خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده» فبكىٰ أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فعجبنا له، وقال الناس: انظروا إلىٰ هذا الشيخ، يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا، وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فكان رسول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر هو أعلمنا به، وقال رسول الله ﷺ: «إن من أَمَنِّ الناس علي في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا من أمتي لاتخذت أبا بكر، إلا خلة الإسلام، لا يبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر»[٢].

وفي نهاية شهر صفر من السنة الحادية عشرة، بدأ يشكو من الصداع وأخذ يثقل به المرض[٣].

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (٤/ ٢٠٣)، (رقم ٣٦٢٣-٣٦٢٤) واللفظ له وصحيح مسلم (٤/ ١٩٠٤).

(٢) متفق عليه صحيح البخاري (٥/ ٥٧)، (رقم ٣٩٠٤) وصحيح مسلم (٤/ ١٨٥٤)، (رقم٢٣٨٢).

(٣) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٨/ ١٢٩).

وعن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: (كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: «يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري[١] من ذلك السم)[٢].

ومع الأيام، كان مرضه يزداد عليه، وأوصىٰ خلال ذلك بوصايا منها:

١. إخراج المشركين من جزيرة العرب[٣].

٢. إجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم[٤].

٣. الاعتصام بالكتاب[٥].

٤. تنفيذ جيش أسامة[٦].

---

(١) قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- (٨/ ١٣١): (قال أهل اللغة الأبهر عرق مستبطن بالظهر متصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه وقال الخطابي يقال إن القلب متصل به».

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه معلقا (٦/ ٩)، (رقم ٤٤٢٨) (وقال يونس عن الزهري، قال عروة: قالت عائشة رضي الله عنها).

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٨ / ١٣٢)، (رقم ٤٤٣١).

(٤) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٥) المرجع السابق (ص ١٤٨)، (رقم ٤٤٦٠).

(٦) انظر: ابن حجر، فتح الباري (٨/ ١٥٢) قال ابن هشام -رحمه الله تعالى- في السيرة (٢/ ٦٠٦ و٦٥٠) « قال ابن إسحاق: ثم قفل رسول الله ﷺ فأقام بالمدينة بقية ذي الحجة والمحرم وصفر، وضرب على الناس بعثا إلى الشام، وأمر عليهم أسامة بن زيد بن حارثة مولاه، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، فتجهز الناس، وأوعب مع أسامة بن زيد المهاجرون الأولون وقال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء، أن رسول الله ﷺ استبطأ الناس في بعث أسامة بن زيد، وهو في وجعه، فخرج عاصبا رأسه حتى جلس على المنبر، وقد كان الناس قالوا في إمرة أسامة: أمَّر غلاما حدثا على جلة المهاجرين والأنصار فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال: أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة، فلعمري لئن قلتم في إمارته لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله، وإنه لخليق للإمارة، وإن كان أبوه لخليقا لها قال: ثم نزل رسول الله ﷺ وانكمش الناس في جهازهم، واستعز برسول الله ﷺ وجعه، فخرج أسامة، وخرج جيشه=

٥. أوصىٰ بالأنصار خيرًا[١].

٦. أوصىٰ بالصلاة وما ملكت أيمانكم[٢].

٧. لعن اليهود والنصارىٰ لاتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد، نهىٰ عن اتخاذ قبره وثنًا يُعْبَد[٣].

٨. أمر بإخراج اليهود من جزيرة العرب[٤].

٩. خطب في الناس محذِّرًا من التنافس علىٰ الدنيا[٥] لئلا تهلكهم كما أهلكت الأمم قبلهم.

وعن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالىٰ عنهما- قال: سمعت النبي ﷺ قبل وفاته بثلاث، يقول: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن»[٦].

واستأذن زوجاته في أن يمرَّض في بيت عائشة -رضي الله عنها- فأَذِنَّ له[٧]،

=معه حتى نزلوا الجرف، من المدينة على فرسخ، فضرب به عسكره، وتتام إليه الناس، وثقل رسول الله ﷺ فأقام أسامة والناس، لينظروا ما الله قاض في رسول الله ﷺ» وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: أَمَّر رسول الله ﷺ أسامة على قوم فطعنوا في إمارته، فقال: «إن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبله، وايم الله لقد كان خليقا للإمارة، وإن كان من أحب الناس إلي، وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده» صحيح البخاري (٥/ ١٤١)، (رقم ٤٢٥٠) ومسلم (٤/ ١٨٨٤)، (رقم ٢٤٢٦).

(١) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٧/ ١٢٠ - ١٢١)، (رقم ٣٧٩٩).

(٢) سنن أبي داود، صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/ ٩٦٩)، (رقم ٤٢٩٥).

(٣) صحيح البخاريالمطبوع مع فتح الباري (٨/ ١٤٠)، (رقم ٤٤٤١).

(٤) مسند الإمام أحمد (١/ ١٩٥)، والطحاوي في مشكل الآثار (٤/ ١٣)، وقال الهيثمى في المجمع (٥/ ٣٢٥): (رواه أحمد بأسانيد ورجال طريقين منهما ثقات متصل إسنادهما)، وانظر: صحيح السيرة النبوية للعلي (ص ٧١٢).

(٥) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٧/ ٣٧٧ - ١٢١)، (رقم ٤٠٨٥).

(٦) صحيح مسلم (٤/ ٢٢٠٥)، (رقم ٢٨٧٧).

(٧) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٨/ ١٤١)، (رقم ٤٤٤٢).

وعندما اشتد به المرض قال للصحابة الذين كانوا حوله في المنزل وفيهم عمر بن الخطاب: «هلموا أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده» فقال عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- : قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن حسبكم كتاب الله، فاختلفوا فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم رسول الله ﷺ، ومنهم من يقول ما قال عمر -رضي الله تعالىٰ عنه-، فلما أكثروا اللغط والاختلاف قال رسول الله ﷺ: «قوموا عني»[١]، ولما لم يستطع الخروج إلىٰ الناس والصلاة بهم، أمر أبا بكر أن يصلي بالناس، فصلىٰ بالناس عدة أيام في حياة رسول الله ﷺ[٢].

وقبل يوم من وفاته، تصدق بدنانير عنده قليلة[٣] وقال: «لا نُوْرَثُ، ما تركناه صدقةٌ»[٤].

وفي يوم الاثنين من شهر ربيع الأول لعام ١١ من الهجرة[٥] وعند الضحىٰ تُوُفِّيَ

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٨/ ١٣٢)، (رقم ٤٤٣٨).

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٢/ ١٥١)، (رقم ٦٦٤).

(٣) انظر: ابن سعد، الطبقات (٢/ ٢٣٧- ٢٣٩).

(٤) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح الباري(١٢/ ٧)، (رقم ٦٧٣٠).

(٥) اختلف أهل العلم في تاريخ وفاته ﷺ بعد اتفاقهم على أنه يوم الاثنين في شهر ربيع الأول ﷺ يقول الإمام أبو القاسم السهيلي -رحمه الله تعالى- في الروض الأنف (٧/ ٥٧٧-٥٧٩): (واتفقوا أنه توفي ﷺ يوم الاثنين إلا شيئا ذكره ابن قتيبة في المعارف الأربعاء قالوا كلهم وفي ربيع الأول غير أنهم قالوا، أو قال أكثرهم في الثاني عشر من ربيع، ولا يصح أن يكون توفي ﷺ إلا في الثاني من الشهر أو الثالث عشر أو الرابع عشر أو الخامس عشر لإجماع المسلمين على أن وقفة عرفة في حجة الوداع كانت يوم الجمعة وهو التاسع من ذي الحجة فدخل ذو الحجة يوم الخميس فكان المحرم إما الجمعة وإما السبت فإن كان الجمعة فقد كان صفر إما السبت وإما الأحد فإن كان السبت فقد كان ربيع الأحد أو الاثنين وكيفا دارت الحال على هذا الحساب فلم يكن الثاني عشر من ربيع يوم الاثنين بوجه ولا الأربعاء أيضا كما قال القتبي وذكر الطبري عن ابن الكلبي وأبي مخنف أنه توفي في الثاني من ربيع الأول وهذا القول وإن كان خلاف أهل الجمهور فإنه لا يبعد إن كانت الثلاثة الأشهر التي قبله كلها من تسعة وعشرين فتدبره فإنه صحيح ولم أر أحدا تفطن له، وقد رأيت للخوارزمي أنه=

رسولُ اللهِ ﷺ.

تقول عائشة -رضي الله عنها-: (فلما نزل به ورأسه علىٰ فخذي غشي عليه، ثم أفاق فأشخص بصره إلىٰ سقف البيت، ثم قال: «اللهم الرفيق الأعلىٰ»[1].

وعنها -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: (كان رسول الله ﷺ إذا اشتكىٰ منا إنسان، مسحه بيمينه، ثم قال: «أذهب البأس، رب الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما»، فلما مرض رسول الله ﷺ وثقل، أخذت بيده لأصنع به نحو ما كان يصنع، فانتزع يده من يدي، ثم قال: «اللهم اغفر لي واجعلني مع الرفيق الأعلىٰ»، قالت: فذهبت أنظر، فإذا هو قد قضىٰ)[2].

وفاضت أطهر روح في الدنيا من جسدها، وصعدت إلىٰ بارئها راضية مرضية، وخرج أكرم إنسان، بل أكرم مخلوق علىٰ الله -جل شأنه- في هذا الوجود من الدنيا كما جاء إليها، ولم يترك مالًا ولا متاعًا ولا ولدًا إلا فاطمة رضي الله تعالىٰ عنها وأرضاها، وإنما ترك هداية وإيمانًا وشريعة عامة خالدة وميراثًا نبويًا عظيمًا.

وتسرَّب هذا النبأ الفادح والحدث الجلل والفاجعة الكبرىٰ إلىٰ الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- أجمعين، فأظلمت عليهم الدنيا حزنًا علىٰ فراق الحبيب خليل الرحمن المصطفىٰ ﷺ.

=توفي عليه السلام في أول يوم من ربيع الأول وهذا أقرب في القياس بما ذكر الطبري عن ابن الكلبي وأبي مخنف « وانظر للمزيد السيرة النبوية للذهبي (٢/ ٤٧١-٤٧٢) وطبقات ابن سعد (٢/ ٢٧٢-٢٧٣) وتاريخ الطبري (٣/ ٢١٥) وأسد الغابة لابن الأثير (١/ ٧١) وعيون الأثر لابن سيد الناس (٢/ ٤٣٢) وشذرات الذهب لابن العماد (١/ ١٣٣)، والمواهب اللدنية (٤/ ٥١٦).

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح الباري (٨/ ١٥٠)، (رقم ٤٤٦٣)، والمراد بالرفيق الأعلى الجماعة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩]، ولفظة رفيق تُطْلَق على الواحد والجمع، فتح الباري (٨/ ١٣٨).

(٢) صحيح مسلم (٤/ ١٧٢١)، (رقم ٢١٩١).

وأصابت الناس دهشة عظيمة، فمنهم المصدِّق ومنهم غير ذلك، وقام عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- يخطب في الناس، عن عائشة -رضي الله عنها- زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ مات وأبو بكر بالسنح، -قال: إسماعيل يعني بالعالية- فقام عمر- رضي الله تعالىٰ عنه- يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ قالت: وقال عمر: (والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك، وليبعثنه الله، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم)[1]. وتوعد من يقول إن محمدًا مات أن يضرب عنقه بالسيف.

أما أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- فإنه خرج وعمر يُكلِّم الناس فقال: اجلس يا عمر فأبىٰ عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر، فقال: أما بعد: من كان منكم يعبد محمدًا ﷺ، فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٤]، قال راوي الحديث: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتىٰ تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها، فأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: (والله ما هو إلا سمعت أبا بكر تلاها فقعدت حتىٰ ما تقلني رجلاي وحتىٰ أهويت إلىٰ الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي ﷺ قد مات)[2].

واجتمع الناس بقية ذلك اليوم -يوم الاثنين- في سقيفة بني ساعدة وانتهوا إلىٰ بيعة أبي بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- الخاصة، ثم بُوْيِعَ أبو بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- البيعة العامة يوم الثلاثاء وكان ذلك قبل تجهيز رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا[3].

(١) صحيح البخاري (٥/ ٦) رقم (٣٦٦٧).
(٢) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (٨/ ١٤٥)، (رقم ٤٤٥٤).
(٣) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٥/ ٢٤٨) و (٥/ ٢٦٠).

فلما بويع أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- أقبل الناس علىٰ جهاز رسول الله ﷺ يوم الثلاثاء[١]، وتشاوروا أين يدفن؟ قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وقد روي أن الأنبياء يدفنون حيث يموتون، قلت: هذا الحديث رواه ابن ماجه مع حديث ابن عباس عن أبي بكر مرفوعًا، «ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض»، وفي إسناده حسين بن عبد الله الهاشمي وهو ضعيف وله طريق أخرىٰ مرسلة ذكرها البيهقي في الدلائل وروىٰ الترمذي في الشمائل والنسائي في الكبرىٰ من طريق سالم بن عبيد الأشجعي الصحابي عن أبي بكر الصديق أنه قيل له: فأين يدفن رسول الله ﷺ قال: (في المكان الذي قبض الله فيه روحه، فإنه لم يقبض روحه إلا في مكان طيب)، إسناده صحيح لكنه موقوف)[٢]. فانتهوا إلىٰ ذلك، وقرروا دفنه في المكان الذي قبض فيه ﷺ[٣].

وفي المسند أن أبا عسيب قال بهز إنه شهد الصلاة علىٰ النبي ﷺ قالوا: كيف نصلىٰ عليه؟ قال: (ادخلوا أرسالًا، أرسالًا، قال: فكانوا يدخلون من هذا الباب فيصلون عليه ثم يخرجون من الباب الآخر)[٤]. قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (وقد قال بعض العلماء: إنما لم يؤمهم أحد ليباشر كل واحد من الناس الصلاة عليه منه إليه، ولتكرر الصلاة عليه مرة بعد مرة من كل فرد من آحاد الصحابة رجالهم

(١) انظر: المرجع السابق (ص ٢٦٠).

(٢) ابن حجر، فتح الباري (١/ ٥٢٩).

(٣) ودفنه ﷺ في بيته، لعله من خصائصه ﷺ وهو ما أشار إليه الكرماني وابن حجر رحمهما الله تعالى، ابن حجر، فتح الباري (١/ ٥٢٩) وانظر كتاب القول المفيد على كتاب التوحيد لابن عثيمين (ص ٢٥٣)، فقد أشار إلى أن أحد أسباب ترك إبراز قبره ﷺ الخوف من الغلو في هذا القبر، وأن يتخذ مسجدا وسيأتي مزيد حديث عن هذه المسألة إن شأن الله تعالى في الفوائد.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٨١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٣٧): (رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح) وابن كثير، البداية والنهاية (٥/ ٢٦٥).

ونسائهم وصبيانهم حتىٰ العبيد والإماء)[1]، وقالوا أيضًا إنهم أرادوا أن يصلىٰ عليه في مكانه الذي مات فيه ويدفن، والمكان ضيق لا يتسع إلا لعدد محدود[2]،

ثم دفن ﷺ حيث مات ليلة الأربعاء[3] في حجرة أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- التي كانت تختص بها شرقي مسجده في الزاوية الغربية القبلية من الحجرة[4].

ودفن ﷺ في حجرة عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- لأنها مكان وفاته ﷺ ولأن الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- خافوا إن أبرزوا قبره ودفنوه في البقيع أن يغلو الناس فيه ﷺ تقول عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-: (قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه: «لعن الله اليهود والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، قالت عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-: لولا ذلك لأبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا)[5].

يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (قوله لأبرز قبره، أي لكشف قبر النبي ﷺ ولم يتخذ عليه الحائل والمراد الدفن خارج بيته)[6].

وعن أنس -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: (لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وما نفضنا عن النبي ﷺ الأيدي حتىٰ أنكرنا قلوبنا)[7].

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية (٥/ ٢٦٥).
(٢) انظر: عبد الرزاق البدر، شرح الشمائل (ص ٣٦٢).
(٣) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٥/ ٢٧١).
(٤) المرجع السابق (ص ٢٧٢).
(٥) صحيح البخاري (٢/ ٢٦٣)، (رقم ٧٦٧).
(٦) فتح الباري (٣/ ٢٠٠).
(٧) أخرجه ابن ماجه في سننه، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١/ ٢٧٣)، (رقم ١٣٢٢).

قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (يريد أنهم وجدوها تغيرت عما عهدوه في حياته من الألفة والصفا والرقة؛ لفقدان ما كان يمدهم به من التعليم والتأديب)[١].

ويؤيد هذا قوله ﷺ: «النجوم أمنة للسماء فإذا ذهبت النجوم أتىٰ السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبتُ أتىٰ أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتىٰ أمتي ما يوعدون»[٢].

قال النووي -رحمه الله تعالىٰ-: (وقوله ﷺ: «وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبتُ أتىٰ أصحابي ما يوعدون»، أي من الفتن والحروب وارتداد من ارتد من الأعراب واختلاف القلوب ونحو ذلك مما أنذر به صريحًا، وقد وقع كل ذلك)[٣].

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك علىٰ نبينا المصطفىٰ محمد بن عبد الله صلاة دائمة أبدية تتجدد بتجدد الأوقات، اللهم احشرنا تحت لوائه وأوردنا حوضه وأدخلنا معه الجنة برحمتك يا أرحم الراحمين

الفوائد المستخرجة من فاجعة وفاة المصطفىٰ ﷺ

الأولىٰ: في حجة الوداع، كان الرسول ﷺ يكثر من قوله: «لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا»، بل إن الحجة نفسها، سميت حجة الوداع بما تتضمنه من إشارة إلىٰ هذا المعنىٰ، ونزل قول الله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] ونزل قول الله -جل شأنه-: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ [النصر: ١-٣].

(١) ابن حجر، فتح الباري (٨/ ١٤٩).
(٢) صحيح مسلم (٤/ ١٩٦١)، (رقم ٢٥٣١).
(٣) النووي، شرح صحيح مسلم (١٦/ ٨٣).

ومن قبْل ذلك كله، نزل قول الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ وقول الله تعالىٰ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾ وقول الله تعالىٰ: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤-٣٥]، وكلها فيها التذكير بأن هذه الحياة الدنيوية لها نهاية بما فيهم رسول الله ﷺ وفيها التهيئة، فاستعد واستعدوا.

وفي الواقع العملي، نرىٰ من التهيئة أن الرسول ﷺ يأمر أبا بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- بالصلاة نيابةً عنه، ويصلي بهم ثلاثة أيام إمامًا بهم.

وكلها تهيئ للأمر الأعظم، والخطب الأجل، بل تهيئ لأعظم مصيبة تمر علىٰ البشرية، ألا وهي وفاة المصطفىٰ ﷺ

وإني عندما أتذكر هذا المصاب الجلل، أتعجب كيف تحمله الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- كيف استطاعوا التكيف مع الحياة الجديدة بعد أن عاشوا سنوات وهم يصبحون ويمسون يرون الرسول ﷺ الحبيب، يوجههم وينصح لهم، ويصلون خلفه، ويهتدون بهديه، ويسألونه عما يشكل عليهم، ثم إذا به يُنعىٰ إليهم، ويُتلىٰ عليهم قول الله تعالىٰ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾، ويقال لهم من علىٰ منبره ﷺ: (من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات).

الثانية: إذا كان الرسول ﷺ يخبرنا عن سعد بن معاذ -رضي الله تعالىٰ عنه- أنه لما مات اهتز عرش الرحمن لموته[1]، وقال العلماء معنىٰ ذلك: فرحًا بقدومه، فماذا نقول في وفاة المصطفىٰ ﷺ لا شك أن ذلك علمه عند الله جل شأنه، ولكن شتان

(١) سبق تخريج الحديث.

بين شأن الرسول ﷺ ووفوده إلىٰ ربه، ووفود سعد -رضي الله تعالىٰ عنه- وتكريمه باهتزاز العرش لوفاته ﷺ.

الثالثة: وهنا أقف لأقول ليتعزىٰ كل مصاب مهما كانت مصيبته، بمصابه برسول الله ﷺ فهي أعظم مصيبة، من وعاها واحتسب أجرها هانت عليه ما عداها، والمصائب يخفف بعضها بعضًا

إن في مصيبة موت رسول الله ﷺ عزاءً من كل مصيبة، يقول الرسول ﷺ: «يا أيها الناس، أيما أحد من الناس أو من المؤمنين أصيب بمصيبة فليتعز بمصيبته بي، عن المصيبة التي تصيبه بغيري، فإن أحدًا من أمتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مصيبتي»(١)، صدق رسول الله ﷺ لن يصاب أحد بعده بمصيبة هي أشد عليه من مصيبته بوفاة الرسول ﷺ.

وكان أبو بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- إذا عزىٰ رجلًا كان مما يقول له: (اذكروا فَقْدَ رسولِ الله ﷺ تصغر مصيبتكم وأعظم الله أجرَكم)(٢).

قال القرطبي -رحمه الله تعالىٰ-: (قال أبو عمر: وصدق رسول الله ﷺ لأن المصيبة به أعظم من كل مصيبة يصاب بها المسلم بعده إلىٰ يوم القيامة)(٣).

وقال ابن رجب -رحمه الله تعالىٰ-: (كل المصائب تهون عند هذه المصيبة).

قال أبو الجوزاء: كان الرجل من أهل المدينة إذا أصابته مصيبة جاء أخوه فصافحه ويقول: (يا عبد الله، اتق الله فإن في رسول الله ﷺ أسوة حسنة)(٤).

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١/ ٢٦٧)، (رقم١٣٠٠).

(٢) انظر: السيوطي، تاريخ الخلفاء (ص ٩٥).

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٧٦).

(٤) ابن رجب، الطائف المعارف (ص ١١٤).

ويقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (فيا لها من مصيبة ما أصبنا بعدها بمصيبة إلا هانت إذا ذكرنا مصيبتنا به ﷺ)[1].

الرابعة: إذا كان الرسول ﷺ يقول كما في الفائدة السابقة: «فإن أحدًا من أمتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مصيبتي»، أي أن فاجعة الوفاة هي أعظم مصيبة علىٰ الأمة الإسلامية وأفرادها، فلا شك أن أعظم من واجهها، وفُجع بها، وتألم بها، وتحملها، وصبر عليها، ورضي بها قدرًا من الله -سبحانه- مكتوبًا، هم الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم، فلهم في ذلك أعظم الأجر، وأعلىٰ مراتب المثوبة، وهذا من خصائص الصحابة، رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين.

الخامسة: كان أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- وهو صاحب رسول الله ﷺ ورفيقه قبل البعثة وبعدها، وقبل الهجرة وبعدها، وفي كل أحواله كان مع الرسول ﷺ فهو أشد الصحابة فقدًا لرسول الله ﷺ لكن كان -رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه- أشدهم ثباتًا وأرسخهم إيمانًا، قام خطيبًا، ومن يستطيع أن يخطب أمام الناس ليعلن هذه الفاجعة، وهذا المصاب بثبات ورسوخ، وتوجيه للعقيدة الصحيحة وربط للناس بربهم سبحانه وتعالىٰ.

إنها مرتبة الصديقية، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩]، فمرتبة الصديقين جاءت بعد النبيين، ولم يبق بعد وفاة الرسول ﷺ من مرتبة النبوة أحد فكانت أعلىٰ مرتبة هي للصديق، وقد شهد له الرسول ﷺ بأنه صديق. عن أنس بن مالك رضي الله عنه، حدثهم أن النبي ﷺ صعد أُحُدًا، وأبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم، فقال: «اثبت أحد فإنما عليك نبي،

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية (٥/ ٢٧١).

وصديق، وشهيدان»[1].

السادسة: يقول أبو القاسم السهيلي -رحمه الله تعالىٰ- في مقارنة بين موقف عمر وأبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنهما-: (وأما جزع عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- وقوله: والله ما مات رسول الله ﷺ وليرجعن كما رجع موسىٰ عليه السلام، حتىٰ كلمه أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- وذكَّره بالآية فعقر حتىٰ سقط إلىٰ الأرض وما كان من ثبات جأش أبي بكر وقوته في ذلك المقام، ففيه ما كان عليه الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- من شدة التأله وتعلق القلب بالإله ولذلك قال لهم: من كان يعبد محمدًا، فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت)[2].

السابعة: إن هذا الحدث الجلل رغم ما جرىٰ له من تمهيد امتد سنوات، ثم تتابع في السنة الأخيرة، فقد كان وقعه شديدًا علىٰ الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم، يقول السهيلي -رحمه الله تعالىٰ-: (ومن ذلك ما روي عن عائشة -رضي الله عنها- وغيرها من الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- أن النبي ﷺ لما قُبض، دُهش الناس وطاشت عقولهم وأقحموا واختلطوا، فمنهم من خبل، ومنهم من أصمت، ومنهم من أقعد إلىٰ أرض، فكان عمر ممن خبل وجعل يصيح ويحلف ما مات رسول الله ﷺ وكان ممن أخرس عثمان بن عفان حتىٰ جعل يُذهب به ويُجاء ولا يستطيع كلامًا، وكان ممن أقعد علي -رضي الله تعالىٰ عنه- فلم يستطع حراكًا، وأما عبد الله بن أنيس، فأضني حتىٰ مات كمدًا، وفي الموطأ: (بلغه أن أم سلمة -رضي الله تعالىٰ عنها- زوج النبي ﷺ كانت تقول: ما صدقت بموت النبي ﷺ حتىٰ سمعت وقع الكرازين)[3]،

(١) صحيح البخاري (٥/ ٩)، (رقم ٣٦٧٥).

(٢) الروض الأنف للسهيلي (٧/ ٥٨٢) والمقارنة لا تنقص من مقام الفاروق - رضي الله تعالى عنه - ولكنها تبين منزلة أبي بكر الصديق الذي فاق الأمة بتألهه وتعلق القلب بالله سبحانه وتعالى.

(٣) الإمام مالك، الموطأ المطبوع مع شرح الزرقاني (٢/ ٩٧)، (رقم ٥٤٤) والكرازين هي المساحي.

قال الزرقاني -رحمه الله تعالىٰ-: (كانت تقول: ما صدقت بموت النبي ﷺ حتىٰ سمعت وقع الكرازين، ومعنىٰ ذلك أنها أخذتها دهشة وبهتة)[1] وبلغ الخبر أبا بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- وهو بالسنح فجاء وعيناه تهملان وزفراته تتردد في صدره وغصصه ترتفع كقطع الجِرَّة)[2]. ويقول ابن رجب -رحمه الله تعالىٰ-: (ولما توفي رسول الله ﷺ اضطرب المسلمون، فمنهم من دهش فخولط، ومنهم من أقعد فلم يطق القيام، ومنهم من أنكر موته بالكلية)[3]، فرحم الله أولئك الصحب الكرام الذين واجهوا هذه الفاجعة الكبرىٰ، والمصاب الأعظم، وعايشوه وذاقوا مرارته وغصته بعد أن عايشوا حلاوة مصاحبة الحبيب المصطفىٰ ﷺ وهذا يزيد المصاب وقعًا، ويعظم الخطب، ولذلك فلا تلمهم علىٰ ما دهاهم في مصابهم الخطير.

ويقول أيضًا ابن رجب -رحمه الله تعالىٰ: (كادت الجمادات تتصدع من ألم مفارقة الرسول ﷺ فكيف بقلوب المؤمنين، لما فقده الجذع الذي كان يخطب إليه قبل اتخاذ المنبر حن إليه وصاح كما يصيح الصبي، فنزل إليه فاعتنقه، فجعل يُهدّىٰ كما يُهدّىٰ الصبي الذي يسكن عند بكائه فقال: (لو لم أعتنقه لحَنَّ إلىٰ يوم القيامة). كان الحسن -رحمه الله تعالىٰ- إذا حدث بهذا الحديث بكىٰ وقال: هذه خشبة تحن إلىٰ رسول الله ﷺ فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه ﷺ وروي أن بلالًا -رضي الله تعالىٰ عنه - كان يؤذن بعد وفاة النبي ﷺ قبل دفنه، فإذا قال: أشهد أن محمدًا رسول الله، ارتج المسجد بالبكاء والنحيب، فلما دُفن، ترك بلال الأذان، ما أمر عيش من فارق الأحباب، خصوصًا من كانت رؤيته حياة الألباب)[4].

(١) الزرقاني، شرح الموطأ (٢/ ٩٧).
(٢) السهيلي، الروض الأنف (٧/ ٥٨٤) والقرطبي، تفسير القرطبي (٤/ ٢٢٢).
(٣) ابن رجب، لطائف المعارف (١١٣ - ١١٤).
(٤) ابن رجب، لطائف المعارف (١١١).

ليبـك رسـولَ الله مـن كان باكيـا ... فـلا تنـس قـبرًا بالمدينـة ثاويـا
جـزىٰ الله عنـا كل خيـر محمـدا ... فقـد كان مهديًـا وقـد كان هاديـا
وكان رسـول الله روحًـا ورحمـةً ... ونـورًا وبرهانًـا مـن الله باديـا
وكان رسـول الله بالخيـر آمـرا ... وكان عـن الفحشـاء والسـوء ناهيـا
وكان رسـول الله بالقسـط قائمـا ... وكان لمـا اسـترعاه مـولاه راعيـا
وكان رسول الله يدعـو إلىٰ الهدىٰ ... قلبـي رسـول الله لبيـه داعيًـا
أينسـىٰ أبـر النـاس بالنـاس كلهـم ... وأكرمهـم بيتًـا وشـعبًا ووادیـا
أينسـىٰ رسـول الله أكـرم مـن مشـىٰ ... وآثـاره بالمسـجدين كمـا هيـا
تكـدر مـن بـدع النبـي محمـد ﷺ ... كل مـل كان صافيـا
وكنـا إلـىٰ الدنيـا الدنيـة بعـده ... وكشـفت الأطمـاع منـا مسـاويا
وكـم مـن منـار كان أوضحـه لنـا ... ومـن علـم أمسـىٰ وأصبـح عافيـا
إذا المـرء لـم يلبـس ثيابـا مـن التقـىٰ ... تقلـب عريانـا وإن كان كاسـيا
وخيـر خصـال المـرء طاعـة ربـه ... ولا خيـر في مـن كان لله عاصيـا[٥]

الثامنة: لقد كان المصاب بوفاة النبي ﷺ يفوق كل مصيبة، لقد انقطع الخبر من السماء بوفاة المصطفىٰ ﷺ وقد كان ينزل جبريل -عليه السلام- إلىٰ رسول الله ﷺ بالوحي يوجه ويصحح ويبلغ أمر الله -جل شأنه- في ما يصلح البشرية ويهديها إلىٰ طريق ربها، روىٰ الإمام مسلم -رحمه الله تعالىٰ- في صحيحه عن أنس -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- بعد وفاة رسول الله ﷺ لعمر -رضي الله تعالىٰ عنه-: (انطلق بنا إلىٰ أم أيمن -رضي الله تعالىٰ عنها- نزورها، كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما انتهينا إليها بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند

(٥) ابن رجب، لطائف المعارف (١١١-١١٢).

الله خير لرسوله ﷺ؟ فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيجتهما علىٰ البكاء، فجعلا يبكيان معها)[1]. ما أعظم فقه أم أيمن رضي الله تعالىٰ عنها!

لقد كانت أعظم نعمة أكرم الله بها هذه الأمة هي نعمة الوحي الذي نزل به جبريل -عليه السلام- علىٰ الرسول المصطفىٰ ﷺ الذي بدأ في غار حراء، وانقطع اليوم بوفاة الرسول الكريم ﷺ ولا شك أن انقطاع هذه النعمة مما يهيج علىٰ البكاء، ويشعر بعظم المصاب ولذلك لما بكت أم أيمن -رضي الله تعالىٰ عنها- وأخبرت أبا بكر وعمر -رضي الله تعالىٰ عنهما- بسبب البكاء، هيجتهما علىٰ البكاء معها، إذ في انقطاع الوحي الرزية كل الرزية، واجتمع معها وفاة المصطفىٰ ﷺ المصيبة التي تهون عندها كل مصيبة، والحمد لله رب العالمين.

التاسعة: يقول أبو القاسم السهيلي -رحمه الله تعالىٰ-: (وكان موته -عليه الصلاة والسلام- خطبًا كالحًا، ورزءًا لأهل الإسلام فادحًا، كادت تهد له الجبال وترجف الأرض وتكسف النيرات لانقطاع خبر السماء وفقد من لا عوض منه مع ما آذن به موته -عليه الصلاة والسلام- من الفتن السحم والحوادث الوهم والكرب المدلهمة والهزاهز المضلعة، فلولا ما أنزل الله -تبارك وتعالىٰ- من السكينة علىٰ المؤمنين وأسرج في قلوبهم من نور اليقين وشرح له صدورهم من فهم كتابه المبين لانقصمت الظهور وضاقت عن الكرب الصدور ولعاقهم الجزع عن تدبير الأمور)[2].

ويقول أيضًا: (ولقد كان من قدم المدينة يومئذ من الناس إذا أشرفوا عليها سمعوا لأهلها ضجيجًا، وللبكاء في جميع أرجائها عجيجًا، حتىٰ صحلت الحلوق

(١) صحيح مسلم ٤/ ١٩٠٧ رقم (٢٤٥٤).
(٢) السهيلي، الروض الأنف (٧/ ٥٩٥-٥٩٦).

ونزفت الدموع وحق لهم ذلك ولمن بعدهم)[1].

العاشرة: في قول الرسول ﷺ لعائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-: «يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري ذلك السم»[2].

هنا نفهم أن الرسول ﷺ مات شهيدًا، فجمع الله -جل شأنه - له بين منزلة النبوة والشهادة، وفي المسند عن عبد الله، قال: (لأن أحلف بالله تسعًا، إن رسول الله ﷺ قتل قتلًا، أحب إلي من أن أحلف واحدة، وذلك بأن الله -عز وجل- اتخذه نبيًا، وجعله شهيدًا)[3].

الحادية عشرة: عن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه»، قالت: فقلت يا رسول الله، أراك تكثر من قول: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه؟»، فقال: «خبرني ربي أني سأرىٰ علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثرت من قول: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه، فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: ١]، فتح مكة، ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ٢-٣][4].

(إذا كان سيد المحسنين يؤمر بأن يختم أعماله بالحسنىٰ، فكيف تكون حال المذنب المسيء المتلوث بالذنوب المحتاج إلىٰ التطهير، من لم ينذره باقتراب أجله وحي، أنذره الشيب، وسلب أقرانه بالموت)[5].

---

(١) السهيلي، الروض الأنف (٧/ ٥٩٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه معلقا (٦/ ٩)، (رقم ٤٤٢٨) (وقال يونس عن الزهري، قال عروة: قالت عائشة رضي الله عنها).

(٣) المسند للإمام أحمد (٦/ ١١٥)، (رقم٣٦١٧) قال محققوه: (إسناده صحيح على شرط مسلم).

(٤) متفق عليه: صحيح البخاري، وصحيح مسلم (١/ ٣٥١)، رقم (٤٨٤).

(٥) ابن رجب، لطائف المعارف (١١١-١١٢).

الثانية عشرة: في نزول قول الله تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ١-٣] وما في دلالتها من أمر الرسول ﷺ أن يكثر من الاستغفار، استعدادًا للقاء الله سبحانه، درس لكل من بلغ الستين من العمر، ولمن شاب في الإسلام[١] أن يكثر من الاستغفار استعدادًا للقاء الله سبحانه، فكما نستغفر بعد كل عبادة، كذلك نستغفر بعد جملة العبادات كلها، اعترافًا بالتقصير وجبرًا للخلل واعتذارًا للرب -سبحانه وتعالىٰ- وتأسيًا بالرسول ﷺ فسبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك، فاغفر لي ذنوبي كلها، واقبل توبتي، إنك أنت التواب الرحيم.

الثالثة عشرة: بوب النووي -رحمه الله تعالىٰ- في كتابه المبارك «رياض الصالحين» بابًا سماه «باب ما يقوله من أيس من حياته» وأورد فيه حديث عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: سمعت رسول الله ﷺ وهو مستند إليَّ يقول: «اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلىٰ» متفق عليه[٢]. وهذا درس لمن أيس أو عاد مريضًا ميؤوسًا منه أن يذكره الدعاء بالمغفرة والرحمة التي هي دعاء النبي ﷺ في آخر حياته، وكانت من آخر ما قال قبل فراقه الدنيا صلىٰ الله عليه وآله وصحبه وسلم.

(١) قال ابن كثير -رحمه الله تعالى- في تفسيره (٦/ ٥٥٦) عند قوله تعالى: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾: «روي عن ابن عباس، وعكرمة، وأبي جعفر الباقر، وقتادة، وسفيان بن عيينة أنهم قالوا: يعني: الشيب وقال السدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني به الرسول ﷺ وهذا هو الصحيح عن قتادة، فيما رواه شيبان، عنه أنه قال: احتج عليهم بالعمر والرسل وهذا اختيار ابن جرير، وهو الأظهر».

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري (٧/ ١٢١)، (رقم ٥٦٧٤) وصحيح مسلم (٤/ ١٨٩٣)، (رقم٢٤٤٤).

الرابعة عشرة: من موقف أبي بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- عندما أُبلغ بموت الرسول ﷺ فجاء ودخل حجرة الرسول وقبَّله ثم خرج خطيبًا في الناس يعلن لهم الوفاة ويقرِّر هذه الحقيقة بثبات راسخ، تميز فيه عن سائر الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- والرجال إنما يتميزون عند الشدائد، قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (قال أنس -رضي الله تعالىٰ عنه-: خطبنا أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- ونحن كالثعالب، فما زال يثبتنا حتىٰ صرنا كالأسود)[١]. ويقول ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: (فاشتدت الرزية بموته ﷺ وعظم الخطب وجل الأمر وأصيب المسلمون بنبيهم، وأنكر عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه- ذلك وقال: إنه لم يمت وإنه سيعود كما عاد موسىٰ لقومه، وماج الناس وجاء الصديق المؤيد المنصور وخطب الناس)[٢]. وقال القرطبي -رحمه الله تعالىٰ-: (هذه الآية أول دليل علىٰ شجاعة الصديق وجرأته، فإن الشجاعة والجرأة حدهما ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النبي ﷺ فظهرت عنده شجاعته وعلمه، قال الناس: لم يمت رسول الله ﷺ منهم عمر، وخرس عثمان، واستخفىٰ علي واضطرب الأمر، فكشفه الصديق بهذه الآية حين قدومه من مسكنه بالسّنح)[٣]. وقال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (وفي الحديث قوة جأش أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- وكثرة علمه)[٤].

فرحم الله الصديق أبا بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- ، واعرف له أيها الأخ المسلم قدره ومكانته التي امتاز بها في حياة النبي ﷺ وبعد وفاته، فلو لم يكن له إلا هذا الموقف العظيم لكفىٰ.

---

(١) ابن تيمية، منهاج السنة (٨/ ٥٢).
(٢) ابن كثير، الفصول في سيرة الرسول ﷺ (ص ١٩٧).
(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٢٢٢).
(٤) ابن حجر، فتح الباري (٨/ ١٤٦).

الخامسة عشرة: في قول أبي بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- في خطبته التي ثبَّت فيها الناس وأعلن فيها وفاة الرسول ﷺ: (من كان منكم يعبد محمدًا ﷺ، فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت)، بيان لأعظم ما يجب أن تهتم به الأمة، وهو توحيد الله جل شأنه، فهذه الفاجعة العظمىٰ لم تُلْهِ أبا بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- عن القضية الكبرىٰ التي بُعث محمد ﷺ من أجلها، وهي إفراد العبادة لله، فهو الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، وغيره يموت ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فلا تتعلق القلوب إلا بالله سبحانه وتعالىٰ، وكل عبادة لغير الله -جل شأنه- باطلة، مآلها إلىٰ أن تكون هباءً منثورًا، وإذا كان محمد ﷺ مات ولم تنفع ولن تنفع عبادة الناس له ﷺ فمن باب أولىٰ أي عبادة تصرف لغيره، هي أولىٰ بالبطلان، والعبادة الحقيقية الباقية النافعة، هي عبادة الحي الذي لا يموت سبحانه وتعالىٰ.

السادسة عشرة: في خطبة عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- التي أنكر فيها موت الرسول ﷺ وقال إنه لن يموت حتىٰ يقتل المنافقين، وتوعد من يقول إنه مات بأن يضرب عنقه بالسيف، ومع هذه الخطبة خطبة أبي بكر رضي الله تعالىٰ التي ثبت بها المؤمنين، وردهم إلىٰ ربهم، وإلىٰ عبوديته. تقول عائشة أم المؤمنين الصديقة -رضي الله تعالىٰ عنها-: (فما كانت من خطبتهما من خطبة إلا نفع الله بها، لقد خوف عمر الناس، وإن فيهم لنفاقًا فردهم الله بذلك، ثم لقد بصر أبو بكر الناس الهدىٰ، وعرفهم الحق الذي عليهم وخرجوا به، يتلون: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ ﴾ [آل عمران:١٤٤] إلىٰ ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤])[1]، فخطبة عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- ردت المنافقين وحجَّمتهم، وكسرت رؤوسهم، وخطبة أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- ثبتت المؤمنين وربطت علىٰ قلوبهم مع هول الفاجعة التي حلت بهم.

(١) علقه البخاري في صحيحه (٥/ ٦) رقم (٣٦٦٩) ورقم (٣٦٧٠).

ولا أنسىٰ أن أذكر عِظم فقه أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- وإنصافها، وهي تقارن بين خطبة عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- وخطبة أبيها -رضي الله تعالىٰ عنه- وتبين قيمة كل خطبة وأهميتها ووظيفتها في تحقيق جزء عظيم من الدين.

السابعة عشرة: كان الرسول ﷺ وهو في مرض موته يحرص أن يبيت عند كل زوجة في ليلتها حتىٰ ثقل، فاستأذنهن في أن يمرض في بيت عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- فأذنَّ بطيب خاطر منهن إكرامًا للرسول ﷺ وقد كان يُحمل من بيت إلىٰ بيت ليبيت فيه، وفي هذا درس عظيم في العدل بين الزوجات في المبيت نتذكره، فنتذكر معه كمال عدله وحسن معاشرته ﷺ لنسائه، مع أن القسم بين نسائه ليس واجبًا علىٰ الأرجح[1]، ونتذكره حينما نرىٰ تهاون البعض في العدل بين الزوجات والحيف في حقوقهن وتفضيل بعضهن علىٰ بعض واتباع الهوىٰ وميل النفس في سلوكه وتصرفاته لزوجة دون أخرىٰ في حال الرخاء، والرسول ﷺ في مرض الموت لا ينسىٰ العدل، فهل من متأسٍ مقتدٍ بالحبيب المصطفىٰ ﷺ؟

ومن أعظم ما رأيته مؤلمًا للنفس، أن تعيش في بيئة تشعر فيها أن الأب في البيت أو الرئيس في العمل يُقدم غيرك عليك، فتشعر بغيرةٍ شديدة الألم، قاسية علىٰ النفس، ولذلك من أعظم ما يؤلم الزوجة أن تعيش مع زوج، ولها ضرة مُفضلة عليها، فتغار عليه أشد الغيرة، وهذه من قواصم الظهر في الحياة، ومن أشد المنكدات علىٰ المرأة، لا يفقهه كثير من الأزواج الذين لديهم أكثر من زوجة.

ولذلك جاء الوعيد شديدًا في التهاون في العدل بين الزوجات. عن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- أن النبي ﷺ قال: «من كانت له امرأتان فمال إلىٰ إحداهما،

---

(١) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٢١٤)، وابن حجر، فتح الباري (١/ ٣٠٣)، والسباعي، المرأة في الفقه والقانون (ص ٨٤)، وأبو صالح، مرض النبي ﷺ (ص ٤٨).

جاء يوم القيامة وشقه مائل»[1].

الثامنة عشرة: فضيلة خاصة لعائشة بنت الصديق -رضي الله تعالىٰ عنهما- عندما اختار الرسول ﷺ أن يُمرض عندها، وكان قبل ذلك يسأل: أين أنا غدًا استعجالًا ليومها رضي الله تعالىٰ عنها وأرضاها.

التاسعة عشرة: وأيضًا مما أكرم الله به عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- أنها كانت تقول: (إن من نعم الله علي: أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي، وفي يومي، وبين سحري ونحري، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته، دخل عليَّ عبد الرحمن، وبيده السواك، وأنا مسندة رسول الله ﷺ فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك، فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه: «أن نعم» فتناولته، فاشتد عليه، وقلت: ألينه لك؟ فأشار برأسه: «أن نعم» فليَّنْته، فأمره، وبين يديه ركوة أو علبة -يشك عمر- فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه، يقول: «لا إله إلا الله، إن للموت سكرات» ثم نصب يده، فجعل يقول: «في الرفيق الأعلىٰ» حتىٰ قبض ومالت يده)[2].

العشرون: قد تضمنت فاجعة وفاة النبي ﷺ عددًا من فضائل، بل من خصائص أبي بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه-:

١- أن الرسول ﷺ خطب فقال: «إن الله خيَّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله»، فبكىٰ أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- قال الراوي: فقلت في نفسي: (ما يبكي هذا الشيخ؟ إن يكن الله خيَّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله؟ فكان رسول الله ﷺ هو العبد، وكان أبو بكر أعلمنا)[3]

---

(١) أبو داود، سنن أبي داود (رقم ٢١٣٣) وصححه الألباني.
(٢) صحيح البخاري (٦/ ١٣) رقم (٤٤٤٩).
(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (١/ ٥٥٨)، (رقم ٤٦٦).

٢- قوله ﷺ في بقية الحديث السابق: «وإن من أَمَنِّ الناس علي في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا من أمتي لاتخذت أبا بكر خليلًا ولكن أخوة في الإسلام ومودته لا يبقين في المسجد باب إلا سُدّ إلا باب أبي بكر»[١]، قال ابن رجب -رحمه الله تعالىٰ-: (وفي هذه الإشارة إلىٰ أن أبا بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- هو الإمام بعده، فإن الإمام يحتاج إلىٰ سكنىٰ المسجد والاستطراق فيه بخلاف غيره، وذلك من مصالح المسلمين المصلين في المسجد ثم أكد هذا المعنىٰ بأمره صريحًا أن يصلي بالناس أبو بكر فروجع في ذلك فغضب وقال: (مروا أبا بكر فليصل بالناس)، فولاَّه إمامة الصلاة دون غيره، وأبقىٰ استطراقه من داره إلىٰ مكان الصلاة وسد استطراق غيره، وفي ذلك إشارة واضحة إلىٰ استخلافه علىٰ الأمة دون غيره)[٢].

٣- حديث عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت: لما مرض رسول الله ﷺ مرضه الذي مات فيه، فحضرت الصلاة فأُذن فقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس»[٣].

٤- حديث عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- أن رسول الله ﷺ قال في ابتداء مرضه الذي مات فيه[٤]: «لقد هممت -أو أردت- أن أرسل إلىٰ أبي بكر وابنه فأعهد، أن يقول القائلون أو يتمنىٰ المتمنون ثم قلت: يأبىٰ الله ويدفع المؤمنون أو يدفع الله ويأبىٰ المؤمنون»[٥].

هذه جملة من خصائص أبي بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- التي وقعت مع مرضه ﷺ والتي كانت بمثابة الإشارات المتتابعة لأحقية أبي بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- في الخلافة من بعده.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) ابن رجب، لطائف المعارف (ص ١٠٤).

(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٢/ ١٥١)، (رقم ٦٦٤).

(٤) انظر: ابن حجر، فتح الباري (١٠/ ١٢٥).

(٥) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (١٠/ ١٢٣)، (رقم ٥٦٦٦).

الواحدة والعشرون: كما أن في الأحاديث السابقة تكريمًا لأبي بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه-، ففيها منهج يدلنا عليه الرسول ﷺ وهو الإقرار بالفضل لأهله[1] وذِكْر أهل الإحسان والخير بما يستحقونه من الاعتراف لهم بالصنيع الحسن والثناء عليهم.

الثانية والعشرون: في قصة بعث أسامة بن زيد بن حارثة -رضي الله تعالىٰ عنهما- وهو مولىٰ ابن مولىٰ لا يصل عمره إلىٰ عشرين سنة، ومع ذلك فلا الصغر ولا الرق القديم منع الرسول ﷺ من أن يجعله أميرًا علىٰ عامة الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم، وفيهم من كبارهم، وفيهم القرشيون، بل فيهم من هو أفضل من أسامة كالفاروق -رضي الله تعالىٰ عنهما- في غزوة مهمة بعيدة المدىٰ، يدلنا هذا علىٰ أن تلك الصفة لا تنقص من قدر الشخص في الإسلام، والله -سبحانه وتعالىٰ- يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣].

الثالثة والعشرون: نأخذ أيضًا من هذا الموقف فضل أسامة بن زيد -رضي الله تعالىٰ عنهما- حيث اختاره الرسول ﷺ قائدًا لهذا الجيش، وهي تزكية عظيمة من الرسول ﷺ وهو الحب بن الحب -رضي الله تعالىٰ عنه وعن والده- وقد قال ﷺ عنه وعن أبيه: «وإن كان لخليقًا للإمارة وإن كان لمن أحب الناس إلي، وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده»[2].

الرابعة والعشرون: في اختلاف الصحابة-رضي الله تعالىٰ عنهم- بين يدي الرسول ﷺ وهو مريض، وقد قال لهم: «هلموا أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده» فاختلفوا في ذلك فقال النبي ﷺ: «قوموا عني». نأخذ آداب زيارة المريض، يقول ابن

(١) انظر: أبو شهبة، السيرة النبوية (٢/ ٥٩٢).
(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٨٦)، (رقم ٣٧٣٠).

حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (ويؤخذ من هذا الحديث أن الأدب في العيادة أن لا يطيل العائد عند المريض حتىٰ يضجر، وأن لا يتكلم عنده بما يزعجه)[1].

الخامسة والعشرون: التحذير من الدنيا والمنافسة عليها، تلك الدنيا الدنية التي يَخشىٰ علينا الرسول ﷺ المنافسة فيها، فتهلكنا كما أهلكت من قبلنا، ولذلك ينبغي أن تبقىٰ هذه الوصية في التحذير من الدنيا نصب أعيننا، راسخة في أذهاننا، فهي وصية من الرسول الذي وصفه الله -جل شأنه- بأنه رؤوف رحيم.

السادسة والعشرون: كانت آخر وصاياه: (الصلاة، الصلاة)، هذه الوصية هي التي كان ﷺ يوصي بها ويكررها، وهو يجود بنفسه حتىٰ انقطع صوته وهو يؤكدها ويذكر بها ويرغب فيها، فمن ضيَّع هذه الوصية وفرَّط في الصلاة، لم يبق له من دينه ما يعول عليه، فيا أخي، حافظ علىٰ الصلاة، حافظ علىٰ وصية المصطفىٰ ﷺ وهو يودع الدنيا، ولا شك أن الرجل في تلك اللحظة يجود بأغلىٰ وأثمن وأهم الوصايا عنده.

السابعة والعشرون: كانت وصية الرسول ﷺ بالصلاة، ورد معها وصيةٌ أخرىٰ، هي قوله ﷺ: «الصلاة، الصلاة، اتقوا الله في ما ملكت أيمانكم»، فرغم حالته ﷺ التي تقتضي الانشغال عن غيره، فلم ينس ﷺ هذه الفئة التي هي مظنة الضعف والانتقاص من الناس، لكن الإسلام وبوصية الرسول ﷺ أراد رفع شأن هذه الفئة والتوصية بحسن معاملتها، وقد قال ﷺ: «إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلِّفوهم، فإن كلَّفتموهم فأعينوهم»[2]، فسمَّاهم إخوة وأمر بالعدل معهم وعدم ظلمهم أو تكليفهم ما يشقّ عليهم ومشاركتهم في ذلك إذا وقع شيء من الكلفة، ففي أي تعاليم تجد مثل هذه الوصايا، ومثل هذا الاهتمام من أعظم رجل في أصعب اللحظات، إنه التشريع الإلهي الفريد.

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (١٠/ ١٢٦).

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (١/ ٨٤)، (رقم ٢٠).

الثامنة والعشرون: نقلت عددًا من الأحاديث والوصايا المهمة العظيمة التي أوصىٰ بها الرسول ﷺ في آخر أيامه ومن ذلك وصيته -عليه الصلاة والسلام- بالصلاة وما ملكت أيمانكم، وهو يغرغر في اللحظات الأخيرة من عمره وينقطع صوته ولا يسمع منه إلا الاهتمام البالغ بأمر هذا الدين[1]، أليس لنا في هذا دروس وعبر بالاهتمام بالدين في حياتنا اليومية، وأن نُولِي هذا الدين ما يستحق من العناية التي كان يوليها إياه رسول الله ﷺ في لحظات النزع الأخيرة.

التاسعة والعشرون: نستفيد منْ لَعْن الرسول ﷺ اليهودَ والنصارىٰ لاتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد، التحذير من الشرك ووسائله والتأكيد علىٰ التوحيد والحذر من كل ما يجرحه أو ينقصه، فضلًا عما ينقضه، وهذه هي خلاصة دعوته ﷺ ودعوة الأنبياء من قبله عليهم السلام، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، قال ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما-: (ما ورد في القرآن الكريم من العبادة فمعناه التوحيد)، وعلىٰ هذا جميع المفسرين والعلماء[2].

ولذلك فمما يؤلم القلب ما نراه من انتشار اتخاذ القبور في المساجد في العالم الإسلامي والطواف حولها، وتقديم بعض العبادات لها التي لا يجوز أن تصرف إلا لله -سبحانه وتعالىٰ- كالدعاء والتمسح والتبرك بها، وهذا عين ما حذَّر منه النبي ﷺ أمته.

والوصية بالتوحيد جرت علىٰ ألسن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من قبل عند موتهم، ومما يذكر في هذا المقام وصية إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- لبنيه وكذلك يعقوب - عليه الصلاة والسلام- قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠ إِذۡ

---

(١) انظر: فصل، قصة بعث أبي بكر جيش أسامة -رضي الله عنهما- (ص ٢٣).

(٢) ابن قاسم، الدرر السنية (٢/ ٢٩١، ٣٠٩ - ٣١٠).

قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٣].

الثلاثون: ونستفيد من ذلك تحريم بناء المساجد علىٰ القبور، أو دفن الموتىٰ في المساجد، لأنها كلها تؤدي إلىٰ اتخاذ القبور مساجد، ولذلك دفن الرسول ﷺ في الحجرة، تقول عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-: (لولا ذلك لأبرزوا قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا)(١)، فعائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- تخبر عن سبب عدم إبراز قبر الرسول ﷺ وهو خشية الغلو فيه وبناء مسجد عليه، والوسائل لها أحكام المقاصد، وباب سد الذرائع في العقيدة مهم جدًا، ولذلك مُنِعت الصلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، ونُهِيَ عن الصلاة في المقبرة، وإسراج القبور، ونُهِيَ عن التصاوير، ونُهِيَ عن الذبح في مكان يذبح فيها المشركون(٢)، كل ذلك حماية للتوحيد.

قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (قوله لأبرز قبره، أي لكشف قبر النبي ﷺ ولم يتخذ عليه الحائل، والمراد الدفن خارج بيته، وهذا قالته عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قبل أن يوسع المسجد النبوي، ولهذا لما وسع المسجد جُعلت حجرتها مثلثة الشكل، محددة حتىٰ لا يتأتىٰ لأحد أن يصلي إلىٰ جهة القبر مع استقبال القبلة)(٣).

---

(١) متفق عليه صحيح البخاري (٦/ ١١)، رقم (٤٤٤١) وصحيح مسلم (١/ ٣٧٦)، رقم (٥٢٩).

(٢) كتاب التوحيد للإمام محمد بن عبد الوهاب مع شرحه التمهيد للشيخ صالح آل الشيخ (ص٢٦٣) باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إليه.

(٣) ابن حجر، فتح الباري (٣/ ٢٠٠).

الواحدة والثلاثون: في لَعْن الرسول ﷺ لليهود والنصارىٰ في آخر حياته تذكير لكل مسلم بهؤلاء الأعداء للمسلمين في كل عصر، فهم أعداء لكل مسلم ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة:١٠٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:١٠٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:١٢٠] وغيرها من الآيات التي تبين خبث هؤلاء الأعداء وحقدهم علىٰ المسلمين، لا فرق بين من كان يعيش في عهد الرسول ﷺ أو من جاء بعدهم، فهم علىٰ ملة واحدة في عدائهم للمسلمين، ولذلك فإن استمرار عداوتهم للمسلمين في العصور التالية لعصر الرسول ﷺ إلىٰ عصرنا الحاضر، آية للرسول ﷺ حينما لعنهم -عليه الصلاة والسلام- وكان -عليه الصلاة والسلام- علىٰ يقين من استمرار هذا العداء للمسلمين إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها.

الثانية والثلاثون: من وصيته ﷺ بإخراج المشركين من جزيرة العرب، قد يتساءل البعض عن الحكمة من هذه الوصية، ومع التسليم لأمر الرسول إلا أن هذا لا يمنعنا محاولة التعرف علىٰ الحكمة من ذلك، ولعلها تكمن في أن الرسول ﷺ أراد المحافظة علىٰ هذه الجزيرة معقلًا للإسلام، وأن يبعد عنها كل أسباب تعرضها للهلاك؛ بسبب كثرة الكفار وغلبتهم، ذلك أن الكفار إذا كثروا في مكان عرَّضوه للهلاك، كما ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ لما قيل له: (أنهلك وفينا الصالحون؟)، قال: «نعم، إذا

كثر الخبث»[1]، فإذا أُذن لليهود والنصارىٰ والمشركين بالبقاء في جزيرة العرب، كان هذا سبيلًا لتكاثرهم، وتزايد أعدادهم حتىٰ يربو عددهم علىٰ عدد المسلمين وتكون لهم الأغلبية، وعندها يكثر الخبث، ويكون معقل الإسلام معرَّضًا للهلاك[2].

الثالثة والثلاثون: في طلب الرسول ﷺ أن يَكْتب لهم كتابًا ثم اختلافهم عنده، وما جرىٰ من قول عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه- يقول النووي -رحمه الله تعالىٰ-: (وأما كلام عمر -رضي الله عنه- فقد اتفق العلماء المتكلمون في شرح الحديث علىٰ أنه من دلائل فقه عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- وفضائله ودقيق نظره؛ لأنه خشي أن يكتب ﷺ أمورًا ربما عجزوا عنها واستحقوا العقوبة عليها؛ لأنها منصوصة لا مجال للاجتهاد فيها، فقال عمر -رضي الله تعالىٰ عنه-: حسبنا كتاب الله لقوله تعالىٰ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾فعلم أن الله تعالىٰ أكمل دينه، فأمن الضلال علىٰ الأمة وأراد الترفيه علىٰ رسول الله ﷺ فكان عمر -رضي الله تعالىٰ عنهما- أفقه من ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- وموافقيه. قال الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي -رحمه الله تعالىٰ- في أواخر كتابه «دلائل النبوة»: (إنما قصد عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- التخفيف عن رسول الله ﷺ حين غلبه الوجع، ولو كان مراده ﷺ أن يكتب ما لا يستغنون عنه، لم يتركه لاختلافهم ولا لغيره، لقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، كما لم يترك تبليغ غير ذلك لمخالفة من خالفه ومعاداة من عاداه)[3].

وقال القاضي عياض -رحمه الله تعالىٰ-: (ودعا إلىٰ كتب كتاب لئلا تضل أمته

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري (١٣/ ١٠٦)، (رقم ٧١٣٥)، وصحيح مسلم (٤/ ٢٢٠٧)، (رقم ٢٨٨٠).

(٢) انظر: محمد العثيمين، شرح رياض الصالحين (٤/ ٥٣٦).

(٣) النووي، شرح صحيح مسلم (١١/ ٩٠).

بعده، إما في النص على الخلافة، أو الله أعلم بمراده، ثم رأى الإمساك عنه أفضل وخيرًا)[1].

الرابعة والثلاثون: عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يقول وهو صحيح: «إنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يخير»، فلما نزل به، ورأسه على فخذي غشي عليه، ثم أفاق فأشخص بصره إلى سقف البيت، ثم قال: «اللهم الرفيق الأعلى». فقلت: إذًا لا يختارنا، وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا وهو صحيح، قالت: فكانت آخر كلمة تكلم بها: «اللهم الرفيق الأعلى»[2].

يقول ابن القيم -رحمه الله تعالى-: (وأما نبينا -صلوات الله وسلامه عليه- فإن ربه أرسل إليه يُخَيِّره وكان أعلم الخلق بالله، فعلم أن ربه -تبارك وتعالى- يحب لقاءه ويختاره له، فاختار لقاء الله، ولو علم أن ربه يحب له البقاء في الدنيا، لتنفيذ أوامره، وإقامة دينه، لما اختار غير ذلك، فكان اختياره تابعًا لاختيار ربه عز وجل)[3].

الخامسة والثلاثون: في فجر اليوم الذي توفي فيه المصطفى ﷺ وهو فجر يوم الاثنين، وهي آخر صلاة فريضة صلاها رسول الله ﷺ رفع ستر حجرته واطلع على الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- وهم يصلون صفوفًا منتظمة خلف أبي بكر الصديق -رضي الله تعالى عنه- ثم تبسم يضحك، ثم أرخى الستر فتوفي رسول الله ﷺ من يومه ذلك[4]، وهذا يرشدنا إلى أن تفكيره ﷺ كان منصرفًا تلك الساعة إلى أمته وإلى ما ستكون عليه حالهم بعد وفاته، لقد رأى منهم ما يسره ويطمئن قلبه، يظهر

---

(١) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى (ص ٥٨١).

(٢) صحيح البخاري (٦/ ١٥)، (رقم ٤٤٦٣) وصحيح مسلم (٤/ ١٨٩٤)، (رقم ٢٤٤٤)

(٣) ابن القيم، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، الطبعة الثالثة (المدينة:دار التراث ١٤٠٩)، (ص ٢٦٧).

(٤) انظر: صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٨/ ١٤٣)، (رقم ٤٤٤٨)، وأبو حاتم البستي، السيرة النبوية وأخبار الخلفاء (ص ٤٠٠)

هذا في ابتسامته الشريفة ﷺ وهو ينظر إليهم في صفوفهم المنتظمة، لقد كتب الله -جل شأنه- أن يكون آخر مشهد يراه الرسول ﷺ من أمته مشهد الصلاة جماعة في المسجد، فيا أخي المسلم، العهد، العهد الذي فارق رسول الله ﷺ الدنيا وهو راضٍ عنه، يبتسم من أجله لا يفوتنك ولا تغب عن هذا المشهد اليومي العظيم.

السادسة والثلاثون: في مصيبة موت رسول الله ﷺ التي واجهها صحابة رسول الله ﷺ درس لنا في كيفية التعامل مع المصائب، فالموقف يدلنا علىٰ أن الصحابة -رضي الله عنهم- مع عظم ما نزل بهم حتىٰ أُقعدوا عن القيام وأخرسوا عن الكلام إلا أن ذلك لم يجعلهم يخمشون وجهًا أو يشقون جيبًا أو يلطمون خدًا أو تسمع لهم صوت نائحة أو اعتراض أو تسخط، بل أدب إسلامي وصبر واحتمال واحتساب للأجر عند الله سبحانه وتعالىٰ، كل هذا نأخذ منه درسًا عظيمًا لنا في ما نواجه من مصائب، هي -بلا شك- دون هذه المصيبة العظمىٰ والفادحة الكبرىٰ التي حلت بالمسلمين إلىٰ يوم الدين.

أيضًا لم يقيموا له أربعينية بعد مضي أربعين يومًا من وفاته، ولا أقاموا له حفلًا تأبينيًا ولا غير ذلك، وهو أحب إليهم من أنفسهم، ولو كان في ذلك خير، لكانوا أسبق الناس إليه وأولاهم بالعمل به، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

السابعة والثلاثون: لا يؤاخذ الله -جل شأنه- بدمع العين وحزن القلب، فهذا أمر فطري ولكن المؤاخذة علىٰ السلوك الذي يُشعر بتسخط القدر والاعتراض علىٰ ما كتب الله جل شأنه.

يقول القرافي -رحمه الله تعالىٰ- وهو يحرر الفرق بين النوح والمراثي: (النوح إنما حرم؛ لأنه يقتضي نسبة الرب -سبحانه وتعالىٰ- إلىٰ الجور في قضائه والتبرم بقدره، وأن الواقع من موت هذا الميت لم يكن مصلحة، بل مفسدة عظيمة، وتكون النائحة تذكر كلامًا يقرر ذلك في النفوس، وتوضحه للأفهام وتحمل السامعين علىٰ

اعتقاد ذلك، فكل لفظ تضمن ذلك كان حرامًا، نظمًا كان أو نثرًا مرثية أو نواحًا. ومتىٰ كان لفظ النائحة ليس فيه شيء من ذلك، بل ذكر دِينِ الميت، وأنه انتقل إلىٰ جزاء أعماله الحسنة ومجاورة أهل السعادة، وأنه أتىٰ عليه ما قضىٰ علىٰ عامة الناس، وأن هذا سبيل لا بد منه، وأنه موطن اشترك فيه جميع الخلائق، وباب لا بد من دخوله، فهذا ليس بحرام، فإن زادت علىٰ ذلك بأن تأمر أهل الميت بالصبر، وتحثهم علىٰ طلب الأجر والثواب، وأنهم ينبغي لهم أن يحتسبوا ميتهم في سبيل الله، ويعتمدوا في حسن الخلف علىٰ الله تعالىٰ ونحو ذلك، فهذا مندوب إليه مأمور به)[1].

واستثنىٰ بعض العلماء عدم المؤاخذة باليسير من الكلمات الصحيحة التي قد تصدر من الشخص لفاجعة المصيبة، قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: (وأما الكلمة اليسيرة إذا كانت صدقا لا علىٰ وجه النوح والتسخط، فلا تحرم ولا تنافي الصبر الواجب، نص عليه أحمد في مسنده من حديث أنس -رضي الله تعالىٰ عنه- أن أبا بكر -رضي الله عنه- دخل علىٰ النبي بعد وفاته، فوضع فمه بين عينيه ووضع يده علىٰ صدغيه وقال: وانبياه واخليلاه واصفياه)[2]. وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك -رضي الله تعالىٰ عنه- أيضًا قال: (لما ثقل علىٰ النبي ﷺ جعل يتغشاه الكرب، فقالت فاطمة: واكرب أبتاه فقال: ليس علىٰ أبيك كرب بعد اليوم. فلما مات ﷺ قالت: يا أبتاه، أجاب ربا دعاه يا أبتاه: جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه،

---

(١) القرافي، الفروق، (الفرق رقم ١٠٠) تحقيق عمر القيام (بيروت: مؤسسة الرسالة) (٢/ ٣١٠- ٣١٢).

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده (٤٠/ ٣٢) رقم (٢٤٠٢٩) وقال محقق المسند شعيب الأرناؤوط وزملاؤه: إسناده حسن من أجل يزيد بن بابنوس، فإنه لم يرو عنه سوى أبي عمران الجوني، وقال الدارقطني: لا بأس به، وقال ابن عدي: أحاديثه مشاهير، وذكره ابن حبان في الثقات، وقد ثبت البخاري في «تاريخه» سماعه من عائشة. وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين. أبو عمران الجوني: هو عبد الملك بن حبيب الأزدي.

إلىٰ جبريل أنعاه، فلما دفن، قالت فاطمة: يا أنس، أطابت أنفسكم أن تحثوا علىٰ رسول الله التراب[١]. وقال النبي ﷺ: «وإنا بك يا إبراهيم لمحزنون»[٢]، وهذا ونحوه من القول الذئ ليس فيه تظلم للمقدور ولا تسخط علىٰ الرب ولا إسخاط له، فهو كمجرد البكاء)[٣]. ونقل ابن علان -رحمه الله تعالىٰ- قول بعض العلماء: (ويأخذ من الحديث جواز التوجع للميت عند احتضاره مثل قول فاطمة -رضي الله تعالىٰ عنها-: «واكرب أبتاه» وأنه ليس من النياحة؛ لأنه أقرها علىٰ ذلك ﷺ وأما قولها بعد أن قبض: «وا أبتاه» إلخ، فيؤخذ منه أن تلك الألفاظ إذا كان الميت متصفًا بها لا يمنع ذكره بها بعد موته، بخلاف ما إذا كانت فيه ظاهرًا وهو في الباطن بخلاف ذلك، أو لا يتحقق اتصافه بها، فيدخل المنع)[٤].

ويقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ -رحمه الله تعالىٰ- عند حديث عن أبي أمامة -رضي الله تعالىٰ عنه- أن رسول الله ﷺ لعن الخامشة وجهها والشاقة جيبها والداعية بالويل والثبور[٥]، قال: وهذا يدل علىٰ أن هذه الأمور من الكبائر، وقد يُعفىٰ عن الشيء اليسير من ذلك إذا كان صدقًا، وليس علىٰ وجه النوح والتسخط. نص عليه أحمد -رحمه الله-؛ لما وقع لأبي بكر وفاطمة -رضي الله عنهما- لما توفي رسول الله ﷺ[٦].

(١) صحيح البخاري (٦/ ١٥)، رقم (٤٤٦٢).

(٢) صحيح البخاري (٢/ ٨٣) رقم (١٣٠٣) من حديث أنس بن مالك - رضي الله تعالى عنه - بلفظ: وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون.

(٣) ابن القيم، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، الطبعة الثالثة (المدينة:دار التراث ١٤٠٩)، (ص ٢٦٧).

(٤) ابن علان، دليل الفالحين شرح رياض الصالحين، الطبعة الرابعة بيروت، دار المعرفة ١٤٢٥، (١/ ١٥٧).

(٥) رواه ابن ماجه في سننه (٤/ ٨٥) رقم (١٥٨٥) وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢١٤٧).

(٦) عبد الرحمن بن حسن، فتح المجيد (ص ٣٤٠).

الثامنة والثلاثون: في وفاة المصطفىٰ ﷺ خير الخلق وأكرمهم علىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ- تبرز حقيقة مهمة، يسقط عندها خزعبلات مدعي الولاية، وأصحاب الطرق الصوفية الفاسدة، وجبروت المتجبرين وعناد الملحدين وطغيان الطغاة، إنها الحقيقة التي تصبغ الحياة كلها بصبغة العبودية والذل والخضوع لله الواحد القهار، إنها حقيقة حية تعلن أن لا ربوبية حقيقية إلا لله وحده، ولا ألوهية حقيقية إلا لله وحده، فهو الباقي سبحانه، المستحق للعبودية وحده لا مفر منه إلا إليه، المتفرد بالبقاء، المتفرد بالتدبير، المتفرد بحق العبودية الصحيحة، فلا مخرج عن حكمه ولا غالب علىٰ أمره، ولا قيمة لذل وعبودية لغيره، حقيقة تُعلي شأن الآخرة وترخص الدنيا، فلا يتجاوز كونها معبرًا وممرًا للآخرة، الحقيقية التي لو حصل فيها استثناء لكان لهذا النبي العظيم ﷺ ولكنها حقيقة أعلنها القرآن الكريم ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥، الأنبياء: ٣٥، العنكبوت: ٥٧].

التاسعة والثلاثون: لقد خرج الرسول ﷺ من هذه الدنيا، كما جاء إليها، لم يترك مالًا ولا دينارًا ولا درهمًا[١]، لم يترك بنين ولا بنات إلا فاطمة الزهراء -رضي الله عنها- التي أسرَّ لها أنها أول أهل بيته لحوقًا به[٢]. مات ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من شعير[٣] طعامًا لأهله، مما يدل علىٰ أنه كان ﷺ أبعد الناس عن طلب المال[٤]، وإنما ترك بعده ﷺ هداية وإيمانًا وشريعة عامة خالدة وميراثًا عظيمًا وأمة هي خير الأمم وأوسطها[٥].

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (ص ١٤٨)، حديث (رقم ٤٤٦١).
(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٧٨)، (رقم ٣٧١٦).
(٣) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٨/ ١٥١)، (رقم ٤٤٦٧).
(٤) انظر: ابن تيمية، منهاج السنة (٧/ ٤٦٧).
(٥) انظر: أبو شهبة، السيرة النبوية (٢/ ٥٩٤).

وهو ﷺ أسوتنا، فلم يعط للدنيا عناية أكثر من قدرها، عاش للآخرة، وخَلَّفَ العلم النافع والنهج السديد في الدعوة إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، فكم لك -يا أخي- من هذا النصيب يوم تلقىٰ ربك؟

الأربعون: مات المصطفىٰ ﷺ وقد قال: «لا نُوْرَثُ، ما تركناه صدقةٌ»[1] فلم يترك وراءه مالًا لورثته، ولكنه ورَّث شيئًا آخر وهو العلم كما قال ﷺ: «إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورَّثوا العلمَ، فمن أخذه أخذ بحظٍ وافرٍ»[2].

ومعنىٰ هذا الحديث (أنه يقول) إننا لا نُوْرَث بالانتساب، وإنما نُوْرَث بالاكتساب، فهذا هو ميراث رسول الله ﷺ حي باقٍ يتنافس فيه العلماء وطلبة العلم، فليكن لك- أخي طالب العلم- أوفر الحظ والنصيب من ميراث رسول الله ﷺ الخالد الذي فيه الرفعة والعزة في الدنيا والآخرة.

فأوصيك بالعلم، واعلم أن من لم يطلب العلم لم يفلح، حتىٰ كانوا يعدون من لا علم له من السفلة، قال ذو النون، وقد سُئِلَ عن السفلة فقال: (من لا يعرف الطريق إلىٰ الله تعالىٰ ولا يتعرفه)[3].

الواحدة والأربعون: لقد مات رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعًا من شعير طعامًا لأهله[4]، فعل هذا وهو رأس الدولة وولي الأمر والحاكم الشرعي، يموت ودرعه عند يهودي لم يصادر حق اليهودي الشخصي

(١) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (٧/ ٤٩٣)، (رقم ٤٢٤٠).
(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١/ ٤٣)، (رقم١٨٢).
(٣) ابن قاسم، الدرر السنية (٢/ ٢٧٨)
(٤) كما في صحيح البخاري وقد سبق تخريجه قريبًا.

ولم يستغل سلطته، وحسبك منه ﷺ وهو بهذه المكانة لكي يقترض من يهودي ارتهنه درعه! فهل بعد هذا نحتاج إلىٰ دليل حول عدل الإسلام واحترامه لأهل الذمة وصيانته لحقوقهم واحترامه لأموالهم؟

الثانية والأربعون: مات الرسول ﷺ ودفنه الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- وهو أحب إليهم من أنفسهم وأولادهم ووالديهم، دفنوه في قبر عادي، مثله مثل سائر قبور المسلمين، وجهوه نحو القبلة وواروه بتراب القبر، ولم يجصصوا القبر ولم يرفعوه، ولم يزيدوا عليه شيئًا، ولم يبنوا عليه قبة، وإنما وضعوا لبنتين من طين علىٰ طرفي القبر، وهكذا بقي زمن الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- حتىٰ لحق به صاحبه أبو بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- فدفن بجواره وبقبر مثل قبره، واستمر الأمر علىٰ ذلك حتىٰ لحق بهم الفاروق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه- فدفنه الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- مجاورًا لهما بقبر مثل قبورهم، لا تزويق ولا زخرفة ولا تجصيص ولا قباب، ولا كتابة أسماء ولا آيات قرآنية ولا غير ذلك.

يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (روىٰ أبو داود والحاكم من طريق القاسم بن محمد بن أبي بكر، قال: دخلت علىٰ عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- فقلت: يا أُمّه اكشفي لي عن قبر رسول الله ﷺ وصاحبيه، فكشفت له عن ثلاثة قبور لا مشرفة ولا لاطئة مبطوحة ببطحاء العرصة الحمراء. زاد الحاكم: (فرأيت رسول الله ﷺ مقدمًا، وأبا بكر رأسه بين كتفي النبي ﷺ وعمر رأسه عند رجلي النبي ﷺ)[1].

هذا هو قبر خليل الرحمن وسيد الأولين والآخرين، ومعه قبرا صاحبيه أفضل أمة محمد ﷺ ورضي الله تعالىٰ عنهما.

وفي هذا درس عظيم للأمة الإسلامية المحبة للرسول ﷺ وللصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم، أن يتأسوا بهم في قبور موتاهم، فما موتاهم بخير من الرسول ﷺ

(١) فتح الباري (٣/ ٢٥٧).

وصاحبيه رضي الله تعالىٰ عنهما. ولو كان في رفع القبور وتجصيصها وتزيينها خير، لكان الصحابة أول السابقين إليه في قبر النبي ﷺ.

وفيه تذكير لكل من يوصي بأن يدفن في مسجد، أو أن يُبنىٰ له قبة علىٰ قبره، أو يسعىٰ في ذلك لأحد مشايخه أو أقاربه، ظنًا منه أن ذلك عملًا صالحًا.

فقد حذر الرسول ﷺ أشد التحذير من اتخاذ القبور مساجد، أو دفن الموتىٰ في المساجد، أو بناء القبب علىٰ القبور أو تجصيصها وتزيينها، كل ذلك حماية للتوحيد، وسدًا لباب الشرك.

وفاعل ذلك مخالف للرسول ﷺ في وصيته في آخر أيامه، مخالف لهدي الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- في قبر النبي ﷺ وصاحبيه رضي الله تعالىٰ عنهما.

الثالثة والأربعون: قال القاضي عياض -رحمه الله تعالىٰ-: (واعلم أن حرمة النبي ﷺ بعد موته وتوقيره وتعظيمه لازم كما كان حال حياته، وذلك عند ذكره ﷺ وذكر حديثه وسنته وسماع اسمه وسيرته ومعاملة آله وعترته وتعظيم أهل بيته وصحابته). قال أبو إبراهيم التجيبي: (واجب علىٰ كل مؤمن متىٰ ذكره أو ذكر عنده أن يخضع ويخشع ويتوقر ويسكن من حركته ويأخذ في هيبته وإجلاله بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه ويتأدب بما أدبنا الله به)[١].

الرابعة والأربعون: لما توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين بادر الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- إلىٰ الاجتماع وانشغلوا باختيار خليفة لهم، وهذا العمل منهم يدلنا علىٰ أهمية اختيار الإمام، يقول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (لم يكن بين الوفاة النبوية وعقد الخلافة لأبي بكر إلا دون اليوم والليلة)[٢]، ويقول شيخ الإسلام

---

(١) القاضي عياض، الشفا (٢/ ٤٠).

(٢) ابن حجر، فتح الباري (١٣/ ٢٠٨).

ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: (يجب أن يُعرف أن ولاية أمر الناس من واجبات الدين، بل لا قيام للدين إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلىٰ بعض ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس، ولأن الله تعالىٰ أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والْجُمَع والأعياد ونصر المظلوم وإقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة والإمارة، ولهذا روي (أن السلطان ظل الله في الأرض)[١]، ويقال: (ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان)[٢]، والتجربة تبين ذلك والواجب اتخاذ الإمارة دينًا وقربة يتقرب بها إلىٰ الله، فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات)[٣].

ولعلنا ندرك من مبادرة الصحابة -رضي الله عنهم- تلك، أن إقامة الخليفة من الضرورات العاجلة التي لا يجوز تأخيرها[٤] ثم ندرك أيضًا مكانة ولي الأمر وما له من حق السمع والطاعة؛ لأنه لا فرق بين نصبه واستمرار نصبه، فكل منهما مطلوب من المسلم أن يعي أهميته، بل ضرورته لصالح الفرد والمجتمع، وأن الأمة الإسلامية منذ أن وُجِد فيها من تهاون بمنصب الإمام، وتطاول علىٰ الخليفة، وشق عصا الطاعة، والأمة في فرقة ونزاع وفتن، والأحداث التاريخية تشهد بأن الخلاف والنزاع والفتن قارن مبدؤها الخروج ومقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله تعالىٰ عنه.

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٦٢)، وانظر: العجلوني، كشف الخفاء (١/ ٢٤٦)، و(١/ ٥٥٢)، ومجمع الزوائد للهيثمي (٨/ ١٦٢)، (٥/ ١٩٦)، وقال: رواه البزار وفيه سعيد بن سنان أبو مهدي وهو متروك، وفي (٥/ ٢١٥٨) بلفظ الإمام ظل الله في الأرض وقال عنه: (رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات).

(٢) بحثت عن هذا اللفظ فلم أجده وفي سنن البيهقي (٨/ ٢٨٠)، (رقم ١٦٦٤٩): عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة ، وحد يقام في الأرض بحقه أزكى فيها من مطر أربعين يوما».

(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (جمع ابن قاسم) (٢٨/ ٣٩٠ - ٣٩١).

(٤) انظر: عبد الله قادري، الشورى (ص ٥٧).

الخامسة والأربعون: قال القرطبي -رحمه الله تعالىٰ-: (فإن قيل فلم أُخِّر دفن رسول الله ﷺ وقد قال لأهل بيت أخروا دفن ميتهم: «عجلوا دفن جيفتكم ولا تؤخروها»[1]، فالجواب من ثلاثة أوجه: الأول: عدم اتفاقهم علىٰ موته (في البداية)، الثاني: لأنهم لا يعلمون حيث يدفنونه ﷺ قال قوم في البقيع، وقال آخرون في المسجد، وقال قوم: يحبس حتىٰ يحمل إلىٰ أبيه إبراهيم ﷺ حتىٰ قال العالم الأكبر - يقصد أبا بكر رضي الله تعالىٰ عنه- سمعته يقول: «ما دفن نبي إلا حيث يموت» ذكره ابن ماجه والموطأ وغيرهما. الثالث: أنهم اشتغلوا بالخلاف الذي وقع بين المهاجرين والأنصار في البيعة، فنظروا فيها حتىٰ استتب الأمر وانتظم الشمل واستوثقت الحال، واستقرت الخلافة في نصابها، فبايعوا أبا بكر، ثم بايعوه من الغد بيعة أخرىٰ عن ملأ منهم ورضا، فكشف الله به الكربة من أهل الردة، وقام به الدين، والحمد لله رب العالمين. ثم رجعوا بعد ذلك إلىٰ النبي ﷺ فنظروا في دفنه وغسلوه وكفنوه ﷺ والله أعلم)[2].

السادسة والأربعون: إن الدعوة لا ترتبط بالأشخاص، بل هي دين قائم يخطئ من يربطه بشخص معين، ولذلك فليس في الإسلام انتماء إلىٰ الأشخاص أو تعلق بهم أو انتماء للأحزاب والجماعات، أو بيعة لغير إمام المسلمين، وإنما هو دين قائم علىٰ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يذهب الأشخاص ويُقَيِّض الله لهذا الدين من يحمله جيلًا بعد جيل، فالله -سبحانه وتعالىٰ- يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

---

(١) أخرج أبو داود في سننه (٣/ ٢٠٠)، (رقم ٣١٥٩): أن طلحة بن البراء، مرض فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقال: «إني لا أرى طلحة إلا قد حدث فيه الموت فآذنوني به وعجلوا فإنه، لا ينبغي لجيفة مسلم أن تحبس بين ظهراني أهله» وضعفه الألباني.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٢٢٤).

يقول القرطبي -رحمه الله تعالىٰ-: (فأَعْلَمَ الله تعالىٰ في هذه الآية أن الرسل ليست بباقية في قومها أبدًا، وأنه يجب التمسك بما أتت به الرسل وإن فُقِدَ الرسول بموت أو قتل، والأديان لا تزول بموت الأنبياء)[1]، ومن باب أولىٰ من هو دونهم من الدعاة والعلماء في أي عصر أو مصر.

والمسلم يوقن أن الله -سبحانه وتعالىٰ- قد ضمن حفظ القرآن الكريم كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩].

وأن الله -سبحانه- قد جعل طائفة من أمة محمد لا تزال قائمة علىٰ الحق، كما قال ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق لا يضرهم من خذلهم حتىٰ يأتي أمر الله وهم كذلك»[2].

وأن الله -سبحانه وتعالىٰ- وعد علىٰ لسان رسوله ﷺ أن يبلِغ هذا الدين ما بلغ الليل والنهار -ووعده حق، حيث قال ﷺ: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر[3] ولا وبر[4] إلا أدخله الله هذا الدين بعزّ عزيز أو بذلّ ذليل، عزًا يعزّ الله به الإسلام أو ذلًا يذلّ الله به الكفر»[5].

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٢٢٢).

(٢) أخرجه البخاري ومسلم، صحيح البخاري المطبوع مع الفتح (١٣/ ٢٩٣)، (رقم ٧٣١١)، وصحيح مسلم (٣/ ١٥٢٣)، (رقم ١٩٢٠) واللفظ له من حديث ثوبان رضي الله تعالى عنه

(٣) المدر: جمع مدرة بوزن شجرة وهي اللبن بكسر الباء الذي تستخدمه بيوت المدن والقرى

(٤) الوبر: هو شعر الإبل الذي يتخذ منه ومن نحوه الخيام بيوتًا لسكان البوادي والمعنى أن دين الإسلام يبلغ جميع سكان الأمصار والقرى والبوادي، أحمد البنا، بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني (١/ ٩٠).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ١٠٣)، وقال عنه الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٤): (رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح) وقال البنا في بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني (١/ ٩٠): (لم أقف عليه وسنده جيد).

ولأجل هذا، فلا تعلق بالأشخاص ولا خوف علىٰ الدين، ولا خطر عليه من موت عالم مهما كان له باع في نشره والقيام عليه، ولا يصح لنا أن ننتمي إلىٰ شخص أو جماعة ونترك الانتماء الأكبر لهذا الدين؛ لأن هذا كما هو غير سائغ شرعًا، فهو يعلِّق القلوب بغير الله سبحانه وتعالىٰ، ويفرق الناس، ويجعل الأمة أوزاعًا.

وهذه الآية تُحمل الأمة مسؤولية الدعوة إلىٰ الله بالمنهج النبوي ذاته. تأمل قول الله تعالىٰ: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٤].

والانقلاب علىٰ الأعقاب يشمل تضييع الدعوة، بتركها كليًا، أو جزئيًا، أو تضييع منهج الدعوة وطريقها بأن تستمر الدعوة لكن بغير منهج النبوة، وكل من الأمرين متوعد عليه في الآية، مشكور من تمسك بالدعوة ومنهجها.

السابعة والأربعون: القبر النبوي الشريف هو القبر الوحيد في الدنيا الذي يُعلم بيقين أنه قبر نبي، وثابتة نسبته إليه ثبوتًا قطعيًا لا ريب فيه، وما سواه من القبور المنسوبة إلىٰ الأنبياء، لا يثبت منها شيء إلا قبر الخليل إبراهيم عليه السلام، فإنه في الناحية مع الشك في تعيين المكان[1]، وكأن في بقاء قبر النبي ﷺ معروفًا، واندراس قبور الأنبياء إشارة إلىٰ بقاء شريعته، ونسخ شرائع من قبله من الأنبياء والرسل.

الثامنة والأربعون: في حادثة الوفاة وما جرىٰ بعدها مواقف متميزة للصديق -رضي الله عنه-، فقد اختلف الصحابة -رضي الله عنهم- في موته، حتىٰ أزال الشك عنهم أبو بكر، ثم اختلفوا أين يدفن؟ حتىٰ أزال الشك عنهم الصديق رضي الله عنه، فدفن ﷺ حيث مات، ثم اختلف الأنصار والمهاجرون، وأراد بعض الأنصار التميز

---

(١) قال ابن تيمية -رحمه الله تعالى- في اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ١٦٥-١٦٦): «وكان غير واحد من أهل العلم يقول: لا يثبت من قبور الأنبياء إلا قبر نبينا ﷺ وغيره قد يثبت غير هذا أيضا مثل: قبل إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد يكون علم أن القبر في تلك الناحية لكن يقع الشك في عينه».

عن المهاجرين، فأطفأ الله نار الفتنة علىٰ يد أبي بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- بأن الأئمة من قريش، ولهذا قال أبو هريرة -رضي الله عنه-: (لولا أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- لهلكت هذه الأمة)[1].

التاسعة والأربعون: في اختلاف الصحابة -رضي الله عنهم- بعد وفاة الرسول ﷺ وقول عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- في ذلك يدلنا علىٰ أن الرجل وإن كان عظيمًا قد يفوته بعض الشيء وتغيب عنه بعض الأدلة ويكون الصواب مع غيره وقد يخطئ سهوًا أو نسيانًا[2]، فلا عصمة لأحد بعد النبي ﷺ ولو كانت العصمة لأحد بعد النبي ﷺ لكان أولىٰ الناس بها بعد النبي ﷺ أبو بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- وقد قال عن نفسه في أول خطبة بعد توليه الخلافة: (أيها الناس! فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوِّموني، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم)[3].

وليس ذلك لنقص في الشخص، ولكن هول المصاب وعظم الفاجعة، كان له أثره علىٰ بعض هذه الآراء والتصرفات، رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين.

الخمسون: هنا وقفة، هل نعرف الحق بالرجال أو نعرف الرجال بالحق؟ وقد رُوِيَ عن علي بن أبي طالب -رضي الله تعالىٰ عنه- قوله: (إن الحق لا يُعْرَفُ بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله)[4].

ولذلك (فالمحققون يعرفون الرجال بالحق لا الحق بالرجال ولنعم ما قيل: لا

---

(١) انظر: محمد عمر بحرق، حدائق الأنوار (ص ٣٩٠- ٣٩١)، وانظر: ابن تيمية، منهاج السنة (٦/ ٣٢٣)، وناصر العقل، مقدمات في الأهواء والافتراق والبدع (ص ٩٣).

(٢) انظر: سعيد القحطاني، وداع الرسول ﷺ لأمته (ص ١٢٦).

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية (٦/ ٣٠١)، وقال: (وهذا إسناد صحيح)، وانظر: ابن الجوزي، صفة الصفوة (١/ ٢٦٠-٢٦١)، و فضل إلهي، قصة بعث أبي بكر جيش أسامة (ص٤١-٤٢).

(٤) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١/ ٣٤٠).

تنظر إلىٰ من قال وانظر إلىٰ ما قال)[1]، هذا هو المقياس الشرعي وهو التعرف علىٰ الحق دون تقييد ذلك بشخص بعينه، إذ إن العصمة منتفية عن غير النبي ﷺ والكل من هؤلاء معرَّض للخطأ أو السهو أو النسيان كما رأينا وقوع شيء من ذلك من الْمُلْهَم الفاروق عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه- فضلًا عن أن عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- كان يشاركه رأيه هذا عدد من الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم[2].

(١) صديق بن حسن القنوجي، أبجد العلوم (١/ ٨٦).

(٢) هذا هو الأصل، لكن قد يكون لهذه القاعدة استثناء، وهذه أمثلة على ذلك:

قول عمر بن الخطاب رضي الله تعالى في موقفه من حرب الردة ومخالفته لأبي بكر رضي الله تعالى ثم قال أخيرا: «فو الله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق» متفق عليه (صحيح البخاري ٩/ ٩٣ رقم ٧٢٨٤ وصحيح مسلم ١/ ٥١ رقم ٢١)

«فهم السلف في نصوص العقيدة» -رضي الله تعالى عنهم- هو صورة من صور معرفة الحق بالرجال، فنحن عندما يشكل علينا معنى لآية أو حديث فإنا نلجأ أولا لفهم السلف رضي الله تعالى عنهم، بحثا عن الحق فما فهمه السلف مقدم على فهو منا، وفهوم من جاء بعدهم أننا نرجح في مسائل الخلاف ما اتفق عليه الأئمة الأربعة، فإذا وجدنا خلافا في مسألة، وكان الأئمة الأربعة قد اتفقوا على رأي واحد في المسألة، فالغالب ومن المرجحات أن الحق معهم، وقد قال بعض العلماء- ولا يحضرني الآن من هو – أنه يندر أن يكون الحق بخلاف قول اتفق عليه الأئمة الأربعة، وهذا صورة من صور معرفة الحق بالرجال.

ورد عبارات عن الإمام أحمد -رحمه الله- أنه سئل عن دليل لمسألة معينة فقال: (قال به فلان) من مشايخه أو كبار علماء التابعين مثلما ورد في الآداب الشرعية لابن مفلح -رحمه الله- (٣/ ٧٧): «قال جعفر سمعت أبا عبد الله سئل عن النشرة فقال: ابن مسعود: يكره هذا كله».

يقول الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب كما في مجموعة الرسائل والمسائل النجدية (١/ ٢٥٨-٢٥٩) (طبعة دار المنار)عند كلامه حول حديث الرسول ﷺ «إذا أنتم أمسيتم قبل أن تطوفوا بهذا البيت عدتم حرما كهيئتكم قبل أن ترموا الجمرة حتى تطوفوا به» قال رحمه الله تعالى: «نحن ما جسرنا على الفتيا به؛ لأجل أنه خلاف أقوال العلماء من المذاهب الأربعة وغيرهم» وهذا صورة من صور معرفة الحق بالرجال أننا في عصرنا نجد من علمائنا من إذا سئل عن مسألة، ليس فيها دليل عنده، مثل مسألة دعاء ختم القرآن في صلاة التراويح في المساجد، وشدة تعلق العوام به وتتبعهم لهذا الدعاء في المساجد، فيقول: (سكت عنه العلماء من قبلنا)، وهذا صورة من صور معرفة الحق بالرجال .

وعموما فإن أي قاعدة يندر أن تخلو من استثناء، بل إن الاستثناء يزيدها قوة والله أعلم.

الواحدة والخمسون: قلت من قبل: إن العصمة للرسول ﷺ وتبعًا لهذا فالخطأ متوقَّع ممن بعده، لكن هل يُترك الخطأ دون تصويب، بخاصة ممن لديه القدرة العلمية علىٰ ذلك؟

يجيب عن هذا فعل أبي بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- الذي بادر إلىٰ التوضيح في ما كان يقوله عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه- وغيره من الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- الذين كانوا يرون عدم وفاة الرسول ﷺ وصوَّب للناس ما ينبغي أن يكونوا عليه في هذا الموقف العصيب مستندًا في ذلك إلىٰ النصوص الشرعية[1]، ولذلك فعلىٰ الداعية إلىٰ الله أن يصوب للناس ما قد يطرح من أقوال ويصحِّح لهم الأخطاء ولكن ينبغي ملاحظة أدب تصحيح الأخطاء في ذلك كما فعل أبو بكر الصديق رضي الله تعالىٰ عنه.

الثانية والخمسون: استحضار النصوص والاستشهاد بها وإرجاع الناس إليها موهبة من الله سبحانه وتعالىٰ، وبخاصة في مواطن الشدة ومواقع الخلاف، ولقد غابت بعض النصوص عن جملة من الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- عند وفاة الرسول ﷺ وجاء أبو بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- ليخطب في الناس مستحضرًا هذه النصوص، مستشهدًا بها في موقعها الملائم، مذكِّرًا للناس بها، وتلك نعمة من الله يمنّ بها علىٰ من يشاء من عباده، والداعية إلىٰ الله تعالىٰ أحوج الناس أن يسأل الله أن يرزقه هذا التوفيق والسداد في دعوته إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الأنفال:٢٩]، يقول ابن جزي -رحمه الله تعالىٰ-: (﴿ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ أي تفرقة بين الحق والباطل، وذلك دليل علىٰ أن

(١) انظر: مذكرة في تاريخ الدعوة غير مطبوعة للدكتور فضل إلهي (ص٧) من محاضراته في مادة تاريخ الدعوة للدراسات العليا عام ١٤١٣هـ.

التقوىٰ تنوّر القلب، وتشرح الصدر، وتزيد في العلم والمعرفة)[1].

الثالثة والخمسون: إننا لكي نتفادىٰ آثار الخلاف الذي يطرأ بين المسلمين، علينا أن نسلك ما سلكه سلفنا الصالح -رضي الله عنهم- وذلك برد الخلاف والنزاع إلىٰ الكتاب والسنة.

فعندما اختلف الصحابة في وفاة النبي ﷺ رد أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- الأمة إلىٰ الكتاب الكريم وتلا عليهم -كما مر معنا-قول الله تعالىٰ: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وعندما تنازعوا في اختيار خليفة لهم، رد بعضهم بعضًا إلىٰ سنة رسول الله ﷺ والتي تضمنت تقديم النبي ﷺ أبا بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- إمامًا في الصلاة[2].

الرابعة والخمسون: مع التحذير من الاختلاف والتذكير بآثاره إلا أنني أود أن أبين أن الاختلاف قد وقع بين الصحابة -رضي الله تعالىٰ عنهم- في مواقف كثيرة منها اختلافهم بين يديه ﷺ وهو مريض عندما طلب منهم أن يُحضروا له كتابًا، ليكتب لهم -كما مر معنا- كما اختلفوا بعد وفاته ﷺ هل مات فعلًا أم لم يمت؟ ثم حصل خلاف في من يكون أميرًا بعد وفاته ﷺ ثم اختلفوا في مكان دفنه وهل يكون لحدًا أم شقًا؟ إلىٰ غير ذلك من الاختلاف الذي لم يسلموا منه -رضي الله تعالىٰ عنهم- منذ مرضه ووفاته وبعد ذلك، لكن هذا الاختلاف لم يتجاوز الاختلاف في الرأي مع بقاء المودة والاحترام والتآلف، وإحسان الظن بالفريق الآخر، ولم يقعوا في شيء من التباغض أو التدابر أو التقاتل.

---

(١) ابن جزي، التسهيل (١/ ٣٢٥).

(٢) انظر: فضل إلهي، قصة بعث أبي بكر جيش أسامة (ص ٥٠) .

الخامسة والخمسون: اختلف الصحابة -رضي الله عنهم- في شأن وفاة الرسول ﷺ وكان قلة منهم يتقدمهم أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- يرون وفاته، وكان أكثر الصحابة علىٰ خلاف ذلك[1] حتىٰ قام الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- وخطب الناس وبيَّن لهم وردَّهم إلىٰ الصواب، وهذا الموقف يُؤْخَذ منه كما قال ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: (أن الأقل عددًا في الاجتهاد قد يصيب، ويخطئ الأكثر، فلا يتعين الترجيح بالأكثر ولا سيما إن ظهر أن بعضهم قلَّد بعضًا)[2].

وهذا هو الذي يبدو من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ -فقد قال: (وإن كان أمرًا قد تنازع فيه المسلمون، فينبغي أن يستخرج من كل منهم رأيه ووجه رأيه، فأي الآراء كان أشبه بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ عمل به)[3].

ولهذا (فالعبرة شرعًا ليست في كثرة الآراء، وإنما العبرة بسداد الآراء وصوابها وإن قلَّت)[4].

وهذا الذي عليه عمل السلف الصالح -رضي الله عنهم- في مواقف كثيرة منها:

١- موقف أبي بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- في إنفاذ جيش أسامة -رضي الله تعالىٰ عنه- وعدم التفاته إلىٰ رأي الأكثرية.

٢- إصرار أبي بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- علىٰ حرب أهل الردة وعدم التفاته إلىٰ رأي الأكثرية.

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٨/ ١٤٦).
(٢) المرجع السابق.
(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (جمع ابن قاسم) (٢٨/ ٣٨٧) انظر: ابن القيم، إغاثة اللهفان (١/ ٦٩)، والقرطبي، تفسير القرطبي (١/ ٣٤٠).
(٤) عبد العزيز الحميدي، التاريخ الإسلامي مواقف وعبر (١٠/ ٣٦٠).

٣- إصرار عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- علىٰ حبس أرض العراق والشام ومتابعة الصحابة -رضي الله عنهم- له علىٰ الرغم من إصرار بعضهم علىٰ خلافه[١].

ولا يعني هذا عدم اعتبار رأي الأكثرية في جميع الأحوال، بل قد يُصَار إلىٰ رأي الأكثرية عند عدم المرجِّحات الأخرىٰ، أما إذا أمكن أن يرجح بغيرها فلا يصار إليها، وعلىٰ هذا يُحمل قول ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ -في الفتح عندما تحدث عن اختلاف الصحابة في دخول الشام بعد أن ظهر فيها الوباء واستشار عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- الصحابة -رضي الله عنهم-[٢]، حيث قال -رحمه الله تعالىٰ-: (وفيه الترجيح بالأكثر عددًا، والأكثر تجربة لرجوع عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- لقول مشيخة قريش مع ما انضم إليهم ممن وافق رأيهم من المهاجرين والأنصار، فإن مجموع ذلك أكثر من عدد من خالفه من كل من المهاجرين والأنصار، ووازن ما عند الذين خالفوا ذلك من مزيد الفضل في العلم والدين ما عند المشيخة من السن والتجارب، فلما تعادلوا من هذه الحيثية رجح بالكثرة ووافق اجتهاده النص)[٣].

ويقول سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ -رحمه الله تعالىٰ-: (الأكثرية مرجح وهو كذلك في الجملة لا بالجملة، هي مرجح إذا فقدت المرجِّحات الآخر يصار إليها، أما وأمكن أن يرجح بغيرها فلا يصار إليها، ثم هي أيضًا ليست إلا في الأمور التي تنظر وللرأي فيها مدخل، فهذا الموجود عند الدول الآن من اتخاذ

(١) انظر: عبد الله قادري، الشورى (ص ٨٧) وما بعدها.

(٢) صحيح البخاري المطبوع مع الفتح، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون (١٠/ ١٧٩)، (رقم ٥٧٢٩).

(٣) ابن حجر، فتح الباري (١٠/ ١٩٠).

الأصوات في الأشياء، هذا ما يصلح أخذه عامًا في كل شيء). إلىٰ أن قال: (والمقصود أن هذا مرجح في الجملة بعدما تقدم المرجحات الذاتية، ولم يعرف هذا في الشريعة في الأمور الهامة)[1].

وعلىٰ هذا، فأكثرية الآراء مرجح من المرجحات، لكنها تأتي في منزلة متأخرة من قائمة المرجِّحات الأخرىٰ عند اختلاف الآراء، فمتىٰ وُجِدَ مرجح ذاتي مما سبقت الإشارة إليه أو نحوه، قدم عليها والله أعلم.

السادسة والخمسون: من يتابع النصوص القرآنية وتنزلها، وكلام الرسول ﷺ يجد التمهيد المتتابع لوفاة الرسول ﷺ وهذا كررته مرارًا، لكن يستفاد منه بالإضافة إلىٰ ما سبق أن الأمر الجلل الذي سيقع، أو الأمر الجلل الذي وقع وسيخبر به من سيتأثر به، ينبغي أن يسبقه ما يمهد له تخفيفًا من شدة وقعه، والتمهيد أمر مشروع ورحمة ولطف بالمصاب.

السابعة والخمسون: إن الشخص إذا تقدم به العمر، يحسن منه أن يمهد لأهله وأقاربه وفاته، وهذا فيه مصلحتان؛ أما الأولىٰ أن يستعد هو للقاء الله، ويتفرغ أكثر للآخرة. والثانية أن يخفف عن أقاربه الأدنين وقع المصيبة فيه، عند موته، ومعلوم أن الحديث عن الوفاة لا تقربه ولا تغير شيئًا مكتوبًا.

الثامنة والخمسون: في موقف عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- في اليوم التالي لوفاة الرسول ﷺ وقيامه خطيبًا بين يدي أبي بكر الصديق -رضي الله تعالىٰ عنه- يعلن رجوعه عن مقالته التي كان يرىٰ فيها عدم موت الرسول ﷺ ووقوفه علىٰ المنبر وقوله: (فإني قلت مقالة وإنها لم تكن كما قلت، وإني والله ما وجدت المقالة التي قلت في كتاب الله تعالىٰ ولا في عهدٍ عهده إلي رسول الله ﷺ ولكني كنت أرجو أن

---

(١) محمد بن إبراهيم، فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم، جمع ابن قاسم (١٢/ ١٧٤).

يعيش رسول الله ﷺ حتىٰ يُدْبِرَنَا)[١]. ولذلك فالمسلم رجَّاع إلىٰ الحق إذا تبين له (والرجوع إلىٰ الحق من جملة الدين)[٢]، وقد قال الله تعالىٰ في قصة نوح -عليه السلام-: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [هود:٤٧]، (فهذه الآية فيها إنابة نوح وتسليمه لأمر الله واستغفاره)[٣]، فلا يستنكف المسلم عن الرجوع إلىٰ الحق وله في المسدد الْمُلْهَم الفاروق عمر بن الخطاب قدوة حسنة، فقد رجع إلىٰ الحق وأعلن ذلك علىٰ منبر رسول الله ﷺ فرحم الله الفاروق عمر بن الخطاب ورضي الله عنه وأرضاه في كل وقت وحين[٤]، وبهذه المناسبة الخاصة التي يعطينا هذا الدرس العظيم الذي يستنكف عنه كثير من الناس وهم لا يبلغون شيئًا من منزلة عمر -رضي الله تعالىٰ عنه- وتأسيًا

(١) يدْبِرنا أي يكون آخرنا. والحديث أخرجه عبد الرازق في مصنفه (٥ / ٤٣٧ - ٤٣٨) وهذا اللفظ له وأخرجه البخاري في صحيحه المطبوع مع الفتح (١٣ / ٢٠٦)، رقم (٧٢١٩). وقد يقول قائل: كيف يحصل هذا من عمر رضي الله عنه رضي الله عنه؟ كيف يتوعد من قال بوفاته ﷺ؟ «نقول: لا شيء في ذلك بحول الله وقوته فإنه رضي الله عنه لم يتحمل شدة الخطب وهول المصيبة، فقال ذلك لعظيم ما ورد عليه وخشي الفتنة وظهور النفاق، فلما شاهد قوة الصديق رضي الله عنه وتفوهه بالآيات الباهرات تنبه وقال: كأني لم أسمع بذلك من قبل» (القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٢٢٣). «وكيف ينكر عليه ذلك رضي الله عنه وقد حدث من موسى عليه السلام ما هو أشد وذلك لما رجع إلى بني إسرائيل وشاهدهم وهم يعبدون العجل من دون الله عز وجل فألقى الألواح وفيها كلام الله، وأخذ بلحية أخيه يجره وهو نبي مثله، وعذره ربه -عز وجل- في ذلك. فاعرف للصحابة -رضي الله تعالى عنهم- قدرهم ودعك من تشغيب أهل الزيغ والضلال» خالد أبو صالح، مرض النبي ﷺ ووفاته ص ٢٩.

(٢) العيني، عمدة القاري (١ / ٦٦).

(٣) ابن عطية، المحرر الوجيز (٧ / ٣١٦).

(٤) ومما يُذكر في هذه المناسبة عن علمائنا، ما أورده الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- في البداية والنهاية (١٥/ ٥٧٨) قال: «وقد صنف الحافظ عبد الغني - يعني عبد الغني بن سعيد أبو محمد الأزدي المصري الحافظ- هذا، كتابا فيه أوهام الحاكم، فلما وقف عليه الحاكم جعل يقرؤه على الناس، ويعترف لعبد الغني بالفضل، ويشكره على ذلك، ويرجع إلى ما أصاب فيه من الرد عليه، رحمهما الله تعالى».

بعمر -رضي الله تعالىٰ عنه- وختامًا لهذا الفقه من السيرة الذي اجتهدت فيه، والمجتهد معرض للخطأ؛ فإني رجَّاع إلىٰ الحق متىٰ تفضل به عليَّ متفضل، شاكرًا فضله، داعيًا له. والله المستعان. اللهم صلِّ وسلم وبارك علىٰ عبدك ونبيك وخليلك محمد بن عبد الله وآله وصحبه ومن تبعه بإحسان، وسار علىٰ نهجه إلىٰ يوم الدين(١).

---

(١) بدأت بمراجعة هذه الطبعة المزيدة في بداية شهر شعبان ١٤٤١مع بداية الحجر الصحي لأهل مدينة الرياض في جائحة كورونا، وكان الفراغ منها قبيل ظهر الاثنين ١/ ٤/ ١٤٤٢، ثم بدأت بالمراجعة الثانية، وانتهيت منها ضحى يوم الثلاثاء ٦/ ٦/ ١٤٤٢، ثم بدأت المراجعة الثالثة، وانتهيت منها ظهر يوم الخميس ٥/ ٨/ ١٤٤٢، ثم بدأت بالمراجعة الرابعة، وانتهيت منها في مكة المكرمة ظهر الأربعاء٢٥/ ٥/ ١٤٤٣، ثم المراجعة الخامسة الأخيرة وانتهيت منها في مكة، في الثاني من شهر ذي القعدة ١٤٤٣ والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع[1]

١. **إبراهيم العلي: صحيح السيرة النبوية**، الطبعة الثالثة (الأردن: دار النفائس، ١٤١٨هـ).

٢. **إبراهيم قريبي: مرويات غزوة حنين وحصار الطائف** (جمع وتحقيق ودراسة)، (المدينة: الجامعة الإسلامية).

٣. **أبو الحسن الندوي: السيرة النبوية**، الطبعة الأولىٰ: (جدة: دار الشروق، ١٣٩٧هـ).

٤. **أبو بكر جابر الجزائري: هذا الحبيب يا محب**، الطبعة الأولىٰ: (دمنهور، مكتبة البينة ١٤٠٨هـ).

٥. **أبو داود: سنن أبي داود**، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد، (بيروت، دار الفكر للنشر والتوزيع).

(١) يفرق بعض الباحثين بين المصدر والمرجع فيقولون: المصدر هو كتاب أصلي في مادة البحث، والمرجع من الكتب الفرعية ويقول آخرون: المصدر ما كانت فكرة المؤلف أصلية، والمرجع ما اعتمد على المصدر، وكان عمل المؤلف الجمع والترتيب ونحو ذلك فالقول الأول نظر إلى المستفيد من الكتاب، فإن كانت استفادته منه استفادة أصلية فهو بالنسبة له مصدر، وإن كانت استفادته منه تكميلية فرعية فهو مرجع، والقول الثاني نظر إلى مؤلف الكتاب نفسه، فإن كان مبتكرا في مادته فكتابه مصدر، وإن كان مستفيدا ومطورا فهو مرجع، وهذه المصادر والمراجع التي دونتها هنا هو مصادر ومراجع الطبعة الأولى: وقد جرى الاستفادة من مصادر ومراجع كثيرة في هذه الطبعة، ربما تفوق في عددها عدد المدون هنا، اكتفيت بتدوينها بكامل معلوماتها عند أول استفادة منها.

٦. **أبو داود: ضعيف سنن أبي داود،** محمد بن ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولىٰ: (الرياض: مكتب التربية العربية لدول الخليج ١٤١٢هـ).

٧. **أبو داود، سليمان بن الأشعث: صحيح سنن أبي داود،** صحح الأحاديث محمد بن ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولىٰ: (بيروت، المكتب الإسلامي، ١٤٠٩هـ).

٨. **أحمد بن حنبل: المسند** (بيروت: دار صادر، د.ت).

٩. **أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد،** تحقيق شعيب الأرناؤوط وزملائه، إشراف عبد الله التركي، الطبعة الأولىٰ: (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤١٣هـ).

١٠. **أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة،** حققه وصي الله بن محمد عباس، الطبعة الأولىٰ: (مكة المكرمة: جامعة أم القرىٰ، ١٤٠٣هـ).

١١. **أحمد بن عبد الرحمن البناء: الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني،** (القاهرة: دار الشهاب، د.ت).

١٢. **أحمد بن عبد الرحمن البناء: بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني،** (القاهرة، دار الشهاب، د.ت).

١٣. **أحمد بن عبد الله القادري: مجلة الأحكام الشرعية علىٰ مذهب الإمام أحمد بن حنبل الشيباني،** حققه عبد الوهاب أبو سليمان وزميله، الطبعة الأولىٰ: (جدة: تهامة للنشر، ١٤٠١هـ).

١٤. **أحمد بن يحيىٰ البلاذري: أنساب الأشراف،** حققه محمد حميد الله، (مصر: دار المعارف، د ت)

١٥. **أحمد نوفل: الحرب النفسية من منظور إسلامي،** الطبعة الثانية: (عمان: دار الفرقان، ١٤٠٧هـ).

١٦. **الأصبهاني، أبو القاسم إسماعيل بن محمد: دلائل النبوة،** حققه مساعد بن سليمان الراشد الحميد، الطبعة الأولىٰ: (الرياض: دار العاصمة، ١٤١٢هـ).

١٧. **أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة،** الطبعة الأولىٰ: (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٦هـ).

١٨. **الألباني: صحيح الجامع الصغير وزياداته،** الطبعة الثالثة، (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٢هـ).

١٩. **الألباني، محمد ناصر الدين: دفاع عن الحديث النبوي والسيرة في الرد علىٰ جهالات البوطي في كتابه فقه السيرة،** (دمشق، مكتبة الخافقين، د).

٢٠. **الألباني، محمد ناصر الدين: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها،** (بيروت: المكتب الإسلامي، د.ت).

٢١. **الألباني، محمد ناصر الدين: ضعيف الجامع الصغير وزياداته** (الفتح الكبير)، الطبعة الثانية: (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٣٩٩هـ).

٢٢. **الألباني، محمد ناصر الدين: نصب المجانيق في نسف قصة الغرانيق** (الطبعة الأولىٰ، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٧٢م).

٢٣. **ابن أبي شيبة: المصنف في الأحاديث والآثار،** حققه مختار أحمد الندوي، الطبعة الأولىٰ: (الهند: الدار السلفية، ١٤٠٠هـ).

٢٤. **ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر،** حققه طاهر بن أحمد الزاوي ومحمود بن محمد الطناحي (مكة المكرمة: دار الباز للنشر والتوزيع ت).

٢٥. **ابن الأثير: جامع الأصول في أحاديث الرسول،** حققه عبد القادر الأرناؤوط (مكتبة دار البيان، ١٣٩١هـ).

٢٦. **ابن الجوزي: الوفاء بأحوال المصطفىٰ**، (الرياض: المؤسسة السعيدية ت).

٢٧. **ابن الجوزي: تاريخ عمر بن الخطاب -رضي الله تعالىٰ عنه-** (دمشق: دار إحياء علوم الدين، د.ت).

٢٨. **ابن الجوزي: صفة الصفوة**، الطبعة الثالثة، (بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٥هـ).

٢٩. **ابن الجوزي: صيد الخاطر**، حققه محمد عبد الرحمن عوض، الطبعة الأولىٰ: (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ).

٣٠. **الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، تحقيق رأفت سعيد، الطبعة الأولىٰ: (الكويت: مكتبة الفلاح ١٤٠١هـ).

٣١. **ابن الديبع الشيباني، وجيه الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد: حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار**، حققه الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، الطبعة الثانية: (قطر، دار إحياء التراث الإسلامي، ١٤٠٣هـ). وفي نسبة هذا الكتاب لابن الديبع شك، فقد صدر هذا الكتاب بعينه مشارًا فيه إلىٰ أن مؤلفه محمد بن عمر بحرق الحضرمي الشافعي عن دار المنهاج للنشر والتوزيع بجدة عام ١٤١٩هـ، وأشار الناشر في مقدمة الكتاب إلىٰ أن نسبة الكتاب لابن الديبع خطأ من محقق الكتاب وذكر أدلة، والله أعلم.

٢٣. **ابن العربي: أحكام القرآن**، حققه علي بن محمد البجاوي، (بيروت: دار الفكر ب.ت).

٣٣. **ابن العربي: عارضة الأحوذي**، (بيروت: دار الكتاب العربي ب.ت).

٣٤. **ابن القيم: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان**، حققه محمد حامد الفقي، (بيروت: دار الكتاب العربي، ب.ت).

٣٥. **ابن القيم: التفسير القيم لابن القيم، جمعه محمد أويس القرني، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت).**

٣٦. **ابن القيم: الضوء المنير علىٰ التفسير جمع علي الحمد الصالحي، (الرياض:** مكتبة دار السلام د.ت).

٣٧. **ابن القيم: الفوائد**، (الرياض، مكتبة الرياض، د.ت).

٣٨. **ابن القيم: القصيدة النونية**، (لاهور: إدارة ترجمان السنة، د.ت).

٣٩. **ابن القيم: الكلام علىٰ مسألة السماع**، حققه راشد الحمد، الطبعة الأولىٰ: (الرياض: دار العاصمة، ١٤٠٩هـ).

٤٠. **ابن القيم: بدائع الفوائد**، (بيروت: دار الكتاب العربي، ب.ت).

٤١. **ابن القيم: جلاء الأفهام في الصلاة والسلام علىٰ خير الأنـام**، الطبعة الأولىٰ: (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ).

٤٢. **ابن القيم: زاد المعاد في هدي خير العباد**، حققه شعيب الأرنـاؤوط وزميله، الطبعة الثالثة عشرة: (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ).

٤٣. **ابن القيم: مدارج السالكين**، حققه محمد بن حامد الفقي، الطبعة الثانية: (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٩٣هـ).

٤٤. **ابن اللحام، أبو الحسن علاء الدين: القواعد والفوائد الأصولية**، الطبعة الأولىٰ: (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ).

٤٥. **ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، حققه ناصر بن عبد الكريم العقل، الطبعة الأولىٰ: (توزيع صاحب السمو الملكي الأمير/ سلطان بن عبد العزيز (مجانًا)، ١٤٠٤هـ).

٤٦. **ابن تيمية: الاستقامة، حققه محمد رشاد سالم**، الطبعة الأولىٰ: (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٣هـ).

٤٧. **ابن تيمية: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، (مطابع المجد التجارية، ب.ت).

٤٨. **ابن تيمية: السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية**، الطبعة الرابعة: (مصر: دار الكتاب العربي ١٩٦٩م).

٤٩. **ابن تيمية: مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية**، (جمع عبد الرحمن بن قاسم)، (الرباط، مكتبة المعارف).

٥٠. **ابن تيمية: منهاج السنة النبوية**، حققه محمد رشاد سالم، الطبعة الأولىٰ: (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٦هـ).

٥١. **ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ب.ت).

٥٢. **ابن حجر: تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير**، حققه عبد الله بن هاشم المدني، (المدينة: ب.ت)، (١٣٨٤هـ).

٥٣. **ابن حجر: هدي الساري مقدمة فتح الباري**، راجعه الشيخ عبد العزيز بن باز، (الرياض: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ب.ت).

٥٤. **ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري**، حقق أجزاءه الأولىٰ الشيخ عبد العزيز بن باز، (الرياض: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد د.ت).

٥٥. **ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل**، الطبعة الأولىٰ: (مصر: المطبعة الأدبية، ١٣١٧هـ).

٥٦. **ابن حزم: جوامع السيرة وخمس رسائل أخرىٰ**، حققه إحسان عباس وناصر الدين الأسد، (لاهور: حديث أكاديمي، ١٤٠١هـ).

٥٧. **ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون**، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ب.ت).

٥٨. **ابن رجب الحنبلي: القواعد في الفقه الإسلامي**، (بيروت: دار المعرفة، د.ت).

٥٩. **ابن رجب الحنبلي: لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف** (بيروت، دار الجبل، د.ت).

٦٠. **ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم**، حققه شعيب الأرناؤوط وزميله، الطبعة الثالثة (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٢هـ).

٦١. **ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، (بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٣٩٧هـ).

٦٢. **ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله: الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، حققه علىٰ محمد البجاوي، الطبعة الأولىٰ: (بيروت: دار الجبل، ١٤١٢هـ).

٦٣. **ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، حققه عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، والسيد عبد العال السيد إبراهيم، الطبعة الأولىٰ: (الدوحة، ١٤٠٤هـ).

٦٤. **ابن قدامة: المغني** (الرياض: مكتبة الرياض، د.ت).

٦٥. **ابن كثير، إسماعيل بن كثير: تفسير القرآن العظيم** (دار الفكر، بيروت، د.ت).

٦٦. **ابن كثير، إسماعيل بن كثير: الفصول في اختصار سيرة الرسول**، الطبعة الأولىٰ: تحقيق محمد العيد الخضراوي ومحيي الدين مستو، (بيروت: مؤسسة علوم القرآن، بيروت).

٦٧. **ابن كثير، إسماعيل ابن كثير: البداية والنهاية**، الطبعة الرابعة: (بيروت: مكتبة المعارف، ١٤٠٢هـ).

٦٨. **ابن ماجه: سنن ابن ماجه**، حققها محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار الفكر، د.ت).

٦٩. **ابن ماجه: صحيح سنن ابن ماجه**، صححه محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الثانية: (الرياض: مكتب التربية العربية لدول الخليج، ١٤٠٨هـ).

٧٠. **ابن مفلح، أبو عبد الله محمد: الآداب الشرعية والمنح المرعية**، (القاهرة: مؤسسة قرطبة، ب.ت).

٧١. **ابن منظور: لسان العرب** (بيروت: دار صادر، ب.ت).

٧٢. **ابن هشام: سيرة النبي**، ﷺ (الرياض: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، د.ت).

٧٣. **البخاري: الأدب المفرد**، (الإمارات: وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف، ١٤٠١هـ).

٧٤. **البخاري: صحيح البخاري**، حققه مصطفىٰ أديب البغا، الطبعة الثالثة: (بيروت: دار ابن كثير، ١٤٠٧هـ).

٧٥. **البخاري: صحيح البخاري**، (إستانبول: المكتبة الإسلامية، ١٩٨١م).

٧٦. **البغوي: معالم التنزيل**، حققه خالد بن عبد الرحمن العلك ومروان سوار، الطبعة الأولىٰ: (بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٦هـ).

٧٧. **بكر بن عبد الله أبو زيد: حكم الانتماء إلىٰ الفرق والأحزاب والجماعات الإسلامية**، الطبعة الثانية: (الدمام: دار ابن الجوزي، ١٤١٠هـ).

٧٨. **بكر بن عبد الله أبو زيد: التأصيل لأصول التخريج وقواعد الجرح والتعديل**، الطبعة الأولىٰ: (الرياض: دار العاصمة د.ت).

٧٩. **بكر بن عبد الله أبو زيد: تصحيح الدعاء**، الطبعة الأولىٰ: (الرياض: دار العاصمة، ١٤١٩هـ).

٨٠. **البيضاوي: تفسير البيضاوي** المطبوع مع حاشية محيي الدين شيخ زاده (بيروت: دار صادر، ب.ت).

٨١. **البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين: السنن الكبرىٰ**، (بيروت: دار الفكر، د.ت).

٨٢. **البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين: دلائل النبوة**، الطبعة الأولىٰ: (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ).

٨٣. **الترمذي: صحيح سنن الترمذي**، صحح أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولىٰ: (الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٨هـ).

٨٤. **الترمذي: ضعيف سنن الترمذي**، ضعفها محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولىٰ: (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤١١هـ).

٨٥. **حافظ بن محمد بن عبد الله الحكمي: مرويات غزوة الحديبية**، (المدينة: مركز إحياء التراث الإسلامي بالجامعة الإسلامية، ١٤٠٦هـ).

٨٦. **حافظ بن موسىٰ بن محمد الحكمي: الأعياد المشروعة والأعياد الممنوعة**، رسالة ماجستير مقدمة لقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في كلية أصول الدين بالرياض، عام ١٤٢٠-١٤٢١هـ).

٨٧. **الحاكم، أبو عبد الله النيسابوري: المستدرك علىٰ الصحيحين**، (بيروت: دار المعرفة د.ت).

٨٨. **حسن نور حسن: التأدب مع الرسول**، (جدة: دار المجتمع للنشر والتوزيع، ١٤١٢هـ).

٨٩. **الحلبي، علي بن برهان الدين: إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، المعروفة بالسيرة الحلبية**، (بيروت، دار المعرفة ١٤٠٠هـ).

٩٠. **خالد أبو صالح: مرض النبي ووفاته وأثر ذلك علىٰ الأمة**، الطبعة الأولىٰ: (الرياض: دار الوطن، ١٤١٤هـ).

٩١. **الخطابي: معالم السنن** المطبوع مع مختصر سنن أبي داود للمنذري، حققه أحمد شاكر ومحمد حامد الفقي، (بيروت: دار المعرفة للنشر والتوزيع د.ت).

٩٢. **الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، حققه محمد رأفت سعيد، الطبعة الأولىٰ: (الكويت: مكتبة الفلاح، ١٤٠١هـ).

٩٣. **خليل بن أحمد السهارنفوري: بذل المجهود في حل أبي داود**، (بيروت: دار الكتب العلمية ب.ت).

٩٤. **الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن: سنن الدارمي**، تحقيق عبد الله بن هاشم المدني، (باكستان: حديث أكاديمي، ١٤٠٤هـ).

٩٥. **الذهبي، محمد بن أحمد: تلخيص المستدرك علىٰ الصحيح المطبوع مع المستدرك**، (بيروت، دار المعرفة، ب.ت).

٩٦. **الذهبي، محمد بن أحمد: السيرة النبوية**، حققه حسام الدين القدسي، الطبعة الثانية: (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٢هـ).

٩٧. **الذهبي، محمد بن أحمد: سير أعلام النبلاء**، حققه شعيب الأرناؤوط وزملاؤه، الطبعة الأولىٰ: (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ).

٩٨. **راجح بن عبد الحميد الكردي: شعاع من السيرة في العهد المكي**، الطبعة الأولىٰ: (عمان: دار الفرقان، ١٤٠٦هـ).

٩٩. **الرازي: التفسير الكبير**، الطبعة الثالثة: (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت).

١٠٠. **الرازي، عبد القادر: مختار الصحاح**، (بيروت، دار الكتب العربية، ب.ت).

١٠١. **الزمخشري، جار الله محمود بن عمر الكشاف**: الطبعة الأخيرة (مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي، ١٣٩٢هـ).

١٠٢. **الغزالي: المستصفىٰ**، الطبعة الأولىٰ: (مصر: المكتبة التجارية ١٣٥٦هـ).

١٠٣. **زيد بن عبد الكريم الزيد: الحكمة في الدعوة إلىٰ الله**، الطبعة الأولىٰ: (الرياض: دار العاصمة، ١٤١٢هـ).

١٠٤. **زيد بن عبد الكريم الزيد: تأملات في قصة الثلاثة الذين خلفوا**، الطبعة الأولىٰ: (الرياض: دار العاصمة، ١٤١٢هـ).

١٠٥. **زيد بن عبد الكريم الزيد: كيف أنصف الإسلام المرأة**، الطبعة الأولىٰ: (الرياض: دار أركان للنشر، ١٤١٥هـ).

١٠٦. **زيد بن عبد الكريم الزيد: وظيفة المسجد في المجتمع**، بحث منشور في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الحادي عشر لشهر محرم، ١٤١٥هـ.

١٠٧. **زيد بن عبد الكريم الزيد: وقفات في رحلة سفير الدعوة الأول مصعب بن عمير إلىٰ المدينة**، الطبعة الأولىٰ: (الرياض: دار العاصمة، ١٤١٢هـ).

١٠٨. **سعدي أبو جيب: القاموس الفقهي لغة واصطلاحًا**، الطبعة الأولىٰ: (دمشق: دار الفكر، ١٤٠٢هـ).

١٠٩. **سعود الفنيسان: غزوة الأحزاب في ضوء القرآن الكريم**، الطبعة الأولىٰ: (الرياض: دار أشبيليا، ١٤١٨هـ).

١١٠. **سعيد بن علي بن وهف القحطاني: وداع الرسول**، الطبعة الثانية: (الرياض: ١٤١٧هـ).

١١١. **السفاريني: ثلاثيات مسند الإمام أحمد بن حنبل**، (بيروت، المكتب الإسلامي ١٣٩٢هـ).

١١٢. **سليمان الندوي: الرسالة المحمدية**، تعريب محمد ناظم الندوي، الطبعة الثالثة: (دمشق: مكتبة الفلاح، ١٤٠١هـ).

١١٣. **سليمان العودة: السيرة النبوية في الصحيحين عند ابن إسحاق، دراسة مقارنة في العهد المكي**، الطبعة الأولىٰ: (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤١٤هـ).

٤١١. **سليمان بن حمد العودة: قضايا ومباحث في السيرة النبوية**، الطبعة الأولىٰ: (الرياض: دار المسلم، ١٤١٦هـ).

١١٥ . **سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب: تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد**، الطبعة الرابعة: (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٠هـ).

١١٦ . **السمهودي: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفىٰ**، حققه محمد محيي الدين، الطبعة الرابعة: (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٤هـ).

١١٧ . **السيوطي: سنن النسائي بشرح السيوطي**، الطبعة الأولىٰ: (بيروت: دار الفكر، ١٣٤٨هـ).

١١٨ . **السيوطي: تاريخ الخلفاء**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الأولىٰ: (مصر: مطبعة السعادة، ١٣٧١هـ).

١١٩ . **الشاطبي: الاعتصام**، (الرياض: مكتبة الرياض الحديثة، ب.ت).

١٢٠ . **الشاطبي: الموافقات في أصول الأحكام**، (بيروت: دار الفكر، ب.ت).

١٢١ . **الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ).

١٢٢ . **الشوكاني، محمد بن علي: نيل الأوطار شرح منتقىٰ الأخبار**، (الرياض: توزيع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ب.ت).

١٢٣ . **صالح بن أحمد الشامي: أضواء علىٰ دراسة السيرة**، الطبعة الأولىٰ: (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤١١هـ).

١٢٤ . **صالح بن أحمد الشامي: الغرانيق قصة دخيلة علىٰ السيرة النبوية**، الطبعة الأولىٰ: (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤١٩هـ).

١٢٥ . **صالح بن أحمد الشامي: من معين السيرة**، الطبعة الأولىٰ: (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٥هـ).

١٢٦ . **صالح بن عبد الله العبود: فكرة القومية العربية علىٰ ضوء الإسلام**، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع).

١٢٧ . **صالح بن فوزان الفوزان: كتاب التوحيد**، (الرياض، مكتب الأثير).

١٢٨ . **صديق بن حسن القنوجي: أبجد العلوم**، الطبعة الأولىٰ: (لاهور، المكتبة القدوسية، ١٤٠٣هـ).

١٢٩ . **صفي الرحمن المبارك فوري: الرحيق المختوم** (المنصورة: دار الوفاء، د.ت).

١٣٠ . **الطبراني، سليمان بن أحمد: المعجم الكبير**، حققه حمدي بن عبد المجيد السلفي، الطبعة الثانية: (الموصل: مكتبة العلوم والحكم، ١٤٠٤هـ).

١٣١ . **الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٥هـ).

١٣٢ . **الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق محمود محمد شاكر، الطبعة الثانية، (مصر: دار المعارف، د.ت).

١٣٣ . **الطبري: تفسير الطبري**، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، الطبعة الأولىٰ: (القاهرة: مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية ١٤٢٢هـ).

١٣٤ . **الطحاوي: مشكل الآثار، الطبعة الأولىٰ**: (الهند: مجلس دائرة المعارف النظامية، ١٣٣٣هـ).

١٣٥ . **عاتق بن غيث البلادي: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، الطبعة الأولىٰ**: (مكة المكرمة: دار مكة للنشر والتوزيع ١٤٠٢هـ).

١٣٦ . **عادل بن عبد الله بن عبد المحسن آل عبد القادر: منبر الإيمان**، (خطب جمعة) الطبعة الأولىٰ: (الرياض، د.ت. ١٤١٥هـ).

١٣٧ . **عبد الحميد الهاشمي: الرسول العربي المربي**، الطبعة الثانية: (الرياض: دار الهدىٰ للنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ).

١٣٨ . **عبد الحميد بن باديس: الدرر الغالية في آداب الدعوة والداعية**، (الخرج: دار المنار د.ت).

١٣٩ . **عبد الحميد بن باديس: تفسير ابن باديس**، الطبعة الأولىٰ: (بيروت، دار الكتب العلمية ١٤١٦هـ).

١٤٠ . **عبد الرحمن الخليفي: مذكرة في فقه السيرة** لطلاب المستوىٰ الأول في قسم الدعوة بكلية الدعوة والإعلام لعام ١٤١٦هـ، غير مطبوعة.

١٤١ . **عبد الرحمن بن أبي الحسن السهيلي: الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**، (بيروت: دار الفكر العربي، ١٤٠٩هـ).

١٤٢ . **عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ: مجموعة التوحيد**، طبع علىٰ نفقة الشيخ محمد العبيكان.

١٤٣ . **عبد الرحمن بن حسن بن حبنكة الميداني: مكايد يهود عبر التاريخ**، الطبعة الثانية: (بيروت: دار القلم، ١٣٩٨هـ).

١٤٤ . **عبد الرحمن بن زيد الزنيدي: حقيقة الفكر الإسلامي**، الطبعة الأولىٰ: (الرياض، دار المسلم، ١٤١٥هـ).

١٤٥ . **عبد الرحمن بن محمد الدوسري: النفاق آثاره ومفاهيمه**، الطبعة الأولىٰ: (الكويت: دار الأرقم، ١٤٠٠هـ).

١٤٦ . **عبد الرحمن بن محمد بن قاسم: الدرر السنية في الأجوبة النجدية**، الطبعة السادسة (د.ت، ١٤١٧هـ).

١٤٧. **عبد الرحمن بن ناصر السعدي: القواعد الحسان لتفسير القرآن**، (الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٠٣هـ).

١٤٨. **عبد الرحمن بن ناصر السعدي: القواعد والأصول الجامعة والفروق والتقاسيم البديعة النافعة**، (الرياض، مكتبة المعارف، ١٤٠٦هـ).

١٤٩. **عبد الرحمن بن ناصر السعدي: المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن السعدي**، (عنيزة: مركز صالح بن صالح الثقافي ١٤١١هـ).

١٥٠. **عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، (جدة: دار المدني ١٤٠٨هـ).

١٥١. **عبد الرحمن بن ناصر السعدي: المواهب الربانية من الآيات القرآنية**، الطبعة الثانية: (الرياض، رمادي للنشر ١٤١٧هـ).

١٥٢. **عبد الرحمن رأفت الباشا: العدوان علىٰ العربية عدوان علىٰ الإسلام**، الطبعة الأولىٰ: (القاهرة: دار الأدب الإسلامي، ١٤١٧هـ).

١٥٣. **عبد الرزاق بن همام الصنعاني: المصنف**، حققه حبيب الرحمن الأعظمي، الطبعة الثانية: (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ).

١٥٤. **عبد العزيز بن باز: نقد القومية العربية علىٰ ضوء الإسلام والواقع**، الطبعة الخامسة: (الرياض: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ١٤٠٣هـ).

١٥٥. **عبد العزيز الحميدي: التاريخ الإسلامي مواقف وعبر**، الطبعة الأولىٰ: (جدة: دار الأندلس الخضراء، ١٤١٧هـ).

١٥٦. **عبد العزيز الحميدي: المنافقون في القرآن الكريم**، الطبعة الأولىٰ: (جدة: دار المجتمع للنشر والتوزيع، ١٤٠٩هـ).

١٥٧. **عبد العزيز المسند: النهج المحمدي**، (الرياض: النادي الأدبي، ١٤٠٠هـ).

١٥٨. **عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة**، الطبعة الثالثة: (الإسكندرية، دار عمر بن الخطاب للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٩٥هـ).

١٥٩. **عبد الكريم بكار: فصول في التفكير الموضوعي**، الطبعة الأولىٰ: (دمشق: دار القلم، ١٤١٣هـ).

١٦٠. **عبد الله بن أحمد قادري: الشورىٰ**، (جدة: دار المجتمع للنشر والتوزيع، ١٤٠٦هـ).

١٦١. **عبد الله القصيمي: مشكلات الحديث النبوية وبيانها**، (باكستان: دار الدعوة السلفية، ١٤٠٦هـ).

١٦٢. **عبد الله بن محمد آل موسىٰ: أسباب نجاح الدعوة الإسلامية في العهد النبوي**، الطبعة الأولىٰ: (الرياض: دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ).

١٦٣. **عبد الله بن محمد الطيار: الزكاة**، (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٧هـ).

١٦٤. **عبد الله بن محمد الطيار: الصيام**، الطبعة الأولىٰ: (الرياض: مكتبة التوبة، ١٤١٢هـ).

١٦٥. **عبد المتعال بن محمد الجبري: السيرة النبوية وأوهام المستشرقين**، الطبعة الأولىٰ: (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤٠٨هـ).

١٦٦. **عبد المنعم بن صالح العلي: تهذيب مدارج السالكين لابن القيم**، (الإمارات، وزارة العدل والشؤون الإسلامية، د.ت).

١٦٧. **عثمان بن أحمد دوكلي: التدابير الواقية من التشبه بالكفار**، رسالة دكتوراه مقدمة إلىٰ قسم الدعوة بكلية الدعوة والإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.

١٦٨. **العجلوني: كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الحديث علىٰ ألسنة الناس**، حققه أحمد القلاش، الطبعة الثالثة: (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ).

١٦٩. **علي بن المتقي بن حسام الدين الهندي: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٩هـ).

١٧٠. **علي بن حسن بن عبد الحميد: الدعوة إلىٰ الله بين التجمع الحزبي والتعاون الشرعي**، الطبعة الأولىٰ: (جدة: مكتبة الصحابة، ١٤١٢هـ).

١٧١. **علي بن محمد الجرجاني: التعريفات**، الطبعة الأولىٰ: (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ).

١٧٢. **عمر بن فهد: إتحاف الورىٰ بأخبار أم القرىٰ**، حققه محمد بن فهيم شلتوت، (مكة: جامعة أم القرىٰ، ١٤٠٣هـ).

١٧٣. **العيني، محمد محمود بن أحمد: عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، (دار الفكر، د.ت).

١٧٤. **فضل إلهي: أهمية صلاة الجماعة في ضوء النصوص الشرعية وسير الصالحين**، الطبعة الأولىٰ: (باكستان: إدارة ترجمان الإسلام، ١٤١٢هـ).

١٧٥. **فضل إلهي: الحسبة** (تعريفها، مشروعيتها، حكمها)، الطبعة الأولىٰ: (باكستان: إدارة ترجمان الإسلام، ١٤١٠هـ).

١٧٦. **فضل إلهي: قصة بعث أبي بكر جيش أسامة رضي الله عنهما**، الطبعة الأولىٰ: (باكستان: إدارة ترجمان الإسلام، ١٤١٨هـ).

١٧٧. **فضل إلهي: مذكرة في تاريخ الدعوة للدراسات العليا بقسم الدعوة**، عام ١٤١٣هـ، (غير مطبوعة).

١٧٨. **القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد: الجامع لأحكام القرآن**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت).

١٧٩. **القسطلاني، أحمد بن محمد: المواهب اللدنية بالمنح المحمدية**، حققه صالح الشامي، الطبعة الأولىٰ: (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤١٢هـ).

١٨٠. **محمد أبو زهرة: خاتم النبيين**، (قطر: إدارة إحياء التراث الإسلامي، د.ت).

١٨١. **محمد أحمد جاد المولىٰ بك: محمد المثل الكامل**، (دمشق: المكتبة الأميرية، ١٩٧٢م) .

١٨٢. **محمد الأمين الشنقيطي: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، طبع علىٰ نفقة الأمير أحمد بن عبد العزيز آل سعود.

١٨٣. **محمد الأمين الشنقيطي: منهج التشريع الإسلامي وحكمته**، (المدينة، المكتبة العلمية د.ت).

١٨٤. **محمد السيد الوكيل: تأملات في سيرة الرسول**، الطبعة الأولىٰ: (جدة، دار المجتمع للنشر والتوزيع، ١٤٠٨هـ).

١٨٥. **محمد الصوياني: السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة**، الطبعة الأولىٰ: (١٤١٢هـ).

١٨٦. **محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير**، (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م)

١٨٧. **محمد الغزالي: فقه السيرة**، الطبعة الأولىٰ: (دمشق، دار القلم، ١٤٠٢هـ).

١٨٨. **محمد بن أحمد التميمي البستي: السيرة النبوية وأخبار الخلفاء**، الطبعة الأولىٰ: (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ١٤٠٧هـ).

١٨٩. **محمد بن أحمد العدوي: دعوة الرسل إلىٰ الله تعالىٰ**، (بيروت: دار الفكر، ب.ت).

١٩٠. **محمد بن أحمد باشميل: صلح الحديبية**، الطبعة الأولىٰ: (د.ت، ١٣٩٠هـ).

١٩١. **محمد بن أحمد باشميل: غزوة الأحزاب**، الطبعة الأولىٰ: (د.ت، ١٣٨٥هـ).

١٩٢. **محمد بن أحمد باشميل: غزوة بني قريظة**، الطبعة الثانية: (بيروت: دار الفكر، ١٣٩١هـ).

١٩٣. **محمد بن سعد: الطبقات الكبرىٰ**، (بيروت: دار صادر، د.ت).

١٩٤. **محمد بن سعيد القرافي: الدروس الدعوية في غزوة بني المصطلق**، (بحث تكميلي غير منشور لنيل درجة الماجستير من قسم الدعوة بكلية الدعوة بالمدينة ١٤٠٣هـ).

١٩٥. **محمد بن سعيد بن سالم القحطاني: الولاء والبراء في الإسلام**، الطبعة الثانية: (الرياض: دار طيبة للنشر، ١٤٠٤هـ).

١٩٦. **محمد بن سليمان المنصور فوري: رحمة للعالمين**، تعريب مقتدي حسن ياسين الأزهري، الطبعة الأولىٰ: (بومباي: الدار السلفية، ١٤١٠هـ).

١٩٧. **محمد بن صالح العثيمين: الشرح الممتع علىٰ زاد المستقنع**، (الرياض، مؤسسة الشيخ محمد العثيمين الخيرية).

١٩٨. **محمد بن صالح العثيمين: الضياء اللامع من الخطب الجوامع**، الطبعة الثالثة: (الرياض، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ١٤٠٣هـ).

١٩٩. **محمد بن صالح العثيمين: القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد**، (الرياض: مؤسسة الشيخ محمد العثيمين).

٢٠٠. **محمد بن صالح العثيمين:شرح العقيدة الواسطية**، الطبعة الثانية: (الدمام: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ).

٢٠١. **محمد بن صالح العثيمين: فتاوىٰ الشيخ محمد بن صالح العثيمين**، جمع أشرف بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الطبعة الأولىٰ: (الرياض، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، ١٤١١هـ).

٢٠٢. **محمد بن صالح العثيمين: مجموع فتاوىٰ ورسائل الشيخ محمد بن صالح العثيمين**، جمع وترتيب فهد بن ناصر السليمان، الطبعة الثانية: (الرياض: دار الوطن، ١٤١٣هـ).

٢٠٣. **محمد بن صالح العثيمين: تفسير جزء عم**، الطبعة الأولىٰ: (الرياض: دار الثريا ١٤٢٣هـ).

٢٠٤. **محمد بن عبد الوهاب: مختصر سيرة الرسول** ﷺ(المطبعة اليوسفية، د.ت).

٢٠٥. **محمد بن عبد الوهاب: ملحق المصنفات ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب**، (الرياض: منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية).

٢٠٦. **محمد بن محمد أبو شهبة: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة**، الطبعة الثانية: (دمشق: دار القلم، ١٤١٢هـ).

٢٠٧. **محمد مصطفىٰ الأعظمي: مغازي رسول الله لعروة بن الزبير**.

٢٠٨. **محمد بن منصور بن هاشم آل عبد الله: قبائل الطائف وأشراف الحجاز**، الطبعة الأولىٰ: (الطائف: مطابع دار الحارثي للطباعة والنشر، ١٤٠١هـ).

٢٠٩. **محمد بن ناصر الشثري: الدعوة في عهد الملك عبد العزيز رحمه الله تعالىٰ**، الطبعة الأولىٰ: (د، ١٤١٧هـ).

٢١٠. **محمد بن يوسف الصالحي الشامي: سبل الهدىٰ والرشاد في سيرة خير العباد**، حققه مصطفىٰ عبد الواحد، (مصر: المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية، ١٤١٠هـ).

٢١١. **محمد جميل زينو: منهاج الفرقة الناجية**، الطبعة العاشرة، (مصر: مطبعة مدني، ب.ت).

٢١٢. **محمد شمس الحق العظيم آبادي: عون المعبود شرح سنن أبي داود**، حققه عبد الرحمن بن محمد عثمان، الطبعة الثانية: (المدينة: المكتبة السلفية، ١٣٨٨هـ).

٢١٣. **محمد صادق عرجون: محمد رسول الله -منهج رسالة- الطبعة الأولىٰ**: (دمشق: دار القلم ١٤٠٥هـ).

٢١٤. **محمد ضياء الرحمن الأعظمي: اليهودية والمسيحية**، الطبعة الأولىٰ: (المدينة: مكتبة الدار، ١٤٠٩هـ).

٢١٥. **محمد عزة دروزه: سيرة الرسول**ﷺ(قطر: إدارة إحياء التراث الإسلامي، ب.ت).

٢١٦. **محمد عمارة: نحو أسلوب أمثل للدعوة الإسلامية**، الطبعة الثانية: (القاهرة: دار التراث العربي للطباعة والنشر، ١٤٠٦هـ).

٢١٧. **محمد فرج: العقيدة العسكرية في غزوات الرسول** ﷺ، الطبعة الثالثة: (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٧٧م).

٢١٨. **محمد نسيب الرفاعي: تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير**، (الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٠٨هـ).

٢١٩. **محمود شيث خطاب: الرسول القائد**، الطبعة الخامسة: (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٩هـ).

٢٢٠. **محمود مهدي الإستانبولي: دلائل النبوة في ضوء المعارف الحديثة**، الطبعة الأولىٰ: (الكويت: مكتبة العلا، ١٤٠٧هـ).

٢٢١. **محيي الدين شيخ زاده: حاشية محيي الدين شيخ زاده علي البيضاوي**، (بيروت: دار صادر، ب.ت).

٢٢٢. **المراغي: تفسير المراغي**، الطبعة الثانية (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٥م).

٢٢٣. **مسلم بن الحجاج القشيري: صحيح مسلم**، حققه محمد فؤاد عبد الباقي، (دار إحياء الكتب العربية، د.ت).

٢٢٤. **مناحي القناصي: معجم قبائل الحجاز**، (نقد) مقال منشور في مجلة العرب، ج١ و٢، سنة ١٥ (رجب وشعبان ١٤٠٠هـ دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر) الرياض.

٢٢٥. **المنذري: مختصر سنن أبي داود المطبوع مع معالم السنن للخطابي**، حققه محمد حامد الفقي، (بيروت: دار المعرفة، ب.ت).

٢٢٦. **مهدي رزق الله: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية**، الطبعة الأولىٰ: (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤١٢هـ).

٢٢٧. **ناصر العقل: الاتجاهات العقلانيةالحديثة**، الطبعة الأولىٰ: (الرياض: دار الفضيلة، ١٤٢٢هـ).

٢٢٨. **ناصر العقل: مناهج أهل الأهواء والافتراق والبدع وأصولهم وسماتهم**، الطبعة الثانية: (الرياض: دار الوطن ١٤١٧هـ).

٢٢٩. **النسائي: سنن النسائي المطبوعة مع شرح السيوطي**، الطبعة الأولىٰ: (بيروت: دار الفكر، ١٣٤٨هـ).

٢٣٠. **النسائي: أحمد بن شعيب: عمل اليوم والليلة**، حققه فاروق حمادة، الطبعة الأولىٰ: (الرباط: مكتبة المعارف، ١٤٠١هـ).

٢٣١. **النووي: تهذيب الأسماء واللغات**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ب.ت).

٢٣٢. **النووي: شرح صحيح مسلم** (الرياض، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، د.ت).

٢٣٣. **النووي: شرح صحيح مسلم**، تحقيق علي أبو الخير وزملائه، الطبعة الخامسة: (بيروت: دار الخير للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ).

٢٣٤. **الهيثمي، علي بن أبي بكر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، (بيروت: دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ).

٢٣٥. **الواقدي: المغازي،** حققه مارسدن جونسن، الطبعة الثالثة: (بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٤هـ).

٢٣٦. **ولفرد نورثفليد وزميله: الموسوعة النفسية فن الترويح عن النفس،** الطبعة الأولىٰ: (بيروت، دار إحياء العلوم، ١٩٨٢م)

٢٣٧. **قرار المجمع الفقهي الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي،** رقم (٦) في دورته العاشرة عام ١٤٠٨هـ، قرارات مجمع الفقه الإسلامي (مكة: رابطة العالم الإسلامي د.ت).

٢٣٨. **جريدة المسلمون الدولية،** عدد ٤٣٧ في ٢٨/ ١٢/ ١٤١٣هـ.

٢٣٩. **مجلة الأمة الصادرة عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الإسلامية بقطر،** عدد ٣٩.

٢٤٠. **مجلة البحوث الإسلامية:** الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء، الرياض.

فهرس الموضوعات

الفصل السابع

۞ الفصل الثامن ۞